دروسٌ وعبرٌ منَ الهجرةِ النَّبويَّةِ

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

((حقوق الطبع متاحة لجميع الهيئات العلمية والخيرية))

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في محكم كتابه : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠) [النساء/٩٧-١٠٠] }

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، القائل :" لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا قُوتِلَ الْكُفَّارُ."[١]

والقائل أيضاً : " لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا"[٢]

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

من الأمور المسلَّم بها أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها، بل يعوق مسارها ويشلُّ حركاتها، وجرت سنة الله في خلقه أن يقبل بعض الناس على دعوات رسله، فتنشرح صدورهم لهدايته، وأن يُعرض بعض الناس فينشأ الصراع بين الحق والباطل.

تخضع القضية بعد ذلك لشيء من الموازنة. فإن كانت الفئة المؤمنة من أتباع الحق، من القلة بحيث لا تملك إلا أن تظل مستضعفة في الأرض، فستتلقى من الفئة الكافرة ضربات لا هوادة فيها، ولن يكن للفئة المؤمنة خيار إلا أن تصبر وتتحمل كل صنوف

---

[١] – عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ وَقْدَانِ الْقُرَشِيِّ – وَكَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ السَّعْدِيِّ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا قُوتِلَ الْكُفَّارُ.صحيح ابن حبان – (ج ١١ / ص ٢٠٨) (٤٨٦٦) صحيح

[٢] – صحيح البخارى (٢٧٨٣) وصحيح مسلم (٤٩٣٨)عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما

الأذى من أجل دعوتها إلى أن يأتي أمر الله، أو تهاجر لتتمكن من الانطلاق في أرض أخرى.

ولقد قص القرآن علينا أن من الأنبياء من هاجر، منهم: سيدنا إبراهيم، ولوط، وموسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: {إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} (٩٩) سورة الصافات. وقال: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت:٢٦]. وقال: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [طه:٧٧].

وقال عن هجرة رسول الله ﷺ وأصحابه: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج:٤٠].

وقال أيضا : {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} [محمد:١٣].

فالهجرة إهدار للمصالح، وتضحية بالأموال، ونجاة بالنفس، مع شعور المهاجر بأنه مستباح منهوب، وقد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان.

روى الإمام البخاري عن خَبَّابً قالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً ، وَهْوَ فِى ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ فَقَعَدَ وَهْوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ « لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ »[٣] .

[٣] – صحيح البخارى(٣٨٥٢)

لكن مع شدة الألم وكثرة الطغيان وانتشار البطش بالمؤمنين والمؤمنات أذن رسول الله ﷺ لمن يريد الهجرة بدينه أن يتجه إلى أرض يخلى بينه وبين أداء دينه، فبدأ المسلمون يهاجرون، وهم يعرفون كل ذلك

فإدراك الماضي إدراكاً واعياً ضروري لمعرفة الطريق القويم- معرفة العدو من الصديق- معرفة كيفية التعامل مع كل حديث وجديد ، فالتزاوج بين الماضي والحاضر واستيعاب دروس الماضي والاستفادة منها وتحديد مكانة الماضي في الحاضر ضروري حتى يتم الانطلاق نحو المستقبل، وبغير ذلك تعجز الأمة عن دخول الواقع بأبعاده.

فالهجرة من وسائل التغيير وأهمها هجرة المسلم بقلبه من محبة غير الله إلى محبته ، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه، إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له.. إلى دعائه، وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. وهذا معنى قوله تعالى:{ فَفِرُّواْ إِلَى اللَّهِ }[الذاريات:٥٠].

أما هجرة النبي ﷺ وهجرة صحابته رضوان الله عليهم، فقد كانت على أساس ثابت، قائم على محبة الله تعالى ورضوانه، فأثبتوا للدنيا أجمع أنهم لدينهم ولعقيدتهم، وأنهم ليسوا للتراب، ولا للأهواء ولا للعصبيات، وأن بناءهم لا يقوم على الحجر والطين، ولا يلقي ثقله على أموال اقترفوها ولا تجارة يخشون كسادها، ولا مساكن يرضونها، بل هي العقيدة الصافية الصادقة: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله). فأدرك الغويّ أبو جهل ومن وراءه إدراك الموقن بنفسه المعارض بلسانه، أنهم لم ينازعوهم في أرض ولا في مال ولا في عقار ولا في قمار، ولا في زعامة فاشلة تهدم ولا تبني، ولا في قبَلِيَّة عمياء جهلاء، بل نازعوهم في تلك العقيدة التي حملوها، وحملوا على عاتقهم نشرها والدعوة إليها رغم أنف أبي جهل ومن معه.

فهاجروا وتركوا الأرض والديار والأهل؛ ولكن الإيمان أصيل يملأ القلوب، وآي التنزيل تنير لهم دُهْمَة (ظبمة) الليالي، وراية التوحيد تفتح أمامهم طرقاً كانت ضيقة،

وتزيح أمامهم عراقيل الجبال الشوامخ، فإذا أفقُ طيبةَ الطيبة يتلألأُ من بعيد وهو قريب، طابت بخير قادم عليها، فهام أوسها وخزرجها على روابيها بصدور رحبة، تحيي الأمين وصحبه فرحة بخير قادم عليها، والمحبة أوثق العرى مع من ربطتهم به (لا إله إلا الله، محمد رسول الله).[٤]

إنَّ هذا الحدث الذي غير مجرى التأريخ، الحدث الذي يحمل في طياته معاني الشجاعة والتضحية والإباء، والصبر والنصر والفداء، والتوكل والقوة والإخاء، والاعتزاز بالله وحده مهما بلغ كيد الأعداء، إنه حدث الهجرة النبوية الذي جعله الله سبحانه طريقا للنصر والعزة، ورفع راية الإسلام، وتشييد دولته، وإقامة صرح حضارته، فما كان لنور الإسلام أن يشع في جميع أرجاء المعمورة لو بقي حبيسا في مهده، ولله الحكمة البالغة في شرعه وكونه وخلقه.

إن في هذا الحدث العظيم من الآيات البينات والآثار النيرات والدروس والعبر البالغات ما لو استلهمته أمة الإسلام اليوم وعملت على ضوئه وهي تعيش على مفترق الطرق لتحقق لها عزها وقوتها ومكانتها وهيبتها، ولعلمت علم اليقين أنه لا حل لمشكلاتها ولا صلاح لأحوالها إلا بالتمسك بإسلامها والتزامها بعقيدتها وإيمانها، فوَالذي بعث محمدا بالحق بشيرا ونذيرا ما قامت الدنيا إلا بقيام الدين، ولا نال المسلمون العزة والكرامة والنصر والتمكين إلا لما خضعوا لرب العالمين، وهيهات أن يحل أمن ورخاء وسلام إلا باتباع نهج الأنبياء والمرسلين. إذا تحقق ذلك أيها المسلمون، وتذكرت الأمة هذه الحقائق الناصعة وعملت على تحقيقها في واقع حياتها كانت هي السلاح الفاعل الذي تقاتل به والدرع الحصين الذي تتقي به في وجه الهجمات الكاسحة والصراع العالمي العنيف، فالقوة لله جميعا، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.[٥]

---

[٤] – انظر موسوعة خطب المنبر – (ج ١ / ص ٢٣٦٤)

[٥] – انظر موسوعة خطب المنبر – (ج ١ / ص ٢٣٣٣)

وفي هذا الكتاب دروس وعبر كثيرة التقطتها من هنا وهناك ، من أجل النظر فيها ، والانتفاع بمضمونها ، فما أحوجنا لها في هذه الأيام العصيبة التي تمر بالأمة الإسلامية في كل مكان ، فعَنْ ثَوْبَانَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ. فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا الْوَهَنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ. سنن أبى داود(٤٢٩٩) وهو صحيح

وقد بينت مصادرها في بدايتها أو نهايتها ، وهي كثيرة بحمد الله تعالى .

وقد تركتها في الغالب –كما هي– وقمت بفهرستها على الورد ، ووضعها في الشاملة ٣ ، ليعم النفع بها .

هذا وقد كنت كتبت كتابا كبيرا حول أحكام الهجرة وهو **(المفصل في أحكام الهجرة)** وهو في مكتبة صيد الفوائد، وفي مشكاة ، تحدثت فيه بالتفصيل عن الأحكام الشرعية المتعلقة بالهجرة .

أسأل الله تعالى أن ينفع به جامعه وقارئه وناشره والدال عليه في الدارين .

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنَّة

علي بن نايف الشحود

في ٢٧ شعبان ١٤٢٩ هـ الموافق ل ٢٠٠٨/٨/٢٩ م

أسباب الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأحبة في الله : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

لا شك أن حدثا مثل الهجرة النبوية حين تكون تاريخا للأمة لا شك أنها حدث عظيم في تاريخها ونقطة تحول في حياتها .. فالهجرة فرقت بين الحق والباطل ، وميزت بين الخير والشر ..

حولت ضعف المسلمين إلى قوة ، وذلهم إلى عزة ، وعجزهم إلى قدرة .

وكما يقولون : إن لكل شيء سببا ، فللهجرة النبوية أيضا أسباب ، وهما سببان :

١) شدة الأذى والاضطهاد الذي كان يتعرض له النبي ﷺ هو وأصحابه من كفار قريش .

٢) قبول أهل المدينة الإسلام ودخولهم فيه .

السبب الأول : شدة الإيذاء والاضطهاد من كفار قريش لرسول الله ﷺ ..

حقيقة : لقد أوذي النبي ﷺ إيذاء شديدا لم يتعرض له نبي من الأنبياء السابقين ..

من أنواع الإيذاء : كان المشركون يسخرون منه ويحتقرونه ، ويستهزؤون به ويكذبونه ، فكانوا ينادونه بالمجنون كما قال الله تعالى عنهم : وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون.

كانوا يقولون عنه انه ساحر كذاب ، كما قال تعالى : وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب .

كانوا يستقبلونه بنظرات استحقار ، كما قال سبحانه : {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} (٥١) سورة القلم .

كانوا يشوهون تعاليمه الشريفة ويثيرون حولها الشبهات ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا .

وقالوا عن القران الكريم : إن هذا إلا إفك افتراه ... وكانوا يقولون أيضا : إنما يعلمه بشر .

وقالوا عن الرسول ﷺ : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق .

من أنواع الإيذاء ابيضا : إنهم عرضوا على النبي ﷺ ان يتنازل عن بعض تعاليمه ويتركون هم بعض ما عليه مثل المفاوضات فنزل قوله تعالى : ودوا لو تدهن فيدهنون .

وأيضا عرضوا على النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدون الله تعالى سنة فنول قوله سبحانه : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون .

من أنواع الإيذاء أن أبا لهب وهو عم النبي ﷺ أمر ولديه عتبة وعتيبة أن يطلقا ابنتي النبي ﷺ رقية وأم كلثوم لما جاء بالدعوة وكان قد كتب كتابهما فقط .

وأيضا : لما توفي عبد الله وهو الابن الثاني للنبي ﷺ استبشر أبو لهب وقال لقومه : ابشروا فان محمدا قد صار ابترا يعني ليس له ولد يحمل ذكره من بعده . فنزل قوله تعالى : إن شانئك هو الأبتر .

وكانت زوجة أبي لهب وهي أخت أبي سفيان كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ، ولذلك وصفها القران الكريم بأنها حمالة الحطب .

من أنواع الإيذاء أيضا : إنهم وضعوا رحم الشاة وهو يصلي كما وضع عقبة بن أبي معيط سلا الجزور على ظهره الشريف وهو ساجد ﷺ حتى جاءت فاطمة فطرحته عن ظهره .

وكان أمية بن خلف إذا رأى الرسول ﷺ همزه ولمزه ، ونزل فيه قوله تعالى : ويل لكل همزة لمزة .

وكذلك الأخنس بن شريق كان ممن ينال من النبي ﷺ ، فوصفه الله تعالى في القران بتسع صفات : ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم .

أما أبو جهل رأس الكفر والشرك فقد كان ينهى النبي ﷺ عن الصلاة فنزل فيه قوله تعالى : أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ...

وفي يوم أراد أن يطأ رسول الله ﷺ بقدمه ويعفر وجهه في التراب لكن الله تعالى حال بينه وبين ما يريد .

ومرة أخرى حمل أبو جهل لعنه الله حجرا كبيرا ليضرب به النبي ﷺ وهو ساجد لكن الله تعالى منعه من ذلك .

من أنواع الإيذاء انه في يوم اجتمع عليه عشرة رجال وأحاطوا به فهذا يجذبه والأخر يدفعه والثالث يضربه حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه فدفعهم عن رسول الله ﷺ

كما أنهم غيروا اسمه الشريف ﷺ من محمد إلى مذمم .

من أشد أنواع الإيذاء التي تعرض لها النبي ﷺ : الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنوات حتى أكلوا أوراق الشجر فصارت مخرجاتهم وفضلاتهم مثل الدواب حتى أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وجد في ليلة جلدة شاة فأخذها فوضعها على النار حتى تفحمت ثم أكلها وظل عليها ثلاث ليال لا يأكل شيئا .

من أنواع الإيذاء أنهم حاولوا قتل النبي ﷺ عدة مرات ، ففي يوم الخميس ٢٦ صفر سنة ١٤ من البعثة اجتمع سبعة من كبار كفار قريش في دار الندوة وجاءهم الشيطان في صورة شيخ يريد نصحهم ودار نقاش طويل فقال احدهم : نحرجه من بيننا وننفيه من بلادنا .

فقال الشيطان : لا والله ما هذا لكم برأي الم تروا حسن حديثه وحلاوة كلامه والله لو فعلتم ذلك فسينزل على حي من العرب فيتبعوه فيسير بهم إليكم فيقاتلوكم .

فقال أبو البختري : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه الباب حتى يموت . فقال الشيطان : لا والله ، لئن حبستموه ليخرجن من وراء الباب .

فقال أبو جهل : أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا جلدا قويا فنعطي كل فتى منهم سيفا صارما فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف

على حربكم فيرضوا منا بالدية . هذا عن السبب الأول ويعتبر هو السبب الرئيسي من أسباب الهجرة .

السبب الثاني : قبول أهل المدينة الإسلام ودخولهم فيه :

كان من عادة النبي ﷺ وحكمته أن يعرض الإسلام على القبائل بالليل ، وفي موسم الحج سنة ١١ من البعثة خرج النبي ﷺ مع أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب إلى منى فسمع أصوات رجال يتكلمون وكانوا ستة نفر من شباب المدينة وكانت تسمى يثرب .

فعرض النبي ﷺ الإسلام عليهم فاسلموا ، وحملوا الإسلام إلى أهل المدينة حتى لم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه ذكر لرسول الله ﷺ .

في موسم الحج سنة ١٢ جاء ١٢ رجلا وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الأولى . وأرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير معهم غالى المدينة .

في موسم الحج سنة ١٣ من البعثة جاء ٧٣ رجلا وامرأتان وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية . وبذلك أصبح للإسلام قواعد وأرضية صلبة يستند عليها في المدينة .

ونواصل الحديث في اللقاء القادم إن شاء الله عن أهم الدروس المستفادة من قصة الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .. والله ولي التوفيق .

أهمية المخابرات . . في صفوف العدو

إن بث العيون والمخابرات في صفوف أعداء المسلمين ، وخصوم الحركة الإسلامية : أمر تحتمه الظروف وطبيعة العلاقة الأبدية بين أنصار الحق من جهة وأنصار الباطل من جهة أخرى ، فضلا عن أنها معاملة بالمثل : حيث إن هؤلاء الأعداء الخصوم ، لا يسكتون عن محاولات بث عيونهم بين المسلمين ، واختراق صفوفهم ؛ لضربهم . . كسرا لشوكتهم ، ومنعا أو إعاقة لهم عن بلوغ أهدافهم ، وتحقيق غاياتهم فلا أقل من أن يكون المسلمون بعامة ، وأبناء الحركة بخاصة : على مستوى حماية هذه الدعوة ، وشرف تبليغها ، ورفع رايتها ، وإعلاء شأن أتباعها ، بكل الوسائل المشروعة الممكنة .

ومن هذه الوسائل : بث عيونهم ومخابراتهم في صفوف أعدائهم ، وخصومهم .

حيث إنه : لابد من التعرف مباشرة على كل أسرار العدو ومخططاته وتوقعاته ، بحيث تصل إلى القيادة أولا بأول ، فتكون المتابعة ، قائمة على خبرة بالواقع ، لا على الظن التخمين ، الذي قد يخطئ ويصيب . " ٥٩ "

وهذا ما فعله النبي ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة .

ففي البخاري : " . . . ثم لحق الرسول ﷺ ، وأبو بكر ، بغار في جبل ثور ، فمكثا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر ، وهو : غلام ، شاب ، ثقف ، لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمرا يكتادان به ، إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك ، حين يختلط الظلام . . " الحديث " ٥٣ "

وما كان أغنى من رسول الله ﷺ عن هذا الأمر ، وهو الذي يوحي إليه ، ويكشف له ربه سبحانه عن خططهم ومخططاتهم . . ! !

ولكنه : التدريب لهذه الجماعة المؤمنة الوليدة ، التي تحيط بها سهام الأعداء من كل جانب . . ! !

ولكنه : التعليم لهذه الأمة المؤمنة ، التي سوف يتربص بها الأعداء ، وتحيط بها سهامهم ، في كل عصر ، وفي كل مصر .

ولكنه : التنبيه لأبناء الحركة الإسلامية على هذا الأمر الذي ينبغي عليها أن تعيه جيدا ، وأن لا تهمله أو تقصر فيه أبدا ، إن كانت جادة ، في أداء الأمانة ، ورفع الراية .

ولكنه : التكليف لقادة الحركة الإسلامية بدراسة هذا الأمر ، وإعطائه بالغ اهتمامها ؛ إذ كلما كانت القيادة أعلم بواقع العدو ، وأدرى بأسراره ، ولها في صفوفه من ينقل إليها كل تخطيطاته : كلما كان ذلك أنجح لها في تنفيذ خططها ومخططاتها وأنجع لها في توقى سهامه وإبطال ضرباته .

وهذا أمر : يجب عدم إغفاله أو التهاون فيه ، في السراء والضراء ، في الصفاء والكدر ، في عظيم الأمور وصغيرها ، فقد تنقلب السراء _ غدا أو فجأة _ إلى ضدها ، وقد يتحول الصفاء _ غدا أو فجأة _ إلى عكسه ، وقد يكون صغير الأمور مقدمة إلى عظائمها ، والقائد _ بل المؤمن _ العاقل من لا يستهين بأي شئ لصالح دعوته .

وينبغي لمن يكلف بمثل هذه الأمور : أن يمتلك من الصفات ما يعينه على النجاح في مهمته ، وأن يؤديها تعبدا لله تعالى ، ومرضاة له سبحانه ، لا انتظارا لمغنم ، ولا طمعا في مكسب ، ولا ثأرا لشيء أصابه ،

وفي حديث البخاري : ما يوضح بعض هذه الصفات المطلوبة لهذه المهمة ، ثم يضاف إليها ما قد تدعو إليه الضرورة وتقتضيه الظروف الخاصة ، بشرط : أن لا يرتكب المكلف بهذه المهمة مخالفة شرعية ، كأن يطلع على عورات ، أو يقترف محرمات ، أو يهمل في أداء الواجبات .

ومن المهم جدا : أن لا يؤدي أحد هذه المهمة دون اختيار له وتكليف من القيادة ، وإلا صار الأمر فضولا وفوضى ، وقد يحدث لأبناء الدعوة ما لا تحمد عقباه .

ولا مانع _ بل إنه لمن اللازم _ أن تكون هناك ، لدى المسلمين ، وأبناء الحركة على وجه الخصوص ، دراسات جادة في هذا الموضوع وأمثاله ، توضح : أهميته ، وأساليب ممارسته . و . . الخ على أن تعد هذه الدراسات من قبل متخصصين فيها ،

عالمين بها ، وليس هذا بالمستحيل ، حيث إن هذه الدراسات تقوم بها كل الدول ، ولها مدارس كثيرة .

كما أنه لا مانع _ بل إنه من اللازم _ أن تكون هناك دورات دراسية وتدريبية لمن يختارون للقيام بهذه المهام ، وتتوافر فيهم مؤهلات النجاح فيها .

كما أنه لا مانع _ بل إنه من اللازم _ أن يقيم هؤلاء الأفراد ، وقد يوظفون ، أو . . أو . . الخ لدى هؤلاء الأعداء أو الخصوم ، لتقريبهم من مصادر المعلومات ، وأماكن صنع القرارات ، والتيسير عليهم في أداء مهمتهم .

كل ذلك : بشرط أن لا ينحرف المسلمون عامة وأبناء الحركة خاصة ، فيما تستتبعه هذه الأعمال من مخالفات شرعية ، أو ممارسات لا أخلاقية ، أو أية أمور غير ذلك ، مما هو معروف أو غير معروف ، فيما يسمى بعالم " الجاسوسية "

هذا . .

وإن هذا الدرس لا تقتصر فائدته على الأمة أو الجماعات فقط ، بل إنه لمن الممكن أن يستفيد به الفرد _ على شرط المحافظة على ضوابطه الشرعية _ مع أية خصوم له ؛ رغبة فقط في الوقاية من شرهم ، والنجاة من أضرارهم ، وليس توصلا لإيذائهم ، أو النيل منهم .

أهمية دور المرأة المسلمة

المرأة : نصف المجتمع (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) "٩٠ " ، ويقول سبحانه كذلك (أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) "٩١ "

وهي هدية الله تعالى _ قدمها على غيرها _ لمن يشاء (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) "٩٢ "

وهي : باب من أبواب الجنة إذا أحسن إليها ، وبولغ في إكرامها ، " من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو ابنتان أو أختان فأحسن صحبتهن ، واتقى الله فيهن : فله الجنة " "٩٣ "

بل إن الجنة نفسها : تحت قدميها ، يقول ﷺ " الجنة تحت أقدام الأمهات " "٩٤ "
وهي : صانعة الأجيال ، ومربية الأبطال ،

الأم مدرسة إذا أعددتها . . . أعددت شعبا طيب الأعراق

ولذلك . . ! !

ففي طهارتها : طهارة المجتمع ونظافته .

وفي الإحسان إليها : سعادة المجتمع وبهجته .

وفي تعليمها : وعي المجتمع ورقيه .

وفي حسن تربيتها : نجاح المجتمع وفلاحه .

ومن هنا . . يجب الاهتمام بها ، وعدم الإهمال لها ، أو التقليل من شأنها ، أو الإغفال لدورها ، أو الإهدار لجهودها .

وإذا كان ذلك بصفة عامة : فهو بالنسبة لها في مجال الدعوة إلى الله تعالى ، ونشر هذا الدين ، ونصرته ، بصفة خاصة ؛ أكد وأولى وأوجب .

نستفيد ذلك من الهجرة على النحو التالي :

أ _ فهي التي كانت على مستوى المسئولية ، والقدرة على كتمان السر ، والفوز بتزكية أبي بكر لها أمام رسول الله ﷺ في معرفة أمر خطير ، حجب عن كثير من الرجال ، حينما طلب النبي ﷺ من أبي بكر إخراجهما .

ب _ وهي التي كانت على مستوى المسئولية ، والقدرة على التمويه عن جدها ، حينما وضعت حجارة في حائط بالبيت وغطتها ، وأوهمته أنها أموالا تركها لهم أبوهم ، أبو بكر ، قبل هجرته ، وذلك حتى يطمئن جدها عليهم في حال غياب أبي بكر عنهم ، وهي تقول _ في نفسها _ والله ما ترك لنا شيئا ، ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك . "٩٥ "

ج _ وهي التي كانت على مستوى المسئولية ، والقدرة على الصمود في مواجهة بطش " فرعون " عصرهم ، أبي جهل حينما جاء ليعرف منها مكان المهاجرين ، فأنكرت معرفتها ، وتأبت على جبروته ، ولم تخش ظلمه وطغيانه ؛ مما أغضبه ،

ودفعه لأن يلطمها على وجهها الشريف ، وخلف من بعده خلف اتبعوه ، واقتدوا بـــه في تعذيب النساء المسلمات الصالحات القانتات الصامدات .

د _ وهي التي كانت على مستوى المسئولية ، والقدرة على التضحية وتحمل المشاق ، حينما ذهبت للنبي ﷺ وأبيها بالغار مع بعد الطريق ، ومشقة المشوار ، وخطـــورة الحركة إلى هذا المكان ، حاملة لهما سفرتهما ، خلال رحلتهما ، دون خوف ، مـــن اكتشاف لأمرها ، أو اعتقال تتعرض له ، أو تعذيب ينالها ، وهي تـــدرك جيـــدا أن بعض ذلك _ بل كله _ محتمل جدا .

ه _ وهي التي كانت على مستوى المسئولية ، والقدرة على حسن التصرف ، وسرعة البديهة ، حينما لم تجد ما تعلق به السفرة في الراحلة ، إذ شقت نطاقهـــا ، وربطـــت السفرة بنصف ، وانتطقت بالأخر ، ولذا سميت بذات النطاقين .

و _ وهي التي كانت على مستوى المسئولية ، والقدرة على الحركة والسفر الشـــاق المضني من المدينة إلى مكة لملاقاة الرسول ﷺ ، في بيعة العقبة .

كما حدثت من السيدتين العظيمتين " أم عمارة " ، " أم منيع "

ز _ وهي التي كانت على مستوى المسئولية ، والقـــدرة علـــى الحركـــة الســـرية ، والتخفي التام ، والتسلل كالقطا من رحال القوم في جنح الليل مع رجال مـــن قومهـــا للقاء الحبيب ﷺ ، ومبايعته في بيعة العقبة ، بمنى .

ومما ينبغي ملاحظته جيدا : أن السيدة أسماء بنت أبي بكر ، لم تكـــن هـــي المـــرأة الوحيدة في المسلمات _ آنئذ _ هي المهيأة لذلك ، أو المستعدة ، أو المضحية ، لهـــذا العمل ، بل كان هناك الكثير والكثير ، ولكن لظروف السرية التي أحاطت بالهجرة ، لم يكتب هذا الشرف _ بل لم يجلب هذا الشرف _ لواحدة من بنات حـــواء إلا لهـــذه السيدة العظيمة ، التي رفعت قدر المرأة ومكانتها عاليا .

وهي نفس الملحوظة بالنسبة لهاتين السيدتين ، أم عمارة ، وأم منيع .

ولذلك ، ومن هذا الدرس : علينا أن نعيد النظر في علاقة المرأة بالدعوة الإسلامية ، وموقفها منها ، ودورها فيها ، بشرط : وضوح الفرق بين واجباتها وواجبات الرجال

، وبين ما يناط بها وما يناط بالرجال ، وما يطلب منها وما يطلب من الرجال ، وما تختص هي به ، وما لا يقوم به إلا الرجال ، على ضوء ما يمليه التشريع الإسلامي في هذا الخصوص ، وما يتطلبه واقع الدعوة الإسلامية _ تحت هذا الإطار ، وهذا الحصار _ في هذا العصر .

بدلا من هذا الإغفال ، وهذا الإهمال ، الذي يؤدي بدوره إلى ضياع فرص للدعوة كثيرة ، وإلى تفويت منافع على المجتمع المسلم _ رجالا ونساء _ كبيرة .

فليست المرأة كالرجل _ كما يقول منافقوها _ سواء بسواء ، حتى تقوم بكل شئ ، وتمارس كل شئ ، وبالتالي تفشل في كل شئ ، أو على الأقل في أهم شئ ، وهو دورها الذي خلقت له .

وليست المرأة كما مهملا ، حتى تبعد عن كل شئ ، ولا تمارس _ فيما يخص الدعوة _ أي شئ ، وبالتالي نفشل نحن في الإفادة من أعز شئ ، وهو نصف المجتمع .

وعلى الحركة الإسلامية أن تسارع في فتح ملف " المرأة المسلمة " ودراسته جيدا ، في ضوء ما يكشفه الدين ، وتقدمه النماذج الإسلامية الرائدة ، وليس في غبش ما قيده الواقع مما أطلقه الدين ، أو أطلقه الواقع مما قيده الدين .

وذلك . . حتى تستفيد المرأة المسلمة ، _ ونستفيد من المرأة المسلمة _ في ظلال ديننا السمح الحنيف .

وإلا فستظل الجمعيات العالمية ، المشبوهة وغير المشبوهة تلعب بعواطف المرأة ، وتدغدغ أحاسيسها بدعوات : ظاهرها الرحمة ، وباطنها من قبله الدمار والعذاب .

****

أهمية مبادئ الإدارة في الدعوة

بقلم: نبيل بن جعفر الفيصل

إن الدعوة إلى الله (سبحانه وتعالى) هي الأساس الذي قامت عليه هذه الأمة ونهضت به، وإذا نظرنا في تاريخ الدعوة منذ بعثته وجدنا أنها كانت تسير ضمن عملية إدارية محكمة، بلغت في تخطيطها وتنظيمها وتربيتها للسلوك الإنساني ذروتها.

وكما أن حركة الدعوة الإسلامية مطالبة بدراسة التجارب التي مرت بها عبر القرون للاستفادة منها بحكمة ــ بعد تقييمها وعرضها على الكتاب والسنة وإجماع السلف ــ فكذلك هي مطالبة أيضاً بالاستفادة بكل مايعينها لتحقيق هدفها.

ونستعرض هنا بإيجاز العملية الإدارية من منظورها النظري، وكيفية ملاءمة هذه العملية بوصفها أداة تعين في النهوض بالدعوة. ومع العلم ، فإن نجاح تطبيق وظائف الإدارة المختلفة في مجالات الدعوة مرهون بتصور واستيعاب القارئ لتطبيق هذه الوظائف في حياته الدعوية: فمثلاً عندما نتحدث عن إدارة الوقت من الناحية النظرية ، فإنا نقوم خلالها بتحديد الأعمال المطلوبة وترتيبها في قائمة حسب الأولوية والأهمية ، وتحديد وقت لكل مهمة ومراجعة وتحديث القائمة باستمرار ، ثم تقييم ماتم إنجازه حسب الوقت المخصص لكل مهمة ودقة الإنجاز وعمل التعديل اللازم.. إلى غير ذلك من التوجيهات الخاصة بإدارة وتنظيم الوقت.

وإذا تصورنا هذه التوجيهات من الناحية العملية ، نجد أننا فعلاً نقوم بمثل هذا التخطيط للوقت بصورة غير مباشرة ، فتجد أنك تلقائياً وقبل شروعك في إنجاز مهمة ما تفكر ذهنياً وبسرعة متى يجب عليك الانطلاق ، وكيف؟ ومع من؟ وأي طريق ستسلك؟ ، وأثناء الطريق ستفكر ماذا ستفعل عند وصولك وإلى أين ستذهب بعد ذلك.. إلخ.

هذا ما نقصده بالتصور التطبيقي للعملية الإدارية: أي أن ننقلها من الوضع النظري إلى الواقع العملي.

ماهي العملية الإدارية؟

إن الإدارة بحد ذاتها هي: عملية دمج وتنسيق الموارد المادية (كالمعدات والأدوات) ، والبشرية (الأفراد) في منشأة من خلال التخطيط لها وتنظيمها وتوجيهها ومراقبة إنتاجها؛ لتحقق بالتالي أهداف المنشأة.

كل جهاز دعوي على اختلاف مستوياته لابد له من الاستفادة من علم التخطيط والتنظيم والتوجيه والمراقبة ، أو ما يسمى بالوظائف ، وبالتالي شرح هذه الوظائف

وكيفية الاستفادة منه ، خاصة إذا استحضر الإداري المسلم في قلبه وكيانه أنه في إدارته مدفوع بذاتية ربانية ونبوية المنهج ، تقوده للتفكير السليم القويم كسمة يتميز بها عن غيره.

أولاً: التخطيط:

هو »ضرورة لكل المنشآت ؛ لأنها تعمل في ظروف متغيرة ، ومن ثم فإن محاولة التخفيف من مفاجآت هذه الظروف هو الدافع وراء عملية التخطيط ، كما أنه عملية مستمرة تدعو لاختيار بديل من عدة بدائل لتطبيقه في المستقبل« (١) ونحدد من خلاله مانريد أن نعمله ، وما الذي يجب عمله ، وأين؟ وكيف؟ ومتى؟ وعن طريق مَنْ؟

والتخطيط للدعوة يبدأ من المنطلق الاستراتيجي (الإحكامي) البعيد المدى عن طريق القياديين ومفكري الأمة: مثل ماحصل في خطة صلح الحديبية ذات النظرة البعيدة الذي يعده بعض المؤرخين بداية الفتح الإسلامي الفعلي ، »ثم على الخطة أن تتسم بالواقعية والمرونة والشمولية وكذلك تناسق الخطط فيما بينها لضمان استمراريتها«(٢).

ثانياً: التنظيم:

يأتي دور التنظيم لضمان تنفيذ الخطط بالشكل المطلوب ، أو بمعنى آخر تنظيم التنفيذ دون الارتباك في توزيع العمل ، والتنظيم مهم لتحديد مهام وواجبات كل الأفراد ــ أعضاء المنشأة ــ وكذلك تحديد وبيان علاقة كل فرد وأين موقعه من الجماعة ، وتوزيع السلطات والصلاحيات لمستويات الأفراد المختلفة ؛ كل ذلك من أجل إيجاد تنسيق بشري يساهم فيه كل فرد لإنجاح مسيرة العمل الإسلامي ، ولنا من الهجرة النبوية إلى المدينة درس يمثل غاية التنظيم والتنسيق لإحكام خطة الهجرة ، وتوزيع العمل والمسؤوليات على الأفراد حسب تخصصهم دون فوضى ، وعمل الاحتياطات اللازمة لكل حادث قد يصادف تلك الرحلة. وبالإخلاص وتظافر الجهود تتحقق الأهداف المنشودة بإذن الله.

ومن السابق يمكن تعريف التنظيم بأنه: عملية بناء العلاقات بين أجزاء العمل ، ومواقع العمل ، والأفراد من خلال سلطة فعالة بهدف تحقيق الالتحام والترابط وأداء العمل بطريقة جماعية منظمة وفعالة (٣).

ثالثاً: التوجيه والقيادة:

إن للتوجيه الإداري ارتباطاً وثيقاً بمهارات القياديين؛ لذا هو: »فن وقدرة المدير على السير الصحيح بمن تحت إمرته وهدايتهم وتوجيهم مع إشاعة روح الود والحب والرضا والتفاني والانتماء في العمل حتى يتحقق الهدف المطلوب« (٤).

ولنجاح عملية التوجيه ينبغي مراعاة الاتصال الفعال الذي يربط قنوات النظام الداخلي والخارجي مع وضوح أهداف النظام الكلية والأهداف المطلوب تحقيقها من كل فرد يعمل لهذا النظام على اختلاف مستواه.

أضف إلى ذلك رفع الروح المعنوية للأفراد العاملين في مجال الدعوة من تقديم التشجيع والثناء والمزيد من الحرية والتصرف ، ناهيك عن الدافع الديني الذاتي لدى كل من يفهم معنى الدعوة وحجم الاستثمار فيها ، ولايفوتنا الإشارة للتوجيه الرباني لكل من القائد وأتباعه ((مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)) [الفتح: ٢٩].

رابعاً: الرقابة:

والرقابة بمفهومها العام تعني التأكد من أن المبادئ الآنفة الذكر ــ التخطيط ، التنظيم، التوجيه ــ تسير في الاتجاه الصحيح نحو الأهداف المرسومة ، ويكون ذلك بقياس الأداء ومقارنة النتائج بالأهداف ضمن معايير موضوعة سلفاً لتصحيح وتعديل أي انحراف في الأداء ضماناً لفاعلية وكفاءة التنفيذ.

ولعل أبرز ما يتسم به الإداري المسلم الرقابة الذاتية على نفسه ، فهي تشمل كافة شئون الحياة الفردية والجماعية ، حيث يعلم أنه خلق لعبادة الله وحده ، وبالتالي فإن جميع أفعاله ــ إدارية أو دعوية ــ مقياس لمدى طاعته لأوامر الله ، ثم محاسبة نفسه قبل أن يحاسبه خالقه ، يقول تعالى: ((إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء: ١].

والمسلم كذلك مطالب برقابة أخيه المسلم بالتناصح والتوجيه يقول (تعالى) ((وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ)) [التوبة: ٧١].

وإن كان ترتيب الرقابة في النظرية الإدارية في النهاية ، إلا أني أعتقد أن عنصر الرقابة هو العنصر الأول والملازم للعملية من بداية التخطيط وأثناء التنظيم والتوجيه وانتهاء بالتأكد من تحقيق الهدف المطلوب.. وبذلك يعي الإداري المسلم مدى نجاح دعوته المستمدة من الكتاب والسنة بتوفيق الله كسمة يجب أن يتميز فيها عن غيره.

الهوامش:

(١) الإدارة دراسة تحليلة للوظائف والقرارات الإدارية د. مدني عبد القادر علاقي، مطبوعات تهامة ، جدة ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٠هـ ص ٨٥.

(٢) الخطة والتخطيط ، لماذا وكيف، نبيل بن جعفر الفيصل، مطابع التسهيلات، الخبر، ١٤١٣هـ ص ١٧: ٢٠.

(٣) مرجع سابق ، رقم (١) ص ١٥٦.

(٤) الإدارة في الإسلام،الفكر والتطبيق، د.عبدالرحمن إبراهيم الضحيان، دار الشروق، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ص ١٦٦.

مجلة البيان / عدد٩٦

****

إذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة

قال ابن سعد فى طبقاته يروى عن عائشة رضى الله عنها : لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه ‘ فقد جعل الله له منعة وقوماً وأهل حرب وعدة ونجدة ‘ وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج ‘ فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ‘ ونالوا ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ‘ فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه فى الهجرة ‘ فقال : (قد أخبرت بدار

هجرتكم وهى يثرب ‘ فمن أراد الخروج فليخرج إليها) فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك ‘ فكان أول من قدم المدينة من أصحابه ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر ابن ربيعة ومعه امرأته بنت أبى حشمة ‘ فهى أول ظعينة قدمت المدينة ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً فنزلوا على الأنصار فى دورهم ‘ فآووهم ونصروهم وآسوهم .

ولم يهاجر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إلا متخفياً غير عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ‘ فقد روى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه لمّا همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ‘ وانتضى فى يده أسهماً ‘ واختصر عنزته (عصاه) ومضى قبل الكعبة ‘ والملأ من قر يش بفنائها فطاف فى البيت سبعاً متمكناً مطمئناً ‘ ثم أتى المقام فصلى ‘ ثم وقف فقال :(شاهت الوجوه ‘ لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ‘ من أراد أن يثكل أمه ‘ أو ييتم ولده ‘ أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى)

قال علىّ فما أتبعه إلا قوم مستضعفون علّمهم ما أرشدهم ثم مضى لوجهه .

وهكذا تتابع المسلمون في الهجرة إلى المدينة حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلىّ ‘ أو معذب محبوس ‘ أو مريض ‘ أو ضعيف عن الخروج .

العبر و العظات :

كانت فتنة المسلمين من أصحاب النبى ﷺ فى مكة ‘ فتنة الإيذاء و التعذيب وما يرونه من المشركين من ألوان الهزأ و السخرية ‘ فلما أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة ‘ أصبحت فتنتهم فى ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم ‘ ولقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم ‘ أمام الفتنة الأولى و الثانية ‘ قابلوا المحن والشدائد بصبر ثابت وعزم عنيد .

حتى إذا أشار عليهم رسول الله بالهجرة إلى المدينة ‘ توجهوا إليها وقد تركوا من ورائهم الوطن وما لهم فيه من مال ومتاع ونشب ‘ ذلك أنهم خرجوا مستخفين متسللين ‘ ولا يتم ذلك إلا إذا تخلصوا من الأمتعة و الأثقال ‘ فتركوا كل ذلك فى مكة

ليسلم لهم الدين ، واستعاضوا عنها بالأخوة الذين ينتظرونهم فى المدينة ليؤووهم وينصرونهم .

وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الذى أخلص الدين لله : لا يبالى بالوطن ولا بالمال و النشب فى سبيل أن يسلم له دينه . هذا عن أصحاب رسول الله فى مكة .

أما أهل المدينة الذين آووهم فى بيوتهم وواسوهم ونصروهم ، فقد قدموا المثل الصادق للأخوة الإسلامية و المحبة فى الله تعالى .

وأنت خبير أن الله عز وجل قد جعل أخوة الدين أقوى من أخوة النسب وحدها ، ولذلك كان الميراث فى صدر الإسلام على أساس وشيجة الدين ، وأخوته والهجرة فى سبيله ، ولم يستقر حكم الميراث على أساس علاقة القرابة إلا بعد تكامل الإسلام فى المدينة وصارت للمسلمين دار إسلام قوية منيعة .

يقول الله عز وجل : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٧٢) سورة الأنفال. ثم إنه يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان شرعيان :

١- وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وروى ابن العربى (أن هذه الهجرة كانت فرضاً فى أيام النبى ﷺ ، وهى باقية مفروضة إلى يوم القيامة . والتى انقطعت بالفتح ، إنما هي القصد إلى النبى ﷺ ، فإن بقى فى دار الحرب عصى) ومثل دار الحرب فى ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان ، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة .

وما يستدل على ذلك قوله تعالى :(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا ؟ فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال و النساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) .

٢- وجوب نصرة المسلمين لبعضهم مهما اختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكناً ، فقد اتفق العلماء و الأئمة على أن المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين ، فى أي جهة من جهات الأرض ، ثم لم يفعلوا ذلك فقد باءوا بإثم كبير .

يقول أبو بكر العربى : إذا كان فى المسلمين أسراء أو مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة و النصرة لهم واجبة بالبدن ، بأن لا تبقى منا عين تطرف ، حتى نخرج الى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا فى استخراجهم ، حتى لا يبق لا لأحد درهم من ذلك .

وكما تجب موالاة المسلمين ونصرتهم لبعضهم ، فإنه يجب أن تكون هذه الموالاة فيما بينهم ، ولا يجوز أن يشيع شيء من الولاية و التناصر أو التآخى بين المسلمين وغيرهم ، وهذا ما يصرح به كلام الله عز وجل ، إذ يقول :(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض و فساد كبير).

يقول ابن العربى قطع الله الولاية بين الكفار و المؤمنين ، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم .

ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم الإلهية ، هى أساس نصرة المسلمين فى كل عصر وزمن ، كما أن إهمالهم لها وانصرافهم إلى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم وتفككهم وتألب أعدائهم عليهم من وكل جهة وصوب .

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

جاء فى صحاح السنة وما رواه علماء السيرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما وجد المسلمين قد تتابعوا مهاجرين الى المدينة ، جاء يستأذن رسول الله ﷺ هو الآخر فى الهجرة ، فقال له رسول الله ﷺ :(على رسلك ، فإني أرجو أن يؤذن لى) فقال أبو بكر :(وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟) قال :(نعم) فحبس أبو بكر نفسه على

رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ، وأخذ يتعهدهما بالرعاية أربعة أشهر .

وفى هذه الأثناء رأت قريش أن رسول الله ﷺ صارت له شيعة وأصحاب غيرهم بغير بلدهم ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وخافوا أن يكون قد أجمع لحربهم . فاجتمعوا له فى دار الندوة (وهى دار قصى ابن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها) يتشاورون فيما يصنعون بأمر رسول الله ﷺ ، فاجتمع رأيهم أخيراً على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً ، ثم يعطى كل منهم سيفاً صارما ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، كى لا تقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً ، وضربوا لذلك ميعاد يوم معلوم فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ يأمره بالهجرة ، وينهاه أن ينام فى مضجعه تلك الليلة .

قالت عائشة رضى الله عنها فيما يروى البخارى : فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى حر الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر :(هذا رسول الله ﷺ متقنعاً ، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها) فقال أبو بكر :(فداً أبى وأمى ، والله ما جاء فى هذه الساعة إلا لأمر) قالت : فجاء رسول الله ﷺ ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبى بكر : (أخرج من عندك) فقال أبة بكر :(إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله) ، قال رسول الله ﷺ :(فإنى قد أذن لى فى الخروج) فقال أبو بكر : (الصحبة يارسول الله) ، قال رسول الله ﷺ :(نعم) فقال أبو بكر :(فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى) ، قال رسول الله ﷺ : (بالثمن) .

قالت عائشة : فجهزناهما أحث جهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق .

وانطلق رسول الله ﷺ إلى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شىء يخشى عليه إلا استودعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمون من

صدقه وأمانته . وأمر أبو بكر غبنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقوله الناس عنهما فى بياض النهار ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون معه من أخبار . وأمر عامر ابن فهيرة (مولاه) أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى إلى الغار (غار ثور) ليطعما من ألبانها ،وأمر أسماء بنته أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما فى كل مساء .

وروى ابن إسحاق والإمام أحمد ، كلاهما عن يحى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير ، عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر ، إحتمل أبو بكر ماله كله معه : خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم ، قالت وانطلق بها معه ، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت :كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كيثراً ، قالت: فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت يا أبت ضع يدك على هذا المال ، فقالت: فوضع يده عليه ، قال : لابأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكنى أردت أن أسكت الشيخ بذلك .

ولما كانت عتمة تلك الليلة التى هاجر فيها النبى ﷺ أجتمع المشركون على باب رسول اله ﷺ يتربصون به ليقتلوه ، ولكنه عليه الصلاة و السلام خرج من بينهم وقد ألقى الله عليهم سنة من النوم بعد أن ترك عليّاً رضى الله عنه فى مكانه نائماً على فراشه ، وطمأنه بأنه لن يصل إليه أى مكروه

وانطلق رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر إلى غار ثور ليقيما فيه ، وكان ذلك على الراجح فى اليوم الثانى من ربيع الأول الموافق ٢٠ أيلول سنة (٦٢٢ م) بعد أم مضى ثلاثة عشر سنة من البعثة ، فدخل أبو بكر قبل رسول الله ﷺ فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حيّة ، يقى رسول الله صلى اله عليه وسلم بنفسه ، فأقاما فيه ثلاثة أيام ، وكان يبيت عندهما عبد الله ابن أبى بكر يخبرهما بأخبار مكة ، ثم يدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها ، وكان عامر ابن فهيرة يروح

عليهما بقطيعه من الغنم ، فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع عامر أثره بالغنم كى لا يظهر لقدميه أثر .

أما المشركون فقد انطلقوا – بعد أن علموا بخروج رسول الله ﷺ – ينتشرون فى طريق المدينة يفتشون عنه فى كل المظان ، حتى وصلوا إلى غار ثور ، وسمع رسول الله ﷺ وصاحبه أقدام المشركين تخفق من حولهم فأخذ الروع أبا بكر وهمس يحدث النبى ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ، فأجابه عليه الصلاة و السلام :(يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما) ...

فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لأحد منهم التفاتة الى ذلك الغار ولم يخطر ببال واحد منهم أن يتساءل عما يكون بداخله .

ولما انقطع الطلب عنهما خرج رسول الله ﷺ وأبا بكر ، بعد أن جاءهما عبد الله ابن أرقط وهو من المشركين ، كانا قد استأجراه ليدلهما على الطرق الخفية الى المدينة بعد أن اطمأنا إليه ، وواعداه مع الراحلتين عند الغار) فسارا متبعين طريق الساحل بإرشاد من عبد الله بن أرقط ، وكان قد جعل مشركوا مكة لكل من أتى برسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه ديّة كل منهما . وذات يوم ، بينما كان جماعة من بنى مدلج فى مجلس لهم ، وبينهم سراقة ابن جعشم ، إذ اقبل إليهم رجل منهم فقال : إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل ، أراها محمداً و أصحابه ، فعرف سراقة أنهم هم ، ولكنه أراد أن يثنى عزم غيره عن الطلب ، فقال له : إنك قد رأيت فلاناً و فلانا ، انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم . ثم لبث فى المجلس ساعة ، وقام فركب فرسه ثم سار حتى دنا من رسول الله فعثرت به فرسه فخرّ عنها ، ثم ركبها ثانية وسار حتى صار يسمع قراْءة النبى صلى اله عليه وسلم وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، فساخت قائمتا فرس سراقة فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت ، فلم تكد تخرج قدميها حتى سطع لأثرهما غبار ارتفع فى السماء مثل الدخان ، فعلم سراقة أنه ممنوع من رسول الله ﷺ ، وداخله رعب عظيم ، فناداهما بالأمان .فوقف رسول الله ﷺ ومن معه حتى وصل إليهم ، فاعتذر إليه وساله أن

يستغفر له ‘ ثم عرض عليهما الزاد و المتاع ‘ فقالا : لا حاجة لنا ‘ ولكن عمّ عنا الخبر ‘ فقال كفيتم .

ثم عاد سراقة أدراجه إلى مكة وهو يصرف أنظار الناس عن الرسول ومن معه بما يراه من القول

وهكذا انطلق إليهما فى الصباح جاهداً فى قتلهما ‘ وعاد فى المساء يحرسهما ويصرف الناس عنهما .

قدوم قباء

ووصل رسول الله ﷺ قباء ‘ فاستقبله من فيها بضعة أيام نازلاً على كلثوم ابن هدم ‘ حيث أدركه فيها على رضى الله عنه بعد أن أدى عنه الودائع إلى أصحابها ‘ وأسس النبى ﷺ هناك مسجد قباء ‘ وهو المسجد الذى وصفه الله بقوله {... لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} (١٠٨) سورة التوبة .

ثم واصل سيره إلى المدينة فدخلها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول على ما ذكره المؤر خون فالتف حوله الأنصار ‘ كل يمسك زمام راحلته يرجوه النزول عنده فكان ﷺ يقول لهم : دعوها فإنها مأمورة فلم تزل راحلته تسير فى فجاج المدينة وسككها حتى وصلت الى مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار أمام دار أبى أيوب الأنصارى ‘ فقال النبى ﷺ :(ههنا المنزل إن شاء الله) وجاء أبو أيوب فاحتمل الرحل إلى بيته ‘ وخرجت ولائد من بنى النجار – فيما يرويه ابن هشام – فرحات بمقدم رسول الله ﷺ ‘ وجواره لهن ‘ وهنّ ينشدنّ

نحن جوار بنى النجار يا حبذا محمد من جار

فقال عليه السلام لهنّ : (أتحببننى ؟) فقلن : نعم فقال : الله يعلم أن قلبى يحبكنّ)

صورة عن مقام النبى ﷺ فى دار أبى أيوب :

روى أبو بكر ابن أبى شيبة وابن إسحاق و الإمام أحمد ابن حنبل من طرق متعددة بألفاظ متقاربة أن أبا أيوب رضى الله عنه قال وهو يحدث عن أيام رسول الله ﷺ

عنده : لما نزل رسول الله ﷺ فى بيتى فى أسفل البيت وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له : يانبى الله بأبى أنت و أمى إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى الأعلى ، وننزل نحن نكون فى السفل ، فقال : يا أبا أيوب ، إنه لأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت .

قال : فكان رسول الله ﷺ فى سفله وكنا فوقه فى المسكن ، ولقد انكسرت جرّة لنا فيها ماء يوما ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ، تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شىء فيؤذيه ، فنزلت إليه وأنا مشفق ، فلم أزل أستعطفه حتى أنتقل إلى العلو . قال : وكنا نضع له العشاء ، ثم نبعث به إليه ، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً وثوماً ، فرده رسول الله ﷺ ولم أر ليده فيه أثر ، فجئته فزعاً فقلت يا رسول الله بأبى أنت و أمى ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيمم أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة ، فقال : إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجى ، فأما أنتم فكلوه ، قال : فأكلناه ، ثم لم نضع فى طعامه شيئاً من الثوم أو البصل بعد .

العبر و العظات :

تحدثنا فى فصل سابق ، عن معنى الهجرة فى الإسلام ، عند تعليقنا على هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة ، وقلنا إذ ذاك ما خلاصته : إن الله عز وجل جعل قداسة الدين و العقيدة فوق كل شىء ، فلا قيمة للأرض و الوطن و المال و الجاه إذا كانت العقيدة وشعائر الدين مهددة بالحرب و الزوال ، ولذا فرض الله على عباده أن يضحوا بكل ذلك – إذا اقتضى الأمر – فى سبيل العقيدة و الإسلام .

وقلنا أيضا أن سنة الله تعالى فى الكون اقتضت أن تكون القوى المعنوية التى تتمثل فى العقيدة السليمة و الدين الحق هى المحافظة للمكاسب و القوى المادية ، فمهما كانت الأمة غنية فى خلقها السليم متمسكة بدينها الصحيح فإن سلطانها المادى المتمثل

فى الوطن والمال و العزة يغدو أكثر تماسكاً وأرسخ بقاءاً وأمنع جانباً . ومهما كانت فقيرة فى أخلاقها مضطربة تائهة فى عقيدتها فإن سلطانها المادى المتمثل فيما ذكرناه يغدو أقرب إلى الاضمحلال و الزوال ، وقلنا إن التاريخ أعظم شاهد على ذلك .

ولذلك شرع الله عز وجل مبدأ التضحية بالمال و الأرض فى سبيل العقيدة و الدين عندما يقتضى الأمر ، فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال و الطن و الحياة ، وإن بدا لأول وهلة أنهم تعروا عن كل ذلك وفقدوه

وحسبنا دليلاً على هذه الحقيقة هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، لقد كانت بحسب الظاهر تركاً للوطن وتضييعاً له ، ولكنه كان فى واقع الأمر حفاظاً عليه وضمانة له ، ورب مظهر من مظاهر الحفاظ على الشىء يبدو فى صورة الترك و الإعراض عنه فقد عاد بعد بضع سنين من هجرته هذه – بفضل الدين الذى أقام صرحه ودولته – إلى وطنه الذى أخرج منه ، عزيز الجانب ، منيع القوة ، دون أن يستطيع أحد من أولئك الذين تربصوا به ولاحقوه بقصد القتل أن يدنوا إليه بأى سوء ...

ولنعد الآن الى التأمل فيما سردناه من قصة هجرته ﷺ لنستنبط منها الدلالات والأحكام الهامة لكل مسلم :

١– من أبرز ما يظهر لنا من قصة هجرة الرسول ﷺ ، استبقاؤه لأبى بكر رضى الله عنه دون غيره من الصحابة كى يكون رفيقه فى هذه الرحلة .

وقد استنبط العلماء من ذلك مدى محبة الرسول ﷺ لأبى بكر وأنه أقرب الصحابة إليه وأولاهم بالخلافة من بعده ، ولقد عززت هذه الدلالات أموراً كيثرة أخرى مثل استخلافه له فى الصلاة بالناس عند مرضه وإصراره على أن لا يصلى عنه غيره ، ومثل قوله فى الحديث الصحيح :(لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا)

ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه – كما رأينا – على مستوى هذه المزية التى أكرمه اله بها ، فقد كان مثال الصاحب الصادق بل و المضحى بروحه وبكل ما يملك من أجل رسول الله ﷺ ، ولقد رأينا كيف أبى إلا أن يسبق رسول الله فى دخول الغار كى

يجعل من نفسه فداءاً له عليه الصلاة و السلام فيما إذا كان فيه سبع أو حية أو أى مكروه ينال الإنسان منه الأذى ، ورأينا كيف جند أمواله وأولاده ومولاه وراعى أغنامه فى سبيل خدمة رسول الله ﷺ فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة . ولعمرى إن هذا ما ينبغى أن يكون عليه شأن كل مسلم آمن بالله ورسوله ، ولذا يقول رسول الله صلى اله عليه وسلم :(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده و الناس أجمعين)

٢- قد يخطر فى بال المسلم أن يقارن بين هجرة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وهجرة النبى ﷺ ويتساءل : لماذا هاجر عمر علانية متحدياً المشركين دون أى خوف ووجل ، على حين هاجر رسول الله مستخفياً محتاطاً لنفسه ؟ أيكون عمر ابن الخطاب أشد جرأة من النبى ﷺ ؟

و الجواب أن عمر ابن الخطاب أو أى مسلم آخر غير رسول الله ﷺ يعتبر تصرفه تصرفاً شخصياً لا حجة تشريعية فيه ، فله أن يتخير من الطرق و الوسائل و الأساليب ما يحلو له وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى ، أما رسول الله ﷺ فهو مشرّع ، أى أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعاً لنا ، ولذلك كانت سنته هى المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى مجموع أقواله و أفعاله وصفاته وتقريره ، فلو أنه فعل كما فعل عمر ، لحسب الناس أن هذا هو الواجب ! ... وأنه لايجوز أخذ الحيطة و الحذر ،والتخفى عند الخوف ، مع أن الله عز وجل أقام شريعته فى هذه الدنيا على مقتضى الأسباب و المسببات ،وإن كان الواقع الذى لا شك فيه أن ذلك بتسبيب الله تعالى و إرادته ، لأجل ذلك غستعمل رسول الله ﷺ كل الأسباب المادية التى يهتدى إليها العقل البشرى فى مثل هذا العمل ، حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل إلا اعتد بها واستعملها ، فترك على ابن أبى طالب ينام فى فراشه ويتغطى ببرده ، واستعان بأحد المشركين – بعد أن أمنه- ليدله على الطرق الفرعية التى قد لا تخطر فى بال الأعداء ، وأقام فى الغار ثلاثة أيام متخفياً ، إلى آخر ما عبأه من الاحتياطات المادية التى قد يفكر بها العقل ، ليوضح بذلك أن الإيمان

بالله عز وجل لا ينافى استعمال الأسباب المادية التى أرادت حكمة الله تعالى أن تكون أسباباً .

وليس قيامه بذلك بسبب خوف فى نفسه ، أو شك فى إمكان وقوعه فى قبضة المشركين قبل وصوله المدينة ، والدليل على ذلك أنه عليه الصلاة و السلام بعد أن استنفد الأسباب المادية كلها ، وتحلق المشركون حول الغار الذى يختبىء فيه رسول الله ﷺ وصاحبه – بحيث لو نظر احدهم عند قدمه لأبصر الرسول ﷺ – استبد الخوف بابى بكر رضى الله عنه على حين كان يطمئنه عليه الصلاة و السلام قائلاً : يا أبا بكر : ما ظنك بإثنين الله ثالثهما) ولقد كان من مقتضى اعتماده على كل تلك الاحتياطات أن يشعر بشىء من الخوف و الجزع فى تلك الحال .

لقد كان كل ما فعله من تلك الاحتياطات إذاً وظيفة تشريعية قام بها ، فلما انتهى من أدائها ، عاد قلبه مرتبطاً بالله تعالى معتمداً على حمايته وتوفيقه ، ليعلم المسلمون أن الاعتماد فى كل أمر لا ينبغى أن يكون إلا على الله عز وجل ، ولكن لا ينافى ذلك احترام الأسباب التى جعلها الله فى هذا الكون أسباباً . ومن أبرز الأدلة على هذا الذى نقوله أيضاً ، حالته ﷺ عندما لحق به سراقة يريد قتله وأصبح على مقربة منه ، لقد كان من مقتضى تلك الاحتياطات الهائلة التى قام بها أن يشعر بشىء من الخوف من هذا الذى يجد فى اللحاق به بل كان مستغرقاً فى قراءته ومناجاته ربه لأنه يعلم أن الله الذى أمره بالهجرة سيمنعه من الناس ويعصمه من شرهم كما بين فى كتابه المبين .

٣– وفى تخلف علىّ رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى أداء الودائع التى كانت عنده الى أصحابها دلالة باهرة على التناقض العجيب الذى كان المشركون واقعين فيه ، ففى الوقت الذى كانوا يكذبونه ويرونه ساحراً أو مخادعاً لم يكونوا يجدون من حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالهم التى يخافون عليها إلا عنده ...! وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم فى صدقه ، وإنما هو بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذى جاء به وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم .

٤- ثم إننا نلمح فى النشاط الذى كان يبذله عبد الله ابن أبى بكر رضى الله عنه ‘ ذاهباً آيباً بين الغار ومكة ‘ يتحسس الأخبار و ينقلها الى رسول الله ﷺ وأبيه ‘ وفيما عمدت إليه أخته أسماء رضى الله عنها من الجد فى تهييء الزاد و الراحلة واشتراكها فى إعداد العدة لتلك الرحلة – نلمح فى ذلك صورة مما يجب أن يكون عليه الشباب المسلم ذكوراً وإناثاً فى سبيل الله عز وجل ومن أجل تحقيق مبادىء الإسلام وإقامة المجتمع المسلم ‘ فلا يكفى أن يكون الإنسان منطوياً على نفسه مقتصراً على عباداته ‘ بل عليه ان يستنفد طاقاته وأوجه نشاطه كلها سعياً فى سبيل الإسلام ‘ وتلك هى مزية الشباب فى حياة الإسلام و المسلمين فى كل زمن وعصر .

وإذا تأملت فيمن كان حول رسول الله ﷺ إبان دعوته وجهاده ‘ وجدت أن أغلبيتهم العظمى كانوا شباباً لم يتجاوزوا المرحلة الأولى فى عمر شبابهم ‘ ولم يألوا جهداً فى تجنيد طاقاتهم وقوتهم من أجل نصرة الإسلام وإقامة مجتمعه .

٥- أمّا ما حدث لسراقة وفرسه وهو يلحق لبرسول الله ﷺ فينبغى أن لا يفوتنا أنها معجزة خارقة لرسول الله ﷺ اتفق أئمة الحديث على صحتها ونقلها وفى مقدمتهم البخارى ومسلم ‘ فأضفها إلى معجزاته الأخرى التى سبق الحديث عنها فيما مضى .

٦- ومن أبرز المعجزات الخارقة فى قصة هجرته عليه الصلاة و السلام خروجه ﷺ من بيئته وقد أحاط به المشركون يتربصون به ليقتلوه ‘ فقد علق النوم بأعينهم جميعاً حتى لم يحس به أحد منهم ‘ وكان من تتمة السخرية بتآمرهم على حياته ما امتلأت به رؤسهم من التراب الذى ألقاه رسول الله ﷺ على رؤوسهم إذ خرج من بينهم وهو يتلو قوله تعالى :(وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون)

لقد كانت هذ ه المعجزة بمثابة إعلان لهؤلاء المشركين وغيرهم فى كل عصر ووقت ‘ بأن ما قد يلاقيه الرسول وصحبه من ألوان الاضطهاد و العذاب على أيديهم مدة من الزمن فى سبيل دينه ‘ لا يعنى أنه قد تخلى عنهم وأن النصر قد ابتعد عن

متناولهم ‘ فلا ينبغى للمشركين وعامة أعداء الدين أن يفرحوا ويستبشروا بذلك ‘ فإن نصر الله قريب وإن وسائل هذا النصر توشك أن تتحقق بين كل لحظة وأخرى

٧- وتكشف الصورة التى استقبلت بها المدينة المنورة رسول الله ﷺ عن مدى المحبة الشديدة التى كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالاً و نساءاً وأطفالاً ‘ لقد كانوا يخرجون كل يوم إلى ظاهر المدينة ينتظرون تحت لفح الشمس وصول رسول الله ﷺ إليهم ‘ حتى إذا هبّ النهار ليدبر ‘ عادوا أدراجهم ليعودوا إلى الانتظار صباح اليوم التالى ‘ فلما طلع الرسول عليهم جاشت العواطف فى صدورهم وانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد و الأهازيج فرحاً لمرآه عليه الصلاة و السلام ومقدمه عليهم ‘ ولقد بادلهم رسول الله صلى اله عليه وسلم نفس المحبة ‘ حتى إنه جعل ينظر إلى ولائد بنى النجار من حوله ‘ وهنّ ينشدنّ ويتغنين بمقدمه ‘ قائلاً : أتحببننى ؟ والله إن قلبى ليحبكنّ

يدلنا كل ذلك أن محبة رسول اله ﷺ ليست فى مجرد الإتباع له ‘ بل المحبة له هى أساس الإتباع وباعثه ‘ فلولا المحبة العاطفية فى القلب لما وجد وازع يحمل على الإتباع فى العمل .

ولقد ضل قوم حسبوا أن محبة رسول الله ﷺ ليس لها معنى إلا الإتباع و الإقتداء وفاتهم أن الإقتداء لا يأتى إلا بوازع ودافع ‘ ولن تجد من وازع يحمل على الإتباع إلا المحبة القلبية التى تهز المشاعر وتستبد بالعواطف ‘ ولذلك جعل رسول الله ﷺ مقياس الإيمان بالله امتلاء القلب بمحبته ﷺ ‘ بحيث تغدو متغلبة على محبة الولد والوالد و الناس أجمعين ‘ وهذا يدل على أن محبة رسول الله ﷺ من جنس محبة الولد و الوالد أى مصدر كل منهما العاطفة و القلب وإلا لم تصح المقارنة و التفضيل بينهما .

٨- أما الصورة التى رأيناها فى مقامه ﷺ عند أبى أيوب الأنصارى فى منزله ‘ فتكشف لنا مظهر آخر من مظاهر محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه والسلام له .

والذى يهمنا من ذلك هنا ‘ هو التأمل فى تبرك أبو أيوب وأم أيوب ‘ بآثـــار أصـــابع رسول الله ﷺ فى قطعة الطعام ‘ حينما كان يرد عليهما فضل طعامه ‘ إذاً فـــالتبرك بآثار النبى ﷺ مشروع قد أقره ﷺ .

وقد روى البخارى ومسلم صوراً كثيرة من تبرك الصحابة بآثار النبى ﷺ و التوسل بها للإستشفاء أو العناية و التوفيق وما شابه ذلك .

من ذلك ما رواه البخارى فى كتاب اللباس ‘ فى باب ما يذكر فى الشيب ‘ من أن أم سلمة زوج النبى ﷺ كانت تحتفظ بشعرات من شعر النبى ﷺ فى جلجل لهـــا (مـــا يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانته) فكان إذا أصاب أحد من الصحابة عين أو أذى أرسل إليها إناء فيه ماء ‘ فجعلت الشعرات فى الماء ‘ ثم أخذوا الماء يشـــربونه توسلا للاستشفاء و التبرك به .

ومن ذلك ما رواه مسلم فى كتاب الفضائل باب (طيب عرقه ﷺ) أنه عليه الصلاة و السلام كان يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست هى فى البيت ‘ فجاء ذات يوم فنام على فراشها ‘ فجاءت أم سليم وقد عرق رسول الله ﷺ واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدها فجعلت تنشف ذلـــك العـــرق فتعصـــره فـــى قواريرها ‘ فأفاق النبى ﷺ فقال: ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت يا رسول الله : نرجو بركته لصبياننا ‘ قال : أصبت)

ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين من استباق الصحابة إلى فضل وضوئه ﷺ و التبرك بالكثير من آثاره كألبسته و القدح الذى كان يشرب به .

فإذا كان هذا شأن التوسل بآثاره المادية فكيف بالتوسل بمنزلته عند اللع عـــز وجـــل وكيف بالتوسل بكونه رحمة للعالمين ؟

ولا يذهبن بك الوهم إلى أننا نقيس التوسل على التبرك ‘وأن المسألة لا تعدو أن تكون استدلالا بالقياس ‘ فإن التوسل و التبرك كلمتان تدلان على معنى واحد وهو التمـــاس الخير و البركة عن طريق المتوسل به . وكل من التوســـل بجاهـــه ﷺ عنـــد الله و التوسل بآثاره أو فضلاته أو ثيابه ‘ أفراد وجزئيات داخلة تحت نوع شامل هو مطلق

التوسل الذى ثبت حكمه بالأحاديث الصحيحة ، وكل الصور الجزئية له يدخل تحت عموم النص بواسطة ما يسمى ب (تنقيح المناط) عند علماء الأصول .

ولنكتف من تعليقنا على قصة هجرته ﷺ عند هذا القدر ، لنتحدث بعد ذلك عن الأعمال الجليلة التى بدأ يقوم بها ﷺ فى المجتمع الجديد فى المدينة المنورة .

أسس المجتمع الجديد

الأساس الأول (بناء المسجد)

لقد كانت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، تعنى نشاة أول دار إسلام إذ ذاك على وجه الأرض ، وقد كان ذلك إيذاناً بظهور الدولة الإسلامية بإشراف منشئها الأول محمد ﷺ

ولذا فقد كان أول عمل قام به الرسول ﷺ ، أن أقام الأسس الهامة لهذه الدولة ولقد كانت هذه الأسس ممثلة فى هذه الأعمال الثلاثة التالية :

أولاً : بناء المسجد

ثانياً : المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار خاصة و المسلمين عامة .

ثالثاً : كتابة وثيقة (دستور) حددت نظام حياة المسلمين فيما بينهم ، وأوضحت علاقتهم مع غيرهم بصورة عامة و اليهود بصورة خاصة .

قلنا فيما مضى : إن ناقة رسول الله ﷺ بركت فى موضع كان لغلامين يتيمين من الأنصار ، وكان أسعد ابن زرارة قد اتخذه مصلى قبل هجرة رسول الله ﷺ الى المدينة ، فكان يصلى بأصحابه فيه . فأمر رسول الله ﷺ أن يبنى ذلك الموضع مسجداً ، ودعا الغلامين – وكانا فى كفالة أسعد ابن زرارة رضى الله عنه – فساام رسول الله ﷺ فيه ، فقالا بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير . وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور قديمة لبعض المشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت و بالنخل وبالشجر فقطعت ، وصفّت فى قبلة المسجد ، وجعل طوله مما يلى القبلة الى مؤخرته مائة ذراع ، وفى الجانبين مثل ذلك أو دونه ، ثم بنوه باللبن ، وكان رسول الله ﷺ يباشر البناء مع أصحابه وينقل معهم

الحجارة بنفسه ‘ وجعل قبلته إلى بيت المقدس ‘ وجعل عمده الجذوع ‘ وسقفه بالجريد ‘ وقيل له : ألا نسقفه ؟ فقال : (عريش كعريش موسى : خشيبات وثمام – نبت ضعيف قصير – الشأن أعجل من ذلك ‘أما أرضه فقد بقيت مفروشة بالرمال و الحصباء .

وروى البخارى فى سنده عن أنس ابن مالك ‘ أنه ﷺ كان يصلى حيث أدركته الصلاة فى مرابض الغنم ‘ قال ثم إنه أمر ببناء المسجد ‘ فأرسل الى ملأ من بنى النجار فجاؤوا ‘ فقال يابنى النجار ثامنونى بحائطكم هذا ‘ فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا الى الله ‘ فقال أنس فكان فيه ما أقول لكم ‘ : كانت فيه قبور المشركين وكانت فيه خرب ‘ وكان فيه نخل . فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ثم بالخرب فسويت وبالنخل فقطع ‘ قال فصفوا النخل قبلة المسجد قال : وجعلوا عضادتيه حجارة وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم وهو يقول : اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار و المهاجرة .

وقد ظل مسجد رسول الله ﷺ على هذا الشكل دون أى زيادة أو تغيير فيه مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه ‘ ثم زاد فيه عمر رضى الله عنه بعض التحسين ‘ ولكنه بناه على بنائه فى عهد الرسول ﷺ باللبن و الجريد وأعاد عمده خشباً . ثم غيره عثمان رضى الله عنه فزاد فيه زيادة كبيرة ‘ وبنى جداره بالحجارة المنقوشة و القصة (الجص) .

العبر و الدلائل :

بأخذ من هذا الذى ذكرناه دلائل هامة نجملها فيما يلى :

١– مدى أهمية المسجد فى المجتمع الإسلامى و الدولة الإسلامية :

فقد أقبل رسول الله ﷺ ‘ بمجرد وصوله الى المدينة واستقراره فيها على إقامة مجتمع إسلامى متماسك راسخ ‘ يتألف من هؤلاء المسلمين : المهاجرين و الأنصار الذين جمعتهم المدينة المنورة ‘ فكان أول خطوة قام بها فى سبيل هذا الأمر ‘ بناء المسجد .

ولا غرو ولا عجب ، فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة فى بناء المجتمع الإسلامى ، ذلك أن المجتمع الإسلامى إنما يكتسب صفة الرسوخ و التماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته و آدابه ، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيه .

إن من نظام الإسلام وآدابه شيوع آصرة الأخوة و المحبة بين المسلمين ، ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم إلا فى المسجد ، فما لم يتلاق المسلمون يومياً ، على مرات متعددة فى بيت من بيوت الله ، وقد تساقطت عما بينهم فوارق الجاه و المال و الاعتبار ، لا يمكن لروح التآلف و التآخى أن تؤلف بينهم .

إن من نظام الإسلام وآدابه ، أن تشيع روح المساواة و العدل فيما بين المسلمين فى مختلف شؤونهم وأحوالهم ، ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن يتم ما لم يتلاق المسلمون كل يوم صفاً واحداً بين يدى الله عز وجل ، وقد وقفوا على صعيد مشترك من العبودية ، وتعلقت قلوبهم بربهم الواحد جل جلاله ، ومهما أنصرف كل مسلم الى بيته يعبد الله ويركع له ويسجد دون وجود ظاهرة الاشتراك و الاجتماع فى العبادة ، فإن معنى العدالة و المساواة لن يتغلب فى المجتمع على معانى الأثرة والتعالى و الأنانية.

وإن من نظام الإسلام وآدابه ، أ، ينصهر أشتات المسلمين فى بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذى هو حكمه وشرعه ، ولكن ما لم تقم فى أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بهما عن معرفة وعلم ، فإن وحدتهم تؤول الى أشتات ، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات و الأهواء .

فمن أجل تحقيق هذه المعانى كلها فى مجتمع المسلمين ودولتهم الجديدة ، أسرع رسول الله ﷺ قبل كل شىء فبادر إلى بناء المسجد .

٢- حكم التعامل مع من لم يبلغوا سن الرشد من الأطفال و الأيتام :

فقد استدل بعض الفقهاء وهم الحنفية بهذا الحديث على صحة تصرف غير البالغ ووجه الدلالة على ذلك أن النبى ﷺ اشترى المربد من الغلامين اليتيمين ، بعد أن

ساومهما ، ولو لم يصح تصرفهما لما اشترى منهما ، غير أن الذين ذهبوا الى عدم صحة تصرف غير البالغ سن الرشد- وهم جمهور الفقهاء- استدلوا بقول الله تعالى :(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) أما حديث شراء المربد فيجاب عليه بجوابين :

أحدهما- أنه جاء فى رواية عيينة أن النبى ﷺ كلم عمهما الذى كانا فى حجره وكفالته وابتاعه منهما بواسطته فلا حجة فيه لما ذهب إليه الحنفية .

ثانيهما – أن للنبى ﷺ ولاية خاصة فى مثل هذه الأمور ، وأنه عليه الصلاة و السلام إنما اشترى الأرض منهما بوصف كونه ولياً عاماً لجميع المسلمين ، لا بوصف كونه فرداً منهم .

٣- جواز نبش القبور الدارسة : واتخاذ موضعها مسجداً إذا نظفت وطابت أرضها :

ذكر الإمام النووى تعليقاً على هذا الحديث فقال : فيه جواز نبش القبور الدارسة وأنه إذا أزيل ترابها المختلط بصديدهم ودمائهم جازت الصلاة فى تلك الأرض ، وجواز اتخاذ موضعها مسجداً ، إذا طيبت أرضه.

كما أن الحديث يدل على أن الأرض التى دفن فيها الموتى ودرست ، يجوز بيعها وأنها باقية على ملك صاحبها وورثته من بعده إذا لم توقف ، وقد قال علماء السيرة عن تلك القبور التى كانت فى المربد أنها كانت قبوراً قديمة دارسة ، فلا يتأتى فيها الصديد و الدم ، ومع ذلك فقد نبشت وأزيل ما فيها من بقايا . قلت : ومحل جواز نبش القبور الدارسة واتخاذ أرضها مسجداً ، إذا لم تكن الأرض وقفاً ، أما إذا كانت كذلك فلا يجوز تحويلها إلى شىء آخر غير ما وقفت له .

٤- حكم تشييد المساجد ونقشها وزخرفتها :

و التشييد أن تقام عمارة المسجد بالحجارة وشبهها مما يزيد فى قوة بنائه ومتانة سقفه وأركانه ، والنقش و الزخرفة ما جاوز أصل البناء من شتى أنواع الزينة .

فأما التشييد فقد أجازه واستحسنه عامة العلماء ، بدليل ما فعله عمر و عثمان رضى الله عنهما من إعادة بناء مسجده عليه الصلاة و السلام ، وهو وإن كان شيئاً لم يفعله

رسول الله ﷺ إلا أنه لم يدل على المفهوم المخالف ، أى المنع من التشييد و التقوية ، إذ لا يتعلق بهما وصف يخل بالحكمة التى من أجلها شرع بناء المساجد، بل إن فى ذلك زيادة فى العناية والاهتمام بشعائر الله تعالى . واستدل العلماء أيضاً على ذلك بقوله تعالى :(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الآخر) والعمارة إنما تكون بالتشييد وتقوية البناء و العناية به .

وأما النقش و الزخرفة ، فقد كرهها عامة العلماء ، ثم هم فى ذلك بين محرّم ومكرّه ، غير أن الذين قالوا بالحرمة و الذين قالوا بالكرهة اتفقوا على أنه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شىء من الزخرفة و النقش ، أما إذا كان المال المصروف على ذلك من البانى نفسه فيرد الخلاف فيه ، وقد ذكر الزركشى نقلاً عن الإمام البغوى أنه لا يجوز نقش المسجد من غلة الوقف ، ويغرّم القيم إن فعله ، فلو فعله رجل بماله كره لأنه يشغل قلب المصلين .

والفرق بين عموم التشييد وخصوص الزخرفة و النقش واضح .

فالأول كما قلنا لا يترتب عليه وصف أو معنى يخل بالحكمة التى من أجلها شرع بناء المسجد ، أما الزخرفة و النقش فإن كلاً منهما يترتب عليه معنى يخل بالحكمة ، إذ من شأنه صرف قلب المصلين عن الخشوع و التدبر وشغله بمظاهر الدنيا ، على حين أنه يقصد من الدخول فى المسجد الهرب من التصورات الدنيوية وتفريغ البال من زينتها و مغرياتها .

وهذا ما نبه إليه عمر رضى الله عنه حينما أمر ببناء مسجد فقال :(أكنّ الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر ، فتفتن الناس) ، وقد اختلف العلماء فى كتابة آية من القرآن فى قبلة المسجد هل هى داخلة فى النقش الممنوع أم لا ؟ .

يقول الزركشى فى كتابه إعلام الساجد :(ويكره أن يكتب فى قبلة المسجد آية من القرآن أو شيئاً منه ، قال مالك ، وجوزه بعض العلماء ، وقال لا بأس به ، لما روى من فعل عثمان ابن عفان ذلك فى مسجد رسول الله ﷺ ، ولم ينكر ذلك عليه)

ومما ذكرناه يتبين لك خطا ما يعمد إليه كثير ممن يهتمون بتعمير المساجد و تشييدها اليوم ، حيث ينصرفون بكل جهودهم الى التفنن فى تزيينها ونقشها وإضفاء مختلف مظاهر الأبهة عليها ، حتى إن الداخل إليها لا يكاد يستشعر أى معنى من ذل العبودية لله عز وجل ، وإنما يستشعر ما ينطق به لسان حالها من الافتخار بما ارتقى إليه فن الهندسة المعمارية ، وفنون الزخرفة العربية .

ومن أسوأ نتائج هذا التلاعب الشيطانى ببسطاء المسلمين ، أن الفقراء لم يعودوا يستطيعون أن يتهربوا من مظاهر الإغراء الدنيوى إلى أى جهة ، لقد كان فى المساجد ما يعزى الفقير بفقره ، ويخرجه من جو الدنيا وزخرفها إلى الآخرة وفضلها ، فأصبحوا يجدون حتى فى مظهر هذه المساجد ما يذكرهم بزخرف الدنيا التى حرموها ويشعرهم بنكد الفقر وأوضاره .

فيالله ما أسوأ ما وقع فيه المسلمون من هجران الحقائق الإسلامية وانشغالهم بمظاهر كاذبة ظاهرها الدين وباطنها الدنيا بكل ما فيها من شهوات وأهواء .

الأساس الثانى (الأخوة بين المسلمين)

ثم إن الرسول صلى اله عليه وسلم آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على الحق و المواساة ، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الممات ، بحيث يكون أثر الأخوة الإسلامية فى ذلك أقوى من أثر قرابة الرحم .

فجعل جعفر ابن أبى طالب ومعاذ ابن جبل أخوين ، وجعل حمزة ابن عبد المطلب وزيد ابن حارثة أخوين ، وجعل أبا بكر الصديق رضى الله عنه وخارجة ابن زهير أخوين ، وعمر ابن الخطاب وعتبان ابن مالك أخوين ، وعبد الرحمن ابن عوف و سعد ابن الربيع أخوين ..... وهكذا

ثم ربط النبى ﷺ هذا التآخى بين أفراد الصحابة بنطاق عام من الأخوة و الموالاة ، كما سنجدها فيما بعد .

وقد قامت هذه الأخوة على أسس مادية أيضاً ، وكان حكم التوارث فيما بينهم من بعض هذه المظاهر المادية . وظلت عقود هذا الإخاء مقدمة على حقوق القرابة الى

موقعة بدر الكبرى ، حيث نزل فى أعقابها قول الله تعالى :(وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شيء عليم) فنسخت هذه الآية ما كان قبلها وانقطع أثر المؤاخاة الإسلامية فى الميراث ، ورجع كل إنسان فى ذلك إلى نسبه وذوى رحمه ، وأصبح المؤمنون كلهم إخوة .

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجرىّ الأنصارىّ دون ذوى رحمة للأخوة التى آخى النبى ﷺ بينهم ، فلما نزلت :(ولكل جعلنا موالى) نسخت ، ثم قال :(والذين عاقدت أيمانكم) أى من النصر و الرفادة و النصيحة وقد ذهب الميراث .

العبر و الدلائل :

وهذا هو الأساس الثانى الذى اعتمده الرسول ﷺ فى سبيل بناء المجتمع الإسلامى و الدولة الإسلامية ،وإن أهمية هذا الأساس تظهر فى الجوانب التالية :

أولاً: إن أى دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها ، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي و المحبة المتبادلة فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخى الحقيقية لايمكن أن تتحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الإتحاد حقيقة قائمة فى الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة .

على أن التآخى أيضاً لابد أن يكون مسبوقاً بعقيدة يتم اللقاء عليها و الإيمان بها ، فالتآخى بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى ، خرافة ووهم ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين فى الحياة العملية .

ومن أجل ذلك ، فقد جعل رسول الله ﷺ أساس الأخوة التى جمع عليها أفئدة أصحابه ، العقيدة الإسلامية التى جاءهم بها من عند الله تعالى و التى تضع الناس كلهم فى مصاف العبودية الخالصة لله تعالى دون الاعتبار لأى فارق إلا فارق التقوى و العمل الصالح ، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء و التعاون والإيثار بين أناس شتتتهم العقائد و الأفكار المختلفة فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأثرته وأهوائه

ثانياً – إن المجتمع – أى مجتمع – إنما يختلف عن مجموعة ما من النـــاس منتشـــرة مفككة ، بشىء واحد ، هو قيام مبدأ التناصر و التعاون فيما بين أشخاص هذا المجتمع ، وفى كل نواحى الحياة و مقوماتها ، فإ، كان هذا التعاون و التناصر قائما طبق نظام العدل و المساواة فيما بينهم ، فذلك هو المجتمع العادل السليم ، وإن كان ذلك قائمـــا على الحيف و الظلم ، فذلك هو المجتمع الظالم المنحرف .

وإذا كان المجتمع السليم إنما يقوم على أساس من العدالة فى الاستفادة مـــن أســـباب الحياة و الرزق ، فما الذى يضمن سلامة هذه العدالة وتطبيقها على خير وجه ؟

إن الضمانة الطبيعية و الفطرية الأولى لذلك ، إنما هى التآخى و التوادد يليها بعد ذلك ضمانة السلطة و القانون ، فما أرادت السلطة أن تحقق مبادىء العدالة بين الأفراد ، فإنها لا تتحقق ما لم تقم على أساس من المحبة و التآخى فيما بيـــنهم ، بـــل إن هـــذه المبادىء لاتعدو أن تكون حينئذ مصدر أحقاد وضغائن تشيع بين أفراد ذلك المجتمع ، ومن شان الأحقاد و الضغائن أن تحمل على طيها بذور الظلم و الطغيان فـــى أشـــد الصور و الأشكال من أجل هذا إتخذ رسول الله ﷺ من حقيقة التآخى الذى أقامه بين المهاجرين و الأنصار أساساً لمبادىء العدالة الاجتماعية التى قام على تطبيقها أعظم و أروع نظام اجتماعى فى العالم ، ولقد تدرجت مبادىء هذه العدالة فيما بعد بشـــكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة ، ولكنها كلها إنما تأسست وقامت على تلك الأرضـــية الأولى ، ألا وهى الأخوة الإسلامية ، ولولا هذه الأخوة العظيمة التى تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الإسلامية ، لما كان لتلك المبادىء أى أثر تطبيقى وإيجابى فى شد أزر المجتمع الإسلامى ودعم كيانه .

ثالثاً : المعنى التفسيرى الذى صاحب شعار التآخى :

لم يكن ما أقامه الرسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ التآخى مجرد شـــعار فـــى كلمـــة أجراها على ألسنتهم ، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقـــع الحيـــاة وبكـــل أوجـــه العلاقات القائمة بين المهاجرين و الأنصار ، ولذلك جعل النبى ﷺ من هذه الأخـــوة مسؤولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الأخوة ، وكانت هذه المسؤولية تؤدى فيما بينهم على

خير وجه ، وحسبنا دليلا على ذلك ما قام به سعد ابن الربيع الذى كان قد آخى الرسول بينه وبين عبد الرحمن ابن عوف ، إذ عرض على عبد الرحمن ابن عوف أن يشركه فى بيته وأهله وماله فى قسمة متساوية ، ولكن عبد الرحمن ابن عوف شكره وطلب منه أن يرشده الى سوق المدينة ليشتغل فيها ، ولم يكن سعد ابن الربيع منفرداً عن غيره من الأنصار فيما عرضه على أخيه كما قد يظن ، بل كان هذا شأن عامة الصحابة فى علاقتهم وتعاونهم مع بعض ، خصوصاً بعد الهجرة وبعد أن آخى النبى ﷺ فيما بينهم .

ولذلك أيضاً ، جعل الله سبحانه وتعالى حق الميراث منوطاً بهذا التآخى ، دون حقوق القرابة و الرحم ، فقد كان من حكمة هذا التشريع أن تتجلى الأخوة الإسلامية حقيقة محسوسة فى أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أن ما بين المسمين من التآخى و التحابب ليس شعاراً وكلاماً مجردين ، وإنما هى حقيقة قائمة ذات نتائج اجتماعية محسوسة تكون أهم أسس نظام العدالة الاجتماعية .

أما حكمة نسخ التوارث على أساس هذه الأخوة ، فيما بعد ، فهى أن نظام الميراث الذى استقر أخيراً ، إنما هو نفسه قائم على أخوة الإسلام بين المتوارثين ، إذ لا توارث بين دينين مختلفين ، إلا فى الفترة الأولى من الهجرة وضعت كل من الأنصار و المهاجرين أمام مسئولية خاصة من التعاون والتناصر و المؤانسة ، بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم فى مكة ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار فى المدينة ، فكان ما أقامه الرسول ﷺ من التآخى بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانة لتحقيق هذه المسئولية ، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤولية أن يكون التآخى أقوى فى حقيقته وأثره من أخوة الرحم المجردة .

فلما استقر أمر المهاجرين فى المدينة وتمكن الإسلام فيها ، وغدت الروح الإسلامية هى وحدها العصب الطبيعى للمجتمع الجديد فى المدينة ، أصبح من المناسب انتزاع القالب الذى كان قد صب فيه نظام العلاقة بين المهاجرين و الأنصار إثر إلتقائهم فى المدينة ، إذ لا يخشى على هذا النظام بعد اليوم من التفكك و التميع فى ظل الأخوة

الإسلامية العامة وما يترتب عليها من المسؤوليات المختلفة ، ولا ضير حينئذ أن يعود تأثير قرابة الرحم بين المسلمين من حيث كونها مؤثراً زائداً على قرابة الإسلام وأخوته . ، ثم إن هذا التآخى الذى عقده رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقاً بمؤاخاة أخرى أقامها النبى ﷺ بين المهاجرين فى مكة ، قال ابن عبد البر :(كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المهاجرين خاصة ، وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين و الأنصار) .

وهذا ما يؤكد لنا أن مناط الأخوة وأساسها إنما هو رابطة الإسلام ، غير أنها احتاجت الى تجديد و تأكيد بعد الهجرة بسبب ظروفها و بسبب اجتماع المهاجرين و الأنصار فى دار واحدة .

فهى ليست فى الحقيقة شيئاً آخر غير الأخوة القائمة على أساس جامعة الإسلام ووحدة العقيدة ، وإنما هى تأكيد لها عن طريق التطبيق .

الأساس الثالث (كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم)

وهذا الأساس هو أهم ما قام به النبى ﷺ مما يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة روى ابن هشام أن النبى ﷺ لم تمض له سوى مدة قليلة فى المدينة حتى اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب ، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها ، عدا أفراد فى قبيلة الأوس ، فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين و الأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم .

وقد ذكر ابن إسحاق هذا الكتاب بدون إسناد ، وذكره ابن خيثمة فأسنده : حدثنا أحمد ابن جناب ابن الوليد ، ثنا عيسى ابن يونس ، ثنا كثير ابن عبد الله ابن عمرو المزنى عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، فذكر نحو ما ذكره ابن إسحاق ، وذكر الإمام أحمد فى مسنده فرواه عن سريج قال : حدثنا عباد عن حجاج عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين و الأنصار ..... الخ

ونحن لن نأت بنص الكتاب كله ، فهو طويل ، ولكننا نجتزىء منه البنود الهامة بنصوصها الواردة فى كتابه عليه الصلاة و السلام ، كى نقف من ورائها على مدى القيمة الدستورية للمجتمع الإسلامى ودولته الناشئة فى المدينة ، وهذه هى البنود مرتبة حسب ترتيبها فى نص الكتاب نفسه :

١- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم و جاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس

٢- هؤلاء المسلمون جميعاً على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم ، ويفدون عانيهم بالمعروف و القسط بين المؤمنين .

٣- إن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه فى فداء أو عقل .

٤- إن المؤمنين المتقين ، على من بغى منهم أو إبتغى دسيعه ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

٥- لا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن .

٦- ذمة الله واحدة ، يجبر عليهم أدناهم ، والمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس .

٧- لا يحل لمؤمن أقر بما فى الصحيفة وآمن بالله و اليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو أن يؤويه ، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله و غضبه يوم القيامة لا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٨- اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين .

٩- يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

١٠- إن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

١١- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده الى الله عز وجل و إلى محمد رسول الله.

١٢- من خرج من المدينة أمن ومن قعد أمن ، إلا من ظلم وأثم .
١٣- إن الله على أصدق ما فى الصحيفة وأبره ، وإن الله جار لمن بر واتقى .

العبر و الدلائل :

لهذه الوثيقة دلالات هامة تتعلق بمختلف الأحكام التنظيمية للمجتمع الإسلامى ونلخصها فيما يلى:

١- إن كلمة الدستور هى أقرب إطلاق مناسب فى اصطلاح العصر الحديث على هذه الوثيقة ، وهى إذا كانت بمثابة إعلان دستور فإنه شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أى دستور حديث يعنى بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة فى الداخل و الخارج : أى فيما يتعلق بعلاقة أفراد الدولة مع بعض ، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين . وحسبنا هذا الدستور الذى وضعه رسول الله ﷺ بوحى من ربه واستكتبه أصحابه ، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود – حسبنا ذلك دليلاً على أن المجتمع الإسلامى قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة ، وأن الدولة الإسلامية قامت – منذ بزوغ فجرها – على أتم ما قد تحتاج إليه الدولة من المقومات الدستورية و الإدارية ، وظاهر ان هذه المقومات ، أساس لابد منه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى المجتمع . ، إذ هى فى مجموعها إنما تقوم على فكرة واحدة الأمة الإسلامية وما يتعلق بها من البنود التنظيمية الأخرى ، ولا يمكن أن نجد أرضية يستقر عليها حكم الإسلام وتشريعه ما لم يقم هذا التنظيم الدستورى الذى أوجده رسول الله ﷺ ، على أنه فى الوقت نفسه جزء من الأحكام الشرعية نفسها . ومن هنا تسقط دعاوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البديهية ، ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه ، وليس له من مقومات الدولة و التنظيم الدستورى شىء .

وهى أحبولة عتيقة ، كان يقصد منها محترفو الغزو الفكرى وأرقاء الاستعمار أن يقيدوا بها الإسلام كى لا ينطلق فيعمل عمله فى المجتمعات الإسلامية ، ولا يصبح له شأن قد يتغلب به على المجتمعات المنحرفة الأخرى ، إذ الوسيلة الى ذلك محصورة

فى أن يكون الإسلام ديناً لا دولة ، وعبادات مجردة لا تشريعاً و قوانين ، وحتى لو كان الإسلام ديناً ودولة فى الواقع ، فينبغى أن يتقلب فيصبح غير صالح لذلك ولو بأكاذيب القول .

غير أن هذه الأحبولة تقطعت سريعاً ، لسوء حظ أولئك المحترفين ، وأصبح الحديث عنها من لغو القول ومكشوف الحقد و الضغائن .

ولكن مهما يكن فينبغى أن نقول ، ونحن بصدد تحليل هذه البنود العظيمة : إن مولد المجتمع الإسلامى نفسه إنمكا كان ضمن هيكل متكامل للدولة ، وما تنزلت تشريعاته إلا ضمن قوالب من التنظيم الاجتماعي المتناسق من جميع جهاته و أطرافه ، وهذه الوثيقة أكبر شاهد على ذلك .

وهذا مع غض النظر عن قيمة الأحكام التشريعية نفسها من حيث إنها قطع و أجزاء إذا ضمت الى بعضها تكون منها تنظيم متكامل لبناء دستورى وإدارى عظيم .

٢- إن هذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التى اتسمت بها معاملة النبى ﷺ لليهود ، ولقد كان بالإمكان أن تؤتى هذه المسألة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين و اليهود ، لو لم يتغلب على اليهود طبيعتهم من حب للمكر و الغدر و الخديعة ، فما هى إلا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعاً بما تضمنته بنود هذه الوثيقة التى التزموا بها ، فخرجوا على الرسول و المسلمين بألوان من الغدر و الخيانة سنفصل الحديث عنها فى مكانها المناسب إن شاء الله تعالى ، فكان المسلمون بذلك فى حل مما التزموا به تجاههم .

٣- دلت هذه الوثيقة على أحكام هامة فى الشريعة الإسلامية نذكر منها ما يلى :

أولاً: يدلنا البند الأول منها على أن الإسلام هو وحده الذى يؤلف وحدة المسلمين وهو وحده الذى يجعل منهم أمة واحدة ، وعلى أن جميع الفوارق و المميزات فيما بينهم تذوب وتضمحل ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة ، تفهم هذا جلياً واضحاً فى قوله عليه الصلاة و السلام (المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس) وهو أول أساس لابد منه لإقامة مجتمع إسلامى متماسك سليم .

ثانياً: يدلنا البند الثانى و الثالث على أن من أهم سمات المجتمع الإسلامى ظهور معنى التكافل و التضامن فيما بين المسلمين بأجلى صوره وأشكاله ، فهم جميعاً مسؤولون عن بعضهم فى شؤون دنياهم وآخرتهم ، وإن عامة أحكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم على أساس هذه المسؤولية ، وتحدد الطرائق التنفيذية لمبدأ التكافل و التضامن فيما بين المسلمين .

ثالثاً : يدل البند السادس على مدى الدقة فى المساواة بين المسلمين لا من حيث أنها شعار براق للدعاية و العرض ، بل من حيث إنها ركن من أركان الشرعية الهامة للمجتمع الإسلامى ، يجب تطبيقه بأدق وجه وأتم صورة ، وحسبك مظهراً لتطبيق هذه المساواة بين المسلمين ما قرره النبى ﷺ فى هذا البند بقوله :(ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم) ومعنى ذلك أن ذمة المسلم أياً كان محترمة ، وجواره محفوظ لا ينبغى أن يجار عليه فيه ، فمن أدخل من المسلمين أحداً فى جواره ، فليس لغيره حاكماً أو محكوماً أن ينتهك حرمة جواره هذا ، والمرأة المسلمة لا تختلف فى هذا عن الرجل إطلاقاً ، فلجوارها – أياً كانت – من الحرمة ما لا يستطيع أن ينتهكه أى إنسان مهما علت رتبته وبلغت منزلته ، وذلك بإجماع عامة العلماء وأئمة المذاهب .

روى الشيخان وغيرهما أن أم هانىء بنت أبى طالب ذهبت الى رسول الله ﷺ عام الفتح فقالت : يا رسول الله زعم ابن أمى علىّ أنه قاتل رجل أجرته : فلان ابن هبيرة ، فقال رسول الله ﷺ : قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء .

وتستطيع أن تتأمل هذا فتعلم مدى الرفعة التى نالتها المرأة فى حمى الإسلام وظله ، وكيف أنها نالت كل حقوقها الإنسانية و الاجتماعية كما نالها الرجل سواء بسواء ، مما لم يحدث نظيره فى أمة من الأمم غير أن المهم أن تعلم الفرق بين هذه المساواة الإنسانية الرائعة التى أرستها شريعة الإسلام ، والمظاهر التقليدية لها مما ينادى به عشاق المدنية الحديثة اليوم ، تلك شريعة من المساواة الدقيقة القائمة على الفطرة الإنسانية الأصيلة ، يتوخى منها سعادة الناس كلهم نساءً ورجالاً ، أفراداً و جماعات

‘ وهذه نزوات حيوانية أصيلة يتوخى من ورائها اتخاذ المرأة مادة تسلية ورفاهية للرجل على أوسع نطاق ممكن ‘ دون أى نظر إلى شىء آخر .

رابعاً : يدلنا البند الحادى عشر على أن الحكم العدل الذى لا ينبغى للمسلمين أن يهرعوا إلى غيره ‘ فى سائر خصوماتهم و خلافاتهم وشؤونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه وهو ما تضمنه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ‘ ومهما بحثوا عن الحلول لمشاكلهم فى غير هذا المصدر فهم آثمون ‘ معرضون أنفسهم للشقاء فى الدنيا وعذاب الله تعالى فى الآخرة .

تلك هى أربع‘ أحكام انطوت عليها هذه الوثيقة التى أقام عليها رسول الله ﷺ الدولة الإسلامية فى المدينة وجعلها منهاجا لسلوك المسلمين فى مجتمعهم الجديد ‘ وإن فيها لأحكاماً هامة أخرى لا تخفى لدى التأمل و النظر فيها .

ومن تطبيق هذه الوثيقة ‘والاهتداء بما فيها ‘ و التمسك بأحكامها ‘ قامت تلك الدولة على أمتن ركن وأقوى أساس ‘ ثم انتشرت قوية راسخة فى شرق العالم وغربه تقدم للناس أروع ما عرفته الإنسانية من مظاهر الحضارة و المدنية الصحيحة .((من فقه السيرة للبوطي)

إذنه ﷺ لمسلمي مكة بالهجرة

قال ابن إسحاق: فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه. وأوى إليهم من المسلمين أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال (إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها) فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة.

إصلاح النفس أولا

على الداعية الواعي : أن يركز أولا _ ودائما _ وقبل كل شئ ، على : تزكية نفس المدعو ، وطهارتها ، وإصلاحها ، وتحبيبها في المعروف ، وتنفيرها وتبغيضها في كل منكر .

حيث إن إصلاح النفس : مدخل إلى كل خير ، وطريق إلى كل نجاح ، وهو في الوقت نفسه : غاية عزيزة المنال ، غالية الثمن ، تحتاج إلى : صدق العزم ، وشد الرحال ، وبذل الجهود .

وهذا : ما ركز عليه ، ولفت الأنظار إليه ، وفعله ، النبي ﷺ مع وفد الأنصار الذين قدموا عليه بمكة ، وبايعوه في العقبة . . حيث بايعهم ﷺ على ذلك في بيعة العقبة الأولى ، ثم بعد عام كامل ، سمت فيه أرواحهم ، وزكت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، وصلب عودهم ، وصاروا صالحين لتحمل أعباء الدعوة ومهامها ومشاقها : بايعهم ﷺ على الأمور التنظيمية التي تحتاج الدعوة إليها ، ولا يتم نشرها ولا نجاحها بدونها

يقول عبادة بن الصامت :" كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا أثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء . . على : أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف . . ثم قال : فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا

فأخذتم بحده في الدنيا : فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة : فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر " "٢٦ "

أما في بيعة العقبة الثانية ، بعد عام كامل من الأولى .

فقد كانت البيعة : " على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني وتمنعوني _ إذا قدمت عليكم _ مما تمنعون منه أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبنائكم ، ولكم الجنة " "٢٧ "

وهذا درس من الهجرة في غاية الأهمية : حيث إن النفس الطاهرة يجذبها نور الدعوة وصفاؤها ، وتستعذب التضحية في دين الله تعالى بالنفس والنفيس ، مع الثبات – الذي لا تهزه شدائد أو لذائد _ على طريق الحق .

وإغفال هذا الدرس : بالإهمال لإصلاح النفس كلية ، وترك الحبل لها على الغارب ، حتى تبعت جموع هذه الأمة هواها ، وضلت سبيل رشدها ، وفقدت صلاح حالها : هو الذي ألقى بها في أوحال هذا التردي الذي تعانيه ، والتخبط الذي ترسف فيه .

وبسبب إغفال هذا الدرس ، وهذا الإصلاح : أصبحت هذه الأمة : خاوية الوفاض من كل ما يثبتها ، ويملؤها طمأنينة ، وصارت : ترتجف من كل ناعق ، وتتبع كل مضل لها ، رغبا أو رهبا ، حتى سقط أصحاب هذا الزمان في قاع المستنقع البشري ، وغلبهم التخلف العالمي ، وصاروا _ إن كان لقدمهم موضع _ في ذيل قائمة أهل الدنيا وسكانها ، وفقدوا مقومات النجاح ، وضاعت منهم مؤهلات الخيرية ، وندت عنهم أنوار الوسطية ، وعوملوا بلا اكتراث ، بل عوملت حقوقهم بالافتراس ، إلى غير ذلك من ألوان الخسف والنكال والانتقاص .

وإن إغفال هذا الدرس من الحركة الإسلامية خاصة : بسبب الاهتمام والتركيز على الأمور التنظيمية قبل إصلاح النفس ، أو دون استمرار ومتابعة لتزكيتها ، أمر خطير النتائج ، تعاني منه الدعوات ، وتدفع الثمن _ حال إغفاله _ غاليا .

كما وأن الأمور التنظيمية التي تحتاجها الدعوة ، ولا تستمر إلا بهـــا ، لا يمكـــن أن تنجح ، وتؤدى على الوجه الأكمل ، إلا من متعبد لله تعالى بها ، باحث عن مرضـــاة ربه عن طريق الإخلاص لله تعالى في أدائها ، ولا يؤديها على هذا النحـــو :إلا مـــن سمت روحه ، وزكت نفسه ، وأسعدته الجندية الحقه في سبيل نشر كلمة الله تعالى ، ورفع راية الدعوة ، وإعلاء شأن المسلمين .

اقرؤوا التأريخ

اسم الخطيب عبد الرحمن السديس إمام الحرم اسم المدينة مكة المكرمة تاريخ الخطبة(هـ) ١٤٢٣/١/٨ اسم المسجد المسجد الحرام

. الخطبة الأولى

أما بعد: فأوصيكم ــ عباد الله ــ ونفسي بتقوى الله، فمن رام خيراً غفيراً، ورزقاً وفيراً، ومقاماً كبيراً، فعليه بتقوى الله، فمن حققها حقق في الدنيا مجداً أثيراً، وفي الآخرة جنة وحريراً، وروحا وعبيراً.

أيها المسلمون، في ظل ازدلاف الأمة إلى عام جديد، وتطلعها إلى مستقبل مشرق رغيد، تبرز بجلاء قضايا حولية، وموضوعات موسمية، جديرة بالإشادة والتذكير، وحفية بالتوقف والتبصير، علّها تكون محركا فاعلاً يستنهض الهمم، ويشحذ العزائم لمراجعة الذات، وتدقيق الحسابات، وتحديد الرؤى والمواقف، وتقويم المسيرة، لتستعيد الأمة تأريخها المجيد، ومجدها التليد، وما امتازت به من عالمية فريدة، وحضارة عريقة، بوّأتها في الطليعة بين أمم الأرض قاطبة، والإنسانية جميعاً.

معاشر المسلمين، إن قضية المناسبة تكمن في وقفة المحاسبة، فاستقبال الأمة لعام جديد هو بمجرده قضية لا يستهان بها، وإن بدا في أنظار بعض المفتونين أمراً هيِّناً، لطول الأمل والغفلة عن صالح العمل، وإن في مراحل العمر وتقلبات الدهر وفجائع الزمان لعبرة ومزدجراً، وموعظة ومدّكراً، يحاسب فيها الحصيف نفسه، ويراجع مواقفه، حتى لا يعيش في غمرة، ويؤخذ على غرة، ويكون بعد ذلك عظة وعبرة. ولئن أُسدل الستار على عام مضى، فإن كل ماض قد يُسترجع إلا العمر المنصرم، فإنه نقص في الأعمال، ودنوٌّ في الآجال.

نسير إلى الآجال في كل لحظة وأيامنا تُطوى وهن مراحلُ

وإذا كان آخر العمر موتاً فسواء قصيره والطويلُ

فكم من خطوات مشيت، وأوقات صرفت، ومراحل قطعت، ومع ذلك فالإحساس بمضيّها قليل، والتذكر والاعتبار بمرورها ضئيل، مهما طالت مدتها وعظمت فترتها، ودامت بعد ذلك حسرتها.

إخوتي في الله، إن عجلة الزمن وقطار العمر يمضي بسرعة فائقة، لا يتوقف عند غافل، ولا يحابي كل ذاهل، كم ودّعنا فيما مضى من أخ أو قريب، وكم فقدنا من عزيز وحبيب، هزّنا خبره، وفجعنا نبؤه، حتى إذا لم يدع صدقه أملاً شرقتُ بالريق حتى كاد يشرق بي.

لقد كانوا زينة المجالس، وأُنس المجالس، سبقونا إلى القبور، وتركوا عامر الدور والقصور، فاللهم أمطر على قبورهم سحائب الرحمة والرضوان، واللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم، لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى.

فالله المستعان، وإلى متى الغفلة يا عباد الله؟! ماذا ران على قلوبنا؟! وماذا غشي أبصارنا وبصائرنا؟! إن الموفّق الواعي من سعى لإصلاح حاله ليسعد في مآله، وإن الكيِّس الملهم من أدام المحاسبة وأكثر على نفسه المعاتبة، وتفقّد رصيده الأخروي، وحاذر كل لوثة عقدية وفكرية وسلوكية ليحيى حياة السعداء، ويُبوَّأ نزل الشهداء، وما ذلك بعزيز على ذي المن والعطاء.

إخوة العقيدة، ما أحوج الأمة الإسلامية اليوم وهي تتفيأ ظلال عام جديد مليء بالتفاؤل والتطلعات للخروج من الفتن والمشكلات، وتجاوز العقبات والأزمات، ومواجهة التحديات والنكبات، أن تقرأ تأريخها.

اقرؤوا التأريخ إذ فيه العبر ضل قومٌ ليس يدرون الخبر

اقرؤوا التأريخ لتدركوا كيف كانت أحداثه العظام ووقائعه الجسام نقطة تحول كبرى، لا في تأريخ الأمة الإسلامية فحسب، بل في تأريخ البشرية قاطبة، اقرؤوا التأريخ الإسلامي لتروا كيف كانت وقائعه العظيمة منعطفاً مهماً غيّر مجرى التأريخ الإنساني برمّته، اقرئي ــ يا أمتي ــ تأريخك المجيد لتعلمي كيف أرست مصادره وأحداثه

مبادئ الحق والعدل والأمن والسلام، وكم رسّخت وقائعه منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان مضامين الحوار الحضاري الذي يتنادى به العالم اليوم.

أيتها الإنسانية الحائرة، لتسلمي من الأحكام الجزاف الجائرة، اقرئي تأريخ حضارتنا الإسلامية، لتَرَيْ بأم عينيك كيف كفل الإسلام حقوق الإنسان بجدارة، أزال الطبقات والعنصريات، وألغى الفوارق والتمايزات، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات:١٣]، في وحدة تتضاءل أمامها الانتماءات العنصرية، والأواصر والعلاقات الدنيوية، بل تضمحل بها كل دعاوى الجاهلية.

إخوة الإيمان، الارتباط التأريخي الوثيق، والانتماء الحضاري العريق يؤكد أن ليس غير العقيدة الإسلامية جامعاً للعقد المتناثر، ومؤلفاً للشتات المتناكر، وناظماً للرأي المتنافر، فهل تعي الأمة ذلك بعد هذا التمزق المزري والتخلف المخزي والتيه في الأنفاق المظلمة وسراديب الغواية المعدمة؟!

إنه لا درب سوى الإسلام، ولا إمام غير القرآن، ولا نهج إلا نهج سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، ألم تستيقن الأمة بعد طول سبات أن التخلي عن العقيدة والتساهل بأمر الشريعة والتفريط في الثوابت والمبادئ والتقصير في المثل والقيم مآله شقاء المجتمعات، وانتقاض الحضارات، وهلاك العباد، وخراب البلاء، وطريق البوار، وسبب الانهيار، وحلول التبار، وتحقق الدمار؟! فهل يدرك أصحاب الرأي والنظر في الأمة أن التحديات السابقة والمعاصرة وصور التصادم الحضاري والعداء الثقافي والفكري إنما مردُّه إلى ثوابت عند الغير، لا يتحقق الانتصار عليها إلا بالتمسك بموروثنا الحضاري العريق الذي ينضح خيراً وسلاماً للبشرية، وأمناً وإسعاداً للإنسانية في بُعد عن مسالك العنف والإرهاب العالمية، التي أقضَّت مضاجع الإنسانية، وهنا ينبغي أن يتنادى العقلاء والمنصفون في العالم بإعلاء القيم الحضارية والأخلاقية والمثل الإسلامية والإنسانية، والتأكيد على مبدأ الحوار الحضاري، بلا تميُّع ولا انهزامية.

اقرؤوا التأريخ ــ أيها المنهزمون من بني جلدتنا ــ لتدركوا أن الحوار مع الآخر يجب أن يُبنى أولاً على الإصلاح من الداخل، حين تمتلئ النفوس محبة ومودة وحناناً، حينما توضع الكوابح المرعية، وترسم الضوابط الشرعية لحركة الانفتاح الفكري والثقافي والتربوي والإعلامي المتسارعة التي لا تعرف التمهّل، فقنوات وفضائيات، وتقانات وشبكات معلومات، واللهم حوالينا ولا علينا. يجب أن تُعاد الثقة إلى الذات، ويُعالج الانهزام النفسي لدى كثير من المعنيين في مجالات التربية والثقافة والإعلام، الذين لهثوا وراء عفن الأمم، عبُّوا منها طويلاً، فلم تغنهم ولم تغنِ أمتهم فتيلاً ولا نقيراً ولا قطميراً، وهنا يتأكد تعزيز جانب الحسبة في الأمة، حتى لا تغرق سفينة المجتمع، كما يجب الذبّ عن أهلها، وعدم الوقيعة بهم، وتضخيم هناتهم، والكف عن التمادي في اتهامهم، والطعون في أعراضهم، في وشايات مأفونة، أو مقالات مغرضة، أو أقلام متشفية، فأي شيء يبقى للأمة إذا انتقصت معالم خيريتها؟!

أمة الإسلام، حينما تتقاذف سفينة الأمة أمواج الفتن فإن قوارب النجاة وصمامات الأمان مرهونة بولاء الأمة لدينها وتمسكها بعقيدتها، وحينما يُجيل الغيور نظره في واقع أجيال من المنتسبين إلى أمتنا اليوم، ويرى التبعية والانهزامية أمام تيارات العصر الوافدة ومبادئ المدنية الزائفة، ويقارن بينهم وبين جيلنا التأريخي الفريد يدرك كم كانت وقائع تأريخنا المشرق الوضاء وحوادث سيرتنا العطرة سببا في عزة الأمة وكرامتها، وبذلها وتضحياتها، وإن تنكُّر فئام من الأمة لمبادئ دينهم ولهثهم وراء شعارات مصطنعة ونداءات خادعة لهو الأرضية الممهدة للعدو المتربّص، مما جرّأ علوج صهيون على العبث بمقدسات الأمة وممارسة إرهاب الدولة بكل ما تحمله من معنى الصلف والوحشية ضد إخواننا في الأرض المباركة فلسطين تحت سمع العالم وبصره.

كما أن من الدروس المستفادة لتحقيق مصالح الأمة جواز عقد المعاهدات والمهادنات، لا الاستسلام والمداهنات.

يا أمة التوحيد والتأريخ، في خضم هذه الظروف الحوالك، التي اختلطت فيها المسالك، يتأمل قُراء التأريخ ويتساءلون: أين دروس الهجرة وعبرها من شعارات العصر بإنسانيته الزائفة وديمقراطياته المزعومة التي تُحسب على دعاتها مغانم وعلى غيرهم مغارم، في غياب المنهجية الشورية المصطفوية؟! أين دروس التأريخ وعِبَر الهجرة وأخوة المهاجرين والأنصار من أناس مزّقهم التفرق والتشرذم، وأحلُّوا العداوة والخصام محلّ المحبة والوئام، وترسّبت في سويدائهم الأحقاد، وتأجج في قلوبهم سعير الحسد والبغضاء، والغل والشحناء، حتى تمزقت الأواصر وساد التفكك الأسري والاجتماعي في كثير من المجتمعات؟! فرحماك ربنا رحماك.

اقرؤوا التأريخ لتجدوا كم تحتاج العقيدة إلى دولة وسلطان ينافح عن كيانها، ويذود عن حماها، كما هي منة الله سبحانه على بلاد الحرمين ومدارج الهجرة وأرض التأريخ والرسالة حرسها الله. ألا فليتيقن دعاة الإصلاح في الأمة أن لا عقيدة ولا تمكين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بولاية، ولا ولاية إلا بسمع وطاعة، لتدرأ عن الأمة غوائل الشرور والفتن، وعاديات الاضطراب والمحن.

وفي الميدان التربوي يجب أن يقرأ التربويون تأريخنا ليروا كيف تربى المرء المسلم عبر كافة قنوات التربية على نصرة العقيدة والولاء للقيادة.

وليقرأ التأريخ شبابُنا المعاصر الذين خدع كثير منهم ببريق حضارة مادية، أفرزت غزوا في الصميم، تنكب من خلاله كثير من شباب الأمة طريق الهداية الربانية، وعاشوا صرعى حرب الشهوات، وضحايا غزوا التفرق والشبهات، ويبرز ذلك في مجال التشبه والتبعية والتقليد والمحاكاة للغير في كثير من المجالات، وقد قال فيما أخرجه أحمد وأبو داود: ((من تشبه بقوم فهو منهم))[١].

لتقرأ التأريخ وتستلهم دروسه وعبره المرأةُ المسلمة المعاصرة، لتدرك أن عزَّ المرأة ومكانتها في تمسكها بقيمها ومبادئها، حجاباً وعفافاً، احتشاماً وقراراً، وأن وظائفها ومسؤولياتها التربوية والأسرية والاجتماعية في الأمة كبيرة التبعة، عظيمة الجوانب والآثار، لا كما يصوِّرها أعداؤها الذين يوحون إلى أوليائهم ومولياتهم أن الحجاب

والعفاف فقدان للشخصية، وسلب للحرية، فأخرجوها دمية تفتش عن سعادة موهومة، وحرية مزعومة، كان من نتائجها دوس العرض والشرف، والعبث بالعفة والكرامة، من ذئاب مسعورة لا ترعى الفضائل، ولا تبالي باقتراف الرذائل.

تلك ــ أيها المسلمون ــ إلماحة عابرة إلى شيء من وقائع التأريخ ودروس السيرة وعبرها، تظهر في حدث الهجرة النبوية والتأريخ بها، تُقدَّم للأمة اليوم وهي تعيش مرحلة من أخطر مراحلها علّها تكون نواة لمشروع حضاري إسلامي، يسهم في صلاح الحال، وتقويم المسار لسعادة المآل، ويمثل بلسماً شافياً لعلاج الحملات الإعلامية المسعورة وسهام الحقد الطائشة ضد ديننا وأمتنا وبلادنا، التي ما فتئ أعداء الإسلام يصوبونها تجاهنا مستغلين نقاط الضعف في الأمة، متصيدين في الماء العكر أخطاء بعض أبنائها.

ألا ما أشد حاجتنا ــ ونحن نستشرف آفاق العام الهجري الجديد ــ إلى وقفات تأمل ومحاسبة، ومراجعة جادة لاستثمار كل ما يعزز مسيرة أمتنا، لتزدلف إلى عام جديد وهي أكثر عزماً وأشد مضاءً لفتح آفاق جديدة لإسعاد الإنسانية لتتبوأ مكانتها الطليعية، ومنزلتها الريادية فوق هذا الكوكب الأرضي الذي ينشد سكانه مبادئ الحق والعدل والسلام، ويرومون الخير والأمن والوئام، ولن يجدوه إلا في ظل الإسلام، وتعاليم الإسلام، زادُنا في ذلك موروث حضاري وتأريخي وعقدي وقِيَمِي لا ينضب، ونهلٌ من مُعطيات العصر وتقاناته في خدمة دين الأمة ومُثُلها وقيمها.

والله المسؤول أن يجعل هذا العام عام خير وبركة، ونصر وتمكين للإسلام والمسلمين، وعام أمن وأمان وعدل وسلام للإنسانية قاطبة، وأن يجمع فيه كلمة المسلمين على الحق والهدى، ويوحِّد صفوفهم، ويطهر مقدساتهم، وينصرهم على أعدائهم، وأن يجعل حاضرنا خيراً من ماضينا، ومستقبلنا خيراً من حاضرنا، إنه خير مسؤول، وأكرم مأمول، وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [العنكبوت:٦٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن، ونفعني وإياكم بما فيه من الهدى والبيان، ورزقنا التمسك بسنة المصطفى من ولد عدنان، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولكافة المسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، إِنَّ رَبّى لَطِيفٌ لّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [يوسف:١٠٠]، وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبّى رَحِيمٌ وَدُودٌ [هود:٩٠].

---

[١] أخرجه أحمد (٥٠/٢)، وأبو داود في اللباس، باب: في لبس الشهرة (٤٠٣١)، وعبد بن حميد (٢٦٧)، والبيهقي في الشعب (٧٥/٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال ابن تيمية كما في المجموع (٣٣١/٢٥): "هذا حديث جيد"، وقال العراقي في تخريج الإحياء (٣٢١/١): "سنده صحيح"، وحسن إسناده ابن حجر في الفتح (٢٧١/١٠)، وصححه الألباني في حجاب المرأة المسلمة (ص١٠٤).

الخطبة الثانية:

حمداً لك اللهم، أنت الملك القدوس السلام، تجري الليالي والأيام، وتجدِّد الشهور والأعوام، أحمد ربي تعالى وأشكره على ما هدانا للإسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل شهر المحرم فاتحة شهور العام، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله سيد الأنام، وبدر التمام، ومسك الختام، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله البررة الكرام، وصحبه الأئمة الأعلام، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب النور والظلام.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، تمسكوا بدينكم، فهو عصمة أمركم، وتاج عزكم، ورمز قوتكم، وسبب نصرتكم، واعلموا أن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسول الله ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

أيها الإخوة الأحبة في الله، تعيشون ــ يا رعاكم الله ــ هذه الأيام فاتحة شهور العام شهر الله المحرم، شهر من أعظم الشهور عند الله تبارك وتعالى، عظيمة مكانته، قديمة حرمته، هو غرة العام، وأحد أشهر الله الحرم، فيه نصر الله موسى والمؤمنين

معه على فرعون ومن معه، وقد ندبكم نبيكم إلى صيامه، فقد قال فيما أخرجه مسلم في صحيحه: ((أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم))[١]، لا سيما يوم عاشوراء، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي المدينة، فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء، فقال لهم: ((ما هذا اليوم الذين تصومونه؟)) قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال : ((نحن أحق بموسى منكم)) فصامه وأمر بصيامه[٢]، وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله سئل عن صيام يوم عاشوراء، فقال: ((أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله))[٣].

الله أكبر، يا له من فضل عظيم، من مولى كريم ورب رحيم، وقد عزم على أن يصوم يوماً قبله مخالفةً لأهل الكتاب، فقال : ((لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع))[٤]، قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "فمراتب صومه ثلاثة: أكملها أن يُصام قبله يوم وبعده يوم، ويلي ذلك أن يُصام التاسع والعاشر، وعليه أكثر الأحاديث، ويلي ذلك إفراد العاشر وحده بالصيام"[٥].

فينبغي للمسلمين أن يصوموا ذلك اليوم اقتداءً بأنبياء الله، وطلباً لثواب الله، وأن يصوموا يوماً قبله أو يوماً بعده مخالفةً لليهود، وعملاً بما استقرت عليه سنة المصطفى ، وعليه فمن أراد الصيام هذا العام فالأفضل أن يصوم يوم السبت والأحد والاثنين، وإن صام السبت والأحد فهو السنة، ولا بأس بصيام الأحد والاثنين، ويليه يوم الأحد، وهو يوم عاشوراء.

وإن صيام ذلك اليوم لمن شكر الله عز وجل على نعمه، واستفتاحِ هذا العام بعمل من أفضل الأعمال الصالحة التي يُرجى فيها ثواب الله عز وجل، فهنيئاً للصائمين، ويا بشرى للمشمرين، ويا خسارة المفرطين، ويا ندامة المقصرين، فاتقوا الله عباد الله، واستفتحوا عامكم بالتوبة والإنابة، والمداومة على الأعمال الصالحة، وخذوا من مرور الليالي والأيام عبراً، ومن تصرم الشهور والأعوام مدّكراً ومزدجراً، وإياكم والغفلة عن الله والدار الآخرة.

ثم صلوا وسلموا ــ رحمكم الله ــ على النبي المصطفى والرسول المجتبى والحبيب المرتضى، كما أمركم بذلك المولى جل وعلا فقال تعالى قولاً كريماً: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله الأطهار...

---

[١] أخرجه مسلم في الصيام، باب: فضل صوم المحرم (١١٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[٢] أخرجه البخاري في الصوم، باب: صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام، باب: فضل صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

[٣] أخرجه مسلم في الصيام (١١٦٢).

[٤] أخرجه مسلم في الصيام، باب: أي يوم يصام في عاشوراء (١١٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[٥] زاد المعاد (٧٦/٢).

الأفضل أن تستبدل الكلمة بـــ(الهجرة)

تاريخ الفتوى : ... ٢٤ صفر ١٤٢٣ / ٠٧-٠٥-٢٠٠٢

السؤال

فقط أريد معرفة هل يعتبر قول (إن النبي هرب) إساءة وطعنا إن قصد فيهـــا معنـــى الخروج من بطش الكفار فلقد قرأت لأحدهم هذه العبارة... وحق له أن يهـــرب فقـــد هرب النبي صلى الله عليه وآله من المشركين وهاجر إلى المدينة... وهرب موســـى عليه السلام من فرعون... ولم يكن يقصد بها الإساءة بل وصف حال ولكن الـــبعض كفره بسبب كلمته فهل بها إساءة؟

والسلام عليكم.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فقول الشخص: خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة هارباً ليس ذماً بإطلاق، بل فيه تفصيل.

فإن قصد القائل أنه خرج هارباً نتيجة جبن وخور وفرار من تبليغ رسالة الله تعـــالى ومواجهة المشركين ونحو ذلك، فهذا كافر لأنه طعن في النبي ﷺ وتنقص، وهو كفر بإجماع.

وإن كان قصد القائل أنه خرج بإذن الله وهرباً من أذى قومه بعد اتفاقهم علـــى قتلـــه ونحو ذلك، فلا شيء عليه، والأولى تجنب هذه اللفظة الموهمـــة، واســـتبدالها بلفـــظ الهجرة.

ويدل على أنه خرج مهاجراً بإذن الله ما أخرجه أحمد والترمذي والحـــاكم والضـــياء وصححوه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رســـول الله ﷺ بمكـــة، فـــأمر بالهجرة من مكة، وأنزل عليه (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً) [الإسراء:٨٠] .

وروى ابن إسحاق والطبراني عن أسماء رضي الله عنها أن أبابكر رضي الله عنه أستأذن رسول الله ﷺ في الخروج قبل المدينة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي" ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي وأمي أنت؟ قال: "نعم..." .

فهذا يدل على أن رسول الله ﷺ خرج مهاجراً بإذن الله وأمره، ولا يتنافى هذا مع القول بأنه خرج مطارداً خائفاً من قومه، كما يدل عليه ما رواه البخاري أن ورقة بن نوفل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ليتني أكون فيها جذعاً، إذ يخرجك قومك، قال: "أومخرجيَّ هم؟!!" ، قال: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذي وأخرج...

وما أخرجه أحمد بسند صححه ابن حجر : أن النبي ﷺ قال للأنصار: لو شئتم قلتم: "جئتنا خائفاً فآمناك، وطريداً فآويناك، ومخذولاً فنصرناك" ، فقالوا: بل المن علينا لله ورسوله.

وقد تقرر في معتقد أهل السنة والجماعة أن الخوف الطبيعي من العدو، واتخاذ الأسباب الواقية من شره لا يقدح في العقيدة، ولا ينافي التوكل.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

جواز الإفادة من المشركين

جواز الإفادة من المشركين – ولا نقول : الاستعانة بالمشركين ؛ لأنه لا استعانة بغير الله تعالى – أمر واضح في الدروس الحركية للهجرة النبوية .

ففي البخاري : " . . . واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر ، رجلا من بني الديل ، وهو من بني عبد بن عدى ، هاديا ، خريتا _ والخريت _ الماهر بالهداية _ قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمناه ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور ، بعد ثلاث ليال براحلتيهما ، صبح ثلاث " " ١٤ "

ويلاحظ جيدا : أن هذه الاستفادة توافرت فيها أمور ينبغي أن لا تغيب عنا ، إذ هي شروط لابد من مراعاتها .

أ _ أن يكون المستفاد منه أوبه صاحب تخصص نادر ، لا يجيده مسلم .

ب _ أن يكون ماهرا في تخصصه ، خبيرا به .

ج _ أن لا يكون محاربا ، أو من قوم محاربين للمسلمين ، أو مظاهرا لمحارب .

د _ أن يكون أمينا ، حيث إن المسلم المخذل أو المرجف يمنع ، فالكافر غير المؤتمن أولى بالمنع .

ه _ أن يكون حسن الرأي في المسلمين . " ٧٦ "

ويبدو أن الطريق المتعرج الوعر غير المألوف الذي اختار النبي ﷺ السير فيه للهجرة تخفيا عن قريش وعيونهم ، ما كان يعرفه إلا القلة القليلة ، وكان عبد الله بن أريقط من هذه القلة ، التي امتاز عنها بباقي الصفات المذكورة ، لذلك وقع الاختيار عليه .

ويجرنا هذا الدرس النبوي إلى الإشارة العاجلة لأنواع العلاقات مع الكفار .

وهي على هذا النحو :

(أولا) : المولاة لهم والولاء معهم .

وهذا ممنوع منعا باتا ، ومحرم تحريما قاطعا .

يقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) إلى أن يقول سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) " ٧٧ "

(ثانيا) : البر بهم والإحسان إليهم .

وهذا يتوقف على نوع معاملتهم للمسلمين ، وعلاقتهم بهم . . فهم :

إما مسالمين غير محاربين للمسلمين .

وتتحدد علاقة المسلمين بهم ، في ضوء قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) " ٧٨ "

وإما محاربين للمسلمين .

وتتحدد علاقة المسلمين بهؤلاء _ كذلك _ في ضوء قوله تعالى (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) " ٧٨ "

(ثالثا) : الاستعانة بهم .

وهذه ممنوعة منعا باتا ، ومحرمة تحريما قاطعا .

حيث إنه لا استعانة بغير الله تعالى من جهة .

ومن جهة أخرى . . لحديث النبي ﷺ ، الذي روته عائشة ، قالت : " خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، حتى إذا كان بحرة الوبرة ، أدركه رجل من المشركين ، كان يذكر منه جرأة ونجدة ، فسر المسلمون به ، فقال يا رسول الله ! جئت لأتبعك ، وأصيب معك ، فقال له رسول الله ﷺ : أتؤمن بالله ورسوله ؟ قال : لا ، قال : فارجع فلن أستعين بمشرك "

قالت : " ثم مضى رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان بالبيداء ، أدركه ذلك الرجل ، فقال له رسول الله ﷺ : أتؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم ، قال : فانطلق " " ٧٩ "

وكذلك : روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن حبيب قال : أتيت رسول الله ﷺ ، وهو يريد غزوة ، أنا ورجل من قومي ، ولم نسلم ، فقلنا : إنا لنستحي أن يشهد قومنا مشهدا لا نشهده معهم ، قال : أفأسلمتما ؟ قلنا: لا ، قال : فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين ، قال : فأسلمنا ، وشهدنا معه . " ٨٠ "

قال ابن المنذر : والذي ذكر غير ذلك مما قد يدل على أنه ﷺ استعان بهم ، فغير ثابت . "٨١ "

ومما يجدر التنبيه عليه هنا : أنه إذا كانت الاستعانة بالمشركين على المشركين . . ممنوعة شرعا ، فإن الاستعانة بالمشركين على المسلمين أكد في المنع ، وأشد في الحرمة .

(رابعا) : الإفادة من المشركين .

وهذه مباحة بالشروط السابق ذكرها وقد فعلها النبي ﷺ ، على ما سبق أن بدأنا به الحديث في هذا الدرس من دروس الهجرة النبوية .

وما فعله النبي ﷺ ، من استئجاره لعبد الله بن أريقط ، المشرك ، وإفادته به ومنه : يعد درسا عظيما ، يفتح المسلمين على آفاق المعرفة ، وألوان الإفادة بأي شئ ، أو من أي مصدر كان ، ما دام ذلك بعيدا عن الإضرار بالعقيدة ، أو الانتقاص من الدين ، لأن الحكمة ضالة المؤمن ، ينشدها أنى وجدها .

وهو درس يفتح الباب للإفادة من منجزات المشركين واكتشافاتهم العلمية ، وصناعاتهم ، واختراعاتهم ، التي تساعد على عمارة الكون ، والتمتع بما فيه .

ولا يهم في هذه الحالة : من الذي أنجز أو اكتشف أو صنع ، لأن العلم _ كما يقولون _ لا جنسية له بشرط : أن تكون هذه الإفادة ، بعيدة عن الإضرار بالعقيدة ، وسالمة من الانتقاص بالدين ، وغير مقعدة للمسلمين عن التفوق في هذه المجالات .

وفي الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني قال : سئل رسول الله ﷺ عن قدور المجوس ، فقال : " انقوها غسلا واطبخوا فيها " .

وفي رواية أخرى ، يقول فيها : أتيت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ! ! إنا بأرض قوم أهل كتاب . . نأكل في آنيتهم . . ؟ قال : " إن وجدتم غير آنيتهم ، فلا تأكلوا فيها ، فإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها " . "٨٢ "

ويقاس عليه : التعاملات التجارية ، والتبادلات المادية ، و . . . و . . . الخ على نفس الشروط السابقة .

ومن المعلوم جيدا في هذا الموضوع : أن لا تكون لهذا المشرك السيادة على المسلم إطلاقا ، بل السيادة تكون للمسلم أمرا ونهيا ، بدءا وإنهاء .

والواضح من فعل النبي ﷺ : أن هذا الحكم في حال الضعف الشديد للمسلمين .

ومن هنا : فإنه في حال قوة المسلمين يكون العمل به أولى وأوجب .

التأريخ بالهجرة النبوية اجتمع عليه الصحابة الكرام

تاريخ الفتوى : ... ٠٨ ربيع الثاني ١٤٢٤ / ٠٩-٠٦-٢٠٠٣

السؤال

ما هي مشروعية التاريخ الهجري في ضوء الكتاب والسنة؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فقد سبق أن بينا في الفتوى رقم:

٢٦٢٢٨، أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يؤرخ الرسائل والكتب التي ترد إليه، فجمع الصحابة لهذا الأمر وانتهوا إلى التأريخ بالهجرة النبوية وابتدئوا بالمحرم، ويكفي لمشروعية هذا العمل الجليل أنه من عمل الخليفة الراشد عمر، وقد جاء الأمر النبوي باتباع هدي الخلفاء الراشدين المهديين كما في الحديث: فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. رواه ابن ماجه وأحمد.

فالخلفاء الراشدون لا يصدرون إلا عن هدي النبي ﷺ إما نصاً أو استنباطاً، وبخصوص عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه. رواه الترمذي، ومعنى جعل أي أجراه على لسانه.

ثم إن هذا العمل اجتمع عليه الصحابة وسار عليه التابعون وتابعوهم والمسلمون على امتداد تاريخهم، فالمخالف لهم المضلل لرأيهم على غير السبيل، قال الله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً [النساء:١١٥]، وقال ابن مسعود: ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن. رواه أحمد.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

التبشير . . لا التخويف

على المسلم بعامة، وكل من انخرط في صف الدعوة إلى الله بخاصة ، أن يكون مبشرا ميسرا _ لا مخوفا معسرا _ يعد بفضل الله تعالى لمن أحسن ، ويرجو عفو الله تعالى لمن تاب لأن فضل الله تعالى لا يحجبه أحد ، وعفو الله لا يملكه سواه .

يقول عبادة بن الصامت ، بعد أن ذكر بنود بيعة العقبة الأولى : ثم قال رسول الله ﷺ : " فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا ، فأخذتم بحده في الدنيا : فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة : فأمركم إلى الله ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر " " ٣٣ "

يا لعظمة هذا النبي . . ﷺ . . ! !

ويا لسماحة هذا الدين . . ! !

"وإن غشيتم من ذلك شيئا : فأمركم إلى الله "

لاحظ أخي المسلم الكريم . . أن الإشارة هنا " من ذلك " لا تعود على صغائر من الذنوب ، بل على ذنوب هي من الكبائر ، بل هي الكبائر ، ومع ذلك يقول الحبيب ﷺ " فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر "

نعم . . من وفى : يبشره النبي ﷺ بفضل الله وإحسانه . . ومن خالف : أيضا يبشره النبي ﷺ بعفو الله وغفرانه .

لم يهدد النبي ﷺ ويتوعد . . ! !

ولم يتشنج _ وحاشاه ﷺ _ ويرغى ويزبد ، ويوحي لسامعيه أنه العليم ببواطن الأمور ، والقابض على مفاتيح العدل والفضل . . ! !

ولم يقل : " ومن غشي من ذلك شيئا : فليفارق دعوتنا ، وليتبع سبيلا غير سبيلنا ، حيث إنه لا يصلح في صفوفنا "..!!

لا . . لم يقل هذا ولا ذاك .

بل أفصح بأدب الدعوة الرفيع ، وأخبر عن منهجها السمح ، وبين _ بكل وضـــوح _ أن مفاتيح ذلك كله بيد الله سبحانه وتعالى .

وهو درس يجب أن يعيه شباب الصحوة الإسلامية المباركة ، الذين اتخذ بعضـــهم _ وهم قلة _ التخويف من عذاب الله تعالى فقط ، أو الإكثار منه ، في إقناع الآخـــرين بالطاعة لله تعالى ، منهجا ، أو التشديد على أنفسهم ، أو غيرهم أسلوبا فـــي الحيـــاة وطريقا .

ومن تصفح كتاب الله تعالى وجد هذا الدرس واضحا فيه بجـــلاء ، حيـــث إن آيـــات الرحمة أكثر فيه من آيات العذاب ، وآيات البشارة أكثر من آيات الإنذار ، بل إنه ما من آية عذاب أتت إلا أعقبتها ، أو جاءت قريبا منها آية رحمة .

ومن يفعل غير ذلك ، وغير ما فعله النبي ﷺ ، يكون قد خالف شـــرع الله تعـــالى ، وبعد عن سنة محمد ﷺ ، وتجرأ _ من فرط جهله _ على سماحة هذا الدين ، وأدب الدعوة إليه .

وينبغي أن يكون واضحا : أن لا يصل الداعية بهذا التيسير والتسهيل والتبشير ، حدا يدفع الآخرين إلى الجرأة على الله تعالى ، أو التسويف في القيام بأحكام هذا الـــدين ، أو الترخص _ بلا دليل _ في بعضها .

بل عليه : أن يكون متوازنا _ أولا _ في سلوكه ، معتدلا في تفكيره وعباداته ، يرجو رحمة الله ، وفي نفس الوقت يخشى عذابه .

كما أن عليه : أن يكون متوازنا _ ثانيا _ في عرضه لمبادئ هذا الدين ، وفي الدعوة إليه ، فيقدم الصورة كاملة ، بحيث لا يتعرض لجانب التخويف والعذاب ، وعـــرض صوره وأدلته فقط ، كما لا يتعرض لجانب الرجاء والعفو والثواب ، وعرض صوره وأدلته فقط ، بل يتعرض لهذا وذاك ، دون إهمال لأحدهما كلية ، أو طغيان له علـــى الآخر ، بل يلتزم المنهج الوسط ، والعرض الأمين ، والأسلوب المعتدل .

ثم يترك النتائج لله سبحانه وتعالى .

التدابير العلمية في الهجرة النبوية

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

من الأمراض الخطيرة التي هدت كيان الأمة الإسلامية حالة الاتكالية الغيبية الصوفية التي بذرت في التربة الإسلامية فوجدت نفوسا جاهلة غير قادرة على الأخذ بالأسباب العلمية، كما ساعدت الجاهليات المتجذرة في نفوس بعض البلدان التي فتحها المسلمون، هذه التوجهات الغيبية الجاهلة ساعدت تلك الجاهليات والنفوس الخبيثة على تدعيم الاتكالية الغيبية الخطيرة، فضاعت الأمة، وهدمت حضارتها العلمية وحل محلها الحضارة الانهزامية التي دعت ما لقصير لقصير وما لله لله وأذكر أنني سافرت في سفر طويل بالسيارة فوجدت العجب العجاب وجدت مهندسين ومعلمين لم يأخذوا بالأسباب العلمية في تجهيز سياراتهم وكان السبب الرئيس في هذا المسلك العجيب هو حالة الاتكالية العجيبة، وخاصة اننا كنا سنمر على بيت الله الحرام ومسجد رسول الله ﷺ فظنوا أن هذا يسمح لهم بعدم الأخذ بالأسباب العلمية والاتكال على أنهم قاصدون البيت الحرام ومسجد المصطفى ﷺ وقال لي أحدهم تعطلت سيارتي (بسبب عدم صيانتها وصلاحيتها للسفر الطويل)، فدعوت رسول الله فسارت السيارة، قلت له لقد أخطأت انك دعوت رسول الله صلى الله من دون الله، وأنك لم تأخذ بالأسباب، فلا أظن أن هذا سبب إصلاح السيارة وسيرها.

الهجرة والتدابير النبوية العلمية :

بدأ التخطيط العلمي للهجرة بعرض النبي ﷺ نفسه على الوافدين إلى مكة وعقد بيعة العقبة الأولى والثانية وبايعهم المصطفى ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والكسل والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا تأخذهم في الله لومة لائم، وأن ينصروه ويمنعوه إذا قدم إليهم بما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم.

٢ ــ أرسل المصطفى ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم وليمهد البيئة في المدينة المنورة لقدوم المصطفى ﷺ والمهاجرين.

٣ ــ ألمح المصطفى ﷺ لأبي بكر بالهجرة قائلا: " على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي " وهنا استعد أبو بكر للصحبة وحبس نفسه على الهجرة.

٤ ــ أمر جبريل رسول الله ﷺ ليلة الهجرة بأن يترك بيته هذه الليلة فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، وهذا قمة الأخذ بالأسباب الدنيوية.

٥ ــ تجهيز البعيرين بعلفهما مدة كافية (أربعة أشهر) حتى يتحملا مشقة السفر و وعورة الطريق.

٦ ــ اختيار الدليل الخبير بالطريق حتى ولو كان كافراً، المهم أن يكون عالماً بالطريق أميناَ، في سلوكه وأخلاقه، وهذا ما أثبتته نتائج الأحداث، فقد سار بهم الدليل في طريق وعرة، بعيدة عن مدارك الكفار والمشركين، حيث استأجر المصطفى ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتا ــ والخريت الماهر في الهداية ــ فدفعا إليه راحلتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق الساحل كما ورد في البخاري.

٧ ــ دبر المصطفى ﷺ من يبيت في فراشه، فلم يترك الفراش خالياً، حتى لا تبعث مكة في طلب النبي صلى عليه وسلم فور اكتشاف خروجه، حتى إذا اكتشفوا ذلك يكون المصطفى ﷺ قد دبر أمر نفسه، كما أختار المصطفى ﷺ لذلك رجلا شجاعاَ شابا فتيا قوياَ مخلصاَ صادقاَ شجاعاً، هو الإمام علي رضي الله عنه، حتى لا يخاف من الأعداء ويأتي بحركة مغايرة للمطلوب، وهكذا ظهرت العلمية في أعلى صورها وأجل معانيها في التدابير السابقة واللاحقة بإذن الله .

٨ ــ خرج المصطفى ﷺ من بيته مقنعاَ في وقت الظهيرة حيث الحر والقيلولة، وهجوع الناس في ديارهم اتقاء الحر الهاجرة، ومن يعش في القرى والصحراء يعرف خلو الطرقات من المارة في هذا الوقت .

٩ ــ وعندما وصل المصطفى ﷺ إلى بيت أبي بكر قال له : (أخرج مــن عنــدك) خوفا من وجود من لا يؤتمن على السر من الخدم والزوار وغيرهم، فقال أبو بكــر إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله وقد أثبتت النتائج صدق تصور أبي بكــر في أبنائه وحسن تربيتهم.

١٠ ــ تجهيز المأكل والمشرب والظهر وإعداده للرحيل ومشاركة أولاد أبي بكر في الأمر ليستشعروا عظم العمل، ويعذروا والدهم لتركه إياهم .

١١ ــ تجهيز الميزانية المالية المطلوبة للرحلة و مشاركة المصطفى ﷺ في تكاليف الراحلة وقول الرسول ﷺ (بالثمن) عندما عرض أبو بكر عليه إحدى الراحلتين.

١٢ ــ تحديد مكان اللجوء السريع والاختفاء عن الأنظار فلجأ المصــطفى ﷺ غــار ثور، وقد حدد المصطفى ﷺ مدة ثلاثة أيام للاختباء فيه حتى يهدأ الطلب من مكــة، وتكف عن الملاحقة لقناعتها انها عاجزة عن اللحاق به.

١٣ ــ الخروج من الباب الخلفي لبيت أبي بكر، فلم يخرج من الباب الرئيس للبيــت إمعاناً في الأخذ بالأسباب.

١٤ ــ كتمان الخبر عن الجميع ما عدا آل أبي بكر وسيدنا علــي والــدليل وتوزيــع المهام عليهم.

١٥ ــ تكليف عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ومحل ثقته أن يتأتي بغنم أبي بكر لــيلاً فيتزود الركب من حليبها ولحمها وتقوم بمحو آثار الأقدام من الطريق المأهول إلــى الغار.

١٦ ــ تكليف عبد الله بن أبي بكر بمهمة الإعلام و التغطية الميدانية لكفار مكة، ونقل صورة ميدانية حقيقية لما يدور في مكة على أن يأتي كل يوم بحصاده الإخباري.

١٧ ــ عند الخروج من الغار اختار المصطفى صلى الله وسلم طريق الساحل، ولــم يمض الركب في الطريق المعتاد وقد أثبتت النتائج حسن هذا التدبير.

١٨ ــ دخول " أبي بكر " أولا إلى الغار لتهيئته للقائد حتى لا يصاب بأذى، وهذا قمة العلمية وما يفعله الرؤساء حاليا لأن الحفاظ على القيادة يحفظ المسيرة. أما أبو بكر فهو فرد من المسلمين لا تموت الدعوة في مهدها بموته .

١٩ ــ أرسل الله العنكبوت لينسج خيطا ماديا إمعانا في الأخذ بالأسباب العلمية في التخفية، وتعليما للمسلمين في التمويه والأخذ بالأسباب المادية من نواميس الله في الخلق.

٢٠ ــ تحييد أمر سراقة وتبشيره بأساور كسرى والتمكين مع إعطائه درسا ماديا في الإيمان عندما ساخت أقدام فرسه في الرمال فكان أول النهار طالبا لرسول الله والفدية وفي آخر النهار مدافعاَ ومخذلا عنه، وصارفاً للكفار ومثبطاً لهم عن الاستمرار في البحث عن المصطفى ﷺ .

٢١ ــ عندما وصل المصطفى ﷺ إلى خيمة أم معبد وبيت المرأة الأخرى طلب منهما شاة ليحلبها ويجلس على ضرعها، وهذا يؤكد أخذ الرسول ﷺ بالأسباب المتاحة من الكائنات الحية وتأكيد علمي عملي على أن الحياة لا تتولد إلا من الحياة .

٢٢ ــ تجنب المصطفى ﷺ مواطن العملاء فقصد بيتا متفردا عن الحي ولما أخبرته المرأة بمكان عظيم القوم وأشارت عليه أن يذهب إليه لم يفعل ذلك، وهذا موقف علمي عملي فإن زعماء قريش قد أرسلوا إلى زعماء القبائل وأغروهم بمكافأة مالية من الإبل إن هم أتوا برسول الله ﷺ بالحيطة والحذر ولم يذهب.

٢٣ ــ لم يميز رسول الله ﷺ نفسه عن أبي بكر في اللباس والهيئة حتى أن أهل المدينة لم يفرقوا بينهما عندما وصلا إليها، وفي هذا زيادة في عدم جذب الأنظار للمصطفى ﷺ في الطريق.

هذه كانت بعض التدابير العلمية في الهجرة النبوية تثبت أن ديننا دين العلمية الواقعية التجريبية، وأن ما يدعيه البعض من الصوفية أنهم تخطوا الحواجز المادية هو ضرب من الجهل بماهية الإسلام وواقعيته وعلميته وتسخير ونواميس الله في الخلق لصالح الإنسان وباقي المخلوقات الحية في الكرة الأرضية.

وهذا درس خاص لشباب المسلمين يعلمهم الأخذ بالأسباب العلمية في حياتهم الدراسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وعدم التواكل على أسباب لم يبذلوا جهدا فيها، وإذا فعلنا ذلك أصبحنا قادة خلقية تطبيقةً عمليةً في هذه الحياة الدنيا كما كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم.

التورية عند الضرورة

الكناية والتورية في الإجابة على أسئلة الأعداء أو الخصوم دون التصريح ، للحفاظ على الكليات الخمس ، أو واحدة منها _ وهي : النفس ، والدين ، والعرض ، والنسل ، والمال _ لنفسه ، أو لغيره : أمر لا يعد كذبا ، عند الضرورة لذلك .

وعدم استعمال هذا الأسلوب – عند استشعار الحرج فيه ، أحيانا – قد يؤدى إلى ضرر أفدح منه .

وهو درس واضح في سيرة النبي ﷺ بعامة .

كما هو واضح في الدروس التي تستفاد من هجرته ، ﷺ ، على النحو التالي :

ففي البخاري . . " عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة ، وهو مردف أبا بكر ، وأبو بكر : شيخ يعرف ، ونبي الله ﷺ : شاب لا يعرف .

قال : فيلقي الرجل أبا بكر ، فيقول : يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك . . ؟ فيقول : هذا الرجل يهديني السبيل .

قال : فيحسب الحاسب . . أنه إنما يعني الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير " . " ٥٣ "

وليس صمت النبي ﷺ ، وإقراره لتورية أبا بكر هذه : هي المستند الشرعي فيها فقط ، وإن كانت كافية .

بل : إن النبي ﷺ _ كما في طبقات ابن سعد _ كان قد قال له : " ألله الناس عني " " ٥٥ "

وهو درس جد عظيم . . حيث يبيح للمضطر _ ويرشده إلى _ وسيلة ينجو بها ، أو يحمي بها غيره ، من الهلاك أو الإيذاء ، وفي نفس الوقت يتيح له عدم الوقع تحت غائلة الكذب .

وليس هذا ترخصا في الدين ، أو استهانة بأحكامه ، أو تلاعبا بتعاليمه ، بل هو التشريع الذي يحفظ النفس أو الدين ، أو العرض ، أو النسل ، أو المال للمرء ذاته ،

أو لغيره ، ممن تضطره الظروف والأحوال أن لا يفشي لهم سرا ، أو يذيع لهم خبرا ، إذ يقول ﷺ " إن في المعاريض : لمندوحة عن الكذب " " ٥٦ "

بل إن الذي يستفيد من هذا الدرس ، ويستعمله _ عند الضرورات أو النوازل _ لا ينجو بنفسه ، أو يحمي غيره ، من ضرر محقق ، فقط : إنما يثاب على ذلك أيضا .

ففي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : " المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه : كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة : فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة " " ٥٧ "

كل ذلك : بشرط أن لا يكون كتمان هذا السر والتورية عنه ، لا يسبب ضررا للمسلمين _ أفرادا كانوا أو جماعات _ أو لبلادهم ؛ إذ آن دفع الضرر عنهم : أولى وأوجب من قدسية كتمان السر والتورية عنه .

حيث إنه ما صار سرا ، ولا وجب التورية عنه إلا خوفا من : كيد الأعداء ، أو بطش الخصوم وإيذائهم للفرد أو للجماعة ، أو للأمة .

والمقصود من حفظ هذا السر أو التورية عنه _ كما هو معلوم _ حماية النفس أو الغير من أفراد المسلمين ، أو جماعاتهم ، أو الأمة بأسرها .

إن الدعاة إلى الله : لا بد وأن يكونوا على قدر من الوعي والنباهة ، وحضور البديهة ، وحدة الذاكرة لدرجة تجعلهم يدركون حجم الخطر ، ويقدرون على خداع عدوهم ، والإفلات من بين يديه ، أو النجاة من إيذائه ، وبطش طغيانه ، دون استعمال أسلوب الكذب الصراح إلا عند الضرورة القصوى ، التي لا تجدي فيها كناية ، ولا تنفع فيها تورية . " ٥٨ "

الحكمة من استئجاره عليه الصلاة والسلام دليلاً لطريق الهجرة

تاريخ الفتوى : ... ٠٧ رجب ١٤٢٣ / ١٤-٠٩-٢٠٠٢

السؤال

من الذي سار مع الرسول صلى الله عليه وسلام ليلة الهجرة هو وأبوبكر من هذا الرجل

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فإن هجرة رسول الله ﷺ مليئة بالدروس والعظات والعبر، وكذلك سيرته كلها؛ بل وحياته كلها.

فعلى المسلم أن يتعلم من ذلك ما يدعوه إلى محبته صلى الله عليه وسلم،

فإن ذلك واجب على المسلم، ولا يكمل إيمانه حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين، ومن نفسه التي بين جنبيه .

ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين".

وفي هجرة رسول الله ﷺ كان بصحبته أبوبكر رضي الله عنه -كما أشار السائل- وكان معهما عبد الله بن أريقط الدؤلي وكان مشركاً ولكن رسول الله ﷺ استأجره ليدله على الطريق وكان خريتاً ماهراً.

وبعض الروايات تقول: إن عامر بن فهيرة مولى أبي بكر كان بصحبتهما وكان يخدمهما، وكان قد أسلم قبل ذلك، والمتأمل في هجرة رسول الله ﷺ وفي أخذه لكافة الاحتياطات اللازمة يعلم أن المسلم يجب عليه أن يأخذ بالأسباب ثم بعد ذلك يتوكل على الله تعالى، كما فعل الرسول ﷺ وقال لأبي بكر "ما ظنك باثنين الله ثالثهما". رواه البخاري ومسلم، وكان بإمكانه ألا يتخذ سبباً وهو على يقين بأن الله ناصره،

ولكنه ﷺ مشرع لأمته فيبين لهم أنه لابد من أخذ الأسباب، ولهذا السبب استأجر ذلك الرجل المشرك عبد الله بن أريقط ليدله على الطريق .

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

الداعية المطارد

الخطيب: عائض القرني

الخطبة الأولى

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ ، وشر الأمـــور محـــدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الجيل الموحد، يا حملة المبادئ، أيتها الكتيبة المقدسة: نقف هذا اليوم نحيي بملء القلوب والأجفان والأسماع رسولنا ، نحييه في أول العام الهجري، وهو رجل الهجرة الأول، نعيش اليوم مع الأطفال في أيام طرد هو من أطفاله، ونعيش اليوم منعمين في الدور والقصور، في أيام شرد من دوره، ونعيش اليوم مرفهين سعداء، في أيام عاشها هو كلها أسى، وكلها لوعة، يقدم رأسه وروحه من أجل لا إله إلا الله.

إنها الهجرة، وعنوان الخطبة:

(الداعية المطارد).

طارده أقاربه وأرحامه وأصهاره، فما سبب المطاردة؟ لأنه يحمل مبدأ الإنقاذ، لمـــاذا طورد؟ أمن أجل أنه أتى لينهب الأموال، ويسفك الدماء، ويحتل الأراضـــي، ويبتـــز المعطيات؟ لا.. من أجل أنه أتى لينقذ الإنسان، ليخرج الإنسان مـــن الظلمـــات إلـــى النور؟

هذا حديث الهجرة، أغلقت فئة أبوابها في وجه الابن البار، وأنذرته في خلال أربـــع وعشرين ساعة أن يغادرها، ولا يبقى في ساحتها.

عجيب.. ولد في ربوعها، ترعرع في تلالها، شرب ماءها، استنشق هواءها، وتقـــول له مكة: اخرج، إلى أين؟ لا ندري.

وليتهم تركوه ليخرج سالماً معافى، لكن يريدون أن يخرجون جثة، أو يحبسوه ويقيدوه بالحديد، أو ينفوه من الأرض : {وإذ يمكر بك الذين كفـــروا ليثبتـــوك أو يقتلـــوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} الأنفال:٣٠.

تخفى قبل أن يذهب.

تخفيت من خصمي بظل جناحه . *** . فعيني ترى خصمي وليس يراني

فلو تسأل الأيام عني ما درت ... *** ... وأين مكاني ما عرفن مكاني

دخل في غرفة علي أو في بيته هو، وطوقه الكفرة الفجرة؛ لأنه يهدد مصالحهم التي بنيت على الظلم، ولأنه يصادر شهواتهم، ولأنه لا يطاوعهم في نزواتهم.

إن أهل الباطل قديماً وحديثاً يرون في حملة المبادئ، وفي رواد الحق، خصماء على طوال الطريق؛ لأنهم يقولون لهم: لا، في كل معصية، وفي كل شهوة، وفي كل نزوة، طوقوا بيته بالسيوف المشرعة، وتحروا متى يخرج ليفتكوا به، وهنا تأتي الشـــجاعة، ليست الشجاعة التي يبديها الناس، من أجل أراضيهم ومزارعهم ومناصبهم، الأنـــوف الحمراء التي تغضب للجيوب والبطون، السيوف المسلولة من أجل التراب والطـــين، أما محمد – عليه الصلاة والسلام –، فيقدم رأسه من أجل مبدئه، يتحدى الشـــمس أن تهبط في يمينه، والقمر أن ينزل في يساره، والله لو نزلت الشمس ونزل القمـــر، مـــا تزحزح خطوة واحدة، حتى تعلن لا إله إلا الله أصالتها في الأرض.

طوقوه، وأتاه جبريل، أخبره قائلاً: الخصوم خارج البيت، يريدون قتلك، فيقـــول: إن الله معنا، لله درك، ولله در الشجاعة المتناهية، ولله در الروح العالية:

يا قاتل الظلم ثارت هاهنا وهنا ... *** ... فضائح أين منها زندك الواري

الشمس والبدر في كفيك لو نزلت .. ** .. ما أطفأت فيك ضوء النور والنار

أنت اليتيم ولكن فيك ملحمة ... *** ... يذوب في ساحها مليون جبار

فخرج من البيت بلا سيف، وهم بالسيوف، وخرج بلا رمح، وهم بالرمـــاح والعـــار، وأخذ حفنة من التراب، فألقى الله النوم عليهم فناموا، وسقطت سيوف الخزي والعـــار

من أيديهم، فخرج ونثر التراب والغبار على رؤوس الفجار، وهو يقول: {وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون} يس:٩.

نقف اليوم بعد هذا الحدث، بأربعة عشر قرناً لنأخذ دروساً.

أولاً: درس التوكل على الله، وتفويض الأمر له، وصدق اللجأ، فلا كافي إلا الله، يقول سبحانه على لسان أحد أوليائه: {وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصيرٌ بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا} غافر:٤٤-٤٥. ويقول سبحانه وتعالى لرسوله: {ويخوّفونك بالذين من دونه} الزمر:٣٦.

وكل من دون الله فهو تحته ودونه وعبد له، فلا قيمة له، ولا وزن ولا تأثير.

والناس اليوم يحملون صدق التوكل والانتصار بالله في أذهانهم، لا في حياتهم وتصرفاتهم، إنهم أجبن من كل شيء، وأجبن ما يكون عندما تهدد لا إله إلا الله.

إن قضية الوظائف قد استعبدت البشر، والمناصب، والموائد، والجاهات، والشارات؛ إنها تستبعد الحر الشجاع، فتجعله ذليلاً جباناً، لا يقول كلمة الحق (تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة)١

إن محمداً – عليه الصلاة والسلام –؛ أراد أن يبني جيلاً قوياً شجاعاً، يقدم الواحد منهم رأسه لمبدئه، وروحه لمنهجه، ولكن طال الأمد وقست القلوب، وانطمس المنهج، وأصبحت الأمة تعيش خواءً عقدياً، أخوف ما تكون من البشر، انظر إليهم، والله إن البشر عندهم أخوف إليهم من رب البشر، فكم يخافون، كم يجبنون، وكم يصيب أحدهم الزلزلة والرعدة من تهديد بسيط يتعرض لوظيفته، أو لمنصبه، أو لدخله ورزقه، ولا يرزق إلا الله، ولا يخلق إلا الله : {واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً} الفرقان:٣.

إن قصة الهجرة، يتجلى فيها التوكل، كأحسن ما يتجلى في أي صورة وفي أي موقف. يدخل الغار، ويتكرر لنا حديث الغار، ونعيد دائماً حديث الغار؛ لأن أول التاريخ بدأ من الغار، والنور انبعث من الغار، فمن يمنعه – عليه الصلاة والسلام –،

أين موكبه، أين أقواس النصر التي تحف الناس، أين الجنود المسلحة التي تحمي عظماء الناس وكبراءهم، وهم أقل خطراً وأقل شأناً منه، لا جنود، لا حراسة، لا سلاح، لا مخابرات، لا استطلاع.

وإذا العناية لاحظتك عيونها *** نم فالحوادث كلهن أمان

فيقول أبو بكر، يا رسول الله والله لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآنا، فيتبسم عليه الصلاة والسلام، والتبسم في وجه الموت أمر لا يجيده إلا العظماء، حتى يقول المتنبي يمدح عظيماً، لا يستحق أن يكون جندياً في كتيبة محمد – عليه الصلاة والسلام –:

وقفت وما في الموت شك لواقف . ***. كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... *** ... ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم

يتبسم – عليه الصلاة والسلام – ويقول: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما)٢ هل يغلب هؤلاء الثلاثة، أم تكون الدائرة على أعدائهم، إذا كان الله ثالثهما، فمن المغلوب؟ من هو الخاسر في الجولة؟ من هو المنهزم في آخر المعركة؟ ويقول عليه الصلاة والسلام، لأبي بكر مواسياً له: (لا تحزن إن الله معنا)٣ بعلمه – سبحانه وتعالى – وهي معية الحفظ والتأييد والتسديد لأوليائه، المعية التي صاحبت إبراهيم – عليه السلام –، وهو يهوي بين السماء والأرض، في قذيفة المنجنيق إلى النار، فيقول له جبريل: ألك إليّ حاجة؟ فيقول: أما إليك فلا، وأما إلى الله فنعم: حسبنا الله ونعم الوكيل، فكانت النار برداً وسلاماً.

والمعية التي صاحبت موسى راعي الغنم، الذي يحمل عصاه، ولا يجيد اللغة أن ينطقها، ويدخل إيوان الظالم السفاك المجرم فرعون، حرس فرعون أكثر من ثلاثين ألفاً، الدماء تسيل في البلاط الملكي الظالم، موسى يلتفت ويقول: يا رب: {إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى} طه:٥.

فيعلمه الله درس التوحيد والتوكل: {لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} طه:٤٦. إنني معكما أسمع وأرى. نواصي العباد بيديه، رؤوس الطغاة في قبضته، مقاليد الحكم بيمينه، لا يصرف متصرف إلا بقدرته.

يطارد سراقة محمداً -عليه الصلاة والسلام -، فلا يلتفت، يقرأ القرآن ولا يلتفت؛ لأن الله معه، يدعو على سراقة، فيصبح سراقة مهدداً بالموت فيقول: يا محمد، اكتب لي أماناً على حياتي، أنت الآن محميّ، وأنا مهدد، بالله لا تقتلني.

فرّ من الموت، وفي الموت وقع!!.

محمد - عليه الصلاة والسلام - يتبسم، ويقول: (يا سراقة، كيف بك إذا سُوّرت بسواري كسرى؟) أين كسرى؟! امبراطور فارس، ديكتاتوري الشمال، المجرم السفاك، فيضحك سراقة كأنه ضربٌ من الخيال، هذا يستولي على امبراطوريات الدنيا!! هذا يلغى مملكة العالم!! وهو لا يستطيع أن ينجو بنفسه.

وبالفعل تم ذلك، ودُكدك الظلم، وفتح الشمال، ورفرفت لا إله إلا الله على الإيوان.

ما نازل الفرس إلا خاب نازلهم . *** . ولا رمى الروم إلا طاش راميها

وخالد في سبيل الله مشعلها ... *** ... وخالد في سبيل الله مذكيها

وما أتت بقعة إلا سمعت بها ... *** ... الله أكبر تسري في نواحيها

الثاني: من دروس الهجرة: أن الله يحفظ أولياءه، نعم يؤذون، ويضطهدون، ويحبسون، ويقدمون رؤوسهم رخيصة لله، ولكن ينتصرون، لأن العاقبة للمتقين: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار} غافر:٥١-٥٢. والنتيجة الحتمية، أنهم هم المنتصرون في آخر المطاف، وأن الباطل مهما انتفش، ومهما علا، ومهما كبر، فإنه كما قال سبحانه: {فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} الرعد:١٥. الباطل له صولة، والحق له دولة، والعاقبة للمتقين، وتكفل الله أن يحفظ دعائم هذا الدين، والمتمسكين به، والمنضوين تحت لوائه، فمهما تعرضوا له من الإساءات، والاضطهاد والإقصاء، والاستخذاء، فإنه لا يزيدهم إلا إصراراً على مبادئهم، وشمماً وقوة.

الثالث من دروس الهجرة: عالم التضحيات والبذل، تحقق في سيرته، عليه الصلاة والسلام، لكن ما فعلت أنا، وماذا فعل أنت لهذا الدين؟ ماذا قدمنا؟ ومحمد عليه الصلاة

والسلام، شغله الشاغل، أنفاسه، خواطره، أفكاره، أمواله، أهله، روحه، لله، يقول في أحد مواقفه: (والذي نفس محمد بيده؛ لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل)٤

هاجر من مكة مطروداً، أغلقت مكة أبوابها في وجهه، ووقف في حمراء الأسد، يخاطب مكة، فبينه وبين مكة كلام رقيق مشوق.

إذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا ..... ألا تفارقهم فالراحلون همُ

يا من يعز علينا أن نفارقهم ....وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

يقول لمكة: (والذي نفسي بيده إنك من أحب بلاد الله إلى قلبي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)٥ ثم تدمع عيناه ويذهب، بناته أمامه، يضربن، فلا يستطيع أن يدفع عنهن الظلم، يوضع السلا على رأسه وهو ساجد فلا يتحرك، وهم يضحكون، ثم تأتي فاطمة – رضي الله عنها – فتلقي السلا عن ظهره، فلما قضى رسول الله – ﷺ – الصلاة قال: (اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد). قال عبد الله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر٦

فصلى الله وسلم وبارك عليك يا رسول الله.

تباع غُرفه في مكة، بعقد يتولاه عقيل بن أبي طالب، أعمامه يكذبونه أمام الناس، يحثى التراب عليه، يطارد بعيداً بعيداً، يشج رأسه، ويدمى أصبعه، وتكسر رباعيته، فيصبر ويحتسب.

يريدون إغلاق صوته، فيزداد الصوت، أقوى، وأعظم، وأعمق، وأأصل، فيصل إلى المدينة فإذا الدنيا تتحدث عنه.

ولولا اشتعال النار فيما جاورت ... *** ... ما كان يعرف طيب نفح العود

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... *** ... طويت أتاح لها لسان حسود

هكذا العظمة، وهكذا الريادة.. وينصت العالم له، ويسمعون كلمته، ويقويه الله بجنـــد من عنده، وتحف به الملائكة.

وقاتلت معنا الأملاك في أحد ... *** ... تحت العجاجة ما حادوا وما انكشفوا

سعدٌ وسلمان والقعقاع قد عبروا ... *** ... إياك نعبد من سلسالها رشفوا

إذاً التضحية هكذا، أن تقدم دمك، ومالك، ودموعك، ووقتك للإسلام، وإلا الركعـــات والتسبيحات، التي يمتن بها كثير من الناس، ولكنهم لا يحترقـــون علـــى الـــدين ولا يغضبون لانتهاك محارم إياك نعبد وإياك نستعين، فهؤلاء لا يستطيعون أن يتقـــدموا معك خطوة، لنصرة لا إله إلا الله، هذا عالم آخر.

الرابع من الدروس: ماذا قدمنا للعام الهجري المنصرم، ذهب من أعمارنا عام، مات فيه قوم، وعاش قوم، واغتنى قوم، وافتقر قوم، وتولى قوم، وخلع قوم، فماذا قـــدمنا للإسلام؟ ولك أن تتعجب معي، وإن تعجب، فعجب فعلهم في هجـــرة محمـــد عليـــه الصلاة والسلام، أين هي الصحف الصباحية ؟ أين هي الشاشة؟ أين صحفٌ لا تحيي محمداً عليه الصلاة والسلام، كتابها حسنة من حسناته، كتابها متطفلون على مائدتـــه، كتابها أحرار لما أخرجهم من الرقّ؛ رق الوثنية والعبودية لغير الله، بلاد ما أشـــرقت عليها شمس إلا بدعوته، ولا تحييه!! لا كلمة، ولا عموداً صغيراً، ولا زاوية تحيـــي المصلح العظيم. والله لقد قرأت أخباراً عن كلاب، حدثت لها وقائع ومصـــائب فـــي الغرب وترجموا لها، لكن محمداً – عليه الصلاة والسلام –، لا يجد من يترجم له.

ونقول للكتبة وللمحررين وللنخبة المثقفة – كما تزعم – ولأهل الكلمة، ولأبناء الفكر، لا عليكم : {وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} محمد:٣٨. لا عليكم إن بخلتم بأقلامكم على محمد – عليه الصلاة والسلام –، وعـــلا صـــفحاتكم الفنيـــة كواكب الفن وشموس الغناء، فعندنا جيلٌ الآن، أعلن توجهه إلـــى الله، جيـــل كتـــب الهجرة بدموعه، وحفظ المسيرة بقلبه، وأصبح حب محمد عليـــه الصـــلاة والســـلام، يجري في دمه. عندنا جيل كعدد الذر، كلهم والله يتمنى اليوم قبل غد، أن يقتـــل فـــي سبيل الله، من أجل مبادئ محمد – عليه الصلاة والسلام –، هذا أثره – عليه الصلاة

والسلام – علينا، وهذا موقفنا من دعوته ورسالته، تُبحث الأفكار إلا فكره!! وتدرس المناهج إلا منهجه!! ويتكلم عن الشخصيات إلا شخصيته.

ورأيت في صحيفة زاوية، خصّصتها للأعلام والمشاهير ولوفياتهم.

إنهم مشاهير السفك والنهب في العالم؟ مشاهير القتل والإبادة، واستخذاء الشعوب، أما المحرر الأول، أما إنسان عين الكون، أما الرجل الذي أصلح الله به الأمة، فلا كلام، ولا ترجمة!! فبماذا يعتذر هؤلاء أمامه – عليه الصلاة والسلام – غداً.

ولا يفهم فاهم، أو يزعم زاعم؛ أني أريد أن ننشئ له عيد هجرة، فالإسلام لا يقر هذا، ولا عيد ميلاد، فالإسلام لا يؤمن بهذا، ولا أن نجتمع في زوايا، وفي خلايا، وفي جوانب، لنرقص كما يرقص المخذولون المتهوكون، بالنشيد والتصفيق، فتحيته ليست هكذا. تحيته؛ أن نطهر بلاده مما طهرها هو، فتكون بلاداً مقدسة، تحيته أن نسير على خطواته، وأن نقتفي منهجه، وأن نضحي لمبدئه، أعظم مما يضحي الثوريون العرب، والماركسيون العرب، والاشتراكيون العرب، للأقزام الملاعين، وللنخبة المخذولين، وللأصنام المبعدين.

تحيتنا له؛ أن نقف مع سنته، وننشرها في الأرض: (بلغوا عني ولو آية)٧

(نضر الله امرئً سمع مني مقالة، فوعاها، فأداهما كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع)٨ إن عالَم البادية، الذي كان يسجد للحجر ويجمع التمر على صورة صنم، ويصلي له، ويأتي إلى الوثن الذي تبول عليه الكلاب والثعالب، ويدعوه أن يشفي مريضه لهو عالَم ضال.

رب يبول الثعلبان برأسه *** قد ضل من بالت عليه الثعالب

فمن الذي حرر البشرية من هذا؟ إنه محمد – عليه الصلاة والسلام – ؟ وإن العجب العجاب، أن تحتفل جهات متعددة بنظافة البيئة، محاضرة في نظافة البيئة، ومحاضرة في فن السياحة، ومحاضرة في أدب الاصطياف، ولم يبق إلا محاضرة رابعة في بيطرة البقر، وما هو علاج البقر، ومن هم الأبطال الذين يعالجون الأبقار من أمراضها.

علي نحت القوافي من معادنها *** وما علي إذا لم تفهم البقر

لماذا لم تعد محاضرة بعنوان: أثر رسالته عليه الصلاة والسلام على العالم؟ لماذا لا يأتي هؤلاء المحللون والمنظرون بمحاضرة عن: ((الإسلام وحاجة العالم إليه))، ((نحن والقرآن))، ((ماذا قدمنا للعالم))، ((أثر لا إله إلا الله في حياة الإنسان)) أما هذه المحاضرات التي شبع منها الناس، ومجتها الآذان، وأصبحنا نصاب بغثيان من سماعها وترددها، فوالله إنها شغل للأقوات، وإنها تسويد للصحف، وإنها مجٌ للأسماع، ورداءة على القلوب.

هذا هو المهاجر الأول، هذا هو الداعية المطارد من أجل مبدئه، وهذه الصحف، وهذه الأقلام، ولكم أن تحكموا: {بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره} القيامة:١٤-١٥. {يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم * الذي خلقك فسوّاك فعدلك} الانفطار:٦-٧.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو التواب الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقدوة الناس أجمعين، وحجة الله على الهالكين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أيها المسلمون:

في مثل هذا الشهر، طورد داعية أول، أخٌ له عليه الصلاة والسلام، نهجهُ نهجه، ومسيرته مسيرته، ودعوته دعوته، إنه موسى عليه السلام: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً} الفرقان:٣١ .

لا يبعث نبي، إلا وقد هيأ الله طاغية هناك يتربص به، ولا يحمل رائد من رواد الدعوة مبدأ، إلا ويتهيأ له ظالم يرصده، سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، في هذا الشهر خرج موسى مطروداً من

مصر، يطارده فرعون المجرم؛ بستمائة ألف مقاتل: فاستخف قومه فأطاعوه الزخرف:٥٤ .

قطيع الضأن، الشعوب التي لا تفهم إلا الخبز، ولا تفهم إلا الأكل، ولا تفهم إلا ثقافة القِدْر والجيب والبطن، تصفق للطاغية، وتحثوا على رأس الداعية، الشعوب المهلهلة، المهترية، المتهالكة من داخل، طاردت موسى، يريدون قتله؛ لأنه يريد أن يحرررهم، ويقولون: لا، يريد أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويقولون: لا، يريد أن يرفع رؤوسهم، ويقولون: لا، اصطدم بالبحر، الجيش وراءه والموت والبحر أمامه، إلى أين يا رب؟ إلى الله. التفت موسى ودعا، والله قريب : {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي} البقرة:١٨٦ . بنو إسرائيل ولولوا، الخونة خافوا، الجبناء ارتعدوا، انهارت حوله الكتائب، يا موسى: {إنا لمدركون} الشعراء:٦١ . يتبسم موسى؛ كما تبسم محمد – صلى الله عليه وسلم– في الغار : {كلا إن معي ربي سيهدين} الشعراء:٦٢ . قالوا له كما ذكر بعض أهل السير: أين يهديك وفرعون خلفك، والبحر أمامك؟! هذه ورطة لا حل لها، هذا مضيق لا مخرج منه في عرف البشر، {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} (٦٢) سورة الشعراء ويتلقى الأمر في الحال، لا تتأخر اضرب بعصاك البحر، بسم الله، ضرب البحر، انفجر البحر، انفلق، ظهر لهم طريق، مشى موسى، ومشى بنو إسرائيل، وأتى المجرم يريد أن يجرب آخر جولة له في عالم الضياع، وفي مصارع الطغاة، والطغاة لهم مصارع؛ إما أن تلعنهم القلوب، وهم يسيرون على الأرض، وهذا مصرع، وإما أن يّشدخون كما شدخ هذا، وهذا مصرع، إما أن يدّخر الله لهم ناراً، وهذا مصرع.

ووصل فرعون وجنوده، ونجي موسى، وقال الله للبحر اجتمع فاجتمع، وكانت نهاية المجرم، دخل الطين في فمه، فلما أصبح في وقت ضائع قال: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} يونس:٩٠. فيقول الله: {آلآن} يونس:٩١.

في هذه اللحظة أيها المجرم الخسيس!! بعد أن فعلت من الأفاعيل ما تشيب له الرؤوس، لا، ونجى الله موسى.

والحدث أن الرسول – عليه الصلاة والسلام – يشارك أخاه في فرحة الفلاح والانتصار، ويشارك زميله في هذا اليوم الأغر، يوم عاشوراء، ولذلك تضامن معه، وتكاتف هو وإياه.

وجد بني إسرائيل، اليهود الخونة الجبناء، في خيبر والمدينة، يصومون عاشوراء، قال: (ما هذا اليوم قالوا يوم نجى الله فيه موسى قال: نحن أولى بموسى منكم)٩ موسى قريبنا، موسى حبيبنا، نحن حملة منهج موسى، لا أنتم يا خونة العالم، ويا حثالة التاريخ، ويا أبناء القردة والخنازير، فصامه وقال عليه الصلاة والسلام عن هذا اليوم، كما في صحيح مسلم: (إني أرجو من الله أن يكفر السنة الماضية)١٠

ومن السنة أن تصوم يوماً قبله، أو يوماً بعده؛ اليوم التاسع والعاشر من هذا الشهر، أو اليوم العاشر والحادي عشر من هذا الشهر، يقول عليه الصلاة والسلام: (لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع والعاشر)١١ فشكر الله لموسى دعوته ومنهجه وبذله وتضحيته، وشكر الله لمحمد – عليه الصلاة والسلام –، بذله وشجاعته وتضحيته من أجل هذه الأمة، وشكر الله لكل من سار على منهجه – عليه الصلاة والسلام –، وضحى من أجل مبادئه، وبذل من أجل دعوته، وساهم في رفع رسالته.

أسأل الله أن يجمعنا بمحمد – عليه الصلاة والسلام –، وبإبراهيم وبموسى وعيسى، وبالأخيار الطيبين، وبالشهداء الصالحين، وبالأبرار الصديقين، وبالشجعان الباذلين، في مقعد صدق عند رب العالمين.

أيها الناس:

صلوا على الداعية المطارد، والمهاجر الأول، والرسول الأعظم، والهمام الإمام، – عليه أفضل الصلاة والسلام –، ؛ ما ترقرق الغمام، وما جنح الظلام، وما أفشي السلام، وما كان في قلوبنا وفي أذهاننا إمام، ، ما فاحت الأزهار، وما تمايلت

الأشجار، وما تدفقت الأنهار، وما كور النهار في الليل والليل في النهار، ، ما تألقت عين لنظر، وما تحرقت أذن لخبر، وما هتف ورقٌ على شجر، وعلى آله وصحبه.

اللهم انصر دينك، ومنهجك، اللهم اجعله عاماً مباركاً، عاماً ينتصر فيه الدين، وترتفع فيه إياك نعبد وإياك نستعين.

وصلوا وسلموا على من أمركم الله بالصلاة والسلام عليه، فقال: {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً} الأحزاب:٥٦.

ويقول عليه الصلاة والسلام: (من صلى علي صلاة، صلى الله عليه بها عشراً)١٢

اللهم صل على نبيك وحبيبك محمد، واعرض عليه صلاتنا وسلامنا في هذه الساعة المباركة يا رب العالمين.

المصدر:

http://alminbar.al-islam.com/Default.aspx?ActionSpeachDetails&mediaItURL&subsubID٣٣٣٦

---

١ – أخرجه البخاري (١٧٥/٧).

٢ – أخرجه البخاري (١٩٠/٤).

٣ – أخرجه البخاري (١٩٠/٤).

٤ – أخرجه البخاري (١٤/١) ، ومسلم (١٦/٢) ، رقم (١٨٧٦).

٥ – أخرجه الترمذي (٦٧٩/٥) رقم (٣٩٢٥) وقال: حسن غريب صحيح ، ورقم (٣٩٢٦) وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وابن ماجه (١٠٣٧/٢) رقم (٣١٠٨) ، والدارمي (٣١١/٢) رقم (٢٥١٠).

٦ – أخرجه البخاري (١٣١/١ ، ١٣٢) ومسلم (١٤١٨/٣) رقم (١٧٩٤).

٧ – أخرجه البخاري (١٤٥/٤).

٨ – أخرجه أبو داود (٣٢٢/٣) رقم (٣٦٦٠) ، والترمذي (٣٣/٥) رقم (٢٦٥٦) وقال : حديث حسن ، ورقم (٢٦٥٧) وقال : حسن صحيح رقم (٢٦٥٨) ، وابن

ماجه (٨٥/١). رقم (٢٣١ ، ٢٣٢) وصححه الألباني كما في صحيح الجـــامع رقـــم (٦٧٦٣ – ٦٧٦٦).

٩ – أخرجه البخاري (٢٥١/٢).

١٠ – أخرجه مسلم (٨١٩/٢) رقم (١١٦٢).

١١ – أخرجه مسلم (٧٩٨/٢) رقم (١١٣٤).

١٢ – أخرجه مسلم (٢٨٨/١) رقم (٣٨٤).

الدروس المستفادة من الهجرة النبوية

مقدم الحلقة: ماهر عبد الله رحمه الله

ضيف الحلقة: الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: داعية إسلامي كبير

تاريخ الحلقة: ٢٠٠٢/٠٣/١٧

- الهجرة والأخذ بالأسباب والسنن الكونية
- أهمية التخطيط في العمل الإسلامي وعدم الارتجال
- كيفية تقديم الإسلام للآخرين أخذاً بالأسباب

يوسف القرضاوي

ماهر عبد الله

ماهر عبد الله: سلام من الله عليكم، وأهلاً ومرحباً بكم في حلقة جديدة من برنامج (الشريعة والحياة).

نعود في هذا الأسبوع للحديث عن موضوع الهجرة بمناسبة انتهاء عام هجري وبداية عام هجري.. عام هجري جديد. نستغل هذه الفرصة ونقول.. نتمنى أن يعود علينا مثل هذه المناسبة ومثل هذا اليوم وأحوال الأمة أحسن -ولو قليلاً- مما هي عليه هذا اليوم، لمناقشة الموضوع يسعدني أن يكون معي فضيلة العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، سيدي أهلاً وسهلاً بك مجدداً.

د. يوسف القرضاوي: مرحباً بك يا أخ ماهر، وبارك الله فيك.

ماهر عبد الله: يعني.. ستلاحظون أن فضيلة الدكتور قليلاً يعني صوته متوعك.

د. يوسف القرضاوي: نحمد الله.

ماهر عبد الله: فنرجو أن يرحمونا بالأسئلة لاحقاً. سيدي، هل ما يميز الهجرة أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يعني اختصارها عندما قال: لقد أخرجوني.. "إنك لأحب أرض الله إلي.. ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت".. يعني كانت تضحية كبيرة أن يترك الإنسان بلده من أجل البحث عن حياة أريح في.. في مكان آخر،

وكانت أيضاً يعني جزء من عمليته –صلى الله عليه وسلم– وأنه يعني بشر بكل ما في الكلمة من معنى عندما تضيق عليه بلاد يذهب للبحث عن بلاد أخرى، لو.. لو ابتدأنا بهذه القيمة التعويل على السنن والأسباب وعدم التعويل على معجزات، على كرامات في حياته صلى الله عليه وسلم.

د. يوسف القرضاوي: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلمنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، قبل أن أجيب عن سؤالك يا أخ ماهر، أود أن أقول كلمتين، الكلمة الأولى: كلمة تهنئة للمسلمين في أنحاء العالم بهذا العام الهجري الجديد، بعد عام حافل بالأحداث والمآسي للأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وحافل أيضاً بالبطولات والروائع في نفس الوقت، وكل ما ندعو الله –تبارك وتعالى– به أن يجعل العام الجديد عام خير وبركة وفتح للأمة الإسلامية.. وأن يجعل يومها خيراً من أمسها ويجعل غدها خيراً من يومها، هذه هي الكلمة الأولى.

الكلمة الثانية: هي كلمة عزاء، فقد جرت عادتنا في هذا البرنامج أن نودع العلماء الكبار الذين يرحلون عن عالمنا هذا ويفارقونا إلى العالم الآخر، وفي الأسبوع الماضي ودَّع إخواننا في سوريا الشقيقة وفي حلب الشهباء أحد العلماء الكبار الربانيين الذين عاشوا للعلم وللدين وللدعوة وللتربية وهو الشيخ عبد الله سراج الدين، نسأل الله –سبحانه وتعالى– أن يتغمده برحمته وأن يسكنه الفردوس الأعلى، الشيخ عبد الله سراج الدين رجل علم ودين وهو وارث العلم عن.. عن أبيه وهو من أقران أخينا وصديقنا الحبيب –رحمة الله عليه– الشيخ العلامة المحدث عبد الفتاح أبو غدة، وهذا الرجل كان من علماء الحديث ومن علماء الفقه، ومن الدعاة والمربين حتى قالوا إنه كان يحفظ كتاب "تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول" يحفظه برواياته وألفاظه ويذاكره مع تلاميذه.

لم أسعد باللقاء مع الشيخ عبد الله سراج الدين، ولكني عرفته من مريديه ومن تلاميذه الذين حكوا لي عنه حكايات كثيرة، ومنهم الأخ العزيز الحبيب العالم الباحث الداعية الشيخ مجد مكي.

والشيخ عبد الله سراج الدين هو خال أخينا وصديقنا العالم الباحث الجليل أستاذ التفسير والحديث الأستاذ الدكتور نور الدين عتر وهو أستاذ الأخ العالم الباحث الشيخ محمد عوامة، فهذا الرجل ودَّعه إخواننا في مدينة حلب الشهباء، فنحن نعزيهم ونعزي أنفسنا معهم، ونحن الآن في هذه الأيام يرحل الكثير من العلماء الكبار عن هذه الأمة ونسأل الله تعالى أن يعوضهم خيراً حتى لا يحدث ما نبأ به الرسول الكريم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبقى عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا" نسأل الله ألا نصل إلى هذه الحالة وأن يعوضنا عن العلماء الذين نفقدهم خيراً.. اللهم آمين، هذه هي الكلمة الثانية.

الهجرة والأخذ بالأسباب والسنن الكونية

ماهر عبد الله: سيدي، كنت سألتك عن أهمية موضوع الهجرة فيما يتعلق بحرص الرسول –صلى الله عليه وسلم– على الأخذ بالأسباب، ويعني متابعة سنن الكون بدل التعويل على المعجزات والكرامات، كيف شاركت الهجرة في.. في تبيان هذا؟

د. يوسف القرضاوي: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا يعني يتجلى لنا في مواقف كثيرة في الهجرة.

أولاً: كان الله –سبحانه وتعالى– قادراً على أن يهاجر برسوله عن طريق معجز كما أسرى به بطريق معجز، نحن نعلم أن الله –سبحانه وتعالى– أسرى برسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به من المسجد الأقصى إلى السموات العلى إلى سدرة المنتهى، كل هذا في ليلة واحدة أو بعض ليلة.. جزء من ليلة.. قالوا عاد وفراشه لازال دافئاً، فلماذا لم يفعل الله تعالى ذلك برسوله، بدل هذه المعاناة، كان يجيب له براق يركبه، وبدل ما يتعرض من الدخول في الغار، والتعرض للذين

يحاولون أن يأخذوه في الطريق، ويتعرض للمضايقات، وللاغتيالات ولهذه الأشياء كلها، كان ببراق يعني سهل أن ينتقل كما انتقل.. وأعتقد إن يعني المسافة من مكة إلى المدينة أقصر بكثير من المسافة من مكة إلى بيت المقدس، ولكن الله -سبحانه وتعالى- أراد برسوله أن يعاني ما يعانيه الناس، وأن يمضي حسب السنن السائدة في هذا الكون وفي هذا المجتمع ولا يخرج عن هذه السنن، ومن هنا وجدنا النبي -عليه الصلاة والسلام- يعني حتى قبل الهجرة.. الرسول -عليه الصلاة والسلام- بدأ يفكر في البدائل المختلفة، يعني هو دعا قومه من قريش، أهل مكة، استجاب له القليل والأقل من القليل.. والأكثرون أعرضوا عنه لأسباب شتى، بعضها يعني التقليد الأعمى، (إنا وجدنا آباءنا على أمه وإنَّا على آثارهم مقتدون)، وبعضهم الكبرياء يعني (لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ما تلاقيش إلا محمد اليتيم الفقير الكذا، وبعضهم حسب إن بني هاشم اللي يأخذوا السقايا والكذا والكذا، في الجاهلية وبعدين يجوا كمان يقولوا فينا نبي، كما قال ذلك أبو جهل، بنو مخزوم يقول لك تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف فأطعموا وأطعمنا.. وسقوا وسقينا وبعدين يجوا يقولوا منا نبي، فهذا الذي لا نستطيع، هناك أسباب شتى جعلتهم يقفون ضد دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، الرسول -عليه الصلاة والسلام- حينما وجد هذا الإعراض ماذا فعل؟ بيفكر.. التفكير البشري المعتاد ما هي البدائل؟ من البدائل مثلاً إنه ذهب إلى الطائف حيث هناك قبيلة ثقيف وعرض عليهم الإسلام وللأسف يعني قابلوه بأسوأ مقابلة وعاملوه أسوأ معاملة، ولم يجد منهم أي استجابة، وكان من البدائل المعروضة أمامه أن يعرض دعوته على القبائل، مكة تمتاز بأنها موسم للحجيج ويجتمع فيها العرب في كل عام من.. من أنحاء الجزيرة العربية، فهي فرصة يعني لا تعوض بالنسبة لصاحب الدعوة، لذلك النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يذهب إلى القبائل المختلفة ويعرض عليهم دعوته ويطلب منهم نصرته، من ينصره ويأخذ بيده ويشد أزره، فبعض القبائل كانوا يردونه رداً حسناً وبعضهم يشترط عليه شروطاً يقول طيب لما ننصرك هل يبقى لينا الأمر من بعدك؟ يبقى إحنا الحكام من بعدك؟ يعني

فعايزين مقابل دنيوي، فكان النبي -عليه الصلاة والسلام- يرفض أي اشتراط من هذا النوع، وكان يعني النبي -عليه الصلاة والسلام- يعني حريص إلى أن هيأ الله له الأسباب، برضو أسباب طبيعية.. إنه بعض الناس الذين عرض عليهم هذا وكانوا من الخزرج، ستة من الخزرج جاءوا من يثرب، فحينما عرض عليهم الدعوة تفتحت آذانهم وقلوبهم وعقولهم لهذه الدعوة، وأقبلوا عليها ودخلوا في الإسلام، خصوصاً هيأهم لهذا الاستقبال للدعوة إنهم كانوا يسمعون من اليهود جيرانهم في يثرب أن نبياً قد قرب زمانه وأوشك أن.. أن يظهر وكانوا يعني يخوفونهم بهذا النبي ويقولوا لهم سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم فهما قالوا والله دا يمكن هذا هو اللي كان يحذرنا منه اليهود.. ويخوفنا به اليهود، ففتح الله قلوبهم وشرح صدورهم ودخلوا في.. وبعدين هؤلاء الستة جاءوا في العام المقبل بعدد أكبر وبايعهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بيعة العقبة الأولى.. العقبة اللي هي القريبة من مكة اللي فيها الرمي الآن، وفي السنة الثانية بايعهم بيعة العقبة الثانية، وكانت بيعة على أن يهاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم وأن يمنعوه مما يمنعوا منه ذراريهم ونسائهم وأولادهم، يعني حماية كاملة وحضر العباس بن عبد المطلب عم النبي -عليه الصلاة والسلام- وأخبرهم إن محمد في عزة ومنعة من قومه، إذا كنتم أهل لهذا وبتاع، فقالوا والله إحنا مستعدين نحارب الأحمر والأسود، المهم كانت هذه الخطوات التي تمت قبل الهجرة.

ماهر عبد الله: اسمح لي، استوقفك عند مسألة العباس -رضي الله تعالى عنه- يعني لماذا اختار رجلاً كافراً لصحبه في هذه البيعة على سريتها، على خطورتها على تعلق مستقبل الإسلام بها؟

د. يوسف القرضاوي: لأن بني هاشم رغم إنهم لم يؤمنوا كانوا يعني يعتقدون إن حماية محمد -صلى الله عليه وسلم- من واجبهم، ولذلك دخلوا معه الشِعْب.. شِعْب بني طالب وظلوا ثلاث سنوات محاصرين.. أكلوا أوراق الشجر حتى دميت أشداقهم وجرحت أفواههم.. قوطعوا اقتصادياً وقوطعوا اجتماعياً، دخل مسلمهم وكافرهم.. بنو هاشم وبنو المطلب.. وقالوا لم نفترق في جاهلية ولا إسلام من بني عبد مناف، ولذلك

ربنا –سبحانه وتعالى– اختار العرب لهذه العصبية، لأن العصبية دية كانت تمثل حماية لمحمد في فترة الدعوة الأولى، فأراد العباس رغم إنه لم يسلم.. وبعضهم يقول إنه أسلم مبكراً، ولكنه الظاهر أنه لم يسلم، وهذا أيضاً يعني من.. من يعني تدبير الله تبارك وتعالى، إنه أعمام النبي عليه الصلاة والسلام أبو طالب والعباس لم يسلما حتى لا يقال.. أسلم فقط حمزة، فلذلك يعني أراد العباس أن يستوثق لإبن أخيه، لأنه معتبر إنه هي مسؤولية بني هاشم، هذا من صنع الله –سبحانه وتعالى– لهذه الدعوة.

ماهر عبد الله: أنا سألتك لأنه يعني يدور كثير خصوصاً هذه الأيام بعد إشكالات الحادي عشر من سبتمبر يعني قضية الولاء والبراء، ويجب أن لا يُستعان بكافر، وأنه الكافر كأنه من ملة أخرى يعني، كيف توفق بين هذه القصة حقيقة يعتمد على عمه من نسبه، من دمه مقابل..

د. يوسف القرضاوي: لأ، هو الاستعانة بكافر.. يعني أمر فيه خلاف بين الفقهاء الاستعانة بهم في الحرب والجهاد، ولكن استعانة بكافر في الأمور الفنية.. هذا لا مانع حتى هو.. سنأتي إن في.. في الهجرة نفسها كان الدليل الذي يدل النبي –صلى الله عليه وسلم– على الطرق، أنت تعرف إنه فيه طرق معروفة يسلكها الناس.. وفيه الخبراء بالطرق يعرفون الطرق التي لا يسلكها الكثيرون والتي يمكن أن تخفى على الكثيرين، فاستأجر رجلاً خبيراً يقولون العرب عنه: (خرير)، يعني هو عبد الله بن أريقط وكان مشركاً، ولكنه مشرك مأمون، ولذلك العلماء قالوا: لا مانع أن نستخدم المشركين وغير المسلمين المأمونين في الأمور الفنية وكذا ماداموا تحت سطوتنا، يعني مادمنا إحنا اللي بنأمرهم وبننهاهم وبيشتغلوا.. بيشتغلوا لحسابنا إحنا، ومادمنا مستأمنينهم ومأمونين عندنا فلا مانع من.. إنما هو المشكل وحتى يعني في الحرب النبي –عليه الصلاة والسلام– استعان ببعض المشركين في حرب الطائف وحنين، صفوان بن أمية وغيره، فلأنه عارف إنه هؤلاء كانوا مخلصين له من ناحية العصبية، قال صفوان بن أمية لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن، يعني قال لك محمد ده مهما كان من قريش أن يسودني واحد من قريش

أحسن ما يسودني واحد.. فهناك اعتبارات تجعلك تأمن للشخص حتى، ولكن المفروض إن يكون أنت المسيطر.. مش تشتغل أنت لحسابه ويبقى هو اللي بيأمرك.. وهو اللي بيجعلك، وأنت يعني نفر بتشتغل عنده، هذا شيء آخر.

ماهر عبد الله: طيب، كيف تجمع بين هذا وبين عقيدة الولاء والبراء؟

د. يوسف القرضاوي: دي مالهاش دعوة بالولاء والبراء.

ماهر عبد الله: يثور الآن جدل أنه يجب أن لا نتصل بأي غير مسلم.

د. يوسف القرضاوي: لأ.. ليس الولاء.. ليس معنى الولاء أنك لا تتصل بأي إنسان كان، هذا لم يقل أحد الولاء بهذا قط.. لأنه الرسول -عليه الصلاة والسلام- حينما ذهب إلى المدينة أول ما عمل.. عمل أيه؟ عمل اتفاقية أو معاهدة مع.. مع اليهود، يهود المدينة اللي هم كانوا ثلاث قبائل بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير عقد معاهم معاهدة معروفة وكتب الصحيفة المعروفة، هل ده ينافي الولاء؟ لأ، هذا ما.. الولاء شيء إنك.. الولاء أن تضمر لهم المودة وتنتصر لهم لكفرهم، إنما أن تعاشرهم بالمعروف، أن توفِّي لهم بما عاهدتهم عليه، هذا ليس من الولاء في شيء.

أهمية التخطيط في العمل الإسلامي وعدم الارتجال

ماهر عبد الله: في.. في.. في جانب تحدث عن إنه زار عرض على بني ثقيف وعرض على أمم أخرى وطلب من جزء من الصحابة.. بعض الصحابة أن يهاجر إلى.. إلى الحبشة، أهمية التخطيط في أي عمل إسلامي، يعني أليس هذا مؤشراً على أنه -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يرتجل مثل هذه المواقف؟

د. يوسف القرضاوي: لا.. لا.. لأ بالعكس، كان عمله -عليه الصلاة والسلام- كله مرتباً.. مخططاً، حتى قضية الهجرة إلى.. إلى الحبشة هذه لم تكن اعتباطاً.. إنه يعني اختار المكان المناسب جغرافياً والمناسب دينياً، والمناسب سياسياً.

المناسب جغرافياً بحيث لم يختر مكاناً بعيداً يذهب إليه المسلمون فيهلكوا في الطريق، في الصين أو في الهند أو.. لأ، مكان قريب، بس يعدي البحر يوصل هناك، فهو مناسب جغرافياً.

ومناسب دينياً، لأن الحبشة كانوا أهل كتاب وكانوا من النصارى الذين هم أقرب مودة للمسلمين.

وهو مناسب سياسياً، لأن الرسول قال: "اذهبوا إلى الحبشة فإن بها ملكاً أرجو أن لا تظلموا عنده" ومعنى هذا إنه كان عنده معلومات إنه هذا الملك لا يُظلم أحد يعني عنده، وهذا أمر مهم جداً يكون عندك يعني معلومات كافية حتى تستطيع ترتب أمورك بناء على هذه المعلومات، الآن في عصرنا بنقول عصر الإحصاء والأرقام، فلهذا اختار.. وكانت فعلاً كما يعني.

ماهر عبد الله: وصف..

د. يوسف القرضاوي: قدر النبي -عليه الصلاة والسلام- حتى إن قريشاً حينما أرسلت عمرو بن العاص ومعه الآخر يحاولون أن يرشوا هذا الملك ويسلمهم المهاجرين رفض الرجل، فكان رجلاً عادلاً وكان عند حسن الظن، ومع هذا لم يهاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الحبشة مع أصحابه.

ماهر عبد الله: سيدي، يعني قبل أن ننهي موضوع التخطيط، ذكرت في معرض الجواب على السؤال الأخير أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يعلم ما الذي يجري في الحبشة، كان اختيار جغرافي، كان يعلم عن طبيعة الحاكم، وعن طبيعة نظام الحكم، هذه المعلومات هل كانت معلومات توقيفية جاءته من جبريل بالوحي، أم أنه سعى لها؟ لأننا نلاحظ الكثير من المسلمين وخصوصاً الإسلاميين يتحدثون عن المعركة مع هذه الدولة وتغيير العالم وسيادة العالم وهم لا يعلمون عنهم شيئاً، كيف يمكن أن نتحرك، أن تغير أوضاعاً وأنت لا تعلم لا عن عدوك ولا حتى عن نفسك في بعض الحالات؟

د. يوسف القرضاوي: بسم الله الرحمن الرحيم، لاشك أن أي تخطيط لابد أن يكون مبنياً على معلومات، وهذه المعلومات يجمعها الإنسان بوسائله الخاصة، ليس معقولاً أن يكون كل شيء بوحي، بعض الناس يظنون كأنه محمد -عليه الصلاة والسلام- كان عبارة عن آلة يحركها الوحي، لأ، أمَّال لماذا يختار الله الأنبياء من أذكى الناس

عقولاً وأزكى الناس أنفساً وأقوى الناس شخصية؟ لأنهم يستطيعوا أن يدبروا الأمور بعقولهم، وبعدين في اللحظة الحاسمة يأتي الوحي، الرسول هو بوسائله الخاصة كون فكرة عن الحبشة من الناس الذين يذهبون من قريش، كان بين العرب والحبشة يعني اتصالات من.. من قديم، حتى إن الحبشة أرادت تهدم الكعبة حتى ينصرف الناس وتعمل كعبة عندها، يعني فيه صلات قديمة أحياناً صلات عدائية وأحياناً صلات وفاقية، فأي تخطيط لابد أن يكون مبنياً على..، مشكلتنا في عصرنا هذه إنه خصومنا وأعداءنا يعرفون عنا كل شيء، كشفونا حتى النخاع، ونحن لا نكاد نعلم عنهم شيئاً، وهذا أمر في غاية الخطورة، من يريد أن يحارب عدواً فلابد أن يعرف عن عدوه كل شيء عن هذا العدو، وهذا ولذلك تجد في الحروب النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يبعث إلى أناس يسمونهم العيون، عيون له يعرفون عن الأعداء وكان يعرف خطط الأعداء، يعني غزوة تبوك كان سبق من الرسول -عليه الصلاة والسلام- لأنه عرف أن الروم يريدون أن يغزوه في بلده، فبدأ هو وأيه؟ وقال نغزوهم قبل أن.. أن يغزونا.

في قصة.. قصة الهجرة تجد فيها التخطيط واضحاً جداً، النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما أذن الله له بالهجرة وبدأ يفكر في الانتقال إلى هذه الأرض الجديدة والقاعدة الجديدة التي تتكون فيها دار للإسلام وأرض للإسلام حرة للإسلام، فبدأ يفكر.. يفكر من سيكون رفيقه؟ فاختار أبا بكر الصدِّيق القديم، أول رجل آمن في الإسلام، من يهديه الطريق.. الدليل، اختار عبد الله بن أيه.. ابن أريقط.. من يبيت في موقعه ليلة خروجه؟ علي بن أبي طالب، لابد أن يختبئ عدة أيام قبل أن.. أن يغادر مكة، فاختار غار ثور، واختار غار ثور في جنوب مكة، تعرف إن المدينة في الشمال، واختار الغار في جنوب مكة، تعرف إن المدينة في الشمال، واختار الغار في الجنوب لأن هم لما يجوا يبحثوا هيبحثوا.. ما هم عارفين إنه رايح لإنه الصحابة كانوا بدؤوا هاجروا، يعني.. تقريباً كل الصحابة هاجروا ما عدا علي وصهيب وكم واحد يعني، فهو سيذهب إلى البلد اللي هاجر أصحابه إليها، فتتجه أبصارهم إلى أن

يبحثوا في المغارات التي هي في طريق المدينة هؤلاء، فاختار هو غاراً في غير طريق المدينة، غار ثور، طيب سيبقى عدة أيام في هذا الغار، محتاج إلى من يأتيه بالطعام، وليس الطعام فقط، والأخبار، لابد أن يعرف ماذا يحدث؟ فاختار يعني من يأتي له، لم يختر رجلاً وإنما اختار امرأة.. أسماء بنت أبي بكر، لأنه لو اختار واحد من أصحابه ممكن العيون تكون عليه.. إنما اختار امرأة، لا يتصور أحد إن امرأة تصعد هذا الغار ثور.. غار ثور، صعده بعض الشباب فلهثوا من.. من شدة التعب، فكيف بهذه الفتاة تصعد كل يوم؟! يعني.. طيب وبعدين وهي بتذهب ممكن آثار أقدامها تظهر، فرتب عامر بن فهيرة الذي كان راعياً عند أبي بكر فيذهب بغنمه بعد أن تذهب أسماء ليعفِّي على آثارها، يعني شيء مرتب وكل واحد وُضع في الموضع المناسب له، يعني موضع أسماء لا ينفع فيها علي بن أبي طالب، وعلي بن أبي طالب ماينفعش يكون فيه أسماء، وهكذا..

فهذا هو الترتيب والتخطيط الذي فعله النبي عليه الصلاة والسلام، يعني وضع لكل شيء.. أعدَّ لكل شيء عدته.

ومع هذا هناك أشياء تأتي وليست في الحسبان.

وهنا يأتي دور التوكل، يعني مع كل هذا الترتيب والتدبير استطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، والرسول -عليه الصلاة والسلام- وأبو بكر في قلب الغار وأبو بكر في غاية الإشفاق، لا يشفق على نفسه ولا يخاف على نفسه وإنما يخاف على رسول الله وعلى مستقبل الدعوة، فلذلك.. يعني قال: "يا رسول الله، والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا"، يعني لو واحد كلف خاطره وطأطأ كده.. هيشوفنا، فقال أبو بكر.. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي بكر: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما" -تخاف على اثنين ثالثهما الله؟!- "لا تحزن إن الله معنا" فكان في غاية.. هنا يأتي دور التوكل، يعني أخذ بالأسباب وخطط ودبر ورتب، ولكن عندما خلاص تفقد الأسباب ولا يكون لك شيء يأتي دور التوكل، هنا "لا تحزن إن الله معنا" الكلمة هي من معين واحد، سيدنا موسى حينما أقبل فرعون بجنوده، وقال أصحاب موسى (إنا

لمدركون) البحر أمامنا وفرعون وجنوده من خلفنا، قال موسى (كلا إن معي ربي سيهدين) فـ (كلا إن معي ربي سيهدين) مثل "لا تحزن إن الله معنا" عندما الإنسان لا يجد الأسباب في صفه، هناك يتوكل على مسبب الأسباب ورب الأرباب وهو الله تبارك وتعالى، وفعلاً كان الأمر، كما قال الله تعالى: (فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا)، ولذلك هناك بعض العلماء المحققين يقولون: إن المسألة لم تكن حماماً ولا عنكبوتاً -كما هو سائد- قصة الحمام لم ترد حتى -كما قال بعض العلماء- ولا حتى في حديث ضعيف، وقصة العنكبوت وردت في حديث ضعَّفه بعض العلماء وحسَّنه بعض العلماء، والبعض يقول: إن ظاهر القرآن.. يقول إن الجنود غير مرئية، (وأيده بجنود لم تروها) والعنكبوت جندي مرئي، لأنه حاجة حسية، فبيقول.. الأوفق بالنص القرآني إنه لم يكن هناك جند من جنود هذه الأرض (أيده الله بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا).

ماهر عبد الله: طيب، اسمح لي أن نعود إلى الإخوة المشاهدين، معذرة الأخ أحمد العنزي من السعودية، معذرة على التأخير أخ أحمد، اتفضل.

أحمد البهنسي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وكل عام وأنتم بخير.

ماهر عبد الله: عفواً، أخ أحمد البهنسي، تفضل.

أحمد البهنسي: السلام عليكم ورحمة الله.

ماهر عبد الله: عليكم السلام.

د. يوسف القرضاوي: عليكم السلام يا أخي ورحمة الله.

أحمد البهنسي: وكل سنة وأنتم طيبين.

د. يوسف القرضاوي: وأنت بالصحة والسلامة.

أحمد البهنسي: وكل عام وأنتم بخير، وجزاكم الله خير على البرنامج.

ماهر عبد الله: وأنت طيب.

د. يوسف القرضاوي: بارك الله فيك.

أحمد البهنسي: فرصة وجود الشيخ القرضاوي في هذه المناسبة الطيبة تشجعني على السؤال على التوازن بين الأخذ بالأسباب في أمتنا الإسلامية والتوكل أو التواكل في أمور مثلاً مثل المشروع الحضاري الإسلامي، كيف نسعى لهذا المشروع الحضاري الإسلامي ونحن مثلاً رابطة العالم الإسلامي التي المفروض أن تجمِّع وتعرض هذا المشروع، رابطة العالم الإسلامي هل.. هل أجاويد.. تركيا الرابطة.. من.. من سيعرض المشروع الإسلامي؟ وأنا لا أحب أن أذكر أسماء، لكن الأمثلة كثيرة، أين من رابطة العالم الإسلامي مَنْ سيعرض المشروع الحضاري الإسلامي؟ النقطة الثانية..

د. يوسف القرضاوي[مقاطعاً]: أنت يا أخي أظنك.. أظنك.. أظن الأخ تقصد مؤتمر العالم.. منظمة المؤتمر الإسلامي؟

أحمد البهنسي: أيوه..

د. يوسف القرضاوي: منظمة المؤتمر الإسلامي، لأن رابطة العالم الإسلامي شيء، ومنظمة المؤتمر الإسلامي..

أحمد البهنسي: هي انبثقت عنه..

د. يوسف القرضاوي: لا.. لا.. لا، رابطة العالم الإسلامي دي أسبق من منظمة.. رابطة العالم الإسلامي دي رابطة شعبية أُقيمت من قديم في المملكة العربية السعودية، إنما منظمة العمل الإسلامي هي منظمة أقامها المسلمون بعد حريق المسجد الأقصى حين اجتمع القادة في المغرب سنة ١٩٦٩، فأنا أظن إنك تقصد منظمة المؤتمر الإسلامي.

أحمد البهنسي: أيوه، جزاكم الله خير يا شيخ على التوضيح، هذا.. هل إحنا كمسلمين في العالم كيف نقوم بالمشروع الحضاري الإسلامي وكيف نعرضه؟ ومثال آخر على الأخذ بالأسباب في تطبيق الاقتصاد الإسلامي دراساتك دكتور القرضاوي ودراسات الكثيرين في الاقتصاد الإسلامي ومحاولات العمل الإسلامي في البنوك والمصارف الإسلامية في الكويت وغيرها، وفي.. وفي مصر وفي السعودية، هذه المشاريع لما لا

تجمَّع مع بعضها أخذاً بالأسباب وتعاوناً وتناصر كي يُطبق هــذا كمثــل للمشــروع الإسلامي؟ في الإعلام مثلاً لما لا تتضافر الجهود وبمجهود مقنع زي حضرتك وزي الإخوة المخلصين الكثيرين في جميع أنحاء العالم لما لا يتضافروا على عمــل قنــاة إعلامية ناطقة باللغة، لأنه (الجزيرة) لم تجب طلبنا من سنين علــى أن تكــون لهــا ترجمة لكن أن تكون قناة بلغتهم، حتى نعرض فكرنا الإعلامي؟ وجزاكم الله خير يــا دكتور يوسف فعلاً كيف نحل هذه المشاكل آخذاً بالأسباب حتى نعــرض مشــروعنا الحضاري الإسلامي.. اقتصادياً وشورى وإعلام؟

ماهر عبد الله: مشكور يا أخ أحمد، مشكور يا أخ أحمد، معايا الأخ عبد الله بدران من الإمارات، أخ عبد الله اتفضل.

عبد الله بدران: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ماهر عبد الله: وعليكم السلام.

د. يوسف القرضاوي: وعليكم السلام ورحمة الله.

عبد الله بدران: سيدي الشيخ يوسف القرضاوي.

د. يوسف القرضاوي: اتفضل يا أخي.

عبد الله بدران: عندي سؤالين إذا سمحت.

د. يوسف القرضاوي: تفضل.

عبد الله بدران: أولاً: ما رأي فضيلتكم في من لا يؤدي الأمانة لأهلها، وخاصــة أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– قد رد الأمانات إلى أهلها قبل الهجرة وبعدها؟

ثانياً: ما رأي فضيلتكم من الناحية الشرعية والأخلاقية في اتفاقية السلام التي وقعتهــا مصر والأردن مع العدو الصهيوني قبل أن يردوا الأمانة إلى أهلها، والأمانة هي غزة لدى مصر والضفة الغربية التي كانت أمانة لدى الأردن؟ وجزاكم الله خيراً، والسلام عليكم ورحمة الله.

ماهر عبد الله: الأخ وليد عدنان من لبنان.. طيب .. يبدو أنه فقدنا الصلة بالأخ وليد.

كيفية تقديم الإسلام للآخرين أخذاً بالأسباب

ماهر عبد الله: التي نتمنى أن تنحصر فيها الأسئلة والنقاش حول موضوع الهجرة وكيفية الاستفادة من بعض.. يعني بعض الأحيان أشعر أنا بالتحايل على الموضوع، موضوع الأسباب والتوكل أنا أعتقد يعني خاتمة كلامك، قبل سؤال الأخ أحمد كان هو هذا الموضوع، الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل، يعني هل.. هل تحب أن تعلق تعليق مختصر على كيفية تقديم الإسلام أخذاً بالأسباب؟

د. يوسف القرضاوي: هو يعني.. لاشك أن المسلمين مقصرون جداً في رعاية السنن، يعني هذه السنن هي القوانين التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود، سواء القوانين الكونية أو القوانين الاجتماعية، كما يقول القرآن (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)، (فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً)، (سنة الله في الذين خلوا من قبل)، يعني نستقرأ التاريخ ونستقرأ الواقع لنعرف منه سنن الله، المسلمون للأسف لم يعرفوا السنن، يعني واخدين الأمور يعني سبهللة، ولا يمكن للإنسان أن يستطيع أن يصل إلى النتيجة إلا بمقدمتها الصحيحة، من.. من زرع حصد، ومن زرع الشوك لا يحصد العنب، هذه سنن لابد أن.. أن تُراعى، نحن –للأسف– أجهل الناس بسنن الله، فما يقوله الأخ بصفة عامة هو يدل على أن المسلمين لا يأخذون بالسنن، منظمة المؤتمر الإسلامي التي يقول عنها الأخ هي يعني بتمثل الأمة الإسلامية، في وهن الأمة الإسلامية، في تشرذم الأمة الإسلامية، في تمزق العلاقات بين أبنائها، هي مرآة للأمة.. إذا قويت الأمة قويت هذه المؤسسات من غير شك.

ماهر عبد الله: يعني عندي سؤالين..

د. يوسف القرضاوي: الأخ اللي بعد..

ماهر عبد الله: يعني سؤال كان عن الأمانة خرج عن الموضوع تماماً، إذا حبيت تعلق عليه، موضوع.. كيف.. يعني ما رأيك وما تقول في ما لا يؤدي الأمانة إلى أهلها؟ وما هو موقفك من اتفاقية السلام مع مصر والأردن على اعتبار أنها لم تؤدي إلى أن تعود الأمانة إلى أهلها؟

د. يوسف القرضاوي: والله هو أولاً أنا أحب أقول للأخ أنا ممن يعارضون الاتفاقات الجانبية مع إسرائيل، وهذا رأي معروف لي وكتبت فيه وقلته من.. من.. من قديم، ولازلت أرى إنه إسرائيل لا يمكن أن تُقاوم إلا بعمل جماعي من العرب جميعاً ووراءهم المسلمون، لابد أن يتفق العرب جميعاً ويقفوا وقفة رجل واحد، والصهاينة استطاعوا أن يخرجوا مصر من المعركة ثم يخرجوا الأردن وهي أقرب الناس إلى القضية من المعركة، وهذه سياسة خبيثة ينبغي أن نفطن لها ونحاول أن نبطل مفعولها.

ماهر عبد الله: يعني اسمح لي بس أقرأ الرسالة من الأخ ياسر عز الدين سليم على اعتبار إنه فيها توضيح نحن لم نقل أن هذا ذكرى الهجرة النبوية، نحن نوهنا أن هذا بداية عام هجري جديد، الأخ ياسر يقول، يعني كنا نود أن تضيفوا ملاحظة ثالثة لفاتحة حديثكم وهو أن هذه الأيام ليست أيام ذكرى الهجرة النبوية، لأن الهجرة المباركة حدثت في غرة ربيع الأول، وبلغ الرسول -صلى الله عليه وسلم- يثرب يوم الحادي عشر منه، ولكن هذه الأيام تمثل بداية السنة الهجرية حتى لا يكون خطأً للسامعين، كما كنت أتمنى لو ذكرتم أن شهر محرم هُتكت به كرامة الأمة عندما قُتل سبط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسبي ذراري الرسول. الحقيقة يعني كوننا نعيش المحرم.

عندي رسالة أخرى من الأخ عباس رضا أيضاً بالفاكس يعني يريد منا التعريج على حادث المحرم ومقتل الإمام الحسين، خصوصاً إنه جزء من ضعف حالة الأمة هذه الأيام هي هذه الصراعات الداخلية، يعني هل.. هل نقف لحظة مع مقتل الإمام؟

د. يوسف القرضاوي: أنا يعني نبهت في أكثر من مرة إلى أن هذا البرنامج هو للأمة الإسلامية كلها وليس لطائفة من الطوائف، لا ينبغي لبعض الإخوة أن يحاول أن يستغل هذا البرنامج لصالح طائفة معينة، نحن نحب آل البيت، ونحب الحسن والحسين ونعتبرهما سيديّ شباب أهل الجنة، ونأسف على ما حدث للحسين -رضي الله عنه- ولكن ليس الحسين أول شهيد في الأمة، استُشهد قبل الحسين أبوه -رضي

الله عنه- علي بن أبي طالب، واستشهد قبله عثمان، واستشهد قبله عمر، واستشهد كثير من الأنبياء (ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون).

ماهر عبد الله[مقاطعاً]: وسيد.. وسيد الشهداء..

د. يوسف القرضاوي: ذُبح السيد الحصور يحيى، ونُشر بالمنشار زكريا، وحدث.. التاريخ مليء يعني بالشهداء، فلماذا الإخوة فقط اهتموا بمقتل الحسين ولم يهتموا بمقتل أبيه ولا بمقتل..؟ نحن نأسف لمقتل الحسين، ولكن لا نقبل أن نجعل شهر المحرم شهر أحزان، ولا نقبل ما يفعله بعض المسلمين ممن يجعلوا يوم عاشوراء يوم عيد عندهم ويُسن فيه الاغتسال والاكتحال وكذا، لا هذا مقبول ولا هذا يعني مقبول، ولا أريد أن أدخل في هذا اللون من الصراع.

ماهر عبد الله: طيب، معايا الأخ علاء الزعتري من فلسطين، أخ علاء اتفضل.

علاء الزعتري: آلو، السلام عليكم.

ماهر عبد الله: عليكم السلام.

د. يوسف القرضاوي: عليكم السلام ورحمة الله.

علاء الزعتري: تحياتي لك أخي ماهر وللشيخ القرضاوي.

د. يوسف القرضاوي: حياكم الله يا أخي.

علاء الزعتري: الله يحييك، أنا إلي والله لو سمحت سؤالين.

د. يوسف القرضاوي: تفضل.

علاء الزعتري: السؤال الأول يتعلق بالطريق اللي سار فيه الرسول -عليه الصلاة والسلام- حين وصل إلى المدينة وأقام دولة الإسلام، هذا الطريق اللي سار فيه الرسول -عليه الصلاة والسلام- والذي الرسول.. نحن يجب علينا الالتزام بطريقه، والتأسي به، أليس واجباً علينا وعلى العاملين في هذه الأوقات التأسي بالرسول للوصول إلى دولة الإسلام؟ هذا السؤال الأول.

أما السؤال الثاني: فإنني أوجهه إلى فضيلة القرضاوي.. الشيخ القرضاوي: لماذا الشيخ القرضاوي في هذا الظرف الذي يتعرض فيه أهل فلسطين، للقتل وللتدمير -

طبعاً في فلسطين وفي غير فلسطين من بلاد المسلمين- لماذا لا يقوم فضيلة القرضاوي بالتوجه إلى قواد الجيوش في العالم الإسلامي لتتحرك نحو تحرير فلسطين وقلع الأنظمة التي لا تحكم بالإسلام والتي هي حائل لعودة الإسلام إلى الوجود وبين تحرير فلسطين من دنس الكافرين؟ وبارك الله فيكم.

ماهر عبد الله: مشكور جداً يا أخ علاء، يعني نتمنى لو كان الشيخ يستطيع أن يفعل أكثر من.. من مثل ما يفعل، لكن ستسمع منه تعليق، معايا الأخ خالد صلاح الدين من اليمن، أخ خالد اتفضل، عفواً خالد صلاح.

خالد صلاح: السلام عليكم ورحمة الله.

ماهر عبد الله: اتفضل يا أخ خالد.

خالد صلاح: السلام عليكم.

د. يوسف القرضاوي: عليكم السلام ورحمة الله يا أخي.

خالد صلاح: عفواً يا شيخنا الكريم، بس أنا بدي أعرف ما هو حكم الشرع في الاحتفال بيوم السنة الهجرية؟ وأيضاً يوم مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، يوم الإسراء والمعراج، ما هو الحكم الشرعي في ذلك؟ هذا هو الجائز أم هذا ابتداع وهو لا يجوز؟

الأمر الآخر هو ما يختص في يوم عاشوراء وما إلى ذلك، في إخواننا الشيعة في O.K، نحن كلنا، نعم نأسف لموت الحسن والحسين وتلك مصيبة عظيمة، ولكن هل يجوز لنا أن نسب معاوية وهو صحابي من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو كما نعلم أنه كاتب للوحي؟ فلا يجوز لنا سبه، ونعته بالنعت الذي لا يليق على مسلم، وجزاك الله خيرا شيخنا.

ماهر عبد الله: طيب، مشكور يا أخ خالد، معايا الأخ سعد من السعودية، أخ سعد اتفضل.

سعد الحمدان: السلام عليكم.

ماهر عبد الله: عليكم السلام.

د. يوسف القرضاوي: عليكم السلام ورحمة الله.
سعد الحمدان: لو سمحت أنا بأتكلم بس بخصوص مبادرة الأمير عبد الله يعني شـــيء معروف أيه هدفها، مش هدفها الصلح مع.. يعني بس أنـــا المشـــاكل اللـــي تصـــير للفلسطينيين لأ، ليها هدفها هدف يعني كل الحكام العرب طبعاً (...) مواجهة فلسطين إذا انحرجوا بالنسبة للديمقراطية وحقوق الإنسان مطالبين بهم فينحرجون من أميركـــا ومن مواجهة إسرائيل.
ماهر عبد الله[مقاطعاً]: بس.. أخ سعد.. أخ سعد يعني أيش علاقة هـــذا بموضـــوعنا اليوم؟
سعد الحمدان: أنا بأوصل له، هو المشكلة إن الملكيين في زمن رموا التـــاج ورمـــوا الخواتم الذهب ولبسوا البدلات العسكرية وقعدوا يتكلمون، الآن شفناهم هم نفسهم رموا البدلات العسكرية وقاعدين يتكلمون زي الأميركان، متأمركين، إحنا لازم نحترم آراء الغالبية، إحنا ما عندنا مشاكل معهم، إحنا طيب من عشر ســـنوات، أيـــش تعملـــون؟ مناهجنا..
ماهر عبد الله[مقاطعاً]: لأ، أنا عايز يا أخ سعد.. يا أخ سعد، يعني لو تكرمت علـــيَّ تربطه بموضوع الحلقة ومضطر إنه..
سعد الحمدان: يا عزيزي أنا بأربطه بموضوع الحلقة بس خليني أتكلم فـــي الحقيقـــة يعني أنا أحاول أربط موضوع.. معلش يعني، فأقول لك يعني هو.. الحين نتكلم عـــن الهجرة والتاريخ الهجري وكذا والعراق الآن بينضرب طيب والمسلمين هناك، الكويت يعني.. يعني مشاكل كتيرة، ياريت.. وبعدين عندي كلمة عن (الجزيرة) لو ســـمحت أوصلها: بالنسبة لكلامهم عن قوات القاعدة والطالبان، لأ.. العدل الطالبان، يعني مش قوات القاعدة، هذه.. هذه قاعدة.. يعني زي الأميركان لما يتكلمـــون عـــن جيـــوش الأفغان، شكراً جزيلاً.
ماهر عبد الله: طيب، يعني أخ.. أخ سعد يعني أنا مضطر للأسف الشديد يا أخ سعد.. يا أخ سعد أعطيتك فرصة أكثر يعني موضوع خارج تماماً عن الموضوع، وللتو كنا

نبهنا نرجو أن تنحصر الأسئلة والتعليقات في موضوع الحلقة، نحن نعلم أن هموم الأمة كثيرة، وأن الحقائق التي يمكن أن تقال كثيرة، ولكن لو أردنا أن نتحدث في كل المواضيع في كل حلقة فأعتقد أننا لن نفي أي موضوع حقه ولن نصل إلى أية نتيجة.

سيدي، سؤال الأخ علاء الزعتري: لماذا لا نتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم، كيف.. يمكن أنا أعيد صياغة.. صياغة سؤاله: كيف يمكن أن نتأسى بالرسول -صلى الله عليه وسلم- لإقامة دولة الإسلام؟ خصوصاً يعني لو سمحت لي كان أحد المحاور التي كان لابد أن.. يعني ثمة جانب خطير أيضاً في الهجرة أنه الرسول -صلى الله عليه وسلم- ضحى بعزيز، ضحى بوطنه، متى يمكن للإنسان أن يُضحي بوطنه من أجل إقامة هذه..؟ هل ضحى بالوطن من أجل إقامة الدعوة أم من أجل إقامة الدولة؟

د. يوسف القرضاوي: أولاً: الهجرة هي فعلاً كانت بحثاً عن أرض يستطيع الإسلام فيها أن يمكن لدينه بكل أحكامه وتعاليمه، في مكة لم يكن قادراً على التمكين للدين، حتى إنه هو نفسه ما كانش قادر يصلي، يعني يمكن في الأسبوع اللي فات اتكلم معاك أخونا الشيخ القره داغي، (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) حتى محمد -عليه الصلاة والسلام- يُنهى عن الصلاة في.. في الكعبة، فأرض لم يستطع المسلمون أن يقيموا فيها دينهم فلابد أن يبحثوا عن أرض حرة، فكان البحث عن أرض حرة تُقام فيها كل أحكام الإسلام كانت هي أرض يثرب، فكان لإقامة الدعوة وإقامة المجتمع الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية، ولذلك في المدينة هي التي نزل فيها قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا)، القرآن المكي كله ليس فيه (يا أيها الذين آمنوا)، لأن الذين آمنوا معناها صيغة جماعة مؤمنة، لم تكن فيهم هناك جماعة لها سلطانها ولها سيادتها، ولها قوتها في مكة حتى تُخاطب بهذا الخطاب، حينما أصبحت هناك جماعة مؤمنة لها أرضها ولها سلطانها، ولها قدرتها على التمكين لدينها نوديت بهذا الخطاب (يا أيها الذين آمنوا)، فالرسول -عليه الصلاة والسلام- حينما لم يجد في مكة هذا الأمر بحث عن بديلها وضحى بها وهي أحب الناس.. أحب البلاد إليه، ومعروف أنه قال -عليه الصلاة والسلام- حينما غادر مكة: "أما إنك لأحب بلاد الله إلى الله وأحب

بلاد الله إليَّ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت"، ولذلك القرآن دائماً يعبر عن هذا بأُخرجوا: (أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)، (للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً).. وإخراج الإنسان من داره يعني كأنه قتل، حتى إن القرآن يقول: (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلاً)، الخروج من الديار هذا خاصة إذا خُرجت منها رغم أنفك كما أُخرج أهل فلسطين من ديارهم رغم أنوفهم وشتتوا وشردوا في أنحاء الأرض.. هذه، ولكن حينما يجد الإنسان إنه فيه دينه وفيه وطنه، أيهما أغلى عنده وأعز؟

الدين والعقيدة أغلى من كل شيء، ولذلك القرآن يقول: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها) اللي هي الأوطان (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره)، فكل هذه الأشياء الآباء، والأبناء، والأخوة، والأزواج، والعشيرة، والوطن، وكله في كفة وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله في كفه أخرى، فلذلك ضحى النبي –صلى الله عليه وسلم– وهذا هو شأن المؤمن، وده.. وباب الهجرة مفتوح إلى يوم القيامة، إذا وجد الإنسان إنه في بلده لا يستطيع أن يُقيم دينه ولا أن يؤدي شعائره ولا كذا، ووجد الفرصة متاحة أيضاً، لأنه في عصرنا لا توجد هذه الفرصة، الناس زمان كان ممكن يترك البلد ويروح بلد آخر، ولا توجد حوائل ولا حواجز ولا جنسية، ولا.. لأ، الآن ليس الأمر، إنما إذا وجد هذا نقول له: لابد أرض الله واسعة يا أيها.. (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون)، والقرآن الكريم يقول: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) فالإنسان إذا لم

يمكن لدينه في الأرض ووجد الفرصة للهجرة فليهاجر من بلد الكفر أو بلد المعصية أو بلد البدعة والمنكرات إلى بلدٍ آخر يسلم فيه دينه، إذا كان ذلك مُيسراً له.

أنا بالنسبة أقول للأخ اللي بيقول التأسي بالرسول أنا أعرف إخواننا التحريريين وآراءهم في مسألة طلب النصرة وإنه لازم نطلب النصرة من قواد الجيوش، وهذا أمر في عصرنا غير مقبول، لأن قادة الجيوش موظفون في.. في الدولة، ماهماش همَّ اللي بيتحكموا في الجيوش ويعملوا، قائد الجيش، أو قائد الأركان، أو وزير الدفاع، هذا موظف ممكن النهارده يكون قائد وبعد بكره يعني يغير ويأتي بغيره، فكوننا نطلب من قادة الجيوش هذا أمر ليس يعني..، والتأسي بالرسول.. التأسي ليس معناه إنه زي ما الرسول هاجر لازم إحنا نهاجر مش شرط، إذا الهجرة مطلوبة لك تهاجر، ولكن.. ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد كانت الهجرة في أول الأمر مفروضة على المسلمين، وقال الله تعالى: (وما لكم من ولايتهم من شيء)، (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا)، وظلت الهجرة فريضة على كل مسلم أسلم في أي مكان إنه يهاجر إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– في المدينة، وينضم إلى الجماعة الإسلامية، ويكثَّر سواد المسلمين، ويشدُّ من أزرهم، ويتعلم الإسلام، ثم بعد فتح مكة قال النبي –صلى الله عليه وسلم– بصريح العبارة: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استُنفرتم فانفروا" فليس.. ليس معناه إنه ما دام الرسول هاجر لازم نهاجر لأ، فالتأسي في المنهج العام منهج الدعوة العام.. إنما ليس الرسول عرض نفسه على القبائل نعرض نفسنا، لأ، كل أمر حسب الظروف وحسب الملابسات.

ماهر عبد الله: طيب معايا الأخ.. نعود لسؤال الأخ خالد بعد قليل. معايا الأخ علي بن عيسى من البحرين، أخ علي، اتفضل.

علي بن عيسى: لو اتكرمت أحب أقدم هذا السؤال لفضيلة الشيخ. جناب الشيخ السلام عليكم.

د. يوسف القرضاوي: عليكم السلام ورحمة الله.

علي بن عيسى: ووفيتم خيراً.

د. يوسف القرضاوي: بارك الله فيك.

علي بن عيسى: جنابكم في هذه الأيام يُعرض مسلسل في الكويت يتناول موضوع فجر الإسلام، وأبو طالب مع حمايته للنبي قد مر بالراهب بحيري فأخبره بحيري.

د. يوسف القرضاوي: بِحيري.

علي بن عيسى: عن النبي محمد وعن العلامات التي تتوفر في هذا النبي، فهل تُرى أبو طالب مع حس العرب.. مع حسه العربي وتكالب الأخبار من الكتب السماوية السابقة عن صفات النبي وإخبار بحيري إله وهو أبو طالب الذي هو أبو طالب معروف في البطحاء كلها، هذا حسه لم يساعده مع ما رأى من ابن أخيه وحدا به عليه أن يكون مؤمناً؟ وجناب الشيخ معلم المعلمين وقدوتنا طبعاً إذا أكد لنا أن أبو طالب مات كافراً فقد نعتقد ذلك، ألا يلحقنا أو يلحق الشيخ -لا سمح الله- شيء من لو أن أبا طالب مات مؤمناً؟

وهل نحمل أبو طالب أصلاً على الإيمان أو على الكفر؟

ماهر عبد الله: طيب مشكور جداً أخ علي، معايا الأخ عبد الباري هيكل من سوريا، أخ عبد الباري، أتفضل

عبد الباري هيكل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ماهر عبد الله: عليكم السلام.

د. يوسف القرضاوي: وعليكم السلام ورحمة الله.

عبد الباري هيكل: كيف حالك فضيلة الشيخ؟

د. يوسف القرضاوي: بارك الله فيك.

عبد الباري هيكل: والله أنا عندي.. ذكر الشيخ ببداية الكلام أنه لما أعرض أهل مكة عن دعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعدَّد أسباب الإعراض قام الرسول -كما قال الشيخ- بالتفكير البشري وبدأ باختيار البدائل، ومنها العرض على القبائل والذهاب إلى المواسم. وقبائل العرب، هذا الكلام أظن أن عليه تعليق كبير جداً، فإذا

لم نأخذ بالآيات العامة والأدلة العامة التي تؤكد أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وحي يُوحى على الطريقة التي أمره بها ربه، لنأخذ هذا الدليل الخاص بالمسألة إن كان يتسع صدركم لهذا الحديث.

ماهر عبد الله: اتفضل.

عبد الباري هيكل: فقد جاء في فتح الباري شرح صحيح البخاري ما نصه: أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل بإسناد الحسن عن ابن عباس حدثني علي بن أبي طالب قال: "لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه وأبو بكر إلى مِنَى".. إلى آخر الحديث، فهذا نص صريح بأن عرض النبي –صلى الله عليه وسلم– على القبائل إنما كان بأمرٍ من الله عز وجل، ومنه ألا يقتضينا هذا الكلام إلى إعادة سيرة الرسول –صلى الله عليه وسلم– على أنها منهج دعوة، منهج لإعادة إحياء هذه الأمة؟ وأرجو أن أرشدكم وأرشد الأخوة المستمعين إلى كتاب الدكتور محمد خير هيكل الذي اسمه "الجهاد والقتال في السياسة الشرعية" إصدار دار البيارق، هذا الكتاب فيه بحث شافٍ ووافٍ عن موضوع إقامة الدولة الإسلامية ومنها عاملوا الرسول –صلى الله عليه وسلم– وطلب النصرة، هذه النقطة الأولى.

النقطة الثانية للأخ ماهر.. قال بأن.. في تعليقه على موضوع الولاء والبراء وما أشبه ذلك، واستنكر أنه قال كأن الكافر ملة أخرى، أقول لك: يا أخ ماهر، مع الاحترام نعم، الكفر ملة أخرى، ويوجد ملة الإسلام وما دونها ملة الكفر، وملة الكفر والاستعانة بالكافر سؤال، وأظن أنه أتى ببعض اللبس الاستعانة بالكافر ليس بإعطاء السبيل لهم على المسلمين

ولن يجعل الله للكافرين على المسلمين سبيلاً.

د. يوسف القرضاوي: المؤمنين.

عبد الباري هيكل: أرجو التعليق على ذلك، والسلام عليكم ورحمة الله.

ماهر عبد الله: طيب مشكور يا أخ عبد الباري، معايا الأخ سيدي محمد ولد عويس من قطر.

سيدي محمد ولد عويس: ألو، السلام عليكم.

ماهر عبد الله: عليكم السلام.

د. يوسف القرضاوي: عليكم السلام.

سيدي محمد: حياك الله يا فضيلة الشيخ.

د. يوسف القرضاوي: حياك الله يا أخ تفضل.

سيدي محمد: سيدي فضيلة الشيخ، أريد أن أعرف عن تاريخ الهجري، هل الرسول -صلى الله عليه وسلم- في معاهداته وفي شؤون رعيته اليومية كان يستخدم هذا التاريخ أم لا؟

ماهر عبد الله: طيب مشكور يا أخ ولد عويس شكراً لك. سيدي، ما حكم الشرع في الاحتفال بهذه المناسبات؟ كان سؤال الأخ خالد.

د. يوسف القرضاوي: نعم؟

ماهر عبد الله: ما حكم الشرع في الاحتفال بهكذا مناسبات.. عاشوراء؟

د. يوسف القرضاوي: ما معنى.. الاحتفال؟ إحنا.. إحنا بننتهز هذه الفرص لنذكر المسلمين بمعانٍ إسلامية والتذكر لنعم الله تعالى أمر مشروع، القرآن يقول: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) في غزوة الأية الخندق، (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم)، (يا أيها الذي آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم).. إلى آخره، تَذكُّر نعم الله تعالى في الأحداث المختلفة هذا أمر مشروع، وبعدين إذا كان بعض المسلمين -للأسف- بيحتفلوا برأس السنة الميلادية، فلماذا لا يحتفلون برأس السنة الهجرية؟ هذا العام الهجري، ونحن في الحقيقة لا نحتفل بذكرى الهجرة، وإنما نحتفل بالعام الهجري، وقد جرت عادة المسلمين، أن في أول العام الهجري أن يتحدثوا عن هجرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا يتحدثوا عنها في ربيع، وهذا أمر لا.. لا بأس به، لأنه ليس في ذلك نص، التذكير بأحداث السيرة النبوية وبمجريات هذه السيرة وأحداثها

الكبرى أمر مشروع.. ولا شك، والهجرة هي من أعظم الأحداث، والأخ اللي بيسأل: هل كان الرسول بيكتب تاريخ هجري، لأ، التاريخ الهجري، إنما حدث في عهد عمر بن الخطاب، هو الذي استشار الصحابة، إنه يجعلوا للمسلمين تاريخاً، لأنه كانوا يقولوا.. سنة الفيل.. سنة كذا، لأ.. لازم، وكان من توفيق الله تعالى لهم إنهم اختاروا تاريخ المسلمين بأن يبدأ من هجرة الرسول -عليه الصلاة والسلام- هناك بعض المسلمين في بعض البلاد مثلاً في ليبيا... اختاروا لأ، قالوا نجعل الوفاة.. يبدأ التاريخ بالوفاة، بدل ما نقول هاء يقولوا واو، طب لماذا هذا؟ المسلمين، والصحابة، وعلي ابن أبي طالب، وعمر بن الخطاب اختاروا أن يبدءوا بهذا، لأن هو وقت إقامة المجتمع المسلم في المدينة وإقامة الدولة الإسلامية وإقامة سلطان الإسلام في هذا البلد فهو أصبح هذا أمر معروف ومُلئت الكتب والتواريخ بسنة كذا هجرة، وهذا تُوفي سنة كذا هجرية، وولد سنة كذا هجرية، وولد سنة كذا هجرية، فلماذا نغير؟ لاشك أن المسلمين وعمر كانوا موفقين في اختيار هذا التاريخ. نعم.

ماهر عبد الله: هل تريد أن تعلق على قصة أبو طالب؟

د. يوسف القرضاوي: نعم؟

ماهر عبد الله: أبو طالب.

د. يوسف القرضاوي: هذا أمر يعني فيه خلاف بين الشيعة والسنة في هذا، والثابت في الصحيحين أنه النبي -عليه الصلاة والسلام- عرض على أبي طالب أن يشهد أن لا إله إلا الله، ولكنه يعني وهو.. وظل عنده، هو يقول له: كذا، وأبو جهل يقول له: على ملة عبد المطلب، فآخر ما قال قال على ملة عبد المطلب، قال له: قلها كلمة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة وأشفع لك بها عند الله يوم القيامة فرفض.. وهذا، وده يعني كما قلت من حكمة الله تبارك وتعالى، إنه رغم كفره ظل يدافع عنهم ودفاعه عنه وهو مشرك نفعه، لأن أبا طالب كانت.. كان هذا يعني من أسباب إن قريش جعلت له احتراماً ومكانة على.. على دينهم، وجاء في أكثر من حديث إن هذا جعله من أخف أهل النار عذاباً، الشيعة يقولون غير ذلك، حديث بحيرى هذا يعني

الكثير من المحققين شككوا يعني فيه بحيرى الراهب، فيعني على كل حال أنا لا أحب أن أثير الأمور الخلافية بين السنة والشيعة في هذه الأحداث، عندنا ما صح من الأحاديث أن أبا طالب مات على الشرك، وهذا والله يعز علي، وأنا.. كنت أحب أن يموت مسلماً، ولكن هذا قدر الله عز وجل، وهذا أمر يعني البحث فيه لا يُجدي، يعني هو إذا كان يعني مؤمن كما يقول الشيعة أو كذا، هو هيأخذ جزاءه عند الله كما يعلم الله عز وجل، وكلامنا لا يغير من الواقع شيئاً.

ماهر عبد الله: والله أرحم، وأعدل، وأحكم.

طيب الأخ عبد الباري هيكل يقول: إن الرسول ﷺ يعني أُمر.

د. يوسف القرضاوي: ما عندنا مانع إحنا نقول الرسول.. إحنا المشكل إحنا الذي أنا أعارضه أيه أن نقول إن الرسول كان في كل خطوة من خطواته لا يمشي إلا بالوحي، لأ، هو فيه أمر عام بأن يعرض نفسه على القبائل وأن كذا، إنما طب يعرض نفسه على القبيلة دي أمتي والقبيلة دي أمتي ويروح كذا، هذه كان بيتصرف فيها الرسول بعقله واجتهاده، لأنه لم يكن آلة، يعني لأ، ولماذا اختاره الله يعني من هذا المعدن الثمين ويحمل هذا العقل الكبير؟ فهو يخطط التخطيط البشري، ويدبر التدبير البشري، والوحي يأتي في الوقت المناسب ويأمره، فيعني يُطيع.

ماهر عبد الله: أما تعليق الأخ عبد الباري على موضوع الملة، أنا قصدت يعني من.. من جنس آخر.. خطأ مطبعي طبعاً ملة أخرى ودين آخر، ولكن كان السؤال أنه يعني بأعتبرهم كأنهم جنس آخر الأصل في التعامل معهم أنه حرام ولابد منه.. من الخروج، أما إنهم دين آخر وملة أخرى فقطعاً لن نختلف على هذه.

الأخ عادل من السعودية مع مجموعة من الأخوة يسألون يعني هناك كلام كثير أنه الرسول – ﷺ عندما خرج من.. مكة خرج ليلاً ولم يره من المشركين أحد، البعض يقول أنه تلى آية من القرآن حجبت عنه أعين المشركين، يريد أن يعرف الأخ عادل من السعودية ما هي الآية؟ وهل يمكن استخدامها؟

د. يوسف القرضاوي: يقولون إنه قرأ سورة ياسين حتى وصل إلى قوله تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) قالوا إنه وصل لهذه الآية، فلم يبصروا وحثى التراب على رؤوسهم، هكذا جاء يعني في كتب السيرة، ولا أدري يعني قوة سند هذا الأمر.

ماهر عبد الله: طيب، الأخت رجاء محمد غريب من.. من سوريا تقول: السلام عليكم، الرجاء التعليق والرد على من يتهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأنه هرب من مسؤوليته، وأنه بالتالي جبان، يعني أما كان الأولى أن.. أن يقف.. أن يصمد في مكة وأن يقاوم في مكة؟!

د. يوسف القرضاوي: لأ، يعني ليس من الضروري، يا أخي الشاعر يقول:

وإذا البلاد تنكبت لك حالها فدع البلاد وأسرع التحويلا

ليس المقام عليك فرضاً واجباً في موطنٍ يدع العزيز ذليلاً

والشاعر آخر يقول:

بلاد الله واسعة فضاها ورزق الله في الدنيا فسيح

فقل للقاعدين على هوانٍ إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

فلا العقل ولا المنطق ولا الدين يقول لك تبقى في بلد أُغلقت قلوب أهلها، البلاد الأخرى: (يا عبادي الذين آمنوا إني أرض واسعة فإياي فاعبدون)، فلماذا يبقى؟ ولكن ليس معنى هذا ما قاله بعض الكُتَّاب الكويتيين إن الرسول فشل في العهد المكي، وهذا كلام يعني خطير ونرفضه تماماً، العهد المكي هو الذي أسس للعهد المدني، والرسول في عهد مكة ربَّى الجيل الأول الذي حمل الإسلام على.. على.. على كاهله، دار الأرقم بن أبي الأرقم، العهد المكي هو عهد التأسيس، ونزل فيه حوالي ٨٠ سورة من القرآن الكريم، وأسس للعهد المدني والتشريع المدني، وظل الرسول ثلاثة عشر عاماً يربي هذا الجيل الأول الذي حمل الإسلام في.. فيما بعد، فلولا العهد المكي ما قام العهد.. العهد المدني تكميل للتأسيس الذي تم في العهد المكي، فلا يُقال إن الرسول هرب، لم يكن هروباً، لا بالعكس، ده كان أمراً مخططاً، ولم يكن كما يعني قيل مثلاً

إنه كان بيبحث عن حياة أريح لأ، مش مسألة حياة أريح، ده يبحث عن أرض خصبة يستطيع أن يبذر فيها البذور فتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أن يجد قاعدة صلبة يبني عليها، فوجدها في هذه الدار دار الهجرة ودار الإسلام الجديدة في يثرب حيث هؤلاء الذين سماهم فيما بعد أنصار الله الأوس والخزرج.

ماهر عبد الله: سؤال من الأخ أبو محمد لارجو من المغرب يسأل: قال صلى الله عليه وسلم: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين"، فما حكم الهجرة من أجل الدنيا؟ سؤال آخر من الأخ حسام مصطفي: هل تكون هجرتنا نحن المسلمين المهاجرين إلى أميركا وكندا حراماً؟ هل تدخل في نطاق "فهجرته إلى ما هاجر إليه"؟

د. يوسف القرضاوي: أولاً، الحديث "أنا بريء من كل.." هذا ضعفه يعني بعض العلماء، وحتى الذين حسنوه أو صححوه قالوا: إن المقصود به الذي يقيم بين المشركين، يقيم بين أظهر المشركين فإذا قُتل أو أصابه المسلمون حينما يغيرون على بلاد المشركين هو بريء من دمه لا يتحمل ديته، وهذا جاء في هذا الأمر، إنه إذا كان واحد عايش والمسلمون لا يعرفونه ودخلوا وقاتلوا هؤلاء وكان واحد مسلم كيف نعرفه؟ فهذا هو المقصود.

أما الهجرة إلى ديار الكفر إحنا عرضنا لهذا في حلقات سابقة، وقلنا إذا كان من وراء هذه الهجرة فائدة للدعوة الإسلامية أو لتقوية الوجود الإسلامي، تقوية المسلمين أهل البلاد الموجودين هناك، فلابد من هذا، المسلمين لم.. لم يقفوا عند.. ما الذي يعني أدخل البلاد الإسلامية المختلفة في الإسلام؟ مش هجرة المسلمين إليها؟!

كيف دخل المسلمون في ماليزيا، وفي إندونيسيا، وفي الفلبين، وفي كثير من بلاد آسيا وإفريقيا إلى الإسلام؟ بهجرة المسلمين، وكانوا حينما هاجروا.. أقلية، ولكن كثَّرهم الله، ودخل من أهل البلاد معهم الكثيرون فأصبحوا بعد ذلك يكونون أغلبية، فبهذه الهجرة انتشر الإسلام، المهم إن الإنسان لا يهاجر إلا إذا كان وراء الهجرة هدف، وإذا كان في دار الهجرة أو في أرض الهجرة قادراً على أن يحافظ على دينه وديـن أهله وذراريه، أما إذا خاف على دينه أن يضيع هناك فأنا قلت للأخوة حينما ذهبت

إلى أميركا في أوائل السبعينيات: "من لم يستطع منكم أن يحافظ على دينه ودين أولاده فليبدأ رحلة العودة من الغد"، هذا هو واجب المسلم.

ماهر عبد الله: سيدي، شكر الله لك وجزاك الله خيراً، أعزائي، لـــم يبـــق لـــي إلا أن أشكركم وأشكر باسمكم فضيلة العلامة الدكتور القرضاوي على حسن استماعكم وعلى حسن مشاركته.

إلى أن نلقاكم في الأسبوع القادم تحية مني، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار

قال ابن إسحاق (فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا إلى غار بثور – جبل بأسفل مكة فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.

قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم أن الحسن بن أبي الحسن البصري

قال انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلا، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ فتلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية يقي رسول الله ﷺ بنفسه).

الذين قاموا بشؤون الرسول ﷺ في الغار

قال ابن إسحاق : (فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثا ومعه أبو بكر وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم.

وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر.

وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاما فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام فتحل نطاقها فتجعله عصاما، ثم علقتها به).

لم سميت أسماء بذات النطاقين

فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر ذات النطاق لذلك.

قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول ذات النطاقين. وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها باثنين فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر.

راحلة النبي صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق : (فلما قرب أبو بكر رضي الله عنه الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدم له أفضلهما، ثم قال اركب فداك أبي وأمي ؛ فقال رسول الله ﷺ " إني لا أركب بعيرا ليس لي ". قال فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال " لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به " ؟ قال كذا وكذا، قال " قد أخذتها به "، قال هي لك يا رسول الله. فركبا وانطلقا. وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما في الطريق).

حديث الغار

وهو غار في جبل ثور، وهو الجبل الذي ذكره في تحريم المدينة، وأنها حرام ما بين عير إلى ثور وهو وهم في الحديث لأن ثورا من جبال مكة، وإنما لفظ الحديث عند أكثرهم ما بين عير إلى كذا، كان المحدث قد نسي اسم المكان فكنى عنه بكذا.

وذكر قاسم بن ثابت في الدلائل فيما شرح من الحديث أن رسول الله – ﷺ – لما دخله وأبو بكر معه أنبت الله على بابه الراءة قال قاسم وهي شجرة معروفة فحجبت عن الغار أعين الكفار.

وقال أبو حنيفة الراءة من أغلاث الشجر وتكون مثل قامة الإنسان ولها خيطان وزهر أبيض تحشى به المخاد، فيكون كالريش لخفته ولينه لأنه كالقطن أنشد:

ترى ودك الشريف على لحاهم *** كمثل الراء لبده الصقيع

وفي مسند البزار : أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار وأرسل حمامتين وخشيتين فوقعتا على وجه الغار وأن ذلك مما صد المشركين عنه وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين وروي أن أبا بكر – رضي الله عنه حين دخله وتقدم إلى دخوله – قبل رسول الله – ﷺ – ليقيه بنفسه رأى فيه جحرا فألقمه عقبه لئلا

يخرج منه ما يؤذي رسول الله ﷺ وفي الصحيح عن أنس قال قال أبو بكر – رضي الله عنه – لرسول الله ﷺ – وهما في الغار (لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ " ما ظنك باثنين الله ثالثهما) وروي أيضا أنهم لما عمي عليهم الأثر جاءوا بالقافة فجعلوا يقفون الأثر حتى انتهوا إلى باب الغار وقد أنبت الله عليه ما ذكرنا في الحديث قبل هذا، فعندما رأى أبو بكر رضي الله عنه القافة اشتد حزنه على رسول الله – ﷺ – وقال (إن قتلت فإنما، أنا رجل واحد وإن قتلت أنت هلكت الأمة فعندها قال له رسول الله ﷺ " لا تحزن إن الله معنا) "، ألا ترى كيف قال لا تحزن ولم يقل لا تخف ؟

لأن حزنه على رسول الله – ﷺ شغله عن خوفه على نفسه ولأنه أيضا رأى ما نزل برسول الله ﷺ من النصب وكونه في ضيقة الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة وكان أرق الناس على رسول الله ﷺ وأشفقهم عليه فحزن لذلك وقد روي أنه قال (نظرت إلى قدمي رسول الله – ﷺ في الغار وقد تفطرتا دما، فاستبكيت، وعلمت أنه عليه السلام لم يكن تعود الحفاء والجفوة) وأما الخوف فقد كان عنده من اليقين بوعد الله بالنصر لنبيه.

ما يسكن خوفه وقول الله تعالى : فأنزل الله سكينته عليه قال أكثر أهل التفسير يريد على أبي بكر وأما الرسول فقد كانت السكينة عليه وقوله "وأيده بجنود لم تروها" الهاء في أيده راجعة على النبي والجنود الملائكة أنزله عليه في الغار فبشروه بالنصر على أعدائه فأيده ذلك وقواه على الصبر [و] قيل أيده بجنود لم تروها، يعني : يوم بدر وحنين وغيرهما من مشاهده وقد قيل الهاء راجعة على النبي عليه السلام في الموضعين جميعا وأبو بكر تبع له فدخل في حكم السكينة بالمعنى، وكان في مصحف حفصة فأنزل الله سكينته عليهما، وقيل إن حزن أبي بكر كان عندما رأى بعض الكفار يبول عند الغار فأشفق أن يكونوا قد رأوهما، فقال له النبي ﷺ " (لا تحزن فإنهم لو رأونا لم يستقبلونا بفروجهم عند البول ولا تشاغلوا بشيء عن أخذنا) "، والله أعلم.

معية الله مع رسوله وصاحبه

وانتبه أيها العبد المأمور بتدبر كتاب الله تعالى لقوله (إذ يقول لصاحبه لا تحـــزن إن الله معنا) [التوبة ٤٠] كيف كان معهما بالمعنى، وباللفظ أما المعنى فكـــان معهمـــا بالنصر والإرفاد والهداية والإرشاد وأما اللفظ فإن اسم الله تعالى كان يذكر إذا ذكـــر رسوله وإذا دعي فقيل يا رسول الله أو فعل رسول الله ثم كان لصاحبه كذلك يقال يـــا خليفة رسول الله وفعل خليفة رسول الله فكان يذكر معهما، بالرسالة وبالخلافـــة ثـــم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء ولا يكون

السابقون الأولون من المهاجرين

مضى رسول الله صلى عليه وسلم بأمر الله، رغم ما لقي من قومه من الخلاف والأذى، فآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، وآزرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وصدقت بما جاء به، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى١.

قال ابن إسحاق : ' ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى معه وصدق بما جاء من الله تعالى، علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم، رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين، ونعمة الله أنه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام٢.

أخرج الحافظ أبو الحسن الطرابلسي عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرج أبو بكر رضي الله عنه يريد رسول الله ﷺ –وكان له صديقا في الجاهلية– فلقيه، فقال : يا أبا القاسم أفقدت من مجالس قومك واتهموك بالعيب لآبائها وأمهاتها، فقال رسول الله ﷺ : إني رسول الله أدعوك إلى الله، فلما فرغ من كلامه أسلم أبو بكر، فانطلق عنه رسول الله ﷺ وما بين الأخشبين٣ أحد أكثر سرورا منه بإسلام أبي بكر، ومضى أبو بكر فراح لعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص فأسلموا، ثم جاء ... بعثمان بن مظعون، وأبي عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف، وأبي سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم فأسلموا رضي الله عنهم٤.

١ – الصاحب والمصحوب:

لقد آثر الله تعالى رسوله ﷺ بنعمه بالقدر الذي يجعله أهلا لحمل رايته والتحدث باسمه بل ويجعله أهلا لأن يكون خاتم رسله، ومن ثم كان فضل الله عليه عظيما،

جعلت أفئدة الناس تهوي إليه، وترى فيه المصحوب المربي والمعلم، والصديق؛ مما جعل سادة قريش يسارعون إلى كلماته ودينه : "أبو بكر" و"طلحة" "والزبير" و"عثمان" و"عبد الرحمان بن عوف" و"سعد بن أبي وقاص" متخلين بهذه المسارعة المؤمنة عن كل ما كان يحيطهم به قومهم من مجد وجاه، متقبلين –في نفس الوقت– حياة "تمور مورا شديدا بالأعباء وبالصعاب وبالصراع".

ما الذي جعل ضعفاء قومه يلوذون بحماه ويهرعون إلى رايته ودعوته وهم يبصرونه أعزل من المال ومن السلاح ينزل به الأذى ويطارده الشر في تحد رهيب، دون أن يملك عليه الصلاة والسلام له دفعا ؟ ! ما الذي جعل جبار الجاهلية –عمر بن الخطاب– وقد ذهب ليقطف رأسه العظيم بسيفه– يعود ليقطف بنفس السيف رؤوس أعدائه ومضطهديه !

ما الذي جعل المؤمنين به يزيدون ولا ينقصون ومن حوله يلتفون، وهو الذي يهتف فيهم صباح مساء لا أملك لكم نفعا ولا ضرا ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

ما الذي ملأ قلوبهم يقينا وعزما ؟!

إنه محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ المصحوب، رأوا طهره وعظمته، وأمانته واستقامته، وشجاعته وسموه وحنانه، رأوا عقله وبيانه،رأوا سمو الحياة يسري في أوصال قلوبهم عندما بدأ رسول الله ﷺ يفيض عليها من قلبه المرحوم برحمة الله ونبوته. رأوا ذلك وأضعافه لا من وراء قناع بل مواجهة وتمرسا وبصرا وبصيرة. فكانوا الصاحبين، بحق حملوا مبادئ الدعوة، وعبير الدعاة، وصدق التعاليم وعظة المعلمين ونور الرسالة، ورحمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. فكانوا النواة الأولى لبناء جماعة المسلمين، عليهم قامت أمة الإسلام دعوة ودولة، حموها بأنفسهم وبأموالهم وبذلوا في سبيلها كل غال ورخيص.

والعلماء أمناء الرسل وورثتهم، ورثوا الصحبة وفقه التربية يربون ويعلمون في كل عصر ومصر ما ورثوه عن رسول الله ﷺ من أخلاق رفيعة وسمات جليلة، فيعلمون

بالقدوة والشهود بين ظهراني الناس يضيء ظلامهم وتفيض قلوبهم رحمة بالأمة صبرا ومصابرة.

٢- كيف أثمرت الصحبة ؟

آمن الصحابة الأولون برسول ﷺ وكانت المحاضن التربوية أساس البناء في دار الأرقم بن أبي الأرقم تلقوا الإيمان غضا طريا يتلو ما أنزل إليهم من ربهم من الآيات وهي حديثة عهد من الله تغرس الإيمان في القلوب وتزرع الأمل في الأنفس ذكرا وتعلما ومدافعة للواقع المستبد بكل من يقول ربي الله، صدقا وتصديقا، شرفا واعتزازا بالانتماء إلى هذه الدعوة المحمدية، استيعابا وفهما ودعوة وجهادا وفتحا.

٣- السابقون الأولون :

علمنا ربنا الكبير المتعال أن ندعو للسابقين ونحبهم ونجلهم لأنهم كانوا بحق الوعاء الذي حوى الدين ودافعوا عنه، بذلوا في سبيله المهج والمقل، هجروا المال والبنين والعشيرة، أقبلوا على ربهم إقبالا منقطع النظير، فهم سادة هذه الأمة وزهرتها فاستحقوا بذلك شرف السبق والسمو، يقول الله تعالى يعلمنا "للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون ' (الحشر، الآية ٨) ويقول سبحانه عز وجل : والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم" (الحشر، الآية ١٠). وهذه الصورة النظيفة الرضية الواعية تبرز أهم ملامح التابعين كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان.

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة، لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها للذين سبقوا بالإيمان، وفي طلب براءة القلب عن الفعل للذين آمنوا على وجه الإطلاق، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان، مع الشعور برأفة الله ورحمته ودعائه بهذه الرحمة وتلك الرأفة "ربنا إنك رؤوف رحيم"٥.

٤- دعاء الرابطة :

السابقون الأولون من المؤمنين مدحهم الله تعالى في كتابه ونالوا محبة خاصة من رسوله ﷺ من أصحابه رضوان الله عليهم، وهذه المحبة تسري إلى كل مؤمن لا تحجبه لا الأمصار ولا الأزمان تنتظم في عقد الولاية بين المؤمنين. "تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وثواب وتعاطف وشعور .... وشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب، وتستقر وحدها في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة كما يذكر أخاه الحي، في إعزاز وكرامة وحب ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلف على آثار السلف، صفا واحدا وكتيبة واحدة على مرار الزمان واختلاف الأوطان، تحت راية الله تغذ السير صعدا إلى الأفق الكريم متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم"٦.

هذه هي قافلة الإيمان، الموكب النوراني والعقد الفريد الغالي، هذا هو وعاء الإيمان وإنها لعائلة كريمة إنه لدعاء كريم.

٥- الدروس والعبر :

هؤلاء هم السابقون الأولون من المهاجرين، أول من صدق رسول الله ﷺ وأول من صلى من الأمة المحمدية، وفي قصصهم عبر لأولي الألباب نذكر منها :

١- دور المرأة المؤمنة في تحمل أعباء الدعوة، فقد كانت خديجة رضي الله عنها الملجأ الدافئ الذي يخفف عن رسول الله ﷺ أبناء قريش ومكرها وتعنتها وجهلها و كذا فإن أزواج الدعاة يمثلن المحضن الذي يأوي إليه الداعي الصادق بعد مكابدة الواقع ومعاناة الناس وابتلاء الظالمين. لأنه إذا استقر الإيمان بالقضية العظمى قضية تبليغ الرسالة في قلب المرأة، فلنعلم أنها يمكن أن تيسر لزوجها كثيرا مما عسر، وتهون عليه كثيرا مما عظم، وتجعله دائم العطاء.

٢- العناية بالأطفال والصغار، تربى سيدنا علي كرم الله وجهه في كنف رسول الله ﷺ منذ صغره وكان أول ذكر أسلم، فقد كان عمره عشر سنين.

إن العناية بالأطفال والشباب لأمانة عظيمة، بواسطتها يرسخ الإيمان في القلوب، وتتقوى العقيدة في الأفئدة، فهذا رسول الله ﷺ يولي ابن عمه عناية كبرى، ويعلمه الصلاة، ويتابعه ويجالسه حتى يستوي عوده ويخرج منه الرجل المجاهد، والولي المجاهد، والخليفة العادل رضي الله عنه.

لا بد للحركة الإسلامية من إيلاء الاهتمام الأكبر بالأطفال فإنهم أمل الأمة ومستقبلها.

٣- أثر الصحبة الصالحة : إن للصحبة الصالحة الأثر الأول في ثبوت الإيمان في القلوب، وإن لحظات التقاء الصاحب بالمصحوب لأكبر دليل على ذلك وإليك بعضه :

أ- عاد أبو بكر من رحلة التجارة وأبلغه القوم أن محمدا -صلى الله عليه وسلم- يزعم أنه يوحى إليه فأجابهم إن قال فقد صدق فما أن حط عنه عناء السفر حتى أقبل إلى النبي عليه الصلاة والسلام متأكدا من ذلك فما أن سمع من النبي ﷺ حتى فاضت عيناه وقبل صاحبه الذي ما تردد في النطق بأعظم كلمة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

ب- لقد توفرت في أبي بكر خصال عظيمة جعلته خير ناقل لأثر الصحبة، كان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر فحسن مجالسته هذا كان سببا في إسلام السابقين فجاء بهم إلى المصحوب الأعظم رسول الله ﷺ فأسلموا وصلوا.

٤- التبليغ الصادق : إن بشاشة الإيمان حين تخالط القلوب ما تلبث أن تتحول إلى طاقة لا تقهر فما يحمله المؤمن المقبل على ربه من مشاعر بعمق الحقيقة التي يراها، وحلاوة يجدها في روحه حتى يسعى بكل ما أوتي من جهد ووقت وإمكانات إلى تبليغ كلمة الله والدعوة إليه.

فهذا أبو بكر رضي الله عنه يبارك الله تعالى صحبته لرسول الله ﷺ فيدعو عثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، فكانوا هم السابقين الذين ذكروا الله تعالى في أنفسهم لذلك ذكرهم الله تعالى في حياتهم في الملإ الأعلى وذكرهم في كل من جاء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، إنهم السابقون، ومن حقهم علينا أن ندعو الله لهم في ورد الرابطة فإن لهم أجر عملهم وأجر من عمل

بعملهم إلى يوم القيامة ولقد آثر الله تعالى على أيديهم دعوة الثلة الأولى من الجماعة المباركة التي حملت النور إلى العالم فأسلم على أيديهم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله وسعيد بن زيد وغيرهم ومن النساء فاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر وعائشة بنت أبي بكر.

٦- لائحة المراجع:

١- السيرة ابن هشام.

٢- حياة الصحابة، الكاندهلوي.

٣- في ظلال القرآن، سيد قطب.

الهوامش:

١. السيرة النبوية لابن هشام ج١/ ص ٢٤٠.

٢. نفسه. ص ١/٢٤٥.

٣. هما جبلان مطيفان بمكة، والأخشيب كل جبل خشن غليظ.

٤. حياة الصحابة، الكاندهلوي، ج١ ص ٤٥ .

٥. في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٦ ص ٣٥٢٦.

٦. نفسه، ج ٦/ ص ٣٥٢٧.

السرية طريق النجاح

يقول عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه : " القلوب أوعيـــة ، والشـــفاه أقفالهـــا ، والألسن مفاتيحها ؛ فليحفظ كل إنسان مفتاح سره " " ٥٢ "

غالبا : ما تكون السرية بالأمر : عونا على قضائه ، وطريقا جيدا لإتمامه ، وأســـلوبا نافعا لإنجاحه .

وهذه السرية الواعية النافعة المتعقلة ، نلحظها درسا هاما _ عمليا _ واضـــحا كـــل الوضوح ، في حادث الهجرة النبوية .

وبيان ذلك على النحو التالي :

أ _ لم يعلم بحادث الهجرة _ حين الخروج _ سوى علي بن أبي طالب بســـبب دوره المطلوب ، وأبو بكر لأنه الصاحب فيها والرفيق ، وآل أبي بكر للتغطية ، والـــدور المطلوب كذلك ، وعامر بن فهيرة بسبب دوره كذلك ، وعبد الله بن أريقط ، الأجيـــر المشرك ، لدوره المعروف ، وليس هؤلاء بالعدد الكثير بالنسبة لهذا الحدث الجليل .

ب _ طلب النبي ﷺ أن يختلي وينفرد بأبي بكر حين أراد مفاتحته في أمر الهجرة .

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : أنها قالت " أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة ، في ساعة كان لا يأتي فيها ، قالت : فلما دخل ، تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله ﷺ ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي " أسماء " بنت أبي بكـــر ، فقـــال رسول الله ﷺ : أخرج عني من عندك ، فقال يا رسول الله . . إنهما ابنتاي ، ومـــا ذاك فداك أبي وأمي . . ؟ " ٥٣ "

ولو لم يوثقهما أبو بكر ، ولو لم يؤكد للنبي ﷺ بهذا القول أنهما على مستوى عـــال من كتمان الأمر ، وصيانته : لما تحدث النبي ﷺ بأمر الهجرة أمامهما .

وقد أثبتت أحداث الهجرة المبكرة ، صدق تزكية أبي بكر لهما ، وأنه لا دخل للعاطفة _ بل الدخل لحسن التربية _ في هذه التزكية ، فيما قامت به السيدة أسماء بنت أبـــي

بكر مما لا يتسع له المقام ، وهو مبسوط في كتب السيرة ؛ وقد نتعرض لبعضه فيما يلي .

ج _ ذهاب النبي ﷺ لأبي بكر في ساعة ، لا تكاد ترى فيها أحدا في شوارع مكة أو شعابها من قيظ الشمس وشدة الحر ، متقنعا _ كما في رواية البخاري _ متخفيا . "٥٣ "

وكذلك : عدم خروجهما من باب البيت الأمامي ، بل من خوخة _ باب صغير خلفي _ في ظهر البيت ، حتى لا يراهما _ إن وجد _ أحد .

د _ عدم إعلام النبي ﷺ لأحد من هؤلاء الذين علموا إلا في اللحظات الأخيرة ، صيانة للسر من ذيوعه ، وصيانة لهم من مخاطر كتمانه .

وهذا درس يرينا : منزلة السر ، ومكانة كتمانه ، وإذا كانت صيانة السر وعدم إفشائه واجب إسلامي مطلوب ، وأدب إسلامي مرغوب بصفة عامة ، فهو في أمور الدعوة الحركية أولى وأوجب ، سواء كان منك أو من غيرك ، لك أو لغيرك .

فهذا يوسف عليه السلام ، فيما يحكيه الله تعالى عن والده يعقوب صلوات الله وسلامه عليهما ، وهو يقول له معلما إياه أهمية السر ووجوب صيانته (يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا) " ٥٤

ويقول علي رضي الله عنه :"سرك أسيرك ، فإذا تكلمت به : صرت أسيره" "٥٢"

ويقولون :من حصن سره ، فله بذلك خصلتان : الظفر بحاجته ، والسلامة من السطوات . " ٥٢ "

وليس الأمر في ذلك خاص بالأفراد فقط .

بل هو عام : في الأفراد ، والأسر ، والجماعات ، والدول ؛ إذ كل منهم ينبغي أن يحتفظ بالسر ، ولا يطلع عليه أحدا .

وإن كبرى الدول وصغراها لترصد من ميزانياتها ، وأموالها ، الشيء الكثير من أجل الإنفاق على وسائل الاحتفاظ بأسرارها ، وصيانتها من أن يعرفها أحد ، وفي الوقت

نفسه : لتعرف أسرار أعدائها ، وتكشف عن مخبوء نواياهم ، إما للنيل منهم ، أو رغبة في صيانة نفسها ، وحماية شعوبها ، من كيدهم وعدوانهم .

وما ذاك : إلا لأهمية هذه الأسرار _ لديها ، أو لدى غيرها _ وخطورتها .

والعاقل : من استطاع أن يكتم السر ويحتفظ به ، لا أن يفشيه ويذيعه ، ومن لا سر له : لا عقل له .

ومن لا يستطيع أن يحفظ سره : لا أمانة ولا أمان له ، ولا ينبغي أن يوكل إليه أمر ، أو تستند إليه مهمة ، أو يكلف بواجب .

وكم من إظهار سر : أراق دم صاحبه ، ومنعه من بلوغ مآربه ، ولو كتمه لأمن ضرره وسطوته . " ٥٢ "

ومن الخطأ البين : ما يظنه البعض من أن كتمان السر أمر مطلوب بالنسبة لأناس بعينهم ، وهو على غيرهم كلأ مباح ؛ حيث إن السر ما سمي بذلك إلا لطلب عموم كتمانه .

ولذا يقال : انفرد بسرك . . لا تودعه حازما فيزل ، ولا جاهلا فيخون " " ٥٤ "

وما قد يفعله البعض ، مما يحكيه الأحنف بن قيس ، إذ يقول : " يضيق صدر الرجل بسره ، فإذا حدث به أحدا قال أكتمه علي " "٥٢ " ، وبذلك : سرعان ما يذيع وينتشر .

والعاقل من تمثل بقول كعب بن سعد الغنوي ، إذ يقول :

ولست بمبد للرجال سريرتي ولا أنا عن أسرارهم بسؤول

وقد أطلنا في التعقيب على هذا الدرس : لأن أمناء الأسرار _ كما يقولون _ أقل وجودا من أمناء الأحوال ، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار ، لأن إحراز الأموال بالأبواب والأقفال ، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ، ويشيعها كلام سابق ، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال ، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به ، ولا يستطيع كتم السر ، وإن الرجل يكون سره في قلبه : فيلحقه

من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال ، فإذا أذاعه استراح قلبـــه ، وســـكن خاطره ، وكأنما ألقى عن نفسه حملا ثقيلا " " ٥٢ "

ومن هنا : تكمن خطورة الأسرار ، ويثقل حفظها ، وتسهل إذاعتها .

والداعية الواعي : من يكون على قدر المسئولية ، وعلى مستوى الفهم والامتثال لهذا الدرس في حفظ السر .

السيرة النبوية معلمة النهج الذي أعز السلف

من خطب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، سبحانك اللهم لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، خير نبي أرسله، أرسله الله إلى العالم كله بشيراً ونذيراً، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين، وأوصيكم أيها المسلمون ونفسي المذنبة بتقوى الله تعالى.

أما بعد فيا عباد الله ها هي ذي فاتحة العام الهجري الجديد، تمر بالعالم الإسلامي يتيمة في أسرتها، غريبة في عالمها، لا تشعر بانقضاء ذلك العام الذي مضى، ودخول العام الجديد الذي أقبل، إلاّ قلة يسيرة ثم يسيرة من الناس، أما عامة أهل المجتمع والعالم الإسلامي ففي شغل شاغل عن الهجرة وعامها، وفي شغل شاغل عن بداية هذه السنة ونهايتها، وفي شغل شاغل عن عِبَرِ هذا العام وعظاته، يمر آخر هذا العام كما يقبل أوله، في مجتمعه في أسرته بين أهله يتيماً غريباً، بل أكثر من غريب، أين هي الاحتفالات والاهتمامات التي ما زلنا نتذكر أصداءها بمناسبات مشابهة مرت؟ أين هو الطنين والرنين؟ أين هي المشاعر الجياشة التي تهتاج في نفوس المسلمين لذكرى هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما جرّته معها من ذيول العِبَر والعِظات والدروس والانتصارات؟ لكن هذا هو حال عالمنا الإسلامي، وهذا هو حال الأسرة الإسلامية بخوض هذا العالم الذي يتماوج بالهرج والمرج كما تلاحظون، ومَعْلَمَة الهجرة ما هي أيها الإخوة؟ مَعْلَمَة الهجرة هي معلمة ولادة الدولة الإسلامية التي تجددت ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، هي مَعْلَمَة تاريخ هذه الأمة، بهذه المعلمة نحصي التاريخ ونعده من ألف بائه إلى نهايته، هجرة رسول الله ﷺ هي الفيصل القاسم والحاسم، بين ماضٍ من الفقر

المدقع وآتٍ من الغنى الذي لفت نظر العالم أجمع، معلمة الهجرة هي الفيصل الحاسم بين ماضٍ من الشتات والتفرق والتشرذم والتخاصم، وبين آتٍ من الوَحدة والتماسك التي غدت مضرب المثل، معلمة الهجرة هي الفاصل الحاسم بين ماضٍ من الضعف والمهانة وآتٍ من القوة والعزة التي كانت مضرب المثل في العالم، تلك هي معلمة الهجرة التي أكرم الله بها هذه الأمة من خلال شخص رسول الله ــ ﷺ ــ وهي المعلمة التي خلد بيان ــ عز وجل ــ حديثه عنها في قوله: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} [الأنفال: ٨/٣٠] . فما هي نسبة العالم الإسلامي اليوم إلى هذه المعلمة التي أعزّتهم بعد ذل، ووحّدتهم بعد شتات، وأغنتهم بعد فقر، فانظر إلى العالم الإسلامي اليوم فتجده معرضاً عن هذا النسب، متجاهلاً لهذا الدرس، متجاهلاً بهذه القيمة كلها، أليس هذا هو واقع العالم الإسلامي اليوم؟ هل هنالك من مبالغة إن قلت: إن هذه المعلمة تمر بنا اليوم في نهاية عام مضى، ومقتبل عام جديد، تمر بنا يتيمة في أسرتها، غريبة في عالمها، ليس هنالك أي مبالغة لو أن هذه الأمة كانت أمينة على معاني الهجرة، يبقي غناها الذي ورَّثته إياها الهجرة النبوية الشريفة، ولبقيت عزتها التي ورَّثتها إياها الهجرة النبوية الشريفة، ولبقيت وحدتها التي ورَّثتها إياها الهجرة النبوية الشريفة، ولكن لما خلع العالم الإسلامي متجسداً في مظهر حكامه وأكثر أهله، لما خلعوا هذا الشرف وألقوه وراءهم ظهرياً، قال لهم الله: لقد أسلمتكم إلى ماتشاؤون، كانت العبرة التي يأخذها المسلمون من السلف الصالح من الهجرة عبرةٍ إيجابية، واليوم غدت العبرة التي نأخذها من الهجرة ــ ويالللأسف ــ عبرة سلبية، بكل معنى الكلمة، سَلْ أكثر من تريد أن تسألهم من المسلمين اليوم عن اسم هذا الشهر الذي يمر بهم من الأشهر الهجرية، لن يستطيع أن يعطيك جواباً إلاّ بعد أن يعود فيتعلم ثم يخبر، بل لو سألتهم عن العام الهجري الذي يمرون به لن يعطيك جواباً، لأنه غريب عن عامه الهجري، معانق لذلك العام الأخر، أليس هذا هو الواقع المرئي؟ وأصغِ جيداً إلى أجهزة الإعلام في العالم الإسلامي كله، تَجِدْ كيف أن اسم العام الهجري يمر

ذليلاً ولا يمكن أن يذل عند الله غريباً، ولا يمكن أن يكون غريباً في سماوات الله عز وجل يتيماً، ولا يمكن أن يكون يتيماً في ميزان الله عز وجل، لكنه يتيم اليوم بقرار من العالم الإسلامي الذي قضاه في حق نفسه، من هنا أيها الإخوة حاقت بنا المهانة التي نتأفف منها، ولو أننا فكرنا وقدرنا وتأملنا لوجدنا ــ يقيناً وبدون ريب ــ أن الغرب ليس هو الذي أبرم قضاءه الجائر في حقنا أن يذلنا ويهيننا ويقطع أوصالنا، ولكننا ــ نحن المسلمين ــ الذين أبرمنا هذا الحكم في حق أنفسنا، ثم إن الغرب جاء لينفذ ما قد قضيناه نحن، نحن الذين قضينا والغرب هو الذي ينفذ هذا هو الواقع، قال لنا عدونا في الغرب: دعوا حضارتكم الإسلامية، وتعالوا فاتبعوا الحضارة التي تملأ رحب العالم ألقاً، قلنا: نعم، لكم ما تطلبون، وهذا هو الحق، قال لنا الغرب الذي يعادينا ويحقد علينا وعلى كل شيء في تاريخنا: دعوكم من الإسلام الذي تقادم عهده، طوِّروه وبدِّلوه وغيِّروه، وتعالوا إلى النظم العجيبة العلمية والعلمانية التي تورثكم عزة ما بعدها عزة، قلنا: نعم، لكم ما تريدون حباً وكرامة، فعلنا ما يقول، قال لنا العدو الذي يفيض قلبه حقداً علينا وعلى تاريخنا وديننا: دعوكم من محور الدينِ الجامع هنالك محاور أخرى كثيرة متطورة تجمع الأمة وتقيم الوحدة، هناك محاور القوم، محاور وحدة اللغة ووحدة المصير، وما إلى ذلك، دعوكم من الدين الذي يثير عليكم الأقليات المختلفة، قلنا: حباً وكرامة، هذا هو الحق، سرنا وراءهم تماماً أذلاء خاضعين، كلما وُجِّه إلينا تعليم من تعليماتهم، رفعنا أيدي الاستسلام المهينة لهم، وقلنا: نعم، حباً وكرامة. فلماذا نستنكر إذا جاءت النتيجة الطبيعية لهذا كله؟ لماذا نستنكر إذا جاء هذا العدو بعد هذا كله، فقطع أوصالنا، ومزق كياناتنا، وسحقنا، وأقام المذابح للقضاء علينا، ولتطهير الجيوب الإسلامية في مجتمعاتنا؟ لماذا تنكرون النتيجة الطبيعية للمقدمات التي أنتم كنتم أبطالها، وأنتم الذين قررتموها، والمقدمات المنطقية لا بد أن ونتائجها المنطقية، أما هجرة المصطفى ــ ﷺ ــ فكانت ولا تزال تقول لنا من وراء حواجز القرون: تعالوا إلى النهج الذي أعز أسلافكم، وأنا الكفيل بأنه سيعزكم اليوم، تعالوا فالتزموا بما التزم به أولئك الذين أعرضوا عن الدنيا في سبيل

الله، أعرضوا عن الوطن في سبيل العقيدة، أرأيتم كيف أن الهجرة أعادت إليهم الوطن عندما بقيت لهم العقيدة، تعالوا أفعلْ بكم هذا النصر ذاته، أحقق لكم هذا الأمر ذاتــه، أعرضتم. قالت لنا الهجرة ببليغ البيان: تعالوا فكونوا أمناء على معنى الهجــرة كمــا كان أسلافكم، أمناء عليها تستغنون بعد فقر، يبقَ لكم ماضي غناكم، ويضــيف الله ــ عز وجل ــ إليه غنىً جديداً، أرأيتم إلى أسلافكم الفقراء يوم نفضوا أيديهم من الــدنيا كلها؟ من البساتين والعقارات والأموال المنقولة وغير المنقولة، في سبيل الهجرة، من أجل العقيدة، من أجل المبدأ، أرأيتم كيف أن الله أعاد إليهم الأمــوال، وأعــاد إلــيهم أضعاف أضعاف أضعافها؟

ها أنا ذا إن كنتم أمناء على هجرة رسول الله ــ ﷺ ــ ومعانيها أضمن لكــم الغنــى بعد الفقر، أعيد إليكم مجدكم السابق، أعرضتم عن ذلك كله، أهابت بنا هجرة رســول الله وَيْحَكُمْ التفتوا إليَّ، هذا هو معين عزكم، هذا هو مصدر قوتكم، من هنا تستطيعون أن تدخلوا الرعب في قلوب أعدائكم، ونظرنا فلم نجد أذاناً تصغي إلى هــذا الكــلام بشكل من الأشكال، بل رأينا مَعْلَمَة الهجرة تخب فيما بيننا يتيمة في عالمها الإسلامي من شرقه إلى غربه، غريبة في هذا العالم من شماله إلى جنوبه، كلنا يلاحــظ هــذا المعنى أيها الأخوة، فهل بقي لنا لسان يعتب على الله؟ إذا كنا نسمع أو نرى ما الــذي يحدث بإخوة لنا هنا أو هناك، ما ينبغي أن نكون متجاهلين لجرائمنا إلى هــذا الحــد، نجرم في حق أنفسنا ثم نعتب على الله، نحكم على أنفسنا بالانتحار، بالــذل بالضــيعة بالفرقة بالهوان، ثم نعتب على الله، لماذا سلط علينا هؤلاء الناس أو أولئك، قلت لكــم أيها الإخوة: لا والله ليس هناك عدو يملك أن يقضي بحكم بحق العالم الإسلامي، لكن العالم الإسلامي هو الذي قضى بملء اختياره وحريته، بأن يحكم على نفسه بالانتحار المهين البطيء الذليل، ثم جاء العدو منفذ، نحن الذين حكمنا، وجاء العدو ينفذ ما قــد حكمنا به، وخير الكلام ما قل ودل، ولا أجدني في هذا الموقف أمام هذه العبرة التــي تمر بنا أو نمر بها، لا أجدني أستطيع أن أقول مزيداً على هذا الكلام .

العبرة من الهجرة النبوية

محمد سعيد رمضان البوطي ...

الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، ياربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، سبحانك اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبيٍ أرسله، أرسله الله إلى العالم كله بشيراً ونذيراً، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد؛ صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين، وأوصيكم ــ أيها المسلمون ــ ونفسي المذنبة بتقوى الله تعالى.

أما بعد، فيا عباد الله:

كلكم يعلم أن هجرة المصطفى ﷺ وأصحابه من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، إنما كانت ابتلاءً وامتحاناً بين يدي النصر العظيم الذي قيضه الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد ﷺ ولأصحابه البررة الكرام، وكلكم يعلم أن هذا الابتلاء القاسي إنما تمثل في الابتعاد عن الوطن وتركه، دون معرفة أيرجع أصحابه إليه أم لا، تمثل في ترك الأرض والمال والعقار، تمثل في ترك الزوجة في بعض الأحيان والأولاد والأسرة، قطع المسلمون أنفسهم عن حظوظهم كلها التي تعارضت مع اعتناقهم لدين الله سبحانه وتعالى وإخلاصهم له، ثم إنهم بعد أن قطعوا أنفسهم عن هذه الحظوظ كلها اتجهوا إلى تلك الأرض المعروفة بسوء مناخها، والمعروفة بوبائها، اتجهوا إلى يثرب وهم يعلمون أنهم إنما ينفذون في هذا أمر مولاهم وخالقهم سبحانه وتعالى، ولم يكونوا يتصورون أي جزاء يمكن أن ينالوه إن في الدنيا أو في الآخرة، كل ما في الأمر أن المصطفى ﷺ تلقى الأمر من ربه بأن يهاجر، فهاجروا معه، ونفضوا أيديهم في سبيل ذلك من المال والعقار والأهل والولد، واستقبلوا – كما قلت لكم – أرضاً

معروفة بوبائها وسوء مناخها حتى إن المصطفى ﷺ دعا ربه قائلاً: ((اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، وانقل وباؤها إلى مهيعة)).

ونظر المصطفى ﷺ إلى أصحابه وقد قطعوا أنفسهم من حظوظهم كلها فأشفق عليهم، رآهم جياعاً، رآهم عراة، رآهم تاركين لدنياهم معرضين عنها، فرفع يديه قائلاً: ((اللهم إنهم الغداة جياع فأطعمهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم فقراء فأغنهم))، ولست بصدد ذكر القصص التي كم وكم طرقت أسماعكم، ولكنا بذكر العبرة التي ينبغي أن نقطفها في عصرنا هذا من قصة الهجرة هذه، ما هي القوة التي بها نجحوا في ذلك الامتحان؟ ما هو الدافع الذي حملهم على أن ينفضوا أيديهم من كل ما كانوا يملكونه، وأن يتجهوا إلى المدينة المنورة وهم لا يملكون إلا ثقتهم بالله عز وجل وإيمانهم بضرورة الانقياد لحكمه؟ ما هو رأس مالهم الذي يسر لهم النجاح في ذلك الابتلاء؟ إنه الثقة بوعد الله؛ إنه الثقة بما ألزم الله عز وجل به ذاته العلية، سمعوا قوله عز وجل: {وَكانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧/٣٠] سمعوا قول الله عز وجل: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٦٠/٣]، سمعوا قوله: {بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ، سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً} [آل عمران: ١٥٠/٣-١٥١]، {لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ} [إبراهيم: ١٣/١٤-١٤]، {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ} [القصص: ٥/٢٨] صكت هذه الوعود والعهود الربانية أسماعهم، وهيمنت على قلوبهم، وعلموا أنه كلام الله، وكلام الله عز وجل حق لا يلحقه خلف قط، هذا هو الذي شجعهم وهو الذي يسر لهم أن ينفضوا أيديهم من القليل الذي كانوا يملكونه من الوطن والأرض، والعقار والأهل، وكل ما يقف عثرة في طريق سعيهم وسلوكهم إلى الله سبحانه وتعالى، نجحوا في ذلك الابتلاء والامتحان بثقتهم بهذه الكلمات الربانية.

ومكان العبرة في هذا أيها الإخوة: أن هذا الذي يقوله الله عز وجل مكـــرراً مؤكـــداً، مكرراً مؤكداً، لم يكن خطاباً للرعيل الأول فقط، بل هو خطاب لعباد الله جميعاً، هـــو خطاب للمؤمنين في سائر العصور وفي سائر الأجيال {وَكـــانَ حَقّـــاً عَلَيْنـــا نَصْـــرُ الْمُؤْمِنِينَ} لم يقل: نصر أصحاب رسول الله {وَكانَ حَقّـــاً عَلَيْنـــا نَصْـــرُ الْمُـــؤْمِنِينَ}. والخطاب إنما كان للمؤمنين كافة في كل العصور إذ قال: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ} وعندما قال: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُـــنَّ عَلَـــى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} [القصص: ٥/٢٨] إنما كان يعني البيان الإلهي المستضـــعفين مـــن عباد الله المؤمنين به الواثقين بنصره في كل عصر وعندما قال: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: ٢٥٧/٢] إنما كان البيان الإلهي ولا يـــزال يعني المؤمنين في كل عصر.

فما الفرق بين المؤمنين اليوم وبين أولئك المؤمنين من أصحاب رســـول الله؟ أولئـــك الذين سمعوا هذه البيان المكررة والمؤكدة وثقوا بكلام الله وصدقوه ورأوا ما وعـــدهم الله به كأنهم يتقرونه عياناً، أما نحن فما أكثر ما نتلو هذه الآيات ونرددها، وما أكثـــر ما نسمعها في المناسبات المتنوعة المختلفة، لكن أين هم الذين هيمنت هـــذه العهـــود الربانية والمواثيق الإلهية على قلوبهم؟ أين هم الذين وثقوا بوعود الله وعهـــده الـــذي ألزم به ذاته العلية، كما وثق بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هذا هـــو فرق ما بيننا وبينهم، ومن ثم فهو هو فرق ما بين النتائج التي قطفها ذلـــك الرعيـــل الأول والنتائج المهينة المذلة التي نتقلب في حمأتها اليوم، أولئك وثقوا بعهد البـــاري سبحانه وتعالى، فتركوا الوطن، تركوا الدنيا، تركوا العشيرة، تركـــوا كـــل شـــيء، وعانقوا الوباء، عانقوا الأرض ذات المناخ السيئ، لأن عزائهم إنما هو قول الله عـــز وجل: {وَكانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧/٣٠] نصرهم الله، أعادهم الله عز وجل أعزة كرماء إلى الوطن الذي نفضوا أيديهم منه، وأكرمهم بمزيد من الأوطـــان، بأضعاف أضعاف أضعاف الأموال الذي تركوها في ســـبيل الله ســـبحانه وتعـــالى، وصدق عليهم قوله عز وجل: {وَكانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} وصدق عليهم قولـــه

عز وجل: {بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ، سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} كل ذلك تحقق.

أما نحن، فها نحن نسمع هذه البيانات الربانية كما سمعوا، ونتأمل فيها بعقولنا كما تأملوا، ولكن أين هم الذين يحفلون بهذه البيانات الإلهية؟ أين هم الذين جعلوا عقولهم أوعية لليقين بهذه العهود التي ألزم الله عز وجل بها ذاته العلية، تأملوا وانظروا تجدون أن جل المسلمين اليوم محجوبون عن خطاب الله عز وجل يتعاملون مع أهوائهم، يتأملون مع غرائزهم، مع رغباتهم، يتعاملون مع دنياهم، أجل، ومن ثم فقد كانت النتائج في حياتنا على النقيض من نتائج أولئك الناس، أولئك أدخل الله عز وجل الرعب في قلوب الكافرين منهم، أما نحن اليوم فإنما يزيد الله سبحانه وتعالى قلوب الكافرين وأعداء هذا الدين منعة وقوة وطغياناً كلما أرادوا أن يتجهوا إلينا بعدوان، يريدون أن ينفذوا خططه، انظروا إلى النقيض أيها الإخوة، ورحم الله المثل القائل: ((المرء حيث يضع نفسه)). ضع نفسك في موضع الاعتزاز بالحق الذي ألزم الله به ذاته العلية، ضع نفسك في موضع اليقين بما وعدك الله عز وجل به، انظر كيف يدخل الله عز وجل الرعب منك في قلوب أعدائك وأعدائه، ولكن إن أنت أعرضت عن بيان الله عز وجل، وإن أنت نظرت إلى الدين نظرة تقليدية ولم تزد علاقتك به على علاقة الأمة بتراثها كما يقال اليوم، تراث، ليس أكثر من تراث، آل الدين الذي خلقنا لأجله، آلت العبودية التي هي هويتنا فوق هذه الأرض، آلت إلى تراث للآباء والأجداد، نرتبط به ضمن حدود المصالح، فإذا رأينا أن رغباتنا أهوائنا، مختلف أمزجتنا تعارضت، فما أيسر أن نعانق الحداثة والتجديد والتبديل والتغيير، ونعانق ما يدعونا إليه العدو الأرعن.

هذا واقعنا، ومن ثم فقد وكلنا الله عز وجل إلى أنفسنا، وكلنا الله عز وجل إلى هذا الوضع الذي تعاني منه نفوسنا، وإلا فمن أين جاءت هذه الغطرسة التي يتمتع بها العدو ضدنا؟ من أين جاء هذا الطغيان؟ قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، لا يمكن لأمة أن تذل وأن تهون إلا إذا قطعت ما بينها وبين الله عز

وجل من صلات، ولا يمكن أن يسلط الله عز وجل عليها عدواً له وله إلا عندما تبتعد هذه الأمة عن العهد وتخون الأمانة وتلقي الخطاب الذي شرفها الله به وراءها ظهرياً، وهذا هو حالنا، هذا هو حالنا.

لا يقولن قائل: ها نحن نردد بيان الله صباح مساء، ها نحن نسمع القرآن من أفواه تطرب لها الآذان في مختلف الإذاعات والفضائيات، هذه أطر أيها الإخوة، انظروا إلى ما في داخل الأطر، ولا تنظروا إلى الإطار نفسه، الإطار مزركش وداخله مخجل، داخله مخجل نعم، هذا العدو الأرعن يسمعنا أن علينا أن نبدل ديننا، أن نبدل مناهج التربية في مجتمعاتنا، علينا أن نودع هذا الدين إلى غير رجعة، ويأتي من ينبطح في عالمنا العربي والإسلامي ويقول: إن بلسان الحال أو بلسان المقال: سمعاً وطاعة، سمعاً وطاعة، سنغير، سنبدل، أجل سنفعل ما تشاؤون. وأين هو الإله الذي يملك النواصي، الذي يملك القلوب، الذي قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه، ويحكم أن بينكم وبين أن يطرد الله عدوكم من دياركم وبين أن يلحق به المهانة والذل شيئاً واحداً، هو أن تصدقوا مع الله كما صدق أصحاب رسول الله مع الله، هو أن تثقوا بهذه العهود المتكررة التي ألزم بها ذاته العلية: {وَكانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} من يقول هذا الكلام الله: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ} [آل عمران: ٣/١٦٠] من الذي يقول هذا الكلام الله: {بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ، سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} لكن إن آمنتم وإن وثقتم بكلام الله سبحانه وتعالى وجددتم العهد الصادق من الذي يقول: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ} الله سبحانه وتعالى. عندما نثق بهذا الكلام ونعاهد الله مجدداً كما عاهدنا، فإن الله عز وجل سيخلق في حياتنا خوارق النصر والتأييد، أما عندما نضع الخطط المتنوعة المختلفة التي تهدف إلى غاية واحدة، ألا وهو تمزيق هذا الدين، وتحويله إلى أمور ضبابية تصبح بعد حين أثراً بعد عين، كالتجديد، كالحداثة، كالعلمانية، كتبديل الخطاب الديني، كالتحويل، كالتبديل، هذه الكلمات التي تسمعونها خطط هي نتائج لخطط أجنبية أنا

على يقين بها، المراد منها أن تخلع هذه الأمة رداء دينها، ومن ثم أن تخلع البقية الباقية من رداء حضارتها، من الذي يبقى لها؟ يبقى لها أن تتحول إلى أجراء، إلى عبيد يتقممون الحضارة الغربية الآسنة، التي ظهر ريحها وظهر أنها بلاء أطم يهلك الحرث والنسل، هذه هي العبرة التي ينبغي أن نأخذها من الهجرة، من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

الفوائد الجنية من الهجرة النبوية

سلمان بن يحي المالكي

_slman٩٥٥@hotmail.com

مقدمة السلسلة

في جوٍ مشحونٍ بزيفِ الباطل وركامِ الجاهلية ، يسوسُ النـــاسَ جهلهـــم ، ويحكمُهـــم عرفُهم وعاداتُهم ، قتلٌ وزنا ، عُهُرٌ وخَنا وأدٌ للبنات ، تفاخرٌ بالأحساب والأنســـاب ، سادَ في البِقاعِ قانونُ الغاب ، فالبقاءُ للقوي ، والتمكينُ للعزيز ، تُغيرُ القبيلـــةُ علـــى الأخرى لأتفهِ الأسباب ، تقومُ الحروبُ الطاحنةُ ، تُزهق الأرواحُ ، وتُهلَك الأمـــوال ، وتُسبى النساءُ والذراري ، وتدومُ السنون وتتعاقبُ الأعوام ، والحربُ يرثها جيلٌ بعد جيلٍ ، وأصلها بعيرٌ عُقْر ، وفرسٌ سبقتْ أخرى ، أو قطيعُ أغنامٍ سيقٌ وسرْق ، ساد في ذلكمُ المجتمعُ عاداتٌ غريبةٌ عجيبة ، فعند الأشراف منهم كانتِ المرأة إذا شـــاءتْ جمعتِ القبائلَ للسلامِ وإن شاءت أشعلتْ بينهم نارَ الحربِ والقتال ، بينما كان الحـــالُ في الأوساطِ الأخرى أنواعٌ من الاختلاطِ بين الرجلِ والمرأةِ لا نستطيعُ أن نعبرَّ عنه إلا بالدَعارةِ والمجونِ والسِفاحِ والفاحشةِ ، كانت الخمرُ مُمتَدحُ الشـــعراء ، ومَفخَـــرة الناس ، فهي عندهم سبيلٌ من سُبُلِ الكرم ، ناهيك عن صورِ الشركِ وعبادةِ الأوثان ، التي تُصوِّرُ كيف كانَ أولئكَ يعيشون بعقولٍ لا يفكرون بها ، وأعينٍ لا يبصرون بهـــا ، وأذانٍ لا يسمعون بها إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَـــامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ في هذه الأثناءِ حدث حادثٌ عجيبٌ لمكةَ وحرمِها ، رأى أبرهةُ نائبَ النجاشي على الـــيمنِ أن العـــربَ يحجـــونَ الكعبةَ ، فبنى كنيسةً كبيرةً بصنعاءَ ليصرفَ حجَّ العربِ إليها ، وسمع بذلك رجلٌ من بني كِنانة ، فدخلها ليلاً ولطَّخَ قِبلتها بالعَذِرة ، ولما علم أبرهةُ بذلك ثار غضبه وسارَ بجيشٍ عرمرمٍ عدده ستونَ ألفَ جنديٍ إلى الكعبةِ ليهدمها ، واختار لنفسه فـــيلاً مـــن أكبرِ الفيلةِ ، وكان في الجيشِ قُرابةَ ثلاثةَ عشر فيلاً ، وتهيأ لدخولِ مكةَ فلما كان في وادي محسِّرٍ بين مزدلفةَ ومنى بركَ الفيلُ ولم يقُم ، وكلما وجهوه إلـــى الجنـــوبِ أو

الشمالِ أو الشرقِ قام يهرول ، وإذا وجهوه قِبَلَ الكعبةِ بركَ فلم يتحرك ، فبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل أمثالُ الخطاطيف مع كل طائرٍ ثلاثةُ أحجارٍ مثلُ الحُمُص ، لا تصيبُ أحدًا منهم إلا تقطعت أعضاؤه وهلك ، وهربَ مَن لم يصبه منها شيءٌ يموجُ بعضهم في بعض ، فتساقطوا بكلِ طريقٍ ، وهلكوا على كل مهلكٍ ، وأما أبرهةُ فبعثَ الله عليه داء تساقطت بسببه أناملُه ، ولم يصِل إلى صنعاءَ إلا وهو مثلُ الفرخِ ، وانصدع صدرُه عن قلبِه ثم هلك ، وكانتْ هذه الوقعةْ قبل مولدِ النبي بخمسين يومًا أو تزيد ، فأضحت كالتقْدُمةِ قدَّمها الله لنبيه وبيتِه ، وبعد أيامٍ من هلاكِ ذلكم الجيشِ أشرقت الدنيا وتنادت ربوعُ الكونِ تزُّفُ البشرى بولدِ سيدِ المرسلين ، وإمامِ المتقين ، والرحمةِ للعالمين في شِعْبِ بني هاشمٍ بمكةَ صبيحةَ يومُ الإثنين التاسعِ من ربيعٍ الأولِ لعامِ الفيل ، وُلد خيرُ البشر ، وسيدُ ولدِ آدم ، ولد الرحيمُ الرفيقُ بأمته ، أطلَّ على هذه الحياةِ محمدُ بنُ عبد الله بنُ عبد المطلبِ الهاشميِ القرشي ، أرسله الله إلى الناس جميعا ليقول للناس " إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون " جاء النبيُ ﷺ يدعوا الناسَ إلى شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله بكل ما تضمنته هذه الشهادة من معنى ، جاء نبي الرحمة ﷺ يدعو الناسَ إلى العفافِ والطهرِ والخلقِ الكريم والاستقامةِ وصلةِ الأرحام وحسنِ الجوار والكفِّ عن المظالم والمحارم ، يدعوهم إلى التحاكمِ إلى الكتابِ العزيز لا إلى الكهان وأمرِ الجاهلية ، وجعْلِ الناس كلهم أمام شريعةِ الله سواءً يتفاضلون بالتقوى ، روى ابنُ جريرٍ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال " لما مرِضَ أبو طالبٍ دخلَ عليه مشيخةٌ من قريشٍ فيهم أبو جهلٌ فقالوا : إنَّ ابنَ أخيك يشتُمُ آلهتَنَا ويفعلُ ويفعلُ ويقولُ ويقولُ فأنْصِفْنَا من ابنِ أخيك ، فلْيَكُفَّ عن شتمِ آلهتِنا وندَعُهُ وإلهُهُ ، فقال أبو طالبٍ : يا ابنَ أخي ما بالُ قومِكَ يشكُونَكَ ويزعُمُون أنكَ تشتُمُ آلهتَهم ..؟ قال يا عم : أريد أن يقولوا كلمةً تَدِينُ لهم بها العربُ ، وتؤدي لهم بها العجم الجزية ، فقال أبو جهل : نقولُها وعشرًا ، فقال عليه الصلاة والسلام : قولوا لا إله إلا الله ، ففزِعوا

وولوا مدبرينَ وهم ينفُضُون ثيابَهم ويقولون : أجعل الآلهةَ إلهً واحدًا إنّ هذا لشـــيء عجاب " نعم .. لقد دعا رسولُ الله ﷺ الناسَ كلَّهم إلى هذا المعنىَ العظيم ، وقـــام بهذا الواجبِ الكبيرِ الذي هو أكبرُ واجبٍ في تأريخ البشريةِ كلها ، دعا إلى دينٍ قويمٍ يرقى به الإنسانُ إلى أعلى المنازلِ ، ويسْعَدُ به في الآخرةِ سعادةً أبديةً فـــي النعـــيمِ المقيم ، فاستجاب له القلة المؤمنة المستضعفة في مكة ، فأذاقَهُمُ المشـــركونَ أنـــواعَ العذاب ، ووقف في وجههِ ثلاثةُ أنواعٍ من الناس : المستكبرونَ الجاحدونَ العـــالمونَ بالحق ، والحاسِدونَ المحترقون ، والجهالُ الضالون ، وكوّنَ هذا الثالوثُ جبهةً عنيدةً وحربًا وحزبًا شيطانيًا لا يترُكُ من سبيلٍ ولا وسيلةٍ إلا سلكها للصد عن ســـبيل الله) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (واشتدَّ الكـــربُ بمكةَ وضُيِّقَ الخِناقُ على الدينِ الإسلامي ، وائتمرَ المشركونَ بمكةَ أن يقتلوا رســـولَ الله ﷺ قال جبريل عليه السلام " إن الله أذن لك يا محمد بالهجرةِ إلى المدينةِ فـــلا تَبِتْ هذه الليلةَ في فراشك " ورصده المشركونَ عند بابه ليضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ ليتفرقَ دمَه بين القبائلِ ، فخرج عليه الصلاةُ والسلام عليهم وهو يتلو صدرَ ســـورةِ يس وذرى على رؤوسهمُ الترابَ وأخذ الله بأبصارهم عنه فلم يروه ، وأخذهمُ النعاسَ ، واختبأ هو وصاحبَه أبو بكر الصديق في غارِ ثورٍ ثلاثةَ أيامٍ حتى هـــدأ الطلـــبُ ، ففتشتْ عنه قريشٌ في كلِ وِجْهَةٍ، وتتبعوا الأثرَ حتى وقفوا على الغارِ فقال أبو بكـــر رضي الله عنه : يا رسولَ الله لو أن أحدَهم نظر إلى موضعِ قدميه لأبصرنا ، فقال " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما " ولقيا الدليلَ بعد ثلاثٍ براحلتْيَهما ، ويمّما المدينة فكانت هجرةُ المصطفى ﷺ نصرًا للإسلام والمســـلمين حيـــثُ أبطـــلَ الله مكـــرَ المشركينَ وكيدَهم في تفكيرهِمُ القضاءَ على الإسلامِ بمكةَ وظنهَّمُ القدرةَ علـــى قتـــلِ رسول الله

من أهمِّ الدروسِ أيها الأحبة التي ينبغي التأملُ فيها وخاصةً من يَسْبُرُ أوراقَ السيرةِ ، ذلكم الأمرُ المهمُ في حياةِ النبي ﷺ ، ألا وهو أمرُ الهجرةِ وما أدراكم ما الهجرة .

إن الهجرةَ النبويةَ في حدِّ ذاتِها بغَضِّ النظرِ عن أحداثِها تستحقُ الوقفةَ المتأنيَة ، تستحقُ الوقفةَ الثاقبة ، تستحقُ النظرَ الدقيق ، فهي ليستْ نزهةً بريةً ولا وسياحةً بحريةً ، الهجرةُ النبويةُ ليست للتفرجِ والإطلاعِ ، ولا للنظرِ والمعاينةِ ، ولا للسفرِ والتحصيلِ في مُتَعِ هذه الدنيا وملذاتِها ، وإنما هي نقلةٌ جديدةٌ وانتقالٌ وطيدٌ من أجلِ الحفاظِ على العقيدةِ ، الحفاظ على الركنِ الأساسِ ، والأُسِّ المتينِ مع التضحيةِ بالنفسِ والمالِ والأهلِ والولدِ ، نعم .. إنه الحفاظُ على العقيدةِ والمحافظةِ عليها ، فهو مبدؤها وهدفُها وأملُها وغايتُها ونهايتها .

إن الهجرةَ النبويةَ حدثٌ غيّرَ مجرى التأريخ ، حدثٌ حملَ في طياتِه معانيْ الشجاعةِ والتضحيةِ والإباءِ والصبرِ والنصرِ والفداءِ والتوكلِ والقوةِ والإخاءِ والاعتزازِ بالله وحده .

إنَّ حدثَ الهجرةِ النبويةِ حدثٌ جعلَه الله سبحانه طريقاً للنصرِ والعزةِ ورفعِ رايةِ الإسلامِ وتشييدِ دولتِه وإقامةِ صرحِ حضارتِه ، فما كانَ لنورِ الإسلامِ أن يشِّعَ في جميعِ أرجاءِ المعمورةِ لو بقيَ حبيساً في مهده ، إنه حدثٌ شاملٌ كاملٌ متكاملٌ لمن أحسنَ الاستفادةَ منه وأخذَ العبرةَ والعظةَ على أحسنِ وجه ، إنه في الحقيقةِ حدثٌ يعرِضُ منهجَ النبيِ ﷺ ، منهجَ المعصومِ ﷺ ، منهجَ من لا ينطقُ عن الهوى ، مهجَ المؤيَّدِ من ربِ العالمين ، فليست الهجرةُ حدثاً عادياً ، ولا أمرا طبيعيا ، بل هي أمرٌ جللٌ يستحقُ منا الاهتمام بما تحويه هذه الهجرة وما بداخلها من كنوز .

إن بين أيدينا هجرةُ الرسول ﷺ ، بين أحضاننا هجرةُ النبي ﷺ وفيها الدواءُ الناجعُ لكثيرٍ من أمراضِنا وأوضاعِنا وعللنا .

إن في هذه الهجرةِ المباركةِ من الآياتِ البيناتِ والآثارِ النيراتِ والدروسِ والعبرِ البالغاتِ ما لو استلهمَتْه أمةُ الإسلامِ اليومَ وعملتْ على ضوئِه وهي تعيشُ على مُفْتَرَقِ الطرقِ لتحقّقَ لها عِزُّهَا وقوتُها ومكانتُها وهيبتُها ، ولعلمت علمَ اليقينِ أنه لا حلَّ لمشكلاتِها ولا صلاحَ لأحوالِها إلا بالتمسكِ بإسلامِها والتزامِها بعقيدتِها وإيمانها ، فوالذي بعثَ محمدا ﷺ بالحقِ بشيراً ونذيراً ما قامتِ الدنيا إلا بقيامِ الدينِ ولا نالَ

المسلمونَ العزةَ والكرامةَ والنصرَ والتمكينَ إلا لما خضعوا لربِّ العالمين وهيهاتَ أن يَحُلَّ أمنٌ ورخاءٌ وسلامٌ إلا باتباعِ نهجِ الأنبياءِ والمرسلين ، ومن هنا جئنا لنتحدثَ هذه الليلة حولَ بعضِ المفاهيمِ والدروسِ والعبرِ والعظاتِ المجتناةْ من هجرةِ المجتبى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وإني لمَّا كنتُ أُقلِّبُ صفحات هذه الهجرةِ المباركةِ عرضتُ أتذكرُ حكمةً عربيةً قديمةً تقول " من أخْصَبَ تخيّر " أي من وجدَ الأرضَ الخِصبةَ الوفيرةَ تخيَّرَ المرعى ، فرأيتُ الحكمةَ تتقلبُ عليَّ فإني لم أَعُدْ أجدُها وأنا أقلبُ صفحات هذهِ الهجرة " من أخصب تخير "

ولكني وجدتها " من أخصب تحير " فماذا أقول الليلةَ وماذا أدع ..؟ فلا أكتمُكم أحبتي أنني وقفتُ أمامَ المفاهيمِ والدروسِ التي اطلعْتُ عليها ، واحترت : نعم .. احترتُ أيَّ مفهومٍ من هذه المفاهيم آخُذ ؟ وأيها أترُك ؟ أيها أدعُ ؟ وأيها ألتمس ؟ ووصلَتْ معي هذه المفاهيم وهذه الدروسُ عددا وكمّا كبيرا ، ولكن مراعاةً للوقت ، وتركيزاً على بعضِ النقاط ، وإلا لا أقولُ "على المهم ، أو الأهم " فكلُ هجرةِ الرسولِ ﷺ مهمة ، وتركيزاً على بعضِ النقاطِ التي تزدادُ حاجتنا إليها ؛ سأذكرُ بعضَ الوقفات ، وبعضَ المفاهيم وبعضَ الدروس التي أخذتها من استيعابِ هذه الهجرةِ المباركة ، فما أجملَ أن نُشيرَ إشاراتٍ عابرةٍ لعددٍ من القضايا المهمةِ الجديرة بالإشادةِ والتذكيرِ في هجرة رسولِ العالمين الذي أسأل الله بمنه وكرمه أن يُلحقنا به وأن يحشرَنا في زمرته وأن يُسقِيَنَا من حوضه شربةً لا نظمأ بعدها أبدا

أولا .. لماذا الهجرة ..؟

إني لما نظرتُ إلى تأريخِ الهجرةِ ، ونظرتُ إلى الإعِدادِ الذي أعدّهُ الرسولُ ﷺ ونظرتُ إلى الأسبابِ والأساليبِ التي اتخذَها ، ابتداءً من إذْنِه بالهجرةِ للصحابةِ ، وانتهاءً بوُصُولِه إلى المدينة ، وما بينهما من أسبابٍ بشريةٍ كثيرةٍ ، فيها الاختفاءُ والسِّريةُ ، فيها كثيرا من الأسبابِ البشرية ، تساءلتُ : ألم يُسْرَ بالرسولِ ﷺ قبلَ عامٍ فقطٍ إلى بيتِ المقدسِ ، ويُعرَج به إلى السماءِ ؟ ألم يأتِ إليه جبريلُ على الصلاةُ

والسلامُ وهو مُسْنِدٌ ظهره الشريف للكعبة بالبراق ليرحلَ هو وإياهُ من مكةَ المكرمة إلى بيتِ المقدس ومن هناك إلى السموات ..؟ سبحان الله ! يُسْرى به إلى بيتِ المقدس ، ويُعرج به إلى السماءِ ، ويرْجِع في ليلةٍ واحدةٍ ، ويجلس عدَّةَ شهورٍ ﷺ ويتَّخِذَ كثيرا من الأسبابِ والوسائلِ لهذه الهجرةِ ! لماذا ..؟ ما السبب ..؟ لِمَ لمْ تكن تلك الهجرةِ كذاكَ الإسراء ..؟ يُمْسي في مكةَ ويصبحُ في المدينةِ النبوية بأمرِ الله سبحانه وتعالى وبقدرته ؟ أليس الله قادرٌ على ذلك ..؟ أيُعْجِزُه سبحانَه وتعالى شيءٌ في الأرضِ والسماء ..؟ كيف لا.. والمعجزاتُ تتنزلُ عليه عليه الصلاة والسلام ، لكنني بعدَ التأمُلِّ وجدتُ أن الله سبحانه وتعالى أراد منا ومن أمةِ النبي ﷺ أن نفقه هذا الدين فِقْهًا دقيقاً ، أرادنا أن نفقهَ هذه الدعوة المحمدية فقها سديدا ، فهذه الدعوةُ أيها الأحبابُ هي وربي منهجٌ للبشر ، ربنا جل وعلا قادرٌ أن يأخذَ رسوله ﷺ في لحظةٍ واحدة ، وينقلُه من مكةَ إلى المدينة ، لا يحتاجُ إلى إعداد ، لا يحتاج إلى اختفاء ، لا يحتاج إلى مئونة ، لا يحتاج إلى مطاردةٍ ، لا يحتاج إلى مصاحبةٍ ، لكن الأمرَ أعمقَ من ذلكَ وربي وأبعدَ بكثير ، إنه الدينُ ..! أراده الله ليكونَ منهجاً للبشريةِ ، لماذا .. ؟ لأنه لو فُعل ذلك برسول الله ﷺ وجاءَ بعدَه من الدعاةِ ممن تواجهُهُم مثلُ هذه المشاكلِ ، مشاكلِ الاضطهاد ، ومعاناةِ العذاب في سبيلِ تبيينِ الدعوةِ وإخراجِ الناسِ من عبادةِ العباد إلى عبادةِ ربِ العبادِ فأين حينَها يجدُونَ الحلَّ ؟ كيف يجدونَ المخرج ؟ إلى من يلتجئون ..؟ أولئك الذين يُضطهدونَ في دينهم ، أولئكَ الذينَ يحارَبونَ في عقيدتهم ، أولئك الذين تُمتَهَنُ كرامتُهم عليهم أن يأخذوا الدروسَ العظيمَةَ من هذه الهجرةِ .

إذاً ..نحن في هذه الهجرةِ بجميعِ مراحلِها ، نتبينُّ من خلالِها الدروسَ العظيمةَ للدعاةِ وللمسلمينَ ، فلو تمَّتْ هذه الهجرةُ بين عشيةٍ وضحاها ؛ لخسرنا تلكَ الدروسَ ، ولخسرنا تلكَ المواقفَ ، وهذا أمرٌ لا ينتبه له كثيرٌ من الناس ، ويكفي التأريخَ شرفاً أن سطَّرَ بأحرفهِ الذهبيةِ هذه السيرةِ العطرةِ ، وهذه الهجرة المباركة ، لنلجأ إليها كمخرجٍ من كُرباتِنا ، وحلٍ لأزماتِنا ، وشِفاءٍ لأمراضَنا ، بعد الله جل وعلا .

في هذه الهجرةِ يعرفُ الداعيةُ كيف يأخذُ بالأسبابِ ، كيف يفرقُ بين التوكلِ والتواكُلِ ، يأخذ الحذرَ والحِيطةَ ، يعرفُ المسلمُ من هذه الهجرةِ النبويةِ أنه لا يستكينُ ولا يستهينُ ولا يقْبَلُ الذلةَ في دينه ، ولا في عقيدته أبدا ، نعم .. إن هذه الهجرةَ العظيمةَ منهجٌ للبشر ، ولو خرجْتُ عن الموضوعِ من جهةٍ أخرى في درسٍ عظيمٍ أربطُهُ بهذا الموضوعِ ، وهو " قضيةُ المنافقين " فلقد وقفتُ كثيراً وتأمّلتُ بتمعُّنٍ قصةَ علاجِ الإسلامِ لقضيةِ المنافقين ، وكيف عالج الرسولُ ﷺ قضيتهم حتى انتهت ، ابتداءً من الهجرةِ وحتى وفاتِه ﷺ مروراً بالأطوارِ التي مرت بها قضيةُ المنافقينَ وأثرُهم في المدينة ، وتساءَلْتُ وقلتُ : الله جلا وعلا قادرٌ على أن يُعْلِمَ نبيهَ ﷺ بعض أسماء المنافقينَ لِيَسْتَتِيبَهم ؛ فإن تابوا ، وإلا قُتلوا ، أو طُردوا " وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم " نعم .. لا تعلمهم كلهم نحن نعلمهم ، لأن الله لم يُرِدْ إبلاغَه إياهم ؛ لأن الله تعالى لو أخبرَ رسولَه ﷺ بهذهِ الأسماء ، نحنُ الذينَ نأتي من بعدِه من سيخبِرُنا بالمنافقينَ الذين يعيشونَ بيننا ؟ كيف نعالجُ مُشْكِلَتِنَا معهم وهم من بني جلدتِنا ؟ إذا

لا بدَّ من اللجوءِ بعد الله تعالى إلى سيرةِ الرسولِ ﷺ ، إلى هجرةِ الرسول ﷺ ، فَمِثْلَمَا عالجَ الرسولُ ﷺ تلكَ المشكلةَ وتلكَ الفتنةَ داخلَ الصفِّ المسلمِ ، ووقفَ على تلكَ الخياناتِ التي ارتُكبتْ في داخلِ هذا الصفِّ ؛ سنجدُ حينها علاجا لمشكلاتِنا في زماننا هذا .

إن درسَ الهجرةِ أيها الأحبة درسٌ عظيم ، أراد الله سبحانه وتعالى لنا أن نتعلمَ منه الشيءَ الكثيرَ ، ولكن أين القلوبُ الحيةُ ؟ أين القلوبُ الصادقةُ اليقظةُ ؟ أين القلوبُ الباحثةُ عن الحق ؟ فالعودة العودة الصادقة الحميمة إلى هجرةِ الرسولِ ﷺ لنستلهمَ الدروسَ والعبرَ ،،، وإلى ثاني الدروس الجنية من الهجرة النبوية .

ثانيا : المدينة النبوية ، التأسيس والتوطين ..!

وهذه قضيةٌ مهمةٌ ، وهي أنه لا بُدَّ أن يكونَ للفئةِ المسلمةِ موطنٌ أو موضعٌ تتأسسُ فيه وتتربى عليه ، وتستطيعُ أن تمارسَ من خلالِه عمليةَ التغيير ، وقد كان هذا في دارِ الأرقمِ بنِ أبي الأرقمَ قبلَ الهجرةِ ، فقد كان موطنُ بناءٍ وتعليمٍ وإرشادٍ وغرسٍ للعقيدةِ وبناءٍ للإسلام في النفوسِ ، وتجميعٍ للصفوف ومعرفةٍ لواقع الباطلِ والجاهليةِ ، وهذا التجمعُ هو الذي كان يحرِّكُ دعوةَ الإسلامِ حتى أذن الله بالهجرةِ فكان التأسيسُ والتوطينُ في صورةِ دولةٍ وفي صورةِ مجتمعٍ متكاملٍ في مهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ

لقد كانَ هدفُ النبيِ ﷺ من هجرتهِ إلى المدينةِ إيجادُ موطئ قدم للدعوة هناك حتى تَنْعُمَ بالأمنِ والاستقرار ، حتى تستطيعَ أن تَبْنِي نفسَهَا من الداخلِ وتَنْطَلِقَ لتحقيقِ أهدافِها في الخارجِ ، ولقد كان هذا الهدفُ أملاً وحلُما يراودُ رسولَ الله ﷺ "رأيتُ في المنامِ أني أهاجرُ من مكةَ إلى أرضٍ بها نخلٌ ، فذهب ظني إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي يثرب "

كان هدفُ الرسولِ ﷺ من الهجرةِ تكثيرُ الأنصارِ وإيجاد رأيٍ عامٍ مؤيِّدٍ للدعوةِ ، لأن وجودَ ذلكَ يوفرُ على الدعوةِ الكثيرَ من الجهودِ ويُذَلِّلُ في طريقِها الكثيرَ من الصِعاب ، والمجالُ الخَصْبُ الذي تَتَحققُ فيه الأهدافُ والمُنْطَلَقُ الذي تَنْطَلِقُ منه الطاقاتُ هو في المدينة ، ولهذا حرِصَ رسولُ الله ﷺ أن يبعثَ مصعبَ بنَ عميرٍ أولَ سفيرٍ في الإسلام ، حرِص ﷺ أن يرسله ليكونَ سفيرَه إلى المدينةِ ليعلِّمَ الأنصارَ الإسلامَ وينشرَ دعوةَ الله فيها ، ولمّا اطمأنَّ رسولُ الله ﷺ إلى وجودِ رأيٍ عامٍ مؤيِّدٍ للدعوةِ في المدينة حثّ أصحابَه إلى الهجرةِ إليها وقال لهم "هاجروا إلى يثرب ، فقد جعلَ الله لكم فيها إخواناً وداراً تأمنونَ بها "

لقد كان هدفُ رسولِ الله ﷺ من الهجرةِ استكمالُ الهيكلِ التنظيميِ للدعوةِ ، فقد كان صعباً أن يكونَ الرسولُ القائدُ في مكةَ ، والأنصارُ والمهاجرونَ في المدينة ، صعبٌ أن يكونَ المعلمُ في مكةَ والتلاميذُ بعيدونَ عنه في المدينة ، ولهذا هاجرَ رسولُ الله ﷺ ليكونَ بين ظهْرَانيْ أتباعِه ، لأن الجماعةَ بدونِ قائدٍ كالجسدِ بلا رأسٍ ، ولأنَّ

تحقيقَ أهدافِ الإسلامِ الكبرى لا يتمُّ إلا بوجودِ جماعةٍ مؤمنةٍ منظَمَةٍ ، تُغَذِّ السيرَ إلى أهدافِها بخُطًى وئيدةٍ وطيدةٍ متينةٍ .

فما أحوجَ المسلمينَ اليومَ إلى هجرةٍ نحو الله ورسولِه ، هجرةٍ إلى الله بالتمسكِ بحبله المتينِ وتحكيمِ شرعهِ القويم وهجرةٍ إلى رسوله ﷺ باتباعِ سنته ، والاقتداءِ بسيرته ، فإنْ فعلوا ذلك فقد بدأوا السيرَ في الطريقِ الصحيحِ وبدأوا يأخذونَ بأسبابِ النصرِ ، وما النصرُ إلى مِن عندِ الله ، ويسألونكَ متى هو ؟ قل عسى أن يكونَ قريباً .

ثالثا : دعوةٌ مستمرةٌ وصبرٌ عظيم .

فالنبيُ ﷺ كما نعلمُ ظلَّ في مكةَ ثلاث عشرةَ سنةً يدعو إلى الله جل وعلا ليلَ نهار ، متعرضا في ذلك إلى الأذى الشديدِ والاضطهادِ المستمرِ من كفارِ قريشٍ الذينَ لا يريدونَ للخيرِ أن ينتشرَ ، ومع ذلك فلم ييأس مع كلِّ هذا العنتِ وقلةِ من آمنَ معه خلالَ هذه المدةِ ، فحاولَ أن يتجهَ إلى بيئةٍ أخرى لعلهُ يستطيعُ من خلالِها نشرَ دينِ الله جل وعلا ، فاتجه إلى الطائفِ ولكنه فوجئَ بالسفهاءِ يردونَه رداً منكرا ، تقولُ أمُ المؤمنينَ عائشةُ رضى الله عنها وهي تحدِّثُ ابنَ أختها عروة أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ..؟ قَالَ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ فعلت ولك ذلك ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا [رواه البخاري]

إن هذه الوقفةَ أيها الأحبةُ تجعلُنا نتساءل : ماذا قدمنا لدينِ الله ؟ كم تحملنا من الأذى في سبيلِ نشره بين الناس ؟ هل صبرنَا كما صبرَ عليه الصلاة والسلام ؟ أم أننا

استسلمنا بمجردِ أن نواجهَ أذىً أو معارضةً ، فقمنا بعد ذلك بالتوقُفِّ عن الدعوةِ إليه سبحانَه ، هل هذه هي القدوةُ بالنبيِ المصطفى الأمينِ ، إنك لو نظرتَ أيها الكريمُ إلى أمتكَ الكريمةِ في القرآنِ الكريمِ ونظرتَ إليها في أرضِ الواقعِ لانفلق كبِدُكَ من الحزنِ والبكاءِ على واقعِ أمةٍ قد انحرفت كثيراً وكثيراً عن منهج الله جل وعلا وعن سنةِ رسوله ﷺ ، فهاهي الأمةُ التي نراها اليومَ ونعيشُ تحت ظِلالها ، ليستْ هي الأمةُ التي خرجتْ وبزغتْ في فجرِ الإسلام ، أمتنا اليومْ بدلت شرع الله وانحرفتْ عن طريقِ رسول الله واستبدلتِ الذي هو أدنى بالذي هو خير ، أذلَّ الله الأمةَ لأحقرِ وأذلِّ أُممِ الأرضِ ممن كتب الله عليهمُ الذلةَ والهوانَ واللعنةَ من إخوانِ القردةِ والخنازيرِ من أبناءِ يهود ، نعم .. أصبحتِ الأمةُ اليومَ قَصْعَةً مستباحةً لأحقرِ أممِ الأرضِ وأذلِّها ، وحَقَّ عليها قولُ الصادقِ المصدوق ﷺ في الحديثِ الصحيحِ الذي رواه أبو داوودَ من حديثِ ثوبانَ رضي الله عنه : يوشِكُ أن تتداعى عليكمُ الأممُ كما تتداعى الأكلةُ إلى قصعتها قالوا : أومِن قلةٍ نحنُ يومئذٍ يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولكنكم غثاءٌ كغثاءِ السيلِ ، وليوشكَّنَ اللهُ أن ينزعَ المهابةَ من قلوبِ عدوِّكُم ، وليقذفنَّ في قلوبكمُ الوهنَ ، قيل وما الوهنُ يا رسول الله ؟ قال : حبُ الدنيا وكراهيةُ الموت " لقد أصبحتِ الأمةُ اليومَ أيها الأخيارُ غُثاءً من النِفاياتِ البشريةِ تعيشُ على بِساطِ الحياةِ الإنسانيةِ ، تعيشُ الأمةُ كدُويلاَتٍ متناثرةٍ متصارعةٍ متحاربةٍ تفصل بينها حدودٌ جغرافيةٌ مصطنعة ، ونَعَرَاتٌ قوميةٌ جاهلية ، وتُرفرفُ على سمائها راياتٌ قوميةٌ ووطنيةٌ تَحْكُمُها قوانينٌ جاهلية غربية ، وتدورُ بالأمةِ الدوراتُ السياسيةُ فلا تملكُ الأمةُ نفسها عن الدورانِ بل ولا تختارُ لنفسِها حتى المكانَ الذي تدورُ فيه ! ذلت الأمةُ بعد عِزَّةٍ ، وجَهِلتِ الأمةُ بعد علم ، وضعُفتِ الأمةُ بعد قوة ، وأصبحتْ في ذيلِ القافلةِ الإنسانيةِ بعد أن كانتْ بالأمسِ القريبِ تقودُ القافلةَ كلَّها بجدارةٍ واقتدار ، أصبحتِ الأمةُ اليومَ تتسوَّلُ على موائدِ الفكرِ الإنسانيِ والعلمي بعد أن كانتِ الأمةُ بالأمسِ القريبِ منارةً تَهْدِي الحيارىَ والتائهينَ ممن أحرقَهُمْ لفحُ الهاجرةِ القاتلِ وأرَّقهم طولُ المشيِ في التيهِ والضلال ، أصبحتِ الأمةُ اليومَ تتَأرجحُ في سيرِها ، ولا تعرفُ

طريقَها الذي يجبُ عليها أن تَسْلُكَهْ وأن تسيرَ فيه بعدَ أن كانتِ الأمةُ بالأمسِ القريبِ الدليلَ الحاذقَ الأربَ في الدروبِ المتشابكةِ والصحراءِ المهلكةِ التي لا يهتدي للسيرِ فيها إلا الألداءُ المجرِّبونَ .. فما الذي جرى ؟ ما الذي تغير .. لا شيء ..! لكنها السننُ الربانيةُ " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " واللهِ إن هذا الواقعَ الأليمَ الذي نراه بأمِّ أعينِنا في أمتنا يستنفرُ جميعَ الهممِ الغيورةِ ويستوجبُ أن يسألَ كلُ واحدٍ منا نفسَه هذا السؤالَ ماذا قدمنا لدين الله جل وعلا ؟ هل فعلا نحنُ السببُ في تخلفِّ هذه الأمةِ ورُكُوبِها ذيلَ القطار ..؟ سؤالٌ وإن كان يُمَثِّلُ في الحقيقةِ ظاهرةً صحيةً إلا أنه يَنُمُّ عن خَلَلٍ في فَهْمِ حقيقةِ الانتماءِ لهذا لدينِ إلى الحَدِّ الذي أصبحَ فيه المسلمُ لا يعرفُ ما الذي يجبُ عليه أن يقدِّمَه لدينِ الله جلّ وعلا ، لماذا ؟! لأن قضيةَ العملِ للدين ما تحركتْ في قلوبنا إلا في لحظةِ حماسٍ عابرةٍ أجَّجَهَا عالمٌ مخلصٌ أو داعيةٌ صادقٌ ، فقمنا بعد هذه اللحظةِ الحماسيةِ المتأججةِ نسألُ عن أدوارِنا .. إنه وربي سؤالٌ مخجلٌ سؤالٌ مَهيب ؟؟ سؤالٌ يجبُ ألا نمِلَّ طرحه وألا نسئمَ تِكراره لنُحييَ في القلوبِ قضيةَ العملِ لهذا الدينِ في وقتٍ تحرَّكَ فيه أهلُ الكفرِ والباطلِ بكلِ رجولةٍ وقوةٍ لباطلِهم وكفرِهم ! في وقتٍ انتعشَ أهلُ الباطلِ فيه وتحركوا في الوقتِ الذي تقاعسَ فيه أهلُ الحق وتكاسلوا ، بل والله ما انتفشَ الباطلُ وأهلُهُ إلا يومَ أن تخلى عن الحق أهلُه ، إنه واقعٌ يجبُ أن يستنفرَ جميعَ الهممِ الغيورةِ ، قُلْ لنفسكَ وخاطبها .. ما هو دوري في هذه الحياة ؟ كيف أقدمُ لدين الله ..؟.. أما والله لو كانتْ قضيةُ العملِ لدينِ الله تشْغَلُ أفكارَنا وتملأُ قلوبَنا وتُحرقُ وُجدانَنا وتُقِضُّ مضاجعَنا ونفكرُ فيها ليلَ نهار في النومِ واليقظةِ في السِّرِ والعلانية ، نعم .. لو كانتْ قضيةُ العملِ لدين الله في قلبِ كلٍّ منا ما سأل نفسه أبداً هذا السؤالَ ، لأنه سيحدِّدُ أمرَه بحَسَبِ الزمانِ الذي يعيشُه وبِحَسَبِ المكانِ الذي يعيشُ فيه ، لأن قضيةَ العملِ لدينِ الله تملأُ عليه همَّهُ ووُجدانَه وقلبه ، لكن بكلِ أسفٍ بكلِ مرارةٍ بكل حزنٍ أصبحت قضيةُ العملِ لدينِ الله قضيةً هامشيةً ثانويةً في حِسِّ كثيرٍ من المسلمين!.. بل وأصبحَ لا وجودَ لها في حِسِّ قِطَاعٍ عريضٍ آخرَ ممن يأكلونَ مِلءَ بطونِهم وينامون ملءَ

عيونهم ويضحكون ملءَ أفواههم ، بل وينظرونَ إلى واقعِ الأمةِ فَيَهُزُّ الواحدُ كتفيه ويَمْضِي وكأنَّ الأمرَ لا يعنيه ، وكأنه ما خُلقَ إلا ليأكلَ ويشربَ ، أقولُ ..

إن العملَ للدينِ مسئوليةُ كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ ، فلا بدَّ أن تكونَ لقضيةِ الدينِ مساحةٌ في خريطةِ اهتماماتِنا وبرامجنا نعم .. لا بدَّ أن يَضْبطَ الدينُ عواطفَنا ، وأن يُحْرِقَ همُّ الدينِ وِجدانَنا، وإنَّ من المُحالِ أن يتحركَ الإنسانُ لشيءٍ لا يعتقده ، لا يحمله في قلبه ، وتأمل كيف احترق قلبُ نبينا ﷺ لهذا الدين حتى قال له ربه " فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديثِ أسفا "

رابعا : الثبات على المبدأ .

إن الله تعالى خلقَ الخلق ليعرفوه ويعبُدُوهُ ، ونصبَ لهم الأدلةَ الدالةَ على كبريائهِ وعظمته ليهابُوه ، وقد اقتضت حكمتُه سبحانه وتعالى أن جعلَ الابتلاءَ سنةً من سننِ اللهِ الكونيةِ ، وأن المرءَ بحاجةٍ إلى تمحيصٍ ومراجعةٍ حتى يتميَّزَ الخبيثُ من الطيبِ ، والمؤمنُ من غيره ؛ فالسعيدُ من اعتصم بالله ، وأناب ورجعَ إلى الله ، والمؤمنُ الصادقُ ثابتٌ في السراءِ والضراءِ " الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ " " أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ "

إن هجرةَ النبيِ ﷺ إلى المدينةِ كشفتْ لنا معالمَ في الشدةِ والرخاءِ ، والعسرِ واليسر ، وأبانت لنا عن معادنِ النفوسِ ، وطبائعِ القلوب ؛ ومن عَلِمَ حكمةَ الله في تصريفِ الأمور ، وجريانِ الأقدارِ فلن يجدَ اليأسُ إلى قلبه سبيلاً ، ومهما أظلمتِ المسالكُ وتتابعتِ الخطوبُ وتكاثرتِ النكباتُ ؛ فلن يزدادَ إلا ثباتاً ؛ فالإنسانُ إلى ربه راجع ، والمؤمنُ بإيمانه مستمسكٌ وبأقدار الله مسلِّم ، وإن من معالمِ هذه الهجرةِ النبويةِ المباركة : الثباتُ على المبدأ ، الثباتُ على الدينِ والاستقامةُ عليه ، ذلك أن الثباتَ

على دينِ اللهِ والاعتصامَ به يدلُ دلالةً قاطعةً على سلامةِ الإيمانِ ، وحسنِ الإسلامِ وصحةِ اليقين .

إن الثباتَ على دينِ الله خُلُقٌ عظيمٌ ، ومعنى جميل ، له في نفسِ الإنسانِ الثابتِ وفيمن حولَه من الناسِ مؤثراتٌ مهمةٌ تفعل فِعْلَها ، وتؤثرُ أَثَرَهَا ، وفيه جوانبُ من الأهميةِ الفائقةِ في تربيةِ الفردِ والمجتمع .

إن صفةَ الثباتِ على الإسلامِ والاستمرارِ على منهجِ الحق نعمةٌ عظيمةٌ حبا الله بها أولياءَه وصفوةَ خلقه ، وامتنَّ عليهم بها ، فقال مخاطباً عبدَه ورسولَه محمداً ﷺ " وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً "

إن الثباتَ على دينِ الله دليلٌ على سلامةِ المنهجِ ، وداعيةٌ إلى الثقةِ به ، وهو ضريبةُ النصرِ والتمكينِ والطريق الموصلةِ إلى المجدِ والرفعةِ ، ألم تروا كيف ثبتَ ﷺ في دعوتِه قبلَ الهجرة وبعدَها ؟ ألم تروا كيف مُكِّن وأُعزَّ ونُصِرَ بسبب ثباته على مبدأه صلوات ربي وسلامه عليه ..؟

إن الثباتَ طريقٌ لتحقيق الأهدافِ العظيمةِ ، والغاياتِ النبيلةِ ؛ فالإنسانُ الراغبُ في تعبيدِ الناسِ لربِ العالمين والعاملُ على رفعةِ دينه وإعلاءِ رايتِه لا غِنَى له عن الثبات .

إن الثباتَ يعني الاستقامةَ على الهدى ، والتمسكَ بالتقى ، وقَسْرَ النفسِ على سلوكِ طريق الحق والخير ، والبُعْدِ عن الذنوبِ والمعاصي وصوارفِ الهوى والشيطان .

إنَّ مما يُعينُ على الثباتِ أمامَ الفتنِ والابتلاءاتِ صحةُ الإيمانِ وصلابةُ الدينِ ؛ فكلَّمَا كانَ الإنسانُ قوياً في إيمانه ، صلْباً في دينه ، صادقاً مع ربه ، كلما ازدادَ ثباتُه ، وقَوِيَتْ عزيمتُه وثبتَتْ حُجتُه ، وحَسْبُكَ أن صاحبَ الهجرةِ محمداً ﷺ كان يدعو ربه ويسألُه الثبات " اللهم إني أسألك الثباتَ في الأمرِ، والعزيمةَ على الرشد"

إن الثباتَ على الدينِ مطلبٌ عظيمٌ ورئيسٌ لكلِ مسلمٍ صادقٍ يحبُ اللهَ ورسولَه ﷺ ، ويريدُ سلوكَ طريق الحق والاستقامةِ بعزيمةٍ ورشد ، والأمةُ الإسلاميةُ اليومَ أحوجُ ما تكونُ إلى الثباتِ خاصةً وهي تموجُ بأنواعِ الفتنِ والمغرياتِ وأصنافِ الشهوات

والشبهات ، فضلاً عن تداعي الأممِ عليها ، وطَمَعِ الأعداءِ فيها ومما لا شك فيــه أن حاجةَ المسلمِ اليومَ لعواملِ الثباتِ أعظمُ من حاجةِ أخيه المسلمِ إلى ذلك في القــرونِ السالفة وذلك لكثرةِ الفسادِ ونُدْرَةِ الإخوان ، وضَعْفِ المُعين ، وقِلةِ الناصح والناصر ، والله المستعان .

خامساً : جِنسيةُ المسلمِ ووطنُه عقيدته .

إن أغلى ما لدى الإنسانِ إذا تخلى عن مُقوماتِ دينِه ، أهلُه وولــدُه ومالــه وبلــده ، فالصحابةُ رضوانُ الله عليهم لما وجدوا أن مكةَ ليستْ مقراً لدينِهم ؛ اســتأذنوا مــن الرسولِ ﷺ بالهجرةِ ، فأذن لهم ﷺ ، وهنا ارتفعوا عن مطالبِ الدنيا ، وعن حقارةِ الدنيا ، وعن ذُلِّ الدنيا ، ونَجَوا بعقيدتِهم ؛ لأن المسلمَ وطنُــه عقيدتُــهُ ، فالصــحابةُ رضوانُ الله عليهم ضحَّوا بالوطنِ ، وضحوا بالأهلِ ، وضحوا بالمالِ في سبيل هــذه الهجرة في سبيلِ عقيدتِهم ، وانظر إلى صهيبٍ الرومي رضي الله عنه ، كان عبــداً مملوكاً في مكةَ ، فلما جاء الله بالإسلام صدّقَ وأطاع ، فاشتدَ عليه عذاب الكفار ، ثم أَذِنَ النبيُ ﷺ للمؤمنينَ بالهجرةِ إلى المدينة فهاجروا ، فلما أرادَ أن يهاجرَ معهم منعه سادةُ قريشٍ ، وجعلوا عنده بالليل والنهارِ من يحرسُه ، خوفاً مــن أن يَهْــرُبَ إلــى المدينة ، فلما كان في إحدى الليالي ، خرجَ من فراشِه إلى الخلاء ، فخرجَ معه مــن يرْقُبُه ، ثم ما كادَ يعودُ إلى فراشهِ حتى خرجَ أخرى إلى الخلاءِ ، فخرج معه الرقيب ، ثم عاد إلى فراشه ، ثم خرجَ ، فخرجَ معه الرقيبُ ، ثم خرج كأنه يريد الخلاءَ ، فلم يخرُج معه أحد ، وقالوا : قد شغلَتْه اللاتُ والعزى ببطنه الليلةَ ، فتسَــلَّلَ رضــي الله عنه ، وخرَجَ من مكةَ ، فلما تأخَّرَ عنهم ، خرجوا يلتمسونَهُ ، فعلِمُــوا بهربِــه إلــى المدينة ، فلحقوه على خَيْلِهم ، حتى أدركوُه في بعضِ الطريق ، فلما شَعُرَ بهم رقــى على ثَنِيَّةِ جبلٍ ، ثم نَثَرَ كِنَانَةَ سِهَامِهِ بين يديه وقال : يا معشرَ قريشٍ ، لقد علمتُم واللهِ أنِّي أصوبُكُم رمياً ، ووالله لا تَصِلُونَ إليَّ حتى أَقْتُلَ بِكِلِّ سَهْمٍ بين يَدَيّ رجلاً مــنكم ، فقالوا : أتيتنا صُعْلُوكاً فقيراً ، ثم تخرجُ بنفسكَ ومالك ، فقال : أرأيتم إنْ دَلَلْتُكُم علــى

موضعِ مالي في مكةَ أتأخذونه وتدعوني ..؟ قالوا : نعم .. فقال : احفروا تحتَ أُسْكُفَّةِ بابِ كذا وكذا فإن بها أواقيَ من ذهب ، فخذوها واذهبوا إلى فلانةَ فخذوا الحُلَّتَيْن من ثيابٍ ، فرجعوا وتركوه ، ومضى يَطْوِي قِفَارَ الصحراءِ ، يحمله الشوقُ ويحدوهُ الأملُ في لقاءِ النبيِ عليه السلامُ وأصحابِه ، حتى إذا وصلَ المدينةَ ، أقبلَ إلى المسجدِ فدخلَ على رسول الله ﷺ وعليه أَثَرُ الطريق وَوَعْثَاءُ السفرِ ، فلما رآه النبيُ عليه الصلاةُ والسلام قال : ربِحَ البيعُ أبا يحيى .. ربحَ البيعُ أبا يحيى .. ربح البيعُ أبا يحيى .. نعم والله ربحَ البيع .. ولماذا لا يربح..؟ وهو الذي هانَ عليه أن يَتْرُكَ المالَ الذي جمعه بكَدِّ الليلِ وتَعَبِ النهار ، لماذا لا يربح وقد تركَ الأرضَ التي ألفها والبلدَ التي عرفها ، والدارَ التي سكنها ، في سبيل طلبِ عقيدته ومرضاةِ ربه.. أيها الأحبةُ الكرام ..

لا بد أن نوطنَّ أنفسنا ، وأن نفهم هذه الهجرةَ فهماً حقيقيا بأن جنسيةَ المسلمِ ووطنِه هي عقيدتُه ، فالمسلمُ تبعًا لهذا المبدأ ، فلا يَهِنُ ولا يستكين ولا يقبل الذلَّ ، ولا يقبلُ الخور والضعفَ " وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " ولما وجد الصحابةُ رضي الله عنهم أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بهذا الدين إلا بالذل والمهانة والاستكانة ؛ تخلوا عن هذا الوطن ، وذهبوا إلى بلاد يرفعون فيها رؤوسهم عالية ، فرفع الله مقامهم ، وأعادهم إلى وطنهم منتصرين .

لقد أكدت دروسُ الهجرةِ النبويةِ أن عزة الأمة تكمُن في تحقيق كلمة التوحيد ، وتوحيدِ الكلمةِ عليها ، وأن أي تفريقٍ في أمر العقيدة أو تقصيرٍ في أخوةِ الدينِ مآلُه ضعفُ الأفرادِ وتفكُكُ المجتمعِ وهزيمةُ الأمة ، وإن المتأملَ في هزائمِ الأممِ وانتكاساتِ الشعوبِ عبر التأريخِ يجدُ أن مردّ ذلك إلى التفريطِ في أمر العقيدةِ والتساهلِ في جانب الثوابتِ المعنويةِ مهما تقدمتِ الوسائلُ المادية .

إن عقيدةَ التوحيدِ هي الرابطةُ التي تتضاءلُ أمامها الانتماءاتُ القوميةُ والتمايزاتُ القبليةُ والعَلاقاتُ الحزبية ، واستحقاقُ الأمةِ للتمجيدِ والتكريمِ مدينٌ بولائها لعقيدتها وارتباطِها بمبادئها ، كيف لا ..؟ وفي الأمةِ في أعقابِ الزمن منهزمونَ كثر أمامَ

تياراتٍ إلحاديةٍ وافدةٍ ومبادئَ عصريةٍ زائفةٍ ترفعُ شعاراتٍ مصطنعةٍ وتُطْلِقُ نداءاتٍ خادعةً ، لم يجنِ أهلها من ورائها إلا الذلّ والصغارَ والمهانةَ والتبارَ والشقاءَ والبوارَ ؛ فأهواءٌ في الاعتقاد ومذاهبُ في السياسةِ ومشاربُ في الاجتماع والاقتصادِ كانت نتيجتها التخلفَ المهينَ والتمزقَ المشين ، وفي خِضَمِّ هذا الواقعِ المُزري يَحِقُّ لنا أن نتساءلَ بحرقةٍ وأسى : أين دروسُ الهجرةِ في التوحيدِ والوحدة ؟ أين أخوةُ المهاجرينَ والأنصارِ مِن شعاراتِ حقوق الإنسانِ المعاصرةِ الزائفة ؟ قولوا لي بربكم أيُ نظامٍ راعى حقوقَ الإنسانِ وكرّمه أحسنَ تكريمٍ وكَفِلَ حقوقَه كهذا الدينِ القويم .

سادسا: المسجدُ والدورُ الحقيقي .

ويواصلُ النبيُ ﷺ سيرَهُ حتى وصلَ إلى المدينةِ ، فبدأ ببناءِ المسجدِ وعمارتِه لِعِلْمِه أنَّ المسجدَ لم يوجدْ في الإسلامِ لأداءِ الصلاةِ فقط ، وإنما هو مدرسةُ المجتمعِ الحقيقيةِ وهو نُقطةُ الانطلاقِ لتبليغِ دينِ الله ، وهو مركَزُ الدولةِ الإسلاميةِ السائرةِ على منهجِ الله .

لقد نشأتْ مكانةُ المسجدِ وترعرعتْ في قلوبِ المسلمينَ مُنْذُ عهدِ النبوةِ ، حيث كانَ مصدرَ النورِ والعلم والبصيرةِ والعزة للإسلامِ والمسلمين ؛ فأعلى سبحانَه شأنَ المساجدِ ورفع قدرها ، ولا أدلَّ على عظيمِ مكانةِ المسجدِ ومعرفةِ المسلمينَ الأوائلَ أنْ لا طريقَ لإعلاءِ دينِهمُ الذي هو مصدرُ عِزِّهِم ، إلا بالانطلاقِ منه ، ولذلكَ فإنَّ أولَ ما بَدأ به النبيُ ﷺ عندما حلَّ بأرضِ الهجرةِ النبويةِ هو بناءُ المسجدِ لِجَعْلِه مصدرًا للدعوةِ ومنبعًا لها وموردًا للصحابةِ رضي الله عنهم للجلوسِ معه عليه الصلاةُ والسلام ، وعندما رسخَتْ هذه المعاني في قلوبِهم رضي الله عنهم ساروا عليها بكُلِّ ما أُوتُوا من عزْمٍ ويقينٍ بعد وفاته عليه الصلاةُ والسلام ، ثم سارَ المسلمونَ من بعدهم في هذا المسير ، وانطلقوا من هذا المنطلق ، ومن ذلك المكانِ الطاهر الشريفِ فإن الإمامَ عليه مسئوليةٌ وتَبِعَات ، ومؤذِنُ المسجدِ والمصلونَ كذلك ، كُلٌ له دورُه الذي يُعْتَبَرُ لَبِنَةً لِبِنَاءِ هذه الرسالة ، وبَعْثِها لأرجاءِ المعمورة .

أرأيتم لو قامَ كُلٌّ بدوره المأمولِ منه وإحيائِه واستحضارِه ... أيبقى دورٌ في أرجاءِ الأرضِ وقوةٌ على ظهرها لغيرِ الإسلامِ ودعوته ؟ ولا أدلَّ على عِنَايةِ الإسلامِ بالمسجدِ وقداسَتِه من أمْرِ الشارعِ بعدم زخرفتِه ، ونَشْدِ الضالةِ ورفعِ الصوتِ ، كُلُ ذلك لِتَتَوَحَّدَ القلوبُ وتبتهلَ إلى خالِقها وإلهِها بدونِ صوارفَ وشواغلَ تُعيقُ تَهَيؤَها للقيامِ بدورها تجاهَ المسجدِ ورسالته ، فأين أغنياءُ المسلمينَ عن هذه الحقيقةِ ، وأينَ العلماءُ والمسئولونَ عن هذا الأمرِ المهمِ في حياةِ المجتمعات ، لماذا أصبحتِ المساجدُ مهملةً ، وإذا اعتُنِيَ بها فمِن أَجْلِ الصلواتِ فقطْ ولا دورَ لها بعد ذلك في حياة المسلمين .

سابعا : الهجرةُ وتأريخها ..!

وإشارةً أخرى إلى أمرٍ يتعلقُ بحدثِ الهجرةِ النبويةِ في قضيةٍ تُعبِّرُ بجلاءٍ عن اعتزازِ هذه الأمةِ بشخصيتها الإسلاميةِ وتُثبتُ للعالمِ بأسره استقلالَ هذه الأمةِ بمنهجها المتميزِ المُستقى من عقيدتِها وتأريخها وحضارتِها ، إنها قضيةٌ إسلاميةٌ وسنةٌ عُمريةٌ أجمعَ عليها المسلمونَ في عهدِ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه إنها التوقيتُ والتأريخُ بالهجرةِ النبويةِ المباركة ، واختيارُ الصحابةِ هذا التأريخَ على غيرِهِ من الأحداثِ يُعَدُّ من فقهِهِمْ وفهمهمُ العميق لأهميةِ هذا الحدثِ الذي انتقلتِ الأمةُ المسلمةُ بسببه من مرحلةِ الاستضعافِ والابتلاءِ إلى مرحلةِ الاستخلافِ والتمكين ، وكم لهذه القضيةِ وربي من مغزًى عظيمٍ يَجْدُرُ بأمةِ الإسلامِ اليومَ تَذَكُّرَهُ والتَقَيُّدَ به ، كيف وقد فُتِنَ بعضُ أبنائِها بتقليدِ غيرِ المسلمينَ والتشبهِ بهمْ في تأريخِهم وأعيادِهم ، فأين هي عِزةُ الإسلام ؟ وأين هي شخصيةُ المسلمين ؟ هل ذابت في خِضَمِّ مُغْرَيَاتِ الحياة ؟ فإلى الذين تنكروا لثوابتِهم وخدشوا بَهاءَ هويتِهم وعملوا على إلغاءِ ذاكرةِ أمتِهم ، وتهافتوا تَهَافُتاً مذموماً وانساقوا انسياقاً محموما خلف خصومِهم وذابوا وتميعوا أمامَ أعدائهم ، ننادي نداءَ المحبةِ والإشفاق : رويدَكم ؛ فنحنُ أمةٌ ذاتُ أمجادٍ وأصالةٍ وتأريخٍ وحضارةٍ ومنهجٍ متميزٍ منبثقٍ من كتابِ ربِنا وسنةِ نبينا ﷺ فلا مساومةَ على

شيءٍ من عقيدتنا وثوابتنا وتأريخِنا ولسنا بحاجةٍ إلى تقليدِ غيرِنا ، بل إن غيرَنا في الحقيقةِ بحاجةٍ إلى أن يستفيدَ من أصالتِنا وحضارتنا ، لكنه التقليدُ والتبعيةُ والمجاراةُ والانهزاميةُ والتشبهُ الأعمى من بعضِ المسلمينَ هداهم الله ، كيف لا ..؟ وقد حذر ﷺ أمتَه من ذلك بقوله فيما أخرجَه الإمامُ أحمدُ وأهلُ السننِ " من تشبه بقوم فهو منهم "

ثامنا : الهجرةُ ومبدأ الشورى .

كلَّنا نعرفُ أن قريشاً اجتمعتْ في دارِ الندوة ، وتشاوروا كيف يفعلونَ بالرسولِ ﷺ ؟ نعم .. تآمروا واختلفوا في الرأي ، لكنهم اتفقوا على أن يجتمعَ عددٌ من أمزاعِ القبائلِ وأفرادها ليقتلوا الرسولَ ﷺ فيَضيعُ دمُه بين القبائلِ .

ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة ، وما أقربَ عِلاقةَ الماضي بالحاضرِ والحاضرِ بالماضي ؛ أعداءُ الله جادونَ لحربِ دينِ الله ، جادون لحربِ الدعاة ، كما كان أولئكَ جادينَ في دارِ الندوة ، فقط .. اختلفتِ الأدوارُ واتفقتِ الأهدافُ ، اختلفتِ الوسائلُ واتفقتِ الغايات .

كما أجد أن كفارَ قريشٍ في دارِ الندوةِ يشعُّون حماساً لإنهاءِ هذه الدعوةِ المحمديةِ ، أجد واللهِ أعداءَ الله يتطايرُ النومُ من أعينِهم حماساً لحربِ الدعاةِ وحربِ الإسلام ، أجدُ أن الدعاةَ يفتقرونَ إلى شيءٍ مما نجده عندَ أعداءِ اللهِ وهو الحماسُ لدعوتهِم ومبادئِهم ، والتخطيطِ البعيدِ المستمر ، كفارُ قريشٍ جلسوا يتشاورون ويعقدون ويتآمرون ، والسؤال المهم الذي ينبغي أن نستفيده : هلِ المسلمونَ يتشاورونَ فيما يتعلقُ بأمورِ دينهم وعقيدتهم ؟ هل يلتقونَ ليتدارسوا أوضاعَ المؤامراتِ على هذه العقيدة ، وعلى هذا الدينِ ؟ كفارُ قريش في دارِ الندوة ، وكفارُ العصرِ الحاضرِ في دورٍ كثيرةٍ ، يتشاورونَ ويخططونَ ، والمسلمونَ نائمون ، كفار قريش في دار الندوة سلكوا السبيل الذي يحقق لهم أهدافهم ، وبنفس القوةِ وبنفسِ المنطق أعداءُ الإسلام في

العصر الحاضر يسلكونَ السبيلَ ذاتَه ، ولهذا فإن الرسولَ ﷺ علاجا للمشكلة التي مرَّ بها والمؤامرة التي حلت به واجه التخطيطَ بالتخطيط ، والقوةَ بالقوة ، والحكمة بالحكمة ، والأسلوبَ بالأسلوب .

تاسعا : الهجرةُ والتخطيط .

إن التخطيطَ للهجرةِ من أعظم الدروس التي نستفيدُها في دعوتنا ، مأساة كثيرٍ من المسلمين بل مأساةُ الدعاة أن التخطيطَ لديهم فيه ضعفٌ كبير ، إن لم أقل : إنه لا يوجد لدى الكثيرِ منهم أبدا مفهومُ التخطيط ، لديهمُ الإعدادُ الضعيف ، بينما نجده في الهجرةِ يتمثَّل في أشياءَ كثيرة ، يتمثل في الاستعدادِ المبكرِ من الرسولِ ﷺ ، يتمثلُ التخطيطُ في تهيئةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه لذلك ، حيثُ جلس كما في الصحيحِ أربعةَ أشهرٍ ينتظرُ الهجرةَ معَ الرسولِ ﷺ ويهيئُ الراحلةَ ، نجدُ التخطيطَ في إقامةِ الرسولِ ﷺ عليا مكانه ، وعندما بدأت مراحلُ الهجرة ؛ جاءَ التخطيطُ الدقيقُ في خُطُوَات ، وانتبهوا إلى هذه الخطوات وهذا التخطيط :

أولا: الانتقالُ إلى غارِ ثورٍ ، ولماذا اختارَ النبيُ ﷺ وأبو بكرٍ هذا الغار ؟ نعم . اختارا هذا الغارَ ليخالفوا ما أرادت إليه قريش ، فاتجهوا جنوبا .

ثانيا : توزيعُ الأدوار ، فعبدُ اللهِ بنُ أبي بكرٍ يأتي بالأخبار ، وعامرُ بنُ فهيرةَ يأتي بالغنمِ ليحلبوا ويشربوا ، ويغطي آثارَ عبدِ اللهِ بنِ أبي بكر ، وأسماءُ تأتي بالطعام ، وعبدُ اللهِ بنُ أُرَيقِط يَسْتَعِدُ للانطلاقِ بهم بعدَ ثلاثِ ليال ، أرأيتم كيفَ أنه ترتيبٌ محكمٌ دقيقٌ مخططٌ له ، فهل نحن عندما نريد أن نُقْدِمَ على أي أمرٍ من أمورِ الدعوة ؛ نستعدُّ لذلك ؟ نخططُّ له ، نُجيدُ تحديدَ المراحل ، المؤسفُ أن الواحدَ منا إذا أراد أن يَعْمُرَ بيتا ؛ جَلسَ يُخططُ عدةَ أشهرٍ ، نعم .. إذا أقبل على أمرٍ من أمورِ الدنيا ؛ خطَّطَ ورتبَ واستعدَ ، ولكن في أمورِ الدعوة في أمورِ الإسلام فإنه يَخْبِطُ خبطَ عشواء ، ومن هنا جاءتِ النتائجُ السلبيةُ والنتائجُ السيئةُ لكثيرٍ من الدعواتِ وكثيرٍ من الحركاتِ ؛ لأنهم يتحركونَ بدونِ تخطيطٍ ، يتحركونَ بدونِ دراسةٍ للواقع ، وبدونِ

حسابٍ للمستقبل ؛ حسبَ الأسبابِ التي شرعها الله سبحانه وتعالى ، وهذا رسولُ الله ﷺ يا أحبابي ، وهو رسولُ الله ﷺ يُخططُ تخطيطاً بشريًا دقيقا ، يخططُ ليستفيدَ الدعاةُ من هذه التجربةِ ، إنها دروس ، فهل نستفيد منها ؟

تذكرتُ وفكرتُ في كثيرٍ من النكباتِ التي حلَّتْ بكثيرٍ من الجماعاتِ الإسلاميةِ في كثيرٍ من الدول ، ووجدتُ أن مِن أهمِّ أسبابِها ضعفُ التخطيطِ لمقابلةِ أعداءِ الله ، فالمسلمُ كَيِّسٌ فطن ، فلا يُقْدِمْ على أمرٍ إلا بعد أن يكونَ قد قلَّبَ جميعَ الأمور ، وأخذَ بجميعِ الوسائلِ والأسباب ، وهذا الدرسُ واضحٌ وجليٌ وعظيمٌ في سيرةِ الرسول ﷺ ، تخطيطٌ محكمٌ دقيقٌ ، لا تجدُ فيه ثغرةً من الثغراتِ ، فسبحانَ الله ! ما أحوجنا إلى أن نقفَ أمامَ هذا الأمرِ العظيم ؛ لتستفيدَ منه الأجيالُ بعد الأجيالِ ، فإلى متى والمسلمونَ يتخبَّطونَ في أمورهم ؟ إلى متي ونحن أبناءُ الصُدفةِ ، وأبناءُ العواطفِ ؟ فقطْ عواطفُ تهيجُ ثم تخبوا ، فأين الجِدُّ ؟ أين العزيمة ؟ أين الوُضوح ؟ فالأمرُ من الجدِّية بمكان ، ثم نقول بعد ذلك ونتفاخر " النصر من عند الله " ؟! نعم ، بلا شكٍ : النصرُ من عند الله ، ولكن لا بُدَّ من الأخذِ بالأسباب ، لا بُدَّ من الأخذِ بالوسائلِ المشروعة ، فأين هذا من واقعنا ؟ أليس لنا في سيرةِ الرسولِ ﷺ عبرة ؟ أليس لنا فيه عِظة ؟ بدأ وحيدا ﷺ وبالرقمِ القياسي بدأتْ الدعوةُ في ازيادٍ شيئا فشيئا ، حتى قامتْ دولةُ الإسلام .. أيها الأحباب :

أكرر فأقول : لا مكانَ للفوضى في هذا العصر ، بل لا مكانَ للفوضى في حياةِ المسلم أبدا ، فكلُ واحدٍ منا يحاسبُ نفسه ولو من زاويةٍ ضيقةٍ ، ألسنا نعيشُ فوضى داخلَ حياتِنا الخاصةِ اليومية ، هل كلُ واحدٍ منا ينظِّمُ وقتَه تنظيماً دقيقا ؟ هل كلُ واحدٍ منا يعيشُ هَمَّ هذه الدعوة ، ويفكِّرُ لها ليلَ نهار ؟ ثم ماذا عمِلَ إن كانَ فكَّرَ ورتَّبَ لذلك ؟ والله لا عُذر لنا أمامَ الله سبحانه وتعالى فيما نرى من المصائبِ والمشكلات

عاشرا : البيتُ المسلمُ المتكامل .

لقد كانَ البيتُ المسلمُ حاضراً لأخطرِ قرارٍ في تأريخِ الدعوة ، فقد كانتْ عائشةُ وأسماءُ رضي الله عنهما تسْتمعانِ لتلكَ المداولاتِ التي دارت بين رسولِ الله ﷺ وبين والدهِما أبيِ بكر الصديقِ رضي الله عنه قالت " بينما نحنُ يوماً جلوسٌ في بيتٍ أبي بكرٍ في نحرِ الظهيرةِ ، قال قائلٌ لأبي بكر : هذا رسولُ الله ﷺ متقنِّعاً في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكرٍ : فداءً له أبي وأمي ، والله ما جاءَ به في هذه الساعةِ إلا أمرٌ ، قالت : فجاءَ رسولُ الله ﷺ ، فاستأذنَ فأذِنَ له فدخل ، فقال النبيُ ﷺ لأبي بكر : أَخْرِجْ مَن عندَك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلُكَ بأبي أنتَ يا رسولَ الله ، قال : فإني قد أُذِنَ لي في الخروجِ ، فقال أبو بكرٍ : الصحبةَ بأبي أنت يا رسولَ الله ، قال رسولُ الله : نعم ، قال أبو بكرٍ : فخُذْ بأبي أنت يا رسولَ الله إحدى راحلتِي هاتين ، قال رسولُ الله ، بالثمنِ ، قالت عائشةُ : فجهزناهما أحسنَ الجهازِ وصنعنَا لهما سَفْرَةً في جرابٍ فقطَعَت أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قِطعةً من نِطَاقِها فربطتْ به على فَمِ الجرابِ فبذلكَ سُميت ذاتُ النطاقين "

الله أكبر .. ما أجملَ هذا البيتَ المسلمَ بيتَ أبي بكرٍ ، أبو بكرٍ ، وابْنُه عبد الله وابْنتاه أسماءُ وعائشةُ ، بل وحتى مولاهُ عامرُ بنُ فُهيرةَ ، في وسطِ الجاهليةِ ، ومرابضِ الوثنيةِ ، في وسط هذا الخِضَمِّ الأسودِ الذي يَهْرُبُ فيه المسلمونَ بعقيدتهم ، نجد بيتا صالحا فيه مُقَومِاتُ الصلاح ، فعندما قالَ الرسولُ ﷺ " أَخرِج من عندك ، قال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله " أكانَ الرسولُ ﷺ يجهلُ أنهما ابنتا أبي بكر ؟ لا وربي ، فهْو يعْرفهُما ، ولكن أراد أبو بكرٍ أن يقولَ " إنهما على منهجي ، همَا على عقيدتي ، لا خوف عليهما يا رسولَ الله " .

لقد وقفتُ أمامَ هذا البيتِ المسلمِ ، وقارنت هذا البيتَ المسلمَ ببيوتِنا في ديارِ الإسلام ، أين البيتُ الذي تتوفرُ فيه صفاتُ البيتِ المسلمِ كبيت أبي بكر ..؟

إن من أولى أولوياتِ البيتِ المسلمِ وأسما رسالةٍ يقدمُها للمجتمعِ تربيةُ الأولاد ، وتكوينُ جيلٍ صالحٍ قويٍ ، ولا قيمةَ للتربيةِ ولا أثرَ للنصيحةِ إلا بتحقيقِ القدوةِ الحسنةِ

في الوالدين ؛ القدوةِ في العبادةِ والأخلاق ، القدوةِ في الأقوالِ والأعمال ، القدوةِ في المخبرِ والمظهر .

في غَيابِ البيتِ المسلمِ الهادئِ الهانئِ ينمو الانحرافُ ، وتفشو الجريمةُ ، وترتفعُ نسبةُ المخدرات ، بل ونسمعُ بارتفاعِ نسبةِ الانتحار .

إن البيتَ الذي لا يَغرِسُ الإيمانَ ولا يستقيمُ على نهجِ القرآن ولا يعيشُ في أُلفةٍ ووئام ، يُنجِبُ عناصرَ تعيشُ التمزُّقَ النفسي ، والضياعَ الفكري ، والفسادَ الأخلاقي ، هذا العقوقُ الذي نجده من بعضِ الأولادِ والعَلاقاتِ الخاسرةِ بين الشباب والتخلي عن المسؤوليةِ والإعراضِ عن الله والتمرُّدِ على القيمِ والمبادئِ الذي يعصِفُ بفريقٍ من أبناءِ أمتنا اليوم ، ذلك نتيجةٌ حتميةٌ لبيتٍ غفلَ عن التزكيةِ ، وأهملَ التربيةَ ، وفقدَ القدوةَ ، وتشتَّت شملُه .

البيتُ الذي يجعلُ شرائعَ الإسلام عِضين ، يأخذ ما يشتهي ، ويذرُ ما لا يريد ، إلى شرقٍ أو غرب ، يُنشئ نماذجَ بشريةٍ هزيلةً ونفوساً مهزوزة ، لن تفلحَ في النهوضِ بالأمةِ إلى مواقعِ عزها وسُؤدُدِها .

من سماتِ البيت المسلم أنه يرُدُ أمرَه إلى الله ورسولِه ﷺ عندَ كلِّ خلاف ، وفي أي أمرٍ مهما كان صغيراً ، وكلُ مَن فيه يرضى ويسلِّم بحكم الله وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً .

من سماتِ البيتِ المسلمِ تعاوُنُ أفراده على الطاعةِ والعبادة ، فضعْفُ إيمانِ الزوجِ تقوِّيهِ الزوجةُ ، واعوجاجُ سلوكِ الزوجةِ يقوِّمُه الزوج ، تكاملٌ وتعاضُد ، ونصيحةٌ وتناصر .

من سماتِ البيت المسلمِ الحياءُ ، وبه يُحصِّنُ البيتُ كِيانَه من سهامِ الفتكِ ووسائلِ الشر التي تدعُ الديارَ بلاقع ، لا يليقُ ببيتٍ أسِّس على التقوى أن يُهتَكَ سترُه ، ويُنقضَ حياؤه ، ويلوَّثَ هواؤه بما يخدشُ الحياءَ من أفلامٍ خليعةٍ وأغانٍ ماجنة ونبذٍ للحجابِ

وتشبهٍ بأعداء الدين ، كلُ ذلك ينخِرُ كالسوسِ في كَيانِ البيتِ المسلم ، وبُـؤَراً تفـتحُ مغالقَ الشرِّ وتدعُ العامرَ خرابا .

من سماتِ البيتِ المسلم أن أسراره محفوظةٌ ، وخلافاتِـه مسـتورةٌ ، لا تُفشـى ولا تُستقصى " إن من شرِّ الناسِ عند الله منزلةً يوم القيامةِ الرجلُ يُفضي إلـى امرأتـه وتُفضي إليه ، ثم يَنْشُرُ سِرَّها "

لا يدخلُ البيتَ المسلمَ من لا يُرضَى دينُه ، فدخولُ المفسدِ فسَاد ، ووَلـوجُ المشـبوهِ خطرٌ على فلذات الأكباد بهؤلاء فسدتِ الأخلاقُ في البيوت ، وفشا السحرُ ، وحـدثتِ السرقاتُ ، وانقلبتِ الأفراحُ أتراحا ، بل إنهم معـاولُ هـدمٍ للبيـتِ السـعيد ، والله المستعان ..

لقد برزَ أثرُ الهجرةِ في مجالِ تربيةِ الشبابِ والمرأةِ وميدانِ البيتِ والأسـرةِ ، ففـي موقفِ عبدالله بنِ أبي بكر رضي الله عنهما في خدمةِ ونُصرةِ صاحبِ الهجرة عليـه الصلاة والسلام بأبي هو وأمي ، ما يُجلّي أثرَ الشبابِ في الدعوةِ ودورِهم في الأمـةِ ونُصرةِ الدينِ والمِلة ، فأين هذا مما يُنادي به بعضُ المحسوبينَ علـى فِكـرِ الأمـةِ وثقافتِها من تخديرِ الشباب بالشهواتِ وجعلِهـم فريسـةً لمهـازلِ القنـواتِ وشـبكةِ المعلوماتِ في الوقتِ الذي يُعَدُّون فيه للاطلاعِ بأغلى المهماتِ في الحفاظِ على الدينِ والقيم ، والثباتِ على الأخلاق والمبادئ أمامَ المتغيراتِ المتسارعةِ ودعاوَى العولمـةِ المفضوحة ، وفي موقفِ أسماءَ بنتِ أبي بكر رضي الله عنها ما يُجَلّي دورَ المـرأةِ المسلمةِ في خدمتِها لدينها ودعوتها ؛ فأين هذا من دُعاةِ المدنيةِ المأفونةِ الذين أجلبـوا على المرأةِ بخيلِهم ورَجِلِهم زاعمينَ زوراً وبُهتانا أنَّ تَمَسُّكَ المرأةِ بثوابتِهـا وقيمهـا واعتزازها بحجابها وعفافها تقييدٌ لحريتِها وفقدٌ لشخصيتها وبئسَ ما زعموا فخرجَـتِ من البيتِ تبحثُ عن سعادةٍ موهومةٍ وتقدميّةٍ مزعومةٍ لتَظُنَّها في الأسواق والشـوارعِ والملاهيِ والمصانعِ فرجعت مسلوبةَ الشرفِ مُدَنَّسةِ العرضِ مُغْتَصَبَةَ الحقوق عديمةَ

الحياءِ موءودةَ الغيْرَة ، وتلكَ صورة من صورِ إنسانياتِ العصرِ المزعومةِ وحريتِه المأفونةِ ومدنيته المدَّعاة .. أقول :

ما أحوجنا إلى بيتٍ كبيتِ أبي بكر ، ما أحوجنا إلى أسرة كأسرة أبي بكر ، ما أحوجنا إلى إيمان كإيمان أبي بكر بل ما أحوجنا إلى آباء كأبي بكر وأبناء كأبناء أبي بكر ..

الحادي عشر: الصدق والإخلاص مع الله

نصْرُ الله سبحانَه وتعالى لنبيه أمرٌ جليٌ وواضحٌ وظاهر " إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا " روى الإمام البخاري في صحيحه قال : لما صعدَ كفارُ قريشٍ إلى الجبلِ ونظروا ؛ قال أبو بكر: يا رسولَ الله ، لو نظرَ أحدُهم إلى أسفلِ قدميه لرآنا ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟! " الله أكبر ، إنه التوكل والثقة بنصر الله تعالى لم يقل عليه الصلاة والسلام "ما ظنك بنبي وصاحبُه ؟! " لا " ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟! إنها قاعدةٌ عظيمة : أنَ كلَ اثنينِ صادقينِ مخلصين ؛ الله معهما ، لم يربطْ القضيةَ عليه الصلاة والسلام به ، لم يقل "يا أبا بكر ، لا تخف ؛ لأنني أنا موجودٌ ، أنا رسولُ الله " لا ، ربطَهَا بقضيةٍ أصليةٍ ؛ حتى إذا تكررتْ في يومِنا الحاضرِ ؛ يتكررُ الهدفُ والسببُ والنتيجة " ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟! إذا أصابتك مصيبة وأنت معتصم بالله ؛ فلا تخف ؛ فأمامك "ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟!" إذا ادلهمت عليك الخطوب من كل جانب فلا تحزن لأنك تقرأ " ما ظنك باثنين الله ثالثهما " إذا واجهك عدو فاعتصم برب العدو لأنك تتلوا " ما ظنك باثنين الله ثالثهما " إذا ..

القضيةُ ليست مربوطةً بأنه نبي ، لا ؛ لأن الله تعالى يقول " إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ " نبيٌ وغيرُ نبي ، ما دام أنه على منهج النبي " إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ " نصْرُ الله كان لنبيه ، ولمن يقتفى سنةَ نبيه ، وسيكونُ وسيظلُ لكل صادقٍ مخلصٍ مؤمنٍ بالله متبعٍ نبيه ، كما نجد في هذا الأمرَ أن الأمرَ لا يتعلق بالقوةِ الماديةِ والضخامةِ المادية

؛ فكم بذلت قريشٌ من أجلِ هذا الأمر، ولكنها لم تُحقِّقْ شيئا ونَصَر الله نبيَه ﷺ بوسائله الضعيفةِ البسيطةِ الهزيلة ، لكنها الوسائل المادية ، أما وسائله الكبرى فهي وسائلٌ عظيمة ، أقواها وسيلةُ الإيمانِ بالله سبحانه وتعالى والصدق معه والتوكل عليه والثقة بنصره .

الثاني عشر : الداعية لا يمل ولا يكل .

المسلمُ ليسَ عنده توقُفٌ عن الدعوةِ لله عز وجل ، وعن السعيِ لنشرِ دينِ الله جل وعلا ، وهكذا كانَ النبيُ ﷺ بعد أن وَجَدَ الصدَّ في مكةَ ، ذهبَ إلى الطائفِ عليه الصلاة والسلام ، وبعد أن وجدَ الصدَّ هناكَ فتحَ لأصحابِه بابَ الهجرةِ إلى الحبشةِ أولاً ثم جاءت بيعةُ العقبةِ ثانياً ثم بدأت بداياتُ الهجرة ، كلُ هذا طَرْقٌ لكلِ الأبوابِ والأسبابِ ومواصلةٌ للدعوة هناك وهناك ، وبعضُ الناس قد يَطْرُقُ باباً أو بابين أو يلتقي بفردٍ أو اثنين ثم يقولُ سُدَّتِ الأبوابُ وانقطعتِ السبلُ ويرجعُ ويقعُدُ في بيته ، لكنّ النبيَ ﷺ حينما أدركَ تآمرَ قريشٍ ، وأن قريشا لا تريدُ الإسلامَ ؛ استخدمَ معها كلَّ الوسائل ، وبذلَ معهم جميعَ الأساليب ، مع عُتُوِّهِم ونفورهِم وإصرارهِم وعِنادهِم ، فلم يخطرْ بباله العودةَ إلى الغارِ أو يَعْبُدَ اللهَ في مسجده ، لا .. بدأ يبذُلُ الوسائلَ والأسبابَ للانتقالِ بهذه الدعوةِ إلى أرضٍ خصبةٍ ، فإذا كانت هذه الأرضُ لا تقبلُ هذه الدعوةَ فأرضُ الله واسعةٌ بدأ بالبحث ، وبعرضِ نفسِه ﷺ على القبائلِ شيئا فشيئا ، وموسما موسما حتى وَجَدَ من هُمْ أهلٌ لهذه الدعوةِ ، وبلادَهم خير بلادٍ لهذه الدولة ، فالمسلمُ لا يستكين ، والداعيةُ لا يمل ولا يكل .

كثيرٌ من الدعاةِ يُصابُ باليأس ، كثيرٌ من الدعاةِ يصاب بالقنوط ، يقول " دعوت ودعوت ، فلم يُسمع لي ، لم يُستجب لي " لكننا نجدُ في سيرةِ الرسول ﷺ وفي هجرتِه المثلَ الرائع ، والقدوةَ المُثلى للداعيةِ الصابرِ المرابط .

مشكلةُ كثيرٍ منَ المسلمين اليومَ أنهم يستعجلونَ النتائجَ فيُصابون باليأس ، بل أسوأُ من ذلك أنهم ربما شككوا في مبادئِهم ، شكوا في نصرِ الله سبحانه وتعالى ، شكوا بوعد

الله سبحانه وتعالى الذي وعد أولياءَه بالنصر " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " فلا يصبرون ولا يتصبرون ، بل يستعجلون النتائجَ والثِمار ، ومن هنا حلَّت كثيرٌ من النكبات بكثيرٍ من المسلمين ، كثيرٌ من الدعواتِ أصيبتْ بالوهن ؛ لماذا ؟ لأنها استعجلتِ النتائجَ ؛ لأنها لم تصبِرْ على مقوماتِ الدعوة ، ولهذا جلسَ الرسولُ ﷺ ثلاثةَ عشرَ عامًا يدعو قومَه في مكةَ ومع ذلك لمَّا وصلَ إلى أمرٍ يقينِي بأنَّ هؤلاءِ القومَ لا يُريدون هذا الدين ، وأرادوا القضاءَ عليه ؛ بحث عن مأمْنٍ وأرضٍ ومخرج ، فبدأ بالاتصالِ بالقبائلِ ، وعَرَضَ نفسه عليها ومن هنا جاءَ ترتيبُ هذه الهجرةِ في بيعةِ العقبةِ الأولي ، وفي بيعةِ العقبةِ الثانيةِ ، وما تلا ذلك من مراحل ، حتى تمَّت هجرتُه صلى الله عليه وسل

الثالث عشر : بالصبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدين .

يقولُ ابنُ القيمِ رحمه الله " اليقينُ من الإيمانِ بمنزلةِ الروح من الجسد " ويقول ابنُ تيميةَ رحمه الله " الصبرُ نصفُ الإيمان ، واليقينُ الإيمانُ كلُه " إن المسلمينَ اليوم ، وهم يمرونَ بمرحلةٍ عصيبةٍ من مراحلِ تاريخهم المعاصر وتكادُ تغلِبُ في هذه المرحلةِ عواملُ اليأسِ ومشاعرُ الإحباطِ لهم بأمسِّ الحاجةِ إلى التمسكِّ بالدين ، والعضِّ عليه بالنواجذ ؛ لأن الاستسلامَ لليأسِ يقتلُ الهممَ ويُخَدِّرُ العزائمَ ويدمِّرُ الطموحات ، وهذه المعاني هي التي تُحَرِّكُ الإراداتِ إلى بذلِ الجهد ، ورغمَ تتابُعِ الفتنِ وتنوُعِهَا وتكاثُرِها فإن نصرَ الله آتٍ لا محالةَ كما وعدنا سبحانه شريطةَ أن نتمسكَ بدينِنا ونعتزَّ بشريعتِنا ويكونَ ولاؤنا لله ولرسوله ﷺ ولِمَنْ ولانا الله تعالى أمرهم " وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " " لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الحق لا يضُرُهم من خَذَلَهم ولا من خَالَفهم حتى يأتَي أمرُ الله وهم ظاهرون " و" لا يزالُ هذا الدينُ قائماً يُقاتِل عليه عِصَابةٌ من المسلمينَ حتى تقومَ الساعة " ومع تكاثُرِ أعداءِ الإسلام ، وتكالبِهم على هذا الدينِ ، والكيدِ له ولأهله ، إلا أن النصرَ والتمكينَ بمشيئةِ الله لحملةِ هذا الدينِ المبشرينَ بالثناءِ والتمكينِ كما مُكِّنَ

رسولُ الله ﷺ في حياتِه وأذعنت له الأمم ، كيف لا وهو القائل " إن الله زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقهَا ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغُ مُلكُهَا ما زُوي لي منها " كيف لا .. وهو القائل " ليبلغّنَ هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يتركُ الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدينَ بعز عزيز أو بذُلِّ ذليل ، عزاً يعز الله به دينَ الإسلام ، وذلاً يُذِلُ به الكفر "

إن عِزَّ هذه الأمةِ ، ورِفْعَةَ أهلِ الحقِّ لا تتِمُّ ولنْ تكونَ إلا بالعضِّ على هذا الدينِ بالنواجذِ عقيدةً وشريعةً ، صدقاً وعدلاً ثباتاً في الموقفِ وصدقاً مع الله " وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " " وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ "

إن تَرَقُّبَ النصرِ القادمِ الذي وعدَ الله عبادَه وعداً لا يُخْلِفُه في قوله " وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ " من أجلى ينابيعِ الأملِ وأقواها لدى المسلم ، حيث تدفَعُه نحوَ العملِ لدينِه المنصورِ ومبدئه الظافر " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " ولقد أعلنها ﷺ بعد هجرته في وقتِ الشدةِ لتشَّتَدَّ أنظارُ المؤمنينَ إلى المستقبلِ المحتوم ؛ مهما كان الواقعُ يفرِضُ على الناسِ أقسى الظنون ، فعن البراءِ ابن عازبٍ رضي الله عنه أنه قال " أمرنا رسول الله ﷺ بحفرِ الخندق ، وعرض لنا صخرةٌ في مكانٍ من الخندقِ لا تأخذ فيها المعاوِل ، فشكونا إلى رسول الله ﷺ ، فجاء رسولُ الله ﷺ ثم هبطَ إلى الصخرةِ فأخذَ المِعْوَل فقال : بسمِ الله فَضَرَبَ ضربةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الحجر ، وقال : اللهُ أكبر ! أُعطيتُ مفاتيحَ الشام ، والله إني لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ من مكاني هذا ، ثم قال : بسم الله ، وضرب أخرى فكُسرت ثُلُثُ الحجر فقال : الله أكبر ! أعطيت مفاتيحَ فارس والله ! إني لأبصر المدائنَ وأبصرُ قَصْرَها الأبيضَ من مكاني هذا ، ثم قال : بسم الله ، وضرب أخرى

فقلع بقيةَ الحجر ، فقال : الله أكبر ! أعطيت مفاتيح اليمن ، والله ! إني لأبصرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا "

أيها الأخوة الكرام ..

إن حتميةَ البلاءِ الذي كتبه الله على عبادِه منبعٌ للأمل ، فلا يُدْهَشُ المؤمنُ بنزولِ البلاء ، ولا ينهارُ ولا يُحْبَطُ حينَ يواجِهُ الكروبَ .

إن تقريرَ حتميةِ البلاءِ يجعلُ المؤمنَ متَرَقِّباً للشدائدِ مستعداً لها ومدركاً لحِكمتِها ، ومدركاً أنّ مقدِّرَها هو القادرُ على دفعها " أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ " ولذلك كان الصحابةُ رضوانُ الله عليهم يُدركونَ هذا الأمرَ إدراكاً جيداً ، فهم يبادرونَ في تحليلِ الموقفِ وِفْقَ هذا الاعتبارِ " وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً " ورحم الله ابنَ القيم يوم قال

والحقُ منصورٌ ومُمْتَحَنٌ فلا *** تعجب فهذي سنةُ الرحمن

وأخيرا ..

فإنَّ حالَ المسلمينَ في العالم يُوجبُ الاستفادةَ من معاني الهجرةِ النبوية ، فلن يَصْلُحَ حالُ المسلمينَ في هذا العصرِ إلا بالأمورِ التي صلَحَ بها السلفُ الصالحُ من الإيمانِ الحق والتوحيدِ الخالصِ والخُلُقِ الكريمِ والصدقِ مع الله والتوكلِ عليه والصبرِ على المكارهِ وإحسانِ العبادةِ على وصْفِ ما جاءَ به النبيُ ﷺ في السنةِ المطهرة ، ولئن فاتنا ثوابُ الهجرةِ إلى الله ورسولِه في زمنِ النبوةِ ، فقد شرع الله لنا هجرةً من نوعٍ آخر ، فيها الثوابُ العظيمُ إنها الهجرةُ من المعصيةِ إلى الطاعةِ ، فاهجر أخي الكريمُ المعصيةَ وهاجرْ إلى الطاعة ، اهجُرِ التفريطَ وهاجرْ إلى الاستقامةِ ، اهجُرِ التمردَ والآثامَ وهاجر إلى الانقيادِ والاستسلامِ ، اهجُرِ الكسلَ والأملَ الباطلَ وهاجر إلى الجِدِّ والاجتهادِ فيما يُرضي مولاك ، اهجُرِ الركونَ إلى الدنيا والاطمئنانَ إليها وهاجرْ

بقلبك إلى الله والدارِ الآخرةِ والرغبةِ في ما عند الله ، قال نبيك ﷺ " المسلمُ من سلم المسلمونَ من لسانه ويده والمهاجِر من هَجَرَ ما حرم الله " وفي صحيح مسلم " عبادة في الهرج [أي في وقت الفتنة] كهجرة إليّ " (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم)

اللهم أعز الإسلام والمسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ، ودمر أعداء الدين ، واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً وسائر بلاد المسلمين ، اللهم آمنا في أوطاننا ، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا ، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ، ونعوذ بك من سخط والنار ، اللهم إنا نسألك عيشاً رغداً ، وولداً باراً ، ورزقاً داراً ، اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت ، اللهم إنا نسألك عيش السعداء ، ونُزُلَ الشهداء ، ومرافقة الأنبياء ، والنصر على الأعداء ، والفوز في القضاء يا سميع الدعاء ، اللهم طهر مجتمعات المسلمين من كل فاحشة ورذيلة ، ومن كل عادة خبيثة دخيلة ، يا أرحم الراحمين ، اللهم اهد شباب المسلمين ، ورد ضالهم إليك رداً جميلاً ، اللهم جنبهم قرناء السوء والفساد ، اللهم أقر عيون الآباء والأمهات بصلاح أبنائهم وبناتهم يارب العالمين ، اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات ، اللهم فرج هم المهمومين من المسلمين ، ونفس كرب المكروبين ، واقض الدين عن المدينين ، واشف مرضانا ومرضى المسلمين ، اللهم يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول والإنعام ، نسألك نصراً وعزاً وتمكيناً للإسلام والمسلمين ، اللهم انصر إخواننا المجاهدين في سبيلك ، الذين يقاتلون أعداءك لإعلاء كلمتك اللهم انصرهم في فلسطين والشيشان ، وفي كشمير وأفغانستان وفي العراق ، وفي كل مكان يارب العالمين ، اللهم أقر عيون المسلمين بعودة أراضيهم ومقدساتهم إلى حوزتهم ، اللهم فك أسر المأسورين من المسلمين في كل مكان ، فقد لاقوا أشد العذاب والعناء ، ولا ناصر لهم إلا أنت في زمن قل فيه الناصر والظهير ، اللهم ثبت حجتهم ، وأخرجهم

من سجونهم سالمين غانمين ، واجعلهم مجاهدين في سبيلك فاتحين يا أرحم الراحمين ، اللهم عليك بأعدائك أعداء الدين ، اللهم عليك باليهود والنصارى المعتدين ، اللهم اشدد عليهم وطأتك ، وارفع عنهم يدك وعافيتك ، وسلط بعضهم على بعض ، اللهم أهلكهم بالقحط والسنين ، اللهم أغرقهم بالفيضانات المغرقة ، والأعاصير المهلكة ، اللهم دمر مقدراتهم ، واهلك حرثهم ونسلهم ، واجعلهم غنيمة للمسلمين يا قوي يا عزيز اللهم وفق ولي أمرنا بتوفيقك ، وأيده بتأييدك ، واجعل عمله في رضاك ، اللهم هيئ له البطانة الصالحة ، اللهم وفقه للعمل بكتابك ، واتباع سنة نبيك ﷺ ، اللهم اربطه بالعلماء العاملين ، واجعلهم له خيرَ دليل ومعين ، إنك على كل شيء قدير ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت نستغفر ونتوب إليك

القرار للقيادة

القرار : هو الموجه للجماعة ، والآمر الناهي فيها ، وبموجبه : تتحدد السياســات ، وتوضع البرامج ، وتنفذ الخطط ، وتتحقق الغايات ، وتتقدم الدول ، ويرتفع شــأنها ، خاصة : إذا انبثق عن دراسة وتشاور ، وتولد عن خبرة ودراية ، وصدر عن حكمة وتعقل .

وبدونه : تتشعب الأهواء ، وتتفرق السبل ، وتتخبط السياسات ، وتتعطل المصالح .

ولذلك . . ! !

لابد منه أولا .

ولابد من طاعته وتنفيذه ثانيا .

والقيادة هي صاحبة القرار . . ! !

لأنها : صاحبة الرؤية الشاملة ، والإحاطة الواسعة ، والنظرة الثاقبة .

وعلى جنود الصف الاقتناع بما تراه القيادة ، والتسليم بما تقدره ، والتنفيذ الفوري لما تأمر به ، ما دام قرارها قد سلم من أمر بمعصية ، أو نهي عن معروف .

في الروض الأنف : " وبعد بيعة العقبة الثانية . . قال رســول الله ﷺ للأنصــار : ارفضوا إلى رحالكم ، فقال له العباس بن عبادة بن نضله : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا ، فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بــذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا " "٤٨ "

وكان هذا أمرا واضحا لدى الصحابة في البدء والمنتهى .

في البداية . . يقول له : " إن شئت لنميلن " أي أنت يا رسول الله ﷺ صاحب القرار المطاع .

وفي النهاية . . يقول : " فرجعنا إلى مضاجعنا " دون مناقشة للقرار ، أو تباطئ فــي تنفيذه

وهذا واحد من أسباب ووسائل نجاح القيادة : وهو علم الجنود التام الواعي بحق القيادة في اتخاذ القرار ، ومسارعة الجنود في تنفيذ هذا القرار ، دون اعتراض عليه ، أو تشكيك فيه ، أو تأخر في تنفيذه .

وهذه الطاعة : واحدة من الفروض الشرعية ، التي أمر بها الإسلام ، وكفلها للقيادة ، وحث عليها الجنود ، وأثابهم إذا التزموا بها .

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) " ٧٠ "

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " من أطاعني : فقد أطاع الله ، ومن عصاني : فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري : فقد أطاعني ، ومن عصى أميري : فقد عصاني " " ٧١ "

وأخرجا _ أيضا _ عن عبد الله بن عمر ، عن النبي ﷺ قال : " السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية : فلا سمع ولا طاعة " " ٧٢ "

وأخرجا _ كذلك _ عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال : " من كره من أميره شيئا فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت : إلا مات ميتة جاهلية " " ٧٣ "

وكان ذلك كله : لأن القرار بيد القيادة ، ولو لم يكن الأمر كذلك لعمت الفوضى ، وضاعت المسئولية .

وبسبب غياب هذا المفهوم أحيانا ، أو غياب العلم بمنزلته في الدين : يدب الغبش في النفوس ، ويخيم التخبط على العقول ، وتظهر بوادر الفتن .

وبسبب منازعة الأمر أهله أحيانا ، أو التطلع إلى مواقع الصدارة ، وأماكن القيادة : يدب الحقد في النفوس ، ويخيم الفساد على العقول ، وتظهر بوادر الفتن .

وإذا حدث هذا أو ذاك : تشتتت الفهوم ، وتبعثرت القوى ، وضعفت الجماعة ، وتمزقت الصفوف ، وتعددت الجماعات ، وكثرت الاتهامات ، وقلت الإنجازات ، وابتعد النصر .

وبذلك: ندرك السر فيما ورد عن النبي ﷺ من أنه قال :" إذا بويع لخليفتين : فـــاقتلوا الآخر منهما "٧٤

وفيما ورد عنه أيضا " من بايع إماما فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعـــه مـــا استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه : فاضربوا رقبة الآخر " " ٧٥ "

وما ذلك كله . . إلا للحرص على :

وحدة القيادة .

ووحدة القرار .

ووحدة الصف .

ووحدة الأمة .

وما من تمزق تعاني منه الآن : إلا بسبب من غياب هذا المفهوم ، أو عدم تسليم به .

القيم والتحولات الاجتماعية في القرآن الكريم

* الشيخ زكريا داوود

يمثل القرآن الكريم منبع الحكم والقيم والمعارف وهو الذي أسس حضارة وحدد لها مصدر المعرفة لما كان وما سوف يكون وما هو مؤمل أن يكون، فالقرآن كنص موحى للرسول (ص)، كان المحرك لمسيرة المجتمع الإسلامي في إبعاده القيمية والثقافية والسياسية والاجتماعية، فقد كانت معرفة النص وتفسيره تنتج وعيا للجماعة وللفرد؛ للجماعة لتتحرك نحو تفعيل قيم الشهود، وللفرد لأداء دوره في تحقيق المسؤولية.

ان كل قيم التغيير والتجديد في تاريخنا كانت تتخذ من القران منطلقا، وقد تكون بعض دعوات التجديد الفكري والاجتماعي أصابت بعض الهدف أو أخطأته، لكن الرغبة كانت قوية في جعل القرآن وعيا متجددا مع الزمن من خلال استحضار بصائره وما يهدي إليه.

ونحن هنا نسعى كي نتوصل لوعي قرآني للتحولات الاجتماعية كما يرسمها القرآن، ومن مناهج قراءة القضايا على ضوء القرآن هوما يطلق عليه المنهج الموضوعي في قراءة النص القرآني منهجا توظيفيا أي انه يقرأ النص من خلال الضرورة الواقعية عبر استخدام أدوات المنهج اللغوي والتاريخي والفقهي والعقلي، فهو منهج يوظف كل الأدوات المعرفية من أجل الحصول على نتيجة اقرب لأهداف النص ولمبتغاه.

التحول في القران الكريم ليس ظاهرة استثنائية، بل هو قانون ثابت يجري في كل زمن ومكان، فالكون يجري وفق قانون التغير والتحول، فليس ثمة غير الله في الحياة من لا يحكمه هذا القانون (كل شيء هالك إلا وجهه)، والتحول كمفهوم هو سنة عامة تجري في خلق الله، والقرآن عندما يتحدث عن التحول يلفت الأنظار والعقول إلى كونه دليلا على القدرة والعظمة الإلهية، لان التحول دليل على تكاملية نظام الخالق وعلى حكمة الخالق.

يقول تعالى وهو يصف التحول الذي يحدث في السماوات والأرض: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} (٣٠) سورة الأنبياء.

وكذا عندما يتحدث عن التحول الذي يقع على الإنسان، فإن هذا التحول لا يتوقف حتى يصل الإنسان الى نهاية العمر، وفي سورة الحج يتحدث ربنا عن التحولات التي يمر بها الإنسان منذ البدء والى المنتهى، ويعتبر التحول هنا دليلا على القدرة والعظمة والبعث فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} (٥) سورة الحج.

وفي آيات عديدة يلفت الله الإنسان إلى سنة التحول والتغير، وأنها جارية في كل الخلق دون استثناء، وقد يستطيع الإنسان أن يرى التغير الحادث في الطبيعة في بعض جوانبها، وقد لا يراه في كثير من الجوانب، لكن عدم الرؤية ليس دليلا على العدم.

وعندما يتحدث عن مسيرة الإنسان وحركته في الحياة فان قانون التغير والتبدل يتحكم في هذه المسيرة بدرجة يستحيل الانفكاك عنها، فتارة يتحدث عن المفهوم العام للتحول فيقول: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (١٩) سورة العنكبوت ، وعندما يتحدث عن تفصيل لسنّة التحول في المجتمعات يقول: (ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس)، وعندما يتعرض المفسرون لهذه الآية كصاحب تفسير الأمثل يقول: "يشير الله سبحانه إلى واحدة من السنن الإلهية وهي انه قد تحدث في حياة البشر حوادث حلوة أو مرة لكنها غير باقية ولا ثابتة مطلقا، فالانتصارات والهزائم والغالبية والمغلوبية والقوة والضعف كل ذلك يتغير ويتحول وكل ذلك يزول ويتبدل فلا ثبات ولا دوام لشيء

منها، ولكي تصبح هذه السنة والقانون واضحا في عقلية المؤمنين والناس عامة يأمرنا الله سبحانه وتعالى بدراسة حياة الأمم والتمعن في الحوادث الماضية، فيقول: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } (١٣٧) سورة آل عمران " ومما يلفت النظر هنا هو التعبير القرآني يفعل الأمر سيرا والسير كمفهوم واقعي يدل بحد ذاته على تحول، فالسير هو تحول من مرحلة إلى أخرى، وقد ورد الأمر بالسير في القرآن الكريم ٧ مرات، كل ذلك لمعرفة سنة التغير والتحول في الحياة، وحتى يأخذ الإنسان العبرة ويبني حياته وفقا لهذه السنة.

ومن خلال الآيات التي تحدثت عن التحول كسنة من السنن الإلهية، يمكننا أن نخلص إلى تعريف وتوضيح لهذا المفهوم وهو: كل تبدل يحدث في الأبنية الاجتماعية في الوظائف والقيم والأدوار والمواقع الاجتماعية في فترة محددة من الزمن إذا قيس التبدل بما قبله، وقد يكون التحول عاما يشمل كل الشرائح والوظائف والقيم والأدوار والمواقع، وقد يكون تحولا محدودا بقسم منها، ويمكن أن يكون التحول ايجابيا وقد يكون سلبيا.

إن الحياة تسير في كل جوانبها وفق قوانين تنظم حركة وصيرورة الأشياء، والتبدل رغم كونه سنة عامة إلا انه يحدث عبر ذات القانون العام، ويختلف التحول في الطبيعة المادية عنه في المجتمعات الإنسانية، ففي الطبيعة قد تفقد بعض العناصر التي لا تنفك عنها التحولات في المجتمعات البشرية، ويمكننا من خلال الآيات القرآنية أن نحدد الصفات التي تحدد التحولات الاجتماعية بما يلي:

الصفة الأولى: عمومية التحول

يتسم التحول الاجتماعي بصفة العمومية، فلا يمكن توصيف تحول بكونه اجتماعي لكونه يطال بعض أفراد المجتمع، فالتحول هو ظاهرة عامة تطال أفرادا كثيرين، مما يؤدي بالتالي الى تغيرات في السلوكيات وفي القيم وفي المواقع، فالسنن الاجتماعية تجري على الجميع من دون استثناء، فالابتلاء والمحن والتمحيص والاستدراج والإملاء والاستبدال والعذاب وبعثة الرسل وبسط الرزق والتقدير والخصب والجدب

والتأييد والخذلان والنعمة والحرمان، وغيرها من السنن الإلهية عندما تتحقق شروط حدوثها في المجمع فهي تطال الجميع، فالابتلاء والفتنة سنة عامة جارية في جميع الخلق دون تحيز أو استثناء.

الصفة الثانية: استمرار السنة في الزمان وعدم توقفها

سنن الله في خلقه ليست ظاهرة عابرة، بل قانون ثابت ودائم، وهذه الديمومة تؤهل الإنسان وتحثه على التكيف مع حركة التحولات الاجتماعية، فبدون الثبات والسنن لا يمكن للإنسان أن يستوعب ويعي التحول، وعندها لا يكون قادرا على تطوير سلوكه ومجمل حياته، لان التقدم والتطور ناتج عن وعي السنن وتوظيفها ايجابيا في تصحيح الحياة الاجتماعية، والقران المجيد لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب، ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي دينامثلي يفرض على الجماعة المدركة الملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار (١)، والآيات التالية تلقي الضوء على هذه الصفة، {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} (٦٢) سورة الأحزاب ، والآيات الأخرى { فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا } (٤٣) سورة فاطر.

ويفسر المرجع المدرسي ــ دام ظله ــ هذه الآية بقوله: "سنة الله لن تتغير حتى يوم القيامة، فهذه من الحتميات الإلهية، والتحويل هو تحويل الشيء إلى غيره، وسنة الله المتمثلة بنصر الرسل، سنة أبدية محتومة، كما أن الظروف الطبيعية تحتمها، لان الكفر يسير ضد التيار العام للطبيعة، بينما تنتصر رسالات الله، لأنها تتحرك باتجاه التيار الطبيعي للحياة، كما أنها تتوافق مع الفطرة" (٢).

وأما الروايات التي تحدثت عن جريان السنن في هذه الأمة كما جرت في الأمم السابقة فهي عديدة، عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ الشِّبْرَ بِالشِّبْرِ وَالذِّرَاعَ بِالذِّرَاعِ وَالْبَاعَ بِالْبَاعِ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ

دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَالَ « مَنْ إِذاً » رواه أحمد بسند صحيح

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ : " لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ وَبَاعًا بِبَاعٍ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ ، وَحَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَامَعَ أُمَّهُ لَفَعَلْتُمْ " . رَوَاهُ الْبَزَّارُ ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ .

و عَنْ أَبِى أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « لَيُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُرْوَةً فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِى تَلِيهَا وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضاً الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلاَةُ » أخرجه أحمد بسند صحيح (٣).

الصفة الثالثة: إنسانية سنن التحول والتبدل والتغير

التحول والتغير سنة مطرّدة في الحياة ولا تنفك الموجودات بأنواعها من صفات التحول، لكن الأمر الفارق بين التحول الاجتماعي وما يحدث في الطبيعة، إن الأول يحدث فيه التحول بصورة إرادية وواعية، أما التحول في الطبيعة والجمادات فانه يحدث بشكل قسري وجبري، وهنا يحقق الإنسان سبقا على ما لا يعقل، وهنا يتحقق التمايز بينه وبين غيره، ويمثل التحول نحو الأفضل والأحسن قانونا أساسيا من قوانين الكون وغريزة ثابتة في فطرة الإنسان، فالإنسان بفطرته لا يرغب أن يتساوى يوماه، بل انه في حالة بحث دائم عن التكامل والتقدم نحو الأفضل.

وهذا الإحساس عند الإنسان هو من العوامل الأساسية التي تحرك عجلة التاريخ وتشجع نحو التغيير الاجتماعي، فالتغيير في المجتمع هو فعل الإنسان من خلال تحقيق إرادته، كما في قوله تعالى: { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} (١١) سورة الرعد و {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا} (١٦) سورة الجن {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} (٥٩) سورة الكهف ، فهذه السنن التي ذكرتها النصوص القرآنية واضحة أنها تتحقق بفعل إرادة الإنسان وليست سننا قسرية جبرية كالإحراق بالنسبة للنار، فهنا مواقف ايجابية للإنسان تمثل حريته واختياره

وتصميمه وهذه المواقف تستتبع ضمن علاقات السنن التاريخية جزاءاتها المناسبة وتستتبع معلوماتها المناسبة (٤).

وتنعكس النزعة الإنسانية للتحول الاجتماعي في إشكال وصور يتمظهر بها، ويمكن أن نوجز تلك الصور والأشكال في التالي:

١ــ التحول في القيم الاجتماعية:

تلك القيم التي تؤثر بطريقة مباشرة في مضمون الأدوار الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي، حيث ان لكل مجتمع نمطان من القيم:

الأول: الأهداف العليا: وهي قيم إنسانية ثابتة ومطلقة.

الثاني: تتصل بظروف هذا المجتمع والمتغيرات التي تطرأ عليه، وهما مما يشكلان روح المجتمع (٥).

٢ــ التحول في محتوى النظام الاجتماعي:

النظم والأبنية التي يقوم عليها النظام الاجتماعي قد تكون عرضة للتغير، وذلك لأنها بالأساس صناعة الإنسان، كأن يتحول المجتمع من الديكتاتورية إلى الديمقراطية والشورى، ومن الملكية العامة الى المؤسسات والشركات الخاصة، وبالطبع مثل التغير في النظام الذي يحكم جماعة ما يؤدي إلى تغير في المراكز المواقع للعديد من الأفراد، ويمكن توصيف هذا التحول بكونه تقدم او تطور في بنى هذا النظام الاجتماعي، كما حدث في مجتمع المدينة المنورة في بداية الهجرة النبوية، ففي سورة المنافقون يتحدث ربنا عن رؤية المنافقين للتحول الاجتماعي ويرد زعمهم أنهم لا يزال بإمكانهم ممارسة أدوارهم ونفوذهم في هذا المجتمع الذي تحولت النظم والأبنية فيه نحو تحقيق سيادة قيم أخرى هي قيم الإسلام: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (٨) سورة المنافقون.

٣ــ التحول في مواقع أفراد المجتمع

وقد يحدث التحول في مراكز الأشخاص في المجتمع بصورة طبيعية ويجري ضمن سنة التغير الجبرية، فلا يملك الإنسان الإرادة في التغيير ولا يمكنه الوقوف في وجه هذا التحول، كان يكون تغير المواقع في المجتمع بفعل الوفاة والموت، فهي سنة طبيعية ولا يملك الإنسان حرية الاختيار حيالها، (فإذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)، وقد يحدث التحول في المراكز الاجتماعية والأدوار نتيجة إرادة الإنسان وفعله، وأبرز أمثلته هو ما تحدثه المجتمعات الديمقراطية التي يسودها نظام التمثيل الانتخابي، فيذهب رئيس ويأتي آخر، وتتسلسل عملية التغيير والتحول في المواقع من القمة للقاعدة، وكما يحدث في المجتمعات التي تنتصر فيها رسالة السماء كما لاحظنا ذلك في مجتمع المدينة المنورة في بداية الهجرة النبوية.

وعلى ذلك فان التحول ــ كما ذكرنا ــ تارة يأخذ شكل التطور والتقدم، أي التبدل للأفضل والأحسن، وتارة أخرى يأخذ شكلا تراجعيا أي نحو الأسوأ، ويمكن تسمية التحول نحو الأفضل انه تقدم وتطور وتكامل، كان يتحول المجتمع من نظم وقيم الاستبداد إلى مناخات الحرية والديمقراطية وممارسة حق التعبير من خلال تعديل النظم والقيم والقوانين، والعكس كذلك فالتحول نحو الديكتاتورية والاستبداد هو تحول نحو الأسوأ، ويمكننا تسمية هذا بالتخلف وهو يستبطن الوقوف أو السير خلاف السنة، لان سنن الله الجارية في المجتمع تحثه على التطوير والتكامل لأنها الفطرة التي جبل عليها الإنسان، فالله يريد الكمال ويدعونا إليه، والإسلام الدين الكامل، (اليوم أكملت لكم دينكم)، يطلب منا الرقيّ لمستواه في تفكيرنا وسلوكنا، حتى يمكننا أن نحقق معنى تكامليته في حياتنا، لان تكامل الدين في القيم والنظم والأحكام يشكل حافز قويا نحو تحقيق هذه التكاملية في حياتنا كبشر، فبقدر ما نحقق من تلك القيم في ذواتنا نصل للكمال، وبالعكس؛ بقدر ما نخالف تلك القيم والنظم والأحكام نكرس التخلف ونسير خلاف السنة، ولذلك يكرس المنهج القرآني قيمة التطلع نحو الكمال في نفس الإنسان ويتدرج معه في ثلاث مراحل هي:

الأولى: استثارة فطرته التي انطوت على التسامي والتطلع.

الثانية: فك الأغلال التي تمنعه من تحقيق تطلعاته.

الثالثة: تذكيره وتعليمه بقائمة التطلعات السامية التي يمكنه بلوغها.

إن فطرة التسامي مغروزة في ضمير البشر وداعية له أبدا إلى العروج إلى الأعلى، وإنما تدس هذه الفطرة في ركام الوساوس والأوهام والأفكار الشيطانية، فلا تعد ترفعه نحو الأسمى، أو يضل صاحبها السبيل فيرى في الحرص على الدنيا والبغي على الناس تساميا وعروجا.

وهنا نتساءل ما هي قيم التحول نحو الأفضل؟؟

يبدأ منطلق التحول نحو النهضة من خلال منظومة القيم باعتبارها تتضمن معايير الحكم على الأشياء والحوادث والسلوكيات والغايات، وفي القرآن الكريم يمكننا أن نلمح هذا التوجه بوضوح في العديد من آياته وبالأخص الآيات التي تحدثت عن السنن، كما في سورة الفتح التي تحدثت عن قيمة طاعة المجتمع للرسول (ص)، وكيف أن تحقيق هذه القيمة أدى لحصول وضع أفضل من السابق وهو النصر والفتح والتحول نحو تنشيط حاكمية المسلمين على غيرهم، وبالعكس حدث للفئات التي تخلّفت والذين سماهم القرآن (المخلفين)، والقرآن عندما يتحدث عن هذه الفئة يربط في النهاية الفعل بالجزاء، فإذا كان التسليم والطاعة لله والرسول (ﷺ)، هي صفتهم فإن النتيجة تكون الأجر الحسن، أي تطور وتكامل على ارض الواقع وبين فئات المجتمع الإسلامي، {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} (١٦) سورة الفتح.

المعجزات الحسية في الهجرة النبوية

إن الله أعمى أبصار المشركين الواقفين حول بيت النبي ــ ﷺ ــ ليلة الهجرة حتى خرج من بينهم سالمًا، وإن العنكبوت نَسَجَتْ على الغار فلم يستطيعوا رؤيته؟ فهل هذا صحيح؟

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن مسألة المعجزات الحسية في السنة النبوية قد انقسم الناس حولها فريقان، فريق ينكرها جملة وتفصيلا حتى لو كانت ثابتة بالسنة الصحيحة أو المتواترة، وفريق يثبتها جمله وتفصيلا حتى لو كانت موضوعة مكذوبة، وعلى المسلم أن يقف عند ما ورد في السنة الصحيحة الثابتة فيؤمن به، وما عدا ذلك لا يلتفت إليه

يقول فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في موضوع المعجزات الحسية عامة ومعجزات الهجرة خاصة: الناس في هذه القضية – قضية المعجزات المحمدية المادية – أصناف ثلاثة:.

فالصنف الأول: يبالغ في الإثبات، وسنده في ذلك ما حوته الكتب، أيًا كانت هذه الكتب: سواء كانت للمتقدمين أو المتأخرين، وسواء كانت تعني بتمحيص الروايات أم لا تعني، وسواء وافق ذلك الأصول أم خالفها، وسواء قبله المحققون من العلماء أم رفضوه.

المهم أن يروي ذلك في كتاب وإن لم يعرف صاحبه، أو يذكر في قصيدة من قصائد المدائح النبوية، أو في قصة " مولد " التي يُتلى بعضها في شهر ربيع الأول من كل عام، أو نحو ذلك.

وهذه عقلية عامية لا تستحق أن تناقش، فالكتب فيها الغثّ والسمين، والمقبول والمردود، والصحيح والمختلق الموضوع.

وقد ابتليت ثقافتنا الدينية بهؤلاء المؤلفين الذين يتتبعون " الغرائب " ويحشون " بها بطون الكتب، وإن خالفت صحيح المنقول، وصريح المعقول.

وبعض المؤلفين، لا يعني بصحة ما يروي من هذه الأمور، على أساس أنها لا يترتب عليها حكم شرعي، من تحليل أو تحريم أو غير ذلك . ولهذا إذا رووا في الحلال والحرام تشددوا في الأسانيد، ونقدوا الرواة، ومحصوا المرويات . فأما إذا رووا في الفضائل والترغيب والترهيب . ومثلها المعجزات ونحوها، تساهلوا وتسامحوا.

ومؤلفون آخرون، كانوا يذكرون الروايات بأسانيدها، فلان عن فلان عن فلان – ولكنهم لا يذكرون قيمة هذه الأسانيد: أهي صحيحة أم غير صحيحة ؟ وما قيمة رواتها: أهم ثقات مقبولون أم ضعاف مجروحون، أم كذابون مردودون ؟ معتمدين على أنهم إذا ذكروا السند فقد أبرأوا أنفسهم من التبعة، وخلوا من العهدة.

غير أن هذا كان صالحًا وكافيًا بالنسبة للعلماء في العصور الأولى، أما في العصور المتأخرة – وفي عصرنا خاصة – فلم يعد يعني ذكر السند شيئًا . وأصبح الناس يعتمدون على النقل من الكتب، دون أي نظر إلى السند.

وهذا هو موقف جمهرة الكتاب والمؤلفين في عصرنا، حين ينقلون من تاريخ الطبري، أو طبقات ابن سعد أو غيرها.يبالغ في النفي والإنكار للمعجزات والآيات الحسية الكونية ، وعمدته في ذلك: أن معجزة محمد – ﷺ – هي القرآن الكريم وهو الذي وقع به التحدي: أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله.

ولما طلب المشركون من الرسول بعض الآيات الكونية تصديقًا له، نزلت آيات القرآن تحمل الرفض القاطع لإجابة طلباتهم . كما في قوله تعالى: (وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا وتأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقي في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه، قل: سبحان ربي، هل كنت إلا بشرًا رسولاً ؟). (سورة الإسراء: ٩٠ – ٩٣).

وفي موضع آخر، ذكر المانع من إرسال الآيات الكونية التي يقترحونها فقال: (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة، فظلموا بها، وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا). (سورة الإسراء: ٥٩).

وفي سورة أخرى، رد على طلب الآيات بأن القرآن وحده كاف كل الكفاية ليكون آية لمحمد – ﷺ – قال تعالى: (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون). (سورة العنكبوت: ٥١).

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزة محمد – ﷺ – معجزة عقلية أدبية، لا حسية مادية، وذلك لتكون أليق بالبشرية بعد أن تجاوزت مراحل طفولتها، ولتكون أليق بطبيعة الرسالة الخاتمة الخالدة . فالمعجزات الحسية تنتهي بمجرد وقوعها . أما العقلية فتبقى.

وقد أيد ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن النبي – ﷺ – قال: " ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة ".

ويبدو لي أن مما دفع هذا الصنف إلى هذا الموقف أمرين:.

أولاً: افتتان الناس في عصرنا بالعلوم الكونية، القائمة على ثبات الأسباب، ولزوم تأثيرها في مسبباتها، حتى ظن بعض الناس أنه لزوم عقلي لا يتخلف في حال، فالنار لابد أن تحرق، والسكين لابد أن تقطع، والجماد لا يمكن أن ينقلب إلى حيوان، والميت لا يمكن أن يرجع إلى الحياة ... إلخ.

الثاني: غلو الصنف الأول في إثبات الخوارق، بالحق والباطل، إلى حد يكاد يلغي قانون الأسباب والسنن، التي أقام الله عليها هذا العالم . وكثيرًا ما يقاوم الغلو بغلو مثله.

وهنا يظهر الرأي الوسط بين المبالغين في الإثبات، والمغالين في الإنكار . وهو الرأي الذي أرجحه وأتبناه.وخلاصة هذا الرأي:.

١- أن القرآن الكريم هو الآية الكبرى، والمعجزة الأولى، لرسولنا محمد – ﷺ – وهو الذي تحدّى به العرب خاصة، والخلق عامة . وبه تميزت نبوة محمد على غيرها من النبوات السابقة، فالدليل على صدق نبوته هو نفس موضوع رسالته ؛ وهو

كتابه المعجز بهدايته وبعلومه، وبإعجازه اللفظي والمعنوي، وبإتيانه بالغيب: ماضيه وحاضره ومستقبله.

٢-أن الله تعالى أكرم خاتم رسله بآيات كونية جمة، وخوارق حسية عديدة، ولكن لم يقصد بها التحدي، أعني إقامة الحجة بها على صدق نبوته ورسالته . بل كانت تكريمًا من الله له ، أو رحمة منه تعالى به، وتأييدًا له، وعناية به وبمن آمن معه في الشدائد ؛ فلم تحدث هذه الخوارق استجابة لطلب الكافرين، بل رحمة وكرامة من الله لرسوله والمؤمنين ، وذلك مثل " الإسراء " الذي ثبت بصريح القرآن، والمعراج الذي أشار إليه القرآن، وجاءت به الأحاديث الصحيحة، ونزول الملائكة تثبيتًا ونصرة للذين آمنوا في غزوة بدر، وإنزال الأمطار لإسقائهم فيها وتطهيرهم، وتثبيت أقدامهم، على حين لم يصب المشركين من ذلك شيء وهم بالقرب منهم . وحماية الله لرسوله وصاحبه في الغار يوم الهجرة، رغم وصول المشركين إليه، حتى لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما ، وغير ذلك مما هو ثابت بنص القرآن الكريم.

ومثل ذلك إشباع العدد الكثير من الطعام القليل في غزوة الأحزاب، وفي غزوة تبوك.

٣- إننا لا نثبت من هذا النوع من الخوارق إلا ما نطق به القرآن، أو جاءت به السنة الصحيحة الثابتة . وما عدا ذلك مما انتفخت به بطون الكتب، فلا نقبله، ولا نعبأ به.

فمن الصحيح الثابت:.

(أ) ما رواه جماعة من الصحابة من حنين الجذع الذي كان يخطب عليه - ﷺ - أول الأمر، فلما صنع له المنبر، وقام عليه للخطبة، سمع للجذع صوت كحنين الناقة إلى ولدها . فأتاه النبي - ﷺ - فوضع يده عليه فسكت.

قال العلامة تاج الدين السبكي: حنين الجذع متواتر، لأنه ورد عن جماعة من الصحابة، إلى نحو العشرين، من طرق صحيحة كثيرة تفيد القطع بوقوعه . وكذلك قال القاضي عياض في الشفاء: إنه متواتر.

(ب) ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد عن جماعة من الصحابة، من إفاضة الماء بغير الطرق المعتادة، وذلك في غزواته وأسفاره – ﷺ – مثل غزوة الحديبية، وغزوة تبوك وغيرهما.

روى الشيخان عن أنس: أن النبي – ﷺ – وأصحابه كانوا بالزوراء فدعا بقدح فيه ماء، فوضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، وأطراف أصابعه، فتوضأ أصحابه به جميعًا.

وروى البخاري عن البراء بن عازب أنهم كانوا مع النبي – ﷺ – يوم الحديبية أربع عشرة مائة (أي ١٤٠٠)، وأنهم نزحوا بئر الحديبية فلم يتركوا فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسالم فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها . قال: فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا (سقتنا وروتنا) ماشيتنا نحن وركابنا.

والأحاديث في إجراء الماء له – ﷺ – كثيرة مستفيضة، ومروية بأصح الطرق.

(جـ) ما حفلت به كتب السنة من استجابة الله تعالى لدعاء النبي – ﷺ – في مواضع يصعب حصرها، مثل دعائه بإنزال المطر . ودعائه يوم بدر بالنصر، ودعائه لابن عباس بالفقه في الدين، ودعائه لأنس بكثرة الولد، وطول العمر، ودعائه على بعض من آذاه .. إلخ.

(د) ما صح من الأنباء بمغيبات وقت كما أخبر بها – ﷺ –، بعضها في حياته، وبعضها بعد وفاته، مثل فتح بلاد اليمن وبصرى وفارس، وقوله لعمار: " تقتلك الفئة الباغية " وقوله عن الحسن: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين ... إلخ . ومثل إخباره بفتح القسطنطينية وغيرها.

ونكتفي هنا بما اشتهر من أن النبي – ﷺ – حين اختفى في الغار عند الهجرة من المدينة، جاءت حمامتان فباضتا على فم الغار كما أن شجرة نبتت ونمت فغطت مدخل الغار . فهذا ما لم يجئ به حديث صحيح، ولا حسن، ولا ضعيف.

أما نسج العنكبوت على الغار فقد جاءت به رواية حسنها بعض العلمـــاء، وضـــعفها آخرون .

وظاهر القرآن يدل على أن الله تعالى أيد رسوله يوم الهجرة بجنود غير مرئية كمـــا قال تعالى: (فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها) والعنكبوت والحمام جنـــود مرئية ولا شك والنصر بجنود غير مشاهدة ولا محسة أدل على القهر الإلهي والعجز البشري . وإنما اشتهرت هذه الخوارق بين جمهور المسلمين بسبب المدائح النبويـــة، للمتأخرين وبخاصة مثل " البردة " للبوصيري التي يقول فيها:.

ظنوا الحمام، وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم.

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم.

فهذا هو موقفنا من الخوارق والمعجزات النبوية المنسوبة إلى النبي – ﷺ –.

والله أعلم

النزول بقباء

قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة قال حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وتوكفنا قدومه كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله ﷺ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلا دخلنا، وذلك في أيام حارة.

حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع وأنا ننتظر قدوم رسول الله – ﷺ – علينا، فصرخ بأعلى صوته يا بني قيبلة هذا جدكم قد جاء. قال فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنه وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله – ﷺ – قبل ذلك وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك.

الهجرة رحلة اليقين وركوب الأسباب

عبد الخالق برزيزوي ...

دروس وعبر ودلالات كثيرة يقف عندها القارئ في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي تروي أحداث الهجرات التي أذن بها الله للرسول ﷺ ولصحابته.

أقف على بعض المشاهد التي تعكس صورة جلية ليقين رسول الله ﷺ وصحابته في الله ، يقين رافق الرعيل الأول من المسلمين منذ الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وسيج هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

قال ابن إسحاق : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من عافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه" (١)

فلما اشتد ظلم قريش واضطهادهم على المسلمين بمكة ، أمر رسول الله ﷺ المسلمين بأن يهاجروا إلى الحبشة، وهي بلاد بعيدة ودونها مسافة طويلة ، ومشقة وعبور صحراء وركوب بحر ومجازفة..

كيف إذن أمن المسلمون بأن الخير قد يكتب لهم في تلك الرحلة ؟ وفي المُقام والمكوث بين قوم ليسوا قومهم ، وفي جوار ملك لا يدين بدينهم ، دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ، وقد اضطهدهم قومهم وبنو جلدتهم وأنزلوا بهم أشد أصناف التعذيب والتنكيل والأذية المادية الجسمية والمعنوية النفسية؟

كيف يطمئنون على أرواحهم وأبنائهم إذا تركوا ديارهم ومتاعهم وأموالهم وخرجوا إلى ما يمكن اعتباره مجهولا وعدما؟ كان اليقين والثقة والتسليم لأمر الله ورسوله هو عدتهم وعتادهم ، كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون أن محمدا ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وأن ما أمرهم به وحي وإذن من الله تعالى ، إذ قال لهم : " إن بها ملكا

لا يظلم عنده أحد " كانت هذه الكلمات كافية لتبعث في قلوبهم الأمن والاطمئنان واليقين بأن الله مانعهم وبأن أمره بالغ لا محالة.

لم يترددوا رضوان الله عليهم ، ولم يلتفتوا ، بل سمعوا وأطاعوا ولبوا!

هذا مبدأ التصديق وعربون اليقين في موعود الله ورسوله بأن ينصر دعوته ، فهل اطمأن الصحابة المهاجرون إلى ذلك ثم تجاهلوا كل الأسباب والسنن التي جعلها الله تكليفا شرعيا وجب على المسلمين الأخذ بها والعمل بمقتضياتها؟

كلا ! فقد اتخذ الصحابة كل أسباب الحيطة والحذر وخرجوا مستخفين متسللين في هجرتهم ، بل حتى لما جاء عمرو بن العاص يكلم النجاشي في أمر المسلمين ويغري بهم عنده ويسأله أن يسلمه إياهم ليرجع بهم إلى قومهم " فهم أدرى بهم " بادر المسلمون إلى إعمال الجهد ومدافعة الباطل بالحجة ، وانتصب جعفر بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ ، وبسط للملك النجاشي أمر الإسلام ، هذا الدين الجديد وتلا عليه من القرآن كتاب الله ، وحاج عمرو بن العاص ولم يأل جهدا في موافقة ما أخبرهم به الرسول ﷺ بأن النجاشي لا يظلم عنده أحد!

فيقينه وتصديقه رضي الله عنه ، دفعاه إلى الإصرار على توضيح ما أشكل على الملك النجاشي وعلى بيان حقيقة ما يدعو إليه الإسلام وبطلان دعاوى عمرو بن العاص وقومه.

الصورة الثانية أستقيها من هجرة الرسول ﷺ إلى الطائف حيث كان يخرج إلى القبائل ليعرض عليها نفسه ويبلغهم دعوة الإسلام ويطلب منهم نصره وإيواء دعوته.

هنا كذلك نلتقي مع درس آخر في يقين رسول الله ﷺ في ربه ، ذلك اليقين الذي نفذ إلى قلبه عليه الصلاة والسلام وقذف فيه الاطمئنان والتفاؤل وحسن الظن في الله تعالى .

قال ابن إسحاق : " ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم." (٢)

عرض نفسه عليه الصلاة والسلام على أشراف ثقيف فكان ردهم منكرا من القول والفعل ، حيث تركوه وأغروا به سفهائهم يرمونه بالحجارة وبأسوأ الكلام ، وهو عليه الصلاة والسلام لا يبالي ولا يهتم " إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي " (٣)

فقد تيقن بأن الله كفاه أذاهم وبأنه تعالى سيظهر دينه ولو كره المشركون..

أما الصورة الثالثة والأخيرة في رحلة هذه الهجرات، فألتقطها من هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة رفقة أبي بكر رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق :" وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلا ذا مال ، فكان حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة ، فقال له رسول الله ﷺ : لا تعجل لعل الله يجد لك صاحبا ، قد طمع أن يكون رسول الله ﷺ ، إنما يعني نفسه، حين قال ذلك ، فابتاع راحلتين ، فاحتبسهما في داره ، يعلفهما إعدادا لذلك."(٤)

وحينما أذن الله للرسول ﷺ بالهجرة " ..ورغم يقينه الكامل – عليه الصلاة والسلام – بأن الله معه يرعاه ويسدد خطاه ، لم يتعجل الحركة ، ولم يرتجل الخطوات كان عليه أن يخطط للهجرة ، مستخدما كل ما وهب من إمكانات الفكر والبصيرة والإرادة.لأنه بهذا وحده يستحق نصر الله ووعده...وإلا فلأي شيء منحنا الله بصائر وعقولا وحرية وقدرة على التحرك والتخطيط ؟ " (٥)

فراح أبو بكر في يقينه وتصديقه المعهودين يعد العدة لتلك الرحلة ، ويرتب المراحل ويوزع الأدوار على أبنائه وبناته ، ويجهز أسباب وشروط الهجرة من عناصر بشرية ومن رواحل وأموال تعينهم في خروجهم.

يقين وإعداد للأسباب ، لم يمنعه رضي الله عنه تصديقه وثقته في أمر استبقاء رسول الله ﷺ له ، وتأخير هجرته حتى يجد الله له صاحبا ، لم يمنعه ذلك من اتخاذ الأسباب وركوب سنن الله في التهييء والتخطيط لذلك الحدث الذي سيقلب ميزان القوة لصالح الفئة المؤمنة ويغير مجرى التاريخ البشري .

راحلتان ودليل مشرك وبعض الزاد أتت به أسماء بنت أبي بكر ، هذا كل ما أعده أبو بكر وأله لهذه الرحلة الطويلة في الزمان والمكان ، رحلة سيكتب لها النجاح والظفر

وستكون بداية عهد ومرحلة جديدة بكل المقاييس ، أرض ووطن جديدان ، بنية وتركيبة اجتماعية تحكمها قوانين ومواثيق وأعراف جديدة ، سياسة وحكم جعل لهما الله شرعة ومنهاجا جديدين.

" ومعا استكملا الخطة ووضعا الأسباب ، وتركا – من ثم – مصيرهما ومصير الدعوة لله ، صانع المصائر ومقدر الأقدار... التسلل من شباك خلفي على غفلة من قريش..التوجه جنوبا على طريق اليمن واللجوء إلى إحدى مغارات جبل ثور هناك التوقف عن السير ثلاثة أيام ريثما تخف محاولات القرشيين المستميتة في البحث عن الرسول ﷺ " (٦)

ومن غار ثور رأى أبو بكر بأم عينيه نعال المشركين المطاردين عند أسفل الغار.فارتعد فرقا على رسول الله عليه الصلاة والسلام وعلى مصير الدعوة ن فهمس لرسول الله ﷺ قائلا : " لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا "

ويجيء رد الرسول ﷺ كله يقين واطمئنان : " يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟" ثم يأتي كلام الله تعالى يؤكد حمايته لنبيه وصاحبه ": " إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم " (٧)

ومن دروس اليقين أيضا ، ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما خرج مهاجرا مع رسول الله ﷺ ، فقد " ...احتمل ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف " (٨)

فلما دخل أبو قحافة والد أبي بكر رضي الله عنه على أحفاده بعد خروج أبيهم مع رسول الله ﷺ قال : " ..والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت – أسماء بنت أبي بكر – قلت كلا يا أبت (و كان قد ذهب بصره) إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا . قالت : فأخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ...ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ،

قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئا ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك" (٩)

ثقة ويقين كاملين في أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا وبأنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون، أخذ رضي الله عنه المال كله لينفقه في سبيل الله وترك الله لعياله.

وهذا سراقة بن مالك بن جُعشُم لما خرج في طلب رسول الله ﷺ وقد عمت عينه وملأتها المائة ناقة هبة من يرده عليه الصلاة والسلام إلى قومه، فلما رأى تعثر فرسه مرة تلو الأخرى ، والرسول عليه الصلاة والسلام ماض في طريقه مهاجرا في سبيل الله ، موقنا بأن العاقبة للمتقين ، لا يلتفت ، وأبو بكر رغم ذلك ، وأخذا بالأسباب،لا ينفك يأتيه مرة عن اليمين ومرة عن شماله الكريمة ومرة أمامه وأخرى وراءه يحميه بنفسه وجسده خوفا عليه من طالبيه ، أيقن سراقة بأنه لن يدرك الرسول صلى الله عليه ولن يصله بأذى ، فتولى عنه بعد أن أخذ منه عليه الصلاة والسلام عهدا ، ولم يخبر قريشا بشيء من أمره (١٠) سيرة ابن هشام ج ٢ ص٤٩٠

مازال واقعنا في مجمله بين طرفي نقيض. فمن جهة نجد من يؤمن بأنه سيكون للإسلام وللمسلمين شأن كبير لكنه قاعد ينتظر أن يفعل به وله دون أن يحدث نفسه بفعل أو بذل أو جهد من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل والنهوض بهذه الأمة نحو استقبال موعود الله ورسوله في التمكين والاستخلاف في الأرض ، هذا يميت علبنا ديننا ويعطل سنة الله في الكون وفي الأنفس ، إذ لابد من اقتران تدبير العباد بإرادة وتدبير رب العباد.

ومن جهة أخرى هناك من يعيش واقعا ميؤوسا قانطا لا يرى من أمر الإسلام وأهله إلا السواد يغشيه ليل حالك لا يكاد يتبين منه خيط بياض ولا ومضة نور ..أقعدته هو الآخر غلبة الاستكبار العالمي وصولته وما يظهره من قوة وعنف وبأس ، مقابل تراجع وانبطاح أنظمتنا العربية والإسلامية أمامه واقتفائها سننه.

إن التاريخ يعيد نفسه ، فأسباب النصر والتمكين وشروطه ومقتضياته لا تتغير ولا تتبدل ، فتلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

المتغير هو الزمان والأحوال والظروف والوسائل وتقدير الأولويات وترتيبها .فلنأخذ بالثوابت كاملة غير منقوصة ولا مجزأة، فالثقة في الله واليقين فيه تعالى والاعتماد عليه واستمطار النصر والمدد منه سبحانه، لا يمكن أن نأخذ منه ونترك ، بل لابد من إتمام كل ذلك وإجماله .

ثم نتدرج في إتيان الأسباب ونقدم ونؤخر في ترتيب الأولويات حسب الظروف والمتاح ، ونعد من الجهد والطاقة والإمكانيات ما يبلغه الوسع وبعد ذلك لا نلام.

هكذا ينبغي أن نتعلم اليقين وهكذا أيضا ينبغي أن نتعلم الإتيان بالأسباب والأخذ بها في كل أمر الدعوة، وقبل ذلك و أثناءه وبعده لا نبرح نسأل الله التأييد والعون والمعية.

لن يبرح المسلمون مقعدهم من الذل والهوان والتأخر ما تجاهلوا ضرورة الجمع بين اليقين والثقة الكاملة في موعود الله ورسوله في ظهور الإسلام على الدين كله وفي سيادة أمته على الأمم كلها ، وبين النزول إلى الأرض ومعالجة الواقع والتخطيط والتدبير بما يقتضيه ذلك الظهور وتلك السيادة من أسباب وضرورات ميدانية حسية رقمية.

فعلى هذا فليشتغل كل أهل الدعوة استجابة وتلبية لنداء الله وأمره لعباده بأن ينفروا ويسارعوا في الخيرات طلبا لرضاه وحسن العاقبة وإعدادا للدولة التي جعلها الله حصنا حاميا للدعوة.

الهوامش :

(١) أبو محمد عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام ، الطبعة الثانية ،المكتبة العلمية بيروت ، ج ١ ص ٣٢١-٣٢٢

(٢) نفسه ج٢ ص٤١٩ .

(٣) نفسه ص ٤٢٠

(٤) نفسه ص ٤٨٤

(٥) خليل ، عماد الدين، دراسة في السيرة ، الطبعة السابعة ١٩٨٥ ، دار النفـــائس، ص ١٣٥

(٦) نفسه ص ١٣٦

(٧) نفسه ص ١٣٧ –٠١٣٨

(٨) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص٤٨٨

(٩) نفسه ج ٢ ص ٤٨٨

(١٠) نفسه ج ٢ ص٤٩٠

الهجرة مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة

العدد: ٥ (أكتوبر – ديسمبر) ٢٠٠٦

.أ.د عبد الحليم عويس / تاريخ وحضارة

عندما هاجر الرسول صلى الله عله وسلم من مكة لم يهجر قلبه تراب مكة ولا الكعبة الرابضة في قلب مكة، ولقد أعلن صلى الله عله وسلم ذلك بعبارة صـــحيحة عنـــدما التفت إلى مكة وهو يودعها قائلاً: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ! ولـــولا أن قـــومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك." (رواه الترمذي)

وعندما هاجر الرسول صلى الله عله وسلم من مكة لم يهجر قريشاً ولا بني هاشـــم، فلقد كان يحب الجميع ويتمنى لهم الهداية والخير، كما أنه –وهو الوفي– لم ينس لبني هاشم –مُسلمهم وكافرهم– مواقفهم معه عندما قادَتهم عصبية الرحم فحموه مـــن كـــل القبائل، ودخلوا معه شعب أبي طالب يقاسون معه ومع المسلمين الجوع والفاقـــة، ولا يَمنّون عليه بذلك، مع أنهم على غير دينه، لكنه الولاء للأرحام.

هاجر عليه السلام ولكنه لم يهجر

فالرسول المهاجر صلى الله عله وسلم لم يهجر كل ذلك بل حمله معه في قلبه، يحـــنّ إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه إلى مراتع الصبا، وإلى الرحم الذي وقف معه حتىّ قال

قائلهم وسيدهم أبو طالب: "اذهب يا ابن أخي! فقل ما شئت فوالله لن أسلمك أبداً"، مع أنه لم يكن على دينه.

وإنما كانت هجرة الرسول صلى الله عله وسلم من مكة هجراً للوثنية المسيطرة التي لا يريد أصحابها أن يتعاملوا بمنطق الدين أو منطق العقل أو منطق الأخلاق. فهذه وثنية يجب أن تهجر وأن يهاجر من مناطق نفوذها وإشعاعاتها.

وإنما هاجر الرسول، وهجر -إلى جانب الوثنية المسيطرة- تلك العصبية المستعلية التي تعرف منطق القوة، ولا تعرف منطق الحق، وليس في وعيها ولا في قاموسها أن تهادن الإيمان، وأن تترك مساحة للتفاهم والحوار، وبالتالي تصبح الحياة معها - بعقيدة إيمانية بعيدة عن إشعاعاتها- أمراً مستحيلاً.

إننا نريد أن يفهم مضمون الهجرة الإسلامية كما ينبغي أن يفهم، وأن تكون هجرة الرسول هي المرجعية لهذا الفهم. فقد بُعث محمد صلى الله عله وسلم "رحمة للعالمين"، فكيف تكون إذن رحمته بالقوم الذين انتسب إليهم، أو بالقوم الذين عاش معهم، أو بالأرض الطاهرة التي نشأ فيها، وتربّى في بطاحها وتنسم عبيرها، وشاهد جموع الزاحفين إلى أرضها الطاهرة من كل فج عميق؟!

إن رحمته -بالضرورة هنا- لا بد أن تكون أكبر من أي رحمة أخرى... ولهذا نراه صلى الله عله وسلم يرفض دائماً أن يدعو على أهل مكة، وحتى وهو في هذه اللحظة البالغة الصعوبة، عندما وقع في حفرة حفروها له في موقعة أحد، وتناوشته سهامهم من كل مكان، وسالت دماؤه الطاهرة على جبل أحد الذي كان يتبادل الرسول صلى الله عله وسلم الحب معه، لأن بعض قطرات دمائه الزكية قد اختلطت بتراب أحد الطاهر، فأصبحا حبيبين... حتى في هذه اللحظة البالغة الصعوبة لم يستطع لسانه الزكي، ولا قلبه التقيّ أن يدعو عليهم، ولا أن يشكوهم إلى الله، وإنما كان يردد على مسمع من الناس جميعاً: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"(متفق عليه). وعندما كان يرى تمادي قريش في الحرب كان يتأسف عليهم ويقول: "يا وَيحَ قريشٍ لقد أكلَتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر الناس" (رواه الإمام أحمد في مسنده).

وكم راودته الجبال الشم –بأمر من الله– أن تطبق عليهم فكان يرفض ويقول: "أَرْجُو أَن يُخرج اللهُ مِن أَصلابهم مَن يَعبد اللهَ وحده لا يُشرك به شيئا"(متفق عليه). وعندما جاءته فرصة السلام معهم أصرّ عليها، مع تعنّتهم في الشروط تعنّتاً أغضب أصحابه، لكنه كان يريد لهم الحياة، وألا تستمر الحرب في أكلهم، وألا يبقوا –وهم قومه وشركاؤه في الوطن– مستمرين في تأليب القبائل عليه لدرجة أنهم أصبحوا العقبة الكأداء في طريق الإسلام؛ مما يفرض عليه بأمر الله الجهاد لإزالة هذه العقبة، ونجح الرسول في إزالة عقبتهم بقبول شروطهم المجحفة، حبّاً لهم، وحفاظاً على بقائهم، وأيضاً لإفساح الطريق أمام دين الله.

أما حين دخل مكة صلى الله عله وسلم فاتحا فقد حافظ بكل قوة على كرامتهم ودمائهم، ولم يقبل مجرد كلمة خرجت من فم سعد بن عبادة رضي الله عنه –أحد الصحابة والقادة الأجلاء– وذلك عندما قال: "اليوم يوم الملحمة" فنزع الراية منه، وأعطاها لابنه قيس وقال "لا، بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعزّ الله قريشاً"(١).

وعندما استسلمت مكة كلها تماماً، وقف أهل مكة ينتظرون حكمه فيهم مستحضرين تاريخهم الظالم معه، لكنهم سرعان ما تذكروا أنه الرؤوف الرحيم الطاهر البريء من رغبات الانتقام أو المعاملة بالمثل. فلما سألهم: "ماتظنون أني فاعل بكم"، قالوا: "أخ كريم وابن أخ كريم"، فرد عليهم قائلاً: ؟لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ؟ (يوسف: ٩٢)، وهي كلمة نبي الله يوسف عليه السلام التي قالها لإخوته، ومنها ندرك أنه اعتبرهم جميعاً إخوته، كأنهم إخوة يوسف عليه السلام، ثم أعلن العفو العام بتلك الجملة الخالدة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى"(٢). فكأنه أنقذهم من الموت الزؤام عليه الصلاة والسلام.

دعوة لمهاجري العصر الحاضر

ونقول للمهاجرين من أبناء عصرنا لظروف مختلفة إلى أي بلد من بلدان العالم: هذه هي هجرة رسول الله صلى الله عله وسلم بين أيديكم، وهي كتاب مفتوح، فأمعنوا القراءة فيه لتدركوا منه أن هجرتكم من بلادكم –لأي سبب من الأسباب– لا تعني القطيعة مع أرض الوطن، ولا مع الأهل والعشيرة، ولا مع المسلمين في أي مكان،

مهما تكن الخلافات الظرفية الطارئه معهم؛ بل يجب أن تبقى الصلة قائمة بينكم وبين الأهل والقوم، تمدونهم بأسباب الحفاظ على الدين من مواقعكم، لكي يثبتوا ويمتدوا بإشعاعات الإيمان إلى أكبر مدى ممكن، لاسيما ووسائل التواصل الآن في أقوى مستوى عرفته البشرية، وبالتالي تكونون قد وصلتم الرحم، وجمعتم بين الثلاثية المتكاملة التي تمثل بأركانها الثلاثة وحدة لا تنفصم، وإلا فقدت الأمة "مكانة الخيرية" التي رفعها الله إليها عندما قال: ؟كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ؟ (آل عمران:١١٠) إنها ثلاثية الإيمان والهجرة والجهاد.

أجل! في عصرنا هذا يجب أن يعود معنى الهجرة إلى منبعه النبوي، فليست الهجرة هجراً للوطن، وقطيعة تاريخية أو معرفية معه، بل هي هجرة موصولة بالماضي، تعمل على تعميق الإيمان فيه، وتبني قلاعاً للإيمان في المهجر الجديد، وتصل بين الماضي والحاضر والمستقبل انطلاقاً من درس الهجرة النبوية.

التواصل مع ماضي المهاجر مطلوب

إن الحرية التي تريد أن تتمتع بها في مهجرك، والثروة التي تريد أن تكوّنها، وحتى الدعوة التي تريد أن تبلّغها –إن كنت ممن اصطفاهم الله للدعوة والبلاغ–... كل هذه تدفعك إلى التواصل مع الماضي من جانب؛ وتدفعك إلى بناء حدائق للإيمان يفوح عطرها في وضعك الجديد، وبلدك الجديد، من جانب آخر.

ليكن معنى الهجرة واضحاً في وَعيك، فهي ليست هجرة من أرض ولا أهل إلى أرض وأهل آخرين، بل هي هجرة من قيم ضيّقة ضاغطة تكبل حركة الإيمان، وتفتعل الصدام المستمر، وترفض الحوار بين الأفكار والعقائد، إلى قيم أخرى تسمح لأشجار الإيمان أن تنمو، وتسمح بالتفاعل والتحاور، ومواجهة الرأي بالرأي، والحجة بالحجة، وتكون مؤهلة لأن تسمح لأهل الإيمان والحق أن يعيشوا كما يريدون، وأن يبنوا قلاع الإيمان في النفوس عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

إن الهجرة النبوية الإسلامية هجرة يقصد بها كسر القيود التي تفرض على الإيمان، وفتح نوافذ أخرى في أرض جديدة. وليست الهجرة الإسلامية أبداً من تلك الهجرات التي تعني زحفاً على البلاد على حساب أهلها، أو لتحقيق الثروة ثم الخروج بها، أو للاعتماد عليها لقهر أصحاب البلاد الأصليين، وجعلهم مجرد منفذين وأدوات لمشروعاتِ وطموحاتِ المهاجرين إليهم.

فالهجرة الإسلامية اليوم –إلى أيّ بلد في العالم– يجب أن تكون هجرة تسعى إلى التواصل والتعارف والتحاور والحب؛ بحيث يشعر كل الناس أنّ الأفراد المسلمين أو المجموعات الإسلامية التي تعيش بينهم إنما تمثل روحاً جديدة، تبني ولا تهدم، وتزرع الخير، و تقاوم الشر، ولا تعرف التفرقة في ذلك بين المسلم وغير المسلم، والوطني، والوافد، والأبيض والأسود.

وكل ذلك لن يتحقق إلا إذا رأى الناس في المسلم المهاجر إليهم –من خلال أقواله وأفعاله، وإسهاماته الخدميّة، وآفاقه المعرفية، وعبوديته لله– شخصية متميزة جادة تفعل ما تقول، وتعيش معهم حياتهم اليومية، وآمالهم، وآلامهم، يفيض منه الخير والنور، تلقائياً وعفوياً، كأنه بعض ذاته، وكأنه مرآة قيمه، وصدى أخلاقه، وأثر منهجه في الحياة.

وهنا يتساءل الناس من غير المسلمين: من أين لهذا المهاجر كل هذا الخير والنور؟ من أين له هذه الإنسانية المتدفقة؟ ومن أين له هذه الرحمة التي تعم الإنسان كل إنسان، بل والحيوان والنبات أيضاً... فسيصلون حتماً إلى الإجابة الصحيحة، وهي أن هذا الإنسان يرتشف من نبع الأنبياء، ويستمد وعيه الحضاري ومشروعه الإنساني الرحيم من نبيّه وإمامه، وإمام المسلمين الأعظم، بل وإمام الإنسانية محمد صلى الله عله وسلم.

فقد كانت هجرته المباركه روحاً جديدة، عبّر عنها أحد الصحابه الكرام (أنس بن مالك رضي الله عنه) في قولته المعروفة التي ذكر فيها أنه عندما دخل الرسول صلى الله عله وسلم المدينة بعد نجاح هجرته: "أضاء منها كل شيء، وعندما مات صلى الله

عله وسلم أظلم فيها كل شيء". وهذا على العكس من مكة التي تسلل منها المسلمون هاربين بدينهم، فأظلم فيها كل شيء، ولم يبق فيها إلا الطغيان، والنزوع إلى الحرب. فلما فتَحها الرسول صلى الله عله وسلم انبعث فيها النور، وأضاءت الكعبة، وجاء الحق وزهق الباطل، وأصبحت مكة قلعة الإسلام الأولى.

إن هذا المعنى للهجرة يجب أن يبقى فوق كل العصور؛ لأنه اتصل بنبيّ الرحمة في كل العصور وكل الأمكنة، وأصبح -بالتالي- صالحاً لكل زمان ومكان، صلاحية كل حقائق الإسلام الثابتة.

ولئن كنا نؤمن بأنه "لاَ هجرةَ بعد الفَتح"(متفق عليه) كما قال الرسول صلى الله عله وسلم، فإننا يجب أن نؤمن في الوقت نفسه ببقية الحديث، وهو قول الرسول: "ولكن جهاد ونية"، وهذا يعني أن الهجرة بعد مرحلة الهجرة الأولى قد أخذت بُعداً اصطلاحياً جديداً. ففي البُعد الأول كانت الهجرة مرتبطة بمكان هو المدينة، ولكنها بعد ذلك أصبحت مطلقة من المكان، فهي إلى أي مكان شريطة أن يكون "الجهاد والنية" هما الهدفين المغروسين في النفس. فهما -أي الجهاد والنية- قد انفصلا عن قيد وحدة المهجر (المدينة) الذي كان في صدر الدعوة، وأصبحا صالحين في كل العالم يمشيان مع رجال الدعوة والبلاغ، ويضمنان سلامة الأعمال وارتفاعها على المنافع الاقتصادية أو الظروف السياسية.

الهجرة والتكافل الإيماني

وعندما يستقّر هذا المعنى في النفس نستطيع أن نطمئن إلى أن أبطال الدعوة والبلاغ سينشئون في كل مكان يحلّون فيه حديقة جديدة للإيمان، وتاريخاً جديداً يبدأ كأشعّة الشمس في الصباح، ثم ينساب عبر كل زمان منطلقا إلى مساحة جديدة في الأرض.

وعلى المسلمين إذن -عندما يكونون في أرض المهجر- أن يسارعوا إلى الالتحام ببعضهم، وتكوين مجتمع إيماني يقوم على "المؤاخاة" التي ترتفع فوق الأخوّة، وهي مستوى خاص فوق أخوّة الإيمان التي هي مستوى عام، وأن يتكافلوا مع بعضهم

تكافلاً مادياً ومعنوياً، تحقيقاً لقوله تعالى ؟وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى؟(المائدة:٢) وقوله أيضاً ؟وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ؟(العصر:٣).

والتكافل "المادي" يعني التعاون على ضمان الحد الأدنى المطلوب للحياة لكل أخ مسلم، طعاماً أو شراباً أو علاجاً أو تعليماً أو كساءً. والتكافل "المعنوي" هو التعاون على ضمان التزام "الأخوة" في الإسلام بأداء "الفرائض" والبعد عن "المآثم"، وتفعيل وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار البيئة التي يعيشون فيها وبالأساليب المناسبة لها. وعليهم أيضاً أن يبنوا "مسجداً" يضم الرجال والنساء والأطفال، مهما يكن مستواه متواضعاً. فقد حذّرنا الرسول من وجود عدد –مهما يكن قليلاً– من المسلمين لا تقام الجماعة فيهم، كما أن "المسجد" سيكون محور لقاءاتهم وتعارفهم وتكافلهم المادي والمعنوي. ومن المسجد ينطلقون إلى صور من التكامل فيما بينهم تأخذ طابعاً علمياً ومؤسساتياً يجعل لهم قيمة وتأثيرا وإشعاعاً في مهجرهم الجديد.

لقد أخبرنا الرسول صلى الله عله وسلم أن مما فضل به على بقية الأنبياء أن الأرض جعلت له مسجداً. وقد حقق المسلمون السابقون العظماء "مسجدية الأرض" في كل الأرض التي هاجروا إليها، فهل يمكننا أن نستأنف المسيرة ونحذوا حذوهم.

فلعل الأرض تتخلص من الغيوم السوداء المتلبّدة وتعود مسجدًا طهورًا. ولعل الله يجري على أيدينا وأيدي المستخلفين من بعدنا نهراً جديداً للإيمان، وتاريخاً جديداً تتعانق فيه راية الوحي مع العلم، والحق مع القوة، ويسود العدل الشامل والرحمة المحمدية العالمية كل الكون... وما ذلك على الله بعزيز!

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، ٥٩٧/٢.

(٢) سنن البيهقي الكبرى، ١١٨/٩.

* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية – مصر.

الهجرة .. عبرة وعبور..!

عبد الخالق برزيزوي ...

التقويم الهجري يؤرخ لحدث عظيم في تاريخ الإسلام ، حدث كان بمثابة انقلاب وانعطاف سيطبع تاريخ البشرية جمعاء.

أراد الله سبحانه وتعالى أن ينقل المؤمنين من ضيق العيش إلى سعته ، ومن ظلم وجور القريب إلى بر وإحسان النصير ، نقلة من أجواء الحصار إلى محضن الإيواء والجوار.. هجرة من دار أبت أن تحتضن دعوة التوحيد إلى حين ، نحو بلدة حنت إليها، فحل بها الأنس وأشرقت أرضها نورا وفاحت أجواؤها طيبا..

هاجر الرسول ﷺ من مكة أحب أرض الله إلى قلبه ، هاجر ملبيا أمر ربه نحو المدينة ، نحو قدر الله ولا خيرة له عليه الصلاة والسلام ، فقد اختار الله ، فصار اختيار الله أحب إليه عليه السلام من كل ما سواه.

" سلنا غيرها ..!"

جاء نفر من مشيخة قريش يطلبون أبو طالب ليسألوه أن يمنع بن أخيه من سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم على أن يتركوه ويدعوه وإلهه، فكان رد النبي ﷺ أن قال لعمه : " أي عم ، أولا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها : قال : وإلى ما تدعوهم ؟ قال : أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم . قال: فقال أبو جهل من بين القوم : ما هي وأبيك ؟ لنعطينكها وعشرا أمثالها. قال : تقول : لا إله إلا الله .قال : فنفروا وقالوا : سلنا غيرها ." (١).

هذا من قومه..قريب من عشيرته ، يعلم فضله عليه الصلاة والسلام وصدقه ، لكنه أبى واستكبر وتمنع ، بل إن قريشا كلها لم تنكر صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، لكن كبار القوم ما كانوا ليقبلوا دينا يسوي بينهم وبين الفقير الوضيع ، ما كانوا ليعتنقوا عقيدة من شرائعها عتق رقاب العبيد لتخضع لرب العباد ، ما كانوا ليومنوا بدين يجعل الفضل والقرب في أتقى الناس وليس في أغناهم أو أحسنهم مظهرا

وأكرمهم نسبا.. منعهم كبرهم وكبرياءهم أن يلتفتوا وينتبهوا إلى ما وراء ذلك الإيمان وتلك التلبية لدعوة التوحيد ، تولوا فخسروا الدنيا والآخرة ..

القريب يتجهمك ويحاصرك ويظلمك وهو يدرك صدقك ويعلم سريرتك وأنك تريد الخير ، رغم ذلك يَمْتنع ويَتَمَنع و يأبى أن يَتبِع .. فيَضيِع ويُضَيع ..

هذا كان مع من بعثه الله رحمة للعالمين فما بالنا نحن..؟ ما بالنا نضجر ونغضب إذا نهرنا أحد أو تجهم ؟ ما بالنا نضيق ونصخب إذا حاصرنا أحد أو ظلم ؟ لا نرضى بالظلم ولا نقبل الحصار ولا نعطي الدنية من أنفسنا.. بدعوى الصبر والرضى بقدر الله ، بل نرفض وندافع ونحاول رفع الظلم لكن برفق وبدون تعصب أو تطرف ، نهرب من قدر الظلم والحصار والاستبداد طلبا لقدر العدل والشورى والإحسان

قد لا نقول كل الحق اليوم رفقا بالناس وتدرجا بهم .. لكن لا نقول ولا نُسهم ولا نبرر الباطل أبدا..

بعيد .. " .. وإنها لحق! "

وهذا رجل من بني عامر بن صَعْصَعَة يقال له بَحِيرة بن فِراس ، كان رسول الله ﷺ قد جلس إلى قومه يدعوهم إلى الله ويعرض عليهم نفسه ،يقول : " والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب. ثم قال له : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ..؟ (٢)

فبماذا سيملك هذا الرجل من غير قريش رقاب العرب ؟ وما هو هذا الأمر الذي يسأل الرسول الكريم أن يكون في قومه بعده؟

ما وعده الرسول ﷺ بشيء من أمر الدنيا.. إنما هي الجنة ..!

عاد النبي ﷺ راجعا من الطائف إلى مكة ودخل في جوار المطعم بن عدي وهو من المشركين ، ثم واصل دعوته سرا وعلانية ، وكان يعرض نفسه على الناس في المواسم ، فكان ممن أتاهم من القبائل ، قبيلة كِنْدَة وبطن بني عبد الله من قبيلة كلب وبني حنيفة وبني عامر بن صَعْصَعَة ، فما أجابه إلى ما يدعوهم إليه أحد إلا ما كان من أمر شيخ بني عامر بن صعصعة ، وكان لا يخرج إلى المواسم لعجزه وكبر سنه

، فقد أخبره قومه عن أحداث وأخبار الموسم الذي كانوا فيه وعن ما كان من خبر محمد بن عبد الله ، ﷺ ، ونبوته فقال لهم وهو يتحسر.. : " ... والذي نفس فلان بيده ما تَقَوَلَهَا إسماعيلي قط ! وإنها لحق ، فأين كان رأيكم عنه ! "(٣)

رجال من غير قومه أدركوا أهمية وفضل ما يدعو إليه عليه الصلاة والسلام ، في الدنيا " ..أيكون لنا الأمر بعدك .." وفي الآخرة ".. وإنها لحق .." علموا أن ما يدعو إليه سيكون لهم فيه النصيب الأوفر والفضل الأكبر، فما أرادوا أن يسبقهم إليه أحد .. حرص على الاستئثار بالخير ، ونعم الحرص !

عبرة وعبور .

لا هجرة بعد اليوم ، لكن نية وجهاد ، لا هجرة بعد اليوم لكن عبرة وعبور..!

عبرة نستلهمها من ذلك الحدث الذي غير مجرى حياة البشرية ، فنقلها من ظلام وظلم الناس للناس إلى نور وعدل إله الناس ، ما كان للبشرية أن تهنأ لولا الإسلام . ما كان لها أن تسعد لولا رحمة ورفق وتؤدة الإسلام . الإسلام علم العالم كيف يكون الجوار وكيف يحسن المرء إلى زوجه وكيف يسالم ويقاتل وكيف يصل ويقطع و كيف يعطي ويمنع .. الإسلام ربى الناس على الخير ونمى فيهم إلى جانب حب الآخرة حب الحياة وعمارة الأرض بالخير..

وهي هجرة وصل و عبور من ذلك العهد إلى عهدنا وما أدراك ما عهدنا ! عهدنا يشهد إعادة فتل ما انتقض من عرى الإسلام لتهيئة أجواء استقبال أمر الله..عهدنا هو نهاية استبداد كل ظالم ونهاية انكماش قوة الإسلام..عهدنا هو زمان العزة والنصر والمنعة والظفر..عهدنا نور على نور.. عهدنا يقظة وهمة وقيام من كبوة وعودة..

قدر الله بين أيدينا يدعو وينادينا ويصدع بالخير فينا ، يعلن ويبطن و يجهر ويسر بالليل و النهار و يأخذ بحجزنا ويدفعنا في صفه مع ركبه .. والله إنه لحق يأتيه التأييد من الغيب والشهادة ، والله انه لصدق برهانه ما يراه الناس وتراه .. أَنُسْبَق إليه وقد نشأ بيننا ، أيحتضنه وينصره غيرنا ونحن أولى به وأجدر ؟ لا والله لسنا فيه من الزاهدين ولسنا عنه راغبون ..

كان الله عز وجل يهيئ الأسباب ويذلل الصعاب ، ولما أراد إظهار دينه ، خرج الرسول ﷺ في أحد المواسم وبينما كان يعرض نفسه على قبائل العرب لقي عند العقبة رهطا من الخزرج وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن: " فقال بعضهم لبعض : تعلمن والله إنه النبي الذي تُوعِدُكم به يهود ، فلا يَسْبِقُنكم إليه " (٤) ، فكانت هذه هي أولى الوفود التي آمنت بالدعوة الإسلامية من خارج مكة فتمت بذلك بيعة العقبة الأولى . ثم تلاها لقاءان آخران ، لقاء العقبة الثانية وقد حضر فيه إثنا عشر رجلا من الأنصار وبايعوا رسول الله ﷺ بيعة النساء.

وبعد ذلك ، وقد فشا الإسلام في يثرب ، خرج مسلمو الأنصار إلى الموسم وتواعدوا مع الرسول ﷺ ، على لقاء آخر ، فكانت بيعة الحرب التي حضرها سبعون رجلا وامرأتان ، وقد بايعوا على أن يمنعوا الرسول ﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم .

شهادة ودلالة.

كتب الله على نفسه ليغلبن هو ورسله ، وهو سبحانه يعلم حيث يجعل رسالاته ، ويجعل لكل أجل كتاب .

دعوة العدل والإحسان بيننا ، والرجل الذي جاء بها بين ظهرانينا ، يسير على أثر الرسول الكريم ﷺ ، لا نزكي على الله أحدا ، إنما أقول ما شهد له به علماء الأمة في المشرق والمغرب ، بل ما شهد له به غير المسلمين ، أعرف خير الرجل لأنه كان ولا يزال دليلي إلى الخير ، أعرف فضله لأن ديني ينهاني أن أنسى فضل من أحسن إلي ..

الأستاذ عبد السلام ياسين مرشد جماعة العدل والإحسان ما زال بيننا ، وقد كان بيته في يوم من الأيام مفتوحا للجميع ، فجاء قدر الحصار ومنع عنه الزوار لفترة .. ثم رفع عنه بعض ذلك الحصار لكن لا يعلم أحد ماذا تخبئه الأقدار؟

من بلغه خبره يغبطنا نحن المغاربة ، يقول لنا " إن عندكم رجلا مباركا قد حِيز له الفضل فتشبثوا به واتبعوا دعوته وانصروه.."

من علم فضله من علماء المسلمين يرجو ويتمنى على الله أن يكتب له فرصة زيارته والجلوس إليه ..

من أدرك ما يدعو إليه يود لو أنه بينهم ومعهم ..

الناس يطلبون الرجل من خارج بلدنا ، والله إنهم يتشوفون ويرجون رؤيته ومشافهته ، ليس تبركا ولا تقديسا ولا تقربا مبتدعا ولا تدليسا ، إنما ليقينهم بأن ما يدعو إليه الرجل هو الحق وهو أحق أن يتبع ، فالعبرة العبرة ، فلا يسبقننا إليه أحد ، لا نمانع الأقدار ولا نصانع ، بل نوافق ونسابق ، ونرجو الله أن يبارك ويجعل ما نريد في ما يريد ..والحمد لله الحميد المجيد.

١- الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، بيروت١٩٨٧ ، مجلد ١ ، ص٥٤٤

٢ – نفسه ، مجلد ١، ص٥٤٨

٣ – نفسه ، مجلد ١ ، ص ٥٥٦

٤ – نفسه ، مجلد ١ ، ص ٥٥٨ ،

الهجرة ... فاتحة عهد جديد

كانت هجرة رسول الله سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ من مكة إلى المدينةِ حدثًا هامًا من الأحداثِ الحاسمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، فبها انتهى عهد وابتدأ عهد، وصارت طيبة مهاجر النبي ومثواه الأخير حيث دفن جسده الشريف في أرضها.

لقد حفلت كتب السيرة بتدوين حوادث الهجرة المباركة، وتبارت أقلام الكاتبين في ذكر المعاني البالغةِ والعبر التي انطوت عليها رحلة كَتبت للخلائق تاريخًا مجيدًا وعصرًا زاهرًا جديدًا، فكانت نهضة عظيمة لم تعرف لها البشرية مثالاً سبقها.

لقد ناصب رجال القبائل، خصوصًا قريش في مكة، نبي الله العداء، واجتمعوا على إيذائِه وتعذيب أصحابه والوقوف بوجه دعوته ليفتنوا الذين آمنوا عن دينهم، فأشار الرسول ﷺ على أصحابهِ أن يهاجروا إلى الحبشةِ فهاجر عشرة رجال وأربع نسوة، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلاً وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان، هاجروا مخافة الفتنة وفرارًا إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام.

وقد أحسن النجاشي ملك الحبشةِ استقبالهم وأكرمهم، فاطمأنوا في جواره وأمنوا. وحاولت قريش التقرب إلى النجاشي بالهدايا النفيسة لاسترادهم والإيقاع بينهم وبين النجاشي، ولكن النجاشي سمع منهم آيات بينات من القر آن في حقّ نبي الله عيسى عليه السلام وأمه الصدّيقة مريم فصدق بدعوتهم وزاد من إكرامهم وحمايتهم وباءت قريش بالخيبة والخسران المبين.

لقد كان أذى المشركين للمسلمين عجيبًا، ولكن صبرهم على الأذى كان أعجب، فثبتهم الله، فازداد عددهم وقويت شوكتهم، حتى خشي المشركون بأسهم، فأجمعوا على مقاطعة بني هاشم حتى يسلّموا إليهم الرسول ليقتلوه، ولكن أهل بيته نصروه برغم ما وجدوه من الشدائد والأهوال.

ثم فقد النبي الكريم نصيرين بوفاة عمه أبي طالب ثم زوجته خديجة، فانطلق إلى الطائف ولكنه لم يجد من أهلها أذنًا صاغية وآذوه بأقوالهم وأفعالهم فعاد إلى مكة.

وكان يقصد في نشر الدعوة الموسم حيث تأتي القبائل إلى مكة، فوجدت دعوته صدى طيبًا بين أهل يثرب الأوس والخزرج الذين عرفوا وصفه بأنّه نبي آخر الزمان من اليهود، فآمن منهم ستة كانوا سبب انتشار الدعوة بعد ذلك.

لقد وجدوا في دعوة التوحيد وتعاليم النبي ما يوحّد كلمتهم ويجمع شتات شملهم ويقضي على ما بينهم من تنازع وبغضاء، ووجدوا في شخصية الرسول ﷺ ضالتهم المنشودة فاجتمعوا تحت لوائه. لقد دعاهم إلى التوحيد الخالص ونهاهم عن عبادة الأوثان، وعلّمهم الإيمان برسل الله وكتبه المنزلة وملائكته المقربين وبالبعث والجزاء، كما دعاهم إلى مكارم الأخلاق وترك الخبائث من الأعمال والسيئات من العادات وهذا مصداق لقوله جل وعلا في سورة الجمعة :{هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}.

وهكذا انتشر الإسلام بالمدينة، ثم لما سمعت قريش بإسلام الأنصار ومبايعتهم له صلى الله عليه وسلم، جزعوا وفزعوا أشد الفزع ووجدوا في ذلك خطرًا عليهم، فيزول سلطانهم وتذهب ريحهم وتتعرض تجارتهم إلى الشام غادية ورائحة لخسران عظيم، فمكروا مكرهم وتآمروا على قتل النبيّ وسمعوا رأي زعيمهم عمرو بن هشام الذي سماه الرسول فيما بعد بأبي جهل، فقد أشار عليهم بأن يجتمع عدد من شبان قبائل العرب يحمل كل واحد منهم سيفًا صارمًا ثم يعمد هؤلاء إلى النبيّ فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على قتال قبائل العرب جميعهم ثم يعطونهم الدية بعد ذلك، وقد اجتمع كفار قريش على هذا الرأي.

ثم إن الله تبارك وتعالى أوحى للنبي ﷺ بتآمرهم ووَعَدَه بالعصمة والنجاة منهم، وأذن الله له بالهجرةِ فأخبر الصدّيق أبا بكر رضي اللهُ عنه بعزمه على الرحيل وقال: يا أبا بكر إن الله قد أذِنَ لي في الخروج والهجرة فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال رسول الله: الصحبة. فهيأ سيدنا أبو بكر راحلتين لهذا السفر المبارك الميمون.

ثم إن النبي أمر سيدنا عليًّا كرم الله وجهه بالمبيت في مضـــجعه وأن يلـــبس بردتـــه وطمأنه أنه لن يصيبه مكروه بإذن الله.

وخرج عليه الصلاةُ والسلام مع أبي بكر الصديق ليلاً ومكثا في غار ثور قرب مكة، ولكن المشركين بثوا العيونَ والأرصاد ووعدوا بالجوائز لمن يظفر بالنبيّ ويأتي بـــه، وباتوا مترصدين فلما أصبحوا ذهبوا إلى مضجعه فأبصروا سيدنا عليًّا فبهتوا وخيّب اللهُ سعيهم وأعمى أبصارهم.

نام في بردة النبيّ عليّ * كي يضلّ الأرصادُ والرقباءُ

ومشى المصطفى يخوض المنايا * والمنايا مشلولة عمياءُ

وهكذا ظفر الغار بشرف ضيافة النزيلين الكريمين ثلاثة أيام، وكان عامر بن فُهيـــرة مولى سيدنا أبي بكر يمر عليهم بالأغنام فيحتلبان. وكان عبد الله بن أبي بكر يوافيهما بما يجد من الأخبار، حتى سكن من ورائهما الطلب، وغفل عنهما الناس.

وفي اليوم الرابع وافاهما عبد الله بن الأريقط براحلتين فخرجا إلـــى المدينـــة. وفـــي الطريق أدركهما سراقة، وظن أن الفرصة سانحة لربح الجائزة، ولكن فرسه عثر به وساخت في الأرضِ قوائمه، وأحدق به إعصار، عندها استغاث سراقة ووعد أن يكتم أمرهما، ووفى سراقة بما وعد.

ولما وصل النبي ﷺ وصاحبه رضي الله عنه إلى المدينة كان النصر والتأييـــد مـــن الأنصار، و آخى الرسول بينهم وبين المهاجرين فكانت نقطة تحول مهمة كسبت منها الدعوة الإسلامية قوة واندفاعًا، وذيوعًا وانتشارًا، وأعوانًا وأنصارًا.

وشاعَ في نفوس المؤمنين سرور اللقاء فالإسلام يدعوهم إلـــى العـــدل والإحســـان، وينهاهم عن البغي والعدوان، ويؤلف بين قلوب كانت فرّقتها الجاهلية، ويجمع كلمات مزقتها العصبية. وأمرهم نبيّهم بإفشاء السلام وهو عنوان المودة والرحمة، وأمـــرهم بإطعام الطعام وهو ءاية التعاون والتراحم، وبصلاة الليل والناس نيام وهـــي صـــلاة الأوابين المتبتلين.

لم تكن هجرته ﷺ جُبناً أو فرارًا بل كانت انتقالاً من دار صعب فيها نشر الدعوة إلى دار وضع فيها أساس الدولة الإسلامية العظيمة، فتألفت قلوب الأوس والخزرج وتآخى المهاجرون مع الأنصار فصارت الهجرة فرقاناً بين الحق والباطل وكثر المؤمنون بعد قلة واجتمعوا بعد شتات.

إن علينا أن نعتبر بمعاني الهجرة ونأخذ منها الدروس والعظات؛ ففي الهجرة مفارقة للوطن والأهل والديار والأموال، وفي هذا ثبات المؤمن على عقيدة الحق، وصبر وعزم وتضحية جعل الله فيها الثواب الجزيل، والرسول ﷺ يقول :"إنّما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه".

الهجرة أظهرت ما فى المجتمع العربي من القيم الإنسانية والأخلاق النبيلة

عند الهجرة ضرب الرسول ﷺ لأمته المثل فى دقة التخطيط وقمة التوكل

كشفت أحداث الهجرة النبوية عن قيم فاضلة وأخلاق كريمة ومواقف إنسانية رائعة كان بعضها موجودا فى البيئة العربية قبل الإسلام مثل الشجاعة والشهادة والتضحية والنجدة ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف واحترام المرأة وصون كرامتها وعفتها وكذلك خلق الإيثار والكرم والسخاء ،وغير ذلك من القيم الأصيلة التي عرفها المجتمع العربى قبل الإسلام وجاء الإسلام فأبقى عليها وقواها وأضاف إليها .. كل هذا يؤكد أن المجتمع العربي الذى أنبت صاحب الرسالة الخاتمة سيدنا محمد ﷺ ، لم يكن مجتمعا شريرا أو همجيا أو خاليا من القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة كما تحاول بعض أبواق الدعاية الحاقدة على الإسلام وأهله أن تصوره . وقد أبرزت أحداث الهجرة المباركة .. بعض جوانب هذه القيم النبيلة والأخلاق الحميدة والسلوكيات الإنسانية الرقيقة التي أفرزها المجتمع العربي وجاء الإسلام فرسخها وسما بها وأضاف إليها ليبنى مجتمعا إنسانيا متماسكا ومتعاونا وقويا لم يشهد التاريخ له مثيلا على مر العصور والأزمان وهنا نلقى الضوء على بعض جوانب هذه الصورة المشرقة من القيم النبيلة والأخلاق الرفيعة التي برزت خلال حادث الهجرة التي نحتفل بها فى هذه الأيام .

د .رأفت عثمان :الأخلاق العربية الأصيلة تجلت فى كثير من مواقف الهجرة والرسول ضرب المثل فى الرحمة والعفو والتسامح

يقول الدكتور محمد رأفت عثمان العميد الأسبق لكلية الشريعة وعضو مجمع البحوث الإسلامية :كلما تأمل الباحثون وعلماء الشريعة فى حادثة الهجرة وهى الحادثة التى غيرت أمورا غاية فى الأهمية ليس أقلها أنها طبعت الدعوة الإسلامية بالعلنية والجهر بها ..بل إننا يمكن أن نرى فيها قبل أن تبدأ وقبل أن يغادر رسول الله ﷺ بيته فى مكة المكرمة إلى المدينة المشرفة أمورا تلفت النظر إلى وجود قيم خلقية طبع بها

المجتمع العربى سواء أكان فى الجاهلية أو بعد دخوله فى الإسلام فليست كل الجاهلية السابقة للإسلام شرا محضا وإنما كان فى العرب أيضا بعض النواحى الخلقية التى معهودة ومتعارفا الفترة لم يفقدوها فى جاهليتهم ولهذا أبقى الاسلام على بعض هذه القيم الخلقية التى كانت عليها كالأمانة والمحافظة على حرمة البيوت والشجاعة وهنا يجدر بنا أيضا أن نذكر أن حادث الهجرة العظيم هذا قد قامت العقيدة فيه بتحريك طاقات هائلة لا حدود لها داخل الإنسان المسلم .

شجاعة على

فصبى لم يبلغ مبلغ الرجال تبلغ به الشجاعة التى تربى عليها فى مجتمعه العربى وحركتها عقيدته أن يعرض نفسه للهلاك والقتل على يد أناس غلاظ الأكباد وذلك فى سبيل ما اعتقده للعبادة وهو الموقف الذى وقفه على بن أبى طالب رضى الله عنه عندما قبل أن يبيت فى فراش الرسول ﷺ موهما أعداءه أنه لايزال فى فراشه وما حدث من قبل على كرم الله وجهه أمر يجب أن نعمل على تنميته فى مجتمعاتنا الإسلامية اليوم حيث يجب أن نغرس الإيمان بالهدف الذى يجب أن نحققه فى مجتمعنا فلقد آمن على رضي الله عنه بهدفه وأقدم على التضحية بحياته فى سبيل تحقيق هذا الهدف ..ولابد أن تؤمن الجماعات والأفراد فى كافة الدول الإسلامية بأنها لابد أن تعيش حياة التفوق العلمي فى كافة مجالاته حتى تتمكن من أن يكون لها وجود بين الأقوياء وإلا أ كلت كما تأكل الذئاب الخراف وقد بدأ هذا الأكل فعلا وأصبح أمرا لا جدال فيه فالسبيل الوحيد هو غرس الإيمان فى نفوس الجميع بأنه لابد من تحقيق القوة فى كافة نواحيها المختلفة العلمية والثقافية والسياسية والعسكرية أما أن نتحدث كل عام عن الهجرة بالكلام المحفوظ ثم لا تثير فى المسلمين الهمم فى تغيير الأحوال التى نعانى منها الآن فى كافة ديارنا الإسلامية فهذا كلام لا داعى له .

كما أن الهجرة عادة لاتكون منطلقا للمهاجرين من أية بقعة فى العالم إلى أن يتطوروا من مكانة الضعف إلى القوة ثم يعودون إلى المنطقة التى هاجروا منها وهم أشد قوة .وإنما الهجرات التى تحدث عادة من بعض مناطق العالم يستقر القائمون بها فى

أماكنهم الجديدة ولا تربطهم بمواطنهم الأصلية بعد ذلك الإ روابط ضعيفة ،لكن هذه الهجرة العظيمة فى التاريخ الانسانى نجدها على العكس مما هو متعود فى حياة البشرية ،فالذى حدث أن المسلمين بعد أن هاجروا إلى المدينة رجعوا وهم أكثر قوة وأشد بأسا منتصرين على من كانوا يعتدون عليهم .ونجد قائد الهجرة ﷺ ، العظيم فى بشريته لا تحركه النزعات الانتقامية عندما يعود من هجرته منتصرا على من أخرجوه من بلده ويأتى الحوار الذى يعد المثل الأعلى بين قائد منتصر وأعداء سبقت تعدياتهم عليه وعلى من معه ، حيث يقول القائد ﷺ ،ما تظنون أنى فاعل بكم ؟فيردون : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم فيقول ﷺ بشخصية القائد الرحيم الذى لا تحكمه نزعات الانتقام والتشفى من أعدائه :اذهبوا فأنتم الطلقاء ..،تلك

هى أخلاقيات الإسلام وقيمه التى يجب على كل مسلم أن يحرص على التأكيد عليها من خلال كل قول وسلوك وتصرف يقوم به بين الناس .

الإسلام دين المحبة والأخوة الإنسانية

يقول الدكتور جلال البشار وكيل كلية الدعوة جامعة الأزهر : إن من أبرز الأخلاق التي تجلت فى هجرة المصطفى ﷺ خلق الإيثار وتعنى تقديم الغير على النفس وتفضيله فى الأمور المحببة . وكذلك تعنى تقديم النفس بتحمل الأمور الشاقة أو المخيفة لتحسس ما يتوقع منه الأذى حرصا على سلامة الغير .

وقد هذا الخلق الكريم فى عدة مواقف أثناء رحلة الهجرة من مكة إلى المدينة مثل إسراع الصديق أبى بكر بدخول غار ثور قبل الرسول ﷺ للتأكد من خلو الغار من كل أذى ومقدما نفسه للتعرض للأذى إيثارا لسلامة النبى ﷺ على سلامته رضي الله عنه حيث كان يمشى تارة أمامه وتارة خلفه وتارة عن يمينه وتارة عن شماله ليحميه من كل شر .كما خلق الإيثار لدى أسماء بنت أبى بكر عندما آثرت نجاح الهجرة وسلامة الركب الكريم للرسول ﷺ على سلامتها الشخصية فتحملت أذى قريش وتحرشهم بها وتهديدهم لها ولم تبح لهم بأى خبر تعرفه عن مكان الرسول وصاحبه .وكذلك لم يتردد على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى النوم فى فراش النبى ﷺ

ليوهم المشركين المتربصين بباب داره أنه مازال نائما فى فراشه .وقد كان من المحتمل أن يتهور أحد المشركين ليرمى النائم بسهم وهو فى فراشه . إلا أن عليا رضى الله عنه لم يحرص على حياته وإنما حرص على حياة النبى ﷺ .

كما ضرب الأنصار المثل الأعلى فى إيثار المسلم لأخيه المسلم .عندما آثروا المهاجرين على أنفسهم فذكرهم الله تعالى فى قوله ،والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .،فما أحوجنا فى هذه الأيام لهذا الخلق الكريم حيث تتحكم فى سلوك الناس وعلاقاتهم الأثرة والأنانية وحب الذات فلو ساد هذا الخلق لترابطت المجتمعات وتوطدت العلاقات وانقطعت النزاعات وشاع الحب والوئام كل المجتمعات البشرية ولبرز للعالم كله أن الإسلام هو دين الحب والسلام والإنسانية فى أجل صورها .

عداء المشركين لم يمنع الرسول ﷺ من ود أماناتهم

يؤكد الدكتور أحمد زلط وكيل كلية التربية بجامعة قناة السويس :أن الأمانة كانت من أهم سلوكيات رسولنا الكريم ﷺ فلقد عرف بالصادق الأمين ..والحقيقة أن الصدق والأمانة صفتان أصيلتان فى السلوك العربى وذلك أمر يجب إبرازه للعالم كله خاصة للعالم الغربى الذى يزعم أن المسلمين العرب لا يعرفون إلا السرقة والنهب والغش وحب الاستيلاء على أموال الغير والنصب والاحتيال وكلها طرق وأساليب تدل على عدم الأمانة وعلى الكذب وهم يصورون ذلك من خلال حملات الغزو الفكرى المنظمة والمستمرة .

ويجب على المسلمين إدراك خطورة التأثر بتلك الحملات ،وللأسف الشديد قد أصبح لدينا نسبة تقتدى بتلك الحملات والنسبة لا تمثل حتى الآن فى المجتمع العربى المسلم ككل ..والأمانة صفة يحث عليها الإسلام ،ورسول الله ﷺ عندما أمر بالهجرة كان محملا بأمانات كثيرة فلم يكن بمكة المكرمة أحد عنده شئ يخاف عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ لصدقه وأمانته ورغم شدة عداء المشركين له واجبارهم له ولمن معه

على الهجرة وترك ديارهم إلا أن الرسول ﷺ ترك عليا كرم الله وجهه فى مكة ليقوم برد الودائع إلى أصحابها ..فالأمانة صفة أساسية من صفات العرب وقد جاء الإسلام وحث عليها فالمولى عز وجل يقول فى كتابه الحكيم :،إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ،كما يقول سبحانه :،فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته .،. كما يقول رسول الله ﷺ : ،آية المنافق ثلاث :إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان .،ويضيف د .أحمد زلط والأمانة فى ضوء ذلك تؤدى إلى استقامة الطبع وإلى التنمية المستدامة وكلما اتسعت دائرة النهب والغش والسرقة ضاقت القدرة على اكتساب السلوك القويم ومن ثم لا تتحقق التنمية التى نسعى إلى تحقيقها فى مجتمعنا فالأمانة قيمة أصيلة فى المجتمع العربي الإسلامي ومن لا يعمل بها آثما يضر بنفسه وبمن حوله . وعلى كل مسلم أن يتمسك بمبادئ دينه وأخلاقيات مجتمعه العربي وأن يعطى الصورة الصحيحة للإسلام .

أما الإنسان الذى لا يلتزم الصدق والأمانة فى مجتمعنا يرجع ذلك إلى عيب فيه لا فى تعاليم الدين أو سلوكيات المجتمع .

أسماء ضربت المثل فى الشجاعة والتضحية وأبو جهل يخجل من نفسه بعد أن لطمها على وجهها

تقول دكتورة آمال يس أستاذ الفقه بكلية الدراسات الإسلامية جامعة الأزهر : كان للمرأة المسلمة دور بارز فى هجرة الرسول ﷺ التى تعتبر من أعظم أحداث التاريخ .حيث كانت أسماء بنت أبى بكر بطلة من أبطالها أدت دورها الذى كلفت به بكل دقة وحذر . فضربت المثل الأعلى للمرأة المسلمة المؤمنة بربها القوية الشجاعة المجاهدة .وهو ليس بالشئ الغريب فهى بنت عبدالله بن أبى قحافة الملقب (بأبي بكر الصديق) وأختها عائشة (زوج النبى ﷺ)وزوجها الزبير بن العوام (من العشرة المبشرين بالجنة).

فعندما أذن الله تعالى لرسوله الكريم بالهجرة بصحبة أبى بكر ،وعلمت أسماء بنبأ السفر أسرعت بتجهيز ما يحتاجه المسافران من لوازم الرحلة .وعندما دخل الرسول ﷺ بيت أبى بكر فى الثلث الأخير من الليل يوم الهجرة كانت قد أعدت لهما كل شئ . ولما انتهى الرسول ﷺ وصاحبه إلى غار ثور كانت تأتيهما بالطعام والشراب إذا أمست طوال ثلاثة أيام هى الفترة التى قضاها الرسول الكريم وصاحبه بالغار .وفى يوم السفر جهزت للركب سفرته ،فلما إرتحلا وذهبت لتعلق السفرة (الطعام والشراب).وجدت نفسها وقد نسيت أن تجعل لها رباطا .فحلت نطاقها (حزامها)وشقته اثنين جزءا علقت به السفرة .والآخر انطلقت به ،فرآها الرسول ﷺ وهى تفعل ذلك فقال لها .،أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة ؟ كما أنها رضي الله عنها شجاعة قوية وحسن تصرف عندما جاءها عمرو بن هشام الملقب، بأبي جهل ،ومع نفر من قريش وسألها عن أبيها وعن رسول الله ﷺ وألح فى السؤال إلا أنه لم يصل معها إلى جواب شاف. فلم يملك نفسه من الغيظ فلطمها على وجهها لطمة قوية شقت أذنها وأسقطت قرطها .فقامت وقد تلطخ وجهها بالدماء وهى ثابتة لا تتزحزح رغم ما تعانيه من شدة الألم وثبتت على حفظ السر الذى إئتمنها عليه الرسول الكريم .أما أبو جهل فقد انسحب فى خزي وعار بعد أن طلب من شهدوا هذا الموقف كتمانه وعدم إخبار أحد به إلا أن هذا الخبر انتشر ولامه أهل مكة على تصرفه المشين .وعابوا عليه مخالفة الأخلاق والشهامة العربية الرافضة للتعدى على النساء ، واعتبروا هذا التصرف إهانة لقريش كلها . وقت طويل على هجرة الرسول ﷺ وأبيها حتى لحقت بهما أسماء لتجاهد ثانية لبناء الدولة الإسلامية بدور جديد لها كزوجة وأم حيث ربت أبناءها على الشجاعة والإقدام والتضحية من أجل نصرة دين الله فكانت حياتها بكل جوانبها نموذجا يحتذي به لكل امرأة مسلمة فى الشجاعة والصبر والفداء وحسن تربية الأبناء .

إيمان الرسول بأهمية الكفاءة وعدم التعصب اتخذ دليلا غير مسلم يقوده فى طريق الهجرة

يقول د .عبد المقصود باشا أستاذ التاريخ الإسلام جامعة الأزهـــر: فـــى اســـتقرائنا لصفحات التاريخ القديم نجد أن البيئة العربية قبل الإسلام تميزت بعدم التعصب الدينى بدليل أن مكة المكرمة رغم أنها مركز البيت الحرام إلا أنها كانت مركـــزا للتســـامح الدينى فجمعت بين الحنفاء وعباد الأصنام والأوثان وعبده الشمس والنجوم واللادينيين وكان مبدأهم أعبد ما شئت طالما لا تؤذى أحدا ولا تقترب من مكانة قريش ومركزها لذلك نجد الرسول ﷺ لم يستنكف عن الاستعانة بغير المسلم ليكون دليله فى الهجـــرة وذلك لعدة أسباب منها أن عبدالله بن أريقط الليثى كان من أعظم الخبرات فـــى ذلـــك الوقت كدليل وهاد ماهر فى دروب الصحراء والطرق الوعرة فى جميع أنحاء شـــبه الجزيرة العربية . ورغم أن عبدالله بن أريقط كان لا يزال على ديـــن قومـــه إلا أن الرسول ﷺ كان يدرك أن من الصفات العربية الأصيلة الوفاء بالوعد وعدم خيانـــة العهد .وأيقن أن عبدالله بن أريقط لن يخونه أو يشى به . وهذا الخلق الحميـــد أقـــره الإسلام ودعا إليه فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم والسنة النبويـــة الشـــريفة . كذلك أراد الرسول ﷺ من الاستعانة بدليل غير مسلم فى أهم حدث فى تاريخ الدولة الإسلامية أن يضع لنا تشريعا لنا كمسلمين فى القرن الخامس عشر الهجـــرى بـــألا نستنكف من الاستعانة بأى شخص أيا كانت ديانته طالما كان فى الاستعانة به إنجـــاح الدعوة الإسلامية وتحقيق الهدف المرجو من الاستعانة به . يقولت عالى، لا ينهـــاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم .،من دياركم أن تبروهم وتقســـطوا إليهم ويرى د .عبد المقصود ضرورة تغيير مفهومنا الخاطىء حول غير المســـلمين .فلا نستخدم كلمة كافر التي ارتبطت فى العقلية الباطنية لـــبعض المســـلمين بالعـــدو المبين الذى لا تجب مهادنته أو معاملته ..وكذلك لا نستنكف مـــن الاســـتعانة بغيـــر المسلمين إذا كان من أصحاب الخبرات المتقدمة فى العلم فهذا ما يقره الإسلام ومـــا يدعونا إليه ..فماذا يقول الذين يتهمون الإسلام بالتعصب ؟.

الهجرة الكبرى بين الأخذ بالأسباب والتأييد الإلهي

في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وهجرة أصحابه الكرام من مكة إلى المدينة عِبر ناطقة تستفيد منها الأمة عبر الدهور، إذا أرادت أن تكون وثيقة الصلة بعناصر القوة التي تستعيد بها ما كان لها من سؤدد وعزة وكرامة بين الشعوب والأمم•

فالتحول العظيم الذي حدث للإسلام بعد الهجرة سبقته جهود وتضحيات وإجراءات قام بها النبي، صلى الله عليه وسلم، ولم يحدث طفرة لأمة عاجزة عن القيام بدورها تحت مظلة السماء، فالله لا يحقق للعجزة أو المتواكلين والكسالى أي نجاح، ولا يمد يد العون للنائمين، ولكن لابد من الفعل المخلص المدروس، ثم الأخذ بالأسباب المعقولة الموصلة للأهداف المرسومة، التي اقترن بها العمل الواعي البصير، المدروس، ثم الأخذ بالأسباب المعقولة الموصلة للأهداف المرسومة، التي اقترن بها العمل الواعي البصير، عملاً بقوله تعالى في الآية ١١ من سورة الرعد: (إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم)، لقد بدأ النبي، صلى الله عليه وسلم، بالأخذ بالأسباب التي كلَّف الله بها البشر، ومرَّن أصحابه الأولين عليها تمريناً قولياً مقروناً بالعمل، وظلت الدعوة تتعثر حيناً، وتنشط أحياناً على مدى ثلاثة عشر عاماً كاملة، حتى أذن الله لفجر الدعوة بالانبلاج••• نصروا الله على أنفسهم، وعلى أعدائه فنصرهم الله نصراً عزيزياً: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) محمد:٧، ومن سنن الحكيم أنه يبلو المؤمنين بأعدائهم ليمحصهم وإلا فهو قادر على نصرة الحق الذي أنزله بلا أنصار، ولا قتال، ولكن في هذا تثبيط همم المؤمنين وركونهم إلى الاسترخاء والتواكل، وفي ذلك يقول عز وجل في الآية ٤ من سورة محمد: (ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض)•

ولأن النصر لو جاء عفواً ما شعر المؤمنون بحلاوته، ولما أجهدوا أنفسهم في الحفاظ عليه، ولهان عليهم ضياعه، لأنهم لم يدفعوا فيه ثمناً، ولم يلاقوا فيه شدة•

بدأت الدعوة ــ وبدأ معها التمحيص والتدريب ــ تبثَّ في القلــوب الإيمــان، وفــي العزائم الصدق، وفي الإرادة القوة•

(وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين• وليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) آل عمران: ١٤٠ ــ ١٤١•

الأخذ بالأسباب عند الصحابة

قلنا: إن الأخذ بالأسباب، هو طريق الحصول على ما عند الله، وهذا هو الــذي بــدأ النبي، صلى الله عليه وسلم، تدريب أصحابه الأولين عليه، فأمرهم بالصبر الجميــل على ما ألحقه بهم المشركون من أذى، فكان الصبر هو أول درس تعلموه منه عليــه الصلاة والسلام، وطبقوه عملياً في مواجهة أعدائهم•

ولما اشتد عليهم الأذى، وخشوا الفتنة في دينهم أرشدهم القائد الملهم إلى الهجرة إلــى الحبشة، في عمليات أشبه ما تكون باللجوء السياسي المعروف في هذه الأيام، فقــال لهم: >لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد••• حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه< فخرج من أصحابه من خشي الفتنة في دينه•

فعملوا بتوجيهه، وتحملوا وعثاء السفر بلا زاد يحملونه معهم إلا ما خفَّ، وكان منهم من خرج بأهله، ومنهم من خرج بمفرده، ولما لمست قريش أن الدعوة آخذة في القوة والانتشار قامت بمقاطعة بني هاشم وبني عبــدالمطلب وأحكمــت الحصــار علــى المؤمنين، وبعد ثلاث سنوات من الحصار، جاء الفرج من الله ناصر المؤمنين، فسخَّر جماعة من شباب قريش أجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة، ثم خرج، صلى الله عليه وسلم، يعرض نفسه على القبائل لنشر دعوة الله، فكانت رحلة الطائف، وعانى منها ما عانى، ثم كانت بواكير النصر الإلهي المؤزر بعد اليأس من أعوان الأرض، رحلــة الإسراء والمعراج، وبعدها أخذ مسار الدعوة ينتهج نهجاً جديداً، إذ لم يعد للنبــي ﷺ أمل يرجوه من أهل مكة والقرى المتاخمة، فعرض نفسه، صلى الله عليه وسلم، على القبائل الوافدة من خارج مكة، التي لم يتلوث فكرها بفكر قريش القادمين إلى مكة في مواسم الحج، وكان من ثمرة هذا التخطيط النبوي الجديد عرض نفسه، صلى الله عليه

وسلم، على قبيلتي الأوس والخزرج، فكان لقاؤه بهم سراً على مشارف مكـــة لا فـــي المسجد الحرام ولا في مكة، إخفاء للأمر عن قريش لأنها لو علمت لوضعت العراقيل أمامه، فكان لقاؤه بهم في مكان يُقال له العقبة، وكانوا اثني عشر شخصـــاً، عـــرض عليهم ،صلى الله عليه وسلم، الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وبعـــث معهـــم أول سفير في الإسلام >مصعب بن عمير<•

ولم يتفرقا إلا على نية اللقاء في العام المقبل، وفي المكان نفسه•

لكن هذا اللقاء >العقبة الثانية< كان أرسخ قدماً، وأعمق معنى، وأكثر التحاماً، وأوسع مدى، وأعظم منجزات من لقاء >العقبة الأول<، فمن حيث العدد بلغ المسلمون الجدد القادمون إلى الحج ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، كلهم جاؤوا شوقاً للقاء النبي، صلى الله عليه وسلم، ولأداء الحج بروح جديدة ورؤية جديدة•

والتقى بهم الرسول في سرِّية تامة، وقَدِمَ معه عمُّهُ العباس ليطمئن على شـــأن ابـــن أخيه، ويسمع ويرى بنفسه ما يدور في هذا اللقاء، وإن لم يكن قد أسلم بعـــد، ولكنـــه خرج بدافع العصبية والقرابة، وكان مصعب بن عمير قد حضر إلى مكة مـــع وفـــد الأوس والخزرج ليتابع مجريات الأمور•

قبل وفد الأوس والخزرج الإسلام وهم حضور مع صاحب الرسالة، بعدما مالوا إليه قبل مجيئهم على الداعية الإسلامي مصعب بن عمير•

سمع الوفد لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسمع رسول الله لهم، واشترط لنفسه إن هو قدم عليهم في المدينة ما شاء من شروط، واشترطوا هم لأنفسهم ما اشترطوا من شروط، وألقيت الكلمات، وتبودل الرأي، حتى العباس عم النبي ﷺ شارك في وقائع اللقاء، وبعد أن التقت الرغبات تم الاتفاق على نقل مركز الدعوة من مكة المكرمة إلى المدينة، على أن تتم هجرة أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة قبل مقـــدم صـــاحب الرسالة، صلوات الله وسلامه عليه•

أول تنظيم إسلامي

وفي هذا اللقاء التاريخي الخالد، تم أول تنظيم سياسي اجتماعي بين الأنصار >الأوس والخزرج<، فقد قال لهم صاحب الرسالة، صلى الله عليه وسلم، بعد الفراغ من الاتفاقات التي أسفر عنها اللقاء: >أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم<، وسرعان ما قدَّموا له أسماء اثني عشر رجلاً، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وكان هذا التقديم بمثابة الترشيح لشغل هذه المناصب، فقاموا ليبايعوه ويشدوا على يده الشريفة، ثم تفرقوا ولم يشعر بهم أحد من قريش•

وكان هذا التنظيم النبوي نواة للدولة التي أنشئت بعد الهجرة بالمدينة•

الإذن لأصحابه بالهجرة

وبعد انقضاء الموسم، أذن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، على الوجه الذي يرونه، فأخذوا يتسللون من مكة، حاملين معهم ما خف من أمتعتهم، تاركين منازلهم ومتعلقاتهم وراءهم، لأن ما هاجروا إليه أغلى وأعز من الأموال والممتلكات، فقد أرخصها حب الله ورسوله، وهنا لفتة لابد من القيام بها، ذلك أن البقاء في مكة كان في مخاطرات كثيرة، من التعرض لأذى المشركين واضطهاداتهم•

ولكن الرسول القائد ﷺ آثر أن يسافر أصحابه قبله ليبقى هو آخر المهاجرين، دون أن يخشى ماذا يحدث له من خصوم الدعوة، وهذا على خلاف عادة الزعماء والرؤساء، الذين يحيطون أنفسهم بهالة من الأمن لاتقاء الشرور، لأنهم طلاب دنيا ونعيمها الزائل، أما محمد، صلى الله عليه وسلم، فما أهون الدنيا عليه، وما أعظم ما عند الله، لذلك لم يَرُعه أن يهاجر قبله كل ذي قدرة، وأن يبقى هو وحده يصول ويجول في طرقات مكة أمام أبي لهب عدوه اللدود، وأمام أبي جهل عدّوه الألد•

ليلة الهجرة النبوية

كان رسول الله ﷺ معروفاً عند الناس جميعاً بالصادق الأمين، حتى قبل أن يكون رسولاً، لذلك اتخذه أهل مكة موضع ثقة، فأخذوا يُودعون عنده ما يخافون عليه من أموال ومعادن ثمينة كالذهب والفضة، فلما أذن الله بالهجرة استدعى ابن عمه علي بن

أبي طالب لينام على فراشه الشريف، ووضع بين يديه ما عنده من ودائع أهل مكة ليردها لأصحابها، لأن الوديعة أمانة، والأمانة أمر الله بتأديتها لمالكيها، وكان من الممكن أن يحمل هذه الأمانات ليوزعها على المهاجرين الذين تركوا ممتلكاتهم وسبقوه إلى المدينة، ولكن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم ير هذا الرأي، لأن الذين استودعوه أمانتهم لا ذنب لهم فيما حدث من عتاة مكة وظالميها•

خروجه من مكة ليلاً

وبعد أن هاجر من هاجر من أصحابه، ولم يبق منهم بمكة أحد إلا غير القادرين، أمره الله بأن يهاجر هو ويلحق بأصحابه في عاصمة الإسلام الجديدة، وصحب معه صاحبه أبابكر، وخرجا من مكة ليلاً بعد أن ركن الناس إلى الراحة في بيوتهم، ونزلا بغار ثور قرب مكة حتى تهدأ قريش من سعيها للإمساك به، ومكثا بالغار ثلاثة أيام في تمويه محكم حتى لا تُهدى قريش إلى مكانهما، هذا السبب أخذا به وطبقاه، وكانت عناية أكبر من الأخذ بالأسباب، فقد أعمى أبصار قريش عن مقره مع سعيها الدائب في البحث عنه•

وبعد أن هدأت، انطلق هو وأبوبكر إلى المدينة، وتكبَّدا مشقة السفر في صحراء موحشة حتى وصلا إلى المدينة، فعسكر قريباً منها، وبنى مسجد قباء، ثم دخل المدينة التي استقبلته بكل من فيها من رجال ونساء وشباب وكهول•

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وجد الرسول، صلى الله عليه وسلم، فور قدومه إلى المدينة مشكلة عويصة تنتظر الحل منه، وهي وجود المهاجرين فيها بلا نشاط ولا عمل، وسرعان ما قضى على هذه المشكلة بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومشاركة كل أخ لأخيه فيما يملك، وظل كل أخوين يتوارثان، حتى استقر أمر المهاجرين فنزل قوله تعالى في الآية ٧٥ من سورة الأنفال: (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) فألغى التوارث بينهم•

وهذه الحلول كانت عبقرية من الرسول صلى الله عليه وسلم، وحسن تدبيره للأمور، مهما كانت معضلة•

وضع صحيفة الوفاق

ثم وضع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فور استقراره في المدينة صحيفة الوفاق الجامعة، التي وفَّق بين فيها أوضاع جميع الطوائف في المدينة، وهم:

ـ الأنصار أهل المدينة•

ـ المهاجرون الوافدون إليها من خارجها•

ـ اليهود الذين كان لهم وجود في المدينة منذ زمن متقدم•

وقد مهَّدت الصحيفة التي نُظِّمت فيها العلاقات بين الطوائف الثلاث سلماً وحرباً، إلى قيام دولة على بصيرة من أمرها، حتى اليهود سماهم النبي، صلى الله عليه وسلم، أمة مع المؤمنين، وسمح لهم بمزاولة شعائرهم الدينية مع البقاء على عقيدتهم دون أن يضاموا بسببها•

وبذلك آتت الهجرة ثمارها، والذي نستخلصه مما سبق ونضعه بين يدي الأمة في حاضرها ومستقبلها، ونرجو أن تسمعه بآذان صاغية وفهم واع، وقلوب صافية هو ما يلي:

أولاً: إن الأخذ بالأسباب الصحيحة المتاحة شرط أساس في الحصول على المطلوب مع مواصلة العمل الجاد المحكم وقوة العزم وإخلاص النية وصدقها•

ثانياً: ترك التواكل والاعتماد على القدر بأنه المتصرف في تحقيق ما هو كائن مع إلغاء الجهود المقدور عليها لاستكشاف ما هو مقدر وطرح مقولة: >المكتوب على الجبين تراه العيون<، لأن هذا يُولِّد الكسل والخمول عند الفرد والجماعة والأمة•

ثالثاً: وضع الخطط المدروسة، ثم تعديلها إذا أثبت التطبيق قصورها أو عجزها دون الوصول إلى الغايات المرادة منها وطرح اليأس•

رابعاً: بذل أقصى ما تقدر عليه الأمة مهما كانت الصعاب، كما قال عز وجل في الأية ٠٦ من سورة الأنفال: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)•

خامساً: إيثار ما عند الله تعالى على مغريات الحياة الدنيا•

سادساً: وحدة الصف والاعتصام بحبل الله•

سابعاً: أن تنصر الأمة الله ولو على نفسها، فإن نصر الله مقصور على الذين ينصرونه•

كل هذه المبادئ كانت وراء نصر الله لرسوله والذين آمنوا معه، فلتلتزم الأمة بها، فإن آخرها لن يصلح إلا بما صلح به أولها، والله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون•

بقلم الكاتب: د•عبدالعظيم المطعني ــ أستاذ في جامعة الأزهر

الهجرة المباركة دروس وعبر

إن الهجرة المباركة كانت درساً في الصبر والتوكل على الله تعالى ولم تكن طلبا للراحة ولاهرباً من العدو ولاتهرباً من الدعوة وأعبائها بل كانت بأمر من الله تعالى في وقت أشد ماتكون البشرية في ذلك الزمن إلى الهدي المحمدي فلقد أرسل الله خير خلقه محمد ﷺ إلى البشرية وهي أحوج ما تكون إلى رسالته، وأشدَّ ما تكون ضرورة إلى دينه، بعد أن صار الكثير من الناس في ظلمات الشرك والجهل والكفر، فأرسل الله عبده محمداً ﷺ إلى الناس جميعاً، قال الله تعالى: قُلْ ياأَيُّهَا النَّاسُ إِنّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ لا اله إِلاَّ هُوَ يُحْىِ وَيُمِيتُ فَأَمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىّ الأمّيّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [الأعراف:١٥٨].

فوجدهم يعبدون آلهة شتى، منهم من يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد الأحجار والشمس والقمر والملائكةوالجن، ويلجؤون إليهم في كشف الشدائد والكربات، ويرغبون إليهم في جلب النفع والخيرات، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ووجد الرسول ﷺ بعض الناس يتحاكمون إلى الكهان والسحرة والعرافين، ويغشون الفواحش والمحرمات، ويسيئون الجوار، ويقطعون الأرحام، ويكسبون الأموال لا يبالون بالحلال و بالحرام، الربا والبيع عندهم سواء، والغصب والميراث قرناء، فجاء رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، بكل ما تضمنته هذه الشهادة من معنى، بإفراد الله وحده بالعبادة وعدم الإشراك بالله شيء وبينَ لهم أن الله المعبود بحق لايوصف بصفات البشر فهو الخالق وما سواه مخلوق وهو الموصوف بالصفات التى تليق به فهو الأول قبل كل شيء والله الموجود قبل الكل بلا مكان ولازمان ولاجهة ولايحتاج إلى شيء بل الكل محتاج إليه قال تعالى: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً [الأنعام:١٥١]، وإفراد الرسول ﷺ بالاتباع، قال تعالى: وَمَا ءاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ [الحشر:٧].

جاء نبي الرحمة ﷺ يدعو الناس إلى العفاف والطهر والخلق الكريم والإستقامة وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المظالم والمحارم، ويدعوهم إلى التحاكم إلى الكتاب العزيز، لا إلى الكهان وأمر الجاهلية، وكسب المال من وجوه الحلال، وإنفاقه في الطرق المشروعة والمباحة، وجعل الناس كلهم أمام شريعة الله سواء، يتفاضلون بالتقوى، قال الله تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [الأعراف:٣٣]، وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآء ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .[النحل:٩٠].

دعا رسول الله ﷺ الناس إلى هذا المعنى العظيم، وقام بهذا الواجب الكبير، دعا إلى دين قويم يرقى به الإنسان إلى أعلى المنازل، ويسعد به في الآخرة سعادةً أبدية في النعيم المقيم، فاستجاب له القلة المؤمنة المستضعفة في مكة، فأذاقهم المشركون أنواع العذاب، كالحرق بالناروإنزال أشد ألوان العذاب، واشتد الكرب في مكة، وضيّق الخناق على المسلمين المستضعفين، وائتمر المشركون بمكة أن يقتلوا رسول الله ﷺ ، ورصده المشركون عند بابه ليضربوه ضربة رجل واحد، فخرج عليه الصلاة والسلام عليهم وهو يتلو صدر سورة " يس"،وذرَّ على رؤوسهم التراب، وأخذ الله بأبصارهم عنه فلم يروه، وأخذهم النعاس ولجأ هو وصاحبه أبو بكر الصديق في غار ثور ثلاثة أيام حتى هدأ الطلب، وفتشت قريش في كل وجه، وتتبعوا الأثر حتى وقفوا على الغار، فقال أبو بكر: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: "يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!" أي ان الله تعالى مطلع علينا لاتخفى عليه خافية ثم يمَّما نحو المدينة، فكانت هجرة المصطفى ﷺ نصراً للإسلام والمسلمين، حيث أبطل الله مكر المشركين وكيدهم في تقديرهم القضاء على الإسلام بمكة، وظنهم القدرة على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى: إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ

لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [التوبة:٤٠].

إن حادثة هجرة المصطفى ﷺ تمد المسلمين بالعبر والعظات والدروس والتوجيهات، وقد شاء الله تعالى أن تكون بأسباب مألوفة للبشر، يتزود فيها للسفر، ويركب الناقة، ويستأجر الدليل، ولو شاء الله لحمله على البراق، ولكن لتقتدي به أمته بالصبر والتحمل لمشقاة الدنيا والعمل الدؤب للأخرة التى هي العقبى، فينصر المسلم دينه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، وإن حال المسلمين في العالم حريَ بالاستفادة من معاني الهجرة النبوية المباركة، بفهم أمر الدين والفصل بين الدين الحق وأهله وبين المتاجرين المتطرفين المنفرين عن الدين بأساليب وفتاوى ليس لها في الدين من أصل بل تخالف الدين، في ذكرى الهجرة المباركة علينا أن نعلم أن الدين الإسلامي دين علم وعمل وثقافة ومعرفة ودعوةللحق مؤيدة بالبراهين العقلية والنقلية المنورة للقلوب فلن يصلح حال المسلمين في هذا العصر إلا بالأمور التي صلح بها السلف الصالح من العلم والمعرفة الصحيحة لدين الله والتحذير من المضللين أصحاب الفتاوى السيئة التى جلبت الويلات للمسلمين، وبالخلق الكريم، والصدق مع الله، والتوكل عليه، والصبر على المكاره، وإحسان العبادة، على وفق ما جاء به النبي ﷺ في السنة المطهرة، قال صلى الله عليه وسلم: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن" نسأل الله تعالى أن تكون هذه السنة الهجرية بركة وخيراً يعم البلاد والعباد وكل عام وأنتم بخير.

الهجرة المباركة

إنَّ في حياةِ رسول الله أحداثاً حوّلت مجرَى التاريخ وأحدَثت أعظمَ نقلة وأعقبت أقوَى الآثار، تبوَّأت منها الهجرة النبوية المباركَة مكاناً عليًّا ومقاماً كريماً، حيث كانت بحقٍّ فتحاً مبيناً ونصراً عزيزاً ورِفعة وتمكيناً وظهوراً لهذَا الـدّين، وهزيمـةً وصَـغاراً للكافرين.

وفي وقائِع هذه الهجرة مِن الدّروس والعبَر وفي أحداثِها من الفوائد والمعاني مـا لا يكاد يحِيط به الحصر ولا يستوعِبه البيان، فنها أنَّ العقيدةَ أغلـى مـن الأرض، وأنَّ التوحيدَ أسمى من الديار، وأنَّ الإيمان أثمنُ من الأوطان، وأنَّ الإسـلامَ خيـر مـن القناطير المقنطَرة من الذّهب والفضّة والخيلِ المسوّمة والأنعام والحرث ومـن كـلِّ متاعِ الحياة الدنيا، يتجلّى هذا المعنَى بيّنًا في خروجِ هذا النبيّ الكـريم صـلوات الله وسلامه عليه مع صاحبِه الصدّيق رضي الله عنه مهاجرَيْن من هذا الحِمى المبـارَك والحرمِ الآمِن والأرضِ الطيّبة التي صوّر واقعَها الحديثُ الذي أخرجَه أحمـد فـي مسندِه والترمذيّ وابن ماجه في سننهما بإسناد صحيح عن عبد الله بـن عـديّ بـن حمراء الزّهريّ أنّه قال: رأيتُ رسول الله واقفًا على الحَزْوَرَة[١]قـال: ((والله، إنَّـك لخيرُ أرضِ الله وأحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخرجتُ منكِ ما خرجت))

وفي الهجرة كمَال اليقينِ بمعيّة الله تعالى لعبادِه المؤمنين الصَّـادقين، ذلـك اليقـين الرَّاسخ الذي لا تزعزِعُه عواصِف الباطل، يستبينُ ذلك جليًّا في حالِ هذَين المهاجرَين الكريمَين حين عظُم الخَطب وأحدَق الخطرُ ببلوغ المشركين بابَ الغارِ الذِي كانَا فيه، وحينَ قال أبو بكر رضي الله عنه: والله يا رسول الله، لو أنَّ أحدَهم نظر إلى موضعِ قدمَيه لرآنا، فقال رسول الله قولتَه التي أخذَت بمجامعِ القلوب. ((يَا أبَا بَكر، مَا ظنُّـكَ باثنَين اللهُ ثالثُهما)) ، وأنزلَ سبحانه مصداقَ ذلك في كتابه، أنزل قولَه : إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ

تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [التوبة:٤٠].

وأيُّ معيّةٍ هذه المعيةَ؟ إنّها المعيّةَ الخاصّة التي تكون بالتّأييد والتّوفيق والحِفظ والمعونةِ والنّصر إنّما جعلها الله تعالى لأوليائِه المتّقين المحسِنين الذين بذلوا حقَّ الله عليهم في توحِيده وإفرادِه بالعبادةِ وتركِ الإشراكِ به، ثمَّ بامتثال أوامرِه والانتهاء عمَّا نهاهم عنه.والمعية تاءتى بمعنى العلم كقوله تعالى((وهو معكم أينما كنتم)) أي عالم بكم حيث كتتم الله تعالى لا يخفى عليه شيء عالم بالأماكن كلها وهو موجود بلا مكان ، حتى إذا سكن الطلب عنهما قليلا خرجا من الغار بعد ثلاث ليال متجهين إلى المدينة على طريق الساحل فلحقهما سراقة بن مالك المدلجي على فرس له فالتفت أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا فقال النبي : ((لا تحزن إن الله معنا)) فدنا سراقة منهما حتى إذا سمع قراءة رسول الله غاصت يدا فرسه في الأرض حتى مس بطنها الأرض وكانت أرضا صلبة فنزل سراقة وزجرها فنهضت فلما أخرجت يديها صار لأثرهما عثان ساطع في السماء مثل الدخان قال سراقة: فوقع في نفسي أن سيظهر أمر رسول الله فناديتهم بالأمان فوقف رسول الله ومن معه فركبت فرسي حتى جئتهم وأخبرتهم بما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع وقال للنبي : إنك تمر على إبلي وغنمي بمكان كذا فخذ منها حاجتك. فقال: ((لا حاجة لي في ذلك)) وقال: ((أخف عنا)). فرجع سراقة وجعل لا يلقى أحدا من الطلب إلا رده وقال: كفيتم هذه الجهة فسبحان الله رجل ينطلق على فرسه طالبا للنبي وصاحبه ليظفر بهما فيفخر بتسليمهما إلى أعدائهما من الكفار فلم ينقلب حتى عاد ناصرا معينا مدافعا يعرض عليهما الزاد والمتاع وما يريدان من إبله وغنمه ويرد عن جهتهما كل من أقبل نحوها وهكذا كل من كان الله معه فلن يضره أحد وتكون العاقبة له. ويعود سراقة ويكمل الرسول مسيرته إلى طيبة ويصل هناك ليستقبله المسلمون بحفاوة وترحيب وفرح وحب، وليؤسس ﷺ دولة الإسلام ويعز الله دينه ويعلي كلمته ولو كره الكافرون ولو كره المشركون.

إنَّ هذه الهجرةِ المباركة وعبرِها هيَ جديرة بأن تبعثَ فينا اليومَ ما قد بعثَته بـــالأمسِ مِن روحِ العزَّة، وما هيَّأته من أسبابِ الرِّفعة وبواعثِ السموِّ وعواملِ التَّمكين. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ

الهجرة النبوية وقفات وتأملات :

في بداية العام الهجري الجديد يحسن بنا أن نقف وقفات سريعة مع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تلك السيرة العطرة التي لا يمل الإنسان من قراءتها والاطلاع عليها ، ولعل من المناسب الوقوف قليلاً مع هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، لعلنا نأخذ بعض العبر والدروس من هذه الهجرة المباركة التي لا يعي كثير من الناس ما فيها من عبر وعظات.

إن الهجرة النبوية في حد ذاتها بغض النظر عن أحداثها تستحق الوقفة المتأنية، فهي ليست نزهة برية ولا و سياحة للتفرج والاطلاع، وليست سفراً لتحصيل متع الدنيا وملذاتها، وإنما هي انتقال من أجل الحفاظ على العقيدة وتضحية بالنفس والمال والأهل والولد من أجل العقيدة، فهي تبدأ من أجل العقيدة وغايتها العقيدة.

الهجرة النبوية ليست أحداثا تروى، بل هي منهج متكامل لمن أحسن الاستفادة منها وأخذ العبر والعظات على أحسن وجه وأجمله، فهي منهج النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مؤيد فيه من قبل المولى جل وعلا، وهي ليست حدثا عادياً، بل أمر جليل يستحق الاهتمام، ولا نستطيع هنا الوقوف على كل ما في الهجرة النبوية من عبر وعظات، وإنما نقف عند البعض ونترك البعض الآخر ليستخرجه القارئ.

دعوة مستمرة وصبر عظيم :

النبي ﷺ كما نعلم ظل في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله جل وعلا ليل نهار متعرضا في ذلك إلى الأذى الشديد والاضطهاد المستمر من كفار قريش الذين لا يريدون للخير أن ينتشر، ولكنه لم ييئس مع كل هذا العنت وقلة من آمن معه خلال هذه المدة، وحاول أن يتجه إلى بيئة أخرى لعله يستطيع من خلالها نشر دين ا لله جل وعلا، فاتجه إلى الطائف، ولكنه فوجئ بالسفهاء يردونه ردا منكرا، ولم يكتفوا بذلك، بل رجموه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه، ويأتيه جبريل عليه السلام ليقول له إن معه ملك الجبال، وإن الله أمره أن يمتثل لأمره، فإذا أراد أن يطبق عليهم الجبلين

ليهلكهم فعل. فقال عليه الصلاة والسلام لا بل أرفق بهم لعله الله يخرج من أصلابهم من يعبده" أو نحو ذلك. وهذه هي الوقفة الأولى وهي: ماذا قدمنا نحن من أجل هذا الدين، وكم تحملنا من الأذى في سبيل نشره بين الناس، وهل صبرنا كما صبر عليه الصلاة والسلام، أم أننا استسلمنا من أول الأمر، وبمجرد أن نواجه أذى أو معارضة قمنا بالتوقف عن الدعوة إليه سبحانه، فهل هذه هي القدوة بالنبي المصطفى الأمين!

الشباب وتحمل المسؤولية:

لما أذن الله للنبي ﷺ بالهجرة أمر عليا رضي الله عنه أن ينام في فراشه ليوهم المشركين بأنه هو، وامتثل علي أمر رسول الله ﷺ فنام في الفراش حتى أصبح، وواجه على صغر سنه كفار قريش بأسلحتهم وعتوهم وجبروتهم، واستطاع الرد عليهم حين سألوه دون خوف أو وجل. والسؤال الآن: كم ربينا من أبنائنا وشباب هذه الأمة على هذه التضحية الجسيمة، بل على مجرد تحمل المسؤولية! كم من الشباب الآن يستطيع أن يسير في خضم هذه الحياة معتمدا على ربه واثقا في نفسه، أم لا بد من الاتكالية تارة على الأهل وتارة على الآخرين، حتى أصبح ما كان يفعله الصبيان في القديم لا يستطيع كثير من الشباب أن يفعله الآن.

التوكل على الله من أعظم أسباب النصر، في غار ثور تظهر قوة الإيمان بجلاء والثقة في الله بكل معانيها، وذلك عندما يقول أبو بكر للنبي ﷺ لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآنا، فيقول له عليه الصلاة والسلام يا أبا بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، وعندما يلحق بهما سراقة بن مالك وأبو بكر يكثر الالتفات بينما عليه الصلاة والسلام لا يلتفت، ثم يدعو عليه فتسيخ قوائم فرسه في الأرض، إنه التفويض الكامل وتسليم الأمر لله رب العالمين ، هذا مع عدم إهمال الأسباب فيما يستطيعه الإنسان، فالنبي ﷺ خطط فأحسن التخطيط، وبذل جهده في إخفاء نفسه ومن معه عن كفار قريش ومطارداتهم، وأعد العدة لهذا السفر الطويل، من راحلة وزاد، ثم ترك بعد ذلك أمره إلى الله وأوكل نفسه إليه، ولذا كان النصر من الله حليفه، وهذا يذكرنا بقيمة قوله

صلى الله عليه وسلم: "لو أنكم تتوكلون على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا"

المسجد والدور الحقيقي :

ويواصل النبي ﷺ سيره حتى يصل إلى المدينة، فيبدأ ببناء المسجد وعمارته لعلمه أن المسجد لم يوجد في الإسلام لأداء الصلاة فقط، وإنما هو مدرسة المجتمع الحقيقة وهو نقطة الانطلاق لتبليغ دين الله، وهو مركز الدولة الإسلامية السائرة على نهج الله، فأين أغنياء المسلمين عن هذه الحقيقة، وأين العلماء والمسؤولون عن هذا الأمر المهم في حياة المجتمعات، لماذا أصبحت المساجد مهملة، وإذا اعتني بها فمن أجل الصلوات فقط، ولا دور لها بعد ذلك في حياة المسلمين.

تلك وقفات سريعة ينبغي التريث عندها والنظر فيها بعين البصيرة ، ومحاولة تطبيقها على واقعنا لنحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه من حالنا وحال أمتنا.

الهجرة النبوية .. دروس وعبر.. ومعجزات حسية

بغداد ــ طالب حنويت :

لم تكن الهجرة النبوية في الحس الاسلامي مجرد نجاة من عدو، او هروب من محنة، لقد كانت الهجرة فاتحة تاريخ جديد وكانت بالنسبة للمسلمين في الارض، ابتداء وجودهم وتاريخهم فصار التاريخ الهجري، المبتدأ في هجرة الرسول صلى الله عليه واله وسلم هو سمة هذه الامة على مدار القرون وبه ومن خلاله تعرف.

وكانت الهجرة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة اعظم حدث حول مجرى التاريخ، وغير مسير الحياة ومناهجها التي كانت تحياها، وتعيش محكومة بها في صور قوانين ونظم واعراف وعادات واخلاق وسلوك للافراد والجماعات وعقائد وتعبدات وعلم، ومعرفة، وجهالة وسفه ، وضلال وهدى ، وعدل وظلم .

وفي هجرة النبي صلى الله عليه واله وسلم وقعت معجزات حسية ، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسوله ومن ذلك نسيج العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله مع ام معبد وما جرى له مع سراقة ووعده اياه بان يلبس سواري كسرى، فعلى الدعاة ان لا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتة بالسنة النبوية، على ان ينبهوا الناس على ان هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوته ورسالته صلى الله عليه واله وسلم .

وما اروع ان تقف لحظات تنظر في دروس الهجرة النبوية الشريفة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة وننظر بعمق في فصول الهجرة ودروسها، ونتعلم منها جوانب مضيئة من حياة رسول الله والذي لم يخرج من مكة مهاجرا الى المدينة الا بعد ان اذن له الله عز وجل بذلك، وبعد ان صبر وتحمل واحتسب وعانى ماعاناه من البلايا والرزايا والاذى من اهله وذويه، ثم ممن حوله من الذين كرهوا ان تظهر كلمة الله عز وجل وان تكون كلمته سبحانه وتعالى هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

ومن ينظر في قضية الهجرة النبوية الشريفة يلاحظ ان الرسول ﷺ كان متعلقا بمكة المكرمة .هذه المدينة الطيبة الطاهرة، وقد احبها وولد فيها، وعاش ونشأ وترعرع فيها ونزل عليه الوحي من الله في غار حراء بهذه المدينة ، والتي قال فيها رسول الله وهو يخرج منها مهاجرا قولته المشهورة" اللهم اخرجتني من احب البقاع الي فأسكني في احب البقاع اليك ".ولا شك ان الحبيب صلى الله عليه واله وسلم قد اكرمه الله بالهجرة من حرم الى حرم وكلا المدينتين ذات فضل وبركة وهما احب المدن الى الله تعالى، ثم الى رسوله، ففي الاولى كانت نشأته ، والثانية كانت اليها الهجرة وفيها مضجعه الاخير. وقد اختار الله الاولى مكانا لبيته والثانية لمسجد رسوله فحددهما وعينهما وامر الناس بالحج الى الاولى وبالهجرة الى الثانية فكانت في حياته صلى الله عليه واله وسلم قبل الفتح واجبة وصارت بعده مندوبة ، دعا للاولى ابراهيم عليه السلام، وللثانية اكرم ولده صلى الله عليه واله وسلم وجعل القلوب تهوي اليهما .ومكة المكرمة والمدينة المنورة مدينتان ضوعف اجر الصلاة فيهما، وشد الرحيل اليهما، وفي ماء الاولى وتراب الثانية وتمرها الشفاء وبعض اجزائها من الجنة، ويئس الشيطان ان يعبد فيهما ، وجعل رزقهما من ثمرات الارض، وحرم دخول الكفار اليهما، ومنع الدجال منهما، وجعلهما الله تعالى حرما آمنا، فحرم الصيد وتنفيره فيهما وحرم قطع الشجر والكلأ والتقاط لقطتهما وحمل السلاح للقتال وسفك الدماء فيهما، لا يختلى خلالهما ، ولا ينفر صيدهما ، ولا تلتقط لقطتهما .

للملحد فيهما اشد العقوبة ولمن اذى اهلهما النكال، وهما اخر البلاد حرم على غير المسلمين غزوهما ومنعهما من الجبابرة .

ومن القضايا المهمة التي لابد ان نتدبرها في قضية الهجرة ان الرجال الذين هاجروا معه والنساء الذين تبعوهم على الرغم من انهم كانوا قلة وضعفاء الا انهم كانوا اقوياء بايمانهم وصبرهم واحتسابهم . وقد اعانهم الله واكرمهم وكرمهم ورفع شأنهم .ومع قدوم العام الهجري الجديد يعيش العالم الاسلامي في مناخ روحي متميز مع الذكرى التي تمثلها الهجرة النبوية الشريفة وما تضمنته من دروس وعبر متجددة تمثل املا

في الخروج من هذا الواقع الاليم الى اوضاع اخرى افضل تمتد اثارها لتشمل كل نواحي حياة المسلمين، وهذه المناسبة هي بمثابة موسم يتكرر كل عام وهي مناسبة للتأمل والتدبر والوقوف مع النفس حيث تمر على الخاطر هذه التأملات في النفس الانسانية، وهي في حالة الصحة النفسية او الاضطراب النفسي.. فالاسلام دين حياة يضمن التوازن بين الدنيا والاخرة ويهتم المنظور الاسلامي بالجوانب الروحية والمادية في حياة الانسان . ويضمن تحقيق التوازن بينهما .وتركز تعاليم الدين الاسلامي على التنشئة السوية للانسان وغرس القيم والاخلاق القويمة التي تحقق السلوك السوي والاتزان النفسي، فالمسلم يجب ان يؤمن بالله وبالقدر خيره وشره ويجب ان يعبد الله ويذكره في كل المواقف .ان رسول الله يعلمنا الدروس في هجرته ولذلك فقد حرص عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح ان يؤكد على قضية هامة" عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي " لانه القدرة ولانه الاسوة ولان هؤلاء الرجال اخذوا عنه، وهذا رب العالمين يأمرنا بطاعته" من يطع الرسول فقد اطاع الله " ويقول عز وجل" اطيعوا الله واطيعوا الرسول " ثم يجعله القدوة والاسوة" لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر ".ومن الواجب هنا ان نحرص كل الحرص على ان نستفيد من هذه المناسبة ونعود الى الله ونتوب توبة نصوحة ، فهذا رسول الله في غمار المعارك يثوب الى الله ويستغفر الله ويلجأ الى الله بالدعاء ويعلمنا ان نعود الى الله عز وجل وان العودة الى الله والتوكل عليه والايمان الكامل والصادق بان الامور كلها بيد الله، وان نتعلم ونحن نتابع هذه الدروس والاحداث ان الحب لرسول الله يبدأ من الاتباع والالتزام بكل ما جاء به الرسول وهذا التوجيه الرباني الواضح في ان حب الله عز وجل يبدأ ويتحقق باتباع الرسول الكريم والنبي العظيم صلى الله عليه واله وسلم .

الهجرة النبوية

كتب فتح الله كولن

الهجرة رحلة لغاية مقدسة ولهدف جليل وكبير... ومثل هذه الهجرة ترمي إلى تحقيق مثل هذا الهدف بمدٍّ وتقوية من العقيدة والعاطفة والفكر وتغذية وعون منه. وبمقدار درجة الإخلاص في هذه الهجرة وعمقها، تكون مساوية ومعادلة لسياحة الإنسان في السماء. وقد شُرِّف فخر الإنسانية بهاتين السياحتين، السماوية منها والأرضية. السياحة الأولى كانت خاصة به وغير متاحة لأحد غيره. أما الثانية فهي طريق واسعة باقية ومفتوحة للجميع حتى يوم القيامة في شروط خاصة ومعلومة... طريق واسعة ومضيئة مشى عليها مئات الآلاف من الناس قبل بعثة شمس سماء النبوة وقمرها. ولا شك أن أكثر هذه الهجرات المباركة فضلا، وأكثرها دويا في سمع الزمن، هي الهجرة التي قام بها فخر الإنسانية الصادق المصدوق صلى الله عليه و سلم مع أصحابه الصديقين. لقد تحمل الرسول الكريم كل صعاب الهجرة –التي جاء الأمر بها من فوق سبع سماوات– من أجل العثور على معاونين مخلصين لأصحابه الكرام الأوفياء، وعلى موطئ قدم أمين وراسخ ليؤسس هناك دولته، ويقيم الجسور للناس ليوصلهم إلى رحاب دين عالمي، له أبعاد عديدة ومتداخلة وعميقة، ويملك قابلية إنشاء تاريخ جديد ومدنية جديدة.

الخطة والمشروع واسع سعة السماء، والمسافة بين المبدأ والنتيجة والهدف مسافة هائلة. ففي هذه الطريق الطويلة احتشدت الشياطين والعفاريت على طولها من أولها لآخرها، وفارت في كل جانب منها مشاعر السوء والشر، وأوقدت في كل منحنى منها نيران للفتن. أجل!.. فعلى الرغم من جميع هذه الظروف السلبية كان هناك منبع قوة كانت كافية لملء القلوب بالأمل والانشراح والاطمئنان، ففي كل قلب، وعلى كل لسان كانت هناك جملة واحدة تتكرر (حسبنا الله ونعم الوكيل). فكل منهم قد توكل على الله واستند إليه وإلى توفيقه، وبدأ رحلته في هذا الدرب الطويل... بدأ رحلته في هذا الدرب دون أن ينظر إلى ورائه، ودون أن يهمل من يمشي وراءه.

في تلك الأيام كانت جميع الطرق تجرب مع كفار مكة وطغاتها، ويستعان بجميع الحلول الممكنة. ولكن رجال الدعوة هؤلاء الناذرين أنفسهم لوظيفة الدعوة إلى الله لم يجدوا أي تجاوب، ولم يكن هناك أي وجه للمقارنة بين ما صرف من عمل ومن جهد وبين ما تم التوصل إليه من نتائج. وهذه الحقيقة هي التي دفعت بصاحب الرسالة صلى الله عليه و سلم المرتبط بكل كيانه بالدعوة إلى الله، إلى البحث عن أناس وعن أقوام آخرين خارج مكة لإيصال كلمة الله إليهم. وكانت رحلة الطائف أول تجربة في هذا المجال. وعلى الرغم من آلام هذه الرحلة ومضايقاتها فقد رجع إلى مكة مهموما، ولكن دون فقد آماله، ومع سلوة اهتداء شخص واحد. ثم أعقبتها بيعة العقبة السرية في جبل "منى" الشامخ، التي تم فيها البحث عن جيل النور، وعن الصدور المفتوحة للهداية. كان من الصعب حدس من سيكون أصحاب هذه القلوب المؤمنة، ولكن تبين فيما بعد أنهم ستة من المحظوظين من أهل "يثرب". لقد أصبح هؤلاء الستة المحظوظون الوسيلة الأولى وواسطتها في يد النبوة لتغيير وجهة الإنسانية وقدرها السيء. وكل ما كان معروفا آنذاك حول المخلّص الأبدي للإنسانية هو ما كانوا يسمعونه أحياناً من اليهود:

"إن الله سيبعث نبيا من بني إسرائيل هو خاتم الأنبياء، وأن اليهود سيجتمعون تحت رايته وسيسودون جميع الأمم". صحيح أن هذه الأمنية لم تنفعهم كثيرا، ولكنها كانت كافية لإشعال فتيل حب الحقيقة في صدور أهل يثرب وتوجيههم الوجهة الصحيحة. كانت هذه المعلومات البسيطة في ذلك الزمن بمثابة لبّ حقيقة كبيرة وجوهرها. وعندما آن الأوان المناسب فاز أهل يثرب بلقب "الأنصار"، هذا اللقب الجليل الذي سيبقى إلى يوم القيامة مفخرة لهم، وتاجا على رؤوسهم، وفازوا بنعمة الدنيا والآخرة. أعقب هؤلاء المحظوظين الستة فيما بعد عشرة آخرون. وبعد سنة واحدة آمن سبعون منهم –بينهم عدد من النساء– وأقروا برسالته ثم دعوه إلى يثرب بعد اجتماعهم به صلى الله عليه و سلم في مكان آمن. كانوا جادّين في دعوته إلى مدينتهم، لقد قبلوا كل ما جاء به، وعاهدوه على أن يمنعوه مما يمنعون به أنفسهم ونساءهم وأولادهم.

لقد قبلوه وضموه إلى صدورهم، وعاهدوه أن يصونوه بأرواحهم ومُهجهم. ومقابل هذا كان الله تعالى يعدهم بالجنة. تمت البيعة التي رضي عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم ورضي عنها الأنصار، وفتحت "يثرب" أبوابها للمهاجرين على مصاريعها.

بدأت مكة تفرغ تدريجيا، فهناك كل يوم ثلاثة أو أربعة من أهلها يتركها ويهاجر إلى "يثرب" إما خفية أو علنا. وبدأت عملية الهجرة وما حفتها من تضحيات، وما قام بـــه الأنصار من إيثار، ترسم لوحات مضيئة. وتحولت ظاهرة الهجرة إلى شيء ســـماوي يشبه عملية المعراج، فكأنها سياحة الملائكة في عوالم خلف المكان والزمان. وكانـــت القافلة الأخيرة لهذه الرحلة السماوية على الأرض من نصيب صاحب القافلة الأخيرة في موكب النبوة. وعلى قاعدة "الأجر على قدر المشقة" وكذلك على قاعدة "أشدّ الناس بلاء الأنبياء..." فقد حَفّت أكثر أنواع المكاره والأخطار بهجرته صـــلى الله عليـــه و سلم، ولكنه تجاوز جميع أودية الموت المرعبة، ووصل إلى البلدة المنـــورة بفضـــل تفويض أمره إلى الله، وتوكله عليه، واستسلامه له. وصل إلى المدينة دون أن يصيبه مكروه من قبل سُراقةَ، وما كان يعتمل في صدره من أفكار سوداء، ولا أي خطر من المخاطر التي كانت موجودة داخل وخارج غار ثور، ولا مـــن أذى قطـــاع الطـــرق واللصوص الموجودين في الطريق. أصبح سراقة صديقا ومرشحا لأن يكون صحابيا، وتعرف بُرَيْدةُ مع أصدقائه بالإسلام. أما فخر الكائنات ووردة الجزيرة العربيـــة فقـــد كان يواصل طريقه إلى بلدته الجديدة وهو يحوِّل طريقه المحفوف بالمخـــاطر إلـــى بساتين وحدائق.

وبينما كان بعض أهل مكة ممن يقطر الدم من أفكارهم ومن مشـــاعرهم يكـــادون أن يجنوا من الحقد والكره إلى درجة السعار، كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدخل "يثرب" في ظل الفرح العامر لأهلها وهم ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنية الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وفي الموضع الذي توجد فيه القبة الخضراء حاليا أقام الرسول صلى الله عليه و سلم مسكنه المبارك، كما بنى مسجده بجوار بيته، فكان بيته ومسجده المباركان متـــداخلان

ويتنفسان الجو العطر المبارك نفسه. ثم بدأ ينفث فيما حواليه الحياة بالوحي وبالرسالة الإلهية وبإلهام روحه... فَدَيْنا نبع الحياة هذا، ومن بلغه ونفثه ونشره بأرواحنا وأنفسنا.

كان آدم عليه السلام قد بدأ رحلة هجرته الطويلة من الجنة إلى الأرض، لكي يصل إلى الأفق الواسع للحياة الأخروية التي يشير إليها معنى وروح الهجرة. أما نوح عليه السلام فقد تحمل أعباء السياحة في البحار إضافة إلى سياحته في البر. وتجول إبراهيم عليه السلام في أقطار بابل والحجاز وأرض كنعان دون أن يفتر. وانتقل موسى عليه السلام من بيت والدته إلى قصر فرعون، ثم من مصر إلى الأيكة ذهابا وإيابا مرات عديدة. ومر السيد المسيح عليه السلام من جميع الجسور التي مر عليها الأنبياء السابقون. أما حواريو عصر النبوة فقد نظموا كوادر الإرشاد وقوافلها إلى جميع أرجاء العالم.

وإذا أتينا إلى حواريي عصرنا الحالي فقد انتشروا في الجهات الأربع للأرض وهم يستخدمون الوسائل العصرية ويبلغون فكرهم وهم يرددون الآية الكريمة: ؟وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا؟ (النساء: ٤). وبفضل هجرتهم هذه سيصل صوت القرآن إلى العديد من الناس، وسينفتح أمام بعضهم سبل الإيمان، وأمام البعض الآخر سبل تأسيس الصداقة والتفاهم والحوار.

أجل!.. سيقوم هؤلاء الحواريون بنفث الصدى المنعكس من غار حراء على قلوبهم على من حولهم في كل مكان يحلّون فيه، ويرشدون القلوب المتخدرة باليأس إلى طرق تحريك هذه القلوب وإحيائها من جديد، وإيصال الهبات والنعم الإلهية إلى الجميع عن طريق العقل والمنطق. ورفع الموانع والعوائق الموجودة بين القرآن والقلوب منهين بذلك فراقا دام عدة عصور، ومحققين بذلك اللقاء الكبير. وهم على وعي بأن نشاطهم هذا إنما هو سباق في مجال الإيمان والعشق والشوق، وأنهم بقيامهم

بتعليم الصغار الذين استولى اليأس والخوف والضعف على قلوبهم ينقذونهم من الجو الضيق والخانق لهذه الحياة الفانية، ويدلونهم على طرق الوجود الحقيقي والحر،

الهجرة النبوية إلى المدينة

بينما ينظر البعض إلى الهجرة كذكريات عطرة تتجدّد كل عام ، يرى الحكماء وأصحاب العقول الراجحة في هذا الحدث نصراً يُضاف إلى رصيد الجماعة المؤمنة ، وهروباً من حياة الظلم والاستعباد ، إلى الحياة الحرّة الكريمة ، وبداية مرحلةٍ جديدة من الصراع بين الإسلام والكفر ، والحق والباطل ، حتى صار تاريخاً للمسلمين يؤرّخون به أحداثهم .

وللوقوف على أهمّية الحدث ، واستشعار أبعاده ، يجدر بنا أن نعود إلى الوراء بضعة عشر قرناً من الزمان ، وتحديداً في العام الثالث عشر من البعثة ، حين نجحت جموع المؤمنين في الخروج من مكة ، واستطاعت أن تتغلّب على المصاعب والعقبات التي زرعتها قريشٌ للحيلولة دون وصولهم إلى أرض يثرب ، ليجدوا إخوانهم الأنصار قد استقبلوهم ببشاشة وجهٍ ورحابة صدر ، وفتحوا لهم قلوبهم قبل بيوتهم ، مما كان له أعظم الأثر في نفوسهم ، ولم يبق في مكّة سوى نفرٍ قليل من المؤمنين ما بين مستضعفٍ ومفتونٍ ومأسورٍ .

وهنا أحسّت قريشٌ بالمخاطر التي تنتظرهم ، وأدركت أنها لن تستطيع تدارك الموقف وإعادة الأمور إلى نصابها إلا بالوقوف بأيّ وسيلة دون إتمام هجرة النبي – ﷺ –.

ونتيجةً لذلك ، كانت المؤامرات تدور في الخفاء للقضاء على النبي – ﷺ – ، ففي يوم الخميس من شهر صفر اجتمع المشركون في دار الندوة وتشاوروا في الطريقة المُثلى لتحقيق مقصودهم ، فمن قائلٍ بضرورةِ قتله عليه الصلاة والسلام والتخلّص منه ، وآخر بحبسه وإحكام وثاقه ، وثالثٍ بنفيه وطرده ، حتى اتفقت الآراء على قتله ، ولكن بطريقة تَعْجَز بنو هاشم معها عن أخذ الثأر ، وذلك بأن تختار قريش صفوة فتيانها من جميع القبائل فيقوموا على النبي – ﷺ – قومة رجلٍ واحد ويقتلوه ، ليتفرّق دمه بين القبائل ، وفي هذه الحالة لن تستطيع بنو هاشم أن تقاتل سائر الناس ،

ولن يبقى أمامها سوى خيارٍ واحد هو قبول الدية ، وصدق الله عزوجل إذ يقــول : { وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكــر الله والله خير الماكرين } (الأنفال : ٣٠) .

ولم تكن قريش لتعلم أن الله سبحانه وتعالى أذن لنبيه بالهجرة إلى المدينة ، فبينما هم يبرمون خطّتهم ويحيكون مؤامرتهم كان النبي – ﷺ – قد استعدّ للسفر ، وانطلق إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه في وقت الظهيرة متخفّياً على غير عادته ، ليخبره بأمر الخروج .

وخشي أبو بكر رضي الله عنه أن يُحرم شرف هذه الرحلة المباركة ، فاستأذن النبي – ﷺ – في صحبته فأذن له ، فبكى رضي الله عنه من شدّة الفرح، وكان قد جهّــز راحلتين استعداداً للهجرة ، فلما أعلمه النبي – ﷺ –بقرب الرحيل قــام مــن فــوره واستأجر رجلاً مشركاً من بني الديل يُقال له عبد الله بن أُريقط ، ودفع إليه الراحلتين ليرعاهما ، واتفقا على اللقاء في غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ ، في حين قامــت عائشــة وأختها أسماء رضي الله عنهما بتجهيز المتاع والمؤن ، ووضعا السفرة في وعــاء ، وشقّت أسماء نطاقها نصفين لتربط السُفرة بنصفه وقربة المــاء بالنصــف الآخــر ، فسمّيت من يومها بذات النطاقين .

وتسارعت الأحداث ، وحانت اللحظة المرتقبة ، وانطلق النبي – ﷺ –متخفّيــاً إلــى بيت أبي بكر رضي الله عنه ، وكان الميعاد بينهما ليلاً ، فخرجا من فتحةٍ خلفيةٍ فــي البيت ، وفي الوقت ذاته أمر النبي – ﷺ – علي بن أبي طالب رضي الله عنه بــأن يتخلّف عن السفر ليؤدي عنه ودائع الناس وأماناتهم ، وأن يلبس بردته ويبيــت فــي فراشه تلك الليلة ؛ من أجل إيهام قريشٍ .

ونجح النبي – ﷺ – وصاحبه في الفرار من بين أيديهم ، ولم يكشــتفوا الأمــر إلا عندما أصبح الصباح وخرج عليهم عليٌ رضي الله عنه وهو لابسٌ بردة النبي – ﷺ –، فجُنّ جنونهم ، وأحاطوا به يسألونه عن النبي – ﷺ – وهو يتظــاهر بالدهشــة وعدم معرفته بمكانه ، وانطلقت قريشٌ مسرعةً إلى بيت أبي بكر الصدّيق رضي الله

عنه ، لأنّهم يعلمون أنه صاحبه ورفيق دربه ، ولابد أن يصلوا من خلاله إلى معلومة تقودهم إلى وجهته ، إلا أنهم فوجئوا برحيله هو الآخر ، فساءلوا أسماء عن والدها ، فأبدت جهلها ، فغضب أبو جهل لعنه الله ولطمها لطمة أسقطت الحليّ من أذنها .

وبدأت محاولات المطاردة للنبي – ﷺ –، فقاموا بمراقبة جميع منافذ مكّة مراقبة دقيقة ، وأعلنوا بين أفراد القبائل جائزة ثمينة لمن يأتي به حيّاً أو ميّتاً ، وأرسلوا كلّ من له خبرة بتتبّع الآثار ، وانطلقت جموعهم شمالاً علّهم يقفوا له على أثر .

وخالف النبي – ﷺ – بذكائه وحنكته كل توقعاتهم ، فلم يتجه صوب المدينة مباشرة ، بل ذهب إلى جهة الجنوب حتى بلغ جبلاً وعراً يُقال له " جبل ثور " ، يوجد في أعلاه غار يصعب الوصول إليه ، ويمكنهم المكوث فيه إلى أن يهدأ الطلب .

وقادت الجهود قريشاً إلى غار ثورٍ ، وصعدوا إلى باب الغار ، وبات الخطر وشيكاً ، وبلغت أصواتهم سمع أبي بكر فقال رضي الله عنه : " يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا " ، فأجابه الرسول – ﷺ – إجابة الواثق المطمئنّ بموعود الله : (يا أبا بكر ، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما ؟) ، وصدق ظنّه بربه ، فإن قريشاً استبعدت وجود النبي – ﷺ – في هذا المكان ، و انصرفت تجرّ أذيال الخيبة .

وأقام النبي – ﷺ –في الغار ثلاث ليالٍ ، وكان عبدالله بن أبي بكر رضي الله عنهما يأتي كل يوم ليبلغهما أخبار قريش ، و عامر بن فهيرة يأتي بالأغنام ليشربا من لبنها ، ويخفي آثار عبدالله بن أبي بكر ، حتى جاء عبدالله بن أريقط في الموعد المنتظر ، ومعه رواحل السفر .

وفي ليلة الإثنين من شهر ربيع الأوّل انطلق الركب إلى المدينة متّخذاً طريق الساحل ، وظلوا يسيرون طيلة يومهم ، و أبو بكر رضي الله عنه يمشي مرّة أمام النبي – ﷺ – ، ومرّة خلفه ، ومرّة عن يمينه ، ومرّة عن يساره ، خوفاً عليه من قريش ، حتى توسّطت الشمس كبد السماء ، فنزلوا عند صخرةٍ عظيمةٍ واستظلّوا بظلّها ، وبسط أبو بكر رضي الله عنه المكان للنبي – ﷺ – وسوّاه بيده لينام ، وبينما هم كذلك إذ أقبل غلام يسوق غنمه قاصداً تلك الصخرة ، فلما اقترب قال له أبوبكر

رضي الله عنه : لمن أنت يا غلام ؟ ، فقال : لرجل من أهل مكة ، فقال لـــه : أفـــي غنمك لبن ؟ ، فقال : نعم ، فحلب للنبي – ﷺ –في إناء ، فشرب منه حتى ارتوى .

وفي هذه الأثناء استطاع أحد المشركين أن يلمح النبي – ﷺ – من بعيـــد ، فـــانطلق مسرعاً إلى سراقة بن مالك وقال له : يا سراقة ، إني قد رأيت أناساً بالساحل ، وإني لأظنّهم محمداً وأصحابه ، فعرف سراقة أنهم هُم ، ولكنّه أراد أن يُقنع الرجـــل بأنّـــه واهم حتى يفوز بالجائزة وحده ، ولبث سراقة في المجلس ساعة حتى لا يثير انتبـــاه من معه ، ثم تسلّل من بينهم وأخذ فرسه ورمحه وانطلق مسرعاً ، فلمـــا دنـــا مـــنهم عثرت به فرسه حتى سقط ، فتشاءم من سقوطه ، وعاد مرة أخرى وامتطى فرســـه وانطلق ، فسقط مرة ثانيةً وتعاظم شؤمه ، لكن رغبته في الفـــوز بالجـــائزة أنســـته هواجسه ومخاوفه ، ولما اقترب من النبي – ﷺ – غاصت قدما فرسه فـــي الأرض إلى الركبتين ، وتصاعد الدخان من بينهما ، فعلم أنهم محفوظون بحفظ الله ، فطلـــب منهم الأمان وعاهدهم أن يخفي عنهم ، وكتب له النبي – ﷺ – كتاب أمان ووعـــده بسواريْ كسرى ، وأوفى سراقة بوعده فكان لا يلقى أحداً يبحث عن النبي – ﷺ –إلا أمره بالرجوع ، وكتم خبرهم حتى وصلوا إلى المدينة .

وفي طريقهم إلى المدينة نزل الرسول – ﷺ –وصاحبه بخيمة أم معبد ، فسألاها إن كان عندها شيء من طعامٍ ونحوه ، فاعتذرت بعدم وجود شيء سوى شاة هزيلـــة لا تدرّ اللبن ، فأخذ النبي – ﷺ –الشاة فمسح ضرعها بيده ودعا الله أن يبارك فيها ، ثم حلب في إناء ، وشرب منه الجميع ، وكانت هذه المعجزة سبباً فـــي إســـلامها هـــي وزوجها .

وانتهت هذه الرحلة بما فيها من مصاعب وأحداثٍ ، ليصل النبي – ﷺ –إلـــى أرض المدينة ، يستقبله فيها أصحابه الذين سبقوه بالهجرة ، وإخوانه الـــذين أعـــدّوا العـــدة لضيافته في بلدهم ، وتلك وقفة أخرى .

الهجرة النبوية الانتصار والسلام والحق

بقلم: محمود عثمان

لقد كانت هجرة الرسول –صلى الله عليه وسلم– من مكة إلى المدينة ثورة على الضعف والكبت، وانتفاضة على تحكم الباطل، وتضحية براحة الإنسان المستقر في بلده بين أهله وعشيرته، إلى حيث يقيم في مكان غريب عنه، لا يعلم حقيقة مصيره فيه، والهجرة كانت تضحية بكل ما يملكه المسلم من مالٍ، وما يتمتع به من جاه وسلطة، كل ذلك في سبيل الانتصار على شهوات النفس الأمّارة بالسوء، والجهر بالحق الذي عرفه وآمن به، وأحس بالسعادة الحقيقية لمعرفته فكانت الهجرة حجر الزواية لانتصار الدعوة الإسلامية.

لقد أصبحت هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم– نجماً يتألق في سماء مجد الاسلام والمسلمين، وستظل درة في جبين تاريخ الإنسانية، لم تكن هجرة النبي – ﷺ هجرة استقرار وتنعُّم، بل كانت هجرة انطلاق وتحرر من قيود العبودية لشهوة النفس والجهل والشرك، هجرة إخاء وإيثار، آخى فيها رسولنا الكريم محمد –صلى الله عليه وسلم– بين المهاجرين والأنصار، وقد تم ذلك بصورة لم يعرف التاريخ مثيلاً لها، فقد تقاسم المهاجرون والأنصار كل شيء فيما بينهم، فكانوا مثالاً عظيماً للإخاء والسخاء والكرم، وهذا الأمر إنما يدل بشكل أو بآخر على مدى عظمة هذا الدين الحنيف الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور.

كانت هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، هجرة إصلاح وتحرير، وفّق فيها بين الأوس والخزرج بعد أن كانت بينهم ثارات ودماء يستحيل تجاوزها. "واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً". ولكن الرسول العظيم استطاع من خلال تعاليم هذا الدين أن يجعل الأوس والخزرج أخوة في حب الله عز وجل، ولاننسى أن الله عز وجل يخاطب الرسول في قرآنه الكريم "وإنك لعلى خلق عظيم".

ويجب ألا تغيب عن بالنا هذه الهجرة بمعانيها العظيمة السامية وما فيها من عبر ومواقف، وعلينا أن نذكر كيف استطاع هذا النبي الأمي عليه الصلاة والسلام، أن ينشئ من شتات القبائل الضاربة في الصحراء والمتناحرة فيما بينها، أمة متحدة تدعو للحق والفضيلة... كل ذلك بأخلاق عظيمة ونفسية رقيقة متواضعة متسامحة ويتجلى ذلك في قوله تعالى في آل عمران: "ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاروهم في الأمر".

ولأن صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، أدركوا المعاني السامية لهجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد جعلوها تاريخاً للأمة الاسلامية ففي السنة الثالثة من خلافة الفاروق عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–، جمع صحابته من حوله وقال لهم: "إن الأموال قد كثرت وما قسمنا منها غير محدد بتاريخ ينضبط به، فكيف التوصل إلى ما يضبط ذلك؟ لقد رُفع إليّ صَكٌّ موعده شعبان فلا أدري أي شعبان هو؟ الذى مضى، أم الذي نحن فيه، أو الآتي؟ ضعوا للناس شيئاً يعرفون به".

فقام الصحابة بنقاشات فيما بينهم، فمنهم من قال: اكتبوا على تاريخ الروم، وقائل: اكتبوا على تاريخ الفرس، فأبى عمر إلا أن يجعل تاريخ الاسلام، إشارة إلى حادث إسلامي كبير. فأشار بعضهم بأن يجعلوه مولد الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأشار بعضهم إلى وفاته، وأشار علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يكون موعد خروج النبي –صلى الله عليه وسلم– مهاجراً من مكة إلى المدينة مبدأ للتاريخ الإسلامي.

ومن هنا ندرك أهمية هذا الحدث العظيم في حياة المسلمين، فلتكن لنا هذه المناسبة، فرصة لاستذكار عبر دروس هذا الهجرة العظيمة وأن يجعل منها مناسبة لتنوير العقل بهدي النبوة العظيم من مكارم الأخلاق، وإلغاء الانانية، وتربية النفس على الإيثار، وتدارس تلك الأخلاق الانسانية التي تتجلى من حديث الرسول الكريم، يقول: "الخلق كلهم عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله" والحكمة النبوية القائلة "والراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

ولا ننسى أن أول عمل قام به النبي –صلى الله عليه وسلم– في المدينة هو بناء المسجد إيذاناً بمولد الدولة الفتية الجديدة القائمة على شرع الله فكانت الهجرة هي مولد الإسلام الحقيقي، حيث العناصر المتوفرة لإنشاء الدولة من شعب وأرض ودستور.

أما الشعب فيتكون من المهاجرين والأنصار، والأرض هي المدينة المنورة، والدستور هو القرآن الكريم الذي أصبح يمثل بشقيه المكي والمدني، موارد الشرع والدستور الإسلامي.

هذه العناصر مجتمعة أكسبت هذه الدولة شرعية في الوجود وبالتالي لابد من اعتراف الآخرين بها، وهذا ما فعله الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم–، عندما بعث برسائله إلى القبائل في جزيرة العرب ورؤساء الدول والملوك والقياصرة يدعوهم يها للإسلام، وبتلك الرسائل يكون الإسلام قد سبق الكثيرين ممن يعتبرون أنفسهم أصحاب الريادة في العلاقات الدولية.

فأهلاً وسهلاً بك يا عامنا الهجري الجديد، عدت إلينا كعادتك في كل سنة، لتذكرنا بهجرة النبي الكريم وأصحابه المؤمنين، وما كان لها من ثمرات يانعة، وبركات عظيمة على العرب، وعلى البشرية جمعاء.

الهجرة النبوية الشريفة.. الدروس والعبر

الدكتور عبدالله مبشر الطرازي

؟ يمر عام بعد عام بعدعام وتتجدد ذكرى الهجرة النبوية الشريفة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ويتذكر المسلمون تاريخ الآباء والأجداد بهذه المناسبة، ويتدارسون سيرة الرسول ﷺ وسير الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ويتساءلون ويتناقشون متى ولماذا وكيف كانت هجرته صلى الله عليه وسلم؟ وماهي نتائج تلك الهجرة المباركة؟ فيخرجون من دراستهم ومناقشتهم بدروس عظيمة تفيدهم في مستقبل الحياة.

يقول الله تعالى: {إن الدين عند الله الإسلام} فالإسلام هو الدين الكامل الشامل الذي جاء لهداية البشرية جمعاء، نحو حياة أساسها الإيمان بالله تعالى والعمل بأوامر الشريعة، حياة كريمة هادئة متزنة، حياة يسودها العدل والرحمة والفضيلة، حياة يعمل الجميع فيها لخير الإنسانية.

وقد بعث الله رسولنا محمد ﷺ في وقت كان العالم كله يعيش في ضلال عقائدي وفساد أخلاقي وظلم اجتماعي، وطغيان الإنسان على الإنسان، بحيث كان يعامل البعض الآخر معاملة الحيوان في بعض الأحيان.

وكانت شبه الجزيرة العربية أيضا تعيش في ظلام الجهل والضلال والفساد، وكانت القبائل العربية تحارب بعضها البعض بلا رحمة، وتحيا حياة قاسية، ففي مثل هذا الوقت بعث الله رسوله محمدا ﷺ لهداية الناس، يدعوهم إلى الإيمان بالله خالق كل شيء، وإلى الخير والفضيلة، والعلم النافع والعمل الصالح والأخلاق الحميدة.

ولكن قومه من قريش وغيرهم لم يؤمنوا بما جاء به الرسول ﷺ من تعاليم حكيمة من عند الله تعالى لخيرهم، بل قاموا بإيذاء الرسول ﷺ بشتى الوسائل.

ولقد صبر الرسول ﷺ على أذى قريش له ثلاثة عشر عاما، حتى يئس كبار قريش من القضاء على دعوته فقرروا قتله، ووضعوا لذلك خطة ماكرة، وهي أن يأخذوا

شابا من كل قبيلة، وأن يقتلوه بضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل كلها فلا يقدر بنو هاشم على حرب قريش فيرضون بالدية، وقد أقروا هذا الرأي لطـــاغيتهم أبـــي جهل، واستعدوا لتنفيذ الخطة.

ولكن إرادة الله كانت فوق كل إرادة، فقد أخبر رسوله عن مكرهم بإنزال قولـــه: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خيـــر الماكرين} وبذلك أذن الله لرسوله بالهجرة من مكة إلى المدينة، ليعود منها إلى مكـــة فاتحا منتصرا يحمل لواء الإسلام عاليا خفاقا.

وإذا نظرنا إلى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فنجد أنها قد توفرت لها أســـباب النجاح، فمنها مبايعة الأنصار وسرعة انتشار الإسلام في المدينة، ومنها أن نصرة الله كانت مع رسوله ﷺ في كل مايتعلق بالهجرة، ولا سيما حمايته وحفظـــه مـــن شـــر قريش في أثناء الهجرة وبعدها.

وهجرة الرسول ﷺ لم تكن هروبا من أذى قريش، ولا خوفا من طغيان الطاغين، فقد ثبت في التاريخ أنه ﷺ صبر على أنواع الأذى، إمتثالا لأمر ربه سبحانه حيث قال: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعـــل فمـــا بلغـــت رســـالته والله يعصمك من الناس} وكان في عصمة الله وحفظه ورعايته في كل مراحل الدعوة التي قام بها لنشر الدين الإسلامي.

وقد أمضى الرسول ﷺ تلك السنوات بمكة صابرا ثابتا في سبيل نشر دعوته، كمـــا صبر أصحابه رضي الله عنهم على أنواع التعذيب التي قاسوها من المشركين، ولـــم يكن لهم ذنب غير أنهم آمنوا بالله وبرسوله وثبتوا على إيمانهم.

وكانت هجرته ﷺ حادثة عظيمة بمشيئة الله تعالى وتدبيره وحكمتـــه، كمـــا كانـــت انتصارا عظيما للإسلام وسبباً قويا لانتشاره في العالم.

وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد هجرته بتأسيس الدولـــة الإســـلامية فـــي المدينة، ثم عاد إلى مكة المكرمة فاتحا منتصرا ليدعو الناس إلى الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، بتأييد كامل من الله تعالى، لأن الإسلام هو الدين الشـــامل علـــى

جميع التشريعات الإلهية، فهو لذلك دين البشرية جمعاء، كما أن الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، لقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس} يدعوهم إلى هذا الدين الحنيف، وقد أرسله اللهرحمة للعالمين يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة.

كلية الآداب ــ جدة

الهجرة.. حدث غيّر مجرى التاريخ

هجرة النبي إلى يثرب ضرورة فرضتها آليات الدعوة لانطلاقة الدين الجديد

مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى الإسلام، ويبصرهم بشرائعه، ويرشدهم إلى أحكامه، دون أن يتطرق إليه ملل، أو يصيبه كلل أو ضجر، لا تصرفه عن دعوته الشواغل، ولا يثنيه عن التبليغ وعد أو وعيد، وإنما هو ماض في طريقه، تحوطه عناية الله وتكلؤه رحمته، لا يجد وسيلة تمكّنه من تبليغ دعوته إلا اتبعها، ولا طريقة تهيئ له النجاح إلا أخذ بأسبابها، طرق كل باب، ووقف عند كل جمع، وعرض دعوته على القبائل؛ لعل أحدًا يؤمن بها ويؤازرها.

وآمن بالدعوة الجديدة بعض أهل مكة، ممن سمتْ نفوسهم، وصفتْ أفئدتهم، ونضجتْ عاطفتهم الدينية، فالتفوا حول نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، كما آمن عدد من الرقيق والموالي والمستضعفين في مكة، ولم تلق مكة بالاً لهذا الدين الجديد في بادئ الأمر، وعدّت محمدًا ﷺ وصحبه مجموعة من الحنفاء الذين يظهرون ثم يختفون دون أن يلتفت إليهم أحد.. لكن هيهات هيهات...

فلقد استشعرت مكة وأهلها الخطر، حين وجدوا أنفسهم أمام رجل آخر، ودعوة مختلفة، وجماعة تتكون، وكتاب يُتلى، وأن الرسالة يتزايد أنصارها وإن كانت تشق طريقها ببطء بين دهاليز وجبال مكة وعقول أهلها وعصبيتهم التي جبلوا عليها، وليس هذا فحسب بل، هالهم الأمر حين بدأ النبي ﷺ يهاجم الوثنية ويعيب الأصنام، ويسفّه عبادتها، وهنا رأت مكة أن مكانتها الدينية وزعامتها الروحية في خطر، فلجأت إلى مواجهة الدين الوليد، ومحاصرته بكافة الوسائل التي تضمن إجهاضه والقضاء عليه، ولم تتحرج في استخدام التعذيب والقتل والسجن مع المؤمنين بمحمد ﷺ ودعوته، ولم يسلم النبي ﷺ نفسه من الأذى، وتعرضت حياته للخطر.

الهجرة إلى الحبشة.. والخروج من الأزمة

حين اشتد العذاب بأصحاب النبي ﷺ وضاقت بهم السبل، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة "فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه"، فخرج فريق من المسلمين إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

وتفكير النبي ﷺ في الحبشة ينطوي على معرفة واسعة للنبي الكريم بأحوال شبه الجزيرة العربية، واتجاهاتها السياسية، فلم يكن هناك مكان أصلح للحماية والإيواء من الحبشة، فالقبائل العربية تربطها بقريش علاقات وثيقة، وروابط متينة تمنعها من استقبال هؤلاء المسلمين إذا ما فكروا في الهجرة إليها، وبلاد اليمن غير مستقرة يتنازعها التنافس بين الفرس والروم، والصراع بين اليهودية والنصرانية، ولم تكن أي مدينة من مدن الجزيرة العربية تصلح أن تكون مكانًا مناسبًا لإيوائهم، حتى يثرب نفسها التي استقبلت النبي ﷺ بعد ذلك، وأقام بها دولته –لم تكن تصلح هي الأخرى في هذا الوقت لاستقبال المهاجرين، حيث كانت تمزقها الخلافات الداخلية، والصراعات بين قبائلها. وكان جملة من هاجر إلى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً.

مقدمات الهجرة الكبرى

وإذا كانت الحبشة التي يحكمها ملك عادل تصلح أن تكون مأوى صالحًا ومكانًا للحماية، فإنها لم تكن تصلح أن تكون مركزًا للدعوة، ومعقلاً للدين، ولهذا لم يفكر النبي ﷺ في الهجرة إليها، واستمر في عرض دعوته على القبائل العربية التي كانت تفد إلى مكة، أو بالذهاب إلى بعضها كما فعل مع قبيلة ثقيف في الطائف، ولم تكن قريش تتركه يدعو في هدوء، وإنما تتبّعت خطوه، تحذر القبائل من دعوته وتنفّرها منه.

غير أن سعي النبي الدؤوب، وحرصه على تبليغ دعوته كان لا بد أن يؤتي ثماره، فتفتّحت لدعوته قلوب ستة رجال من الخزرج، فأسلموا، ووعدوه بالدعوة للإسلام في يثرب، وبشروه بالفوز لو قُدّر له أن تجتمع عليه قبائل يثرب.

ولم يكد ينصرم عام حتى وافى النبي ﷺ في موسم الحج اثنا عشر رجلاً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وعقد معهم بيعة عرفت ببيعة العقبة الأولى، على "ألا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم...".

وأرسل معهم حين عادوا إلى بلادهم مصعب بن عمير، وكان داعية عظيمًا، فقيهًا في الدين، لبقًا فطنًا، حليمًا رفيقًا، ذا صبر وأناة، فنجح في مهمته أيما نجاح، وانتشر الإسلام في كل بيت هناك، وهيأ السبيل لتكون يثرب هي دار الهجرة، التي ينطلق إليها المسلمون، ومعقل الدين ومركز الدولة.

وبعد عام عاد مصعب في موسم الحج، ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، التقوا بالنبي ﷺ في إحدى الليالي سرًا وبايعوه بيعة العقبة الثانية، التي تضمنت التزامهم بحماية النبي ﷺ عندما يهاجر إليهم والدفاع عنه، والمحافظة على حياته.

ومن ثم حددت هذه البيعة الوضع القانوني للنبي ﷺ بين أهل يثرب، فاعتبرته واحدًا منهم، دمه كدمهم، وحكمه كحكمهم، وقضت بخروجه ضمناً من عداد أهل مكة، وانتقال تبعيته إلى أهل يثرب، ولهذا أخفى المتبايعون أمر هذه البيعة عن قريش؛ لأن الفترة بين إتمام هذه البيعة، ووصوله ﷺ لا يلتزم أهل يثرب خلالها بحماية النبي الكريم إذا وقع له مكروه أو أذى من قريش.

التجهيز للهجرة

وبعد أن تمّت البيعة المباركة أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا أفرادًا وجماعات، يتخفّى بها من يخشى على نفسه، ويعلنها من يجد في نفسه القدرة على التحدي.

ولم تقف قريش إزاء هذه الهجرة مكتوفة اليدين، فحاولت أن ترد من استطاعت رده، لتفتنه في دينه أو تعذبه أو تنكل به، ولكن دون جدوى، فقد هاجر معظم المسلمين، وبقى النبي ﷺ في مكة، ووقعت قريش في حيرة: هل يظل في مكة كما فعل في الهجرة إلى الحبشة، أم يهاجر في هذه المرة مع أصحابه؟ وفي هذا خطر شديد عليهم؛

لأنه يستطيع في يثرب أن ينظم جماعته، ويقيم دولته، فتتهدد مكانة قريش بين القبائل، وتضيع زعامتها، وتتأثر تجارتها.

حزمت قريش أمرها، واتخذت قرارها بقتل النبي ﷺ قبل أن تفلت الفرصة من بين أيديها، ويتحقق ما تخشاه، فأعدوا مؤامرتهم لهذا الغرض الدنيء، وأشركوا جميع القبائل في قتله، باختيار شاب قوي من بين أبنائها، حتى يتفرق دمه في القبائل، ولا يقوى بنو هاشم على محاربة أهل مكة، وقد سجل القرآن الكريم نبأ هذه المؤامرة الخسيسة في قوله تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} «الأنفال: الآية ٣٠».

حادث الهجرة.. وأسباب النجاح

اتخذ النبي ﷺ كل الأسباب التي تضمن نجاح هجرته إلى المدينة التي ترتب عليها قيام دولة الإسلام، واتساع رقعتها، وسطوع حضارتها، ولعل أهم الأسباب هو نجاحه الباهر في إعداد المكان الذي سينزل به هو وأصحابه، مستخدمًا كل الوسائل الممكنة من توثيق عرى العلاقات مع أهل يثرب بعقد معاهدتين عظيمتين، وإرسال داعية عظيم الكفاءة، قوي الإيمان، شديد الإخلاص؛ لنشر الدين، وجذب الأتباع هناك.

والسبب الثاني من أسباب النجاح هو اختيار الوقت المناسب للهجرة، فلم يعزم النبي ﷺ على الهجرة إلا بعد أن استوثق من رسوخ إيمان أهل يثرب، وتعهدهم بحمايته والدفاع عنه، وذلك في بيعة العقبة الثانية، ومن ثم لم تعد هناك حاجة لبقائه في مكة بعد أن وجد النصرة والمنعة عند أهل يثرب.

والسبب الثالث هو آليات الهجرة التي اتبعها النبي في خروجه من مكة إلى المدينة، في واحدة من أجلّ ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوة وروعة، وتفاصيل هذه الهجرة مذكورة في كتب السيرة، ولسنا في حاجة إلى سردها الآن، ولكن يمكن القول بأنها كانت سرية إلى أقصى حد، ودقيقة إلى أبعد مدى، وضع لها النبي ﷺ كل ما في وسع البشر وطاقتهم من وسائل تضمن لها النجاح، وخطط تحقق لها التوفيق، فإذا لم يفلح ذلك كله، فستأتي عناية الله في اللحظة المناسبة.

الرسول ﷺ في المدينة

وما أن وصل النبي المدينة في ضحى يوم الإثنين، الموافق (١٢ من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة الموافق ٢٤ سبتمبر ٦٢٢م) حتى بدأ العمل الجاد، والسعي الدءوب، حتى أكمل رسالته على نحو لا مثيل له في تاريخ الإنسانية.

ولم تكن يثرب عندما نزلها النبي ﷺ مدينة بالمعنى المعروف، وإنما كانت واحات متفرقة في سهل فسيح تسكنها قبائل الأوس والخزرج والجماعات اليهودية، فنظّم العمران بالمدينة، وشق بها طرقا معبّدة، وكان المسجد هو الأساس في هذا التنظيم، انتظم حوله عمران المدينة الجديدة، واتسقت شوارعها.

وكان هذا المسجد هو مقر الرئاسة الذي تقام فيه الصلاة، وتُبرم فيه كل الأمور، وتُعقد به مجالس التشاور للحرب والسلم واستقبال الوفود، وبجوار المسجد اتخذ النبي مساكنه، وكانت متصلة بالمسجد، بحيث يخرج منها إلى صلاته مباشرة، وأصبح من السُنّة أن تُبْنى المساجد وبجوارها بيوت الولاة ودواوين الحكم.

ثم أصلح النبي ما بين الأوس والخزرج وأزال ما بينهما من عداوة، وجمعهما في اسم واحد هو الأنصار، ثم آخى بينهم وبين المهاجرين على أساس أن المؤمنين إخوة، وكانت المرة الأولى التي يعرف فيها العرب شيئا يسمى الأخوة، دون قرابة أو صلة رحم، حيث جعل كل رجل من المهاجرين يؤاخي رجلا من الأنصار، فيصير الرجلان أخوين، بينهما من الروابط ما بين الأخوين من قرابة الدم.

وبعد المؤاخاة كانت الصحيفة، وهي الدستور الذي وضعه النبي ﷺ لتنظيم الحياة في المدينة، وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها، هذه الوثيقة لم يُمْلِها النبي ﷺ إملاء، وإنما كانت ثمرة مناقشات ومشاورات بينه وبين أصحابه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، وكلما استقروا على مبدأ قام الرسول بإملاء نصه على علي بن أبي طالب، وشيئا فشيئا اكتملت الوثيقة، وأصبحت دستورا للجماعة الجديدة، ولا يكاد يُعرف من قبل دولة قامت منذ إنشائها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية الجديدة، فإنما تقام الدول أولا، ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور.

وأدت هذه السياسة الحكيمة إلى قيام جماعة متآلفة متحابة، وإلى ازدياد عـــدد ســـكان المدينة حتى زاد عدد سكانها عما كانوا عليه أكثر من خمس مرات، بعـــد أن أقبـــل الناس على سكناها؛ طلبا للأمن والعدل في ظل الإسلام، والتماسًا لبركة مجاورة النبي ﷺ واستجابة لما دعا إليه القرآن من الهجرة إلى الله وإلى رسوله.

بين الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة

كانت الهجرة إلى المدينة ضرورة ملحة فرضتها الأحداث التي أحاطت بالنبي ﷺ في مكة، وألزمته السعي إلى مكان آخر تُمارس فيها شعائر الإسلام، وتُطبّـــق أحكامـــه، وتنطلق دعوته إلى كل مكان، دون مزاحمة أو تضييق، ومكة حينذاك لم تعد صـــالحة لهذه الفترة من عمر الرسالة، لأن العداء قد بلغ بها كل مدى ضـــد الـــدين الجديـــد، وأصبحت هناك صعوبة بالغة في استكمال الدعوة التي تحتاج إلى دولة حتـــى تـــنجح رسالتها.

ولم تكن الحبشة التي تنعم بالعدل والأمان تصلح لهذه الفترة؛ نظرا لاخـــتلاف البيئـــة اللغوية والدينية هناك؛ الأمر الذي جعل حركة الإسلام هناك بطيئة، وبلا فاعلية، ولا تسمح هذه البيئة بالتطبيق؛ ومن ثم لم تكن هناك مدينة في شبه الجزيرة العربية تصلح لاستقبال الدين في الفترة الثانية إلا يثرب التي أُطلق عليها مدينة الرسول صـــلى الله عليه وسلم.

الأمة الإسلامية في حاجة دوماً إلى التأمل في دروس الهجرة

إسلام أون لاين

يبدأ العام الهجري الجديد، ويتجدد معه تذكر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، تلك الهجرة التي أنجبت دولة حضارية في زمن قياسي في تاريخ الأمم، وسادت قوانين السماء الربانية أرجاء المعمورة، وأينع البناء الحضاري في كل روضة وربوة من فيحاء هذه الدنيا.

ومع إشراقة كل عام جديد يقف المسلم بين يدي هذا الحدث، متأملاً معتبرًا محللاً، علّه يرتقي بنفسه وبمن حوله إلى مستوى الحدث الضخم في تاريخ البشرية، يستمطر الرحمات لواقع مؤلم ونفس جموح، وتشتت في الجهود والإمكانات.

وللهجرة معنيان: حسي ومعنوي، وفي معناها اللغوي هي الانتقال، وقد يكون الانتقال حسيًّا بترك مكان لآخر، وقد يكون معنويًّا بالانتقال من ثقافة إلى أخرى.

ومن معاني هذا الأخير قول الله تعالى: {والرُّجْزَ فَاهْجُرْ}) المدثر: ٥)، وقوله عز وجل: {واهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً} (المزمل: ١٠)؛ فهي مراجعة لكافة الموروثات الثقافية والبنائية، واكتشاف الجوانب التي عدا عليها الخطأ أو الفساد في الفهم والتطبيق، مراجعة عملية فاعلة.

والهجرة إن هي إلا رديف لمعنى التزكية، قال صلى الله عليه وسلم: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها" «أبو داود بسند صحيح».

إن الحديث عن الهجرة يجب ألا نقف فيه عند مظاهر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ونسرد التفاصيل التي وردت عنها، بل نحن مطالبون بالغوص في عميق جذرها، وتحليل نفسية الهجرة وفلسفتها؛ كي نعي وندرك منها بعضًا من سبل الخلاص لأنفسنا وأمتنا الكريمة.

إن التلازم بين معنيي الهجرة –الجسدي والنفسي– لا يزال قائمًا ما دام المؤمنون لم يمسكوا بزمام الأستاذية العالمية، ولا يزالون حتى ذلك الوقت يحتاجون إلى المعين المزدوج للهجرة النبوية العطرة، ولا يتوقف أبدًا المعنى النفسي أو المعنوي؛ لأنه بمثابة الزاد والتزكية للأنفس والمجتمعات.

فالهجرة النبوية نهر جاري العطاء في كل حين بإذن ربه، يغرف منه المؤمن رواء له حينًا بعد حين، يربط الحداثة بالواقع، ويتلقط منها ما يريد.

أهمية الهجرة

تكمن أهمية الهجرة في: تخليص المؤمنين من حالة العوَز وقلة الأمن، ومن ثم إطلاق قدراتهم الإنتاجية في حالتَي السلم والحرب معًا، قال تعالى: {ومَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وسَعَةً} (النساء: ١٠٠)، والمراغم هو المنعة والقوة، أو ما يرغِم به المؤمنون أعداءهم على مساومتهم ومنعهم من العدوان عليهم، والسعة هي سعة العيش، وقال تعالى: {والَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ولأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (النحل: ٤١).

فالمهاجر في سبيل الله اليوم إنما يهاجر ليطلق لنفسه قدراتها، ويتحلل من كل قيد يلزمه بالقعود، والمهاجر في سبيل الله اليوم مطالَب بأن يطلق لفكره وعقله وعلمه كل الآفاق الرحبة الواسعة.

والأمة تقف أمام أمر إطلاق الطاقات هذا وتتمعن في نفسها، وما يكبلها من آسار الأغلال الثقيلة التي جعلتها في آخر الأمم، وتمعن الأمة النظر في الأمن والحريات التي هي أول مدارج الصعود نحو الهجرة؛ لتعي الهوة الكبيرة بينها وبين الهجرة النبوية العطرة.

وكذا المسلم – بل الداعية – يجب ان يقف ليراجع فكره ونفسه، ويستخرج الأغلال التي تحيط به وأن ينطلق الانطلاقة المباركة وفق شرع ربنا الحكيم، وقدوته صاحب الهجرة عليه الصلاة والسلام.

إن الأعداد الكبيرة من المسلمين التي تهاجر اليوم الهجرة العكسية إلى بلاد الغرب، ثم تظل تدور حول نفسها متأثرة بالمحيط الذي تعيش فيه، غاب عنها معنى إطلاق الطاقات هذا، وفات عليها لُباب الأمر في فقه الهجرة.

والهجرة بمعناها الشامل حركة تجديد مستمر، وعامل من عوامل قوة الأمة الفكرية والمادية؛ كونها تتمحور حول المثل الأعلى عليه الصلاة والسلام، ولا تزال الأمة بعافية ما دامت على صلة قوية بهذا المثل الأعلى، سواء في إنضاج فكرها أو تقدم مدنيتها، ومن تدبَّر أحداث الهجرة ودقائقها أدرك أهمية حركة التجديد، وترك البيئات المغلقة إلى البيئات المفتوحة، سواء أكانت بلدًا أو مؤسسة، أو حتى نفس المؤمن ذاته؛ إذ المثل الأعلى يحث دائمًا على أسمى الغايات، ويدفع لإنجاز أرقى الحضارات، ولن يتحقق ذلك إلا بالتجدُّد المنفتح، المتعلق بالمثل الأعلى عليه الصلاة والسلام.

والهجرة مطلب قوي لتماسك الجبهة الداخلية في الأمة؛ إذ هي المراجعة والمحاسبة، سواء الذاتية أو الجماعية أو المؤسسية، إذْ جوهر الهجرة يقوم على هَجْر كل ما لا يليق، وبهذه النظرة الواعية لمعنى الهجرة يكون النقد البناء، وتكون المراجعات الربانية للسَّيْر، والتفرس في الأخطاء، وهذا من أقوى عوامل النهوض الحضاري.

إن حالة الأمة اليوم –وحال أفرادها في الغالب– لفي أشد الحاجة إلى إطلاق الطاقات الكبيرة التي تحوزها في أبنائها، وتوفير الأمن والاستقرار لهم؛ فما سعى النبي ﷺ للمدينة إلا بعد سنوات من الكبت والتضييق؛ فكانت المدينة المنورة البيئة التي انطلق فيها البناء الحضاري، ونلمس اليوم إما كبتًا لمجتمعات كاملة، أو فقدانًا للدور في كثرة من أفراد الأمة.

وحركة التجديد التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (أبو داود بسند صحيح) هذه الحركة تحتاج إلى تجديد في الأفراد والمؤسسات.

والنقد الداخلي والتوبة والمراجعة قوة تتماسك بها الأمة، وتسترد بها عافيتها، ويتنفس بها كل فرد أنسام البناء الحضاري.

وما أصدق قول شاعر الدعوة وليد الأعظمي حين قال:

يا هجرة المصطفى والعين باكيةٌ والدمع يجري غزيرًا من مآقيها

يا هجرة المصطفى هيّجت ساكنةً من الجوارح كاد اليأس يطويها

هيجت أشجاننا والله فانطلقت منا حناجرنا بالحزن تأويها

إنها دموع الداعية تنهمر من مآقيه على واقع أمته، وتعطل منابع الخيرات فيها، لكن الأمل يتجدد دائمًا بهجرة الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام مصدر الاقتداء في المحن والمنح.

ومع إدراك فقه الهجرة وأبعادها يُطوَى اليأس، وتُطوَى معه مراحل في النفس وفي الآفاق الدعوية، وما ثمة مكان للحزن: {إِلا تَنصرُوهُ فَقَدْ نَصرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة ٤٠).

من دروس الهجرة

شعر صبري أحمد الصبري

في هجرة المختار نور ساري دوما إلى الوجدان باستبشار
فالظلم مهما قد تمادى ينتهي بالظالمين لخيبة وخسار
والحق مهما قد توارى فترة سيعود جهرا للعلا بفخار
والبغي مهما أطبقت أظفاره بالآمنين سينتهي لبوار
والعدل يأتي للأنام بقسطه ينساب فيهم بالهدى السيار
كانت بمكة قبل هجرة أحمد أشياء عجت باعتداء ضاري
قلبت موازين الحياة وعطلت بعض الأمور مظالم الكفار
شنوا على صحب الرسول بِغِلِّهم عدوان بغي سافر الأطوار
جعلوا من القوم الضعاف وسيلة لبلوغ قصد سيئ الأغوار
لكن دعوة أحمد ظلت كما شاء الإله بقوة الجبار
تمضي بنور الله جل جلاله بين القلوب بقدرة القهار
بلغت بفضل الله آفاقا لها شوق للقيا سيد الأبرار
فربوع طيبة كلها في لهفة تاقت لطه باشتياق حار
حتى تحقق للمدينة حلمها بلقاء حق صادق الأنصار
أهلا وسهلا بالنبي وآله وبصحبه في طيبة الأطهار
أرسى الحبيب بطيبة أسسا بها قامت بصدق دولة الأنوا ر
حق وعدل واستقامة كم لها للناس جمعا من سنا استقرار
في هجرة المحمود طه أحمد نطقت لنا بالعلم باستمرار
تحكي دروسا من جواهر عقدها للناس تجني من بديع ثمار
ولكي تظل قلوبنا وعيوننا ترنو لها بمحاسن استبصار
صلى الإله على ا لنبي وآله طه الرسول المجتبى المختار!!

الهجرة النبوية المباركة مواقف وعبر

الحمد لله رب العالمين الموجود أزلا وأبدا بلا مكان والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى ءاله وصحبه الطيبين الطاهرين ، أما بعد، يقول الله تعالى في محكم كتابه: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا}. سورة التوبة/٤٠ .

إخوة الإيمان ،

دعا النبيّ محمد ﷺ إلى العدل والإحسان ومكارم الأخلاق ونهى عن المنكر والبغي . فهو الذي عرّفه قومه قبل نزول الوحي بلقب الأمين فلم يكن سارقًا ولم يكن رذيلاً ولم يكن متعلّق القلب بالنساء، وكان يدور في المواسم التي يجتمع فيها الناس ويقول: "أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا" . وكان يتبعه رجل من المشركين ويقول: "أيها الناس لا تصدّقوه" .

صبر ﷺ على إيذاء المشركين ، وتعجب المشركون لهذا الصبر فقالوا لأبي طالب: "يا أبا طالب ماذا يريد ابن أخيك؟ إن كان يريد جاهًا أعطيناه فلن نمضي أمرًا إلا بعد مشورته، وإن كان يريد مالاً جمعنا له المال حتى يصير أغنانا، وإن كان يريد الملك توّجناه علينا" . ولكن النبيّ الذي يوحى إليه أجاب عمّه بقوله: "والله يا عمّ لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بشمالي ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه" .

فأجمع المشركون على قتل رسول الله ﷺ وجمعوا من كلِّ قبيلة رجلاً جلدًا ليضربوه ضربة رجل واحد حتى يتفرّق دمه بين القبائل، فأتى جبريل عليه السلام وأخبره بكيد المشركين وأمره بأن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه. فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يبيت على فراشه ويتسجّى ببُرد له أخضر ففعل ، ثمّ خرج ﷺ وهم على بابه ومعه حفنة تراب فجعل يذرّها على

رؤوسهم وهو يقرأ: { يس . والقرءان الحكيم }. إلى قوله تعالى : { وجعلنا من بين أيديهم سدّا ومن خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون} .(يس) .

ثمّ رسول الله ﷺ يختار حبيبه أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه يرافقه في الهجرة، ويدخلان إلى الغار وفي الغار ثقوب فجعل الصدّيق رضي الله عنه يسدّ الثقوب بثوبه وبقي ثقب فسدّه برجله ليحمي حبيبه وقرّة عينه محمّدا، فلدعته الأفعى برجله فما حرّكها وما أزاحها، فمن شدّة ألَمه بكى رضي الله عنه فنَزلت دمعته وأيقظت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقام ﷺ ومسح له بريقه الطاهر فشفي بإذن الله تعالى .

وحمى الله تعالى حبيبه بخيط العنكبوت، حمى الله تعالى حبيبه بأضعف البيوت وأوهن البيوت بيت العنكبوت، فأرسل الله حمامة باضت على فم الغار ونسج العنكبوت خيطه والمؤمنون في المدينة المنوّرة ينتظرون حبّا وشوقًا، ينتظرون وصول الحبيب المصطفى ﷺ ، وذات يوم والناس في انتظار بلهف وشوق وقد انتصف

النهار واشتدّ الحرّ ورجعوا جماعة بعد جماعة وإذ برجل ينادي بأعلى صوته: ها قد جاء من تنتظرون يا أهل المدينة، فتكرّ الجموع عائدة لاستقبال الحبيب المحبوب والحبّ يسبقها ولسان حالها يقول: "طلع البدر علينا من ثنيات الوداع" .

الهجرة النبويّة أيها الإخوة لم تكن هروبًا ولا جبنًا ولا تخاذلاً عن إحقاق حقٍّ أو إبطال باطل ، ولكن هجرة بأمر الله تعالى .

إخوة الإيمان والإسلام

إن دار الفتوى في أستراليا تذكركم بأنّ الله تعالى وعد المؤمنين بالنصر المبين وجعل لهم من الشدّة فرجًا ومن العسر يسرا ومن الضيق سعة، وأنّ الدروس المستفادة من الهجرة كثيرة ومن جملتها ضرورة الصبر على الشدائد والبلايا وكافّة أنواع الظلم والاستبداد، والصمود في وجه الباطل، والوقوف إلى جانب الحقّ في شجاعة وحزم وعزم، وأنّ بهجتنا بهذه الذكرى العظيمة في الظروف الحالية التي تمرّ بها الأمّة تبعثنا على مضاعفة الجهد في سبيل نشر دين الله، تبعثنا على مضاعفة الجهد في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله محمّد رسول الله بالتعلّم والتعليم.

اللهمّ أعد علينا هذه الذكرى بالأمن والأمان يا ربّ العالمين . وتقبل الله من حجاجنا الكرام . وكل عام وأنتم بخير

.

الهجرة النبوية المباركة – مواقف وعبر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونشكره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مثيل له، ولا ضِدّ ولا نِدّ له، وأشهد أنَّ سيّدنا وحبيبنا وعظيمنا وقائدنا وقرّة أعيننا محمّدًا عبده ورسوله وصفيّه وحبيبه، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمّة فجزاه الله عنّا خير ما جزى نبيًّا من أنبيائه. الصلاة والسلام عليك سيّدي يا علم الهدى يا أبا الزهراء يا أبا القاسم يا محمّد ضاقت حيلتنا وأنت وسيلتنا أدركنا يا رسول الله .

أما بعد عباد الله، فإني أوصيكم ونفسي بتقوى الله العليِّ العظيم ، والسير على خطى رسوله الكريم، يقول الله تعالى في محكم كتابه: ؟إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ؟ التوبة/٤٠ .

إخوة الإيمان يا أحباب الحبيب، دعا النبيّ ﷺ إلى العدل والإحسان ومكارم الأخلاق ونهى عن المنكر والبغي. فهو أفضل الأوّلين والآخرين على الإطلاق، هو محمّد ﷺ الذي عرّفه قومه قبل نزول الوحي بلقب الأمين فلم يكن سارقًا ولم يكن رذيلاً ولم يكن متعلّق القلب بالنساء، وكان يدور في المواسم التي يجتمع فيها الناس ويقول: "أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا". وكان يتبعه رجل من المشركين ويقول: "أيها الناس لا تصدّقوه".

صبر ﷺ على إيذاء المشركين. أليس حينما كان يصلّي عند الكعبة رمى على ظهره عقبة بن أبي معيط سلى جزور؟ وذلك المشرك أبو جهل أراد أن يخنقه بثوبه فمنعه أبو بكر وقال: "أتقتلون رجلاً يقول ربي الله؟". أليس كُسرت رباعيّته من أسنانه؟ أليس ضرب بالحجارة عليه الصلاة والسلام؟ ولكن هذا النبي المؤيّد بنصر الله المبين ثبت

كما أمره الله، فما من نبي يتخلّى عن الدعوة إلى الله لشدّة إيذاء، الكفار تعجّبوا لهذا الصبر فقالوا لأبي طالب: "يا أبا طالب ماذا يريد إبن أخيك؟ إن كان يريد جاهًا أعطيناه فلن نمضي أمرًا إلا بعد مشورته، وإن كان يريد مالاً جمعنا له المال حتى يصير أغنانا، وإن كان يريد الملك توّجناه علينا".

ولكن النبيّ الذي يوحى إليه أجاب عمّه بقوله: "والله يا عمّ لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بشمالي ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

فأجمع المشركون على قتل رسول الله ﷺ وجمعوا من كلّ قبيلة رجلاً جلدًا ليضربوه ضربة رجلٍ واحدٍ حتى يتفرّق دمه بين القبائل، فأتى جبريل عليه السلام وأخبره بكيد المشركين وأمره بأن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه. فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يبيت على فراشه ويتسجّى بِبُرد له أخضر ففعل ، ثمّ خرج ﷺ وهم على بابه ومعه حفنة تراب فجعل يذرّها على رؤوسهم وهو يقرأ: ؟يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَىصِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَىالأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ؟ (يس).

وحمى الله تعالى حبيبه بخيط العنكبوت، حمى الله تعالى حبيبه بأضعف البيوت وأوهن البيوت بيت العنكبوت، فأرسل الله حمامة باضت على فم الغار ونسج العنكبوت خيطه . قال تعالى: ؟يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ؟ التوبة/٣٢ .

والمؤمنون في المدينة المنوّرة ينتظرون حبّا وشوقًا، ينتظرون وصول الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، فكانوا يتوافدون إلى مشارف المدينة من ناحية طريق مكّة وكان بعضهم يتسلّق الأشجار وينظر إلى بعد علّه يرى أثرًا لقدوم الحبيب صلّى الله عليه وسلّم، وتمضي الأيام والساعات ويعودون حزينين.

وذات يوم والناس في انتظار بلهف وشوق وقد انتصف النهار واشتدّ الحرّ ورجعوا جماعة بعد جماعة وإذ برجل ينادي بأعلى صوته: ها قد جاء من تنتظرون يا أهل المدينة، فتكرّ الجموع عائدة لاستقبال الحبيب المحبوب والحبّ يسبقها ولسان حالها يقول: "طلع البدر علينا من ثنيات الوداع".

اللهمّ أعد علينا هذه الذكرى بالأمن والأمان يا ربّ العالمين .

هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونشكره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، والصلاة والسلام على محمّد بن عبد الله وعلى كلّ رسول أرسله الله.

أما بعد عباد الله ، فأوصيكم ونفسي بتقوى الله العليّ العظيم .

الهجرة النبويّة أيها الإخوة لم تكن هروبًا من قتال ولا جبنًا عن مواجهة ولا تخاذلاً عن إحقاق حقٍّ أو إبطال باطل، ولكن هجرة بأمر الله تعالى.

فأنبياء الله تعالى يستحيل عليهم الجبن، فالأنبياء هم أشجع خلق الله. وقد أعطى الله نبيّنا قوّة أربعين رجلاً من الأشدّاء.

فالجبن والهرب هذا لا يليق بأنبياء الله تعالى . "فلا يقال عن النبيّ هرب لأنّ هرب يشعر بالجبن، أمّا إذا قيل هاجر فرارًا من الكفار أي من أذى الكفّار فلا يشعر بالجبن بل ذلك جائز ما فيه نقص ". (الشرح القويم صحيفة ٣٤١).

واعلَموا أنَّ اللهَ أمرَكُمْ بأمْرٍ عظيمٍ أمرَكُمْ بالصلاةِ والسلامِ على نبيهِ الكريمِ فقالَ:؟إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً؟ اللّهُمَّ صَلِّ على سيّدِنا محمَّدٍ وعلى ءالِ سيّدِنا محمَّدٍ كمَا صلّيتَ على سيّدَنا إبراهيمَ وعلى ءالِ سيّدِنا إبراهيمَ وبارِكْ على سيّدِنا محمَّدٍ وعلى ءالِ سيّدِنا محمَّدٍ كمَا بارَكْتَ على سيّدِنا إبراهيمَ وعلى ءالِ سيّدِنا إبراهيمَ إنّكَ حميدٌ مجيدٌ، يقول الله تعالى: ؟يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا

أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُــكَارَى وَلَكِــنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ؟، اللّهُمَّ إنَّا دعَوْناكَ فاستجبْ لنا دعاءَنا فاغفرِ اللّهُمَّ لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرِنا اللّهُمَّ اغفِرْ للمؤمنينَ والمؤمناتِ الأحياءِ منهُمْ والأمواتِ ربَّنا ءاتِنا في الــدنيا حسَنةً وفي الآخِرَةِ حسنةً وقِنا عذابَ النارِ اللّهُمَّ اجعلْنا هُداةً مُهتدينَ غيرَ ضــالّينَ ولا مُضِلينَ اللّهُمَّ استرْ عَوراتِنا وءامِنْ روعاتِنا واكفِنا مَا أَهمَّنا وَقِنا شَرَّ ما نتخوَّفُ. عبادَ الله ؟إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَــاء وَالْمُنكَــرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ؟، يعظُكُمْ لعلَّكُمْ تذَكَّرون. اذكُروا اللهَ العظــيمَ يــذكرْكُمْ واشكُروهُ يزِدْكُمْ، واستغفروه يغفِرْ لكُمْ واتّقوهُ يجعلْ لكُمْ مِنْ أمــرِكُمْ مخرَجًــا، وَأَقِــمِ الصلاةَ.

الهجرة النبوية المباركة – حوادث وعبر – ٢

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونشكره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إلــه إلا الله وحده لا شريك له ولا مثيل له، وأشهد أنَّ سيّدنا وحبيبنا وعظيمنا وقائدنا وقرّة أعيننا محمّدًا عبده ورسوله وصفيّه وحبيبه، صلّى الله عليه صلاة يقضي بها حاجاتنا ويفرّج بها كرباتنا ويكفينا بها شرّ أعدائنا، ﷺ وعلى كل رسول أرسله.

أما بعد عباد الله فإني أوصيكم ونفسي بتقوى الله العليِّ العظيم ، القائــل فــي محكــم كتابه: ؟إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُــومُ الْأَشْــهَادُ؟ ســورة غافر/٥١.

إنّ الله تعالى وعد المؤمنين بالنصر المبين وجعل لهم من الشدّة فرجًا ومــن العســر يسرًا ومن الضيق سعة، وإنّ الدروس المستفادة من الهجرة كثيــرة ومــن جملتهــا ضرورة الصبر على الشدائد والبلايا وكافّة أنواع الظلم والاستبداد، والصمود في وجه الباطل، والوقوف إلى جانب الحقّ في شجاعة وحزم وعزم، وإنّ بهجتنا بهذه الذكرى العظيمة تبعثنا على مضاعفة الجهد في سبيل نشر دين الله، تبعثنا على مضاعفة الجهد في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله محمّد رسول الله بالتعلّم والتعليم.

ولقد كان لهجرة الفاروق الذي فرق بين الحقّ والباطل قصّة شأنها شأن كل قصصــه وأخباره العظيمة التي تدلّ على حبّه لدين الله واستبساله في سبيل الله، ذلك أنه عندما جاء دور سيّدنا عمر بن الخطاب قبل هجرة الرسول بسبعة أيام، خرج مهاجرًا وخرج معه أربعون من المستضعفين جمعهم عمر رضي الله عنه في وضح النهار وامتشــق سيفه وجاء (دار الندوة) وهو مكان تجتمع فيه قريش عادة، فقــال الفــاروق عمــر لصناديد قريش بصوت جهير: "يا معشر قريش من أراد منكم أن تفصــل رأســه أو تثكله أمّه أو تترمّل امرأته أو ييتّم ولده أو تذهب نفسه فليتبعني وراء هذا الوادي فإني

مهاجر إلى يثرب". فما تجرّأ أحد منهم أن يحول دونه ودون الهجرة لأنهم يعلمون أنه ذو بأس وقوّة وأنه إذا قال فعل .

ومن بركات الهجرة أنّ امرأة مِمّن سبقت رسول الله ﷺ بالهجرة مات ولدها معها في الطريق إلى المدينة، أصابه مرض فمات فتملّكها الجزع فقالت: "اللهمّ إنك تعلم أني ما هاجرت إلا ابتغاء مرضاتك ومحبّة فيك وفي نبيّك فلا تشمّت بي الأعداء"، فتحرّك ولدها من تحت الكفن، قام ولدها في الحال أحياه الله تعالى، والله على كلِّ شيء قدير. قالت أمّه: "طعم وطعمنا".

وبقي حيا إلى خلافة سيّدنا عمر رضي الله عنه.

هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنوّرة في شهر صفر وليس في الأول من شهر محرّم كما هو شائع واستقبله المؤمنون بالفرح واستبشر الناس بقدوم رسول الله ﷺ وسمّى الرسول يثرب المدينة المنوّرة، وآخى بين أهلها بين المهاجرين والأنصار وبنى مسجده، وصار المسلمون على قلب رجل واحد لا يفرّق بينهم طمع الدنيا ولا يباعد بينهم حسد ولا ضغينة، مثلهم كمثل البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا ومثلهم في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

وأوّل بيت نزل فيه ﷺ في المدينة المنوّرة بيت خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاريّ، وخالد بن زيد كان مِمّن حفظ هذه الأبيات التي قالها أسعد الحميري الذي كان يحكم بلاد اليمن قبل بعثة النبيّ ﷺ بستمائة عام، صفّت له الجياد من اليمن إلى بلاد الشام فمرّ بالمدينة المنوّرة التي كانت تسمّى يثرب ليكسر أهلها، فاجتمع به حبران من الأحبار المسلمين الذين كانا على دين موسى عليه السلام وقرءا في التوراة أنها أي المدينة المنوّرة هي مهاجر نبي ءاخر الزمان أحمد ، فأنشد أسعد الحميريّ تبع الأوسط:

شهدت على أحمد أنه ***** رسول من الله باري النسمّ

ولو مدّ عمري إلى عمره ***** لكنت وزيرًا له وابن عمّ

وجاهدت بالسيف أعداءه ***** وفرّجت عن صدره كل غمّ

قبل ستمائة عام من بعثة رسول الله ﷺ قال هذه الأبيات أسعد الحميري في مدح النبيّ ﷺ وتوارثها أهل المدينة خلفاً عن سلف.

اللهمّ أعد علينا هذه الذكرى بالأمن والأمان يا ربّ العالمين .

هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الهجرة النبوية المباركة

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونستهديه ونسترشده ونشكره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مثيل له ولا ضد ولا ند له وأشهد أنَّ سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وقائدنا وقرة أعيننا محمدًا عبده ورسوله وصفيه وحبيبه من بعثه الله رحمة للعالمين هاديًا ومبشرًا ونذيرا بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيًا من أنبيائه، الصلاة والسلام عليك سيدي يا علم الهدى الصلاة والسلام عليك سيدي يا رسول الله سيدي يا حبيب الله ضاقت حيلتنا وأنت وسيلتنا أدركنا يا محمد أدركنا يا أبا القاسم يا رسول الله أدركنا بإذن الله .

أما بعد فيا عباد الله أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله العلي العظيم واستفتح بالذي هو خير، يقول الله تعالى في كتابه العظيم : ؟إلا تنصُروهُ فقدْ نصرَهُ اللهُ إذْ أَخرجَهُ الذينَ كفَروا ثانيَ اثنينِ إذْ هُمَا في الغَارِ إذْ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزَنْ إنَّ اللهَ معَنا فأنزلَ اللهُ سكينتَهُ عليهِ وأيَّدَهُ بجنودٍ لمْ تَرَوْهَا وجَعَلَ كلمةَ الذينَ كفَروا السُّفلى وكلمةَ اللهِ هيَ العُليَا واللهُ عزيزٌ حكيمٌ؟ سورة التوبة/٤٠

الهجرة النبوية أيها الإخوة لم تكن هروبًا من قتال ولا جبنًا عن مواجهة ولا تخاذلاً عن إحقاق حق أو إبطال باطل ولكن هجرة بأمر الله تعالى أعد فيها النبي القائد صلوات ربي وسلامه عليها العدة وهيأ الجند وعاد بهم إلى مكة فاتحًا، أوذي رسول الله ﷺ وأوذي أصحابه الكرام في مكة وصبر ءال ياسر في سبيل الله، ورسول الله هاجر بالدعوة إلى الله فلم يكن يخفي شيئًا منها بل كان يدور في المواسم التي يجتمع فيها الناس ويقول لهم:" أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا " وصبر ﷺ على إيذاء المشركين من أهل مكة، وانصب العذاب على المستضعفين صبًا جلد وضرب وحبس وتحريق وقتل، ولكن أدركهم المدد الرباني والتثبيت الإلهي فكأنهم صخرة لا تخدش

وصارت نبضات قلوبهم الخاشعة وهمسات أدعيتهم الضارعة تهز الأفئدة والعروش، أليس ردد بلال الحبشي أحد أحد، أحد أحد؟لم يتراجع ولم ينفتن.

فكم نحن بحاجة اليوم إلى أن نتطلع إلى مواقف هؤلاء الرجال الرجال، وهذا عمر رضي الله عنه يقف في وضح النهار ممتشقًا سيفه قائلاً لصناديد قريش بصوت جهير:" يا معشر قريش من أراد منكم أن تفصل رأسه أو تثكله أمه أو تترمل امرأته أو ييتم ولده أو تذهب نفسه فليتبعني وراء هذا الوادي فإني مهاجر إلى يثرب " فما تجرأ أحد منهم أن يحول دونه ودون الهجرة، وانظروا إلى موقف القائد العظيم محمد بعدما جاءوا إلى عمه أبي طالب يقولون له يا أبا طالب ماذا يريد ابن أخيك إن كان يريد جاها أعطيناه فلن نمض أمرا إلا بعد مشورته، وإن كان يريد مالاً جمعنا له حتى يصير أغنانا وإن كان يريد الملك توجناه علينا ولكن النبي ﷺ الذي يوحى إليه أجاب عمه بقوله :" لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بشمالي ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه " ليس في الأنبياء من يترك الدعوة إلى الله، ليس في الأنبياء من يتخلى عن الدعوة إلى الله مهما اشتد عليه البلاء ليس في أنبياء الله من يعرض عن دين الله لشدة الإيذاء، أجمع المشركون على قتل رسول الله ﷺ فجمعوا من كل قبيلة رجلا جلدا ليضربوه ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه بين القبائل، فأتى جبريل عليه السلام وأخبره بكيد المشركين وأمره بأن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه.

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر ففعل، ثم خرج ﷺ وهم على بابه ومعه حفنة تراب فجعل يذرها على رؤوسهم وهو يقرأ : ؟يس والقرءانِ الحكيمِ إنّكَ لمنَ المرسلينَ على صِراطٍ مستقيمٍ تنزيلَ العزيزِ الرحيمِ لِتُنْذِرَ قومًا ما أُنذِرَ ءاباؤهُمْ فهُمْ غافلونَ لقدْ حَقَّ القولُ على أكثرِهِمْ فهُمْ لا يؤمنونَ إنَّا جعلْنَا في أعناقهم أَغْلالاً فهيَ إِلى الأَذْقانِ فهُمْ مُقمَحونَ وجعلْنَا مِنْ بينِ أَيدِيهِمْ سَدًّا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فأَغْشَيْناهُمْ فهُمْ لا يُبْصِرونَ؟ سورة يس ١ــ٩وفي الطريق حصلت لرسول الله معجزات ببركة الهجرة حيث إن

امرأة ممن سبقت رسول الله ﷺ مات ولدها معها في الطريق إلى المدينة أصابه مرض فمات فتملكها الجزع فقالت اللهم إنك تعلم أني ما هاجرت إلا ابتغاء مرضاتك ومحبة في نبيك فلا تشمت بي الأعداء فقام ولدها في الحال أحياه الله تعالى، قالت فطعم وطعمنا ثم بقي حيا إلى خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه، وقصة الطفيل بن عمرو الدوسي الذي كان معه صاحبه مرض على الطريق فلم يصبر على المرض فأخذ حديدة فقطع بها براجمه فنزف الدم منه فمات، فرءاه صاحبه في المنام مغطيا يديه قيل له مالي أراك مغطيًا يديك،قال: " قيل لي لن نصلح لك ما أفسدت قد غفر الله لي بهجرتي إلى نبيه " فلما وصل إلى رسول الله أخبره ما رأى وما حصل لصاحبه فقال ﷺ :" اللهم وليديه فاغفر " أيها الإخوة يقول الله تعالى في القرءان الكريم ؟إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا؟ الآيةَ، سورة التوبة/٤٠، فهذا الصاحب هو الصدّيق رضي الله عنه وليس معناه أن الله موجود معهما في الغار، بل المعية هنا معية النصرة أي الله تعالى هو الذي ينصرنا ويحمينا، حمى الله تعالى حبيبه محمدا بأوهن البيوت وأوهن البيوت بيت العنكبوت وأرسل حمامة باضت على فم الغار فأعمى الله تعالى أبصار المشركين عن رسول الله ﷺ أما المؤمنون فينتظرون في المدينة المنورة حبًّا وشوقًا وصولَ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويتوافدون إلى مشارف المدينة من ناحية طريق مكة وبعضهم يتسلق الأشجار وينظر إلى بعد عله يرى أثرًا لقدم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وذات يوم والناس في انتظار بلهف وشوق وقد انتصف النهار واشتد الحر توافدوا جماعة بعد جماعة وإذا برجل ينادي بأعلى صوته ها قد جاء من تنتظرون يا أهل المدينة وتكر الجموع عائدة لاستقبال الحبيب المصطفى ﷺ والحب يسبقها ولسان حالها يقول :

طلع البدر علينا *** من ثنيّات الوداع

اللهم أعد علينا هذه الذكرى العظيمة المباركة بالأمن والأمان يا رب العالمين.

هذا وأستغفر الله .

الهجرة النبوية دروس في التخطيط الدقيق والتنظيم المحكم

المستشار محمد المأمون الهضيبي

- ... التخطيط الدقيق للهجرة
- ... الشعارات الجوفاء

أحداث الهجرة وذكرياتها منارات عظيمة على الطريق، منارات للأمم والشعوب والحكام والأمراء والقادة الذين يريدون السيادة والعزة والنصر، فهي دروس عظيمة، وآمال واسعة عميقة لأصحاب الدعوات وحملة الرسالات، فما أحوجنا إليها، فهى تعلمنا كيف يرتبط تاريخ الدعوات بالحركة، حركة الفرد المؤمن، والأمة المؤمنة، والدولة المؤمنة، فالهجرة تمثل خطوات المؤمنين المباركة من مكة إلى المدينة، لإقامة دولة الإسلام الأولى، كما تمثل بحث الحائرين والمعذبين والمضطهدين عن النجاة وعن مثل أعلى، وعن هدف جليل عظيم يطمحون للوصول إليه، هذا الهدف هو الذي صنع تاريخ الأمة، وأقام الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية التي استظل العالم بظلالها ما يزيد عن ألف عام.

ولقد استمر بناء الأساس زمنًا طويلاً، عمّقه الرسول ﷺ بنفسه من خلال الوحي من أجل أن يستقيم البناء، فأوجد من خلال التربية القرآنية الفرد المسلم والجماعة المسلمة صاحبة العقيدة السليمة، والعبادة الصحيحة، والفهم الدقيق الشامل للإسلام، واستغرق البناء طوال الفترة المكية ثلاثة عشر عامًا، ثم ما لبثت عداوة قريش من مقاطعة وتعذيب وقتل للمؤمنين أن وقفت بالمرصاد لرسول الله ﷺ لمنعه بكل الوسائل من تربية الأفراد ونشر الدعوة في مكة، وأصبح المسلمون كأفراد، بلا دولة تجمعهم وتحميهم وتوحدهم، لن يستطيعوا أن يؤدوا دورهم أو يثبتوا وجودهم، أو يرفعوا راية هذا الحق، أو يقفوا أمام الباطل المتكتل المعتدي المدجج بالسلاح.

إن تفكير النبي ﷺ في إيجاد أرض غير مكة بدأ منذ خروجه إلى الطائف؛ لأنه ﷺ أدرك فيها أن مكة لا تصلح لقيام الدولة، وأن كعبتها التي أقيمت للتوحيد الخالص لله

وحده، حوّلها المشركون إلى ساحة تعجّ بالأصنام والأوثان، لا يمكن أن تكون وطنًا لهذه الرسالة.

ولذلك بدأ ﷺ يعرض نفسه على القبائل، ويقول لهم في صراحة ووضوح "من يحملني، من يؤويني حتى أبلغ دعوة ربي، فإن قريش قد منعوني" السيرة لابن هشام.

وهذا موقف نتعلم منه الإيجابية الواقعية، ونتعلم منه مدى حرصه ﷺ على طاقة أصحابه ألا تتبدد في غير موضعها، فسرعان ما نجده تحرك صوب الخروج من مكة، وقبل ذلك حرك بعض أصحابه إلى الحبشة ليكونوا رصيدًا لهذه الرسالة، ولحمايتهم من بطش قريش وكيدها.

التخطيط الدقيق للهجرة

إن هذا التخطيط الدقيق السليم، واتخاذ الأسباب، هما الضمان للنجاح في كل عمل، لقد كان ﷺ في السنة العاشرة من البعثة، يتنقل في موسم الحج يدعو إلى الله، وفي آخر الموسم وجد ستة نفر من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، يستعدون للرحيل، فدعاهم إلى الله، فاستجابوا وأسلموا، وكانوا اللبنة الأولى لدولة الإسلام، والنواة التي قام عليها البناء، وفي السنة التالية عادوا وقد تضاعف عددهم، واتسعت الدائرة، وتم لقاؤهم مع رسول الله ﷺ في العقبة، وكانت البيعة على الأخوة الكاملة في الله، ونبذ الشرك، والتطهر من كل المعاصي.

وأرسل معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه "فاتح المدينة"، وكلفه بأن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وعلى يديه انتشر الإسلام في المدينة، ووجدت القاعدة الجديدة للإسلام، وبذلك مهّد الطريق للهجرة إلى المدينة، ثم عاد إلى مكة في موسم الحج ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، أول هيئة تأسيسية لأمة الإسلام على ظهر الأرض، والتقوا بالرسول ﷺ عند العقبة وكانت البيعة الكبرى على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوموا في الله، لا تخافوا لومة لائم، وعلى

النصرة إذا قدمت إليكم، "وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة" أحمد والحاكم والبيهقي.

في ليلة العقبة الكبرى تمت بيعة بين قائد وجنوده على دحر الباطل وجنده، وقطع دابر الأوثان والأزلام والأصنام حتى قال أحدهم "أتدرون على ما تبايعون هـذا الرجـل، تبايعونه على قتال الأحمر والأسود" وكل من يقف في طريق الدعوة، ويقول البراء بن معرور: "يا رسول الله، نحن والله، أبناء الحروب ورثناها كابرًا عن كابر"، إنه قسـم بالله الذي آمنوا به أنهم سيحمون الرسول ﷺ وينصرونه، وأنهم سيقولون لا لأية قوة في الأرض سوداء كانت أم حمراء تسعى إلى الفتنة، أو الكيـد للـدعوة أو حَمَلَتهـا ورجالها، إنها القوة والصراحة والصدق.. لقد وضح معنى الهجرة عنـد الصـحابة، وفهموا معنى البيعة، ومعنى الالتزام بها، وذلك ما يحتاج المسلمون إليه اليـوم حتـى يقفوا على أقدامهم.

وبالهجرة تمّ الوجود الحقيقي للمسلمين، بعد أن عاشوا في مكة محاصرين مضطهدين، ورغم الأهوال والإيذاء والبطش رفضوا أن يغيّروا أو يبدلوا، بل ثبتوا علـى الحـق الذي آمنوا به، وبالهجرة قامت دولة الإسلام التي آمنت بضرورة التنظيم والتخطيط، والحق أن حياتنا المعاصرة وظروفنا الدقيقة والصراعات الدائرة مع قـوى الباطـل، تحتاج منا دائمًا إلى تأكيد جوانب العقيدة والإيمان العظيم بالله، وهذا الإيمان هو الذي يدعونا إلى العمل الصالح الناجح المنظم، ويدعونا إلى ضرورة الأخذ بالأسباب فـي جميع جوانب الحياة، فهى التي توصلنا إلى ما نريد من صلاح وفلاح ونجاح، ومـع الأخذ الكامل بالأسباب يكون التوكل على ربّ الأسباب جلّ وعلا أثناء العمل وبعـد العمل وفي النتائج، بعد بذل الجهد، وكل ما في طاقة الإنسان من تفكير وتدبير.

إن شأن المؤمنين مع أخذ الأسباب أنهم يقومون بها، كأنها كل شيء للوصول للنجاح، لكنهم مع يقينهم أن كل شيء لا تمام له ولا قيام إلا بـأمر الله، إن أعـداء الله قـديمًا وحديثًا، قال عنهم القرآن الكريم: ؟وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ؟(الأنفال: من الآية٣٠) وهى صورة عميقة التأثير، وذلك حينما ينكشف أمام المؤمن أعداء الله من يهود وأمريكـان

وغيرهم، وهم يتآمرون ويدبرون، ويمكرون، والله من ورائهم محيط، يمكر بهم ويبطل كيدهم، وهم لا يشعرون أين قدرة الله القادر؟ قدرة الجبار القاهر؟ من هؤلاء المهازيل الضعاف؟

وتأتي ذكريات الهجرة النبوية الغالية التي أشرنا إلى بعضها والأمة العربية والإسلامية تمر بظروف خطيرة لا مثيل لها في التاريخ، فالحرب على الأبواب، والهجمة التتارية المغولية الهمجية الجديدة، تدق طبول الحرب، وعشرات الألوف من جنود الأعداء، يملأون الأرض والبحر والجو، وقد حضرت هذه الحشود، لا للسياحة، أو النزهة، بل للعدوان والقتل والتخريب، كما أن الصهيونية، تقتل وتدمر، وتهدم، ودماء الشهداء لا تجف والشعب الفلسطينى المؤمن، يتحمل بوسائله المحدودة صورايخ ودبابات وطائرات وعدوان اليهود، التي تعمل ليل نهار في كل بيت وكل شارع.

إن هذا الوجود الأجنبي في بلاد العروبة والإسلام، والسماح به وتركه لغزو المنطقة، فهو وجود استعماري يجب مقاومته بكل الوسائل المستطاعة، وذلك فرض على الأمة كلها وقواتها وحكامها، وإلا فالأمة كلها آثمة إذا قصرت وسكتت على ذلك، وتركت الحبل على الغارب.

الشعارات الجوفاء:

وفي ظل هذه الأحداث اجتمع مؤتمر القمة العربي وكان المأمول أن تكون القرارات على مستوى الأحداث.. فنرى الآليات والوسائل التي تتخذ للتفعيل والتنفيذ، وأن يكون من بين قراراته إنشاء نظام أمن عربي والعمل على توحيد الصف العربي، بل والاهتمام بإحياء اتفاقية الدفاع المشترك القوي، والعمل على سيادة العقيدة والشريعة، وقيام دفاع مشترك لصد الأخطار ولرد العدوان، وأن يكون من بين القرارات إنشاء نظام اقتصادي، وأن تدعى الشعوب للمشاركة، وأن يمنع الفساد، وأن يضرب على أيدي المفسدين، وأن تغلق المواخير والحانات، وأماكن الفسق والرذيلة، وأن نحرّم ما حرّم الله، وأن نحلّ ما أحلّ الله، فهذا طريق النصر.

لكن الذي حدث هو إطلاق لشعارات، كما يحدث في كل لقاء، والشعارات انكشف أمرها، وبان سرها، فلم يعد مجرد إطلاق شعارات مثل رفض الحرب على العراق، أو مساندة قضايا الشعوب، أو الانحياز لقضايا الحريات، أو مجرد الحماس لحقوق الإنسان، لم يعد كل هذا بكاف للاستمرار على تأييد أو كسب عواطف المغلوبين، أو المهضومين حقوقًا، المسلوبين حرية وديارًا، المطحونين استرقاقًا، إلا أن الخطر والتهديد الأمريكي لا يقتصر على العراق فحسب، ولا أفغانستان وحدها، بل إن الخطر على الجميع.

والعرب والمسلمون إن لم يقولوا اليوم لا للعدوان الأمريكي والصهيوني ويقفوا أمام طغيانه، سنصلى هذه الحروب بعد العراق، وستقع المنطقة كلها في قبضتهم ليعيثوا فسادًا، وتخريبًا، وتغييرًا وتبديلاً، قال تعالى ؟... وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا؟(البقرة: من الآية٢١٧).

هذا وإن إصرار الرئيس الأمريكي ومن حوله على المضي في مخططاته لغزو العراق وقتل المسلمين، ثم محاولاته إعادة رسم خريطة المنطقة على هواه سيدفع الأمور نحو مشاكل ومآزق لكل من يفكر في هذا وهم الخاسرون في المقام الأول، وسيجد هؤلاء أنفسهم أمام أوضاع خطيرة لا طاقة لهم بها، وواضح أن الاندفاع بحقد شديد نحو العدوان يؤكد أن هؤلاء لم يستفيدوا شيئًا مما حدث لهم في أفغانستان، ومن جانب آخر، لقد بلغ الغضب بالشعوب العربية والإسلامية ضد أمريكا منتهاه، وهو معرض للانفجار في أي لحظة، وخاصة بسبب موقف هذه الإدارة الأمريكية السافر المؤيد لعصابات اليهود، ومساندتها على طول الخط، وما يشكله من عدوان، بل واستهتار بكل ما هو عربي ومسلم، يدفع الأمة دفعًا للنظر لأمريكا على أنها العدو الخطير، والمعين الأول للقاتل المتسلط الذي استباح دماء المسلمين وأعراضهم وديارهم، ولا شك أن أمريكا تلعب بالنار، وستندم حين تستقر في الهاوية ؟وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ؟(الشعراء: من الآية٢٢٧).

وللخروج من هذا الوضع الشائك يجب على الحكام، أن يشركوا الشعوب في المسئولية وأن يحترموا حرياتها، وأن يرفعوا عنها الضغوط، وأن يبصروها بحقائق الموقف، وأن الخير كله في هذه الأمة، وإنها دائمًا تلبي النداء وتسارع إلى النجدة، وتحرص على الجهاد في سبيل الله، وعلى التضحية بكل ما تملك، وهي على استعداد لمقاطعة منتجات أمريكا وغيرها، ومنازلة الصهيونية وإخراجها من أرض الإسلام، ورد كيدها في نحرها، ومحاصرتها من جميع جوانبها.

وها هي المظاهرة التاريخية بإستاد القاهرة يوم الخميس الماضي، والتي كانت تتويجًا لتعبير الشعوب المسلمة في العالم الإسلامي عن غضبتها واستعدادها للتضحية، فقد تدفق عشرات الألوف تعلن عداءها الصريح لأمريكا وبني صهيون، واستنكارها للمحاولات الاستفزازية للعدوان على العراق، وكل من شاهد ذلك يجمع بأن هذا الحدث، لم تر مصر له مثيلاً منذ سنة ١٩٥٢، وهذا التجمع يمثل مصر بجميع طوائفها وفئاتها، وهو تعبير صريح للرفض التام، لسياسات الاستعمار والتدخل في شئون الغير، اشترك في هذا المهرجان جميع فئات الشعب، الرجل والمرأة والابن والبنت، فهو بحق يوم تاريخي مشهود، سيظل علامة على وعي الأمة بقضاياها، وأنها تعيش آلام المعذبين في فلسطين وفي العراق وفي كل مكان على ظهر الأرض فيه مسلم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلى الحكام أن يثقوا في الشعوب وأن يقودوهم في الطريق الصحيح، وأن ينصروا قضايا الأمة نصرًا حقيقيًا، وأن يكونوا أمناء في قيادتهم لأمة العروبة والإسلام.

إن أحداث الهجرة جديرة بأن تفتح اليوم أعيننا على ماضينا المجيد وأن تعرفنا بحقيقة الواقع المر الأليم، الذي وصلنا إليه، ويجب أن تهتز قلوبنا وتتحرك عزائمنا، إنه من أوجب الواجبات علينا أن نعرف موقعنا في التاريخ، وكيف جمع القرآن كلمة أسلافنا، وكيف ربط على قلوبهم؟ ووجههم إلى سبيل العزة والسيادة، وقضى في حزم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وفي ظل القرآن وتحت رايته عمّر المسلمون الدنيا وساسوها بالعدل، وسنّوا المساواة.

فما لأحد شرف إلا بالتقوى والعمل الصالح ؟إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ؟(الحجرات: من الآية١٣).

يجب أن تتطلع أمة الإسلام إلى عودة جديدة مبصرة لدينها، فهو سر قوتها، ومصدر عزها، وليس وراء ذلك إلا أن تولّي وجهها بحزم وعزم، إلى منهج الله وحده الذي أمرنا بهذا فقال: ؟اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ؟(لأعراف:٣).

إن الفترات المقفرة من النصر التي تمر بتاريخ هذه الأمة، لا يمكن أن تطمس حقيقة الإسلام الكبرى، تلك الحقيقة التي تقول: إن هذه الأمة هي الأمة الوسط، هي خير أمة أخرجت للناس، هي الجديرة بحمل الأمانة، هي الأمينة على ركب البشرية وهي التي تقدم أغلى ما تملك إلى ساحات الجهاد والبذل والعطاء، مادامت تتزود من عطر الإيمان بربها، والنور الذي أفاضه عليها في الهجرة.

قال تعالى: ؟وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ؟(النحل:٤١-٤٢).

المستشار/ محمد المأمون الهضيبي

المرشد العام للإخوان المسلمين

القاهرة: ٣ محرم ١٤٢٤هـ

الموافق ٦ / ٣ / ٢٠٠٣م

الهجرة النبوية دروس وعبر

ذ. عمر احرشان ...

ونحن على مشارف بداية سنة جديدة يتذكر المسلمون خاصة والبشرية قاطبة ذكرى الهجرة النبوية التي غيرت مجرى التاريخ وبدلت أحوال العالم، وكانت بارقة الأمل لنور عم بعد طول ظلام، وعدل ساد بعد طول ظلم، فعاد ذلك بالخير على الإنسان الذي انتقل من عبادة الأوثان إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأسياد إلى عدل الإسلام ورحمته؛ هجرة وحدت قلوبا كانت متنافرة، وجمعت أجسادا كانت متفرقة، وحررت رقابا كانت مملوكة، وبعثت للعالمين خير أمة أخرجت للناس. فماذا نتذكر من هذا كله في أيامنا هذه والمسلمون أهون ساكني هذه الأرض؟ ما فائدة تذكرها والأحزان تدمي قلوب المسلمين بسبب فلسطين والعراق وأفغانستان و..؟ كيف نتذكرها ورقاب المسلمين في قبضة الاستبداد؟ وما معنى الهجرة أصلا؟ وهل مازالت تتكرر؟ وما العبرة منها؟

معاني الهجرة

الهجرة لغة هي ترك الشيء إلى آخر أو الانتقال من حالة إلى أخرى أو التنقل من مكان إلى آخر، وهي بهذا تتخذ معنى حسيا وآخر معنويا. أما في الاصطلاح فقد وردت بهذه المعاني في العديد من الآيات والأحاديث مثل:

١- هجرة المعاصي والذنوب: لقوله عز وجل: "والرجز فاهجر" المدثر ٥، ولقوله ﷺ "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهاه الله عنه"، ولقوله تعالى: "قال إني ذاهب إلى ربي سيهدين" الصافات ٩٩.

٢- هجرة الكفار: لقوله تعالى: "واهجرهم هجرا جميلا" المزمل ١٠.

٣- تغيير المكان: لقوله تعالى: "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة" (النساء ١٠٠).

وهذه المعاني كلها مازالت صالحة لكل زمان ومكان فما أحوج العبد المومن إلى هجر كل ما يغضب الله عز وجل من فتن وإغراءات وعادات ورعونات وهذه هجرة مفتوحة دائما فقد روى أبو داود بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها"، وهجرة المكان الذي يتسلط فيه حكام ظلمة إن خاف على إيمانه ولم يجد معينا، مطلوبة بقوله تعالى: "إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها" (النساء ٩٧) ثم بين الله تعالى فائدة هذه الهجرة "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" (النساء ١٠٠)، ولا يعفي الإنسان من هجر الظلم والظالمين إلا نية الجهاد ولهذا قال الحبيب المصطفى ﷺ "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية" رواه الدارمي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وما أحوج المومن إلى عفة اللسان وصون حواسه كلها بتعويدها على هجر ما يغضب الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهاه الله عنه" ولقوله ﷺ فيما رواه مسلم عن معقل بن يسار: "العبادة في الهرج كهجرة إلي".

وكم نحن في حاجة إلى هجر الكفار الذين صاروا يعيثون فسادا في أرض المسلمين يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ويستحلون خيراتهم، ويدنسون مقدساتهم.

كل هذا يجعل من حادث الهجرة حدثا ممتدا في الزمان وغير محصور في مكان وغير مقتصر على ثلة دون أخرى.

الهجرة دأب الأنبياء

لم يقتصر حدث الهجرة على سيدنا محمد ﷺ ولكنه شمل عددا آخر من الأنبياء أذن الله لهم بذلك بعدما ضاقت صدورهم مما لحقهم من الأذى، أو بعد بزوغ فرج الله عز وجل لهم، فإبراهيم الخليل عليه السلام قال فيه الله عز وجل: "فآمن له لوط وقال إني

مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم" (العنكبوت ٢٦)، وموسى عليه السلام قال فيه الله عز وجل: وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يـــأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين" (القصص ٢٠)، وكذلك قال فيـــه: "ولقـــد أوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركـــا ولا تخشى" (طه ٧٧) وقال الله تعالى كذلك: "وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون" (الشعراء ٥٢) وفي كل هجرة يأتي الفرج ليستفيد المومن الداعي إلى الله عز وجل أن بعد الكرب الفرج، وأن مع العسر يسرا.

الهجرة: دروس وعبر

لا يمكن حصر الدروس المستفادة والعبر المستقاة من حدث الهجرة النبوية لأنها تتنوع من وقت لآخر، من شخص لآخر، ومن مكان لآخر، ولكن لا بأس من التذكير ببعضها فقط:

١- درس في البذل والتضحية: حيث ترك الصحابة أغلى ما يملكون، وأعز ذكرياتهم ليهاجروا إلى مكان جديد لا علم لهم به، ولا فكرة مسبقة عنه، والجانب الثاني من الدرس المهاجر إليهم الذين تقاسموا معهم ما يملكون وفي هذا قال الله تعالى "والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أتوا ويوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" (الحشر ٩).

٢- معية الله عز وجل: يقول الله تعالى: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين" (الأنفال ٣٠)، فالله عز وجل لا ينسى نبيه ﷺ كما لا ينسى عباده المومنين "إن الله يدافع عن الذين آمنوا" (الحج ٣٨)، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون" (النحل ١٢٨)، وهذا ما انطبق على حادث الهجرة، حيث يقول الله عز وجل: "إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم" (التوبة ٤٠).

وهذا ما وقع لموسى عليه السلام حيث قال قومه "إنا لمدركون" فقال موسى عليه السلام "كلا إن معي ربي سيهدين" (الشعراء ٦٢).

فهذا اليقين هو الذي يورث الثبات والنبات، ولا يتصور فلاح بدون يقين في الله وموعوده "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون" (الهجرة ٢٤).

٣- عدم تعلق القلب بشيء آخر غير الله عز وجل: في حادث الهجـــرة درس بليـــغ حيث قال ﷺ "إنك من أحب بلاد الله إلى قلبي، ولولا أن أهلك أخرجوني منـــك مـــا خرجت"، وهذا طبيعي فيها نشأ ﷺ وترعرع، وفيها نزل عليه ﷺ الـــوحي، ولكـــن رغم ذلك لم يستكين إلى حبها وفضل حب الله عز وجل ورضاه ودعا ربه" اللهم وقد أخرجتني من أحب البقاع إلي فأسكني في أحب البقاع إليك". وهذا درس بليغ.

روى الإمام أحمد عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيرا فأقم"، بل إن الله عـــز وجل توعد من لم يفعل ذلك "إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنـــتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا" (النساء٩٧).

٤- الرؤيا حاضرة حتى في الهجرة: قال ﷺ وهو يتحدث إلى أصحابه "رأيـــت فـــي المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب ظني إلى أنها اليمامة أو هجـــر فإذا هي يثرب".

٥- إن مع العسر يسرا: العبرة بالخواتيم، والدنيا دار ابتلاء، والمومن معرض دائمـــا للاختبار، ولكن الله عز وجل يختار للمومن خير الدنيا والآخرة، ويختم له بالحســـنى وزيادة، فمهما أصابه من قرح فإن بعده فرح، وإن مع العسر يسرا، وفـــي الهجـــرة النبوية درس بليغ لذلك حيث بدل الصحابة أهلا خيرا من أهلهم، وبارك لهم في مكان جعله طاهرا لهم، وفي هذا درس بليغ.

الهجرة النبوية دروس وعبر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله النبي العربي القرشي، بلغ الرسالة وأدى الأمانة وكشف الله به عنا الغمة، وعلى ءاله وصحبه الطيبين الطاهرين. أما بعد، فقد قال الله تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنال}، كان الرسول ﷺ يدعو إلى الله جهرًا ويمرّ بين العرب المشركين حين كانوا يجتمعون من نواحي شتى في الموسم ويقول: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" ويبين لهم أنه رسول الله، ودعا إلى العدل والإحسان ومكارم الأخلاق، ونهى عن المنكر والبغي.فآمن به بعض الناس كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وغيرهم، ولما اشتد عليهم الأذى هاجر بعض أصحاب النبي إلى الحبشة الهجرة الأولى لدعوة الناس للإسلام وكانوا نحو ثمانين منهم عثمان بن عفان وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم. ولما كثر أنصار رسول الله ﷺ بيثرب أمر الله نبيه محمدًا ﷺ ومن معه من المسلمين بالهجرة إليها بعد بعثته ﷺ بثلاث عشرة سنة، فصار المسلمون يهاجرون أفواجًا أفواجًا فلما رأى المشركون ذلك خشوا خروجه عليه الصلاة والسلام فكمنوا له ليقتلوه فتجهز لذلك من كل قبيلة رجل جلِد نسيب ليضربوه ضربة رجل واحد فلا يستطيع قومه أن ينتقموا له، ولكن الله أعلم نبيه بكيد المشركين وما يسعون إليه فجاء له سيدنا جبريل عليه السلام وأمره أن لا يبيت في فراشه الذي ينام فيه وأخبره بأن الله تعالى أذن له بالهجرة فأمر عليه الصلاة والسلام سيدنا علي بن أبي طالب أن يبيت مكانه وأمره أن يؤدي الأمانات إلى أهلها. ولما كانت ليلة الهجرة، كان الكفار يقفون بباب النبي صلى الله عليه وسلم، فإذ به يخرج عليهم آخذا حفنة من التراب فرماها على أعينهم، وهو يقرأ الآيات: {يس والقرءان الحكيم} إلى قوله تعالى: {وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون} فأصابت كل واحد منهم بقدرة الله تعالى وأعمى الله أبصارهم فلم يروه. واستبشر المسلمون بقدوم

النبي ﷺ حين وصل إلى يثرب التي سماها النبي المدينة المنورة وءاخى بين أهلها والمهاجرين وسمى أهلها الأنصار لأنهم نصروا دين الله تعالى، ثم بنى مسجده الشريف ومساكنه فيها، وبه انطفأت فتنة عظيمة كانت بين قبيلتي الأوس والخزرج بيثرب بعد أن دامت سنوات فصار المسلمون على قلب رجل واحد لا يفرق بينهم طمع ولا دنيا ولا يباعدهم حسد ولا ضغينة حتى غدوا كالبنيان المرصوص يشد بعضهم أزر بعض، وقد نصر الله نبيه وأيده وكان وعد الله حقا، فهو القائل عز وجل: إنا لننصر رسلنا والذين ءامنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.إخوة الإيمان... لم تكن هجرة النبي طلبًا للراحة ولا هربًا من المشركين ولا تخليًا عن الدعوة إلى الله ولكن تنفيذاً لأمر الله تعالى، فهو عليه الصلاة والسلام القائل: "ما لي وللدنيا وما للدنيا ولي، إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"، وهو القائل لعمه أبي طالب: "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله سبحانه وتعالى أو أهلك دونه".إن الهجرة النبوية دروس وعبر نتعلم منها أن الالتزام بعقيدة التنزيه والتوحيد هو أول مراتب التعاضد واللحمة بين المسلمين فقد دعى عليه الصلاة والسلام إلى التوحيد وهو بمكة فكان من ثمراته أن انتشر الإسلام في المدينة المنورة قبل هجرته إليها، مما يؤكد علينا أهمية العمل بقوله تعالى: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقوله تعالى: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله".كل عام وانتم بخير والله تعالى أعلم وأحكم

الهجرة النبوية عطاء بلا حدود وعزيمة لا تعرف اليأس

عام هجري جديد.. السبيل إلى الصحة النفسية في عالم مضطرب

* د . لطفي الشربيني

مع قدوم العام الهجري الجديد يعيش العالم الاسلامي في مناخ روحي متميز مع الذكري التي تمثلها الهجرة النبوية الشريفة ، وما تضمنته من دروس وعبر متجددة تمثل املا في الخروج من هذا الواقع الاليم الي اوضاع أخري افضل تمتد آثارها لتشمل كل نواحي حياة المسلمين .. وفي هذا الموضوع نتناول هذه المناسبة مع تأملات في الدين والحياة في سياق أكثر شمولا للاجابة عن التساؤلات حول الجوانب النفسية للهجرة ، ومايتعلق بها كما نلاحظها ونرصدها من وجهة النظر النفسية .. كما اننا هنا نعرض اهمية التقرب الي الله بالعبادات المختلفة ، ودور الايمان بالله في الوقاية والعلاج من الامراض النفسية والمشكلات الأخري ، والوصول الي حالة من الطمأنينة والاستقرار والاتزان النفسي .

وهذه المناسبة هي بمثابة موسم يتكرر كل عام .. وهي مناسبة للتأمل والتدبر والوقوف مع النفس ، حيث يمر علي الخاطر هذه التأملات في النفس الانسانية ، وهي في حالة الصحة النفسية او الاضطراب النفسي .. فالاسلام دين حياة يضمن التوازن بين الدنيا والآخرة .. ويهتم المنظور الإسلامي بالجوانب الروحية والمادية في حياة الانسان ، ويضمن تحقيق التوازن بينها ، والاضطرابات النفسية هي خلل في الاتزان النفسي ينتاب الانسان نتيجة للصراع الداخلي في نفسه بين قوي الخير والشر ، أو بين المثل العليا والرغبات الانسانية الجامحة ، وفي تعاليم الدين الاسلامي ما يضمن الوقاية من الاضطرابات النفسية علي المستوي الفردي ومنها الاكتئاب والقلق والوساوس المرضية .. وحل الصراعات المختلفة علي المستوي الجماعي ايضا ، مما يؤدي الي الشفاء والعلاج والاصلاح . وتركز تعاليم الدين الاسلامي علي التنشئة السوية للانسان وغرس القيم والأخلاق القويمة التي تحقق السلوك السوي والاتزان

النفسي ، فالمسلم يجب ان يؤمن بالله سبحانه وتعالي ، وبالقدر خيره وشره ، ويجب ان يعبد الله سبحانه وتعالي ويذكره في كل المواقف ، فذكر الله يوفر للواحد منا مقدارا دائما من الطمأنينة والسلام النفسي في مواجهة ما يهدده من امور الحياة .

وتعتبر الصراعات الداخلية هي الأساس في المشكلات والمتاعب النفسية التي يعاني منها الانسان ، ويصف القرآن الكريم هذه الصراعات في بعض المواضع ومنها الآيات : ولا يزالون مختلفين إلا من رحم بك ولذلك خلقهم . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين .

ولما كانت الخسارة المادية هي السبب الرئيسي في حدوث القلق والاكتئاب والوساوس المرضية لدي كثير من الناس ، وكذلك المكاسب التي يحصلون عليها والتي تتسبب في شعورهم بالغرور وعدم الاتزان والنتائج في كل هذه الحالات سلبية ، فقد ورد وصف لذلك في آيات القرآن الكريم لكيلا تأسوا علي ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم

وللإيمان القوي بالله تعالي دور مهم في الوقاية والعلاج من الاكتئاب والاضطرابات النفسية الاخري ، فالمؤمن يثق في الخالق سبحانه وتعالي ، ويجد دائما المخرج من الهم وحل للأزمات التي تواجهه بالاتجاه الي الله تعالي وهو يعلم ان الله سبحانه خالق كل شيء .

كما يضع القرآن الكريم حلولا ايمانية لمواجهة أسباب الاكتئاب منها ما ورد في الآيات الكريمة خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وقوله ولاتستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ويؤدي الالتزام بروح الدين والعقيدة في التعامل مع النفس ومع الآخرين والرجوع الي تعاليم الشريعة في كل السلوكيات الي الأمانة والجدية في العمل والمعاملة والتحلي بالصبر ، والتسامح والمحافظة علي حالة من الصحة البدنية والنفسية بالابتعاد عن المحرمات ،

ويؤدي ذلك الي شعور داخلي بالراحة النفسية في مواجهة مشاعر الذنب والاكتئاب ، وفي القرآن والسنة ما يرشد المؤمنين الي وسائل العلاج والشفاء لما يصيب الانسان

من أمراض الجسد والنفس ، قال تعالي يأأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدي ورحمة للمؤمنين . وكما يقدم لنا المنظور الاسلامي النموذج الذي يكفل لنا الوقاية من الاضطرابات النفسية ، فإنه يقدم أيضا العلاج لما يمكن ان يصيب الانسان من امراض واضطرابات ، وقد ثبت من خلال التجربة ان تقوية الوازع الديني ، اللجوء الي الله والتمسك بالعقيدة ، والايمان القوي بالله تعالي من ، الامور التي تفيد عمليا في علاج حالات الاكتئاب وقد أجريت الأبحاث للمقارنة بين الاشخاص الذين يتمتعون بعقيدة قوية ويحافظون علي العبادات ولديهم ايمان قوي بالله تعالي مقارنة بغيرهم تتبين ان قابليتهم للشفاء والتغلب علي اعراض الاكتئاب اكثر من المجموعات الاخري .. رغم استخدام نفس انواع العلاج الطبي في كل الحالات ومن هنا كانت هذه الدعوة العامة للمرضي والاصحاء ايضا للصحة النفسية والشفاء عن طريق الرجوع الي القرآن والسنة ، وروح الدين الاسلامي .

الاهرام

الهجرة النبوية في فكر الشيخ الغزالي

وصفي عاشور أبو زيد **- ٢٠٠٤/٠٢/٢٥

الشيخ محمد الغزالي

لقد تمتع الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- بثقافة موسوعية أنتجت لنا العديد من الكتب في شتى نواحي الفكر والمعرفة؛ فنجد له تراثًا في العقيدة والتفسير، والأخلاق والتصوف، والفكر والفلسفة، والأدب والدعوة، والإصلاح والتغيير، وغيرها.

ومن أبرز المجالات التي أبدع فيها الشيخ الغزالي مجال السيرة النبوية التي له فيها صولات وجولات مع الأحداث، وتعليقات على كثير من المواقف والغزوات، يشعر القارئ معها بفكر جديد وفهم فريد لأحداث ووقائع السيرة العطرة.

ومن القضايا المهمة التي تحدث عنها الشيخ في السيرة في غير موضع من كتبه قضية الهجرة النبوية التي تمر علينا ذكراها في هذه الأيام، وقد تمركزت أفكار الشيخ حولها فيما يلي:

أولا: الهجرة حدث أكبر من أن تعلق عليه سورة واحدة

وهذه واحدة من مناقب الشيخ في فهمه للهجرة النبوية؛ ذلك أننا أَلِفْنا أن يتنزل القرآن تعليقًا على ما يكون من أحداث؛ فيوجه المسلمين التوجيه الذي يفتقرون إليه؛ فإن كان نصرًا بيّن أسبابه وكسر الغرور الذي قد يصاحب المنتصرين، وإن كانت هزيمة بيّن أسبابها ومسح التراب الذي عفر جباه المنهزمين.

لقد نزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر، ونزلت سورة الأحزاب في أعقاب الخندق، ونزل النصف الأخير من سورة آل عمران في أعقاب أحد.. فهل نزلت في أعقاب الهجرة سورة لا سيما بعد نجاح رحلتها كما حدث في أعقاب الغزوات؟

ويجيب الشيخ على هذا التساؤل قائلا: "لم يقع هذا، ولكن وقع ما هو أخطر وأهم، كأن الله -سبحانه وتعالى- حكم بأن قصة الهجرة أكبر من أن تعلق عليها سورة واحدة، وأن تمر مناسبتها بهذا التعقيب وينتهي الأمر؛ فحكم -جل شأنه- بأن تكون ذكرى

الهجرة قصة تؤخذ العبرة منها على امتداد الأيام، وتُذكر في أمور كثيرة وفي مناسبات مختلفة"(١).

ومن ناحية أخرى يرى الشيخ أنها لم تُذكر في سورة واحدة مثل المعارك؛ لأن "هذه المعارك استغرقت أيامًا قليلة، أما الهجرة فشأن آخر.. لقد ظلت أفواج المهاجرين متصلة سنين عددًا، وتطلَّب التعليق عليها مواضع عديدة"(٢).

ومن ثم ذُكرت الهجرة في سور: البقرة(٣) وآل عمران(٤) والنساء(٥) والأنفال(٦) والتوبة(٧) والنحل(٨) والحج(٩) والممتحنة(١٠) والتغابن(١١) والحشر(١٢)...

وكان التعليق في كل سورة إبرازًا لمعنًى مقصود(١٣).

ثانيًا: وزن الإيمان في الهجرة

والإيمان في فكر الشيخ له وزن لا يستهان به عموما، وفي الهجرة خصوصا؛ فليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناءٍ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة، إنها إكراه رجل آمِنٍ في سربه، ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه وتضحيته بأمواله والنجاة بشخصه، وإشعاره بأنه مستباح منهوب قد يُسلَب أو يَهلك في بداية الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان، ولو كان الأمر مغامرة شخص بنفسه لقيل: مغامر طياش؛ فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها حاملاً أهله وولده؟! وكيف وهو بذلك رضيُّ الضمير وضاء الوجه(١٤).

ما السر وراء تحمله ذلك كله؟ وليس الأمر تحملا وحسب، إنما تحمُّلٌ يصاحبه فرحة وسرور، وصبر يحوطه رضًى وحبور، إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش، هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن تربى على تعاليم النبوة، وقبَس من أنوار الوحي، وتضلَّع من هدْي الإسلام.

أما الهياب الخوَّار القَلِق فما يستطيع أن يفارق أهله ووطنه، فضلا عن أن يكون بذلك مطمئن النفس رضيَّ الضمير.

ثالثًا: إيمان بالمستقبل وثقة بالغيب

هكذا يعبر الشيخ "إيمان بالمستقبل وثقة بالغيب"، وكان المنتظر أن يقول "إيمان بالغيب وثقة بالمستقبل"، لكنه عبر مع المستقبل بالإيمان ليرفع الثقة بالمستقبل إلى درجة العقيدة والإيمان بالغيب.

فلن تكتمل حقيقة الدين في قلب إلا إذا كان الإيمان فيه بالغيب قسيم الإيمان بالحاضر، ولا يصح تدين ما إلا إذا كان الإنسان مشدود الأواصر إلى ما عند الله، مثلما يتعلق بما يرى ويسمع في هذه الدنيا؛ فالمجاهد مثلا يقاتل من أجل النصر للعقيدة أو الشهادة لنفسه، لكن النصر عنده غيب، خصوصًا إذا وهنت الوسيلة، وقل العون، وترادفت العوائق، بيد أن هذا النصر ينبع من الإيمان بالله؛ فهو يمضي في طريقه المر واثقًا من النتيجة الأخيرة. إن غيره يستبعدها أو يرتاب فيها، أما هو فعقيدته أن اختلاف الليل والنهار يقربه منها وإن طال المدى؛ لأن الله حقَّ على نفسه عون الموحدين ونصر المؤمنين.. فلماذا الخوف من وعثاء الطريق وضراوة الخصوم؟ ولِمَ الشك في وعد الله القريب أو البعيد؟!

إن المهاجرين الأوائل لم ينقصهم إيمان بمستقبل أو ثقة بغيب، إنما نهضوا بحقوق الدين الذي اعتنقوه، وثبتوا على صراطه المستقيم، على الرغم من تعدد العقبات وكثرة الفتن، من أجل ذلك هاجروا لمَّا اقتضاهم الأمر أن يهاجروا، وبذلوا النفس والنفيس في سبيل عقيدتهم.

ومع أن الله تعالى وعد المؤمنين أن رسالتهم ستستقر، وأن رايتهم ستعلو، وأن الكفر لا محالة زاهق، إلا أنه علق أفئدتهم بالمستقبل البعيد وهو الدار الآخرة: {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} (الزخرف ٤١- ٤٤). ومن هنا لا يعتري النفسَ مللٌ، ولا الجسم كلل؛ لأن أشواقه ممتدة إلى المستقبل البعيد، وآماله قد طارت لتحط في أفراح الآخرة عند رب العالمين.

فليس شرطًا أن يرى المرء ثمرة جهاده والتمكين لدينه وهو حي، بل ربما يطويه الموت، ولم يعرف بعدُ نتيجة الصراع بين الهدى والضلال، وهذا كثير الوقوع، لكن وعد الله لا يتخلف: "فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون"؛ فيكون هذا المرء جسرًا تعبر عليه الأفكار والمبادئ إلى جيل يرى نصرتها والتمكين لها.

والخطة المثلى أن يؤدي المرء واجبه المجرد دون استعجال لنتائج المعركة المحتدمة بين الحق والباطل؛ لأن الله قد تولاها بذاته العلية.

في إطار هذا الإيمان العميق لبى المسلمون نداء الهجرة عندما طولبوا بها، واستجابوا لنداء الله ورسوله غير خائفين ولا جازعين(١٥).

رابعًا: فكرة لا رحلة

فالهجرة في فكر الشيخ ليست رحلة ولا عملاً ترفيهيًّا، ولم تكرَّم الهجرة لكونها سفرًا فحسب؛ فما أكثر المسافرين قديمًا وحديثًا بين مكة والمدينة.

إن الشيء الواحد قد يكون عملاً مضنيًا أو لعبًا مريحًا مسليًا، فالمظهر والشكل لا يتغير، لكن الذي يتغير هو البواعث والجوهر والملابسات.

فصيد السمك رياضة مرحة يلهو بها بعض المترفين الناعمين، بينما هو عند أناس آخرين حرفة يرتزقون منها مع الكدح والمكابدة، والرحلة من قطر إلى قطر قد تكون للتنعم والاسترواح، وقد تكون مشيًا في مناكب الأرض لتحصيل علم، أو جمع رزق، أو فرارًا من شر محظور إلى خير منظور.

وهكذا كانت الهجرة.. خطواتٌ يتحرك بها القلب المؤمن في الحياة؛ فتتحرك في ركابها الثقة الغالية والتضحية النبيلة، إنها طريق الأبطال تزدحم بالفدائيين من حملة العقائد، يتركون البلد الذي اضطُهد دينهم فيه ليلتمسوا في مهجرهم مأمنًا لعقيدتهم ومتنفسًا لدينهم، ويقيموا فيه مجتمعا يحتضن الشعائر والشرائع.

وفي الهجرة نفسها خرج رجل إلى المدينة من أجل عشيقة يهواها، وشتان بين المهاجرين لعقيدتهم ودينهم وبين من يخطو خطوات الشهوة الصغيرة، تتحرك

بصاحبها؛ فلا تفرق بينها وبين خطوات الدابة التي حملته، ورب قاعد في بلده أشرف نفسًا من هذا المهاجر التافه(١٦).

خامسًا: ليست تخلُّصًا من فتنة بل لإقامة مجتمع آمن

والهجرة في فكر الشيخ الغزالي ليست تخلصًا من فتنة أو فرارًا من أذًى، وإلا لم يكن هنالك مبرر للمكث ثلاثة عشر عامًا في هذا الجو الملبد بسحب الكفر والاضطهاد، إن الذي يبرر هذه المدة هو تمهيد المؤمنين بقيادة النبي –صلى الله عليه وسلم– لإقامة مجتمع جديد في بلد آمن ذهب إليه مصعب بن عمير ليستتبع الناس ويستقطبهم للإسلام؛ ذلك أن إقامة الدين في مجتمع مكة أضحى دونه خرط القتاد؛ لما اتصف به من عناد وجبروت، فلم يكُ يصلح لهذا الفكر، والدعوة ما زالت وليدة غضة طرية، والمسلمون قلة مستضعفة، فلم يكن هنالك بدٌّ من التهيئة للدين في مكان آمن، عندئذ يقوى المسلمون وتشب الدعوة.

ويعلق الشيخ قائلا: "ولا شك أن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة، وأصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة –بعد الهجرة إليها– نكوصًا عن تكاليف الحق، وعن نصرة الله ورسوله؛ فالحياة بها دين؛ لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها"(١٧).

سادسًا: الهجرة تطبيق لقانون السببية

الأخذ بالأسباب في فكر الشيخ الغزالي دين، وهو معنًى يكرره الشيخ كثيرًا كلما عرض للحديث عن الهجرة أو للكلام عن تخلف المسلمين وتقدم غيرهم(١٨)، لم يقل النبي –صلى الله عليه وسلم–: إننا أوذينا وأُخرِجنا من ديارنا؛ فعناية الله ينبغي أن تلاحقنا، وحماية الله يجب أن تحوطنا، ولا حرج في بعض التقصير فإن الله سيجبر الكسر ويسد النقص... إلى آخر هذا الكلام، لم يقل النبي هذا، إنما استنفد كل وسيلة بشرية يمكن أن تؤخذ، فلم يترك ثغرة، ولا أبقى في خطته مكانًا يكمله الذكاء والفطنة.

ومع أن محمد بن عبد الله –عليه السلام– أولى الناس بتوفيق الله ورعايته، وأجدر الخلق بنصره وعنايته؛ فإن ذلك لا يغني عن إتقان التخطيط وإحكام الوسائل وسد الثغرات شيئًا مذكورًا.

ومن هنا جعل –صلى الله عليه وسلم– يفكر في الاختباء في الغار وفي تضليل أعدائه؛ فكان يتجه جنوبًا وهو يريد أن يتجه إلى الشمال، وأخذ راحلتين قويتين مستريحتين حتى تقويا على وعثاء السفر وطول الطريق. وهذا دليل مدرَّب ليعرف ما هنالك من وجوه الطرق والأماكن التي يمكن السير فيها بعيدًا عن أعين الأعداء، وهذا علي بن أبي طالب ينام مكانه ليضلل الكافرين، وذلك يسير بالأغنام وراءهما يمحو آثار المسير، ولكي يكون على دراية تامة باتجاهات العدو ونواياه تأتيه الأخبار عن طريق راعي أبي بكر، كما أتت بعض الأغذية عن طريق بنت أبي بكر... هل بقي من الأسباب شيء لم يؤخذ، أو من الوسائل لم يستنفد، أو من الثغرات لم يُسد؟ كلا كلا..

إن منطق الإسلام هو احترام قانون السببية؛ لأن الله تعالى لا ينصر المفرطين ولو كانوا مؤمنين، بل ينتقم من المقصرين المفرطين كما ينتقم من الظالمين المعتدين، "وإذا تكاسلت عن أداء ما عليك وأنت قادر، فكيف ترجو من الله أن يساعدك وأنت لم تساعد نفسك"(١٩). كيف ينتظر المرء من الله أن يقدم له كل شيء وهو لم يقدم له شيئًا؟!

وليس معنى الأخذ بالأسباب الاعتماد عليها، بل الطريقة المثلى في التصور الإسلامي أن يقوم المسلم بالأسباب كأنها كل شيء في النجاح، ثم يتوكل على الله كأنه لم يقدم لنفسه سببًا، ولا أحكم خطة، ولا سد ثغرة.

وهذا هو الفرق بين موقف المؤمن والكافر من الأخذ بالأسباب؛ فالمؤمن يأخذ بالأسباب ولا يعتمد عليها ولا يعتقد أنها هي التي تفعل أو تترك، بل يؤمن أن الأمور بيد الله، وأن النتائج تتم بقدرة الله، وأن شيئًا لا قيام له إلا بالله.

بينما يعتقد الكافر -إن جاز أن تكون له عقيدة- أن الأسباب هي الفاعلة والمعوَّل عليها، ولا علاقة لها بالتوفيق الأعلى.

إذن فالإسلام يحترم قانون الأخذ بالأسباب، غير أن المسلمين لم يكونوا على مستوى دينهم مع هذا القانون، يقول الشيخ في ذلك متحسرًا: "ومع حرص الإسلام على قانون السببية، وتنفيذ النبي -صلى الله عليه وسلم- له بدقة؛ فأنا لا أعرف أمة استهانت بقانون السببية وخرجت عليه وعبثت بمقدماته ونتائجه كالأمة الإسلامية"(٢٠).

---

* نقلا عن مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٤٩ بتصرف

(**) باحث مصري في العلوم الشرعية

(١) خطب الشيخ الغزالي: ٢١١/٤، دار الاعتصام. بدون تاريخ.

(٢) علل وأدوية: ١٤، ٥دار الكتب الإسلامية. طـ ثانية . ١٤٠٥هـ.

(٣) راجع آية: ٢١٨.

(٤) راجع آية: ١٩٥.

(٥) راجع الآيات: ٩٧-٩٩.

(٦) راجع الآيات: ٢٦-٣٠.

(٧) راجع الآيات: ٣٨-٤٠.

(٨) راجع الآيتين: ٤١-٤٢.

(٩) راجع الآيتين: ٣٩-٤٠.

(١٠) راجع آية: ١٠.

(١١) راجع آية: ١٤.

(١٢) راجع الآيات: ٨-١٠.

(١٣) راجع: شرح الشيخ وإبرازه لمقصود كثير من الآيات في الخطب: ٤/ ٢١١-٢١٧، وعلل وأدوية: ١٤٥-١٥٠.

(١٤) راجع: فقه السيرة: ١٨٢، بتعليقات الشيخ الألباني. دار الدعوة. طـــ ثانيـــة. بدون تاريخ.

(١٥) راجع: ركائز الإيمان بين العقل والقلـــب: ٩٥-١٠٠ دار الاعتصـــام. بـــدون تاريخ.

(١٦) تأملات في الدين والحياة: ١٠٧ــ ١٠٨، دار الدعوة. طـــ أولى. ١٤١٠هـــ.

(١٧) فقه السيرة: ١٨١.

(١٨) راجع مثلاً فقه السيرة: ١٨٧-١٨٨، والخطب: ٢/٣٢-٣٣، ٣/٢٣٢.

(١٩) علل وأدوية: ١٤٤.

(٢٠) راجع الخطب: ٢/٣٣.

الهجرة النبوية لم تكن هروباً من أذى الكفار بمكة

الدوحة – الشرق :

أكد الشيخ أحمد بن محمد البوعينين في خطبته بجامع صهيب الرومي بمدينة الوكرة أمس ان الهجرة النبوية غيرت وجه التاريخ، وأنها لم تكن هروباً من أذى الكفار في مكة كما يعتقد البعض، وإنما كانت تأسيسا لدولة الإسلام التي أرسى قواعدها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقال الشيخ البوعينين في بداية خطبته متناولاً الأحداث التي ألمت بالهجرة إن رسول الله ﷺ لما بُعث أُمِرَ بالتبليغ والإنذار بلا قتال فظل أربعة عشر عاماً يدعو الناس الى الاسلام من غير قتال فآمن به بعض الناس كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وغيرهم، وبقي على الكفر أكثر الناس وصاروا يؤذونه وأصحابه، فلمّا اشتد عليهم الأذى هاجر بعض أصحاب النبي الى الحبشة وكانوا نحو ثمانين منهم عثمان بن عفان وجعفر بن أبي طالب.

وأضاف أنه لما كثُر أنصار رسول الله ﷺ بيثرب أمر اللهُ المسلمين بالهجرة إليها فخرجوا أرسالاً، ثم هاجر النبي ﷺ من مكة محلّ ولادته مع أبي بكر الصدّيق بعد أن أقام في مكّة منذ البعثة ثلاث عشرة سنة يدعو الى التوحيد ونبذ الشرك. ولم تكن هجرة النبي ﷺ حبّاً في الشُهرة والجاه والسلطان فقد ذهب اليه أشراف مكّة وقالوا له : إن كنت تريدُ بما جئتَ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ تريدُ مُلْكاً ملّكناكَ إيّاه ولكنَّ النبي العظيم أسمى وأشرف من أن يكون مقصوده الدنيا.

ولهذا كان يقول النبي ﷺ لعمّه أبي طالب حين أتاه يطلب منه الكفّ عن التعرّض لقومه وما يعبدون: «والله يا عمّ لو وضَعُوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يَساري على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يظهرَه اللهُ سبحانه وتعالى أو أهْلِكَ دونه».

وبالنبي ﷺ اقتدى الصحابة الأجلاّء فقد خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من مكة مع أربعين من المستضعَفين في وضح النهار ممتشقاً سيفه قائلاً لصناديد قريش

بصوت جهير: «يا معشر قريش من أراد منكم أن تفصَل رأسه أو تثكله أمّه أو تترمَّل امرأته أو ييتّم ولده أو تذهب نفسه فليتبعني وراء هذا الوادي فإني مهاجر الى يثرب»، فما تجرأ أحد منهم أن يحول دونه ودون الهجرة.

وواصل في سرد أحداث الهجرة قائلاً: إنَّ المشركين كانوا قد أجمعوا أمرهم على قتل رسول الله ﷺ فجمعوا من كلّ قبيلة رجلاً جلداً نسيباً وسيطاً ليضربوه ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه في القبائل، فأتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ فأمرَه أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم وأنزل الله تعالى «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» (الأنفال: ٣٠).

فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسَجّى ببُرْدٍ له أخضر ففعل، ثمّ خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه ومعه حُفنة تراب فجعل يذرّها على رؤوسهم، وأخذ الله عز وجلّ بأبصارهم عن نبيّه، وهو يقرأ «يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» الى قوله «فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ» (سورة يس) فلما أصبَحوا فإذا هم بعليّ بن أبي طالب فسألوه عن النبي فأخبرهم أنّه خرج فركبوا في كلّ وجه يطلبونه وكان رسول الله ﷺ قد سار مع أبي بكر رضي الله عنه حتى وصلا الى غار ثور فدخلاه، وجاءت العنكبوت فنسجت على بابه، وجاءت حَمامة فباضت ورقدت، فلما وصلَ رجال قريش الى الغار قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله لو أن أحدَهم ينظر الى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أبا بكر ما ظنُّكَ باثنين الله ثالثهما».

وركز الشيخ البوعينين على قضية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكيف حققت هذه المؤاخاة أساس المجتمع المسلم بالمدينة، مبينا أنه لما سلّم الله نبيّه الكريم من شرّ المشركين فوصل الى المدينة المنورة ومعه صاحبه فاستقبله المؤمنون بالفرح واستبشروا بقدومه، وسمّى الرسول يثرب بالمدينة المنورة وآخى بين أهلها والمهاجرين، وسمّاهم الأنصار، وبنى مسجده ومساكنه.

وقد استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين ومدّوا لهم يد المساعدة والعون حتى كان الانصاري يقسِم ماله ومتاعه بينه وبين أخيه المهاجر.

فحَرِيٌّ بنا أن نقتدي بهؤلاء الأفذاذ من الناس الذين عرفوا معنى الأخوّة الحقيقي فأيّدهم الله بنصره.

وعندما دخل النبي ﷺ المدينة وكانت كل قبيلة تتنازع لأخذ زمام ناقة النبي ﷺ ويقول النبي ﷺ «دعوها فإنها مأمورة» وأول شيء فعله بناء المسجد...

وتناول في خطبته الثانية الفوائد والعبر والدروس المستفادة من الهجرة قائلا: إنَّ في هجرة النبي ﷺ فوائد وعِبَر وإنَّ من أخبار الهجرة قِصّةُ سُراقة بن مالك ابن جُعْشم المُدلجيّ الذي لحق النبي على فرسٍ له وكان قفّاء يتبع الأثر فرءاه أبو بكر رضي الله عنه فقال لرسول الله «هذا الطّلَب لحقنا» فقال ﷺ لصاحبه أبي بكر: «لا تَحزن إنَّ الله معنا» فلمّا دنا سُراقة ساخت به قوائم فرسه الى ركبتيه في أرض صلبة، فنادى سُراقة «يا محمد ادع الله أن يخلّصني ولك عليَّ لأعمينَّ على من ورائي» فدعا له فخلص، ثم أخبره سُراقة بما ضمِنَه له قومه عند ظفره به. ثم تركهم ورجَع ولم يُسْلِم حينها مع أنّه رأى هذه المعجزة العظيمة لأنَّ الله ما شاء له أن يُسْلِم في ذلك الوقت ولكنَّ الله تعالى شاء له أن يكون من أهل السعادة فأسلَم عامَ الفتح.

الهجرة النبوية معناها وأهدافها

يعتبر حادث الهجرة فيصلاً بين مرحلتين من مراحل الدعوة الإسلامية، هما المرحلة المكية والمرحلة المدنية.

ولقد كان لهذه الحادث آثار جليلة على المسلمين، ليس فقط في عصر رسول الله ﷺ ولكن آثاره الخيرة قد امتدت لتشمل حياة المسلمين في كل عصر ومصر، كما أن آثاره شملت الإنسانية أيضاً، لأن الحضارة الإسلامية التي قامت على أساس الحق والعدل والحرية والمساواة هي حضارة إنسانية، قدمت، ولا زالت تقدم للبشرية أسمى القواعد الروحية والتشريعية الشاملة، التي تنظم حياة الفرد والأسرة والمجتمع، والتي تصلح لتنظيم حياة الإنسان كإنسان بغض النظر عن مكانه أو زمانه أو معتقداته.

فسيرة المصطفى ﷺ لا تحد آثارها بحدود الزمان والمكان، وخاصة أنها سيرة القدوة الحسنة والقيادة الراشدة قيادة محمد ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وما نتج عن هذه الهجرة من أحكام ليست منسوخة ولكنها تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان ما دام حال المسلمين مشابهاً للحال التي كانت عليها حالهم أيام الهجرة إلى يثرب.

وعلى هذا فإن من معاني الهجرة يمكن أن يأخذ بها المسلمون في زماننا هذا، بل إن الأخذ بها ضرورة حياتية، لأن الهجرة لم تكن انتقالاً مادياً من بلد إلى آخر فحسب، ولكنها كانت انتقالاً معنوياً من حال إلى حال، إذ نقلت الدعوة الإسلامية من حالة الضعف إلى القوة ومن حالة القلة إلى الكثرة، ومن حالة التفرقة إلى الوحدة، ومن حالة الجمود إلى الحركة.

فالهجرة تعني لغة ترك شي إلى آخر، أو الانتقال من حال إلى حال، أو من بلد إلى بلد، يقول تعالى: »والرجزَ فاهجرْ« (المزمل ٥)، وقال أيضاً: »واهجرهم هجراً جميلاً« (المزمل ١٠)، وتعني بمعناها الاصطلاحي الانتقال من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وهذه هي الهجرة المادية، أما الهجرة الشعورية فتعني الانتقال بالنفسية الإسلامية من مرحلة إلى مرحلة أخرى بحيث تعتبر المرحلة الثانية أفضل من الأولى

كالانتقال من حالة التفرقة إلى حالة الوحدة، أو تعتبر مكملة لها كالانتقال بالدعوة الإسلامية من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة.

فالهجرة المادية من بلد لا يحكم بالإسلام إلى بلد تحكمه شريعة القرآن ليست منسوخة، بل هي واجبة على جميع المسلمين إذا خشوا أن يفتنهم الذين كفروا في دينهم وعقيدتهم، لأن هدف المسلم في الحياة أن يعيش في مجتمع يساعده على طاعة الله والالتزام بأوامره وأحكامه، أو على الأقل لا يحارب بعقيدته، لأن الفتنة في الدين هي الفتنة الكبرى، فالله تبارك وتعالى يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولكن لا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، أو كمال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتتم هجرة المسلم من بلد إلى آخر لعدة أهداف:

- فقد يهاجر المسلم فراراً بدينه وعقيدته، حتى لا يرده الحكام الكافرون إلى الكفر، كما فعل بعض مسلمي الجمهوريات الإسلامية حينما هاجروا من بلادهم فراراً من الشيوعية الملحدة. يقول تعالى: ((يا عبادي إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون)) (العنكبوت ٥٦)، ويقول صلى الله عليه وسلم: {من فر بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبراً منها وجبت له الجنة وكان رفيقاً لأبيه إبراهيم}.

- وقد يهاجر المسلم فراراً من ظلم اجتماعي أو اقتصادي لحق به وخشي إن لم يهاجر أن يمتد ذلك الظلم إلى دينه، يقول تعالى: »والذين هاجر في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون« (النحل ٤١) وقال تعالى: ((ومن يهاجر في سبيل الله يجدْ في الأرض مراغماً كثيراً وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموتُ فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً)) (النساء ١٠٠).

- وروى الإمام أحمد عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((البلاد بلادُ الله والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم.)) وقد توعد القرآن الكريم المسلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول

الله صلى الله عليه وسلم، كما توعد الأعراب الذين آمنوا ولم يهاجروا إلى المدينة حرصاً على أموالهم وديارهم، فقال تعالى: ((إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً)) (النساء ٩٨). وكانت نتيجة ذلك أن بعض هؤلاء فتن في دينه واضطر إلى إظهار التقية، ولكن هذه التقية كانت جائزة يوم أن لم تكن للإسلام دولة، أما بعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وأقام فيها دولة الإسلام، فلم يعد لهؤلاء عذر، بل وجبت عليهم الهجرة، ولهذا نجد القرآن الكريم لا يفرض على المسلمين ولاية هؤلاء، لأنهم ليسوا أعضاء في المجتمع الإسلامي، وإذا كانت تربطهم بالمسلمين رابطة العقيدة، فإن نصرتهم تكون بناء على طلب منهم، يقول تعالى: ((والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)) (الأنفال ٧٢).

– ويتحتم على المسلم أن يهاجر من أرض الشرك إلى أرض الإسلام حينما تقوم الدولة الإسلامية ويتكون المجتمع الإسلامي، والهجرة هنا حسب مقتضيات الحال، إذ أن الهدف هنا تدعيم الدولة الإسلامية الجديدة بقوى بشرية وتقنية وعلمية، ولكن تقدير هذا كله متروك لقادة هذه الدولة، لأن الهجرة العشوائية قد تترك آثاراً سلبية على هذه الدولة فتصبح عقبة في طريق قوتها وانطلاقها.

– أما الهجرة الشعورية، فتعني اصطلاحاً انكار ومعاداة كل ما لا يرضي الله أو يخالف شريعة الله، ويظهر المسلم هذا العداء بكل الوسائل الممكنة، بالجوارح أو باللسان أو بالقلب، ويعمل على تغييرها بكل الامكانات المتاحة، فالرسول ﷺ يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان.) وأساس هذه الهجرة النية، ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها

فهجرته إلى ما هاجر إليه). ومن هذا نرى الشارع الحكيم قد حدد نوعين من الهجرة لا ثالث لهما: هجرة إلى الله، وهجرة لغير الله، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الهجرة خصلتان، إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرة أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة).

– إذا كانت الهجرة المادية تجب في بعض الأحوال، فإن الهجرة الشعورية واجبة على كل حال وفي كل حين، لأنها تتعلق بهجر ما لا يرضي الله تعالى، وهي قائمة إلى أن تقوم الساعة. ورد في صحيح مسلم أن مجاشع بن مسعود السلمي قال: جئتُ بأخي أبي معبد إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله بايعه على الهجرة. فقال صلى الله عليه وسلم: (قد مضت الهجرةُ بأهلها) قال مجاشع: فبأي شيء تبايعه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (على الإسلام والجهاد والخير). ويقول صلى الله عليه وسلم: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها). أما قوله صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية) فالمراد بها هنا أن لا هجرة واجبة بعد الفتح، وقد زاد مسلم (وإذا استنفرتم فانفروا).

– والمسلم مكلف بأن يهجر كل ما حرم الله، وأن يهاجر إلى ما أحل اله، لأن هذا هو الهدف من استخلافه في الأرض لقوله تعالى: (وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات ٥٦)، وهل العبادة إلا طاعة الله فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر؟ ولهذا فتح رسول الله ﷺ باب الهجرة على مصراعيه أمام كل راغب فيه، فقال عليه الصلاة والسلام: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه). (رواه البخاري. وفي رواية ابن حبان: (المهاجر من هجر السيئات، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده).

– والمعنى الذي حدده المصطفى ﷺ للهجرة معنى عام، تمتد جذوره إلى أعماق الحياة البشرية، فتقيمها على أسس قويمة، أسس تقوم على أساس الإصلاح والصلاح للحياة الإنسانية، والأمن والاستقرار للنفس البشرية، ولهذا كانت كلمات الحديث

الشريف متكاملة في تحديد معنى الهجرة على أساس أنها عبادة ترتبط بعقيدة الإنسان وإيمانه، وعلى أساس أنها عملية بناء وإصلاح تأخذ بيد الإنسانية المعذبة إلى شـــاطئ الأمان والاطمئنان. فهجر ما نهى الله عنه يعني هجر السيئات والمعاصي والمفاســـد القولية منها والفعلية، والتي هي الأساس في فساد البلاد والعباد، ولهذا أكـــد الحـــديث على (كف اللسان واليد) إذ أنهما الأعضاء التي تصدر عنها المفاسد القولية والفعلية، وإذا كانت هذه الأعضاء سلاحاً ذا حديثن يمكن أن يصدر عنها الخير كما يمكـــن أن يصدر عنها الشر، فإن إمكانية صدور الشر عنها أرجح من صدور الخيـــر، ولهـــذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) (متفق عليه).

– واللسان اسم العضو الذي يصدر عنه الكلام، وعبر الحديث باللسان عـــن الكـــلام ليندرج تحته كل أنواع الكلام، وقدم الحديث اللسان على اليد لأن الإيذاء باللسان أسهل وأشد تأثيراً على النفس من الإيذاء باليد. ولهذا كان النبي ﷺ يقول لحسان بن ثابت: (اهجُ المشركين فإنه أشق عليهم من رشق النبال). ورحم الله من قال:

جراحاتُ السنانِ لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسانُ

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضـــوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب اللهُ تعالى بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه) (رواه مالك والترمذي)

واليد اسم العضو الذي تصدر عنه الأفعال، حسية كانت أم معنوية، فالحسية: كالضرب والسرقة والكتابة والاشارة. والمعنوية: كأكل مال الناس بالباطل، والاستيلاء على حقوق الآخرين بغير حق، واليد مظهر السلطة الفعلية، ففيها يحدث الأخذ والمنع، والبطش والقهر، فإذا أضفنا إلى هذين العضوين عضواً ثالثاً هو (الفـــرج) نجـــد أن الإسلام أقام الحياة الإنسانية على دعائم قوية من تقوى الله والخلق الحســـن والأمـــان والاطمئنان. وقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: (تقوى الله

وحسن الخلق). وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: (الفم والفرج) (رواه الترمذي وابن حبان والبيهقي).

وكان الهدف من الهجرة هدفاً عظيماً، وهو الانتقال بالرسالة الإسلامية من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة، والمؤرخون يقسمون سيرة الدعوة الإسلامية إلى مرحلتين متميزتين: العهد المكي الذي يمثل مرحلة الدعوة، والعهد المدني الذي مثل مرحلة الدولة. ولكنني أرى أن بين هاتين المرحلتين مرحلة انتقالية تمثل مرحلة الثورة، لأنها نقلت الدعوة الإسلامية نقلة هائلة سريعة من مؤحلة كان هدفها تربية الفرد المسلم إلى مرحلة أصبح هدفها تكوين المجتمع المسلم. ومن دعوة كانت مجرد عقيدة وفكرة إلى دعوة أصبحت شريعة ودولة، ومن حركة محدودة الآثار إلى حركة عالمية الأهداف، ومن دعوة أتباعها قلة مستضعفون إلى دعوة أتباعها سادة فاتحون. ولهذا كانت الهجرة ثورة عقائدية، بكل ما تحمله هذه العبارة من معان إيجابية، لأنها غيرت أحوال المسلمين تغييراً جذرياً، فنقلتهم من الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، ومن الانحصار إلى الانتشار، ومن الاندحار إلى الانتصار، ولم تقف آثارها عند هذا الحد بل كانت ثورة على كل ما يخالف شريعة السماء وفطرة الإنسان السليمة، فشملت آثارها النواحي العقائدية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

لقد كان هدف المصطفى ﷺ من هجرته إلى المدينة إيجاد موطئ قدم للدعوة لكي تنعم بالأمن والاستقرار حتى تستطيع أن تبني نفسها من الداخل وتنطلق لتحقيق أهدافها في الخارج، ولقد كانت هذا الهدف أملاً يراود رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال مرة لأصحابه: (رأيتُ في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب ظني إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي يثرب).

كما كان هدف رسول الله ﷺ من الهجرة تكثير الأنصار وإيجاد رأي عام مؤيد للدعوة، لأن وجود ذلك يوفر عليها الكثير من الجهود ويذلل في طريقها الكثير من الصعاب، والمجال الخصب الذي تتحقق فيه الأهداف، والمنطلق الذي تنطلق من الطاقات، ولهذا حرص رسول الله ﷺ أن يبعث مصعب بن عمير إلى المدينة ليعلم

الأنصار الإسلام وينشر دعوة الله فيها. ولما اطمأن رسول الله ﷺ إلى وجود رأي عام مؤيد للدعوة في المدينة حثّ أصحابه إلى الهجرة إليها وقال لهم: (هاجروا إلى يثرب فقد جعل الله لكم فيها إخواناً وداراً تأمنون بها).

كما كان هدف رسول الله ﷺ من الهجرة استكمال الهيكل التنظيمي للدعوة، فقد كان وضعاً أن يكون الرسول القائد في مكة، والأنصار والمهاجرون في المدينة، ولهذا هاجر رسول الله ﷺ ليكون بين ظهراني أتباعه، لأن الجماعة بدون قائد كالجسد بلا رأس، ولأن تحقيق أهداف الإسلام الكبرى لا يتم إلا بوجود جماعة مؤمنة منظمة، تغذ السير إلى أهدافها بخطى وئيدة.

فما أحوج المسلمين اليوم إلى هجرة إلى الله ورسوله: هجرة إلى الله بالتمسك بحبله المتين وتحكيم شرعه القويم، وهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، باتباع سنته، والاقتداء بسيرته، فإن فعلوا ذلك فقد بدأوا السسير في الطريق الصحيح، وبدأوا يأخذون بأسباب النصر، وما النصر إلا من عند الله

الطواف على القبائل طلبًا للنصرة

بعد رجوعه ﷺ من الطائف، بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله عز وجل وكان رسول الله ﷺ يتحرك في المواسم التجارية، ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل، وفق خطة سياسية دعوية واضحة المعالم، ومحددة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصديق، الرجل الذي تخصص في معرفة أنساب العرب وتاريخها، وكانا يقصدان «غرر الناس ووجوه القبائل، وكان أبو بكر – رضي الله عنه – يسأل وجوه القبائل ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدث رسول الله ﷺ ويعرض دعوته»(١).

يقول المقريزي: «ثم عرض ﷺ نفسه على القبائل أيام الموسم، ودعاهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر، وغسان، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقدي أخبار هذه القبائل قبيلة قبيلة ويقال إنه ﷺ بدأ بكندة فدعاها إلى الإسلام، ثم أتى كلبًا ثم بني حنيفة ثم بني عامر، وجعل يقول: من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني، حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟ هذا وأبو لهب وراءه يقول للناس: لا تسمعوا منه فإنه كذاب(٢).

ولم يقتصر الأذى على ذلك بل واجه الرسول ﷺ ما هو أشد وأقسى، فقد روى البخاري في تاريخه والطبراني في الكبير عن مدرك بن منيب أيضًا عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبه، حتى انتصف النهار، فأقبلت جارية بِعُسٍّ من ماء فغسل

وجهه ويديه، وقال: «يا بنية لا تخشي على أبيك غلبة ولا ذلة» فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ﷺ وهي جارية وضيئة(٣).

وقد كان أبو جهل، وأبو لهب، لعنهما الله يتناوبان على أذية رسول الله ﷺ عندما يدعو في الأسواق والمواسم، وكان يجد منهما عنتًا كبيرًا، إضافة إلى ما يلحقه من المدعوين أنفسهم(٤).

أولاً: من أساليب النبي ﷺ في الرد على مكائد أبي جهل والمشركين أثناء الطواف على القبائل:

١- مقابلة القبائل في الليل:

فكان ﷺ من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من المشركين(٥) وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدعاية المضادة، التي كانت تتبعها قريش، كلما اتصل الرسول ﷺ بقبيلة من القبائل، والدليل على نجاح هذا الأسلوب المضاد اتصال الرسول ﷺ بالأوس والخزرج ليلا، ومن ثم كانت العقبة الأولى والثانية ليلا(٦).

٢- ذهاب الرسول ﷺ إلى القبائل في منازلهم:

فقد أتى كلبًا وبني حنيفة، وبني عامر في منازلهم(٧) وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش، فستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطريقة المناسبة دونما تشويش أو تشويه من قريش.

٣- اصطحاب الأعوان:

كان أبو بكر وعلي رضي الله عنهما يرافقان الرسول ﷺ في بعض مفاوضاته مع بعض القبائل، وربما كانت هذه الرفقة لأجل ألا يظن المدعوون أنه وحيد، ولا أعوان له من أشراف قومه وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكر - رضي الله عنه - بأنساب العرب(٨) الأمر الذي يساعد الرسول ﷺ في التعرف على معادن القبائل، فيقع الاختيار على أفضلها، لتحمل تبعات الدعوة.

٤- التأكد من حماية القبيلة:

ومن الجوانب الأمنية المهمة، سؤاله ﷺ عن المنعة والقوة لدى القبائل، قبل أن يوجه إليهم الدعوة، ويطلب منهم الحماية فقوة ومنعة القبيلة التي تحمي الدعوة شيء ضروري ومهم لا بد منه، لأن هذه القبيلة ستواجه كل قوى الشر والباطل، فلا بد أن تكون أهلاً لهذا الدور من حيث الاستعداد المعنوي والمادي، الذي يرهب الأعداء، ويحمي حمى الدعوة، ويتحمل تبعات نشرها، مزيلاً لكل العقبات التي تقف في طريقها(٩).

ثانيًا: المفاوضات مع بني عامر:

---

(١) انظر: الأنساب للسمعاني، (٣٦/١). ... (٢) المقريزي في إمتاع الأسماع (٣٠/١، ٣١).

(٢) انظر: المحنة في العهد المكي، ص ٥٣.

(٤) انظر: المحنة في العهد المكي، ص٥٣.

(٥) تاريخ إسلام النجيب آبادي (١٢٩/١) نقلا عن الرحيق المختوم.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٤٤/٢، ٥٢) السيرة النبوية جوانب الحذر والحماية، ص١١٦.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير، (١٤٠/٣).

(٨) السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص١١٦.

(٩) نفس المصدر، ص١١٦، ١١٧.

اختار الرسول ﷺ أن يجري مفاوضات مع بني عامر قامت تلك المفاوضات على دراسة وتخطيط، فالرسول وصاحبه أبو بكر كانا يعلمان أن بني عامر قبيلة مقاتلة كبيرة العدد وعزيزة الجانب، بل هي من القبائل الخمس التي لم يمسها سباء ولم تتبع لملك ولم تؤد إتاوة(١) مثلها مثل قريش وخزاعة(٢) كما أن الرسول ﷺ كان يعلم أن هنالك تضادًا قديمًا بين بني عامر وثقيف، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الداخل فلماذا لا يحاول أيضا تطويقها من الخارج، والاستفادة في من بني عامر بن

صعصعة، فإذا استطاع النبي ﷺ أن يبرم حلفاً مع بني عامر فإن موقف ثقيف سيكون على حافة الخطر(٣) يذكر أصحاب السيرة أن الرسول ﷺ لما أتى بني عامر بن صعصعة، فدعا إلى الله، وعرض عليهم نفسه، قال له رجل منهم يقال له بَيْحَرة بن فِراس: «والله لو أني أخذت هذا الفتى لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» قال: فقال له: أَفَنُهدفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمير لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه (٤).

ثالثًا: المفاوضات مع بني شيبان:

ففي رواية علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال: لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه.. إلى أن قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر، عليه السكينة والوقار فتقدم أبو بكر فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال: بأبي وأمي، هؤلاء غُرَر الناس، وفيهم مفروق قد غلبهم لساناً وجمالاً، وكانت له غديرتان تسقطان على تريبتيه، وكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة، فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى. وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فها هو ذا، فقال مفروق: إلام تدعونا يا أخا قريش؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشًا قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عنالحق، والله هو الغني الحميد» فقال مفروق، وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الأنعام: ١٥١].

---

(١) انظر: أصول الفكر السياسي، ص١٨٢، سباء: لم تُسبَ نساؤها في الحروب.

(٢) ،٤) نفس المصدر، ص١٨٢. ...

(٤) انظر: سيرة ابن هشام، (٣٨/٢).

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك، ثم رد الأمر إلى هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى تركنا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا، لا أول له ولا آخر لذل في الرأي، وقلة نظر في العاقبة أن الزلة مع العجلة، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقدًا، ولكن نرجع وترجع، وننظر، ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا فقال المثنى –وأسلم بعد ذلك–: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة، في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صَرَيَين أحدهما اليمامة والآخر السَّمامة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذان الصريان» قال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، أن لا نحدث حدثًا ولا نؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب، فعلنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟» فقال النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك(١).

رابعًا: فوائد ودروس وعبر:

كانت النصرة التي طلبها النبي ﷺ ذات صفة مخصوصة، وذلك على النحو التالي:

١- كان طلب الرسول ﷺ للنصرة من خارج مكة إنما بدأ ينشط بشكل ملحوظ بعد أن اشتد الأذى عليه، عقب وفاة عمه أبي طالب، الذي كان يحميه من قريش؛ وذلك لأن من يحمل الدعوة لن يستطيع أن يتحرك التحرك الفعّال والنشاط في حمل الدعوة، وتوفير الاستجابة لها، في جو من العنف، والضعف والإرهاب.

٢- كان عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل يطلب منهم النصرة، إنما هو بأمر من الله عز وجل له في ذلك، وليس مجرد اجتهاد من قبل نفسه، اقتضته الظروف التي وصلت إليها الدعوة.

٣- حصر رسول الله ﷺ طلب النصرة بزعماء القبائل، وذوي الشرف والمكانة ممن لهم أتباع يسمعون لهم، ويطيعون؛ لأن هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدعوة وصاحبها.

٥- رفض النبي ﷺ أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نصرتها أي ضمانات بأن يكون لأشخاصهم شيء من الحكم والسلطان، على سبيل الثمن، أو المكافأة لما يقدمون من نصرة، وتأييد للدعوة الإسلامية؛ وذلك لأن الدعوة الإسلامية إنما هي دعوة إلى الله، فالشرط الأساسي فيمن يؤمن بها، ويستعد لنصرتها أن يكون الإخلاص لله، ونشدان رضاه، هما الغاية التي يسعى إليها من النصرة والتضحية، وليس طمعًا في نفوذ أو رغبة في سلطان، وذلك لأن الغاية التي يضعها الإنسان للشيء، هي التي تكيف نشاط الإنسان في السعي إليه، فلا بد إذن من أن تتجرد الغاية المستهدفة من وراء نصرة الدعوة، عن أي مصلحة مادية لضمان دوام التأييد لها، وضمان المحافظة عليها من أي انحراف، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدعم لها، وتقديم التضحيات في سبيلها(٢) فيجب على كل من يريد أن يلتزم بالجماعة التي تدعو إلى الله، ألا يشترط عليها منصبًا أو عرضًا من أعراض الدنيا؛ لأن هذه الدعوة لله، والأمر لله يضعه حيث يشاء، والداخل في أمر الدعوة إنما يريد ابتداء وجه الله، والعمل من أجل رفع

رايته، أما إذا كان المنصب هو همه الشاغل، فهذه علامة خطيرة تنبئ عن دخن في نية صاحبه(٣) لذا قال يحيى بن معاذ الرازي: «لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة»(٤).

٥- ومن صفة النصرة التي كان رسول الله ﷺ يطلبها لدعوته من زعماء القبائل، أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات دولية، تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه، يعرضها لخطر القضاء عليها من قبل الدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطرًا عليها وتهديدًا لمصالحها(٥).

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٤٣/٣: ١٤٥) وفيها زيادات ليست عند الصالحي في سُبُل الرشاد (٥٩٦/٢: ٥٩٧)

(٢) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، لمحمد خير (٤١١/١)

(٣) انظر: وقفات تربوية من السيرة النبوية، عبد الحميد البلالي، ص٧٢.

(٤) انظر: صفة الصفوة (٩٤/٤). ...

(٤) انظر:الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (٤١٢/١).

إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود فلن يخوض بنو شيبان حربًا ضد كسرى لو أراد القبض على رسول الله ﷺ وتسليمه، ولن يخوضوا حربًا ضد كسرى، لو أراد مهاجمة محمد رسول الله ﷺ وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات(١).

٦- «إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه» كان هذا الرد من النبي ﷺ على المثنى بن حارثة حين عرض على النبي ﷺ حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة، يرَ بُعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يسامى(٢).

٧- كان موقف بني شيبان يتسم بالإريحية والخلق والرجولة، وينم عن تعظيم هذا النبي، وعن وضوح في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية التي يملكونها، وقد بينوا أن أمر الدعوة مما تكرهه الملوك، وقدر الله لشيبان بعد عشر سنين أو يزيد، أن تحمل هي ابتداء عبء مواجهة الملوك بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنى بن حارثة الشيباني صاحب حربهم وبطلهم المغوار، الذي قاد الفتوح في أرض العراق، في خلافة الصديق - رضي الله عنه -(٣)، فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ولا يفكرون في قتالهم، بل إنهم ردوا دعوة النبي ﷺ بعد قناعتهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الذي لم يكونوا يفكرون به أبدا، وبهذا نعلم عظمة هذا الدين الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا، حيث جعلهم سادة الأرض مع ما ينتظرون في أخراهم من النعيم الدائم في جنات النعيم(٤).

المبحث الثاني -مواكب الخير وطلائع النور

قال جابر بن عبد الله الأنصاري:

مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتَّبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة في المواسم بمنى يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟» حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو مضر، فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتننك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه، وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لا يبقى دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام(٥).

أولاً: الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة:

١- إسلام سويد بن الصامت:

كان رسول الله ﷺ لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف إلا تصدى له ودعاه إلى الله وعرض عليه ما جاء به من الهدى والحق، فقدم سويد بن الصامت-

أخو بني عمرو بن عوف- مكة حاجًا أو معتمرًا، وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل، لجلده، وشعره، وشرفه، ونسبه، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما الذي معك؟» قال: مجلة(٦) لقمان، فقال له رسول الله: «اعرضها علي» فعرضها عليه فقال: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله عليّ، هو هدى ونور» فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، وقد كان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قُتل وهو مسلم، وكان قتله يوم بَعاث(٧) وعلى أية حال لا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه(٨).

٢- إسلام إياس بن معاذ:

---

(١) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان، ص٥٣.

(٢) نفس المصدر، ص٦٤. ...

(٣) انظر: التربية القيادية (٢٠/٢).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦٩/٣).

(٥) مسند أحمد (٣٢٣/٣٢٢/٣، ٣٣٩، ٣٤٠) بإسناد حسن.

(٦) المجلة: الصحيفة، وتطلق على الحكمة أي حكمة لقمان.

(٧) سيرة ابن هشام (٤٠/٢) إسناد حسن. ... (٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١٩٥/١).

لما قدم أبو الحيسر بن رافع مكة ومعه فتيان من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم فجلس إليهم، فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئا

وأنزل عليَّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلامًا حدثًا: هذا والله خير مما جئتم له فيأخذ أبو الحيسر كفًّا من تراب، فضرب به وجهه، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وقد روي من حضره من قومه أنه ما زال يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع(١).

ثانيًا: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفد من الخزرج في موسم الحج، عند عقبة منى، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أنتم؟». قالوا: نفر من الخزرج. قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن(٢).

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم: تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا(٣)، وكانوا ستة نفر: وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث من بني النجار، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رئاب(٤). فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا بينهم فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم(٥).

فهذا أول موكب من مواكب الخير، لم يكتف بالإيمان، وإنما أخذ العهد على نفسه أن يدعو إليه قومه، وقد وفى كل منهم لدينه ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنهم حين رجعوا نشطوا في الدعوة إلى الله، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم وذويهم، فلم تبقَ دار من دور المدينة إلا وفيها ذكر لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة فقد كان لقاء هؤلاء مع الرسول على غير موعد، لكنه لقاء هيأه الله ليكون نبع الخير المتجدد الموصول، ونقطة التحول الحاسم في التاريخ... وساعة الخلاص المحقق من عبادة الأحجار، بل إنها على التحقيق، ساعة الحسم في مصير العالم كله ونقل الحياة من الظلمات إلى النور.

أكان معقولاً في لحظة يسيرة أن يتحول هؤلاء من وثنيين متعصبين إلى أنصار للدعوة متفتحين، وجنود للحق مخلصين، ودعاة إلى الله متجردين يذهبون إلى أقوامهم وبين جوانحهم نور، وعلى وجوههم نور، وإنهم لعلى نور؟ تلك مشيئة القدر العالي هيأت للدعوة مجالها الخصب، وحماها الأمين، والسنوات العجاف التي قضاها الرسول ﷺ نضالاً مستمرًا، وكفاحًا دائمًا، وتطوافًا على القبائل، والتماسًا للحليف، قد ولت إلى غير رجعة، سيكون بعد اليوم للإسلام قوته الرادعة، وجيشه الباسل وسيلتقي الحق بالباطل ليصفي معه حساب الأيام الخوالي، والعاقبة للمتقين، وستتوالى على مكة منذ اليوم مواكب الخير وطلائع النور التي هيأها الله للخير لتتصل بالهداية وتسبح في النور، وتغترف من الخير، وترجع إلى يثرب بما وعت من خير، وبما حلمت من نور(٦).

ومن الجدير بالتنبيه أن هذه المقابلة التي حدثت عند العقبة، وتلاقى فيها فريق من الخزرج بالنبي ﷺ وأسلموا على يديه لم تكن فيها بيعة(٧)؛ لأنها كانت من نفر صغير لا يرون لأنفسهم الحق في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قبائلهم في المدينة، ولكنهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام(٨).

ثالثًا: بيعة العقبة الأولى:

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤١/٢) بإسناد حسن. ... (٢) نفس المصدر (٤١/٢، ٤٢).

(٣) البداية والنهاية (١٤٨/٣، ١٤٩). ... (٤) انظر: شرح الواهب للزرقاني (٣٦١/١).

(٥) انظر: البداية والنهاية (١٤٧/٣).

(٦) انظر: أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع، ص٢٧٣، ٢٧٤.

(٧) انظر: هجرة الرسول وصحابته للجمل، ص١٤٣.

(٨) هجرة الرسول وصحابته للجمل، ص١٤٣. ... (٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١٩٧/١).

بعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول ﷺ وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه ﷺ بالعقبة، وبايعوه بيعة العقبة الأولى، (عشرة من الخزرج واثنان من الأوس) مما يشير إلى نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي، تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في نفس الوقت من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام(١).

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تُفترض علينا الحرب: على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر وإن شاء عذب» (٢).

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول ﷺ عليها النساء فيما بعد ولذلك عرفت باسم بيعة النساء(٣)، وقد بعث الرسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير، يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فكان يسمى بالمدينة (المقرئ)، وكان يؤمهم في الصلاة، وقد اختاره

رسول الله ﷺ عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان – رضي الله عنه – بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، قدرًا كبيرًا، فضلاً عن قوة إيمانه، وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم(٤).

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير – رضي الله عنه – في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم وتفسيره، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي ﷺ وصحبه بمكة المكرمة لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة.

وقد نزل مصعب بن عمير – رضي الله عنه – في يثرب على أسعد بن زرارة – رضي الله عنه –(٥) ونشط المسلمون في الدعوة إلى الله يقود تلك الحركة الدعوية الرائدة مصعب – رضي الله عنه –، وقد انتهج منهج القرآن الكريم في دعوته وهذا الذي تعلمه من أمامه صلى الله عليه وسلم، وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنية المكية بصورة عملية حية قال تعالى: (ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[النحل:١٢٥].

رابعًا: قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدَي قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير، ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين، اللذين أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا، فأخذ أُسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتمًا فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟

اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته نكف عنك ما تكره؟

قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام -قبل أن يتكلم- في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

---

(٢) صحيح مسلم [٤١- (١٧٠٩)]. ... (٢) انظر: الغرباء الأولون، ص١٨٥.

(٤) نفس المصدر، ص١٨٦، ١٨٧.

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، (٤٤١/١).

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة، ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك(١).

فقام سعد مغضبًا مبادرًا مخوفًا للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيد إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره، وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء والله سيد من ورائه من قومه، إن يتبعك لا

يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أَوَتقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا –والله– في وجهه الإسلام –قبل أن يتكلم– في إشراقه وتسهله. ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يصلِّ لله بسجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

وقد روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن أبي هريرة أنه كان يقول: «حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل صلاة قط، فإذا لم يعرفه الناس قال هو أصيرم بني عبد الأشهل»(٢).

خامسًا: فوائد ودروس وعبر:

١– اتجه التخطيط النبوي للتركيز على يثرب بالذات، وكان للنفر الستة الذين أسلموا دور كبير في بث الدعوة إلى الإسلام خلال ذلك العام.

٢– كانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة منها:

– ما طبع الله عليه قبائل الخزرج والأوس من الرقة واللين، وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وفد وفد من اليمن بقوله: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا»(٣) وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن، نزح أجدادهم منها في الزمن القديم(٤) فيقول القرآن الكريم مادحًا لهم: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: ٩].

– ومنها التشاحن والتطاحن الموجودان في قبيلتي المدينة، الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بُعاث وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرها، حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبقَ إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بُعاث يومًا قدمه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، فقدِم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجُرِّحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام»(٥).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٤٤٢/١)

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٤٤٤/١) صحيح السيرة النبوية، ص٢٩١.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين، رقم ٤٣٨٨.

(٤) انظر: السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ص١٥٤.

(٥) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب الأنصار (٣٦٧/٤)، رقم ٣٧٧٧.

– ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم –ولو يسير– بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم في مجتمعهم يعايشون هذه القضية في

حياتهم اليومية وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب وإنما غايــة أمرهــا أن تسمع أخبارًا متفرقة عن الرسالات، والوحي الإلهي، دون أن تلح عليها هذه المســألة أو تشغل تفكيرها باستمرار، وكان اليهود يهددون الأوس والخزرج بنبي قــد أظــل زمانه، ويزعمون أنهم

سيتعبونه، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم، مع أن الأوس والخــزرج كــانوا أكثــر مــن اليهود(١)، وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه العزيز قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَــابٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) [البقرة: ٨٩].

وكان الأوس والخزرج قد علوا اليهود دهرًا في الجاهلية، وهم أهل شرك، وهــؤلاء أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبيا قد أظل زمانه، يقاتلكم قتل عاد وإرم(٢).

فلما أراد الله إتمام أمره بنصر دينه، قيض ستة نفر من أهل المدينة للنبي ﷺ فــالتقى بهم عند العقبة –عقبة مِنى– فعرض عليهم الإسلام فاستبشروا وأسلموا، وعرفوا أنــه النبي الذي توعدهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشــوا ذكــر النبــي ﷺ فــي بيوتها(٣) وكان هذا هو (بدء إسلام الأنصار) كما يسميه أهل السير(٤).

٣– حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس، وهذا تطور مهم لمصلحة الإســلام، فبعد الحرب العنيفة في بُعاث استطاع النفر الستة من الخزرج أن يتجــاوزوا قصــة الصراعات الداخلية ويحضروا معهم سبعة جددًا، فيهم اثنان من الأوس، وهذا يعنــي أنهم وفوا بالتزاماتهم التي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصــدع، وتوجيــه التيار لدخول الإسلام في المدينة، أوسها وخزرجها، وتجــاوز الصــراعات القبليــة القائمة.

٤– بذل الرسول ﷺ كل ما يملك من جهد لتعبئة الطاقات الإسلامية في المدينة، ولــم يكن هناك أدنى تقصير للجهد البشري الممكن في بناء القاعدة الصلبة التي تقوم على أكتافها الدولة الجديدة، واحتمل هذا الجهد سنتين كاملتين من الدعوة والتنظيم(٥).

٥- نجحت التعبئة الإيمانية في نفوس من أسلم من الأنصار، وشعرت الأنصار بأنه قد آن الأوان لقيام الدولة الجديدة، وكما يقول جابر - رضي الله عنه - وهو يمثل هذه الصورة الرفيعة الرائعة: «حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف»(٦).

٦- وصل مصعب - رضي الله عنه - إلى مكة قبيل الموسم من العام الثالث عشر للبعثة، ونقل الصورة الكاملة التي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، والقدرات والإمكانات المتاحة، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس والخزرج، وأن القوم جاهزون لبيعة جديدة قادرة على حماية رسول الله ﷺ ومنعته(٧).

٧- كان اللقاء الذي غير مجرى التاريخ في موسم الحج في السنة الثالثة عشر من البعثة، حيث حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب، فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل(٨).

المبحث الثالث -بيعة العقبة الثانية

قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -: [.. فقلنا، حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟

قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

---

(١) انظر: الغرباء الأولون، ص١٨٣. ...

(٢) الدر المنثور للسيوطي، (٢١٦/١)
(٣) انظر: ابن هشام (٤٤/١).
(٤) نفس المصدر (٣٩/١: ٤٤)
(٥) ،٢) انظر: التحالف السياسي، ص٧١.
(٧) نفس المصدر، ص٧٢.
(٨) المصدر السابق، ص٧٣.
قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو من أصغرهم، فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتلُ خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبينة، فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نسليها أبدًا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة](١).
وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة والحرب؛ لذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب(٢)، أما رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري، وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية، ففيها تفاصيل مهمة قال: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا.. ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق... وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا، نُسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب: فبين أن الرسول في منعة من قومه بني

هاشم، ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة؛ ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله، فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلا: يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً، وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

ثم قال: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم».

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وقد طلب الرسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذرًا قريشًا، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غدًا بأسيافنا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ﷺ ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم(٣) قال: ثم قال القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمة، كأني أريد أن أشرك القوم فيما قالوا بها: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعهما الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بها إلي، وقال: والله لتنتعِلنَّهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى، فاردد

إليه نعليه، قال: قلت: لا، والله لا أردهما فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلُبنَّه (٤).

دروس وعبر وفوائد:

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١٩٩/١)

(٢) مسند الإمام أحمد (٣١٦/٥) بإسناد صحيح لغيره.

(٣) انظر: ابن هشام (٦١/٢) بإسناد حسن وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢٠١/١).

(٤) انظر: مجمع الزوائد (٤٢/٦: ٤٦) وقال الألباني في تحقيق فقه السيرة للغزالي، وهذا سند صحيح وصححه ابن حبان كما في الفتح (٤٧٥/٧).

١- كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي (فتح الفتوح)؛ لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه، من التضحية، مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة، تقف متألبة عليها، ولم يغب عن أنصار الله قدرها ووزنها في ميادين الحروب والقتال، وهي في آثارها تشمير ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله على كل عالٍ مستكبر في الأرض حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل، ونصر واستشهاد، وتبليغ لرسالة الإسلام(١).

٢- إن حقيقة الإيمان وأثره في تربية النفوس تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا

يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسبًا ولا منصبًا ولا قيادة ولا زعامة، وهم الـذين أفنوا عشرات السنين من أعمارهم يتصارعون على الزعامة والقيادة، إنه أثر الإيمان بالله وبحقيقة هذا الدين عندما يتغلغل في النفوس(٢).

٣- يظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة، وكانت تمثل تحديًّا خطيرًا وجريئًا لقوى الشرك في ذلك الوقت؛ ولذلك كان التخطـيط النبوي لنجاحها في غاية الإحكام والدقة على النحو التالي(٣):

أ- سرية الحركة والانتقال لجماعة المبايعين، حتى لا ينكشف الأمر، فقد كـان وفـد المبايعة المسلم، سبعين رجلا وامرأتين، من بين وفد يثربي قوامه نحو خمسمائة، مما يجعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمرًا غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق بعد ثلث الليل، حيث النوم قد ضرب أعين القوم، وحيـث قـد هدأت الرِّجْل، كما تم تحديد المكان في الشعب الأيمن، بعيدا عن عين من قد يسـتيقظ من النوم لحاجة(٤).

ب- الخروج المنظم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع، فخرجوا يتسـللون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

ج- ضرب السرِّية التامة على موعد ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب الذي جاء مع النبي ﷺ ليتوثق له(٥) وعلي بن أبي طالب الذي كان عينًا للمسلمين على فم الشِّعب، وأبو بكر الذي كان على فم الطريق وهو الآخر عـينٌ للمسلمين(٦)، أما من عداهم من المسلمين، وغيرهم فلم يكن يعلم عن الأمر شيئًا، وقد أمر جماعة المبايعين أن لا يرفعوا الصوت، وأن لا يطيلوا في الكـلام، حـذرًا مـن وجود عين يسمع صوتهم، أو يجس حركتهم(٧).

د- متابعة الإخفاء والسرية حين كشف الشيطان أمر البيعة، فـأمرهم النبـي ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم ولا يحدثوا شيئًا، رافضًا الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تتهيأ لها الظروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر، موه المسـلمون علـيهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع(٨).

هـ- اختيار الليلة الأخيرة من ليالي الحج، وهي ليلة الثالثة عشر من ذي الحجة، حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي وهو اليوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع وهذا ما حدث(٩).

٤- كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر لرسول الله وحمايته إذا قدم المدينة(١٠).

٥- سرعان ما استجاب قائد الأنصار دون تردد البراء بن معرور، قائلا: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقومه أبناء الحرب والسلاح(١١)، ومما تجدر الإشارة إليه في أمر البراء أنه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأيًا فوالله ما أرى أتوافقوني عليه أم لا؟

---

(١) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٤٠٠/٢)

(٢) انظر: التربية القيادية (١٠٣/٢). (٣،٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمن البر، ص٦١.

(٥) الهجرة النبوية المباركة، ص٦٢. ... (٢) انظر: التربية القيادية (١٠٩/٢).

(٧) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص٦٢. ... (٤) المصدر نفسه، ص٦٥.

(٩) نفس المصدر، ص٦٧. ... (٦،٧) انظر: التحالف السياسي، ص٨٢.

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية -يعني الكعبة- مني بظهر، وأن أصلي إليها، فقالوا له: والله ما بلغنا أن النبي ﷺ يصلي إلا إلى الشام ببيت المقدس، وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلوا إلى بيت المقدس، وصلى هو

إلى الكعبة، واستمروا كذلك حتى قدموا مكة، وتعرفوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس مع عمه العباس بالمسجد الحرام، فسأل النبيُّ ﷺ العباسَ: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الشاعر؟» قال: نعم، فقص عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة، قال: فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها»(١) قال كعب: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى معنا إلى الشام، فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه قبل الكعبة، ومات في صفر قبل قدومه ﷺ بشهر، وأوصى بثلث ماله للنبي صلى الله عليه وسلم، فقبله ورده على ولده، وهو أول من أوصى بثلث ماله(٢) ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ- الانضباط والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم وأوامره، وإن أي اقتراح مهما كان مصدره يتعارض مع ذلك، يعتبر مرفوضًا، وهذه من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيزها من حياتهم وهم بعد ما زالوا في بداية الطريق.

ب- إن السيادة لم تعد لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن توقير أي إنسان واحترامه، إنما هو انعكاس لسلوكه والتزامه بأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهلية لتحل محلها قيم إيمانية، فهي المقاييس الحقة التي بها يمكن الحكم على الناس تصنيفاً وترتيبًا(٣).

٦- كان أبو الهيثم بن التيِّهان صريحًا عندما قال للرسول صلى الله عليه وسلم: إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»، وهذا الاعتراض يدلنا على الحرية العالية، التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبر عمَّا في نفسه بكامل حريته(٤) وكان جواب سيد الخلق ﷺ عظيمًا، فقد جعل نفسه جزءًا من الأنصار والأنصار جزءًا منه(٥).

٧- يؤخذ من اختيار النقباء دروس مهمة منها:

أ- أن الرسول ﷺ لم يعين النقباءَ إنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسئولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله ويقوم بأمره، وهذا أمر شوري وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشورى عمليًّا من خلال اختيار نقبائهم.

ب- التمثيل النسبي في الاختيار، من المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج(٦).

ج- جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر معتنقوه، وأراد الرسول ﷺ أن يشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحدًا من غيرهم، وأنهم غدوا أهل الإسلام وحماته وأنصاره(٧).

٨- تأكد زعماء مكة من حقيقة الصفقة التي تمت بين رسول الله ﷺ والأنصار، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر، والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير(٨) واستطاع أن يتخلص من قريش بواسطة الحارث بن حرب بن أمية وجبير بن مطعم؛ لأنه كان يجير تجارتهم ببلده، فقد أنقذته أعراف الجاهلية، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد في نفسه غضاضة من ذلك، فهو يعرف أن المسلمين مطاردون في مكة، وعاجزون عن حماية أنفسهم. (٩)

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، (٤٤٤/١). ... (٢) نفس المصدر، (٤٤٥/١).
(٣) انظر: معين السيرة النبوية للشامي، ص١٣٥. ... (٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٩٧/٣).

(٥) انظر: التربية القيادية (٦٧/٢). ... (٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٢٠٩.

(٧) انظر: دراسات في السيرة النبوية، د. عماد الدين خليل، ص١٣٢.

(٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١٠٧/٣). ... (٣) انظر: التربية القيادية، (١١٦/٢).

٩- في قول العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» درس تربوي بليغ، وهو أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكًا لاجتهاد أتباعه، وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى وتشريعاته الحكيمة فإذا شرع الجهاد فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه(١)، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى أدت إلى نجاح المهمات أكثر، وإخفاء المخططات عن العدو وتنفيذها هو الكفيل بإذن الله بنجاحها «ولكن ارجعوا إلى رحالكم»(٢).

١٠- كانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط رسول الله ﷺ يده وقالوا: له ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً، ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد في بيعته ﷺ حتى المرأتان بايعتا بيعة الحرب، وصدقتا عهدهما، فأما نسيبة بنت كعب (أم عمارة) فقد سقطت في أحد، وقد أصابها اثنا عشر جرحًا، وقد خرجت يوم أحد مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب ومعها سقاء تسقي به المسلمين، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ فكانت تباشر القتال، وتذب عنه بالسيف وقد أصيبت بجراح عميقة وشهدت بيعة الرضوان(٣) وقطع مسيلمة الكذاب ابنها إربا إربا فما وهنت وما استكانت(٤)، وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد فقاتلت حتى قطعت يدها وجرحت اثني عشر جرحًا(٥)، وأما الثانية فهي أسماء ابنة عمرو من بني سليمة قيل: هي والدة معاذ بن جبل، وقيل: ابنة عمة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعًا(٦).

١١- عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية، من الأنصار في كتب السير والتراجم نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي ﷺ وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ قرابة النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرسول ﷺ في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع رسول الله ﷺ فمنهم من قضى نحبه ولقي ربه شهيدًا، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة وشارك في أحداثها الجسام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئًا إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره أن يحوي في صفحاته، أمثال هؤلاء الرجال(٧).

المبحث الرابع -الهجرة إلى المدينة

أولاً: التمهيد والإعداد لها:

إن الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيد وإعداد وتخطيط من النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك بتقدير الله تعالى وتدبيره، وكان هذا الإعداد في اتجاهين، إعداد في شخصية المهاجرين، وإعداد في المكان المهاجر إليه.

١- إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهة أو رحلة يروح فيها الإنسان عن نفسه، ولكنها مغادرة الأرض والأهل، ووشائج القربى، وصلات الصداقة والمودة، وأسباب الرزق، والتخلي عن كل ذلك من أجل العقيدة، ولهذا احتاجت إلى جهد كبير حتى وصل المهاجرون إلى قناعة كاملة بهذه الهجرة ومن تلك الوسائل:

- التربية الإيمانية العميقة التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية.
- الاضطهاد الذي أصاب المؤمنين حتى وصلوا إلى قناعة كاملة بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر.

– تناول القرآن المكي التنويه بالهجرة، ولفت النظر إلى أن أرض الله واسعة، قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠].

ثم تلا ذلك نزول سورة الكهف، وتحدثت عن الفتية الذين آمنوا بربهم وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف، وهكذا استقرت صورة من صور الإيمان في نفوس الصحابة وهي ترك أهلها ووطنها من أجل عقيدتها.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١٠٤/٣). ... (٥) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، ص٩٦.

(٣) انظر: المرأة في العهد النبوي، دكتورة عصمة الدين، ص١٠٨.

(٤) انظر: التحالف السياسي، ص٨٧.

(٥) ابن هشام (٨٠/٢) أسد الغابة (٣٩٥/٥) البداية والنهاية (١٥٨/٣: ١٦٦) الإصابة (٨/٨) رقم ٤٨، ٤٩ نقلا عن المرأة في العهد النبوي، ص١٠٨.

(٦) انظر: المرأة في العهد النبوي، ص١٠٨. ...

(٧) انظر: التربية القيادية (١٤٠/٢).

ثم تلا ذلك آيات صريحة تتحدث عن الهجرة في سورة النحل، قال تعالى: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ صدق الله العظيم الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [النحل: ٤١،٤٢].

وفي أواخر السورة يؤكد المعنى مرة أخرى بقوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [النحل: ١١٠].

وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريباً عملياً على ترك الأهل والوطن(١).

٢- الإعداد في يثرب:

نلاحظ: أن الرسول ﷺ لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار من الأيام الأولى، وإنما أخر ذلك لأكثر من عامين، حتى تأكد من وجود القاعدة الواسعة نسبيًّا، كما كان في الوقت نفسه يتم إعدادها في أجواء القرآن الكريم، وخاصة بعد انتقال مصعب إلى المدينة.

وقد تأكد أن الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله، وذلك بطلبهم هجرة الرسول الكريم إليهم، كما كانت المناقشات التي جرت في بيعة العقبة الثانية، تؤكد الحرص الشديد من الأنصار على تأكيد البيعة، والاستيثاق للنبي ﷺ بأقوى المواثيق على أنفسهم، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل منى، ممن آذى رسول الله ﷺ بأسيافهم لو أذن الرسول الكريم بذلك، ولكنه قال لهم: «لم أؤمر بذلك».

وهكذا تم الإعداد لأهل يثرب ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين وما يترتب على ذلك من تبعات(٢).

ثانياً: طلائع المهاجرين:

لما بايعت طلائع الخير ومواكب النور من أهل يثرب النبي ﷺ على الإسلام، والدفاع عنه، ثارت ثائرة المشركين، فازدادوا إيذاء للمسلمين، فأذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وكان المقصود من الهجرة إلى المدينة إقامة الدولة الإسلامية التي تحمل الدعوة، وتجاهد في سبيلها، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله(٣) وكان التوجه إلى المدينة من الله تعالى، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة، وقوماً أهل حرب وعدة، ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج، فيضيقوا على أصحابه وتعبثوا(٤) بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال: «قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي»، ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج فيخرج إليها».

فجعل القوم يتجهون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً، فنزلوا على الأنصار، في دورهم فآووهم ونصروهم وآسوهم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين بقباء، قبل أن يقدم النبي ﷺ فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة، كَلِبَت(٥) قريش عليهم، وحربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم، وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ في البيعة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة، حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة، فهم مهاجرون أنصاريون، وهم ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد، وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة فلم يبقَ بمكة فيهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعلي، أو مفتون أو مريض أو ضعيف عن الخروج(٦).

ثالثاً: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ومن مشاهد العظمة في الهجرة:

عملت قيادة قريش ما في وسعها للحيلولة دون خروج من بقي من المسلمين إلى المدينة، واتبعت في ذلك عدة أساليب منها:

١- أسلوب التفريق بين الرجل وزوجه وولده:

---

(١) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، صالح الشامي، ص١١٨.

(٢) نفس المصدر،ص ١٢٠، ١٢١.

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص٣٣، ٣٤.

(٤) عبث: عبثا، لعب فهو عابث لاعب لما لا يعنيه، انظر: لسان العرب (١٦٦/٢)

(٥) كلبت قريش عليهم: أي غضبت عليهم. ... (٢) انظر: طبقات ابن سعد (٣٢٥/١).

ونترك أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية تحدثنا عن روائع الإيمان وقوة اليقين في هجرتها وهجرة زوجها أبي سلمة قالت رضي الله عنها: «لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبْتَنَا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها إلى البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة. قالوا: لا، والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرق بيني وبين زوجي، وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: ورد بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني. قالت: فارتحلتُ بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت، حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار. فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله إلا الله وبني هذا. قال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت عنه أستأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل بي، فلم يزل

يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

قال فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة»(١).

فهذا مثل على الطرق القاسية التي سلكتها قريش لتحول بين أبي سلمة والهجرة، فرجل يفرق بينه وبين زوجه عنوة، وبينه وبين فلذة كبده، على مرأى منه، كل ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة، ولكن متى ما تمكن الإيمان من القلب، استحال أن يُقدِّم صاحبه على الإسلام والإيمان شيئاً، حتى لو كان ذلك الشيء فلذة كبده، أو شريكة حياته لذا انطلق أبو سلمة – رضي الله عنه – إلى المدينة لا يلوي على أحد، وفشل معه هذا الأسلوب وللدعاة إلى الله فيه أسوة(٢).

وهكذا أَثَر الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، فهذه أسرة فُرِّق شملُها، وامرأة تبكي شدة مصابها، وطفل خُلعت يده وحُرم من أبويه، وزوج وأب يسجل أروع صور التضحية والتجرد، ليكون أول مهاجر يصل أرض الهجرة، محتسبين في سبيل الله ما يلقون، مصممين على المضي في طريق الإيمان، والانحياز إلى كتيبة الهدى، فماذا عسى أن ينال الكفر وصناديده من أمثال هؤلاء؟

وأما صنيع عثمان بن طلحة – رضي الله عنه – فقد كان يومئذ كافراً (وأسلم قبل الفتح) ومع ذلك تشهد له أم سلمة رضي الله عنها بكرم الصحبة، وذلك شاهد صدق على نفاسة هذا المعدن، وكمال مروءته، وحمايته للضعيف(٣)، فقد أبت عليه مروءته وخلقه العربي الأصيل أن يدع امرأة شريفة تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش.

فأين من هذه الأخلاق، يا قوم المسلمين، أخلاق الحضارة في القرن العشرين، من سطو على الحريات، واغتصاب للأعراض، بل وعلى قارعة الطريق، وما تطالعنا به

الصحافة كل يوم من أحداث يندى لها جبين الإنسانية، ومن تفنن في وسائل الاغتصاب وانتهاك الأعراض، والسطو على الأموال.

إن هذه القصة- ولها مثل ونظائر- لتشهد أن ما كان للعرب من رصيد من الفضائل كان أكثر من مثالبهم ورذائلهم، فمن ثم اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة، وتبليغها للناس كافة(٤).

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٠٢/١، ٢٠٣).

(٢) انظر: في السيرة النبوية، د. إبراهيم علي محمد، ص١٣٠، ١٣١، تقسيم الأساليب أُخذ من هذا الكتاب، ومشاهد العظمة من الهجرة النبوية المباركة.

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٤.

(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة (٤٦١/١).

وتظهر عناية الله تعالى بأوليائه، وتسخيره لهم، فهو جل وعلا الذي سخر قلب عثمان ابن طلحة للعناية بأم سلمة، ولذلك بذل الجهد والوقت من أجلها(١) كما تظهر سلامة فطرة عثمان بن طلحة، التي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، ولعل إضاءة قلبه بدأ منذ تلك الرحلة، في مصاحبته لأم سلمة رضي الله عنهم(٢).

٢- أسلوب الاختطاف:

لم تكتف قيادة قريش بالمسلمين داخل مكة، لمنعهم من الهجرة، بل تعدت ذلك إلى محاولة إرجاع من دخل المدينة مهاجراً، فقامت بتنفيذ عملية اختطاف أحد المهاجرين، ولقد نجحت هذه المحاولة وتم اختطاف أحد المهاجرين من المدينة وأعيد إلى مكة(٣)، وهذه الصورة التاريخية للاختطاف يحدثنا بها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث قال: «اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، التناضب(٤) من أضاة(٥) بني غفار، فوق سرف(٦)، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن(٧).

فلما قدمنا المدينة نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاها لأمهما، حتى قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة فكلماه، وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك فرق لها فقلت له: عياّش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت.

قال: أبر قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول(٨) فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني(٩) على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخ، ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن(١٠).

قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ صدق الله العظيم وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ صدق الله العظيم وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ) [الزمر: ٥٣-٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال: فقال هشام: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى(١١) أُصَعَّد بها فيه وأصَوِّبُ ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا،

وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة(١٢).

هذه الحادثة تظهر لنا كيف أعد عمر – رضي الله عنه – خطة الهجرة له، ولصاحبيه عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل السهمي، وكان ثلاثتهم كل واحد من قبيلة، وكان مكان اللقاء الذي اتعدوا فيه بعيداً عن مكة وخارج الحرم على طريق المدينة، ولقد تحدد الزمان والمكان بالضبط بحيث إنه إذا تخلف أحدهم فليمض صاحباه ولا ينتظرانه؛ لأنه قد حبس، وكما توقعوا فقد حبس هشام بن العاص – رضي الله عنه – بينما مضى عمر وعياش بهجرتهما، ونجحت الخطة كاملة ووصلا المدينة سالمين(١٣).

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١٢٨/٣). ... (٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٠٤/١).

(٣) انظر: في السيرة النبوية ص١٣٢. ... (٦) التناضب: جمع تنضيب وهو شجر.

(٥) الأضاة: على عشرة أميال من مكة. ... (٨) سرف: واد متوسط الطول من أودية مكة

(٧) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٩. ...

(٨) الذلول: أذلها العمل، فصارت سهلة الركوب والانقياد.

(٩) تعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها. ... (٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٠٥/١).

(١١) ذو طوى، واد من أودية مكة. ... (٥) المجمع للهيثمي (٦١/٦) الهجرة النبوية المباركة، ص١٣١.

(١٣) انظر: التربية القيادية (١٥٩/٢). ... (٢) انظر: في السيرة النبوية، ص١٣٤.

إلا أن قريشاً صممت على متابعة المهاجرين؛ ولذلك أعدت خطة محكمة قام بتنفيذها أبو جهل، والحارث وهما أخَوا عياش من أمه، الأمر الذي جعل عياشاً يطمئن لهما،

وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بأمه، فاختلق أبو جهل هذه الحيلة لعلمه بمدى شفقة ورحمة عياش بأمه، والذي ظهر جلياً عندما أظهر موافقته على العودة معهما، كما تظهر الحادثة الحس الأمني الرفيع الذي كان يتمتع به عمر – رضي الله عنه –، حيث صدقت فراسته في أمر الاختطاف(١).

كما يظهر المستوى العظيم من الأخوة التي بناها الإسلام في هذه النفوس، فعمر يضحي بنصف ماله حرصاً على سلامة أخيه، وخوفاً عليه من أن يفتنه المشركون بعد عودته، ولكن غلبت عياشاً عاطفته نحو أمه، وبره بها؛ ولذلك قرر أن يمضي لمكة فيبر قسم أمه ويأتي بماله هناك، وتأبى عليه عفته أن يأخذ نصف مال أخيه عمر – رضي الله عنه –، وماله قائم في مكة لم يمس، غير أن أفق عمر – رضي الله عنه – كان أبعد، فكأنه يرى رأي العين المصير المشؤوم الذي سينزل بعياش لو عاد إلى مكة، وحين عجز عن إقناعه أعطاه ناقته الذلول النجيبة، وحدث لعياش ما توقعه عمر من غدر المشركين به(٢).

وساد في الصف المسلم أن الله تعالى لا يقبل صرفاً ولا عدلاً من هؤلاء الذين فتنوا فافتتنوا وتعايشوا مع المجتمع الجاهلي، فنزل قول الله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ) وما إن نزلت هذه الآيات حتى سارع الفاروق – رضي الله عنه – فبعث بهذه الآية إلى أَخَوَيْهِ الحميمين عياش وهشام ليجددوا محاولاتهما في مغادرة معسكر الكفر، أي سمو عظيم عند ابن الخطاب – رضي الله عنه – لقد حاول، مع أخيه عياش، أعطاه نصف ماله، على ألا يغادر المدينة، وأعطاه ناقته ليفر عليها، ومع هذا كله، فلم يشمت بأخيه، ولم يَتَشَفَّ منه لأنه خالفه، ورفض نصيحته، وألقى برأيه خلف ظهره، إنما كان شعور الحب والوفاء لأخيه هو الذي يسيطر عليه، فما أن نزلت الآية حتى سارع ببعثها إلى أخويه، ولكل المستضعفين هناك ليقوموا بمحاولات جديدة للانضمام إلى المعسكر الإسلامي(٣).

٣- أسلوب الحبس:

لجأت قريش إلى الحبس كأسلوب لمنع الهجرة فكل من تقبض عليه وهو يحاول الهجرة، كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت، مع وضع يديه ورجليه في القيد، وتفرض عليه رقابة وحراسة مشددة، حتى لا يتمكن من الهرب، وأحياناً يكون الحبس داخل حائط بدون سقف، كما فعل مع عياش وهشام بن العاص، رضي الله عنهما، حيث كانا محبوسين في بيت لا سقف له(٤)، وذلك زيادة في التعذيب، إذ يضاف إلى وحشة الحبس حرارة الشمس وسط بيئة جبلية شديدة الحرارة مثل مكة.

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين: أولهما منع المحبوسين من الهجرة، والآخر أن يكون هذا الحبس درساً وعظة لكل من يحاول الهجرة من أولئك الذين يفكرون فيها ممن بقي من المسلمين بمكة، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى المدينة المنورة، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكة مثل عياش، وهشام رضي الله عنهما، ولكنهم تمكنوا من الخروج واستقروا بالمدينة(٥).

كان النبي ﷺ بعد هجرته يقنت ويدعو للمستضعفين في مكة عامة، ولبعضهم بأسمائهم خاصة، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف»(٦).

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عياش، فقد ندب الرسول ﷺ أحد أصابه وفعلاً استعد للمهمة ورتب لها ما يحقق نجاحها، وجاء إلى مكة واستطاع بكل اقتدار وذكاء أن يصل إلى البيت الذي حُبسا فيه وأطلق سراحهما، ورجع بهما إلى المدينة المنورة(٧).

٤- أسلوب التجريد من المال:

كان صهيب بن سنان النَّمَري من النَّمِر بن قاسط، أغارت عليهم الروم، فسبي وهو صغير، وأخذ لسان أولئك الذي سبوه، ثم تقلب في الرق، حتى ابتاعه عبد الله بن

جدعان ثم أعتقه، ودخل الإسلام هو وعمار بن ياسر رضي الله عنهما في يوم واحد(٨).

---

(١) ٣، ٤) انظر: التربية القيادية (١٦٠/٢).

(٤) انظر: في السيرة النبوية، ص١٣٢. ... (٢) انظر: في السيرة النبوية ، ص١٣٢.

(٥) البخاري، باب الاستسقاء، (٣٣/٢) رقم ١٠٠٦.

(٧) انظر: في السيرة النبوية، ص١٣٥. ... (٥) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١١٩.

وكانت هجرة صهيب – رضي الله عنه – عملاً تتجلى فيه روعة الإيمان، وعظمة التجرد لله، حيث ضحى بكل ما يملك في سبيل الله ورسوله، واللحوق بكتيبة التوحيد والإيمان(١) فعن أبي عثمان النهدي رحمه الله قال: «بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له أهل مكة: أتيتنا هاهنا صعلوكا(٢) حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت، ثم تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك، فقال: أرأيتم إن تركت مالي تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب» (٣) وعن عكرمة رحمه الله قال:«لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة، فنثل(٤) كنانته، فأخرج منها أربعين سهمًا، فقال: لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا، ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلَّفت بمكة فينتين فهما لكم) (٥) وقال عكرمة: ونزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) [البقرة: ٢٠٧] فلما رآه النبي ﷺ قال: «أبا يحيى، ربح البيع» قال: وتلا عليه(٦) الآية.

لكأني(٧) بصهيب – رضي الله عنه – يقدم الدليل القاطع على فساد عقل أولئك الماديين الذين يَزِنُون حركات التاريخ وأحداثه كلها بميزان المادة، فأين هي المادة التي سوف يكسبها صهيب في هجرته والتي ضحى من أجلها بكل ما يملك؟

هل تراه ينتظر أن يعطيه محمد ﷺ منصباً يعوضه عما فقده؟ أم هل ترى محمدا ﷺ يمنيه بالعيش الفاخر في جوار أهل يثرب؟

إن صهيبًا ما فعل ذلك وما انحاز إلى الفئة المؤمنة إلا ابتغاء مرضاة الله، بالغاً ما بلغ الثمن ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التضحية عزيزة المنال، عساهم يسيرون على الدرب، ويقتفون الأثر(٨).

إن هذه المواقف الرائعة لم تكن هي كل مواقف العظمة، والشموخ في الهجرة المباركة، بل امتلأ هذا الحدث العظيم بكثير من مشاهد العظمة، والتجرد والتضحية، التي تعطي الأمة دروساً بليغة في بناء المجد وتحصيل العزة(٩).

رابعًا: البيوتات الحاضنة وأثرها في النفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار ومبايعتهم وتعهدهم بالنصرة أن دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرة عظيمة من التكافل بين المسلمين، ففتحت بيوت الانصار أبوابها وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين، واستعدت لاحتضانهم رجالاً ونساء، إذ أصبح المسكن الواحد يضم المهاجر والأنصاري، والمهاجرة والأنصارية، يتقاسمون المال والمكان والطعام والمسئولية الإسلامية، فمن هذه البيوتات الحاضنة:

١- دار مبشر بن عبد المنذر بن زنبر بقباء: ونزل بها مجموعة من المهاجرين نساء ورجالاً، وقد ضمت هذه الدور عمر بن الخطاب، ومن لحق به من أهله، وقومه وابنته حفصة وزوجها وعياش بن ربيعة.

٢- دار خبيب بن إساف أخي بني الحارث بن الخزرج بالسنح(١٠) نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان وأمه وصهيب بن سنان.

٣- دار أسعد بن زرارة من بني النجار، قيل: نزل بها حمزة بن عبد المطلب.

٤- دار سعد بن خيثمة أخي بني النجار، وكان يسمّى بيت العزاب ونزل بها الأعزاب من المهاجرين.

٥- دار عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقباء: نزل بها عبيدة بن الحارث وأمه سخيلة، ومِسْطَح بن أثاثة بن عبّاد بن المطلب، والطفيل بن الحارث، وطُليب بن عُمير، والحصين بن الحارث نزلوا جميعاً على عبد الله بن سلمة بقباء.

٦- دار بني جَحْجبتى، والمحتضن هو منذر بن محمد بن عقبة، نزل عنده الزبير بن العوام، وزوجه أسماء بنت أبي بكر، وأبو سبرة بن أبي وهب وزوجته أم كلثوم بنت سهيل(١١).

٧- دار بني عبد الأشهل، والمحتضن هو سعد بن معاذ بن النعمان من بني عبد الأشهل، نزل بها مصعب بن عمير، وزوجته حَمنة بنت جحش.

٨- دار بني النجار، والمحتضن هو أوس بن ثابت بن المنذر، نزل بها عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٢).

فهذه المقاسمة وهذا التكافل الاجتماعي، كان من أهم العناصر التي مهدت لإقامة رسول الله ﷺ وصحابته المهاجرين معه، وبعده، إقامة طيبة، تنبض بالإيثار على النفس وبود الأخوة الصادقة المؤمنة(١٣).

---

(١) الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٠. ... (٢) الصعلوك: الفقير.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (٤٧٧/١)

(٤) نثل: استخرج ما فيها من النبل والسهام. ... (٥) مرسل أخرجه الحاكم (٣٩٨/٣)

(٦) أخرجه الحاكم (٣٩٨/٣) صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وسكت عليه الذهبي.

(٧) ،٨) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٢١.

(٨) نفس المصدر، ص١٢٩.

(١٠) المرأة في العهد النبوي، ص١١٦. ... (٢) انظر: المرأة في العهد النبوي، ص١١٧.

(١٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لأبي شهبة، (٤٦٨/١، ٤٦٩).
(١٣) انظر: المرأة في العهد النبوي، ص١١٨.

بهذه الروح العالية، والإيمان الوثيق، والصدق في المعاملة، تمت المؤاخاة، وتم الوفاق بين المهاجرين والأنصار، وقد يحدث تساؤل فيقال: لماذا لم نسمع ولم تسجل المصادر ولم تكتب المراجع أن خلافات وقعت في هذه البيوت؟

وأين النساء وما اشتهرن به من مشاكسات؟ إنه الدين الحق الذي جعل تقوى الله أساساً لتصرف كل نفس، والأخلاق السامية التي فرضت الأخوة بين المسلمين، ونصرة الدعوة، وإنها المبايعة وأثرها في النفوس، إنه الصدق، والعمل من أجل المجموعة خوفاً من العقاب ورهبة من اليوم الآخر، ورغبة في الثواب وطمعاً في الجنة، إنه دفء حضانة الإيمان، واستقامة النفس والسلوك وصدق الطوية. فكل من أسلم، وكل من بايع، وكل من أسلمت وبايعت، يعملون جميعهم بما يؤمرون به ويخلصون فيما يقولون، يخافون الله في السر والعلن، آمنت نفوسهم فاحتضنت الأنصارية المهاجرة ، فالكل يعمل من أجل مصلحة الكل، فهذا هو التكافل الاجتماعي في أجلى صورة، وأقدس واقعة، رغب الكل في الثواب حتى أن الواحد منهم يخاف ذهاب الأنصاري بالأجر كله(١).

إن جانب البذل والعطاء ظاهرة نحن بحاجة إلى الإشارة إليها في كل وقت، إننا في عالمنا المعاصر، وفي الصف الإسلامي وفي رحلة لبضعة أيام تتكشف النفوس والعيوب والحزازات والظنون، وهذا مجتمع يبني ولما يصل رسول الله ﷺ بعد، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجدد ليس على مستوى فرد فقط، بل على مستوى جماعي كذلك، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصار أشهراً عدة، والمعايشة اليومية مستمرة، والأنصار يبذلون المال والحب والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم، نحن أمام مجتمع إسلامي بلغ الذروة في لحمته وانصهاره، ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل والعطاء، فلم يكونوا أصلاً فقراء، بل كانوا يملكون المال، ويملكون الدار، وتركوا ذلك كله ابتغاء مرضاة الله، وبذلوه كله لطاعته جل وعلا، فكانوا كما وصفهم

القرآن الكريم: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) [الحشر:٨].

كان هذا المجتمع المدني الجديد يتربى على معاني الإيمان والتقوى، ولم يصل النبي ﷺ بعد، ولكن تحت إشراف النقباء الاثني عشر الذين كانوا في كفالتهم لقومهم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى، التي وصلت المدينة والذين استقوا جميعاً من النبع النبوي الثر، واقتبسوا من هديه(٢).

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية، فقد كان إمام المسلمين سالم مولى أبي حذيفة – رضي الله عنه –؛ لأنه كان أكثرهم قرآنا، فهذا المجتمع الذي يوجد فيه علية أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار وسادة العرب من قريش والأوس والخزرج، يقوده ويؤمه حامل القرآن، فالكرامة العليا فيه لقارئ كتاب الله وحامله، وحامل القرآن في المجتمع الإسلامي هو نفسه حامل اللواء في الحرب، فليس بينهما ذلك الانفصام الذي نشهده اليوم من حملة القرآن من الحفاظ، وبين المجاهدين في سبيل الله، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سالم مولى أبي حذيفة، فقيل له في ذلك، فكان شعاره: بئس حامل القرآن– يعني إن فررت– فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره فقطعت، فاعتنقه إلى أن صرع، واستُشهد في سبيل الله(٣).

ومن معالم المجتمع الإسلامي الجديد: حرية الدعوة إلى الله علانية، فقد أصبح واضحاً عند الجميع أن معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدين، ونشط الشباب والنساء، والرجال في الدعوة إلى الله، والتبشير بقدوم رسول الله ﷺ على قدم وساق.

ولابد من المقارنة بين المجتمع الذي قام بالحبشة من المسلمين وبين المجتمع الإسلامي في يثرب، لقد كانت الحبشة تحمل طابع اللجوء السياسي، والجالية الأجنبية أكثر مما كانت تحمل طابع المجتمع الإسلامي الكامل، صحيح أن المسلمين ملكوا حرية العبادة هناك، لكنهم معزولون عن المجتمع النصراني، لم يستطيعوا أن يؤثروا فيه التأثير المنشود، وإن كانت هجرة الحبشة خطوة متقدمة على جو مكة، حيث لا تتوفر حرية الدعوة وحرية العبادة، ولكنه دون المجتمع الإسلامي في المدينة بكثير؛

ولذلك شرع مهاجرو الحبشة بمجرد سماع خبر هجرة المدينة بالتوجه نحوها مباشرة، أو عن طريق مكة إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك، لقد أصبحت المدينة مسلمة بعد أن عاشت قرونا وثنية مشركة.

---

(١) انظر: المرأة في العهد النبوي، ص١٣٢. ... (٢) انظر: التربية القيادية، (١٧١/٢، ١٧٢).

(٣) انظر: التربية القيادية (١٧٤/١، ١٧٥).

لقد أصبح المجتمع المدني مسلماً وبدأ نموه وتكوينه الفعلي بعد عودة الاثني عشر صحابياً من البيعة الأولى، والتي كان على رأسها الصحابي الجليل أسعد بن زرارة، والتي حملت المسؤولية الدعوية فقط، دون الوجود السياسي، وبلغ أوج توسعه وبنائه بعد عودة السبعين الذين ملكوا الشارع السياسي والاجتماعي، وقرروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض وهم على استعداد أن يواجهوا كل عدو خارجي، يمكن أن ينال من هذه السيادة حتى قبل قدوم رسول الله ﷺ إليهم في المدينة.

إن القاعدة الصلبة التي بذل رسول الله ﷺ وقتاً وجهداً في تربيتها، بدأت تعطي ثمارها أكثر بعد أن التحمت بالمجتمع المدني الجديد، وانصهر كلاهما في معاني العقيدة وإخوة الدين.

لقد أعد رسول الله ﷺ الأفراد وصقلهم في بوتقة الجماعة، وكون بهم القاعدة الصلبة، ولم يقم المجتمع الإسلامي الذي تقوم عليه الدولة إلا بعد بيعة الحرب؛ وبذلك نقول بأن المجتمع الإسلامي قام بعد ما تهيأت القوة المناسبة لحمايته في الأرض(١).

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة المنظمة القوية إلى المدينة، والتحمت مع إخوانها الأنصار، وتشكل المجتمع المسلم الذي أصبح ينتظر قائده الأعلى عليه الصلاة والسلام، ليعلن ولادة دولة الإسلام، التي صنعت فيما بعد حضارة لم يعرف التاريخ مثلها حتى يومنا هذا.

خامساً: لماذا اختيرت المدينة كعاصمة للدولة الإسلامية؟

كان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة دارًا للهجرة ومركزًا للدعوة- هذا عدا ما أراده الله من إكرام أهلها وأسرار لا يعلمها إلا الله- إنها امتازت بتحصن طبيعي حربي، لا تزاحمها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة، فكانت حرة الوبرة مطبقة على المدينة من الناحية الغربية وحرة واقم، مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة هي الناحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب)، وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل الزروع الكثيفة لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري، وترتيب الصفوف.

وكانت خفارات عسكرية صغيرة كافية بإفساد النظام العسكري ومنعه من التقدم يقول ابن إسحاق: «كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها»(٢).

ولعل النبي ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: «إني رأيت دار هجرتكم، ذات نخيل بين لابتين وهما الحرتان» (٣). فهاجر من هاجر قِبَل المدينة.

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة وشكيمة، ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة إتاوة أو جباية، يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في ملتهم من جاورهم من قبائل مضر.

وكان بنو عدي بن النجار أخواله صلى الله عليه وسلم، فأم عبد المطلب بن هاشم إحدى نسائهم، فقد تزوج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وولدت لهاشم عبد المطلب، وتركه هاشم عندها، حتى صار غلاماً دون المراهقة، ثم احتمله عمه المطلب، فجاء به إلى مكة، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة.

وكان الأوس والخزرج من قحطان، والمهاجرون ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقام الأنصار بنصره، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام، وكانوا كجسدٍ واحدٍ، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة في الجاهلية، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم لإثارة الفتنة والتعزي بعزاء الجاهلية، باسم الحمية القحطانية أو العدنانية، فكانت لكل ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه واتخاذهم لها داراً وقراراً، حتى يقوى الإسلام ويشق طريقه إلى الأمام، ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدن(٤).

سادسًا: من فضائل المدينة:

لقد عظُم شرف المدينة المنورة المباركة بهجرة النبي ﷺ إليها، حتى فضلت على سائر بقاع الأرض حاشا مكة المكرمة، وفضائلها كثيرة منها:

١- محبته ﷺ لها ودعاؤه لها:

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/١٤٦، ١٤٧). ... (٢) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص١٥٧.

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص٥٢.

(٤) انظر: الأساس في السنة (١/٣٣٣). ... (٢) الهجرة النبوية المباركة، ص١٥٧.

دعا النبي ﷺ ربه قائلا: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشد»(١) وعن أنس - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر، فأبصر إلى درجات المدينة(٢)، أَوْضَع ناقته(٣) وإن كان على دابة حركها» قال أبو عبد الله: زاد الحارث بن عمير عن حميد «حركها من حبها»(٤).

٢- دعاء النبي ﷺ لها بضعفي ما في مكة من البركة:

فعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة»(٥)، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «كان الناس إذا رأوا أول أثمر جاءوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا أخذه رسول الله ﷺ

قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه» قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر(٦).

٣- عصمتها من الدجال والطاعون ببركته صلى الله عليه وسلم:

إن الله تعالى قيض لها ملائكة يحرسونها، فلا يستطيع الدجال إليها سبيلاً، بل يلقى إليه بإخوانه من الكفار والمنافقين، كما أن من لوازم دعاء النبي ﷺ بالصحة ورفع الوباء ألا ينزل بها الطاعون، كما أخبر بذلك المعصوم(٧) صلى الله عليه وسلم.

٤- فضيلة الصبر على شدتها:

فقد وعد النبي ﷺ من صبر على شدة المدينة وضيق عيشها بالشفاعة يوم القيامة(٨) فعن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها(٩) وجهدها إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة»(١٠).

٥- فضيلة الموت فيها:

فعن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها»(١١)، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يدعو بهذا الدعاء: (اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك صلى الله عليه وسلم)(١٢).

وقد استجاب الله للفاروق - رضي الله عنه - فاستشهد في محراب رسول الله ﷺ وهو يؤم المسلمين في صلاة الفجر.

٦- هي كهف الإيمان وتنفي الخبث عنها:

فالإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد، والأخباث والأشرار لا مقام لهم فيها

ولا استقرار، ولا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أبدلها الله خيراً منه من المؤمنين الصادقين(١٣) فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الإيمان ليأرِز(١٤) إلى المدينة كما تأرِز الحية إلى جحرها»(١٥)، وقال صلى الله عليه وسلم: «... والذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكير، تخرج الخبث لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»(١٦).

٧- تنفي الذنوب والأوزار:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنها –أي المدينة– طيبة تنفي الذنوب(١٧) كما تنفي النار خبث الفضة»(١٨).

٨- حفظ الله إياها ممن يريدها بسوء:

---

(٢) وفي رواية: «جدارات»: جمع جدار وهو الحائط، ودرجات: أي الطرق المرتفعة. ...

(٣) أوضع ناقته: حثها على السرعة.

(٤) البخاري، كتاب العمرة، باب من أسرع ناقته (٦٣٠/٣) رقم ١٨٠٢).

(٥) البخاري، كتاب فضائل المدينة (٩٧/٤) رقم ١٨٨٥. ...

(٦) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (١٠٠٠/٢).

(٧) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ١٥٨.

(٨) المصدر السابق، ص١٦٠. ... (٣) اللأواء: الشدة وضيق العيش.

(١٠) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٩٩٢/٢) رقم ١٣٦٣.

(١١) أخرجه أحمد (٧٤/٢، ١٠٤) بإسناد صحيح وصححه ابن حبان رقم ٣٧٤١.

(١٢) البخاري، كتاب فضائل المدينة (١٠٠/٤) رقم ١٨٩٠.

(١٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٦١.

(١٤) يأرز: ينضم ويجتمع، انظر: فتح الباري (٩٣/٤).

(١٥) البخاري، كتاب فضائل المدينة (٩٣/٤) رقم ١٨٧٦.
(١٦) مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها (١٠٠٥/٢) رقم ١٣٨١.
(١٧) في رواية (تنفي الخبث) وفي رواية (تنفي الرجال).
(١٨) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٣٥٦/٧) رقم ٤٠٥٠.

فقد تكفل الله بحفظها من كل قاصد إياها بسوء، وتوعد النبي ﷺ من أحدث فيها حدثاً، أو آوى فيها محدثاً، أو أخاف أهلها، بلعنة الله وعذابه، وبالهلاك العاجل(١) فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع(٢) كما ينماع الملح في الماء»(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم: «المدينة حرم الله، فمن أحدث فيها حدثاً(٤) أو آوى محدثاً(٥) فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة عدلٌ، ولا صرفٌ»(٦).

٩- تحريمها:

فقد حرمها النبي ﷺ بوحي من الله فلا يراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح، ولا يروع فيها أحد، ولا يقطع فيها شجر، ولا تحل لُقَطَتها إلا لمنشد، وغير ذلك ما يدخل في تحريمها قال صلى الله عليه وسلم: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، حرَّمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة»(٧).

وقال صلى الله عليه وسلم: «هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها»(٨)يعني المدينة، وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يختلي خلاها(٩)ولا ينفر صيدها(١٠)ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشار بها (١١)ولا تقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيرة ولا تحمل فيها السلاح لقتال» (١٢).

إن هذه الفضائل العظيمة جعلت الصحابة يتعلقون بها، ويحرصون على الهجرة إليها، والمقام فيها، وبذلك تجمعت طاقات الأمة فيها، ثم توجهت نحو القضاء على الشرك بأنواعه، والكفر بأشكاله، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

الفصل السادس –هجرة النبي ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه

المبحث الأول –فشل خطة المشركين والترتيب النبوي الرفيع للهجرة

أولاً: فشل خطة المشركين لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم:

بعد أن منيت قريش بالفشل في منع الصحابة –رضي الله عنهم– من الهجرة إلى المدينة، على الرغم من أساليبهم الشنيعة والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدث ابن عباس في تفسيره لقوله تعالى (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال:٣٠] فقال: فتشاورت قريش بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق، يريدون النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أن أخرجوه، فاطلع الله نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة(١٣)، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليًّا رد الله كيدهم، فقالوا أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتفوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً(١٤).

قال سيد قطب في تفسيره للآيات التي تتحدث عن مكر المشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم: «إنه التذكير بما كان في مكة، قبل تغير الحال، وتبدل الموقف، وإنه ليوحي بالثقة واليقين في المستقبل، كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته، فيما يقضي به ويأمر: ولقد كان المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أول مرة، يعرفون الحالين معرفة الذي عاش ورأى وذاق، وكان يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب، وما كان فيه من خوف وقلق، في مواجهة الحاضر الواقع وما فيه من أمن وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم، لا مجرد النجاة منهم.

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٦٢. ... ... (٥) انماع: ذاب وسال.
(٣) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة، (٩٤/٤) رقم ١٨٧٧.
(٤) الحدث: الإثم أو الأمر المنكر الذي ليس بمعروف في السنة.
(٥) المحدث: أي من أتي الحدث.
(٦) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٩٩٩/٢) رقم ١٣٧١.
(٧) البخاري، كتاب البيوع، باب بركة صاع النبي ومده (٣٤٦/٤).
(٨) البخاري، كتاب المغازي، باب أحد جبل يحبنا ونحبه (٣٣٧/٧) رقم ٤٨٤.
(٩) لا يختلي خلاها: لا يجز ولا يقطع الحشيش الرطب فيها.
(١٠) لا ينفر صيدها: لا يزجر ويمنع من الرعي.
(١١) أشار بها، والمراد تعريف اللقطة.
(١٢) أخرجه أحمد (١١٩/١).
(١٣) انظر: السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ١٣٥.
(١٤) انظر: البداية والنهاية (١٨١/٣)، وابن حجر في الفتح وحسن إسناده، فتح الباري (٢٣٦/٧).

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله ﷺ ويحبسوه حتى يموت، أو ليقتلوه ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكة منفيًّا مطروداً، ولقد ائتمروا بهذا كله ثم اختاروا قتله، على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعاً، ليتفرق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها، فيرضوا بالدية وينتهي الأمر (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).

إنها صورة ساخرة وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة، فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط(١).

ثانيًا: الترتيب النبوي للهجرة:

عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة(٢)، في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أخرج عني من عندك» فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك، فداك أبي وأمي! فقال: «إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة» قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «الصحبة» قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركًا يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما(٣).

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهم سفرة في جراب، فقطمت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا(٤) فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام، شاب، ثقف(٥) لقن(٦)، فيدلج(٧) من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يَكتادان(٨) به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولي أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليها حين تذهب ساعة من العشاء فيبتان في رِسْل- وهو لبن منحتهما ورضيفهما(٩)- حتى ينعق(١٠) بها عامر بن فهيرة بغلس(١١) يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هاديا خريتا- والخريت الماهر- بالهداية قد

غمس حلفاً(١٢) في آل العاص ابن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر به فهيرة، والدليل فأخذ بهم طريق السواحل»(١٣).

ثالثًا: خروج الرسول ﷺ ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١٥٠١/٣).

(٢) الهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر أو إلى العصر.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢٣٣/٢، ٢٣٤).

(٤) كمنا فيه: أي استترا واستخفيا ومنه الكمين في الحربة، النهاية (٢٠١/٤).

(٥) ثَقِفْ: ذو فطنة وذكاء والمراد ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، النهاية (٢١٦/١).

(٦) لقن: فهم حسن التلقي لما يسمعه، النهاية (٢٦٦/٤).

(٧) يدلج: أدلج إذا سار أول الليل وادّلج بالتشديد إذا سار آخره.

(٨) يُكتادان: أي يطلب لهما فيه المكروه وهو من الكيد.

(٩) الرضيف: اللبن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وَخَمُه.

(١٠) ينعق: نعق بغنمه، أي صاح بها وزجرها، القاموس المحيط (٢٩٥/٣).

(١١) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح، النهاية (٣٧٧/٣).

(١٢) غمس حلفاً: أي أخذ بنصيب من عقدهم وحلفهم يأمن به.

(١٣) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي رقم ٣٩٠٥.

أما علي فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع، التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته(١) وكان الميعاد بين الرسول ﷺ وأبي بكر – رضي الله عنه – فخرجا من خوخة(٢) لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك

للإمعان في الاستخفاء حتى لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال(٣).

رابعًا: رِقة النبي ﷺ عند خروجه من مكة:

وقف الرسول ﷺ عند خروجه بالحزورة في سوق مكة، وقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»(٤).

ثم انطلق رسول الله ﷺ وصاحبه من بطش المشركين، وصرفهم عنهما.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس: (أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل جبل ثور اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسيج العنكبوت على بابه)(٥) وهذه من جنود الله عز وجل التي يخذل بها الباطل، وينصر به الحق؛ لأنه جنود الله جلت قدرته أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتثمل في ضخامتها فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذي لجب، قال تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) [المدثر: ٣١]. أي وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو، فجنود الله غير متناهية؛ لأن مقدوراته غير متناهية(٦) كما أنه لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والوقوف على حقائقها وصفاتها ولو إجمالا فضلا عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها من كم وكيف ونسبة(٧).

خامساً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله صلى الله عليه وسلم:

بالرغم من كل الأسباب التي اتخذها رسول الله ﷺ فإنه لم يرتكن إليها مطلقاً وإنما كان كامل الثقة في الله، عظيم الرجاء في نصره وتأييده، دائم الدعاء بالصيغة التي علمه الله إياها(٨) قال تعالى: (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا) [الإسراء: ٨٠].

وفي هذه الآية الكريمة دعاء يعلمه الله لنبيه ليدعوه به، ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وكيف تتجه إليه؟ دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج، كناية عن صدق الرحلة كلها، بدئها وختامها، أولها وآخرها وما بين الأول والآخر، وللصدق هنا قيمته، بمناسبة ما

حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه ليفتري على الله غيره. وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثبات والاطمئنان والنظافة والإخلاص (وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا) قوة وهيبة أستعلي بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين، وكلمة (مِن لَّدُنْكَ) تصور القرب والاتصال بالله، والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه. وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان الله، ولا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذي جاه فينصره ويمنعه، ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله، والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان، والجاه، فيصبحون لها جنداً وخدماً فيفلحون، ولكنها هي لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه، فهي من أمر الله، وهي أعلى من ذوي السلطان والجاه(٩).

وعندما أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رأي العين طمأن الرسول ﷺ الصديق بمعية الله لهما؛ فعن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟(١٠)».

وفي رواية: «اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما».

وسجل الحق عز وجل ذلك في قوله تعالى: (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٣٤) ... (١١) الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٣٤.

(٣) خاتم النبيين لأبي زهرة (١/٦٥٩) السيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٣٤).

(٤) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/٧٢٢).

(٥) مسند الإمام أحمد (١/٣٤٨). ... (٣) انظر: تفسير الرازي (٣٠/٢٠٨).

(٦) انظر: تفسير أبي مسعود (٩/٦٠).

(٨) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص٧٢. ...

(٩) انظر: في ظلال القرآن (٢٢٤٧/٤).

(١٠) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين، رقم ٣٦٥٣.

سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [التوبة: ٤٠].

سادساً: خيمة أم معبد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليالٍ من دخول النبي ﷺ في الغار، خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله، وقد قلنا إن رسول الله ﷺ وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بني الديل يسمى عبد الله بن أريقط وكان مشركًا، وقد أمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلا في الموعد المحدد وسلك بهما طريقاً غير معهودة ليخفي أمرهما عمن يلحق بهم من كفار قريش(١)، وفي الطريق إلى المدينة مر النبي ﷺ بأم معبد(٢) في قديد(٣) حيث مساكن خزاعة، وهي أخت خنيس بن خالد الخزاعي الذي روى قصتها، وهي قصة تناقلها الرواة وأصحاب السير، وقال عنها ابن كثير: «وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا»(٤)، فعن خالد بن خنيس الخزاعي – رضي الله عنه – صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة، وخرج منها مهاجراً إلى المدينة، هو وأبو بكر – رضي الله عنه – ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة – رضي الله عنه – ودليلهما الليثي عبد الله بن الأريقط، مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت برزة(٥) جلدة(٦) تحتبي(٧) بفناء القبة ثم تسقي وتطعم، فسألوهما لحماً وتمراً، ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مُرْمِلِين(٨) مسنتين(٩) فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة(١٠) فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» قالت: خلفها الجهد عن الغنم، قال: «فهل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك، قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمي، نعم، إن رأيت بها حلباً فاحلبها.

فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها، وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شاتها، فتفاجت(١١) عليه، ودرت(١٢) واجترت(١٣) ودعا بإناء يُرْبِض(١٤) الرهط، فحلب فيها ثجا(١٥) حتى علاه البهاء(١٦) ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب آخرهم ﷺ ثم أراضوا(١٧)، ثم حلب فيها ثانياً بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها، وارتحلوا عنها.

فقلما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافاً(١٨) يتساوكن هُزلا(١٩) ضحى، مخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاة عازب حيال(٢٠) ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك، من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أم معبد قالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة(٢١)، أبلج الوجه(٢٢)،

حسن الخلق، لم تعبه نحلة(٢٣) ولا تزر به صعلة(٢٤) وسيم(٢٥)، في عينيه دعج(٢٦)

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١٠١/٢). ... (٤) هي عاتكة بنت كعب الخزاعية.

(٣) وادي قديد: يبعد عن الطريق المعبدة حوالي ثمانين ميلاً.

(٤) البداية والنهاية (١٨٨/٣).

(٥) برزة: كهلة كبيرة السن، لا تحتجب احتجاب الشواب.

(٦) جلدة: قوية صلبة وقيل عاقلة.

(٧) تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، على ركبتيها، وتلك جلسة الأعراب.

(٨) مرملين: نفذ زادهم.

(٩) مسنتين: أي داخلين في أسَنَة وهي الجدب والمجاعة والقحط.

(١٠) كسر الخيمة: بفتح الكاف وكسرها، وسكون المهملة: أي جانبها.

(١١) تفاجت: فتحت ما بين رجليها للحلب. ... (٨) درت: أرسلت اللبن.
(١٣) واجترت: من الجرة وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.
(١٤) يربض: يرويهم حتى يثقلوا فيربضوا، أي يقعوا على الأرض للنوم والراحة.
(١٥) ثجا: لبنا كثيراً سائلا. ... (١٢) علاه البهاء: أي أعلا الإناء بهاء اللبن.
(١٧) أراضوا: أي رووا، فنقعوا بالري، يريد شربوا مرة بعد مرة.
(١٨) عجافا: ضد السمن، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.
(١٩) يتساوكن هزلا: يتمايلن من الضعف.
(٢٠) عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في الليل، حيال: لا تحمل.
(٢١) ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن ... .
(١٨) أبلغ الوجه: مشرق الوجه مضيئه.
(٢٣) نحلة: من النحول والدقة والضمور، أي أنه ليس نحيلا.
(٢٤) صعلة: صغر الرأس وهي تعني الدقة والنحول في البدن.
(٢٥) وسيم: الوسيم المشهور بالحسن كأنه صار الحسن له سمة.
(٢٦) دعج: شديد سواد العين في شدة بياضها. ...
(٥) في أشفاره وطف: الشعر النابت على الجفن فيه طول.
، وفي أشفاره وطف(١)، وفي صوته صهل(٢) وفي عنقه سطع(٣) وفي لحيته كثاثة، أزج(٤)، أقرن(٥)، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما(٦) وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا هذر ولا نزر(٧)، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربع(٨) لا يأس من طول(٩) ولا تقتحمه العين من قصر(١٠) غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود(١١)، محشود(١٢)، لا عابس ولا مُفنَّد(١٣).
قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. (١٤)

سابعاً: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أعلنت قريش في نوادي مكة بأنه من يأتي بالنبي ﷺ حيًّا أو ميتًا، فله مائة ناقة، وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب الذين في ضواحي مكة، وطمع سراقة بن مالك بن جعشم في نيل الكسب الذي أعدته قريش لمن يأتي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته التي لا يغلبها غالب، جعله يرجع مدافعًا عن رسول الله ﷺ بعد ما كان جاهداً عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعشم، أن أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رُسُل كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، دية كل منها لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني رأيت آنفا أَسْوِدة(١٥) بالساحل أُراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم: فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وهى من وراء أكمة(١٦) فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه(١٧) الأرض وخفضت عالية حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام(١٨) فاستقسمت بها، أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام؛ تُقَرّب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت(١٩) يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضتْ فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان(٢٠) ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم،

وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني(٢١) ولم يسألاني، إلا أن قال: أخف عنا، فسألته أن يكتب لي في كتاب آمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم(٢٢) ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢٣).

---

(٢) صهل: كالبحة وهو ألا يكون حاد الصوت. ... (٧) سطع: طول العنق.

(٤) أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.

(٥) أقرن: متصل ما بين حاجبين من الشعر، أو مقرون الحاجبين.

(٦) سما: علا برأسه، أو بيده وارتفع.

(٧) لا هذر ولا نذر: الهذر من الكلام ما لا فائدة فيه والنزر: القليل.

(٨) رَبْع: ليس بالقصير ولا بالطويل. ... (١٣) لا يأس من طول: لا يجاوز الناس طولا.

(١٠) لا تقتحمه العين من قصر: لا تزدريه ولا تحتقره. ... (١٥) محفود: مخدوم.

(١٢) محشود: يجتمع الناس حواليه.

(١٣) لا عابس ولا مفند: ليس عابس الوجه ولا مفند: ليس منسوباً إلى الجهل وقلة العقل.

(١٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٠٤-١٠٦) والهوامش منه ببعض تصرف.

(١٥) أسودة: جمع قلة لسواد وهو الشخص يرى من بعيد أسود، الهجرة في القرآن، ص٣٤٤.

(١٦) الأكمة: هي الرابية. ... (٣) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.

(١٨) الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر، والنهي: افعل ولا تفعل.

(١٩) ساخت يدا فرسي: أي غاصت في الأرض.

(٢٠) عثان: أي دخان، وجمعه عواثن على غير قياس، النهاية (١٨٣/٣).

(٢١) فلم يرزآني: أي لم يأخذا مني شيئاً. ... (٨) أديم: قطعة من جلد.
(٢٣) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم ٣٩٠٦. ... (١٠) التزبب في الإنسان: كثرة الشعر وطوله.

وكان مما اشتهر عند الناس من أمر سراقة ما ذكره ابن عبد البر، وابن حجر وغيرهما، قال ابن عبد البر: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن، أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟» قال: فلما أُتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه، دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها، وكان سراقة رجلاً أزب(١) كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابياً من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته(٢)، ثم أركب سراقة، وطيف به المدينة، والناس حوله، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر، الحمد الله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج(٣).

ثامنًا: سبحان مقلب القلوب:

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسلمه لزعماء مكة لينال مائة ناقة، وإذا بالأمور تنقلب رأساً على عقب، ويصبح يرد الطلب عن رسول الله ﷺ فجعل لا يلقى أحداً من الطلب إلا رده قائلا: كفيتم هذا الوجه، فلما اطمأن إلى أن النبي ﷺ وصل إلى المدينة المنورة، جعل سراقة يقص ما كان من قصته وقصة فرسه، واشتهر هذا عنه، وتناقلته الألسنة حتى امتلأت به نوادي مكة، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام بعض أهل مكة، وكان سراقة أمير بني مدلج، ورئيسهم فكتب أبو جهل إليهم:

بني مدلج إني أخاف سفيهكم ... سراقة مستغوٍ لنصر محمد

عليكم به ألا يفرق جمعكم فيصبح شتى بعد عز وسؤدد ... فيصبح شتى بعد عز وسؤدد

فقال سراقة يرد على أبي جهل:

أبا حكم والله لو كنتَ شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تَشْكُك بأن محمداً ... رسول وبرهان فمن ذا يقاومه
عليك فكُف القوم عنه فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمر تود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طُراً مسالمه(٤)

تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

لما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفَى رجل من يهود على أُطُم(٥) من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين(٦) يزول بهم السراب(٧)، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب هذا جدكم(٨) الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين(٩)، من شهر ربيع الأول(١٠) فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار، ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك «فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة(١١)، وأُسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ركب راحلته»(١٢).

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ المدة التي مكثها بقباء، وأراد أن يدخل المدينة «بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر، فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح»(١٣).

وعند وصوله ﷺ إلى المدينة أخذ أهل المدينة يقولون: «جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله» (١٤).

---

(٢) انظر: الروض الأنف (٢١٨/٤)، الهجرة في القرآن، ص٣٤٦.
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٤٩٥/١). ... (٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٤٩٤/١).
(٤) أطم: كالحصن. ... (٥) مبيضين: عليهم ثياب بيض.
(٧) السراب: أي يزول بهم السراب عن النظر بسبب عروضهم له.
(٨) جدكم: حظكم وصاحب دولتكم، الذي تتوقعونه.
(٩) قال الحافظ بن حجر: هذا هو المعتمد وشذ من قال يوم الجمعة، الفتح (٥٤٤/٧).
(١٠) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٥١. ... (٤) نفس المصدر، ص٣٥٢.
(١٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي (٧٧/٥، ٧٨).
(١٣) ،٧) نفس المصدر رقم ٣٩١١. ... (٨) الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٥٣.
فكان يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، ولقد كان حقًّا يوم عيد؛ لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها إلى سائر بقائع الأرض. لقد أحس أهل المدينة بالفضل الذي حباهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم به أيضاً، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله ﷺ وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام كما أصبحت موطناً للنظام الإسلامي العام التفصيلي بكل مقوماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج، ويقولون: يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله(١).
روى الإمام مسلم بسنده قال: «عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة، صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق العلماء والخدم في الطرق ينادون: «يا محمدُ، يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله»(٢).
وبعد هذا الاستقبال الجماهيري العظيم الذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانية سار رسول الله ﷺ حتى نزل في دار أبي أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – فعن أنس – رضي الله عنه – في حديث الهجرة الطويل وفيه: «فأقبل يسير حتى نزل جانب

دار أبي أيوب فإنه ليحدث أهله(٣) إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف(٤) لهم فعجل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي مع فسمع من نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى أهله فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «أي بيوت أهلنا(٥) أقرب» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله هذه داري وهذا بابي، قال: «فانطلق فهيئ لنا مقيلا(٦)...»(٧) ثم نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه.

وبهذا قد تمت هجرته ﷺ وهجرة أصحابه رضي الله عنهم، ولم تنته الهجرة بأهدافها وغاياتها، بل بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ سالماً إلى المدينة، وبدأ معها رحلة المتاعب والمصاعب والتحديات، فتغلب عليها رسول الله ﷺ للوصول للمستقبل الباهر للأمة، والدولة الإسلامية، التي استطاعت أن تصنع حضارة إنسانية رائعة، على أسس من الإيمان والتقوى، والإحسان والعدل، بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان في العالم، وهما: دولة الفرس ودولة الروم(٨).

عاشراً: فوائد ودروس وعبر:

١- الصراع بين الحق والباطل: صراع قديم وممتد، وهو سنة إلهية نافذة قال عز وجل: (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [الحج: ٤٠].

ولكن هذا الصراع معلوم العاقبة: (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [المجادلة: ٢١].

٢- مكر خصوم الدعوة بالداعية: أمر مستمر متكرر، سواء عن طريق الحبس أو القتل أو النفي والإخراج من الأرض، وعلى الداعية أن يلجأ إلى ربه وأن يثق به ويتوكل عليه ويعلم أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله(٩)، كما قال عز وجل: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال: ٣٠].

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدعوة استخدام سلاح المال لإغراء النفوس الضعيفة للقضاء على الدعوة والدعاة، ولذلك رصدوا مائة ناقة لمن يأتي بأحد المهاجرين حيًّا أو ميتاً، فتحرك الطامعون ومنهم سراقة، الذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديًّا بأوفر ربح وأطيب رزق، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمّي الطريق عن الطامعين الآخرين الذين اجتهدوا في الطلب، وهكذا يرد الله عن أوليائه والدعاة(١٠) قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) [الأنفال: ٣٦].

---

(٢) مسلم، كتاب الزهد والرقائق باب حديث الهجرة، رقم ٢٠٠٩.

(٣) الضمير هنا للنبي ﷺ (فتح الباري (٢٥١/٧) ... (٢) يخترف: أي يحتبي من ثمارها، انظر: النهاية (٢٤/٢)

(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٥٤. ... (٤) مقيلا: أي مكاناً تقع فيه القيلولة.

(٧) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي إلى المدينة (٧٩/٥).

(٨) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٥٥. ... (٧) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٩٩.

(١٠) انظر الهجرة النبوية المباركة، ص٢٠٠. ...

٣- إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائمًا، وأن التخطيط جزء من السنّة النبوية وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم وأن الذين يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنّة أمثال هؤلاء مخطئون ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين(١).

فعندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ وشرع النبي ﷺ في التنفيذ نلاحظ الآتي:

* وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات، وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروساً دراسة وافية، فمثلا:

أ- جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر في وقت شديد الحر- الوقت الذي لا يخرج فيه أحد- بل من عادته لم يكن يأتي فيه، لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

ب- إخفاء شخصيته ﷺ أثناء مجيئه للصديق، وجاء إلى بيت الصديق متلثماً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم(٢).

ج- أمر ﷺ أبا بكر أن يُخرِج مَنْ عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

د - وكان الخروج ليلاً ومن باب خلفي في بيت أبي بكر(٣).

هـ- بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذلك بخبير يعرف مسالك البادية ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً ما دام على خلق ورزانة، وفيه دليل على أن الرسول ﷺ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها(٤).

* انتقاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل من هؤلاء الأفراد وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

* وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به على أحسن وجه ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

* فكرة نوم علي بن أبي طالب مكان الرسول، فكرة ناجحة، قد ضللت القوم وخدعتهم، وصرفتهم عن الرسول ﷺ حتى خرج في جنح الليل تحرسه عناية الله وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة بمضجع الرسول ﷺ فما كانوا يشكون في أنه ما يزال نائماً، مسجى في بردته في حين النائم هو علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

ونرى احتياجات الرحلة قد دبرت تدبيرا محكما:

أ- علي :- رضي الله عنه - ينام في فراش الرسول ﷺ ليخدع القوم، ويُسلَّم الودائع ويلحق بالرسول.

ب- وعبد الله بن أبي بكر: صاحب المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

جـ- وأسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنون المشركين بحثاً عن محمد ﷺ ليقتلوه.

د- وعامر بن فهيرة: الراعي البسيط الذي قدم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه، كيلا يتفرسها القوم، لقد كان هذا الراعي يقوم بدور الإمداد والتموين.

هـ- وعبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير، ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف.

لقد أخذ الرسول ﷺ بالأسباب المعقولة أخذاً قويًّا حسب استطاعته وقدرته.. ومن ثم باتت عناية الله متوقعة(٥).

٤- الأخذ بالأسباب أمر ضروري:

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله، ومشيئته ومن هنا كان التوكل أمراً ضرورياً وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسول الله ﷺ أعد كل الأسباب، واتخذ كل الوسائل ولكنه في الوقت نفسه مع الله، يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح، وهنا يستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ فرس سراقة في الأرض ويكلل العمل بالنجاح(٦).

٥- الإيمان بالمعجزات الحسية:

(١) انظر: الأساس في السنة، سعيد حوى (٣٥٧/١).
(٢) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحيطة، ص١٤١.
(٣) انظر: معين السيرة، ص١٤٧. ... (٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٦١.
(٥) انظر: أضواء على الهجرة، لتوفيق محمد، ص٣٩٣: ٣٩٧.
(٦) انظر: من معين السيرة، ص١٤٨. ... (٢،٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١٠٨/٢).

وفي هجرة النبي ﷺ وقعت معجزات حسية، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك -على ما روي- نسيج العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله ﷺ مع أم معبد، وما جرى له مع سراقة ووعده إياه بأن يلبس سواري كسرى، فعلى الدعاة ألا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتة بالسنة النبوية على أن ينبهوا الناس على أن هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوته ورسالته عليه السلام(١).

٦- جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمن بدعوتهم، ما داموا يثقون بهم ويأتمنونهم على ما يستعينون به معهم، فقد رأينا أن النبي ﷺ وأبا بكر استأجرا مشركاً ليدلهم على طريق الهجرة ودفعا إليه راحلتيهما وواعده عند غار ثور، وهذه أمور خطيرة أطلعاه عليها، ولا شك أن النبي ﷺ وأبا بكر وثقا به وأمناه، مما يدل على أن الكافر أو العاصي أو غير المنتسب إلى الدعاة، قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدعاة بهم، كأن تربطهم رابطة القرابة، أو المعرفة القديمة أو الجوار، أو عمل معروف، كان قد قدمه الداعية لهم، أو لأن هؤلاء عندهم نوع جيد من الأخلاق الأساسية، مثل الأمانة وحب عمل الخير إلى غير ذلك من الأسباب، والمسألة تقديرية يترك تقديرها إلى فطنة الداعي ومعرفته بالشخص(٢).

٧- دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماء كثيرة كان لها فضل كبير ونصيب وافر من الجهاد: منها عائشة بنت أبي بكر الصديق التي حفظت لنا القصة ووعتها وبلغتها للأمة، وأم سلمة المهاجرة الصبور، وأسماء ذات النطاقين(٣) التي ساهمت في تموين الرسول ﷺ وصاحبه في الغار بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله؟ فقد حدثتنا عن ذلك فقالت: «لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر - رضي الله عنه - أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي قالت: ثم انصرفوا...» (٤).

فهذا درس من أسماء رضي الله عنها تعلمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم!

وأما درسها الثاني البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: «والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه»، قالت: «كلا يا أبت، ضع يدك على هذا المال، قالت: «فوضع يده عليه»، فقال: «لا بأس، إذا كان ترك الكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم»، «قالت:ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك»(٥).

وبهذه الفطنة والحكمة سترت أسماء أباها، وسكنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًّا هذه الأحجار التي كومتها لتطمئن لها نفس الشيخ، إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة في المال، وورثهم يقيناً وثقة به لا حد لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي الأمور، ولا تلتفت إلى سفافها فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عز أن يتكرر، وقل أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلا، هُن في أمس الحاجة إلى الاقتداء به، والنسج على منواله.

وظلت أسماء مع أخواتها في مكة لا تشكو ضيقاً، ولا تظهر حاجة، حتى بعث النبي ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسوده بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأمه بركة، المكناة بأم أيمن، وخرج معهما عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان(٦).

٨- أمانات المشركين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص٢٠٦.

(٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٦.

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٠٢/٢) إسناده صحيح.

(٦) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٨.

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع محاربتهم له، وتصميمهم على قتله، دليل باهر على تناقضهم العجيب، الذي كانوا واقعين فيه، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر، أو مجنون أو كذاب، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً فكانوا لا يضعون حوائجهم ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده، وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق، الذي جاء به، وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم(١)، وصدق الله العظيم: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) [الأنعام: ٣٣].

وفي أمر الرسول ﷺ لعلي - رضي الله عنه - بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكة رغم هذه الظروف الشديدة التي كان من المفروض أن يكتنفها الاضطراب، بحيث لا يتجه التفكير إلا إلى إنجاح خطة هجرته فقط، رغم ذلك فإن الرسول ﷺ ما

كان لينسى أو ينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها، حتى ولو كان في أصعب الظروف التي تنسي الإنسان نفسه فضلا عن غيره(٢).

٩- الراحلة بالثمن:

لم يقبل رسول الله ﷺ أن يركب الراحلة حتى أخذها بثمنها من أبي بكر - رضي الله عنه -، واستقر الثمن ديناً بذمته، وهذا درس واضح بأن حملة الدعوة ما ينبغي أن يكونوا عالة على أحد في وقت من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كل شيء. إن يدهم إن لم تكن العليا، فلن تكون السفلى، وهكذا يصر عليه السلام أن يأخذها بالثمن، وسلوكه ذلك هو الترجمة الحقة لقوله تعالى: (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الشعراء: ١٠٩].

إن الذين يحملون العقيدة والإيمان، ويبشرون بهما ما ينبغي أن تمتد أيديهم إلى أحد إلا الله؛ لأن هذا يتناقض مع ما يدعون إليه، وقد توعد الناس أن يعوا لغة الحال لأنها أبلغ من لغة المقال، وما تأخر المسلمون، وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أصبحت وسائل الدعوة والعاملين بها خاضعة للغة المادة، ينتظر الواحد منهم مرتبه، ويومها تحول العمل إلى عمل مادي فقد الروح والحيوية، وأصبح الأئمة موظفين.

إن الصوت الذي ينبعث من حنجرة وراءها الخوف من الله والأمل في رضاه، غير الصوت الذي ينبعث ليتلقى دراهم معدودة، فإذا توقفت توقف الصوت، وقديما قالوا: ليست النائحة كالثكلى، ولهذا قل التأثير، وبعد الناس عن جادة الصواب(٣).

١٠- الداعية يعف عن أموال الناس:

لما عفا النبي ﷺ عن سراقة عرض عليه سراقة المساعدة فقال: وهذه كنانتيفخذ منها سهماً فإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا حاجة لي فيها»(٤).

فحين يزهد الدعاة فيما عند الناس يحبهم الناس، وحين يطمعون في أموال الناس ينفر الناس عنهم، وهذا درس بليغ للدعاة إلى الله تعالى(٥).

١١- الجندية الرفيعة والبكاء من الفرح:

تظهر أثر التربية النبوية في جندية أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فأبو بكر – رضي الله عنه – عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً» فقد بدأ في الإعداد والتخطيط للهجرة «فابتاع راحلتين واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك، وفي رواية البخاري، «وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر– وهو الخبط– أربعة أشهر»، لقد كان يدرك بثاقب بصره – رضي الله عنه –، وهو الذي تربى ليكون قائدا، أن لحظة الهجرة صعبة قد تأتي فجأة؛ ولذلك هيأ وسيلة الهجرة، ورتب تموينها، وسخر أسرته لخدمة النبي صلى الله عليه وسلم، وعندما جاء رسول الله ﷺ وأخبره أن الله قد أذن له في الخروج والهجرة، بكى من شدة الفرح، وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن: «فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ»، إنها قمة الفرح البشري أن يتحول الفرح إلى بكاء.

---

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص١٩٣. ... (٢) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٦٤.

(٣) انظر: معين السيرة، ص١٤٨، ١٤٩. ...

(٤) المسند (٣/١) تحقيق أحمد محمد شاكر. ... (٢) انظر: في ظلال الهجرة النبوية، ص٥٨.

فالصديق – رضي الله عنه – يعلم أن معنى هذه الصحبة، أنه سيكون وحده برفقة رسول رب العالمين بضعة عشرة يوماً على الأقل وهو الذي سيقدم حياته لسيده وقائده وحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم، فأي فوز في هذا الوجود يفوق هذا الفوز: أن يتفرد الصديق وحده من دون أهل الأرض، ومن دون الصحب جميعاً برفقة سيد الخلق وصحبته كل هذه المدة(١) وتظهر معاني الحب في الله في خوف أبي بكر وهو في الغار من أن يراهما المشركون، ليكون الصديق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق، مع قائده الأمين، حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على

حياته، فما كان أبو بكر ساعتئذ بالذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة، وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين(٢)، ويظهر الحس الأمني الرفيع للصديق في هجرته مع النبي ﷺ في مواقف كثيرة منها، حين أجاب السائل: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فقال: هذا هادٍ يهديني السبيل، فظن السائل بأن الصديق يقصد الطريق، وإنما كان يقصد سبيل الخير، وهذا يدل على حسن استخدام أبي بكر للمعاريض، فرارا من الحرج أو الكذب(٣)،؛ لأن الهجرة كانت سراً وقد أقره الرسول ﷺ على ذلك(٤)، وفي موقف علي بن أبي طالب مثال للجندي الصادق المخلص لدعوة الإسلام، حيث فدى قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله علي – رضي الله عنه – ليلة الهجرة من بياته على فراش الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي – رضي الله عنه –، ولكن علياً – رضي الله عنه – لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول الله ﷺ نبي الأمة وقائد الدعوة(٥).

١٢– فن قيادة الأرواح، وفن التعامل مع النفوس:

يظهر الحب العميق الذي سيطر على قلب أبي بكر لرسول الله ﷺ في الهجرة، كما يظهر حب سائر الصحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. وهذا الحب الرباني كان نابعاً من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق، أو نابعاً من مصلحة دنيوية، أو رغبة في منفعة أو رهبة لمكروه قد يقع، ومن أسباب هذا الحب لرسول الله ﷺ صفاته القيادية الرشيدة، فهو يسهر لينام، ويتعب ليستريحوا، ويجوع ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، فمن سلك سنن الرسول ﷺ مع صحابته في حياته الخاصة والعامة، وشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم وكان عمله لوجه الله

أصابه شيء من هذا الحب إن كان من الزعماء أو القادة أو المسؤولين في أمة الإسلام(٦).

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود، فقد كان ﷺ رحيماً وشفوقاً بجنوده وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبقَ إلا المستضعفون والمفتونون ومن كانت له مهمات خاصة بالهجرة(٧).

١٣- وفي الطريق أسلم بريدة الأسلمي - رضي الله عنه - في ركب من قومه:

---

(١) انظر: التربية القيادية (١٩١/٢، ١٩٢). ... (٤) السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي، ص٧١.

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص٢٠٤. ... (٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٢٥٤.

(٥) انظر: السيرة النبوية للسباعي، ص٦٨. ... (٤) انظر: الهجرة النبوية لأبي فارس، ص٥٤.

(٧) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص٢٠٥.

إن المسلم الذي تغلغلت الدعوة في شغاف قلبه لا يفتر لحظة واحدة عن دعوة الناس إلى دين الله تعالى، مهما كانت الظروف قاسية والأحوال مضطربة، والأمن مفقود بل ينتهز كل فرصة مناسبة لتبليغ دعوة الله تعالى، هذا نبي الله تعالى يوسف -عليه السلام- حينما زج به في السجن ظلماً، واجتمع بالسجناء في السجن، فلم يندب حظه، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة عن دعوة التوحيد وتبليغها للناس ومحاربة الشرك وعبادة غير الله والخضوع لأي مخلوق قال تعالى: ﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ صدق الله العظيم وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ صدق الله العظيم يَا صَاحِبَيْ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ صدق الله العظيم مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) [يوسف: ٣٧-٤٠].

وسورة يوسف عليه السلام مكية، وقد أمر الله تعالى رسوله محمد ﷺ أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله؛ ولذلك نجده ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة، وقد كان مطارداً من المشركين قد أهدروا دمه وأغروا المجرمين منهم بالأموال الوفيرة، ليأتوا برأسه حياً أو ميتاً، ومع هذا فلم ينس مهمته ورسالته، فقد لقي ﷺ في طريقه رجلاً يقال له بريدة بن الحصيب الأسلمي – رضي الله عنه – في ركب من قومه فدعاهم إلى الإسلام فآمنوا وأسلموا(١).

وذكر ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «أن النبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة لقي بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي، فدعاه إلى الإسلام، وقد غزا مع الرسول ﷺ ست عشرة(٢) غزوة، وأصبح بريدة بعد ذلك من الدعاة إلى الإسلام، وفتح الله لقومه –أَسْلَم– على يديه أبواب الهداية، واندفعوا إلى الإسلام وفازوا بالوسام النبوي الذي نتعلم منه منهجاً فريداً في فقه النفوس قال صلى الله عليه وسلم: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما وإني لم أقلها، ولكن قالها الله عز وجل»(٣).

١٤- وفي طريق الهجرة أسلم لصّان على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

كان في طريقه ﷺ بالقرب من المدينة لِصَّان من أسلم يقال لهما المهانان، فقصدهما ﷺ وعرض عليهما الإسلام فأسلما، ثم سألهما عن أسمائهما فقالا نحن المهانان، فقال: «بل أنتما المكرمان» وأمرهما أن يقدما عليه المدينة(٤) وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه ﷺ بالدعوة إلى الله حيث اغتنم فرصة في طريقه ودعا اللصين إلى الإسلام فأسلما، وفي إسلام هذين اللصين مع ما ألفاه من حياة البطش والسلب والنهب، دليل على سرعة إقبال النفوس على اتباع الحق، إذا وجد من يمثله بصدق وإخلاص، وتجردت

نفس السامع من الهوى المنحرف، وفي اهتمام الرسول ﷺ بتغيير اسمي هذين اللصين من المهانين، إلى المكرمين دليل على اهتمامه ﷺ بسمعة المسلمين، ومراعاته مشاعرهم إكراماً لهم ورفعاً لمعنوياتهم.

وإن في رفع معنوية الإنسان تقوية لشخصيته ودفعا له إلى الأمام ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والفلاح(٥).

١٥- الزبير وطلحة رضي الله عنهما ولقاؤهما برسول الله ﷺ في طريق الهجرة:

ومما وقع في الطريق إلى المدينة أنه ﷺ لقي الزبير بن العوام، في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسى الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء، رواه البخاري(٦)، وكذا روى أصحاب السير أن طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضا وهو عائد من الشام وكساهما بعض الثياب(٧).

١٦- أهمية العقيدة والدين في إزالة العداوة والضغائن:

---

(١) انظر: الهجرة النبوية لأبي فارس، ص٥٩. شرح المواهب (٤٠٥/١).

(٢) انظر: الإصابة، (١٤٦/١).

(٣) صحيح الجامع الصغير (٣٢٨/١) رقم ٩٨٦. ... (٤) الفتح الرباني للساعتي (٢٨٩/٢٠).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١٧٨/٣). ... (٢) انظر السيرة النبوية لأبي شهبة، (٤٩٥/١).

(٧) المصدر السابق، (٤٩٥/١) صحيح السيرة النبوية، ص١٨١.

إن العقيدة الصحيحة السليمة والدين الإسلامي العظيم لهما أهمية كبرى في إزالة العداوات والضغائن، وفي التأليف بين القلوب والأرواح، وهو دور لا يمكن لغير العقيدة الصحيحة أن تقوم به، وها قد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلامية بين الأوس والخزرج، وأزالت آثار معارك استمرت عقوداً من الزمن، وأغلقت ملف ثارات كثيرة في مدة قصيرة، بمجرد التمسك بها والمبايعة عليها، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في

نفوس الأنصار، فاستقبلوا المهاجرين بصدور مفتوحة، وتآخوا معهم في مثالية نادرة، لا تزال مثار الدهشة ومضرب المثل، ولا توجد في الدنيا فكرة أو شعار آخر، فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصافية في النفوس.

ومن هنا ندرك السر في سعي الأعداء الدائب إلى إضعاف هذه العقيدة، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين، واندفاعهم المستمر نحو تزكية النعرات العصبية والوطنية والقومية وغيرها، وتقديمها كبديل للعقيدة الصحيحة(١).

١٧- فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النبي صلى الله عليه وسلم:

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب من أنصار ومهاجرين بقدوم رسول الله ﷺ ووصوله إليهم سالمًا، فرحة أخرجت النساء من بيوتهن والولائد، وحملت الرجال على ترك أعمالهم، وكان موقف يهود المدينة موقف المشارك لسكانها في الفرحة ظاهراً، والمتألم من منافسة الزعامة الجديدة باطناً، أما فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم فلا عجب فيها، وهو الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأما موقف اليهود فلا غرابة فيه، وهم الذين عرفوا بالملق والنفاق للمجتمع الذي فقدوا السيطرة عليه، وبالغيظ والحقد الأسود ممن يسلبهم زعامتهم على الشعوب، ويحول بينهم وبين سلب أموالها باسم القروض، وسفك دمائها باسم النصح والمشورة، وما زال اليهود يحقدون على كل من يخلص الشعوب من سيطرتهم، وينتهون من الحقد إلى الدس والمؤامرات ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا، ذلك دينهم، وتلك جبلتهم(٢).

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله ﷺ مشروعية استقبال الأمراء والعلماء عند مقدمهم بالحفاوة والإكرام، فقد حدث ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الإكرام وهذه الحفاوة نابعين من حب للرسول، بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر، ويستفاد كذلك التنافس في الخير وإكرام ذوي العلم والشرف، فقد كانت كل قبيلة تحرص أن تستضيف رسول الله صلى الله

عليه وسلم، وتعرض أن يكون رجاله حُراسًا له، ويؤخذ من هذا إكرام العلماء والصالحين، واحترامهم وخدمتهم(٣).

١٧- وضوح سنة التدرج:

حيث نلاحظ: أن رسول الله ﷺ عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى لم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام وتلاوة القرآن عليهم، فلما جاءوا في العام التالي بايعهم بيعة النساء على العبادات والأخلاق والفضائل، فلما جاءوا في العام التالي كانت بيعة العقبة الثانية على الجهاد والنصر والإيواء(٤).

وجدير بالملاحظة أن بيعة الحرب لم تتم إلا بعد عامين كاملين، أي بعد تأهيل وإعداد استمر عامين كاملين، وهكذا تم الأمر على تدرج، ينسجم مع المنهج التربوي الذي نهجت عليه الدعوة من أول يوم(٥).

إنه المنهج الذي هدى الله نبيه إلى التزامه، ففي البيعة الأولى بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإسلام عقيدة ومنهاجًا وتربية، وفي البيعة الثانية بايعه الأنصار على حماية الدعوة واحتضان المجتمع الإسلامي الذي نضجت ثماره واشتدت قواعده قوة وصلابة.

إن هاتين البيعتين أمران متكاملان ضمن المنهج التربوي للدعوة الإسلامية، وإن الأمر الأول هو المضمون، والأمر الثاني، وهو بيعة الحرب، هو السياج الذي يحمي ذلك المضمون، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام وليس فور إعلانهم.

بعد عامين إذ تم إعدادهم، حتى غدوا موضع ثقة، وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ أن بيعة الحرب لم يسبق أن تمت قبل اليوم مع أي مسلم، إنما حصلت عندما وجدت الدعوة في هؤلاء الأنصار وفي الأرض التي يقيمون فيها، المعقل الملائم الذي ينطلق منه المحاربون، لأن مكة لوضعها عندئذ لم تكن تصلح للحرب(٦).

وقد اقتضت رحمة الله بعباده «أن لا يحملهم واجب القتال، إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ويلوذون به، وقد كانت المدينة المنورة أول دار إسلام»(٧).

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص٤٠٥.

(٢) انظر: السيرة النبوية للسباعي، ص٤٣، الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٦٧.

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٥٨، ٣٥٩. ... ... (٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص٢٠٢.

(٥) انظر: بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق، ص١١٩.

(٦) انظر: بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق، ص١٢٢، ١٢٣.

(٧) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص١٧٢.

لقد كانت البيعة الأولى قائمة على الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والبيعة الثانية على الهجرة والجهاد، وبهذه العناصر الثلاثة: الإيمان بالله، والهجرة، والجهاد، يتحقق وجود الإسلام في واقع جماعي ممكن، والهجرة لم تكن لتتم لولا وجود الفئة المستعدة للإيواء ولهذا قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الأنفال: ٧٢]. وقال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الأنفال: ٧٥].

وقد كانت بيعة الحرب هي التمهيد الأخير، لهجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وبذلك وجد الإسلام موطنه الذي ينطلق منه دعاة الحق بالحكمة والموعظة، وتنطلق منه جحافل الحق المجاهدة أول مرة، وقامت الدولة الإسلامية المحكمة لشرع الله(١).

١٩- الهجرة تضحية عظيمة في سبيل الله:

كانت هجرة النبي ﷺ وأصحابه عن البلد الأمين، تضحية عظيمة عبر عنها النبي ﷺ بقوله: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، وكان واديها يجري نجلا- يعني ماء آجنا- فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه، قالت: فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك(٣) فدنوت من أبي بكر فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ فقال:

كل امرئ مصبَّح في أهله ... والموت أدنى من شِراك نعله

قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول، ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفُه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطَوقه(٤) ... كالثور يحمي جلده بِرَوقه(٥)

قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول، قلت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت، ثم يرفع عقيرته(٦) ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر(٧) وجليل

وهل أَرِدَنْ يومًا مياه مجنة ... وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وطفيل(٨)

قالت: فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وانقل حماها إلى الجحفة، اللهم بارك لنا في مدنا وصاعها»(٩).

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكل الوافدين والمهاجرين إليها من المسلمين على تنوع بيئاتهم ومواطنهم(١٠).

٢٠- مكافأة النبي ﷺ لأم معبد:

وقد روي أنها كثرت غنمها، ونمت حتى جلبت منها جلباً إلى المدينة، فمر أبو بكر، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله، فأدخلها عليه، فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها. وفي رواية: فانطلقت معي وأهدت لرسول الله ﷺ شيئاً من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت، وذكر صاحب (الوفاء) أنها هاجرت هي وزوجها وأسلم أخوها خنيس واستشهد يوم الفتح(١١).

٢١- أبو أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - ومواقف خالدة:

---

(١) انظر: الغرباء الأولون، ص١٩٨، ١٩٩.

(٢) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٧٢٢/٥) رقم ٣٩٢٥.

(٤) الوعك: الحمى. (٢) بطوقه: بطاقته. ... ( ) بروقه: بقرنه.

(٦) عقيرته: صوته، قال الأصمعي، إن رجلا عقرت رجله فرفعها على الأخرى وجعل يصيح فصار كل من رفع صوته يقال له: رفع عقيرته وإن لم يرفع رجله.

(٧) الأذخر: نبات طيب الرائحة.

(٨) شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة على بريد مكة.

(٩) البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء برفع الوباء والوجع، رقم ٦٣٧٢.

(١٠) انظر: التربية القيادية (٣١٠/٢).

(١١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٤٨٩/١، ٤٩٠).

قال أبو أيوب الأنصاري - رضي الله عنه -: «ولما نزل علي رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العُلْو، فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: «يا أبا أيوب: إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفل البيت» قال: فلقد انكسر حُب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا

لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه»(١).

٢٢- هجرة علي - رضي الله عنه - وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر في المجتمع الجديد:

بعد أن أدى عن رسول الله ﷺ الأمانات التي كانت عنده للناس، لحق برسول الله ﷺ وأدركه بقباء بعد وصوله بليلتين أو ثلاث، فكانت إقامته بقباء ليلتين، ثم خرج مع النبي ﷺ إلى المدينة يوم الجمعة(٢) وقد لاحظ سيدنا علي مدة إقامته بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها، ورأى إنسانا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليها فيعطيها شيئاً معه، فتأخذه، قال: فاستربت بشأنه، فقلت: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئا لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن وهب، وقد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي - رضي الله عنه - يأثر ذلك من شأن سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق(٣).

٢٣- الهجرة النبوية نقطة تحول في تاريخ الحياة:

كانت الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة المنورة، أعظم حدث حول مجرى التاريخ، وغيَّر مسيرة الحياة ومناهجها التي كانت تحياها، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف، وعادات وأخلاق وسلوك للأفراد والجماعات، وعقائد وتعبدات وعلم ومعرفة، وجهالة وسفه وضلال وهدى، وعدل وظلم(٤).

٢٤- الهجرة من سنن الرسل الكرام:

إن الهجرة في سبيل الله سنة قديمة، ولم تكن هجرة نبينا محمد ﷺ بدعا في حياة الرسل لنصرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه من أجل الدعوة حفاظاً عليها وإيجاد بيئة خصبة تتقبلها وتستجيب لها، وتذود عنها، فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم لنفس الأسباب التي دعت نبينا للهجرة.

وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها بل يعوق مسارها ويشل حركتها، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر، وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم من الأمم الماضية لتبدو لنا في وضوح سنة من سنن الله في شأن الدعوات، يأخذ بها كل مؤمن من بعدهم إذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده واعتدى على مروءته وكرامته(٥).

هذه بعض الفوائد والعبر والدروس، وأترك للقارئ الكريم أن يستخرج غيرها ويستنبط سواها من الدروس والعبر والفوائد الكثيرة النافعة من هذا الحدث العظيم.

.....

المبحث الثاني -الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة والوعد لمن هاجر منهم والوعيد لمن تخلف

تعتبر الهجرة النبوية المباركة من مكة إلى المدينة أهم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية، إذ كانت نقطة تحول في تاريخ المسلمين، كان المسلمون قبل الهجرة أمة دعوة، يبلغون دعوة الله للناس، دون أن يكون لهم كيان سياسي، يحمي الدعاة أو يدفع عنهم الأذى من أعدائهم.

وبعد الهجرة تكونت دولة الدعوة، هذه الدولة التي أخذت على عاتقها نشر الإسلام في داخل الجزيرة العربية وخارجها، ترسل الدعاة إلى الأمصار وتتكفل بالدفاع عنهم وحمايتهم من أي اعتداء قد يقع عليهم ولو أدى ذلك إلى قيام حرب أو حروب(٦).

وبجانب هذا، فإن الهجرة النبوية لها مكانتها في فهم القرآن وعلومه حيث فرق العلماء بين المكي والمدني، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة وترتب على ذلك فوائد من أهمها:

١- تذوق أساليب القرآن الكريم والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله.

٢- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية(٧): ولأهمية الهجرة النبوية نرى أن القرآن الكريم حث المؤمنين على الهجرة في سبيل الله بأساليب متنوعة، مرة بالثناء على المهاجرين، بأوصاف حميدة، وأخرى بالوعد للمهاجرين، وتارة بالوعيد

للمتخلفين عن الهجرة(٨).

أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة:

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/٢٢٠). ...

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/٤٩٧).

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٢/٤٢١).

(٤) انظر: محمد رسول الله، (٢/٤٢٣).

(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص١٧٥.

(٦) انظر: الهجرة النبوية، الدكتور محمد أبو فارس، ص١٣.

(٧) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان، ص٥٩.

(٨) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص٨٤.

فمن أهم الصفات المميزة للمهاجرين(١).

١- الإخلاص:

قال تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) [الحشر: ٨] قوله تعالى (يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) يدل على أنهم لم يخرجوا من ديارهم وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله، مبتغين مرضاته ورضوانه(٢).

٢- الصبر:

قال تعالى: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ صدق الله العظيم الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [النحل: ٤١،٤٢]

٣- الصدق:

قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) [الحشر: ٨].

قال البغوي في تفسيره: قوله: (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) أي في إيمانهم (٣).

٤- الجهاد والتضحية:

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) [التوبة: ٢٠].

ولعل الملاحظة الجديرة بالتأمل في هذا المجال، أن التضحية ملازمة للجهاد في سبيل الله، إذ لا جهاد دون تضحية(٤).

٥- نصرهم لله ورسوله:

قال تعالى عن المهاجرين: (وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) [الحشر: ٨].

٦- التوكل على الله عز وجل:

قال تعالى عن المهاجرين: (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [النحل: ٤١-٤٢]

٧- الرجاء:

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[البقرة: ٢١٨].

وإنما قال (يَرْجُونَ) وقد مدحهم؛ لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ لأمرين، أحدهما: لا يدري بما يختم له والثاني: لئلا يتكل على عمله، فهؤلاء قد غفر الله لهم، ومع ذلك يرجون رحمة الله وذلك زيادة إيمان منهم(٥).

٨- اتباع الرسول ﷺ في العسرة:

قال تعالى (لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: ١١٧].

وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك، في لهبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم(٦) من غزوتهم(٧).

٩- حق السبق في الإيمان والعمل يورث حيازة القدوة والسيادة:

قال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[التوبة: ١٠٠].

قال الرازي: والسبق موجب للفضيلة، فإقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم، وثبت بهذا أن المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم(٨).

١٠- الفوز:

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) [التوبة: ٢٠]. قال أبو السعود في تفسيره: قوله تعالى: (هُمُ الْفَائِزُونَ): أي المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق، كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم(٩).

١١- الإيمان:

قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الأنفال: ٧٤].

---

(١) نفس المصدر، ص٨٥، هذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرف اليسير.

(٢) الهجرة في القرآن الكريم، ص٨٦. ... (٢) انظر: تفسير البغوي (٣١٨/٤).

(٣) الهجرة في القرآن الكريم، ١٠٦.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٥٠/٣)، تفسير أبي السعود، (٢١٨/١).
(٦) أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين. ... (٢) تفسير ابن كثير (٣٩٧/٢).
(٨) انظر: تفسير الرازي (٢٠٨/١٥). ... (٤) تفسير أبي السعود (٥٣/٤).

ثانياً: الوعد للمهاجرين:

ذكر الله تعالى بعض النعم التي وعدها الله عز وجل للمهاجرين في الدنيا والآخرة ومن هذه النعم:

١- سعة رزق الله لهم في الدنيا:

قال تعالى: (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ
مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا) [النساء: ١٠٠].

ومن سعة رزق الله لهم في الدنيا تخصيصهم بمال الفيء والغنائم، فالمال لهؤلاء؛ لأنهم أخرجوا من ديارهم فهم أحق الناس به(١).

٢- تكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم:

قال تعالى: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الثَّوَابِ) [آل عمران: ١٩٥].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في بيان أن الهجرة من أعظم الوسائل المكفرة للسيئات، وأنها سبب لمغفرة ذنوب أهلها.

٣- ارتفاع منزلتهم وعظمة درجتهم عند ربهم:

قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) [التوبة: ٢٠].

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه؛ النفسي والمالي أعلى مرتبة وأعظم كرامة ممن لم يتصف بهما كائناً من كان، ويدخل في ذلك أهل السقاية والعمارة(٢).

٤- تبشيرهم بالجنة والخلود فيها:

قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ صدق الله العظيم يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ صدق الله العظيم خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) [التوبة: ٢٠-٢٢].

هذا بعض ما وعد الله به المهاجرين من الجزاء والثواب بسبب جهادهم المرير.

إن المهاجرين بإيمانهم الراسخ ويقينهم الخالص لم يمكنوا الجاهلية في مكة من وأد الدعوة، وهي في مستهل حياتها، لقد استمسكوا بما أوحى إلى نبيهم ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصاما بما اهتدوا إليه وأمنوا به، فلما أسرفت الجاهلية في ذلك صاروا أهلا لما أسبغه الله عليهم من فضل في الدنيا، وما أعده لهم يوم القيامة من ثواب عظيم(٣).

ثالثًا: الوعيد للمتخلفين عن الهجرة:

من العقوبات التي توعد الله عز وجل بها للمتخلفين عن الهجرة سوء المصير، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء: ٩٧].

عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ) الآية: قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم

المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَـإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُـمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) [العنكبوت: ١٠].

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كل خير ثم نزلت فيهم: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [النحل: ١١٠](٤).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢٩٥/٤) وتفسير أبي السـعود (٢٢٨/٨) وتفسـير فـتح القدير (٢٠٠/٥)، والهجرة في القرآن الكريم، ص١٣٢.

(٢) تفسير المراغي (٧٨/١٠)، تفسير الرازي (١٣،١٤/١٦).

(٣) انظر: هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة للجمل، ص٣٣٢، ٣٣٣.

(٤) زاد المسير لابن الجوزي (٩٧/٢) تفسير القاسمي (٣٩٩/٣)

لقد وصف الله –سبحانه– المتخلفين عن الهجرة بأنهم ظالمو أنفسهم، والمراد بـالظلم في هذه الآية، أن الذين أسلموا في دار الكفر وبقوا هناك، ولم يهاجروا إلى المدينـة، ظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة(١).

وفي هذه الآية الكريمة وعيد للمتخلفين عن الهجرة بهذا المصير السيئ، وبالتالي التزم الصحابة بأمر الله، وانضموا إلى المجتمع الإسلامي في المدينة تنفيذاً لأمر الله وخوفاً من عقابه، وكان لهذا الوعيد أثره في نفوس الصحابة رضي الله عنهم، فهذا ضـمرة بن جندب لما بلغه قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) وهو بمكة قال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة وكان شيخاً كبيراً، فمات بالتنعيم، ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله، ويقول: اللهم هذه لك وهذه لرسولك صلى الله عليه وسلم، أبايعك على ما بايع عليه رسولك، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضي الله عنهم قالوا: ليته مات بالمدينة فنزل(٢) قوله تعالى: (إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ

الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً صدق الله العظيم فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا) [النساء: ٩٨-٩٩].

وهذا الموقف يرينا ما كان عليه جيل الصحابة من سرعة في امتثال الأمر، وتنفيذه في النشاط والشدة، كائنة ما كانت ظروفهم، فلا يلتمسون لأنفسهم المعاذير، ولا يطلبون الرخص(٣).

فهذا الصحابي تفيد بعض الروايات أنه كان مريضاً(٤) إلا أنه رأى أنه ما دام له مال يستعين به، ويحمل به إلى المدينة فقد انتفى عذره، وهذا فقه أملاه الإيمان، وزكَّاه الإخلاص واليقين(٥).

وبعد أن ذكر الله عز وجل وعيده للمتخلفين عن الهجرة بسوء مصيرهم، استثنى في ذلك من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر، والتعرض للفتنة في الدين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ والضعاف والنساء والأطفال، فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته، ورحمته بسبب عذرهم البين وعجزهم عن الفرار(٦) قال تعالى: (إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً صدق الله العظيم فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا) [النساء: ٩٨-٩٩].

* * *

الفصل السابع

دعائم دولة الإسلام في المدينة

شرع رسول الله ﷺ منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدولة الجديدة على قواعد متينة، وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة الاهتمام ببناء دعائم الأمة كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإسلامي في المدينة الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي المدينة، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حل مشاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الرباني في كافة شئون

الحياة فقد استمر البناء التربوي والتعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله وحقيقة الكون والترغيب في الجنة والترهيب من النار ويشرع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمة العلمية والتربوية تتطور مع تطور مراحل الدعوة وبناء المجتمع وتأسيس الدولة.

وعالج رسول الله ﷺ الأزمة الاقتصادية بالمدينة من خلال المنهج الرباني. واستمر البناء التربوي ففرض الصيام، وفُرضت الزكاة وأخذ المجتمع يزدهر والدولة تتقوى على أسس ثابتة وقوية.

* * *

المبحث الأول

الدعامة الأولى

بناء المسجد الأعظم بالمدينة

كان أول ما قام به الرسول ﷺ بالمدينة بناء المسجد، وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين وتنقي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة الدنيا(٧).

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص ١٦١.

(٢) روح المعاني (١٢٨/٥، ١٢٩) للألوسي، أسباب النزول للواحدي، ص١٨١.

(٣) ،٣، ٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٤- ١٢٦.

(٦) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص١٦٧.

(٧) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص١٩١، وفقه السيرة للبوطي، ص١٥١.

روى البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ دخل المدينة راكباً راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من

المسلمين، وكان مربدا(١) للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمن في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل» ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما(٢).

وفي رواية أنس بن مالك: فكان فيه ما أقول: كان فيه نخل وقبور المشركين، وخرب، فأمر النبي ﷺ بالنخل فقطع، وبقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، قال: فصفوا النخل قبلة، وجعلوا عضادتيه حجارة، قال: فكانوا يرتجزون، ورسول الله ﷺ وهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة(٣)

شرع الرسول ﷺ في العمل مع أصحابه، وضرب أول معول في حفر الأساس الذي كان عمقه ثلاث أذرع، ثم اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة، والجدران، التي لم تزد عن قامة الرجل إلا قليلاً، باللبن الذي يعجن بالتراب ويسوى على شكل أحجار صالحة للبناء(٤) وفي الناحية الشمالية منه أقيمت ظلة من الجريد على قوائم من جذوع النخل، كانت تسمى «الصفة» أما باقي أجزاء المسجد فقد تركت مكشوفة بلا غطاء(٥).

أما أبواب المسجد فكانت ثلاثة: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبية، وباب في الجهة الشرقية كان يدخل منه رسول الله ﷺ بإزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية يقال له باب الرحمة أو باب عاتكة(٦).

أولاً: بيوتات النبي ﷺ التابعة للمسجد:

وبني لرسول الله ﷺ حُجَر حول مسجده الشريف، لتكون مساكن له ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوت من ترفع عن الدنيا وزخارفها، وابتغى الدار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النخل والجريد، وكانت صغيرة الفناء قصيرة البناء ينالها الغلام الفارع بيده، قال الحسن البصري- وكان غلاما مع أمه خيرة مولاة

أم سلمة-: «قد كنت أنال أول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي»(٧)، وهكذا كانت بيوت النبي ﷺ في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية التي كان يتخذها علية القوم تباهيا بها في السلم واتقاءً بها في الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء كما كان حصن عبد الله بن أبي ابن سلول اسمه مزاحماً، وكما كان حصن حسان بن ثابت – رضي الله عنه – اسمه فارعاً.

ولكن النبي ﷺ بنى بيوته بذلك الشكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصورًا شاهقة، ولو أنه أشار إلى رغبته بذلك- مجرد إشارة- لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدولة العامة كالفيء ونحوه، ولكنه ﷺ لم يفعل ذلك ليضرب لأمته مثلاً رفيعاً وقدوة عالية في التواضع والزهد في الدنيا، وجمع الهمة والعزيمة للعمل لما بعد الموت(٨).

ثانياً: الأذان في المدينة:

---

(١) مربد، الموضع الذي يجفف فيه التمر، القاموس المحيط (٣٠٤/١).

(٢) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب هجرة النبي وأصحابه (٧٨/٥).

(٣) مسلم، كتاب المساجد، باب ابتناء مسجد النبي، رقم ٥٢٤.

(٤) انظر: البداية والنهاية (٣٣/٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، على معطي، ص١٥٦.

(٥) انظر: البداية والنهاية (٣٠٣/٣) محمد رسول الله لمحمد رضا، ص١٤٣.

(٦) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، علي معطي، ص١٥٧.

(٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، (٣٦/٢).

(٨) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي، (١٣/٤).

تشاور رسول الله ﷺ مع أصحابه لإيجاد عمل ينبه النائم ويذكر الساهي، ويعلم الناس بدخول الوقت لأداء الصلاة، فقال بعضهم: ترفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فاعترضوا على هذا الرأي؛ لأنها لا تفيد النائم، ولا الغافل، وقال آخرون

نشعل ناراً على مرتفع من الهضاب، فلم يقبل هذا الرأي أيضاً. وأشار آخرون ببوق، وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم، فكرهه الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه يجب مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم، وأشار بعض الصحابة باستعمال الناقوس، وهو ما يستعمله النصارى، فكرهه الرسول ﷺ أيضا، وأشار فريق بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها فَقُبِل هذا الرأي. وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري، فبينما هو بين النائم واليقظان، إذ عرض له شخص، وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال بلى: فقال له: قل: الله أكبر، مرتين، وتشهد مرتين، ثم قل: حي علي الصلاة مرتين، ثم قل: حي على الفلاح مرتين، ثم كبر مرتين: ثم قل: لا إله إلا الله. فلما استيقظ توجه إلى الرسول ﷺ وأخبره خبر رؤياه فقال: «إنها لرؤيا حق» ثم قال له: «لقن بلالاً فإنه أندى صوتاً منك»، وبينما بلال يؤذن للصلاة بهذا الأذان جاء عمر بن الخطاب يجر رداءه فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله. وكان بلال بن رباح أحد مؤذنيه بالمدينة، والآخر عبد الله بن أم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حي على الفلاح: الصلاة خير من النوم مرتين وأقره الرسول ﷺ على ذلك(١)، وكان يؤذن في البداءة من مكان مرتفع ثم استحدث المنارة (المئذنة).

ثالثاً: أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة:

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

«أما بعد: أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دون: ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالا، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قُدامه فلا يرى غير جنهم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنها بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته».

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال:

«إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه أحبوا من أحبه الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله؛ يختار ويصطفي قد سماه الله خيرته من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله، إن الله يغضب إن نكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(٢).

رابعاً: الصُّفَّة التابعة للمسجد النبوي:

لما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بأمر الله تعالى، وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته ﷺ إلى المدينة(٣) بقي حائط القبلة الأولى في مؤخر المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به فظلل أو سقف وأطلق عليه اسم الصفة أو الظلة(٤) ولم يكن له ما يستر جوانبه(٥).

قال القاضي عياض: الصفة ظلة في مؤخر مسجد رسول الله ﷺ يأوي إليها المساكين وإليها ينسب أهل الصفة(٦).

وقال ابن تيمية: الصفة كانت في مؤخرة مسجد النبي ﷺ في شمالي المسجد بالمدينة المنورة(٧).

وقال ابن حجر: الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل(٨).

١- أهل الصفة:

---

(١) انظر: نور اليقين للخضري، تحقيق أحمد عبد اللطيف، ص ٩٥، تاريخ خلفية بن خياط، ص٥٦، نقلا عن تاريخ دولة الإسلام الأولى، د. فايد حماد عاشور، سليمان أبو عزب، ص١٠٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٦٦/٢، ١٦٧) سنن البيهقي (٥٢٤/٢، ٥٢٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢٥٧/١)

(٤) انظر: وفاء الوفاء للسمهودي (٣٢١/١) ... (٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٥٨/١).

(٦) انظر: نظام الحكومة النبوية المسمى: التراتيب الإدارية، لعبد الحي الكتاني (٤٧٤/١).

(٧) الفتاوى (٣٨/١١). ... (٧) انظر: فتح الباري (٥٩٥/٦)، (٥٣٥/١).

قال أبو هريرة: «وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد»(١).

إن المهاجرين الأوائل الذين هاجروا قبل النبي ﷺ أو معه أو بعده حتى نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدر، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم وأن يشاركوهم النفقة ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين مما لم يعد هناك قدرة للأنصار على استيعابهم(٢).

فقد صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيء، فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه.. ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء، والآهلين والعُزَّاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصُّفة في المسجد(٣).

والذي يظهر للباحث أن المهاجر الذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يوجهه بعد ذلك إلى من يكفله فإن لم يجد فإنه يستقر في الصفة مؤقتاً ريثما يجد السبيل(٤) فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصامت، قال: «كان رسول الله ﷺ يُشغل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه

القرآن، فدفع إلي رسول الله ﷺ رجلاً، وكان معي في البيت أُعشيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن»(٥)، وقد كان أول من نزل الصفة المهاجرون(٦) لذلك نسبت إليهم فقيل صفة المهاجرين(٧) وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ معلنة إسلامها وطاعتها(٨) وكان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له عريف نزل عليه وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة(٩) وكان أبو هريرة – رضي الله عنه – عريف من سكن الصفة من القاطنين، ومن نزلها من الطارقين، فكان النبي ﷺ إذا أراد دعوتهم عهد إلى أبي هريرة فدعاهم لمعرفته بهم، وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة(١٠) ونزل بعض الأنصار في الصفة حباً لحياة الزهد والمجاهدة والفقر، رغم استغنائهم عن ذلك ووجود دار لهم في المدينة ككعب بن مالك الأنصاري، وحنظلة بن أبي عامر الأنصاري (غسيل الملائكة) وحارثة بن النعمان الأنصاري وغيرهم(١١).

٢– نفقة أهل الصفة ورعاية النبي ﷺ والصحابة لهم:

كان النبي ﷺ يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم ويرشدهم ويواسيهم ويذكرهم ويعلمهم ويوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومدارسته، وذكر الله والتطلع إلى الآخرة(١٢). وكان ﷺ يؤمن نفقتهم بوسائل متعددة ومتنوعة فمنها:

* إذ أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها، وأشركهم فيها.

* كثيراً ما كان يدعوهم إلى تناول الطعام في إحدى حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهم، ولم يكن يغفل عنهم مطلقاً، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه، فعن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، قال إن أصحاب الصفة كانوا أناسا فقراء، وإن النبي ﷺ قال مرة: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس» أو كما قال، وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة(١٣).

* وكما كان ﷺ يقدم حاجتهم على غيرها مما يطلب منه، فقد أتى بسبي مرة فأتته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادماً، فكان جوابه كما في المسند عند الإمام أحمد: «والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوي بطونُهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»(١٤).

٣- انقطاعهم للعلم والعبادة والجهاد:

كان أهل الصفة يعتكفون في المسجد للعبادة، ويألفون الفقر والزهد فكانوا في خلواتهم يصلون ويقرأون القرآن ويتدارسون آياته ويذكرون الله تعالى، ويتعلم بعضهم الكتابة حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت – رضي الله عنه –؛ لأنه كان يعلمهم القرآن والكتابة(١٥)، واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن النبي ﷺ مثل أبي هريرة – رضي الله عنه – عرف بكثرة تحديثه، وحذيفة بن اليمان الذي اهتم بأحاديث الفتن.

---

(١) البخاري رقم ٦٤٥٢.

(٢) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة للشامي، ص١٧٥.

(٣) الفتاوى (٤٠،٤١/١١). ... (٢) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، ص١٧٥.

(٥) المسند (٣٢٤/٥). ... (٤) انظر: وفاء الوفاء السمهودي، (٣٢٣/١).

(٧) سنن أبي داود (٣٦١/٢). ... (٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٥٨/١).

(٩) ، ٨، ٩) نفس المصدر (٢٥٩/١). ... (١٠) المصدر السابق (٢٦٦/١).

(١٣) البخاري رقم ٣٥٨١، ومسلم برقم ٢٠٥٧. ...

(١٤) أصل الحديث في البخاري برقم ٣١١٣، وهذا لفظ المسند (١٠٦/١، مرقم ٨٣٨). ...

(١٥) سنن أبي داود (٢٣٧/٢) وابن ماجه (٧٣٠/٢).

وكان أهل الصفة يشاركون في الجهاد، بل كان منهم الشهداء ببدر مثل صفوان بن بيضاء، وخريم بن فاتك الأسدي، وخبيب بن يساف، وسالم بن عمير، وحارثة بن النعمان الأنصاري(١)، ومنهم من استشهد بأحد مثل حنظلة الغسيل(٢)، ومنهم من شهد الحديبية مثل جرهد بن خويلد وأبو سريحة الغفاري(٣) ومنهم من استشهد بخيبر مثل تقف بن عمرو(٤) ومنهم من استشهد بتبوك مثل عبد الله ذو البجادين(٥).

ومنهم من استشهد باليمامة مثل سالم مولى أبي حذيفة وزيد بن الخطاب، فكانوا رهباناً بالليل فرساناً في النهار(٦)، وكان بعض الصحابة قد اختاروا المكوث في الصفة رغبة منهم لا اضطرارا، كأبي هريرة – رضي الله عنه – فقد أحب أن يلازم رسول الله ﷺ ويعوض ما فاته من العلم والخير، فقد جاء إلى المدينة بعد فتح خيبر في العام السابع، وحرص على سماع أكبر قدر ممكن من حديثه ﷺ ومعرفة أحواله وتبركا بخدمته ﷺ وهذا لا يتوفر له إلا إذا كان قريباً من بيت النبي ﷺ فكانت الصفة هي المكان الوحيد الذي يؤمن له ذلك، ولنستمع إليه يوضح لنا ذلك، قال أبو هريرة – رضي الله عنه –: «إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بمثل حديث أبي هريرة، وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفْقٌ الأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم، وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصفة أعي حين ينسون»(٧) وهكذا يوضح – رضي الله عنه – أنه فعل ذلك رغبة منه في ملازمة النبي ﷺ ثم إن أبا هريرة كان له سكن في المدينة، وهو المكان الذي تسكنه أمه، والتي طلب من النبي ﷺ أن يدعو لها بالهداية(٨) ثم إن أبا هريرة لم يكن فقيراً معدماً، ففي أول يوم قدم فيه على النبي ﷺ في خيبر أسهم له ﷺ من الغنيمة، كما أنه لما قدم كان معه عبد يخدمه كما ورد في الصحيح(٩) وإذن فالذي أفقره هو إيثاره ملازمة النبي ﷺ واستماع أحاديثه، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفة لو أراد(١٠).

كان أهل الصفة يكثرون ويقلون بحسب تبدل الأحوال التي تحيط بأهل الصُّفة من عودة الأهل، أو زوج، أو يسر بعد عَسر، أو شهادة في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل وكسب الرزق، فقد ذكر الزمخشري أنهم كانوا يرضخون النوى بالنهار، ويظهر أنهم كانوا يرضخون النوى- يكسرونه- لعلف الماشية وهم ليسوا أهل ماشية، فهم إذن يعملون لكسب الرزق(١١).

٤- عددهم وأسماؤهم:

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة ويقلون إذا قل الطارقون من الغرباء على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلاً(١٢)، وقد يزيد عددهم كثيراً حتى أن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم، فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة(١٣)، ومن أراد الوقوف على بعض أسمائهم فليرجع إلى كتب السيرة(١٤).

وقد وقع بعض الباحثين في خطأ فادح حين استدل بعضهم على مشروعية مسلك بعض المنحرفين من المتصوفة، من حيث ترك العمل والإخلاد إلى الراحة والكسل، والمكوث في الزوايا والتكايا، بحجة التوكل بحال أهل الصفة(١٥). إن أبا هريرة، وهو أكثر ارتباطاً بالصفة من غيره لم يستمر فيها وخرج إلى الحياة، بل أصبح أميراً في بعض أيامه على البحرين في عهد عمر بن الخطاب، ولم يكن مخشوشنا في حياته(١٦) بل إن أهل الصفة كانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال، وقد استشهد بعضهم كما ذكرت.

خامسًا: فوائد ودروس وعبر:

١- المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع:

إن إقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك، بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه(١٧).

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٦٤/١). ... (٥) انظر: حلية الأولياء (٣٧٥/١).

(٣) نفس المصدر (٣٥٣/١: ٣٥٥). ... (٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٦٤/١).

(٤) ...

(٥) ،٩) نفس المصدر (٢٦٤/١). ... ...

(٧) البخاري رقم ٢٠٤٧، مسلم رقم ٢٤٩٢. ... (٢) مسلم برقم ٢٤٩١.

(٩) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، ص١٨٤.

(١٠) نفس المصدر، ص١٨٤.

(١١) انظر: المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي لشراب (٢٢٢/١).

(١٢) انظر: أبو نعيم الحلية (٣٣٩/١: ٣٤١). ... (٧) نفس المصدر (٣٤١/١).

(١٤) على سبيل المثال: السيرة النبوية الصحيحة (٢٦٢/١، ٢٦٣).

(١٥) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، ص١٨٦. ...

(١٦) نفس المصدر، ص١٨٨. ... (٣) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢٠٣، بتصرف.

قال تعالى: (لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) [التوبة: ١٠٨].

قال تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ صدق الله العظيم رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ صدق الله العظيم لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [النور: ٣٦-٣٨].

٢- المسجد رمز لشمولية الإسلام:

أ- حيث أنشئ ليكون متعبداً لصلاة المؤمنين وذكرهم الله تعالى وتسبيحهم له، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليهم، يدخله كل مسلم، ويقيم فيه صلاته وعبادته ولا يضاره أحد، ما دام حافظاً لقداسته ومؤدياً حق حرمته»(١).

ب- كما «أنشئ ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه والوافدين عليه، طلباً للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته»(٢).

ج- وهو قد أنشئ ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقلية والتنزيلية، التي حث القرآن الكريم على النظر فيها، وليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم وثمرات عقولهم، ومعهدا يؤمه طلاب العلم من كل صوب، ليتفقهوا في الدين ويرجعوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيل(٣).

د- وهو قد أنشئ ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقراً لا تكدره منَّة أحد عليه فينهل من رفده ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسي والعقلي، لا يصده أحد عن علم أو معرفة أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرج فيه، وبرزت بطولته بين جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة، وكم من داعٍ إلى الله تلقى في ساحاته دروس الدعوة إلى الله فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانة جذب القلوب شذاها فانجفلت تأخذ عنها الهداية لتستضيء بأنوارها» (٤)

وكم من أعرابي جلف لا يفرق بين الأحمر والأصفر، وفد عليه فدخله ورأى أصحاب رسول الله ﷺ حوله هالة تحف به، يسمعون منه وكأن على رؤوسهم الطير، فسمع معهم وكانت عنده نعمة العقل مخبأة تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل وفقه، واهتدى واستضاء، ثم عاد إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله، ويربيهم بعلمه الذي علم، وسلوكه الذي سلك فآمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التاريخ الإسلامي»(٥).

هـ- وهو «قد أنشئ ليكون قلعة لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد، والدعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرايات للتوجه إلى مواقع الأحداث، وفي ظلها يقف جند الله في نشوة ترقب النصر أو الشهادة.

و- وهو «قد أنشئ ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه، ليكون مشفى يستشفى فيه جرحى كتائب الجهاد ليتمكن نبي الله ﷺ من عبادتهم، والنظر في أحوالهم والاستطباب لهم، ومداواتهم في غير مشقة ولا نصب تقديراً لفضلهم.

ز- وهو «قد أنشئ ليكون مبرداً لبريد الإسلام منه تصدر الأخبار، ويبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تتلقى الأنباء السياسية سلماً أو حرباً وفيه تتلقى وتقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه ينعى المستشهدون في معارك الجهاد ليتأسى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون.

ح- وهو «قد أنشئ ليكون مرقباً للمجتمع المسلم، يتعرف منه على حركات العدو المريبة ويرقبها ولا سيما الأعداء الذين معه يساكنونه ويخالطونه في بلده من شراذم اليهود وزمر المنافقين ونفايات الوثنية، الذين تمتوا في الشرك فلم يتركوه، ليحذر المجتمع المسلم عاقبة كيدهم وسوء مكرهم وتدبيرهم، ويأمن مغبة غدرهم وخياناتهم»(٦).

فالمسجد النبوي «بدأ بتأسيسه وبنائه رسولُ الله ﷺ أول ما بدأ من عمل في مستقره ودار هجرته في مطلع مقدمه ليكون نموذجا يحتذى به في بساطة المظهر، وعمق وعموم المخبر، ليحقق به أعظم الأهداف وأعمها، بأقل النفقات وأيسر المشقات»(٧).

٣- التربية بالقدوة العملية:

---

(١) ،٥ ،٦) محمد رسول الله، محمد عرجون (٣٣/٣).

(٤) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣٤/٣).

(٥) المصدر السابق، (٣٤/٣، ٣٥).

(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣٦/٣) عَسَوا: أسنُّوا وكبروا.

(٧) محمد رسول الله، (٣٣/٣).

من الحقائق الثابتة أن النبي ﷺ شارك أصحابه العمل والبناء، فكان يحمل الحجارة وينقل اللبن على صدره وكتفيه، ويحفر الأرض بيديه كأي واحد منهم، فكان مثال الحاكم العادل الذي لا يفرق بين رئيس ومرؤوس، أو بين قائد ومقود، أو بين سيد ومسود، أو بين غني وفقير، فالكل سواسية أمام الله، لا فرق بين مسلم وآخر إلا بالتقوى، ذلك هو الإسلام عدالة ومساواة في كل شيء، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعي للمصلحة العامة، وبهذا الفضل ثواب من الله، والرسول ﷺ كغيره من المسلمين لا يطلب إلا ثواب الله(١) فقد كانت مشاركة النبي ﷺ في عملية البناء ككل العمال الذين شاركوا فيه، وليس بقطع الشريط الحريري فقط، وليس بالضربة الأولى بالفأس فقط، بل غاص بعلمية البناء كاملة، فقد دهش المسلمون من النبي ﷺ وقد علته غبرة، فتقدم أسيد بن حضير – رضي الله عنه – ليحمل عن رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أعطنيه؟ فقال: «اذهب فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله مني»(٢) فقد سمع المسلمون ما يقول النبي ﷺ لصاحبه، فازدادوا نشاطا واندفاعا في العمل(٣).

إنه مشهد فريد من نوعه ولا مثيل له في دنيا الناس، وإذا كان الزعماء والحكام قد يقدمون على المشاركة أحياناً بالعمل لتكون شاشات التلفزيون جاهزة لنقل أعمالهم، وتملأ الدنيا في الصحف ووسائل الإعلام كلها بالحديث عن أخلاقهم وتواضعهم، فالنبي ﷺ ينازع الحجر أحد أفراد المسلمين، ويبين له أنه أفقر إلى الله تعالى، وأحرص على ثوابه منه.

وقد تفاعل الصحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء وأنشدوا هذا البيت:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلل(٤)

إن هذه التربية العملية لا تتم من خلال الموعظة، ولا من خلال الكلام المنمق، إنما تتم من خلال العمل الحي الدؤوب، والقدوة المصطفاة من رب العالمين، والتي ما كان يمكن أن تتم في أجواء مكة، والملاحقة والاضطهاد والمطاردة فيها إنما تتم في هذا

المجتمع الجديد والدولة التي تبني وكأنما غدا هذا الجميع من الصحابة الكرام كله صوتاً واحداً، وقلباً واحداً، فمضى يهتف:

اللهم إن العيش عيش الآخرة ... فانصر الأنصار والمهاجرة

ويهتف بلحن واحد:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

وكان الهتاف الثالث:

هذي الحمال لا حمال خيبر ... هذا أبر لربنا وأطهر(٥)

فأحمال التمر والزبيب من خيبر إلى المدينة كانت لها مكانتها في المجتمع اليثربي أصبحت لا تذكر أمام حمل الطوب لبناء المسجد النبوي العظيم، فقد أيقنوا: (مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ) [النحل: ٩٦].

وأما الهتاف الرابع:

لا يستوي من يعمر المساجدا ... بدأب فيه قائماً وقاعداً

ومن يرى عن الغبار حائدا(٦)

٤- الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

أخرج الإمام أحمد عن طلق بن علي اليمامي الحنفي، قال بنيت المسجد مع رسول الله ﷺ فكان يقول: «قربوا اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مسيساً» وأخرج الإمام أحمد عن طلق أيضاً، قال: جئت إلى النبي ﷺ وأصحابه يبنون المسجد وكأنه لم يعجبه عملهم، فأخذت المسحاة، فخلطت الطين، فكأنه أعجبه فقال: «دعوا الحنفي والطين، فإنه أضبطكم للطين» وأخرج ابن حبان عن طلق فقال: فقلت: يا رسول الله أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا، ولكن اخلط لهم الطين، فأنت أعلم به»(٧).

فقد اهتم النبي ﷺ بهذا الوافد الجديد على المدينة، والذي لم يكن من المسلمين الأوائل، ووظف خبرته في خلط الطين، وفي قوة العمل، وهو درس للمسلمين في الثناء على الكفاءات والاستفادة منها، وإرشاد نبوي كريم في كيفية التعامل معها وما أحوجنا إلى هذا الفهم العميق(٨).

٥- شعار الدولة المسلمة:

إن أذان الصلاة شعار لأول دولة إسلامية عالمية: (الله أكبر، الله أكبر) إنها تعني أن الله أكبر من أولئك الطغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره.

(أشهد أن لا إله إلا الله) أي لا حاكمية ولا سيادة ولا سلطة إلا لله رب العالمين (إن الحكم إلا لله) فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم ولا آمر ولا مشرع إلا الله.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي والعسكري، د. علي معطي، ص١٥٨.

(٢) انظر: صور من حياة الرسول، أمين دويدار، ص٢٦١.

(٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، ص١٥٨.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤٩٦/١). ...

(٥) انظر: التربية القيادية (٢٤٩/٢).

(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (١٥/٣). ...

(٧) نفس المصدر (١٥/٣). ...

(٨) انظر: التربية القيادية (٢٥٢/٢).

(أشهد أن محمدًا رسول الله) أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينزعها منه، فهو ماضٍ بها إلى أن يكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سنة(١)، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرسالة والزعامة الدينية والدنيوية والسمع والطاعة له(٢).

(حي على الصلاة، حي على الفلاح) أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدولة التي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساس من القيم السامية.

(قد قامت الصلاة) وقد اختيرت الصلاة من بين سائر العبادات؛ لأنها عماد الدين كله؛ ولأنها بما فيها من الشعائر كالركوع والسجود والقيام أعظم مظهر لمظاهر العبادة بمعناها الواسع التي تعني: الخضوع والتذلل والاستكانة، فهي خضوع ليس بعده

خضوع، فكل طاعة لله على وجه الخضوع، والتذلل، فهي عبادة، فهي طاعة العبد لسيده، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعة وتذللاً قال تعالى: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [غافر: ١٦].

وهذا الارتباط بين شعار الدولة الرسمي بحاكمية الله وسيادة الشرع، وسقوط الطواغيت، وقوانينهم، وأنظمتهم وشرائعهم بـ(حي على الفلاح.. قد قامت الصلاة) يشير إلى أنه لا قيام للصلاة، ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظل دولة تقوم عليها وتقوم بها

ولها، فقد كان المسلمون يصلون خفية في شعاب مكة قبل قيام دولتهم، أما وقد قامت تحت حماية سيوف الأنصار، فليجهروا بالأذان، والإقامة، وليركعوا وليسجدوا لله رب العالمين.

إن الواقع التاريخي خير شاهد على أن الله لا يعبد في الأرض حق عبادته إلا في ظل دولة قوية تحمي رعايها من أعداء الدين.

ثم تتكرر كلمات الأذان (الله أكبر.. الله أكبر) للتأكيد على المعاني السابقة(٣).

إننا بحاجة ماسة لفهم الأذان، وإدراك معانيه والعمل على ترجمته ترجمة عملية، لنجاهد في الله حق جهاده، حتى ندمر شعارات الكفر، ونرفع شعارات الإيمان، ونقيم دولة التوحيد التي تحكم بشرع الله ومنهجه القويم.

٦- فضائل المسجد النبوي:

تحدث النبي ﷺ عن فضائل المسجد النبوي؛ ولذلك تعلق الصحابة به ويمكننا الرجوع إلى صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما؛ للوقوف على هذه الفضائل الميمونة. وسنذكر هنا حديثًا واحدًا لمعناه العميق الذي نحتاجه ونستمسك به وهو عن:

٧- فضل التعلم والتعليم في المسجد النبوي:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيراً أو يعمله كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له»(٤).

* * *

المبحث الثاني

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان من أولى الدعائم التي اعتمدها الرسول ﷺ في برنامجه الإصلاحي، والتنظيمي للأمة وللدولة والحكم، الاستمرار في الدعوة إلى التوحيد والمنهج القرآني، وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وهي خطوة لا تقل أهمية عن الخطوة الأولى في بناء المسجد لكي يتلاحم المجتمع المسلم ويتآلف وتتضح معالم تكوينه(٥) الجديد.

كان مبدأ التآخي العام بين المسلمين قائما منذ بداية الدعوة في عهدها المكي،

ونهى الرسول ﷺ عن كل ما يؤدي إلى التباغض بين المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» (٦).

وقال صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه(٧) ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته(٨) ومن فرج عن مسلم كربة(٩) فرج الله– عز وجل– عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»(١٠).

---

(١) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي، ص١١٤.

(٢) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، كامل سلامة الدقس، ص٤٣٨.

(٣) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص٤٣٩.

(٤) انظر: المصنف لأبي شيبة (٣٧١/٢)، (٢٠٩/١٢) رقم ١٢٥٦٧، وفي رواية الحاكم قال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بجميع رواته، ثم لم يخرجاه، ولا أعلم له علة)، وأقره الذهبي. انظر: تلخيص المستدرك (٩١/١).

(٥) انظر: الإدارة الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب، د. مجدلاوي، ص٥٢، ٥٣.

(٦) البخاري، رقم ٦٠٦٥، مسلم رقم ٢٤.

(٧) أي لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه.

(٨) مسند أحمد رقم ٧٩٢٩. ... (٥) كربة: أي غمة.

(١٠) البخاري، رقم ٢٤٤٢.

وقد أكد القرآن الكريم الأخوة العامة بين أبناء الأمة في قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ) [آل عمران: ١٠٣].

وقوله تعالى: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال: ٦٣].

أما موضوع هذا البحث فهو المؤاخاة الخاصة التي شرعت وترتبت عليها حقوق وواجبات أخص من الحقوق والواجبات العامة بين المؤمنين كافة(١).

وقد تحدث بعض العلماء عن وجود مؤاخاة كانت في مكة بين المهاجرين، فقد أشار البلاذري إلى أن النبي ﷺ آخى بين المسلمين في مكة قبل الهجرة على الحق والمواساة، فآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين أبي بكر وعمر، وبين عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشي، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين

أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيد الله، وبينه وبين علي بن أبي طالب(٢) ويعتبر البلاذري (ت٢٧٦هـ) أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) دون أن يصرح بالنقل عنه، كما تابعهما ابن سيد الناس دون التصريح بالنقل عن أحدهما(٣)، وقد أخرج الحاكم في المستدرك من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر: «آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان»(٤) وعن ابن عباس: «آخى النبي ﷺ بن الزبير وابن مسعود»(٥).

وذهب كل من ابن القيم وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكة، فقال ابن القيم: «وقد قيل إنه- أي النبي صلى الله عليه وسلم- آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها عليا أخا لنفسه، والثبت الأول(٦)، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام، وأخوة الدار وقرابة النسب، عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار»(٧) أما ابن كثير فقد ذكر أن من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة لنفس العلة التي ذكرها ابن القيم(٨).

لم تشر كتب السيرة الأولى المختصة إلى وقوع المؤاخاة بمكة، والبلاذري ساق الخبر بلفظ (قالوا) دون إسناد مما يضعف الرواية، كما أن البلاذري نفسه ضعف النقاد، وعلى فرض صحة هذه المؤاخاة بمكة فإنها تقتصر على المؤازرة والنصيحة بين المتآخين دون أن تترتب عليها حقوق التوارث(٩).

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

ساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول ﷺ هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً، وعملا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال(١٠).

والسبب الذي أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده، نشّأهم دينهم الذي اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا، وعلّمهم الإيمان والعمل جميعًا، فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التي لا تتجاوز أطراف الألسنة، وكانوا على النحو الذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [النور: ٥١].

---

(١) انظر:/ السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢٤٠/١).

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف (٢٧٠/١). ... (٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٤٠/١).

(٤) نفس المصدر (٢٤٠/١). ... (٤) فتح الباري (٣٠٤/٧)

(٦) يعني المؤاخاة في المدينة. ... (٦) زاد المعاد (٧٩/٢).

(٨) انظر: السيرة النبوية لابن كثير. ... (٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٤١/١).

(١٠) انظر: فقه السيرة للغزالي ص ١٩٣، ١٩٤.

وبذلك الذي درج عليه المسلمون كفل البقاء والاستمرار لهذه الأخوة، التي شد الله بها أزر دينه ورسوله حتى آتت ثمارها في كل أطوار الدعوة طوال حياته صلى الله عليه وسلم، وامتد أثرهاحتى وفاته صلى الله عليه وسلم، وبقيت هذه المؤاخاة عند مبايعة الصديق – رضي الله عنه – ولم يحدث الأنصار صدعًا في شمل الأمة، مستجيبين في ذلك لشهوات السلطة وغريزة السيطرة، ذلك فإن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، نوع من السبق السياسي الذي اتبعه رسول الله ﷺ في تأصيل المودة

وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار، الذين سهروا جميعا على رعاية هذه المودة وذلك الإخاء، بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده(١).

ولا سيما الأنصار الذين لا يجد الكتاب والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان خيرا من حديث الله عنهم(٢) قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: ٩].

* بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممن تآخوا في الله:

أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – وخارجة بن زهير، عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وقش، طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، سعيد بن زيد وأبي بن كعب، مصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر بن وقش، عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، أبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو، حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة، سلمان الفارسي وأبو الدرداء، بلال مؤذن رسول الله ﷺ وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي(٣).

ثانيًا: الدروس والعبر والفوائد:

١- آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقديًا يرتبط بالإسلام ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح(٤).

إن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين من أهم الآثار والنتائج المترتبة على الهجرة، وكان القرآن الكريم يربي المسلمين على هذه المعاني الرفيعة، فقد بين الحق سبحانه وتعالى أن ابن نوح وإن كان من أهله باعتبار القرابة لكنه لم يعد من أهله لما فارق الحق وكفر بالله ولم يتبع نبي الله. قال تعالى:

(وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ صدق الله العظيم قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) [هود: ٤٥،٤٦].

وقد حصر الإسلام الأخوة والموالاة بين المؤمنين فقط قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الحجرات: ١٠].

وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصارى، حتى لو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم، ووصف من يفعل ذلك من المؤمنين بالظلم، مما يدل

على أن موالاة المؤمنين للكافرين، من أعظم الذنوب قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [التوبة: ٢٣].

فإذا كان الله سبحانه يحذر المؤمنين في الآيات السابقة من موالاة الكفار عامة، فهناك آيات كثيرة وردت في تحذير المؤمنين ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصة، أو اتخاذهم أولياء، أو الركون إليهم(٥).

قال تعالى: (وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ) [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) [آل عمران: ١٠٠].

---

(١) انظر: فصول في السيرة النبوية، د. عبد المنعم السيد، ص٢٠٠.

(٢) انظر: هجرة الرسول وصحابته في القرآن السنة للجمل، ص٢٤٥.

(٣) انظر: ابن هشام (١٠٩/٢: ١١١) السيرة النبوية لابن كثير (٣٢٤/٢).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢٥٢/١)

(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي جزولي، ص٤١٧.

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [المائدة: ٥١].

وحدد المولى عز وجل للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان وبين لهم من يتولون قال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ صدق الله العظيم وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) [المائدة: ٥٥-٥٦].

فقد فهم الصحابة أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله، فحققوا ذلك كله في أنفسهم وطبقوه على حياتهم فمحضوا ولاءهم وجعلوه لله ورسوله والمؤمنين، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرائعة التي تدل على فهمهم العميق لمعنى الولاء الذي منحوه لخالقهم ولدينهم وعقيدتهم وإخوانهم.

إن التآخي الذي تم بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقاً بعقيدة تم اللقاء عليها، والإيمان بها، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية التي جاء بها رسول الله ﷺ من عند الله تعالى هي العمود الفقري للمؤاخاة التي حدثت، لأن تلك العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء، والتعاون والإيثار بين أناس فرقتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كل منهم ملكا لأنانيته وأثرته وأهوائه(١).

٢- الحب في الله أساس بنية المجتمع المدني:

إن المؤاخاة على الحب في الله من أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة، فإذا وهت يتآكل كل بنيانها(٢) ولذلك حرص النبي ﷺ على تعميق معاني الحب في الله في

المجتمع المسلم الجديد فقد قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»(٣).

وكان للحب في الله أثره في المجتمع المدني الجديد، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: (كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت: (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ) [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن الله يقول: (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وإن أحب أموالي إلي (بيرحاء) وإنها صدقة لله أرجو برها، وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة، أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه

وبني عمه(٤).

---

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص١٥٦. ... (٢) انظر: محمد رسول الله، عرجون (١٢٩/٣).

(٣) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب رقم الحديث ٢٥٦٦.

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢٥٤/١)

وهذا عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – يحدثنا عن هذه المعاني الرفيعة حيث قال: لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت(١) تزوجتها، قال: فقال عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع(٢) فغدا إليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن قال: ثم تابع الغدو(٣) فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة، فقال رسول الله

ﷺ «تزوجت» قال: نعم، قال: «ومن؟» قال: امرأة من الأنصار، قال: «كم سقت؟» قال زنة نواة من ذهب، أو نواة من ذهب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أولم ولو بشاة» (٤) ونلاحظ أن كرم سعد بن الربيع قابله عفة وكرم نفس من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، ولم يكن مسلك عبد الرحمن بن عوف خاصًّا به، بل إن الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصار ثم باشروا العمل والكسب واشتروا بيوتاً لأنفسهم وتكفلوا بنفقة أنفسهم، ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم.

٣- النصيحة بين المتآخين في الله:

فقد كان للمؤاخاة أثر في المناصحة بين المسلمين فقد آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كل، فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تأكل قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «صدق سلمان»(٥).

٤- لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم:

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدنيا، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: (قالت الأنصار للنبي ﷺ أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا)(٦).

فهذا الحديث يفيد أن الأنصار عرضوا على النبي ﷺ أن يتولى قسمة أموالهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النخيل، فأبى عليهم النبي ﷺ وأراد أمرا تكون فيه المواساة من غير إجحاف بالأنصار، بزوال ملكية أموالهم منهم، فقال

الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة- أي العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها- ونشرككم في الثمرة، فلما قالوا ذلك رأى رسول الله ﷺ أن هذا الرأي ضمن سد حاجة المهاجرينن مع الإرفاق بالأنصار فأقرهم على ذلك فقالوا جميعا: سمعنا وأطعنا(٧).

وقد قام الأنصار بالمؤونة وأشركوا المهاجرين في الثمرة، ولعل المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل، ولكن أكثر العمل عند الأنصار، وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم ومواقفهم الرفيعة في الإيثار والكرم، وقالوا: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا

عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في

المهنأ (٨) حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم» (٩).

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخروي بيان لعمق تصورهم للحياة الآخرة، وهيمنة هذا التصور على تفكيرهم(١٠).

وقد أراد النبي ﷺ أن يكافئ الأنصار على تلك المكارم العظيمة التي قدموها لإخوانهم المهاجرين، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إمَّا لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة» (١١).

---

(١) نزلت لك عنها: أي طلقتها لأجلك، فإذا حلت: أي انقضت عدتها.

(٢) قينقاع قبيلة من اليهود نسب السوق إليهم.

(٣) تابع الغدو: أي دوام الذهاب إلى السوق للتجارة.

(٤) البخاري، كتاب البيوع، رقم ٢٠٤٨.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الصوم، رقم ١٩٦٨ (٢٠٩/٤).

(٦) صحيح البخاري، المزارعة رقم ٢٣٢٥. ... (٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٣٠/٤).

(٨) يعني كفونا العمل وأشركونا في الثمرة.

(٩) مسند أحمد (٢٠٠/٣، ٢٠١) ابن أبي شيبة (٦٨/٩) رقم ٦٥٦١.

(١٠) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤٠٦/٤). ... (٢) صحيح البخاري، مناقب الأنصار رقم ٣٧٩٤.

لقد حققت المؤاخاة أهدافها، فمنها إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين ومؤانستهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، وشد أزر بعضهم بعضاً، ومنها نهوض الدولة الجديدة، لأن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة، لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة(١).

٥- الإرث بالمؤاخاة:

لم يعرف تاريخ البشر كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الفعالة وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء، فقد جعل النبي ﷺ من هذه الأخوة مسئولية حقيقة تشيع بين هؤلاء الإخوة «جعل الله سبحانه وتعالى حق الميراث منوطاً بهذا التآخي، دون حقوق القرابة والرحَم فقد كان من حكمة التشريع أن تتجلى الأخوة الإسلامية حقيقة محسوسة في أذهان المسلمين وأن يعلموا أن ما بين المسلمين من التآخي والتحابب ليس شعارا وكلاما مجردين»، والفترة الأولى من الهجرة وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين أمام مسئولية خاصة من التعاون والتناصر والمؤانسة، بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم، وتركهم ديارهم وأموالهم في مكة ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار في المدينة، فكان من إقامة الرسول ﷺ من التآخي بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانة لتحقيق هذه المسئولية، ولقد كان من مقتضى هذه المسئولية أن يكون هذا

التآخي أقوى في حقيقته وأثره من أُخوة الرحم المجردة، فلما استقر أمر المهاجرين في المدينة وتمكن الإسلام فيها، غدت الروح الإسلامية هي وحدها العصب الطبيعي للمجتمع الجديد في المدينة(٢).

فلما ألف المهاجرون جو المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى بما كفاهم، رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين، وذلك بنص القرآن الكريم فقال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الأنفال: ٧٥].

فهذه الآية نسخت التوارث بموجب نظام المؤاخاة(٣) وبقيت النصرة والرفادة والنصيحة بين المتآخين(٤) فقد بين حبر الأمة ابن عباس ذلك عند قوله تعالى: (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) [النساء: ٣٣] أنه قال: (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ) قال: ورثة (والذين عاقدت إيمانكم) كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ) نسخت، ثم قال: (وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ)(٥) من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصي له(٦).

٦- قيم إنسانية ومبادئ مثالية:

من خلال الروابط الوثيقة التي ألفت بين المهاجرين والأنصار أُرسيت قيم إنسانية واجتماعية ومبادئ مثالية لا عهد للمجتمع القبلي بها، وإنما هي من شأن المجتمعات المتحضرة الفاضلة.

٧- تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إن القضاء على الفوارق الإقليمية والقبلية ليست بالأمر الهين في المجتمعات الجاهلية، حيث العصبية هي الدين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورة واقعية منطلقة من قلب البيئة الجاهلية.

إن من الأمراض في الصف الإسلامي المعاصر سيطرة الروح الإقليمية والعصبية في نفوس بعض الدعاة وهذه الأمراض تحيل بينهم وبين التمكين وتضعف الصفوف بل تشتتها وينشغل الصف بنفسه عن أهدافه الكبار، وقد تولد هذا عن أمراض في نفوس بعض الأفراد بسبب بعدهم عن القرآن الكريم، وسنة سيد المرسلين، فلم يتربوا عليها ولذلك كثر التناحر والتباغض.

إن المسلمين اليوم بأشد الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة التي حدثت بين المهاجرين والأنصار؛ لأنه يستحيل أن تستأنف حياة إسلامية عزيزة قوية إذ لم تتخلق المجتمعات الإسلامية بهذه الأخلاق الكريمة، وترتقي إلى هذا المستوى الإيماني الرفيع وإلى هذه التضحيات الكبيرة.

٨- المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التمكين المعنوية:

---

(١) في ظلال القرآن (٣٥٢٦/٦) ... (٤) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص٢١١، ٢١٢.

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، (٢٤٦/١). ... (٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٢٥/٤).

(٥) هذه الجملة من رواية الطبري بنفس إسناد البخاري (فتح الباري ٢٤٩/٨).

(٦) صحيح البخاري، كتاب التفسير رقم ٤٥٨٠.

إن من أسباب التمكين المعنوية العمل على تربية الأفراد تربية ربانية، وإعداد القيادة الربانية، ومحاربة أسباب الفُرقة، والأخذ بأصول الوحدة والاتحاد(١).

وأهم أصول الوحدة والاتحاد، وحدة العقيدة، صدق الانتماء إلى الإسلام طلب الحق والتحري في ذلك وتحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين.

قال تعالى: (وَإِن يُّرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ صدق الله العظيم وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال: ٦٢-٦٣].

وقال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الحجرات: ١٠].

ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أشرب هذه الأخوة، قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار»(٢).

إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصمود في وجه أعتى المحن التي تنزل بالمسلمين، كما أن الفهم المتبادل والكامل للأخوة في الله، من أسباب تماسك صفوف المسلمين وقوتهم، ومن أسباب شموخهم والتمكين لهم(٣).

٩- من فضائل الأنصار:

أ- تسمية الله لهم «الأنصار»:

سماهم الله ورسوله بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام، وقاموا بإيواء المؤمنين ونصرة دين الله ورسوله ﷺ ولم يكونوا معروفين بذلك من قبل(٤) فعن غيلان بن جرير رحمه الله قال: قلت لأنس: أرأيت اسم (الأنصار) كنتم تسمون به، أم سماكم الله؟ قال: سمانا الله(٥) عز وجل.

أما مناقبهم وفضائلهم فكثيرة لا تحصى، منها مناقب عامة لجميع الأنصار، ومناقب خاصة بأفراد من الأنصار، أما المناقب العامة الواردة في القرآن الكريم ما يلي:

* فقد وصفهم المولى عز وجل بأنهم من المؤمنين حقا، فقال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الأنفال: ٧٤].

* وبشرهم ربهم برضاه عنهم، وامتدح رضاءهم عنه، فقال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: ١٠٠].

* ووصفهم المولى عز وجل بالفلاح قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: ٩].

وأما الأحاديث التي تحدثت عن مآثر الأنصار فمنها:

- حب النبي ﷺ للأنصار:

عن أنس - رضي الله عنه - قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين- قال: حسبت أنه قال: من عرس- فقام النبي ﷺ مُمْثِلاً (٦) فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث(٧)مرار.

ب- حب الأنصار علامة الإيمان وبغضهم علامة النفاق:

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»(٨).

جـ- الشهادة لهم بالعفاف والصبر:

العفة والصبر شيمتان كريمتان تدلان على أصالة معدن المتخلق بهما، وتمام مروءته، وكمال رجولته وفتوته، وقد شهد النبي ﷺ للأنصار بهما، وما أعظمها شهادة وما أعظمه من شاهد(٩) فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يضر امرأة نزلت بين بيتين من الأنصار أو نزلت بين أبويها»(١٠).

---

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم للصلابي، ص٢٥٣.

(٢) انظر: البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١١/١).

(٣) انظر: نظرات في رسالة التعاليم، محمد عبد الله الخطيب، محمد عبد الحليم حامد ٢٦٢، بتصرف.

(٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة، عبد الرحمن البر، ص١٣١: ١٣٥.

(٥) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار، رقم ٣٧٧٦.
(٦) مُمْثِلاً: يعني انتصب قائمًا. ... (٣) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم ٣٧٨٥.
(٨) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم ٣٧٨٣.
(٩) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٤٢.
(١٠) رواه أحمد (٢٥٧/٦) مجمع الزوائد (٤٠/١٠) الحاكم (٨٣/٤).

د- رغبة النبي ﷺ في الانتساب إليهم لولا الهجرة:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «لو أن الأنصار سلكوا واديًا أو شِعْباً لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار»(١).

هـ – دعاء النبي ﷺ بالمغفرة لهم ولأبنائهم وأزواجهم ولذراريهم:

لا شك أن دعاء الرسول ﷺ مستجاب، فقد فاز الأنصار بهذا الفضل فعن زيد بن أرقم – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار، ولنساء الأنصار»(٢).

و- وصية النبي ﷺ بالإحسان إليهم وعدم إفزاعهم:

كان جهاد الأنصار في سبيل الدين عظيماً، وكان فضلهم في نشره والدفاع عنه بليغاً، إذ لم يمنعهم من الخفة إلى الخروج في سبيل الله عسر ولا يسر، وحفظ الله لهم ذلك في قوله تعالى: (لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: ١١٧].

ومن ثم كانت وصية رسول الله ﷺ بالأنصار والإحسان إلى محسنهم، والتجاوز عن مسيئهم، وكان ترهيبه ﷺ من ترويعهم وتفزيعهم، وكانت توصيته بالأنصار خيراً(٣) فعن أنس – رضي الله عنه –، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنصار كرشي وعيبتي(٤) وإن الناس سيكثرون ويقلون(٥)، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزا عن مسيئهم»(٦).

وعنه أيضاً قال: خرج نبي الله ﷺ فتلقته الأنصار بينهم، فقال: «والذي نفس محمد بيده إني لأحبكم، وإن الأنصار قد قضوا ما عليهم، وبقي الذي عليكم(٧)، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزا عن مسيئهم» (٨) وعن أبي قتادة – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر للأنصار: «... فمن ولي الأنصار فليحسن إلى محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ومن أفزعهم فقد أفزع هذا الذي بين هاتين» وأشار إلى نفسه(٩).

((من السيرة النبوية للصلابي الجزء الأول)

---

(١) البخاري، مناقب الأنصار (١١٢/٦) رقم ٣٧٧٩.

(٢) البخاري، كتاب التفسير، سورة المنافقين، رقم ٤٩٠٦.

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٥٠.

(٤) الكرش، كالكتف، والعيبة – بفتح المهملة وسكون المثناة بعدها موحدة معناها ما يحرز الرجل فيها ويحفظ نفيس ما عنده من المتاع، والعيبة من الرجل: موضع سره وأمانته، انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٥٠.

(٥) قال ابن حجر: (أي أن الأنصار يقلون، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار، فمهما فرض من الأنصار من الكثرة كالتناسل فرض في كل طائفة من أولئك، فهم أبداً بالنسبة إلى غيرهم قليل. ويحتمل أن يكون ﷺ اطلع على أنهم يقلون مطلقاً فأخبر بذلك، فكان كم أخبر، لأن الموجودين الآن من ذرية علي بن أبي طالب ممن يتحقق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبليتي الأوس والخزرج ممن يتحقق نسبه وقس على ذلك ولا التفات إلى كثرة من يدعي أنه منهم بغير برهان) (فتح الباري١٢٢/٧)

(٦) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم ٣٨٠١.

(٧) قضوا الذي عليهم، يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة فإنهم بايعوا على أن يؤوا النبي ﷺ وينصروه على ان لهم الجنة، فوفوا بذلك (فتح الباري ١٢٢/٧).

(٨) مسند الإمام أحمد (١٨٧/٣).

(٩) انظر: الهجرة النبوية المباركة، ص١٥١.

الهجرة النبوية ملحمة حضارية اسلامية

كانت الهجرة النبوية ولاتزال ملحمة حضارية اسلامية لن ينضب معينها. ولن يمنع خبرها الي يوم الدين. وستظل مصدر عطاء كبير لمن يريدون أن يضعوا أساس البناء السليم لمجتمع إنساني راشد يقوم علي دعائم الايمان. ويستوعب كافة الفئات وجميع الجنسيات تحت مظلة واحدة. هي مظلة الدين الخالد الذي رفع الظلم عن المظلومين وأرسي دعائم الحقوق والواجبات. وحفظ المقومات والحرمات.

وأول درس يجب أن يعيه المسلمون من حادث الهجرة النبوية المباركة. أنها تعد تجسيدا صادقا للانتصار على حظوظ النفس داخل ذوات النماذج الانسانية الكاملة التي رسمت أحداثها وأنجزت خطواتها وحققت أمجادها. وتعتبر علامة علي صدق ايمان اولئك الصفوة من خلق الله. حيث بلغت قوة الايمان لديهم مبلغا جعلهم يدفعون ثمن هذا الايمان غاليا من حياتهم وأموالهم وديارهم وبلادهم وموطن صباهم. ولولا صدق الايمان فيهم لركنوا الي الدعة وحب الدنيا. ولآثروا البقاء بجانب ركامها الذي جمعوه في حياتهم من مال وديار وبناء. بل ولفضلوا البقاء بجانب أهليهم وذويهم الذين يرتبطون معهم برباط العاطفة ووشيجة النسب. وهي العاطفة التي تجعل المهاجر يعود. لا أن تجعل المقيم يهاجر. لكن صدق الايمان لديهم جعلهم يسترخصون كل ذلك ويهملونه في سبيل هدف أسمي وأجل وأعظم وهو الانتصار لدين الله وبذل كل غال ومرتخص في سبيل عزته وانتشاره. وصدق الله العظيم حين وصف موقفهم الجليل من ذلك الدين العظيم بقوله تعالي : "الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله" فشهد لهم بذلك القول الخالد الي يوم الدين.

إنهم قد باعوا الاهل والديار والأموال في سبيل الله. وهي درجة من الايمان اثبتت التجربة أنها قد محصت واختبرت فبلغت غاية الجودة والنقاء والقوة. ولولا قوة ايمان المهاجرين وإيثارهم لما عند الله علي متاع الدنيا القليل الفاني. لقعدوا. ولما هاجروا.

ولنا أن نتصور مآل مستقبل البشرية في حالة ما إذا كانت الهجرة لـم تحـدث. إنـه سيكون مستقبلا مظلما خاليا من الحق والعدل والسلام والمحبة. حيث كـان الإسـلام سينتهي. وسيتمكن أعداء المسلمين منهم وهم قلة مستضعفة ولقضي علي الدعوة فـي مهدها. وكل عام وانتم بخير

الهجرة النبوية وتأسيس المدينة الإسلامية

تمهيد: شكلت الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة منعطفاً حاسماً فـي مسار التاريخ الإسلامي، وذلك نظرا لما أسست له من تحولات عميقة وجذرية سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي•• فقد بات من المتفق عليه بـين المؤرخين أن حدث الهجرة كان إعلاناً لبزوغ مرحلة الدولة الإسلامية، بعد مرحلـة الدعوة في مكة المكرمة، وقد وضع الرسول [خلال هذه المرحلة الجديـدة المعـالم الأساسية للمجتمع الإسلامي في كل أبعادها، الفردية والجماعية، العامة والخاصة•• بل إن تقسيم آيات القرآن الكريم إلى مكية ومدنية حسب مراحل نزولها، دليل على أهمية وخصوصية كل مرحلة، وبالتالي فإن الهجرة كحدث فاصل بين هـاتين المـرحلتين جدير بالاهتمام والدراسة، وهو حدث ذو أبعاد كثيرة يهمنا هاهنا أن نتطـرق لواحـد منها هو الجانب العمراني• فكيف أسس الرسول [، بعد الهجـرة مدينـة بأكملهـا، أو بالأحرى كيف أعاد >تهيئة< مدينة صغيرة ليجعل منها فـي ظـرف وجيـز نسـبيا حاضرة مهمة نافست ولا تزال أهم حواضر عصرها؟ مـا هـي الأسـس الماديـة والتنظيمية التي اعتمدها الرسول الأكرم [في بناء النواة الأولى للمجتمع الإسـلامي؟ وما هي خصائص المجتمع العمراني وكيف ساهمت العقدية الجديدة في بلورتها؟

لماذا الهجرة إلى يثرب؟

إن اختيار الرسول [لـ >يثرب< بتأييد وتوفيق من الله تعالى روعيت فيه اعتبـارات دقيقة، كيف لا والهجرة لم تكن فقط >موقفا تعبديا ينتظر منـه الحمايـة للمسـلمين فحسب، بل كان حكما ربانيا بإنشاء دولة الإسلام<(١) فالرسول [وهو يتطلـع إلـى مستقبل الإسلام والمسلمين خلال المراحل المقبلة، لم يقع اختياره على يثرب بالصدفة،

هو الذي كانت له تجارب مع مواقف أخرى داخل وخارج الجزيرة العربيـــة: بنـــي حنيفة، الطائف، الحبشة•• بل لاشك أنه وفق لهذا الاختيار بتأييد من ربه لاعتبـــارات يمكن أن نجمل أهمها فيما يلي(٢):

أولاً: الموقع الجغرافي للمدينة: إن الموقع الجغرافي لأية مدينة يعتبر من أهم العوامل التي تحدد مدى تطورها وازدهارها، بل إن نشأة وتطور كثير من المدن والحواضـــر يرجع في المقام الأول إلى الخصائص الجغرافية التي تميز موقعها، و>يثرب< تمتاز بموقعها الجغرافي على طريق تجارة الشام عصب الاقتصـــاد القرشـــي ومتاخمتهـــا لمنطقة حضارية عريقة في الشمال حيث التيارات المســـيحية والثقافـــات الإغراقيـــة تتجاذبها وتدفع بتأثيرها إلى الحجاز(٣)•

ثانياً: توافر بنية اقتصادية معتبرة من خلال تنوعها ومستوى تطورها، فهناك الزراعة التي تعتبر يثرب إحدى أهم واحاتها في الجزيرة العربية إلى جانب الطائف وعســـير وحضرموت••• فهذه المناطق كانت تمتاز بخصوبة أراضيها ووفرة مياههـــا وكثـــرة وتنوع أغراسها (٤) وقد كان التطورالزراعي في >يثرب< حصيلة الخبرة الزراعية التي أتى بها اليهود من بلاد الشام من جهة والعرب التي هاجرت من بلاد اليمن مـــن جهة ثانية (٥) أما فيما يخص النشاط الصناعي والحرفي فقد قامـــت فـــي >يثـــرب< مجموعة من الصناعات خاصة تلك تعتمد على الإنتاج الزراعي المحلي• كما عرفت بعض الصناعات التعدينيـــة كصـــناعة الأســـلحة والآلات المســـتخدمة فـــي الـــري والزراعة(٦)•

وأخيرا فإن النشاط التجاري كان له حضوره أيضا بحكم موقع يثرب كنقطـــة علـــى طريق الشام فضلا على أن فائض الإنتاج الزراعي والصناعي يقتضي تطوير أساليب التجارة لصرفه نحو الخارج•

ثالثا: من الناحية السياسية والاجتماعية، كانت >يثـــرب< تعـــيش فـــي ظـــل تنـــوع ديموغرافي يطبعه اختلال في موازين القوى لصالح اليهود على حساب العرب، كـــل ذلك في ظل غياب سلطة سياسية مركزية موحدة (٧)•

هذه باختزال شديد هي الوضعية التي كانت تميز يثرب عشية الهجرة إليها• فما هي الإجراءات التي اتخذها الرسول [لتأمين نواة الدولة الإسلامية الأولى الممثلة في المدينة المنورة؟ أو بتعبير آخر• ما هي عناصر المدينة الإسلامية كما وضعها الرسول [•

يمكن تصنيف هذه العناصر إلى نوعين، عناصر مادية وعناصر تنظيمية•

العناصر المادية:

وتتمثل في مجموعة من الإنجازات ذات الطابع العمراني التي قام بها الرسول [داخل المدينة، التي نجم عنها تغير جذري في هيكلتها العمرانية، وذلك بالموازاة مع التغيرات العميقة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتنظيمي، في هذا الإطار يمكن أن نذكر المنشآت التالية:

أولاً: بناء المسجد: كان بناء المسجد هو أول عمل باشره الرسول [بعد دخوله >يثرب< وقد اختار له الموضع الذي بركت فيه ناقته وكان مربدا (٨) لغلامين يتيمين من الأنصار في كفالة سعد بن زراة• سام الرسول [في هذه الأرض فعرض عليه الغلامان أن يهباه له• لكنه عليه الصلاة والسلام أبى حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير وكان في المكان شجر غرقد ونخل وقبور قديمة فأمر الرسول [بالشجر فقطع وبالقبور فنبشت• وتم بناء المسجد وجعل طوله مما يلي القبلة الى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانب مثل ذلك أو دونه، ثم بني باللبن وجعل عمده الجذوع• وسقفه بالجريد (٩)• وجعلت قبلته في اتجاه الشمال، نحو بيت المقدس، قبل أن يأتي الأمر الإلهي بتغيير القبلة نحو مكة المكرمة سنة ٢هـ >فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام<(البقرة، ١٤٣) إن الأهمية الروحية للمسجد ومركزية دوره في الحياة العامة للمسلمين باعتباره مجالا وفضاء ليس فقط للعبادة ولكن ليتلقى فيه المسلمون تعاليم الإسلام وتوجهاته، ومنتدى تلتقي فيه وتتآلف العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزاعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون، وبرلمانا لعقد المجالس الاستشارية التنفيذية ومع ذلك كله (مأوى) لعدد كبير من

المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم دار ولا مال ولا أهل (١٠) هذه الأهمية التي للمسجد يترجمها الجانب العمراني• إذ لا يخفى أن المسجد الجامع الذي أسسه الرسول [كان يحتل مركز المدينة ويشكل نواتها فمنه وإليه تمتد الشوارع والطرق الرئيسية في اتجاه ضواحي وأطراف المدينة، فقد أشارت الروايات التاريخية إلى طريق يمتد من المسجد ويتجه غربا حتى يصل إلى جبل سلع وطريق من المسجد يخترق منازل بني عدي بن النجار ويصل إلى قباء جنوبا ومن قبا وجد طريق يتجه شمالا إلى البقيع (١١)، <وعن هذه الشوارع تتفرع طرقات ثانوية لتسهيل التواصل بين مختلف أطراف المدينة وللإشارة فإن التوسع العمراني والامتداد المجالي للمدينة أديا إلى إقامة مساجد على مستوى الأحياء، وهي مساجد للصلوات الخمس فقط، فيما صلاة الجمعة كانت تقام في مسجد الرسول [باعتباره المسجد الجامع، وقد كان الرسول [هو من يشرف على إنشاء هذه المساجد كما يتبين ذلك من حديث جابر بن أسامة حيث قال: لقيت رسول الله [بالسوق في أصحابه فسألتهم أين يريد، فقالوا: اتخذ لقومك مسجدا، فرجعت فإذا قومي فقالوا خط لنا مسجدا وغرز في القبلة خشبة<(١٢)•

ثانيا: تخطيط الأحياء السكنية: حول المسجد الجامع أعطى الرسول [انطلاقة إنشاء مجموعة من الأحياء، وذلك من خلال عملية تقسيم الأراضي الشاغرة التي وهبها له الأنصار ووضعوها تحت تصرفه عليه الصلاة والسلام لتوزيعها على المهاجرين قصد استوطانها•

فقد ذكر ابن سلام أن الرسول [حين هاجر إلى المدينة جعل له أهلها <كل أرض لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء<(١٣) وقد قام الرسول [بتوزيع هذه الأراضي وفق نظام الخطط، حيث أقطع لكل قبيلة خطة خاصة بها تاركا لها حرية التصرف في تقسيمها بين أفرادها وفقا لظروفها وإمكاناتها وحاجاتها•

وهكذا خط مثلا لبني زهرة من ناحية مؤخرة المسجد، ولعبدالرحمن بن عوف الحصن المعروف باسمه، وأقطع الزبير بن العوام بقيعا واسعا (١٤)، وقد أدت عمليات الاختطاط هذه التي تعني في المدن الإسلامية الأولى حيازة موقع ما في منطقة

معلومة بإذن من السلطات قصد إعماره (١٥)، أدت هذه العمليات إلى تجميع النسيج العمراني للمدينة بعد تعمير المجالات الفارغة التي كانت تفصل بين مختلف أحيائها• من خلال طريقة توزيع الأراضي أو ما يمكن أن نسميه >بالسياسية العقارية< التي انتهجها الرسول [، يتبين على أنه عليه الصلاة والسلام أراد التوفيق بين اعتبارين أساسيين، متناقضين في الظاهر، لكن في واقع الأمر هما متكاملان تماما، ويؤديان وظيفة واحدة ضرورية وحيوية جدا لأية مدينة، ويتعلق الأمر بمسألة الاندماج الاجتماعي (Lintégration sociale) والاعتبارين اللذين سعا من خلالهما الرسول [، لتحقيق هذه الغاية، على الطريقة الإسلامية طبعا،، هما: من جهة تذويب الفوارق القبلية، والهويات القائمة على اعتبارات الدم والنسب والعشيرة، لصالح هوية جديدة تعلو فوق كل الهويات، هي هوية العقيدة بالنسبة للمسلمين فيما بينهم، وهوية المواطنة بالنسبة لسكان المدينة في عمومهم مسلمين، يهود كفار••• ومن جهة ثانية احترم الرسول [الحساسيات القبلية والروابط العائلية التي كانت مستحكمة في البنية الاجتماعية العربية، وذلك في الحدود التي لا تتناقض فيه مع الهوية الجديدة للأمة، وهكذا تحققت وحدة المدينة على المستوى المجالي واندماجها على المستوى الاجتماعي بعد أن كانت وحدات متفرقة وأحياناً متناحرة دون كيان ولا هوية•

ثالثاً: إنشاء المرافق الاجتماعية والاقتصادية:

تتمثل أهم هذه المرافق فيما يلي:

١- السوق: في إطار اهتمامه [بالجانب الاقتصادي والمعاشي للمسلمين، أنشأ لهم سوقاً خاصة بهم تحكمها شروط وأخلاقيات جديدة (الصدق ، تحريم الربا والاحتكار والغش في المكاييل) خلافا للأسواق التي كان يسيطر عليها اليهود ويفرضون فيها شروطهم (الخراج على المتاجرة، التعامل بالربا، الاحتكار) وقد اختار الرسول [مكانا قريبا من سوق بني قينقاع أقام فيه قبة كبيرة رمزا وعلامة يتجمع فيها المسلمون للاتجار فيها•

وقد اغتاظ اليهود من هذا التوجه الذي يروم الاستقلال الاقتصادي فقاموا بزعامة كبيرهم كعب ابن الأشرف بهدم القبة التي بناها الرسول الأكرم وقطعوا أطنابها•

بيد أن الرسول [لم يلتفت الى هذا السلوك الاستفزازي، وهذه المحاولة اليائسه من قبل عناصر اليهود المتعصبة، بل رد عليها عمليا فقال متحدثا عن كعب بن الأشرف وفعلته• >والله لا ضربن له سوقا هو أغيظ من هذا< >١٦< واختار مكانا فسيحا بأطراف المدينة بعيدا عن المحال السكنية (١٧) وذلك باقتراح من أحد الصحابة الذي قال للنبي [إني نظرت موضعا للسوق، أفلا تنظرون إليه؟ قال: >بلى< فقام معه [فلما رأه أعجبه وركض برجله عليه السلام وقال: >نعم سوقكم هذا ، فلا ينقصن ولا يضربن عليكم بخراج< (١٨) وقد ظلت هذه السوق طيلة عهد الرسول [وعهد الخلفاء الراشدين عبارة عن فضاء حر من دون بناء، يخضع في تدبيره لنظام >سنة المساجد< كما كان يقول الخليفة عمر]: >الأسواق على سنة المساجد، من سبق إلى مقعده فهو له حتى يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه< >١٩< ولم يبدأ البناء في الأسواق إلا على عهد معاوية بن أبي سفيان الذي سن تأجير أماكن السوق•

٢- الشوارع والطرقات: أولى الرسول [اهتماما كبيرا للطرقات باعتبارها مجالا لحركة الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية كما سبقت الإشارة، عمد الرسول [إلى ربط كل أحياء المدينة بالمسجد الجامع من خلال شوارع رئيسة تفرعت عنها طرق فرعية تمتد إلى مختلف التجمعات السكنية لتسهيل حركة المرور داخل المدن، وقد كان عرض الطرق الرئيسة يقدر بين أربعة وخمسة أمتار (٢٠) بينما عرض الطرق الفرعية كان يقدر بين مترين وثلاث أمتار (٢١)•

واعتبر الرسول [الطريق واجبا وحقا لكل مواطن فمن حيث هي واجب، فلضرورة المساهمة فيها عند الاقتضاء باعتبارها نوعا من الارتقاء كما يستخلص ذلك من حديث في الصحيحين رواه أبو هريرة أن الرسول [قال : >إذا اختلفتم في الطريق فاجعلوه سبعة أذرع< (٢٢) وأما من حيث هو حق فلأن استعماله مشاع بين الجميع ، وقد جعل الرسول [للطرق آداباً عامة، فقد أخرج أبو داود عن سهيل بن معاذ بن أنس

الجهنمي عن أبيه قال: >غزوت مع الرسول [غزوة كذا وكذا، فضيق الناس المنازل وقطعوا الطريق، فبعث نبي الله [مناديا ينادي في الناس ، من ضيق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له< (٢٣)، كما دعا الرسول [إلى إماطة الأذى عن الطريق، وبارك كل مساهمة في إصلاحها والاعتناء بها، جاء في سنن أبي داود عن ابن عمر أنه قال: >مطرنا ذات ليلة ، فأصبحت الأرض مبتلة فجعل الرجل يأتي بالحصى في ثوبه فيبسط تحته فلما قضى رسول الله [صلاته قال: ما أحسن هذا >كما أخرج مسلم من حديث أبي برزة قال: >قلت يا نبي الله علمني شيئا أنفع به، فقال ، اعزل الأذى عن طريق المسلمين<•

٣- المرافق العامة: استكمالا للعناصر الأساسية بالمدينة، أنشاء الرسول [مجموعة من المرافق ذات وظائف حيوية، منها ما يستجيب للحاجات الأمنية والدفاعية مثل إقامة معسكرات بضواحي المدينة لتدريب الجدد كمعسكر الجرف أو معسكر أسامة، ومنها ما يتسجيب للحاجات الاجتماعية كمقدار العلاج والتطبيب، حيث أقام الرسول [بعد رجوعه من غزوة الخندق خيمة بالمسجد لأجل التداوي، وقد كانت هذه المبادرة نواة ما سيعرف بالبيمارستانات، كما أقيمت دور الضيافة لاستقبال الوفود كان أهمها دار عبدالرحمن بن عوف•

واتخذت مواضع لقضاء الحاجات تسمى >المناصع< واختيرت مواضع للذبح بعيدا عن السكان، وعين مكاناً لصلاة العيد >المصلى<(٢٤)•

هذه هي أهم المنجزات العمرانية التي تحققت في المدينة المنورة بعد مقدم الرسول الأكرم [إليها، بيد أن المدينة، أي مدينة ، لاتستكمل شروطها وعناصرها من خلال جوانبها المادية فقط، التي رغم أهميتها، تبقى مجرد هياكل جامدة ما لم تلتحم بها الجوانب الإنسانية في أبعادها الثقافية والنفسية، وهذه الأبعاد هي التي اهتم بها رسول الله [في تنظيمه للحياة العامة في المدينة وذلك من خلال العناصر التنظيمية•

العناصر التنظيمية

بالموازاة مع الإنشاء المادي لعناصر المدينة، اشتغل الرسول [بالجانب التنظيمي باعتباره الإسمنت الذي يربط بين تلك العناصر، بل الأساس الذي عليه ترتكز وبه تشتغل• ويتمثل هذا الجانب التنظيمي في الإجراءات التي اتخذها عليه السلام عند قدومه إلى المدينة في إطار النهوض بها لتصبح النواة الصلبة للدولة الإسلامية وقاعدة انطلاقها• ومن بين أهم هذه الإجراءات•

أولاً: تغيير اسم المدينة: لعل من اللافت للانتباه أن من بين ما قام به الرسول [في المدينة تغيير اسمها من >يثرب< إلى >المدينة المنورة< فقد جاء في كتب السيرة أن النبي [أمر بإهمال اسم >يثرب< وحث على استعمال اسم >المدينة المنورة< بدلا منه، كما نسبوا إليه في هذا الصدد قوله: >يقولون يثرب وهي المدينة< وكان عليه الصلاة والسلام لا يذكر كلمة >يثرب< أبدا، ويذكر أيضاً أن محمد بن الحسن بن ذبالة المعروف بالمديني نسبة إلى المدينة المنورة، روى أن النبي [قد نهى عن استعمال اسم >يثرب<، وتذهب بعض المصادر إلى أن مجرد استعمال كلمة >يثرب< يعد خطيئة حيث روى الإمام أحمد حديثا جاء فيه: >من سمى المدينة >يثرب< فليستغفر الله ثلاثا<(٢٥)•

لايتعلق الأمر هنا بمجرد إجراء شكلي أو مزاجي حاشاه [بل إنها خطوة أساسية في الاستراتيجية التغييرية للرسول [تترجم عمق التحول الذي ينشده•

فاسم المدينة هو عنوانها الذي يختزل خصائصها التاريخية والثقافية والاجتماعية والنفسية وبالتالي فإن تغيير هذا العنوان هو محاولة لتغيير هويتها كما تتمثلها الذاكرة الجماعية لساكنيها• من هنا فإن إعطاء اسم جديد للمدينة هو إيذان بميلاد مرحلة جديدة بخصوصيات جديدة، ومنذ البداية عمل الرسول [على أن يتكرس هذا التوجه الجديد في الأذهان على اعتبار أن أي وحدة مجالية (الحي، المدينة أو القبيلة، الوطن••) لكي يكون لها كيان ووجود حقيقي لابد من أن يشعر مواطنوها بقوة الانتماء إليها، وبالاندماج الكامل فيها، بغير هذا الشعور بالانتماء وبغير هذا الاندماج، لن يتأتى للمواطن أن يكون فاعلاً ومعطاء داخل مجاله، وأزمة المدن المعاصرة اليوم تتمثل في

أن فئات عريضة من ساكنيها تعيش وضعية التهميش وبالتالي تجد نفسها في حالة غربة قاتلة، إذ لا تكاد تجمعها بمحيطها أية رابطة حميمية غير رابطة العلاقات المادية الجافة•

وتكرسا لهذا الاتجاه الذي يصب نحو مزيد من الالتحام والتآلف بين الإنسان والمجال، وبين الإنسان والإنسان، كانت عملية المواخاة بين المسلمين عامة، والمهاجرين والأنصار خاصة وكانت عملية الموادعة بين المسلمين وغيرهم من مكونات المجتمع الإسلامي الأخرى خاصة اليهود•

ثانياً: المواخاة: فضلا على أن هذا الحدث سجل لأروع النماذج على مدار التاريخ الإنساني في التضحية من أجل المبادئ والمعتقدات (من طرف المهاجرين)، وفي الإيثار ونكران الذات (من جانت الأنصار)، فإنه يشهد على عبقرية الرسول [في مواجهة الحالات الصعبة والمواقف الحرجة، فقد كان من شأن الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة أن تنجم عنها اختلالات كبيرة على المستويات الاجتماعية والاقتصادية بسبب التدفق المفاجئ للمهاجرين على المدينة، على نحو أدى الى ارتفاع محسوس لساكنتها في وقت وجيزلا يسمح بالاندماج التام للعناصر الجديدة في نسيجها العمراني والاجتماعي، امام هذا الوضع كيف تصرف الرسول [ليتفادى أزمة حقيقية كانت توشك أن تقع في المدينة على مستوى السكن، وعلى مستوى التشغيل، وعلى مستوى الاندماج النفسي والاجتماعي للوافدين الجدد في محيطهم الجديد••• كان لجوء الرسول [بتتأييد وتوفيق من ربه إلى عملية الموآخاة هو الحل المناسب لتلك اللحظة التاريخية الدقيقة في حياة المسلمين، وقد استهدفت تلك العملية•

اولاً: تقسيم العبئ الاجتماعي وتفتيته ليتخذ شكل حالات فردية عوض أن يكون ظاهره مجتمعية عامة، وهذا ما مكن من تجاوزه والتغلب عليه في ظرف وجيز بدل أن يصبح ظاهرة تستفحل مع الزمن• فالأنصار تحملوا إخوانهم بكل طواعية، بل تنافسوا على استضافتهم حتى اقترعوا فيما بينهم من أجل ذلك والمهاجرون من جهتهم لم يستغلوا هذا الكرم ولم يعيشوا عالة على إخوانهم، بل إنهم قبلوا هذه الوضعية فقط

كمرحلة استثنائية وانتقالية، إذ سرعان ما استطاعوا الاستقلال بأنفسهم بعد أن وظفوا مهاراتهم في المجال التجاري وأصبحوا عناصر فاعلة في أسواق المدينة، وبذلك شكلوا قيمة مضافة في اقتصادها على اعتبار أن الأنصاركانوا أهل زرع وضرع والمهاجرين أهل شراء وبيع، وبذلك كمل بعضهم بعضا، حيث ملأ المهاجرون فراغا كان يستغله اليهود في أسواق المدينة كتجار ومرابين•

ثانياً: فضلا عن هذا الهدف الاجتماعي ذو البعد المادي كان لعملية الموآخاة هدف معنوي تربوي يتمثل في تجسيد معاني التكافل والتضامن بين المسلمين وفي بداية تنزيل التورات الجديدة التي جاء بها الإسلام عن العلاقات الإنسانية وعن المال••

ثالثاً: الموادعة: كان هاجس بناء ورص >الجبهة الداخلية< لدولة المدينة حاضرا بقوة في الاستراتيجية التنموية التي قادها الرسول [منذ وصوله إلى المدينة، لذلك عمل على إقرار دستور متكامل في حينه ينظم العلاقات ويحدد حقوق وواجبات كل الحساسيات التي كانت تكون المجمع المدني، فبالإضافة إلى المسلمين الذين يتشكلون من الأنصار (الأوس والخزرج) والمهاجرين، كان هناك المشركون (الأوس والخزرج) واليهود، والأعراب الذين كانوا يعيشون على تخوم المدينة، وإذا كان الرسول [قد اطمأن إلى الجبهة الإسلامية من خلال عملية الموآخاة، فإنه لأجل احتواء أو ضبط العناصر الأخرى خاصة اليهود، ويأمن جانبهم، عمل على موادعتهم >لتكون المدينة كلها، مسلمها وكافرها يدا في يد أمام الأعداء من الخارج< (٢٦)، ومجمل مانصت عليه هذه المعاهدة/ الموادعة (٢٧):

> للجماعة الإسلامية شخصية دينية سياسية مستقلة بها•

> الحرية الدينية مكفولة للجميع مالم يحصل من طرف ظلم أو إثم•

> يتعاون سكان المدينة من مسلمين وغيرهم ماديا وعسكرياً وأدبيا، في الدفاع عن أي عدوان خارجي•

> رسول الله [هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة وإليه يرجعون في كل ما يختلفون فيه•

> الأمة تضم الجماعة التي تعتقد عقيدة واحدة بصرف النظر عن اعتبارات القرابة أو الأرض أو النسب أو اللغة••• فالمسلمون يؤلفون أمة واحدة واليهود يؤلفون أمة واحدة••• وتألف هذه الأمة كلها المجتمع الإسلامي الذي يخضع لنظام الإسلام•

الخلاصة:

من خلال ماسبق يتبين أن أسس المدينة النبوية قامت على أبعاد متعددة، وراعت كل الاعتبارات المتصلة بحياة الإنسان العامة والخاصة الكفيلة بتوفير الظروف المناسبة له ليمارس رسالته وينهض بالمسؤولية المنوطة به من قبل الله تعالى في عمارة الأرض ونمائها، والانطلاق في أرجائها لإشاعة قيم ومعاني الخير والحق والعدل والسلام، وليساهم في تشييد صرح الحضارة الإنسانية•

وإذا كانت مجموعة من المدن والحواضر على امتداد العالم ترزح، في ظل العولمة المعاصرة تحت وطأة أزمات حادة تجد تجلياتها في تفاقم الفوارق الاجتماعية وفي استفحال معضلة البطالة والتهميش وفي أزمة تلوث البيئة وفي تدهور الجانب الأمني••• فإن وضعيتها هذه ليست إلا ترجمة لفقدان المدينة لمجموعة من وظائفها (الاجتماعية•• التربوية••) مما أدى إلى اختلال التوازن بين عناصرها نجمت عنه هذه الأزمات القاتلة التي تعاني منها اليوم•

الهوامش والمراجع

١- د• أسامة عبدالمجيد عبدالعاني: >رؤية اقتصادية لأول وثيقة سنها الرسول [في الإسلام< مجلة الإسلام اليوم (إسيسكو) العدد ١٣-١٤١٦هـ ١٩٩٥/• ص: ٢٠

٢- نستثني هنا طبعا الاعتبارات المباشرة والمعروفة والمتمثلة بالخصوص في ترحيب أهل المدينة بالرسول [وأصحابه بعد بيعتهم له (بيعة العقبة الأولى والثانية)•

٣- د• إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية: دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري• المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع ١٤٠٣هـ ١٩٨٣/م الطبعة الأولى، ص: ١٢٤ •

٤- محسن خليل: في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي• دار الرشيد للنشر• (١٩٨٢) ص٣٨

٥- العمري، أكرم ضياء: المجتمع المدني في عهد النوة: خصائصه وتنظيماته الأولى• الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٩٨٣، أورده د• أسامة عبدالمجيد مرجع سابق ص، ١٨

٦- محسن خليل: مرجع سابق ص: ٤٨

٧- د• إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية، مرجع سابق ص: ١٠٤

٨- مكان مخصص لتجفيف التمر

٩- د• سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة دار الفكر الطبعة الثامنة (١٤٠٠/١٩٨٠) ص١٩٤

١٠- منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية: دار الآمان الطبعة الثالثة (١٩٨٧) ص: ٢١٦ •

١١- محمد عبدالستار عثمان: المدينة الإسلامية• سلسلة عالم المعرفة (١٢٧) (١٤٠٨/١٩٨٨) ص:٥٨ •

١٢- أسامة بن زيد عن معاذ بن عبداللّه بن خبيب عن جابربن أسامة الجهني عن عبدالحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية• ص٧٦ •

١٣- محمد عبدالستار عثمان: المدينة الإسلامية، مرجع سابق ص٥٤

١٤- محمد عبدالستار عثمان: المدينة الإسلامية مرجع سابق ص ٥٤

١٥- جميل عبدالقادر أكبر: عمارة الأرض في الإسلام: مقارنة الشريعة بأنشطة العمران الوضعية، مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة (١٤١٩/١٩٩٨) ص١٨٢

١٦- د• أسامة عبدالمجيد عبدالعاني: >رؤية اقتصادية<: مرجع سابق ص: ٢٣

١٧- محمد عبدالستار عثمان: المدينة الاسلامية• مرجع سابق ص:٤٥

١٨- روى ابن ماجة نحوه في كتاب التجارات باب الأسواق ودخولها بسند فيه ضعف• أورده خالد مصطفى عرب: تخطيط وعمارة المدن الإسلامية• كتاب الأمة عدد ٥٨ (١٤١٨) ص: ٥٤

١٩- السمهودي: وفاء الوفاء: ج الثاني ص: ٧١٨ عن محمد عبدالستار: المدينة الإسلامية• مرجع سابق ص ٢٥٤ •

٢٠- السمهودي: وفاء الوفاء•• مرجع سابق ص: ٥٩

٢١- مصطفى صالح لمعى: المدينة المنورة: تطورها العمراني وتراتها المعماري• دار النهضة العربية (١٩٨١)ص ٣٢/٣٣ أورده دم - يحى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة• كتاب عالم المعرفة عدد ٣٠٤ ص ٤٥ (١٤٢٥/٢٠٠٤) •

٢٢- رواه الجماعة إلا النسائي• وفي لفظ لأحمد: إذا أختلفوا في الطريق رفع بينهم سبعة أذرع•

٢٣- أبو داود، كتاب الجهاد•

٢٤- لمزيد من التفاصيل أنظر محمد عبدالستار عثمان: المدينة الإسلامية• مرجع سابق ص: ٦٠

٢٥- توفيق الشنتوفي: >المدينة في الحضارة العربية الإسلامية< مجلة الحوار عدد ٧ السنة الثانية (١٩٨٧) ص: ١٠٥ •

٢٦- محمود شاكر: التاريخ الإسلامي• المكتب الإسلامي• الطبعة السابعة (١٤١١هـ) ج١/٢ ص: ١٦١ •

٢٧- محمود شاكر: المرجع السابق: ص١٦٤ •

الهجرة النبوية ومنعطف التاريخ

(الشبكة الإسلامية) أ.د/ أكرم ضياء العمري (خاص للشبكة)

تطلق "الهجرة" على الترك والتخلي عن الشيء ، فالمهاجر من هجر ما نهى الله عنه - كما في الحديث الشريف - ، وهي بهذا المعنى مطلقة من قيود الزمان والمكان ، إذ بوسع كل مسلم أن يكون مهاجراً بالالتزام بأوامر الله والهجر للمعاصي .

لكن الهجرة النبوية تتعلق بترك الموطن والانخلاع عن المكان بالتحول عنه الى موطن آخر ابتغاء مرضاة الله رغم شدة تعلق الانسان بموطنه وألفته للبيئة الطبيعية والاجتماعية فيه ، وقد عبّر المهاجرون عن الحنين الى مكة بقوة وخاصة في أيامهم الأولى حيث تشتد لوعتهم .

وتحتاج الهجرة الى القدرة على التكيف مع الوسط الجديد "المدينة المنورة" حيث يختلف مناخها عن مناخ مكة فأصيب بعض المهاجرين بالحمى ، كما يختلف اقتصادها الزراعي عن اقتصاد مكة التجاري ، فضلاً عن ترك المهاجرين لأموالهم ومساكنهم بمكة . لكن الاستجابة للهجرة كانت أمراً إلهياً لابد من طاعته ، واحتمال المشاق من أجل تنفيذه . فقد اختار الله مكان الهجرة ، كما في الحديث الشريف "رأيت في المنام أني أهاجر من مكة الى أرض بها نخل ، فذهب وهلي الى أنها اليمامة أو هجر ، فاذا هي المدينة يثرب" .

وما أن بدأ التنفيذ حتى مضت مواكب المهاجرين تترى نحو الموطن الجديد .. دار الهجرة .. وقد شاركت المرأة في حدث الهجرة المبارك منهن أم سلمة هند بنت أبي أمية التي تعرضت لأذى بالغ من المشركين الذين أرادوا منعها من الهجرة ثم استلوا ابنها الرضيع منها حتى خلعوا يده ..

لكنها صممت على الهجرة ونجحت في ذلك رغم الاخطار والمصاعب . وخلدت أسماء بنت أبي بكر ذكرها في التأريخ وحازت لقب ذات النطاقين عندما شقت نطاقها نصفين لتشد طعام المهاجرَين ، رسول الله ﷺ و أبي بكر رضي الله عنه وقد تتابعت هجرة النساء في الاسلام حتى شرعت في القرآن { إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن} – الممتحنة ١٠ – ونزلت الآيات الكريمة تأمر بالهجرة وتوضح فضلها منذ السنة التي وقعت فيها لغاية سنة ٨هـ عند أوقفت الهجرة بعد فتح مكة واعلان النبي ﷺ ذلك بقوله (لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة وإذا استنفرتم فانفروا) .

والأمر بالهجرة الى المدينة لأنها صارت مأرز الايمان وموطن الاسلام ، وشرع فيها الجهاد لمواجهة الاعداء المتربصين بها من قريش واليهود والأعراب ، فكان لابد من

إمدادها بالطاقة البشرية الكافية مما يفسر سبب نزول القرآن بهذه الآيات الواعدة للمهاجرين : { إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله} – البقرة ٢١٨ – {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة} – النحل ٤١ – {ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة} – النساء ١٠٠ – .

وقد حاز المهاجرون شرفاً عظيماً في الدنيا فضلاً عن ثواب الله ووعده الكريم ، فقد اعتبروا اهل السبق في تأسيس دولة الاسلام فنالوا رضى الله والقربى منه {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم } – التوبة ١٠٠ – . وهكذا خلد الله ذكرهم في القرآن الذي يتعبد المسلمون بتلاوته الى آخر الزمان .

الهجرة من سنن الأنبياء عليهم السلام

لم يكن النبي ﷺ أول نبي يهاجر في سبيل الله بل مرّ بهذا الامتحان كثير من الانبياء .. وقد أخبرنا الله تعالى بأن ابراهيم عليه السلام هاجر من موطنه الى مصر وغيرها داعياً الى التوحيد ، وأن يعقوب و يوسف عليهما السلام هاجرا من فلسطين الى مصر وأن لوطاً هجر قريته لفسادها وعدم استجابتها لدعوته . وأن موسى عليه السلام هاجر بقومه من مصر الى سيناء فراراً بدينه من طغيان فرعون .

وهكذا فان الهجرة من سنن النبيين ، وقد كانت هجرة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة لهجرات النبيين . وكانت نتائجها عميقة شكلت منعطفاً تاريخياً حاسماً .

المنعطف الحاسم

لقد أدت الهجرة الى قيام دولة الاسلام في المدينة ، والتي أرست ركائز المجتمع الاسلامي على أساس من الوحدة والمحبة والتكافل والتآخي والحرية والمساواة وضمان الحقوق ، وكان الرسول ﷺ هو رئيس هذه الدولة وقائد جيوشها وكبير قضاتها ومعلمها الأول . وقد طبق الرسول ﷺ شريعة الاسلام ، وكان القرآن ينزل بها منجماً ، فكان الصحابة يدرسون ما ينزل ويطبقونه على أنفسهم ، ويتعلمون

تفسيره وبيانه من النبي ﷺ فتكون جيل رباني تمكن من الجمع بين عبادة الله وعمران الحياة وعمل تحت شعار : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وفي خلال عقد واحد توحد معظم الجزيرة العربية في ظل الإسلام ، ثم انتشر في خلال عقود قليلة تالية ليعم منطقة واسعة امتدت من السند شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً حيث آمن الناس بالاسلام ، واستظلوا بشريعته العادلة واقاموا حضارة زاهرة آتت أكلها قروناً طويلة في حقول التشريع والتربية وعلوم الكون والطبيعة.

الهجرة النبوية.. عطاء بلا حدود وعزيمة لا تعرف اليأس

تمهيد

ونحن نستقبل عاماً هجرياً جديداً تطالعنا الآمال في نهوض الأمة الإسلامية من كبوتها وعثراتها لتقوي علي التصدي للتحديات والأزمات التي تواجهها وما أكثرها في عالم اليوم المليء بالصراعات.

ولقد ضرب صحابة المصطفي صلي الله عليه وسلم الذين هاجروا معه أروع المثل في صنع تاريخ الأمة وكيانها ومكانتها من خلال عطائهم بلا حدود وشجاعتهم وصمودهم بعزيمة لاتلين ولاتعرف اليأس.. فواجهوا بكل ثبات وقوة كل التحديات وانتصروا عليها.. وحققوا بطولات رائعة سجلها لهم التاريخ بأحرف من نور.. فهل تستفيد الأمة الإسلامية من بطولات هؤلاء الرجال ومن دروس هؤلاء العظماء!!

الهجرة الآن ليست مجرد نقله من مكان إلي مكان.. لأن النبي صلي الله عليه وسلم قال: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية".. والهجرة المطلوبة الآن.. هي نقلة بالنفس الإنسانية من طبيعة النفس الأمَّارة بالسوء إلي مرتبة النفس اللوَّامة التي تفتش في مسيرة حياتها لتتجنب عوامل الضعف وأسباب الانحراف حتي ترقي إلي مرتبة النفس المطمئنة التي تنادي من قبل الحق تبارك وتعالي "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلي ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي".

المنهج الإلهي

أضاف أن الهجرة علي المستوي الاجتماعي اليوم تعني النقلة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلي آفاق المنهج الالهي الذي أنزل الله عز وجل ليقوم الناس بالقسط وكلا النوعين النقلة النفسية والنقلة الاجتماعية هي التطبيق العملي لقول الله تبارك وتعالي "ففروا إلي الله إني لكم منه نذير مبين".

أوضح أن الفرار إلي الله عز وجل لايكون إلا بنصرة دينه والالتزام بمنهجه والدفاع عن الحق وصون المقدسات وحماية كرامة الإنسان.. ومن هنا كان الجهاد فريضة إسلامية ماضية إلي يوم القيامة لردع المعتدين ورد الظالمين وتحطيم هيمنة الاستكبار الشيطاني علي البشر.. وإن هذه هي رسالتنا في عالم اليوم ونحن نستشرف العام الهجري الجديد.

الصحوة الإسلامية

تأتي ذكري الهجرة هذا العام. في وقت ساءت فيه أوضاع الأمة إلي درجة لم يسبق لها مثيل في تاريخها الطويل. هذا علي المستوي الرسمي. أما علي المستوي الشعبي. أو السواد الأعظم في حياة الشعوب الإسلامية وتبوأ الإسلام سمعة مدوية تحطم كل السدود والقيود والعقبات الموضوعة في طريق الدعوة ففيها عزاء جميل. ونهضة مبشرة بانتصار عزيز.. فالصحوة الإسلامية المعاصرة آخذة في النمو. وبخاصة في أروقة الشباب المتطلع إلي فجر جديد. يكتسح كل الظلمات. وهي أملنا الوحيد في انقاذ الأمة من الهاوية التي جرها فيها أعداؤها بعد أن أحكموا قبضتهم عليها بعوامل التخويف أو التزييف. فأفقدوا أمراءها الإرادة ووضعوا في أعناقهم القلادة. لا ليتزينوا بها. ولكن ليسهل علي الأعداء خنقهم في أية لحظة أرادوا.

أضاف أن هجرة الرسول وصحبه من مكة إلي المدينة تذكرنا بأن تحقيق النصر لابد فيه من الأخذ بالأسباب التي وضعها الله في أيدي البشر. ومحال أن يهب الله نصراً لخامل أو كسول أو جبان. لم ينفض غبار الذل والهوان والضعف عن نفسه. ولم يخط خطوة واحدة نحو كسب المعالي والذود عن العزة والكرامة بإعداد القوة للأعداء. والتدريب الجيد مادياً ومعنوياً وهو المشار إليه من قوله تعالي:

"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم".

أن الإعداد المادي يكون بإعداد السلاح المناسب لردع كل عدوان. والقدرة الماهرة علي استعماله والإعداد المعنوي يكون بقوة الإيمان. وإخلاص العمل لله. وإيثار الآخرة الباقية. علي الدنيا الفانية ثم يأتي بعد ذلك نصر الله مكافأة لمستحقي النصر "وكان حقاً علينا نصر المؤمنين" ينصر الله المؤمنين الذين أخذوا بالأسباب. علي النحو الذي تقدم وإن اجتمعت عليهم الدنيا بأقطارها ومهما قل المؤمنون ومهما كثر خصومهم. فالله وحده هو الغالب علي أمره: "إن ينصركم الله فلا غالب لكم" "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم".

أشار إلي أن هذا ما صنعته الأمة في أول عهدها بقيادة رسولها الكريم. من الهجرة. وفي غير الهجرة. فتساقطت أمامها عروش. وهوت تحت أقدامها التيجان كما تتساقط وتتهاوي حبات العقد النظيم إذا انفرط نظامها.

الأخذ بالأسباب

قال إنه في الهجرة ضرب الرسول وأصحابه أروع الأمثال في الأخذ بالأسباب. والتضحية بكل غال ونفيس فمكنهم الله في الأرض. ورد عنهم كيد أعدائهم فأقاموا دولة شامخة في الأرض أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.. والأمة في هذا العصر لن تفك أسرها من أيدي أعدائها إلا بالسير علي الدروب التي ساروا فيها بأن توحد صفها وتجمع أمرها علي قلب رجل واحد وتمحو عوامل التفرق التي فرقتها وشتتتها وهونتها علي أعدائهم.. تأخذ جادة بالأسباب في فقه الدنيا وطرق استثمار الطاقات. وفي فقه الدين. فتقيمه وتعمل به. كما أراد الله.. لا كما أراد منهم أعداء الله المعاصرون.

وأن يكون ولاؤها الخالص لله تبغي رضاه. وتخشي سخطه. رغم أنف أعداء الله مهما كانت مواقعهم. فهم أمام الله إذا أصلحنا علاقاتنا به تراب فوق التراب.

أشار إلي أنه لابد. وبكل حزم وعزم. من إحلال وتجديد في حياتنا. فقد جـدَّ الأمـر وأحدقت بها الأخطار. ولابد لنا من تغيير ما بأنفسنا نحو الصلاح والاصلاح. حتـي يغير الله مابنا من ضعف وهوان.. ليستخلفنا الله في الأرض كما استخلف الذين مـن قبلنا.. وليمكننَّ الله لنا ديننا الذي ارتضاه لنا.

وليبدلننَّا من بعد خوفنا آمناً.

حركة ونهوض

الهجرة انطلاق لبناء أمة وتكوين مجتمع وتشكيل حضارة وصياغة قيم وإعداد أجيال وإنارة طريق وتخطيط لمستقبل وإنجاز لإيجاد مباديء ومثل.. كل هذا وذاك يجعلنـا في مقدمة الصف مواجهين تحديات كثيرة متعـددة ومتنوعـة لأن الهجـرة حركـة ونهوض ويقظة وصحوة ولأن الهجرة لم تأت خـبط عشـوائي ولـم تكـن مجـرد مصادفة.. بل من أول يوم من أيام الوحي كان للهجرة وجود كبير وأثر عظيم.

أضاف أن ذلك الأثر صنع للأمة تاريخها وكيانها ومكانها ومكانتها من خلال صحابة رسول الله الذين شرف بهم الزمن.. قوة وسخاء كرماً وبذلاً وعطاء..

أوضح أن الهجرة علمتنا كيف نواجه التحديات بثبات ونحن كالجبال الشـمم العاليـة والرواسي الشامخات.. والهجرة دواء قوي يعالج أدواء المجتمع من فرقـة وتمـزق وضعف وفقر ومرض وجهل وأمية ثقافية تستشري في المجتمع.. وهي أيضاً بـاب فسيح ونافذة مستنيرة من أجل أن تكون لنا ثقافة واعية ووعي ثقافي.. قال: إنه ممـا لاشك فيه أن الهجرة واجهت تحديات حولت العالم من جمود إلي حركة ومن فوضي إلي نظام ومن مهانة حيوانية إلي كرامة إنسانية.. نعم أيها إنسانية الكرامـة وحركـة العالم الذي هو مليء بالأحقاد والكراهية وسفك الدماء والصراعات اللامتناهية والدمار والأطماع البشرية.. هذه تحديات لابد وأن نقف أمامها بقوة وشجاعة وصـلابة رأي في غير تطرف أو عصبية أو دمار لمن حولنا.

أوضح أن الهجرة دروس وعبر وقيم ومباديء ومثل.

* جريدة المساء

الهجرة النبوية

الهجرة النبوية

الحمدُ لله وكفى، وسلامٌ على عبادِهِ الذينَ اصطفى، الحمدُ لله الواحدِ الأحد الفرْدِ الصمد الذي لم يلدْ ولم يولدْ ولم يتخذْ صاحبةً ولا ولدًا.

أحمدُهُ وأستعينهُ وأستهديهِ وأشكرهُ له المنَّةُ ولهُ الفضلُ ولهُ الثناءُ الحَسَنُ، لكَ الحمدُ ربَّنا على ما أنعمْتَ علينا، الحمدُ للَّه الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله.

والصلاةُ والسلامُ على سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وقائدنا وقرَّةِ أعيننا محمَّد، بعثَهُ الله رحمةً للعالمين مبشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنهِ وسراجًا وهَّاجًا وقمرًا منيرًا، فهدَى الله بهِ الأمَّةَ وكشَفَ بهِ عنها الغُمَّة فجزاهُ الله عنا خيرَ ما جزى نبيًّا من أنبيائهِ.

وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله الملكُ الحقُّ المبين، وأشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا رسولُ الله الصادقُ الوعدِ الأمين، صلواتُ ربي وسلامهُ عليهِ وعلى ءالهِ وصحبهِ الطيبين الطاهرين.

أما بعدُ أيها الأحبةُ المسلمون:

فإني أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله العظيم، والسيرِ على خُطى رسولهِ الكريم، يقولُ الله تَبَارَكَ وتعالى في القرءانِ الكريم:} إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا{[سورة التوبة].

إخوةَ الإيمان:

لَمَّا بُعِثَ رسولُ الله أي نزلَ عليهِ الوحيُ أُمِرَ بالتبليغِ والإنذارِ بلا قتالٍ، وكانَ يدعو إلى الله جهرًا ويمرُّ بينَ العربِ المشركينَ حينَ كانوا يجتمعونَ في الموسمِ من نَوَاحٍ شتَّى ويقولُ: "أيُّها الناسُ قولوا لا إلهَ إلا الله تُفلِحوا". ودعا النبيُّ إلى العدْلِ والإحسانِ ومكارمِ الأخلاقِ ونهى عنِ المنكر والبغي فآمَنَ بهِ بعضُ الناسِ كأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍ وبلالٍ وغيرِهم، وبقيَ على الكفرِ أكثرُ الناسِ، وصاروا يُؤذونَهُ وأصحابَهُ، فلمَّا اشتدَّ عليهمُ الأذى هاجرَ بعضُ أصحابِ النبيّ إلى الحبشةِ وكانوا نحوَ الثمانينَ، منهُم عثمانُ بنُ عفَّانَ وجعفرُ بنُ أبي طالبٍ، وكانَ رسولُ الله لقِيَ في

الموسمِ نَفَرًا من أهلِ يثربَ من الخزرجِ فدعاهم إلى الإسلامِ فأسلموا، ثمَّ ازدادَ عددُهم في العامِ التالي فلمَّا انصرَفوا بعثَ معَهُم رسولُ الله ابنَ أمّ مكتومٍ ومُصعبَ بنَ عُمَيرٍ يُعلّمانِ الناسَ منْ أسلَمَ منهم القرءانَ، ويدعوانِ من لم يُسْلِمْ إلى الإسلامِ.

فلمَّا كثُرَ أنصارُ رسولِ الله بيثربَ أمر الله المسلمينَ بالهجرةِ إليها فخرجوا أَرْسالا، ثمَّ هاجرَ النبيُّ من مكةَ مَحَلِ ولادتهِ التي كانتْ أحَبَّ بلادِ الله إليهِ يتحمَّلُ المشاقَّ في سفرِهِ مَعَ أبي بكرٍ بعدَ أنْ أقامَ في مكةَ منذُ البِعثةِ ثلاثَ عَشْرةَ سنةً يدعو إلى التوحيدِ ونبذِ الشِرْكِ.

إخوةَ الإسلام:

لم تكن هجرةُ الرسولِ هرَبًا من المشركينَ ولا يأسًا من واقعِ الحالِ، ولم تكُنْ هجرتُهُ حُبًّا في الشُّهرةِ والجاهِ والسُّلطانِ، فقد ذهبَ إليهِ أشرافُ مكةَ وسادَاتُها وقالوا لهُ: "إنْ كنتَ تريدُ بما جئتَ بهِ مالا جمعنا لكَ من أموالنا حتى تكونَ أكثرَنا مالا، وإنْ كنتَ تريدُ مُلكًا مَلَّكْناكَ إيَّاهُ".

ولكنَّ النبيَّ العظيمَ أسمى وأشرفُ من أنْ يكونَ مقصودَهُ الدنيا والجاهُ والسلطانُ.

ولم تكُنْ هجرتُهُ التماسًا للهدوءِ وطلَبًا للراحةِ، فهو يعلَمُ يقينًا أنها دعوةُ حقٍّ ورسالةُ هدى لا بُدَّ أنْ يُؤَديهَا كما أمرهُ الله؛ وهو لهذا يقولُ لعمِّهِ أبي طالبٍ حينَ أتاهُ يطلبُ منهُ الكفَّ عن التعرُّضِ لقومِهِ وما يعبُدونَ:

"والله يا عمُّ لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أنْ أتركَ هذا الأمرَ ما تركتُهُ حتى يُظهرَهُ الله سبحانَهُ وتعالى أو أَهلِكَ دونَهُ".

يا أحبابَ الحبيبِ:

لقد كانَ لهجرةِ الفاروقِ الذي فرَّقَ بينَ الحقِّ والباطلِ قِصَّةٌ شأنُها شأنُ كلّ قِصصهِ وأخبارهِ العَظيمةِ التي تدلُّ على حبّهِ لدينِ الله، واستبسالِهِ في سبيلِ الله، واستعدادِهِ للموتِ في سبيلِ نُصرْةِ الحقّ. ذلكَ أنَّهُ عندما جاءَ دورُ سيدِنا عمرَ بنِ الخطابِ قبلَ هجرةِ الرسولِ بسبعةِ أيامٍ، خرجَ مُهاجرًا وخَرجَ معهُ أربعونَ من المستضعفينَ جَمَعَهُم عمرُ في وضْحِ النهارِ وامتشَقَ سيفَهُ وجاءَ دارَ الندوةِ وهو مكانٌ تجتمعُ فيهِ قريشٌ

عادةً، فقالَ الفاروقُ عمَرُ لصناديدِ قُريشٍ بصوتٍ جَهيرٍ: "يا معشَرَ قُريشٍ، مـــن أرادَ منكم أنْ تُفْصلَ رأسُهُ أو تثكَلَهُ أمُّهُ أو تترمَّلَ امرأتُهُ أو يُيتَّمَ ولـــدُهُ أو تـــذهبَ نفســـهُ فليتبعني وراءَ هذا الوادي فإنِّي مهاجرٌ إلى يثربَ" فما تجرَّأَ أحدٌ منهم أنْ يحولَ دونَهُ ودونَ الهجرةِ لأنهم يعلمونَ أنَّهُ ذو بأسٍ وقوَّةٍ، وأنَّهُ إذا قالَ فعَلَ.

وكانَ مشركو قريشٍ قد أجمَعوا أمرَهم على قتْلِ رسولِ الله، فجمعوا من كـــلّ قبيلـــةٍ رجلا جَلْدًا نَسيبًا وَسِيطًا ليضربوهُ ضربةَ رجلٍ واحدٍ حتى يتفرَّقَ دمُهُ في القبائلِ.

فأتى جبريلُ رسولَ الله فأمرَهُ أنْ لا يبيتَ في مضْجَعهِ الذي كانَ يبيتُ فيـــهِ، وأخبـــرَهُ بمكرِ القومِ، فدعا الرسولُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ أنْ يَبيتَ على فراشِهِ و يتسجَّى بِبُرْدٍ لهُ أخضرَ، ففعَلَ ثم خرجَ رسولُ الله على القومِ وهم على بابِهِ ومَعَهُ حَفْنَةُ تُرابٍ، فجعَـــلَ يَذُرُّها على رؤوسِهِم، وأخَذَ الله عزَّ وجلَّ بأبصارِهم عن نبيّهِ، فلمَّا أصبحوا فإذا هـــم بِعَليّ بنِ أبي طالبٍ، فسألوهُ عنِ النبيّ فأخبرَهُم أنَّهُ خرجَ فركبوا في كلّ وجْهٍ يطلبونَهُ، وكانَ رسولُ الله ﷺ قد سارَ مَع أبي بكرٍ حتى وصَلاَ إلى غارِ ثوْرٍ فدَخَلاهُ، وجـــاءتِ العنكبوتُ ونسَجَتْ على بابِهِ، وجاءت حمامةٌ فباضَتْ ورقَدَتْ، فلمَّا وصـــلتْ رجـــالُ قريشٍ إلى الغارِ قالَ أبو بكرٍ: يا رسولَ الله لو أنَّ أحدَهم ينظرُ إلى قدَميهِ لأبصَـــرَنا تحتَ قَدميهِ، فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "يَا أبا بكرٍ ما ظَنُّكَ باثنينِ الله ثالثُهمـــا" وليسَ معنى ذلكَ أنَّ الله يسكنُ مَعَهُما في الغارِ، وإنَّما معناهُ أنَّ الله عالمٌ بهمـــا وهـــو حافظٌ لهما، أي أنَّ عنايةَ الله مَعَهُما، فمن اعتقدَ أنَّ الله يسكنُ في مكانٍ فهذا قد جعـــلَ الله كالمخلوقِ، والذي يجعلُ الله كالمخلوقِ فقد كذَّبَ القرءانَ، ومن كذَّب القـــرءانَ لا يكونُ من المسلمين.

ولمَّا وصلَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرةِ استقبَلَهُ المؤمنونَ بـــالفرَح، استبشَـــرَ الناسُ بقدومِ رسولِ الله، وسمَّى الرسولُ يثربَ المدينةَ المنوَّرةَ، وءاخى بينَ أهلِها أي الأنصارِ والمهاجرينَ، وبنى مسجدَهُ، وصارَ المسلمونَ عَلَى قَلْبِ رجلٍ واحدٍ لا يُفرِّقُ بينَهُم طمَعُ الدنيا ولا يُباعِدُ بينَهُم حَسَدٌ ولا ضَغينةٌ، مَثَلُهم كمَثَلِ البُنيـــانِ المرصـــوصِ

يشدُّ بعضهُ بعضًا، ومثلُهم في توادِهم وتراحُمِهم كمَثَلِ الجسَدِ الواحدِ إذا اشتكى منهُ عضوٌ تداعى لهُ سائرُ الجسدِ بالسّهَرِ والحُمَّى.

إخواني :

لقد كانتِ الهجرةُ إيذانًا بأنَّ صولَةَ الباطلِ مهما عظُمَتْ وقُوَّتَهُ مهما بلغَتْ فمصيرُها إلى الزاولِ ونِهايتُها إلى الفشَلِ والبَوارِ، وإيذانًا بأنَّ الحقَّ لا بدَّ لهُ من يومٍ تُحَطَّمُ فيهِ الأغلالُ وتعلو فيهِ رايتُهُ وتَرتفِعُ كلمتُهُ، وكيفَ لا والله سبحانَهُ وتعالى قد وعدَ المؤمنينَ بالنَّصرِ المبينِ وجعلَ لهم من الشدةِ فرَجًا ومن العُسرِ يُسْرًا ومن الضيقِ سَعَةً؛ قالَ تعالى: }إِنَّا لَنَنصرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ{ [سورة غافر].

إنَّ الدروسَ المستفادةَ من الهجرةِ كثيرةٌ، ومن جُمْلَتِها ضرورةُ الصَّبرِ على الشدائدِ والبلايا وكافةِ أنواعِ الظلمِ والاستبدادِ، والصمودُ في وجهِ الباطلِ، والثباتُ في ميدانِ الكفاحِ، والوقوفُ إلى جانبِ الحقّ في شجاعةٍ وحزْمٍ وصرامةٍ، وإنَّ بهجتنا بهذهِ الذكرى تمتزج بعزمنا على الاقتداء بصاحب الذكرى، والتمسك بهديه وعقيدته، والالتزام بشريعته، معلمين ومتعلمين، فهو القائل صلى الله عليه وسلم: "بلغوا عني ولو ءاية".

فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الموفقين للثبات حتى الممات على مَحَجَّةِ الإسلام البيضاء.

هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمدُ للَّهِ ربّ العالمين لهُ النّعمَةُ ولهُ الفضلُ وله الثناءُ الحسنُ وصلواتُ الله البَرّ الرَّحيم والملائكةِ المقربينَ على سيّدنا محمدٍ وعلى سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ وأهلِ بيتِه الطيّبينَ الطاهرينَ وسلامُ الله عليهم أجمعين. عِبَادَ الله أوصيكُم ونَفسيَ بِتَقوى الله.

واعلَموا أنَّ الله أمرَكُمْ بأمْرٍ عظيمٍ أمرَكُمْ بالصلاةِ والسلامِ على نبيه الكريم فقال }إِنَّ الله وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا{ اللهمَّ

صلّ على سيّدِنا محمَّدٍ وعلى ءالِ سيّدِنا محمَّدٍ كمَا صلّيتَ على سيّدِنا إبراهيمَ وعلى ءالِ سيّدِنا إبراهيمَ وبارِكْ على سيّدِنا محمَّدٍ وعلى ءالِ سيّدِنا محمَّدٍ كمَا بارَكْتَ على سيّدِنا إبراهيمَ وعلى ءالِ سيّدِنا إبراهيمَ إنّكَ حميدٌ مجيدٌ، يقول الله تعالى }يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ{ [سورة الحج].

اللهمَّ إنَّا دعوناك فاستجبْ لنا دعاءَنا فاغفرِ اللهمَّ لنا ذنوبَنا وإسرافنا في أمرنا اللهمَّ اغفرْ للمؤمنينَ والمؤمناتِ الأحياءِ منهم والأمواتِ (١) ربنَا ءاتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذاب النار اللهم اجعلنا هداةً مهتدين غير ضالين ولا مضلين اللهمَّ استر عوراتِنا وءَامِن رَوعاتِنا واكفِنا ما أهمَّنا وقِنا شرَّ ما نتخوف.

عباد الله}إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{ [سورة النحل]. وأقم الصلاة.

الهجرة حتى استقرار النبي ﷺ في المدينة

للسباعي رحمه الله

أ- الوقائع التاريخية

١- ... علمت قريش بإسلام فريق من أهل يثرب، فاشتد أذاها للمؤمنين بمكة، فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا مستخفين، إلا عمر رضي الله عنه، فإنه أعلم مشركي قريش بهجرته ، وقال لهم: من أراد أن تثكله أمه فليلحق بي غدا ببطن هذا الوادي، فلم يخرج له أحد.

٢- ... ولما أيقنت قريش أن المسلمين قد أصبحوا في المدينة في عزة ومنعة، عقدت مؤتمرا في دار الندوة للتفكير في القضاء على الرسول نفسه، فقرَّ رأيهم على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى جلدا، فيقتلوه جميعا، فيتفرق دمه في القبائل، ولا يقدر بنو مناف على حربهم جميعا، فيرضوا بالدية، وهكذا اجتمع الفتيان الموكلون بقتل الرسول ﷺ على بابه ليلة الهجرة ينتظرون خروجه ليقتلوه.

٣- ... لم ينم الرسول ﷺ تلك الليلة على فراشه، وإنما طلب من علي رضي الله عنه أن ينام مكانه، وأمره إذا أصبح أن يرد الودائع التي كان أودعها كفار قريش عنده إلى أصحابها، وغادر الرسول ﷺ بيته دون أن يشاهده الموكلون بقتله، وذهب إلى بيت أبي بكر، وكان قد هيأ من قبل راحلتين له وللرسول صلى الله عليه وسلم، فعزما على الخروج، واستأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط الدِّيلي وكان مشركا ليدلهما على طريق المدينة، على أن يتجنب الطريق المعروفة إلى طريق أخرى لا يهتدي إليها كفار قريش.

٤- ... خرج رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول لسنة ثلاث وخمسين من مولده عليه الصلاة والسلام، ولم يعلم بأمر هجرته إلا علي رضي الله عنه وآل أبي بكر رضي الله عنه، وعملت عائشة وأسماء بنتا أبي بكر في تهيئة الزاد لهما، وقطعت أسماء قطعة من نطاقها - وهو ما يشد به الوسط- فربطت به على فم الجراب - وعاء الطعام- فسميت لذلك: ذات النطاقين، واتجها مع دليلهما عن طريق اليمن حتى وصلا إلى «غار ثور»، فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف « حاذق» لقن « سريع الفهم»، فيخرج من عندهما بالسَحَر، ويصبح مع قريش بمكة كأنه كان نائما فيها، فلا يسمع من قريش أمرا يبيتونه لهما إلا وعاه حتى يأتيهما في المساء بخبره.

٥- ... قامت قيامة قريش لنجاة الرسول ﷺ من القتل، وخرجوا يطلبونه من طريق مكة المعتاد، فلم يجدوه واتجهوا إلى طريق اليمن، ووقفوا عند فم « غار ثور» يقول بعضهم: لعله وصاحبه في هذا الغار. فيجيبه الآخرون: ألا ترى إلى فم الغار كيف تنسج عليه العنكبوت خيوطها، وكيف تعشعش فيه الطيور، مما يدل على أنه لم يخل هذا الغار أحد منذ أمد، وأبو بكر رضي الله عنه يرى أقدامهم وهم واقفون على فم الغار، فيرتعد خوفا على حياة الرسول ﷺ ويقول له: والله يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا، فيطمئنه الرسول ﷺ بقوله: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟».

٦- ... أرسلت قريش في القبائل تطمع كل من عثر على الرسول ﷺ وصاحبه، أو قتله، أو أسره، في دفع مبلغ ضخم من المال يغري الطامعين، فانتدب لذلك سراقة بن جعشم ، وأخذ على نفسه أن يتفقدهما ليظفر وحده بالجائزة.

٧- ... بعد أن انقطع طلب رسول الله ﷺ وصاحبه، خرجا من الغار مع دليلهما وأخذا طريق الساحل « ساحل البحر الأحمر» وقطعا مسافة بعيدة أدركهما من بعدها سراقة، فلما اقترب منهما، ساخت قوائم فرسه في الرمل فلم تقدر على السير، وحاول ثلاث مرات أن يحملها على السير جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، عندئذ أيقن أنه أمام رسول كريم، فطلب من الرسول ﷺ أن يعده بشيء إن نصره، فوعده بسواري كسرى يلبسهما، ثم عاد سراقة إلى مكة فتظاهر بأنه لم يعثر على أحد.

٨- ... وصل الرسول ﷺ وصاحبه المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول وبعد أن طال انتظار أصحابه له، يخرجون كل صباح إلى مشارف المدينة، فلا يرجعون إلا حين تحمى الشمس وقت الظهيرة، فلما رأوه فرحوا به فرحا عظيما، وأخذت الولائد ينشدن بالدفوف:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

٩- ... كان الرسول ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة قد وصل إلى «قباء» وهي قرية جنوب المدينة على بعد ميلين منها، فأسس فيها أول مسجد بني في الإسلام، وأقام فيها أربعة أيام، ثم سار صباح الجمعة إلى المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فبنى مسجدا هناك وأقام أول جمعة في الإسلام، وأول خطبة خطبها في الإسلام، ثم سار إلى المدينة، فلما وصلها كان أول عمل عمله بعد وصوله أن اختار المكان الذي بركت فيه ناقته ليكون مسجدا له، وكان المكان لغلامين يتيمين من الأنصار، فساومهما على ثمنه، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى إلا أن يبتاعه منهما بعشرة دنانير ذهبا أداها من مال أبي بكر، ثم ندب المسلمين للاشتراك في بناء

المسجد، فأسرعوا إلى ذلك، وكان رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِن [الطوب]، حتى تم بناء المسجد جدرانه من لَبِن، وسقفه من جريد النخل مقاما على الجذوع.

١٠- ... ثم كان أن آخى المهاجرين والأنصار، فجعل لكل أنصاري أخا من المهاجرين، فكان الأنصاري يذهب بأخيه المهاجر إلى بيته، فيعرض عليه أن يقتسم معه كل شيء في بيته.

١١- ... ثم كتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وقد ذكر ابن هشام هذا الكتاب بطوله في سيرته، وهو يتضمن المبادئ التي قامت عليها أول دولة في الإسلام، وفيها من الإنسانية والعدالة الاجتماعية والتسامح الديني والتعاون على مصلحة المجتمع ما يجدر بكل طالب أن يرجع إليه ويتفهمه ويحفظ مبادئه.

... ونحن نذكر المبادئ العامة التي تضمنتها هذه الوثيقة التاريخية الخالدة:

١- ... وحدة الأمة المسلمة من غير تفرقة بينها.

٢- ... تساوي أبناء الأمة في الحقوق والكرامة.

٣- ... تكاتف الأمة دون الظلم والإثم والعدوان.

٤- ... اشتراك الأمة في تقرير العلاقات مع أعدائها لا يسالم مؤمن دون مؤمن.

٥- ... تأسيس المجتمع على أحدث النظم وأهداها وأقومها.

٦- ... مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام، ووجوب الامتناع عن نصرتهم.

٧- ... حماية من أراد العيش مع المسلمين مسالما متعاونا، والامتناع عن ظلمهم والبغي عليهم.

٨- ... لغير المسلمين دينهم وأموالهم، لا يجبرون على دين المسلمين ولا تؤخذ منهم أموالهم.

٩- ... على غير المسلمين أن يسهموا في نفقات الدولة كما يسهم المسلمون.

١٠- ... على غير المسلمين أن يتعاونوا معهم لدرء الخطر عن كيان الدولة ضد أي عدوان.

١١- ... وعليهم أن يشتركوا في نفقات القتال ما دامت الدولة في حالة حرب.
١٢- ... على الدولة أن تنصر من يظلم منهم، كما تنصر كل مسلم يعتدى عليه.
١٣- ... على المسلمين وغيرهم أن يمتنعوا عن حماية أعداء الدولة ومن يناصرهم.
١٤- ... إذا كانت مصلحة الأمة في الصلح، وجب على جميع أبنائها مسلمين وغير مسلمين أن يقبلوا بالصلح.
١٥- ... لا يؤاخذ إنسان بذنب غيره، ولا يجني جان إلا على نفسه وأهله.
١٦- ... حرية الانتقال داخل الدولة وخارجها مصونة بحماية الدولة.
١٧- ... لا حماية لآثم ولا لظالم.
١٨- ... المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.
١٩- ... هذه المبادئ تحميها قوتان:
قوة معنوية، وهي: إيمان الشعب بالله ومراقبته له، ورعاية الله لمن [عاهد] ووفى.
وقوة مادية، وهي رئاسة الدولة التي يمثلها محمد صلى الله عليه وسلم.
ب- الدروس والعظات
١- ... إن المؤمن إذا كان واثقا من قوته لا يستخفي في عمله، بل يجاهر فيه، ولا يبالي بأعداء دعوته ما دام واثقا من التغلب عليهم، كما فعل عمر رضي الله عنه حين هاجر، وفي ذلك دليل أيضا على أن موقف القوة يرهب أعداء الله، ويلقي الجزع في نفوسهم، ولا شك أنهم لو أرادوا أن يجتمعوا على قتل عمر لاستطاعوا، ولكن موقف عمر الجريء ألقى الرعب في نفس كل واحد منهم، فخشي إن تعرض له أن تثكله أمه، وأهل الشر ضنينون [بخلاء] بحياتهم حريصون عليها.
٢- ... حين ييأس المبطلون من إيقاف دعوة الحق والإصلاح، وحين يفلت المؤمنون من أيديهم ويصبحون في منجى من عدوانهم، يلجؤون آخر الأمر إلى قتل الداعية المصلح، ظنا منهم أنهم إن قتلوه تخلصوا منه، وقضوا على دعوته، وهذا هو تفكير الأشرار أعداء الإصلاح في كل عصر، وقد شاهدناه ورأينا مثله في حياتنا.

٣- ... إن الجندي الصادق المخلص لدعوة الإصلاح، يفدي قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة من بياته على فراش الرسول ﷺ تضحية بحياته في سبيل الإبقاء على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه انتقاما منه، لأنه سهل لرسول الله ﷺ النجاة، ولكن عليا رضي الله عنه لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول الله ﷺ نبي الأمة وقائد الدعوة.

٤- ... وفي إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع محاربتهم له وتصميمهم على قتله، دليل على أن أعداء الإصلاح يوقنون في قرارة نفوسهم باستقامة الداعية وأمانته ونزاهته، وأنه خير منهم سيرة، وأنقى سريرة، ولكن العماية واللجاجة والجمود على العادات والعقائد الضالة، هو الذي يحملهم على محاربته، ونصب الكيد له، والتآمر على قتله إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

٥- ... إن تفكير قائد الدعوة، أو رئيس الدولة، أو زعيم حركة الإصلاح في النجاة من تآمر المتربصين والمغتالين، وعمله لنجاح خطة النجاة ليستأنف حركته أشد قوة ومراسا في ميدان آخر، لا يعتبر جبنا ولا فرارا من الموت، ولا ضنا بالتضحية بالنفس والروح.

٦- ... في موقف عبد الله بن أبي بكر ما يثبت أثر الشباب في نجاح الدعوات، فهم عماد كل دعوة إصلاحية، وباندفاعهم للتضحية الفداء، تتقدم الدعوات سريعا نحو النصر والغلبة. ونحن نرى في المؤمنين السابقين إلى الإسلام كلهم شبابا، فرسول الله ﷺ كان عمره أربعين سنة عند البعثة، وأبو بكر رضي الله عنه كان أصغر منه بثلاث سنين، وعمر رضي الله عنه أصغر منهما، وعلي رضي الله عنه أصغر الجميع، وعثمان رضي الله عنه كان أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان عبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، والأرقم بن أبي الأرقم، وسعيد بن زيد، وبلال بن رباح، وعمار بن ياسر، رضي الله عنهم، وغيرهم، كل هؤلاء كانوا شبابا،

حملوا أعباء الدعوة على كواهلهم، فتحملوا في سبيلها التضحيات، واستعذبوا من أجلها العذاب والألم والموت، وبهؤلاء انتصر الإسلام، وعلى جهودهم وجهود إخوانهم قامت دولة الخلفاء الراشدين، وتمت الفتوحات الإسلامية الرائعة، وبفضلهم وصل إلينا الإسلام الذي حررنا الله به من الجهالة والضلالة والوثنية والكفر والفسوق.

٧- ... وفي موقف عائشة وأسماء رضي الله عنهما أثناء هجرة الرسول ﷺ ما يثبت حاجة الدعوات الإصلاحية إلى النساء، فهن أرق عاطفة، وأكثر اندفاعا، وأسمح نفسا، وأطيب قلبا، والمرأة إذا آمنت بشيء لم تبال بنشره والدعوة إليه بكل صعوبة، وعملت على إقناع زوجها وأخوتها وأبنائها به، ولجهاد المرأة في سبيل الإسلام في عهد الرسول ﷺ صفحات بيضاء مشرقة، تؤكد لنا اليوم أن حركات الإصلاح الإسلامي ستظل وئيدة الخطأ، قليلة الأثر في المجتمع حتى تشترك فيها المرأة، فتنشئ جيلا من الفتيات على الإيمان والخلق والعفة والطهارة، هؤلاء أقدر على نشر القيم التي يحتاج إليها مجتمعنا اليوم في أوساط النساء من الرجال، عدا أنهن سيكن زوجات وأمهات، وأن الفضل الكبير في تربية كبار الصحابة ثم التابعين من بعدهم يعود إلى نساء الإسلام اللاتي أنشأن هذه الأجيال على أخلاق الإسلام وآدابه، وحب الإسلام ورسوله، فكانت أكرم الأجيال التي عرفها التاريخ في علو الهمة، واستقامة السيرة، وصلاح الدين والدنيا.

... ... إن علينا اليوم أن ندرك هذه الحقيقة، فنعمل على أن تحمل الفتيات والزوجات لواء دعوة الإصلاح الإسلامي في أوساط النساء، وهن أكثر من نصف الأمة، وذلك يقتضينا أن نشجع بناتنا وأخواتنا على تعلم الشريعة في معهد موثوق بحسن تدريسه للإسلام، مثل كلية الشريعة في جامعتنا، وكلما كثر عدد هؤلاء الفتيات العالمات بالدين، الفقيهات في الشريعة، الملمات بتاريخ الإسلام، المحبات لرسول الله صلى الله عليه وسلم، المتخلقات بأخلاقه وأخلاق أمهات المؤمنين، استطعنا أن ندفع حركة الإصلاح الإسلامي إلى الأمام دفعا قويا، وأن نقرب اليوم الذي يخضع فيه مجتمعنا الإسلامي لأحكام الإسلام وشريعته، وإن ذلك لواقع إن شاء الله.

٨- ... وفي عمى أبصار المشركين عن رؤية رسول الله وصاحبه في «غار ثور» وهم عنده، وفيما تحكيه لنا الروايات من نسيج العنكبوت وتفريخ الطير على فم الغار، مثل تخشع له القلوب من أمثلة العناية الإلهية برسله ودعاته وأحبابه، فما كان الله في رحمته لعباده ليسمح أن يقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين فيقضوا عليه وعلى دعوته وهو الذي أرسله رحمة للعالمين، وكذلك يعود الله عباده الدعاة المخلصين أن يلطف بهم في ساعات الشدة، وينقذهم من المآزق الحرجة، ويعمي عنهم - في كثير من الأحيان- أبصار المتربصين لهم بالشر والغدر، وليس في نجاة الرسول وصاحبه بعد أن أحاط بهما المشركون في «غار ثور» إلا تصديق قول الله تبارك وتعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر:٥١] وقول الله تبارك وتعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج:٣٨].

٩- ... وفي خوف أبي بكر وهو في الغار من أن يراهما المشركون مثل لما يجب أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على حياته، فما كان أبو بكر ساعتئذ بالذي يخشى على نفسه من الموت، ولو كان كذلك، لما رافق الرسول ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين.

١٠- ... وفي جواب الرسول ﷺ لأبي بكر تطمينا له على قلقه « يا أبابكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» مثل من أمثلة الصدق في الثقة بالله والاطمئنان إلى نصره، والاتكال عليه عند الشدائد، وهو دليل واضح على صدق الرسول ﷺ في دعوى النبوة، فهو في أشد المآزق حرجا ومع ذلك تبدو عليه أمارات الاطمئنان إلى أن الله [الذي] بعثه هدى ورحمة للناس لن يتخلى عنه في تلك الساعات، فهل مثل هذا الاطمئنان يصدر عن مدع للنبوة، منتحل صفة الرسالة؟ وفي مثل هذه الحالات يبدو الفرق واضحا بين دعاة الإصلاح وبين المدعين له والمنتحلين لاسمه، أولئك تفيض

قلوبهم دائما وأبدا بالرضى عن الله، والثقة بنصره، وهؤلاء يتهاوون عند المخـــاوف، وينهارون عند الشدائد، ثم لا تجد لهم من دون الله وليا ولا نصيرا.

١١- ... ويبدو لنا من موقف سراقة حين أدرك الرسول ﷺ وعجزه عن الوصـــول إليه دليل على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانت قوائم فرسه تســـيخ فـــي الرمل وهي متجهة صوب الرسول، حتى إذا نزل عنها ووجهها شطر مكة نشطت من كبوتها، فإذا أراد أن يعيدها كرة في اتجاه الرسول ﷺ عادت إلى عجزهـــا وكعِّهـــا [ضعفها]، أفترى هذا يقع إلا لنبي مرسل مؤيد من الله بالنصر والعون؟ كلا، وهذا ما أدركه سراقة، فنادى الرسول بالأمان، وأدرك أن للرسول ﷺ من العناية الإلهية مـــا تعجز عن إدراكه قوى البشر، فرضي أن يخسر الجائزة ويفوز بالوعد.

١٢- ... وفي وعد الرسول ﷺ لسراقة بسواري كسرى معجزة أخـــرى، فالإنســـان الذي يبدو هاربا من وجه قومه لا يؤمل في فتح الفرس والاستيلاء على كنوز كسرى، إلا أن يكون نبيا مرسلا، ولقد تحقق وعد الرسول ﷺ له، وطالب كسرى عمر بـــن الخطاب بإنفاذ وعد الرسول ﷺ له حين رأى سواري كسرى في الغنـــائم، فألبســـهما عمر سراقة على ملأ من الصحابة، وقال: «الحمد لله الذي ســـلب كســـرى ســـواريه وألبسهما سراقة بن جعشم الأعرابي» وهكذا تتوالى المعجزات في هذه الهجرة واحدة بعد أخرى ليزداد المؤمنون ويستيقن الذين أوتوا الكتاب من المترددين والجاحدين أنه رسول من رب العالمين.

١٣- ... كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب من أنصار ومهاجرين بقدوم رســـول الله ﷺ ووصوله إليهم سالما فرحة أخرجت النساء من بيـــوتهن والولائـــد، وحملـــت الرجال على ترك أعمالهم، وكان موقف يهود المدينة موقف المشارك فـــي الفرحـــة ظاهرا، والمتألم من منافسة الزعامة الجديدة باطنا، أما فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم، فلا عجب فيها وهو الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأما موقف اليهود فلا غرابة فيه وهم الذين عرفوا بالملق والنفاق للمجتمـــع الذي فقدوا السيطرة عليه، وبالغيظ والحقد الأسود ممن يسلبهم زعامتهم على الشعوب،

ويحول بينهم وبين سلب أموالها باسم القروض، وسفك دمائها باسم النصح والمشورة، وما زال اليهود يحقدون على كل من يخلص الشعوب من سيطرتهم، وينتهون من الحقد إلى الدس والمؤامرات، ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا، ذلك ديدنهم، وتلك جبلتهم، وقد فعلوا مثل ذلك برسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة، برغم ما أمضاه بينه وبينهم على التعاون والتعايش بسلامن ولكن اليهود قوم يشعلون نار الحروب دائما وأبدا، و{كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ} [المائدة:٦٤].

١٤- ... من وقائع الهجرة إلى المدينة تبين لنا أنه ﷺ ما أقام بمكان إلا كان أول ما يفعله بناء مسجد يجتمع فيه المؤمنون فقد أقام مسجد قباء حين اقام فيها أربعة أيام، وبنى مسجدا في منتصف الطريق بين قباء والمدينة لما أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي « وادي رانوناء».

... ... فلما أن وصل إلى المدينة، كان أول عمل عمله بناء مسجد فيها.

... ... وهذا يدلنا على أهمية المسجد في الإسلام، وعبادات الإسلام كلها تطهير للنفس، وتزكية للأخلاق، وتقوية لأواصر التعاون بين المسلمين، وصلاة الجماعة والجمعة والعيدين، مظهر قوي من مظاهر اجتماع المسلمين، ووحدة كلمتهم، وأهدافهم، وتعاونهم على البر والتقوى، لا جرم أن كان للمسجد رسالة اجتماعية وروحية عظيمة الشأن في حياة المسلمين، فهو الذي يوحد صفوفهم، ويهذب نفوسهم، ويوقظ قلوبهم وعقولهم، ويحل مشاكلهم، وتظهر فيه قوتهم وتماسكهم.

... ولقد أثبت تاريخ المسجد في الإسلام أنه منه انطلقت جحافل الجيوش الإسلامية لغمر الأرض بهداية الله، ومنه انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم، وفيه ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت، وهل كان أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وخالد، وسعد، وأبو عبيدة وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامي إلا تلامذة المدرسة المحمدية التي كان مقرها المسجد النبوي.

... وميزة أخرى للمسجد في الإسلام أنه تنبعث منه في كل أسبوع كلمة الحق مدوية مجلجلة على لسان خطيبه، في إنكار منكر أو أمر بمعروف، أو دعوة إلى خير أو

إيقاظ من غفلة، أو دعوة إلى تجمع، أو احتجاج على ظالم، أو تحذير لطاغية، ولقد شاهدنا في عصر الطفولة كيف كانت المساجد مراكز الانطلاق للحركات الوطنية ضد المستعمرين الفرنسيين، يلجأ إليها زعماء الجهاد ضد الاستعمار وضد الصهيونية، وإذا كنا نرى تعطيلها اليوم عن القيام بوظيفتها الكبرى، فما ذلك إلا ذنب بعض الخطباء من الموظفين المرتزقين، أو الجاهلين الغافلين، ويوم يعتلي منابرها ويؤم محاريبها دعاة أشداء في الحق، علماء بالشريعة، مخلصون لله ولرسوله، ناصحون لأئمة المسلمين وعامتهم، يعود للمسجد في مجتمعنا الإسلامي مكان الصدارة في مؤسساتنا الاجتماعية، ويعود المسجد ليعمل عمله في تربية الرجال، وإخراج الأبطال، وإصلاح الفساد، ومحاربة المنكر، وبناء المجتمع على أساس من تقوى الله ورضوانه.

... وإنا لنأمل ذلك إن شاء الله حين تحتل هذه الطليعة الطاهرة من شبابنا المؤمن المثقفة بدين الله المتخلقة بأخلاق رسول الله منابره وأرجاءه.

١٥- ... في مؤخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار أقوى مظهر من مظاهر عدالة الإسلام الإنسانية الأخلاقية البناءة، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم، فجاؤوا المدينة لا يملكون من حطام الدنيا شيئا، والأنصار قوم أغنياء بزروعهم وأموالهم وصناعتهم، فليحمل الأخ أخاه، وليقتسم معه سراء الحياة وضراءها، ولينزله في بيته مادام فيه متسع لهما، وليعطه نصف ماله ما دام غنيا عنه، موفرا له، فأية عدالة اجتماعية في الدنيا تعدل هذه الأخوة؟

... إن الذين ينكرون أن يكون الإسلام عدالة اجتماعية، قوم لا يريدون أن يبهر نور الإسلام أبصار الناس ويستولي على قلوبهم، أو قوم جامدون يكرهون كل لفظ جديد ولو أحبه الناس وكان في الإسلام مدلوله، وإلا فكيف تنكر العدالة الاجتماعية في الإسلام وفي تاريخه هذه المؤاخاة الفذة في التاريخ، وهي التي عقدها صاحب الشريعة محمد ﷺ بنفسه، وطبقها بإشرافه، وأقام على أساسها أول مجتمع ينشؤه، وأول دولة يبنيها؟

... سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم..

١٦- ... وفي الكتاب الذي عقد فيه الرسول الأخوة بين المهاجرين والأنصار، والتعاون بين المسلمين وغيرهم جملة من الأدلة التي لا ترَدُّ على أن أساس الدولة الإسلامية قائم على العدالة الاجتماعية، وأن أساس العلائق بين المسلمين وغيرهم هو السلم ما سالموا، وأن مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل لخير الناس، ودفع أذى الأشرار عن المجتمع، هو أبرز الشعارات التي تنادي بها دولة الإسلام، وبذلك تكون الدولة الإسلامية أينما قامت، وفي أي عصر نشأت قائمة على أقوم المبادئ وأعدلها، وهي تنطبق اليوم على أكرم المبادئ التي تقوم عليها الدول، وتعيش في ظلها الشعوب، وإن العمل في عصرنا هذا لإقامة دولة في مجتمعنا الإسلامي تركز قواعدها على مبادئ الإسلام عمل يتفق مع تطور الفكر الإنساني في مفهوم الدولة، عدا أنه يحقق للمسلمين بناء مجتمع من أقوى المجتمعات وأكملها وأسعدها وأرقاها.

وأيا ما كان فإن من مصلحتنا أن تبنى الدولة عندنا على أساس الإسلام، وفي ترك ذلك خرابنا ودمارنا، والإسلام لا يؤذي غير المسلمين في الوطن الإسلامي، ولا يضطهد عقائدهم، ولا ينتقص من حقوقهم، ففيم الخوف من إلزام الدول في البلاد الإسلامية بتنفيذ شرائع الإسلام، وإقامة أحكامه وهي كلها عدل وحق وقوة وإخاء وتكافل اجتماعي شامل على أساس من الإخاء والحب والتعاون الكريم؟ إننا لن نخلص من الاستعمار، إلا بالمناداة بالإسلام، وفي سبيل ذلك فليعمل العاملون {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [الأعراف: ٩٦] {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣] {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } [الطلاق: ٢] {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: ٤] {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: ٥].

الهجرة حدث غيّر مجرى التاريخ

(في ذكرى هجرة النبي: ١٢ ربيع الأول ١هـ)

أحمد تمام

طريق الهجرة

مكث النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى الإسلام، ويبصرهم بشرائعه، ويرشدهم إلى أحكامه، دون أن يتطرق إليه ملل، أو يصيبه كلل أو ضجر، لا تصرفه عن دعوته الشواغل، ولا يثنيه عن التبليغ وعد أو وعيد، وإنما هو ماض في طريقه، تحوطه عناية الله وتكلؤه رحمته، لا يجد وسيلة تمكّنه من تبليغ دعوته إلا اتبعها، ولا طريقة تهيئ له النجاح إلا أخذ بأسبابها، طرق كل باب، ووقف عند كل جمع، وعرض دعوته على القبائل؛ لعل أحدًا يؤمن بها ويؤازرها.

وآمن بالدعوة الجديدة بعض أهل مكة، ممن سمت نفوسهم، وصفت أفئدتهم، ونضجت عاطفتهم الدينية، فالتفوا حول نبيهم محمد (صلى الله عليه وسلم)، كما آمن عدد من الرقيق والموالي والمستضعفين في مكة، ولم تلق مكة بالاً لهذا الدين الجديد في بادئ الأمر، وعدّت محمدًا (صلى الله عليه وسلم) وصحبه مجموعة من الحنفاء الذين يظهرون ثم يختفون دون أن يلتفت إليهم أحد.

لكنها استشعرت الخطر، حين رأت نفسها أمام رجل آخر، ودعوة مختلفة، وجماعة تتكون، وكتابًا يُتلى، وأن الرسالة تجد أنصارًا وإن كانت تشق طريقها ببطء، ثم هالها الأمر حين بدأ النبي (صلى الله عليه وسلم) يهاجم الوثنية ويعيب الأصنام، ويسفّه عبادتها، ورأت أن مكانتها الدينية وزعامتها الروحية في خطر، فلجأت إلى مواجهة الدين الوليد، ومحاصرته بكافة الوسائل التي تضمن إجهاضه والقضاء عليه، ولم تتحرج في استخدام التعذيب والقتل والسجن مع المؤمنين بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ودعوته، ولم يسلم النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه من الأذى، وتعرضت حياته للخطر.

الهجرة إلى الحبشة.. محاولة للخروج من الأزمة

حين اشتد العذاب بأصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) وضاقت بهم السبل، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة "فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه"، فخرج فريق من المسلمين إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

وتفكير النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحبشة ينطوي على معرفة واسعة للنبي الكريم بأحوال شبه الجزيرة العربية، واتجاهاتها السياسية، فلم يكن هناك مكان أصلح للحماية والإيواء من الحبشة، فالقبائل العربية تربطها بقريش علاقات وثيقة، وروابط متينة تمنعها من استقبال هؤلاء المسلمين إذا ما فكروا في الهجرة إليها، وبلاد اليمن غير مستقرة يتنازعها التنافس بين الفرس والروم، والصراع بين اليهودية والنصرانية، ولم تكن أي مدينة من مدن الجزيرة العربية تصلح أن تكون مكانًا مناسبًا لإيوائهم، حتى يثرب نفسها التي استقبلت النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك، وأقام بها دولته –لم تكن تصلح هي الأخرى في هذا الوقت لاستقبال المهاجرين، حيث كانت تمزقها الخلافات الداخلية، والصراعات بين قبائلها. وكان جملة من هاجر إلى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً.

مقدمات الهجرة الكبرى

وإذا كانت الحبشة التي يحكمها ملك عادل تصلح أن تكون مأوى صالحًا ومكانًا للحماية، فإنها لم تكن تصلح أن تكون مركزًا للدعوة، ومعقلاً للدين، ولهذا لم يفكر النبي (صلى الله عليه وسلم) في الهجرة إليها، واستمر في عرض دعوته على القبائل العربية التي كانت تفد إلى مكة، أو بالذهاب إلى بعضها كما فعل مع قبيلة ثقيف في الطائف، ولم تكن قريش تتركه يدعو في هدوء، وإنما تتبّعت خطوه، تحذر القبائل من دعوته وتنفّرها منه.

غير أن سعي النبي الدءوب، وحرصه على تبليغ دعوته كان لا بد أن يؤتي ثماره، فتفتّحت لدعوته قلوب ستة رجال من الخزرج، فأسلموا، ووعدوه بالدعوة للإسلام في يثرب، وبشروه بالفوز لو قُدّر له أن تجتمع عليه قبائل يثرب.

ولم يكد ينصرم عام حتى وافى النبي (صلى الله عليه وسلم) في موسم الحج اثنا عشر رجلاً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وعقد معهم بيعة عرفت ببيعة العقبة الأولى، على "ألا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم...".

وأرسل معهم حين عادوا إلى بلادهم مصعب بن عمير، وكان داعية عظيمًا، فقيهًا في الدين، لبقًا فطنًا، حليمًا رفيقًا، ذا صبر وأناة، فنجح في مهمته أيما نجاح، وانتشر الإسلام في كل بيت هناك، وهيأ السبيل لتكون يثرب هي دار الهجرة، التي ينطلق إليها المسلمون، ومعقل الدين ومركز الدولة.

وبعد عام عاد مصعب في موسم الحج، ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، التقوا بالنبي ﷺ في إحدى الليالي سرًا وبايعوه بيعة العقبة الثانية، التي تضمنت التزامهم بحماية النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما يهاجر إليهم والدفاع عنه، والمحافظة على حياته.

ومن ثم حددت هذه البيعة الوضع القانوني للنبي (صلى الله عليه وسلم) بين أهل يثرب، فاعتبرته واحدًا منهم، دمه كدمهم، وحكمه كحكمهم، وقضت بخروجه ضمناً من عداد أهل مكة، وانتقال تبعيته إلى أهل يثرب، ولهذا أخفى المتبايعون أمر هذه البيعة عن قريش؛ لأن الفترة بين إتمام هذه البيعة، ووصوله (صلى الله عليه وسلم) لا يلتزم أهل يثرب خلالها بحماية النبي الكريم إذا وقع له مكروه أو أذى من قريش.

التجهيز للهجرة

وبعد أن تمّت البيعة المباركة أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا أفرادًا وجماعات، يتخفّى بها من يخشى على نفسه، ويعلنها من يجد في نفسه القدرة على التحدي.

ولم تقف قريش إزاء هذه الهجرة مكتوفة اليدين، فحاولت أن ترد من استطاعت رده، لتفتنه في دينه أو تعذبه أو تنكل به، ولكن دون جدوى، فقد هاجر معظم المسلمين، وبقى النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة، ووقعت قريش في حيرة: هل يظل في مكة كما فعل في الهجرة إلى الحبشة، أم يهاجر في هذه المرة مع أصحابه؟ وفي هذا

خطر شديد عليهم؛ لأنه يستطيع في يثرب أن ينظم جماعته، ويقيم دولته، فتتهدد مكانة قريش بين القبائل، وتضيع زعامتها، وتتأثر تجارتها.

حزمت قريش أمرها، واتخذت قرارها بقتل النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل أن تفلت الفرصة من بين أيديها، ويتحقق ما تخشاه، فأعدوا مؤامرتهم لهذا الغرض الدنيء، وأشركوا جميع القبائل في قتله، باختيار شاب قوي من بين أبنائها، حتى يتفرق دمه في القبائل، ولا يقوى بنو هاشم على محاربة أهل مكة، وقد سجل القرآن الكريم نبأ هذه المؤامرة الخسيسة في قوله تعالى: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين" [الأنفال: الآية ٣٠].

حادث الهجرة.. وأسباب النجاح

اتخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) كل الأسباب التي تضمن نجاح هجرته إلى المدينة التي ترتب عليها قيام دولة الإسلام، واتساع رقعتها، وسطوع حضارتها، ولعل أهم الأسباب هو نجاحه الباهر في إعداد المكان الذي سينزل به هو وأصحابه، مستخدمًا كل الوسائل الممكنة من توثيق عرى العلاقات مع أهل يثرب بعقد معاهدتين عظيمتين، وإرسال داعية عظيم الكفاءة، قوي الإيمان، شديد الإخلاص؛ لنشر الدين، وجذب الأتباع هناك.

والسبب الثاني من أسباب النجاح هو اختيار الوقت المناسب للهجرة، فلم يعزم النبي (صلى الله عليه وسلم) على الهجرة إلا بعد أن استوثق من رسوخ إيمان أهل يثرب، وتعهدهم بحمايته والدفاع عنه، وذلك في بيعة العقبة الثانية، ومن ثم لم تعد هناك حاجة لبقائه في مكة بعد أن وجد النصرة والمنعة عند أهل يثرب.

والسبب الثالث هو آليات الهجرة التي اتبعها النبي في خروجه من مكة إلى المدينة، في واحدة من أجلّ ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوة وروعة، وتفاصيل هذه الهجرة مذكورة في كتب السيرة، ولسنا في حاجة إلى سردها الآن، ولكن يمكن القول بأنها كانت سرية إلى أقصى حد، ودقيقة إلى أبعد مدى، وضع لها النبي (صلى الله عليه وسلم) كل ما في وسع البشر وطاقتهم من وسائل تضمن لها

النجاح، وخطط تحقق لها التوفيق، فإذا لم يفلح ذلك كله، فستأتي عناية الله في اللحظة المناسبة.

الرسول ﷺ في المدينة

وما إن وصل النبي ﷺ المدينة في ضحى يوم الإثنين، الموافق (١٢ من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة ٢٤ سبتمبر ٦٢٢م) حتى بدأ العمل الجاد، والسعي الدءوب، حتى أكمل رسالته على نحو لا مثيل له في تاريخ الإنسانية.

ولم تكن يثرب عندما نزلها النبي (صلى الله عليه وسلم) مدينة بالمعنى المعروف، وإنما كانت واحات متفرقة في سهل فسيح يسكنها قبائل الأوس والخزرج والجماعات اليهودية، فنظّم العمران بالمدينة، وشق بها طرقا معبّدة، وكان المسجد هو الأساس في هذا التنظيم، انتظم حوله عمران المدينة الجديدة، واتسقت شوارعها.

وكان هذا المسجد هو مقر الرئاسة الذي تقام فيه الصلاة، وتُبرم فيه كل الأمور، وتُعقد به مجالس التشاور للحرب والسلم واستقبال الوفود، وبجوار المسجد اتخذ النبي مساكنه، وكانت متصلة بالمسجد، بحيث يخرج منها إلى صلاته مباشرة، وأصبح من السُنّة أن تُبْنى المساجد وبجوارها بيوت الولاة ودواوين الحكم.

ثم أصلح النبي ما بين الأوس والخزرج وأزال ما بينهما من عداوة، وجمعهما في اسم واحد هو الأنصار، ثم آخى بينهم وبين المهاجرين على أساس أن المؤمنين إخوة، وكانت المرة الأولى التي يعرف فيها العرب شيئا يسمى الأخوة، دون قرابة أو صلة رحم، حيث جعل كل رجل من المهاجرين يؤاخي رجلا من الأنصار، فيصير الرجلان أخوين، بينهما من الروابط ما بين الأخوين من قرابة الدم.

وبعد المؤاخاة كانت الصحيفة، وهي الدستور الذي وضعه النبي (صلى الله عليه وسلم) لتنظيم الحياة في المدينة، وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها، هذه الوثيقة لم يُمْلِها النبي (صلى الله عليه وسلم) إملاء، وإنما كانت ثمرة مناقشات ومشاورات بينه وبين أصحابه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، وكلما استقروا على مبدأ قام الرسول ﷺ بإملاء نصه على علي بن أبي طالب، وشيئا فشيئا اكتملت الوثيقة،

وأصبحت دستورا للجماعة الجديدة، ولا يكاد يُعرف من قبل دولة قامت منذ إنشائها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية الجديدة، فإنما تقام الدول أولا، ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور.

وأدت هذه السياسة الحكيمة إلى قيام جماعة متآلفة متحابة، وإلى ازدياد عدد سكان المدينة حتى زاد عدد سكانها عما كانوا عليه أكثر من خمس مرات، بعد أن أقبل الناس على سكناها؛ طلبا للأمن والعدل في ظل الإسلام، والتماسًا لبركة مجاورة النبي (صلى الله عليه وسلم)، واستجابة لما دعا إليه القرآن من الهجرة إلى الله وإلى رسوله.

بين الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة

كانت الهجرة إلى المدينة ضرورة ملحة فرضتها الأحداث التي أحاطت بالنبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة، وألزمته السعي إلى مكان آخر تُمارس فيها شعائر الإسلام، وتُطبّق أحكامه، وتنطلق دعوته إلى كل مكان، دون مزاحمة أو تضييق، ومكة حينذاك لم تعد صالحة لهذه الفترة من عمر الرسالة، لأن العداء قد بلغ بها كل مدى ضد الدين الجديد، وأصبحت هناك صعوبة بالغة في استكمال الدعوة التي تحتاج إلى دولة حتى تنجح راسلتها.

ولم تكن الحبشة التي تنعم بالعدل والأمان تصلح لهذه الفترة؛ نظرا لاختلاف البيئة اللغوية والدينية هناك؛ الأمر الذي جعل حركة الإسلام هناك بطيئة، وبلا فاعلية، ولا تسمح هذه البيئة بالتطبيق؛ ومن ثم لم تكن هناك مدينة في شبه الجزيرة العربية تصلح لاستقبال الدين في الفترة الثانية إلا يثرب التي أُطلق عليها مدينة الرسول.

من مصادر الدراسة:

ابن هشام (عبد الملك بن هشام) السيرة النبوية- مطبعة مصطفى البابي الحلبي- القاهرة ١٩٣٦م.

حسين مؤنس- دراسات في السيرة النبوية- الزهراء للإعلام العربي- القاهرة ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.

محمد لقمان الأعظمي- مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول- دار المعالم الثقافية- السعودية ١٩٨٩م.
محمد بن محمد أبو شهبة- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة- القاهرة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
أحمد إبراهيم الشريف- الدولة الإسلامية الأولى- دار القلم- القاهرة ١٩٦٥م

الهجرة دروس وعبر

سامي بن خالد الحمود

الحمد لله مدبر الشهور والأعوام ، ومصرف الليالي والأيام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو الجلال والإكرام ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للأنام ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأئمة الأعلام . أما بعد أيها الأحبة الكرام .

قبل ألف وأربعمائة وإحدى وعشرين سنة كانت هذه الأرض أرض الحرمين على موعد مع حادثة عظيمة وقصة مثيرة ، نصر الله بها الدين ، وقلب بها الموازين .

من منا لا يعرف هذه القصة ، وحرف الهاء الذي يشير إليها لا يغيب عن أنظارنا ، فهو بجانب كل رقم نؤرخ به أيامنا .

مكة .. محمد ﷺ .. أبو بكر ... قريش .. مؤتمر الندوة .. الاغتيال .. الغار .. العنكبوت .. ذات النطاقين .. سراقة .. أم معبد .. الأنصار .. المدينة النبوية .

هذا أيها السادة هو موجز أنباء القصة .

وإن في السيرة لخبرا ، وإن في الهجرة لعبرا ، وإن في دروسها لمدكرا ... فإلى تفاصيل القصة .

مكث عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشر عاماً بمكة يدعو إلى لا إله إلا الله .

سنوات طويلة من التعذيب والإيذاء .. والتشريد والابتلاء .

وبعد اشتداد الأذى ينام عليه الصلاة والسلام في ليلة من الليالي على فراشه فيرى دار الهجرة وإذا هي أرض ذات نخل بين لابتين .. إنها طيبة الطيبة .

ومن مكة تنطلق ركائب المهاجرين ملبيةً نداء ربها .. مهاجرةً بدينها ..مخلفةً وراءها ديارها وأموالها .

ويهم أبو بكر بالهجرة فيستوقفه الرسول ﷺ ويقول : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً .

وعلى الجانب الآخر تشعر قريش بالخطر الذي يهدد كيانها بهجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، فتعقد مؤتمراً عاجلاً في دار الندوة (برلمان مكة) للقضاء على محمد قبل فوات الأوان . ويحضر الشيطان معهم على صورة شيخ نجدي قال بعضهم : احسبوه في الحديد حتى يموت ، وقال بعضهم : أخرجوه وانفوه من البلاد ، وبعد أن قوبل هذان الاقتراحان بالرفض تقدم فرعون هذه الأمة أبو جهل برأي خبيث ماكر فقال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شاباً جليداً نسيباً ثم نعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً فيضربون محمداً ضربة واحدة فيقتلوه فيتفرق دمه في القبائل . فأعجب القوم بهذا الرأي حتى إن الشيطان الذي لم يستطع الإتيان بمثله أيده وقال : القول ما قال الرجل هذا الرأي لا أرى غيره .

ووافق البرلمان على هذا القرار الغاشم بالإجماع وبدأوا في التنفيذ .

} وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين {

ينزل جبريل فيخبر النبي ﷺ بتلك المؤامرة ويقول : يا محمد لا تبِت في فراشك الليلة .

وفي بيت أبي بكر كان أبو بكر جالساً مع أهله في الظهيرة ، إذ أقبل النبي عليه الصلاة والسلام متقنعاً مغطياً رأسه ، ففزع أبو بكر لأنه ﷺ لم يكن يأتيهم في تلك الساعة .. يدخل النبي عليه الصلاة والسلام فيقول : يا أبا بكر أخرج من عندك . قال أبو بكر : إنما هم أهلك يا رسول الله . قال :فإني قد أذن لي في الخروج . قال أبو بكر : الصحبة بأبي أنت يا رسول الله . فقال : نعم . فبكى أبو بكر ولسان حاله يقول :

طفح السرور علي حتى إنني *** من عظم ما قد سرني أبكاني

روي عن عائشة أنها قالت : فما شعرت أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ .

قال أبو بكر : فخذ بأبي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين . فقال له ﷺ : بالثمن .

يعود ﷺ إلى بيته ويعرّف علياً بالأمانات التي عنده ليؤديها إلى أهلها .وفي ظلمة الليل يجتمع المجرمون ويطوقون منزله عليه الصلاة والسلام .

وفي هذه الساعة الحرجة يأمر النبي ﷺ علياً أن يبيت في فراشه وأن يغطي رأسه ببرده الحضرمي .

يفتح النبي عليه الصلاة والسلام الباب .. يخترق صفوف المجرمين ..يمشي بين سيوفهم .. وهم مع هذا لا يرونه ، ثم يأخذ من تراب الأرض ويذره على رؤوسهم الواحد تلو الآخر ثم يمضي بحفظ الله ورعايته .

بات علي – رضي الله عنه – على فراشه ﷺ وغطى رأسه والمجرمون ينظرون من شق الباب ، يتهافتون أيهم يضرب صاحب الفراش بسيفه .

وفي الصباح يكتشف المجرمون فشلهم ، فيعودون وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم .

سمعت قريش بالخبر فجن جنونها ، وثارت ثائرتها ، فوضعت جميع طرق مكة تحت المراقبة المشددة ، وأعلنت عن جائزة كبيرة قدرها مائة ناقة لمن يعيد محمداً أو أبا بكر حيين أو ميتين .

وفي بيت أبي بكر كان آل أبي بكر على موعد مع حدثين .

أما الحدث الأول فقد انطلق نفر من قريش إلى بيت أبي بكر فقرعوا الباب ، فخرجت إليهم أسماء فقالوا لها : أين أبوك ؟ قالت : لا أدري . فرفع أبو جهل يده فلطم خدها لطمة شديدة حتى سقط قرطها من أذنها .

وأما الحدث الثاني فقد كان أبو بكر خرج بكل ماله خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم مع الرسول ﷺ فأقبل والده أبو قحافة وكان شيخاً قد ذهب بصره فدخل على أسماء

وقال : والله إني لأراه فجعكم بماله مع نفسه . فقالت أسماء : كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً فأخذت أحجاراً ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده وقالت : ضع يدك على هذا المال . فلما وضعها قال : إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن .

كان الرسول ﷺ يعلم أن قريشاً ستجدّ في الطلب شمالاً باتجاه المدينة . فاتجه هو وصاحبه جنوباً إلى غار ثور على طريق اليمن ، ولما انتهيا إلى الغار روي أن أبا بكر دخل الغار وسد جحوره بإزاره حتى بقي منها اثنان فألقمهما رجليه . ثم دخل رسول الله ﷺ ونام في حجر أبي بكر . وبينما هو نائم إذ لُدغت رجل أبي بكر من الجحر فتصبّر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ من نومه ، لكن دموعه غلبته فسقطت على وجه رسول الله ﷺ فيستيقظ ليرى صاحبه قد لدغ قال : يا أبا بكر مالك . قال : لدغت فداك أبي وأمي . فتفل ﷺ على رجله فبرأت في الحال .

عبدالله بن أبي بكر شاب ذكي نبيه بطل من أبطل الصحابة .. كان يصبح مع قريش فيسمع أخبارها ومكائدها فإذا اختلط الظلام تسلل إلى الغار وأخبر النبي ﷺ الخبر فإذا جاء السحر رجع مصبحاً بمكة .

وكانت عائشة وأسماء يصنعان لهما الطعام ثم تنطلق أسماء بالسفرة إلى الغار ولما نسيت أن تربط السفرة شقت نطاقها فربطت به السفرة وانتطقت بالآخر فسميت بـ(ذات النطاقين) .

ولأبي بكر راعٍ اسمه عامر بن فهيرة ، فكان يرعى الغنم حتى يأتيهما في الغار فيشربان من اللبن ، فإذا كان آخر الليل مر بالغنم على طريق عبدالله بن أبي بكر عندما يعود إلى مكة ليخفي أثر أقدامه .

واستأجر رسول الله ﷺ رجلاً كافراً اسمه عبدالله بن أريقط وكان هادياً خريتاً ماهراً بالطريق وواعده في غار ثور بعد ثلاث ليال .

أعلنت قريش حالة الطوارىء وانتشر المطاردون في أرجاء مكة كلهم يسعى للحصول على الجائزة الكبيرة . وصل بعض المطاردين إلى الجبل وصعدوه حتى وقفوا على باب الغار ، فلما رآهم أبو بكر قال : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه

لأبصرنا .. لو أن أحدهم طأطأ بصره لرآنا . فقال له ﷺ : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما } إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا { .

نظروا إلى الغار وإذا العنكبوت قد نسجت خيوطها على الباب . فقالوا : لو دخل هنا لم تنسج العنكبوت على الباب ، فانقلبوا خاسئين .

مكث عليه الصلاة والسلام وصاحبه في الغار ثلاثة أيام ولما خَمَدت نار الطلب جاءهما عبد الله بن أريقط في الموعد المحدد فارتحلوا وسلكوا الطريق الساحلي .

وفي مشهد من مشاهد الحزن يقف عليه الصلاة والسلام بالحَزْوَرة على مشارف مكة ليلقي النظرة الأخيرة على أطلال البلد الحبيب .. بلد الطفولة والذكريات .. يخاطب مكة ويقول : أما والله إني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلي وأكرمها على الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت .

وفي الطريق يمر عليه الصلاة والسلام بديار بني مدلج وإذا سراقة بن مالك جالس في مجلس من مجالس قومه ، فيقول أحدهم : إني رأيت أَسودِة بالساحل أراها محمداً وأصحابه . ففطن سراقة للأمر لكنه أراد أن يستأثر بالجائزة فقال للرجل : إنهم ليسوا هم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً . ثم لبث سراقة قليلاً ثم قام إلى منزله ولبس سلاحه وانطلق مسرعاً في أثر الرسول ﷺ وصاحبه .

يبصر سراقة النبي ﷺ وصاحبه فيدنو منهما ، ويسمع قراءة رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن ولا يلتفت . يلتفت أبو بكر فيرى سراقة فيقول : يا رسول الله أُتينا . يرفع النبي ﷺ يديه وهو ماضٍ في طريقه لا يلتفت ويقول : اللهم اكفناه بما شئت .. اللهم اصرعه . وكان سراقة يجري بفرسه على أرض صلبة فساخت قدما فرسه في الأرض وكأنما هي تمشي على الطين فسقط عن فرسه ، ثم قام وحاول اللحاق بهما فسقط مرة أخرى ، فنادى بالأمان فتوقف عليه الصلاة والسلام وركب سراقة فرسه حتى أقبل عليه وأخبره خبر قريش وسأل النبي عليه الصلاة والسلام أن يكتب له كتاباً فأمر عامر بن فهيرة أن يكتب له وقال له : أَخفِ عنا . فرجع سراقة كلما لقي أحداً

رده وقال : قد كفيتم ما ههنا . فكان أول النهار جاهداً على النبي ﷺ وكان آخر النهار مدافعاً عنه ، فسبحان مغير الأحوال .

وفي الطريق يمر الركب المبارك بخيمتي أم معبد فيسألها النبي ﷺ الطعام فتقول : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى والشاء عازب والسنة شهباء يلتفت عليه الصلاة والسلام وإذا شاة هزيلة في طرف الخيمة فيقول : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فتقول له : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم قال : أتأذنين أن أحلبها . قالت : نعم إن رأيت بها حلباً . فدعا ﷺ بالشاة فمسح على ضرعها ودعا فتفجرت العروق باللبن فسقى المرأة وأصحابه ثم شرب ﷺ ، ثم حلب لها في الإناء وارتحل عنها .

وفي المساء يرجع أبو معبد إلى زوجته وهو يسوق أمامه أعنزه الهزيلة . يدخل الخيمة وإذا اللبن أمامه ، فيتعجب ويقول : من أين لك هذا ؟ فتقول له : إنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت .

جزى الله رب العالمين جزاءه *** رفيقين حلاّ خيمتي أم معبدِ

هما نزلا بالبر وارتحلا به *** فأفلح من أمسى رفيق محمدِ

وفي المدينة سمع الأنصار بخروجه عليه الصلاة والسلام ، فكانوا لشدة تعظيمهم له وفرحهم به وشوقهم لرؤيته يترقبون قدومه ليستقبلوه عند مدخل المدينة ، فيخرجون بعد صلاة الفجر إلى الحرة على طريق مكة في أيام حارة ، فإذا اشتد حر الظهيرة عادوا إلى منازلهم . فخرجوا ذات يوم ثم رجعوا عند الظهيرة إلى بيوتهم . وكان أحد اليهود يطل في هذه الأثناء من أطم من آطامهم فرأى رسول الله ﷺ وأصاحبه مقبلين نحو المدينة فلم يملك اليهودي أن صاح بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون . فثار المسلمون إلى السلاح وكان يوماً مشهوداً وسمعت الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف وكبر المسلمون فرحاً بقدومه وتلقوه وحيوه بتحية النبوة وأحدقوا به مطيفين به ، والسكينة تغشاه ، والوحي ينزل عليه { فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير } .

تلكم أيها الأحبة أحداث الهجرة ، وفيها من الدروس والعبر ما يضيق عنـــه المقـــام . فمنها :

١) درس في الهجرة :

لقد أذن الله تعالى لنبيه وأصحابه بالهجرة لما ضاقت عليهم الأرض ، ومنعتهم قريش من إقامة دين الله .

إن الهجرة بالمعنى الشرعي ليست مجرد الانتقال من بلد إلى آخر فحسب ، بل هـــي هجرة عامة عن كل ما نهى عنه الله ورسوله ﷺ ، حتى يكون الدين كله لله .

هجرة من الذنوب والسيئات ... هجرة من الشهوات والشبهات ... هجرة من مجالس المنكرات .. هجرة من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

٢) الصبر واليقين طريق النصر والتمكين :

فبعد سنوات من الاضطهاد والابتلاء قضاها النبي ﷺ وأصحابه بمكة يهيأ الله تعـــالى لهم طيبة الطيبة ، ويقذف الإيمان في قلوب الأنصار ، ليبدأ مسلسل النصر والتمكـــين لأهل الصبر واليقين { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم الأشهاد } .

إن طريق الدعوة إلى الله شاق محفوف بالمكاره والأذى . لكن من صبر ظفر .. ومن ثبت انتصر .. { والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون } .

٣) درس في التوكل على الله والاعتصام بحبل الله :

لقد كانت رحلة الهجرة مغامرة محفوفة بالمخاطر التي تطير لها الرؤوس .

فالسيوف تحاصره عليه الصلاة والسلام في بيته وليس بينـــه وبينهـــا إلا البـــاب .. والمطاردون يقفون أمامه على مدخل الغار .. وسراقة الفارس المدجج بالسلاح يـــدنو منه حتى يسمع قراءته .. والرسول ﷺ في ظل هذه الظروف العصيبة متوكل علـــى ربه واثق من نصره .

فمهما اشتدت الكروب ومهما ادلهمت الخطوب يبقى المؤمن متوكلاً على ربه واثقـــاً بنصره لأوليائه .

فالزم يديك بحبل الله معتصماً *** فإنه الركن إن خانتك أركان

٤) درس في المعجزات الإلهية :

هل رأيتم رجلاً أعزلاً محاصراً يخرج إلى المجرمين ويخترق صفوفهم فلا يرونه ويذر التراب على رؤوسهم ويمضي .. هل رأيتم عنكبوتاً تنسج خيوطها على باب الغار في ساعات معدودة .. هل رأيتم فريقاً من المجرمين يصعدون الجبل ويقفون على الباب فلا يطأطيء أحدهم رأسه لينظر في الغار .. هل رأيتم فرس سراقة تمشي في أرض صلبه فتسيخ قدماها في الأرض وكأنما هي تسير في الطين .. هل رأيتم شاة أم معبد الهزيلة يتفجر ضرعها باللبن .

إن هذه المعجزات لهي من أعظم دلائل قدرة الله تعالى ، وإذا أراد الله نصر المؤمنين خرق القوانين ، وقلب الموازين { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون } .

٥) درس في الحب :

وقد قال الحبيب ﷺ :" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " .

إن هذا الحب هو الذي أبكى أبا بكر فرحاً بصحبته ﷺ . . . إن هذا الحب هو الذي جعل أبا بكر يقاوم السم وهو يسري في جسده يوم أن لدغ في الغار لأن الحبيب ينام على رجله .

إن هذا الحب هو الذي أرخص عند أبي بكر كل ماله ليؤثر به الحبيب ﷺ على أهله ونفسه .

إن هذا الحب هو الذي أخرج الأنصار من المدينة كل يوم في أيام حارة ينتظرون قدومه ﷺ على أحر من الجمر . فأين هذا ممن يخالف أمر الحبيب ﷺ ويهجر سنته ثم يزعم أنه يحبه !!!

يا مدعي حب أحمد لا تخالفه *** فالحب ممنوع في دنيا المحبينا

٦) درس في التضحية والفداء :

لقد سطر النبي ﷺ وأصحابه صفحات مشرقة من التضحية ، والمغامرة بالأنفس والأموال لنصرة هذا الدين .. لقد هاجروا لله ولم يتعللوا بالعيال ولا بقلة المال فلم يكن للدنيا بأسرها أدنى قيمة عندهم في مقابل أمر الله وأمر ورسوله ﷺ .

فيوم أن بات علي في فراشه ﷺ وغطى رأسه كان يعلم أن سيوف الحاقدين تتبادر إلى ضرب صاحب الفراش ، ويوم أن قام آل أبي بكر عبدالله وأسماء وعائشة ومولاه عامر بهذه الأدوار البطولية كانوا يعلمون أن مجرد اكتشافهم قد يودي بحياتهم .

هكذا كان شباب الصحابة فأين شبابنا .. أين شبابنا الذين يضعون رؤوسهم على فرشهم ولا يضحون بدقائق يصلون فيها الفجر مع الجماعة .

نعم .. لقد نام شبابنا عن الصلاة يوم أن نام علي مضحياً بروحه في سبيل الله ، فشتان بين النومتين .

أين شبابنا الذين كلّت أناملهم من تقليب أجهزة القنوات ومواقع الشبكات . أين هذه الأنامل من أنامل أسماء وهي تشق نطاقها لتربط به سفرة النبي عليه الصلاة والسلام . ويوم القيامة ستشهد الأنامل على تضحية أسماء ، وستشهد على الظالمين بما كانوا يعملون .

٧) درس في العبقرية والتخطيط واتخاذ الأسباب :

لقد كان ﷺ متوكلاً على ربه واثقاً بنصره يعلم أن الله كافيه وحسبه ، ومع هذا كله لم يكن ﷺ بالمتهاون المتواكل الذي يأتي الأمور على غير وجهها . بل إنه أعد خطة محكمة ثم قام بتنفيذها بكل سرية وإتقان .

فالقائد : محمد ، والمساعد : أبو بكر ، والفدائي : علي ، والتموين : أسماء ، والاستخبارات : عبدالله ، والتغطية وتعمية العدو : عامر ، ودليل الرحلة : عبدالله بن أريقط ، والمكان المؤقت : غار ثور ، وموعد الانطلاق : بعد ثلاثة أيام ، وخط السير : الطريق الساحلي .

وهذا كله شاهد على عبقريته وحكمته ﷺ ، وفيه دعوة للأمة إلى أن تحذو حذوه في حسن التخطيط والتدبير وإتقان العمل واتخاذ أفضل الأسباب مع الاعتماد على الله مسبب الأسباب أولاً وآخراً .

٨) درس في الإخلاص :

ثبت عنه ﷺ أنه قال : " إنه ليس أحدٌ أمنُّ علي في نفسه وماله من أبي بكر " فقد كان أبو بكر} الذي يؤتي ماله يتزكى { ينفق أمواله على رسول الله ﷺ ، وعلى الدعوة إلى دين الله .

لكن السؤال هنا هو لماذا رفض ﷺ أخذ الراحلة من أبي بكر إلا بالثمن ؟

قال بعض العلماء : إن الهجرة عمل تعبدي فأراد عليه الصلاة والسلام أن يحقق الإخلاص بأن تكون نفقة هجرته خالصة من ماله دون غيره . وهذا معنى حسن ، وهو درس في الإخلاص وتكميل أعمال القرب التي تفتقر إلى النفقة (كنفقة الحج ، وزكاة الفطر ، وغيرها من الأعمال) فإن الأولى أن تكون نفقتها من مال المسلم خاصة .

٩) درس في التأريخ الهجري :

التأريخ بالهجرة النبوية مظهر من مظاهر تميز الأمة المسلمة وعزتها . ويعود أصل هذا التأريخ إلى عهد عمر رضي الله عنه . فلما ألهم الله الفاروق الملهم أن يجعل للأمة تأريخاً يميزها عن الأمم الكافرة استشار الصحابة فيما يبدأ به التأريخ ، أيأرّخون من مولده عليه الصلاة والسلام ؟ أم مبعثه ؟ أم هجرته ؟ أم وفاته ؟ .

وكانت الهجرة أنسب الخيارات . أما مولده وبعثته فمختلف فيهما ، وأما وفاته فمدعاة للأسف والحزن عليه . فهدى الله تعالى الصحابة إلى اختيار الهجرة منطلقاً للتأريخ الإسلامي .

وظلت الأمة تعمل بهذا التأريخ قروناً متطاولة ، حتى ابتليت في هذا العصر بالذل والهوان ، ففقدت هيبتها ، وأعجبت بأعدائها ، واتبعتهم حذو القذّة بالقذّة ، حتى

هجرت معظم الدول المسلمة تأريخها الإسلامي فلا يكاد يعرف إلا في المواسم كرمضان والحج ، وأرخت بتواريخ الملل المنحرفة .

لقد نسينا تاريخنا فأنسينا تأريخنا .. وأضعنا أيامنا فضاعت أيامنا .. وما لم نرجع إلى ديننا الذي هو عصمة أمرنا .. فسلامٌ على مجدنا وعزنا .. والله المستعان .

وإن مما يفخر به كل مسلم ما تميزت به هذه البلاد بلاد الحرمين ومهبط الوحي ومهاجر رسول الله ﷺ من اعتماد التأريخ الهجري النبوي تاريخاً رسمياً لكافة مرافقها ، نسأل الله أن يحفظها وجميع بلاد المسلمين بحفظه ، وأن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان ، ويعز دينه ويعلي كلمته ، إنه جواد كريم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

بقلم الفقير إلى عفو ربه تعالى :

سامي بن خالد الحمود

الرياض

الهجرة طريق العزة

هذا هو العدد الأول في مطلع العام الهجري الجديد نضعه بين أيديكم وقد ضمنَّاه ملفاً عن الهجرة النبوية الشريفة، تناولنا فيه هذاالحدث العظيم بالتحليل والدرس والاستقراء، لنستنبط منه العِبر، ونستخلص منه النتائج ونترسم منه الخطى في وقت ادلهمت فيه الخطوب وتكالب الأعداء علينا من كل جانب لتحطيم قدراتنا واستنزاف طاقاتنا وإمكاناتنا وطمس هويتنا وتشويه عقيدتنا•

إن الهجرة النبوية كانت وستظل معلماً شامخاً ينير لأمتنا طريق المستقبل الزاهر، القائم على التنظيم والتخطيط ووضوح الهدف والغاية، فأمتنا اليوم في حاجة لتحديد أهدافها الاستراتيجية والمرحلية المستندة إلى الثوابت الشرعية وترتيب أولياتها، والانطلاق بعدها بخطى ثابتة حتى يتحقق لنا النصر الذي حققه الرسول الكريم، ونكون سادة في بلادنا وأوطاننا، وفاعلين إيجابيين في السيرة الحضارية المعاصرة، والله الهادي إلى سواء السبيل

الهجرة عطاء وتضحية

تهل علينا ذكرى الهجرة النبوية الشريفة كل عام، فتهب علينا رياح التغيير العظيمة التي غيرت وجه التاريخ عبر هذا الحدث العظيم الذي يجب أن تكون لنا معه وقفات مهمة؛ لنعيد قراءة واقعنا على أضواء دروسه العظيمة، وليكون لنا محطة جديدة للانطلاق نحو تغيير أحوال أمتنا والهجرة بها نحو الأفضل، وهذا هو سر توفيق الله تعالى لسيدنا عمر بن الخطاب بأن اختار الهجرة النبوية عنوانًا للتاريخ الإسلامي، وكان أمامه عدة مناسبات قوية يمكن أن يستخدمها للتأريخ مثل غزوة بدر أو فتح مكة أو ميلاد أو بعثة الرسول- صلى الله عليه وسلم- ولكن كان توفيق الله تعالى لاختيار الهجرة حتى تكون محطةً للتغيير الدائم لأمة الإسلام عبر السنين وصعودًا نحو المعالي بالهجرة والانتقال من الضعف إلى القوة، ومن قهر الضلال وسيطرة الباطل إلى ريادة الإيمان وأستاذية العالم.

مقومات التغيير الناجح من خلال الهجرة

د. رشاد لاشين

(١) أن يكون هناك هدف عظيم يسعى الجميع من أجل تحقيقه: وهو إعلاء كلمة الله تعالى وهذا ما وضحه لنا القرآن الكريم في التعقيب على الهجرة ؟إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ؟ (التوبة: الآية ٤٠).

(٢) ومن أهم دعائم التغيير الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: وكسب الأنصار الجدد وتهيئة الأرض الجديرة بحمل الرسالة، وتمثَّل هذا في بيعتي العقبة الأولى والثانية، وبعثِ سيدنا مصعب بن عمير لنشر الدعوة في المدينة، فكان نشر الدعوة أهم وسائل النجاح وأعظم دعائم البناء الإسلامي.

(٣) التضحية وتقديم الغالي والنفيس من أجل الفكرة وترك التثاقل إلى الأرض: وتمثَّل هذا في ترك الأموال والبيوت والديار في مكة المكرمة والذهاب إلى المدينة المنورة، فكان الإسلام هو أغلى شيء في حياة المسلمين، وكانت النتيجة النصر والتمكين.

(٤) الاعتصام بالله تعالى: فالاعتصام بالله هو الفرج والمخرج، فرسول الله- صلى الله عليه وسلم- يخرج من بيته المحاصر بأربعين رجلاً لقتله، وهو يقرأ القرآن ؟وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ؟ (يس: الآية ٩) ولا يخرج سالمًا فقط، بل ويضع التراب فوق كل الرؤوس، وهذا شأن المعتصم بالله الآوي إلى ركنه الركين.

(٥) تأمين الدعم الاقتصادي وتسهيل وصول الدعم اللوجستي: فأبو بكر الصديق وفَّر المال اللازم لشراء الراحلتين، ودفع أجر الخبير الطوبوغرافي، وأسماء بنت أبي بكر كانت توصل الطعام، واختيارها كامرأة تتحرك بسهولة لا يتعرض لها العرب بطبيعتهم سهَّل وصولَ الدعم اللوجستي لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- وصاحبه في رحلة الهجرة.

(٦) التخطيط الجيد والعمل المنظم: وتمثَّل هذا في الآتي:

١- تأمين حياة أفراد الأمة: فتأخير هجرة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- والأمر بخروج الأفراد سرًّا وفرادى حتى لا يعلم أحد مقصودهم الجديد، فينقضوا عليهم جميعًا فيه تأمين لخروجهم.

٢- خروج الرسول- صلى الله عليه وسلم- في وقت غير معهودٍ الخروجُ فيه: وقت الظهيرة واشتداد الحر في ومضاء مكة.

٣- استئجار خبير في الطوبوغرافيا (عبد الله بن أريقط): حتى لا يسير في طريقٍ معهود، فيسهل الإمساك بهم.

٤- استخدام الإخفاء والتمويه: وهو أحد وسائل الحرب الحديثة وتمثَّل ذلك في الآتي:-

أ- مبيت سيدنا علي مكان الرسول حتى يظلوا ينتظرون خروجه، وذلك في المرحلة الأولى حتى يتمكن من الخروج من مكة.

ب- عامر بن فهيرة يسير بقطيع من الغنم خلفهم لتغطية الآثار؛ حتى لا يستطيع أحد أن يقتفيَ أثرَهم.

ج-البقاء في الغار ثلاثة أيام في الوقت الذي تنتشر فيه قوى الشر في كل مكان للبحث عنهم.

د- تغيير اتجاه المسير فبدلاً من الانطلاق في اتجاه الشمال، وهو التفكير المنطقي لمن يريد الملاحقة، يتجهون إلى الجنوب أولاً حيث لا يخطر ذلك ببال أحد.

(٧) توزيع الأدوار:

أ - الكبار يوفِّرون الدعم المادي للمساندة والصحبة.

ب- الشباب والفتيان يقومون بالأعمال الفدائية والاستخباراتية.

ج- المرأة تقوم بالدعم اللوجستي.

د- باقي الأفراد يهيئون الدولة والأرض الجديدة ويرتبون احتفالية الاستقلال: (طلع البدر علينا من ثنيَّات الوداع)

(٨) الشجاعة والقوة في الحق وتحدي الباطل وعدم الاستكانة إليه: وتمثَّل ذلك في موقف سيدنا عمر بن الخطاب وبطولته العظيمة، حين صعد على الجبل وأعلن هجرته حتى يعلِّم الظالمين درسًا في قوة الحق، وأن المسلمين لم يهاجروا خوفًا ولا جبنًا، ولكن هاجروا من أجل مصلحة الدعوة، ولبناء دولة الإسلام في أرضٍ جديدة، وكانت هذه رسالةً لا بد من توصيلها في موقف سيدنا عمر بن الخطاب.

(٩) رعاية جميع الحقوق حتى حقوق الأعداء: وتمثل ذلك في مقام سيدنا علي في مكة لتوصيل الأمانات إلى أهلها، وهم الكافرون أعداء الدعوة.

(١٠) الفدائية: يحتاج التغيير إلى شباب فدائي على استعداد لتقديم روحه فداءً لدعوة الله، وتمثَّل هذا في مبيت سيدنا علي في فراش رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في موقف يعرضه للقتل على يد أربعين رجلاً متربِّصين بالخارج.

(١١) استشعار معية الله لإنقاذ الأمة في أحلك الأوقات: في لحظةٍ من لحظات الإحساس بقرب سيطرة الأعداء وبطشهم بالأمة وقضائهم عليها واستئصالهم لشأفتها "لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا"، وتأتي النجاة باستشعار معية الله ؟لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ؟ (التوبة: من الآية ٤٠).

(١٢) الاستطلاع الجيد والمخابرات النشطة الفاعلة: وتمثل هذا في تكليف عبد الله بن أبي بكر الغلام الصغير أن يعمل (ضابط مخابرات) لحساب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فهو صغير يجلس في وسط القوم، فلا يعملون له حسابًا، ويتكلمون بما يريدون وينقل هو كل خططهم لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- ولسهولة حركته أيضًا كغلام لا يلتفت له أحد، فهو يجلس معهم طوال النهار، وينطلق في الليل إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- جهاز مخابرات ذكي ونشط وفاعل ولا يخطر على بال أحد.

(١٣) نفوس قوية لا يصيبها الحزن ولا يعتريها الإحباط: مهما كانت قوة الأعداء ومهما اختلَّت موازين القوى الظاهرة، فمعية الله أقوى من أية قوة، وتأييد الله بجنود غير مرئية يُلقِي في قلوب المؤمنين الهدوء والسكينة والثقة والطمأنينة بحتمية نصر الله ؟فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا؟ (التوبة: من الآية ٤٠).

(١٤) الأمل في نصر الله: "ارجع ولك سوارا كسرى" كمن يقول الآن "ارجع عن محاربة المسلمين ولك البيت الأبيض" كلام يقوله رسول الله لسراقة، وهو خارج مطارد تطلبه قوى الشر في كل مكان.

هيا نكمل طريق الهجرة يا أمتنا الحبيبة

طريق الهجرة دائم مستمر عبْر نهج رسمه لنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وقد قطعت أمتنا بعض الأشواط في طريق هجرتها، ولكنَّ الأمر ما زال يحتاج إلى جهود كبيرة وأشواط كثيرة حتى نكمل طريق الهجرة، ويتمثل ذلك فيما يأتي:

(١) الجهاد والنية: فلا يكتمل طريق الهجرة بدون النية الصالحة لبناء الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة بأكملها، ونجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

ولا يكتمل طريق الهجرة بدون جهاد النفس والشيطان ومقاومة المادية وأصحاب الأهواء الذين يضيِّعون الأمة، وكذلك محاربة المحتلين أعداء الأمة الذين يستذلونها، وبذلك نحقق حديث رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية".

(٢) هجر ما نهى الله عنه: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" (رواه البخاري) وفي رواية ابن حبان: "المهاجر من هجر السيئات، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" هيا نهجُر السيئات.. هيا نهجُر كل ما نهى الله عنه في كل الميادين وعلى كل المستويات بدءًا بالفرد وانتهاءً بالأمة، فتهجر الأمة معاصيَها الكبيرة المتمثلة في الآتي (على سبيل المثال):

١– الاحتلال وتدنيس الأراضي ومقدسات المسلمين من قِبَل الأعداء.

٢ – التخلف عن ركب العلم والحضارة وكونها في وسط ما يسمى بالعالم الثالث.

٣ – التفرق والتشرذم وعدم اتحاد الكلمة.

(٣) الأخذ بمقومات التغيير لإصلاح شأن الأمة: وخاصةً الاهتمام بنشر دعوة الإسلام عبر وسائل الإعلام، فدعوتنا تحتاج إلى الابتكار وتكريس الجهود لتوصيل الفكرة بأسلوب راقٍ ومتميز عن طريق الفضائيات والإنترنت وبشتى لغات العالم، فنقدِّم رسالة الرحمة والإنسانية لكل أمم الأرض.

ومع استمرار الجهود واحتفالنا بالهجرة كل عام عبر التغيير والارتقاء بشأن أمتنا وهجرها لأوضاعها غير السليمة في شئون الدنيا والآخرة سيحدث التغيير المنشود، ويأتي النصر المؤزر المبين بإذن الله.

(٤) تحقيق العبادة هجرة إلى الله تعالى: هيا نأخذ بيد أمتنا إلى عبادة الله تعالى، فنقيم الفرائض وننشر الفضائل ونحقق العبادة بمعناها الشامل الذي يتناول مظاهر الحيـــاة جميعًا.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن معقل بن يسار-: "العبادة في الهرج كهجرة إليَّ".

الهجرة مشروع لبناء حضارة إيمانيه جديدة

• عندما هاجر ــ عليه الصلاة والسلام ــ من مكة لم يهجر قلبه تــراب مكــة ، ولا الكعبة الرابضة فى قلب مكة ، ولقد أعلن ــ عليه السلام ــ ذلك بعبــارة صــحيحة عندما التفت إلى مكة وهو يودعها قائلاً : إنك لأحب بلاد الله إلىّ ، ولــولا أن أهلــك أخرجونى ماخرجت.

• وعندما هاجر الرسول من مكة ، لم يهجر قريشاً ، ولا بنى هاشم ، فلقد كان يحــب الجميع ويتمنى لهم الهداية والخير ، كما أنه ــ وهو الوفى ــ لم ينس لبنى هاشــم ــ مسلمهم وكافرهم ــ مواقفهم معه عندما قادتهم عصبية الرحم فحموه من كل القبائــل، ودخلوا معه شعب أبى طالب يقاسون معه ومع المسلمين الجوع والفاقة ، ولا يمنّــون عليه بذلك ، مع أنهم على غير دينه ، لكنه الولاء للأرحام.

• فالرسول المهاجر ــ عليه السلام ــ لم يهجركل ذلك بل حمله معه فى قلبه ، يحــنّ إلى ذلك اليوم الذى يعود فيه إلى مراتع الصبا ، و إلى الرحم الذى وقف معه حتــىّ قال قائلهم وسيدهم أبو طالب : اذهب يا ابن أخى فقل ما شئت فــوالله لــن أســلمك أبداً.... مع أنه لم يكن على دينه!!

• وإنما كانت هجرة الرسول ــ ﷺ ــ من مكة هجراً للوثنية المسيطرة التى لايريــد أصحابها أن يتعاملوا بمنطق الدين أو منطق العقل أو منطق الأخلاق ... فهذه وثنيــة يجب أن تهجر وأن يهاجر من مناطق نفوذها وإشعاعاتها.

• وإنما هاجر الرسول أيضاً ، وهجر أيضا ــ إلى جانب الوثنية المســيطرة ــ تلــك العصبية المستعلية التى تعرف منطق القوة ، ولاتعرف منطق الحــق ، ولــيس فــى وعيها ولا فى قاموسها أن تهادن الإيمان، وأن تتــرك مســاحة للتفــاهم والحــوار ، وبالتالى تصبح الحياة معها ــ بعقيدة إيمانية بعيدة عن إشعاعاتها ــ أمراً مستحيلاً....

• إننا نريد أن يفهم مضمون الهجرة الإسلامية كما ينبغى أن يفهم ، وأن تكون هجرة الرسول هى المرجعية لهذا الفهم ، فقد بعث محمد ــ ﷺ ــ (رحمة للعالمين) فكيــف

تكون إذن رحمته بالقوم الذى انتسب إليهم ، أو بالقوم الذين عاش معهم ، أو بالأرض الطاهرة التى نشأ فيها ، وتربى فى بطاحها وتنسم عبيرها ، وشاهد جموع الـــزاحفين إلى أرضها الطاهرة من كل فج عميق ؟!!

• إن رحمته ــ بالضرورة هنا ــ لابد أن تكون أكبر من أى رحمه أخرى ...

• ولهذا نراه ــ عليه السلام ــ يرفض دائماً أن يدعو على أهل مكة ، وحتى وهو فى هذه اللحظة البالغة الصعوبة ، عندما وقع فى حفرة حفروها له فى موقعة أحد (٣هـــ) ، وتناوشته سهامهم من كل مكان ، وسالت دماؤه الطاهرة على جبل أحد الذى كـــان يتبادل الرسول ــ عليه السلام ــ الحب معه ، لأن بعض قطرات دمائه الزكيـــة قـــد اختلطت بتراب أحد الطاهر ، فأصبحا حبيبين... !!

• حتى فى هذه اللحظة البالغة الصعوبة لم يستطع لسانه الزكى ، ولا قلبه التقـــىّ أن يدعو عليهم ، ولا أن يشكوهم إلى الله ، وإنما كان يردد على مسمع من الناس جميعاً: اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون

• وعندما كان يرى تمادى قريش فى الحرب ، كان يتأسف عليهم ويقول: ويح قريش أكلتهم الحرب لوتركونى لتركتهم ، لايحولون بينى وبين الناس...

• وكم راودته الجبال الشم ــ بأمر من الله ــ أن تطبق عليهم فكان يرفض ويقـــول : لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ويوحده. وعندما جاءته فرصـــة الســـلام معهم أصرعليها، مع تعنتهم فى الشروط تعنتاً أغضب أصحابه ، لكنه كان يريد لهـــم الحياة ، وألا تستمر الحرب فى أكلهم ، وألا يبقوا ــ وهم قومه وشركاؤه فى الـــوطن ــ مستمرين فى تأليب القبائل عليه لدرجة أنهم أصبحوا (العقبة الكأداء) فـــى طريـــق الإسلام ؛ مما يفرض عليه بأمر الله الجهاد لإزالة هذه العقبة ، ونجح الرســـول فـــى إزالة عقبتهم بقبول شروطهم المجحفة ، حباً لهم ، وحفاظاً علـــى بقـــائهم ، وأيضـــاً لإفساح الطريق أمام دين الله.

• أما حين دخل مكة ــ عليه الصلاة والسلام ــ فاتحا فقد حـــافظ بكـــل قـــوة علـــى كرامتهم ودمائهم ، ولم يقبل مجرد كلمة خرجت من فم ســـعد بـــن عبـــادة ــ أحـــد

الصحابة والقادة الأجلاء ــ وذلك عندما قال :(اليوم يوم الملحمة) فنزع الراية منه ، وأعطاها لابنه قيس وقال (لا: بل اليوم يوم المرحمة) ، اليوم يعزّ الله قريشاً ...

• وعندما استسلمت مكة كلها تماماً ، ووقف أهل مكة ينتظرون حكمه فيهم مستحضرين تاريخهم الظالم معه ... لكنهم سرعان ما تذكروا أنه الرءوف الرحيم الطاهرالبرىء من رغبات الانتقام أو المعاملة بالمثل... ، فلما سألهم : ماتظنون أنى فاعل بكم ، قالوا ،أخ كريم وابن أخ كريم ،فرد عليهم قائلاً : (لاتثريب عليكم) ، وهى كلمة نبى الله يوسف ــ عليه السلام ــ التى قالها لإخوته ، ومنها ندرك أنه اعتبرهم جميعاً اخوته ، كأنهم اخوة يوسف (عليه الصلاة السلام) ،ثم أعلن العفوة العام بتلك الجملة الخالدة :اذهبوفأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى فكأنه أنقذهم من الموت الزؤام عليه الصلاة والسلام.

* * * * * *

ونقول للمهاجرين من أبناء عصرنا لظروف سياسية أو اقتصادية أو دعوية إلى بلاد غير إسلاميه :

هذه هى هجرة رسول الله بين أيديكم ، وهى كتاب مفتوح فأمعنوا القراءة فيه ، لتدركوا منه أن هجرتكم من بلادكم لأى سبب من الأسباب ، لاتعنى القطيعة مع أرض الوطن ، ولا مع الأهل والعشيرة ، ولا مع المسلمين فى أى مكان ، مهما تكن الخلافات الظرفية الطارئه معهم... بل يجب أن تبقى الصلة قائمة بينكم وبين الأهل والقوم، تمدونهم بأسباب الحفاظ على الدين من مواقعكم ، لكى يثبتوا ويمتدوا بإشعاعات الإيمان إلى أكبر مدى ممكن ، لاسيما ووسائل التواصل الأن فى أقوى مستوى عرفته البشرية ، وبالتالى تكونون قد وصلتم الرحم، وجمعتم بين الثلاثية المتكاملة التى تمثل بأركانها الثلاثة وحدة لا تنفصم ، وإلا فقدت الأمة (مكانة الخيرية) التى رفعها الله إليها عندما قال : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " ... إنها ثلاثية الإيمان ،و الهجرة ، والجهاد .

• أجل : فى عصرنا هذا يجب أن يعود معنى الهجرة إلى منبعه النبــوى ، فليســت الهجرة هجراً للوطن ، وقطيعة تاريخية أو معرفية معه ، بل هى هجــرة موصــولة بالماضى ، تعمل على تعميق الإيمان فيه ، وتبنى قلاعاً للإيمان فى المهجر الجديــد ، وتصل بين الماضى والحاضر والمستقبل انطلاقاً من درس الهجرة النبوية .

* * * * * *

• إن الحرية التى تريد أن تتمتع بها فى مهجرك ، والثروة التى تريد أن تكوّنهــا ..، وحتى الدعوة التى تريد أن تبلغها إن كنت ممن اصطفاهم الله للدعوة والبلاغ ... كل هذه تدفعك إلى التواصل مع الماضى من جانب ، وتدفعك إلى بناء حــدائق للإيمــان يفوح عطرها فى وضعك الجديد ، وبلدك الجديد ــ من جانب آخر .

• ليكن معنى الهجرة واضحاً فى وعيك ، فهى ليست هجرة من أرض ولا أهل إلــى أرض وأهل آخرين ، بل هى هجرة من قيم ضيقة ضاغطة تكبل حركــة الإيمــان ، وتفتعل الصدام المستمر ، وترفض الحوار بين الأفكار والعقائد ــ إلى قــيم أخــرى تسمح لأشجار الإيمان أن تنمو، وتسمح بالتفاعل والتحاور ، ومواجهة الرأى بالرأى ، والحجة بالحجة ، وتكون مؤهلةلأن تسمح لأهل الإيمان والحق أن يعيشوا كما يريدون ، وأن يبنوا قلاع الإيمان فى النفوس عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظــة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن !!

• إن الهجرة النبوية الإسلامية هجرة يقصد بها كسر القيود التى تفرض على الإيمان ، وفتح نوافذ أخرى فى أرض جديدة ، وليست الهجرة الإسلامية أبداً من تلك الهجرات التى تعنى زحفاً على البلاد للاستيطان فيها على حساب أهلها ، أو لتحقيق الثروة ثــم الخروج بها ، أو للاعتماد عليها لقهر أصحاب البلاد الأصــليين ، وجعلهــم مجــرد منفذين وأدوات لمشروعات وطموحات المهاجرين إليهم .

• وليست الهجرة ــ فى المفهوم الاسلامى قبل عصرنا أو فــى عصــرنا ــ إنشــاءً لكيانات أو (لوبيات) مسيطرة ، أو (أحياء مغلقة) تعتزل الناس فتخرج مــن الأنبــاء مجموعة مستعلية رافضة تحمل قلوباً حاقدة ، بل على العكس من ذلــك ، فــالهجرة

الإسلامية اليوم إلى أىّ بلد فى العالم ــ يجب أن تكون هجرة تسعى إلى التواصل و التعارف و التحاور والحب؛ بحيث يشعر كل الناس أنّ الأفراد المسلمين أو الجماعات الإسلامية التى تعيش بينهم إنما تمثل روحاً جديدة، تبنى ولا تهدم ، وتزرع الخير ، و تقاوم الشر ، ولا تعرف التفرقة فى ذلك بين المسلم وغير المسلم ، والوطنى ، و الوافد ، والأبيض والأسود .

• وكل ذلك لن يتحقق إلا إذا رأى الناس فى المسلم المهاجر إليهم من خلال أقواله وأفعاله ، وإسهاماته الخدميّة ، وآفاقه المعرفية ، وعبوديته لله ــ شخصية متميزة جادة تفعل ما تقول ، وتعيش معهم حياتهم اليومية ، وآمالهم، وآلامهم، يفيض منه الخير والنور ، تلقائياً وعفوياً ، كأنه بعض ذاته ، وكأنه مرآة قيمه ، وصدى أخلاقه ، وأثر منهجه فى الحياة ...

• وهنا يتساءل الناس من غير المسلمين :

• من أين لهذا المهاجر كل هذا الخير والنور ؟

• من أين له هذه الإنسانية المتدفقة ؟

• ومن أين له هذه الرحمة التى تعم الإنسان ــ(كل انسان) بل والحيوان والنبات أيضاً

• سيصلون حتماً إلى الإجابة الصحيحة ، وهى أن هذا الإنسان يرتشف من نبع الأنبياء ، ويستمد وعيه الحضارى ومشروعه الانسانى الرحيم من نبيه وإمامه ، وإمام المسلمين الأعظم ، بل وإمام الإنسانيه محمد ــ ﷺ ــ ... فقد كانت هجرته المباركه روحاً جديدة ، عبر عنها أحد

الصحابه الكرام (أنس بن مالك رضى الله عنه) فى قولته المعروفة التى ذكر فيها أنه عندما دخل الرسول المدينة بعد نجاح هجرته :" أضاء منها كل شىء وعندما مات عليه السلام أظلم فيها كل شىء " وهذا على العكس من مكة التى تسلل منها المسلمون هاربين بدينهم ، فأظلم فيها كل شىء ، ولم يبق فيها إلا الطغيان ، والنزوع إلى

الحرب ، فلما فتحها الرسول عليه السلام انبعث فيها النور ، وأضاءت الكعبة ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وأصبحت مكة قلعة الإسلام الأولى .

إن هذا المعنى للهجرة يجب أن يبقى فوق كل العصور لأنه اتصل بنبىّ الرحمة فى كل العصور وكل الأمكنة ، وأصبح ــ بالتالى ــ صالحاً لكل زمان ومكان، صلاحية كل حقائق الإسلام الثابته.

• ولئن كنا نؤمن بأنه (لا هجرة بعد الفتح) كما قال الرسول ﷺ ، فإننا يجب أن نؤمن فى الوقت نفسه ببقية الحديث، وهو قول الرسول : ولكن (جهاد ونية) ، وهذا يعنى أن الهجرة بعد مرحلة الهجرة الأولى قد أخذت بعداً اصطلاحياً جديداً ، ففى البعد الأول كانت الهجرة مرتبطة بمكان هو المدينة ، ولكنها بعد ذلك أصبحت مطلقة من المكان ، فهى إلى أى مكان شريطة أن يكون (الجهاد والنية) هما الهدفين المغروسين فى النفس ، فهما ــ أى الجهاد والنية ــ قد انفصلا عن قيد وحدة المهجر(المدينة) الذى كان فى صدر الدعوة، وأصبحا صالحين فى كل العالم يمشيان مع رجال الدعوة والبلاغ، ويضمنان سلامة الأعمال وارتفاعها على المنافع الاقتصادية أو الظروف السياسية .

* * * * * *

• وعندما يستقّر هذا المعنى فى النفس نستطيع أن نطمئن إلى أن أبطال الدعوة والبلاغ سينشئون فى كل مكان يحلّون فيه حديقة جديدة للإيمان، وتاريخاً جديداً يبدأ كأشعة الشمس فى الصباح، ثم ينساب عبر كل زمان منطلقا إلى مساحة جديدة فى الأرض .

• وعلى المسلمين إذن ــ عندما يكونون فى أرض المهجر ــ أن يسارعوا إلى الالتحام ببعضهم، وتكوين مجتمع إيمانى يقوم على(المؤاخاة) التى ترتفع فوق الأخوة، وهى مستوى خاص فوق أخوة الإيمان التى هى مستوى عام ، وأن يتكافلوا مع بعضهم تكافلاً مادياً ومعنوياً ، تحقيقاً لقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وقوله أيضاً (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

• والتكافل (المادى) يعنى التعاون على ضمان الحد الأدنى المطلوب للحياة لكل أخ مسلم، طعاماً أو شراباً أو علاجاً أو تعليماً أو كساءً ، والتكافل (المعنوى) هو التعاون على ضمان التزام (الإخوة) فى الإسلام بأداء (الفرائض) والبعد عن (المآثم) ، وتفعيل وظيفة الأمر بالمعروف وألنهى عن المنكر فى إطار البيئة التى يعيشون فيها وبالأساليب المناسبة لها ، وعليهم أيضاً أن يبنوا (مسجداً) يضم الرجال والنساء والأطفال ، مهما يكن مستواه متواضعاً ، فقد حذرنا الرسول من وجود عدد مهما سكن قليلاً من المسلمين لا تقاوم الجماعة فيهم ، كما أن (المسجد) سيكون محور لقاءاتهم وتعارفهم وتكافلهم المادى والمعنوى ... ومن المسجد ينطلقون إلى صور من التكامل فيما بينهم تأخذ طابعاً علمياً ومؤسساتياً يجعل لهم قيمة وتأثيرا وإشعاعاً فى مهجرهم الجديد .

• لقد أخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن مما فضل به على بقية الأنبياء أن الأرض (جعلت له مسجداً) ... وقد حقق المسلمون السابقون العظماء (مسجدية الأرض) فى كل الأرض التى هاجروا إليها ، فهل يمكننا أن نستأنف المسيرة ونحذوا حذوهم ، فلعل الأرض تتخلص من شياطين الإنس والجن ، ونعود مسجداً .

• ولعل الله يجرى على أيدينا وأيدى المسخلفين من بعدنا نهراً جديداً للإيمان ، وتاريخاً جديداً تتعانق فيه راية الوحى مع العلم ، والحق مع القوة ، ويسود العدل الإسلامى والرحمة المحمدية العالمية كل الكون ... وما ذلك على الله بعزيز !!

الهجرة مواقف ودروس

تعتبر الهجرة النبوية المباركة من مكة إلى المدينة أهم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية، إذا كانت نقطة تحول في تاريخ المسلمين من أمة دعوة يبلغون دعوة الله للناس دون أن يكون لهم كيان سياسي يحمي الدعاة، إلى دولة الدعوة التي أخذت على عاتقها نشر الإسلام، وتتكفل بالدفاع عنهم وحمايتهم من أي اعتداء.

لقد كانت الهجرة النبوية خطوة مباركة في الطريق إلى النصر والعزة والسيادة، ومن أجل العقيدة والمبدأ، وفي سبيل الله هاجر الرسول- صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله.

والهجرة هي التطبيق العملي لهذه الرسالة الخالدة يكشف عن معادن الرجال وعن الإيمان وما يضعه في النفوس حين يكتمل فيها ويستقر، ولقد تحول المسلمون المهاجرون إلى كتلة من الحب والوفاء لقائدهم والتضحية بكل شيء في سبيل عقيدتهم، والمبدأ الذي بايعوا عليه، ويظهر هذا الحب العميق الذي سيطر على قلب "أبي بكر الصديق" لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- في الهجرة فنرى مواقف عدة تعبر عن هذا الحب الرباني منها:

• ولما انتهيا إلى الغار قال أبوبكر: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكسحه، ووجد في جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدها به وبقي منها اثنان فألقمها رجليه ثم قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: أدخل فدخل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ووضع رأسه في حجره ونام، فلُدغ أبو بكر في رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فسقطت دموعه على وجه رسو الله- صلى الله عليه وسلم- فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال: لُدِغت فداك أمي وأبي، فتفلَّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فذهب ما يجده.

ونتعلم من هذا الموقف ذلك الحب النابع من القلب بإخلاص ولم يكن حب نفاق أو مصلحة أو رغبة في منفعة، هذا الحب الذي يدفع إلى الفداء والتضحية والحرص على راحة النبي- صلى الله عليه وسلم.

• وعندما جاء عبدالله بن أريقط بالراحلتين، وحينئذٍ قال أبو بكر للنبي- صلى الله عليه وسلم: بأبي أنت يا رسول الله خذ إحدى راحلتي هاتين، وقرب إليه أفضلهما، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بالثمن.

ونتعلم من هذا الموقف إيثار أبو بكر- رضي الله عنه- وعفة النبي- صلى الله عليه وسلم.

• وكان من دأب أبي بكر- رضي الله عنه- أنه كان ردفًا للنبي- صلى الله عليه وسلم- وكان شيخًا ونبي الله- صلى الله عليه وسلم- شابًا لا يُعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: مَن هذا الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني الطريق، فيحسب السائل أنه يعني به الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، ونتعلم من هذا الموقف هذا الأدب الجم والاحترام والتقدير للقيادة.

• ويظهر أثر التربية النبوية في جندية "أبي بكر الصديق"، فأبو بكر- رضي الله عنه- عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة وقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم- "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا" لقد كان يدرك بثاقب بصره- رضي الله عنه- أن خطة الهجرة قد تأتي فجأة، فأعد عدته وأخذ أهبته وأعد كل أفراد أسرته ليكون لهم دور في هذه الخطة.. تلك هي الجندية الصادقة التي تحول الإشارة والتلميح إلى إعداد وتجهيز مع حسن الطاعة والالتزام. ولنعلم أن القيادة الراشدة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء، وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود؛ فقد كان النبي- صلى الله عليه وسلم- رحيمًا وشفيقًا بجنوده وأتباعه فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه.

• إن الهجرة سنة من سنن الله مع أنبيائه ورسله منذ آدم عليه السلام وهي سنة ماضية لا تتخلف لمن طلب لدينه النصر، وقد ضُيق عليه ومُنع من تبليغ دعوته، وفتن هو ومن معه من المؤمنين.. قال تعالى: ؟إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا* إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً* فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا؟ (النساء:٩٧-٩٩).

والهجرة هي إيواء المؤمنين، ورعايتهم في جوار الله تعالى، يقول الحق سبحانه وتعالى: ؟وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ

مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا؟ (النساء:١٠٠) ويقول سبحانه ؟وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ؟. (الأنفال: ٢٦).

الهجرة والأمل في النصر

أ. سيد نزيلي

الهجرة النبوية بداية عهد جديد للأمة الإسلامية، وقد عانى المسلمون في مكة ثلاثة عشر عامًا.. عانوا أشدَّ ألوان الاضطهاد والإيذاء والإيلام.. وكان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يمر على المعذَّبين منهم ولا يملك إلا أن يقول: "صبرًا آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة".. وقتها لم تكن الدعوة قادرة على ردِّ العدوان ودفع الأذى.. ووقف العسف والظلم.. ولم يكن الرسول- صلى الله عليه وسلم- يُمني المستضعفين بقرب فتح أو تمكين، وبحلول نصر عاجل، أو بُشارة مغنم دنيوي عاجل.. وكان الخطاب الرباني لهذه الفئة المستضعفة.. القوية بإيمانها.. الشديدة التعلق بربها ؟أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ؟ (النساء: ٧٧) فكفُّ اليد، وإعداد الفرد الرباني، وتحرير القلوب والنفوس من كل الجواذب والتعلقات.. وربطها توًّا بالله عز وجل.. وقتها أحست هذه النفوس بالاستعلاء بالإيمان، وبالقوة والعزة ؟مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا؟ (فاطر :٩).

إنَّ المرحلة التي سبقت هجرة الرسول- صلى الله عليه وسلم- كانت مرحلة صقل وتمحيص، وإعداد وتأسيس، وتجهيز اللبنات الصالحة لقيام بنيان قوى متين.. وقد تعهدهم- صلى الله عليه وسلم- بالتربية، وخلعهم من رواسب الماضي، وأخذ بأيديهم إلى نور الهداية وصواب الطريق، وكان هناك معلمان بارزان:

الأول: أنَّ المنهج الرباني التربوي في عهد الرسول- صلى الله عليه وسلم- وفي كل زمان إنما ينقل النفوس من الموت إلى الحياة ؟أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا؟ (الأنعام: ١٢٢)، فالحياة الحقة في ميزان الإسلام هي للمؤمن الصادق.. العارف حق ربه.. ينطلق في هذه الدنيا ليملأها فضلاً وخيرًا وعفافًا وطهرًا.

الثاني: أن هذا الدين قد أخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور ؟اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؟ (البقرة: ٢٥٧).

هذا ما تربى عليه الرعيل الأول الذي تلقى الهداية مباشرةً من نور النبوة.. وهو نفس النهج الذي يسير عليه الصالحون في كل زمان، الـذين يعملـون لنصـرة الإسـلام والتمكين له. ولذلك فإنَّ المسلم الصادق ينطلق بهذا النور إلى الدنيا كلهـا؛ يعمرهـا بالإيمان ويحييها بالقرآن، وهو نفس المعنى الذي ترجمه "ربعي بن عامر"- رضوان الله عليه- الذي خاطب "رستم" قائد الفرس قائلاً: "ابتعثنا الله ليُخرج مَن شاء من عبادة العباد، إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الـدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة"، والإسلام قدَّم- ومازال- نماذجَ رائعة النقاء والطهر والسمو والرفعة.

ومن دروس الهجرة.. أن يملأ الأمل في نصر الله نفوسَ المؤمنين الصادقين؛ ذلك أنَّ نصر الله قريب من المؤمنين، و؟إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا؟ (الشرح:٥) ؟وَاللهُ غَالِبٌ عَلَـى أَمْرِهِ؟ (يوسف: ٢١) وأنه ؟كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي؟ (المجادلة: ٢١)، والمسلم لابد أن يعيش هذا الأملَ ويملأ قلبه الثقة واليقين بوعد الله عز وجل.. ونستطيع أن نستجلي ذلك في موقفين:

الأول: عندما أعلنت قريش عن جائزة كبرى "١٠٠" مائة ناقة لمن يدل على رسـول الله- صلى الله عليه وسلم- وصاحبه، ويمنعهما من الهجرة ويُعيدها إلى مكة.. وقـد أغرى ذلك "سراقة بن مالك".. وجهز راحلته وسلاحه، ومضى في إثر رسـول الله- صلى الله عليه وسلم- وصاحبه يريد اللحاق بهما والقبض عليهما.. وما كاد يقتـرب منهما حتى ساخت أرجل فرسه في الأرض، فلا يستطيع حركة.. ويستعطف رسـول الله أن يعفو عنه ويستغفر له، وتعهد بعدما رأى الآية ألا يُؤذي رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ولا يدل عليه، ولا يعين أحدًا كذلك على الإضرار به، وأهمُّ ما في بعض الروايات في هذا الموقف أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وعد "سـراقة بـن مالك" أن يرجع ويكون له "سواري كسرى"، وكتب له كتابًا وعهدًا بذلك.. وقد أسـلم "سراقة" وحسن إسلامه بعد فتح مكة. ولمَّا فتح الله على المسلمين بلاد فـارس بعـد حادث الهجرة بحوالي عشرين سنة في خلافة "عمر بن الخطاب"- رضي الله عنـه-

وعندما جاءت الغنائم إلى المدينة، ومن بينها "سواري كسرى" طالب "سراقة بن مالك" بحقه بعدما أظهر صكًا بذلك من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فأعطاهما إليه عمر.

الثاني: أنَّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بعد أن أمر المسلمين بحفر الخندق في شمال المدينة المنورة لمنع قوى الأحزاب المتألبة من دخولها وغزوها.. شارك رسول الله- صلى الله عليه وسلم- الحفر، ولمَّا اعترضته صخرة عظيمة.. كان-صلى الله عليه وسلم- يضربها بالمعول فتخرج شرارًا.. فيقول- صلى الله عليه وسلم- "الله أكبر فتحت قصور قيصر.. الله أكبر خربت خيبر".وهكذا فإنَّ الأملَ في نصر الله، والتمكين لدين الله كان دائمًا يبشر به رسول الله-صلى الله عليه وسلم- حتى في أشدِّ حالات التضييق والحصار.

وفي أيامنا هذه.. تواجه الأمة الإسلامية شتى ألوان الحصار والتجنيب والتهميش، ومهما اشتدَّ الكرب، وتجمع الأعداء من كل حدب وصوب.. وتكالبت جميع القوى.. ومهما كان يُعانيه الإخوة الفلسطينيون من قتل وتشريد وتخريب وتجريف، ومهما كان شأن الاحتلال الأمريكي الشرس للعراق وأفغانستان، ومهما بدت الصورة معتمة إلى حد ما، ومهما حاول طمس معالم الشخصية الإسلامية بالتدخل في تعديل وتغيير مناهجها الدراسية والتعليمية لصوغها، وفق أهوائهم وسلبها أهم مقوماتها الأساسية.. وهي القرآن والسنة والجهاد، أقول مهما فعلوا ذلك كله وغيره.. إلا أننا على ثقة ويقين بأنَّ الإسلام سيظل سليمًا محفوظًا؛ فهو محفوظ بحفظ الله له، وبقيام فئة مؤمنة واثقة تعمل له، وتحيا من أجل الدفاع عنه.. تتخذ الله غايتها، والقرآن دستورها والرسول قائدها والجهاد سبيلها والموت في سبيل الله أسمى أمانيها.

﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

- من قيادات جماعة الإخوان المسلمي

الهجرة والمهاجرون

١- نصوص مضيئة على أحداث الهجرة :

النص الأول : الهجرة إلى الحبشة :

"لما اشتد البلاء من قريش على المستضعفين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدا، ثم إن رسول الله لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء وأنه لا يقدر على أن يحميهم ويمنعهم مما هم فيه، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام" .

النص الثاني : الهجرة إلى المدينة

"كانت بيعة العقبة الثانية، بيعة حرب الأحمر والأسود مقابل الجنة، ولما صدر السبعون من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، طابت نفسه، فقد جعل الله له منعة، وقوما أهل حرب وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، لما يعلمون من الخروج، فضيقوا على أصحابه، وتعبثوا بهم ونالوا ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة فقال : لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها، فهاجر القوم أرسالا فنزلوا على الأنصار في دورهم فآووهم ونصروهم وآسوهم" .

النص الثالث : هجرة الرسول ﷺ :

"لما أذن لرسول الله ﷺ بالخروج، انطلق إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شيء يخشى عليه إلا استودعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمون من صدقه وأمانته، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج معه أبو بكر... ولما كانت عتمة الليلة التي هاجر فيها النبي صلى الله عليه وسلم، اجتمع

المشركون على باب رسول الله ﷺ يتربصون به ليقتلوه، لكنه خرج من بينهم وقد ألقى الله عليهم سنة من النوم بعد أن ترك عليا في مكانه نائما على فراشه وطمأنه أنه لن يصل إليه أي مكروه" . فسار رسول الله ﷺ ، وواصل مسيرته حتى وصل إلى المدينة، وخرج المهاجرون والأنصار لاستقباله فرحين بقدومه.

٢- الهجرة والمهاجرون :

جاء في اللسان في مادة "هـ، ج، ر"""""""""""""""""""""""""""" قوله : الهجر ضد الوصل، هجره يهجره هجرا وهجرانا، صرمه، وهما يهتجران ويتهاجران والاسم الهجرة... يقال : هجرت الشيء هجرا، إذا تركته وأغفلته، وهجر فلان الشرك هجرا وهجرانا، والهجرة والهجرة : الخروج من أرض إلى أرض" .وجاء في المفردات : الهجر والهجران مفارقة الإنسان غيره إما بالبدن أو باللسان أو بالقلب . والهجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن وكذلك كل مخل بمسكنه متنقل إلى قوم آخرين بسكناه فقد هاجر قومه.

ووردت مادة "هـ، ج، ر" في القرآن الكريم أكثر من عشرين مرة تمحورت حول المعاني التالية :

*هجرة الشرك بجميع أصنافه وألوانه، وكل المعتقدات الجاهلية المخالفة لمعتقدات الإسلام، يقول الله تعالى في سورة المدثر "والرجز فاهجر" "واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا" المزمل.

*هجران الشهوات والأخلاق والعادات الذميمة، وتركها ورفضها وكل المعاصي والذنوب "والرجز فاهجر" المدثر ٥.

*الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان كمن هاجر من مكة إلى المدينة "ومن يخرج من بيته مهاجرا، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" النساء ١٠٠.

*الهجرة مزيد من البذل والتضحية والصدق في سبيل الله : "فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم" آل عمران ١٩٥.

*الهجرة مقام من مقامات الإيمان والإحسان والولاية : "للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون" الحشر ٤١ "الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله" التوبة /٢٠ "والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا" الأنفال ٧٣/.

وذكرت الهجرة في أحاديث كثيرة منها "لا هجرة بعد ثلاث" يقصد به الهجر ضد الوصل، يعني فيما يكون من المسلمين من عتب وموجدة أو تقصير يقع في حقوق العشرة والصحبة دون ما كان في ذلك من الدين.

وفي حديث آخر "ومن الناس من لا يذكر الله إلا مهاجرا" يريد هجران القلب وترك الإخلاص في الذكر، فكأن قلبه مهاجر للسانه غير مواصل له، ومنه حديث أبي الدرداء رضي الله عنه "لا يسمعون القرآن إلا هجرا" يريد الترك له والإعراض عنه.

كما أن الهجرة مستمرة إلى قيام الساعة "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة" وتأخذ الهجرة معنى الجهاد في الحديث التالي : "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية".

٣- الدعوة وسنة الابتلاء :

لما نزل قوله تعالى : "فاصدع بما تومر" قام رسول الله ﷺ وصدع بالدعوة إلى الله تعالى، فاشتد أذى المشركين له ولمن استجاب لدعوته، وهذا الابتلاء سنة الله في الدعوات يقول الله عز وجل : "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب" .

فمن آمن امتحنه الله عز وجل وابتلاه، ليتبين الصادق من الكاذب فمن صدق وصبر كانت له العاقبة في الدنيا والآخرة، فلا يحصل التمكين إلا بعد الابتلاء، سئل الشافعي رحمة الله أيها أفضل للرجل : أن يمكن أم يبتلى ؟ قال : لا يمكن حتى يبتلى .

أ- الابتلاء بالحرب النفسية :

لقد عرف ﷺ في أوساط الجاهلية بمحمد الأمين، وكانوا يحكمونه في خلافاتهم ويأتمنونه على ودائعهم، ولما أخبرهم أنه رسول من عند الله كذبوه واتهموه ونعتوه بأقبح النعوت وقالوا عنه ساحر كذاب "وقال الكافرون هذا ساحر كذاب" سورة "ص" آية ٤، وقالوا مجنون وقالوا كاهن، كانوا يستهزؤون بأصحاب الرسول ﷺ ويلمزونهم ويطلقون عليهم أصنافا من الإشاعات.

بـ- الابتلاء بالاضطهاد والتعذيب:

بينما النبي ﷺ يصلي في الحجر بالكعبة إذ أقبل بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فحذفه حذفا شديدا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه النبي ﷺ فقال :"""""""

أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب مالا في أموالكم، ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا" وهذا الأمر قد تكرر مرات متعددة في صور مختلفة.

هـ- الابتلاء بالقتل والاغتيال :

قال الله عز وجل : "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين" الأنفال ٣٠.

لما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد هاجروا إلى المدينة وتحصنوا بها خافوا من تعاظم أمر هذه الدعوة، فاجتمع الملأ من قريش وتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ واتفقوا على اغتياله وتفريق دمه بين القبائل من خلال أخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا ثم يعطى كل منهم سيفا صارما ثم يعمد إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه كي لا يقدر بني عبد مناف على ضربهم جميعا" .

ثم مضى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه وضرب العنكبوت على بابه، ثم تابعا سيرهما إلى المدينة بعد أن قضيا به ثلاثة ليال حتى يئس المشركون من الظفر بهما، ففكروا في جعل دية لمن جاء بهما وسمع قراءة رسول الله ﷺ وأبو بكر يكثر الالتفات وقال أبو بكر : هذا سراقة بن مالك قد رهقنا، فدعا عليه رسول الله ﷺ فساقت يدا فرسه في الأرض، فقال : قد علمت أن الذي أصابني بدمائكما فادعوا لي ولكما علي أن أرد الناس عنكما فدعا له رسول الله ﷺ فأطلق.

ولما وصلا المدينة وجدا النبي ﷺ الأنصار والمهاجرين ينتظرونه في شوق واستقبلوه بالتكبير والتهليل وزغاريد النسوة" .

كان أول عمل قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم، بناء مسجد قباء والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين.

٤- خلاصة :

بهجرة رسول الله ﷺ تكون الدعوة الإسلامية انتقلت من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين وبناء الدولة الإسلامية على أكتاف الذين آمنوا من المهاجرين والأنصار.

هؤلاء المهاجرون قد تحملوا مختلف أصناف الأذى والابتلاء، بدءا بالتعذيب النفسي والجسدي والحصار الاقتصادي والاجتماعي، وانتهاء بترك الديار والأموال والأهل والأبناء في سبيل نصرة الدعوة والتمكين لها والإيمان بهذا الدين وتبليغه للناس.

وهذا لن يتأتى إلا بهجرة الوسط المفتون الذي ربى ذهنية رعوية يفعل بها ولا تفعل، وأنانية مستعلية وعادة موروثة تابعة.

إن للهجرة معاني متجددة، بدأ الإسلام غريبا وقد أخبر الرسول ﷺ أنه سيعود غريبا كما بدأ، وكما انتشر وانتصر في غربته الأولى فسينتشر وينتصر في غربته الثانية، بالمهاجرين والأنصار. فكل من آمن بدين الله ودعوة رسول الله ﷺ وابتلي وأوذي في الله كما أوذي وابتلي السابقون من المهاجرين، وبذل ما بذلوا، نال شرف الهجرة ومقاماتها مهما كان زمانه ومكانه وسمي مهاجرا لقوله عز وجل : "والذين اتبعوهم بإحسان" فكل متبع لهم بإحسان فهو لاحق بهم ومنهم.

الهوامش:

١ فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١٤٦-١٤٧.

٢ طبقات ابن سعد ج١/ ص ٢١١ تاريخ الطبري ج ١/ ص٣٦٧.

٣ فقه السيرة محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٤٦-١٤٧.

٤ لسان العرب، ابن منظور، ج ٥ ص ٢٥٠-٢٥١.

٥ معجم مفردات القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني ٦ زاد المعاد، ابن القيم الجوزية. ج ٣ ص ١٣. ٧ المرجع نفسه ج ا ص ٣١٧. ٨ التابع من الجن.

٩ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٠١-٣٠٢.١٠ فقه السيرة، رمضان البوطي، ص ١٧٧-١٧٨.١١طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٥٣.

الهجرة والنصرة

ذ. عبد السلام ياسين ...

روى الإمام مسلم عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: "العبادة في الهرج كهجرة إلي".الهرج القتل بغير حق. والفتنة أشد من القتل. فمعنى الحديث الشريف أن الصادق عندما يكذب الناس، والمستميت على دينه عندما يفتن المؤمنون ويقتلون في درجة المهاجرين.

نقل الحافظ ابن حجر عن القاضي عياض أن العلماء اتفقوا على أن الهجرة من مكة كانت واجبة على المسلمين قبل الفتح. وأن سكنى المدينة كانت واجبة عليهم لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس.وهكذا يجب على المؤمنين، من كان منهم صادقا لا تنكسر عزماته أمام التهديدات والمخاوف، أن ينضم إلى إخوته لينصرهم في جهادهم ويواسيهم بنفسه. كانت الهجرة على عهد النبي ﷺ حركة من مكان إلى مكان، ألزمتها ضرورة التجمع لمواجهة العدو وحماية بيضة الإسلام، أي عاصمته ومقر إمارته. أما الآن ودار الإسلام واسعة، وأقطارها متفرقة ووسائل العصر وطبيعة المواجهة مختلفة، فالهجرة والنصرة في حق الصادقين لا تطلب نقلة من مكان إلى مكان بعينه. التجمع المطلوب والاستنفار الواجب يتمان بربط المؤمنين في التنظيم القطري وإحكام تحركه عبر المكان وفي كل مكان. وخروج الوافد على الجماعة في سياحات الدعوة ومعسكرات الشباب يتيح له أن يبتعد عن مألوفاته وينقطع عن بيئته المرفهة الغافلة. وبذلك يطوي المراحل في قطع حبال الجاهلية والارتباط المتين بالجماعة. ومتى تم تحرير قطر كان واجبا على المؤمنين خارجه أن يخفوا لنصرة إخوتهم وإمدادهم بالكفاءات والخبرات والتأييد المادي والمعنوي.وعلى كل قطر تحرر أن يخصص جهوده لدعم الحركات القطرية الأخرى ونصرها.

هكذا نتصور الهجرة والنصرة تنظيما.

الهجرة والنفرة معاً على الطريق

الجمعة ٢٠٠٦/٢/٣م

قمر كيلاني

بينما كانت (القصواء) ناقة الرسول محمد (ص) تشق سواد الليل من مكة إلى المدينة في الهجرة النبوية الشريفة

مخترقة حجب الظلم والظلام كانت مكة بغطرسة كفارها والوثنيين منها تترصد أي خبر.. أو ملمح أثر لتعقب المهاجرين العظيمين الرسول وصاحبه أبي بكر.. وتدفع لذلك كل ما أوتيت من مال وقوة ونفوذ لكنها خابت في مسعاها.. وانبثق النور الذي عم العالم القديم كله.. من المدينة حتى أقاصي الحبشة والهند والصين أيضاً مروراً بآسيا الوسطى كلها وما كان منها من رسوخ لحضارات توالت عليها القرون بالمئات.

إنها الهجرة التي هي بدء لتاريخ.. وانتهاء لتاريخ.

انتهاء لتاريخ آخر في استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.. وعبادة صارمة للأوثان وحتى لنصب أحجارها وأصنامها وتماثيلها في أطهر بقعة وهي بيت الله الحرام في مكة.

وليس من الممكن اختصار الهجرة النبوية في سطور.. بينما تمر عليها الدهور وهي تزداد ألقاً وبريقاً بل وإشعاعاً على العالم كله حتى وصلت إلى كل بلد في القارات الخمس من البلاد الاسكندنافية حتى الروسية وكندا وعموم آسيا وإفريقيا.

أقول ليس من الممكن ذلك وخزائن الكتب في التاريخ والسيرة النبوية خصوصاً والإسلام عموماً تفيض بها ذاكرة الكون قبل مكتباته وأسفاره الضخمة.

بوركت الهجرة.. وبورك المهاجرون الأوائل وأحباؤهم وإخوتهم من الأنصار.

إلا أن لنا وقفة مؤلمة مع الأقدار.. فهل يمكن بعد ألف ونصف من السنين تقريباً أن يواجه الإسلام عملاً من صنع الشيطان.. وهو كما علمنا جميعاً التعرض لشخص الرسول الكريم بيد رسام أثيم؟.. هل يمكن أن يقوم عاقل باسم الحرية الإعلامية

العارضة أو الثابتة بجرح مشاعر الملايين من المسلمين بهذه البساطة الرديئة والساقطة؟

وبالتالي ما هذه الحرية التي أصبحت آلهة بألوف الأذرع والأرجل والتي يعبدونها أو يقومون على نشرها بين البشر؟.. أليست في جوهرها ومضمونها هي وثنية تعبد طواغيت الجنس والقتل والاعتداء على حريات الآخرين ومعتقداتهم؟.. أليس في مواثيق الأمم المتحدة أو غير المتحدة ما ينص على احترام العقيدة أي عقيدة.. والعقائد يعج بها المجتمع العالمي الجديد.. فما بالنا بعقيدة دينية ذات رسالة سماوية هي خاتمة الرسالات.. ونبيها خاتم النبيين؟

وإذا كان الدفاع عن هذه العقيدة يعتبر تعصباً وتزمتاً وانغلاقاً تجاه العالم المعاصر فما قولنا في الذين يفرضون عقائد وهمية كالصهيونية على مجمل العالم باسم الظلم والتشكي من النازية؟

إن حدثاً كهذا نفرت له صحيفة مغمورة في بلادها.. يغلفها الضباب.. فتتيح لنفسها الإفلات من أي عقوبة أو عقاب. أقول إن حدثاً كهذا قد تطمسه الاعتذارات الرسمية أو غير الرسمية.. وقد تطغى على جوهره الخفي النقاشات والدعايات أيضاً.. وقد.. وقد.. لكنه لن يمر دون أثر على الشعوب العربية والإسلامية التي استنفرت ردود أفعالها تلقائياً لتخط السطور السوداء ولتسجل بأيدي أبنائها الصغار منهم قبل الكبار موقفاً عدائياً ينبثق من الصميم.. ليكون له الأثر العميم.

وفي ميزان الربح والخسارة فإنها أسوأ تجارة.. تلك التي دون حق أو عدالة.. تتناول المقدسات ولو كانت بصور أو شعارات.. لأن الربح الحقيقي هو في هذا الزمن المتفجر بالصراعات والعداوات هو في بذور الخير والسلام والدعوة إلى احترام العقائد والأديان وأولها الإسلام.

الهجرة ومقدماتها

الكتاب الرابع

د.يحي بن إبراهيم اليحي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الرابع من سلسلة (دروس وعبر من سيرة خير البشر)، وقد ابتدأته بالحديث عن عام (الحزن) فمنه ابتدأ خط المقاومة والإيذاء للرسول ﷺ ينحو منحًى جديدًا فقد ذهب الذي كانت تداريه قريش وتخشى منه وهو عمه أبو طالب، فصبت جام غضبها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبدأت تلحق به من أصناف الأذى مما لم يكن يعرفه في حياة عمه، ثم ذهب الذي كان يواسيه ويسري عنه ويصبره وهي زوجته (خديجة) رضي الله عنها وأرضاها، فجد رسول الله ﷺ في البحث عن محضن جديد ومقر آمن لدعوته، فكانت رحلته إلى الطائف، ثم عَرْضُ الإسلام على أهل المدينة، الذي أفرز بيعتي العقبة، وما تلاها من التخطيط للهجرة إلى أن هاجر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عام الحزن

بعد نقض الصحيفة بيسير أصيب رسول الله ﷺ بعمه أبي طالب الذي كان يحوطه ويدافع عنه، ثم توفيت زوجته خديجة رضي الله عنها التي كانت خير سند له، ووقفت بجانبه تطمئنه وتثبته من أول يوم نزل فيه الوحي، فحزن رسول الله ﷺ لذلك حزناً شديداً، حتى سمي ذلك العام بعام الحزن.

عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: ((تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ بِثَلاثِ سِنِينَ، فَلَبِثَ سَنَتَيْنِ أَوْ قَرِيبً مِنْ ذَلِكَ وَنَكَحَ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، ثُمَّ بَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ))(١).

عن سيعد بن الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: ((لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ: أَيْ عَمِّ قُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} (التوبة: ١١٣)، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} (القصص: ٥٦)))(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِّهِ: ((قُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ: لَوْلا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ يَقُولُونَ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}))(٣).

الدروس والعظات:

١- ذاق رسول الله ﷺ المحن بأنواعها وابتلي بأصناف البلاء، وها هو يبتلى في وفاة زوجته التي تشكل حماية داخلية له بعد الله تعالى، فهي الذراع الحاني تطمئنه وتواصيه وتصبره، وتمسح عنه النكد والتعب الذي يلاقيه من قريش، وفي العام نفسه ابتلي بوفاة عمه الذي كان يحوطه ويدافع عنه.

٢- لقد تخطى رسول الله ﷺ جميع العقبات في طريق دعوته، فلم تقف أي عقبة مهما عظمت في سبيله، فضلاً أن تقعده عن دعوته، فما عرف عن رسول الله ﷺ في عام الحزن خور أو ضعف أو فتور عن متابعة رسالته، على الرغم من عظم المصيبة وهول الخطب.

٣- من هدي رسول الله ﷺ زيارة المرضى وبذل الخير لهم وإن كان من أهل الشرك والكفر كما زار عمه وهو مشرك وزار غلاماً يهودياً، وقد رغب رسول الله ﷺ في زيارة المريض فقال: ((مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ))(٤)، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَافِعٍ قَالَ: ((عَادَ أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه: أَعَائِدًا جِئْتَ أَمْ زَائِرًا؟ قَالَ: لا، بَلْ جِئْتُ عَائِدًا قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: أَمَا إِنَّهُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مَرِيضًا إِلا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ إِنْ كَانَ مُصْبِحًا حَتَّى يُمْسِيَ، وكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مُمْسِيًا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ حَتَّى يُصْبِحَ، وكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ))(٥).

٤- استغلال جميع الفرص والمناسبات في الدعوة إلى الله وتبليغ هذا الدين، فحالة المريض غالباً ما تريه ضعفه وفقره وحاجته إلى خالقه جل وعلا، ولهذا حرص رسول الله ﷺ على عمه في هذه الساعة، كما حرص على هداية غلام يهودي يحتضر، فقد روى أنس رضي الله عنه قَالَ: ((كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ))(٦).

٥- مما يوضح جدية هذا الدين، وصدق نبوة سيد المرسلين اهتمامه بهداية المحتضرين، وإلا فماذا سيقدم هؤلاء له إذا أسلموا وهم في مثل هذه الحالة، لو كان مراده من دعوته الدنيا وحطامها.

٦- الاهتمام بهداية الناس مهما كانت أحوالهم وأوضاعهم، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم))(٧).

٧- استخدام أسلوب الترجي واللطف مع حسن العرض واللباقة في الخطاب عند دعوة الناس ((يا عم)).

٨- احتفاظ الرسول بالأيادي والفضائل التي قدمها له عمه، ولهذا حرص أشد الحرص على هدايته وهذه أعظم مكافأة لو استجاب له فيها نال السعادة الأبدية، وهذه من صفات الرجال الكرام في اعترافهم بالجميل والفضل، وقد نبه على ذلك رسول الله ﷺ بقوله: ((مَنْ صنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ))(٨).

٩- إن لا إله إلا الله منهج حياة كاملة تنفي كل ما سوى الله من الشركاء والأنداد فلا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولهذا أدرك معناها أبو جهل وأبو طالب ومن معهما وعرفوا أنها منهج تغيير كامل في كل الحياة ونبذ كامل لكل المناهج الأرضية والتقاليد والعقائد الموروثة، والتبرء مما سوى الله عز وجل، ولو كان الأمر مجرد كلمة تقال باللسان فقط لأسرعوا إليها دون تردد، أو أنها تعني الاعتراف بوجود الله وأنه الخالق الرازق لقالوها، لأنهم يؤمنون بذلك قبل رسالة النبي ﷺ قال الله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهَ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ} (يونس: ٣١) وقال تعالى: {قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لله، قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ، قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ، قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} (المؤمنون: ٨٤ - ٨٩) فعجباً من أناس أبو جهل أعلم منهم بلا إله إلا الله!.

١٠- ضرر جلساء السوء وخطرهم على الإنسان فقد وقفوا حاجزاً بين أبي طالب وبين السعادة الأبدية وأوقعوه في شر حال وأعظم عذاب، وقد حض رسول الله ﷺ على اختيار الجليس والصاحب فقال: ((مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوْءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ، لا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً))(٩).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))(١٠).

١١- تعظيم المشركين لمناهج آبائهم وعاداتهم وتقاليدهم كما قال الله فيهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} (الزخرف: ٢٢).

١٢- أهل الباطل طبيعتهم التقليد والتبعية العمياء وإلغاء دور العقل وطمس البصيرة والبعد عن التفكير الحر الصادق الطليق، ولهذا لم يحاوروا رسول الله لأنهم لا يملكون أي أداة للحوار أو المناظرة وليس عندهم حجج يناظرون عليها سوى التقليد الأعمى لآبائهم.

١٣- ثقل مخلفات الماضي وتقاليده على كبار السن، ولهذا خشي أبو طالب من تعيير قريش لو قال لا إله إلا الله.

١٤- وظيفة الداعي هي فتح الطريق أمام الناس للهداية وترغيبهم فيها ودلالتهم عليها، وأما إدخال الناس في الهداية فهذا لم يكن لرسول الله ﷺ وهو أفضل الخلق وحبيب رب العالمين، ولو كان يملك من هذا شيء لمنَّ به على عمه الذي دافع عنه وصاول من أجله وقد حرص ﷺ حرصاً شديداً على هدايته، فهداية التوفيق إلى الله جل وعلا.

١٥- الفرق بين هداية الدلالة والإرشاد والبيان التي أثبتها الله تعالى للنبي ﷺ في قوله: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشعراء: ٥٢)، وبين هداية التوفيق والتي نفاها عنه ربه... {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} (القصص: ٥٦).

١٦- إذا كان رسول الله ﷺ وهو أفضل من وطئ الثرى وأظلت السماء.. رسول رب العالمين وسيد المرسلين لا يملك أن يهدي من أحب وهو عمه الذي واساه بنفسه وماله، فكيف بنظيره من الخلق! وكيف بالذي يطلب الهداية والنصرة والتأييد والاستعانة من رسول الله ﷺ بعد وفاته! قال الله عز وجل في كتابه لنبيه ﷺ قل لهم: {قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ

الخَيْرِ} (الأعراف: ١٨٨)، وقال جل وعلا: {قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَـرّاً وَلا رَشَـداً} (الجن: ٢١) وكيف ممن يطلبونها ممن هو دون رسول الله ﷺ في المنزلة والمكانة من ربه جل وعلا!؟

١٧- لقد قطع الله جميع أواصر الصلة والحب بين أهل التوحيد وأهل الإشراك ولم يبق إلا صلة العقيدة ورباط التوحيد {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (التوبة:١١٣).

١٨- أهمية تلقين المحتضر شهادة أن لا إله إلا الله لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ))(١١).

رحلة الطائف:

اشتدّ أذى قريش على رسول الله ﷺ بعد وفاة عمه، فخرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله ويطلب منهم أن ينصروه ويؤووه حتى يبلغ رسالة ربه، فلم يجد عندهم خيراً ولا ناصراً، وآذوه أشد الأذى ونالوا منه مالم ينله قومه، وأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلدنا، وأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له صفين، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه، فانصرف منهم مغمومًا محزونًا(١٢).

عن ابْنِ شِهَابٍ قَالَ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: ((لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيّ

صلى الله عليه وسلم: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّـهَ وَحْـدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))(١٣).

الدروس والعظات:

١- اهتمام عائشة رضي الله عنها بحال رسول الله ﷺ وما عاناه من البلاء والتعب والمحن في تبليغ الدعوة.

٢- لقد اعتبر النبي ﷺ أن المحن والفتن التي تنزل بالداعي أثناء تبليغ دعوته أعظم وأشد من القتال والإصابات والجراح وقتل الأقارب في ميادين الجهاد.

٣- إن دين الإسلام لا يتعلق بقوم ولا بوطن بعينه، فقد رحل رسول الله ﷺ عن أحب البقاع إليه وهي مكة إلى الطائف من أجل البحث عن محضن جديد لدعوته حيث ردها أهل مكة.

٤- في رحلة الرسول ﷺ الى الطائف بيان أن المسلم الداعي لا ينبغي له الركود في بقعة بعينها، سواء كانت البقعة فاضلة أو غير فاضلة إن لم يستطع أن يبلغ دينه ويقوم بدعوته، ولا ينبغي أن يتعذر بفضل المكان وشرفه ((فإن البقاع لا تقدس أحداً إنما يقدس الإنسان عمله)).

٥- بين رسول الله ﷺ في قوله: ((إذ عرضت نفسي...)) أن الداعي مهما كان معه من الحق والخير، ومهما كانت منزلته وفضله، ومهما ارتفع قدره وعظم إيمانه، ومهما كان صلاحه وعلو مكانته، فهو المسؤول عن دعوته وعرض ما لديه من الخير على الناس وطلب من ينصره ويؤازره ويأويه، فلا ينتظر الناس أن يقدموا عليه أو يفتشوا عما لديه.

٦- تأمل قبح الرد الذي واجه به أهل الطائف رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفيستكثر أذى وشدة وعنف صب على أحد من المخلصين بعده! إن كثيراً من الأخيار الطيبين لا مانع عنده من القيام بأمر الدعوة إذا توفر البيت الفسيح والمركب المريح والزوجة الصالحة!!

٧- تصور ذلك الجهد الذي بذله رسول الله ﷺ في دعوته، وذلك التعب الذي لحقه فقد جرى مهموماً على وجهه بعد ذلك الرد القبيح فلم يستفق إلا بقرن الثعالب القريب من مسجد الخيف في منى(١٤)، أي أنه جرى على قدميه الشريفتين قرابة مائة كيلو متر، لم يَعِ نفسه من شدة الهمّ لدينه إلا بعد تلك المسافة الطويلة.

٨- غيرة الجبار القهار عز وجل على خليله وحبيبه ونبيه ﷺ حيث أرسل إليه الملائكة لمواساته في مصابه.

٩- رغم شدة المصاب وعظم الأذى، الذي نزل برسول الله ﷺ وعلى الرغم من شدة الهم والحزن الذي بلغ به من جراء عنت قريش وملاحقتهم له، وقيامهم باضطهاد أصحابه وتعذيبهم، إلا أنه لم يتشف بهم ويطلب من ربه إيقاع العذاب العام عليهم، بل طلب من ربه جل وعلا أن يستأني بهم.

لقد علمنا رسول الله ﷺ في هذا الحدث البعد عن حظوظ النفس ورغباتها، ومحبة الانتصار لها، وعدم اليأس من هداية الناس مهما كان بعدهم عن الحق والخير.

١٠- الله أكبر ما أعظم هذا الأمل ((بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) أي بعد عن العجلة وأي صبر ينبغي أن يتحلى به الداعي إلى الله تعالى بعد ذلك، إنه انتظار ما في الأصلاب ليعبدوا الله لا يشركون به شيئاً، وما أكثر الذين يستبطئون النتائج، ويستعجلون حسناتهم في حياتهم الدنيا.

١١- إن الهم كل الهم هو في تحقيق عبودية الله تعالى وحده لا شريك له، ليس للمخلصين هدف آخر من متاع الدنيا الزائل وعرضها الفاني.

الإسراء والمعراج:

كان الإسراء والمعراج مواساة من الله تعالى لنبيه ﷺ حينما لقي من قومه ما لقي من الأذى والعنت بعد وفاة عمه أبي طالب، فأسري بجسده وروحه إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات العلى حتى سمع صريف الأقلام.

لقد وردت روايات كثيرة في الإسراء والمعراج وسأقتصر على أصحها وأجمعها:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ قَالَ: فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ صلى الله عليه وسلم: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ، قَالَ: مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} (مريم: ٥٧)، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ

مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلالِ قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ

أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ))(١٥).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ مَعِي مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، حَتَّى عَرَجَ بِي

إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ، فَقَالَ لَهُ خَازِنِهَا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُ، فَفَتَحَ قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِإِدْرِيسَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا عِيسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ)).

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولانِ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: ((ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ)).

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: ((فَفَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاةً فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاةً قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ فَرَاجَعْتُهُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ))(١٦).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ قَالَ: فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلا أَنْبَأْتُهُمْ

بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلام قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ – يَعْنِي نَفْسَهُ –، فَحَانَتِ الصَّلاةُ فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلامِ))(١٧).

وعن جَابِرِ بنَ عَبْدِاللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ))(١٨).

روى الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ فَظِعْتُ بِأَمْرِي وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ فَقَعَدَ مُعْتَزِلاً حَزِينًا قَالَ: فَمَرَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَعَمْ، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ، قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَلَمْ يُرِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: نَعَمْ، فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قُلْتُ: إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ قَالَ: فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عُقَيْلٍ، فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ قَالَ: وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ))(١٩).

الدروس والعظات:

١- لقد شق صدر رسول الله ﷺ أكثر من مرة: مرة في طفولته لاستخراج العلقة وحظ الشيطان منه، ومرة أخرى لتهيئته للتلقي الحاصل في هذه الليلة العظيمة بعدما أفرغ في صدره الإيمان والحكمة.

قال ابن حجر عن شق صدره صلى الله عليه وسلم: ((الأول أخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، وكان هذا في زمن الطفولة فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم وقع شق الصدر عند إرادة البعث زيادة في إكرامه لِيتلقَّى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهر، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة))(٢٠).

٢- بركة ماء زمزم وفضله ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ في ماء زمزم. بأنه ((طعام طعم))(٢١) ((وشفاء سقم))(٢٢)، ((ماء زمزم لما شرب له))(٢٣).

٣- الإسراء والمعراج معجزة ودلالة من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

٤- أهمية بيت المقدس وارتباطه بأهل التوحيد وأهل الإسلام على مدار التاريخ، فللتوحيد بني ومن أجل التوحيد أنشئ.

٥- الارتباط الوثيق بين المسجدين: المسجد الأقصى أولى القبلتين ومسرى رسول الله ﷺ ومصلى الأنبياء عليهم السلام، والمسجد الحرام أول بيت وضع للناس: قبلة المسلمين وإليها حجهم، وفيه بيان ما يجب على المسلم من المحافظة على تلك البقاع الطاهرة.

٦- صلاة رسول الله ﷺ بالأنبياء دلالة على علو منزلته وكمال فضله، وختام رسالته لجميع الرسالات وأن شريعته آخر الشرائع وناسخة ما قبلها، وأن دين الأنبياء واحد وهو التوحيد، وإن اختلفت شرائعهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاتٍ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ))(٢٤).

كما أن فيها تأكيداً لأواصر القربى بين الأنبياء كافةً، وأن الرسول ﷺ أرسل لتتمة البناء الذي بدأوه سابقاً، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ

مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ فَيَقُولُونَ: أَلا وَضَعْتَ هَاهُنَا لَبِنَةً فَيَتِمَّ بُنْيَانُكَ فَقَالَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم: فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ))(٢٥).

٧- قول جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: ((اخترت الفطرة)) بيان أن الإسلام هو دين الفطرة، وهو الحنيفية السمحة المنسجم مع طبيعة الإنسان وقد وضع عن أهله الأغلال والشدائد والمصاعب التي كانت على من قبلهم كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الأعراف:١٥٧)، وحين نرى انحرافاً وخروجاً عن هذا الدين فهذا دلالة على فساد الفطرة، فالفطرة تشبه اللبن لكونه على طبيعته لم يتغير، وأما الخمر فناتج من تغير كيماوي من العنب أو التمر أو غيره من عناصر الخمر.

٨- استفتاح جبريل عليه السلام عند كل سماء وإفصاحه عن اسمه وعن من معه دلالة على أدب الاستئذان، وأن المستأذن ينبغي له أن يفصح عن اسمه، ولهذا كره النبي ﷺ أن يقول المستأذن: ((أنا)) كما روى البخاري عن جابر بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ((أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَى أَبِي فَدَقَقْتُ الْبَابَ، فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ فَقُلْتُ: أَنَا، فَقَالَ: أَنَا، أَنَا، كَأَنَّهُ كَرِهَهَا))(٢٦).

٩- إن قصة البيت المعمور في السماء السابعة وكثرة الداخلين المتعبدين عنده من الملائكة، وهم عباد مكرمون لا يعصونه وهم بأمره يعملون، لحرية أن تدعو بني آدم المقصرين أبناء المقصرين، المذنبين أبناء المذنبين إلى أن يؤوبوا ويرجعوا ويستحيوا من الله تعالى.

١٠- استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء كما فعل الأنبياء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

١١- أهمية الصلاة وعظم شأنها، فقد فرضت من بين أركان الإسلام في السماء السابعة فكانت الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأصبحت قرة عين النبي صلى الله عليه وسلم، روي عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ)).

فكان يصلي ويطيل القيام حتى انتفخت قدماه الشريفتان، كما روى مسلم في صحيحه عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صلى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ: أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)).

وكان يسمع لصدره وهو في الصلاة أزيز من البكاء، كما روى أحمد أبو داود والترمذي وابن ماجة عنْ ثَابِتٍ عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: ((رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ ﷺ))(٢٧).

فالصلاة معراج للمسلم إلى ربه جل وعلا، ومنقية من الذنوب وناهية له عن الفحشاء والمنكر {وأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ}(العنكبوت: ٤٥).

١٢- أن موسى عليه الصلاة والسلام وهو في الرفيق الأعلى يهمه شأن الناس وإن لم يكونوا من أمته وإن كانوا من غير قومه، فليلة المعراج حين فرض على نبينا ﷺ الصلاة يلقاه موسى فيسائله ويقول له بهمٍّ شديدٍ: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك، ويكرر الطلب مرات، فإني قد بلوت بني إسرائيل قبلك، فيخفف الله عن هذه الأمة ما شاء أن يخفف.

تساءل معي ما الذي يعني موسى من صلاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟ وما الذي يكرثه أطاقت ذلك أم لم تطق؟ إنه الاهتمام بالناس إنه الحرص على نفعهم والإحسان إليهم، إن أنبياء الله والصالحين من عباده لا يعيشون لأنفسهم وإنما يعيشون بهمّ الأمة ومن أجل مصلحتها.

١٣- وفي قصة موسى مع نبينا ﷺ دلالة على أهمية بذل النصيحة لمن احتاج إليها وإن لم يطلب منه ذلك.

١٤- وفي قول موسى عليه السلام: ((لقد بلوت بني إسلائيل قبلك)) دلالة على أن التجربة أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة.

١٥- عظم فضل الله على هذه الأمة فقد خفف عنها من صلاتها وأبقى لها أجرها كاملاً.

العرض على القبائل:

كان أتباع رسول الله نزاعًا من القبائل، غرباء، لا قبيلة تحميهم، وكان رسول الله ﷺ يرتاد للدعوة موطناً تحتمي به، يأمر من اتبعه من القبائل خارج مكة أن يبقوا في قبائلهم ويستخفوا حتى يظهر.

قال ابن كثير: ((والمقصود أن رسول الله ﷺ استمر يدعو إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم وفي المواسم، ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق عنده في ذلك شرع سواء...)). (٢٨)

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ بِالْمَوْقِفِ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: مِنْ هَمْدَانَ، قَالَ: فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أَنْ يَحْقِرَهُ قَوْمُهُ فَأَتَى رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَ: آتِيهِمْ فَأُخْبِرُهُمْ ثُمَّ آتِيكَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ، قَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَ وَجَاءَ وَفْدُ الأَنْصَارِ فِي رَجَبٍ))(٢٩).

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدِّيلِيِّ وَكَانَ جَاهِلِيًّا أَسْلَمَ فَقَالَ: ((رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا وَهُوَ لَا يَسْكُتُ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلًا أَحْوَلَ وَضِيءَ الْوَجْهِ ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ قُلْتُ مَنْ

هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ قَالُوا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ قُلْتُ إِنَّكَ كُنْتَ يَوْمَئِذٍ صَغِيرًا قَالَ لَا وَاللَّهِ إِنِّي يَوْمَئِذٍ لَأَعْقِلُ))(٣٠).

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدِّيلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: ((رَأَيْتُ أَبَا لَهَبٍ بِعُكَاظٍ وَهُوَ يَتْبَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذَا قَدْ غَوَى فَلَا يُغْوِيَنَّكُمْ عَنْ آلِهَةِ آبَائِكُمْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفِرُّ مِنْهُ وَهُوَ عَلَى أَثَرِهِ وَنَحْنُ نَتْبَعُهُ وَنَحْنُ غِلْمَانٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أَحْوَلَ ذَا غَدِيرَتَيْنِ أَبْيَضَ النَّاسِ وَأَجْمَلَهُمْ))(٣١).

وقال ربيعة بن عباد: ((رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز، يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول: أيها الناس لا يغرنكم هذا من دينكم ودين آبائكم، قلت: من هو؟ قالوا: هذا أبو لهب))(٣٢).

وعن طارق بن شداد رضي الله عنه قال: ((رأيت رسول الله ﷺ مرتين: رأيته بسوق ذي المجاز، وأنا في بياعة لي، فمر وعليه حلة حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس لا تطيعوا هذا، فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا غلام من بني عبد المطلب، فقلت: من هذا الذي يرميه بالحجارة؟ فقيل: عمه عبد العزى أبو لهب))(٣٣).

وعن شيخ من بني مالك بن كنانة: ((رأى النبي ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: ((أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا))، قال: وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول: أيها الناس، لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات والعزى قال: وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ))(٣٤).

قال ابن كثير: ((كذا قال في هذا السياق ((أبو جهل)) وقد يكون وهماً، ويحتمل أن يكون تارة يكون ذا وتارة يكون ذا، وأنهما كانا يتناوبان على إيذائه ﷺ))(٣٥).

وعن جابر رضي الله عنه: ((أن النبي ﷺ لبث عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم في الموسم، ومجنة، وعكاظ، ومنازلهم في منى: من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالات ربي، فله الجنة، فلا يجد أحداً ينصره، ويؤويه، حتى إن الرجل ليرحل من

مضر، أو من اليمن إلى ذوي رحمه، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قـريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله -عز وجل- يشيرون إليـه بالأصـابع...))(٣٦).

الدروس والعظات:

١- هذه القصص تكشف عن مدى الجهد والكيد الذي تبذله قريش في محاربة الدعوة وصاحبها على المستوى الفردي والجماعي.

٢- حمل الرسالة في مجتمع ضال معناه أن المصلح سينكر أشياء تعارف عليها الناس فعليه بتوطين نفسه على المعارضة والمحاربة والإيذاء.

٣- لقاء الرسول مع بعض القبائل لم يدخلها الإسلام، ولكن على أقـل تقـدير أثـار التسائل عندهم، والتشكيك فيما هم عليه من معتقدات، واسـتثمرهم كـأداة إعلاميـة لأقوامهم وديارهم، حيث إنهم سيتحدثون بما وجدوه في سفرتهم هذه وسيذكرون مـن لقوا ومن لقيهم وما هي الأحاديث التي دارت معهم، وهذا مكسب عظيم بحـد ذاتـه وتعريف بالإسلام وقضيته، كما يستخدمه أصحاب القضايا اليوم بسفراتهم وتـنقلاتهم بين البلدان تعريفاً بقضيتهم.

٤- لم يكن الرسول ﷺ يفرط في فرصة من الفرص أو مجال من المجالات في تبليغ دعوته فهو يحضر المواسم ويغشى الأسواق ويلتقي بالوفود قبائل وأفراداً.

٥- البحث عن مأوى ومحضن للدعوة تحتمي به حتى تكون حرة طليقة، وذلك فـي تتبع الناس وتقصد مواقعهم ومنازلهم.

٦- استخدام قريش في الصد عن رسول الله ﷺ أخطر وسيلة إعلامية آن ذاك وهـو عمه أبو لهب في زمن يعتبر للقبيلة وزنها في الدفاع عن أصحابها على حـد قـول القائل:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وفي زمن تقوم الحرب الطاحنة بسبب إهانة جمل امرأة من القبيلة فكيف برجل منها.

وما أشق ذلك على نفس الرسول ﷺ المكلف بالتبليغ عن ربه، والذي يدعو الناس بالكلمة الطيبة وهو وحيد غريب، فينبري أقرب الناس إليه يطارده أمام الناس الناظرين إليه، يرميه بالحجارة فيدمي عقبيه، ويحثو التراب على رأسه ووجهه، ويكيل له التهم وهو المعروف بينهم بالأمانة والصدق والوفاء.

٧- ثقة الرسول ﷺ بنصر الله له جعلته لا ييأس ولا يمل، ويدأب في نشر الدعوة فهذه قبيلة ترده، وتلك لا تستمع إليه، وأخرى تقول: قومه أعرف وأعلم به!

٨- صبر الرسول ﷺ على مشاقّ الدعوة وعوائقها وتبعاتها فلم يضعفه موقف سخرية، ولم يحبط همته استهزاء مستهزئ من قريش أو من القبائل والأفراد الوافدين على مكة.

٩- البدء بالدعوة إلى التوحيد لأنه أساس الإسلام وأصل دعوة الرسل عليهم السلام.

١٠- معرفة المشركين وفقههم لكلمة لا إله إلا الله وأنها تهدم كل معتقداتهم الوثنية، وأنظمتهم الكفرية، ولهذا تحملوا المقاومة ولم يتفوهوا بها ولو على سبيل المجاملة، وما أجهل أقوامًا من المسلمين اليوم أبو جهل أعرف منهم بلا إله إلا الله.

١١- لا يضر الداعية شن أعدائه دعاية عليه فأحياناً تكون الدعاية دعوة إلى دينه عند كثير من الناس، فكثير ممن أسلم من القبائل خارج مكة نتيجة دعايات قريش ونشرها لذكر النبي ﷺ وإن كان ذلك بالصورة المشوهة فليس كل الناس إمعات يقبلون ما يملى عليهم من غيرهم.

١٢- يتصور الكائدون لهذا الدين أنهم بإمكانهم إطفاء نوره والقضاء عليه بخططهم وكيدهم ومكرهم وهيهات!! إنما مثلهم كمثل من رفع يده أمام نور الشمس يريد حجبها {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (التوبة: ٣٢).

فهذه قريش بذلت جميع إمكاناتها وسخرت جميع طاقاتها وانتدبت جميع رجالاتها لحرب هذا الدين والقضاء على دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك ما زادها إلا انتشاراً وقوة بين قبائل العرب كافة.

تهيئة ظروف المدينة للهجرة النبوية:

١- يوم بعاث:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: ((كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ وَجُرِّحُوا فَقَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي دُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ))(٣٧).

بُعاث بضم الباء وفتح العين، مكان أو حصن أو مزرعة، عند بني قريظة، كانت به وقعة بين الأوس والخزرج، وقد قتل فيه حُضَير والد أسيد ابن حضير وهو رئيس الأوس، ورئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، وكان النصر في أولها للأوس ثم كسروا وانتصرت الخزرج، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل أربع سنين. قال الحافظ: الأول أصح.

فقتل من أكابرهم من كان يأنف ويتكبر أن يكون تحت حكم غيره.

وكان سببها أن رجلاً من الأوس قتل حليفاً للخزرج فأرادوا أن يقيدوه فامتنعوا، وكانت قاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالحليف، فوقعت بينهم الحرب لأجل ذلك(٣٨).

٢- كون الأوس والخزرج مجاورين لليهود، وهم أهل كتاب، وكانوا يقولون لهم: سيخرج نبي نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم.

بدء إسلام الأنصار:

صاحب مجلة لقمان:

((قدم سويد بن الصامت الأنصاري مكة حاجاً أو معتمراً، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما الذي معك؟

قال: مجلة لقمان - يعني حكمة لقمان -.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعرضها عليّ، فعرضها عليه فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليَّ، وهو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام.

فلم يبعد منه وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله يوم بعاث(٣٩).

سعي الأوس للمحالفة:

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَخِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ قَالَ: ((لَمَّا قَدِمَ أَبُو الْحَيْسَرِ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ مَكَّةَ وَمَعَهُ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فِيهِمْ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ يَلْتَمِسُونَ الْحِلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى قَوْمِهِمْ مِنَ الْخَزْرَجِ سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ قَالُوا وَمَا ذَاكَ قَالَ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأُنْزِلَ عَلَيَّ كِتَابٌ ثُمَّ ذَكَرَ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ وَكَانَ غُلَامًا حَدَثًا أَيْ قَوْمِ هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ قَالَ فَأَخَذَ أَبُو جُلَيْسٍ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ حَفْنَةً مِنَ الْبَطْحَاءِ فَضَرَبَ بِهَا فِي وَجْهِ إِيَاسِ بْنِ مُعَاذٍ وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ وَانْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثٍ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ قَالَ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ أَنْ هَلَكَ قَالَ مَحْمُودُ بْنُ لَبِيدٍ فَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَسْمَعُونَهُ يُهَلِّلُ اللَّهَ وَيُكَبِّرُهُ وَيَحْمَدُهُ وَيُسَبِّحُهُ حَتَّى مَاتَ فَمَا كَانُوا يَشُكُّونَ أَنْ قَدْ مَاتَ مُسْلِمًا لَقَدْ كَانَ اسْتَشْعَرَ الْإِسْلَامَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ حِينَ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ مَا سَمِعَ))(٤٠).

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه قالوا: ((لما لقيهم رسول الله ﷺ قال: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي

الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا)).

قال ابن إسحاق: ((وهم – فيما ذكر لي – ستة نفر من الخزرج)) وسندها حسن(٤١).

وذكر موسى بن عقبة: ((أنهم ثمانية))(٤٢).

قال ابن إسحاق: ((فلما قدموا المدينة ذكروا رسول الله، ودعوا إلى الإسلام حتى فشا فيهم، حتى كان العام المقبل وافى الموسم اثنا عشر رجلاً، فبايعوا بالعقبة على بيعة النساء)).

العقبة الأولى:

قال ابن إسحاق: ((قال عبادة بن الصامت: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء –وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب– على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرج لنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب))(٤٣).

روى مسلم عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: ((أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النِّسَاءِ: أَنْ لا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلا نَسْرِقَ، وَلا نَزْنِيَ، وَلا نَقْتُلَ أَوْلادَنَا، وَلا يَعْضَهَ بَعْضُنَا بَعْضًا، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَتَى مِنْكُمْ حَدًّا فَأُقِيمَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ)) متفق عليه(٤٤).

بعث معهم مصعب بن عمير:

ذكر ذلك ابن إسحاق، والبيهقي في ((الدلائل))، وابن سعد، وذكر أن ذلك كان بطلب من الأنصار(٤٥).

وقد نجح رضي الله عنه في مهمته فأسلم على يديه عدد كبير من أهل المدينة، ويدل على حذاقته وقدرته على الحوار والإقناع قصة إسلام أسيد بن حضير، ثم قصة إسلام سعد بن معاذ وإسنادها حسن إلا أنها مرسلة(٤٦).

الدروس والعظات:

١- موقف أبي الحيسر دليل على قول عائشة: ((كان يوم بعاث...)) فموقف الرؤساء من الدعوة دائماً موقف المعارضة.

٢- لقاء الرسول ﷺ مع الأنصار كان عابراً، بدون أي تخطيط مسبق، وهكذا نصر الله للداعية من حيث لا يحتسب إذا عرف منه الصدق والإخلاص: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً} (الطلاق: ٢)، {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرَى} (الطلاق: ٤).

٣- التعرف على المدعوين قبل دعوتهم، حيث سألهم عن اسمهم ثم قال: ((أمن موالي يهود)).

٤- بيان الداعية للمدعوين معرفته بحالهم وأنه لا يكلمهم من فراغ، لما قال: أمن موالي يهود. أو أنه يستغل غربتهم، أو جهلهم... الخ.

٥- معرفة حال كل قوم وما يصلح لهم قبل دعوتهم.

٦- عدم فرض الدعوة على الناس أو التعالي في دعوتهم، حيث قال لهم: ألا تجلسون.

٧- هذا الأسلوب في العرض بيان لما ينبغي أن يكون عليه الداعية من التأدب مع المدعوين.

٨- تقدير ظروف المدعوين قبل دعوتهم، فهذا العرض ((ألا تجلسون)) نهاية الأدب، وفيه تقدير واحترام ورفع من معنوية وقيمة المدعوين، ولعلّ عندهم عذرًا أو شغلاً يمنعهم من الجلوس والاستماع فهو قائم باحترام ذلك كله.

٩- شد اهتمام المدعوين للدعوة، فالداعية والمصلح لا ينبغي له أن يجعل بضاعته رخيصة فيعرضها في أي ظرف، فقوله: ((ألا تجلسون أكلمكم)) شد لانتباههم وأنه عنده شيء جديد ينبغي الجلوس والإصغاء إليه، ليس كغيره من الناس يذكرون لهم ما عندهم في أي حال كانوا، وإنما عنده شيء مهمّ يتطلب الجلوس والاستماع والإصغاء.

١٠- رعاية الأتباع وعدم التفريط فيهم ومتابعة نماء الدعوة، مثل: إرسال مصعب.

١١- العناية التامة باختيار الداعية فقد توفر بمصعب عدة صفات، فإلى جانب حفظه للقرآن ومعرفته بالإسلام، فهو يتميز بالذكاء والفطنة وحسن التصرف، وجودة العرض، والقدرة على الإقناع.

١٢- أن الإسلام يذهب جميع الفوارق والعداوات ويصهر أتباعه في وحدة واحدة من أول لحظة يعتنقه أتباعه إذا كانوا على الفطرة، فها هو قد أذهب الشحناء بين الأوس والخزرج في أول سنة فيقدم وفد العقبة من الأوس والخزرج.

١٣- إن الإسلام ليس كلمة تقال باللسان فحسب، بل هو حياة كاملة ومنهج شامل لجميع نواحي الحياة فلم يكتفِ منهم بقول: ((لا إله إلا الله)).

١٤- البدء بتربية الناس واختبار قدراتهم في الاتباع والانقياد على الأمور البسيطة قبل فرض التكاليف التي تحتاج إلى تضحية كالجهاد مثلاً، فالرسول ﷺ طلب منهم ترك بعض ما انتشر عندهم من فساد، ولم يطالبهم بتكاليف أخرى غير إخلاص العبادة لله ونبذ الشرك.

١٥- البدء بالأساس عند أخذ العهد والميثاق وهو التوحيد.

١٦- تنقية وتطهير المجتمع من الرذائل مقدمة على الجهاد.

١٧- إشعار الناس بمراقبة الله وخشيته، وليس بسلطة النظام، فما هددهم بالمتابعة والمراقبة في التزامهم بالتطبيق، وإنما قال لهم: ((فإن وفيتم فلكم الجنة...)).

١٨- إحاطة الداعية بواقع المجتمع وأحوال الناس، حيث جاءت البيعة على ترك المفاسد المنتشرة في المجتمع حالياً وليس عن مفاسد متوقعة أو غير قائمة.

١٩- تربية الناس على الطاعة المتبصرة والواعية لا على الطاعة العمياء، فقد جاء في نص وثيقة البيعة: ((ولا نعصيه في معروف)).

٢٠- أن هذا الدين ما إن تخالط بشاشته القلوب حتى يصبح معتنقه نشطاً في الدعوة، فالأنصار لما رجعوا إلى أهلهم -ومع أنهم لم يجلسوا مع صاحب الرسالة إلا مرة واحدة- إلا أنهم حملوا مشعل هذا الدين واعتبروا أنفسهم الدعاة المناط بهم تبليغه ونشره؛ فلهذا أسلم على أيديهم أعداد كثيرة.

العقبة الثانية:

قال جابر بن عبد الله: ((مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى يَقُولُ مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ كَذَا قَالَ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا فَقُلْنَا حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُبَايِعُكَ قَالَ تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمُ الْجَنَّةُ قَالَ فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ فَقَالَ رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ عُذْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ قَالُوا أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ

فَوَاللَّهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا قَالَ فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ))(٤٧).

قال ابن إسحاق: حدثني معبد بن كعب أن أخاه عبد الله بن كعب حدثه أن أباه كعب بن مالك حدثه، قال كعب: ((خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا – زاد الحاكم: وكنا خمسمائة – حتى إذا كنا بظاهر البيداء قال: يا هؤلاء إني قد رأيت رأياً، ووالله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا فقلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألا أدع هذه البنية مني بظهر –يعني الكعبة– وأن أصلي إليها قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه، فقال: إني لمصل إليها فقلنا له: لكنا لا نفعل. قال فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى هو إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة وقد كنا عبنا عليه ما صنع وأبى إلا الإقامة على ذلك، فلما قدمنا مكة قال لي: يا ابن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إياي فيه قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنا لا نعرفه لم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا: نعم، وقد كنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجراً قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشاعر؟ قال: نعم فقال البراء بن معرور: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله تعالى للإسلام، فرأيت ألا أجعل هذه البنية مني بظهر فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها، قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ وصلى معنا

إلى الشام قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا: نحن أعلم به منهم.

قال ابن هشام: وقال عون بن أيوب الأنصاري:

ومنا المصلي أول الناس مقبلاً على كعبة الرحمن بين المشاعر

يعني البراء بن معرور.

قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق قال: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً. قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بني مازن من النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع. قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج – قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها – إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه

بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، إنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول – والبراء يكلم رسول الله ﷺ – أبو الهيثم بن التيّهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها – يعني اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

وكان رسول الله ﷺ قد قال: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

قال ابن هشام: ويقال: الهدم الهدم: يعني الحرمة، أي ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم.

قال كعب: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن

معرور، ثم بايع بعد القوم.

فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب – والجباجب: المنازل – هل لكم في مذمم والصباة معه، قد اجتمعوا على حربكم.

قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أزبّ العقبة، هذا ابن أَزْيَب – قال ابن هشام: ويقال ابن أُزَيب – أتسمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك.

قال: ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارفضوا إلى رحالكم.

قال: فقال له العباس بن عبادة بن نَضْلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا؟

قال: فقال رسول الله ﷺ لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا.

قال: فلما أصبحنا غدت علينا جِلّة قريش، حتى جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه.

قال: وقد صدقوا، لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض، قال: ثم قام القوم، وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان له جديدان، قال: فقلت له كلمة – كأني أريد أن أَشْرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر، أما تستطيع أن تتخذ، وأنت سيد من ساداتنا، مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟

قال: فسمعها الحارث، فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلي، وقال: والله لتنتعلنهما.

قال: يقول أبو جابر: مه، أحفظت والله الفتى، فاردد إليه نعليه، قال: قلت: والله لا أردهما، فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنه))(٤٨).

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: ((أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري، أخو بني سالم بن عوف: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه))(٤٩).

عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ: ((دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ قُلْنَا أَصْلَحَكَ اللَّهُ حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ))(٥٠).

الاحتياطات لاجتماع العقبة الثانية:

١- السرية التامة التي أحاطت بالاجتماع من بدايته إلى نهايته: ((وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا)).

٢- الخروج من المدينة مع المشركين دون تميز في قافلة خاصة.

٣- ضرب الموعد في أيام الحج في المشاعر حيث الناس مشغولون بمناسكهم وليس في مكة قبل الحج.

٤- عدم الحديث عن الموعد أو الإشارة إليه أو التلميح به حين التقى البراء بن معرور وكعب بن مالك بالرسول ﷺ في مكة.

٥- مجيء الرسول ﷺ بصحبة عمه العباس يحتمل أن يكون تعتيماً على قريش وقطعاً للمتابعة اللصيقة منهم، إذ لو خرج مع أبي بكر أو عمر لربما صحبه أبو لهب أو أبو جهل لمتابعته كما كانوا يفعلون، ثم إن العباس عمه ومن أهله فلا يستنكر أن يخرج الرجل مع أقاربه.

٦- اختيار المكان المناسب ((العقبة في منى)) فليس المكان بعيداً بحيث يفتقدون ولا يتم الاجتماع بوقت قصير لطول الطريق، ولم يكن المكان مكشوفاً بل بينه وبين منازل الناس الجبل.

٧- اختيار الزمن المناسب ((أوسط أيام التشريق)) فليس في أولها والناس منشغلون بالمناسك يستقون ويذهبون ويأتون، ولا في آخرها والناس يستعدون للسفر.

٨- اختيار الوقت المناسب ((بعد ثلث الليل الأول)) فليس في أوله، فقد يكون بعض الناس مازال مستيقظاً، ولا في آخره فيأخذ بعضهم حظه من النوم فربما استيقظ لأدنى حركة.

٩- المبيت مع المشركين في منازلهم أول الليل.

١٠- طريقة الخروج من بين ظهراني المشركين ((التسلل من الفرش مستخفين)).

١١- كيفية المشي والسير والحركة ((مشي القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة)).

١٢- كيفية التجمع ((واحد واثنان)).

١٣- الحضور للاجتماع في وقت واحد دون تخلف أو تأخر أحد منهم على الرغم من كثرة العدد ((ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان)).

١٤- تجمعهم كلهم قبل مجيء الرسول ﷺ بحيث لو اكتشف الاجتماع كان أمراً عادياً حيث لم يكن معهم غريب يثير التساؤل.

١٥- عدم فسح المجال للكلمات والخطب أو لكل شخص للتعبير عن ما في نفسه، لأن هذا يطيل المجلس وربما تسبب في اكتشافه.

١٦- إنهاء الاجتماع بوقت قصير.

١٧- ترك موقع الاجتماع بسرعة وللجميع، فعلى الرغم من حرص الجميع على البقاء أكثر مع النبي ﷺ وبخاصة أن بعضهم يراه لأول مرة فيحب أن تكتحل عينه برؤية النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن ليس هذا وقته.

١٨- الرجوع إلى المنازل والنوم في الفرش حتى الصباح.

١٩- ترك الحديث في الموضوع بعد الرجوع إلى المنازل.

٢٠- التعتيم على الاجتماع وصرف التساؤل عنه بطرح قضايا هامشية في الوقت الذي تطرح فيه قريش أمراً مصيرياً، كما في قصة كعب مع الحارث بن هشام.

ولقد نجح هذا التخطيط أعظم نجاح، فهو وإن كان في بلد الشرك والكفر، وفي زمن تجمع المشركين، فإن هذا التخطيط الدقيق قد أخفى هذا الاجتماع على جميع الحجاج.

وأكبر دليل على ذلك أن الذي تولى الدفاع وإنكار الاجتماع هم من ينامون ويجاورون المسلمين في فرشهم.

بعض الدروس والعظات والفوائد:

١- تتبع الرسول ﷺ للناس في منازلهم وأسواقهم عشر سنين يكشف لنا مدى الجهد والتعب الذي بذله الرسول ﷺ في دعوته ومدى صبره ومواصلته للعمل، وعدم اليأس من صلاح الناس وهدايتهم.

٢- حجم الدعاية الإعلامية التي شنتها قريش ضد الرسول ﷺ بين قبائل العرب حتى جعل الناس يحذرون أفرادهم منه.

٣- أن الحملة الدعائية مهما كان حجمها والجهود التي بذلت فيها ومهما كان اتساعها فإنها تبقى محدودة ولن تستقطب جميع الناس حيث يبقى من لا تؤثر فيه تلك الدعايات ممن هو خارج عن إطار الإمعات.

٤- لا يستوحش من الحق لقلة السالكين وهذا الدين سيمكن في الأرض ولو بعد حين، فقد بقي النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة يطارد بمكة ويحذر منه، فلم يتطرق إلى نفسه اليأس من الانتصار، وجاء نصر الله مسوقاً إليه من أهل المدينة، فالاضطهاد والملاحقة لا تثني الداعي عن دعوته، ولا تمنع من استجابة الناس له.

٥- التفكير في إخراج الدعوة من الحصار الذي يضربه عليها أعداؤها وفك الخناق عنها، فلقد كان ذلك هو شغل الأنصار الشاغل وهمهم الذي ينامون عليه ويصحون معه، مع الشعور بالمسؤولية وإن لم يطلب منهم ذلك، حيث أن حجر الداعية ومنعه والحظر عليه مضرة بالمدعوين أكثر من الداعي، لذا قالوا: ((حتى متى نترك رسول الله...)).

٦- الإنكار على من اجتهد مع وجود النص، كما أنكر الأنصار على البراء بن معرور صلاته إلى الكعبة، ولكن مع ذلك لم يحصل مقاطعة أو منافرة.

٧- استفتاء العلماء عند وقوع خلاف ((مثل: طلب البراء بن معرور اللقاء مع الرسول ﷺ ليعرض عليه المسألة)).

٨- رد المخطئ إلى الصواب دون تبكيت له فما زجره ولا نهره رسول الله ﷺ لما اجتهد البراء.

٩- هكذا يجب أن تكون التربية فقد رجع البراء بن معرور إلى القبلة بكلمة من الرسول صلى الله عليه وسلم: ((قد كنت على قبلة لو صبرت عليها)) فلم يتطلب الأمر إلى كلام كثير ووسائل إقناع .

١٠- كان الرسول ﷺ على بصيرة واطلاع على أحوال المجتمع الجديد الذي سيحتضن الإسلام، حتى أنه ليعرف ميزة بعض أفراده ((قال: الشاعر)) وهذا مفيد في الاستفادة من جميع القدرات وتوظيفها في مواقعها المناسبة.

١١- مفارقة الأهل والأقارب إذا أصبحوا عقبة في طريق الدعوة.

١٢- حرص الرسول ﷺ على الهجرة إلى المدينة مع أنه في عز ومنعة من قومه، لأن الأمن الذي يسعى إليه ﷺ هو الأمن للدين لا للنفس والبدن والأهل.

١٣- لعل مجيء العباس مع الرسول ﷺ كان تأكيداً للأنصار أن الأمن المطلوب للدعوة لا لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد ذكرهم بمكانة الرسول ﷺ عندهم وحمايتهم لشخصه.

١٤- الاستفادة من أنظمة وتقاليد وعادات المجتمع في نصرة الدعوة بشرط أن لا تكون على سبيل المقايظة، حيث أن الرسول ﷺ قد امتنع بالعصبية القبلية في قومه فلم يخلص إليه كما قال العباس بن عبد المطلب.

١٥- البدء بالتذكير والوعظ وترغيب النفوس وترقيق القلوب مهما كانت أهمية الاجتماع وخطورته، فلم يَكِلهم الرسول ﷺ إلى ما يعلمون ((فتكلم رسول الله، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام)).

١٦- الصدق والإخلاص مع إدراك المخاطر كلها التي تمر بها الدعوة كان ظاهراً في هذا الاجتماع ((فخذ لنفسك ولربك ما أحببت)) فلم يقولوا: اذكر لنا ما تريد أو تكلم بما أحببت أو اعرض علينا شروطك، فيكون في هذا مجال اختيار ونظر، ولكنهم

رضي الله عنهم أبانوا أنهم على استعداد لتحمل جميع التكاليف دون أن يكون لهم الخيرة من أمرهم.

١٧- أكثر أنصار الدعوة شباب وهم عماد الأمة إذا قيدوا بالإيمان والعلم والتربية ((قال العباس: هؤلاء أحداث)).

١٨- اتخاذ جميع الاحتياطات لحماية الدعوة والدعاة لا ينافي التوكل.

١٩- الاهتمام بدعوة الأشراف الذين يرجى منهم القبول واتخاذ الأسلوب الأمثل في دعوتهم، ومدحهم بما فيهم ((مثل دعوة والد جابر)).

٢٠- لا يشترط في الولاية الأسبقية بل الأهلية مقدمة على ذلك، فعبد الله بن عمرو بن حرام كان جديداً في الإسلام ومع ذلك كان نقيباً.

٢١- الوضوح والصراحة عند المعاهدة أو المعاقدة على دعوة وقد بيّن الرسول ﷺ للأنصار ما يطلب منهم حتى يكونوا على بينة من أمرهم، فلم يكن مستغلاً لعددهم وعدتهم فيستر عنهم مشاكله التي تمر بها دعوته بل أوضح لهم كل ما يحف به من مخاطر.

٢٢- سرعة استجابتهم مع إدراكهم حجم الخطر الذي سيحل بهم دليل على تمكن الإسلام من قلوبهم واستعدادهم الكبير للبذل والعطاء من أجله ((أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها)).

٢٣- حاجة الدعوة إلى الرجال الناصرين لها... .

٢٤- الدقة التامة في المواعيد فلم يتخلف رجل واحد منهم أو يتأخر عن الوقت.

٢٥- الشروط الخمسة في البيعة: وتبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم.

كانت واضحة جلية ولم يكن شيء منها عائماً، حتى يكون المستعد لخدمة هذا الدين متبصراً عارفاً بكل الأمور والمتطلبات، ويخطئ من يظن أن مواجهة العدو والدفاع

عن هذا الدين تأتي من خلال الكلام العائم، والحماس المندفع للإسلام بـــدون تبصـــر وروية.

٢٦- يجب توقع أسوأ النتائج وعرضها على جميع المستعدين للذب عن هذا الـــدين، حتى تتميز الصفوف أولاً، ويقطع العذر على المتخـــاذل، ويكـــون التخطـــيط دقيقـــاً والخطوات محسوبة، ولا يعطي أحد البيعة إلا وعنده القدرة على الوفاء بها مع الصبر على تبعاتها.

وهذا هو طريق الأنبياء، لابد من بذل وتضحيات، أما الدعوة بدون تكـــاليف، وبـــلا تضحيات، وبدون بذل وجهد فهذا شيء آخر.

قال أسعد بن زرارة: ((...وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن يعضكم السيف، فإن أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، ومفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله، وإن أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهـــو عذر عند الله -عز وجل- !)).

فينبغي البعد عن تخدير الناس بالأماني الجميلة والمواعيد الحلوة، والأحلام المحببـــة للنفوس، فالطريق طويل وصعب وشائك.

٢٧- السعي لتمكين الدين في الأرض لا لتمكين الأشخاص، ولهـــذا كـــان الضـــمان الوحيد لأهل البيعة ((الجنة)) فلا منصب ولا وزارة ولا وظيفة... ولا مكان للـــذي يطلب العاجل، فالدعوة والجهاد وبذل المال والنفس كلها يجب أن يقصد بها وجـــه الله والدار الآخرة ((فأخذ علينا ليعطينا بذلك الجنة)).

٢٨- يؤخذ من قول الهيثم بن التيهان ((إن بيننا وبين القوم حبال...)) أن مقاطعـــة اليهود والنصارى من بدهيات العقيدة، فلم يقل فهل ترى أن نقطعها!!

٢٩- وفي قوله: ((بل الدم الدم)) دليل على تحمل الداعية والراعـــي مـــا يصـــيب الناس، وأنه جزء من المجتمع فهم شركاء مصيرهم واحد.

٣٠- تنظيم الرسول ﷺ لأصحاب العقبة وتقسيمهم وجعل العرفاء والنقباء عليهم، مما يسهل الاتصال بهم، والقدرة على تربيتهم ومتابعتهم.

٣١- عدم تحمل الشيطان الحدث فبعد نجاح التخطيط حاول بنفسه البلاغ عن الاجتماع ((يا أهل الجباجب)).

٣٢- صرف الكلام عن مجراه وتحويره ليبطل الخطر المتربص في الدعوة، وتلهية الأعداء إذا خيف كشف الخطط، والتعتيم في مثل هذه الحالة من الذكاء والفطنة، فكأنه يقول لسنا من أصحاب الاجتماعات بل هممنا لا تتعدى الانشغال بمثل هذه التوافه كالنعلين، فالرجل كان يتحدث عن قضية مصيرية خطيرة وكعب مشغول بحذائه الجديدة !!

٣٣- قوله: ((أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً)) ولم يختر لهم مع أنه بإمكانه أن يختار من بايعه في العقبة الأولى وهم من السابقين وكان عددهم اثني عشر، فأعطاهم الحق في الاختيار احتراماً لآرائهم وعقولهم، واستفادة من طاقتهم وخبرتهم بالرجال في اختيار الأفضل.

٣٤- المفاصلة في العقيدة من أول لحظة تتضح لمن يعتنق الإسلام وتكون فطرته سليمة، فأعظم ما يدافع العربي عن قومه وعشيرته، لكن العباس بن نضلة أراد أن يميل عليهم ويبيتهم في منازلهم!!

٣٥- الدعوة تساس بالتخطيط والتعقل لا بالانفعالات والرغبات، والداعية لا يتأثر بحماس أتباعه ((إن أردت أن نميل على أهل منى بأسيافنا)) والتحسب لقطرة دم تخرج بفعل نزوة عاطفية، أو حماس غير منضبط، أما إذا جد الجد فالأرواح فداء لدين الله تعالى، فروح الاستبسال سادت هذا الجمع الطاهر ولكن ما أثرت على التخطيط.

ويجب النظر في العواقب وإدراكها تماماً، حتى يعرف الداعية أين يضع قدمه، فلا يبتّ بأمر لم يقدر جميع ظروفه.

٣٦- تقدير الحماس مع عدم الاستجابة له والرد عليه بالتي هي أحسن ((لم نؤمر بذلك)).

٣٧- عمل الرسول ﷺ وتحركاته وسياسته تنطلق من شرع الله، ولهذا بين للصحابي ذلك بقوله: ((لم نؤمر بذلك)).

٣٨- إن الرجال الذين يعدون لحمل راية الإسلام، وقيام الدين على سواعدهم، غير الذين يريدون أن يعيشوا على هامش الحياة.

٣٩- أن الدين الإسلامي لم يصل إلينا بسهولة بل بعد جهد وبذل للأنفس والأموال، ومفارقة للأهل والديار.

٤٠- ((ففي البيعة الأولى كان الإيمان بالله ورسوله، وفي البيعة الثانية كان العهد على الهجرة، والجهاد.

وبهذه العناصر الثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد، يتحقق وجود الإسلام في واقع جماعي ممكن.

والهجرة لم تكن لتتم لولا وجود الفئة المستعدة للإيواء، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} (الأنفال: ٧٢)، ولم تكن البيعة والهجرة والجهاد لتتم لو لا انسلاخ المؤمنين الجدد من ولائهم القبلي والوطني، للولاء الشرعي، وتركهم لقاداتهم العشائرية إلى القيادة الإسلامية الواحدة...))(٥١).

إذن الرسول ﷺ للمسلمين بالهجرة:

أخرج البخاري أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ وَهُمَا الْحَرَّتَانِ)) فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ...))(٥٢).

وفي صحيح مسلم: ((رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب))(٥٣).

أخرج ابن سعد عن الواقدي من حديث عائشة وسهل بن حنيف قالا: ((لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة وقوماً أهل حرب وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج، فضيقوا على أصحابه ونالوا منهم مالم يكونوا ينالون من الشتم والأذى فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة فقال: ((قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي)) ثم مكث أياماً، ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: ((قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها)) فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك...))(٥٤).

طلائع المهاجرين:

أخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ((أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ فَقَدِمَ بِلَالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَعَلَ الْإِمَاءُ يَقُلْنَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} (الأعلى: ١) فِي سُوَرٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ))(٥٥).

الدروس والعظات:

١- كان المهاجرون ينتظرون الفرج بفارغ الصبر من هذا الأذى الذي تصبه عليهم قريش، فما كاد أن ينتهي الرسول ﷺ من قص رؤياه في الهجرة إلى المدينة حتى بادروا بالخروج إليها تاركين وراءهم أهلهم وأموالهم وبلادهم، فراراً بدينهم إلى الله.

٢- ترتيب عملية الهجرة، بحيث يخرجون مثنى وثلاث.

٣- العمل للدين واجب الجميع، والمبادرة إلى فعل الخير في أي مكان حل فيه المسلم فهو كالغيث حيثما وقع نفع، فطليعة المهاجرين فتحوا حلقات للتعليم فور وصولهم المدينة.

٤- التعليم للجميع فلم يقتصر تعليم المهاجرين على كبار الأنصار بل شمل الأطفال أيضاً.

٥- حرص الأنصار على تعليم أطفالهم وتربيتهم على دين الله ((فما جاء حتى قرأت سبح)).

٦- مشاركة الأطفال في الأفراح بقدوم رسول الله ﷺ تربية لهم على حب الله ورسوله.

هجرة عمر وعياش:

قال ابن إسحاق: حدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن عبد الله عن أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: ((اتعدت لما أردنا الهجرة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل السهمي، التناضُب من أَضاة بني غفار(٥٦)، فوق سَرِف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن. فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها، فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. قال: فقال: أبر بقسم أمي ولي هنالك مال فآخذه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فانج عليها. فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال:

بلى قال: فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقاً، ثم قالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع، عن عبد الله بن عمر، عن عمر في حديثه، قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم!

قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَتِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ} (الزمر: ٥٣ – ٥٥).

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام ابن العاصي.

قال: فقال هشام بن العاصي: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى(٥٧) أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهّمنيها قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة))(٥٨).

وهذا يضعف الرواية التي تذكر هجرة عمر علانية، وأنه تنكب قوسه وجاء إلى المسجد فقال لقريش: من أراد أن تثلكه أمه... الخ، فإن مدار هذه القصة على الزبير بن محمد بن خالد العثماني: حدثنا عبدالله بن القاسم الأملي (كذا الأصل ولعله الأيلي) عن أبيه بإسناده إلى علي رضي الله عنه، وهؤلاء الثلاثة في عداد المجهولين، فإن

أحداً من أهل الجرح والتعديل لم يذكرهم مطلقاً، كذا قال الألباني في كتابه ((دفاع عن السنة والسيرة النبوية))(٥٩).

الدروس والعظات:

١- ترتيب عمر وأصحابه لهجرتهم واختيار الوقت المبكر لها، والاتعاد في مكان بعيد عن الأنظار خارج مكة، دلالة على ملاحقة المشركين للمهاجرين ودقة متابعتهم لهم ومنعهم من السفر.

٢- عدم تأثير العاطفة على التخطيط والتنظيم، فقد انطلق عمر وعياش لما تأخر عليهم هشام فلم يبقوا في انتظاره.

٣- قيام قريش بسجن وحجز كل من تعلم بهجرته كما فعلت مع هشام.

٤- كل الخلق يكبدون ويتعبون، ولكن شتان بينهم، فهذا يتعب ويكبد لدعوة، وذاك لنزوة كما قال تعالى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالا يَرْجُونَ} (النساء: ١٠٤)، وقال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} (البلد: ٤)، وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ} (الانشقاق: ٦)، وفي حديث أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))(٦٠) فلقد تعب المسلمون المهاجرون وتكبدوا عناء الطريق في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته، كذلك تعب أبو جهل وأخوه وتكبدا عناء الطريق إلى المدينة في سبيل الشيطان.

٥- وفي قصة أبي جهل مع عياش، بيان ما ينبغي عليه المسلم من الحذر الشديد من الأساليب الكيدية التي يستخدمها العدو.

٦- الحذر من أساليب الاستعطاف التي قد يلجأ إليها العدو في الكيد للمؤمنين ((إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط...)).

٧- فطنة عمر حيث أدرك مباشرة كيد أبي جهل لعياش.

٨- نصح عمر لعياش وتوجيهه ولفت نظره عن الوقوع في شراك المخادعة.

٩- إنه مهما خالفك أخوك المسلم في رأيك ولم يأخذ بتوجيهك ونصحك فلا يعني ذلك التخلية بينه وبين عدوه وتركه وحده يلاقي مصيره، فعمر رضي الله عنه لم يتخلَّ عن عياش على الرغم من تركه لنصيحته بل بذل له نصف ماله لإقناعه، فلما لم يرض بالمرة الثانية، لم يغضب عليه ويقل: اذهب وستجد مصيرك، بل إنه أعطاه راحلته للنجاة عليها، وفي هذا استرخاص الأموال في سبيل نصرة أهل الإسلام.

١٠- عدم الثقة بالكافر مهما كانت قرابته، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} (آل عمران: ١١٨)، وقال تعالى: {يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ} (التوبة: ٨)، فالكفار لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمةً، فهذا أخوهم وقد أمّناه ومع ذلك يوثقانه ويسخران منه أمام الناس.

١١- استغلال الطاغية الكافر إذلال قريبه لتحريض الناس على جميع المؤمنين.

١٢- اهتمام عمر بأمر إخوانه الذين افتتنوا وفرحه الشديد بتوبة الله عليهم، ومكاتبتهم بذلك.

١٣- عظمة الإيمان في قلوب الصحابة، وكبر الذنوب في أعينهم، جعلهم يظنون أن من أجاب الكفار مكرهاً فإن الله لا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً.

مؤتمر دار الندوة:

إنّ لاجتماع قريش للتشاور في شأن رسول الله ﷺ شاهداً من كتاب الله: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ} (الأنفال: ٣٠)، ومما يقوي اجتماعات قريش في دار الندوة استفاضتها، وورودها من عدة طرق، يشد بعضها بعضاً(٦١).

قال ابن إسحاق: ((ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة – وهي دار قصي بن كلاب التي كانت

قريش لا تقضي أمراً إلا فيها – يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه)).

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج، وغيره ممن لا أتهم، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ((لما أجمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزّحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بتلة، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يُعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش، من بني عبد شمس: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، ومن بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل، ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلدة، ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام، وزَمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام، ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج، ومن بني جمح: أمية بن خلف، ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش))(٦٢).

وبعد تداول الآراء وتقليب وجهات النظر اتفقوا على قتل رسول الله ﷺ باختيار شاب من كل قبيلة ينفذون الخطة حتى يضيع دمه بين القبائل.

الهجرة النبوية:

أخرجها البخاري بطولها عن عائشة، وعن البراء بن عازب، وعن سراقة ابن مالك، وأنس بن مالك(٦٣).

حديث عائشة رضي الله عنها:

روى البخاري عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: ((لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ

بُكْرَةً وَعَشِيَّةً فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ(٦٤) لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ(٦٥) فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَأَنَا لَكَ جَارٌ ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَيَصِلُ الرَّحِمَ وَيَحْمِلُ الْكَلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَلْيُصَلِّ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَذِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا فَانْهَهُ فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ وَهُمَا الْحَرَّتَانِ فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ الْمَدِينَةِ

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ قَالَ نَعَمْ فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ وَهُوَ الْخَبَطُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ
قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ قَالَتْ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَعَمْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالثَّمَنِ قَالَتْ عَائِشَةُ فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ(٦٦) وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ قَالَتْ ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ(٦٧) فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ))(٦٨).

وقال البخاري في ((صحيحه)): ((باب استئجار المشركين عند الضرورة، أو إذا لم يوجد أهل الإسلام))، ثم ذكر حديث عائشة في استئجار النبي وأبي بكر رجلاً من بني الديل هادياً خريتاً(٦٩).

وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه عند ابن حبان: ((استأذن أبو بكر النبي ﷺ في الخروج من مكة))(٧٠).

وعند موسى بن عقبة: ((وكان رسول الله ﷺ لا يخطئه يوم إلا أتى منزل أبي بكر أول النهار وآخره))(٧١).

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر عند الطبراني: ((كان النبي ﷺ يأتينا بمكة كل يوم مرتين بكرة وعشية، فلما كان يوم من ذلك جاءنا في الظهيرة، فقلت: يا أبت هذا رسول الله ﷺ))(٧٢).

وفي رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب: ((قالت عائشة: وليس عند أبي بكر إلا أنا وأسماء))، وفيها: ((فقال أبو بكر: يا رسول الله ما جاء بك إلا أمر حدث))، وفيها: ((قال: أخرج من عندك قال: لا عين عليك، إنما هما ابنتاي)). وكذلك في رواية هشام بن عروة.

وفي رواية هشام: ((فقال: الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبة)).

زاد ابن اسحاق في روايته: ((قالت عائشة: فرأيت أبا بكر يبكي، وما كنت أحسب أن أحداً يبكي من الفرح))، وفيها: ((قال: لا أركب بعيراً ليس هو لي، قال: فهو لك، قال: لا، ولكن بالثمن الذي ابتعتها به، قال: أخذته بكذا وكذا، قال: أخذتها بذلك، قال: هي لك))(٧٣).

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر عند الطبراني: ((فقال: بثمنها يا أبا بكر، فقال: بثمنها إن شئت))(٧٤).

وأفاد الواقدي: ((أن الثمن ثمانمائة، وأن التي أخذها رسول الله ﷺ من أبي بكر هي القصواء، وأنها كانت من نعم بني قشير، وأنها عاشت بعد النبي ﷺ قليلاً وماتت في

خلافة أبي بكر، وكانت مرسلة ترعى بالبقيع، وأفاد أنه كان بالسفرة شاة مطبوخة))(٧٥).

أخرج البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه قال: ((كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا، قال: اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما))(٧٦).

أخرج البخاري عن أنس عن أبي بكر رضي الله عنه قال: ((قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما))(٧٧).

أخرج البخاري عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: ((اشْتَرَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ عَازِبٍ رَحْلاً بِثَلَاثَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعَازِبٍ مُرِ الْبَرَاءَ فَلْيَحْمِلْ إِلَيَّ رَحْلِي فَقَالَ عَازِبٌ لَا حَتَّى تُحَدِّثَنَا كَيْفَ صَنَعْتَ أَنْتَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجْتُمَا مِنْ مَكَّةَ وَالْمُشْرِكُونَ يَطْلُبُونَكُمْ قَالَ ارْتَحَلْنَا مِنْ مَكَّةَ فَأَحْيَيْنَا أَوْ سَرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَيَوْمَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ فَرَمَيْتُ بِبَصَرِي هَلْ أَرَى مِنْ ظِلٍّ فَآوِيَ إِلَيْهِ فَإِذَا صَخْرَةٌ أَتَيْتُهَا فَنَظَرْتُ بَقِيَّةَ ظِلٍّ لَهَا فَسَوَّيْتُهُ ثُمَّ فَرَشْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ اضْطَجِعْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَاضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَنْظُرُ مَا حَوْلِي هَلْ أَرَى مِنَ الطَّلَبِ أَحَدًا فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ يَسُوقُ غَنَمَهُ إِلَى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا الَّذِي أَرَدْنَا فَسَأَلْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلَامُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُ فَعَرَفْتُهُ فَقُلْتُ هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ فَهَلْ أَنْتَ حَالِبٌ لَنَا قَالَ نَعَمْ فَأَمَرْتُهُ فَاعْتَقَلَ شَاةً مِنْ غَنَمِهِ ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ ضَرْعَهَا مِنَ الْغُبَارِ ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ كَفَّيْهِ فَقَالَ هَكَذَا ضَرَبَ إِحْدَى كَفَّيْهِ بِالْأُخْرَى فَحَلَبَ لِي كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ وَقَدْ جَعَلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِدَاوَةً(٧٨) عَلَى فَمِهَا خِرْقَةٌ فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَافَقْتُهُ قَدِ اسْتَيْقَظَ فَقُلْتُ اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ ثُمَّ قُلْتُ قَدْ آنَ الرَّحِيلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ بَلَى فَارْتَحَلْنَا وَالْقَوْمُ يَطْلُبُونَنَا فَلَمْ يُدْرِكْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ غَيْرُ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ عَلَى فَرَسٍ لَهُ فَقُلْتُ هَذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ ((لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا))(٧٩).

ورواه مسلم وزاد: ((وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ وَنَحْنُ فِي جَلَدٍ مِنَ الْأَرْضِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُتِينَا فَقَالَ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا أُرَى فَقَالَ إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ فَادْعُوَا لِي فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ فَدَعَا اللَّهَ فَنَجَا فَرَجَعَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَاهُنَا فَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ قَالَ وَوَفَى لَنَا وحَدَّثَنِيهِ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ ح وحَدَّثَنَاه إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَخْبَرَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ كِلَاهُمَا عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ اشْتَرَى أَبُو بَكْرٍ مِنْ أَبِي رَحْلًا بِثَلَاثَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا وسَاقَ الْحَدِيثَ بِمَعْنَى حَدِيثِ زُهَيْرٍ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ وقَالَ فِي حَدِيثِهِ مِنْ رِوَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ عُمَرَ فَلَمَّا دَنَا دَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَاخَ فَرَسُهُ فِي الْأَرْضِ إِلَى بَطْنِهِ وَوَثَبَ عَنْهُ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا عَمَلُكَ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ وَلَكَ عَلَيَّ لَأُعَمِّيَنَّ عَلَى مَنْ وَرَائِي وَهَذِهِ كِنَانَتِي فَخُذْ سَهْمًا مِنْهَا فَإِنَّكَ سَتَمُرُّ عَلَى إِبِلِي وَغِلْمَانِي بِمَكَانِ كَذَا وكَذَا فَخُذْ مِنْهَا حَاجَتَكَ قَالَ لَا حَاجَةَ لِي فِي إِبِلِكَ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ لَيْلًا فَتَنَازَعُوا أَيُّهُمْ يَنْزِلُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَنْزِلُ عَلَى بَنِي النَّجَّارِ أَخْوَالِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أُكْرِمُهُمْ بِذَلِكَ فَصَعِدَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فَوْقَ الْبُيُوتِ وَتَفَرَّقَ الْغِلْمَانُ وَالْخَدَمُ فِي الطُّرُقِ يُنَادُونَ يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ))(٨٠).

قال ابن حجر: ((لم أقف على تسميته – أي الراعي – ولا على تسمية صاحب الغنم، إلا أنه جاء في حديث عبد الله بن مسعود شيء تمسك به من زعم أنه الراعي، وذلك فيما أخرجه أحمد وابن حبان من طريق عاصم عن زر عن ابن مسعود قال: ((كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: يا غلام هل من لبن؟ قلت: نعم، ولكني مؤتمن...))(٨١).

وهذا لا يصلح أن يفسر به الراعي في حديث البراء لأن ذلك قيل له: ((هل أنت حالب؟ فقال: نعم))، وهذا أشار بأنه غير حالب، وذلك حلب من شاة حافل وهذا من شاة لم تطرق ولم تحمل، ثم إن في بقية هذا الحديث ما يدل على أن قصته كانت قبل الهجرة لقوله فيه: ((ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول))،

فإن هذا يشعر بأنها كانت قبل إسلام ابن مسعود، وإسلام ابن مسعود كان قديماً قبل الهجرة بزمان، فبطل أن يكون هو صاحب القصة في الهجرة))(٨٢).

قال البخاري: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ الْمُدْلِجِيُّ وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ: ((جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ فَقَالَ يَا سُرَاقَةُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ قَالَ سُرَاقَةُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الْأَرْضَ(٨٣) وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي فَخَرَرْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لَا فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ فَوَقَفُوا فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي إِلَّا أَنْ قَالَ أَخْفِ عَنَّا فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ

فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمِ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَامِتًا فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا فَقَالَا لَا بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ:

هَذَا الْحِمَالُ لا حِمَالَ خَيْبَرْ

هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وَيَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَهْ

فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَلَمْ يَبْلُغْنَا فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَمَثَّلَ بِبَيْتِ شِعْرٍ تَامٍّ غَيْرِ هَذَا الْبَيْتِ))(٨٤).

في الحديث منقبة ظاهرة لأبي بكر، وفيه أن باب الغار كان منخفضاً إلا أنه كان ضيقاً، فقد جاء في السير للواقدي: أن رجلاً كشف عن فرجه وجلس يبول فقال أبو بكر: قد رآنا يا رسول الله قال: لو رآنا لم يكشف عن فرجه))(٨٥).

أخرج البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: ((لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وبِلَالٌ قَالَتْ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا فَقُلْتُ يَا أَبَتِ كَيْفَ تَجِدُكَ وَيَا بِلَالُ كَيْفَ تَجِدُكَ قَالَتْ فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ

وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أُقْلِعَ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ وَيَقُولُ:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً

بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ

وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ(٨٦)

قَالَتْ عَائِشَةُ فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ))(٨٧).

زاد ابن اسحاق في روايته عن هشام وعمرو بن عبد الله بن عروة جميعاً عن عروة عن عائشة عقب قول أبيها: ((فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول)) قالت: ((ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة –وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب– فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه

إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه

كالثور يحمي جسمه بروقه(٨٨)

وقالت في آخره: ((فقلت: يا رسول الله إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى))(٨٩)، والزيادة في قول عامر بن فهيرة رواها مالك أيضاً في الموطأ عن يحيى بن سعيد عن عائشة منقطعاً(٩٠).

أخرج البخاري عن أسماء رضي الله عنها: ((صنعت سفرة للنبي ﷺ وأبي بكر حين أرادا المدينة، فقلت لأبي: ما أجد شيئاً أربطه إلا نطاقي، قال: فشقيه، ففعلت، فسميت ذات النطاقين))، وقال ابن عباس: ((أسماء ذات النطاقين))(٩١).

أخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْرٍ وَأَبُو بَكْرٍ شَيْخٌ يُعْرَفُ وَنَبِيُّ اللَّهِ ﷺ شَابٌّ لَا يُعْرَفُ قَالَ فَيَلْقَى الرَّجُلُ أَبَا بَكْرٍ فَيَقُولُ يَا أَبَا بَكْرٍ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ فَيَقُولُ هَذَا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ قَالَ فَيَحْسِبُ الْحَاسِبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي الطَّرِيقَ وَإِنَّمَا يَعْنِي سَبِيلَ الْخَيْرِ فَالْتَفَتَ أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هُوَ بِفَارِسٍ قَدْ لَحِقَهُمْ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا فَارِسٌ قَدْ لَحِقَ بِنَا فَالْتَفَتَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ اللَّهُمَّ اصْرَعْهُ فَصَرَعَهُ الْفَرَسُ ثُمَّ قَامَتْ تُحَمْحِمُ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مُرْنِي بِمَا شِئْتَ قَالَ فَقِفْ مَكَانَكَ لَا تَتْرُكَنَّ أَحَدًا يَلْحَقُ بِنَا قَالَ فَكَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ جَاهِدًا عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ آخِرَ النَّهَارِ مَسْلَحَةً لَهُ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَانِبَ الْحَرَّةِ ثُمَّ بَعَثَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَاءُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِمَا وَقَالُوا ارْكَبَا آمِنَيْنِ مُطَاعَيْنِ فَرَكِبَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَحَفُّوا دُونَهُمَا بِالسِّلَاحِ فَقِيلَ فِي الْمَدِينَةِ جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَأَشْرَفُوا يَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ فَأَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جَانِبَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ فَإِنَّهُ لَيُحَدِّثُ أَهْلَهُ إِذْ سَمِعَ بِهِ عَبْدُاللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ فِي نَخْلٍ لِأَهْلِهِ يَخْتَرِفُ لَهُمْ فَعَجِلَ أَنْ يَضَعَ الَّذِي يَخْتَرِفُ لَهُمْ فِيهَا فَجَاءَ وَهِيَ مَعَهُ فَسَمِعَ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي قَالَ فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلًا قَالَ قُومَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ فَلَمَّا جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ جَاءَ عَبْدُاللَّهِ ابْنُ سَلَامٍ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّكَ جِئْتَ بِحَقٍّ وَقَدْ عَلِمَتْ يَهُودُ أَنِّي سَيِّدُهُمْ وَابْنُ سَيِّدِهِمْ وَأَعْلَمُهُمْ وَابْنُ أَعْلَمِهِمْ فَادْعُهُمْ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ فَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ

أَسْلَمْتُ قَالُوا فِيَّ مَا لَيْسَ فِيَّ فَأَرْسَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلُوا فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَيْلَكُمِ اتَّقُوا اللَّهَ فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ فَأَسْلِمُوا قَالُوا مَا نَعْلَمُهُ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَهَا ثَلَاثَ مِرَارٍ قَالَ فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُاللَّهِ بْنُ سَلَامٍ قَالُوا ذَاكَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ قَالُوا حَاشَى لِلَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ قَالُوا حَاشَى لِلَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ قَالُوا حَاشَى لِلَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ قَالَ يَا ابْنَ سَلَامٍ اخْرُجْ عَلَيْهِمْ فَخَرَجَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ اتَّقُوا اللَّهَ فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ فَقَالُوا كَذَبْتَ فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ))(٩٢).

أخرج البخاري عن أنس: ((أَنَّ عَبْدَاللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ فَقَالَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ قَالَ أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا قَالَ ابْنُ سَلَامٍ ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالَ أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الْوَلَدَ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي فَجَاءَتِ الْيَهُودُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُاللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ قَالُوا خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ سَلَامٍ قَالُوا أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُاللَّهِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَالُوا شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَتَنَقَّصُوهُ قَالَ هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ))(٩٣).

أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود))(٩٤)، والمراد بالعشرة يعني من أسيادهم، وإلا فقد أسلم منهم أكثر من عشرة(٩٥).

أخرج أحمد والترمذي وصححه هو والحاكم من طريق زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام قال: ((لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب...)) الحديث(٩٦).

وقال البخاري في التاريخ الصغير حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: ((إني لأسعى مع الغلمان إذ قالوا: جاء محمد، فننطلق فلا نرى شيئاً، حتى أقبل وصاحبه، فكمنا في بعض خرب المدينة وبعثا رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما، فاستقبله زهاء خمسمائة من الأنصار فقالوا: انطلقا آمنين مطاعين...)) الحديث(٩٧).

وفي حديث أبي أيوب عند الحاكم وغيره: ((أنه أنزل النبي ﷺ في السفل ونزل هو وأهله في العلو، ثم أشفق من ذلك، فلم يزل يسأل النبي ﷺ حتى تحول إلى العلو ونزل أبو أيوب إلى السفل)) ونحوه في طريق عبد العزيز بن صهيب عن أنس عند أبي سعيد في ((شرف المصطفى)) وأفاد ابن أسعد أنه أقام بمنزل أبي أيوب سبعة أشهر حتى بنى بيوته(٩٨).

أخرج الإمام أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ} قَالَ: ((تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بِمَكَّةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ يُرِيدُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلِ اقْتُلُوهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ أَخْرِجُوهُ فَأَطْلَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ فَبَاتَ عَلِيٌّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى لَحِقَ بِالْغَارِ وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا يَحْسَبُونَهُ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ فَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ فَقَالُوا أَيْنَ صَاحِبُكَ هَذَا قَالَ لَا أَدْرِي فَاقْتَصُّوا أَثَرَهُ فَلَمَّا بَلَغُوا الْجَبَلَ خُلِّطَ عَلَيْهِمْ فَصَعِدُوا فِي الْجَبَلِ فَمَرُّوا بِالْغَارِ فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ فَقَالُوا لَوْ دَخَلَ هَاهُنَا لَمْ يَكُنْ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ فَمَكَثَ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ))(٩٩).

قال ابن كثير: ((وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار وذلك من حماية الله لرسول الله ﷺ))(١٠٠).

وأخرج ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أن أبا جهل كان يقف محرضاً للمحاصرين لبيت الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إن محمداً يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها))(١٠١).

قال ابن إسحاق حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت: ((لما خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله معه، خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم، فانطلق به معه، فدخل علينا جدي أبو قحافة – وقد ذهب بصره – فقال: والله إني لأراه فجعكم بماله ونفسه، قالت: كلا يا أبت، قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة من البيت كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقالت: ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، في هذا بلاغ لكم، قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أسكن الشيخ))(١٠٢).

أما خروج الرسول ﷺ وذر التراب على رؤوس المحاصرين: فقد أخرجه ابن إسحاق بدون إسناد(١٠٣).

قصة أم معبد:

وطرقها ما بين ضعيفة وواهية إلا طريقاً واحدة يرويها الصحابي قيس بن النعمان السكوني ونصها: ((لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان نزلا بأبي معبد فقال: والله ما لنا شاة، وإن شاءنا لحوامل فما بقي لنا لبن. فقال رسول الله ﷺ أحسبه: فما تلك الشاة؟ فأتى بها، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلب عُسًّا فسقاه، ثم شربوا، فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال: إنهم ليقولون، قال: أشهد أن ما جئت به حق، ثم قال: أتبعك، قال: لا حتى تسمع أنّا قد ظهرنا، فاتبعه بعد))(١٠٤).

الترتيبات والاحتياطات التي اتخذت للهجرة:

لقد جاءت خطة الهجرة والترتيب لها في غاية الإحكام والدقة في أخذ الحيطة وقد تمثلت في النقاط التالية:

١- اختيار الصاحب المناسب وهو أبو بكر الصديق اختاره من بين جميع الصحابة كما في البخاري.

٢- التعريض له بالخبر، فلم يقطع له النبي ﷺ بأمر الصحبة في الهجرة وإنما قال: ((لعل الله يجعل لك صاحباً)) كما في البخاري.

٣- إعداد راحلتين قبل مدة طويلة من الهجرة، إذ لو اشترى الراحلتين قبيل الهجرة فربما لفت أنظار قريش إلى ذلك، وماذا يريد أبو بكر بهاتين الراحلتين إلا لأمر بيته مع محمد؟ وبخاصة بعد تفاقم الأزمة واشتداد الوحشة بعد بيعة العقبة الثانية، وهذه رواية البخاري.

٤- دفع الراحلتين إلى الدليل قبل الهجرة، كما في البخاري.

٥- زيارة أبي بكر كل يوم، فقد كان النبي ﷺ لا يخطئه يوم أن يأتي أبا بكر غدوة وعشية، وعلى هذا لم يكن الأمر غريباً على قريش في مجيئه إليه وقت التخطيط للهجرة، كما في البخاري.

٦- تغيير الوقت المعتاد للزيارة، ولعل ذلك بسبب الرصد من قبل قريش لزياراته في الوقت المعتاد، كما في البخاري.

٧- اختيار الوقت المناسب للزيارة وهو وقت الظهيرة حيث يستظل الناس ويكونون في بيوتهم، كما في البخاري.

٨- الخروج إلى أبي بكر متنكراً بالقناع حتى لا يعرف، كما في البخاري.

٩- الإسرار لأبي بكر بخبر الهجرة، وكتمان ذلك عن أهل بيته في بداية الأمر حيث قال له: أخرج من عندك، كما في البخاري.

١٠- الإسراع في إعداد الزاد وتجهيزه، كما في البخاري.

١١- مبيت علي على الفراش، كما في المسند لأحمد.

١٢- الخروج من خوخة في ظهر بيت أبي بكر ولم يخرجوا من الباب المعتاد، كما في رواية ابن إسحاق.

١٣- الخروج من الطريق المعاكس لطريق المدينة، فالأصل أن يخرجوا من جهة الشمال حيث طريق المدينة، فخرجوا جهة الجنوب، كما في البخاري.

١٤- اختيار الغار حيث البعد عن الأنظار للاختفاء فيه، كما في البخاري.

١٥- البقاء في الغار ثلاثة أيام حتى يسكن الطلب عنهما، كما في البخاري.

١٦- التخطيط للتعرف على كيد العدو ومتابعته وإعطاء هذا الأمر أهمية كبيرة.

١٧- اختيار الرجل المناسب لهذه المهمة في متابعة أخبار قريش وترتيباتها للقبض عليهما، فقد اختاروا شاباً قد لا يلفت نظرهم، ويمتاز بالذكاء والفطنة فيلتقط كل خبر ولا يفوته شيء، كما في البخاري.

١٨- متابعة الأخبار أولاً بأول حيث يأتي بالخبر كل يوم، فالحدث لا يستحمل التأخير أكثر من هذا، كما في البخاري.

١٩- ترتيب مجيء المخبر وانصرافه، سواء في وقت المجيء والانصراف، أو في طريقة الذهاب والإياب، كما في البخاري.

٢٠- إسناد مهمة الإتيان باللبن للرجل المناسب وهو الراعي عامر بن فهيرة، كما في البخاري.

٢١- ترتيب حضور عامر بن فهيرة وانصرافه، كما في البخاري.

٢٢- اتباع عامر بن فهيرة أثر عبد الله بن أبي بكر بالغنم حتى تعمي أثره، كما هو عند ابن إسحاق.

٢٣- اختيار الدليل ذي الكفاءة العالية، كما في البخاري.

٢٤- الخروج من الغار آخر الليل، كما في البخاري وعند موسى بن عقبة.

٢٥- سلوك طريق غير الطريق المعتاد للمدينة، كما في البخاري.

٢٦- اصطحاب عامر للخدمة.

٢٧- مواصلة السير بدون توقف، كما في البخاري.

٢٨- تأخير وقت الراحة، كما في البخاري.

٢٩- حمل أبي بكر جميع ماله، ومن فوائد ذلك أن أبا بكر كان رجلاً غنياً فربما لحقهم الطلب فاستطاع أن يفدي أنفسهما بذلك المال، وكان مبلغاً كبيراً قدر بخمسة آلاف، كما عند ابن إسحاق، وتقدير المبلغ رواه أحمد والحاكم.

الدروس والعظات من الهجرة:

١- تقدم إسلام آل أبي بكر ((لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين)).

٢- اهتمام أبي بكر بأهل بيته وإصلاحهم والبدء بهم قبل غيرهم.

٣- منزلة أبي بكر من النبي ﷺ وصلته الوثيقة به، ومعايشته لأمر الدعوة منذ بزوغ فجرها، فقد كان عليه الصلاة والسلام يزوره كل يوم مرتين.

٤- إن تفكير أبي بكر في الخروج من مكة مهاجراً لوحده مع منزلته وأهميته للدعوة وصلته الوثيقة بالرسول صلى الله عليه وسلم، ليكشف عن مدى الأذى والشدة التي تلحقها قريش بالمسلمين، هذا مع أن أبا بكر من الأشراف ومن الذين يجدون منعة في قومهم فكيف بالضعفاء والعبيد!!.

٥- أن أمن الدين هو الأصل عند المسلم فإن وجد عليه خطراً دفع بلده وماله وأهله حماية لدينه، ولهذا خرج أبو بكر مهاجراً وحده تاركاً كل شيء خلف ظهره يطلب الأمان لدينه ودعوته.

٦- بلد المسلم ووطنه هو الذي يتمكن فيه من إظهار دينه ودعوته فيه، ولهذا خرج أبو بكر على الرغم من أفضلية بلده على سائر البلدان، وعلى المسلم أن لا يركن إلى الذل والهوان بل يعمل تفكيره في الخروج من الحصار المضروب على دينه ودعوته، ويبحث عن موطن موافق أو مسالم لها، حتى يتمكن من تحقيق عبوديته لله تعالى.

٧- التقارب والتشابه بين صفات الرسول ﷺ وصفات أبي بكر، فالرسول ﷺ قالت له خديجة: ((كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف...)) وأبو بكر يقول له ابن الدغنة: ((مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف...)).

٨- ينبغي للمسلم أن ينافس على خصال الخير المتعدية فإن هذا أدعى لرضا الله تعالى عنه، وقبول الخلق ما لديه، وكما قيل في وصف أهل السنة والجماعة ((أعلم الناس بالحق وأرحمهم للخلق)) ونفع الناس أعظم من نوافل العبادات ((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ))(١٠٥).

٩- إن الأعمال المتعدية تكسب الثقة والمنزلة في قلوب الناس مهما كانوا، فالناس لا ينظرون إلى العبادات الشخصية بقدر ما يراعون تجاوب الرجل مع مشاكلهم، ومشاركته الفاعلة في حياتهم.

فأبو بكر كسب ثقة ابن الدغنة وهو مشرك، فأجاره ورد على قريش على ملأ منهم، ولم يستطيعوا التنكر لذلك لشهرة تلك الصفات عن أبي بكر.

١٠- تقدير العرب للعادات الكريمة والصفات الحميدة وقيام العظماء والشرفاء في صف صاحبها، وهذا يفسر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))(١٠٦)، وقول الله تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} (الأنعام: ١٢٤).

١١- الاستفادة من تقاليد المجتمع وأنظمته في خدمة الدعوة بما لا يتعارض مع أوامر الله ورسوله، فقد تجاوب أبو بكر مع ابن الدغنة، واستفاد من جواره، ورجع إلى بيته.

١٢- مصادرة صوت الحق وتجفيف منابعه، فالكفار لم يكتفوا بتشويه صورة الرسول ﷺ وأتباعه، وبث الدعايات الكاذبة عليهم، وإيراد الإيرادات الواهية على منهجه وتعاليمه، لأنهم يعلمون أن الناس ليس كلهم إمعات يقبلون كل ما يقال لهم، بل إن أول الناس بعداً عن الاقتناع بطرحهم هم أبناؤهم ونساؤهم، فالدعايات لا تغير كل قناعات الناس، ولهذا وعلى الرغم من تلك المحاربة الإعلامية والعقبات الكبيرة التي وضعتها قريش أمام الدعوة، فإنها تخشى على أبنائها ونسائها من سماع صوت الحق فيقتنعوا به.

١٣- الكفار وأهل الباطل يصادرون حريات التفكير ولا يجعلون للناس مجالاً للاختيار، أو فرصة في المعرفة، بل يعتبرون سواهم ليسوا على مستوى معرفة المصالح والمفاسد، ويجعلون لهم وحدهم تلك المعرفة وما على المجتمع إلا اتباعهم والانقياد لما يرسمون ويخططون لهم، فهم يفكرون عنهم ويوقعون بالنيابة عنهم ويسالمون ويعادون بالوكالة!! وإلا فيا معشر قريش أليس أبناؤكم وعبيدكم ونساؤكم منكم فلِمَ تمنعونهم من سماع صوت الحق أم ليسوا على مستوى النقد والتمييز مثلكم.

وفي هذا درس لأهل العلم والدعوة، فلا ينبغي أن يضيرهم تشويه صورتهم وإيذاؤهم، ومصادرة حرياتهم وكلماتهم، فيسري إليهم اليأس فيتصوروا عدم قبول الناس لهم بسبب تلك الدعايات المضللة، فهاهم أبناء قريش ونساؤهم يغدون على أبي بكر لسماع القرآن الذي طالما سمعوا الكلام الباطل فيه وطالما حاولت قريش التشويش عليه!!.

فمهما بلغت دعايات أهل الباطل واتهاماتهم ومحاربتهم للدين وللدعوة فإن للحق طلاباً، والناس ليس كلهم إمعات يقبلون كل ما يقال لهم، فدعايات الباطل لم تؤثر في نساء قريش وأبنائهم فضلاً عن الآخرين.

١٤- الجهر بالحق والدعوة إليه هو الأصل في هذا الدين، والاستسرار والكتمان والاختفاء بالعبادة طارئ يلجأ إليه لوقت محدود، ولظرف طارئ، ولمصلحة راجحة، أما أن يبقى المسلم دائماً مختفياً فهذا يتنافى مع دعوته التي أمر أن يخرج الناس بها من الظلمات إلى النور، وإن تعرض للأذى، ولهذا بنى أبو بكر مسجداً بفناء بيته واستعلن في صلاته وقراءته.

١٥- إن جميع الكفار في كل العصور على اختلاف مللهم ونحلهم لا يمانعون من قيام الرجل بعبادة فردية داخل منزله ولا يعلن بذلك، لأنهم يعلمون زيف معتقدهم وفساد منهجهم وضمور آرائهم، وأنه يمكن تحطيمها بمجرد الإعلان بقراءة القرآن بفناء البيت، فمبادئهم لا تقف لحظة أمام الحق، كالظلام الضارب أطنابه على الأرض سرعان ما ينقشع أمام شعلة النور.

١٦- لقد فزعت قريش من تأثر الناس بأبي بكر وصلاته وهو لا يملك أي وسيلة إعلامية، ولم يتقدم بدعوة أحد، أو يعقد مجلس مناظرة أو حوار مع ذرياتهم.

١٧- وصف الكفار وأهل الباطل لكل ما يخالف هواهم ومذهبهم بأنه فتنة للناس، قالت قريش عن أبي بكر: ((فإنا خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا)) فأبو بكر يثير الفتن في مفهوم قريش العقيم، فالكفار لا يبالون بالتزوير وتغيير الحقائق وإطلاق الألفاظ غير المحسوبة على ما يشاؤون، وإلا متى كان الحق والخير والصلاح فتنة للنساء والأبناء.

١٨- يعتبر من صلى جهاراً وقرأ القرآن علانية ولوكان داخل فناء منزله قد تعدى وتجاوز في نظر قريش فترفع لابن الدغنة احتجاجها بأن أبا بكر: ((قد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره)).

١٩- عجباً لأهل الباطل لا يكفيهم حكم الأرض ومن عليها، بل يرون أن لهم الحق حتى في تفكير الناس وآرائهم وليس لهم الحق حتى في قراءاتهم في منازلهم، فقريش لن تقر لأبي بكر أن يقرأ بفناء بيته ولنفسه، فهي تقول لابن الدغنة: ((ولسنا بمقرين لأبي بكر الاستعلان)) وقد أراد فرعون أن يتحكم في القلوب كما قال للسحرة لما آمنوا: في قوله تعالى: {آمنتم له قبل أن آذن لكم}.

٢٠- يضفي أهل الضلال القداسة على مبادئهم وعاداتهم وتقاليدهم الباطلة، ويوقعون العقوبة على من خالفها، ولكن متى بدت لهم مصلحة أو لاح لهم في الأفق منفعة ضربوا بأنظمتهم عرض الحائط، وعندهم استعداد للانقسام والانشطار متى ما تعرضت مصالحهم للخطر، فعند ذلك فلا عهد ولا ذمة وإن كان المخالف من الرفاق والأصحاب، فهذه قريش تنوي خفر ذمة ابن الدغنة ونبذ عهده لمجرد مخالفة بسيطة في المعاهدة، فبدلاً من أن يصلي أبو بكر داخل البيت صلى في فناء البيت، فطلبوا ابن الدغنة وقالوا له في صيغة التهديد: ((فإنا كرهنا أن نخفرك)).

٢١- قد يقوم فاجر بالحدب على المسلم والدفاع عنه وقد يبدي احترامه لفكرته أو رأيه، ولكن مما ينبغي التفطن له أن هذا لا يكون إلا بصورة محدودة وبما لا

يتعارض مع مصلحته وسمعته، وأنه عنده الاستعداد للتخلي عن حمايته بمجرد تعرض سمعته إلى خطر، فهذا ابن الدغنة لما هددته قريش بسمعته طلب من أبي بكر رد جواره وقال له:" فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له "

٢٢- التوكل على الله والانتصار به والالتجاء إليه والثقة بنصره هو معتقد المسلم الذي لا يفارقه أبداً، مع الشجاعة ونبذ الخوف من المخلوقين ما دام يأوي إلى ركن شديد قال أبو بكر لابن الدغنة ((أرد جوارك وأرضى بجوار الله)) قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} (الطلاق: ٣)، وقال: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ} (إبراهيم: ١٢)، وقال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ} (الفرقان: ٥٨)، وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل))(١٠٧).

٢٣- لقد أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة ولم يختر صاحباً له في الهجرة غير أبي بكر، وفي هذا دلالة على عظم الصلة وقوة الرابطة بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم: ((على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي)).

٢٤- لقد تجهز أبو بكر للهجرة ثانية بنفسه إلى المدينة، ولكن بعدما عرّض له الرسول ﷺ بالصحبة جلس وتحمل الأذى والعنت والتعب من قريش طاعة لرسول الله ﷺ ورغبة في مصاحبته ((فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه)).

٢٥- مبادرة أبي بكر في الترتيب لأمر الهجرة، وبذل المال في خدمة دعوته بدون طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد قام مباشرة بعد تعريض الرسول ﷺ له بالصحبة بتعليف راحلتين كانتا عنده، إذ مثل هذا من بدهيات الهجرة فلا تحتاج إلى أمر يتلقاه من الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي هذا بيان بأن الرسول ﷺ لم يكن يربيهم تربية العبيد تربية الخنوع وإلغاء العقل مع المتبوع.

٢٦- مقابلة التخطيط بالتخطيط، والتنظيم بالتنظيم، والترتيب بالترتيب، فقريش تخطط وترتب للإيقاع بالدعوة، بينما الرسول ﷺ يخطط ويرتب للنجاة بها، وهذا يوضح أن

الاستسرار فيما يخدم الإسلام بما لا يتعلق به بلاغ ولا بيان ولا يترتب على إسراره كتمان للدين أو سكوت عن حق من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولا يتعارض التخطيط وأخذ الحيطة مع التوكل على الله تعالى، لأن الأخذ بالأسباب جزء من التوكل على الله تعالى.

٢٧- وإن من أعظم مظاهر التضحية في هذه الهجرة أن يغادر النبي ﷺ والمؤمنون هذا البلد الأمين الحبيب إلى قلوبهم -بل وإلى قلوب جميع المسلمين- مغادرة يعلمون أن لا استقرار لهم فيه بعدها، وهذا من أشق الأمور على النفس، ولكن رجال العقيدة يسترخصون في سبيلها كل غال.

ولقد عبر النبي ﷺ عن هذا المعنى -معنى صعوبة مغادرة مكة وفراقها فراقاً لا سكنى بعده- في العديد من المواقف المؤثرة.

عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحَزْورة(١٠٨) فقال: ((والله والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت))(١٠٩).

٢٨- تربية أبي بكر رضي الله عنه لأسرته على الأمانة ونصرة هذا الدين وإحاطته وحفظه وبذل ما يملكون في سبيل ذلك، وكان واثقاً أتم الثقة بتربيته فقال للرسول ﷺ لما أمره بإخراج من عنده: ((لا عين عليك))، ((إنما هم أهلك يا رسول الله)).

٢٩- الرغبة في مصاحبة أهل الخير مهما ترتب على ذلك من أخطار، قال أبو بكر للرسول صلى الله عليه وسلم: ((الصحبة يا رسول الله)).

٣٠- منزلة الرسول ﷺ عند أبي بكر أوصلته إلى البكاء من الفرح لما أخبره بمصاحبته في الهجرة.

٣١- الرغبة في المساهمة في طريق الخير وعدم الاعتماد على الآخرين في ذلك، فالرسول ﷺ أبى أن يركب راحلة ليست له حتى اشتراها من أبي بكر بالثمن، حتى تكون هجرته بماله ونفسه رغبة في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما(١١٠).

٣٢- أسرة أبي بكر تشارك بمجموعها في إنجاح خطة الهجرة النبوية.
٣٣- الاستفادة من خبرات وطاقات المجتمع وتوظيفها في المجالات المناسبة، فعبد الله بن أبي بكر للأخبار، وعامر للشراب، وأسماء وعائشة لتجهيز الطعام وهكذا.
٣٤- الاستفادة من خبرات المشركين إذا أمن حالهم، ولم يكن لهم شوكة في التأثير على القرار، وعرفوا واشتهروا بما يراد منهم، ولم يكن أحد من المسلمين يسد هذه الوظيفة، وكانت عاداتهم وتقاليدهم تفرض عليهم الأمانة في أداء تلك المهمة.
٣٥- اتخاذ الأسباب والاحتياطات التامة، ثم التوكل على الله تعالى والثقة المطلقة به والاطمئنان لنصره، وعدم الاتكال على الأسباب ذاتها، قال أبو بكر: يا رسول الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا قال: ((ما ظنك باثنين الله ثالثهما)).
٣٦- إن نصر الله فوق كل نصر، وقدرة الله فوق كل قدرة، وأمر الله فوق كل أمر، وتأييده يتحدى كل قدرات البشر وطاقاتهم، فهذه قريش صاحبة السلطة وتحت يدها السلاح والرجال والأموال ومع ذلك لم تستطع أن تهتدي إليهم في الغار.
٣٧- اهتمام أبي بكر بالرسول ﷺ وإيثاره على نفسه، فقد ذهب يبحث له في الطريق عن ظل يقيل فيه.
٣٨- لقد استولت سلامة الرسول ﷺ على جل تفكير أبي بكر، فما أن وجد ظلاً يقيل فيه رسول الله ﷺ إلا وقام بتجهيزه وتنظيفه حتى يضطجع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما هو فقد نسي نفسه من القيلولة وذهب ينظر ((هل يرى من طلب)).
٣٩- الأدب الجم وحسن المخاطبة مع الأمانة يتجلى ذلك في مخاطبة أبي بكر لراعي قريش لعله يحلب لهم، مع أن الركب في حال حرب مع قريش وقد سطت قريش على أموال المسلمين وبيوتهم.
٤٠- اهتمام أبي بكر بغذاء الرسول ﷺ من حيث النظافة والحالة الجيدة وتقديمه على نفسه في ذلك مع فرحه بشربه، على الرغم مما هو فيه من الشدة والخوف، فقد أمر الراعي بتنظيف يديه، ثم جعل الحليب في إناء برّده فيه، ثم جاء به إلى النبي ﷺ قال: ((ثم شرب حتى رضيت)).

٤١- أدب أبي بكر في مخاطبته للرسول ﷺ ((آن الرحيل يا رسول الله)).
٤٢- تعميم قريش على جميع القبائل في القبض على الرسول ﷺ وصحبه.
٤٣- بذل قريش المال لرصد المعلومات ومضايقة الأخيار وهذا أسلوب يستمال به ضعاف النفوس.
٤٤- رصد جائزة كبيرة لمن أتى بهم، ولا شك أن هذه الجائزة لا يفي بها مال رجل واحد من قريش، وإنما أثقلت كاهل عدد من الأشراف، ولكن لا بأس بذلك ما دام الهدف هو القضاء على الإسلام، فلترصد ميزانية هذا العام وليعش الناس في تقشف.
قال سراقة: ((جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما)).
٤٥- من الدلائل على أن الجائزة المرصودة مغرية استنفار جميع القبائل للبحث عنهما، وتعتيم سراقة على قومه حتى يحظى بها وحده.
٤٦- نجاح خطة وترتيبات الهجرة النبوية، فعلى الرغم من حرص قريش وتعميمها على القبائل وبذل الأموال في سبيل ذلك إلا أنه لم يدركهم منهم أحد غير سراقة.
٤٧- لقد كان أبو بكر قلقاً على حياة رسول الله من أن يصيبها أذى، ولذلك يكثر الالتفات، أما رسول الله ﷺ فقد كان واثقاً من نصر ربه له، مطمئناً إلى ذلك لم يعبأ بالخطر مع قربه منه، ولم يستحق منه مجرد الالتفات، قال أبو بكر: ((هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله فقال: {لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا} (التوبة: ٤٠))).
٤٨- لقد قرب سراقة منهم وأصبح الخطر قاب قوسين أو أدنى، ولكن لا يأس من نصر الله ورحمته وحمايته، إن نصر الله يأتي العبد من حيث لم يحتسب، وحين يشتد الخطر يقرب الفرج قال سراقة: ((فعثرت بي فرسي فخررت عنها)) قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا} (الشرح: ٥ -٦)، وقال: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهَمْ نَصْرُنَا} (يوسف: ١١٠).

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج
اشتدي أزمة تنفرجي قد آن ليلك بالبلج

٤٩- أصحاب العقائد والمذاهب الباطلة عندهم استعداد للتخلي عن مبادئهم عند أي مصلحة تلوح في الأفق، فليس لهم مبدأ يحكمهم، ولا عقيدة يلتزمون بها تنظم حياتهم وتوجههم، فالاستقسام بالأزلام واتباعها من عقائد المشركين، ولكن ها هو سراقة يستقسم بالأزلام هل يضر الرسول ﷺ وصحبه فيخرج لا يضرهم، يفعل ذلك مراراً فيخرج الذي يكره، فيعصي الأزلام ويلحق بهم لأن مصلحته تقتضي ذلك.

٥٠- القرآن الكريم زاد المسلم في كل حال، فهذا رسول الله ﷺ مع شدة الحال وقرب الخطر منه يقرأ القرآن وينشغل به حتى قرب منه سراقة وسمع تلاوته.

٥١- إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل كما يقال، ما بين غمضة عين وانتباهتها يبدل الله من حال إلى حال، فهذا سراقة يتحول من ملاحق لهم إلى مخبر عن كل ما يكاد لهم من مكائد، قال سراقة: ((فأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم)) وهكذا نصر الله وتأييده ينقلب به العدو المطارد لهم إلى ناصح معين.

٥٢- استغناء الرسول ﷺ عن متاع سراقة وزاده على الرغم من عرضه عليهم ذلك، قال سراقة: ((وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني، ولم يسألاني)) وهذا برهان عظيم لسراقة بأن الرسول ﷺ لم تكن تقوده مصلحة دنيوية ومطلب مادي، وإنما يسعى لهدفٍ سامٍ ينبغي على سراقة أن يعمل ذهنه فيه.

٥٣- توظيف الرسول ﷺ لسراقة فيما يخدم الهجرة ولا يضير المسلمين إن لم يفعل ذلك وهو إخفاء أثرهما عن الناس، فلم يعطه سراً ولم يكل إليه عملاً مهماً.

٥٤- فراسة سراقة وبعد نظره، فقد طلب من الرسول ﷺ كتاب أمان وهو المطارد الملاحق.

٥٥- لقد ملأ الرسول ﷺ قلبه وجوارحه ثقة بالله تعالى وتأييده ونصره له فيكتب لسراقة كتاب أمان ولم يقل كيف تطلب ذلك مني وأنا الشريد المطارد.

٥٦- توجه الصحابة إلى التجارة والاستغناء عن الخلق والاعتماد على النفس، وتمويل الدعوة ذاتياً، فقد خرج الزبير مع بعض المسلمين تجاراً إلى الشام وفي طريق رجوعهم التقوا بالرسول ﷺ وهو في طريق الهجرة.

٥٧- شدة اهتمام الأنصار بالهجرة النبوية، وترقبهم لوصول القافلة الشريفة، واتخاذ جميع الترتيبات والاحتياطات الأمنية لاستقباله.

٥٨- وفي إلحاح والد البراء بن عازب على أبي بكر بإخباره بأمر الهجرة دلالة على اهتمام الصحابة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

٥٩- لا بأس بالحديث عن العمل الصالح إذا عزم عليه أخوه المسلم، وكان يرجى من ذكره النفع والفائدة، كما عزم عازب على أبي بكر بذلك وتحديث أبي بكر له بأمر الهجرة.

---

(١) رواه البخاري (ح ٣٨٩٦).

(٢) رواه البخاري (ح ٤٧٧٢)، ورواه مسلم (ح ٢٤).

(٣) رواه مسلم (ح ٢٥).

(٤) رواه الترمذي (ح ٢٠٠٧).

(٥) رواه أحمد في مسنده (ح ٩٧٩)، والترمذي (٩٦٩)، وأبو داود (ح ٣٠٨٩)، وابن ماجه (١٤٤٢).

(٦) رواه البخاري (ح ١٣٥٦).

(٧) صحيح البخاري (ح ٣٧٠١)، صحيح مسلم (ح ٢٤٠٦).

(٨) رواه أبو داود (ح ١٦٧٢)، وأحمد (ح ٥٧٠٩، ٦٠٧١)، والنسائي (ح ٢٥٦٧).

(٩) رواه البخاري (ح ٢١٠١)، ومسلم (ح ٢٦٢٨).

(١٠) رواه الترمذي (ح ٢٣٧٨)، وأحمد (٧٩٦٨، ٨٢١٨)، وأبو داود (٨٣٣)

(١١) رواه أبو داود (ح ٣١١٦)، وأحمد (٢١٥٢٩، ٢١٦٢٢).

(١٢) انظر: زاد المعاد (٣ / ٣١)، البداية والنهاية (٣ / ١٣٦)، فتح الباري (٦ / ١٩٨)، دلائل النبوة لأبي نعيم (ص: ١٠٣).

(١٣) رواه البخاري (ح ٣٢٣١)، ومسلم (ح ١٧٩٥).

(١٤) أخبار مكة للأزرقي (٢ / ١٨٥).

(١٥) رواه مسلم (ح ١٦٢).
(١٦) رواه البخاري (ح ٣٤٩)، ومسلم (ح ١٦٣).
(١٧) رواه مسلم (ح ١٧٢).
(١٨) رواه البخاري (ح ٣٥٩٧)، ومسلم (ح ٢٤٩).
(١٩) المسند (ح ٢٦٨٠).
(٢٠) الفتح (٧ / ٢٠٥).
(٢١) رواه مسلم ٧١٥٤، وأحمد ٥١٧٥
(٢٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط. انظر سلسلة الصحيحة ح ١٠٥٦
(٢٣) أخرجه البيهقي في السنن ٥٢٠٢ عن جابر، انظر سلسلة الصحيحة ح ٨٨٣، إرواء الغليل ١١٢٣، وصححه الألباني في مناسك الحج والعمرة ص٢٤.
(٢٤) رواه مسلم (ح ٢٣٦٥) عن أبي هريرة.
(٢٥) رواه البخاري (ح ٣٥٣٥)، ومسلم واللفظ له (ح ٢٢٨٦).
(٢٦) صحيح البخاري (ح ٦٢٥٠).
(٢٧) مسند أحمد (ح١٥٨٧٧)، سنن النسائي (ح١٢١٤)، سنن أبي داود (ح٩٠٤).
(٢٨) البداية والنهاية (٣ / ٤٠).
(٢٩) رواه أحمد (٣ / ٣٩٠)، وأبو داود (ح ٤٧٣٤)، والترمذي (ح ٢٩٢٥)، وابن ماجه (ح ٢٠١)، والدارمي (ح ٢٣٥٥).
(٣٠) رواه الإمام أحمد في مسند (٣ / ٤٦٢)، (٤ / ٣٤١ - ٣٤٢)، والبيهقي في الدلائل (٢ / ١٨٢)، والطبري في التاريخ (٢ / ٣٤٨)، والحاكم (١ / ١٥)، والمعجم الكبير (٥ / ٥٦)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤ / ٧٢١)، وانظر: الغرباء (ص: ٩٩).
(٣١) رواه عبد الله بن أحمد بسند حسن (٣ / ٤٩٢)، والطبراني في الكبير (٥ / ٥٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤ / ٧٦١).

(٣٢) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٣ / ٤٩٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٥ / ٥٦)، والحاكم في المستدرك (١ / ١٥) وصححه ووافقه الذهبي.
(٣٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٤ / ٣٠٠)، وابن خزيمة (١ / ٨٢)، والحاكم (٢ / ٦١٢) وصححه ووافقه الذهبي، وموارد الظمآن (ص: ٤٠٦)، وخلق أفعال العباد (رقم ١٩٤)، وسنن الدارقطني (٣ / ٤٤)، وشرح أصول الاعتقاد (٤ / ٧٦٠) والمعجم الكبير (٨ / ٣٧٦)، وسنن البيهقي (١ / ٧٦).
(٣٤) المسند (٤ / ٦٣)، (٥ / ٣٧١، ٣٧٦)، والبيهقي في الدلائل (٢ / ١٨٦)، والسير والمغازي (ص: ٢٣١)، واتحاف الخيرة المسندة (٣ / ٣ / ل / ٩١)، وقال الذهبي: ((إسناده قوي)) السيرة (ص: ٨٦)، وصحح الألباني إسناد أحمد. دفاع عن الحديث والسيرة (ص: ٢٢).
(٣٥) السيرة (٢ / ١٥٧).
(٣٦) رواه أحمد (٣ / ٢٣٣، ٩٣٣)، وابن حبان كما في الموارد (ص: ٨٠٤)، والبزار كما في كشف الأستار (٢ / ٧٠٣)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢ / ٤٢٦)، والبيهقي في الدلائل (٢ / ٢٤٤)، والسنن (٩ / ٩)، وانظر: الغرباء (ص: ٣٠١).
(٣٧) صحيح البخاري (ح ٣٧٧٧).
(٣٨) سبل الهدى (٣ / ١٩٢).
(٣٩) رواه ابن إسحاق بإسناد حسن. السيرة الصحيحة (١ / ٥٩١).
(٤٠) رواه أحمد (٥ / ٤٢٧)، وابن إسحاق بإسناد حسن، انظر السيرة الصحيحة (١ / ١٩٥)، والبداية والنهاية (٣ / ١٤٨).
(٤١) أحاديث الهجرة ص: ٦٩، وانظر: السيرة الصحيحة (١ / ١٩٦)، فقه السيرة للغزالي (ص: ١٥٤).
(٤٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢ / ١٧٠)، والبداية والنهاية (٣ / ١٤٣).
(٤٣) سيرة ابن هشام ٢٧٥.

(٤٤) رواه البخاري ح ٣٨٩٣، ومسلم ١٧٠٩.
(٤٥) انظر: سبل الهدى والرشاد (٣ / ١٩٧)، أحاديث الهجرة (ص: ٧١)، والغرباء
(ص: ١٨٦).
(٤٦) أحاديث الهجرة (ص: ٢٧)، وسبل الهدى والرشاد (٣ / ١٩٨).
(٤٧) أخرجه أحمد (٣ / ٣٢٢ – ٣٢٣، ٣٣٩ – ٣٤٠) بإسناد حسن كما قال في فتح الباري (٧ / ٢٢٢)، والبزار في كشف الأستار (٢ / ٣٠٧)، وابن حبان في الموارد (ص: ٤٠٨)، والبيهقي في الدلائل (٢ / ٤٢٢)، والسنن (٩ / ٩)، والحاكم (٢ / ٦٢٤) وأقره الذهبي، وأخبار مكة للأزرقي (٢ / ٢٠٥)، وأخبار مكة للفاكهي (٤ / ٢٣١)، وكشف الأستار (٢ / ٣٠٧)، وشرح أصول الاعتقاد (٤ / ٧٦٣)، وقال ابن كثير: ((إسناده جيد على شرط مسلم)) سيرة ابن كثير (٢ / ١٩٦)، والغرباء (ص: ١٩٠).
(٤٨) أخرجه ابن إسحاق بإسناد حسن. سيرة ابن هشام (٢ / ٨١ – ٨٥)، وأحمد في المسند (٣ / ٤٦٠) من طريق ابن إسحاق، وفي فضائل الصحابة (٢ / ٩٢٣) مختصراً، والبيهقي في الدلائل (٢ / ٤٤٢)، وابن حبان في صحيحه (٩ / ٧٤)، وانظر: فتح الباري (٧ / ٢٦١)، وصححه الألباني في فقه السيرة (ص: ١٥٩)، وانظر: سبل الهدى والرشاد (٣ / ١٠٢ – ٤٠٢)، وأحاديث الهجرة (ص: ٧٥) والسيرة الصحيحة (١ / ١٩٩)، والغرباء (ص: ١٩١).
(٤٩) سيرة ابن هشام (٢ / ٨٨)، وأحاديث الهجرة (ص: ٨٢)، وقال: هذا إسناده حسن إلا أنه مرسل.
(٥٠) رواه البخاري ح ٧٠٥٦ ومسلم ح ١٧٠٩.
(٥١) الغرباء (ص: ٤٩١).
(٥٢) فتح الباري ٧٢٧٨.
(٥٣) صحيح مسلم (٤ / ١٧٧٩).

(٥٤) الطبقات (١ / ٢٢٥).

(٥٥) الفتح (٧ / ٣٠٥).

(٥٦) التناضُب: بالضم وهو الشجر، والأضاة: بوزن حصاة وهي الأرض الطينية التي تمسك الماء، ويقال هي الغدير. انظر أحاديث الهجرة ص ٩٩، ومعجم المعالم الجغرافية ص٦٤.

(٥٧) طُوًى: موضع بأسفل مكة، وطوى: بالضم والقصر اسم الواد المقدس، وذو طُواء: موضع بين مكة والطائف. الروض الأنف ٤١٩١.

(٥٨) سيرة ابن هشام (٢ / ١٢٠)، وصححه ابن حجر في الإصابة (٣ / ٠٤).

(٥٩) (ص: ٤٣).

(٦٠) صحيح مسلم ح ٢٢٣.

(٦١) أحاديث الهجرة (ص: ١٠٤).

(٦٢) مسند أحمد، تحقيق أحمد شاكر (٥ / ٨٧)، والحاكم (٣ / ٤)، وأحاديث الهجرة (ص: ١٠٤)، وانظر: مبيت علي على الفراش، السيرة في ضوء المصادر (ص: ٢٦٨) فقد رواه أحمد بإسناد حسن كما قال أحمد شاكر (٥ / ٢٦)، إلا أن في متنه غرابة شديدة أشبه ما تكون بوضع الشيعة، وانظر: أحاديث الهجرة (ص: ١١٣).

(٦٣) انظر: كتاب المناقب (ح ٥٠٩٣) باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

(٦٤) برك: بفتح الموحدة وسكون الراء وحكي كسر أوله، والغماد: فهو بكسر المعجمة وقد تضم، وتخفيف الميم، وحكى ابن فارس فيها ضم الغين، هو موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن. انظر فتح الباري ٧٢٧٣.

(٦٥) ابن الدغنة: بضم المهملة والمعجمة وتشديد النون عند أهل اللغة، وعند الرواة ابن الدَغِنَة بفتح أوله وكسر ثانيه وتخفيف النون قيل: اسمه الحارث بن يزيد، وحكى السهيلي أن اسمه مالك، ووقع في شرح الكرماني أن ابن إسحاق سماه ربيعة بن رُفيع، وهو وهم من الكرماني فإن ربيعة المذكور آخر يقال له ابن الدغنة أيضاً لكنه

سلمي، والمذكور هنا من القار فاختلفا، وأيضاً السلمي إنما ذكره ابن إسحاق في غزوة حنين وأنه صحابي قتل دريد بن الصمة، وفي الصحابة ثالث يقال له ابن الدغنة لكن اسمه حابس وهو كلبي، والقارة: قبيلة من بني الهون ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكانوا حلفاء لبني زهرة من قريش. فتح الباري ٧٢٧٤، وانظر الإصـــابة في ذكر حابس والكلبي ١٢٧١، وعن السلمين الإصابة ١٥٠٧.

(٦٦) أحث: أي أسرع، والجهاز: ما يحتاج إليه المسافر. فتح الباري ٧٢٧٨.

(٦٧) الثقف: أي الحاذق، واللقن أي السريع الفهم. فتح الباري ٧٢٧٩.

(٦٨) فتح الباري ٧٢٧٢ــ٢٧٣، ١٦٧١.

(٦٩) الفتح (٤ / ٥١٧).

(٧٠) الإحسان (٨ / ٢٦)، الفتح (٧ / ٢٧٦).

(٧١) مغازي موسى بن عقبة (١ / ٣٦١).

(٧٢) المعجم الكبير (٢٤ / ١٠٦).

(٧٣) سيرة ابن هشام (٢ / ١٢٩).

(٧٤) الفتح (٧ / ٢٧٧).

(٧٥) طبقات ابن سعد (١ / ٢٢٦)، إلى قوله: ((بني قشير)) الفتح (٧ / ٧٨).

(٧٦) الفتح (٧ / ٣٠٢).

(٧٧) الفتح (٧ / ١١).

(٧٨) الإداوة هي إناء صغير من جلد. النهاية في غريب الحديث ١٣٣.

(٧٩) فتح الباري ٧١١ــ١٣، ٣٠٠.

(٨٠) صحيح مسلم (٤ / ٢٣١٠ - ٢٣١١).

(٨١) المسند (١ / ٤٦٢)، الإحسان (٩ / ١٠٠).

(٨٢) الفتح (٧ / ٣١).

(٨٣) الزج هو الحديدة التي في أسفل الرمح. فتح الباري ٧٢٨٤.

(٨٤) الفتح (٧ / ١٨٢ - ٢٨٢).

(٨٥) انظر: الرياض النضرة (١ / ١٠٢)، وقد عزاها لابن السمان. الفــتح (٧ / ٥١).

(٨٦) مجنة: سوق للعرب على أميال من مكة، وشامة: جبل بالساحل جنوب غربــي مكة، وطفيل: حرة تجاوره. معجم المعالم الجغرافية ص ٢٨٢، ٧٦١.

(٨٧) الفتح (٧ / ٨٠٣).

(٨٨) بطوقه: أي بطاقته، وروقه: أي قرنه. سيرة ابن هشام ٢٢٣٦.

(٨٩) سيرة ابن هشام (٢ / ٢٣٨ – ٢٣٩).

(٩٠) الموطأ (٢ / ١٩٨)، الفتح (٧ / ٩٠٣).

(٩١) الفتح (٧ / ٢٨٢).

(٩٢) الفتح (٧ / ٤٩٢).

(٩٣) الفتح (٧ / ٩١٣).

(٩٤) الفتح (٧ / ١٢٣).

(٩٥) الفتح (٧ / ٢٢٣).

(٩٦) الفتح (٧ / ٦٩٢).

(٩٧) الفتح (٧ / ٦٩٢).

(٩٨) الفتح (٧ / ٧٩٢).

(٩٩) المسند ح ٣٢٤١

(١٠٠) السيرة (٢ / ٩٣٢).

(١٠١) ابن هشام (٢ / ٩٣١).

(١٠٢) رواه أحمد بإسناد صحيح، الفتح الرباني (٢ / ٢٨٢)، وابن إسحاق، ســيرة ابن هشام (٢ / ٢٥١)، والحاكم في المستدرك (٣ / ٥)، وانظر السيرة في ضوء المصادر (ص: ١٧٢).

(١٠٣) ابن هشام (٢ / ٣٤١).

(١٠٤) رواه البزار بإسناد حسن وقال معقباً: ((لا نعلم روى قيس عن النبي ﷺ إلا هذا، ولا نعلمه بهذا اللفظ إلا عنه، وهو يخالف سائر الأحاديث في قصة أم معبد)) كشف الأستار (٢ / ١٠٣)، وقال الهيثمي: ((رواه البزار ورجاله رجال الصحيح)) (٦ / ٨٥)، وقال ابن حجر: ((أخرجها الطبراني من حديث قيس بن النعمان بسند صحيح وسياق أتم)) الإصابة (٥ / ٦٠٥).

وانظر: السيرة الصحيحة (١ / ٣١٢)، وأحاديث الهجرة (ص: ٦١) وما بعدها، والسيرة النبوية في ضوء المصادر (ص: ١٨٢).

(١٠٥) رواه البخاري ح ٦٠٠٧، ومسلم ح ١٩٨٢.

(١٠٦) صحيح الجامع ح ٢٣٤٥.

(١٠٧) صحيح البخاري ح ٤٥٦٣.

(١٠٨) بفتح الحاء وسكون الزاي وفتح الواو، سوق بمكة، وقد دخلت في المسجد ــ لما زيد فيه ــ قاله ياقوت، وهي ما يعرف اليوم باسم القشاشية، مرتفع يقابل المسعى من مطلع الشمس كما قال البلادي. انظر معجم البلدان ٢٢٥٥، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص ٩٨.

(١٠٩) رواه أحمد ٤٣٠٥، والترمذي ح ٣٩٢٥، والنسائي في الكبرى باب فضل مكة (ل ٥٥أ)، وابن ماجه ح ٣١٠٨، والدارمي ح ٢٥١٣، وعبد بن حميد في المنتخب ح ٤٩٠.

(١١٠) الروض الأنف (٥ / ٥٠٢).

الوضوح في التعاملات

ومن الدروس البارزة النافعة القيمة في الهجرة النبوية الشريفة : وجوب الوضوح في التعاملات بين المسلمين ، على أن تكون وفق ما شرع الله تعالى ورسوله ، ونابعة منه ، سواء أكانت هذه التعاملات في الجانب الاجتماعي أم في الجانب الاقتصادي ، للأمة المسلمة .

وذلك : ليظهر للعيان النموذج الأمثل ، وتقدم الأسوة الحسنة حية في دنيا الناس ، شاهدة على واقعية هذا الدين ، وصلاحية أهله لقيادة العالمين .وسنخصص الحديث هنا عن ضرورة " الوضوح في التعاملات المالية " بين المسلمين : _

لأنها الدرس الحركي الواضح في هذه الهجرة .

ولأن هذا الجانب هو الأهم عند الناس ، وإذا صلح فيهم ، سهل إصلاح وصلاح غيره لديهم .

وحرصا منا _ كما يعلمنا النبي ﷺ _ على التنبيه على قطع دابر الخلاف الذي ينشأ بسبب المال ، ويقطع الروابط ، ويمزق الصلات ، بين أتباع هذا الدين العظيم ، الذي يدعو إلى الوحدة والترابط والتماسك ، كسبيل لبلوغ أهدافه العظيمة في إسعاد البشرية وكان ذلك . . ! !

لأن المال : هو عصب الحياة _ كما يقال _ وهو : أحد زينتي الحياة الدنيا (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) "٢٨ "

ولأن طبيعة النفس البشرية : نزاعة لحب المال وتملكه (وتحبون المال حبا جما) " ٢٩ "

وهذه النزعة البشرية شديدة وقوية . . يقول ﷺ : " لو أن ابن أدم أعطى واديا ملآن من ذهب أحب إليه ثانيا ، ولو أعطي ثانيا أحب إليه ثالثا ، ولا يسد جوف ابن أدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب " ٣٠ "

وهذه فطرة فطر الله الإنسان عليها ؛ لتستمر الحياة ، ويعمر الكون ، ولذا لا تعاب فيه ، ما دامت لا تتعدى به ، ولا يتعدى هو بها الضوابط التي وضعها له خالقه ، وخالق فطرته ، سبحانه وتعالى ، سواء أكانت هذه الضوابط في اكتساب هذا المال أ م فيه اكتنازه ، أو إنفاقه .

ولذلك : أعطى الإسلام هذا الجانب اهتماما كبيرا ، وعناية فائقة :

يتضح ذلك جيدا في كتاب الله تعالى ، وفي سنة النبي ﷺ ، القولية والفعلية .

وهو واضح _ كذلك _ في دروس الهجرة .

تقول عائشة رضي الله عنها : " . . . قال أبو بكر يا نبي الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا . . . ولما قرب أبو بكر رضي الله عنه الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدم له أفضلهما ، ثم قال : اركب فداك أبي وأمي .

فقال رسول الله ﷺ : إني لا أركب بعيرا ليس لي ، قال : فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي. . !!

قال : لا ، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به . . ؟ قال : كذا وكذا ، قال ﷺ : قد أخذتها به ، قال : هي لك يا رسول الله ، فركبا وانطلقا . . . " ١٤ "

ما كان أحرى برسول الله ﷺ : أن لا يدقق هكذا ، فأبو بكر صديقه وصديقه وأقرب الناس إليه ، والراحلة أقل من أن ينتظر أبو بكر من رسول الله ثمنها ، وهو الذي يفتديه بأمه وأبيه ، بل بروحه التي بين جنبيه . . ! ! وليس بين الأصدقاء _ أو الجيدين، كما يقولون _ حساب . . ! !

ولكنه التشريع للأمة ،

ولكنه التعليم لها ،

ولكنها القدوة لشباب الصحوة ، والنموذج الواعي الواضح لأهل الدنيا كلها ،

ولكنه الحرص على : تماسك الصف ، وقوة البنيان ، ووحدة المسلمين ، وحمايتهم من شر المال ، وسوء التعامل فيه ، وبه .

وليس هذا فقط . . فإنه ﷺ حينما وصل المدينة ، وبركت ناقته في موضع المسجد النبوي اليوم : ماذا فعل . . ؟

في البخاري . . " وكان _ أي موضع المسجد _ مربدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ ، حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل ، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين ، فساومهما بالمربد ؛ ليتخذه مسجدا ، فقالا : لا ، بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة ، حتى ابتاعه منهما " "١٤ "

وهذا درس ينبغي أن يعيه شباب الحركة الإسلامية اليوم جيدا ! !

فكم من تعاملات بدأت بوافر حسن النية ، وعظيم ثقة الأخوة ، ولكنها نسيت هذا الدرس ، وتخلت عن بعض ضوابط الشرع : فما كان لها من مصير سوى الطريق المسدود ، والفساد السريع ، والتخطي منه إلى القطيعة ، بل إلى الشحناء والعداوة . !!؟.

ولذا : فليس عيبا _ بل هو التشريع _ أن نتكاتب في تعاملاتنا (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . .) الآية "٣١ "

ولا يقلل هذا من حسن النية ، وثقة الأخوة ، وتوافر الحب ، وإسلامية التعامل .

وليس عيبا _ بل هو التشريع _ أن يكون الوضوح رائدنا في تجارتنا وفي بيعنا وشرائنا ، وإقراضنا وإقتراضنا ، و . . الخ من صور التعاملات المالية ، فيما بيننا وبين بعضنا البعض ،ووضوحها بيننا وبين الآخرين . . ! !

وليس عيبا _ بل هو التشريع _ أن نأخذ حقوقنا من بعضنا البعض عن أعمال نؤديها ، أو تؤدى لنا

" ثلاثة أنا خصيمهم يوم القيامة : . . " أحدهم : " رجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره" " ٣٢ " آيا كان هذا الحق ، وأيا ما كان هذا العمل .

ولا يقلل هذا من : حسن النية ، وثقة الأخوة ، وتوافر الحب ، وإسلامية التعامل .

وليس عيبا . . ! !

وليس عيبا . . الخ .

ولن نقيم الدولة على أسس راسخة ونحافظ على قوة الترابط ، وحسن النيـــة ، وثقـــة الأخوة ، وتوافر الحب ، وإسلامية التعامل ، ووضوح الرؤية ، وســـرعة الوصـــول للأهداف ، والتخلص من عوامل الخلاف : ما لم نجاهد أنفسنا في الإفادة مـــن هـــذا الدرس النبوي الكريم الذي علمناه محمد ﷺ خلال هجرته العظيمة .

تأملات في رحلة الهجرة

نحن الآن في مكة والحرب قائمة بين التوحيد والشرك ، بين الإصلاح والجمود ، بين محمد وقريش ، وبذلت قريش قوتها ، وبذلت قريش مالها ، وقدمت دنياها كلها ، في شيء واحد : هو أن تمنع هذا الخير عن الدنيا .

قال محمد : افتحوا لي الطريق لأخرج إلى الأرض الفضاء ، فأنصـــر الضـــعيف ، وأنجد المظلوم ، وأعيد للبشرية كرامتها ، وللعقل سلطانه ، قالوا : لا .

قال : افسحوا لرسالتي لتنطلق في الزمان ؛ فإنها ليست لبلد واحد ، ولا ليوم واحـــد ، قالوا : لا ! ولكن تعال نملكك إن شئت علينا ، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيّد هذا البلد كله .

وسخر التاريخ من قريش ... يدعوهم محمد ليعطيهم سيادة الأرض ، وزعامة الدنيا، ويضع في أيديهم مفاتيح الكنوز : كنوز المال ، وكنوز العلم ، ويمـــنحهم مـــا يملـــك كسرى وقيصر ، وهم يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية ، النائمة بين جبلـــين ، وراء رمال الصحراء . وانطلقوا يؤذونه ، ويتوعدونه ؛ لعل الترهيب يفعل فيه ما لم يفعل الترغيب .

رموا في طريقه الشوك وهو ماش ، وألقوا عليه كرش الناقة وهو ساجد ، ورموه في الطائف بالحجارة وأسالوا دمه ، وهزئوا به ، وسلطوا عليه سفهاءهم .

فلم يثر هذا كله غضبه ولكن أثار إشفاقه ، إشفاق الكبير على الأطفـــال المـــؤذين ، والعاقل على المجانين ، وكان جوابه : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، ولم يصرفه عن وجهته شيء .

وآذوا المسلمين الأولين ، ليفتنوهم عن دينهم ، وعذبوهم ، وكانوا يبطحون المسلم عارياً على الرمال الملتهبة التي يشوى عليها اللحم ، ويضعون عليه الصخرة الهائلة ، ويلوّحون له بالماء ، ويقولون : اكفر برب محمد حتى نسقيك وننجيك . فيقول : أحدٌ ! أحدٌ ! وتشغله لذة المناجاة ، عن لذعة العذاب ، ونشوة الأمل بالجنَّة ، عن شقوة الألم في الدنيا .

احتملوا في سبيل كل شيء ، الضرب ، والجرح ، والحرق ، والجوع ، والسهر ، واستحْلوا في سبيل الله المرائر ، واستحبوا أبغض المكاره إلى النفوس إن كان فيها رضا الله .

ودعاهم الرسول إلى ما هو أشد من هذا كله ، إلى فراق الوطن ، وترك الأهل ، وأن يمشوا فراراً بدينهم إلى بلاد ليسوا منها ، وليست منهم ، ولا لسانها لسانهم ، ولا دينها دينهم ، إلى الحبشة يجاورون فيها النصارى ، ونصارى الحبشة أولى بهم من مشركي العرب ، ولتجدن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، فخرجوا من منازلهم وهجروا أهلهم ، ومشوا إلى الحبشة فلحقهم أذى قريش إلى الحبشة وأوغلت قريش في كفرها وصدها وعنادها ، ولكن هل تقدر قريش أن تطفىء نور الله ؟ إن البخار الذي من طبعه الانطلاق إلى العلاء لا يحصر في زجاجة ، وإن حصرته وجد منفذاً أو مزق الاناء ، وكذلك صنع الإسلام .

وهاجر المسلمون مرة ثانية ، ولكنها هجرة إلى ديار عربية ، إلى قرية قدِّر لها أن تبقى الدهر كله خاملة وراء الرمال ، حتى تتشرف بمحمد ، فإذا هي أُم المدائن ، وعاصمة العواصم ، منها تنبع عيون الخير والهدى لتسيح في الأرض ، فتسقيها وتعمها بالخيرات ، وإليها تنصب أنهار الملك والغنى والسلطان من كل مكان .

هاجر المسلمون جميعاً ولم يبق في مكة إلا النبي ورجلان اثنان ، مرافقه في السفر، ووكيله في مكة رجلان كانا أول من أسلم، وآخر من هاجر سيد الكهول أبو بكر وسيد الشباب عليّ .

تأخر محمد كما يتأخر الرُّبان الشريف على ظهر الباخرة الميئوس منها فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعاً .

وكما يتأخر الراعي الأمين ، عند المَفازة فلا يجوز حتى يجوز القطيع كله تأخرٌ يحمي أتباعه ، ويستقبل بصدره الخطر .وجاء الخطر على أشد صوره وأشكاله .

اتفق زعماء قريش على ارتكاب أكبر جريمة في تاريخ الجنس البشري . جريمة لو تمت ، لما كانت في التاريخ دمشق ولا بغداد ولا القاهرة ولا قرطبة ، ولا كانت للراشدين دولة ، ولا للأمويين ، ولا للعباسيين ، ولا فتح بنو عثمان القسطنطينية ، ولا بني الأموي ، ولا النظامية ولا الحمراء ، ولما قامت الحضارة التي قبست منها أوربا حضارتها .

وهنا تتجلى رجولة محمد وشجاعته ، وثبات أعصابه ، وهنا يظهر نصر الله لأوليائه – حين فتح محمد الباب ، وخرج يشق صفوفهم ، يقتحم الجموع ، التي جاءت تطلب دمه ، وروَّعتهم المفاجأة ، وأعمت أبصارهم ، وما عادوا إلى أنفسهم حتى كان محمد قد مضى ، وصحوا كأن حلماً مرَّ بهم ، وشقوا الباب ونظروا ليتوثقوا ، فرأوا فراش محمد فيه رجل نائم ، ففركوا عيونهم وتنفسوا الصعداء .

وأدركت قريش الحقيقة بعد ما مضى محمد ، وعم الصريخ مكة وضواحيها ، وخرج القرشيون فرساناً ومشاة يُركضون خيولهم ، ويَعْدون إلى كل ناحية ، يتلفتون مذعورين .

ما لهم ؟ ما لهم وهم حماة الديار ، وفرسان المعارك ، قد أطار الفزع ألبابهم وصدع الذعر قلوبهم ؟

ما لكم يا ناس ؟ قالوا خرج محمد !

وماذا تطلبون منه ؟ أخذ أموالكم ؟

قالوا : معاذ الله ، إنه الأمين المأمون أداها عن آخرها .

أجرم جريمة فأنتم تطلبونه بها ؟

قالوا : حاشا لله ، إنه أحسن الناس خلقاً ، وأطهرهم يداً ،

ماذا تريدون منه ؟ قالوا : انه سيجند الدنيا كلها ، لمحاربة أربابنا وأصنامنا وجهلنا وكبريائنا ، سيضطرنا إلى هدم الحجارة الجامدة ، وعبادة الله الواحد ، واتباع سبيل الهدى ، والخير والسداد .

أهذا الذي تنقمون من محمد ؟

وسخر التاريخ من قريش مرة ثانية !

وعادت قريش بخزيها ، وأهاجت الجزيرة ضد محمد ، ووضعت الجوائز ، مئة ناقة لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً .

وكان محمد وصاحبه في الغار فلحقهم فارس ، وخاف أبوبكر وقال : والله ما على نفسي خفت ، ولكن عليك ، فأجاب محمد بالكلمة التي تجمع وحدها معجزات الايمان كلها ، مهما تعددت صورها ، من الشجاعة والتضحية والثبات والإيثار ، قال : لا تحزن ؛ إن الله معنا .

إن الله مع من يكون مع الله ، إن الله ينصر من ينصره ، فلا يحزن من كان الله معه . إن جبهة معها الله لا تنكسر ، ولو كان ضدّها الوجود كله ! .

ومشى الموكب إلى الدنيا الواسعة . موكب صغير ، ولكنه أجلُّ من أعظم موكب ، أحست بوطأته هذه الكرة التي نمشي على ظهرها ، ولم تعرف موكباً أنبل منه قصداً ، وأبعد غاية ، وأخلص نية ، وأعمق في الأرض أثراً .

موكب صغير يمشي في الصحراء الساكنة ، لا رايات ولا أعلام ، ولا أبواق ولا طبول ، ولا تقوم له الجند على الصفين ، ولا يصفق له الناس من النوافذ ، ولكن تصفق الرمال فرحاً بالذي سيضفي عليها ثوب الخصب والنمو ، وتزهى الجبال طرباً ، بالذي سيقيم عليها أعلام النصر والعز ، وتبرز من بطن الغيب جحافل القواد والعلماء والأدباء الذين أنبتهم مسير محمد في هذه الصحارى . حتى أشرف على المدينة، وأقبلت جموع كالجموع التي خلفوها في مكة، ولكن تلك كانت للشر ، وهذه للخير . وتلك تنادي بالموت لمحمد ، وهذه تنادي بالحياة لرسول الله .

وكانت هذه نقطة التحول في التاريخ الإسلامي .

كل ما قبلها هزائم ، وما بعدها إنما هو نصر إثر نصر، ولذلك جعلناها عيدنا الأكبر ، وجعلناها ابتداء تاريخنا . ها نحن أولاء الآن على أبواب المدينة ، وقد خرجت كلها تستقبل محمداً ، ولو استطاعت من الحب لفرشت له الطريق بقِطع أكبادها ، حتى يمشي على قلوبها ، وكانت تنشد نشيد الاستقبال :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وها هم الناس يسألون : أيهم هو ؟ أيهم محمد ؟

لا يعرفونه ، لأنه لم يكن ملكاً ، ولا يلبس الحرير ، ولا تلوح عليه شارات الملك ، ولا يتألق على جبينه التاج ، بل كا عبداً متواضعاً ، يلبس ما يلبس الناس ، ويأكل ما يأكلون ، ويجوع إن جاعوا ، يشبع إن شبعوا ، ولقد كان في أصحابه الأغنياء الموسرون ، ولكن محمداً أحب أن يعيش فقيراً وأن يموت فقيراً.

وحسبوا أبا بكر هو النبي ، فكانوا يسلمون عليه ، وهو يشير إلى الرسول ، يقول لهم بيده : ها هو ذا محمد . وأقبلوا يدعونه لينزل فيهم يتسابقون على هذا الشرف الخالد . فماذا صنع ؟ انظروا إلى لطفه ولباقته ، أنه لا يريد أن يؤذي أحداً بالرفض ، فقال : اتركوا الناقة ، فإنها مأمورة ، ومشت الناقة حتى بركت عند دار أبي أيوب الأنصاري . أبو أيوب ، الذي كتب الله له أن يحضر بعدُ حربَ القسطنطينية وأن يوغل في الهجوم يريد أن يموت في أبعد مكان ، فمات ودفن على ضفاف البوسفور ، وبقي قبره يدعو المسلمين إلى فتحها قروناً طوالاً ، حتى كتب الله هذا الثواب للسلطان محمد الفاتح .

نحن الآن مع محمد ﷺ في المدينة . أنه يؤسس الدولة الجديدة ، فبم ترونه يبدأ ؟ بمهرجان فخم يبايعونه فيه بالمُلك ؟ إنه لا يريد الملك ! يبني ثكنة باحتفال عظيم ويجيّش جيشاً ؟ إنه لا يبتغي العلو في الأرض ! يفرض الضرائب ؟ لا ، ولكن يبدأ بعمارة المسجد .

إنها ظاهرة عظيمة يحسن أن يقف القاريء عندها . يبدأ بالمسجد ، كما بُدىء الوحي بآية (القراءة) و (التعليم) بالقلم .

بدأ بالمسجد ، والمسجد في الإسلام ، هو (رمز) الإيمان ، وهو البرلمان (رمـــز) العدل ، وهو المدرسة (رمز) العلم .

ولم يغصبه بل شراه بالمال وذلك (رمز) الإنصاف ، ولم يأمر ببنائه ويقعـــد ، بـــل شارك أصحابه العمل ، وحمل الحجارة بيده ، وهذا (رمز) التواضع ، وبنـــاه مـــن اللبن والطين . بلا زخارف ولا نقوش وهذا (رمز) البساطة

فكان من هذه (الرموز) الإيمان والعدل والعلم والإنصاف و التواضـــع والبســـاطة مجموعة شعائر الاسلام .

تعرض النبي ﷺ للأذى بسبب دعوته ...

الرياض – وائل الظواهر

ا صدع النبي ﷺ بدعوته لقي من قريش عنتا وشدة وأوذي في سبيل الله إيذاء شديدا ما بين سب وشتم وغير ذلك خاصة عندما عاب آلهتهم فعند ذلك أعظموا هذا الأمر وأنكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال انظروا قريشا كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وأنا محمدا . أخرجه البخاري وقد قيض الله جل وعلا لنبيه محمد ﷺ عمه أبو طالب – وكان مشركا على دين آبائه – ليمنعه ويحميه من أذى قريش له فلما رأت قريش أن محمدا ﷺ يعيب آلهتهم ولا ينتهي عن ذلك ورأوا أن عمه أبو طالب يمنعه ويحميه منهم مشوا إلى أبي طالب فكلموه وقالوا إما أن تكفه عن آلهتنا وعن الكلام في ديننا وإما أن تخلي بيننا وبينه فقال لهم قولا رفيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا ثم بعد ذلك أكثرت قريش من ذكر النبي ﷺ وحض بعضهم بعضا عليه ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا إن لك نسبا وشرفا فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله ما نصبر على شتم آلهتنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوته لهم ولم يطب نفسا أن يسلم رسول الله ﷺ لهم ولا أن يخذله فدعا محمدا فقال يا ابن أخي إن قومك قد جاءوا إلي فقالوا كذا وكذا فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه بداء وأنه خاذله ومسلمه فقال يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه فيه ما تركته ثم استعبر رسول الله ﷺ ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخي فأقبل إليه فقال اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبدا . ثم إن قريشا أتوا أبا طالب فقالوا يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصرته واتخذه ولدا فهو

لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك نقتله فإنما رجل كرجل فقال بئس والله ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه هذا والله ما لا يكون أبدا فقال المطعم بن عدي والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وشهدوا على التخلص مما تكره فما أراك تقبل منهم شيئا فقال والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك . وهذه بعض النماذج من إيذائه على الصلاة والسلام عن ربيعة الدؤلي قال رأيت النبي ﷺ بسوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول لا يغرنكم عن دينكم ودين آبائكم قلت من هذا قالوا أبو لهب. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم قيل نعم فقال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته فما فاجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه فقيل له ما لك قال إن بيني وبينه لخندقا من نار فقال رسول الله ﷺ لو دنا لاختطفته الملائكة عضوا عضوا ، أخرجه مسلم . وذكر ابن إسحاق عن ابن عباس أن أبا جهل قال يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب آلهتنا وإني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر فإذا سجد فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد منا ف ما بدا لهم فلما أصبح أبو جهل أخذا الحجر وجلس وأتى النبي ﷺ فقام يصلي بين الركنين الأسود واليماني وكان يصلي إلى الشام وجلست قريش في أنديتها ينظرون فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع مرعوبا منتقعا لونه قد يبست يداه على حجره حتى قذف به من يده وقامت رجالات قريش فقالوا ما لك يا أبا الحكم فقال قمت إليه لأفعل ما قلت لكم فلنا دنوت منه عرض لي فحل من الإبل والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط فهم أن يأكلني وعن عبد الله بن عمرو قال بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش وبالقرب منه سلى بعير – أي أمعاءه وأحشاءه – إذ قالوا من يأخذ سلى هذا الجزور فيقذفه على ظهره فجاء عقبة بن أبي معيط فقذفه على ظهره ﷺ وجاءت فاطمة فأخذته عن

ظهره ودعت على من صنع ذلك قال عبد الله فما رأيت رسول الله ﷺ دعا عليهم إلا يومئذ فقال (اللهم عليك بالملأ من قريش اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف . قال عبد الله فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر وألقوا في القليب غير أن أمية كان رجلا بدينا فتقطع قبل أن يبلغ به البئر . متفق عليه . ومن المواقف التي تدل على شدة إيذاء كفار قريش لرسول الله ﷺ ما رواه الزبير أنه قال لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما نالت قريش من النبي ﷺ قال حضرتهم يوما وقد اجتمع أشرافهم في الحجر يوما فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط قد سفه أحلامنا وسب آلهتنا وفعل وفعل فطلع عليهم رسول الله ﷺ فاستلم الركن وطاف بالبيت فلما مر غمزوه ببعض القول فعرفت ذلك في وجهه فلما مر الثانية غمزوه فلما مر الثالثة غمزوه فوقف فقال ألا تسمعون يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح قال فأخذت القوم كلمته حتى ما فيهم رجل إلا كأن على رأسه طائر وقع حتى إن أشدهم فيه وطأة ليسكنه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا فانصرف ﷺ حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغ عنكم حتى إذا بادءكم بما تكرهون تركتموه فبينا هم في ذلك إذا طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون أنت الذي تقول كذا وكذا فيقول نعم فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه فقام أبو بكر دونهم يبكي ويقول (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله) ثم انصرفوا عنه فحدثني بعض آل أبي بكر أن أم كلثوم بنت أبي بكر قالت رجع أبي يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جذبوه بلحيته وكان كثير الشعر . وقال ابن إسحاق لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك. قال وكانت امرأة أبي

لهب أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلا وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها وتطيل عليه الافتراء والدس وتؤجج نار الفتنة. ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها حجارة فلما وقفت عليهما أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر فقالت يا أبا بكر أين صاحبك قد بلغني أنه يهجونا والله لو وجدته لضربته بهذا الحجر فاه ثم انصرفت فقال أبو بكر يا رسول الله أما تراها رأتك فقال ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها عني. وكان جيران النبي ﷺ أبو لهب وعقبة بن أبي معيط وعدي بن حمراء الثقفي وغيرهم يؤذون رسول الله ﷺ وهو يصلي فكان بعضهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي وربما طرحوها في برمته – أي القدر – إذا نصبت حتى إنه عليه الصلاة والسلام اتخذ حجرا ليستتر به منهم إذا صلى وكان النبي ﷺ إذا طرحوا ذلك الأذى عليه يخرج به على العود فيقف على بابه ثم يقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا ثم يلقيه في الطريق . وقد تعرض عليه الصلاة والسلام لكثير من الأذى غير ما ذكرنا من شتم وسب ووصف بالجنون والسحر والكهانة وغير ذلك . ومع إيذاء كفار قريش للنبي ﷺ إلا أن الله جل وعلا قد حفظ نبيه وأيده بل وجعل الرعب في قلوب أعدائه ومما يدل على ذلك ما رواه إسحاق قال جاء رجل من إراش بإبل له إلى مكة فابتاعها منه أبو جهل فمطله الثمن فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس فقال يا معشر قريش من رجل يعينني على أبي الحكم بن هشام فإني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي فقال له أهل المجلس أترى ذلك الرجل الجالس – يعنون رسول الله ﷺ – اذهب إليه فإنه يعينك عليه – ويقصدون بذلك السخرية منه عليه الصلاة والسلام لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة – فأقبل الإراشي على رسول الله ﷺ فقال يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قبله وأنا رجل غريب ابن سبيل وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يعينني عليه يأخذ لي بحقي منه فأشاروا لي إليك فخذ لي حقي

منه يرحمك الله فقام رسول الله ﷺ معه فلما رأى ذلك أهل المجلس قالوا لرجل ممن معهم اتبعه فانظر ما يصنع فخرج رسول الله ﷺ حتى جاء أبا جهل فضرب على بابه فقال من هذا قال محمد فاخرج إلي فخرج إليه وقد انتقع وجهه فقال أعط هذا الرجل حقه قال نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي له فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للإراشي اذهب لشأنك فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال جزاه الله خيرا فقد والله أخذ بحقي . ثم إن الرجل الذي أرسله أهل المجلس جاء فقالوا له ويحك ماذا رأيت قال عجبا من العجب . والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه فقال له أعطه حقه فقال نعم لا تبرح حتى أخرج له حقه فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه . ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء فقالوا له ويلك مالك والله ما رأينا مثل ما صنعت قط قال ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب علي بابي وسمعت صوته حتى ملئت رعبا ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحل من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه في فحل قط والله لو أبيت لأكلني . فتأمل في هذا الحدث لتعلم أن الله جل وعلا قد جعل الهيبة من النبي ﷺ في قلوب أعدائه والمواقف الدالة على ذلك كثيرة مر بعضها وسيأتي البعض الآخر . عناد الكفار للنبي ﷺ ورفضهم الإيمان به مع يقينهم بأنه مرسل من عند الله . هذا وقد علم كثير من كفار قريش أن النبي ﷺ مرسل وأن ما جاء به إنما هو وحي من الله لكن منهم الكبر عن الاستجابة للحق وكم تأثر بعضهم لسماعه للقرآن ولان قلبه لكن صناديد الكفر لم يتركه بل سارعوا إلى إغوائه وإبعاده عن التأثر بهذا الدين من ذلك ما رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنه أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فقال يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا قال لم قال ليعطوك فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله قال قد علمت أني من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر لها أو أنك كاره له قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا والله إن لقوله الذي يقول

حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ومـــا يعلـــى وإنـــه ليحطم ما تحته قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعني حتى أفكـــر فيـــه فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت "ذرني ومن خلقت وحيدا" المدثر . وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال أبو جهل والملأ من قريش لقد انتشر علينا أمر محمد فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره فقال عتبة لقد سمعت بقول السحرة والكهانة والشعر وعلمت من ذلك علمـــا وما يخفى علي إن كان كذلك فأتاه فلما أتاه قال له عتبة يا محمد أنت خيـــر أم هاشـــم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فلم يجبه قال فبم تشتم آلهتنـــا وتضـــلل آباءنا فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رأسنا ما بقيت وإن كان بدا لك في الباءة زوجناك عشرة نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت وإن كان بك المـــال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ورسول الله ﷺ ساكت فلما فرغ قال رسول الله ﷺ " بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم " حتى بلغ "أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود" سورة فصلت . فأمســـك عتبـــة على فمه وناشده الرحم أن يكف عنه ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة انطلقوا بنا إليه فأتوه فقال أبو جهل والله يا عتبة ما حسبنا إلا أنك صـــبوت فإن كانت بك حاجة جمعنا لك ما يعنيك عن طعام محمد فغضب وأقسم بالله لا يكلـــم محمد أبدا وقال لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا ولكني أتيته فقص عليـــه القصـــة فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة قرأ "بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقـــوم يعلمـــون* بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون" حتى بلغ "فقل أنذرتكم صـــاعقة مثـــل صاعقة عاد وثمود" فأمسكت فيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب . وفي رواية أن النبي ﷺ لما بلغ الســـجدة سجد ثم قال له قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك فقام إلى أصـــحابه فقـــال بعضـــهم

لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبا الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس قالوا يا أبا الوليد ما وراءك قال ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي خلو بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرك والله بلسانه قال هذا رأي فاصنعوا ما بدا لكم . ومما يدل على قناعة كفار قريش برسالة النبي ﷺ وعلمهم بأنه رسول مرسل من الله عز وجل وامتناعهم عن اتباعه كبرا وعنادا ما رواه ابن إسحاق عن الزهري قا ل حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة يلتمسون يتسمعون من النبي ﷺ وهو يصلي بالليل في جوف بيته وأخذ كل رجل منهم مجلسا وكل لا يعلم بمكان صاحبه فلما أصبحوا تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقالوا لا نعود فلو رآنا بعض السفهاء لوقع في نفسه شيء ثم عادوا لمثل ليلتهم فلما تفرقوا تلاقوا فتلاوموا كذلك فلما كان في الليلة الثالثة وأصبحوا جمعهم الطريق فتعاهدوا أن لا يعودوا ثم إن الأخنس أتى أبا سفيان في بيته فقال أخبرني عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها فقال الأخنس وأنا والذي حلفت به ثم أتى أبا جهل فقال ما رأيك فقال ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا وأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه فقام الأخنس عنه . وأخرج البيهقي في سننه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل يا أبا الحكم هلم إلى الله عز وجل وإلى رسوله أدعوك إلى الله قال أبو جهل يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا هل تريد إلا أن نشهد أنك بلغت فنحن نشهد أن قد بلغت فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقا ما اتبعتك . فانصرف عنه النبي ﷺ قال وأقبل

علي فقال فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن بني قصي قالوا فينا الحجابة فقلنا نعم فقالوا فينا الندوة فقلنا نعم ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم قالوا فينا السقاية فقلنا نعم ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي والله لا أفعل . فهذا أبو جهل يقسم بالله أنه يعلم أن النبي ﷺ صادق في دعوته وفيما يقوله ولكنه يرفض الإيمان به كبرا وعنادا ليس إلا . الدروس والعبر: أن في استنكار الكفار لدعوة النبي ﷺ ومحاربتهم لها رد على بعض دعاة القومية الذين يزعمون أن محمدا عليه الصلاة والسلام إنما كان يمثل في رسالته آمال العرب ومطامحهم حينئذاك . وهذا زعم مضحك ترده وقائع التاريخ الثابتة كما رأينا وما حمل هذا القائل وأمثاله على هذا القول إلا الغلو في دعوى القومية وجعل الإسلام أمرا منبثقا من ذاتية العرب وتفكيرهم وهذا إنكار واضح لنبوة الرسول وخفض عظيم لرسالة الإسلام (الأستاذ مصطفى السباعي) أن ما أصاب الرسول ﷺ من ابتلاءات عزاء لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة من بلاء ومصائب . (د. مهدي رزق الله أحمد) يؤخذ من موقف أبي طالب في الدفاع عن النبي ﷺ أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه عليه الصلاة والسلام حبا طبيعيا لا شرعيا وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ومما صنعه لرسوله من الحماية إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ولتجرؤوا عليه ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه وربك يخلق ما يشاء ويختار . (الحافظ ا بن كثير) أن في قول النبي ﷺ ذلك القول لعمه أبي طالب وفي رفضه ما عرضت عليه قريش من مال وملك دليل على صدقه في دعوى الرسالة وحرصه على هداية الناس وكذلك ينبغي أن يكون الداعية مصمما على الاستمرار في دعوته مهما تألب عليه المبطلون معرضا عن إغراء المبطلين بالجاه والمناصب فالمتاعب في سبيل الحق لدى المؤمنين راحة لضمائرهم وقلوبهم ورضى الله وجنته أعز وأغلى عندهم من كل مناصب الدنيا وجاهها وأموالها . (مصطفى السباعي) في حديث المغيرة بن شعبة نجد النبي ﷺ يخاطب أبا جهل بكنيته (يا أبا الحكم) والنداء بالكنية تكريم عند العرب وقد تناسى

النبي ﷺ بذلك مواقفه السيئة في سبيل الدعوة . وهذا درس مهم يستفيد منه الدعاة إلى الله تعالى في ضبط النفس ومحاولة التودد إلى الناس من أجل الإسلام وإن سبقت منهم مواقف مؤلمة . (د. عبد العزيز الحميدي)

تلاحق المهاجرين إلى الرسول ﷺ بالمدينة

قال ابن إسحاق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله ﷺ إلا أهل دور مسمون بنو مظعون من بني جمح ؛ وبنو جحش بن رئاب، حلفاء بني أمية ؛ وبنو البكير، من بني سعد بن ليث، حلفاء بني عدي بن كعب، فإن دورهم غلقت بمكة هجرة ليس فيها ساكن.

عدوان أبي سفيان على دار بني جحش والقصة في ذلك

ولما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب، فباعها من عمرو بن علقمة أخي بني عامر بن لؤي ؛ فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ (ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارا خيرا منها في الجنة ؟ قال بلى، قال فذلك لك).

فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة، كلمه أبو أحمد في دارهم. فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال الناس لأبي أحمد يا أبا أحمد إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله عز وجل فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ وقال لأبي سفيان

أبلغ أبا سفيان *** عن أمر عواقبه ندامه
دار ابن عمك بعتها ***تقضي بها عنك الغرامه
وحليفكم بالله رب *** الناس مجتهد القسامه
اذهب بها، اذهب بها ***طوقتها طوق الحمامه

انتشار الإسلام ومن بقي على شركه

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة حتى بني له فيها مسجده ومساكنه واستجمع له إسلام هذا الحي من الأنصار، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، إلا ما كان من خطمة وواقف ووائل وأمية وتلك أوس الله وهم حي من الأوس، فإنهم أقاموا على شركهم.

تواضع القيادة

قيادات الحركة : هم النموذج الأمثل ، والتطبيق العملي لمبادئها ، وما ينادون به ، ويطالبون الآخرين بالتزامه .

فإذا كانوا قدوة حسنة : كان ذلك دليلا جيدا وبرهانا واضحا على صحة المسيرة ، ونجاح الغاية ، وقرب الوصول إليها .

وإذا كانوا غير ذلك : اضطربت الحركة ، وتلاطمت بها الأمواج ، وتفرقت بأفرادها الأهواء ، وفقدت سبيل الهدى والرشاد .

يقول ﷺ : " خيار أئمتكم : الذين تحبونهم ويحبونكم ، ويصلون عليكم وتصلون عليهم ، وشرار أئمتكم : الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنوهم ويلعنوكم " " ٦٣ "

وفي فتح الباري :يقول أبو بكر رضي الله عنه . . لمن سأله قائلا :ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية ؟ قال : بقاؤكم عليه ما استقامت عليه أئمتكم . . . " الحديث "٦٤"

ولعل هذا أحد الأسباب الرئيسية في بقاء حركات ، ونجاح استمرارها ضد معاول الهدم والإفناء ، وكذلك : في ضياع حركات ، وفشلها في القيام بمهمتها ، وأداء رسالتها .

ولذلك : كان لابد من توافر صفات خاصة فيمن تقع عليهم مسئولية القيادة ، وينـاط بهم رفع ألوية الحركة ، وحمل أمانتها .

ومن هذه الصفات :

تبسط القيادة ، وتواضعها ، في سلوكياتها ، وأمور حياتها الخاصة ، عن قناعة وصدق وإيمان ، وليس عن تكلف وتصنع .

حيث إن ذلك : فضلا عن أنه صورة عملية لما تؤتمن عليه ، وتنادي به من مبـــادئ وتعاليم . . فإنه خير عون على نجاح الدعوة ، وترابط الصف ، وإخلاص الجنـــود ، وسعادتهم بأداء الواجبات ، ورضاهم بتحمل الأعباء والقيام بالمشقات .

وخير قائد علمنا ذلك . . ! !

بل خير قائد فعل ذلك . . ! !

هو رسول الله ﷺ .

ففي البخاري . . " . . وطفق رسول الله ﷺ _ بعد أن وصل المدينة _ ينقل معهـــم اللبن في بنيانه _ أي المسجد النبوي _ ويقول :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة . . . فارحم الأنصار والمهاجرة . " ١٤ "

إلى أن اغبر صدره ﷺ من كثرة ما حمل ونقل . . ! !

حتى دفع ذلك بعضهم إلى أن يقول :

لئن قعدنا والنبي يعمل . . . لذاك منا العمل المضلل

فصار الصحابة ينشدونها ، ويتغنون بها وهم يعملون .

وكان ﷺ : يأبى إلا أن يكون واحدا منهم ، يعمل كما يعملون ، وينشد كما ينشدون ، ويأخذ بحظه _ من ثواب الله _ كما يأخذون .

وهكذا . . كلما كان القائد قريبا من جنوده : كلما كان محبوبا لـــديهم ، وكلمـــا كـــان بسيطا في حياته متواضعا في سلوكه : كان قدوة صالحة إليهم ، بقربه منهم : يألفونه ، وبأدبه معهم : يحبونه ، وبمشاركته أفراحهم ، ومقاسمته أتراحهم : يفتدونه .

بأمره : يطيعون ، وبسلوكه : يقتدون ، وبعلمه : ينتفعون ، ولأعلام الدعوة يرفعون ، ولكلمات الله يعلون ، وبشرعه يلتزمون .

وبهذا النسيج : يتلاحم القائد مع جنـــوده ، ويتماســـك الصـــف ، ويصـــير كالبنيـــان المرصوص ، وتصبح الشورى منهجا ، والقوة مكسبا ، ورهبة الأعداء مغنما .

أما إذا ترفع القائد _ وتكبر _ على جنوده ، وأفراد دعوته ، أصبح الأمـــر قســـرا ، والطاعة كرها وقهرا ، وساد سوء التقليد ، وتقليد السوء ، وتمزق الصف ، وتفرقت الجماعة ، وتنوسيت المبادئ ، وتأخر النصر .

ولأهمية هذا الدرس : لم ينبه عليه النبي ﷺ مشافهة ، بل مارسه عمليـــا ، وعاشـــه بنفسه بين أصحابه حتى صار واضحا لهم ، جليا لكل من يأتي من بعدهم .

توافر الحس الأمني

الحس الأمني : شعور يكتسبه العاملون في حقل الدعوة ، من خلال : سعة أفقهـــم ، وصدق وعيهم ، وحسن فهمهم لتاريخ الدعوة ومدى ما تعرض له أبناؤها منذ الأيـــام الأولى مع النبي ﷺ ، وإلى يومنا هذا .

وكذلك : يكتسبونه من شدة حرصهم على نشر مبادئها ، ورفع رايتها ، وإعلاء شـــأن العاملين بها والمنتسبين إليها ، واستمرار مسيرتها ، وعدم توقف العمل ، أو تعطيله ، عن تحقيق ذلك _ أو بعض ذلك _ كله .

وليس ذلك الشعور ، خوفا على أنفسهم _ وإن كان ذلك أمر مطلوب _ بالقدر الـــذي فيه الخوف على : ما يحملونه من مبادئ تهدي للتي هي أقوم ، وما يريدون تحقيقـــه من خلال هذه المبادئ في دنيا الناس وواقعهم .

ولذلك : لابد من توافر هذا الحس ، لدى العاملين في حقل الدعوة الإســـلامية ، كـــل حسب البيئة التي يعيش فيها ، والمجتمع الذي يخالطه ، والقوى التي تواجهه ، خوفـــا على الدعوة من أن يحال دون توضيح معالمها ، ونشر مبادئها ، وتكثيـــر أتباعهـــا ، وكذلك : خوفا على رجالها ، من كيد الأعداء ، وبطش الطغاة .

وليست هذه دعوة للجبن أو التقاعس ، ولكنها دعوة لليقظة والحذر ، وفهم الواقـــع ، حرصا على نجاح الدعوة ، وانتشارها ، وتعميم خيرها في دنيا الناس أجمعين .

وإذا كان المسلم _ دائما _ يسأل الله العافية ، فهو لا يبخل أن يجود بنفسه في ســـبيل نصرة هذا الدين إذا ما دعي الداعي لذلك .

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

ومن العجيب : أن هذا الإحساس كان في أعلى درجاته عند هؤلاء النفر ، الذين دخلوا هذا الدين حديثا ، والذين جاؤا من المدينة لملاقاة الرسول ، ﷺ ، بمنى .

يقول ابن اسحق : قال كعب بن مالك " . . . فرحل إليه منا سبعون رجلا ، حتى قدموا عليه في الموسم " " ٤٨ "

ثم يقول : " فواعدناه شعب العقبة "

ثم يقول : فنمنا تلك الليلة مع قومنا ، في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل : خرجنا من رحالنا ، لمعاد رسول الله ﷺ ، نتسلل تسلل القطا ، مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب " أم عمارة " ، وأسماء بنت عمرو بن عدي " أم منيع "

هذا خروجهم من رحالهم ، ومن بين زملائهم ومرافقيهم من أهل بلدهم وأقاربهم . !

فكيف كان وصولهم إلى النبي ﷺ ، ودخولهم عليه . . ؟

يقول : فاجتمعنا عندها _ أي العقبة _ من رجل ورجلين حتى توافينا _ أي اكتمل عددنا _ فقلنا يا رسول الله ؛ علام نبايعك . . ؟ " ٤٨ "

يا سبحان الله . . ! !

لم يخرجوا لملاقاة النبي ﷺ علانية ، أو في وضح النهار ، أو في أوقات حركة الناس ونشاطهم .

بل كان خروجهم :

أ _ قرب منتصف الليل ، وبعد أن آوى الناس إلى فراشهم ومضاجعهم .

ب _ تسللا حذرا ، هادئا متخفيا ، حتى لا يشعر بهم أهلوهم وبنو وطنهم ، فيسألونهم عن وجهتهم ، أو يعرفون وجهتهم ، وقد يمنعونهم ، أو يفشون سرهم ، وبذلك تفشل مهمتهم .

ج _ لم يسيروا في الطريق جماعة ، بل كانوا متفرقين ، حتى لا يلفتوا الأنظار ، أو يجذبوا أي انتباه إليهم ، مع أن الحجاج كثيرون ، والمكان مكان تجمع وحركة ، والناس في عبادة ، وقد لا ينتبه إليهم أحد ! !

ولكنه الحذر والدقة والحرص . . ! !

وكذلك : هو الحس الأمني الذي تربى لديهم عندما سكن حب الدعوة والخوف عليها وعلى قائدها شغاف قلوبهم .

ثم وصلوا إلى النبي ﷺ ، ولم يدخلوا جماعة . . ! !

فكيف كان دخولهم ؟

يقول " فاجتمعنا عندها _ أي العقبة ، التي اجتمعوا عندها برسول الله ﷺ _ من رجل ورجلين " حتى اكتمل عددهم ، ثم بدؤوا فيما يهدفون إليه .

وينبغي أن يلاحظ جيدا

أنهم لم يدخلوا عليه جميعا دفعة واحدة ، أو عشرة عشرة . . ! !

وكان خروجهم من رحالهم على هذا النحو . . ! !

وكان سيرهم في الطريق على هذا النحو . . ! !

وكان دخولهم على النبي ﷺ على هذا النحو . . ! !

وكان ذلك : حتى لا يثيروا الانتباه ، ويلفتوا الأنظار إليهم ، ويجلبوا المتاعب عليهم ، ويضيع هدفهم ، ويخيب سعيهم ، وقد يبطش بهم أعداؤهم ، ويؤذون صاحبهم ، دون ذنب جنوه ، أو مكسب حققوه ، ولذلك _ لما تصرفوا على هذا النحو – وصلوا إلى غرضهم ، ونجوا من عدوهم

هذا . .والذي لفت نظرنا إلى هذا الدرس من دروس الهجرة النبوية : أنه ما خلا عصر ، وما سلم مصر من الكيد لهذه الدعوة ، والتربص برجالها ، منذ يوم هؤلاء النفر من الأنصار ، وإلى يومنا هذا ، وإلى يوم الدين ، وهذه هي حكمة الله تعالى (يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا آن يتم نوره) " ٤٩ "

كما أن توافر الحس الأمني ، الداعي إلى الحرص الواعي الشديد : ينبغي أن يتحلى به العاملون في الحقل الإسلامي ، الداعون لإعادة الحياة إلى حمى الإسلام ، أو إعادة الإسلام للهيمنة على الحياة ، وإنقاذ أهلها من الضياع ، الداعون للدولة الإسلامية ، الساعون لرفع رايتها .

خاصة : وأن البعض منهم قد لا يعير هذا الأمر انتباها أو اهتماما ؛ نظـــرا : لعـــدم أهميته وضرورته فيما يرى ، أو لعدم درايته بالجو العام المحيط بالدعوة وأهلها فـــي _ هذا الزمان، و _ كل زمان .

ولذلك : قد يصاب بما يؤذيه ، بل قد يناله ما يفتنه ، مما كان هو في غنى عنـــه لـــو حرص على توافر هذا الحس الأمني لديه

وكذلك : قد يصاب غيره _ بسببه _ بما يؤذيه ، أو بما يعوقه عن أداء ما تتطلبه منه الدعوة ، بشكل أو بآخر ، ولزمن قد يطول وقد يقصر .

ومن جهة ثالثة : قد يصاب الصف كله بسبب عدم حرصه هذا ، بعرقلة المسيرة ، أو بتعطيلها وتأخير وصولها إلى الغرض المنشود .

* * * *

وليس الذي نقول : هو من باب إنكار الابتلاءات ، أو التهرب منها ، حيث إنها ســـنة إلهية للاختبار والتمحيص ، والنجاة منها ، أو النجاح فيها : منة من الله تعالى علـــى أصحاب الدعوات .

(ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) " ٥٠ "

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)" ٥١ "

إنما هو من باب : سؤال الله العافية عملا ، لا قولا فقط ، ومن باب : حـــث المســـلم على سعة الأفق ، ودرايته بالواقع المحيط به وبدعوته وبأصحابها ، وكذلك من بـــاب الحرص على عدم تعرضه ، أو تعريض غيره ، أو دعوته ، للضرر ، دون أن يدري

* * * *

ولذا : فعلى أصحاب الدعوة : فهم هذه الفائدة جيدا ، والحرص الدائم على التحلي بها وعدم التخلي عنها ، والتعامل مع الأجواء والظروف المحيطة بهم وبدعوتهم ، بكياسة المؤمن وفطنته ، وخوفه على دينه ، وحرصه على نجاح ونشر دعوته .

حدث الهجرة ماض مشرق وحاضر مظلم

قبل ألف وأربعمائة وعشرين سنة هاجر محمد ﷺ من مكة إلى المدينة فاراً بدينه، ومتوكلاً على ربه بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وتمالى أئمة الكفر وصناديد الباطل على محاولة قتله، وتخطف دهاقنة الجاهلية أصحابه وآذوهم وعذبوهم بغية فتنتهم عن دينهم، وإرجاعهم لعبادة الأصنام والأوثان من جديد بعد أن منّ الله عليهم بنعمة الهداية، وأخرجهم من ظلام الجاهلية، وأنقذهم من براثن الكفر .

وشاء الله عز وجل – بحوله وقدرته– وبعد اخذ رسوله صلوات الله وسلامه عليه بأسباب التمكين أن يكون حدث الهجرة نقلة نوعية، ويشكل تحولاً تاريخياً في تاريخ الدعوة الوليدة لتنتقل بعدها من مرحلة بناء الجماعة إلى مرحلة تأسيس الدولة، ومن رفع شعار "كفوا أيديكم" بمكة إلى "الآن نغزوهم ولا يغزونا" بالمدنية، ومن الصبر على إيذاء الكفار وتحمل تعذيبهم وتهجمهم على النبي ﷺ وصحبه الكرام إلى تجيش الجيوش، ورفع الرايات، وعقد البيعات على الموت لمجرد أن مسلماً قتل أو أشيع أنه قتل على أيدي أعداء الإسلام، فعزَّ الإسلام والمسلمون، وذلّ الكفر والكافرون، وارتفعت راية لا إله إلا الله عالية خفاقة تناطح قمم الجبال، وتبلغ عنان السماء، وغدا نشيد الكون وحداؤه: إسلامية .. إسلامية .. إسلامية

واليوم ونحن نستقبل عاماً هجرياً جديداً – ١٤٢١هـ– بدأت تطل علينا أيامه، وترمقنا دقائقه ولحظاته، نقف لتأمل ما انبثق عنه حدث الهجرة –قبل أربعة عشر قرناً– الذي قلب الأوضاع كافة رأساً على عقب بحيث صار للمسلمين دولة قوية مهيبة تنافح عنهم، وتتحدث باسمهم، وتحفظ حرماتهم ومقدساتهم، ويحسب لها الأعداء ألف حساب وبين ما أسفر عنه دخول العام الهجري الجديد، فنرى الفرق هائلاً، والبون شاسعاً، والمسافة بين الحدثين كبعد السماء عن الأرض ، وإذا أمعنا البحث في أحوال المسلمين ودققنا فيها النظر، فلن نجد إلا ما يقطع نياط القلوب، ويمزق أوصال النفوس، ويملأها حسرة وحزناً وكمداً، فمقدسات المسلمين ديست، وأعراضهم انتهكت، وأرضيهم احتلت، وأموالهم سلبت، ودماؤهم أريقت حتى تحققت فينا نبوة رسولنا ﷺ (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على

قصعتها) وسبب حصول هذا التداعي، كما أوضحه قائدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه (لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت

لقد اتفقت دول الكفر قاطبة على حرب الإسلام بغية استئصال شأفة المسلمين، وطمس معالم دينهم، مستعينين بحكام العرب الخونة وأئمة الكفر العتاة الذين نصبوا أنفسهم آلهة تعبد من دون الله، لا ترضى أن يعصى لها أمر، أو يعارض أحد لها رأي، ومن خرج على سلطانها، وحارب باطلها، وصدع بكلمة الحق في وجهها، فسلخانات التعذيب في انتظاره، وحبل المشنقة من ورائه، وفتاوى بعض علماء السوء تبرر – بل توجب – قتله لخروجه على طاعة (ولي الأمر) وسلوكه غير سبيل المؤمنين ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا !!. إن المتأمل في حال أمتنا الإسلامية –خاصة في السنوات الخمس الأخيرة– يلحظ هجمة لا مثيل لها، ويرى تعاوناً لا شبيه له بين الحكومات العربية التي أعلنت – بدعم ومساندة وتأييد قوى الكفر العالمية من يهود ونصارى وغيرهم– حرباً لا هوادة فيها ضد الحركات الإسلامية لاسيما الجهادية منها، وسارعت الى عقد عشرات المؤتمرات تحت شعار "مكافحة الإرهاب" ووقعت العديد من الاتفاقيات تحت باب "تنسيق الجهود الأمنية" لغرض التضييق على تلك الحركات والإيقاع بأفرادها، وتسليمهم لبلدانهم رغم حدة الخلافات وشدة العداوات فيما بينها، والتي تبدو ظاهرة للعيان كالشمس في رابعة النهار، لكن لما كان الأمر متعلقاً بحفاظ هؤلاء الطواغيت على عروشهم، وخوفهم من فقدهم لكرسي الحكم، اتفقوا فقط في هذا الباب، وبدا ذلك واضحاً من خلال استمرار مؤتمر وزراء الداخلية العرب في الانعقاد بصورة دورية دون أن تحل به لعنة الخلافات، أو تمسه آثار العداوات في حين تبقى مسألة عقد قمة عربية لهؤلاء الطواغيت لمناقشة أي قضية طارئة في إطار الأخذ والعطاء، وتستغرق للتحضير و الإعداد لها زمناً طويلاً، وفي غالب الأحيان تلغى ويرمى بها إلى سلة المهملات ولا من باكٍ أو متحسر عليها .

إن حدث الهجرة وما تبعه من أحداث غيرت كل الموازين، وقلبت كافة المعادلات في جزيرة العرب، لم يأت من فراغ، ولم يتحقق دون جهد ونصب، فلقد كابد رسولنا محمد ﷺ وعانى الأمرين من أجل إقامة دولة يأزر إليها المسلمون، ويحتمي بها الخائفون، ، وسعى هنا وهناك باحثاً عن النصرة، وطالباً للمؤازرة والمنعة حتى تعرض بسبب ذلك للإيذاء ، ونال منه السفهاء والرعاع كما حصل له في رحلته إلى الطائف ، لكن الرسول الكريم لم يدع اليأس يطرق قلبه، ولا الوهن يصيب فؤاده، رغم ضخامة المهمة، وجسامة التكليف، ووعورة الطريق، ولهذا رأيناه بعد سنتين من حادثة الطائف ينجح في الحصول على المنعة والنصرة من الأوس والخزرج، ويحكم على ضوء ذلك خطته، ويعد أصحابه إيذاناً بقرب انبلاج فجر الإسلام، وانقشاع ظلام الجاهلية.. وقد كان .

لقد كانت الهجرة أهم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية، ومن خلالها ظهر الكيان السياسي للامة الإسلامية (ولأهميته كان التأريخ بالهجرة ولم يكن بغيرها من الأحداث الهامة كالميلاد والبعثة أو وقعة بدر أو ما شابهه) والمسلمون اليوم بحاجة ماسة إلى استذكار معاني الهجرة واستحضار دروسها لان الإسلام لا يرضى لاتباعه أن تحكمهم قوانين الكفر، ولا أن تظلهم أحكام الجاهلية كما هو حاصل الآن، بل لابد من الهجرة إلى دار الإسلام ليكونوا من جنودها، ويقاتلوا تحت رايتها، وينعموا بالأمن والسلام فيها، وإذا عدمت هذه الدار –كما هو حاصل الآن– فإن المسلمين مدعوون لإيجادها ، وإعداد العدة والجهاد في سبيل الله، والتعاهد على نصرة هذا الدين بأموالهم وأنفسهم تماماً كما فعل الأنصار قبل أربعة عشر قرناً .

يا أيها الذين ءامنوا كونوا أنصار الله

حدث الهجرة

بعد النجاح الذي حققته الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة،وبرغم الاضطهادات التي تعرض لها الصحابة منذ فجر الإسلام، جاءت الهجرة النبوية إلى المدينة، لتكون منطلقا للدعوة الإسلامية، أسست لمرحلة جديدة وجدت فيها الدعوة أرضا خصبة، بعد أن لم يتأت لها ذلك بين جبال مكة .

طلائع الهجرة النبوية إلى المدينة

بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية، وتمكن الإسلام من وضع اللبنة الأساسية لوطنه في يثرب، دعا النبي عليه الصلاة والسلام مسلمي مكة وأذن لهم بالهجرة إلى المدينة وقال: "إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها"١ فخرجا أرسالا وأقام النبي بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج، وكان أول مهاجر إلى المدينة أبو مسلمة بن عبد الأسد، وبعد شهرين من بيعة العقبة، لم يبق في مكة من المسلمين إلا النبي وأبو بكر وعلي، ومن منعه المشركون من الخروج.

ولم يهاجر أحد من الصحابة إلا مستخفيا، غير عمر بن الخطاب الذي خرج أمام الملأ ... وقد كان أبو بكر يستأذن النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة فيقول له: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا، فطمع أبو بكر أن يكون النبي ذلك الصاحب، فاشترى لذلك راحلتين وجهزهما استعدادا للهجرة.

تآمر قريش على قتل رسول الله ص

ولما رأت قريش أن محمدا قد صار له شيعة وأنصار في يثرب، وأن من آمن به من أهل مكة قد خرجوا إليهم وعرفوا أنه لاحق بهم لا محالة، فاجتمعوا في دار الندوة، وتشاوروا في حبسه أو نفيه فاقترح عليهم"أبو جهل" قتل النبي ﷺ بطريقة تمنع عشيرته من الثأر من قاتليه، وذلك بان تختار كل قبيلة شابا جلدا ذا نسب، ثم يعطى كل واحد منهم سيفا صارما، ثم يعمدون إليه فيقتلونه جميعا. فيفرق دمه في القبائل، ولا يقدر أهله على محاربتهم جميعا، ويرضون عندئذ بالدية. ولما تم اتخاذ القرار

الغاشم بإعدامه ﷺ نزل جبريل بأمر مدبر حكيم، فأخبره بمؤامرة أكابر قريش، وان الله قد أذن له في الخروج، وقال له: "لا تبت هذه الليلة في فراشك الذي كنت تبيت فيه".

الخبر يصل إلى أبي بكر

قال ابن إسحق: حدثني من لا أتهم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله بالهجرة والخروج من مكة، أتانا بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الساعة إلا لأمر حدث٢ ..... فلما تم الاتفاق على متى وكيف الخروج، قال أبو بكر: يا نبي الله أن هاتين راحلتان قد أعددتهما لهذا الغرض، ثم استأجر دليلا اسمه عبد الله بن أريقط، ليدلهما على الطريق.

نجاته عليه الصلاة والسلام من مكر الماكرين

رجع النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيته، حتى إذا كانت عتمة الليل، اجتمع فتيان قريش على باب بيته يترصدونه حتى ينام ليقتلوه، فلما رأى عليه الصلاة والسلام مكانهم، أمر عليا أن ينام على فراشه وأخبره أنه لن يصل إليه أي مكروه، وأمره برد الودائع للناس، حيث كان أهل المدينة يضعون عنده ودائعهم، لما يعرف عنه من صدق وأمانة.

الرسول وأبو بكر في الغار

خرج النبي عليه الصلاة والسلام، وشباب قريش بالباب يترصدونه، فأخذ حفنة تراب وجعله على رؤوسهم وهو يتلو قول الله عز وجل: يس والقرآن الحكيم...إلى فأغشيناهم فهم لا يبصرون٣، ثم انصرف فلم يروه، واتى أبا بكر فخرجا ليلا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر، حتى لا يراهما أحد، وسلكا طريقا غير معهودة، وما يزالا يسيران في ظلمة الليل بين الرمال والصخور حتى وصلا غار ثور، فدخلاه، وكان قد دخل أبو بكر أولا، ليتأكد من خلوه من الهوام والمؤذيات، وكان عبد الله بن

أبي بكر يأتيهما بأخبار قريش، وما يسمعه منهم بشأنهما، كما كان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يأتيهما بلبن من غنمه٤.

المشركون يبحثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهكذا، يطلع النهار فيكشف كفار قريش أن محمدا قد نجا، وأن الذي كان على فراشه هو علي بن أبي طالب، فداءا وإخلاصا له عليه الصلاة والسلام، فكان ذلك مفاجأة لهم ، فحددوا مكافأة سخية لمن يرده عليهم، فينطلق الطامعون في البحث عنه حتى يصعدوا الجبل الذي لجأ إليه عليه الصلاة والسلام وصاحبه، ويمرون على باب الغار الذي دخلاه، فتحاذي أرجاهم مدخل الغار ولا يرونهما، حفظا من الله عز وجل لهما، فيقول أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أن أحدا نظر إلى موطئ قدميه لأبصرنا، فيجيبه عليه الصلاة والسلام: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا.

خروجهما من الغار

بعد ثلاث ليال في الغار خرجا، خرج النبي عليه الصلاة والسلام وصاحبه من الغار، بعد أن يئس المشركون من الوصول إليهما، ثم أتاهما الدليل بالراحلتين وسلكا بهما طريقا غير معهودة، من ناحية الساحل قاصدين يثرب، وانطلق سراقة يطاردهما لعله يحظى بالجائزة، ولما رأى أبو بكر فارسا مدججا بالسلاح يقترب منهما، أفزعه ذلك، أما النبي عليه الصلاة والسلام فسار سيرا عاديا مطمئنا، لا يفتر عن قراءة القرآن والدعاء، وبينما كان سراقة يجد السير ويقترب منهما، إذ كبت به فرسه وساخت قوائمها حتى الركب في الأرض وألقته بعيدا، هنا تطير سراقة وأدرك أنه فاشل في محاولته، فطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يكتب له كتاب أمن يكون آية بينهما، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام عامر بن فهيرة فكتب له هذا الكتاب، فأخذه وعاد أدراجه، وأخذ يضلل من يطاردون رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بناء مسجد قباء

قال بن إسحاق: نزل النبي عليه الصلاة والسلام في بني عمرو بن عوف يوم الإثنين، وأسس مسجده، وأخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة، فأدركت رسول الله عليه الصلاة والسلام الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، فكانت أول جمعة صلاها في المدينة٥. ومن الملاحظ أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يذكر في خطبته أهل مكة ولا ما كان من عنادهم، وهدا في الواقع غاية الأدب ومنتهى ما يصل إليه حلم الحليم، وصدق الله عز وجل إذ يقول: « وإنك لعلى خلق عظيم».

النبي ﷺ في يثرب

بعد أن أدى عليه الصلاة والسلام صلاة الجمعة، تابع سيره حتى وصل يثرب، فخرج أهلها لاستقباله، وهم يقولون: الله أكبلا جاء رسول الله، وكان ذلك يوما مشهودا بالبهجة والفرح لم تكتحل المدينة برؤية مثله في تاريخها، وقد طمع كل صاحب بيت أن يقيم النبي عليه الصلاة والسلام عنده، لكنه ألقى لناقته خطامها تمشي على هواها، وقال للحشود: دعوها فإنها مأمورة، ومضت حتى وصلت إلى مربد، قبالة منزل أبي أيوب الأنصاري، وهناك بركت، وكان المربد لغلامين يتيمين، فاشتراه عليه الصلاة والسلام من وليهما، وشيد فيه مسجده ونزل عليه الصرة والسلام في ضيافة أبي أيوب الأنصاري ريتما يبني بيته بجوار المسجد، فكان دخوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة صباح خير في تاريخها.

أولى أعماله عليه الصلاة والسلام

لما قدم عليه الصلاة والسلام المدينة، كان أول عمل قام به هو إقامة الأسس الهامة لبناء دولة إسلامية، والمتمثلة فيما يلي:

أولا: بناء المسجد المعروف اليوم بالحرم النبوي.

ثانيا: المؤاخاة بين المسلمين عامة، والمهاجرين والأنصار خاصة، قال ابن اسحق: وآخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال،: فما بلغنا: تآخوا في الله أخوين أخوين ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي.

ثالثا: كتاب وثيقة"دستور" قال ابن اسحق: وكتب عليه الصلاة والسلام كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم٦.

وهكذا تم على أساس العقيدة إنشاء نواة دولة جديدة ستتطور لتصبح نواة أمة عظمى.

قال تعالى: «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه»٧.

الفهرس:

١- سيرة ابن هشام بشرح الروض الانف ج ٢/ ص ١٥٣

٢- سيرة ابن هشام بشرح الروض الانف ج ٢/ ٢٩٢

٣- يس ٩

٤- السيرة النبوية لأبي شهبة ٤٧٧/١

٥- سيرة ابن هشام بشرح الروض الانف ج ٢/ ٣٣٢

٦- سيرة ابن هشام بشرح الروض الانف ج ٢/ ٣٣٢

٧- يوسف

حماية القيادة

صرف القيادات عن أهدافها ، بالترغيب أو بالترهيب ، وكذلك إبادة القيادات ؛ بالاغتيال أو بالإعدام : غاية ، يسعى إليها ، ويعمل بجد لها أعداء الإسلام ، وشانئوا الحركة الإسلامية

وهؤلاء وهؤلاء يظنون أنهم بصرف هذه القيادات ، أو إبادتها : ستموت المبادئ ، وينقرض حاملوها .

ولذلك : فهم لا يكلون ، ولا يملون من محاولات الوصول إلى هذا الهدف في كل العصور منذ القائد الأول محمد ﷺ .

ولذلك : كان وجوب حماية القيادات ، وافتداؤها بالغالي والنفيس : أمرا شرعيا ، وواجبا دينيا ، حماية للمبادئ ، وحفاظا على مسيرة الدعوة .

وهذا درس واضح كل الوضوح في هجرة النبي ﷺ .

يظهر ذلك جليا في كل هذه التدابير والاحتياطات التي تفنن فيها الأفراد الذين علموا بتفاصيل وخطط الهجرة النبوية ، والذين أحاطوها بالكتمان والسرية ، والحذر الشديد الواعي ، لحماية هذا القائد ﷺ من أن تغتاله أيدي الطغاة .

خاصة : وأن هذا الأمر بات قرارا ، لكفار مكة ، لا رجعة فيه ، بعد أن اجتمعوا في دار الندوة ، لم يتخلف أحد من ذوي الرأي والحجى منهم ، ليتشاوروا في أمره ، ﷺ . . وبعد أن قال أبو جهل : " والله إن لي فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم . . ؟ قال : أري أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فتيا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا" "٦٦"

ولذلك _ وكما توضح كتب السيرة _ كان الكتمان الشديد ، والحرص الدقيق ، والتخطيط المحكم ، لتنفيذ الهجرة .

وهذه الحماية ، وهذا الافتداء : يتجلى في أعلى وأحلى صوره فيما يلي :

أ _ في نوم علي رضي الله عنه على فراش النبي ﷺ في هذه الليلة العصيبة الرهيبة التي أجمع كفار مكة فيها على قتل صاحب هذا الفراش ، وقد تقع الواقعة ، قبل أن يكتشفوا أن النائم ليس محمدا ﷺ ، وبالضرورة سوف يحدث ، فغياب المقصود بالقتل عن فراشه هذه الليلة بالذات ، ونوم آخر مكانه ، أمر لا يخطر على بال أحد منهم أو من غيرهم .

ومع ذلك : لم يرفض علي رضي الله عنه ، ولم يناقش ، ولم يكشف عن نفسه لهم لينجو ، ولم يرتجف ، بل كان سعيدا لأن الفرصة واتته ، والأقدار قد شرفته بمناسبة يحمي فيها القائد ويفتديه بحياته .

ب _ وفي الطريق إلى الغار : " رأى رسول الله ﷺ من أبي بكر عجبا ، رآه يسير مرة أمامه ، ومرة يسير خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن شماله .

فسأله رسول الله ﷺ : عن هذا . . ! ! ؟

فقال : يا رسول الله . . ! ! أذكر الطلب _ أي طلبهم لك _ فأمشي خلفك ، وأذكر الرصد _ أي ترصدهم لك _ فأمشي أمامك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن شمالك ؛ لا آمن عليك . " " ٦٧ "

وهكذا : حماية ، وافتداء للقيادة من الشباب والشيوخ ، خوفا على القائد وحبا فيه ، وحرصا على الدعوة وصيانة أمرها ، وحبا في الله تعالى وإعلاء كلمته .

ج _ ولا يقف الأمر عند حماية القيادة من القتل والاغتيال فقط ، بل حمايتها من كل مكروه ، صغر أو كبر ، قل أو كثر

يذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب : أن النبي ﷺ ، لما مشي على أطراف أصابعه _ وهو في الطريق إلى الغار _ لئلا يظهر أثر رجليه على الأرض ، وحفيت قدماه ، ولم يصل إلى الغار حتى تقطرت دما ! ! حمله أبو بكر _ وهو يشتد به _ حتى أتى الغار ، فأنزله . " ٦٨ "

الله أكبر ! ! لهذه الدرجة يفتدي شيوخ الحركة شبابها إذا كانوا هم القادة . . ! ! ؟

د _ لما وصلا للغار : وأراد رسول الله ﷺ أن ينزل فيه : قال له الصديق . . مكانك حتى استبرئ لك ، فإن كان به أذى نزل بي قبلك ، ثم نزل فتحسس الغار ، فلم يجد به شيئا ، فنزل رسول الله ﷺ ، وقد بلغ منه الإعياء والتعب مبلغه ، فما إن دخلا حتى توسد الرسول ﷺ قدم أبي بكر ونام .

وما كل هذه الصور _ وغيرها كثير _ إلا لأنهم علموا جيدا أن اغتيال القيادة وإنهاءها ، هو هدف رئيسي بالنسبة للعدو

* * *

وهذا درس يجب أن يعيه شباب الحركة الإسلامية ، فيحمون قادتها ، ويفتدونهم بالغالي والنفيس .

خاصة : وهم يرون " المحاولات _ الكثيرة _ اليائسة ، التي يقوم بها أعداء الإسلام لإنهاء الحركة الإسلامية ، عن طريق قتل قيادتها إعداما ، أو اغتيالا . " " ٥٩ "

" والذي يلحظ الحاكمين وهم يواجهون الحركة الإسلامية رغم اختلاف مشاربهم ، ونوازعهم ، يجدهم يلتقون جميعا على قتل هذه القيادات .

ومما ينبغي الانتباه له : " أن أعداء الإسلام يخطئون كثيرا ، حينما يتصورون أن انتهاء القائد ، يعني انتهاء المواجهة والجهاد _ وبالرغم من خطورة هذا الأمر ، والدور الرئيسي للقيادة ، كما يقول : الأستاذ منير الغضبان _ فهو لا يصح بشكل دائم ، إنه قد يعيق الحركة . . . ولكن المعاني المتغلغلة في نفوس شباب الدعوة ، لا يمكن أن تنتهي بانتهاء القيادة " " ٥٩ "

ولذلك . . ومن هذا الدرس . . نرى أن حماية القيادة ، وافتداءها : فريضة دينية ، وضرورة سياسية .

دروس تربوية من الهجرة النبوية

إعداد : معاوية محمد هيكل

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ففي تاريخ الأفراد والأمم والجماعات أحداث لها أثرها ودورها البالغ في تغيير دفة الحياة وتاريخ أمتنا- التي نعتز بها ونفتخر- يزخر بالأحداث العظام التي غيرت وجه التاريخ، ولعل من أبرزها وأعظمها أثرًا على الإطلاق في حياة الأمة حادث الهجرة المباركة، فالهجرة لم تكن حدثًا عاديًا ولا عابرًا كغيره من أحداث التاريخ، بل كانت بمثابة محور الارتكاز ونقطة الانطلاق والتحول، والحد الفاصل في مصير هذا الدين العظيم ومساره، وإيذانًا بميلاد فجر جديد لدولة التوحيد، أشرق على الكون نوره بعد مخاض ليل طال على الأتباع معاناته وآلامه.

ونظرًا لهذه المكانة السامية التي تبوأتها الهجرة النبوية واحتلتها كأعظم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد اعتبره المسلمون الأوائل معلمًا بارزًا من أهم معالم حضارتهم، فأرخوا به لأحداثهم ووقائعهم، ولم يؤرخوا بتأريخ غيرهم، حفاظًا على هويتهم واستقلالهم وتميزهم.

وحَدَثٌ هذا شأنه حري بنا وجدير أن نقف على معانيه، نستلهم منه الدروس والعظات والعبر.

أولاً: الهجرة سنة ماضية:

فبهذه الهجرة تمت لرسولنا ﷺ سنة إخوانه من الأنبياء، فما من نبي منهم إلا نَبَتْ به بلاد نشأته وأخرجه أهلها فهاجر عنها من لدن إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء وخليل الله، إلى عيسى كلمة الله وروحه، كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم- أهينوا من عشائرهم، فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في ذات الله.

قال تعالى: وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا {إبراهيم: ١٣}، وقال تعالى عن قوم لوط: فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون {النمل: ٥٦}، وقال تعالى عن نبينا ﷺ : وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين {الأنفال: ٣٠}.

ولذلك قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ : "ليتني فيها جذع ليتني أكون حيّا إذ يخرجك قومك". فقال رسول اللَّه ﷺ : "أَوَ مخرجي هم؟" قال: نعم؛ لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي".

{الحديث رواه البخاري (١-٣٠، ٣١)}

ثانيًا: في الهجرة تأمين للدعوة وحماية للدين:

فالنبي ﷺ لم يخرج من بين قومه إلا بعد أن تمالأ المشركون على قتله، منعًا له من الدعوة إلى الحق، كما أوصلوا إليه ما لا يحتمله غيره من الأذى، وفي هذا عبرة لمن دعا إلى دينه أن يصبر على أذى المدعوين، حتى يخشى على نفسه الهلاك فيفر بدينه إلى حيث يرجو أن تثمر دعوته.

فحيثما كان العبد في مكان لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله.

هجرة الموحدين المضطهدين.. جهاد لا فرار:

فهجرة الموحدين المضطهدين بدينهم في كل زمان ومكان ليست هروبًا ولا نكوصًا ولا هزيمة، إنما هو تربص بأمر الله، حتى يأتي أمر الله.

فقد خرج أصحاب الكهف من الدنيا على رحابتها إلى كهف ضيق فرارًا بدينهم، واعتزالاً للشر وأهله، وخروجًا من الواقع السيئ، وطلبًا للسلامة، فكانت هجرتهم محمودة ومشروعة، وكذلك فعل الصحابة رضوان الله عليهم هاجروا من مكة إلى الحبشة مرتين، ثم هاجروا إلى المدينة تاركين أوطانهم وأرضهم وديارهم وأهاليهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين.

لذلك فإن الهجرة تعلمنا درسًا هامًا، وهو كيف أن على الدعاة إلى الله أن يبحثوا دائمًا عن أماكن خصبة للدعوة.

ثالثًا: العقيدة هي الدافع والأساس:

أثبتت الهجرة النبوية أن الدعوة والعقيدة يتنازل لهما عن كل حبيب وعزيز وأليف وأنيس، وعن كل ما جبلت الطباع السليمة على حبه وإيثاره والتمسك به والتزامه، ولا يتنازل عنهما لشيء.

وقد كانت مكة- فضلاً عن كونها مولدًا ومنشأ للرسول ﷺ وأصحابه- مهوى الأفئدة والقلوب ففيها الكعبة البيت الحرام الذي جرى حبه منهم مجرى الروح والدم، ولكن شيئًا من ذلك لم يمنعه وأصحابه من مغادرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن حين ضاقت الأرض على هذه الدعوة والعقيدة وتنكر لها أهلها، وقد تجلت هذه العاطفة المزدوجة عاطفة الحنين الإنساني وعاطفة الحب الإيماني في كلمته التي قالها مخاطبًا مكة: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت". {صحيح الترمذي: ٣٠٨٢}. وذلك عملاً بقوله تعالى: يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون {العنكبوت: ٥٦}.

رابعًا: معية الله وحفظه وتأييده لأنبيائه وأوليائه:

قال الله تعالى: إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم {التوبة: ٤٠}، فالله عز وجل أرحم بنبيه وصاحبه من أن يجعلهما نهبًا لعدوهما، كما تؤكد الآية كذلك حماية الله لنبيه ﷺ ونصره وتأييده حين تخلت عنه قوة الأرض، والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق، إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وإن كانت مادية

فإن خطرها لا يتمثل في فخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش عظيم، وما يعلم جنود ربك إلا هو {المدثر: ٣١}.

فتعمية أبصار المشركين عن رؤية النبي ﷺ وصاحبه في غار "ثور" وهم عنده، مثل تخشع له القلوب من أمثلة عناية الله بأنبيائه ورسله ودعاته وأحبائه، فما كان الله ليوقع رسوله ﷺ في قبضة المشركين، فيقضوا عليه وعلى دعوته، وهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وليس في نجاة الرسول ﷺ وصاحبه بعد أن أحاط بهما المشركون في غار ثور إلا تصديق قوله تعالى: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد {غافر: ٥١}، وقوله تعالى: إن الله يدافع عن الذين آمنوا {الحج ٣٨}.

فالدعاة إلى الله بحاجة دائمًا إلى أن يكون راسخًا في أعماقهم عون الله لهم حين تعجز قوتهم البشرية عن إدراك ما يخطط لهم العدو بعد استنفاد الطاقة واستفراغ الوسع، وأن تكون لديهم القناعة التامة، أن النصر أولاً وأخيرًا من عند الله. قال تعالى: وما النصر إلا من عند الله {آل عمران:١٢٦}.

خامسًا: يتجلى في الهجرة بروز عنصر التخطيط وأهميته في حياة المسلمين:

فكان الهدف محددًا والوسائل كذلك والعقبات مأخوذة بالحسبان واختيار الطريق والمكان والتموين ومن يحمل الأخبار والدليل، كل ذلك مُؤَمَّنٌ مع إحاطة ذلك بالسرية والحيطة والحذر، وكل ذلك ينبئ عن تخطيط وتنظيم وترتيب لا مثيل له.

الأخذ بالأسباب والتوكل على الله

فالأخذ بالأسباب مطلوب ومشروع ولا ينافي ذلك الإيمان والتوكل على الله، فعدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع، والاعتماد على الأسباب قدح في التوحيد، لذلك فإن النبي ﷺ قد أحكم خطة هجرته وأعد عدته، فأعد الراحلتين وترك عليًا مكانه، وسلك الطريق الجنوبي للتغرير بالمشركين، واستأجر ماهرًا خبيرًا يدله على الطريق، وكانت أسماء رضي الله عنها تأتيهما بالطعام، ودخل غار ثور، فعل ذلك وهو النبي المؤيد من ربه.

فشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كأنها كل شيء في الحياة، ثم يتوكل بعد ذلك على الله، لأن كل شيء لا قيام له إلا بإذن الله، فإذا استفرغ المرء جهده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك، فإن الله لا يعاقبه على هزيمة بلي بها، وكثيرًا ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيبًا حسنًا، ثم يجيء عون الله أعلى فيجعل هذا النصر مضاعف الثمار.

سادسًا: التضحية والفداء:

ومن دروس الهجرة: أن الجندي الصادق المخلص لدعوة الإصلاح يفدي قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة في بياته على فراش رسول اللَّه ﷺ تضحية بحياته في سبيل الإبقاء على حياة رسول اللَّه #؛ إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه انتقامًا منه، لأنه سهل للرسول ﷺ النجاة، ولكن عليا لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول اللَّه ﷺ نبي الأمة وقائد الدعوة.

وكذلك موقف أبي بكر رضي الله عنه، فقد تجلى من معاملته لرسول الله ﷺ الحب الصادق والتضحية بالنفس، وتجلى هذا في دخول الغار وعند الخروج منه وفي الطريق حينما كان يمشي تارة خلفه، وتارة أمامه، وتارة عن يمينه.

وهذه أمثلة في التضحية والفداء يندر أن نرى لها في الدنيا نظيرًا، ولكنه الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

سابعًا: مظاهر محبة النبي ﷺ واستقبال أهل المدينة له:

تكشف لنا الصورة التي استقبلت بها المدينة رسول اللَّه ﷺ عن مدى المحبة الشديدة التي كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً.

قال ابن القيم رحمه الله واصفًا هذه المشاعر النبيلة: وبلغ الأنصار مخرج رسول اللَّه ﷺ من مكة، وقصده المدينة، وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد حر الشمس، رجعوا على عادتهم إلى منازلهم، فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة، خرجوا على عادتهم،

فلما حمي حر الشمس رجعوا، وصعد رجلٌ من اليهود على أطم من آطام المدينة لبعض شانه فرأى رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، مُبيَّضين، يزول بهم السراب، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدكم الذي تنتظرونه، فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول اللَّه ﷺ ، وسُمعت الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبّر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مُطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه: فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير {التحريم: ٤}. {زاد المعاد ٣-٥٢}

ثامنًا: الأخوة الصادقة وأمثلة نادرة:

قال تعالى: والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون {الحشر: ٩}.

ففي مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار أقوى مظهر من مظاهر عدالة الإسلام الإنسانية والأخلاقية البناءة، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم، فجاءوا إلى المدينة لا يملكون من حطام الدنيا شيئًا، والأنصار قوم أغنياء بزروعهم وأموالهم وصناعتهم، فكان أن حمل الأخ أخاه، واقتسم معه سراء الحياة وضراءها، وأنزله في بيته، وأعطاه شطر ماله، فأية أخوة في الدنيا تعدل هذه الأخوة. لذلك أثنى رسول اللَّه ﷺ على الأنصار ثناءً عظيمًا بعد ثناء الله عليهم فقال: "لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار". {البخاري: ٣٧٧٩}، وقال أيضًا: "لو سلكت الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم". {البخاري: ٣٧٧٨}.

تاسعًا: الهجرة والإصلاح المنشود:

قال العلامة محب الدين الخطيب: لو أننا فهمنا الحكمة التي انطوت عليها حادثة الهجرة، وعلمنا أن كتاب الله الذي نتلوه قد أنحى باللائمة على جماعة من أصحاب رسول اللَّه ﷺ كانوا في مكة يصلون ويصومون ولكنهم ارتضوا البقاء تحت جناح

أنظمة تخالف الإسلام، فلا قوة لهم على تغييرها، ولم يهاجروا إلى قلعة الإسلام ليكونوا من جنوده، لعلمنا أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة
والصوم، بل يريد منهم مع ذلك أن يقيموا شرائعه وآدابه في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم، ومجامعهم ودواوين حكمهم، وأن عليهم أن يتوسلوا بجميع الوسائل المشروعة لتحقيق هذا الغرض الإسلامي بادئين به من البيت وملاحظين ذلك في تربية من تحت أمانتهم من بنين وبنات، ومتعاونين عليه مع من ينشد للإسلام الرفعة والازدهار من إخوانهم، حتى إذا عم هذا الإصلاح أرجاء واسعة تلاشت تحت أشعته ظلمات الباطل، فكان لهذا الأسلوب من أساليب الهجرة مثل هذه الآثار التي كانت لهجرة النبي ﷺ وأصحابه الأولين.

روى مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه عن أبي عثمان النهدي أن مجاشع بن مسعود السلمي قال: جئت بأخي أبي معبد إلى رسول اللَّه ﷺ بعد الفتح فقلت: يا رسول الله، بايعه على الهجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: "قد مضت الهجرة بأهلها". قال مجاشع: فبأي شيء تبايعه؟ قال: على الإسلام والجهاد والخير. قال أبو عثمان النهدي: فلقيت أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع فقال: صدق.

وفي كتب السنة وبعضه في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد بن ناقد الأنصاري أن النبي ﷺ قال: "المهاجر من هجر السيئات". فإلى الهجرة أيها المسلمون، إلى هجر الخطايا والذنوب إلى هجر ما يخالف تعاليم الإسلام في بيوتنا، وما نقوم به من أعمالنا، إلى هجر الضعف والبطالة والإهمال والترف والكذب والرياء ووضع الأشياء في غير موضعها. {من إلهامات الهجرة: ص١١- ١٤}

فهل تأخذ الأمة من دروس الهجرة زادًا إيمانيًا تستعيد به مجدها المفقود، وهل نسترد دور الهجرة في حياتنا لنستأنف دورنا المنشود في قيادة البشرية من جديد، هذا ما نأمله ونرجوه.

نسأل الله أن يوفقنا لسلوك سبيل المؤمنين، وأن يعز الله بنا الدين كما أعزه بالســـابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين، وأن يجمعنا بهم مع سيد الأولين والآخرين يوم يقوم الناس لرب العالمين

دروس من الهجرة النبوية

إبراهيم السيد العربي

بتاريخ

في ذكرى الهجرة وبداية عام هجري جديد يتذكر الإنسان هذه الذكريات فمن يقرأ كتب السيرة ويعيش مع حياة رسول الله ﷺ ــ ويقرأ عن فترة البعثة الأولى يجد أن رسول الله تحمل من الأذى الكثير فلقد إتهم بأنه ساحر وبأنه شاعر إلى غير ذلك واستخدم كفار قريش كل الأساليب لكي يثنوه عن مبدأه فلم يرجع ولم يتهاون في تبليغ دعوة رب العالمين للناس ولذلك رسول الله ﷺ من الأنبياء الخمسة الذين أطلق عليهم أولو العزم ــ والسبب صبرهم وتحملهم الكثير من الإيذاء والاضطهاد المستمر .

نتذكر في ذكرى الهجرة النبوية ــ مبدأ الثبات على المبدأ في سبيل هذا المبدأ تحمل رسول الله ﷺ المقاطعة هو والمسلمين صبروا وتحملوا وفي هذا نموذج للمسلم ألا يضعف أمام كيد الشيطان وأمام كيد اعداء الاسلام وطالما أنه على الحق فان الله سينصره ــ ويقتدى بذلك بهدى المصطفى ﷺ وفي ذكرى الهجرة يعلمنا رسول الله ان المسلم اذا عزم على فعل أمر من الأمور لابدان يخطط له ويدرسه ويستعين على قضاء حوائجه بالكتمان حتى يتم الأمر كما هو مرسوم له ــ وشيء مهم جدا أن يختار الرفيق قبل الطريق فعندما اختار رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ليكون رفيقا له في السفر كان الاختيار في محله فهذا أبو بكر عليه رضوان الله سخر كل ما يملك في خدمة رسول الله ﷺ سخر ماله وأولاده ليكونوا جنودا مجهولين في هذه المرحلة وبالفعل تحقق ذلك فعبدالله بن ابي بكر يرعى الغنم ويتسمع أخبار مكة ويبلغها للرسول ولوالده في الغار كل ليلة واشتغلت اسماء وعائشة رضي الله عنهما بتجهيز الطعام كل يوم ويحمله لهم عبدالله في المساء ثم لا مانع أن يدافع المسلم عن نفسه في الحرب بكل السبل التي تكفل له النجاح في مهمته وهذا ما كان عليه رسول الله مع صاحبه لقد اختار الصاحب الحقيقي الذي انطبقت عليه كل المواصفات فها هو ابو

بكر رضي الله عنه في الطريق من شدة حبه لرسول الله ﷺ وخوفه على حياته يمشى في الأمام ثم يرجع الى الخلف لظنه أن الأعداء سيأتون من الخلف أو الأمام ويدخل الغار قبل رسول الله ﷺ لينظفه من كل شيء يمكن أن يضر بالحبيب ﷺ ونتعلم من الهجرة النبوية مدى صدق رسول الله وأمانته فها هو يوصي سيدنا عليا كرم الله وجهه بأن يبيت في مكانه حتى يؤدى الصدقات والودائع لأصحابها حتى يكون كما هو عند حسن ظن الناس فمع أن كفار مكة كانوا يتهمونه بكل الاتهامات ومع هذا كان الواحد فيهم إذا اراد أن يضمن أمانته فلا يضمنها الا عند رسول الله ﷺ وكان بإمكان رسول الله أن يأخذ هذه الودائع عوضا عما تركه ولكنه القدوة العظمى لنا ﷺ يعلمنا ــ أدا الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك هذه بعض أخلاق رسول الله ﷺ (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر).

ومن الدروس المستفادة من الهجرة نتذكر أن المسلم لا يضعف واذا لم يجد لنفسه مكانا في أرضه لكي يخدم دعوته فأرض الله واسعة قال تعالى: (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها) (النساء ــ ٩٧).

الاسلام يعيب على المسلم أن يضعف ويستسلم ويقول كنت ضعيفا كلا المسلم قوى بعقيدته قوى بايمانه قوى بتوكله على الله قوى بإخوانه المسلمين في كل مكان فعندما وجد رسول الله ﷺ أن مكة لم يعد فيها فرصة لتبليغ الدعوة تركها وهاجر للمدينة المنورة وهناك كان العوض والبديل في رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهم الأنصار عليهم رضوان الله أجمعين.

نتذكر في الهجرة النبوية في هذه المناسبة العظيمة نتذكر مدى حب المؤمن لأخيه المؤمن ولقد ضرب الأنصار أروع الأمثلة في التضحية والفداء لدرجة أن سعد بن الربيع يقول لأخيه عبد الرحمن بن عوف بعد أن آخى رسول الله بينهما هذه امرأتي وعندى زوجتان اختر أيهما فاطلقها لك وبعد انتهاء عدتها تزوج منها أي ايمان هذا؟ أي ايثار هذا الله أكبر حب في الله ومن أجل الله تعالى ولذلك أثنى الله عليهم.

في مناسبة الهجرة النبوية ــ نتذكر كيف هاجر عمر بن الخطاب رضي الله فلقد ملأ الإيمان قلبه ولم يخف من أحد إلا من الله سبحانه وتعالى حتى تقلد سيفه وطاف بالكعبة ونادى على قريش وأخبرهم أنه نوى الهجرة فمن اراد ان يرّمل زوجته ويتيم اطفاله فليلحق به وراء الجبل ولم يجرؤ واحد منهم ملاحقة عمر رضي الله عنه وأرضاه الله أكبر ولله الحمد ربما يسأل إنسان لماذا كانت هجرة رسول الله في السر وهجرة عمرا في العلانية هل يعني أن عمرا أشجع من رسول الله؟ الإجابة ان عمرا رضي الله عنه رأى بشرله من الحرية ان يختار طريقه بما يراه مناسبا لقوته ولعقيدته لكن رسول الله ﷺ كانت هجرته سرا لأنه لا يخطو خطوة الا بوحي من رب العالمين وهذا كان بأمر من الله حتى يعلم المسلمين أن السرية عند قضاء الأمر المهم مطلوبة ومستحبة بل إنها في بعض الأحيان واجبة.

نتذكر في هذه المناسبة كيف أن للمسجد رسالته ودوره الكبير في حياة كل مسلم ومسلمة وهذا يدل على ان رسول الله ﷺ أول شيء عمله في يثرب هو بناء المسجد لأن المسجد يخرج الرجال العظماء العلماء الأقويا بعقيدتهم وبتمسكهم بمنهج رب العالمين.

نتذكر بركة رسول الله ﷺ عندما حل بخيمة أم معبد هذه المرأة العربية الكريمة التي لم تبخل على النبي وصاحبه بشيء لكنها كانت لا تملك شيئا وجادت بالموجود فكانت مكافأة رسول الله لها بأن مسح على ضرع الشاة فأذن الله بنزول اللبن وشرب منه الحبيب المصطفى وشرب منه ابو بكر الصديق رضي الله عنه.

نتذكر في هذه المناسبة انك أخي المسلم اذا كنت مع الله كان الله معك واذا كان الله معك فلن يضرك أحد من البشر ــ فكن مع الله يكن الله معك والحمد لله رب العالمين

دروس من الهجرة النبوية الشريفة

تبدأ الدعوة الى الله تعالى وتنطلق فتلاقي في طريقها كل أصناف العذاب والاذى فــلا يثني صاحبها

عن الاستمرار في تبليغ دعوة ربه ايمانا بنصر الله تعالى وثباتا علــى الحــق رغــم صنوف العقبات والام

العذاب

لكل الدعاة وعلى مر التاريخ وفي سيرة الانبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام وأشد ما كان

من ذلك ما كان لنبينا عليه وآله الصلاة والسلام في مكة ومن أقرب الناس اليه مــن قريش.

وتنزل الايات على النبي تطمئنه بنصر الله ووعد الله تعالى له ويواسيه علــى ذلــك الملائكة والمؤمنون.

يقول الله نعالى لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات

فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا .. اي مهلكها

ويتعرض رسول الله لصنوف من الايذاء لم يتعرض لها احد قط فهذا عقبه ابن ابــي معيط ياتي بامعاء جمل ميت ويلقيها علي رسول الله وهو ساجد فيظل الرسول وتاتي ابنته الزهراء سلام الله عليها وتمسح ما عليه وهو يقول لها لا تبكي فان الله ناصــر اباكي

كذلك فقد غيروا اسمه صلي الله عليه وسلم فكانوا ينادونه باسم مذمم بدلا من محمــد واشاعوا الاسم في مكه فاذا راوه قالوا حضر مذمم وراح مذمم ووو الخ والصحابه يتضجرون من هذا الاسم ورسول الله يقول لهم دعوهم فانما يدعون مذمما وانا محمدا

ويقولون عنه المجنون والكاهن والساحر ووو وهو ثابت علي مبداه وثابت علي دينه ثم تحبسهم قريش في شعب ضيق ثلاث سنين

في شعب أبي طالب

ثم يموت عمه وزوجته في عام واحد ويسمي عام الحزن وكذلك يؤمر صلي الله عليه وآله وسلم ان يذهب للطائف ليدعوهم الي الاسلام وهو يسير علي رجليه مسافه بعيده علي امل ان يجد من يقف بجانبه ويؤمن برسالته لكن يجد رسول الله مالم يكن يتوقعه منهم فهذا اولهم يقول له :-

الم يجد الله من هو خير منك ليرسله ؟؟؟ وهذا الاخريقول له والله لو وجدتك متعلق باستار الكعبه تقول انك نبي ما صدقتك والاخر يقول له

انا لن اكلمك فانت اما ان تكون صادق فانت اكبر من ان اكلمك او انك كاذب فانت احقر من ان اكلمك ... ثم لم يلقي من الناس الا ايذاء وسخريه واستهزاء وتسليط السفهاء عليه والاطفال والنساء ليلقوه بالحجاره حتي تدمي قدماه الشريفتان ولم يكتفوا بذلك بل ارسلوا لقريش يعلموهم ان محمدا جاء ليستنصر بهم وكذلك ظلوا يضربوه حتى دميت قدماه وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجا في رأسه وآذوه أشد الأذى ثم يجلس الرسول ويدعوا بدعائه الشهير

" اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك ، أو ينزل بي سخطك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك "

ثم ياتي المدد من الله و ينزل جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال ينتظر امر رسول الله ليطبق عليهم الاخشبين لكن رسول الله يأبي ويقول له لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول لااله الا الله .... انظروا لروعه الكلمه فقد قال رسولنا الكريم عسي ... أو لعل ... وكلمه عسي تفيد الرجاء في شيء مستقبلي فهو يرتجي شيئا قد يحدث .

أو يقول اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون ...

ان ما كان بعد ثلاثة عشر سنة من الدعوة الى الله تعالى وما تخلل هذه السنين لدروس عظيمة للأمة لتتعلم منها كيف تتعامل مع كل حدث وكيف تصبر وكيف تجاهد وكيف تخطط وكيف تنفذ .

أمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا تتصرف من وراء عقلها ولا من غوغاء وثورة عاطفتها ولا من مبدأ

مصالح الفرد وعصبية القبيلة ومن جهوية الحزب وطائفية المذهب وعنصرية اللــون واللغة والقبيلة.....

العمل الخالص لله تعالى انما الاعمال بالنيات وانما لكل امريء ما نوى فمــن كانــت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصــيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه.

دروس من الهجرة..

للشهيد سيد قطب

إذا كنا نحتفل بيوم الهجرة فيجب أن نكون جديرين بالاحتفال بهذا اليوم، يجب ألا يكون احتفالنا بالهجرة النبوية ككل احتفالٍ بذكرى من الذكريات الأرضية أو بعملٍ من أعمال الناس، كما يجب أن يكون لهذا الاحتفال طابع خاص، وأن يكون لهذا الاجتماع جوٌّ خاص، وأن نُهيئ نحن أنفسنا لنكون جديرين بالاحتفال بهذه المناسبة الكريمة، ولن نكون جديرين بأن نحتفل بيوم الهجرة إلا حين نرتفع بأرواحنا، وحين نرتفع بأخلاقنا، وحين نرتفع بأعمالنا وقيمنا إلى هذا المستوى الشامخ الرفيع، مستوى الهجرة النبوية الشريفة.

الواقع الفعلي للسيرة

إنَّ سيرةَ الرسول- صلى الله عليه وسلم- وسيرة هذا الإسلام لا يجوز أن تكون تاريخًا يُتلى ولا أن تكون احتفالاتٍ تمضي، إنما يجب أن تكون حياةً تُعاد، وأن يكون واقعًا يُحقق.. إنما جاء الإسلام ليكون واقعًا حيًّا في تاريخ المسلمين، وإنما مضت هذه الأيام لتكون فيها إلى الأبد قدوةً وأسوةً لمَن يتبعون رسول الله- صلى الله عليه وسلم-

كيف نحتفل بالهجرة؟

يجب إذا حاولنا أن نحتفل بالهجرة أن نرتفع بأنفسنا إلى مستوى أيام الهجرة.. أن نرتفع بأرواحنا إلى مستوى أيام الهجرة.

الشهيد سيد قطب

فهذا الإسلام جاهزٌ وقديرٌ على أن يحقق ما حققه مرةً في تاريخ البشرية، إنه لم يجئ لفترةٍ ولم يجئ لمكان، لقد جاء للزمان كله.. وجاء للأرض كلها.. وجاء للبشرية كلها. فإذا شئنا نحن اليوم أن نحتفل بيومٍ من أيامه، فلا يجوز أن نقرب هذا الاحتفال إلا إذا أعددنا أنفسنا كما يُعد المؤمن نفسه للصلاة بالوضوء، وكما يتهيأ بروحه ليقف بين يدي الله عز وجل.. يجب أن نرتفع إلى إدراك المعاني الكبيرة الكامنة في هذا اليوم الكبير.

ومعاني هذا اليوم لا تحصيها ساعة، ولا تحصيها خطبة، ولا يحصيها كتاب، فهي كتاب مفتوح للبشرية منذ ١٤٠٠ عام، إنما نحاول أن نلخص شيئًا.. نحاول أن نُقلب صفحاتٍ قلائل من هذا الكتاب الضخم الذي لم تنته صفحاته على مدى ١٤٠٠ عام، ولن تنتهي صفحاته حتى يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾ (الكهف).

الصفحة الأولى: التجرد

الصفحة الأولى من صفحات هذا اليوم المجيد في تلك الكلمات الخالدة للنبي- صلى الله عليه وسلم- تلك الكلمات التي فاه بها لسان محمد- صلى الله عليه وسلم- لقريشٍ بعظمائها وساداتها.. "يا بن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا"، فجاء الرد الحاسم:"والله يا عمِّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

كان يريد عقيدةً تُنتشر وفكرةً تسود ومجتمعًا يتكون وإسلامًا يقوم على وجهِ الأرض يُعلم الناس ما لم يتعلموه قبل هذا الإسلام العظيم.

هذه هي الذكرى الأولى، وهذه هي الخطوة الأولى التي استصعدنا بها محمد- صلى الله عليه وسلم- في بدء خطواته.. فلنوجه إليها قلوبنا ونحن نحتفل بهذا اليوم.

وإن وجدنا أننا لا نستطيع أن نرتفع هذا الارتفاع، ولكن نتطلع إلى هذا الأفق ليدفعنا إليه.. إذا وجدنا في أرواحنا خفةً للتحقيق.. إذا وجدنا في أنفسنا زهدًا في مال.. وزهدًا في منصب.. وزهدًا في جاه؛ لأننا نريد أكثر من المال والجاه والمنصب، إذا أحسسنا في أنفسنا هذا الإحساس.. كنا جديرين أن نحتفل بيومٍ من أيام محمد صلى الله عليه وسلم.

واجبنا نحو أيام محمد صلى الله عليه وسلم

ومنذ اليوم يجب أن نستحضر في أنفسنا هذا الملحاظ فلا نجرؤ على الاحتفال بيومٍ من أيام محمد- صلى الله عليه وسلم- إلا أن نكون على استعداد في ذوات أنفسنا أن نتطلع إلى فعل محمد صلى الله عليه وسلم.. إن ذكريات محمد- صلى الله عليه وسلم- لا يجوز أن ترخص.. لا يجوز أن تصبح سلعةً في السوق.. لا يجوز أن تكون مجالاً لأن يحتفل بها كل مَن يحتفل قبل أن يُعد نفسه لهذا المستوى الرفيع، لهذا المستوى الكريم الذي أعدَّ محمد ﷺ نفسه له وهو يقول:"والله يا عمِّ، لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

حقيقة طريق الدعوة

مَن شاء أن يسلك طريق هذه الدعوة فليعرف أنه لا يأتي إلى المال وليتأكد أنه لا يؤدي إلى منصب، وليوطد نفسه أنه لا يؤدي إلى جاه في الأرض وإن كان يؤدي إلى جاه عند الله.

مَن شاء أن يسلك طريق هذه الدعوة فليعلم أن الوزارة قد تفوته، وأن الإمارةَ قد تفوته، وأن المال قد يفوته، وأن الجاه قد يفوته.. ويبقى له ما هو أكرم من هذا كله.. ويبقى له وجه ربك ذي الجلال والإكرام.

الصفحة الثانية: إعداد النفس للتضحية

معنى آخر من معاني الهجرة يجب أن نستحضره في أرواحنا.. يجب أن نُعد أنفسنا له.. هو ما قاله الله عز وجل وهو يخاطب رسوله- صلى الله عليه وسلم- في أول الدعوة: ؟يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)؟ (المزمل)، لا في كلماته ولا في عباراته، فالله عز وجل يقول ؟وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)؟ (القمر)، فألفاظ القرآن ميسورة وعباراته ميسورة، وهذا الثقل في القول ليس في ذات القول، ولكن في التبعة.. في المهمة.. في الواجب.. في المشقة التي يحملها هذا القول الثقيل.. ؟إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً؟.

إن الطريقَ شاقة، إن الطريقَ ليست مفروشةً بالزهور والورود، إن الطريق مليئةً بالأشواك.. لا.. بل إنها مفروشة بالأشلاء والجماجم، مزينةً بالدماء، غير مزينةٍ بالورودِ والرياحين.. إن الطريق شاق.. هذا هو المعنى الثاني الذي يجب أن نتذكره ونحن نتطلع ونحاول أن نرتفع إلى أفق الهجرة الكريمة.

إن سالكه لن يفوته المنصب وحده، ولن يفوته الجاه وحده، ولن تفوته السيادة وحدها في هذه الأرض، ولكن سيتحمل قولاً ثقيلاً، وسيتحمل جهدًا ثقيلاً، وسيجتاز طريقًا ثقيلاً.. فلنعد أنفسنا لما أعد محمد ﷺ نفسه له لنكون جديرين بأن نحتفل بيومِ هجرته صلى الله عليه وسلم.. ؟إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً؟.

عظمة الرسول ﷺ وحقيقة النصر

لقد كان نوح عليه السلام يملك أن يدعو على قومه فيهلكهم الله ليبدل الله الأرض قومًا غيرهم؛ لأن دعوته موقوتة لأنه جاء لقوم؛ لأنه جاء لدين، أما رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقد كان يعلم أن دعوته هي دعوة الأبد، وأن رسالته هي الرسالة الأخيرة، وأن السماء وقد تفتحت بنورها إلى الأرض لن تفتح بهذا النور إلى الأرض مرةً أخرى؛ لذلك لم يخترْ أن يدعو الله بالنصرِ فيرتاح في لحظته، إنما اختار طريق الجهاد؛ لأنه إن انتصر اليوم.. أن انتصر نصرًا يسيرًا.. إن انتصر نصرًا سهلاً، فمَن يُؤتي أمته ومَن يُؤتي الأجيالَ بعده هذا النصر السهل الرخيص.

إنَّ أمته يجب أن تُدرَّب.. يجب أن تُعد.. يجب أن تجد فيه قدوة.. يجب أن يكون لها قدوة في جهادٍ شاق طويل.. ؟أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)؟ (العنكبوت).

لا بد من فدية.. لا بد من بلاء .. لا بد من امتحان؛ لأن النصرَ الرخيص لا يبقى؛ لأنَّ النصرَ السهلَ لا يعيش؛ لأن الدعوة الهينة يتبناها كل ضعيف، أما الدعوة العفية الصعبة فلا يتبناها إلا الأقوياء ولا يقدر عليها إلا الأشداء.

لمَن النصر

؟أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)؟ (البقرة).

إنَّ نصرَ الله قريب، ولكن ممن احتملوا البأساء والضراء، ممن جاهدوا وبذلوا.. ممن لم يبقوا في طاقتهم قوة.. ممن احتملوا مشاق الطريق.

عندما يبذل الإنسان أقصى ما في طوقه، عندما يصل إلى نهاية الشوط، عندما يلقى بهمه كله إلى الله بعد أن لم يبقَ في طوقه ذرة عندئذٍ يتحقق وعد الله ؟أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ؟.

هذه هي الذكرى الثانية، هذا هو المعنى الثاني.. هذا هو المعنى الرفيع الذي يجب أن نُعد أنفسنا له ونحن نتطلع لكي نرتفع إلى ذلك الأفق السامي ونحن نحتفل بالهجرة الكريمة.

- ألقى الشهيد سيد قطب هذه الكلمة في أحد الاحتفالات بذكرى الهجرة

دروس وعبر تضيء الطريق للأمة

تمر بنا في هذه الأيام مناسبة دينية عظيمة ،ألا وهي الهجرة النبوية الشريفة ،ولا شك انها تمثل مرحلة هامة وخطيرة في حياة الدولة الإسلامية، والعقلاء دائما ما يغتنمون اى مناسبة ليتوقفوا فيها على أهم مواقفها ودروسها ،وذلك لأن الله لم يشرع أو يأمر بشي لينتهي بإنتهاء وقته ،فسبحانه وتعالي يسوق إلينا الأمور لنقف عندها ،ونتدبر في أسرارها ومعانيها، ولنستفيد من كل الجوانب العطرة في السيرة النبوية الشريفة ..

محيط : بدريه طه حسين

وباسترجاع المسلم لأحداث الهجرة يجد الكثير من الدروس والعبر التى تبرزها السيرة النبوية العطرة. ونحن عند احتفالنا بهذه المناسبة ،لانقف عند وقائعها وأحداثها التي تبدو أنها قد استهلكت وتكررت كثيراً ،وجميعنا يعرفها عن ظهر قلب ،ولكننا نستعرض هنا أهم الأسباب التى دفعت إلى الهجرة النبوية الشريفة ،ودروسها ،وأهم ما يمكن تطبيقه في حياتنا من أجل رفعة شأن امتنا الإسلامية .

أسباب الهجرة الشريفة

لاشك أن حدثا عظيم مثل الهجرة النبوية حين يكون تاريخاً للأمة أن هناك أمور جسام فرضت على النبى صلوات الله عليه القيام بها ، فقد جاءت الهجرة لتكون نقطة فارقة في حياة البشرية ،لتفرق بين الحق والباطل ، وتميز بين الخير والشر .. ولعل من أبرز الأسباب التى ادت لحدوث هجرة النبي من أحب بقاع الأرض إلى قلبه مكة المكرمة إلى المدينة المنورة :

١-شدة الاذى والاضطهاد الذي كان يتعرض له النبي صلى الله عليه وسلم.

فقد أوذي الرسول ايذاء شديدا لم يتعرض له نبي من الانبياء السابقين .. فقد تمادى ايذاء المشركون له لدرجة ينادونه بالمجنون كما قال الله تعالى عضنهم : وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون. كانوا يقولون عنه انه ساحر كذاب ، كما قال تعالى : "وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب" .

فقد كانوا لا ينظرون له الا نظرات كلها استحقار ، كما قال سبحانه :" وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون" ، ولعل من أكثر درجات الايذاء التى واجهت الرسول الكريم :هو ما قام به ابا لهب وهو عم النبي ﷺ من تحريض لوديه عتبة وعتيبة ان يطلقا ابنتي النبي ﷺ رقية وام كلثوم لما جاء بالدعوة وكان قد كتب كتابهما فقط .

وتتوالى سلسة ايذاء ابا لهب للرسول الكريم فعندما توفي عبد الله وهو الابن الثاني للنبي ﷺ استبشر ابو لهب وقال لقومه : ابشروا فان محمدا قد صار ابترا يعني ليس له ولد يحمل ذكره من بعده . فنزل قوله تعالى :" إن شانئك هو الأبتر"، فقد حرض زوجته ابي لهب وهي اخت ابي سفيان على ان تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ، ولذلك وصفها القران الكريم بانها حمالة الحطب .

ولعل من اشد انواع الايذاء التي تعرض لها النبي ﷺ : الحصار في شعب ابي طالب ثلاث سنوات حتى اكلوا اوراق الشجر فصارت مخرجاتهم وفضلاتهم مثل الدواب حتى ان سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه وجد في ليلة جلدة شاة فاخذها فوضعها على النار حتى تفحمت ثم اكلها وظل عليها ثلاث ليال لا ياكل شيئا .

ثم تاتي نهاية سلسة الايذاء عندما حاولوا قتل النبي ﷺ عدة مرات ، ففي يوم الخميس ٢٦ صفر سنة ١٤ من البعثة اجتمع سبعة من كبار كفار قريش في دار الندوة وجاءهم الشيطان في صورة شيخ يريد نصحهم ودار نقاش طويل فقال احدهم : نحرجه من بيننا وننفيه من بلادنا .

فقال الشيطان : لا والله ما هذا لكم براي الم تروا حسن حديثه وحلاوة كلامه والله لو فعلتم ذلك فسينزل على حي من العرب فيتبعوه فيسير بهم اليكم فيقاتلوكم .

فقال ابو البختري : احبسوه في الحديد واغلقوا عليه الباب حتى يموت . فقال الشيطان : لا والله ، لئن حبستموه ليخرجن من وراء الباب .

فقال ابو جهل : ارى ان ناخذ من كل قبيلة شابا جلدا قويا فنعطي كل فتى منهم سيفا صارما فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف

على حربكم فيرضوا منا بالدية . هذا عن السبب الاول ويعتبر هو السبب الرئيسي من اسباب الهجرة .

٢ قبول أهل المدينة الإسلام ودخولهم فيه :

فقد عرض الرسول صلى الله عليه وسلم، في موسم الحج سنة ١١ من البعثة ،واثناء خروجه صلى عليه وسلم مع ابى بكر الصديق وعلي بن ابي طالب الى منى فسمع اصوات رجال يتكلمون وكانوا ستة نفر من شباب المدينة وكانت تسمى يثرب ، فعرض النبي ﷺ الاسلام عليهم فاسلموا ، وحملوا الاسلام الى اهل المدينة حتى لم يبق بيت من بيوت الانصار الا وفيه ذكر لرسول الله ﷺ .

في موسم الحج سنة ١٢ جاء ١٢ رجلا وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الاولى . وارسل النبي ﷺ مصعب بن عمير معهم الى المدينة . في موسم الحج سنة ١٣ من البعثة جاء ٧٣ رجلا وامراتان وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية . وبذلك اصبح للاسلام قواعد وارضية صلبة يستند عليها في المدينة .

دروس وعبر للهجرة

لا احد ينكر أن لهذا الحدث العظيم دروس وعبر لابد ان يقف عندها كل مسلم ،ليتعلم منها ويتمعن في النظر اليها لتكون له نورا ونبرسا في حياتها ،ومما لاشك فيه انه من الصعب ان نحصر عدد الدروس التى نستمدها من الهجرة النبوية الشريفة ،ولكننا نعرض هنا اهم هذه العبر حتى تكون لنا نبرسا في حياتنا :

١- الاخذ بالاسباب والتوكل على الله :

ويتضح لنا هذا عندما وكل النبي ﷺ علي بن ابى طالب للنوم مكانه ،واصطحب أبي بكر معه؛ حيث لم يهاجرا إلى المدينة مع المسلمين، فعليّ رضي الله عنه بات في فراش النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه صحبه في الرحلة. بالاضافة إلى استعانته "ص" بعبدالله بن أريقط الليثي وكان خبيراً ماهراً بالطريق. ويتجلى كذلك في كتم أسرار مسيره إلا من لهم صلة ماسّة، ومع ذلك فلم يتوسع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم.

٢-اخلاص العمل لله الواحد الاحد:

ويتجلي هذا الدرس في قوله ﷺ حينما هم بالرحيل من مكة "إنك من أحب بلاد الله إلى قلبي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"، وهذا طبيعي فيها نشأ ﷺ وترعرع، وفيها نزل عليه ﷺ الوحي، ولكن رغم ذلك لم يستكين إلى حبها وفضل حب الله عز وجل ورضاه ودعا ربه" اللهم وقد أخرجتني من أحب البقاع إلي فأسكني في أحب البقاع إليك". وهذا درس بليغ.

٣-الثقة بالله في السراء والضراء :

ونرى ذلك حينما خرج ﷺ من مكة مكرهاً فلم يجذع، ولم يذل، ولم يفقد ثقته بربه، ولما نصره الله سبحانه وتعالى بالإسلام وظهور المسلمين لم يزده زهوا وغرورا ؛ فعيشته يوم أخرج من مكة كارهاً كعيشته يوم دخلها فاتحاً ظافراً، وعيشته يوم كان في مكة يلاقي الأذى من سفهاء الأحلام كعيشته يوم أطلت رايته البلاد العربية، وأطلت على ممالك قيصر ناحية تبوك.

٤- اليقين بأن العاقبة للتقوى وللمتقين:

فالذي ينظر في الهجرة بادئ الرأي يظن أن الدعوة إلى زوال واضمحلال. ولكن الهجرة في حقيقتها تعطي درساً واضحاً في أن العاقبة للتقوى وللمتقين. فالنبي ﷺ يعلّم بسيرته المجاهد في سبيل الله الحق أن يثبت في وجه أشياع الباطل، ولا يهن في دفاعهم وتقويم عوجهم، ولا يهوله أن تقبل الأيام عليهم، فيشتد بأسهم، ويجلبوا بخيلهم ورجالهم؛ فقد يكون للباطل جولة، ولأشياعه صولة، أما العاقبة فإنما هي للذين صبروا والذين هم مصلحون.

٥- ثبات أهل الإيمان في المواقف الحرجة:

ذلك في جواب النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه لمّا كان في الغار. وذلك لما قال أبو بكر: والله يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موقع قدمه لأبصرنا. فأجابه النبي ﷺ مطمئناً له: { ما ظنّك باثنين الله ثالثهما }.

فهذا مثل من أمثلة الصدق والثبات، والثقة بالله، والإتكال عليه عند الشدائد، واليقين بأن الله لن يتخلى عنه في تلك الساعات الحرجة، هذه حال أهل الإيمان، بخلاف أهل الكذب والنفاق؛ فهم سرعان ما يتهاونون عند المخاوف وينهارون عند الشدائد، ثم لا نجد لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً.

٦- أن من حفظ الله حفظه الله:

ويؤخذ هذا المعنى من حال النبي ﷺ لما ائتمر به زعماء قريش ليعتقلوه، أو يقتلوه، أو يخرجوه، فأنجاه الله منهم بعد أن حثا في وجوههم التراب، وخرج من بينهم سليماً معافى. وهذه سنة ماضية، فمن حفظ الله حفظه الله، وأعظم ما يحفظ به أن يحفظ في دينه، وهذا الحفظ شامل لحفظ البدن، وليس بالضرورة أن يعصم الإنسان؛ فلا يخلص إليه البتة؛ فقد يصاب لترفع درجاته، وتقال عثراته، ولكن الشأن كل الشأن في حفظ الدين والدعوة.

٧-ملازمة الصبر في جميع أعمالنا:

قد كان هيناً على الله عز وجل أن يصرف الأذى عن النبي ﷺ جملة، ولكنها سنة الإبتلاء يؤخذ بها النبي الأكرم؛ ليستبين صبره، ويعظم عند الله أجره، وليعلم دعاة الإصلاح كيف يقتحمون الشدائد، ويصبرون على ما يلاقون من الأذى صغيراً كان أم كبيراً.

٨- أن من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه:

فلما ترك المهاجرون ديارهم، وأهليهم، وأموالهم التي هي أحب شيء إليهم، لما تركوا ذلك كله لله، أعاضهم الله بأن فتح عليهم الدنيا، وملّكهم شرقها وغربها.

٩-تعظيم لدور المرأة في الاسلام :

ويتجلى ذلك من خلال الدور الذي قامت به عائشة وأختها أسماء رضي الله عنهما حيث كانتا نعم الناصر والمعين في أمر الهجرة؛ فلم يخذلا أباهما أبا بكر مع علمهما بخطر المغامرة، ولم يفشيا سرّ الرحلة لأحد، ولم يتوانيا في تجهيز الراحلة تجهيزاً كاملاً، إلى غير ذلك مما قامتا به.

١٠-تعظيم دور الشباب في نصرة الحق:

ويتجلى ذلك في الدور الذي قام به علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين نـــام فـــي فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة. ويتجلى من خلال ما قام به عبدالله بن أبي بكر؛ حيـــث كان يستمع أخبار قريش، ويزود بها النبي ﷺ وأبا بكر.

١١- حصول الأخوة وذوبان العصبيات:

ويتجلي ذلك عندما قام الرسول الكريم بالموخاءة بين الانصار والمهـــاجرين ةايثـــار الانصار تجاه المهاجرين والذي يتجل ذلك في ان كان الفرد من الانصار يقول لاخيه المهاجر ان لي زوجتين اطلاق واحدة وتتزوجها انت .

تطبيقات للهجرة الشريفة

بعد ان تعرفنا على أهم الاسباب التى ادت الى حدوث الهجرة والدروس التى اثمرت منها يأتى الحديث عن كيفية تطبيق دروسها في تطبيقات حياتنا من أجل بنـــاء أمـــة إسلامية عالية الشأن وتتمثل أهم تطبيقات الهجرة الشريفة في :

١- العمل على تنمية طاقات الشباب ودفعهم الى الامام واستغلال مابداخلهم من طاقة عظيمة تمكنهم من تغيير الوضع الحالي ، فقد قدم على بن طالب دورا عظـــيم فـــي الهجرة حيث نام رضي الله عنه في مكان الرسول الكريم، وهـــو يعلـــم ان قـــريش ستهوى عليه ولكنه لايمانه بعظيم عمله ثبت وتشجع وادى دوره على أحسن وجه.

٢_الرفع من شأن المراة وحثها على التقدم ،وعدم الاقل من شأنها في المجتمع فهـــي التى بامكانها ان تخرج لنا دعائم لبناء امة اسلامية قوية ،تعمل على رفع رايه الاسلام عالية مرفوعة ،ولا احد فينا يستنكر الدور الذي ادته اسماء ينـــت ابىبكـــر عنـــدما صمدت امام قادة قريش وابت ان تفشي سر رسول الله ،علاوة على ماقامت به اثنـــاء الرحلة العظيمة من حرصها على ان تقدم المؤن للرسول الكريم وتذهب له بالطعـــام والشراب .

٣_الالتحام والتعاون فيما بينا المسلمين ،والثبات امام الازمات ،والحرص الـــدائم ان يكون هدفنا واحد ،نسعى دائما من اجل الوصول اليه ،وان نتخلي عن روح العصبية

التى قد تؤدي بنا الى الانقسام ،ومن ثم الى الانهزام الذي لايجنـــي ثمـــاره الا نحـــن ،ولايخفى علينا ما كنا بين المهاجرين والانصار من تلاحم وايثار وهم ليسوا ابانا بلد واحد ،وانما قد جمعهم الاسلام ليوحد كلمتهم وهدفهم في الحياة الاوهو بنـــاء دولـــة اسلامية عاية الشأن.

٤_ان يتذكر شبابنا ان الصبر دايئما تكون نهايته سعيدة ، الا انـــه يجـــب ان يكـــون مصحوب بالتوكل على الله، والاخذ بالاسباب ،فعلى شبابنا ان يسعوا ويجتهـــدوا فـــي عملهم مع الصبر ،وليعلموا دايئما ان بعد العسر يسر .

٥_ان نضع ثقتنا في الله ،وان نكون على يقين تام بان الله سبحانه وتعالي ســـيخرجنا من حالنا هذا ،كما اخرج رسوله الكريم من ظلام الجاهلية الى نور الاسلام

نهاية يجب علينا ونحن نتعلم و نتابع هذه الدروس والاحداث ان الحب لرسول الله يبدأ من الاتباع والالتزام بكل ما جاء به الرسول وهذا التوجيه الرباني الواضـــح فـــي ان حب الله عز وجل يبدأ ويتحقق باتباع الرسول الكريم والنبي العظيم صلى الله عليـــه واله وسلم ،فعلينا ان نلتزم بما جاء به الرسول نصره له ،ومن اجل رفع شأن امتنا .

دروس وعبر مستخلصة من الهجرة النبوية.

ها هو ذا عام هجري يودعنا، وهي فرصة سانحة لنتدبر معاني هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ونتخذ منها دروساً وعبر لتكون نورًا يُستضاء به وهدى للسائرين.

من معاني الهجرة النبوية الشريفة:

رضي الله عن عمر بن الخطاب، فقد كان عبقريًّا مُلهمًا حين جعل الهجرةَ من مكةَ إلى المدينة مفتتحًا للتأريخ عند المسلمين، بكل ما تعنيه الهجرة من مغزى، حيث مثلت نقلةً هائلة لدعوة الإسلام من حالٍ تُحارَب فيه ويُطارَد رجالُها إلى دولةٍ راسخةٍ، وحقيقةٍ كبرى من حقائق العالم، يُقدِّم للبشرية نموذجًا غير مسبوقٍ لدولةِ الرحمةِ والهداية والانفتاح الإنساني واستشراف المثل الأعلى.

لقد كانت الهجرةُ تعبيرًا عن إيمانٍ عميقٍ بالفكرةِ يستعلي على جواذبِ الأرض والعشيرة والأموال، ينصهر فيه الفرد- وكل فرد هاجر كانت خلفه قصة بطولة وفداء- وتتمثله الأسرةُ المسلمة، وما نموذج أُسرتي أبي سلمة وأبي بكر الصديق منا ببعيد، ويقوم عليه مجتمعٌ إيماني توحَّد فيه المهاجرون والأنصار في إيثارٍ معجبٍ وتآخٍ فريد.. وتجلَّت في الهجرة- مع كل ذلك- معاني التخطيط الملزم الذي لا يترك شاردةً بغير نظر، والتوكل المطلق على الله تعالى الذي لا يركن إلى جهدٍ مبذولٍ وتدبيرٍ قويم، فلا حولَ ولا قوةَ- في الحقيقةِ الصحيحة- إلا بالله وحده.

بعض الدروس والعظات:**

١-إن المؤمن إذا كان واثقا من قوته لا يستخفي في عمله، بل يجاهر فيه، ولا يبالي بأعداء دعوته ما دام واثقا من التغلب عليهم، كما فعل عمر رضي الله عنه حين هاجر، وفي ذلك دليل أيضا على أن موقف القوة يرهب أعداء الله، ويلقي الجزع في نفوسهم، ولا شك أنهم لو أرادوا أن يجتمعوا على قتل عمر لاستطاعوا، ولكن موقف عمر الجريء ألقى الرعب في نفس كل واحد منهم، فخشي إن تعرض له أن تثكله أمه، وأهل الشر ضنينون [بخلاء] بحياتهم حريصون عليها.

٢-حين ييأس المبطلون من إيقاف دعوة الحق والإصلاح، وحين يفلت المؤمنون من أيديهم ويصبحون في منجى من عدوانهم، يلجئون آخر الأمر إلى قتل الداعية المصلح، ظنا منهم أنهم إن قتلوه تخلصوا منه، وقضوا على دعوته، وهذا هو تفكير الأشرار أعداء الإصلاح في كل عصر.

٣-إن الجندي الصادق المخلص لدعوة الإصلاح، يفدي قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة من بياته على فراش الرسول ﷺ تضحية بحياته في سبيل الإبقاء على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه انتقاما منه، لأنه سهل لرسول الله ﷺ النجاة، ولكن عليا رضي الله عنه لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول الله ﷺ نبي الأمة وقائد الدعوة.

٤-وفي إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع محاربتهم له وتصميمهم على قتله، دليل على أن أعداء الإصلاح يوقنون في قرارة نفوسهم باستقامة الداعية وأمانته ونزاهته، وأنه خير منهم سيرة، وأنقى سريرة، ولكن العماية واللجاجة والجمود على العادات والعقائد الضالة، هو الذي يحملهم على محاربته، ونصب الكيد له، والتآمر على قتله إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

٥-إن تفكير قائد الدعوة، أو رئيس الدولة، أو زعيم حركة الإصلاح في النجاة من تآمر المتربصين والمغتالين، وعمله لنجاح خطة النجاة ليستأنف حركته أشد قوة ومراسا في ميدان آخر، لا يعتبر جبنا ولا فرارا من الموت، ولا ضنا بالتضحية بالنفس والروح.

٦- في موقف عبد الله بن أبي بكر ما يثبت أثر الشباب في نجاح الدعوات، فهم عماد كل دعوة إصلاحية، وباندفاعهم للتضحية الفداء، تتقدم الدعوات سريعا نحو النصر والغلبة. ونحن نرى في المؤمنين السابقين إلى الإسلام كلهم شبابا، فرسول الله ﷺ كان عمره أربعين سنة عند البعثة، وأبو بكر رضي الله عنه كان أصغر منه بثلاث سنين، وعمر رضي الله عنه أصغر منهما، وعلي رضي الله عنه أصغر الجميع،

وعثمان رضي الله عنه كان أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان عبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، والأرقم بن أبي الأرقم، وسعيد بن زيد، وبلال بن رباح، وعمار بن ياسر، رضي الله عنهم، وغيرهم، كل هؤلاء كانوا شبابا، حملوا أعباء الدعوة على كواهلهم، فتحملوا في سبيلها التضحيات، واستعذبوا من أجلها العذاب والألم والموت، وبهؤلاء انتصر الإسلام، وعلى جهودهم وجهود إخوانهم قامت دولة الخلفاء الراشدين، وتمت الفتوحات الإسلامية الرائعة، وبفضلهم وصل إلينا الإسلام الذي حررنا الله به من الجهالة والضلالة والوثنية والكفر والفسوق.

٧- وفي موقف عائشة وأسماء رضي الله عنهما أثناء هجرة الرسول ﷺ ما يثبت حاجة الدعوات الإصلاحية إلى النساء، فهن أرق عاطفة، وأكثر اندفاعا، وأسمح نفسا، وأطيب قلبا، والمرأة إذا آمنت بشيء لم تبال بنشره والدعوة إليه بكل صعوبة، وعملت على إقناع زوجها وأخوتها وأبنائها به، ولجهاد المرأة في سبيل الإسلام في عهد الرسول ﷺ صفحات بيضاء مشرقة، تؤكد لنا اليوم أن حركات الإصلاح الإسلامي ستظل وئيدة الخطأ، قليلة الأثر في المجتمع حتى تشترك فيها المرأة، فتنشئ جيلا من الفتيات على الإيمان والخلق والعفة والطهارة، هؤلاء أقدر على نشر القيم التي يحتاج إليها مجتمعنا اليوم في أوساط النساء من الرجال، عدا أنهن سيكن زوجات وأمهات، وأن الفضل الكبير في تربية كبار الصحابة ثم التابعين من بعدهم يعود إلى نساء الإسلام اللاتي أنشأن هذه الأجيال على أخلاق الإسلام وآدابه، وحب الإسلام ورسوله، فكانت أكرم الأجيال التي عرفها التاريخ في علو الهمة، واستقامة السيرة، وصلاح الدين والدنيا.

٨- وفي عمى أبصار المشركين عن رؤية رسول الله وصاحبه في «غار ثور» وهم عنده مثل تخشع له القلوب من أمثلة العناية الإلهية برسله ودعاته وأحبابه، فما كان الله في رحمته لعباده ليسمح أن يقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين فيقضوا عليه وعلى دعوته وهو الذي أرسله رحمة للعالمين، وكذلك يعود الله عباده الدعاة المخلصين أن يلطف بهم في ساعات الشدة، وينقذهم من المآزق الحرجة، ويعمي عنهم - في كثير

من الأحيان- أبصار المتربصين لهم بالشر والغدر، وليس في نجاة الرسول وصاحبه بعد أن أحاط بهما المشركون في «غار ثور» إلا تصديق قول الله تبارك وتعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر:٥١] وقول الله تبارك وتعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج:٣٨].

٩- وفي خوف أبي بكر وهو في الغار من أن يراهما المشركون مثل لما يجب أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على حياته، فما كان أبو بكر عندئذ بالذي يخشى على نفسه من الموت، ولو كان كذلك، لما رافق الرسول ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين.

١٠- وفي جواب الرسول ﷺ لأبي بكر على قلقه « يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» مثل من أمثلة الصدق في الثقة بالله والاطمئنان إلى نصره، والاتكال عليه عند الشدائد، وهو دليل واضح على صدق الرسول ﷺ في دعوى النبوة، فهو في أشد المآزق حرجا ومع ذلك تبدو عليه أمارات الاطمئنان إلى أن الله الذي بعثه هدى ورحمة للناس لن يتخلى عنه في تلك الساعات، فهل مثل هذا الاطمئنان يصدر عن مدع للنبوة، منتحل صفة الرسالة؟ وفي مثل هذه الحالات يبدو الفرق واضحا بين دعاة الإصلاح وبين المدعين له والمنتحلين لاسمه، أولئك تفيض قلوبهم دائما وأبدا بالرضى عن الله، والثقة بنصره، وهؤلاء يتهاوون عند المخاوف، وينهارون عند الشدائد، ثم لا تجد لهم من دون الله وليا ولا نصيرا.

١١- ويبدو لنا من موقف سراقة حين أدرك الرسول ﷺ وعجزه عن الوصول إليه دليل على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانت قوائم فرسه تسيخ في الرمل وهي متجهة صوب الرسول، حتى إذا نزل عنها ووجهها شطر مكة نشطت من كبوتها، فإذا أراد أن يعيدها كرة في اتجاه الرسول ﷺ عادت إلى عجزها وكعّها

[ضعفها]، أفترى هذا يقع إلا لنبي مرسل مؤيد من الله بالنصر والعون؟ كلا، وهذا ما أدركه سراقة، فنادى الرسول بالأمان، وأدرك أن للرسول ﷺ من العناية الإلهية ما تعجز عن إدراكه قوى البشر، فرضي أن يخسر الجائزة ويفوز بالوعد.

١٢- وفي وعد الرسول ﷺ لسراقة بسواري كسرى معجزة أخرى، فالإنسان الذي يبدو هاربا من وجه قومه لا يؤمل في فتح الفرس والاستيلاء على كنوز كسرى، إلا أن يكون نبيا مرسلا، ولقد تحقق وعد الرسول ﷺ له، وطالب كسرى عمر بن الخطاب بإنفاذ وعد الرسول ﷺ له حين رأى سواري كسرى في الغنائم، فألبسهما عمر سراقة على ملأ من الصحابة، وقال: «الحمد لله الذي سلب كسرى سواريه وألبسهما سراقة بن جعشم الأعرابي» وهكذا تتوالى المعجزات في هذه الهجرة واحدة بعد أخرى ليزداد المؤمنون ويستيقن الذين أوتوا الكتاب من المترددين والجاحدين أنه رسول من رب العالمين.

١٣- كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب من أنصار ومهاجرين بقدوم رسول الله ﷺ ووصوله إليهم سالما فرحة أخرجت النساء من بيوتهن، وحملت الرجال على ترك أعمالهم، وكان موقف يهود المدينة موقف المشارك في الفرحة ظاهرا، والمتألم من منافسة الزعامة الجديدة باطنا، أما فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم، فلا عجب فيها وهو الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأما موقف اليهود فلا غرابة فيه وهم الذين عرفوا بالملق والنفاق للمجتمع الذي فقدوا السيطرة عليه، وبالغيظ والحقد الأسود ممن يسلبهم زعامتهم على الشعوب، ويحول بينهم وبين سلب أموالها باسم القروض، وسفك دمائها باسم النصح والمشورة، وما زال اليهود يحقدون على كل من يخلص الشعوب من سيطرتهم، وينتهون من الحقد إلى الدس والمؤامرات، ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا، ذلك ديدنهم، وتلك جبلتهم، وقد فعلوا مثل ذلك برسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة، برغم ما أمضاه بينه وبينهم على التعاون والتعايش بسلام ولكن اليهود قوم يشعلون نار الحروب دائما وأبدا، و{كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ} [المائدة:٦٤].

١٤- من وقائع الهجرة إلى المدينة تبين لنا أنه ﷺ ما أقام بمكان إلا كان أول ما يفعله بناء مسجد يجتمع فيه المؤمنون فقد أقام مسجد قباء حين أقام فيها أربعة أيام، وبنى مسجدا في منتصف الطريق بين قباء والمدينة لما أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي « وادي رانوناء». ولما وصل إلى المدينة، كان أول عمل عمله بناء مسجد فيها.

وهذا يدلنا على أهمية المسجد في الإسلام، وعبادات الإسلام كلها تطهير للنفس، وتزكية للأخلاق، وتقوية لأواصر التعاون بين المسلمين، وصلاة الجماعة والجمعة والعيدين، مظهر قوي من مظاهر اجتماع المسلمين، ووحدة كلمتهم، وأهدافهم، وتعاونهم على البر والتقوى، لا جرم أن كان للمسجد رسالة اجتماعية وروحية عظيمة الشأن في حياة المسلمين، فهو الذي يوحد صفوفهم، ويهذب نفوسهم، ويوقظ قلوبهم وعقولهم، ويحل مشاكلهم، وتظهر فيه قوتهم وتماسكهم.

ولقد أثبت تاريخ المسجد في الإسلام أن منه انطلقت جحافل الجيوش الإسلامية لغمر الأرض بهداية الله، ومنه انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم، وفيه ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت، وهل كان أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وخالد، وسعد، وأبو عبيدة وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامي إلا تلامذة المدرسة المحمدية التي كان مقرها المسجد النبوي.

وميزة أخرى للمسجد في الإسلام أنه تنبعث منه في كل أسبوع كلمة الحق مدوية مجلجلة على لسان خطيبه، في إنكار منكر أو أمر بمعروف، أو دعوة إلى خير أو إيقاظ من غفلة، أو دعوة إلى تجمع، أو احتجاج على ظالم، أو تحذير لطاغية.

١٥- في مؤخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار أقوى مظهر من مظاهر عدالة الإسلام الإنسانية الأخلاقية البناءة، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم، فجاءوا المدينة لا يملكون من حطام الدنيا شيئا، والأنصار قوم أغنياء بزرعهم وأموالهم وصناعتهم، فليحمل الأخ أخاه، وليقتسم معه سراء الحياة

وضراءها، ولينزله في بيته مادام فيه متسع لهما، وليعطه نصف ماله ما دام غنيا عنه، موفرا له، فأية عدالة اجتماعية في الدنيا تعدل هذه الأخوة؟.

إن الذين ينكرون أن يكون الإسلام عدالة اجتماعية، قوم لا يريدون أن يبهر نور الإسلام أبصار الناس ويستولي على قلوبهم، أو قوم جامدون يكرهون كل لفظ جديد ولو أحبه الناس وكان في الإسلام مدلوله، وإلا فكيف تنكر العدالة الاجتماعية في الإسلام وفي تاريخه هذه المؤاخاة الفذة في التاريخ، وهي التي عقدها صاحب الشريعة محمد ﷺ بنفسه، وطبقها بإشرافه، وأقام على أساسها أول مجتمع ينشؤه، وأول دولة يبنيها؟

سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم..

١٦- وفي الكتاب الذي عقد فيه الرسول الأخوة بين المهاجرين والأنصار، والتعاون بين المسلمين وغيرهم جملة من الأدلة التي لا تردُّ على أن أساس الدولة الإسلامية قائم على العدالة الاجتماعية، وأن أساس العلائق بين المسلمين وغيرهم هو السلم ما سالموا، وأن مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل لخير الناس، ودفع أذى الأشرار عن المجتمع، هو أبرز الشعارات التي تنادي بها دولة الإسلام، وبذلك تكون الدولة الإسلامية أينما قامت، وفي أي عصر نشأت قائمة على أقوم المبادئ وأعدلها، وهي تنطبق اليوم على أكرم المبادئ التي تقوم عليها الدول، وتعيش في ظلها الشعوب، وإن العمل في عصرنا هذا لإقامة دولة في مجتمعنا الإسلامي تركز قواعدها على مبادئ الإسلام عمل يتفق مع تطور الفكر الإنساني في مفهوم الدولة، عدا أنه يحقق للمسلمين بناء مجتمع من أقوى المجتمعات وأكملها وأسعدها وأرقاها.

وأياً ما كان فإن من مصلحة كل مسلم أن تبنى الدولة على أساس الإسلام، وفي ترك ذلك خرابنا ودمارنا، والإسلام لا يؤذي غير المسلمين في الوطن الإسلامي، ولا يضطهد عقائدهم، ولا ينتقص من حقوقهم، ففيم الخوف من إلزام الدول في البلاد الإسلامية بتنفيذ شرائع الإسلام، وإقامة أحكامه وهي كلها عدل وحق وقوة وإخاء وتكافل اجتماعي شامل على أساس من الإخاء والحب والتعاون الكريم؟ إننا لن نخلص

من الاستعمار، إلا بالمناداة بالإسلام، وفي سبيل ذلك فليعمل العاملون {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [الأعراف: ٩٦] {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣] {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا }[الطلاق: ٢] {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}[الطلاق: ٤] {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْعَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}[الطلاق: ٥].

بمناسبة ذكرى الهجرة النبوية ورأس السنة الهجرية ١٤٢٦

نشرت في (١٠-٠٢-٢٠٠٥)

فهلاّ جعلنا من هجرتنا في سبيل الله منطلقاً لمرحلةٍ جديدة، تستوعبُ دروسَ الهجرة الأولى وعِبَرَها، نخلصُ النية لله عز وجل، ونبذلُ قُصارى جهدنا للأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، مقتدين بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الإعداد والتخطيط واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة والجهد، مع صدق التوكّل على الله عز وجل، صابرين، محتسبين ما أصابنا ويصيبُنا من شدّةٍ وبلاءٍ عند الله عز وجل، واثقين بنصره،

منالمراقب العام للإخوان المسلمين في سورية، إلى إخوته وأخواته أبناء الجماعة وأنصارها وأصدقائها.. داخل البلد الحبيب وخارجه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وكلّ

عامٍ وأنتم بخير، وأسأل الله عز وجل أن يعيد علينا ذكرى الهجرة النبوية، وقد فرّج عن أمتنا همومَها، وأذهب عنها أحزانها، وأعادها سيرتها الأولى، سيرةَ العزّ والمجد والفخار.. إنه سميع مجيب.

أما بعد أيها الإخوة الأحبة والأخوات: فإني أحمد الله إليكم، وأصلي وأسلم على سيدنا وقدوتنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه، وأوصيكم ونفسي بتقوى الله عزّ وجلّ في السرّ والعلن، فإنها خيرُ الزاد، كما أذكّركم ونفسي بما تواصينا عليه في الرسائل السابقة، من مجاهدة النفس للارتقاء بالمستوى الروحيّ، وتعميق الوحدة القلبية بين الإخوة، والتحقّق بأركان البيعة، والقيام بواجب الدعوة إلى الله عزّ وجلّ بالحكمة والموعظة الحسنة، والتعاون والتكافل في مواجهة التحدّيات المالية، والعمل الجادّ الدؤوب للنهوض بجماعتنا، والقيام بواجباتنا تجاه وطننا وأمتنا..

أيها الإخوة الأحبة والأخوات: إن سيرةَ المصطفى صلى الله عليه وسلم، مدرسةٌ للدعاة، فالله عز وجل يقول: "لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو

الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً"، ويقول أيضاً: "قل إن كنتم تحبــون الله فــاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم". ولقد كان أصحاب رســول الله ﷺ يتدارسون سيرته، كما يتدارسون السورة من القرآن، ذلك أن هذه السيرة الشريفة، هي التطبيقُ العمليّ للقرآن، والتجسيدُ الحيّ لرسالة الإسلام، ولقد أخبرت السيدة عائشــة رضي الله عنها عندما سُئِلَتْ عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: "كــان خلقُه القرآن".

أيها الإخوة الأحبة والأخوات:

إن ذكرى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، مناسبةٌ عظيمة، حريّ بنا أن نستوعبَ دروسَها ونحن نعيش مرحلة الهجرة ونواجه تحدّياتها، وما أكثر دروسَ الهجرة، وما أعظم العبرَ المستخلصة منها!. أذكرُ منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ – الصبر على الشدّة والبلاء في سبيل

الله: فلقد لاقى سيدنا محمد ﷺ وأصحابه في مكة المكرمة، من الشــدّة والأذى وهــم يبلّغون دعوة الله، ما يصعب على البشر احتمالُه، مما اضطرّ الرسول ﷺ للتوجه إلى الطائف لالتماس النصرة، ثم عاد إلى مكة في جوار (المطعِم بن عديّ)، كما اضــطرّ أصحابه للهجرة إلى الحبشة أولاً، ثم إلى المدينة بعــد ذلــك، ثــم أُذِنَ للرســول ﷺ بالهجرة إلى المدينة.

ثم إن الهجرةَ نفسَها نوعٌ من الابتلاء، فالله عز

وجل يقول: "ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسَكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلــوه إلا قليلٌ منهم.." والرسول ﷺ يخاطب مكة فيقول: "والله إنك لأحبّ بلاد الله إليّ، ولــولا أنّ أهلكِ أخرجوني ما خرجت".

لقد كان في صبر

رسول الله ﷺ وأصحابه، على ما لا قِبَلَ له من الأذى في مكة، ثم في اضطرارهم إلــى الهجرة إلى الحبشة والمدينة، دروساً رائعةً ما أحوجنا إلــى اســتيعابها ونحــن فــي هجرتنا، لتكون هذه الهجرة مرحلةً جديدةً من مراحل العمل في ســبيل الله والــدعوة

إليه، بدلاً من أن تكون مدعاةً للإحباط واليأس، شريطةَ أن نستحضرَ دائماً الإخلاصَ لله عز وجل في هذه الهجرة، متذكّرين قولَ الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكلّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله، فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتُه لدنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه".

٢ – الإعداد الجيد والتخطيط المحكم والأخذ

بالأسباب: إن من يقرأ قصة هجرة النبي ﷺ مع صاحبه الصدّيق، لينبهرُ من حسن الإعداد وإحكام الخطة، والأخذ بجميع الأسباب المادية التي يمكن أن يهتديَ إليها العقل البشريّ، كلّ ذلك مع أن الرسول ﷺ مؤيَّدٌ بالوحي، وأن الله عز وجل قادرٌ على أن ينقلَه وأصحابَه إلى المدينة دون أيّ عناء، ولكنه التشريعُ للأمة، والمثلُ للدعاة. ولنستعرضْ معاً بعضَ مظاهر هذا الإعداد وذلك التخطيط:

إعدادُ الراحلتين، وتعهّدهما بالرعاية أربعة أشهر، ثم تجهيزهما على أحسن وجه.

الاستعانةُ بأهل الخبرة والاختصاص، واستئجارُ خبيرٍ بالطرق وهو على الشرك (عبد الله بن أُرَيْقِط) .

التزوّد بالمال والطعام، حيث كانت أسماءُ بنت أبي بكرٍ تحمل إليهما الطعام كلّ مساء، وكان عامرُ بن فهيرة يأتيهما باللبن في الليل، وكان أبو بكرٍ الصدّيق قد احتمل معه ماله كلّه (ستة آلاف درهم) .

الاحتياطُ الأمنيّ المتمثّل في كتمانِ أمر الهجرة، والتمويهِ على الأعداء، وتحسّسِ أخبارهم، فلم يعلمْ بأمر الهجرة إلا المجموعةُ الصغيرةُ التي كان لها دورٌ في التنفيذ، وبقي عليٌ كرّم الله وجهه لينامَ في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدّثرَ بلحافه، كذلك فقد كان التوجّه إلى الجنوب باتجاه اليمن، بدلاً من الوجهة الحقيقية إلى الشمال باتجاه المدينة، ثم التربّصُ في الغار ثلاثة أيام، ريثما يخفّ الطلب ويهدأ البحث، وكذلك إعفاءُ آثار الأقدام حتى لا يستدلّ المشركون على الجهة والمكان..

٣ – التوكّل على الله والثقة المطلقة به

بعد الأخذ بالأسباب: فالقلب لا ينبغي أن يتعلّق بالأسباب المادية، بل يبقى متعلّقاً بـــالله عز وجل وحدَه، مسبّبِ الأسباب، القادرِ على كلّ شيء، والذي بيده ملكوتُ كلّ شيء.
ولنستمع إلى هذا الحوار المعبّر:
يا رسولَ الله!. لو نظر أحدُهم إلى موطئ قدمه لأبصرَنا!." – "يا أبا بكر!. ما ظنّـــك باثنين الله ثالثهما؟."
ثقةٌ بالله مطلقة، وتوكّلٌ على الله حقّ ، مـــع حســـن الإعـــداد والتخطـــيط والأخـــذ بالأسباب.. فكانت العنايةُ الإلهية، وكان الحفظُ والتسديد، ثمرةً عاجلةً لذلك كله.
٤ – محبّة الصدّيق للرسول صلى الله عليه
وسلم وافتداؤه بنفسه: نلمسُها في رحلة الهجرة بأروع صورها، لنستمعْ إلى أبي بكـــرٍ رضي الله عنه وهو يقول: "والله لا تدخلْه (الغار) حتى أدخلَه قبلك، فإن كان به شيءٌ أصابني دونك.." وعندما بقي ثقبان في الغار لم يتمكّنْ من سدّهما ألقمَهما رجليه، ثـــم نام الرسول ﷺ في حِجْره، فلُدِغ أبو بكرٍ في رجله، لكنه لم يتحركْ مخافةَ أن ينتبـــهَ الرسول ﷺ من نومه، حتى سقطت دموعُه على وجه رســـول الله صـــلى الله عليـــه وسلم..
وفي الطريق إلى المدينة، كان الصدّيقُ رضي الله عنه يمشي ساعةً بين يدَي الرسول صلى الله عليه وسلم، وساعةً خلفَه، ففطن إلى ذلك الرسولُ صلى الله عليـــه وســـلم، وسأله فأجاب: "يا رسول الله!. أذكرُ الطلبَ فأمشي خلفَك، وأذكرُ الرفد فأمشـــي بـــين يديك"، فقال الرسولُ صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر!. لو كان شـــيءٌ لأحببـــتَ أن يكون بك دوني؟" قال: "نعم، إن قُتِلتُ فإنما أنا رجلٌ واحد، وإن قُتِلـــتَ أنـــت هلكـــت الأمة!."
٥ – دور المرأة المسلمة والشباب:
إن المهماتِ التي كانت تؤدّيها أسماءُ بنتُ أبي بكر، وعائشةُ رضي الله عنهما، لتؤكّـــدُ أهميةَ الدور الذي يمكن أن تقومَ به المرأة في العمل الإسلامي إلى جانب الرجل. كما أن المهمةَ التي كان يؤدّيها عبدُ الله بن أبي بكر، من تسقّط أخبار قـــريش فـــي مكـــة

نهاراً، ونقلها إلى الرسول ﷺ وصاحبه في المساء، لتؤكّدُ دورَ الشباب، وأهميةَ الاستفادة من طاقاتهم الفاعلة.

٦ – الأخوّة بين المهاجرين والأنصار:

هذه الأخوّة التي ضربت أروع الأمثلة في المحبة والبذل والإيثار، جديرٌ أن تكون مثلاً يُحتذَى للأخوّة الحقيقية في الله.

أيها الإخوة الأحبة والأخوات:

لقد كانت هجرةُ الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة، بدايةً لمرحلةٍ جديدة، انتصرت فيها دعوة الله، بعد مرحلةٍ قاسيةٍ من المعاناة والصبر على البلاء، والأخذ بجميع الأسباب الممكنة، وحسن الإعداد والتخطيط، والتوكّل على الله عز وجل، والثقة المطلقة به، والتفاني بمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم، والتأسّي به، والاستفادة من كلّ الطاقات، والأخوّة الحقيقية التي ربطت بين قلوب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضربوا فيها أروع الأمثلة.

فهلاّ جعلنا من هجرتنا في سبيل الله منطلقاً لمرحلةٍ جديدة، تستوعبُ دروسَ الهجرة الأولى وعِبَرَها، نخلصُ النية لله عز وجل، ونبذلُ قُصارى جهدنا للأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، مقتدين بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الإعداد والتخطيط واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة والجهد، مع صدق التوكّل على الله عز وجل، صابرين، محتسبين ما أصابنا ويصيبُنا من شدّةٍ وبلاءٍ عند الله عز وجل، واثقين بنصره، مؤكّدين محبتَنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بحسن اتّباعه، والاقتداء به، والعمل بهديه، مستفيدين من طاقات إخواننا وأخواتنا، متحققين بمقتضيات أخوّتنا، ووحدة قلوبنا، واجتماع كلمتنا، متمثّلين في ذلك كلّه قولَ الله عز وجلّ: "الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتّقوا أجرٌ عظيم، الذين قال لهم الناسُ: إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ، لم يمسسهم سوء،

واتّبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. إنما ذلكم الشيطان يخوّف أوليـــاءَه، فـــلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمني"ن.

وإلى أن نلتقيَ ثانيةً في رسالةٍ قادمة، أستودعُكم الله أيها الأحبة، وكلّ عامٍ وأنتم بخير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. والله أكبر ولله الحمد.

الأول من محرم الحرام ١٤٢٦ الموافق للعاشر من شباط ٢٠٠٥

أخوكم : أبو أنس

ذكرى الهجرة النبوية

ذ.المصطفى سنكي ...

قيمة الهجرة النبوية:

كانت الهجرة النبوية من مكة إلى الهجرة حدثا محوريا في تاريخ الدعوة الإسلامية، وستبقى كذلك لما تحمله من دلالات في حياة المسلمين أفرادا وجماعة.

لقد فتحت الهجرة –أستغفر الله تعالى– بل فتح الحق سبحانه بها آفاقا واسعة ومستقبلا رحبا لدعوته لما انسدت السبل والطرق برفض قريش الاستجابة والانخراط في مشروع الإسلام، وفي هذا تنبيه للمسلمين اليوم الذين يتقاعسون ويترددون في نصرة دينه فيأتي سبحانه بمن يحبب لهم الإيمان وينصر بهم دعوته: "يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المومنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم" (المائدة: ٥٦).

لقد جاءت الهجرة النبوية ملأى بالعبر والدروس للعاملين في حقل الدعوة سواء في مجال التخطيط والأخذ بالأسباب والمناورة، أو على مستوى توزيع المهام وإشراك كل من يفيد في إنجاح المشروع، أو سواء على مستوى توظيف الإمكانيات المتاحة، أو على مستوى الاستعانة بذوي المروءات والكفاءات، ومع هذا وقبله وأثناءه اليقين في نصر الله تعالى لدعوته وحسن الظن به في أحرج الظروف وأخطرها... هذه وغيرها الفوائد والعبر التي تحملها الهجرة والتي يمكن أن تفيد المسلمين اليوم أفرادا وجماعة، سلوكا إلى الله تعالى ونشرا لدعوة الإسلام وتدافعا مع قوى الباطل التي لا تقل مكرا عما كان عليه العدوان القرشي ظاهرا ووراءه التآمر اليهودي باطنا.

دلالات الهجرة:

ولكن ما هي دلالات الهجرة في حياة كل مسلم؟ وكيف تكون الهجرة بهذه الدلالات باعثا على العمل اجتهادا في طاعة الله تعالى؟

الهجرة باقية مستمرة لا تنقطع حتى قيام الساعة، كما حديث مسلم وأبي داود يقول صلى الله عليه وسلم: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى

تطلع الشمس من مغربها". الهجرة قلب لدولة عادات النفس؛ الهجرة إذن سلوك مستمر متجدد في حياة المسلم، وفرار إلى الله تعالى بالمسارعة والتسابق إلى الخير وكل عمل صالح يجلب مرضاته سبحانه؛ الهجرة هروب مما يغضبه وينزل مقته، "والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" كما في حديث البخاري.

المهاجر من وفق -بتوفيق منه سبحانه- لهجر عاداته وترك مألوفاته مأكلا ومشربا وملبسا وقولا وسلوكا بنية التقرب إليه عز سلطانه، وطوع نفسه لتحب محاب الله ورسوله، حتى يكون هواه تبعا لما جاء به رسول الله ﷺ كما في الحديث، وخرج من سلطان شهواته:

١. المهاجر من هجر لذة النوم وتجافى جنبه عن وثيرالفراش ودفئه لما سمع -أو قبل أن يسمع بسويعة- نداء الفلاح: "الصلاة خير من النوم".

٢. المهاجر من هجر الإسراف في الأكل والشرب ليبقى نشيط القلب قبل البدن على الطاعة وعمل الخيرلما بلغه الزجر النبوي: "حسبك لقيمات يقمن صلبك".

٣. المهاجر من هجر الغفلة والغافلين وانتظم في سلك الراجين وجهه سبحانه لما وقع في سمع قلبه نداء رب العالمين يأمره أن يصبر نفسه مع الذاكرين الله بالغدو والعشي، وينهاه عن صحبة المنفرط أمرهم المشتت شملهم في سورة الكهف: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وكان أمره فرطا" (٢٨).

٤. المهاجر من هجر النفاق وأهله، لما دعاه ربه ليكون مع الصادقين ويحبهم ويعمل عملهم استجابة لأمره تعالى في سورة التوبة: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين" (١٢٠).

٥. المهاجر من هجر سيء الأخلاق وفظاظة الطبع وغلظة القلب في التعامل مع الزوج والأولاد والجيران والناس أجمعين لما علم أن المؤمن ينال بحسن الخلق عظيم درجات الآخرة كما أخبر بذلك الصادق الأمين: "إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة" (الطبراني).

٦. المهاجر من هجر الدنيا وإغراءها وتحرر من تأثيرها، وابتغى بها وجه الله تعالى لما قرأ التقريع القرآني في سورة لقمان يذم الدنيا وغوايتها، ويحذر من فتنتها: "فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور".(٣٢)

٧. المهاجر من هجر عادة الكسل وأرقه واقع جهل المسلمين لدينهم وقرآنهم فعقد العزم على حفظ كلام ربه وتعليمه لغيره، لما سمع ثناء النبي صلى الله عليه وسلم:"خيركم من تعلم القرآن وعلمه".(رواه الشيخان وأصحاب السنن وغيرهم).

٨. المهاجر من هجر البطالة وشمر على ساعده يعمل ويعلم الناس أسباب الكسب الحلال صونا لماء وجه المؤمن وعزة الأمة لما بلغه حب الله تعالى للعامل كما في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "إن الله يحب العبد المحترف". (رواه الطبراني والبيهقي).

٩. المهاجر من تهمم بحال المسلمين وواقع القصعة تتداعى عليهم الأمم للنيل من كبريائهم قبل ثرواتهم المادية فسار فيهم بالحسنى والكلمة الطيبة تأليفا للقلوب وجمعا لما انفرط من عقد الأمة، وانبرى يرفع يده في جوف الليل وفي كل سجود يرفع شكوى المسلمين إلى الباري جل وعلا ليكشف الغمة ويقرب الشقة وينصر دينه وعباده، حتى لا يرد عليه انتسابه للمسلمين لأنه لم يهتم بأمرهم، وفي الحديث: "من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم".

١٠. المهاجرمن أخلص القصد واكتسب الخبرة والمهارة التي تؤهل المسلمين لمستقبل التمكين في الأرض أخذا بالأسباب التي أمروا بها في سورة الأنفال: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم."(٦١)

هذه بعض منارات حقيقة هجرتنا لله ولرسوله في زماننا، بها نسلك طريق السابقين عسى أن ننتظم في سربهم ونكون ممن اتبعهم بإحسان، يقول تبارك وتعالى في سورة التوبة: "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصاروالذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهارخالدين فيها أبدا، ذلك الفوز العظيم"(١٠١)، بشرط واحد هو تصحيح النية وإخلاص القصد كما في الحديث

المفتاح: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى.." فلنحرص على أن تكــون الهجرة إلى الله تعالى لا لدنيا نصيبها وكل ما دونه سبحانه فهو دنيا

ذكرى الهجرة

أنورٌ تجلى في فؤادك مزهرا ؟ أم الروح تسمو في علاء تنورا
و هل هذه الأطياف مرت بناظري شعاعًا مضيئًا ؟ أم تُراها تذكُّرا؟
تذكرت فجر النور هجرة أحمدٍ فهاج لدي الشوق نبعًا تفجّرا
فصرت أناجي مهبط الوحي هائمًا وطيف الرسول شمته متنوِّرًا
أغار حراء كيف أرقى إلى الذرا ؟ أم الأنور الميمون يدنو تحدُّرًا؟
أغار حراء قد شهدت رسالة كضوء صباحٍ عاد أبلج نيرا
فصارت رمال (اللات) تغلي حميةً وذا (هبلٌ) ، في النور قد صار مُنكَرا
وقد عَمِد الأصنام للنور في الضحى أرادوا له وأدًا طريا منضرًا
تعالوا لظهر الغار والغار ممسك بأنفاسه الحرى وقد كان كبّرا
فهذا هو الصديق تهمي شؤونه عليك رسولَ الله لهفانَ أن تُترى
وإني لفرد .أنت أمة دعوة سلمت وأضحى كوكب الحق مزهرا
وضاقت قريش فالزمان معتب فنادت ببطحاء الحطيم تجبُّرا
ألا من يهادينا برأس محمد ؟ فكل كميٍّ قد غدا متنمرِّا
وكان بتلك البيد سيف (سراقة) يضيء الضياء يمنح الموت أحمرا
ويهمس في أذن الزمان: ألا اكتمنْ فإني أريد النوق فردًا مُنكَّرا
أرود الفيافي سوف أقريه حده ظفرت فذاك الركب يمشي تعذُّرا
وهذا جوادي في العتاق مقدمٌ كان به بركان طَوْدٍ تفجَّرا
بعرف كنسج الدرع ضافٍ محجلٌ أغُرٌ تراهُ تحسب الليل مسفرا
وقد بز دهم الخيل أيْدًا بمتنه كما بز شقر الجرد سبقًا مضمرًا
هَبوبٌ كعاصفة الزئير إذا عدا سبوح كومض البرق لاح مع السُّري
كريمة من أبغي بسيفي قطافها فهيا جوادي كي أنال وأظفرا
وعاد الفؤاد الصخر نبعًا وروضة به الشوك أضحى هدب زهر تنورا

ويمشي الوجود في ركاب محمد على مَهَل خطوًا وئيدًا مبصرًا
وهاجرت في الأملاك تسمو إلى السنا وفوق الوجود قد سموت منورا
ولما تهادى الركب تلقاء " طيبةٍ " فقلب وجودي ظل يهمي تأثرا
رسول طريد أن حباهم نفوسهم تسامى بهم حبًا فأجلَوه مُجبرا
دعوت فلم تيأس يقينك راسخ وعلمتنا أن الرسالة في الذرا
وعلمتنا أن الظلام إذا طغى فإن له من ومضة الحق مزجرا
وحطمت أصنام الرجال مؤزرا وحطمت أصنام الحجارة في الورى
وحررت في (الإنسان) جوهر ذاته نشرت سلامًا فالوجود تنورا
وقد أدرك (الإنسان) معنى وجوده وليل الدياجي عاد لألاء مقمرا
يندي الندى البسامَ نورُ صفاته عفوت كريمًا حين عدت مظفرا
ظلالٌ مندةٌ وأيكٌ بروضهِ ونبعٌ بفياض المحبة قد جرى
ومن حول هذا الروض بيداءُ تُلتظى فكل دعيٍّ قام يهذي مخدّرا
أيا ابن " الحُقَيق " تزعم السلم ضِلةً وخترك في " الأحزاب " كان مسعرا
ومن خلفك الأحفادُ تُصلي بسمهم شعوبٌ صحت فالليل ولّى وأدبرا
وأصنامُ هذا الشرق زال قناعهم فوجههمُ في النور يبدو مزوَّرا
وإني بإحيائي لهجرة أحمدٍ أليس على الأصنام أن تتكسرا؟

رجال الهجرة النبوية

تمهيد

السيرة لغة هي الطريقة والهيأة المعتادة التي يكون عليها الإنسان وغيره، والسيرة النبوية مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة، وهي تبحث في حياة الرسول ﷺ منذ مولده حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وفي حياة صحابته الكرام الذين ضحوا في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض، وتبحث أيضا في الظروف الاجتماعية والسياسية التي انتشر فيها الدين الإسلامي، الذي ابتدأ بكلمة "اقرأ" في غار حراء، إلى أن دانت الجزيرة العربية به ودخل الناس في دين الله أفواجا.

فعندما ندرس السيرة النبوية المطهرة، نكون بصدد دراسة سيرة خير نبي اصطفاه الله ، وندرس سيرة خير أمة أخرجت للناس، وندرس سيرة خير رسالة أنزلت للناس، ودراستها قبل كل شيء عبادة: يقول تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) " الأحزاب ٢١" ، فالأمة الإسلامية مأمورة بالاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولن تتمكن من التأسي به ما لم تفقه سيرته وتدرسها وتتعرف عليها.

وقد اخترت في بحثي هذا المتواضع موضوع الهجرة النبوية ورجالاتها لما لهذا الحدث العظيم من أهمية في التاريخ الإسلامي، حيث سأحاول ذكر الأحداث الرئيسية التي سجلها هذا الحدث العظيم، مع التركيز على سير بعض الرجال الذين أعطوا الدليل والبرهان على صدق نصرتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، عبرة لنا ولأجيالنا المستقبلية، عسى أن تتيقظ هممنا وتتبعث عزائمنا متأسية بحياة هؤلاء الرجال، الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم. والله نسأل أن يجعلنا على نهجهم القويم، وأن يحشرنا في زمرتهم غدا يوم لقاء الله سبحانه وتعالى.

الهجرة النبوية

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم يقول: "من يؤويني، من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي،

وله الجنة" فلم يجد أحدا يؤويه ولا ينصره... حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه، وذو رحمه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمضي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه. فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرؤه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلان حتى قدموا عليه الموسم، فواعدناه العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل أو رجلين حتى توافينا، فقلنا يا رسول الله، علام نبايعك قال: "تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم، مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة"، فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم فقال: "رويدا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل، إلا ونحن نعلم أنه لرسول الله، وان إخراجه اليوم منا وأن العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة، ولا نسلبها أبدا، قال فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة".

من خلال هذه الرواية، يتضح أن الدعوة بمكة وصلت إلى الطريق المسدود، فقد أصبح المسلمون يتعرضون إلى كل أنواع العذاب و الحصار والاضطهاد النفسي والبدني، خصوصا بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وأبي طالب عم النبي ﷺ الذي كانت تهابه قريش. فأخذ يعرض ﷺ نفسه على القبائل، إلى أن استجاب أهل يثرب، وأبدوا استعدادهم لنصرته في السراء والضراء.

رجالات الهجرة النبوية

الرجل هنا بالمفهوم القرآني، يدخل فيه الذكر والأنثى، إذا تحققت فيهم الصفات التي أرادها الله لهم: "رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة"، وذكرتها الآية هنا بالجمع كناية على أن الهجرة ساهم فيها كثير من المسلمين، منهم من دونتهم كتب السيرة ، ومنهم من لم يذكروا.

١- أبو بكر الصديق رضي الله علنه:

كان هذا الصحابي الجليل من الذين سبقوا في إعلان إسلامهم، وكان لا يفارق رسول الله عليه وسلم، وكان رضي الله عنه يصدقه في كل ما يقول دون تردد، وقد وُضع في كفة والأمة في كفة فرجح بها، نال هذا كله بالتصديق المطلق لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أراد هذا الصحابي الجليل أن يهاجر، فجاء يستأذن النبي ﷺ في ذلك، فقال رسول الله عليه وسلم: "على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي" فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: "نعم" فحبس رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده أربعة أشهر .لقد اختاره ﷺ أن يكون رفيقه في هجرته، واختياره هذا دليل على مكانته وحبه للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فدى له أبي وأمي، والله ما جاء به هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: "أخرج من عندك" فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: "فإني قد أذن لي في الخروج". قال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم". قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيّ هاتين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بالثمن".

كان بيت أبي بكر رضي الله عنه بيت الدعوة والجهاد في سبيل الله، منه بدأت الهجرة وانطلق الإعداد لها. وكلام سيدنا أبي بكر مع نبينا محمد ﷺ كله فداء وتعظيم لرسول

الله. وخرجا من بيت أبي بكر خفية، وذهبا إلى غار ثور حيث اختبآ من أن تلحق بهم قريش فتدركهما فتغتال دعوة الله.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق حدثهم قال: نظرت إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه أبصرنا فقال: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما".

٢- عبد الله بن أبي بكر:

هذا الصحابي كان له دور كبير ودقيق في نجاح هجرة النبي ﷺ من مكة إلى يثرب، فقد كان يقضي يومه في مكة يخالط قريشا ويستمع إلى ما يقوله أعداء الدعوة وما يعتزمون القيام به قصد القضاء على نبي الله الكريم، وكان ينقل هذه الأخبار إلى غار ثور حيث كان يختبئ النبي ﷺ مع أبى بكر الصديق رضي الله عنه وكان يبيت معهم، وحتى لا يعرف أثره الذي يخلفه في الطريق عندما كان ينتقل من مكة إلى الغار، كان يمر وراءه عامر بن فهيرة ليتلف أثر قدميه حتى لا تصل إليه قريش.

٣- علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

لقد ضحى بنفسه هذا الصحابي الجليل ليلة كان يأتمر الشيطان مع قريش في دار الندوة ، حيث قرروا أن يضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه بين القبائل ويتخلصون من "دعوة محمد". فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فخرج هو وأبو بكر على غار في الجبل، ونام علي على فراش النبي صلى الله عليه وسلم، وباتوا يحرسونه يحسبونه أنه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحوا، قام علي لصلاة الصبح، بادروا إليه فإذا هم بعلي، فقالوا أين صاحبك؟ قال: لا أدري فاقتصوا أثره.

بات وهو يدرك أن مصيره في خطر. إلا أن قوة الإيمان جعلته ينام مطمئنا، ليقوم في الصباح برد ودائع قريش التي كانوا يضعونها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤- أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها:

جاء في صحيح البخاري ، مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ أن أسماء رضي الله عنها قالت: صنعت سفرة للنبي ﷺ وأبي بكر حين أرادا المدينة، فقلت لأبي: ما أجد شيئا أربطه إلا نطاقي، قال: فشقيه، ففعلت، فسميت ذات النطاقين.

وعن أسماء رضي الله عنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر معه ماله كله خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: إني والله لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قلت كلا يا أبت، قد ترك لنا خيرا كثيرا، قالت: فأخذت أحجارا فجعلتها في كوة في البيت كان أبي يجعل فيها ماله، تم جعلت عليها ثوبا، ثم أخذت يده، فقلت يا أبت، ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه، فقال لا بأس، إن كان ترك لكم هذا لقد أحسن، وفي هذا لكم بلاغ. قالت: لا والله ما ترك لنا شيئا، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

هؤلاء الرجال كان لهم فضل كبير في انتقال الدعوة من مكة إلى يثرب حيث سيقيم ﷺ إلى جانب كل من الأنصار والمهاجرين دولة إسلامية تكون منطلقا لنشر الإسلام إلى كل بقاع العالم.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وحزبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع:

- القرآن الكريم.
- صحيح البخاري.
- مسند الإمام أحمد.
- مجمع الزوائد.

شرعية الأعمال الفدائية

ليست الشجاعة التي سبق وأن تحدثنا عنها في الدرس السابق : كلاما نظريا .

بل هي واقع عملي ، يتحلى به ، ويشرف باكتسابه أصحاب الدعوات .

ولهذه الشجاعة من الصور : الكثير والكثير .

ومن أعلى هذه الصور وأشرفها : الأعمال الفدائية ، التي تتطلبها الدعوات ، وتقتضيها الضرورات ، ويأذن بها الشارع ، ويعد بالثواب عليها .

وبيان ذلك :

أنه لو لم يكن هناك سبيل لحماية : الدين ، أو العرض ، أو النسل ، أو المال ، أو الدفاع عن ذلك ، إلا بافتدائه بذات النفس : كان ذلك عملا مشروعا .

وهذا ما فعل بعضه سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حينما بات ليلته راقدا في فراش الرسول ﷺ ، وهو يعلم يقينا _ أو يغلب على ظنه ظنا راجحا _ أنهم سوف يقتلونه ، اعتقادا منهم أنهم يقتلون محمدا صلى الله عليه وسلم

لا يشك أحد في أن عليا كان يعلم بالظروف التي تمر بها الدعوة ، وبالشر الذي يبيته الكفار للنبي ﷺ بصفة عامة .

كما أنه لا يشك أحد في أنه كان يعلم أنهم سوف يهجمون عليه هجمة رجل واحد ، فيقتلونه ، إما بسبب غرابة التصرف وهو نومه _ على غير العادة _ في فراش النبي ﷺ ، وإما انتقاما منه ، لما فعل .

ومع ذلك : نام في هذا المكان الخطير ، وفي هذه الظروف العصيبة ، وبين يدي هؤلاء الأعداء الأشداء . . ! !

نام . . ليفتدي الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه . . ! !

نام . . ليفتدي هذه الدعوة بروحه . . ! !

نام . . ليقدم القدوة لشباب الإسلام في البطولة ، والشجاعة والفدائية .

نعم . . نام بإقرار النبي ﷺ وموافقته ، بل بطلبه ﷺ منه ذلك .

نام . . ليصير الفداء شرعيا .

ولذا . . لا مجال لأحد في إنكار شرعية الأعمال الفدائية ، للدفاع عن النفس أو حمايتها ، للدفاع عن الدين أو حمايته ، للدفاع عن العرض أو حمايته ، للدفاع عن الأهل أو حمايتهم ، للدفاع عن المال أو حمايته ، للدفاع عن الأوطان أو حمايتها .

وهؤلاء الفدائيون _ على هذا النحو _ شهداء إن قتلوا في هذه الحالة .

يقول عليه الصلاة والسلام : " فيما رواه الإمام أحمد في مسنده _ عن عبد الله بن عمرو بن العاص " ما من مسلم يظلم بمظلمة ، فيقاتل فيقتل : إلا قتل شهيدا " "٨٧

ولا ينبغي أن يقال عن هؤلاء الفدائيين : إنهم انتحاريون . . فهذا تحريف للكلم عن مواضعه ، وتزييف على العقول ، وفرق كبير بين الأعمال الفدائية التي تكون للإحياء ، أي إحياء النفس عند الله تعالى بحفاظها على الدين أو العرض ، أو غير ذلك مما ناضلت من أجله ، ودفعت روحها ثمنا لإبقائه وإحيائه ، مرضاة لله تعالى ، وبين الأعمال الانتحارية التي تكون تخلصا من الحياة ، وإهلاكا لنفس خلقها الله تعالى دون موافقة لشرعه ، وإذن منه سبحانه .

ومن هنا : لا ينبغي السكوت على حق يستلب ، أو على عرض يغتصب ، أو أرض تحتل ، أو دين تنتهك حرماته . بل لابد من الدفاع عن كل ذلك ، بل _ من البدء _ حماية كل ذلك .

وقد افترض الله على عباده المؤمنين هذا ، بما يحقق الغرض ، ويؤدي إلى النجاح فيه ، ولو كان بالأعمال الفدائية التي تهلك فيها النفس ، وتضيع فيها الروح .

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) "٨٨ "

(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) "٨٩ "

وقد امتثل النبي ﷺ لهذا الأمر ، وقدم القدوة الحسنة الشجاعة الفدائية بنفسه ، في حضوره الغزوات ، وجهاده فيها ، وهو يعلم يقينا أن الكفار يقصدونه قصدا ، ولا يريدون سواه .

كما إمتثل على رضى الله عنه ، لهذا الأمر الإلهي ، التكليفى ، التشريفى ، النبوي ، له ، بهذا العمل الفدائي ليلة خروج النبي ﷺ من بيته للهجرة .

وهو درس من دروس الهجرة النبوية : يجب أن يكون ماثلا في الأذهان ، لمن أراد حماية الدين والأوطان .

شعر أبي أحمد بن جحش في هجرة بني أسد

وقال أبو أحمد بن جحش بن رئاب، وهو يذكر هجرة بني أسد بن خزيمة من قومه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ وإيعابهم في ذلك حين دعوا إلى الهجرة :

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد *** ومروتها بالله برت يمينها

لنحن الألى كنا بها ثم لم نزل *** بمكة حتى عاد غثا سمينها

بها خيمت غنم بن دودان وابتنت *** وما إن غدت غنم وخف قطينها

إلى الله تغدو بين مثنى وواحد *** ودين رسول الله بالحق دينها

وقال أبو أحمد بن جحش أيضا :

لما رأتني أم أحمد غاديا *** بذمة من أخشى بغيب وأرهب

تقول فإما كنت لا بد فاعلا *** فيمم بنا البلدان ولتنأ يثرب

فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهنا *** وما يشإ الرحمن فالعبد يركب

إلى الله وجهي والرسول ومن يقم *** إلى الله يوما وجهه لا يخيب

فكم قد تركنا من حميم مناصح *** وناصحة تبكي بدمع وتندب

ترى أن وترا نأينا عن بلادنا *** ونحن نرى أن الرغائب نطلب

دعوت بني غنم لحقن دمائهم *** وللحق لما لاح للناس ملحب

أجابوا بحمد الله لما دعاهم *** إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا

وكنا وأصحابا لنا فارقوا الهدى *** أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا

كفوجين أما منهما فموفق *** على الحق مهدي، وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبة وأزلهم *** عن الحق إبليس فخابوا وخيبوا
ورعنا إلى قول النبي محمد *** فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمت بأرحام إليهم قريبة *** ولا قرب بالأرحام إذ لا نقرب
فأي ابن أخت بعدنا يأمننكم *** وأية صهر بعد صهري ترقب
ستعلم يوما أينا إذ تزايلوا *** وزيل أمر الناس للحق أصوب

قال ابن هشام : قوله "ولتنأ يثرب"، وقوله "إذ لا نقرب"، عن غير ابن إسحاق.

قال ابن هشام : يريد بقوله "إذ" إذا، كقول الله عز وجل (إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) قال أبو النجم العجلي :

ثم جزاه الله عنا إذ جزى *** جنات عدن في العلالي والعل

ضرورة البحث عن البيئة الصالحة للدعوة

على الداعية الذي يجد البيئة غير صالحة لدعوته ، والجو ليس مناسبا لها ، والأفراد لا يتقبلونها : أن يبحث _ بشرط صلاحيته هو _ عن بيئة أخرى لهذه الدعوة ، وجو آخر لها ، وأناس يتقبلونها ، مستعينا بالله ، معتمدا عليه ، ممتثلا لقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) "٣٤ " دون أن يكف عن نشر دعوته ، وإقناع الآخرين بها ، وتحبيبهم في التعرض لفضل الله ورضوانه عن طريقها ، وكذلك دون أن ييأس من النجاح في ذلك ، أو من نتيجة دعوته ، خاصة وأنه لا يعرف بيقين . . أين البيئة الصالحة لدعوته ؟ ولا متى يكون الجو مناسبا لها ؟ ولا من هم الأفراد الذين سيشرح الله صدورهم لقبولها ؟ حتى يخصهم _ في هذه الحالة _ بدعوته ، ويتفرغ لهم دون غيرهم ، ويحبس نفسه عليهم ؛ رجاء النجاح معهم ، والإفادة بهم ولهم .

حيث إن مرد الأمر في ذلك كله _ كما هو في غيره _ لله تعالى ، أولا وأخرا .

ولو كان الأمر على غير ذلك : لما بحث النبي ﷺ لهذه الدعوة عن بيئات أخرى غير مجتمع مكة ، الذي كان يتطلع لهدايته ، ويتشوق لإيمانه ، ويتحسر لكفره وعناده (

فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)" ٣٥ " في الوقت الذي كانوا فيه يقولون لبعضهم البعض (لا تسمعوا لهذا القرآن ألغو فيه لعلكم تغلبــون) " ٣٦ "

وذلك يتمثل في :

أمره ﷺ لصحابته الكرام بالهجرة إلى الحبشة ؛ بحثا عن مجتمع لهذه الدعوة غير هذا المجتمع .

في ذهابه ﷺ بنفسه إلى الطائف بحثا عن مجتمع لهذه الدعوة غير هذا المجتمع .

وهكذا كان يفعل ﷺ في الظروف والمناسبات .

وثالثا : مع الأفراد والقبائل الذين كان يعرض عليهم دعوته دون كلل أو ملل أو يأس ، حتى استجاب الله لدعائه الذي قال فيه (رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) " ٣٧ "

وكان هذا المجتمع : هو مجتمع المدينة ، بجوه ، وظروفه ، وأفراده ، وجماعاتــه ، والذي كان بعد طول بحث وعناء .

وحتى نستفيد من هذا الدرس : علينا _ نحن المسلمين _ أن نكون جادين نشيطين في نشر الإسلام ومبادئه بكل الوسائل الممكنة ، _ وهي كثيرة ومتنوعة _ وبكل اللغات ، وفي كل البيئات ، وعلى كل الأفراد من باب عرض مباهج هــذا الــدين وروائعــه ووسائله في إنقاذ العالم ، من الظلم والضياع والدمار ، الذي يسير فيه وإليه ، وليس من باب الدفاع عنه فقط ، والاكتفاء برد الشبهات التي تصنع ضده صنعا ، وتــزرع زرعا ، لينشغل الدعاة بها ، وينصرف الناس عنه بسببها ، وتظل مبادؤه مطمــورة ، وتعاليمه مهجورة .

وينبغي : أن لا يقعدنا عن ذلك ، ما يقال : من أن الفساد قد عم ، واتسع الخرق على الراقع ، و (ظهر الفساد في البحر) " ٣٨ " ولــن تجــدي محاولتنــا فــي الــدعوة والإصلاح .

إذ لو كان الأمر كذلك _ وهو ليس كذلك _ لما كانت الدعوة لإبراء الذمة وإنقاذ النفس في قوله تعالى (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) " ٣٩

وأيضا . . فإن الداعية لا يدري متى هداية الله ؟ ولا لمن تكون ؟ كل ما عليه : أن يبلغ ، وأن ينشر ، وأن يكون قدوة صالحة بأقواله وأفعاله ، وأما مسألة الهداية ومكانها وأشخاصها . . فليدع ذلك لله سبحانه وتعالى (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) " ٤٨ "

وللعلم . . ليست قلوب الناس كلهم قاسية كالحجارة ، ولكن تحتاج – فقط –إلى من يعرف مفاتيحها ، وإذا فتحت هذه القلوب ، ومست شغافها أنوار الدعوة : سرعان ما تتحول منقلبة على جهلها وجاهليتها ، وعلى معصيتها وعصيانها ، وفاعلة في بيئتها ومحيطها ، ليصبح ذلك خيرا لها ، ولمجتمعها ، وللدعوة .

كما أن كثيرا من أهل الباطل وأنصاره : يعادون الدعوة جهلا بها ، وبغضا لبعض أهلها ، ولو جاء الداعية الماهر : وأزاح هذه الغشاوة من الجهل عن العقول والقلوب ، وعالج هذا البغض من النفوس ، وزرع بدلا منه العلم السهل الواضح بهذه الدعوة وأهدافها ، وملأ هذه النفوس بالتسامح والمحبة ، والقدرة على التماس المعاذير للغير .

لو فعل ذلك ، ووفقه الله فيه : لتحول هؤلاء ، أو كثير منهم ، أو بعضهم . . إلى أنصار للدعوة بدل العداء لها ، ومحبين لهذا التيار بدل العداء لأهله .

ولو تم ذلك ..!!

لكسبت الدعوة بهم خيرا كثيرا .

ولكسبوا هم _ كذلك _ بالدعوة _ خيرا كثيرا .

ضرورة التخطيط

التخطيط لكل شئ : هو تحديد الهدف ، وتوضيح الوسائل والسبل الموصلة إليه ، والإعداد الجيد لبلوغه .

والذي يخطط جيدا : يدرس إلى جانب ذلك القدرات المطلوبة ، والإمكانات المتاحة ، للوصول إلى هذه الغاية ، وكذلك معرفة العقبات المتوقعة للحيلولة دون هذا الوصول ، ووضع الحلول والعلاجات لهذه العقبات .

ويختلف التخطيط لموضوع أو مشروع عنه لموضوع أو مشروع آخر ، كما يختلف التخطيط لموضوع يعني به فرد واحد عن موضوع تعني به جماعة ، عن موضـــوع تعني به دولة ؛ إذ لكل من هذه الثلاثة أهميته ودراساته وأهدافه .

ولكن . . لا يختلف أحد على أن كل موضوع أو مشروع لابد له من تخطيط جيد

وهذا ما فعله النبي ﷺ في مشروع الهجرة النبوية .

فهي لم تتم ارتجالا ، ولا بين عشية أو ضحاها ، ولا بدون دراسة جادة ، وتخطـــيط دقيق . بل كانت الدراسة الواعية ، والتخطيط الجيد ، والإعداد المسبق لها ، بما يعـــد صورة من أرقى مستويات التخطيط ، والذي ينبغي أن تعيه الحركة الإسلامية ، وأن تدرسه جيدا ، وأن تتخذه نبراسا في تحقيق أهدافها .

ولبيان بعض جوانب هذا التخطيط نقول :

١ _ كان لابد من ترك الأمانات التي كان يأتمن كفار مكة رســـول الله ﷺ عليهـــا، وعدم أخذها معه ، إلى المدينة ، بل كان لابد من ردها إليهم .

وكان القرار : تكليف علي بن أبي طالب بالبقاء في مكة ؛ ليقوم برد هذه الأمانات إلى أصحابها ، بعد اختفاء النبي ﷺ عنهم . وإخبار على وحده بذلك .

٢ _ كان لابد من رفيق في هذه الرحلة الطويلة الشاقة إلى المدينة .

وكان هذا الرفيق : هو الصاحب والصديق ، والصديق أبو بكر رضـــي الله عنـــه ، وإخباره وحده ليستعد لذلك .

٣ _ كان لابد من رواحل للركوب في هذه الفرة الطويلة .

ولذلك : تم شراء الراحلتين ، وقد دفع النبي ﷺ ثمن إحداهما .

٤ _ كان لابد من دليل يقودهما في الطرق الوعرة التي سيسلكانها خلال هذه الرحلة المطاردة .

ولم يكن هناك أدرى وأخبر بهذا الطريق غير رجل من المشركين ، وجد النبـــي ﷺ عنده – بجانب خبرته – الأمانة على حفظ وكتمان هذا السر

فتم الاتفاق معه على استئجاره أولا .

ودفع النبي ﷺ الراحلتين ، وسلمهما له قبل موعد الخروج .

وحدد له : الزمان ، والمكان الذي يلتقيان فيه .

٥ _ كان لابد من أن ينام أحد مكان النبي ﷺ ، وفي فراشـــه ، ويتغطـــى ببردتـــه ، خداعا للقوم الذين يقفون على أهبة الاستعداد لقتل النبي ﷺ ، وإيهاما لهم بأنه لا يزال راقدا في فراشه .

وكان هذا الفدائي الشجاع البطل : علي بن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه .

٦ _ بعد الخروج من مكة . . لابد من معرفة أخبار القوم ، وماذا يفكـــرون فيـــه ؟ وماذا يخططون له ؟ حتى يتم تنفيذ الخطة ، أو التعديل فيها ، بناء على ذلك ، للنجاة من شرورهم ، والنجاح في بلوغ الهدف .

وكان صاحب هذا الدور ، لابد أن يتصف بالذكاء ، وحضور البديهة ، والقدرة علـــى مخالطة القوم ، وفهم ما يدور بينهم ، ومن يتصف بهذا الدور ؟ إنه ابن أبي بكر .

وتم تكليفه بذلك .

٧ _ كان لابد من طريقة تمحو أثار الأقدام ، حتى لا يتتبعهما القوم ، وهم خبراء في ذلك ،

ولكن كيف يتم هذا . . ؟

إنها الأغنام . . أقوى الوسائل في إخفاء المعالم ، ومحو الآثار .

ومن لهذه الأغنام . . ؟

إنه عامر بن فهيرة .

وتم تكليفه بهذه المهمة .

٨ _ المدينة في جهة الشمال من مكة ، والمسافر من مكة إلى المدينة يأخذ الطريق في اتجاه الشمال ، وهذا ما سوف يخطر ببال الكفار ، عندما يكتشفون أن النبي ﷺ قد خرج مهاجرا ، ويطاردونه .

ولذا . . لابد من مخالفة هذا المعهود لديهم ، والمعروف إليهم ، تمويها عليهم .

فكان الاتجاه جنوبا . . ناحية اليمن ، وثم الاختفاء بغار ثور ، جنوب مكة .

٩ _ لابد لهم ، وهم في الغار ، من طعام يتناولونه ، كما لابد لهم في السفر من زاد يحملونه ، فمن الذي يعد لهم الطعام ، ويهيئ لهم الزاد ، وهم رجال ، لا يجيدون ذلك وكانت أسماء بنت أبي بكر لهذا الدور ، الذي قامت به خير قيام .

١٠ _ الكفار في مكة : سيجن جنونهم ، وستثور ثائرتهم عندما لا يجدون محمدا ﷺ في فراشه ، ليلة الاتفاق على قتله ، بل سيزدادون جنونا حينما يعلمون فراره منهم ، ونجاته من بين أيديهم ، وسيقلبون جبال مكة وشعابها وطرقها رأسا على عقب .

ولذلك : لابد من فترة كمون وسكون ، حتى ينقطع من البحث نفسهم ، وتهدأ من التعب ثائرتهم .

وكان القرار : المكوث بالغار ثلاثة أيام .

إلى غير ذلك من التفاصيل الدقيقة ، والخطط المحكمة ، والقرارات الرشيدة .

وفي هذا المذكور الكفاية لنخلص إلى الدرس الذي ينبغي أن يستفاد من هذا التخطيط الدقيق في الهجرة النبوية .

والحركة الإسلامية في مشروعها حول سيادة شرع الله في بلاد المسلمين ، دون إقصاء لها ، أو مزاحمة بمشاركة من قوانين البشر وتشريعاتهم ، إلا أن يكون ذلك القانون أو التشريع مستمدا من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ

ووسائلها إلى الوصول لتحقيق هذا المشروع هي الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة ، واتباع منهج رسول الله ﷺ في هذه الدعوة .

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف " ١٠٨ "

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) " ٣٤ "

أقول : والحركة الإسلامية في مشروعها هذا لابد أنها تحتاج إلى تخطيط جيد للوصول إلى هذه الغاية ، بل تحتاج إلى تجديد دائم ومراجعات شاملة لهذا التخطيط ، ودراسات له ، واستعداد جيد بموجب ذلك ، لتحقيق غرضها : استفادة من هذا الدرس النبوي الحركي في التخطيط للهجرة النبوية وخلال تنفيذها .

ولكن . . قد يقال : إذا كان هدف الحركة الإسلامية معروفا ،والوسيلة واضحة ومحددة ،فماذا يمنع من وجود التخطيط؟

ونقول : التخطيط موجود ، ولكن الذي يمنع من التنفيذ ، هو المعوقات الكثيرة ، التي تحول بين التخطيط والتنفيذ من جهة ، وتفصل التواصل بين الوسيلة والغاية من جهة أخرى ، فتتسع _ تبعا لذلك _ الوسيلة وتمتد ، دون أن تصل بصاحبها إلى هدفه ، وإن اقتربت به منه في بعض الأحيان وبعض البلدان .

ولقد أصبح من المسلمات : أن كثيرا من الأنظمة في الشرق أو الغرب تعمل على وأد الحركات الإسلامية ، مما جعل كثيرا من الضربات المتتالية الموجعة ، تنزل بهذه الحركات ، وتعصف برجالها ، دون آن تتمكن الحركة آو رجالها من تفادي هذه الضربات .

وإلا .. فكيف يمكن للمسجونين أو المضطهدين ، آو المعذبين أن يخططوا وهم ليسوا أحرارا في أقوالهم ، وتحصى عليهم حركاتهم وتصرفاتهم ، ويعتقلون سنين عددا ، وتثار بينهم الفتن عن طريق بعض الذين يضعفون عن التبعات ، أو يأملون في مغنم ، أو يهربون من مغرم ، وكل ذنب جناه هؤلاء : انهم آمنوا بالله العزيز الحميد ، وسعوا مطالبين بان تكون كلمة الله هي العليا في بلاد المسلمين .

وإذا كنا نقول ذلك لمن يسألون عن التخطيط لأنهم لا يرون آثاره بأعينهم : فإننا نؤكد في ذات الوقت على أننا لا نتخذ ذلك مبررا لغياب التخطيط عن ساحة العمل ، أو بروز الارتجال والسير على غير هدى وسط الأشواك التي تلقى _ وبسببها _ هنا وهناك ، كما نؤكد _ ثانيا _ على وجود التخطيط ، وضرورة استمراره حتى مع هذه الأشواك التي تلقى هنا وهناك ، كما نؤيد _ ثالثا _ العاملين المخلصين الذين يطالبون

بضرورة الدراسة والتخطيط في كل أمر من أمور الحركة الإسلامية ، إفادة من هـذا الدرس النبوي .

على أن يكون هذا التخطيط مبنيا على أسس علمية يضعها أصحاب الخبرات المشهود لهم بالكفاءة والمعرفة ، لتتضح معالم الطريق بين الوسيلة والغاية ؛ حتـى لا يتباطـأ أحد أو يبتعد عن الطريق التي ينبغي أن تقطع فيه كل يوم خطوات .

ولن يتحقق ذلك كاملا في غياب تخطيط مرحلي ، تراعى فيه : طبيعة وظروف كـل مكان في بلاد المسلمين ، بحيث لا تغيب الموائمة بين هذا التخطيط وبين البيئة التـي يطبق فيها تطبيقا واقعيا عمليا .

ثم يمتد هذا التخطيط المرحلي ، ليعطي صورة متكاملة لدور الحركة الإسلامية فـي بلاد المسلمين ، في الحاضر والمستقبل ، وبيان مدى ما يمكن أن تقدمه للناس فـي : معاشهم الذي ينبغي أن يقوم على النصفة والعدل والحق والعلم والعمل ، وكذلك فـي معادهم الذي يتوقف ثوابهم فيه على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، والتمسـك بهـذا الدين بإخلاص ، والجهاد في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا .

وهذه المهمة ، أي التخطيط _ كما يقول الشيخ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسـين _ منوطة بأصحاب البصائر النافذة ، والهمم العالية مـن أبنـاء الحركـة الإسـلامية ، الغيورين على دين الله ، وعلى مصالح المسلمين . " ٦٢ "

فهل يتقدمون لأداء هذه الأمانة ؟

وهل يبدؤون فيها . . ؟ _ وبسرعة _ إفادة مما فعله النبي ﷺ في التخطيط لنجـاح الهجرة ؟

ضرورة الدعوة الفردية

على كل مسلم ، غيور على دينه ، حريص على نشر مبادئه ، وهداية الناس بها : أن يمارس الدعوة إلى الله تعالى ، بكل الوسائل المتاحة له ، والمؤدية إلى النجـاح فـي مهمته ، وفي كل الظروف الممكنة ، وفي كل البيئات التي يرى _ أو يأمـل _ فيهـا

القبول لدعوته ، ومع كل الناس الذين تجمعه بهم الأقدار ويلمح فيهم ولو أدنى بارقة أمل في أن يشرح الله صدورهم حتى ولو للاستماع إليه فيما يعرضه عليهم

يقول تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) " ٣٤ "

ويقول سبحانه (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) " ٤١ "

ويقول ﷺ " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان "٤٢ "

ويكون ذلك : بالقدوة الحسنة سلوكا ، والكلمة الطيبة قولا ، المنبثقة _هذه وتلك _ من الفهم الجيد ، المبنية على الإخلاص لله تعالى ، والرغبة الجادة الصادقة في نوال مرضاته سبحانه وتعالى ، ورفع راية هذا الدين ، وإعلاء كلمته ، وإعزاز أهله .

وممارسة الدعوة على هذا النحو : فريضة ، واجبة على المسلم _ رجلا أو امرأة _ في كل حال ، وفي كل بيئة ، ومع كل الناس ، ما دامت الظروف مهيئة ، والوسائل متاحة ، لا يحجبه عن ذلك شواغل ، ولا يصرفه عنه صوارف .

وإذا كان ذلك بصفة عامة : فإن الذي نستفيده من دروس الهجرة الحركية _ بجانب فريضة الدعوة العامة _ أنه على المسلم _ كذلك _ أن يمارس الدعوة الفردية إلى الله تعالى _ بصفة خاصة _ مع كل من ييسر الله تعالى له لقاءهم أو الاتصال بهم ، دون أن يدفعه إلى ذلك تكليف ، أو يطمع بذلك في تشريف ، أو ينتظر من ذلك أية مكاسب خاصة : وأن الدعوة الفردية من أهم روافد العاملين للإسلام ، وازديادهم في حقل الحركة الإسلامية ، وهي الأسلوب الأول الذي مارسه محمد ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى ، وستظل _ كذلك _ أسلوبا فاعلا قويا ناجحا في أداء هذا الغرض ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا ما فعله ﷺ _ بجانب أساليبه الكثيرة _ في الدعوة إلى الله ، قبل الهجرة ، وفي التمهيد لها ، فقد فعل ذلك مع الوليد بن المغيرة ، كما فعل ذلك مع عداس النينوي

بالطائف ، ومع الأفراد والوفود بمنى أيام الحج ، حتى كان الرهط من الخزرج الذين أراد الله بهم خيرا ، وأراد للدعوة عن طريقهم خيرا .

وهو ما فعله هؤلاء النفر ، الحديثوا عهد بالإسلام ، الذين قدموا في موسم الحج من المدينة ، لمبايعة النبي ﷺ .

يقول كعب بن مالك : " . . فلما فرغنا من الحج : وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام _ سيد من ساداتنا ، وشريف أشرافنا _ أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه ، وقلنا له : يا أبا جابر . . إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ، ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ العقبة ،

قال : فأسلم ، وشهد معنا العقبة ، وكان نقيبا " ٤٣ "

وفي هذا الدرس من الأنصار _ في الدعوة الفردية _ الذي تعلموه مبكرا من النبي ﷺ ، نرى : حسن الاختيار ، ودقة التوقيت ، وبلاغة العرض ، والمسارعة في نشر الدعوة ، وعدم تضييع الفرصة ، ولذلك كان التوفيق حليفهم .

وواجبنا _ على هذا _ أن لا نستهين بهذه الطريقة في الدعوة إلى الله تعالى ، ففيها _ وعن طريقها ، بإذن الله ، يكون _ الخير الكثير .

فكم من أفراد فطرتهم سليمة ، ولكن ما عرضت الدعوة عليهم عرضا حسنا ، أو شغلتهم الحياة ، بهمومها أو بزخارفها ، ولا يحتاجون سوى التذكير بالله ، مع حسن العرض ، وأدب الحديث ، ووضوح الفكرة ، وجمال الصحبة إن أمكن ، مع الاهتمام بهم ، والسؤال عنهم . . الخ ؟ وستجدهم جنودا مخلصين لهذه الدعوة ، يسعدون بها ، ويرضون الله تعالى بالانضواء تحت لوائها ، ومن الطبيعي : أن يقوى بهم الصف ، ويزداد بهم العدد ، ويكثر ويتحقق بهم _ لهذه الدعوة _ النفع .

وكم من أفراد حجبهم الخوف عن فهم الإسلام فهما شاملا ، واكتفوا بما يعرفون من قشوره ، ويمارسون من رسومه ، ووقعوا في براثن الجهل به عن غير قصد ، وصاروا في عداء له بسبب هذا الجهل ، ومن جهل شيئا كما يقولون عاداه . ؟

وهؤلاء لا عذر لنا في عدم تلمس الوسائل لتفهيمهم ، وعرض الدين الشامل عرضا جيدا عليهم ، مع بيان الثواب والإنعام الإلهي لمن اتبع والتزم ، والإيذاء _ مع الغضب _ الإلهي لمن خالف وتقاعس وانحرف .

ومع تلمس الوسائل ، وحسن العرض : ستنقشع الغشاوة عن العيون بإذن الله ، وينزاح كابوس الخوف عن القلوب ، لا أقول من كلهم ، بل من بعضهم .

بل كم من أفرادا يبحثون عن الطريق ، ولا يحتاجون إلا إلى من يمد لهم يده ، وينير أمامهم الطريق ؟

ومما ينبغي أن يلاحظ جيدا : أنه ليس من الضروري ، أن تكون صفات الكمال متوافرة ، أو أغلبها فيمن ندعوهم إلى الله تعالى ، والانضمام إلى صفوف العاملين للإسلام . . وإلا فما مجال عملنا نحن معهم ؟ وما دورنا في الأخذ بأيديهم إلى الله تعالى ؟ . . هذا فضلا عن نسياننا لأمرين هامين : الأول : أن هؤلاء من الندرة _ في عالم اليوم _ بمكان ، الثاني : أننا نحن لا نتمتع بهذه الصفات أو أغلبها ، بل نعمل لها ، ونطمع في إنعام الله تعالى بها علينا .

كما ينبغي أن يلاحظ جيدا : أن الحركة الإسلامية في حاجة لأن تضم بين صفوفها أصحاب كل الكفاءات مهما قلت ، وكل الطاقات مهما ضعفت ، وكل الصفات مهما تنوعت ، إذ هي حركة ، وإن كانت تهدف إلى قيادة المجتمع ، فهي تمثله بفئاته وطوائفه .

فضلا عن أن تعدد المهام في العمل للإسلام : يحتاج إلى : من يصلح للقيادة ، ومن يصلح للجندية ، من يصلح للتخطيط ، ومن يصلح للتنفيذ ، من يصلح للتفكير ، ر ومن يصلح للعمل ، ومن يصلح للإبداع ، ومن يصلح للتقليد .

ومن هنا كان وجوب عمومية الدعوة ، في قوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة . .) الآية "٣٤ " حيث حذف المفعول ، وهو المدعو ؛ ليفيد العموم ، ويحتم على الدعاة _ بالطرق العامة أو الدعوة الفردية _ دعوة الجميع .

وليعلم الداعية : أن هذه الجهود لن تضيع أبدا .

فإما أن يتحول المدعو إلى الله تعالى ، وينخرط في صفوف العاملين في حقل الدعوة وهنا : ينال مثل الداعي مثل ثواب المدعو ، دون أن ينقص ذلك من أجره شيئا " لئن يهدي الله بك رجلا واحدا : خير لك من أن يكون لك حمر النعم " " ٤٤ "

وإما أن يفهم المدعو الدعوة وغايتها ، ويفهم ما أنت عليه ، دون أن ينخرط معك ، لآي سبب خاص به ، ولن تعدم في هذه الحالة أن يتعاطف معك ، وأن يكون لسانه ، أو قلمه ، أو سلاحه ، أو لسان حاله ، معك ، لا عليك .

وهذا مكسب _ في ذاته _ كبير .

وإما أن تتركه حائرا غير ثابت في موقعه الأول ، مترددا بين ما هو عليه وبين ما تدعوه أنت إليه ، غير مستقر على حال.

فما عليك في هذه الحالة : إلا تتعهده بالدعاء والابتهال إلى الله تعالى أن ينير طريقه ، وأن يشرح صدره لنور الدعوة ، على أن لا تبتعد عنه إهمالا له ، أو يأسا من إقناعه ، وأن لا تثقل عليه ، وتلح في الإمساك به .

وإما أن يكون معاندا مجادلا ، أو معاندا متحاملا ، أو معاندا معاديا .

فهذا : دعك من تضييع الوقت معه ، وتبديد الجهد في إقناعه ، لعل الله تعالى يهيئ له غيرك فيستجيب له ، أو يشرح صدره في وقت _ أو ظرف _ آخر ، أو لعل الله يريد له أمرا غير ما تدعوه إليه ، وما عليك إلا أن تدعو له بالهداية ، فلا تعاده ، أو تنفعل عليه .

ويكفيك أنك بلغت أمانة الدعوة ، وأبرأت ذمتك .

والله تعالى _ قبل ذلك ، وبعد ذلك ، وفوق ذلك _ كفيل بحماية الدعوة من كيد أعدائها ، وجهل أبنائها .

فلا تقصر في واجب الدعوة الفردية إلى الله تعالى بحال من الأحوال ، ومهما كانت النتائج

ضرورة الشجاعة في مواجهة الظلم والظالمين

طريق الدعوة : ليس مفروشا بالورود ، وليست بالضرورة كلها أشواك .

ولكن على من يسير فيها : أن يتوقع _ وأن يتحمل _ أشواكها ، أملا في التمتع بورودها ورياحينها في الدنيا ، أو في الآخرة ، أو فيهما .

وعلى قدر الغاية : تهون الوسائل ، وتخف المشاق ؛ بل تستعذب الآلام . . ! !

ولذلك : " حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات " "٨٥ "

ومرضاة الله تعالى : أغلى الغايات ، وأعلى المقاصد ، ويهون في سبيلها كل غال ونفيس .

وقد فهم ذلك المسلمون الأوائل ، حتى النساء منهم ، فتحملوا المشاق ، واستهانوا بالآلام ، بل واجهوها بشجاعة فائقة .

وهذا واضح في الكثير من تفاصيل أحداث الهجرة النبوية . . ! !

ولكن نأخذ مثالا واحدا من هذه الأحداث .

" قالت أسماء رضي الله عنها : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر ، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام . . فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر . . ؟ فقلت : لا أدري _ والله _ أين أبي ؟ فرفع أبو جهل يده _ وكان فاحشا خبيثا _ فلطم خدي ، لطمة ، طرح منها قرطي . "٣٣ "

فرعون عصره : أبو جهل ، وسط حاشية من الطغاة والزبانية ، يذهبون _ في ثورتهم العارمة ، وغضبهم الجارف _ إلى امرأة وحيدة ، حامل ، يهددونها ، ويرهبونها ، ويحاولون معرفة مكان النبي ﷺ منها ، دون سؤال عنه _ في خبث _ صراحة ، بل السؤال عن أبيها ، ولكنها كانت أذكى منهم ، بل كانت على مستوى المسئولية ، وإدراك الأحداث ، وتتداعياتها ، وخطورة التهاون في أية معلومة تعرفها . . ولذلك : لم ترتجف ، ولم تخف ، ولم تتلجلج ، ولم تثرثر ، بل كانت دقيقة في

إجابتها ، موجزة في حديثها ، مما دفع الطاغية لأن يستعمل _ شأن الطغاة حينما يعجزون أمام الحق ، ويتصاغرون أمام أهله _ بطشه ، وجبروته ، وتعذيبه ، حيث رفع يده ، وهو يرغي ويزبد ، ويسب ويلعن _ لعنه الله _ ولطم خدها ، بيده الآثمة ، لطمة قاسية ، أطاحت _ من شدتها _ قرط هذه السيدة الشجاعة المجاهدة .

وكان فعل هذا الفرعون : دليلا لكل من أتى بعده على مر العصور من الفراعين ، الذين صاروا يعذبون المسلمات القانتات التائبات العابدات وقد يأخذونهن _ مع أطفالهن الصغار _ رهائن ، كالأسيرات .

بل كان فعله ، وأضرابه من الطغاة ، مع المسلمين الأوائل : هو المنهاج الذي سار عليه كل من عذب _ ويعذب _ من يعملون لرفع راية الإسلام ، وإعلاء شأنه ، وإسعاد أهله ، في كل عصر ، وفي أي مصر .

ولكن . . ! !

من فضل الله تعالى على أصحاب الحق ، وحماة الإسلام : أن من على الكثير منهم بالقدرة على مواجهة الباطل ، ومقارعة أهله ، ومواجهة الطغاة ، وتحمل أذاهم ، دونما جزع ، أو نكوص عن مبادئهم التي آمنوا بها .

وعلى أبناء الحركة الإسلامية ، رجالا ونساء : أن يدركوا جيدا :

أن الابتلاء . . سنة الله تعالى لأصحاب الدعوات (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)٥٠

وأن هذا الابتلاء . . قد يصل إلى أقصى درجاته ، مع بعض الناس ، أو في بعض البيئات ، أو في بعض العصور (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) "٨٦ "

وأن الحرب بين أهل الحق وأهل الباطل لن يهدأ لها أوار ، ما دام للحق أنصار يؤمنون به ، ويدافعون عنه .

وأن المؤمن في مواجهته للباطل وأهله : يثق في نوال واحدة من اثنتين ، النصـــر أو الشهادة .

وأن المؤمن يعتقد جازما : أنه لكل أجل كتاب ، وأن كل ما يحـــدث لـــه ، قـــدره الله تعالى .

ولذلك : فهو يواجه الطغاة _ بهذا الرصيد الإيماني وغيره _ ليرفع رايـــة الـــدعوة ، ويعلي كلمة الحق .

وعلى أبناء الحركة الإسلامية ، رجالا ونساء ، بناء على هذا : أن يكونوا أقوياء بمـــا معهم من الحق ، في مواجهة الظلم ، وكبح جماح الظالمين ، بثباتهم أولا على الحق ، واستمرارهم في العمل به ، والدعوة بالحسنى إليه ، والتذرع والتسلح بالصبر الجميل ، فيما قد يتعرضون له _ بعلم الله _ من صور هذا الظلم .

وليكن معلوما : أن الباطل ضعيف ، وأن أهله جبناء ، سرعان ما يتصاغرون أمـــام الحق وأهله ، ولو لم يظهر منهم ذلك

وهذا واضح في موقف أبي جهل من شجاعة السيدة أسماء وثباتها .

وهو واضح _ كذلك _ في أضرابه ، وكل من أتى بعده ، أمام شجاعة أهل الدعوة ، وصبرهم على ما يتعرضون له وثباتهم على مبادئهم التي يؤمنون بها ، ويعملون لها

ضوابط التصعيد

الحركة : من سنن الحياة ، ومن طبيعة الأحياء ، والجماعة : كائن حي ، بدون حركة تتجمد ، ومن ثم تموت ، ولا تحقق غرضها ، ولا تصل لأهدافها .

والحركة في الجماعة ، والتصعيد لأبنائها في صفوفها ، هي الدماء الجديـــدة الحـــارة الدافقة ، التي تجري في شرايينها ، وتساعد على تمديد حياتها ، والحفاظ عليها .

ولكن لهذه الحركة نظام . ! !

ولهذا التصعيد ضوابط . ! !

ولهؤلاء الذين يصعدون شروط ومواصفات . ! !

ولذلك :

فعلى العاملين في حقل الدعوة الإسلامية بعامة ، وقادة الحركة الإسلامية بخاصة : أن يعوا جيدا أن التصعيد في صفوف الدعوة ، وحمل مهامها ، والقيام بواجباتها ، لا يكون إلا من بين من اقتنعوا بها ، وتفاعلوا معها ، وخالط حبها شغاف قلوبهم وتولد الإحساس بمتطلباتها ، وشئون إصلاحها ، وسبل إنجاحها لديهم . فهؤلاء هم الذين تنجح بهم الدعوة ، وترتقي بهم الحركة ، وليس بغيرهم يكون ذلك

بشرط فهمهم السليم لهذا الدين ، ووعيهم الجيد بالواقع الذين يعيشون فيه ، وقدرتهم على قراءة الأحداث وإرهاصاتها ، واستعدادهم الدائم لبذل الجهد ، وأداء الأمانة ، وفوق ذلك كله ، وغيره : صلاح أنفسهم ، وطهارة وجدانهم ، وتزكية أرواحهم ، وصدق التزامهم ، وكامل ولائهم .

فهؤلاء هم الأنصار الذين بايعهم النبي ﷺ على " بيعة النساء " في العقبة الأولى ، لما عادوا إلى المدينة ، ما شغلتهم أيامهم وشئونهم عن هذه الدعوة ، بل إنه حينما طهرت نفوسهم ، وصدقوا مع الله في بيعتهم ، أنعم الله عليهم بميلاد الإحساس بمتطلبات هذه الدعوة لديهم ، ولذلك بحثوا بأنفسهم عن مصلحة الدعوة ، دون طلب أو إيعاز لهم بذلك من غيرهم .

يقول جابر بن عبد الله : " لم تبق دار من دور الأنصار ، إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، ثم ائتمروا جميعا ، فقلنا حتى متى نترك رسول الله ، ﷺ ، يطوف ، ويطرد ، في جبال مكة ، ويخاف . . ؟ فرحل إليه منا سبعون رجلا . . " "٣٣"

هؤلاء . . ما دفعهم إلى ذلك سوى الحب لهذه الدعوة والتفاعل معها ، والرغبة الصادقة في إعلاء شأنها ، ورفع رايتها ، وحماية قائدها .

ولذلك : كان بقاؤهم _ لو حدث _ في مكانهم الذي بايعهم عليه النبي ﷺ أولا . . تجميد للطاقات ، وتبديد للإمكانات ، وتضييع للجهود ، وحرمان للدعوة من أن تحمل هذه الأرواح الطاهرة ، والنفوس الذكية رايتها ، وأن تؤدي أمانتها .

وقد علمنا أفضل وأشرف قادة الدنيا بأسرها ﷺ أن نقتنص الفرصة ، ونصعد أمثال هؤلاء في صفوف الحركة ، حينما انتقل بهم ﷺ إلى بيعة أخرى ، تضعهم في موقع _ من الدعوة_ آخر ، وتحملهم من واجباتها ما هم له بأهل، ثقلا ونفعا.

وينبغي أن يكون معلوما أن التقدم للمسئولين بما ينفع الدعوة من اقتراح ، أو نصيحة ، أو تنبيه ، أو تحذير ، ليس تطفلا ، أو تدخلا فيما لا يعنينا ، بشرط أن لا يكون حبا في مغنم ، أو هروبا من مغرم .

بل هو النصيحة ، و " الدين النصيحة : قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم " " ٦٠ "

وقد بين القرآن الكريم صورا من ذلك ، فيها التعليم لذلك ، ولفت الأنظار إليه .

من هذه الصور : رجل ينصح إماما من أئمة المسلمين وأنبيائهم . . بدافع من نفسه ، وأداء للأمانة (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين) " ٦١ "

وهذا رجل آخر ينصح عامة الناس ، بدافع من نفسه ، وأداء للأمانة (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * إني إذا لفي ضلال مبين * إني آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) " ٦٢ "

ولذلك : فعلى كل مسلم أن يبذل النصح ، الصادق ، الخالص ، المهذب ، لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم ، كلما وجد أمرا يحتاج ذلك ، وكلما وجد الفرصة والظروف مهيئة لذلك .

وعلى القادة والمسئولين : البحث الدائم في الصفوف ، عمن استوى عوده ، وتكاملت مؤهلات نقله وتصعيده ، لوضع آخر ، ومكان مختلف ، ومهام جديدة ، خوفا من :

تجميد الكفاءات وإهدار الطاقات ، وتفويت الفرصة على الدعوة من حسن الإفادة من أبنائها ، والوصول بهم سريعا إلى أهدافها .

هذا . .وليكن معلوما أنه لكل مرحلة من مراحل الدعوة شـــروطها التـــي ينبغـــي أن تتوافر فيمن يتم توثيقه للتصعيد إليها .

وتختلف هذه الشروط باختلاف المراحل .

كما ينبغي أن يعلم جيدا ، أن وضع إنسان في مسئولية أكبر من قدراته : يؤدي إلـــى عرقلة العمل ، وفتور من يقوم به معه ، فضلا عن زعزعة الثقة به .

وكذلك : فإن وضع إنسان في مسئولية أقل من قدراته : يحرم الدعوة من الإفادة به ، وهي في أشد الحاجة إلى كل أخ قادر على العمل والعطاء .

كل ذلك _ وغيره _ أخذا من تصرف النبي ﷺ ، وحركته الواعية الهادفة مع أبنـــاء الحركة ، وجنود الصف ، الذين علمهم ، وعلم بهم ، ولا يزال يعلم _ بهذا الـــدرس الحركي من دروس الهجرة _ أهل الدنيا كلها ، إلى آخر الزمان .

طلع البدر علينا عام هجري جديد

ابراهيم سيف السيف

جاءت الهجرة النبوية من مكة المكرمة الى المدينة المنورة بتلك الموعظة القيمة (فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله و رسوله. ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ماهاجر اليه).

مثل من واقع الحياة. هو رجل من المسلمين هاجر من أجل امرأة يريد الزواج منها تدعى (أم قيس) فكانت نيته الى غير الله.

حفاظا على الدين

لقد هاجر النبي ﷺ ومن معه من الاصحاب في وقت حالك، حيث تآلب الكفار عليهم فهاجروا حفاظا على الدين. وربطا للقلوب في نشر سماحة الاسلام هذا الدين الحق.

اما ذلك الرجل فقد اتخذ الرسول عليه السلام من واقع حاله نصيحة للمسلمين فقال: "ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ماهاجر اليه".

وهذا ارشاد كريم من نبي عظيم في ان الاعمال التي تكون لله هي التي تكون مقبولة. وتظهر آثارها على النفوس. وفي الواقع.

مهاجرو أم قيس

وهنا اشير الى مهاجري (أم قيس) ان يصلحوا نياتهم ــ وما اكثرهم ــ يتظاهرون امام الناس بالتقوى والورع وهم يخوضون في اعراض الناس بالغيبة والنميمة والسب والشتم، يتسترون بالطاعات ويأكلون اموال الناس بالباطل والحرام. الى هؤلاء اوجه نصيحتي فان الله لايقبل الا ماكان خالصا له. الصلاة، والصيام، والصدقات، والحج على هذا الاساس يجب ان تكون هذه العبادات كلها لله في سبيل مرضاته.

حدث عظيم

واشير هنا الى ان حدث الهجرة النبوية حدث عظيم نكتب به التاريخ ونعتز به، لانه كان بداية تحول في الامة المسلمة الى الخير:

١ــ فقد آخى النبي ﷺ بعد الهجرة بين الانصار والمهاجرين.
٢ــ ووثق العهود بينه وبين جيرانه من اليهود ليعيشوا في سلام ورخاء.
٣ــ واصبح المجتمع المسلم مجتمعا مترابطا. يواجه الاحداث بالصبر والعزيمة و الحكمة.
٤ــ بعد الهجرة استقرت رحال النبي ﷺ بالمدينة فبنى المواطن الصالح الذي يحمل الشهامة والمروءة. ويتصف بالولاء لهذه الدولة الجديدة.لقد هذب عليه السلام النفوس من الانحرافات في العقيدة. ونقاها من الخرافات. وطهرها من الامراض النفسية كالحسد وسوء الظن والحقد والتشاؤم. فيجب ان نستفيد من دروس الهجرة.

عدم تعجل النصر

على المسلم بعامة ، وشباب الحركة الإسلامية خاصة : عدم استبطاء النصر ، أو التعجل في تحقيق النتائج ، وقطف الثمار .

فذلك آفة خطيرة . . تؤدي إلى الفشل الذريع ، وتنبئ عن الجهل بسنن الله تعالى ، وعدم سلامة التكوين وصحة التربية .

ومراعاة هذا الدرس : أمر ضروري في إعداد الجيل الذي يحمل الأمانة ، ويعمل على تبليغ الدعوة ، وإقامة النظام .

وهو درس : جد واضح بين الدروس الحركية التي تؤخذ من هجرة النبي ﷺ .

فهذه الهجرة مثلا . . قد تأخرت بعد البعثة النبوية ثلاثة عشر عاما ، كلها مصاعب ومتاعب .

وحتى خلال التمهيد للهجرة . . هؤلاء الأنصار كانوا في أول لقاء مع النبي ﷺ ستة أفراد فقط ،

وبعد عام كامل _ ياه . . ؟ عام كامل ! ! ؟ _ نعم عام كامل ، جاء إليه ﷺ اثنا عشر رجلا فقط ، وهم الذين بايعوه بيعة العقبة الأولى .

وبعد عام كامل كذلك _ ياه . . ! ! عام كامل . . ! ! ؟_ نعم عام كامل ، جاء إليه ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان . . وهم الذين بايعوه بيعة العقبة الثانية .

بهذا النمو العددي البطيء ، والبطء العددي العجيب ، ومع من . . ؟ مع النبي ﷺ ، ولم يتعجل النتائج أو يستبطئ هذا النمو العددي .

والجواب على ذلك كله : أن الهجرة لم تتأخر ، بل إنها لو جاءت قبل ذلك _ ولم تكن لتجئ _ لخالفت سنة الله وحكمته في بناء النفوس قبل بناء الدولة ، فدولة دون أفراد تم بناء نفوسهم : سرعان ما تنهار ، وأفراد تم بناء نفوسهم دون دولة : سرعان ما قد يقيمون الدولة .

ولذلك لم تأت الهجرة ، إلا بعد بناء الأفراد الذين يقيمون الدولة وتربيتهم ، وتمحيصهم .

والنمو العددي البطيء فيما نرى : صاحبه أمر في غاية الأهمية ، هو النمو الكيفي العظيم الهائل .

ولذلك : ما رأينا من النبي ﷺ استخفافا بهذا العدد ، ولا استبطاء لنموه العددي .

خاصة : وأن أعمار الدعوات ونجاح مراحلها . . أمر يقدره الله سبحانه وتعالى بعلمه وحكمته ومشيئته (إنا كل شئ خلقناه بقدر) " ٤٥ "

كما أن النتائج كلها بيد الله تعالى (وما النصر إلا من عند الله) " ٤٦ "

وما علينا إلا أن نأخذ في الأسباب . فنعمل ، ونعمل ، ونحسن العمل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون) " ٤٧ "

فضلا عن أنه _ أي أعمار الدعوات _ أمر لا يقاس بالسنين وعددها ، ولا يقاس بأعمار الأفراد وقصرها ، بل بأمور هي من تدبير الله وصنعه ، وتحديده وتقديره

ولا ينبغي : أن نخضع ما يقدره الله من نجاح ، أو ما يدبره الله لنجاح : إلى موازيننا ، ولا أن نضبط إيقاعه بحسابات أعمارنا .

ومراعاة هذه الفائدة : أمر ضروري وهام . . ! !

وإلا فإننا بتعجلنا : قد نحفر قبر فشلنا بأيدينا ، ونستجلب للدعوة وأهلها الصعاب والعقبات ، وننسف جهود السابقين ، ونضطر إلى البدء _ من جديد ، بلا فائدة _ من أول الطريق الذي قطع فيه من سبقنا أشواطا بعيدة .

وعلى ذلك : فالتعجل ضد طبائع الأشياء أولا ، وضد السنن الإلهية في الدعوات ، وتكوين أفرادها بما يجعلهم مؤهلين للنجاح في حمل أمانتها ، وحسن أداء متطلباتها .

وفهم هذه الفائدة ، وحسن الإفادة منها ، وجدية الالتزام بها : يعين على عدم الوقوع بين براثن اليأس والإحباط ، ويساعد في هدوء الأعصاب ، وشمولية النظرة ، ودقة الأداء ، والإجادة فيه ، وتجنب الأخطاء ، وتحقيق المكاسب ، وضمان الوصول إلى الغايات بتوفيق الله تعالى .

فصل في الهجرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

واما الهجرة الى رسول الله ﷺ فعلم لم يبق منه سوى اسمه ومنهج لم تترك بنيات الطريق سوى رسمه ومحجة سفت عليها السوافي فطمست رسومها وغارت عليها الاعادي فغورت مناهلها وعيونها فسالكها غريب بين العباد فريد بين كل حي وناد بعيد على قرب المكان وحيد على كثرة الجيران مستوحش مما به يستانسون مستانس مما به يستوحشون مقيم اذا ظعنوا ظاعن اذا قطنوا منفرد في طريق طلبة لايقر قراره حتى يظفر به فهو الكائن معهم بجسده البائن منهم بمقصده نامت في طلب الهدى اعينهم وما ليل مطيته بنائم وقعدوا عن الهجرة النبوية وهو في طلبها مشمر قائم يعيبونه بمخالفة ارائهم ويزرون عليه ازراءه على جهالاتهم واهوائهم قد رجموا فيه الظنون واحدقوا فيه العيون وتربصوا به ريب المنون فتربصوا انا معكم متربصون قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون * نحن واياكم نموت فما افلح عند الحساب من ندما *

والمقصود ان هذه الهجرة النبوية شانها شديد وطريقها على غير المعتاد بعيد بعيد على كسلان او ذي ملالة * اما على المشتاق فهو قريب

ولعمر الله ما هي الا نور يتلالا ولكن انت ظلامة وبدر اضاء مشارق الارض ومغاربها ولكن انت غيمة وقتامة ومنهل عذب صاف وانت كدرة ومبتدا لخير عظيم ولكن ليس عندك خبره

فاسمع الآن شان هذه الهجرة والدلالة عليها وحاسب ما بينك وبين الله هل انت من الهاجرين لها او المهاجرين اليها

تعريف الهجرة الى الرسول صلى الله عليه وسلم

فجد هذه الهجرة : سفر النفس في كل مسالة من مسائل الايمان ومنزل من منازل القلوب وحادثة من حوادث الاحكام الى معدن الهدى ومنبع النور الملتقى من فم الصادق المصدوق الذي وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى فكل مسالة طلعت عليها شمس رسالته والا فاقذف بها في بحر الظلمات وكل شاهد عدله هذا المزكي والا فعده من اهل الريب والتهمات فهذا حد هذه الهجرة

فما للمقيم في مدينة طبعه وعوائده القاطن في دار مرباه ومولده القائل : انا على طريقة آبائنا سالكون وانا بحبلهم متمسكون وانا على آثارهم مقتدون ولهذه الهجرة التي كلت عليهم واستند في طريقة نجاحه وفلاحه اليهم معتذرا بان رأيهم خير من رايه لنفسه وان ظنونهم وآراءهم اوثق من ظنه وحدسه .

ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الاخلاد الى ارض البطالة متولدة بين الكسل وزوجه الملالة

هجرتان

والمقصود : ان هذه الهجرة فرض على كل مسلم وهي مقتضى شهادة ان محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم

كما ان الهجرة الاولى مقتضى شهادة ان لااله الاالله

وعن هاتين الهجرتين يسال كل عبد يوم القيامة وفي البرزخ ويطالب بها في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار

قال قتاده : كلمتان يسال عنهما الاولون والاخرون : ماذا كنتم تعبدون وماذا اجبتم المرسلين

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين وقد قال تعالى فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسملوا تسليما

فاقسم سبحانه باجل مقسم به وهو نفسه عز وجل على انه لايثبت لهم الايمان ولايكونون من اهله حتى يحكموا رسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع في جميع ابواب الدين

فإن لفظة ما من صيغ العموم فانها موصلة تقتضي نفي الايمان او يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم .

ولم يقتصر على هذا حتى ضم اليه انشراح صدورهم بحكمه حيث لايجدون في انفسهم حرجا وهو الضيق والحصر من حكمه بل يقبلوا حكمه بالانشراح ويقابلوه بالتسليم لا انهم ياخدونه على اغماض ويشربونه على قذى فان هذا مناف للايمان بل لابد ان يكون اخذه بقبول ورضا وانشراح صدر .

ومتى اراد العبد ان يعلم هذا فلينظر في حاله ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه او على خلاف ما قلد فيه اسلافه من المسائل الكبار وما دونها بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره .

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم ان لو لم ترد وكم من حرارة في اكبادهم منها وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم اليه قوله تعالى ويسلموا تسليما فذكر الفعل مؤكدا بمصدره القائم مقام ذكره مرتين وهو التسليم والخضوع له والانقياد لما حكم به طوعا ورضا وتسليما لاقهرا ومصابرة كما يسلم المقهور لمن قهره كرها بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو احب شئ اليه يعلم ان سعادته وفلاحه في تسليمه اليه ويعلم بانه اولى به من نفسه وابر به منها واقدر على تخليصها .

فمتى علم العبد هذا من رسول الله ﷺ واستسلم له وسلم اليه انقادت له كل علة في قلبه ورأى ان لاسعادة له الا بهذا التسليم والانقياد .

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة بل هو امر انشق القلب واستقر في سويدائه لاتفي العبارة بمعناه ولا مطمع في حصوله بالدعوى والاماني وكل يدعى وصلا لليلى * وليلى لاتقر لهم بذلك

الحب بين العلم والحال

وفرق بين علم الحب وحال الحب فكثيرا ما بشتبه على العبد علم الشئ بحاله ووجوده وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال وهو مثخن بالمرض وبين الصحيح السليم وان لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده

ما في الاية من تاكيد اتباع الرسول

وتامل تاكيده سبحانه لهدا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التاكيد :

اولها : تصديرها بتضمن المقسم عليه للنفي وهو قوله لايؤمنون وهذا منهج معروف في كلام العرب اذا اقسموا على شئ منفى صدروا جملة القسم باداة نفي مثل هذه الاية ومثل مافي قول الصديق عمر رضي الله عنه لاها الله لايعمد الى اسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه

وقول الشاعر : فلا وابيك ابنه العامري * لايدعى القوم اني افر

وقال الاخر * فلا والله لايلقي لما بي ولا لما بهم ابدا دواء * وهذا في كلامهم اكثر من ان يذكر

وتامل جمل القسم التي في القران المصدرة بحرف النفي كيف تجد المقسم عليه منفيا ومتضمنا للنفي ولايحزم هذا قوله تعالى فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقران كريم

فانه لما كان المقصود بهذا القسم نفي ما قاله الكفار في القران : من انـــه شـــعر او كهانه او اساطير الاولين صدر القول باداة النفي ثم اثبت له ما قالوه فتضمنت الايـــة ان ليس الامر كما يزعمون ولكنه قران كريم

ولهذا صرح بالامرين : النفي والاثبات مثل قوله تعالى فلا اقســـم بـــالخنس الجـــوار الكنس والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس انه لقول رسول كريم ذي قوة عنـــد ذي العرش مكين مطاع ثم امين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين ومـــا هـــو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم

وكذلك قوله لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة ايحسب الانسان الن نجمـــع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه

والمقصود : ان افتتاح هذا القسم باداة النفي يقتضي تقوية المقسم عليه وتاكيده وشـــدة انتقائه

وثانيها : تاكيده بنفس القسم

وثالثها : تاكيده بالمقسم به وهو اقسامه بنفسه لا بشئ من مخلوقاته وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة

ورابعها : تاكيده بانتفاء الحرج وهو وجود التسليم

وخامسها : تاكيد الفعل بالمصدر وما هذا التاكيد الا لشدة الحاجة الى هذا الامر العظيم وانه مما يعتني به ويقرر في نفوس العباد بما هو من ابلغ انواع التقرير

حب الرسول صلى الله عليه وسلم

وقال تعالى النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وهو دليل على ان من لم يكن الرســـول اولى به من نفسه فليس من المؤمنين وهذه الاولوية تتضمن امورا

منها : ان يكون احب الى العبد من نفسه لان الاولوية اصلها الحب ونفس العبد احب له من غيره ومع هذا يجب ان يكون الرسول اولى به منها واحب اليه منهـــا فبـــذلك يحصل له اسم الايمان

ويلزم من هذه الاولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لامره وايثاره على ما سواه .

ومنها ان لا يكون للعبد حكم على نفسه اصلا بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها اعظم من حكم السيد على عبده او الوالد على ولده فليس له في نفسه تصرف قط الا ما تصرف فيه الرسول الذي هو اولى به منها .

فيا عجبا كيف تحصل هذه الاولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم ورضي بحكم غيره واطمان اليه اعظم .

من اطمئنانه الى الرسول ﷺ وزعم ان الهدى لايلتقي من مشكاته وانما يتلقى من دلالة العقول وان الذي جاء به لايفيد اليقين الى غير ذلك من الاقوال التي تتضمن الاعراض عنه وعما جاء به والحوالة في العلم النافع الى غيره ذلك هو الضلال البعيد ولا سبيل الى ثبوت هده الاولوية الا بعزل كل ماسواه وتوليته في كل شئ وعرض ما قاله كل احد سواه على ماجاء به فان شهد له بالصحة قبله وان شهد له بالبطلان رده وان لم تتبين شهادته له لابصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة احاديث اهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الامرين اولى به .

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله واقبلت وجوه الحق اليه من كل جهة

ادعياء المحبة

ومن العجب ان يدعي حصول هذه الاولوية والمحبة التامة من كان سعيه واجتهاده ونصبه في الاشتغال باقوال غيره وتقريرها والغضب والمحبة لها والرضا بها والتحاكم اليها وعرض ما قاله الرسول عليها فان وافقها قبله وان خالفها التمس وجوه الحيل وبالغ في رده ليا واعراضا

الاعراض عن الرسول

كما قال تعالى وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا

وقد اشتملت هده الاية على اسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة اليها

قال تعالى يا ايها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولـــو علـــى انفســكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعــدلوا وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا .

فامر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الاية وهذا امر بالقيام به في حق كــل احد عدوا كان او وليا واحق ما قام له العبد بقصد الاقوال والاراء والمذاهب اذ هــي متعلقة بامر الله وخبره

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لامر الله مناف لما بعث به رسوله

والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول في امته وامنائه بين اتباعه ولايستحق اســم الامانة الا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولعباده واولئك هم الوارثون حقا

لامن يجعل اصحابه ونحلته ومذهبه معيارا على الحق وميزانا له يعادي مــن خالفــه ويوالي من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل احد وهو في هدا الباب اعظم فرضا واكبر وجوبا .

شهداء الله

ثم قال شهداء الله الشاهد هو المخبر فان اخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول وان اخبــر بباطل فهو شاهد زور

وامر تعالى ان يكون شهيدا له مع القيام بالقسط وهذا يتضمن ان تكون الشهادة بالقسط وان تكون لله لا لغيره

وقال في الاية الاخرى كونوا قوامين لله شهداء بالقسط فتضمنت الآيتان امورا اربعة

احدهما : القيام بالقسط

الثاني : ان يكون لله

الثالث : الشهادة بالقسط

الرابع : ان تكون لله

واحتضنت آية النساء بالقسط والشهادة لله

وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من اسرار القران ليس هذا موضع ذكره

ثم قال تعالى ولو على انفسكم او الوالدين او الاقربين فامر سبحانه ان يقام بالقسط ويشهد على كل احد ولو كان احب الناس الى العبد فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه الذين هما اصله واقاربه الذين هم اخص به والصديق من سائر الناس فان كان ما في العبد من محبة لنفسه ولوالديه واقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق ولاسيما اذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم فانه لا يقوم به في هذا الحال الا من كان الله ورسوله احب اليه من كل ما سواهما .

وهذا يمتحن به العبد ايمانه فيعرف منزلة الايمان من قلبه ومحله منه وعكس هذا عدل العبد في اعدائه ومن يجفوه فانه لاينبغي ان يحمله بغضه لهم ان يحيف عليهم كما لا ينبغي ان يحمله حبه لنفسه ووالديه واقاربه على ان يترك القيام عليهم بالقسط فلا يدخله ذلك البغض في باطل ولا يقصر به هذا الحب عن الحق كما قال السلف : العادل هو الذي ذا غضب لم يدخله غضبه في باطل واذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق .

اشتملت الايتان على هذين الحكمين وهما القيام بالقسط والشهادة به على الاولياء والاعداء

ثم قال تعالى ان يكن غنيا وفقيرا فالله اولى بهما منكم هو ربهما ومولاهما وهما عبيده كما انكم عبيده فلا تحابوا غنيا لغناه ولا فقيرا لفقره فان الله اولى بهما منكم

وقد يقال فيه معنى اخر احسن من هذا وهو انهم ربما خافوا من القيام بالقسط واداء الشهادة على الغني والفقير

اما الغني فخوفا على ماله واما الفقير فلا عدامه وانه لاشئ له فتتساهل النفوس في القيام عليه بالحق فقيل لهم : والله اولى بالغني والفقير منكم اعلم بهذا وارحم بهذا فلا تتركوا اداء الحق والشهادة على غني ولا فقير

ثم قال تعالى فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل

وقوله تعالى ان تعدلوا منصوب الموضع لانه مفعول لاجله وتقديره عند البصريين كراهية ان تعدلوا او حذر ان تعدلوا فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل او فرارا منه وعلى قول الكوفيين التقدير ان لا تعدلوا وقول البصريين احسن واظهر اللي والاعراض

ثم قال تعالى وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق محذرا منهما ومتوعدا عليهما

احدهما : اللي

والاخر : الاعراض

فإن الحق اذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقا الى دفعها اعرض عنها وامسك عن ذكرها فكان شيطانا اخرس وتارة يلويها ويحرفها

اللي مثال الفتل وهو التحريف وهو نوعان : لي في اللفظ ولي في المعنى

فاللي في اللفظ ان يلفظ بها على وجه لايستلزم الحق اما بزيادة لفظه اونقصانها او ابدالها بغيرها ولي في كيفية ادائها وايهام السامع لفظا وارادة غيره كما كان اليهود يلوون السنتهم بالسلام على النبي ﷺ وغيره فهذا احد نوعي اللي

والنوع الثاني منه : لي المعنى وهو تحريفه وتاويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم وبجهالة مالم يرده أو يسقط منه لبعض المراد به ونحو هذا من لي المعاني فقال تعالى : وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا

ولما كان الشاهد مطالبا باداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها كان الاعراض نظير الكتمان واللي نظير تغييرها وتبديلها

فتأمل ما تحت هذه الاية من كنوز العلم

والمقصود : ان الواجب الذي لايتم الايمان بل لايحصل مسمى الايمان الابه مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والاظهار لها ودعوة الخلق اليها ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللي اخرى

الخيرة لله

وقال تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم فدل هذا على انه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسالة من المسائل حكم طلبي او خبري فانه ليس لاحد ان يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب اليه وان ذلك ليس لمؤمن ولامؤمنة اصلا فدل على ان ذلك مناف للايمان

موقف الائمة من السنة

وقد حكى الشافعي رضي الله تعالى عنه اجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على ان من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له ان يدعها لقول احد ولم يسترب احد من ائمة الاسلام في صحة ماقاله الشافعي رضي الله تعالى عنه .

فان الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة انما هو قول المعصوم الذي لاينطق عن الهوى واما اقوال غيره فغايتها ان تكون سائغة الاتباع فضلا عن ان يعارض بها النصوص وتقدم عليها عياذا بالله من الخذلان وقال تعالى : واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين .

فاخبر سبحانه ان الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها فانه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن انه محتاج في تقريره الدلالة منه لاتقرير كون المفهوم حجة بل هذا من الاحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها اذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه والا لم يكن شرطا له اذا ثبت هذا : فالاية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته.

وفي اعادة الفعل في قوله تعالى : واطيعوا الله واطيعوا الرسول دون الاكتفاء بالفعل الاول سر لطيف وفائدة جليلة سنذكرها عن قريب ان شاء الله تعالى

وقوله تعالى فإن تولوا فانما عليه ما حمل
الفعل للمخاطبين واصله فان تتولوا فحذفت احدى التاءين تخفيفا
والمعنى : انه قد حمل اداء الرسالة وتبليغها وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم
كما ذكره البخاري في صحيحة عن الزهري قال : من الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم
فان تركتم انتم ما حملتموه من الايمان والطاعة فعليكم لا عليه
فانه لم يحمل ايمانكم وانما حمل تبليغكم
وانما حمل اداء الرسالة اليكم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين
ليس عليه هداهم وتوفيقهم
وقال تعالى يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تاويلا
النداء بالايمان
فامر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله
وافتتح الاية بالنداء باسم الايمان المشعر بان المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به كما يقال : يا من انعم الله عليه واغناه من فضله احسن كما احسن الله اليك : ويا ايها العالم علم الناس ما ينفعهم ويا ايها الحاكم احكم بالحق ونظائره
ولهذا كثيرا ما يقع الخطاب في القران بالشرائع كقوله تعالى يايها الذين امنوا كتب عليكم الصيام * يا ايها الذين امنوا اذا نودي للصلاة يا ايها الذين امنوا اوفوا بالعقود
ففي هذا اشارة الى انكم إن كنتم مؤمنين فالايمان يقتضي منكم كذا وكذا فانه من موجبات الايمان وتمامه ثم قال تعالى : يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة اولي الامر وسلط

عليهما عاملا واحدا وقد كان ربما يسبق الى الوهم ان الامر يقتضي عكس هذا فانـــه من يطع الرسول فقد اطاع الله ولكن الواقع هنا في الاية المناسب

وتحته سر لطيف وهو دلالته على ان ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه وان لم يكن مامورا به بعينه في القران طاعة الرسول مفردة ومقرونة فلا يتوهم متـــوهم ان مـــا يامر به الرسول ان لم يكن في القران والا فلا تجب طاعته فيه

كما قال النبي ﷺ يوشك رجل شبعان متكئ على اريكته ياتيه الامر من امري فيقول بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ما وجدنا فيه من شئ اتبعناه الا واني اوتيت الكتاب ومثله معه

في ذكرى الهجرتين الأولى والثانية

زاد المهاجر لابن القيم

لما كثر المسلمون وخاف منهم الكفار اشتد أذاهم له ﷺ وفتنتهم إياهم فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة وقال (إن بها ملكا لا يظلم الناس عنده) فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلا وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وهو أول من خرج ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ فأقاموا في الحبشة في أحسن جوار فبلغهم أن قريشا أسلمت وكان هذا الخبر كذبا فرجعوا إلى مكة فلما بلغهم أن الأمر أشد مما كان رجع منهم من رجع ودخل جماعة فلقوا من قريش أذى شديدا وكان ممن دخل عبد الله بن مسعود.

الحصر في الشعب ثم وفاة خديجة فعمه فخروجه للطائف

ثم أذن لهم في الهجرة ثانيا إلى الحبشة فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا إن كان فيهم عمار فإنه يشك فيه ومن النساء ثمان عشرة امرأة فأقاموا عند النجاشي على أحسن حال فبلغ ذلك قريشا فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة في جماعة ليكيدوهم عند النجاشي فرد الله كيدهم في نحورهم فاشتد أذاهم لرسول الله ﷺ فحصروه وأهل بيته في الشعب شعب أبي طالب ثلاث سنين وقيل سنتين وخرج من الحصر وله تسع وأربعون سنة وقيل ثمان وأربعون سنة وبعد ذلك بأشهر مات عمه أبو طالب وله سبع وثمانون سنة وفي الشعب ولد عبد الله بن عباس فنال الكفار منه أذى شديدا ثم ماتت خديجة بعد ذلك بيسير فاشتد أذى الكفار له فخرج إلى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو إلى الله تعالى وأقام به أياما فلم يجيبوه وآذوه وأخرجوه وقاموا له سماطين فرجموه بالحجارة حتى أدموا كعبيه فانصرف عنهم رسول الله ﷺ راجعا إلى مكة وفي طريقه لقي عداسا النصراني فآمن به وصدقه وفي طريقه أيضا بنخلة صرف إليه نفر من الجن سبعة من أهل نصيبين فاستمعوا القرآن وأسلموا وفي طريقه تلك أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره بطاعته وأن يطبق على قومه أخشبي مكة وهما

جبلاها إن أراد فقال: (لا بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا).

الإسراء

وفي طريقه دعا بذلك الدعاء المشهور (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي) الحديث ثم دخل مكة في جوار المطعم بن عدي ثم أسري بروحه وجسده إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى فوق السموات بجسده وروحه إلى الله عز وجل فخاطبه وفرض عليه الصلوات وكان ذلك مرة واحدة هذا أصح الأقوال.

وقيل كان ذلك مناما وقيل بل يقال أسري به ولا يقال يقظة ولا مناما.

وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة وإلى السماء مناما. وقيل : كان الإسراء مرتين مرة يقظة ومرة مناما.

وقيل بل أسري به ثلاث مرات وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق.

وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك كان قبل أن يوحى إليه فهذا مما عد من أغلاط شريك الثمانية وسوء حفظه لحديث الإسراء. وقيل إن هذا كان إسراء المنام قبل الوحي. وأما إسراء اليقظة فبعد النبوة وقيل بل الوحي هاهنا مقيد وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة والمراد قبل أن يوحى إليه في شأن الإسرار فأسري به فجأة من غير تقدم إعلام والله أعلم.

دعوة القبائل والهجرة إلى المدينة

فأقام ﷺ بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله تعالى ويعرض نفسه عليهم في كل موسم أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة فلم تستجب له قبيلة وادخر الله ذلك كرامة للأنصار فلما أراد الله تعالى إظهار دينه وإنجاز وعده ونصر نبيه وإعلاء كلمته والانتقام من أعدائه ساقه إلى الأنصار لما أراد بهم من الكرامة فانتهى إلى نفر منهم ستة وقيل ثمانية وهم يحلقون رءوسهم عند عقبة منى في الموسم فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فاستجابوا لله ورسوله ورجعوا إلى المدينة فدعوا قومهم

إلى الإسلام حتى فشا فيهم ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زريق ثم قدم مكة في العام القابل اثنا عشر رجلا من الأنصار منهم خمسة من الستة الأولين فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء عند العقبة ثم انصرفوا إلى المدينة فقدم عليه في العام القابل منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهم أهل العقبة الأخيرة فبايعوا رسول الله ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم فترحل هو وأصحابه إليهم واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر نقيبا وأذن رسول الله ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالا متسللين أولهم فيما قيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وقيل مصعب بن عمير فقدموا على الأنصار في دورهم فآووهم ونصروهم وفشا الإسلام بالمدينة ثم أذن الله لرسول الله ﷺ في الهجرة فخرج من مكة يوم الاثنين في شهر ربيع الأول وقيل في صفر وله إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة ومعه أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبد الله بن الأريقط الليثي فدخل غار ثور هو وأبو بكر فأقاما فيه ثلاثا ثم أخذا على طريق الساحل فلما انتهوا إلى المدينة وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وقيل غير ذلك نزل بقباء في أعلى المدينة على بني عمرو بن عوف.

وقيل نزل على كلثوم بن الهدم. وقيل على سعد بن خيثمة والأول أشهر فأقام عندهم أربعة عشر يوما وأسس مسجد قباء ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم فجمع بهم بمن كان معه من المسلمين وهم مائة ثم ركب ناقته وسار وجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم ويأخذون بخطام الناقة فيقول (خلوا سبيلها فإنها مأمورة) فبركت عند مسجده اليوم وكان مربدا لسهل وسهيل غلامين من بني النجار فنزل عنها على أبي أيوب الأنصاري ثم بنى مسجده موضع المربد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن ثم بنى مسكنه ومساكن أزواجه إلى جنبه وأقربها إليه مسكن عائشة ثم تحول بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها وبلغ أصحابه بالحبشة هجرته إلى المدينة

فرجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا فحبس منهم بمكة سبعة وانتهى بقيتهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة ثم هاجر بقيتهم في السفينة عام خيبر سنة سبع.

فوائد ودروس وعبر من هجرة سيد البشر

١ ــ الهجرة من سنن الرسل الكرام :

إن الهجرة في سبيل الله سنة قديمة ، ولم تكن هجرة نبينا محمد ﷺ بدعاً في حياة الرسل لنصرة عقائدهم ، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه من أجل الدعوة حفاظاً عليها وإيجاد بيئة خصبة تتقبلها وتستجيب لها وتذود عنها ، فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم لنفس الأسباب التي دعت نبينا للهجرة .

وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها بل يعوق مسارها ويشل حركتها ، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر ، وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم من الأمم الماضية لتبدو لنا في وضوح سنة من سنن الله في شأن الدعوات يأخذ بها كل مؤمن من بعدهم إذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده واعتدي على مروءته وكرامته(١).

٢ ــ الصراع بين الحق والباطل صراع قديم وممتد :

وهو سنة إلهية نافذة ، قال عز وجل : ؟ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولوا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ؟ (سورة الحج ، الآية:٤٠).

ولكن هذا الصراع معلوم العاقبة : ؟ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ؟ (المجادلة: الآية٢١) .

٣ــ مكر خصوم الدعوة بالداعية أمر مستمر متكرر :

سواء عن طريق الحبس أو القتل أو النفي والإخراج من الأرض ، وعلى الداعية أن يلجأ إلى ربه وأن يثق به ويتوكل عليه ويعلم أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله(٢)، كما قال عز وجل: ؟ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين؟ (سورة الأنفال: الآية ٣٠) .

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدعوة استخدام سلاح المال لإغراء النفوس الضعيفة للقضاء على الدعوة والدعاة ولذلك رصدوا مائة ناقة لمن يأتي بأحد المهاجرين حياً أو ميتاً، فتحرك الطامعون ومنهم سراقة ، الذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة مادياً بأوفر ربح وأطيب رزق، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمي الطريق على الطامعين الآخرين الذين اجتهدوا في الطلب، وهكذا يرد الله عن أوليائه والدعاة(٣) ، قال تعالى: ؟ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ؟ (الأنفال : الآية ٣٦) .

٤ــ الإيمان بالمعجزات الحسية :

وفي هجرة النبي ﷺ وقعت معجزات حسية، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسول الله ﷺ ، ومن ذلك ــ على ما روي ــ نسيج العنكبوت على فم الغار ، ومنها ما جرى لرسول الله ﷺ مع أم معبد ، وما جرى له مع سراقة، ووعده إياه بأن يلبس سواري كسرى، فعلى الدعاة أن لا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتة بالسنة النبوية، على أن ينبهوا الناس على أن هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوته ورسالته عليه السلام(٤).

٥ ــ جواز الاستعانة بالكافر المأمون :

ويجوز للدعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمن بدعوتهم ما داموا يثقون بهم ويأتمنوهم على ما يستعينون به معهم ، فقد رأينا أن النبي ﷺ وأبا بكر استأجرا مشركاً ليدلهم على طريق الهجرة ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه عند غار ثور، وهذه أمور خطيرة أطلعاه عليها ، ولا شك أن النبي ﷺ وصاحبه وثقا به وأمناه ، مما يدل على أن الكافر أو العاصي أو غير المنتسب إلى الدعاة قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدعاة بهم ، كأن تربطهم رابطة القرابة أو المعرفة القديمة أو الجوار أو عمل معروف كان قد قدمه الداعية لهم . أو لأن هؤلاء عندهم نوع جيد من الأخلاق الأساسية مثل الأمانة وحب عمل الخير إلى غير ذلك من الأسباب ، والمسألة تقديرية يترك تقديرها إلى فطنة الداعي ومعرفته بالشخص(٥).

٦ ــ دور المرأة في الهجرة :

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماء كثيرة كان لها فضل كبير ونصيب وافر من الجهاد : منها عائشة بنت أبي بكر الصديق التي حفظت لنا القصة ووعتها وبلغتها للأمة ، وأم سلمة المهاجرة الصبور ، وأسماء ذات النطاقين(٦) التي ساهمت في تموين الرسول ﷺ وصاحبه في الغار بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله ؟ فقد حدثتنا عن ذلك فقالت : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده ــ وكان فاحشاً خبيثاً ــ فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي قالت: ثم انصرفوا)(٧).

فهذا درس من أسماء رضي الله عنها تعلمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل كيف تخفي أسرار المسلمين من الأعداء ، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم؟ وأما درسها الثاني البليغ ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة ، وقد ذهب بصره، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : كلا يا أبت، ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه ، فقال: لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك)(٨).

وبهذه الفطنة والحكمة سترت أسماء أباها ، وسكنت قلب جدها الضرير ، من غير أن تكذب ، فإن أباها قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار التي كومتها لتطمئن لها نفس الشيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج ، ولا يتأثر بقلة أو كثرة في المال ، وورثهم يقيناً وثقه به لا حد لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي الأمور ، ولا تلتفت إلى سفاسفها ، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عز أن يتكرر ، وقل أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هن في أمس الحاجة إلى الاقتداء به، والنسج على منواله .

وظلت أسماء مع إخوتها في مكة ، لا تشكو ضيقاً ، ولا تظهر حاجة ، حتى بعث النبي ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد ، وأم بركة المكناة بأم أيمن ، وخرج معهما عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ، فيهم عائشة وأسماء ، فقدموا المدينة ، فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان(٩).

٧ ــ أد الأمانة إلى من ائتمنك :

كانت أمانات المشركين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وفي إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع محاربتهم له وتصميمهم على قتله دليل باهر على تناقضهم العجيب الذي كانوا واقعين فيه، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر أو مجنون أو كذاب لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه ، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به ، وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم(١٠) ، وصدق الله العظيم : ؟ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ؟ (سورة الأنعام: الآية٣٣).

وفي أمر الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكة ، رغم هذه الظروف الشديدة التي كان من المفروض أن يكتنفها الاضطراب ، بحيث لا يتجه التفكير إلا إلى إنجاح خطة هجرته فقط، رغم ذلك فإن الرسول ﷺ ما كان لينسى أو ينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها، حتى ولو كان في أصعب الظروف التي تنسي الإنسان نفسه فضلاً عن غيره(١١).

٨ ــ اليد العليا في الدعوة خير من اليد السفلى :

لم يقبل رسول الله ﷺ أن يركب الراحلة حتى أخذها بثمنها من أبي بكر رضي الله عنه واستقر الثمن ديناً بذمته ، وهذا درس واضح بأن حملة الدعوة ما ينبغي أن يكونوا عالة على أحد في وقت من الأوقات ، فهم مصدر العطاء في كل شيء .

إن يدهم إن لم تكن العليا فلن تكن السفلى ، وهكذا يصر عليه السلام أن يأخذها بالثمن وسلوكه ذلك هو الترجمة الحقة لقوله تعالى: ؟ وما أسالكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ؟ (سورة الشعراء: الآية١٠٩) .

إن الذين يحملون العقيدة والإيمان ويبشرون بهما ما ينبغي أن تمتد أيديهم إلى أحد ــ إلا الله ــ لأن هذا يتناقض مع ما يدعون إليه وقد تعود الناس أن يعوا لغة الحال لأنها أبلغ من لغة المقال ، وما تأخر المسلمون وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أصبحت وسائل الدعوة والعاملين بها خاضعة للغة المادة ، ينتظر الواحد منهم مرتبة ، ويومها تحول العمل إلى عمل مادي فقد الروح والحيوية والوضاءة ، وأصبح للأمر بالمعروف موظفون ، وأصبح الخطباء موظفين ، وأصبح الأئمة موظفين .

إن الصوت الذي ينبعث من حنجرة وراءها الخوف من الله والأمل في رضاه غير الصوت الذي ينبعث ليتلقى دراهم معدودة ، فإذا توقفت توقف الصوت، وقديماً قالوا: ليست النائحة كالثكلى ولهذا قلَّ التأثيرُ وبعدَ الناسُ عن جادَّةِ الصوابِ(١٢).

٩ ــ عفة الداعية عن أموال الناس :

لما عفا النبي ﷺ عن سراقة عرض عليه سراقة المساعدة فقال: (وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك فقال رسول الله ﷺ : لا حاجة لي فيها)(١٣).

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ، قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ ، قَالَ : ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ "رواه ابن مجاة وغيره وهو حديث صحيح لغيره

فحين يزهد الدعاة فيما عند الناس يحبهم الناس ، وحين يطمعون في أموال الناس ينفر الناس عنهم ، وهذا درس بليغ للدعاة إلى الله تعالى(١٤).

١٠ ــ جندية منقطعة النظير:

تظهر أثر التربية النبوية في جندية أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فأبو بكر رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة وقال له رسول الله ﷺ : (لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً) فقد بدأ في الإعداد والتخطيط للهجرة (فابتاع راحلتين واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك) وفي رواية البخاري، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر ــ وهو الخبط ــ أربعة أشهر) . لقد كان يدرك بثاقب بصره رضي الله عنه وهو الذي تربى ليكون قائداً ، أن لحظة الهجرة صعبة قد تأتي فجأة ولذلك هيأ وسيلة الهجرة ، ورتب تموينها ، وسخر أسرته لخدمة النبي ﷺ ، وعندما جاء رسول الله ﷺ وأخبره أن الله قد أذن له في الخروج والهجرة، بكا من شدة الفرح وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ ، إنها قمة الفرح البشري؛ أن يتحول الفرح إلى بكاء ، كما قال الشاعر عن هذا :

ورد الكتاب من الحبيب بأنه سيزورني فاستعبرت أجفاني
غلب السرور علي حتى إنني من فرط ما قد سرني أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادة تبكين من فرح ومن أحزاني

فالصديق رضي الله عنه يعلم أن معنى هذه الصحبة ، أنه سيكون وحده برفقة رسول رب العالمين بضعة عشر يوماً على الأقل وهو الذي سيقدم حياته لسيده وقائده وحبيبه المصطفى ﷺ فأي فوز في هذا الوجود يفوق هذا الفوز : أن يتفرد الصديق وحده من دون أهل الأرض ومن دون الصحب جميعاً برفقة سيد الخلق وصحبته كل هذه المدة(١٥)، وتظهر معاني الحب في الله في خوف أبي بكر وهو في الغار من أن يراهما المشركون ليكون الصديق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على حياته؛ فما كان أبو بكر ساعتئذ بالذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم ﷺ ، وعلى مستقبل الإسلام إن

وقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين(١٦) ، ويظهر الحس الأمني الرفيع للصديق في هجرته مع النبي ﷺ في مواقف كثيرة منها؛ حين أجاب السائل : من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فقال: هذا هاد يهديني السبيل ، فظن السائل بأن الصديق يقصد الطريق، وإنما كان يقصد سبيل الخير ، وهذا يدل على حسن استخدام أبي بكر للمعاريض فراراً من الحرج أو الكذب(١٧) وفي إجابته للسائل تورية وتنفيذ للتربية الأمنية التي تلقاها من رسول الله ﷺ ، لأن الهجرة كانت سراً وقد أقره الرسول ﷺ على ذلك(١٨) ، وفي موقف علي بن أبي طالب مثال للجندي الصادق المخلص لدعوة الإسلام ، حيث فدى قائده بحياته ، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها ، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة من بياته على فراش الرسول ﷺ ، إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه ولكن علياً رضي الله عنه لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول الله صلى الله ﷺ نبي الأمة وقائد الدعوة(١٩).

١١ ــ حسن القيادة والرفق في التعامل :

يظهر الحب العميق الذي سيطر على قلب أبي بكر لرسول الله ﷺ في الهجرة ، كما يظهر حب سائر الصحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ وهذا الحب الرباني كان نابعاً من القلب، وبإخلاص ، لم يكن حب نفاق أو نابعاً من مصلحة دنيوية ، أو رغبة في منفعة أو رهبة لمكروه قد يقع ، ومن أسباب هذا الحب لرسول الله ﷺ صفاته القيادية الرشيدة ، فهو يسهر لينام ، ويتعب ليستريحوا، ويجوع ليشبعوا ، كان يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم ، فمن سلك سنن الرسول ﷺ مع صحابته ، في حياته الخاصة والعامة ، وشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم وكان عمله لوجه الله أصابه من هذا الحب إن كان من الزعماء أو القادة أو المسئولين في أمة الإسلام(٢٠).

وصدق الشاعر الليبي عندما قال :

فإذا أحب الله باطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتاح

وإذا صفت لله نية مصلح مال العباد عليه بالأرواح(٢١)

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شـــيء وتســـتطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها ، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود ، فقد كان ﷺ رحيماً وشـــفوقاً بجنـــوده وأتباعه ، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبق إلا المستضـــعفين والمفتونين ومن كانت له مهمات خاصة بالهجرة(٢٢).

١٢ ــ استمرار الدعوة في أحلك الظروف :

أ ــ في الطريق أسلم بريدة الأسلمي رضي الله عنه في ركب من قومه :

إن المسلم الذي تغلغلت الدعوة في شغاف قلبه لا يفتر لحظة واحدة عن دعوة النـــاس إلى دين الله تعالى ، مهما كانت الظروف قاسية والأحوال مضطربة ، والأمن مفقود ، بل ينتهز كل فرصة مناسبة لتبليغ دعوة الله تعالى ، هذا نبي الله تعالى يوسف عليـــه السلام حينما زج به في السجن ظلماً ، واجتمع بالسجناء في السجن، فلم يندب حظه ، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة عن دعوة التوحيد وتبليغها للنـــاس ومحاربـــة الشـــرك وعبادة غير الله والخضوع لأي مخلوق قال تعالى : ؟ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قـــوم لا يؤمنـــون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنـــا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثـــر النـــاس لا يشكرون يا صاحبي السجن ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكـــم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؟ (سورة يوســـف: الآيات٣٧-٤٠) .

وسورة يوسف عليه السلام مكية ، وقد أمر الله تعالى رسوله محمـــداً ﷺ أن يقتـــدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله ولذلك نجده ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة وقد كان مطارداً من المشركين قد أهدروا دمه وأغروا المجـــرمين مـــنهم بـــالأموال

الوفيرة ليأتوا برأسه حياً أو ميتاً ، ومع هذا فلم ينس مهمته ورسالته ، فقد لقي ﷺ في طريقه رجلاً يقال له بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه في ركب من قومه ، فدعاهم إلى الإسلام فآمنوا وأسلموا(٢٣).

وذكر ابن حجر العسقلاني ــ رحمه الله ــ : (أن النبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة لقي بريدة بن الحصيب بن عبدالله بن الحارث الأسلمي، فدعاه إلى الإسلام، وقد غزا مع الرسول ﷺ ست عشرة(٢٤) غزوة وأصبح بريدة بعد ذلك من الدعاة إلى الإسلام وفتح الله لقومه أسلم على يديه أبواب الهداية* ، واندفعوا إلى الإسلام وفازوا بالوسام النبوي الذي نتعلم منه منهجاً فريداً في فقه النفوس(٢٥) قال صلى الله عليه وسلم: (أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، أما والله ما أنا قلته ولكن الله قال)(٢٦) .

ب ــ وفي طريق الهجرة أسلم لصان على يدي رسول الله ﷺ :

كان في طريقه ﷺ بالقرب من المدينة لصان من أسلم يقال لهما المهانان ، فقصدهم ﷺ وعرض عليهما الإسلام فأسلما ثم سألهما عن أسمائهما فقالا نحن المهانان ، فقال : بل المكرمان ، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة(٢٧) ، وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه ﷺ بالدعوة إلى الله حيث اغتنم فرصة في طريقه ودعا اللصين إلى الإسلام ، فأسلما ، وفي إسلام هذين اللصين مع ما ألفاه من حياة البطش والسلب والنهب دليل على سرعة إقبال النفوس على اتباع الحق إذا وجد من يمثله بصدق وإخلاص ، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرف ، وفي اهتمام الرسول ﷺ بتغيير اسمي هذين اللصين من المهانين إلى المكرمين دليل على اهتمامه ﷺ بسمعة المسلمين ومراعاته مشاعرهم إكراماً لهم ورفعاً لمعنوياتهم .

وإن في رفع معنوية الإنسان تقوية لشخصيته ودفعاً له إلى الأمام ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والفلاح(٢٨).

١٣ ــ أهمية العقيدة والدين في إزالة العداوة والضغائن :

إن العقيدة الصحيحة السليمة والدين الإسلامي العظيم لهم أهمية كبـــرى فـــي إزالـــة العداوات والضغائن ، وفي التأليف بين القلوب والأرواح ، وهو دور لا يمكن لغيـــر العقيدة الصحيحة أن تقدم به وها قد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلامية بـــين الأوس والخزرج ، وأزالت آثار معارك استمرت عقوداً من الزمن ، وأغلقت ملف العقيدة في نفوس الأنصار ، فاستقبلوا المهاجرين بصدور مفتوحة ، وتآخوا معهم في مثالية نادرة ، لا تزال مثار الدهشة ومضرب المثل ، ولا توجد في الدنيا فكرة أو شعار آخر فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصافية في النفوس .

ومن هنا ندرك السر في سعي الأعداء الدائب إلى إضعاف هذه العقيدة وتقليل تأثيرها على نفوس المسلمين ، واندفاعهم المستمر نحو تذكية النعرات العصـــبية والوطنيـــة والقومية وغيرها ، وتقديمها كبديل للعقيدة الصحيحة(٢٩).

١٤ ــ الحفاوة بالدعوة وحاملها :

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب من أنصار ومهاجرين بقـــدوم رســـول الله ﷺ ووصوله إليهم سالماً فرحة أخرجت النساء من بيوتهن والولائد، وحملت الرجال على ترك أعمالهم ، وكان موقف يهود المدينة موقف المشارك لسكانها في الفرحة ظاهراً ، والمتألم من منافسة الزعامة الجديدة باطناً ، أما فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم ، فـــلا عجب فيها ، وهو الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور ، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وأما موقف اليهود فلا غرابة فيه ، وهم الذين عرفوا بالملق والنفاق للمجتمع الذي فقدوا السيطرة عليه ، وبالغيظ والحقد الأسود على من يسلبهم زعـــامتهم مـــن الشعوب ، ويحول بينهم وبين سلب آمالهم باسم القروض ، وسفك دمائها باسم النصح والمشورة ، وما زال اليهود يحقدون على كل من يخلص الشعوب مـــن ســـيطرتهم ، وينتهون من الحقد إلى الدس والمؤامرات ، ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا ، ذلك دينهم ، وتلك جبلتهم(٣٠).

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله ﷺ مشروعية استقبال الأمراء والعلماء ، عند مقدمهم بالحفاوة والإكرام ، فقد حدث ذلك لرسول الله ﷺ ، وكان هذا

الإكرام وهذه الحفاوة نابعين من حب للرسول بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكماء في عالمنا المعاصر، ويستفاد كذلك التنافس في الخير وإكرام ذوي العلم والشرف ، فقد كانت كل قبيلة تحرص أن تستضيف رسول الله ﷺ ، وتعرض أن يكون رجاله حراساً له ، ويؤخذ من هذا إكرام العلماء والصالحين ، واحترامهم وخدمتهم(٣١).

١٥ ــ بين القدوة في الهجرة والتشريف في المعراج :

كانت الهجرة النبوية الشريفة على النحو الذي كانت عليه ، وسارت على الوضع الذي يسلكه كل مهاجر ، حتى توجد القدوة ، وتتحقق الأسوة ، ويسير المسلمون على نهج مألوف ، وسبيل معروف ، ولذلك ، فلم يرسل الله ــ عز وجل ــ له ﷺ البراق ليهاجر عليه كما حدث في ليلة الإسراء ، مع أن الرسول ﷺ في يوم هجرته أحوج إلى البراق منه في أي وقت آخر؛ لأن القوم يتربصون به هنا ولم يكن هناك تربص في ليلة الإسراء ، ولو ظفروا به في هجرته لشفوا نفوسهم منه بقتله ، والحكمة في ذلك ــ والله أعلم ــ أن الهجرة كانت مرحلة طبيعية من مراحل تطور الدعوة ووسيلة من أهم وسائل نشرها وتبليغها ، ولم تكن خاصة برسول الله ﷺ بل كان غيره من المؤمنين مكلفين بها ، حين قطع الإسلام الولاية(٣٢) ، بين المهاجرين وغير المهاجرين القادرين على الهجرة ، قال تعالى: ؟ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اله والذين ءاووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ؟ (سورة الأنفال : الآية ٧٢) .

أما رحلة الإسراء والمعراج فقد كانت رحلة تشريف وتقدير ، كما كانت إكراماً من الله ــ عز وجل ــ لنبيه ليطلعه على علم الغيب ويريه من آياته الكبرى ، فالرحلة من أولها إلى آخرها خوارق ومعجزات ومشاهد للغيبيات، فناسب أن تكون وسيلتها مشابهة لغايتها .

زد على ذلك أن رحلة الإسراء خصوصية للرسول ﷺ ، وليس لأحد من النـــاس أن يتطلع لمثلها ، ولسنا مطالبين بالاقتداء به فيها ، ولذا فإن حصولها على النحو الـــذي كانت عليه هو أنسب الأوضاع لحدوثها(٣٣).

١٦ ــ وضوح سنة التدرج :

حيث نلاحظ : أن رسول الله ﷺ عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى لـــم يفعـــل سوى ترغيبهم في الإسلام وتلاوة القرآن عليهم ، فلما جاءوا في العام التالي بـــايعهم بيعة النساء على العبادات والأخلاق والفضائل ، فلما جاءوا في العام التالي كانت بيعة العقبة الثانية على الجهاد والنصر والإيواء(٣٤).

وجدير بالملاحظة أن بيعة الحرب لم تتم إلا بعد عامين كاملين ، أي بعد تأهيل وإعداد استمر عامين كاملين ، وهكذا تم الأمر على تدرج ينسجم مع المنهج التربوي الـــذي نهجت عليه الدعوة من أول يوم(٣٥).

إنه المنهج الذي هدى الله نبيه إلى التزامه ، ففي البيعة الأولى بايعه هؤلاء الأنصـــار الجدد على الإسلام عقيدة ومنهاجاً وتربية ، وفي البيعة الثانية بايعه الأنصـــار علـــى حماية الدعوة ، واحتضان المجتمع الإسلامي الذي نضجت ثماره، واشتدت قواعـــده قوة وصلابة .

إن هاتين البيعتين أمران متكاملان ضمن المنهج التربوي للدعوة الإسلامية وإن الأمر الأول هو المضمون ، والأمر الثاني وهو بيعة الحرب هو السياج الذي يحمـــي ذلـــك المضمون ، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام ولـــيس فـــور إعلانهم .

بعد عامين إذ تم إعدادهم حتى غدوا موقع ثقة وأهلاً لهذه البيعة ، ويلاحظ أن بيعـــة الحرب لم يسبق أن تمت قبل اليوم مع أي مسلم ، إنما حصلت عندما وجدت الـــدعوة في هؤلاء الأنصار وفي الأرض التي يقيمون فيها المعقل الملائم الذي ينطلـــق منـــه المحاربون ، لأن مكة لوضعها عندئذ لم تكن تصلح للحرب(٣٦).

وقد اقتضت رحمة الله بعباده (أن لا يحملهم واجب القتال ، إلى أن توجد لهم دار الإسلام ، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه ، ويلوذون به ، وقد كانت المدينة المنورة أول دار الإسلام(٣٧).

لقد كانت البيعة الأولى قائمة على الإيمان بالله ورسوله ﷺ والبيعة الثانية على الهجرة والجهاد ، وبهذه العناصر الثلاثة : الإيمان بالله ، والهجرة ، والجهاد ، يتحقق وجود الإسلام في واقع جماعي ممكن والهجرة لم تكن لتتم لولا وجود الفئة المستعدة للإيواء ولهذا قال تعالى : ؟ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير؟ (سورة الأنفال : الآية ٧٢) ، وقال تعالى : ؟ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم ؟ (سورة الأنفال:٧٥).

وقد كانت بيعة الحرب هي التمهيد الأخير لهجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وبذلك وجد الإسلام موطنه الذي ينطلق منه دعاة الحق بالحكمة والموعظة (الحسنة) وتنطلق منه جحافل الحق المجاهدة أول مرة ، وقامت الدولة الإسلامية المحكمة لشرع الله(٣٨).

١٧ ــ التضحية في الهجرة :

كانت هجرة النبي ﷺ وأصحابه عن البلد الأمين تضحية عظيمة عبر عنها النبي ﷺ بقوله : (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)(٣٩) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله في الحمى ، وكان واديها يجري نجلاً ــ يعني ماء آجناً ــ فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه ، قال : فكان أبوبكر، وعامر بن فهيرة ،

وبلال في بيت واحد ، فأصابتهم الحمى ، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب وبهما ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك(٤٠)، فدنوت من أبي بكر فقلت : يا أبت كيف تجدك؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

قالت : فقلت والله ما يدري أبي ما يقول : ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت : كيف تجدك يا عامر؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه(٤١) كالثور يحمي جلده بروقه(٤٢)

قالت : فقلت : والله ما يدري عامر ما يقول . قالت : وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت ثم يرفع عقيرته(٤٣) ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً بواد وحولي إذخر(٤٤) وجليل

وهل أُرِدَن يوماً مياه مَجنَة وهل يبدون لي شامة وطفيل(٤٥)

قالت : فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال : (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة ، أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل حماها واجعلها بالجحفة)(٤٦).

ولا يخفى دور أم معبد رضي الله عنها في الهجرة، فكانت مكافأتها منه ﷺ جزيلة. فقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكل الوافدين والمهاجرين إليها من المسلمين على تنوع بيئاتهم ومواطنهم(٤٧) .

١٨ ــ حسن المكافأة :

وقد روي أنها كثرت غنمها ونمت حتى جلبت منها جلباً إلى المدينة ، فمر أبو بكر ، فرآه ابنها فعرفه ، فقال : يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك ، فقامت إليه فقالت: يا عبدالله من الرجل الذي كان معك؟ قال : أو ما تدرين من هو؟ قالت: لا، قال : هو نبي الله ، فأدخلها عليه ، فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها ــ وفي رواية :

فانطلقت معي وأهدت لرسول الله ﷺ شيئاً من أقط ومتاع الأعراب ، فكساها وأعطاها ، قال : ولا أعلمه إلا قال : وأسلمت ، وذكر صاحب (الوفاء) أنها هاجرت هي وزوجها ، وأسلم أخوها حبيش، واستشهد يوم الفتح(٤٨).

١٩ ــ هكذا يكون الأتباع :

قال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه : (ولما نزل علي رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله ــ بأبي أنت وأمي ــ إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فأظهر أنت فكن في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفل . فقال : يا أبا أيوب: إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت قال : فلقد انكسر جب لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه(٤٩).

٢٠ ــ الهجرة النبوية نقطة تحول في تاريخ الحياة :

كانت الهجرة النبوية من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة أعظم حدث حول مجرى التاريخ ، وغير مسير الحياة ومناهجها التي كانت تحياها ، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف وعادات وأخلاق وسلوك للأفراد والجماعات وعقائد و تعبدات وعلم ، ومعرفة ، وجهالة وسفه ، وضلال وهدى ، وعدل وظلم(٥٠) .

---

(١) – انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص١٧٥ .

(٢) – انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص١٩٩ .

(٣) – نفس المصدر السابق ، ص٢٠٠ .

(٤) – انظر : المستفاد من قصص القرآن (١٠٨/٢) .

(٥) – انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص٢٠٦ .

(٦) – انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص٢٠٦ .

(٧) – انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص١٢٦ .

(٨) – انظر : السيرة البنوية لابن هشام (١٠٢/٢) إسناده صحيح .

(٩) – انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص١٢٨ .

(١٠) – انظر : فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان ص١٩٣ .

(١١) – انظر : الهجرة في القرآن الكريم : ص٣٦٤ .

(١٢) – انظر : معين السيرة : ص١٤٨ ، ١٤٩ .

(١٣) – المسند (٣/١) تحقيق : أحمد محمد شاكر .

(١٤) – انظر : في ظلال الهجرة النبوية : ص٥٨ .

(١٥) – انظر : التربية القيادية (١٩١/٢، ١٩٢) .

(١٦) – السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي ، ص٧١ .

(١٧) – انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص٢٠٤ .

(١٨) – انظر : السيرة النبوية لأبي فارس ، ص٢٥٤ .

(١٩) – انظر : السيرة النبوية للسباعي ، ص٦٨ .

(٢٠) – انظر : الهجرة النبوية لأبي فارس ، ص٥٤ .

(٢١) – انظر : الحركة السنوسية في ليبيا للصلابي (٧/٢) والشاعر هو أحدم رفيق المهدوي .

(٢٢) – انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص٢٠٥ .

(٢٣) – انظر : الهجرة النبوية لأبي فارس ، ص٥٩ . شرح المواهب (٤٠٥/١)

(٢٤) – انظر : الإصابة (١٤٦/١) .

* – وفتح الله لقوم أسلم أبواب الهداية على يديه . لعل العبارة هكذا أوضح مما هـــي عليه .

(٢٥) – انظر : المستدرك على الصحيحين (٩٢/٤) رقم ٦٩٨١ صحيح الإسناد .

(٢٦) – صحيح الجامع الصغير (٣٣٨/١) رقم ٩٨٦ .

(٢٧) – الفتح الرباني للساعاتي (٢٨٩/٢٠) .

(٢٨) – انظر : التاريخ الإسلامي للحميدي (١٧٨/٣) .

(٢٩) – انظر : السيرة النبوية المباركة ، ص٢٠٥ ..

(٣٠) – انظر : السيرة النبوية للسباعي ، ص٤٣ ، الهجرة في القرآن الكريم ، ص٣٦٧ .

(٣١) – انظر : السيرة النبوية لأبي فارس ، ص٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(٣٢) – انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص٣٦٥ .

(٣٣) – انظر : تأملات في سيرة الرسول ﷺ ، محمد سيد الوكيل ، ص١٠٣ ، ١٠٤ بتصرف .

(٣٤) – انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص٢٠٢ .

(٣٥) – انظر : بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة ، محمد توفيق ، ص١١٩ .

(٣٦) – نفس المصدر ، ص١٢٢ ، ١٢٣ .(٣٧) – انظر : فقه السيرة للبوطي ، ص١٧٢ .(٣٨) – انظر : الغرباء الأولون ، ص١٩٨، ١٩٩ .

(٣٩) – الترمذي ، كتاب المناقب ، باب فضل مكة (٧٢٢/٥) رقم ٣٩٢٥ .

(٤٠) – الوعك : الحمى . (٤١) – بطوقه : بطاقته .(٤٢) – بروقه : بقرنه .

(٤٣) – عقيرته : صوته ، قال الأصمعي : إن رجلاً عقرت بجله فرفعها على الأخرى وجعل يصيح ، فصار كل من رفع صوته يقال له : رفع عقيرتهن وإن لم يرفع رجله .

(٤٤) – الإذخر : نبات طيب الرائحة .

(٤٥) – شامة وطفيل : جبلان مشرفان على مجنة على بريد مكة .

(٤٦) – البخاري ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء يرفع الوباء والوجع ، رقم ٦٣٧٢ .

(٤٧) – انظر : التربية القيادية (٣١٠/٢) .

(٤٨) – انظر السيرة النبوية لأبي شهبة (٤٨٩/١ ، ٤٩٠) .

(٤٩) – انظر : السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢٢٠/١) .

(٥٠) – انظر : محمد رسول الله ، محمد الصادق عرجون (٤٢٣/٢) .

فى ظلال الهجرة النبوية

بعد أن نجحت بيعت العقبة الثانية، وأصبح الأنصار يمثلون عددًا لا بأس به في المدينة المنورة وَقبِل الأنصار أن يستقبلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأبناءهم وأموالهم.. بعد كل هذه الأمور العظيمة، والتي حدثت في فترة وجيزة جدًّا.. جاء الوحي إلى رسول الله ﷺ يأذن له بفتح باب الهجرة لأصحابه إلى المدينة المنورة..

كل من يستطيع أن يهاجر فليهاجر.. بل يجب أن يهاجر..

يستوي في ذلك الضعفاء والأقوياء.. الفقراء والأغنياء.. الرجال والنساء.. الأحرار والعبيد..

الكل يجب أن يهاجر إلى المدينة.. فهناك مشروع ضخم سيُبنى على أرض المدينة.. وهو مشروع يحتاج إلى كل طاقات المسلمين.. هذا هو مشروع إقامة الأمة الإسلامية!..

ولن يسمح لمسلم صادق بالقعود عن المشاركة في بناء هذا الصرح العظيم..

انظروا إلى الآيات تتحدث عن الهجرة:

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}.

الهجرة لم تكن أمراً سهلاً ميسوراً.. الهجرة لم تكن ترك بلد ما إلى بلد ظروفه أفضل، وأمواله أكثر، الهجرة كانت تعني ترك الديار.. وترك الأموال.. وترك الأعمال.. وترك الذكريات.. الهجرة كانت ذهابًا للمجهول.. لحياة جديدة.. لا شك أنها ستكون

شاقة.. وشاقة جدًّا.. الهجرة كانت تعني الاستعداد لحرب هائلة.. حرب شاملة.. ضد كل المشركين في جزيرة العرب.. بل ضد كل العالمين.. الحرب التي صوّرها الصحابي الجليل العباس بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه على أنها الاستعداد لحرب الأحمر والأسود من الناس.

هذه هي الهجرة.. ليست هروباً ولا فراراً، بل كانت استعداداً ليوم عظيم.. أو لأيام عظيمة..

لذلك عظّم الله جدًّا من أجر المهاجرين.. {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}.

صدر الأمر النبوي لجميع المسلمين القادرين على الهجرة أن يهاجروا، لكن لم يبدأ هو ﷺ في الهجرة إلا بعد أن هاجر الجميع إلى المدينة.. فلم يكن من همه ﷺ أن ينجو بنفسه، وأن يُؤَمِّنَ حاله، وأن يحافظ على أمواله.. إنما كان كل همه ﷺ أن يطمئن على حال المسلمين المهاجرين.. كان ﷺ يتصرف كالربّان الذي لا يخرج من سفينته إلا بعد اطمئنانه على كل الركاب أنهم في أمان.. فالقيادة عنده ليست نوعًا من الترف أو الرفاهية.. إنما القيادة مسئولية وتضحية وأمانة.

ونستطيع أن نلاحظ بعض الملامح الهامة لهجرة المسلمين من مكة إلى المدينة:

(١) الاهتمام بقضية النية:

لماذا تهاجر؟

روى البخاري عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ".

ومع أن الهجرة للزواج ليست محرمة.. ومع أن الهجرة لإصابة الدنيا الحلال ليست محرمة.. لكن هذه هجرة ليست كالهجرة لبناء أمة إسلامية.

وهيهات أن يكون الذي ترك كل ما يملك ابتغاء مرضات الله وسعيًا لإنشاء أمة إسلامية ورغبةً في تطبيق شرع الله عز وجل في الأرض.. كالذي عاش لحياته فقط.. وإن كانت حياتُه حلالاً.

(٢) الهجرة الكاملة لكل المسلمين لم تكن إلا بعد أن أُغلقت أبواب الدعوة تمامًا في مكة.. وقد أغلقت أبواب الدعوة منذ ثلاث سنوات.. بعد موت أبي طالب والسيدة خديجة رضي الله عنها.. ومنذ ذلك التاريخ، والرسول ﷺ يخطط للهجرة.. وكان من الممكن أن يكون مكان الهجرة مختلفًا عن المدينة لو آمن وفد من الوفود التي دعاها الرسول ﷺ إلى الإسلام مثل بني شيبان أو بني حنيفة أو بني عامر، ولكن الله عز وجل أراد أن تكون الهجرة إلى المدينة المنورة.. فليس المهم هو المكان، ولكن المهم هنا ملاحظة أن الهجرة لم تكن نوعًا من الكسل عن الدعوة في مكة، أو "الزهق" من الدعوة في مكة.. أبدًا.. الدعوة في مكة من أول يوم وهي صعبة، ولكن ما ترك المسلمون بكاملهم البلد إلا بعد أن أُغلقت تمامًا أبواب الدعوة.. أما إذا كانت السبل للدعوة مفتوحة –ولو بصعوبة– فالأولى البقاء لسد الثغرة التي وضعك الله عز وجل عليها.

(٣) الهجرة كانت للجميع، وذلك على خلاف الهجرة إلى الحبشة والتي كانت لبعض الأفراد دون الآخرين.. والسبب أن طبيعة المكان وظروفه تختلف من الحبشة إلى المدينة.. فالمسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة كانوا يريدون حفظ أنفسهم في مكان آمن حتى لا يستأصل الإسلام بالكلية إذا تعرض المسلمون في مكة للإبادة.. ولم يكن الغرض هو إقامة حكومة إسلامية في الحبشة، بل كان المسلمون مجرد لاجئين إلى ملك عادل.. أما الهجرة إلى المدينة فكان الغرض منها إقامة دولة إسلامية تكون المدينة هي المركز الرئيسي لها.

ولماذا تصلح المدينة لإقامة الأمة الإسلامية ولا تصلح الحبشة؟ إن هذا ليس راجعاً إلى عامل البُعْد عن مكة واختلاف اللغة واختلاف التقاليد فقط، وإن كانت هذه عوامل هامة، ولكن الاختلاف الرئيسي –في نظري– هو أن الاعتماد في الحبشة كان على

رجل واحد هو النجاشي –ملك لا يظلم عنده أحد– فإذا مات هذا الرجل أو خلع، فإن المسلمين سيصبحون في خطر عظيم.. وقد كاد أن يحدث ذلك، ودارت حرب أهلية كاد النجاشي فيها أن يفقد ملكه، فما كان من النجاشي إلا أن يسر سبيل الهروب للمسلمين المهاجرين عنده.. فهو لا يملك لهم إلا هذا.. هذا كان الوضع في الحبشة.. أما في المدينة المنورة فالهجرة لم تكن تعتمد على رجل معين.. بل تعتمد على شعب المدينة.. والجو العام في المدينة أصبح محبًّا للإسلام.. أو على الأقل أصبح قابلاً للفكرة الإسلامية، ومن ثَم كانت الهجرة إلى هناك هجرة جماعية كاملة..

(٤) الهجرة لم تكن عشوائية، بل كانت بأمر القيادة إلى مكان معين.. وهذا الذي أدى إلى نجاح الهجرة، وقيام الأمة.. أما أن يهاجر فلان إلى مكان كذا، ويهاجر آخر إلى مكان كذا.. ويتفرق المسلمون.. فهذا وإن كان يكتب نجاة مؤقتة للأفراد، إلا أنه لا يقيم أمة.. وعلى المسلمين الفارين بدينهم من ظلم ما أن يفقهوا هذا الأمر جيدًا..

الهجرة النبوية إلى المدينة كانت هجرة منظمة مرتبة.. أُعد لها بصبر وبحكمة وبسياسة وفقه.. فالعشوائية ليست من أساليب التغيير في الإسلام.

(٥) بهذه الهجرة الناجحة تمت مرحلة هامة –بل هامة جدًّا– من مراحل السيرة النبوية.. وهي المرحلة المكية..

لقد تمت هذه المرحلة بكل أحداثها وآلامها ومشاكلها..

وهي مرحلة ذات طابع خاص جدًّا..

بدأ الإسلام فيها غريباً.. واستمر غريباً إلى قرب نهايتها.. إلى أن آمن الأنصار.. رضي الله عنهم ورضي الله عن المهاجرين.. وعن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين..

كان الاهتمام الرئيسي لرسول الله ﷺ في هذه المرحلة أن يبني الجانب العقائدي عند الصحابة.. فلا يؤمنون بإله غير الله.. ولا يتوجهون بعبادة لأحد سواه.. ولا يطيعون أحداً يخالف أمره.. وهم يتوكلون عليه.. وينيبون إليه.. ويخافون عذابه.. ويرجون رحمته..

إيمان عميق برب العالمين.. وإيمان برسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وبإخوانه من الأنبياء و المرسلين..

واعتقاد جازم بأن هناك يوماً سيبعث فيه الخلائق أجمعون.. سيقوم فيه الناس لرب العالمين يحاسبون على ما يعملون.. لن يُظلم في ذلك اليوم أحد.. لن تُغفل الذرة والقطمير.. إنها والله إما الجنة أبداً أو النار أبداً..

وإلى جانب العقيدة الراسخة فقد تعلم المؤمنون في هذه المرحلة الأخلاق الحميدة، والخصال الرفيعة.. هذبت نفوسهم.. وسمت بأرواحهم.. وارتفعوا عن قيم الأرض وأخلاق الأرض وطبائع الأرض.. إلى قيم السماء وأخلاق السماء وطبائع السماء.. لقد نزل الميزان الحق الذي يستطيع الناس به أن يقيموا أعمالهم بصورة صحيحة..

وعرف المؤمنون في هذه المرحلة أن الطريق الطبيعي للجنة طريق شاق صعب.. مليء بالابتلاءات والاختبارات.. ما تنتهي من امتحان إلا وهناك امتحان آخر.. تعب كلها الحياة.. والله يراقب العباد في صبرهم ومصابرتهم وجهادهم.. ولن يُستثنى أحد من الاختبار.. ويُبتلى المرء على حسب دينه.

لقد كانت الفترة المكية يا إخواني بمثابة الأساس المتين للصرح الإسلامي الهائل.

ومن المستحيل أن يجتاز المسلمون خطوات كبَدْر وكالأحزاب وكخَيْبر وكتَبوك، دون المرور على فترة مكة..

ومن المستحيل أن تبنى أمة صالحة.. أو تنشأ دولةً قوية.. أو تخوض جهاداً ناجحاً.. أو تثبت في قتال ضار.. إلا بعد أن تعيش في فترة مكة بكل أبعادها..

وعلى الدعاة المخلصين أن يدرسوا هذه المرحلة بعمق.. وعليهم أن يقفوا أمام كل حدث ــ وإن قصر وقته أو صغر حجمه، وقوفاً طويلاً طويلاً..

فهنا البداية التي لا بد منها..

وبغير مكة لن تكون هناك المدينة..

وبغير المهاجرين لن يكون هناك أنصار..

وبغير الإيمان والأخلاق والصبر على البلاء لن تكون هناك أمة ودولة وسيادة وتمكين..

(٦) الهجرة – وإن كانت حدثاً تاريخياً مر منذ مئات السنين، ولا يستطيع أحد بعد جيل المهاجرين أن يحققه، وذلك كما قال الرسول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ" – إلا أن الرسول ﷺ فتح باب العمل للمسلمين الذين يأتون بعد ذلك، فقال في نفس الحديث: "وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا"، فالجهاد والبذل والحركة والعمل في سبيل الله لن يتوقف أبداً في الدنيا، والسعيد حقاً هو من انشغل بعمله عن قوله، وبنفسه عن غيره، وبآخرته عن دنياه.

(٧) أول مراحل الهجرة هي ترك المعاصي، والبُعْد عن مواطن الشبهات، ولن ينصر الدين رجل غرق في شهواته، والمعروف أن ترك المعاصي مقدم على فعل فضائل الأعمال، والإنسان قد يُعذر في ترك قيام أو صيام نفل أو صدقة تطوع، لكنه لا يُعذر في فعل معصية، وذلك كما قال الرسول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: "إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"؛ ولذلك عرف الرسول ﷺ المهاجر الحقيقي بتعريف عميق من جوامع كلمه ﷺ فقال فيما رواه أحمد عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: "إِنَّ الْمُهَاجِرَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ".

١٣/٠٢/٢٠٠٥ ... * الدكتور راغب السرجاني

بعد أن نجحت بيعت العقبة الثانية، وأصبح الأنصار يمثلون عددًا لا بأس به في المدينة المنورة وَقبِل الأنصار أن يستقبلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأبناءهم وأموالهم.. بعد كل هذه الأمور العظيمة، والتي حدثت في فترة وجيزة جدًّا.. جاء الوحي إلى رسول الله ﷺ يأذن له بفتح باب الهجرة لأصحابه إلى المدينة المنورة..

كل من يستطيع أن يهاجر فليهاجر.. بل يجب أن يهاجر..
يستوي في ذلك الضعفاء والأقوياء.. الفقراء والأغنياء.. الرجال والنساء.. الأحرار والعبيد..
الكل يجب أن يهاجر إلى المدينة.. فهناك مشروع ضخم سيُبنى على أرض المدينة.. وهو مشروع يحتاج إلى كل طاقات المسلمين.. هذا هو مشروع إقامة الأمة الإسلامية!..
ولن يسمح لمسلم صادق بالقعود عن المشاركة في بناء هذا الصرح العظيم..
انظروا إلى الآيات تتحدث عن الهجرة:
{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}.
الهجرة لم تكن أمراً سهلاً ميسوراً.. الهجرة لم تكن ترك بلد ما إلى بلد ظروفه أفضل، وأمواله أكثر، (ليست عقد عمل بأجر أعلى).. الهجرة كانت تعني ترك الديار.. وترك الأموال.. وترك الأعمال.. وترك الذكريات.. الهجرة كانت ذهابًا للمجهول.. لحياة جديدة.. لا شك أنها ستكون شاقة.. وشاقة جدًّا.. الهجرة كانت تعني الاستعداد لحرب هائلة.. حرب شاملة.. ضد كل المشركين في جزيرة العرب.. بل ضد كل العالمين.. الحرب التي صوّرها الصحابي الجليل العباس بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه على أنها الاستعداد لحرب الأحمر والأسود من الناس.
هذه هي الهجرة.. ليست هروباً ولا فراراً، بل كانت استعداداً ليوم عظيم.. أو لأيام عظيمة..

لذلك عظّم الله جدًّا من أجر المهاجرين.. {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}.

صدر الأمر النبوي لجميع المسلمين القادرين على الهجرة أن يهاجروا، لكن لم يبدأ هو ﷺ في الهجرة إلا بعد أن هاجر الجميع إلى المدينة.. فلم يكن من همه ﷺ أن ينجو بنفسه، وأن يُؤَمِّنَ حاله، وأن يحافظ على أمواله.. إنما كان كل همه ﷺ أن يطمئن على حال المسلمين المهاجرين.. كان ﷺ يتصرف كالربّان الذي لا يخرج من سفينته إلا بعد اطمئنانه على كل الركاب أنهم في أمان.. فالقيادة عنده ليست نوعًا من الترف أو الرفاهية.. إنما القيادة مسئولية وتضحية وأمانة.

ونستطيع أن نلاحظ بعض الملامح الهامة لهجرة المسلمين من مكة إلى المدينة:

(١) الاهتمام بقضية النية:

لماذا تهاجر؟

روى البخاري عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ".

ومع أن الهجرة للزواج ليست محرمة.. ومع أن الهجرة لإصابة الدنيا الحلال ليست محرمة.. لكن هذه هجرة ليست كالهجرة لبناء أمة إسلامية.

وهيهات أن يكون الذي ترك كل ما يملك ابتغاء مرضات الله وسعيًا لإنشاء أمة إسلامية ورغبةً في تطبيق شرع الله عز وجل في الأرض.. كالذي عاش لحياته فقط.. وإن كانت حياتُه حلالاً.

(٢) الهجرة الكاملة لكل المسلمين لم تكن إلا بعد أن أُغلقت أبواب الدعوة تمامًا في مكة.. وقد أغلقت أبواب الدعوة منذ ثلاث سنوات.. بعد موت أبي طالب والسيدة خديجة رضي الله عنها.. ومنذ ذلك التاريخ، والرسول ﷺ يخطط للهجرة.. وكان من

الممكن أن يكون مكان الهجرة مختلفاً عن المدينة لو آمن وفد من الوفود التي دعاها الرسول ﷺ إلى الإسلام مثل بني شيبان أو بني حنيفة أو بني عامر، ولكن الله عز وجل أراد أن تكون الهجرة إلى المدينة المنورة.. فليس المهم هو المكان، ولكن المهم هنا ملاحظة أن الهجرة لم تكن نوعًا من الكسل عن الدعوة في مكة، أو "الزهق" من الدعوة في مكة.. أبدًا.. الدعوة في مكة من أول يوم وهي صعبة، ولكن ما ترك المسلمون بكاملهم البلد إلا بعد أن أُغلقت تمامًا أبواب الدعوة.. أما إذا كانت السبل للدعوة مفتوحة –ولو بصعوبة– فالأولى البقاء لسد الثغرة التي وضعك الله عز وجل عليها.

(٣) الهجرة كانت للجميع، وذلك على خلاف الهجرة إلى الحبشة والتي كانت لبعض الأفراد دون الآخرين.. والسبب أن طبيعة المكان وظروفه تختلف من الحبشة إلى المدينة.. فالمسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة كانوا يريدون حفظ أنفسهم في مكان آمن حتى لا يستأصل الإسلام بالكلية إذا تعرض المسلمون في مكة للإبادة.. ولم يكن الغرض هو إقامة حكومة إسلامية في الحبشة، بل كان المسلمون مجرد لاجئين إلى ملك عادل.. أما الهجرة إلى المدينة فكان الغرض منها إقامة دولة إسلامية تكون المدينة هي المركز الرئيسي لها.

ولماذا تصلح المدينة لإقامة الأمة الإسلامية ولا تصلح الحبشة؟ إن هذا ليس راجعاً إلى عامل البُعْد عن مكة واختلاف اللغة واختلاف التقاليد فقط، وإن كانت هذه عوامل هامة، ولكن الاختلاف الرئيسي –في نظري– هو أن الاعتماد في الحبشة كان على رجل واحد هو النجاشي –ملك لا يظلم عنده أحد– فإذا مات هذا الرجل أو خلع، فإن المسلمين سيصبحون في خطر عظيم.. وقد كاد أن يحدث ذلك، ودارت حرب أهلية كاد النجاشي فيها أن يفقد ملكه، فما كان من النجاشي إلا أن يسر سبيل الهروب للمسلمين المهاجرين عنده.. فهو لا يملك لهم إلا هذا.. هذا كان الوضع في الحبشة.. أما في المدينة المنورة فالهجرة لم تكن تعتمد على رجل معين.. بل تعتمد على شعب

المدينة.. والجو العام في المدينة أصبح محبًّا للإسلام.. أو على الأقل أصبح قابلاً للفكرة الإسلامية، ومن ثَم كانت الهجرة إلى هناك هجرة جماعية كاملة..

(٤) الهجرة لم تكن عشوائية، بل كانت بأمر القيادة إلى مكان معين.. وهذا الذي أدى إلى نجاح الهجرة، وقيام الأمة.. أما أن يهاجر فلان إلى مكان كذا، ويهاجر آخر إلى مكان كذا.. ويتفرق المسلمون.. فهذا وإن كان يكتب نجاة مؤقتة للأفراد، إلا أنه لا يقيم أمة.. وعلى المسلمين الفارين بدينهم من ظلم ما أن يفقهوا هذا الأمر جيدًا..

الهجرة النبوية إلى المدينة كانت هجرة منظمة مرتبة.. أُعد لها بصبر وبحكمة وبسياسة وفقه.. فالعشوائية ليست من أساليب التغيير في الإسلام.

(٥) بهذه الهجرة الناجحة تمت مرحلة هامة –بل هامة جدًّا– من مراحل السيرة النبوية.. وهي المرحلة المكية..

لقد تمت هذه المرحلة بكل أحداثها وآلامها ومشاكلها..

وهي مرحلة ذات طابع خاص جدًّا..

بدأ الإسلام فيها غريباً.. واستمر غريباً إلى قرب نهايتها.. إلى أن آمن الأنصار.. رضي الله عنهم ورضي الله عن المهاجرين.. وعن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين..

كان الاهتمام الرئيسي لرسول الله ﷺ في هذه المرحلة أن يبني الجانب العقائدي عند الصحابة.. فلا يؤمنون بإله غير الله.. ولا يتوجهون بعبادة لأحد سواه.. ولا يطيعون أحداً يخالف أمره.. وهم يتوكلون عليه.. وينيبون إليه.. ويخافون عذابه.. ويرجون رحمته..

إيمان عميق برب العالمين.. وإيمان برسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وبإخوانه من الأنبياء و المرسلين..

واعتقاد جازم بأن هناك يوماً سيبعث فيه الخلائق أجمعون.. سيقوم فيه الناس لرب العالمين يحاسبون على ما يعملون.. لن يُظلم في ذلك اليوم أحد.. لن تُغفل الذرة والقطمير.. إنها والله إما الجنة أبداً أو النار أبداً..

وإلى جانب العقيدة الراسخة فقد تعلم المؤمنون في هذه المرحلة الأخـــلاق الحميـــدة، والخصال الرفيعة.. هذبت نفوسهم.. وسمت بأرواحهم.. وارتفعوا عن قـــيم الأرض وأخلاق الأرض وطبائع الأرض.. إلى قيم السماء وأخلاق السماء وطبائع الســـماء..

لقد نزل الميزان الحق الذي يستطيع الناس به أن يقيموا أعمالهم بصورة صحيحة..

وعرف المؤمنون في هذه المرحلة أن الطريق الطبيعي للجنة طريق شاق صـــعب.. مليء بالابتلاءات والاختبارات.. ما تنتهي من امتحان إلا وهناك امتحان آخر.. تعب كلها الحياة.. والله يراقب العباد في صبرهم ومصابرتهم وجهادهم.. ولن يُستثنى أحد من الاختبار.. ويُبتلى المرء على حسب دينه.

لقد كانت الفترة المكية يا إخواني بمثابة الأساس المتين للصرح الإسلامي الهائل.

ومن المستحيل أن يجتاز المسلمون خطوات كبَدْر وكالأحزاب وكخَيْبر وكتَبوك، دون المرور على فترة مكة..

ومن المستحيل أن تبنى أمة صالحة.. أو تنشأ دولةً قوية.. أو تخوض جهاداً ناجحاً.. أو تثبت في قتال ضار.. إلا بعد أن تعيش في فترة مكة بكل أبعادها..

وعلى الدعاة المخلصين أن يدرسوا هذه المرحلة بعمق.. وعليهم أن يقفوا أمـــام كـــل حدث ــ وإن قصر وقته أو صغر حجمه، وقوفاً طويلاً طويلاً..

فهنا البداية التي لا بد منها..

وبغير مكة لن تكون هناك المدينة..

وبغير المهاجرين لن يكون هناك أنصار..

وبغير الإيمان والأخلاق والصبر على البلاء لن تكون هناك أمـــة ودولـــة وســـيادة وتمكين..

(٦) الهجرة – وإن كانت حدثاً تاريخياً مر منذ مئات السنين، ولا يستطيع أحـــد بعـــد جيل المهاجرين أن يحققه، وذلك كما قال الرسول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ" – إلا أن الرســـول ﷺ فتح باب العمل للمسلمين الذين يأتون بعد ذلك، فقال فـــي نفـــس الحـــديث: "وَإِذَا

اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا"، فالجهاد والبذل والحركة والعمل في سبيل الله لن يتوقف أبداً في الدنيا، والسعيد حقاً هو من انشغل بعمله عن قوله، وبنفسه عن غيره، وبآخرته عن دنياه.

(٧) أول مراحل الهجرة هي ترك المعاصي، والبُعْد عن مواطن الشبهات، ولن ينصر الدين رجل غرق في شهواته، والمعروف أن ترك المعاصي مقدم على فعل فضائل الأعمال، والإنسان قد يُعذر في ترك قيام أو صيام نفل أو صدقة تطوع، لكنه لا يُعذر في فعل معصية، وذلك كما قال الرسول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: "إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"؛ ولذلك عرف الرسول ﷺ المهاجر الحقيقي بتعريف عميق من جوامع كلمه ﷺ فقال فيما رواه أحمد عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: "إِنَّ الْمُهَاجِرَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ".

---

* داعية مصري، وأستاذ مساعد جراحة المسالك البولية بكلية طب القصر العيني بالقاهرة.

كيف نهاجر إلى الله ورسوله؟

أحمد الفراك Elfarrak@maktoob.com ...

١- معنى الهجرة

الهجرة لغة من الهجر وهو الفصل، ضد الوصل، هجره بمعنى فارقه وانفصل عنه، ووردت مادة "هجر" في القرآن الكريم أكثر من عشرين مرة، تفيد معنى الزيال والمفارقة والانفصال، والانتقال من حال إلى حال، والابتعاد عن الشيء وتركه.وتكون الهجرة حسية مثلما تكون معنوية، فهي حسية بمعنى هجر الحيز المكاني إلى حيز آخر يفضله، قال الله تعالى:" ومن يهاجر في سبيل الله يجد مراغما كثيرا وسعة"النساء١٠٠، ومعنوية بالانتقال الروحي الإيماني القلبي من حال إلى حال يفضله، قال الله تعالى:" واهجرهم هجرا جميلا" المزمل ١٠، وقال أيضا:" والرجز فاهجر" المدثر٥.وقد جمعت الهجرة النبوية بين المعنيين معا.

الهجرة سلوك إيماني جهادي اختياري حسي ومعنوي، شامل لكلية المؤمن وممتد في الزمان، يستجيب لأمر الله، ولا يريد إلا وجهه "إني مهاجر إلى ربي" فهي هجرة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم.هي استجابة لنداء الله تعالى لرسوله وللمومنين معه. استجابة لا يعبأ بها إلا "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم"، الذين سبق لهم من الله التوفيق والهداية وبرهنوا على صدقهم بالبذل والاستقامة. حتى تكون هوية الهجرة هي العبودية لله تعالى.

الهجرة معالجة ربانية نبوية لواقع التكذيب والسخرية والظلم.

٢- الهجرة منهاج ومجموع

لم يكن حدث الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة حدثا منفصلا معزولا عن مجموعة الأحداث والمعاني الإيمانية التي سبقته وأسست له ونظمته في سياق تعبدي جهادي، إذ ليس فعل الهجرة الحسي المتمثل في الانتقال من مكان إلى مكان، إلا وجه واحد من أوجه الهجرة الشاملة، ومرحلة واحدة من مراحل الدعوة

الدائمة التي تتداخل فيها جملة من الأعمال القلبية والجوارحية والتنظيمية الأخرى كالصحبة والجماعة والتوبة والنية واليقين والاقتحام والجهاد. فالهجرة هي هذا المجموع المنهاجي الذي لا يتجزأ.

١. الهجرة توبة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها"، فهي هجرة مستمرة لا تنقطع إلى يوم القيامة، مقام بعد مقام ومرحلة بعد أخرى، في بداية السير وفي وسطه وفي نهايته، ولا ينتهي السير إلا بالموت في حق الفرد، وبالقيامة في حق الجماعة. الهجرة فرار إلى الله ولجوء إليه، هجرة قلبية إلى حماه من كل صنوف الشرك والغفلة والنفاق والقعود. قال صلى الله عليه وسلم:" المهاجر من هجر ما نهى الله عنه"، فلا يستحق صفة المهاجر بحق إلا الذي تاب إلى الله توبة نصوحا، وقطع مع حبال الجاهلية: ظنها وحميتها وتبرجها وحكمها.وأحب في الله وأبغض فيه.

٢. الهجرة معية

في دار الأرقم بن أبي الأرقم تربت الجماعة الأولى بصحبة رسول الله ﷺ على الصدق والمحبة والجهاد ، حتى تخرج ذلك الجيل القرآني الفريد الذي لا تنتهي ذلته على المونين ولا تنثني عزته على الكافرين، وصفهم الذي كلأهم بعنايته ورعايته فقال:"محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم" ، معه، معه، معه كانوا أشداء رحماء.نسبة إليه لا إلى أنفسهم.لما أذن لرسول الله ﷺ في الهجرة، قال له سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه: " الصحبة يا رسول الله"، قال له: الصحبة.وما سمي الصحابة صحابة إلا لصحبتهم خير الخلق صلى الله عليه وسلم. ومن كان في معية الحبيب الطبيب فهو بلا شك في معية الحسيب الرقيب، قال سبحانه لموسى وهارون:"إنني معكما أسمع وأرى"، وعلى لسان موسى:" كلا إن معي ربي سيهدين"."لا تحزن إن الله معنا"، الأمن من الله ومع الله.

٣. الهجرة جماعة

لم يأذن الله تعالى لرسوله ﷺ في الهجرة حتى ألف جماعة المسلمين الأولى ورباها ونظمها، فربط قلوب المؤمنين برباط التقوى والمحبة في الله "وألف بين قلوبهم، ولو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم" الأنفال ٦٤ ، فجاء فعل الهجرة تتويجا لعمل تأسيسي سابق هو تربية جند الله وتنظيمهم لاستقبال النصر والفتح والتمكين .أما الذين نافقوا وتربصوا وقعدوا ونكصوا وارتابت أيمانهم وظنوا بالله الظنون وترددوا وقعدوا، فلا يستحقون ولاية المومنين ، قال الله تعالى:" والذين لم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء" الأنفال ٧٣

٤. الهجرة نية

في الحديث "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية"رواه الدارمي عن ابن عباس، فنية الهجرة من الهجرة، وبحسب طبيعة النية تكون نوعية الهجرة، وعلى قدر همة ونية المهاجر يعطى، وفي الحديث:"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته لما هاجر إليه"رواه البخاري، لا يستوي من يريد وجه الله مع من يريد فتات الدنيا.فقد يكون الحدث واحدا لكن بحسب النية تتفاضل الأعمال "منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة".

وقد هاجر مع رسول الله ﷺ من كان يريد امرأة.

٥. الهجرة يقين

قال الله تعالى :" وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون"السجدة ٢٤٠، فلا يمكن لقوم أن يحملوا سراج الهداية للخلق إن لم يكونوا على يقين بما هم فيه، لذلك استمر ﷺ مع الصحابة رضي الله عنهم" يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة" ويعرفهم علم اليقين. ومنذ أن قال ﷺ :" رأيت في المنام أني مهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب ظني إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي يثرب" والصحابة يعدون لذلك اليوم بكل صدق ويقين، وها هو ﷺ يلقن أبا بكر درسا من اليقين في الله لما كانا في الغار" إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله

سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم"".فأبو بكر لا يخاف في الله لومة لائم ، ولكنه يخشى أن يلحق بالمصحوب الأعظم أذى، فأجابه سيد الموقنين والمتوكلين:"ما ظنك باثنين الله ثالثهما". فالله تعالى يؤيد عباده الصادقين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فهم ثابتون كالجبال، لا تنكسر عزيمتهم ولا تلين قناتهم أمام التهديد والتخويف والاستضعاف. لأن الله معهم " إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون"(النحل ١٢٨)و" إن الله مع الصابرين" و"إن الله لمع المحسنين".أما الذين لا يوقنون فهم معرضون على الدوام للشك والتقاعس والتردد.

٦. الهجرة اقتحام

قال صلى الله عليه وسلم:" العبادة في الهرج كهجرة إلي"رواه مسلم عن معقل بن يسار، والهرج هو القتل بغير الحق، "والفتنة أشد من القتل". والهجرة إلى رسول الله ﷺ لا تتم إلا باقتحام عقبات النفس والمال والناس وممانعة عوارض الطباع والأهواء والإغراء، والتسلح بإرادة الجهاد، بالتحمل والصبر والتؤدة والقطع مع الحضوض النفسية والاجتماعية والمالية التي تعارض السلوك إلى الله وتعطل الدعوة إليه.معية الرسول تصح بالتلمذة والمحبة والخدمة والإتباع والتعزير والتوقير، في الشدة والرخاء، في المنشط والمكره، في الأخذ والعطاء. البيعة النبوية بيعة على تحدي الواقع العنيد ومقاومته وتغييره، وليست انبطاحا وتمسكنا وتثاقلا.

٧. الهجرة جهاد

الهجرة النبوية جهاد ومجاهدة وتدافع ومقاومة ومقارعة لقوى الباطل والظلم والكفر، وإعداد واستعداد واستمداد، وبذل سخي للمال والنفس لإعلاء كلمة الله تعالى في أرضه ونصر دعوته في خلقه. فقد تحمل الرسول ﷺ ومعه الصحابة الكرام رضي الله عنهم أذى الكفار وتآمر المنافقين، وتعرضوا منهم للسخرية والاستهزاء والتكذيب، بل للضرب والحصار والسجن والتعذيب والقتل، "فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله و ما ضعفوا وما استكانوا و الله يحب الصابرين "(آل عمران ١٤٦) وما أعطوا

الدنية في دينهم ولا اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا. حتى نصرهم الله وأعز دينه وأتم نعمته ورضي عن المجاهدين المخلصين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.وخاب المشركون وخسروا، ولا منتهى لخيبتهم. قال العليم الخبير: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"(الأنفال ٣٠)

٣- أسئلة مؤسسة

لماذا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل خوفا ؟ هل طمعا؟ومتى هاجر؟ ومن اقترح عليه فعل الهجرة؟ ومن دله على الوقت المناسب ؟ ماذا كان ينتظر تلك المدة الطويلة؟ وهل الهجرة بداية أم نهاية؟ وهل الهجرة في ذاتها نصر أم هزيمة؟ وهل بانتهاء الهجرة انتهت المحنة والبلوى أم تضاعفت البلايا وتعددت المحن؟ ثم هل بقيت هجرة اليوم؟ و ماهي ؟ ومع من؟ و من ماذا؟ وما هي موانعها؟...

لقد هاجر ﷺ لابتغاء مرضاة الله تعالى، لا خوفا من الناس، ولا يأسا من التبليغ، هاجر لينشر دعوة الله في جميع أرض الله، بما آتاه الله. فقد تعرض عليه الصلاة والسلام لمختلف فنون المساومة والمداهنة فضلا عن التخويف والتجويع والحصار.وهو محتسب وصابر وموقن بالفتح والنصر والتمكين، لكنه لم يهاجر إلا بعد أن أذن الله له بالهجرة، ورأى في منامه أنه سيخرج من مكة وقالها لصحابته فاستبشروا بها خيرا وشمروا لإعداد العدة والخطة ليستقبلوا القدر- البشرى(الهجرة)،آخذين بالأسباب ومتوكلين على رب الأسباب، وهم على ذلك صامدين غير مستعجلين. حتى طلع عليهم ﷺ ذات يوم بالخبر:"لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب".

تضاعف الحمل بمفارقة الأصحاب والأحباب والبلد والعشيرة، والخروج عن العوائد والمألوفات لمعانقة القدر الإلهي، لا لإنهاء فترة الدعوة – فالدعوة لا تعرف النهاية- وتقديم الإستقالة، وإنما للإنطلاق من جديد في رحلة مفتوحة على الزمان والمكان، بدأت كي لا تنتهي، ولن تنتهي حتى تطلع الشمس من مغربها.

يرى المعياريون والماديون أن الهجرة النبوية هروب ويأس وقنوط ، ينظرون إليها كظاهرة اجتماعية معزولة صانعها بشر في بشر، أنتجتها ظروف "سوسيو اقتصادية" و"سوسيوثقافية" ، وليست خبرا من السماء ولا رؤيا ولا تأييد ولا فتح ولا سنة لله في نصرة رسله وأنبيائه وأوليائه. وهم بذلك يحرمون التوفيق في الفهم فيوكلون إلى ظنونهم وتخميناتهم.

كيف نهاجر اليوم؟

قال الله عز وجل:" وكان حقا علينا نصر المومنين" الروم٤٧،وقال أيضا:" إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور"الحج٣٨. فنصر الله للمومنين ودفاعه عنهم، بل ومجالستهم وذكرهم، (ففي الحديث القدسي:" أنا جليس من ذكرني") مستمر إلى أن يرث سبحانه الأرض ومن عليها. وما على المومنين إلا أن يتوبوا إلى الله توبة صادقة وينكسروا بين يديه خشوعا وتذللا، وينهضوا متعاونين لمعانقة وعده، ووعده الحق، موقنين بالفتح والنصر لهذه الأمة إن شاء الله . مهاجرين أوضاعهم السيئة على جميع الأصعدة، التربوية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية.

إن التاريخ اليوم يستقبل الخلافة على منهاج النبوة، فماذا أعددنا من أوعية لاستقبال هذا القدر؟ والإقبال على القادر المقدر؟ وهل استخرنا الله وسألناه في نياتنا وأعمالنا؟ أم أننا نخوض معتدين بحولنا وقوتنا وعقلنا وسادتنا وكبرائنا؟ وهل ألححنا في دعائنا على الله كي يجعلنا من عباده الصادقين ومع الصادقين المتحابين المتزاورين المتبادلين المتواصلين المتناظرين؟ أم طلبنا الدنيا؟

فسينجز الله وعده وينصر عباده ويهزم عدوه ويعلي كلمته ويمضي سنته. لكن هل تجاوزنا عقبات وموانع الهجرة من أنانيات معجبة بذاتها وشرك ومعصية وغفلة وسوء ظن وقعود ويأس وبلادة وتنطع وحب للدنيا والجاه وعافية الجبناء؟ هل انخرطنا فعلا في مشروع تجديد ديننا، كل ديننا، إيمان وحكم واقتصاد وأخلاق؟

هواء في هواء ونفخ في الرماد إن لم نتب إلى الله توبة كلية وندعو الناس للتوبة توبة جماعية "يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله جميعا لعلكم تفلحون".وإن لم نهجـــر الظلـــم ونقاطعه ونبني على غير أساسه....

روح الهجرة النبوية والهجرة على منهاج النبوة هي: صحبة صالحة، ونية صـــادقة، وتوبة نصوحة، ويقين عازم، واقتحام دائم، وجهاد شامل.

اللهم إنا نسألك النية واليقين.

الهجرة الشريفة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمَدُهُ ونستغفِرُهُ ونستعينُهُ ونستهديهِ، من يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ لـه ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ لهُ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى كلّ رسولٍ أرسلَه.

أما بعدُ عبادَ اللهِ أوصيكم ونفسيَ بتقوى اللهِ العليِّ العظيمِ. يقولُ اللهُ تعالى في كتابهِ العزيز {إلاّ تنصرُوه فقد نصرَهُ اللهُ إذْ أخرجَه الذين كفروا ثانِيَ اثنينِ إذْ هُما في الغارِ إذْ يقولُ لصاحِبِهِ لا تحْزَنْ إنَّ اللهَ معنَا}.

عبادَ اللهِ، لما بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ أُمِرَ بالتبليغِ والإنذارِ بلا قتالٍ فظَلَّ أربعةَ عشرَ عاماً يدعو الناسَ إلى الإسلامِ من غيرِ قتالٍ فآمنَ بهِ بعضُ الناسِ كأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍ وبلالٍ وغيرِهم، وبقِيَ على الكُفرِ أكثرُ الناسِ وصاروا يؤذونَهُ وأصحابَهُ، فلمّا اشتَدَّ عليهِمُ الأذى هاجرَ بعضُ أصحابِ النَّبِيّ إلى الحبشةِ وكانوا نحوَ ثمانينَ منهم عثمانُ بنُ عفان وجعفرُ بنُ أبي طالب.

ولما كثُرَ أنصارُ رسولِ اللهِ ﷺ بيثربَ أمرَ اللهُ المسلمينَ بالهجرةِ إليها فخرجوا أرسالاً، ثم هاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ من مكةَ محلّ ولادَتِه مع أبي بكرٍ الصدّيق بعد أن أقامَ في مكّةَ منذُ البعثةِ ثلاثَ عشرةَ سنةً يدعو إلى التوحيدِ ونبذِ الشّرْكِ. ولم تكنْ هجرةُ النبيّ ﷺ حُبّاً في الشُهرةِ والجاهِ والسلطانِ فقد ذهبَ إليهِ أشرافُ مكّةَ وقالوا لـه: إن كنتُ تريدُ بما جئتَ بهِ مالاً جمَعْنا لكَ من أموالِنا حتى تكونَ أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ تريدُ مُلْكاً ملَّكناكَ إيّاه ولكنَّ النبيَّ العظيمَ أسمى وأشرفُ من أنْ يكونَ مقصودُه الدنيا. ولهذا كان يقولُ النبيُّ ﷺ لعمّهِ أبي طالب حين أتاهُ يطلبُ منه الكفَّ عن التعرُّضِ لِقَوْمِهِ وما يعبُدُون: "واللهِ يا عمّ لو وضَعُوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يَساري على أن أَتْرُكَ هذا الأمرَ ما تركتُهُ حتى يُظهِرَه اللهُ سبحانه وتعالى أو أَهْلِكَ دونه".

وبالنبيّ ﷺ اقتدى الصحابةُ الأجلاّءُ فقد خرَجَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه من مكةَ مع أربعينَ من المستضعَفينَ في وضَحِ النَّهارِ ممتشِقاً سيفَهُ قائلاً لصناديدِ قريشٍ بصوتٍ جهير: "يا معشرَ قريش من أرادَ منكم أن تُفصَل رأسُه أو تَثْكُلَهُ أمُّهُ أو تترمَّلَ امرأَتُهُ أو يُيَتَّمَ ولدُه أو تذهبَ نفسُهُ فَلْيَتْبَعْنِي وراءَ هذا الوادي فإني مهاجِرٌ إلى يثرب".

فما تجرأَ أحدٌ منهم أن يحولَ دونَهُ ودونَ الهِجرةِ. ثم إنَّ المشركينَ كانوا قد أجمعوا أمرَهم على قتلِ رسولِ اللهِ ﷺ فجَمَعوا من كلّ قبيلةٍ رجلاً جلداً نسيباً وسيطاً ليضربوهُ ضربةَ رجلٍ واحدٍ حتى يتفرَّقَ دمُهُ في القبائلِ، فأتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ فأمرَه أن لا يبيتَ في مضجَعِهِ الذي كانَ يبيتُ فيه وأخبَرَهُ بمَكْرِ القومِ وأنزل اللهُ تعالى {وإذْ يمكرُ بكَ الذين كفروا ليُثْبِتُوكَ أو يَقتلُوكَ أو يُخرجُوكَ ويمكرونَ ويمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين}.فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب فأمرَهُ أن يبيتَ على فِراشِه ويتسَجّى ببُرْدٍ له أخضرَ ففعل، ثمّ خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ على القومِ وهم على بابِه ومعه حُفنةُ ترابٍ فجعل يذرُّها على رُؤوسِهم، وأخذَ اللهُ عز وجلّ بأبصارِهم عنْ نَبِيّه، وهو يقرأُ {يس والقرءانِ الحكيم} إلى قولِه {فأغشيناهم فهم لا يُبصرون} فلمّا أصبَحوا فإذا هم بعليّ بنِ أبي طالبٍ فسألوهُ عن النبيّ فأخبرَهُم أنّهُ خرجَ فركِبوا في كلّ وجهٍ يطلُبونَهُ وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد سارَ مع أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه حتى وصلا إلى غارِ ثورٍ فدخلاهُ، وجاءتِ العنكبوتُ فنَسَجَتْ على بابِه، وجاءَتْ حَمامةٌ فباضَتْ ورَقَدَتْ، فلما وصلَ رجالُ قريشٍ إلى الغارِ قال أبو بكر: يا رسولَ اللهِ لو أن أحدَهم ينظُرُ إلى قدميهِ لأبصرَنا تحتَ قدميه. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر ما ظنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهما".

عبادَ اللهِ، لقد سلَّمَ اللهُ نبيَّهُ الكريمَ من شرّ المشركينَ فوصلَ إلى المدينةِ المُنَورةِ ومعه صاحبُه فاستقبَلَهُ المؤمنونَ بالفرحِ واستبشروا بقدومِه، وسمَّى الرسولُ يثربَ بالمدينَةِ المنورةِ وءاخى بينَ أهلِها والمهاجِرين، وسمّاهم الأنصارَ، وبنى مسجِدَه ومساكِنَه. وقد استقبلَ الأنصارُ إخوانَهُمُ المهاجرينَ ومدُّوا لهم يدَ المساعَدةِ والعونِ حتى كان الأنصاريُّ يقسِمُ مالَهُ ومتاعَهُ بينه وبين أخيهِ المهاجِر. فحَرِيٌّ بنا أن نقتديَ بهؤلاءِ الأفذاذِ من الناسِ الذين عرفوا معنى الأخوَّةِ الحقيقيَّ فأيَّدهم اللهُ بنصرِه.

أقول قولي هذا وأستغفرُ الله العظيمَ لي ولكم.

الهجرة النبوية وقفات وتأملات

يبدأ اليوم عام جديد من السنة الهجرية، التي دأب المسلمون على التأريخ بها منذ عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقد أجمع المسلمون بقيادة الفاروق على جعل الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة بداية تاريخ المسلمين، لما لهذا الحدث العظيم من دلالة عميقة حولت تاريخ البشرية، حيث تأسست الدولة الإسلامية المستقلة بسيادتها ودستورها ومؤسساتها وقوانينها.

وتأتي هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بعد ١٣ سنة من الدعوة إلى الله عز وجل سرا وعلانية، في الأقربين والأبعدين في قريش والطائف والحبشة والمدينة.

استجاب أهل المدينة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعاهدوه –ممثلين في ٧٣ رجل وامرأتين– على السمع والطاعة والنفقة والنصرة.

بدأ الصحابة، بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم، بالهجرة تسللا من قريش إلى أن أذن له ربه بالخروج صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الليلة التي خططت قريش أن تضرب محمدا ﷺ ضربة واحدة ليتفرق دمه في القبائل ولا تقدر عشيرته على الثأر منهم جميعا وترضى بالدية.

خرج عليه الصلاة والسلام بعد أن أوصى عليا رضي الله عنه برد الودائع التي استأمنه عليها أهلها لما عرف من صدقه وأمانته. خرج عليه الصلاة والسلام متوكلا على ربه وقد اتخذ كل ما استطاع من وسائل وأسباب تقطع على قريش الوصول إليه. فكان التأييد الرباني الذي أعمى أبصار القوم وهو يمر أمامهم وأغشى أبصارهم عن رؤيته وهو يختبئ موضع أقدامهم وتحركت نواميس الكون بالقدرة الإلهية لتنسج العنكبوت خيوطها على الغار وتصنع الحمامة عشها بقربه، وينقذ الله نبيه من سراقة الذي لحق به ظانا أنه أدرك الجائزة التي خصصتها قريش لمن يمسك بالنبي وصحبه. وأراد الله أن تكون جائزته من نوع خاص تزيد الناس يقينا أن هذا الدين سينتشر

وتكون له العزة والأمنة؛ كتب له ﷺ كتاب أمان ووعده بسواري كسرى الذي حصل عليه عهد سيدنا عمر عندما تم فتح فارس.

ولدى وصول النبي ﷺ إلى المدينة كان أول عمل قام به لإرساء دعائم البنيان الإسلامي هو إنشاء مؤسسة المسجد فكان عليه الصلاة والسلام يشارك بيديه الشريفتين في حمل الحجارة على كتفه الشريف وهو يردد: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرين.

بني المسجد النبوي الشريف، فكان مؤسسة جامعة، مدرسة دينية وسياسية وثقافية واقتصادية واجتماعية. ولعل أهم تحول أحدثه هذا الإنجاز العظيم هو دخول المرأة التي لم تكن تعد شيئا إلى رحاب بيت الله، تحضر الصلوات وتشهد مجالس العلم والإيمان، وتساهم في المشاورات... فكان المسجد المحمدي مدرسة للدعوة ودارا للدولة.

"فكان المسجد المحمدي مدرسة للدعوة وكان كذلك دار الدولة فيه يهيء النبي العمل للعاطل والعلم للجاهل والمعونة للفقير ويرشد إلى الأمور الصحية الاجتماعية ويذيع الأنباء التي تهم الأمة ويلتقي بسفراء الدول ويرتب جنود المعارك في الحرب ويبعث الدعاة والمندوبين في السلم. هكذا كان المسجد في عهد الرسول ﷺ وظل كذلك في عهد أصحابه ومن تبعهم بإحسان" يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام ص ٢٢٥.

ولتنظيم العلاقات بين ساكنة المدينة، قام عليه الصلاة والسلام بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أخوين أخوين حتى صاروا يتوارثون كما يتوارث الإخوة في النسب. وكتب لليهود معاهدة تضمن لهم دينهم ويتعهدون بالدفاع عن سلامة وأمن المدينة وأن يردوا أي خلاف إلى الله ورسوله.

إنها فعلا ذكرى غالية يتجدد فيها الحنين إلى العهد النبوي الزاهر، لكن هذا الحنين لا ينبغي أن ينقلب إلى إحباط عندما ننظر إلى الواقع المفتون، بقدر ما ينبغي أن يكون حاديا للقلوب المؤمنة المتطلعة إلى غد مشرق، إلى الخلافة على منهاج النبوة التي وعد بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى الوعد والنصر الذي وعده الله عباده

المتقين. المهم في كل ذلك هو أن يسائل كل واحد نفسه وهو يعيش هذه الذكرى مـــا قدم لنفسه لتبرأ ذمته أمام ربه؟ وهل ساهم في البناء للموعود الإلهي أم هـــو مجـــرد متفرج على الأحداث؟

الرياض – وائل الظواهر

السيرة النبوية دروس وعبر

في بداية العام الهجري الجديد يحسن بنا أن نقف وقفات سريعة مع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تلك السيرة العطرة التي لا يمل الإنسان من قراءتها والاطلاع عليها ، ولعل من المناسب الوقوف قليلاً مع هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، لعلنا نأخذ بعض العبر والدروس من هذه الهجرة المباركة التي لا يعي كثير من الناس ما فيها من عبر وعظات.

إن الهجرة النبوية في حد ذاتها بغض النظر عن أحداثها تستحق الوقفة المتأنية، فهي ليست نزهة برية ولا و سياحة للتفرج والاطلاع، وليست سفراً لتحصيل متع الدنيا وملذاتها، وإنما هي انتقال من أجل الحفاظ على العقيدة وتضحية بالنفس والمال والأهل والولد من أجل العقيدة، فهي تبدأ من أجل العقيدة وغايتها العقيدة.

الهجرة النبوية ليست أحداثا تروى، بل هي منهج متكامل لمن أحسن الاستفادة منها وأخذ العبر والعظات على أحسن وجه وأجمله، فهي منهج النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مؤيد فيه من قبل المولى جل وعلا، وهي ليست حدثا عادياً، بل أمر جليل يستحق الاهتمام، ولا نستطيع هنا الوقوف على كل ما في الهجرة النبوية من عبر وعظات، وإنما نقف عند البعض ونترك البعض الآخر ليستخرجه القارئ.

دعوة مستمرة وصبر عظيم

النبي ﷺ كما نعلم ظل في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله جل وعلا ليل نهار متعرضا في ذلك إلى الأذى الشديد والاضطهاد المستمر من كفار قريش الذين لا يريدون للخير أن ينتشر، ولكنه لم ييئس مع كل هذا العنت وقلة من آمن معه خلال هذه المدة، وحاول أن يتجه إلى بيئة أخرى لعله يستطيع من خلالها نشر دين ا لله جل وعلا، فاتجه إلى الطائف، ولكنه فوجئ بالسفهاء يردونه ردا منكرا، ولم يكتفوا بذلك، بل رجموه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه، ويأتيه جبريل عليه السلام ليقول له إن معه ملك الجبال، وإن الله أمره أن يمتثل لأمره، فإذا أراد أن يطبق عليهم الجبلين

ليهلكهم فعل. فقال عليه الصلاة والسلام لا بل أرفق بهم لعله الله يخرج من أصلابهم من يعبده" أو نحو ذلك. وهذه هي الوقفة الأولى وهي: ماذا قدمنا نحن من أجل هذا الدين، وكم تحملنا من الأذى في سبيل نشره بين الناس، وهل صبرنا كما صبر عليه الصلاة والسلام، أم أننا استسلمنا من أول الأمر، وبمجرد أن نواجه أذى أو معارضة قمنا بالتوقف عن الدعوة إليه سبحانه، فهل هذه هي القدوة بالنبي المصطفى الأمين!

الشباب وتحمل المسؤولية

لما أذن الله للنبي ﷺ بالهجرة أمر عليا رضي الله عنه أن ينام في فراشه ليوهم المشركين بأنه هو، وامتثل علي أمر رسول الله ﷺ فنام في الفراش حتى أصبح، وواجه على صغر سنه كفار قريش بأسلحتهم وعتوهم وجبروتهم، واستطاع الرد عليهم حين سألوه دون خوف أو وجل. والسؤال الآن: كم ربينا من أبنائنا وشباب هذه الأمة على هذه التضحية الجسيمة، بل على مجرد تحمل المسؤولية! كم من الشباب الآن يستطيع أن يسير في خضم هذه الحياة معتمدا على ربه واثقا في نفسه، أم لا بد من الاتكالية تارة على الأهل وتارة على الآخرين، حتى أصبح ما كان يفعله الصبيان في القديم لا يستطيع كثير من الشباب أن يفعله الآن.

التوكل على الله من أعظم أسباب النصر، في غار ثور تظهر قوة الإيمان بجلاء والثقة في الله بكل معانيها، وذلك عندما يقول أبو بكر للنبي ﷺ لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآنا، فيقول له عليه الصلاة والسلام يا أبا بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، وعندما يلحق بهما سراقة بن مالك وأبو بكر يكثر الالتفات بينما عليه الصلاة والسلام لا يلتفت، ثم يدعو عليه فتسيخ قوائم فرسه في الأرض، إنه التفويض الكامل وتسليم الأمر لله رب العالمين ، هذا مع عدم إهمال الأسباب فيما يستطيعه الإنسان، فالنبي ﷺ خطط فأحسن التخطيط، وبذل جهده في إخفاء نفسه ومن معه عن كفار قريش ومطارداتهم، وأعد العدة لهذا السفر الطويل، من راحلة وزاد، ثم ترك بعد ذلك أمره إلى الله وأوكل نفسه إليه، ولذا كان النصر من الله حليفه، وهذا يذكرنا بقيمة قوله

صلى الله عليه وسلم: "لو أنكم تتوكلون على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا"

المسجد والدور الحقيقي

ويواصل النبي ﷺ سيره حتى يصل إلى المدينة، فيبدأ ببناء المسجد وعمارته لعلمه أن المسجد لم يوجد في الإسلام لأداء الصلاة فقط، وإنما هو مدرسة المجتمع الحقيقة وهو نقطة الانطلاق لتبليغ دين الله، وهو مركز الدولة الإسلامية السائرة على نهج الله، فأين أغنياء المسلمين عن هذه الحقيقة، وأين العلماء والمسؤولون عن هذا الأمر المهم في حياة المجتمعات، لماذا أصبحت المساجد مهملة، وإذا اعتني بها فمن أجل الصلوات فقط، ولا دور لها بعد ذلك في حياة المسلمين.

تلك وقفات سريعة ينبغي التريث عندها والنظر فيها بعين البصيرة ، ومحاولة تطبيقها على واقعنا لنحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه من حالنا وحال أمتنا.

لهجرة النبوية.. عطاء بلا حدود وعزيمة لا تعرف اليأس

تمهيد

لمشاهدة الصورة بحجم اكبر إضغط علي الصورة

ونحن نستقبل عاماً هجرياً جديداً تطالعنا الآمال في نهوض الأمة الإسلامية من كبوتها وعثراتها لتقوي علي التصدي للتحديات والأزمات التي تواجهها وما أكثرها في عالم اليوم المليء بالصراعات.

ولقد ضرب صحابة المصطفي صلي الله عليه وسلم الذين هاجروا معه أروع المثل في صنع تاريخ الأمة وكيانها ومكانتها من خلال عطائهم بلا حدود وشجاعتهم وصمودهم بعزيمة لاتلين ولاتعرف اليأس.. فواجهوا بكل ثبات وقوة كل التحديات وانتصروا عليها.. وحققوا بطولات رائعة سجلها لهم التاريخ بأحرف من نور.. فهل تستفيد الأمة الإسلامية من بطولات هؤلاء الرجال ومن دروس هؤلاء العظماء!!

الهجرة الآن ليست مجرد نقله من مكان إلي مكان.. لأن النبي صلي الله عليه وسلم قال: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية".. والهجرة المطلوبة الآن.. هي نقلة بالنفس

الإنسانية من طبيعة النفس الأمَّارة بالسوء إلي مرتبة النفس اللوَّامة التي تفتش في مسيرة حياتها لتتجنب عوامل الضعف وأسباب الانحراف حتي ترقي إلي مرتبة النفس المطمئنة التي تنادي من قبل الحق تبارك وتعالي "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلي ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي".

المنهج الإلهي

أضاف أن الهجرة علي المستوي الاجتماعي اليوم تعني النقلة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلي آفاق المنهج الالهي الذي أنزل الله عز وجل ليقوم الناس بالقسط وكلا النوعين النقلة النفسية والنقلة الاجتماعية هي التطبيق العملي لقول الله تبارك وتعالي "ففروا إلي الله إني لكم منه نذير مبين".

أوضح أن الفرار إلي الله عز وجل لايكون إلا بنصرة دينه والالتزام بمنهجه والدفاع عن الحق وصون المقدسات وحماية كرامة الإنسان.. ومن هنا كان الجهاد فريضة إسلامية ماضية إلي يوم القيامة لردع المعتدين ورد الظالمين وتحطيم هيمنة الاستكبار الشيطاني علي البشر.. وإن هذه هي رسالتنا في عالم اليوم ونحن نستشرف العام الهجري الجديد.

الصحوة الإسلامية

تأتي ذكري الهجرة هذا العام. في وقت ساءت فيه أوضاع الأمة إلي درجة لم يسبق لها مثيل في تاريخها الطويل. هذا علي المستوي الرسمي. أما علي المستوي الشعبي. أو السواد الأعظم في حياة الشعوب الإسلامية وتبوأ الإسلام سمعة مدوية تحطم كل السدود والقيود والعقبات الموضوعة في طريق الدعوة ففيها عزاء جميل. ونهضة مبشرة بانتصار عزيز.. فالصحوة الإسلامية المعاصرة آخذة في النمو. وبخاصة في أروقة الشباب المتطلع إلي فجر جديد. يكتسح كل الظلمات. وهي أملنا الوحيد في انقاذ الأمة من الهاوية التي جرها فيها أعداؤها بعد أن أحكموا قبضتهم عليها بعوامل التخويف أو التزييف. فأفقدوا أمراءها الإرادة ووضعوا في أعناقهم القلادة. لا ليتزينوا بها. ولكن ليسهل علي الأعداء خنقهم في أية لحظة أرادوا.

أضاف أن هجرة الرسول وصحبه من مكة إلي المدينة تذكرنا بأن تحقيق النصر لابد فيه من الأخذ بالأسباب التي وضعها الله في أيدي البشر. ومحال أن يهب الله نصراً لخامل أو كسول أو جبان. لم ينفض غبار الذل والهوان والضعف عن نفسه. ولم يخط خطوة واحدة نحو كسب المعالي والذود عن العزة والكرامة بإعداد القوة للأعداء. والتدريب الجيد مادياً ومعنوياً وهو المشار إليه من قوله تعالي:

"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم".

أن الإعداد المادي يكون بإعداد السلاح المناسب لردع كل عدوان. والقدرة الماهرة علي استعماله والإعداد المعنوي يكون بقوة الإيمان. وإخلاص العمل لله. وإيثار الآخرة الباقية. علي الدنيا الفانية ثم يأتي بعد ذلك نصر الله مكافأة لمستحقي النصر "وكان حقاً علينا نصر المؤمنين" ينصر الله المؤمنين الذين أخذوا بالأسباب. علي النحو الذي تقدم وإن اجتمعت عليهم الدنيا بأقطارها ومهما قل المؤمنون ومهما كثر خصومهم. فالله وحده هو الغالب علي أمره: "إن ينصركم الله فلا غالب لكم" "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم".

أشار إلي أن هذا ما صنعته الأمة في أول عهدها بقيادة رسولها الكريم. من الهجرة. وفي غير الهجرة. فتساقطت أمامها عروش. وهوت تحت أقدامها التيجان كما تتساقط وتتهاوي حبات العقد النظيم إذا انفرط نظامها.

الأخذ بالأسباب

قال إنه في الهجرة ضرب الرسول وأصحابه أروع الأمثال في الأخذ بالأسباب. والتضحية بكل غال ونفيس فمكنهم الله في الأرض. ورد عنهم كيد أعدائهم فأقاموا دولة شامخة في الأرض أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.. والأمة في هذا العصر لن تفك أسرها من أيدي أعدائها إلا بالسير علي الدروب التي ساروا فيها بأن توحد صفها وتجمع أمرها علي قلب رجل واحد وتمحو عوامل التفرق التي فرقتها وشتتتها وهونتها علي أعدائهم.. تأخذ جادة بالأسباب في

فقه الدنيا وطرق استثمار الطاقات. وفي فقه الدين. فتقيمه وتعمل به. كما أراد الله.. لا كما أراد منهم أعداء الله المعاصرون.

وأن يكون ولاؤها الخالص لله تبغي رضاه. وتخشي سخطه. رغم أنف أعداء الله مهما كانت مواقعهم. فهم أمام الله إذا أصلحنا علاقاتنا به تراب فوق التراب.

أشار إلي أنه لابد. وبكل حزم وعزم. من إحلال وتجديد في حياتنا. فقد جـدَّ الأمـر وأحدقت بها الأخطار. ولابد لنا من تغيير ما بأنفسنا نحو الصلاح والاصلاح. حتـي يغير الله مابنا من ضعف وهوان.. ليستخلفنا الله في الأرض كما استخلف الذين مـن قبلنا.. وليمكننَّ الله لنا ديننا الذي ارتضاه لنا.

وليبدلننَّا من بعد خوفنا آمناً.

حركة ونهوض

الهجرة انطلاق لبناء أمة وتكوين مجتمع وتشكيل حضارة وصياغة قيم وإعداد أجيال وإنارة طريق وتخطيط لمستقبل وإنجاز لإيجاد مباديء ومثل.. كل هذا وذاك يجعلنـا في مقدمة الصف مواجهين تحديات كثيرة متعـددة ومتنوعـة لأن الهجـرة حركـة ونهوض ويقظة وصحوة ولأن الهجرة لم تأت خـبط عشـوائي ولـم تكـن مجـرد مصادفة.. بل من أول يوم من أيام الوحي كان للهجرة وجود كبير وأثر عظيم.

أضاف أن ذلك الأثر صنع للأمة تاريخها وكيانها ومكانها ومكانتها من خلال صحابة رسول الله الذين شرف بهم الزمن.. قوة وسخاء كرماً وبذلاً وعطاء..

أوضح أن الهجرة علمتنا كيف نواجه التحديات بثبات ونحن كالجبال الشـمم العاليـة والرواسي الشامخات.. والهجرة دواء قوي يعالج أدواء المجتمع من فرقـة وتمـزق وضعف وفقر ومرض وجهل وأمية ثقافية تستشري في المجتمع.. وهي أيضاً بـاب فسيح ونافذة مستنيرة من أجل أن تكون لنا ثقافة واعية ووعي ثقافي.. قال: إنه ممـا لاشك فيه أن الهجرة واجهت تحديات حولت العالم من جمود إلي حركة ومن فوضي إلي نظام ومن مهانة حيوانية إلي كرامة إنسانية.. نعم أيها إنسانية الكرامـة وحركـة العالم الذي هو مليء بالأحقاد والكراهية وسفك الدماء والصراعات اللامتناهية والدمار

والأطماع البشرية.. هذه تحديات لابد وأن نقف أمامها بقوة وشجاعة وصـــلابة رأي في غير تطرف أو عصبية أو دمار لمن حولنا.

أوضح أن الهجرة دروس وعبر وقيم ومباديء ومثل.

* جريدة المساء

ليس الإسلام مذهبا فكريا

ديننا دين عملي ، يقود لعمارة الكون ، وامتلاك ناصيته ، وإسعاد أهله ، فـــي ظـــل الحق والعدل والسلام (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) "٩ "

وليس دينا يهدف إلى أن يكون مذهبا فكريا ، أو عقديا ، يناطح الأفكار والنظريـــات فقط.

لا . . إن الهدف من ديننا ، هو : إقامة الإسلام عمليا ، وتطبيقه في دنيـــا الواقـــع ، وهيمنة مبادئه وتعاليمه على سلوك الناس وحياتهم ومعاملاتهم ، و . . ، و . . الـــخ من خلال الدولة وسلطانها ، والنظام وقوانينه .

ولو لم يكن الأمر كذلك : لظل النبي ﷺ بمكة حيث كان يحب ، دون تعرض لمشقات الهجرة ، وآلام فراق الوطن ، خاصة وأن أهل مكة ما كانوا يتعرضون له ولأصحابه ﷺ بالإيذاء والاضطهاد ، لو كانوا يعلمون أنه مذهب فكري يدعو إليه محمد ﷺ دون تعرض به ومن خلال مبادئه لتغيير ســـلوك النـــاس ، ونظـــام حيـــاتهم ، وقـــوانين مجتمعاتهم .

وهو نفس الهدف ، ونفس الدرس ، الذي يستجلب لأبناء الحركة الإسلامية _ في عالم اليوم _ المتاعب والمصاعب والمحن .

فليس الذي يعانون بسبب اعتناقهم الإسلام ، أو تنفيذهم لشعائره وعباداته ، إنما السبب الحقيقي فيما يعانونه : هو أنهم يريدون الإسلام نظاما وقوانينـــا ، يريـــدون الإســـلام مهيمنا على كل جنبات حياتهم (قل إن صلاتي ونســـكي ومحيـــاي ومـــماتي لله رب العالمين * لا شريك له) "٢٠ "

ولن نستفيد من هذا الدرس . . ! !

ولن ننتفع بهذا الدين . . ! !

إلا إذا أصبح الإسلام _ كما يقول الإمام حسن البنا _ نظاما شاملا ، يتناول مظاهر الحياة جميعا ، بحيث يصير : دولة ووطنا ، أو حكومة وأمة ، كما أنه خلق وقوة أو رحمة وعدالة ، وثقافة وقانون ، أو علم وقضاء ، كما أنه مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة ، سواء بسواء . " ٢١ "

ومن الواجب أن ننبه هنا : على أن هذا الكلام لا يوجه فقط للقادة والمسئولين والحكام ، بل هو موجه _ كذلك _ لأفراد الناس وجماعاتهم ، عامهم وخاصهم ، مع الحكام والمسئولين ، سواء بسواء ، كل على قدر موقعه ، وحجم مسئوليته ، ودائرة اختصاصه .

فلا ينبغي أن يكون تقاعس الحكام عن تطبيق شرع الله مندوحة لشعوبهم في أن تعيث في الأرض والدنيا لهوا وفجورا وفسادا ، بحجة آن " الناس على دين ملوكهم " .

كلا . . وألف كلا . . ! !

ففي الحديث الشريف : عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس . . أحسنا ، وإن ظلموا . . ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤا فلا تظلموا " " ٢٢ "

كما أن تعاليم الإسلام ، لا يهيمن عليها _ كلها _ ويقدر على تعطيلها الحكام ، حيث إن الكثير من أحكام الإسلام ، وآدابه ، ونظمه ، وقواعده ، وتعاليمه ، ترتبط القدرة على تنفيذها _ فقط _ بالمرء نفسه ، دون تصريح أو تمكين من غيره .

ولو عرض كل امرئ حاله على شرع الله لوجد الكثير مما هو مسئول عنه ويستطيع _ لو صدق _ تنفيذه : قد ألقى كسلا ، أو إهمالا ، أو هروبا من التبعات ، على شماعة تقاعس الحكام عن تطبيق شرع الله . . ! !

كما لا ينبغي أن يكون فساد الشعوب ، وإهمالها _ أو جهلها _ لشرع الله مندوحة لحكامهم في أن يعيثوا في الأرض والدنيا والناس إيذاء وقهرا وإفسادا ، بحجة أنه لا

يصلحهم _ أو يصلح معهم _ إلا هذا ، أو بحجة من كان يقول (. . يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الـــذي هو مهيمن ولا يكاد يبين) "٢٣ "

كلا . . وألف كلا . . ! !

ففي الحديث الشريف . . " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظـــل إلا ظلـــه : الإمـــام العادل ، وشاب نشأ بعبادة الله . .) الحديث "٢٤"

لاحظ أن أولهم : هو الإمام العادل ، الذي يصلح البلاد ، ويعدل بين العباد .

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : " إن المقسطين ، عند الله ، على منابر من نور ، عن يمين الرحمن عز وجل _ وكلتـــا يديه يمين _ الذين : يعدلون في حكمهم ، وأهليهم ، وما ولوا " "٢٥ "

ولذا . . فالأولى بالحكام : أن يعدلوا ، وأن يصلحوا ، حتى لا يحرمـــون مـــن هـــذا الفضل ، الذي لا يدانيه فضل ، وحتى لا يصيبهم ما أصاب مـــن (اســـتخف قومـــه فأطاعوه) وسكتوا له ، فاغتر ، وقال : (أليس لي ملك مصر) ؟ إذ يخبرنا القـــرآن الكريم عنه وعنهم ، بقوله (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) .

ولو لم يتم ذلك في الدنيا : فإنهم سيقفون أمام الله تعالى يوم القيامة ، وسيحاسبهم ربهم عن أنفسهم وعن رعاياهم .

ودعاء النبي ﷺ ، مستجاب فيهم ، الذي يقول فيه : " اللهم . . من ولي من أمر أمتي شيئا ، فرفق بهم : فارفق به " "٢٥ "

وسيحاسبهم عما هو أكثر وأعم من ذلك .

فسيحاسبهم عن : صيانة الأمن ، وإنفاذ القانون ، ونشر التعليم ، وإعداد القوة ، وحفظ الصحة ، ورعاية المنافع العامة ، وتنمية الثروة ، وحراسة المال ، وتقوية الأخلاق ، ونشر الدعوة . "٢١ "ولذا فبالراعي والرعية : يصير الدين واقعا ، والسلوك عبادة ، فلا انفصام بين الدين وحياة الناس ، ولا خصومة بين حياتهم وتعاليمه .

ما أروع دروس الهجرة النبوية الشريفة

ما أروع ان نقف لحظات ننظر في دروس الهجرة النبوية الشريفة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة وننظر بعمق في فصول الهجرة ودروسها، ونتعلم منها جوانب مضيئة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. هذا النبي الكريم، والرسول العظيم الذي لم يخرج من مكة مهاجرا الى المدينة المنورة إلا بعد أن أذن له الله عز وجل بذلك، وبعد أن صبر وتحمل واحتسب وعانى ماعاناه من البلايا والرزايا والأذى من أهله وذويه، ثم ممن حوله من الذين كرهوا ان تظهر كلمة الله عز وجل، وان تكون كلمته سبحانه وتعالى هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

والعقلاء من الناس هم الذين يحرصون على اغتنام فرص المناسبات الاسلامية ليقفوا عندها ويتدبروا في اسرارها ومعانيها، ثم ليستفيدوا من كل تلك الجوانب العطرة في السيرة النبوية الشريفة في هذا المجال، وذلك لأن هذه الدروس تساعد على تتبع جوانب السيرة النبوية العطرة، وأخذ الدروس منها والتعرف عليها وتعلمها ومتابعة احداثها وبالتالي تعليم أولادنا وتلاميذنا ومن حولنا جوانب من تلك الاسرار في مثل هذه المناسبات العظيمة.

ومن ينظر في قضية الهجرة النبوية الشريفة يلاحظ ان الرسول ﷺ كان متعلقا بمكة المكرمة، هذه المدينة الطيبة الطاهرة، وقد احبها وولد فيها، وعاش ونشأ وترعرع فيها، وتنزل عليه الوحي من الله عز وجل في غار حراء بهذه المدينة الطيبة، فقد قال ﷺ وهو يخرج منها مهاجرا قولته المشهورة: «اللهم وقد اخرجتني من احب البقاع الي فاسكني في أحب البقاع اليك» وهذا ابن عمر رضي الله عنه يقول حدثني الضحاك بن عثمان، أخبرني عبد الله بن عبيد عن عمير قال سمعت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ في حجته وهو واقف على راحلته وهو يقول: «والله انك لخير الأرض، وأحب الأرض الى الله، ولولا اني أخرجت منك ما خرجت». قال فقلت ياليتنا نفعل فأرجع اليها فانها منبتك ومولدك،

فقال رسول الله ﷺ اني سألت ربي عز وجل فقلت: اللهم انك اخرجتني من احب أرضك الي، فانزلني أحب الأرض اليك، فأنزلني المدينة». فكانت الهجرة الى المدينة بأمر الله وباختيار الله، وهو سبحانه الذي أكرمه وحماه وحفظه من المكاره التي احاطت به، والمؤامرات التي حاكها أعداء الله له وأخذوا يتربصون به.

ولا شك ان الحبيب ﷺ قد أكرمه الله بالهجرة من حرم الى حرم، وكلا المدينتين ذات فضل وبركة وهما احب المدن الى الله تعالى، ثم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ففي الأولى كانت نشأته، والثانية كانت اليها الهجرة وفيها مضجعه الأخير.

وقد اختار الله تعالى الأولى لمكان بيته، واختار الثانية لمسجد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فحددهما وعينهما، أمر الناس بالحج إلى الأولى، وبالهجرة إلى الثانية، فكانت في حياته صلى الله عليه وآله وسلم قبل الفتح واجبة، وصارت بعده مندوبة، دعا للأولى إبراهيم عليه السلام، وللثانية أكرم ولده صلى الله عليه وآله وسلم، وجعل القلوب تهوي إليهما.

مدينتان اضطربت الجبال فيهما تحت قدمي رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وصديقه الصديق وحن في الثانية الجذع شوقاً إليه، وسلم الحجر والشجر والجبل في الأولى عليه، صلى الله عليه وآله وسلم، وأشبع العدد الكثير فيهما القليل من طعامهما.

مدينتان ضوعف أجر الصلاة فيهما، وشد الرحل إليهما، وفي ماء الأولى وتراب الثانية وتمرها الشفاء، وبعض أجزائها من الجنة، ويئس الشيطان أن يعبد فيهما، وجعل رزقهما من ثمرات الأرض، وحرم دخول الكفار إليهما، ومنع الدجال منهما.

مدينتان تشرفتا وأهلهما برسوله صلى الله عليه وآله وسلم، خرج من الأولى إلى الثانية مهاجراً، ثم عاد إليها فاتحاً، وقد حث على الموت فيهما، وقد علمنا رسول الله ﷺ بأن من مات فيهما بعث من الآمنين، وأهلهما أول من يحشر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأول من يشفع لهم صلى الله عليه وآله وسلم.

مدينتان جعلهما الله تعالى حرماً آمناً، فحرم الصيد وتنفيره فيهما، وحرم قطع الشجر والكلأ فيهما، وحرم التقاط لقطتهما، وحرم حمل السلاح للقتال، وسفك الدماء فيهما، لا يختلي خلاهما، ولا ينفر صيدهما، ولا تلتقط لقطتهما.

للملحد فيهما أشد العقوبة، ولمن آذى أهلهما النكال، فأهل الأولى هم أهل الله تعالى، وأهل الثانية جيران رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحق على الأمة: إكرام جيرانه صلى الله عليه وآله وسلم.

هما آخر البلاد، حرم على غير المسلمين غزوهما، ومنعهما من الجبابرة، فتتاثر أصحاب الفيل بالطير الأبابيل، وغرقت الحملات الصليبية في البحر الأحمر قبل وصولهما، وسيخسف بالجيش الغازي في آخر الزمان.

وجعل المدينة مدخل صدق، وهذا رسول الله ﷺ يقول وهو يخرج من مكة مهاجرا: وقل ربي ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا.

ولا شك ان الهجرة النبوية الشريفة لم تكن تحركا عشوائيا، ولم تكن هروبا، ولكنها كانت بأمر الله وتوفيقه نقلة استراتيجية عظيمة اراد المولى عز وجل بها حماية الدعوة بعد ان اشتد الضغط، وكثر الأذى، وازدادت المؤامرات على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى اتباعه في مكة المكرمة، وأمعنت قريش في الظلم والتعدي والتعرض له صلى الله عليه وسلم، ولصحابته الكرام، فجاء الاذن بالهجرة.

ولا شك ان الرسول ﷺ قد فرح باختيار الله عز وجل لهذه المدينة المنورة وان تكون هي مقر الهجرة، وتحول اسمها من يثرب الى المدينة المنورة، ومن عوامل فرحه ﷺ انه قد أحب اهل هذه المدينة عندما لقي بعضهم قبل الهجرة، وكذلك في المدينة أخواله من جده من بني النجار، وهذا مازاد ارتياحه وجعله يأنس للذهاب الى هذه المدينة الطيبة الطاهرة، ويلقى اولئك الرجال والنساء الذين استقبلوه فرحين بقدومه وعوضوه عن قسوة الأهل في مكة (وظلم ذوي القربي أشد غضاضة). وكف الله عنه بهذه الهجرة تسلط قريش وغطرستهم وكبرياءهم وأذاهم.

ومن القضايا المهمة التي لابد ان نتدبرها في قضية الهجرة ان الرجال الذين هاجروا معه والنساء الذين تبعوهم على الرغم من انهم كانوا قلة وضعفاء الا انهم كانوا اقوياء بايمانهم وصبرهم واحتسابهم، وقد اعانهم الله وأكرمهم وكرمهم ورفع من شأنهم.

ولا شك أن العامل الآخر هو أن المدينة المنورة كانت قد بدأت تستقبل الإسلام ودخل في دين الإسلام عدد من أهل المدينة وكان هذا الأمر مهما وشجع رسول الله ﷺ على التوجه إلى المدينة المنورة. أضف إلى ذلك أنه في ذلك الوقت كان لها دور أساسي باعتبارها مركزا حضاريا من الناحية التجارية ومن الناحية الزراعية، وكانت مدينة تعج بالحركة والنشاط بالإضافة لكونها ملتقى القوافل التي كانت تمر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام وهذا أيضا جعلها مؤهلة أن تلعب دوراً أساسيا بالنسبة لانتشار الدعوة الإسلامية.

ومن العوامل الأخرى المهمة ما اتسم به أهل المدينة من مروءة ومن رجولة حتى ان رسول الله ﷺ قال قولته المشهورة: «لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار».

ولا شك ان من حب رسول الله ﷺ لهذه المدينة ان دعا لها وحرم ما بين لابتيها. عندما قال صلى الله عليه وسلم:

١ ــ «اللهم إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة» (متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد رفي الله عنه).

٢ ــ «المدينة حرم ما بين عير الى ثور» (متفق عليه من حديث علي رضي الله عنه).

٣ ــ «ان ابراهيم حرم مكة واني حرمت المدينة وما بين لابتيها» رواه مسلم من حديث حاصر في الله عنه).

٤ ــ «اللهم اني احرم ما بين جبليها مثل ما حرم ابراهيم مكة» (متفق عليه. من حديث أنس رضي الله عنه).

٥ ــ «اللهم ان ابراهيم حرم مكة فجعلها حرما واني حرمت المدينة حراما مـــا بـــين مأزميها» (رواه مسلم. من حديث ابي سعيد رضي الله عنه). الى غيـــر ذلـــك مـــن النصوص.

ودعا ﷺ للمدينة بمثلي او بضعفي ما دعا ابراهيم عليه السلام لمكة، وأن يكون فيها من البركة ضعف ما بمكة أيضا من البركة. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان الناس اذا رأوا أول الثمر جاءوا به الى النبي ﷺ فاذا اخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا» (الحديث) وفي آخره: «اللهم ان إبراهيم عبدك وخليلك ونبيـــك، وإني عبدك ونبيك وانه دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكـــة ومثلـــه معه» (اللفظ لمسلم). ومن حبه ﷺ للمدينة المنورة أنه اضافها الى نفسه فسميت مدينة الرسول ﷺ والمدينة النبوية ومدينة المصطفى بعد كان اسمها في الجاهليـــة يثـــرب. وهكذا دخلت التاريخ من أوسع ابوابه.

ومن ينظر في قصة الهجرة وترتيباتها يحس بابعاد ذلك التخطيط الدقيق الذي ســـبقه التوكل والعزيمة والامتثال لأمر الله عز وجل ثم تلاه الأخذ بالأسباب، فهذا أبو بكـــر الصديق رضى الله عنه يتشوق للهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وســـلم، ولكـــن الرسول ﷺ يدعوه إلى التريث حتى جاءت اللحظات الحاسمة التي أدرك فيها أبو بكر الصديق أن الوقت قد حان وأن الصحبة حاصلة وأن الهجرة قد أذن بها الله عز وجل. وجاء اليوم المشهود، وجاء ﷺ إلى دار أبي بكر في وقت لم يكن مـــن المـــألوف أن يزورهم فيه، فقد كان يلم بدارهم كل يوم صباحا أو في العشي، ولكنه لم يكن يزورهم أبدا في الهجرة، واشتداد الحر في مكة كما حدث في ذلك اليوم، فقال الصديق رضي الله عنه: ما جاء برسول الله ﷺ إلا أمر عظيم، وربما توقع أنه هـــذا الأمـــر وأنهـــا الساعة التي كان ينتظرها. وكانت القصة فقد اخبره عليه الصلاة والسلام انه قـــد اذن له في الهجرة، وعليه ان يعد العدة ويستعد للخروج معه رفيقا ومؤنسا معينا في هـــذه الرحلة الخالدة بخلود كتاب الله المجيد، فبكى أبو بكر من شدة الفرح، ومنـــذ الســـاعة تزايد إحساسه بالمسؤولية عن سلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن نجاح هذه

الرحلة الميمونة، فاستأجر دليلا خبيرا ماهراً مؤتمنا، من بني عبد بن عدي، تسلم الراحلتين يعتني بهما ويعلفهما حتى تأتي الساعة الموعودة، ثم رتب مع عامر بن فهيرة مولاه أن يرقبهما حتى إذا استقرا في الغار ويروح عليهما بمنيحة أبي بكر أي بأغنام أبي بكر كل يوم ليشربا لبنها ولتختفي آثار أقدامهما تحت أرجل الغنم، وكلف ابنه عبد الله أن يأتيهما كل ليلة ــ حين تهدأ الرجل ــ محاذرا ــ ليخبرهما بما سمع من حديث المشركين وظنونهم وتدبيرهم، وكلف اسماء بنت أبي بكر أن تعد سفرة رسول الله ﷺ بما سيحملانه في هذه الرحلة من زاد وماء.

وصل الركب الشريف إلى غار ثور، ووجدا فيه مكانا صالحا للاختفاء فترة من الزمن حتى يهدأ الطلب، فأسرع الرائد الأمين يتقدم رسول الله ﷺ يرتاد المكان يتفحصه ويؤمنه حتى يطمئن إلى خلوه من عدو أو خطر أو دواب أو حشرات، ودخل الغار يصلح من شأنه قدر طاقته حتى يكون صالحا لإقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشق رداءه قطعا يسد بها شقوق الغار خشية أن يكون بأحدها حية أو هامة من هوام الأرض تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أن حل الرسول الكريم بالغار حتى أسرعت الحمامة تصلح عشها وتبيض على بابه، وجاءت عنكبوت فنسجت نسيجها الواهي تسد به مدخل الغار، وقد تم كل ذلك بأمر الله وتدبيره عز وجل.

وظل الفتية من قريش الذين يتربصون برسول الله ﷺ أمام داره فغشيتهم الغاشية، فلم يحسوا به يتسلل من بين أيديهم، وما لبثوا أن علموا بخروجه، فأصابهم ما يشبه الجنون، وانطلقوا يبحثون عنه في كل اتجاه ويبذلون الوعود بالمكافأة السخية لمن يدلهم على محمد أو يأتيهم بأخباره وصاحبه، وأخذوا يهددون آل أبي بكر وصغاره عسى أن يفوزوا منهم بكلمة تدلهم على مكانه فلم يصلوا إلى شيء.

انطلقوا يبحثون في كل شبر بمكة وشعابها وما حولها حتى وصلوا إلى الغار وتقدم دليلهم وهو يتوقع في ما يشبه اليقين انه سيجدهما في هذا الغار المحفور في الصخر، لكنه فوجئ بما خيب أمله فقد وجد على باب الغار حمامة ترقد على بيض وعنكبوتا نسجت فسدت مدخل الغار، فقال للقوم انه غار لم يدخله أحد منذ شهور عدة، ارتجف

قلب أبي بكر حين رآهم فوقه خوفا على رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فأجابه: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما». وخلد القرآن هذا المشهد الرائع بقول الحق تبارك وتعالى: «الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها». ومكثا في الغار يومين أو ثلاثة، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بالأخبار، لقد هدأ الطلب، وجاءهما الدليل بالرواحل، وجاءت أسماء بالزاد ولما لم تجد ما تعلق به الطعام والماء في الرحل شقت نطاقها فجعلت منه حبلا ومنذ يومها سميت ذات النطاقين. وبدأت الرحلة في طرق وعرة بعيدة عن طرق القوافل اتقاء لمقابلة أحد من أهل مكة وتجلى أثناء الرحلة استعداد الصديق للتضحية والفداء والحرص على سلامة الدين بسلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يمشي أمام الرسول ليتلقى عنه ما قد يأتي من الأمام، ثم يتذكر الطلب فيمشي خلفه، ثم يمشي عن يمينه، ثم يمشي عن يساره، وهكذا طول الطريق يمهد له الظل ليستريح، ويأتيه بالطعام والشراب، لا يدخر وسعا ولا يألو جهدا في خدمته وتهيئة أسباب الراحة ما أمكنه ذلك، يخفق قلبه عند أية بادرة أو نبوة خوفا عليه ﷺ وعلى مصير الإسلام والمسلمين إن حدث له شيء.

هذه اذا ملامح من الهجرة النبوية توضح الصمود والصبر والرغبة فيما عند الله عز وجل ولكنها في الوقت نفسه توضح لنا أن الهجرة النبوية لم تكن قضية مفاجأة ولا أمراً عفوياً، بل كان فيها الإعداد والتنظيم والتخطيط الذي سبقه التمهيد لهذه الهجرة سواء بعقد بيعة العقبة الأولى أو الثانية أو الثالثة يوم كان ينتهز رسول الله ﷺ مواسم الحج فيلتقي بأهل يثرب ويدعوهم ويهيئهم، ثم ما فعله مع الخزرج في العام التالي واخذ ﷺ يتدرج في البيعة، ثم عندما أرسل مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ يخبره بالرجال والنساء الذين دخلوا في الإسلام حرص الرسول ﷺ على لقائهم في موسم الحج التالي وتمت البيعة والرسول ﷺ يحادثهم: ابايعكم على ان تمنعوني فيما

تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فردوا عليه: نعم، والذي بعثك بالحق نبيا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الدروع ورثناها كابراً عن كابر.

هكذا اذاً مهد رسول الله ﷺ لهذه الهجرة ثم خطط لها يوم همس في أذن أبي بكر بأن الإذن قد جاء بالهجرة وما تبع ذلك من تخطيط في اختيار الوقت الملائم والمناسب للخروج من مكة وفي تهيئة الأسباب الرئيسية للرحلة، ثم في خداع المشركين عندما طلب من سيدنا علي بن أبي طالب البطل المغوار أن ينام في فراشه، فهذه التنظيمات من كتمان تام لخبر الهجرة، واختيار ملائم للتوقيت والخروج في وقت الهجيع الأخير من الليل وسلوكه طريقاً غير الطريق الذي تألفه قريش، كل هذه الأمور تعلم الأمة أهمية التخطيط في حياتها وأهمية التنظيم وأهمية الشورى وأهمية التعاون، ثم العزم والتوكل على الله والصمود في سبيل مرضاة الله عز وجل مهما كانت الصعاب ومهما كانت الكوارث ومهما كانت التحديات.

إنه رسول الله ﷺ يعلمنا الدروس ولذلك فقد حرص عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح أن يؤكد على قضية هامة: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» لأنه القدوة ولأنه الأسوة ولأن هؤلاء الرجال أخذوا عنه، وهذا رب العالمين يأمرنا بطاعته «من يطع الرسول فقد أطاع الله» ويقول عز وجل «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» ثم يجعله القدوة والأسوة «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر».

هذه إذاً لمحات من الهجرة ولا شك إن من الواجب أن نحرص كل الحرص على أن نستفيد من هذه المناسبة ونعود إلى الله ونتوب توبة نصوحا، فهذا رسول الله ﷺ في غمار المعارك يتوب إلى الله ويستغفر الله ويجأر إلى الله بالدعاء ويعلمنا أن نعود إلى الله عز وجل، وفي الحديث الصحيح الذي يروى عنه ﷺ انه يتوب إلى الله بين اليوم والليلة اكثر من سبعين مرة، ويعلمنا ان التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كل هذا لنتعلم العبودية الخالصة لله عز وجل، وأن نعلم أن الأخذ بالأسباب شيء، ولكن الأساس في الأمر هو العزيمة والتوكل على الله عز وجل حق التوكل ومن الواجب

الأخذ بالأسباب في كل عمل نقوم به وفي كل معركة تنوي الأمة الإسلامية القيام بها، ولا بد في كل الأمور أن نعود بين وقت وآخر إلى مثل هذه الأحداث لنتعلم من معلم هذه الأمة كيف تصرف وكيف فعل وكيف خطط وكيف نظم، ومع ذلك فإنه في كل الأمور كان يلجأ إلى الله ويخاف رغم ما وعده الله سبحانه وتعالى به من نصر ويحرص على أن يكون قريبا من الله عز وجل، ويعلمنا أبعاد التوبة وأهمية التوبة وإخلاص العبادة لله عز وجل.

والعودة الى الله والتوكل عليه والإيمان الكامل والصادق بأن الأمور كلها بيد الله، وأن نتعلم ونحن نتابع هذه الدروس والأحداث أن الحب لرسول الله ﷺ يبدأ من الاتباع والالتزام بكل ما جاء به ﷺ من ربه عز وجل وهذا التوجيه الرباني الواضح في أن حب الله عز وجل يبدأ ويتحقق باتباع الرسول الكريم والنبي العظيم صلى الله عليه وسلم: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» الآية.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

* وزير الاعلام السعودي الأسبق ورئيس مجلس ادارة جمعية إقرأ

مصدر عزة المسلم

إن عزة المسلم : في التزامه بشرع الله تعالى ، ومرضاته الدائمة الواعية له سبحانه ، وإحساسه الصادق بمعيته عز وجل ، وثقته في نصره سبحانه لأوليائه . وحمايته لهم من كيد أعدائهم .

فهذا رسول الله ﷺ يوم الهجرة _ وهو يعلم جيدا أن القوم يريدون الفتك به ، ويخططون للخلاص منه ، ولكنه – كان رابط الجأش ، ثابت الفؤاد ، ثاقب النظر ، جيد التخطيط ، هادئ التفكير ، حسن الإعداد والاستعداد . . وما ذلك وغيره : إلا لأنه كان يستصحب معونة الله ، ويستعين بقدرته سبحانه ، ويشعر ، بل تغمره ﷺ معية الله ، حتى لكأنه لا يرى القوم ، ولا يشعر بهم ، بل صار لا يعبأ بمكرهم ، ولا يهتز لغليانهم وهياجهم .

(إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها) "١٣ "

وفي صحيح البخاري . . عن أبي بكر قال : " كنت مع النبي ﷺ في الغار ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت : يا نبي الله . . !! لو أن بعضهم طأطأ بصره : رآنا ، قال : اسكت يا أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما " "١٤ "

طمأنينة لا حدود لها ، نابعة من دوام ذكر الله ، مبنية على ثقة مطلقة في معية الله ونصره .

وكان فزع أبي بكر _ لا على نفسه ، بل _ على رسول الله ﷺ ، بسبب أن الكفار _ من هول صدمتهم من هذا الخروج العجيب ، من بين أيديهم ، وسيوف فتيانهم ، وشدة بحثهم ، وكثرة انتشارهم _ وصل بعضهم إلى المكان الذي اختبأ فيه ، منهم ، النبي ﷺ وصاحبه .

ولكن الله تعالى : يحمي من يحتمي به ، ويعين من يستعين به ، ويستجيب لمن يدعوه ، ويطمئن من يذكره ، ويعز من يعتز به .

في رواية للإمام أحمد "١٥ " . . عن أسماء بنت أبي بكر ، رضي الله عنهما ، قالت : فهيأنا لهم سفرة . . . وخرجوا يطوفون في جبال مكة ، حتى انتهوا إلى الجبل الذي هما فيه ، فقال أبو بكر لرجل مواجه الغار : يا رسول الله ، إنه ليرانا ، فقال : كلا إن الملائكة تسترنا بأجنحتها ، فجلس ذلك الرجل ، فبال مواجهة الغار ، فقال رسول الله ﷺ : لو كان يرانا ما فعل هذا .

ولذلك : فما على المسلمين بعامة ، والحركة الإسلامية بخاصة _ إذا أحسنوا الالتزام بشرع الله ، فهما وسلوكا ، وأجادوا الإتباع لرسول الله ﷺ ، وأتقنوا التخطيط ، وأجادوا الاستعداد ، وبذلوا كل ما في وسعهم ، وأخلصوا في الاستعانة بالله تعالى ، وصدقوا في التوكل عليه _ أن لا يخافوا من مكر أهل الأرض جميعا ، وأن لا يخشوا تفوق أسلحتهم ، ولا كثرة عددهم ، ولا حداثة آلاتهم ، ولا تنوع آلياتهم ؛ لأن الله تعالى يكون معهم . . بتأييده ، وطمأنينته ، ونصره ، وإعزازه .

يقول تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) "١٦

ويقول سبحانه (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) "١٧ "

ولهذا : فلا مجال لليأس عند من يستنصر بالله ، ولا مجال للهوان أو الذل عند من يعتز بالله سبحانه وتعالى .

وما رأينا إنسانا اعتز بغير الله تعالى ، إلا أذله الله عز وجل ، وألقى به إلى غير مبتغاه .

وما رأينا شعبا اعتز بغير شرع الله وقانونه إلا ألبسه الله ثياب الجوع والخوف ، بعد الصغار والهوان والتبعية .

ومن هنا : لا يمكن أن تهتز ثقة المؤمن بنصر الله لبريق تفوق الأعداء ، إذا هو صدق في الاستعانة بالله عز وجل ، وجد في الاستعداد ، وبذل ما في الوسع ، وتسلح بالصبر البناء (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) الأنفال ٦٦

وليست هذه دعوة للتواكل والسلبية ، بل هي التنبيه على ضرورة ترجمة الاعتـــزاز بالله تعالى إلى عمل بناء ، يرفع الهامة ، ويشحذ الهمة ، ويجدد الثقة ، ويبني النفوس ، ويعين على المواجهة .

خاصة : في هذا العصر الذي هرع فيه كثير من المنتسبين للإسلام إلى الشرق وإلى الغرب بحثا عن مصادر للعزة والقوة ، وعميت أبصارهم ، لا . . (إنهـــا لا تعمـــي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) "١٨ " عن الاعتزاز بالله تعالى .

وصدق الله إذ يمن علينا في هذا التنبيه (أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعـــا) "١٩ " لا يملكها سواه ، ولا ينعم على أحد بها إلا هو سبحانه وتعالى .

وإذا كان هذا المفهوم الإسلامي الواضح جيدا في دروس الهجرة ، قـــد غـــاب عـــن جموع المسلمين عامة : فإنه لا ينبغي أن يغيب عن الحركـــة الإســـلامية بخاصـــة ، وعلى دعاة الحركة وقادتها أن تولي هذا المبدأ التربوي عناية كبيرة في نفسها أولا ، وفي تربية أبناء الحركة عليه ثانيا ، بغرض تكـــوين هـــذا الجيـــل الـــذي لا تهـــزه الصوارف ، ولا تصرفه الزخارف ؛ بسبب اعتزازه بـــالله تعـــالى ، ورغبتـــه فـــي مرضاته .

ويوم يوجد هذا الجيل : شيوخا وشبابا ، نساء ورجالا ، سيملك القوة ، ويزهو بعـــزة الله ، ويحسن القيادة ، وينشر العدل ، ويوجه العلم لخير أهـــل الأرض ، و. . ، و. . الخ .

وساعتها : ستنقاد لهم الدنيا ، ويتصاغر أمامهم الطغاة ، وتعنوا لهم وجوه الجبابرة

معاني الهجرة لا تنضب

٢٠٠٦/١/٣١ ...

عبد الرحيم بن آشو

الهجرة النبوية من أعظم المناسبات التي أحدثت نقلة نوعية ومنعطفا كبيرا في تاريخ المسلمين وأسست لدولة إسلامية حضارية. هذه المناسبة التي ينبغي أن نستحضر دوما معانيها ودلالاتها في حركتنا نحو الله تعالى، وأن نعي الدروس والعبر المستخلصة منها وأن لا تبقى مجرد مناسبة عابرة نحتفل بها كما يحتفل النصارى برأس السنة الميلادية.

معاني الهجرة النبوية

– لم تكن هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) انتقالا ماديا من بلد إلى آخر فحسب، ولكن أيضا انتقالا معنويا من حال إلى حال، انتقالا من حال الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، ومن التفرقة إلى الوحدة، ومن الخوف إلى الأمن، ومن القيد إلى الحركة.

– الهجرة كانت فيصلا بين مرحلتين من مراحل الدعوة، مرحلة الاستضعاف (المرحلة المكية) ومرحلة إعداد القوة وبناء الدولة (المرحلة المدنية).

– الهجرة كانت بحثا عن مركز آمن تنطلق منه الدعوة بحرية من أجل بناء المجتمع المسلم والدولة الإسلامية التي ستحمل مشعل الرسالة والهدى إلى كل الناس في العالم، ولم تكن الهجرة فرارا من البطش والأذى ونجاة بالنفس من كيد المشركين.

الهجرة نوعان:

أولا: هجرة مكانية واجبة على المسلم حسب الأحوال والشروط. يقول تعالى متوعدا الذين فضلوا أموالهم وديارهم ومصالحهم على الهجرة: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)، (والذين آمنوا ولم

يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق).

أما قوله (صلى الله عليه وسلم): "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية" فالمراد بها أن لا هجرة واجبة بعد الفتح. وقد زاد مسلم: "وإذا استنفرتم فانفروا"

ثانيا: هجرة نفسية شعورية واجبة في كل الأحوال، وهي رديفة للتزكية، وتعني هجرة المعاصي، واجتناب ما لا يرضي الله في القول والفعل وإنكار المنكر بالقلب، والحب في الله والبغض في الله. ورد في صحيح مسلم أن مجاشع بن مسعود السلمي جاء بأخيه إلى رسول الله ليبايعه على الهجرة. فقال (صلى الله عليه وسلم): قد مضت الهجرة بأهلها. قال مجاشع: فبأي شيء تبايعه؟ فقال (صلى الله عليه وسلم): على الإسلام والجهاد والخير)، وقال (صلى الله عليه وسلم): " لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها". ويقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"، وفي رواية ابن حبان: "المهاجر من هجر السيئات، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، وبمعنى آخر، فالهجرة النفسية هي انتقال بالنفس الإنسانية من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة ثم إلى النفس المطمئنة.

والتلازم بين المعنى الحسي والنفسي لا يزال قائما ما دام المؤمنون مستضعفون في الأرض. ويقول (صلى الله عليه وسلم): "الهجرة خصلتان، إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة".

الهجرة النبوية، دروس وعبر

١- أهمية التربية الإيمانية في إعداد النفوس المضحية والواثقة في الله وفي وعده والتي لا يسري إليها الارتياب والهون إن لم يتحقق الوعد في حياة المؤمنين. إسمعوا إلى قوله تعالى للذين يستعجلون نتائج المعركة بين الحق والباطل من الذين يريدون أن يروا ثمار جهودهم يانعة ليقطفوها: "فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون، فاستمسك بالذي أوحي إليك، إنك على صراط مستقيم".

٢- أهمية المسجد في الإسلام، فأول عمل قام به (ص) في المدينة هو بناء أول مسجد في الإسلام كتعبير عن مضمون الهجرة ووجهتها ولربط المسلمين بالرسالة باعتبار المسجد منطلقا لهذا الارتباط الخالد وقبلة جامعة للمسلمين وموحدة لصفوفهم على أساس من العقيدة.

٣- أهمية الأخوة كعامل وحدة وقوة: فأحداث الهجرة أظهرت أهمية العلاقات الأخوية بين المسلمين في التخفيف من معاناة بعضهم البعض وفي التعاون فيما بينهم أثناء الهجرة وقبلها وبعدها، الأخوة أصل في الدين فلا يجوز التفريط في الأصول من أجل الفروع فتلك جريمة في حق دين الله والأخوة لها حقيقة ومظهر، وحقيقتها أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك فيفرحك ما يفرحه ويسيئك ما يسيئه، ومظهرها الإحسان إلى أخيك فتتعامل معه بخلق حسن وتعينه على نوائب الدنيا وتنصح له.

٤- النية أساس العمل: فالهجرة لم تكرم لكونها سفرا وإنما لدوافعها وبواعثها. ففي الهجرة نفسها خرج رجل يريد امرأة يهواها، فشتان بين هجرته وهجرة غيره من الصحابة، "إنما الأعمال بالنيات"، فكل عمل أريد به غير وجه الله فهو مردود.

٥- الهجرة سبيل إلى التوبة، قال (ص):" لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة". رجل يقتل تسعة وتسعين نفسا، فأفتاه أعبد أهل الأرض ألا توبة له، فأضله وأكمل به المئة. ثم استفتى أعلم أهل الأرض، فدله على الهجرة سبيلا للتوبة، فهاجر ثم مات في

الطريق، فتخاصم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب بشأنه، فرحم بسبب سلوكه طريق الهجرة. وفي هذا المثال أيضا ضرورة التلازم بين العلم والإيمان.

٦- الهجرة مثال في تفضيل حب الله ورسوله على ما سواهما: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين). فهذا صهيب الرومي، كان ذا مال وتجارة، فأراد الهجرة إلى المدينة فساومه الكفار عليهما، فترك لهم دنياه لينال رضا الله، ففرح بذلك رسول الله (ص) قائلا: "ربح البيع أبا يحيى".

٧- العقيدة أغلى من الأرض ومن مكاسب الدنيا المغرية: فقد هاجر المسلمون تاركين وراءهم أموالهم وديارهم وأحبابهم وتجارتهم غير مترددين.

٨- كمال اليقين بمعية الله الموجبة للنصر: تجلى ذلك في واقعة الغار. يقول تعالى: "إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها).

٩- الهجرة درس في التنظيم والتخطيط والأخذ بالأسباب في كل عمل: فالنصر لا يأتي إلا بعد استنفاد كل الإمكانات وبذل الوسع، وهذا ما فعله رسول الله (ص) وهو يمهد لهذه الهجرة سواء بعقد بيعة العقبة الأولى والثانية، أو بإرساله مصعب بن عمير إلى المدينة للدعوة إلى الإسلام وإيجاد رأي عام مؤيد وقاعدة ارتكاز صلبة، وهذا ما قام به أيضا (ص) وهو يضلل أعداءه عن مطاردته ويختبئ في الغار، "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"، "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة".

١٠- التقوى والصبر من شروط النصر: "وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا"، "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون".

١١- حركية المنهج الإسلامي التي تضع المسلم في تدافعه مع الباطل أمام خيارات متعددة، وللواقع أثره في تفضيل خيار على آخر، فالهجرة من مكة إلى المدينة كانت اختيارا مناسبا في الزمان والمكان.

المطلوب منا اعتبار واتعاظ بهذا الحدث الجليل: هجرة المعاصي بكل أنواعها، هجرة الرذائل في أخلاقنا وسلوكنا، هجرة الجدال الذي لا يراد به الحق، هجرة الإساءة إلى غيرنا بلساننا أو يدنا أو سلوكنا، هجرة التواكل والتقاعس والسلبية في حياتنا، هجـــرة تضييع الوقت فيما لا ينفع، هجرة العشوائية في تسيير أمورنا

معجزات على طريق الهجرة

(الشبكة الإسلامية) أ.د/ أكرم ضياء العمري (خاص بالشبكة)

بعث الله رسوله ﷺ بالهدي ودين الحق، ووعده بالنصر والتأييد، وكان تأييده تعالى لرسوله بأمور كثيرة منها المعجزات والتي هي خوارق العادات، فقد وقعت له معجزات كثيرة ، ومنها ما كان على طريق الهجرة ، وهو ما سنقف عليه في هذه الكلمات.

وقعت معجزة للنبي ﷺ في طريق الهجرة ، ولنقرأ ما سجله الصديق رضي الله عنه عن بداية الرحلة قال: (أسرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد ، حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل ، لم تأت عليه الشمس بعد ، فنزلنا عندها فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكاناً ينام فيه النبي – ﷺ – في ظلها ثم بسطت عليه فروة . ثم قلت : نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام) . ثم حكى أبو بكر خبر مرور راع بهما ، فطلب منه لبناً ، وصادف استيقاظ الرسول ﷺ فشرب ثم قال : (ألم يأن للرحيل) قلت : بلى . قال : فارتحلنا بعدما زالت الشمس ، وأتبعنا سراقة بن مالك ونحن في جلد من الأرض .

معجزة في خيمة أم معبد :

وقد اشتهر في كتب السيرة والحديث خبر نزول الرسول ﷺ وأصحابه بخيمة أم معبد بقديد طالبين القرى ، فاعتذرت لهم لعدم وجود طعام عندها إلا شاة هزيلة لا تدرّ لبناً ، فأخذ الشاة فمسح ضرعها بيده ، ودعا الله ، وحلب في إناء حتى علت الرغوة ، وشرب الجميع ، ولكن هذه الرواية طرقها ما بين ضعيفة وواهية . إلا طريقاً واحدة يرويها الصحابي قيس بن النعمان السكوني ونصها (لما انطلق رسول الله ﷺ و أبو بكر يستخفيان نزلا بأبي معبد فقال : والله مالنا شاة ، وإن شاءنا لحوامل فما بقي لنا لبن . فقال رسول الله ﷺ : أحسبه – فما تلك الشاة ؟ فأتى بها . فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها ، ثم حلب عسّاً فسقاه ، ثم شربوا ، فقال : أنت الذي يزعم قريش أنك

صابيء ؟ قال : إنهم ليقولون . قال : أشهد أن ما جئت به حق . ثم قال : أتبعك . قال : لا حتى تسمع أناّ قد ظهرنا . فاتّبعه بعد) . وهذا الخبر فيه معجزة حسية للرسول ﷺ شاهدها أبو معبد فأسلم .

قصة سراقة بن معبد :

ولندع رواية سراقة بن مالك تكمل الخبر التاريخي ففيها تفاصيل تكشف عن المعجزة النبوية . قال سراقة : " لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . قال : فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا عليّ آنفاً إني لأراهم محمداً وأصحابه . قال : فأومأت إليه بعيني أن اسكت . ثم قلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم ، قال : لعلّه ، ثم سكت ".

ثم ذكر سراقة خروجه في أثرهم ، وأن فرسه ساخت به حتى طلب الدعاء له من رسول الله ﷺ قال : فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : (قل له وما تبتغي منا) ؟ فقال لي ذلك أبو بكر . قال قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك . قال : اكتب له يا أبا بكر ، فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزفة ، ثم ألقاه إلي ، فأخذته فجعلته في كنانتي ، ثم رجعت فسكت ، فلم أذكر شيئاً مما كان)) . ثم حكى خبر لقائه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإسلامه .

وقد ذكر سراقة في رواية صحيحة أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، و أبو بكر يكثر الالتفات ، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً ، وأن وصيته كانت : اخف عنا .

وتذكر رواية صحيحة أنه صار آخر النهار مسلمة للنبي ﷺ بعد أن كان جاهداً عليه أوله . وأن الرسول ﷺ هو الذي دعا عليه فصرعه الفرس . وقد احتاط الاثنان في الكلام مع الناس الذين يقابلونهم في الطريق ، فإذا سئل أبو بكر عن رسول الله ﷺ قال : هذا الرجل يهديني السبيل ، فيحسب الحاسب إنه إنما يعني الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير . وقد صح أن الدليل أخذ بهم طريق السواحل.

وبالجملة: فإن المعجزات جند من جنود الله تعالى أيد بها رسوله صلى الله عليه وسلم، وأكرمه بها ، وكان لها الأثر الفاعل في إرساء دعائم دعوته المباركة ، والله الموفّق .

مقدمات الهجرة ونتائجها

الرسول ﷺ في موسم الحج

جاء موسم الحج في السنة العاشرة من البعثة، فاجتمعت القبائل من كل مكان وبدأ الرسول ﷺ يدعوهم قائلا: (يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكًا في الجنة) _[الطبراني وابن سعد]

ووجد الرسول ﷺ ستة رجال من (يثرب) يتحدثون، فاقترب منهم، وقال لهم: (من أنتم؟)

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: أَمِنْ موالى يهود (أي من حلفائهم)؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟. قالوا: بلى.

فجلس معهم وحدثهم عن الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فانشرحت له صدورهم، وظهرت علامات القبول على وجوههم، وكانت بينهم وبين اليهود عداوة، فكان اليهود يهددونهم بظهور نبي، وسوف يؤيدونه ويقاتلونهم معه، فلما سمعوا كلام الرسول ﷺ نظر بعضهم لبعض وقالوا: تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقُنَّكُم إليه .. فأجابوا الرسول ﷺ فيما دعاهم إليه، ووعدوه بأن يقابلوه في العام المقبل، ثم انصرفوا إلى قومهم وحدثوهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتشرت أخباره في يثرب. _[ابن إسحاق].

بيعة العقبة الأولى:

وفي شهر ذي الحجة سنة إحدى عشرة من البعثة، قدم إلى مكة اثنا عشر رجلا من أهل يثرب من بينهم خمسة من الستة الذين كلموا الرسول ﷺ في العام الماضي، واجتمع معهم رسول الله ﷺ في مكان اسمه العقبة؛ فآمنوا به صلى الله عليه وسلم، وبايعوه على ألا يشركوا بالله

شيئًا، ولا يسرقوا، ولا يرتكبوا الفواحش والمنكرات، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يعصوه ﷺ في معروف يأمرهم به.

وكانت هذه هي بيعة العقبة الأولى، وعندما عادوا إلى يثرب أرسل رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير –رضي الله عنه– ليعلمهم أمور الدين ويقرأ عليهم القرآن، فأسلم على يديه كثير من أهل يثرب.

بيعة العقبة الثانية:

وفي شهر ذي الحجة من العام الثاني عشر من البعثة، ذهب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من أهل يثرب إلى الحج، ليبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وفي ليلة الحادي عشر من ذي الحجة تسلل الرجال والمرأتان وذهبوا إلى العقبة، وجاء إليهم الرسول ﷺ ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، ولم يكن قد آمن وقتئذ، ولكنه جاء ليطمئن على اتفاق ابن أخيه مع أهل يثرب، وليبين لهم أنه قادر على حمايته في مكة إن لم يكونوا قادرين على حمايته في المدينة.

وتمت بيعة العقبة الثانية، وفيها عاهد الأنصار النبي ﷺ على السمع والطاعة، وقال لهم : (تبايعوني على السمع والطاعة، في النشاط

والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم

ولكم الجنة) _[أحمد].

وأصبح لرسول الله ﷺ أتباع أقوياء مستعدون لنصرته، والقتال من أجل الإسلام، حتى إن أحدهم وهو العباس بن عبادة –رضي الله عنه– قام وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا، ولكن الرسول ﷺ لا يفعل إلا ما يأمره الله به، فقال له : (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)

[ابن إسحاق] واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر رجلا؛ ليكونوا أمراء عليهم حتى يهاجر إليهم.

وفي الصباح، تسلل الخبر إلى كفار قريش، فاكتشفوا أمر ذلك الاجتماع الخطير، وخرجت قريش تطلب المسلمين من أهل يثرب فأدركوا (سعد بن عبادة) وأسروه وأخذوا يعذبونه ويَجُرُّونه حتى أدخلوه مكة، وكان سعد يجير ويحمي تجارة اثنين من كبار مكة إذا مرا ببلده، وهما جبير بن مطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية، فنادى باسميهما فجاءا وخلصاه من أيدي المشركين، وعاد سعد بن عبادة – رضي الله عنه– إلى يثرب.

عرض الدعوة الإسلامية على القبائل

(الشبكة الإسلامية)

بعد مضي سنوات من دعوة الرسول ﷺ لأهل مكة وملاقاته منهم العنت والصدود ، وصبره على مواقفهم السلبية وأذاهم له، صبراً لا تتحمله الجبال الراسيات، أراد نقل الدعوة إلى القبائل خارج مكة لعله يجد بينهم آذاناً صاغية وقلوباً واعية ، فيؤمن به بعض وجهاء القبائل ، فينشر هدايته ، ويضمن ملاذاً لأتباعه من المستضعفين والمساكين ، لذلك ركَّز الرسول ﷺ في دعوته على القبائل ورؤسائها .

فبدأ ﷺ بعرض نفسه على القبائل في السنة الرابعة للبعثة ، واستمر في عرض الدعوة على القبائل في مواسم الحج مستفيداً من تجمعهم ، حيث تأتي القبائل إلى مكة للحج وتحصيل المنافع من تجارة وغيرها ، وفي كل موسم يجدد الدعوة لهم ، فكان يأتيهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام ، ويقول : (يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي ، وتمنعوني ، حتى أبين عن الله ما بعثني به) ولم يكن ﷺ يسمع بقادم إلى مكة من العرب ، له اسم وشرف ، إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده .

و كانت قريش تستقبل القبائل والقادمين بسب رسول الله وتوهين أمره حتى لا يقبلوا دعوته للإسلام ، وكان عمه أبو لهب يتبعه ويلاحقه ويرد عليه ويصرف الناس عنه .

ومن تلك القبائل التي دعاها النبي ﷺ : بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وبنو نصر ، وكندة ، وكلب، والحارث بن كعب ، وعذرة .

وكان ﷺ حكيما يخرج إلى القبائل في ظلام الليل ، بعيداً عن عيون مشركي مكة المعادين للدعوة ، رائعاً في عرضه للدعوة ، حيث يمهد لذلك كما فعل مع بني كلب فبدأ بقوله : (يا بني عبدالله ، إن الله قد أحسن اسم أبيكم) .

ومع أنه ﷺ كان يجد الصدود والإعراض ، إلا أنه يصبر ويحتسب الأجر والثواب عند الله ، ويحمل لذلك هماً عظيماً وقلباً رحيماً يظهر من خلال ما روته أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت لرسول الله ﷺ (يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال فناداني ملك الجبال ، وسلم علي ، ثم قال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا) رواه البخاري و مسلم .

وفي موسم حج عام أحد عشر للبعثة التقى الرسول ﷺ بنفر من شباب يثرب من قبيلة الخزرج ، وكانوا من العقلاء فاستجابوا لدعوته ودخلوا في الإسلام ، وحملوه معهم إلى المدينة.

واستجاب له بعض الأفراد ممن دعاهم أمثال: طفيل بن عمرو الدوسي ، و ضماد الأزدي من أهل اليمن ، ممن رجعوا بالدعوة إلى أقوامهم .

وهكذا يجد الإسلام دين الحق طريقه إلى القلوب السليمة ، ويبقى أصحاب القلوب المظلمة على ضلالهم وكفرهم وعنادهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

المستجيبون للدعوة من غير أهل مكة

(الشبكة الإسلامية)

بدأت دعوة الإسلام المباركة – التي جاء بها رسول الله ﷺ – في مكة ، ثم أخذت تنتشر خارجها ، وأخذ عدد الذين دخل الإسلام قلوبهم من غير أهل مكة يزداد يوماً بعد آخر ، وكان من أوائل من استجاب لهذه الدعوة المباركة من خارج مكة :

١– سويد بن الصامت

وكان من أهل يثرب ، ومن شعرائها البارزين ، صاحب شرف ونسب ، جاء إلى مكة حاجّاً أو معتمراً ، فالتقى به رسول الله ﷺ ، وعرض عليه الإسلام فأسلم ، وكان إسلامه في أوائل السنة الحادية عشرة من البعثة .

٢– إياس بن معاذ

وقد جاء مع وفد الأوس لمحالفة قريش على الخزرج ، وكان غلاماً حدثاً ، وعندما التقى بهم رسول الله ﷺ ، دعاهم إلى الإسلام ، فوجدت كلماته طريقها إلى قلب إياس ، الذي مات بيثرب وهو يوحد الله عز وجل ، وكان ذلك أوائل سنة ١١ من البعثة .

٣– أبو ذر الغفاري

كان من سكان نواحي يثرب ، ولما سمع بمبعث رسول الله ﷺ ، أرسل أخاه ينظر الخبر ، ثم رحل بنفسه إلى مكة حتى أتى النبي ﷺ ، وطلب منه عرض الإسلام عليه ، فأسلم ، وأشار عليه النبي بكتم إسلامه ، لكنه فضّل الجهر به وإعلانه على الملأ من قريش ، ولقي بسبب ذلك إيذاءً في قومه ، كما جاء في صحيح البخاري

٤– الطُفيل بن عمرو الدَّوسي

سيد قبيلة دوس ، كان شريفاً في قومه ، وشاعراً لبيباً أريباً، قدم مكة في سنة ١١ من البعثة ، فاستقبله أهل مكة وحذروه من محمد ﷺ ودعوته ، حتى عزم على عدم كلامه ، ولا سماعه ، إلا أنه سرعان ما تراجع ، وأتى النبي وطلب منه عرض الإسلام عليه ، فأسلم ، وعاد إلى قومه داعياً إلى الله ، وما زال بهم حتى جاء بسبعين

أو ثمانين بيتاً كلهم قد دخل الإسلام قلبه ، وقد استشهد يوم اليمامة رحمه الله ورضي عنه .

٥- ضِماد الأزدي

من أزد شنوءة باليمن ، قدم مكة ، وسمع ما كانت قريش تصف به رسول الله ﷺ من أنه شاعر أو مجنون ، وكان يُرقي المرضى والمصابين ، فأتى الرسول ﷺ وعرض عليه أن يرقيه ، فقال رسول الله ﷺ : (إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد) رواه مسلم .

وكان لتلك الكلمات وقْعٌ في نفسه ، فطلب من رسول الله ﷺ أن يعيدها عليه ثانية ، ثم قال: " لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ...هات يدك أبايعك على الإسلام ".

وكان من الذين وجد الإسلام طريقاً إلى قلوبهم غير ما تقدم ، نفرٌ لقيهم رسول الله ﷺ في موسم الحج سنة ١١من البعثة ، وكانوا من شباب الخزرج بالمدينة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فاستجابوا له ، وكانوا ستة نفر، هم: أسعد بن زرارة ، و عوف بن الحارث ، و رافع بن مالك بن العجلان ، و قطبة بن عامر ، و عقبة بن عامر ، و جابر بن عبدالله .

وقد رجع هؤلاء إلى المدينة بالدعوة إلى الله ، حتى لم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ .

وهكذا أخذ الإسلام – الدين الخاتم – يشق طريقه في ربوع المعمورة حتى عمَ جزيرة العرب زمن رسول الله ﷺ ، ثم واصل الخلفاء الراشدون العمل على نشره خارج الجزيرة ، وكذلك فعل من جاء بعدهم ، حتى بلغ الإسلام أغلب بقاع الأرض ، وصدق الله إذ يقول : { والله متم نوره ولو كره الكافرون } .

الأنصار وبيعة العقبة الأولى

(الشبكة الإسلامية)

بعد سنين طويلة قضاها النبي – صلى الله عليه وسلم– في جهاد دائم ، وعمل متواصل لا يعرف الكلل ولا الملل ، وهو يطوف على القبائل ، مبلغاً دعوة ربه ، ملتمساً الحليف والنصير ، ملاقياً في سبيل ذلك صنوف الأذى والصد والإعراض ، أراد الله إتمام أمره ، ونصر دينه ، وإعزاز نبيه ، فكانت البداية ، ونقطة التحول الحاسمة ، وبصيص النور الذي أطلَّ من بين ركام الظلمات ، عندما قيض الله أولئك النفر الستة من أهل المدينة ، فالتقى بهم – ﷺ – في موسم الحج من السنة الحادية عشرة للبعثة ، وعرض عليهم الإسلام ، فاستجابوا لدعوته ، وأسلموا – ، وكان هذا الموكب أولَ مواكب الخير التي هيأت للإسلام أرضاً جديدة ، وملاذاً أميناً ، حيث لم يكتف هؤلاء النفر بالإيمان ، وإنما أخذوا العهد على أنفسهم بدعوة أهليهم وأقوامهم ، ورجعوا إلى المدينة وهم يحملون رسالة الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله – صلى الله عليه وسلم– .

فلما كان موسم الحج من العام التالي جاء إلى الموسم اثنا عشر رجلًا من المؤمنين (عشرة من الخزرج واثنان من الأوس) فالتقوا برسول الله – صلى الله عليه وسلم– عند العقبة بمنى ، وبايعوه البيعة التي سميت " بيعة العقبة الأولى " ، وكانت بنود هذه البيعة نفس البنود التي بايع الرسول – صلى الله عليه وسلم– عليها النساء فيما بعد ، ولذلك عرفت أيضاً باسم " بيعة النساء " ، وقد روى البخاري في صحيحه نص هذه البيعة وبنودها في حديث عبادة بن الصامت الخزرجي رضي الله عنه – وكان ممن حضر البيعة – وفيه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال لهم : (تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفي منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ،

ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه) ،قال : " فبايعته " ، وفي رواية " فبايعناه على ذلك " .

ثم بعث النبي – صلى الله عليه وسلم– معهم مصعب بن عمير ، يعلمهم شرائع الإسلام ، ويفقههم في الدين ، ويقرؤهم القرآن ، وينشر الإسلام في ربوع المدينة ، فأقام رضي الله عنه في بيت أسعد بن زرارة يعلم الناس ، ويدعوهم إلى الله ، وتمكن خلال أشهر معدودة من أن ينشر الإسلام في سائر بيوت المدينة ، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها ، كسعد بن معاذ ، و أسيد بن الحضير ، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

وعاد مصعب رضي الله عنه إلى مكة قبيل الموسم التالي ، يحمل بشائر الخير ، ويخبر النبي – صلى الله عليه وسلم– بما لقيه الإسلام في المدينة من قبول حسن ، وأنه سوف يرى في هذا الموسم ما تقر به عينه ، ويسر به فؤاده، فكانت هذه البيعة من أهم المنعطفات التاريخية في حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم– وصحبه الكرام .

ومن خلال أحداث هذه المرحلة وما سبقها من عرض الإسلام على القبائل يمكن استخلاص العديد من الدلالات والمعاني المهمة ومنها :

الحكمة الربانية والتدبير الإلهي لهذا الدين في أن يكون الذين يستجيبون للرسول – صلى الله عليه وسلم– ويدافعون عنه وعن دينه ، من خارج قريش ، ومن غير أهله وعشيرته ، من أجل أن تقطع كل الشكوك حول طبيعة هذا الدعوة الجديدة ومصدرها وأهدافها ، ولئلا يقع أي التباس بينها وبين غيرها من الدعوات والمطامع الدنيوية .

ومن الدلالات أيضاً : أهمية وجود أرضية خصبة ، وسند قوي يحمي الدعوة ويحوطها ، ويحفظها من أن توأد في مهدها ، ولذا كان – صلى الله عليه وسلم– حريصاً على البحث عن قبيلة تسمح بنشر الدعوة بين ظهرانيها ، وتعلن حمايتها لها ، لأن الذين آمنوا به في مكة كانوا غرباء بين أقوامهم ، وكانوا نُزَّاعًا متفرقين في

القبائل ، فكانوا بحاجة إلى ملاذ يفيؤون إليه ، وقبيلة تدفع عنهم وتحميهم ، وتمكـــنهم من نشر رسالتهم في العالمين ، وهو ما فعله – صلى الله عليه وسلم– .

ومن دلالات هذه البيعة ودروسها أن اختيار الرسول – صلى الله عليه وسلم– للمدينة وأهلها ، لحمل الرسالة ، ونيل شرف النصرة ، لم يكن اعتباطاً ، وإنما وقع الاختيار عليها لأن المدينة كانت تعيش ظروفاً خاصة رشحتها لاحتضان دعوة الإسلام ، فقـــد كان التطاحن والتشاحن بين الأوس والخزرج على أشده حتى قامت بيـــنهم الحـــروب الطاحنة ، التي أنهكت قواهم ، وأوهنت عزائمهم ، كيوم بعاث وغيره ، مما جعلهـــم يتطلعون إلى أي دعوة جديدة تكون سببًا لوضع الحروب والمشـــاكل فيمـــا بيـــنهم ، ويمكن أن نلحظ ذلك من خلال قول أولئك النفر الستة : " إنا قد تركنا قومنا ولا قـــوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهـــم الله بـــك ، فســـنقدم علـــيهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهـــم الله عليك فلا رجل أعز منك " .

كما أن هذا الحروب كانت قد أفنت كبار زعمائهم وقادتهم ، ممن كان نظراؤهم فـــي مكة والطائف وغيرهما حجر عثرة في سبيل الدعوة ، ولم يبق إلا القيادات الجديـــدة الشابة المستعدة لقبول الحق ، أضف إلى ذلك عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها ، فكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه ، ويلتئم شملهم تحت ظله

ومن المعروف أن اليهود كانوا يسكنون المدينة مما جعـــل الأوس والخـــزرج علـــى اطلاع بأمر الرسالات السماوية– بحكم الجوار– ، فكانوا اليهود يهددونهم بنبـــي قـــد أظل زمانه ، ويزعمون أنهم سيتبعونه ، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم ، ولذا فبمجرد أن وصلت الدعوة إليهم ، قال بعضهم لبعض : " تعلمون والله يا قوم ، إنه للنبـــى الـــذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه " .

ومن الدلالات أيضاً : أهمية معرفة الداعية والمربي لخصائص الناس وشخصياتهم ، ومن يصلح منهم لهذه المهمة أو تلك ، ندرك ذلك من خلال حسن اختياره – صـــلى الله عليه وسلم– لمصعب بن عمير للقيام بمهمة الدعوة ، ونشر الإسلام في المدينة ،

لما كان يمتاز به رضي الله عنه – بجانب حفظه لما نزل من القرآن – من لباقة ، وهدوء ، وحكمة وحسن خلق ، فضلاً عن قوة إيمانه ، وشدة حماسه للدين ، ولذلك نجح أيما نجاح في دعوته ، واستطاع أن يتخطى الصعاب والعقبات الكثيرة التي واجهته باعتباره أولاً نازحاً وغريباً ، وثانياً يحمل رسالة جديدة تخالف ما عليه الناس ، وتريد أن تنقلهم من موروثاتهم التي أَلِفُوها ، وأَلْفَوا عليها آباءهم وأجدادهم ، ولعل في قصة إسلام سعد بن معاذ ، و أسيد بن حضير ما يبين ذلك بجلاء .

وهكذا مهدت هذه البيعة لما بعدها من الأحداث التي غيرت مجرى التاريخ ، وكانت إيذاناً بأن عهد الذل والاستضعاف قد ولى إلى غير رجعة ، وسيكون بعدها للإسلام قوته ومنعته ، ، وستتوالى على مكة مواكب الخير ، وطلائع الهدى والنور التي هيأها الله لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته ، والعاقبة للمتقين .

الأنصار وبيعة العقبة الثانية

(الشبكة الإسلامية)

بعد أن أنهى النبي ﷺ اللقاء المبارك مع وفد المدينة المنورة في بيعة العقبة الأولى ، ورجع الوفد إلى ديارهم وأهليهم، بعث ﷺ مصعب بن عمير سفيراً له في المدينة يعلم أهلها الإسلام ، ويدعوا من لم يدخل في هذا الدين إلى الدخول فيه .

وكانت بعثته ﷺ مصعباً أمراً غاية في الأهمية ، إذ سرعان ما آتت دعوة مصعب رضي الله عنها ثمارها ، فلم يمض إلا عام واحد حتى دخل أكثر أهل المدينة في الإسلام ، وهنا شعر المسلمون الجدد بمعاناة إخوانهم في مكة ، وهم في مدينتهم سادة ممتنعون عن الأذى والضيم ، ومع ذلك يؤذى رسولهم ، ويلاحق في جبال مكة وشعابها، ويهان أصحابه ، فرحل إلى مكة سبعون رجلا من أهل المدينة ، حتى قدموا في موسم الحج ، وواعدوا النبي ﷺ أن يلتقوا به في شعب العقبة ، ولندع أحد النقباء يحدثنا عن هذه البيعة المباركة ، وما وقع فيها من مواقف عظيمة ، حقها أن تكتب بماء الذهب .

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه ، فيما رواه الإمام أحمد في مسنده وحسنه الشيخ الأرناؤوط : (فنمنا تلك الليلة – الليلة التي واعدوا فيها النبي ، وهي الليلة الثانية من أيام التشريق – مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا – طائر – حتى اجتمعنا في الشعب – الطريق في الجبل – عند العقبة ونحن سبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائهم نسيبة بنت كعب أم عمارة ، و أسماء بنت عمرو بن عدي بن ثابت ، قال : فاجتمعنا بالشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه يومئذ عمه العباس بن عبد المطلب – وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له – فلما جلسنا كان العباس بن عبد المطلب أول متكلم ، فقال : يا معشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو في عزٍّ

من قومه ، ومنعة في بلده ،قال : فقلنا قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ، ولربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا ، ودعا إلى الله عز وجل ، ورغب في الإسلام ، وقال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم ، وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ،ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا – جمع إزار ويكنى به عن المرأة – ، فبايعنا يا رسول الله – ﷺ – فنحن أهل الحروب ، وأهل الحَلَقَة – السلاح – ورثناها كابراً عن كابر ، فاعترض قول البراء وهو يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل ، فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال – يعني اليهود – حبالاً وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم ، ثم قال رسول الله ﷺ : أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً منهم تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، ... وكان أول من أخذ بيد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ، ثم تتابع القوم – يعني على المبايعة – ، ثم قال رسول الله ﷺ : ارفعوا إلى رحالكم ، قال : فقال له العباس بن عبادة بن نضلة : والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ : لم أؤمر بذلك ، فرجعنا فنمنا حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش – أي عظماؤها – حتى جاؤنا في منازلنا ، فقالوا يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، والله إنه ما من العرب أحد أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم ، فانبعث من هنالك من مشركي قومنا يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وقد صدقوا لم يعلموا ما كان منا) .

هذه هي بيعة العقبة وتلك هي أحداثها ، تكاد تتفجر بأمثلة الشجاعة والبطولة ، ولو ذهبنا نتأمل بعض المواقف فيها لأصابنا العجب من عظمتها وجلالتها ، ولنبدأ بموقف النبي ﷺ ، وكيف عرض دعوته بكلمات موجزة صافية صريحة من غير لبس أو

غموض ، ومن غير أن يقدم على قبولها أي عرض دنيوي ، فلـــم يعـــدهم بملـــك أو سلطان ، أو حتى مال يخفف به عنهم ضخامة الحمل الذي سيحملونه ، بـــل ربطهـــم بالآخرة عندما سألوه ما لنا ؟ قال :الجنة – كما في رواية ابن إسحاق –، حتى يتحقق فيهم كمال التجرد في قبول هذه الدعوة ، وتحمل تبعاتها ، وفهم الصحابة رضوان الله عليهم هذا الدرس جيداً ، وأن في قبولهم هذه الدعوة معاداة العرب والعجم ، وســـخط الأحمر والأسود من الناس ، وقطع علائقهم ، وعلاقاتهم ، ومع ذلك أقدموا – وهنـــا تتجلى البطولة في الثبات على المبادئ – رغم عظم الضريبة التـــي ســـيدفعونها – ، فقبلوا هذه البيعة لله عز وجل صافية نقية، فلله درها من بيعة ، ولله درهم من رجال .

الهجرة من مكة إلى المدينة

أصبح كفار مكة في غيظ شديد، بعدما صار لرسول الله ﷺ أنصار في يثرب، وهم أهل حرب يجيدون القتال، وسوف ينصرون

الإسلام، فشعر كفار مكة أن الأمر سيخرج من أيديهم، فانقضوا على المسلمين بالتعذيب والأذى، والتف المسلمون حول نبيهم الكريم ﷺ يطلبون منه الإذن في ترك مكة كلها، ويهاجرون بدينهم، حتى يستطيعوا أن يعبدوا الله تعالى وهم آمنون، فأذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة. فبدأ المسلمون يتسللون سرًّا إلى المدينة، تاركين ديارهم وأموالهم من أجل دينهم.

وجاء أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- إلى الرسول ﷺ يستأذنه في الهجرة، فطلب منه الرسول ﷺ أن ينتظر لعل الله يجعل له صاحبًا، ففهم أبو بكر أنه سيظفر بالهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتظر مسرورًا، وأخذ يُعِدُّ للرحلة المباركة، فجهزَّ ناقتين ليركبهما هو ورسول الله ﷺ إلى المدينة.

المؤامرة:

اجتمع زعماء مكة في دار الندوة -ذلك البيت الكبير الواسع الذي كان لقصي بن كلاب- وعلى وجوههم الغضب؛ للتشاور في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد شعروا أنه يعد نفسه للهجرة إلى المدينة، وإذا تم له ذلك فسوف تصبح المدينة مركزًا كبيرًا يتجمع فيه المسلمون من كل مكان حول النبي صلى الله عليه وسلم، وبذلك يشكلون خطرًا على تجارة أهل مكة عندما تمر بالمدينة في طريقها إلى الشام ذهابًا وإيابًا، وبدأ النقاش، فقال بعضهم: نُخرج محمدًا من بلادنا فنستريح منه، وقال آخرون: نحبسه حتى يموت.

وقال أبو جهل: نأخذ من كل قبيلة شابًّا قويًّا، ونعطي كلا منهم سيفًا صارمًا قاطعًا، لينقضوا على محمد، ويضربوه ضربة قاتلة، وهكذا لا يستطيع عبد مناف -قوم محمد- محاربة القبائل كلها، فيقتنعون بأخذ ما يريدون من مال تعويضًا عن قتل

محمد، وكان الشيطان اللعين يجلس بينهم في صورة شيخ نجدي وهم لا يعرفونه، فلما سمع ذلك الرأي قال في حماس: القول ما قال الرجل، وهذا الــرأي لا رأى غيــره، فاتفقوا جميعًا عليه.

وسجل القرآن الكريم ما دار في اجتماع المشركين ذلك، فقال تعالى: {إذ يمكــر بــك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} _[الأنفال: ٣٠] وتدخلت عناية الله؛ فجاء جبريل إلى الرسول ﷺ يأمره ألا يبيت هذه الليلة في فراشه وأن يستعد للهجرة، قالت عائشة –رضي الله عنها–: فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في حَرِّ الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صــلى الله عليه وسلم، ولم يكن يأتينا في مثل هذه الساعة، فقال أبو بكر –رضي الله عنــه–: فداءً له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: (أخرج مَنْ عندك) فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رســول الله، قــال: (فإني قد أذن لي في الخروج) فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رســول الله، قــال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم).

أحداث الهجرة:

كان الله –سبحانه– قادرًا على أن يرسل ملكًا من السماء يحمل رسوله إلى المدينة كما أسرى به ليلا من مكة إلى المسجد الأقصى وعرج به السماء، ولكن جعــل الهجــرة فرصة كبيرة لنتعلم من رسول الله ﷺ دروسًا عظيمة في كيفية التفكيــر والتخطــيط والأخذ بالأسباب التي توصل إلى النجاح.

ولنبدأ بأول هذه الدروس، فكيف يخرج النبي ﷺ هو وصاحبه أبو بكر –رضــي الله عنه– من بين هؤلاء الكفار دون أن يلحقوا بهما؟ فلو خرجا من مكة ســالمين فــإن المسافة طويلة بين مكة والمدينة وسوف يخرج وراءهما الكفار ويدركونهما، لابد إذن من الاختباء في مكان ما؛ حتى ييأس الكفار من البحث عنهما، ومن هنا وضع رسول الله ﷺ خطة محكمة لتتم الهجرة بسلام.

فأمام بيت رسول الله ﷺ وقف مجموعة من شباب قريش في الليل، ينتظرون حتى يخرج الرسول صلى الله عليه وسلم، فينقضوا عليه
ويقتلوه، وكان هؤلاء الكفار يتطلعون بين الحين والحين إلى فراش رسول الله ﷺ ليطمئنوا على وجوده، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم
عليَّ بن أبي طالب –رضي الله عنه– بالنوم في فراشه، وأن يتغطى ببردته، وطمأنه بأن المشركين لن يؤذوه بإذن الله.
واستجاب عليٌّ –رضي الله عنه– بكل شجاعة وحماس، ونفذ ما أمره الرسول ﷺ به، وأراد الرسول ﷺ من ذلك تضليل المشركين، فإذا نظروا إليه من الباب ووجدوه في فراشه، ظنوا أنه ﷺ ما زال نائمًا، وقد كانت عند الرسول ﷺ أمانات كثيرة تركها المشركون عنده، فأراد الرسول ﷺ أن يردها إلى أصحابها، فأمر عليًّا أن ينتظر في مكة لأداء هذه المهمة، رغم أنهم أخرجوا المسلمين من ديارهم، وآذوهم، ونهبوا أموالهم ولكن المسلم يجب أن
يكون أمينًا.
وكان أبو جهل يقول لأصحابه متهكمًا برسول الله صلى الله عليه وسلم: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه أصبحتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فدخلتم الجنة، وإن لم تفعلوا ذبحكم ثم بعثتم من بعد موتكم فتدخلون النار تحرقون فيها.
ونام علي –رضي الله عنه– في فراش الرسول صلى الله عليه وسلم، وتوجه النبي ﷺ إلى الباب، وخرج وفي قبضته حفنة من التراب فنثرها على رءوس المشركين، وهو يقرأ سورة يس إلى قوله تعالى: {وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون} _[يس: ٩] وإذا برجل يمر عليهم فرأى التراب على رءوسهم، فقال لهم: خيبكم الله، قد خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، أفما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه التراب.

فنظروا من الباب، فوجدوا رجلا نائمًا في مكان الرسول ﷺ وعليه غطاؤه، فقالوا: هذا محمد في فراشه، وعليه بردة، ثم اقتحموا دار النبي صلى الله عليه وسلم، فوجدوا عليًّا في فراشه، فخرجوا يبحثون عن الرسول ﷺ في كل مكان، وكان الرسول ﷺ خلال هذه الفترة قد وصل إلى بيت صاحبه أبي بكر –رضي الله عنه– وعزما على الذهاب إلى غار ثور ليختبئا فيه.

وحمل أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– كل ماله، وخرج مع رسول الله ﷺ من باب صغير في نهاية المنزل حتى لا يراهما أحد، وانطلقا حتى وصلا الغار، وهناك وقف رسول الله ﷺ ودخل أبوبكر

أولا؛ ليطمئن على خلوِّ الغار من الحيَّات والعقارب، ثم سدَّ ما فيه من فتحات حتى لا يخرج منها شيء، وبعد ذلك دخل الرسول صلى الله عليه وسلم.

وها هي ذي أسماء بنت أبي بكر يدخل عليها جدها أبو قحافة بعد أن علم بخروج ولده أبي بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رجلا كبيرًا قد عَمِيَ، يسألها عما تركه أبو بكر في بيته ويقول: والله إني لأراه فجعكم بماله مع نفسه، قالت: كلا يا أبتِ! إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا، وأخذت أحجارًا فوضعتها في المكان الذي كان أبوها يضع ماله فيه، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده وقالت: يا أبت، ضع يدك على هذا، فوضع يده عليه فقال: لا بأس ، فإن كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم.

أما كفار مكة فإنهم حيارى، يبحثون عن الرسول ﷺ وصاحبه ويضربون كفًّا بكف من الحيرة والعجب، فالصحراء على اتساعها مكشوفة أمامهم، ولكن لا أثر فيها لأحد ولا خيال لإنسان، فتتبعوا آثار الأقدام، فقادتهم إلى غار ثور، فوقفوا أمام الغار، وليس بينهم وبين الرسول ﷺ وصاحبه سوى أمتار قليلة، حتى إن أبا بكر رأى أرجلهم فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له الرسول ﷺ : (يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[متفق عليه].

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد انصرف القوم، ولم يفكر أحدهم أن ينظر في الغار، وسجل القرآن هذا، فقال تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم} [التوبة: ٤٠].

ومكث الرسول ﷺ وصاحبه في الغار ثلاثة أيام، وكان

عبدالله بن أبي بكر يذهب إليهما بأخبار الكفار ليلا، وأخته أسماء تحمل لهما الطعام، أما عامر بن فهيرة راعي غنم أبي بكر فقد كان يسير بالأغنام فوق آثار أقدام عبدالله وأسماء حتى لا يترك أثرًا يوصل إلى الغار، وبعد انتهاء الأيام

الثلاثة، خف طلب المشركين للرسول ﷺ وصاحبه، فخرجا من الغار، والتقيا بعبد الله بن أريقط، وقد اتفقا معه على أن يكون دليلهما في هذه الرحلة مقابل أجر.

تحرك الركب بسلام، وأبو بكر لا يكف عن الالتفات والدوران حول النبي ﷺ خوفًا عليه، ورسول الله ﷺ يقرأ القرآن، ولا يلتفت حوله فهو واثق من نصر الله -تعالى- له، ولا يخشى أحدًا، وبينما أبو بكر يلتفت خلفه إذا بفارس يقبل نحوهما من بعيد، كان الفارس هو سراقة بن مالك وقد دفعه إلى ذلك أن قريشًا لما يئست من العثور على الرسول ﷺ وصاحبه، جعلوا مائة ناقة جائزة لمن يرده إليهم حيًّا أو ميتًا.

فانطلق سراقة بن مالك بفرسه وسلاحه في الصحراء طمعًا في الجائزة، فغاصت أقدام فرسه في الرمال مرتين حين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل سراقة مسرعًا عن الفرس، حتى نزعت أقدامها من الرمال، فأيقن سراقة أن الله تعالى يحرس رسوله صلى الله عليه وسلم، ولن يستطيع إنسان مهما فعل أن ينال منه، فطلب من رسول الله أن يعفو عنه، وعرض عليه الزاد فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (لا حاجة لنا، ولكن عمِّ عنا الخبر) فوعده سراقة ألا يخبر

أحدًا، وعاد إلى مكة، وهكذا خرج سراقة يريد قتلهما وعاد وهو يحرسهما ويبعد الناس عنهما، فسار النبي ﷺ وصاحبه إلى المدينة تحرسهما عناية الله.

وأثناء رحلة رسول الله ﷺ وأبي بكر إلى المدينة مرَّا بمنازل خزاعة ودخلا خيمة أم معبد الخزاعية، وكانت سيدة كريمة، تطعم وتسقي من مرَّ بها، فسألاها: عما إذا كان عندها شيء من طعام؟ فأخبرتهما أنها لا تملك شيئًا في ذلك الوقت، فقد كانت السنة شديدة القحط، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جانب الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟

فأخبرته أنها شاة منعها المرض عن الخروج إلى المراعي مع بقية الغنم، فقال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم إن رأيت بها حلبًا فاحلبها.

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، وطلب إناء فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى شبعت، وسقى رفيقيه أبا بكر وعبد الله بن أريقط حتى شبعا، ثم شرب، وحلب فيه ثانية حتى ملأ الإناء، ثم تركه ﷺ وانصرف.

الرسول ﷺ في قباء:

علم أهل المدينة بهجرة الرسول ﷺ إليهم، فكانوا يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح إلى مشارف المدينة، وعيونهم تتطلع إلى الطريق، وتشتاق لمقدم الرسول ﷺ إليهم، ولا يعودون إلى بيوتهم إلا إذا اشتد حر الظهيرة، ولم يجدوا ظلا يقفون فيه.

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول انتظر أهل يثرب رسول الله ﷺ كعادتهم، حتى اشتد الحر عليهم، فانصرفوا لبيوتهم، وبعد قليل أقبل رسول الله ﷺ وصاحبه، فأبصرهما رجل يهودي كان يقف على نخلة، فصاح بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا صاحبكم قد جاء، فأسرع المسلمون لاستقبال نبيهم وصاحبه أبي بكر الذي كان يُظل رسول الله ﷺ بردائه من حر الشمس.

وبينما الرسول ﷺ في قُبَاء، في بيت سعد بن خيثمة يستقبل الوافدين عليه، أقبل عليٌّ بن أبي طالب من مكة بعد أن ظل فيها ثلاثة أيام بعد خروج الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ليرد الأمانات إلى أهلها، وقد ظل الرسول ﷺ في قباء أربعة أيام يستقبل أهل المدينة، وعندما أقبل يوم الجمعة ترك رسول الله ﷺ قباء متوجهًا للمدينة بعد أن

أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد بني في الإسلام، وقال الله -عز وجل- عنه: {لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين} _[التوبة: ١٠٨].

وكانت الهجرة حدثًا فاصلا بين عهدين، فقد أعز الله المسلمين بعد أن كانوا مضطهدين، وصارت لهم دار آمنة يقيمون فيها، ومسجد يصلون فيه، ويؤدون فيه شعائرهم، ويتشاورون في أمورهم، لهذا كله اتفق الصحابة على جعل الهجرة بداية للتاريخ الإسلامي، فقد تحول المسلمون من الضعف والحصار والاضطهاد إلى القوة والانتشار ورد العدوان.

تأملات في واقع المدينة قبل الهجرة

(الشبكة الإسلامية)

بعد أن اضطهدت قريشٌ المسلمين في مكّة ، وأصبحت الهجرة أمراً ضروريّاً لا مفرّ منه ، تمّ اختيار المدينة النبويّة مكاناً مناسباً لإقامة الدولة الإسلامية ، وقاعدةً تنطلق منها قوافل الدعوة إلى الله في أنحاء الجزيرة .

ولمعرفة الأسباب التي جعلت من المدينة المكان الأنسب للهجرة دون غيرها من البلدان ، من المهم جدا استعراض واقع المدينة قبل الهجرة وجذورها التاريخيّة ، والعقائد التي سادت في مجتمعها ، وطبيعة العلاقات التي كانت تحكم القبائل المقيمة فيها .

الواقع التاريخيّ والاجتماعي

ينقسم المجتمع المدني بشكلٍ رئيسيٍّ إلى ثلاثة أقسام : الأوس ، والخزرج ، واليهود ، إضافةً إلى البدو الذين وفدوا إلى المدينة وسكنوها بشكل مؤقت لأغراضٍ اجتماعيةٍ أو تجاريةٍ .

أما اليهود فهم أقدم من استوطن المدينة ، ويبدأ تاريخهم فيها بعد خرجوهم من بلاد الشام عقب الاضطهاد الروماني ، حيث ظلّوا يبحثون عن أرضٍ مناسبة ، حتى استقرّ بهم المقام في يثرب ، واستطاعوا تأسيس مجتمعهم من الناحية الفكريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة .

ويتكوّن المجتمع اليهودي من ثلاث قبائل هي : بنو قينقاع ، الذين سكنوا داخل المدينة بعد خلافات وقعت بينهم وبين بقيّة اليهود ، وبنو النضير وقد استوطنوا وادياً خارج المدينة ، وبنو قريظة ، وكانوا يسكنون جنوب المدينة على بعد أميال منها .

ومع ذلك فقد أشار القرآن الكريم إلى وجود عداوات بين هذه القبائل الثلاثة ، الأمر الذي لم يمكّنهم من التعايش فيما بينهم ، وكانت سبباً في تفرّقهم في نواحي المدينة ، ولجوء كل قبيلة إلى من جاورها من العرب بحثاً عن النصرة والحماية .

أما فيما يتعلّق بالأوس والخزرج ، فإن أصولهما ترجع إلى قبائل الأزد التي هاجرت من اليمن بعد خراب سدّ مأرب ، وقد اختار الأوس شرق وجنوب المدينة للإقامة ، بينما فضّل الخزرج البقاء في وسطها .

وقد نشأت بين بني هاشم ، وبين بني عدي بن النجار – من الخزرج – علاقة رحم ومصاهرة ، حيث تزوّج هاشم من نسائهم فولدت له عبد المطلب ، وبذلك يكون بنو عدي أخوالا للنبي – ﷺ – ، وقد أوجدت هذه المصاهرة نوعاً من التقارب بين أهل المدينة وبينه عليه الصلاة والسلام .

وتاريخ الأوس والخزرج مليئ بالحروب التي ظلّت قائمةً بينهم زماناً طويلاً ، ولا تكاد تهدأ حتى تعود مرّة أخرى ، وكان لليهود دورٌ بارزٌ في إبقاء نار العداوات مشتعلةً بين الفريقين ، من أجل ضمان السيطرة على مجريات الأمور في المدينة .

وكان آخر تلك الحروب " يوم بعاث " ، الذي انتصر فيه الأوس على الخزرج، وقُتل فيه أيضاً عددٌ من زعماء الفريقين ممن طُبعوا على معاني الكبر والاستعلاء ، وبقيت القيادات الشابّة الجديدة التي كان لديها الاستعداد لتلقّي الحق وقبوله ، فكان يوم " بعاث " تهيئةً لقبول أهل المدينة دعوة الرسول – ﷺ – .

الواقع الديني

يتبيّن مما سبق أن المدينةكانت تسيطر عليها الوثنية من جهة ، واليهوديّة من جهة أخرى ، وإن كانت المظاهر الوثنيّة هي السمة الأغلب على المجتمع .

ويرجع السبب في ذلك إلى طبيعة اليهود العنصريّة ، التي لا تشجّع غيرها في الدخول تحت لوائها ، حيث كانوا ينظرون إلى الشعوب الأخرى نظرة احتقار وترفّع ، ويعتبرون أنفسهم شعباً مقدّساً اختاره الله من بين العالمين .

ولارتباط اليهود بالكتب السماوية ، كانت لهم مدارسٌ يتداولون فيها أخبارهم ، ويتعلّمون فيها أحكام دينهم ، وإن كان الكثير من معالم شريعتهم قد ضاع بسبب تحريف الأحبار وعلماء السوء .

ومن الأمور التي ظلّت محفوظة في دينهم ، البشارة بالنبي الذي سيُبعث آخر الزمان ، وذكر صفته وأحواله ، ويشير القرآن إلى ذلك في قوله تعالى : { الـذين يتبعـون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم فـي التـوراة والإنجيـل يـأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم } (الأعراف : ١٥٧) ، وكان اليهود يهـدّدون العرب باتّباعه ويقولون : " تقارب زمان نبي يُبعث ، الآن نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم " ، فشاع ذكر النبي – ﷺ – وعلم الناس قُرب بعثته ؛ ولذلك لمّا ذهب الأنصار إلى مكّة والتقوا بالنبي – ﷺ – لم يتردّدوا فيه تصديقه وقبول دعوته ، وقال بعضهم لبعض : " تعلمون والله إنه للنبي الذي توعّدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه " .

أما ما يتعلّق بالوضع الديني لعرب المدينة فقد كان خاضعاً لسلطان الوثنيّة السائد في المنطقة ، حيث انتشرت مظاهر الشرك المختلفة من عبادة الأصنام وتعظيمها .

وكان لعرب المدينة أصنامهم الخاصّة بهم – ومن أشهرها : صنم منـاة – ، وكـانوا يقدّمون لها القرابين والنذور المختلفة ، ويطوفون بها كطوافهم بالبيت ، إلى غير ذلك مظاهر الشرك والضلال .

الواقع الجغرافي

تُعتبر المدينة النبوية ذات موقع هام ومتميّز ، بسبب وقوعها فـي طريـق القوافـل التجاريّة المتّجهة إلى الشام ، مما يتيح لأهلها إمكانيّـة التعـرّض لتلـك القوافـل ، وممارسة الضغوط الاقتصاديّة على أصحابها ، وقد استفاد المسلمون من هذا السلاح الهامّ في محاربة قريشٍ واستنزاف مواردها .

إضافةً إلى أنّ المدينة كانت محاطةً بعدد من الحواجز الطبيعية التي وفّرت لها نوعـاً من التحصين والمنعة ، ولم تكن مكشوفة سوى من الجهة الشمالية التي بنى فيها النبي – ﷺ – الخندق لاحقاً ، وهي صفات لم تكن موجودة في غيرها من المدن .

الواقع الاقتصادي

يأتي النشاط الزراعي على قائمة النشاطات التي اشتهر بها أهل المدينة ، ساعدهم في ذلك خصوبة الأرض ، وكثرة وديانها ، ووفرة المياه في باطنها.

وإلى جانب ذلك ، كان هناك النشاط الصناعي الذي اشتهر به اليهود ، ويشمل ذلك بطبيعة الحال : الصناعات الحربية المختلفة ، وأعمال النجارة ، وصياغة الحلي والذهب .

وعلى الرغم من التفوّق العددي للعرب آنذاك إلا أن السيطرة الاقتصادية كانت بيد اليهود، حيث استغلّوا حاجة العرب إلى المال لشراء البذور وأدوات الزراعة ، ولتغطية نفقات الحرب القائمة بين الأوس والخزرج ، فكان اليهود يقرضونهم بالرّبا ، ويغالون في الفوائد أضعافاً مضاعفة ، مستغلّين في ذلك نقص الموارد وقلة ذات اليد ، مما أوقع الكثير من العرب في الديون الثقيلة ، وجعلهم أسرى لمصّاصي الدماء وتجّار الحروب .

وأمام هذه السيطرة المحكمة أراد العرب أن يخرجوا من تلك الأزمة الخانقة التي صنعها اليهود ، فانطلقوا يبحثون عن المخرج من هذا الوضع الصعب ، ليجدوا مُرادهم في مكّة المكرّمة ، حيث الرسالة الرّبانية التي عاش الجميع تحتها في أمنٍ وأمان .

الهجرة النبوية ومنعطف التاريخ

(الشبكة الإسلامية) أ.د/ أكرم ضياء العمري

تطلق "الهجرة" على الترك والتخلي عن الشيء ، فالمهاجر من هجر ما نهى الله عنه – كما في الحديث الشريف – ، وهي بهذا المعنى مطلقة من قيود الزمان والمكان ، إذ بوسع كل مسلم أن يكون مهاجراً بالالتزام بأوامر الله والهجر للمعاصي .

لكن الهجرة النبوية تتعلق بترك الموطن والانخلاع عن المكان بالتحول عنه الى موطن آخر ابتغاء مرضاة الله رغم شدة تعلق الانسان بموطنه وألفته للبيئة الطبيعية والاجتماعية فيه ، وقد عبّر المهاجرون عن الحنين الى مكة بقوة وخاصة في أيامهم الأولى حيث تشتد لوعتهم .

وتحتاج الهجرة الى القدرة على التكيف مع الوسط الجديد "المدينة المنورة" حيث يختلف مناخها عن مناخ مكة فأصيب بعض المهاجرين بالحمى ، كما يختلف اقتصادها الزراعي عن اقتصاد مكة التجاري ، فضلاً عن ترك المهاجرين لأموالهم ومساكنهم بمكة . لكن الاستجابة للهجرة كانت أمراً إلهياً لابد من طاعته ، واحتمال المشاق من أجل تنفيذه . فقد اختار الله مكان الهجرة ، كما في الحديث الشريف "رأيت في المنام أني أهاجر من مكة الى أرض بها نخل ، فذهب وهلي الى أنها اليمامة أو هجر ، فاذا هي المدينة يثرب" .

وما أن بدأ التنفيذ حتى مضت مواكب المهاجرين تترى نحو الموطن الجديد .. دار الهجرة .. وقد شاركت المرأة في حدث الهجرة المبارك منهن أم سلمة هند بنت أبي أمية التي تعرضت لأذى بالغ من المشركين الذين أرادوا منعها من الهجرة ثم استلوا ابنها الرضيع منها حتى خلعوا يده ..

لكنها صممت على الهجرة ونجحت في ذلك رغم الاخطار والمصاعب . وخلدت أسماء بنت أبي بكر ذكرها في التأريخ وحازت لقب ذات النطاقين عندما شقت نطاقها نصفين لتشد طعام المهاجرَين ، رسول الله ﷺ و أبي بكر رضي الله عنه وقد تتابعت

هجرة النساء في الاسلام حتى شرعت في القرآن { إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن} – الممتحنة ١٠ – ونزلت الآيات الكريمة تأمر بالهجرة وتوضح فضلها منذ السنة التي وقعت فيها لغاية سنة ٨هـ عند أوقفت الهجرة بعد فتح مكة واعلان النبي ﷺ ذلك بقوله (لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة وإذا استنفرتم فانفروا) .

والأمر بالهجرة الى المدينة لأنها صارت مأرز الايمان وموطن الاسلام ، وشرع فيها الجهاد لمواجهة الاعداء المتربصين بها من قريش واليهود والأعراب ، فكان لابد من إمدادها بالطاقة البشرية الكافية مما يفسر سبب نزول القرآن بهذه الآيات الواعدة للمهاجرين : { إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله} – البقرة ٢١٨ – {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة} – النحل ٤١ – {ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة} – النساء ١٠٠ – .

وقد حاز المهاجرون شرفاً عظيماً في الدنيا فضلاً عن ثواب الله ووعده الكريم ، فقد اعتبروا اهل السبق في تأسيس دولة الاسلام فنالوا رضى الله والقربى منه {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم } – التوبة ١٠٠ – . وهكذا خلد الله ذكرهم في القرآن الذي يتعبد المسلمون بتلاوته الى آخر الزمان .

الهجرة من سنن الأنبياء عليهم السلام

لم يكن النبي ﷺ أول نبي يهاجر في سبيل الله بل مرّ بهذا الامتحان كثير من الانبياء .. وقد أخبرنا الله تعالى بأن ابراهيم عليه السلام هاجر من موطنه الى مصر وغيرها داعياً الى التوحيد ، وأن يعقوب و يوسف عليهما السلام هاجرا من فلسطين الى مصر وأن لوطاً هجر قريته لفسادها وعدم استجابتها لدعوته . وأن موسى عليه السلام هاجر بقومه من مصر الى سيناء فراراً بدينه من طغيان فرعون .

وهكذا فان الهجرة من سنن النبيين ، وقد كانت هجرة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتمة لهجرات النبيين . وكانت نتائجها عميقة شكلت منعطفاً تاريخياً حاسماً .

المنعطف الحاسم

لقد أدت الهجرة الى قيام دولة الاسلام في المدينة ، والتي أرست ركائز المجتمع الاسلامي على أساس من الوحدة والمحبة والتكافل والتآخي والحرية والمساواة وضمان الحقوق ، وكان الرسول ﷺ هو رئيس هذه الدولة وقائد جيوشها وكبير قضاتها ومعلمها الأول . وقد طبق الرسول ﷺ شريعة الاسلام ، وكان القرآن ينزل بها منجماً ، فكان الصحابة يدرسون ما ينزل ويطبقونه على أنفسهم ، ويتعلمون تفسيره وبيانه من النبي ﷺ فتكون جيل رباني تمكن من الجمع بين عبادة الله وعمران الحياة وعمل تحت شعار : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وفي خلال عقد واحد توحد معظم الجزيرة العربية في ظل الإسلام ، ثم انتشر في خلال عقود قليلة تالية ليعم منطقة واسعة امتدت من السند شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً حيث آمن الناس بالاسلام ، واستظلوا بشريعته العادلة واقاموا حضارة زاهرة آتت أكلها قروناً طويلة في حقول التشريع والتربية وعلوم الكون والطبيعة.

أوائل المهاجرين من الصحابة

(الشبكة الإسلامية) الدكتور /أكرم ضيار العمري

اشتد الأذى بالمؤمنين في مكة حتي صارت جحيماً لايطاق ، فأذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة حتي يأمنوا على أنفسهم ، ويقيموا شعائر دينهم ، فاستجاب المؤمنون لله ورسوله فهاجروا ، وكان منهم سابقون إلى الهجرة، فمن أول من هاجر من الصحابة ؟ هذا ما سنستعرضه في مقالنا التالي

يتفق موسى بن عقبة و ابن إسحاق على أن أبا سلمة بن عبد الأسد هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة ، فتوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة .

وكذلك فإن مصعب بن عمير و ابن مكتوم كانا من أوائل المهاجرين حيث كانا يقرئان الناس القرآن .

وقد تتابع المهاجرون فقدم المدينة بلال بن رباح و سعد ابن أبي وقاص و عمار بن ياسر ثم عمر بن الخطاب في عشرين من الصحابة .

وقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة ، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين ، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها ، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم ، وثالثة بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة ، لكن شيئاً من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة ، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة .

قالت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرج بي يقود بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه ، قالت :

وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة . قالوا : لا والله لاتترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، قالت : فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، قالت : ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني ، قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سنة أو قريباً منها ، حتى مرّ بي رجل من بني عمي – أحد بني المغيرة – فرأى مابي ، فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟ قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت ، قالت : وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني .

قالت : فارتحلت بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله . قالت : فقلت : أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي . حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار ، فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجي بالمدينة . قال : أو معك أحد ؟ قالت : فقلت : لا والله إلا الله وبنيّ هذا . قال : والله مالك من مترك فأخذ بخطام البعير . فانطلق معي يهوي بي ، فوالله ماصحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحط عنه ، ثم قيده في الشجرة ، ثم تنحّى إلى الشجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحّله ، ثم استأخر عني فقال : اركبي ، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه ، فقاد بي حتى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك في هذه القرية – وكان أبوسلمة بها نازلاً – فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة . قال فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة . وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة).

وقد سقت الخبر بطوله لما فيه من دلالة على الصعوبات التي واجهها المهاجرون وهي تشير إلى أصر العصبية في اتخاذ العشائر القرشية مواقفها من الأحداث ، فقد انحاز قوم أبي سلمة إليه رغم مخالفتهم له في العقيدة ، ثم إن الخبر يكشف عن صورة من صور المروءة التي عرفها المجتمع القرشي قبل الإسلام تتمثل في موقف عثمان بن طلحة وتطوعه في مصاحبة المرأة وإحسان معاملتها مما يدل على سلامة الفطرة التي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية ، ولعل إضاءة قلبه بدأت منذ تلك الرحلة مع المرأة المسلمة .

وثمة صورة تاريخية لحدث آخر هو هجرة عمر بن الخطاب كما حدّث بها بنفسه قال : (اتعدت – لما أردنا الهجرة إلى المدينة – أنا و عياش بن أبي ربيعة ، و هشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب – موضع – من أضاءة بني غفار فوق سرف ، وقلنا أينا لا يصبح عندها فقد حبس ، فليمض صاحباه .قال : فأصبحت أنا و عياش بن أبي ربيعة التناضب ، وحبس عنها هشام ، وفتن فافتتن .

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، و الحارث بن هشام إلى عياش ابن أبي ربيعة – وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما – حتى قدما علينا المدينة – ورسول الله ﷺ بمكة – فكلماه وقالا : إن أمك قد نذرت ألا يمسّ رأسها مشط حتى تراك ، فرقّ لها . فقلت له : يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم .فقال : أبرّ قسم أمي ، ولي هناك مال فآخذه .

فقلت : والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً ، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما . فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما . فلما أبى إلا ذلك قلت : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها ، فخرج عليها معهما . حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى . قال : فأناخ وأناخ ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به

مكة وفتناه فافتتن .قال : فكنا نقول : ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبةً ؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم .

قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون } (الزمر ٥٣-٥٥) .

قال عمر بن الخطاب : فكتبتها بيدي في صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص .

قال فقال هشام : فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوّب ولا أفهمها . حتى قلت : اللهم فهمنيها . قال : فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول لأنفسنا ويقال فينا . قال : فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ .

وأما ما روي من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به بثكل أمه فلم يصح .

وهكذا وصلت طلائع الهجرة إلى المدينة المنورة ، ووجدوا الأمن والأمان ، والأخوة الصادقة من الأنصار، وأقاموا شعائر دينهم ، فلله الحمد والمنة.

معجزات على طريق الهجرة

(الشبكة الإسلامية) أ.د/ أكرم ضياء العمري

بعث الله رسوله ﷺ بالهدي ودين الحق، ووعده بالنصر والتأييد، وكان تأييده تعالى لرسوله بأمور كثيرة منها المعجزات والتي هي خوارق العادات، فقد وقعت له معجزات كثيرة ، ومنها ما كان على طريق الهجرة ، وهو ما سنقف عليه في هذه الكلمات.

وقعت معجزة للنبي ﷺ في طريق الهجرة ، ولنقرأ ما سجله الصديق رضي الله عنه عن بداية الرحلة قال: (أسرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد ، حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل ، لم تأت عليه الشمس بعد ، فنزلنا عندها فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكاناً ينام فيه النبي – ﷺ – في ظلها ثم بسطت عليه فروة . ثم قلت : نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام) . ثم حكى أبو بكر خبر مرور راع بهما ، فطلب منه لبناً ، وصادف استيقاظ الرسول ﷺ فشرب ثم قال : (ألم يأن للرحيل) قلت : بلى . قال : فارتحلنا بعدما زالت الشمس ، وأتبعنا سراقة بن مالك ونحن في جلد من الأرض .

معجزة في خيمة أم معبد :

وقد اشتهر في كتب السيرة والحديث خبر نزول الرسول ﷺ وأصحابه بخيمة أم معبد بقديد طالبين القرى ، فاعتذرت لهم لعدم وجود طعام عندها إلا شاة هزيلة لا تدرّ لبناً ، فأخذ الشاة فمسح ضرعها بيده ، ودعا الله ، وحلب في إناء حتى علت الرغوة ، وشرب الجميع ، ولكن هذه الرواية طرقها ما بين ضعيفة وواهية . إلا طريقاً واحدة يرويها الصحابي قيس بن النعمان السكوني ونصها (لما انطلق رسول الله ﷺ و أبو بكر يستخفيان نزلا بأبي معبد فقال : والله مالنا شاة ، وإن شاءنا لحوامل فما بقي لنا لبن . فقال رسول الله ﷺ : أحسبه – فما تلك الشاة ؟ فأتى بها . فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها ، ثم حلب عسّاً فسقاه ، ثم شربوا ، فقال : أنت الذي يزعم قريش أنك

صابيء ؟ قال : إنهم ليقولون . قال : أشهد أن ما جئت به حق . ثم قال : أتبعك . قال : لا حتى تسمع أناّ قد ظهرنا . فاتّبعه بعد) . وهذا الخبر فيه معجزة حسية للرسول ﷺ شاهدها أبو معبد فأسلم .

قصة سراقة بن معبد :

ولندع رواية سراقة بن مالك تكمل الخبر التاريخي ففيها تفاصيل تكشف عن المعجزة النبوية . قال سراقة : " لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . قال : فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا عليّ آنفاً إني لأراهم محمداً وأصحابه . قال : فأومأت إليه بعيني أن اسكت . ثم قلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم ، قال : لعلّه ، ثم سكت ".

ثم ذكر سراقة خروجه في أثرهم ، وأن فرسه ساخت به حتى طلب الدعاء له من رسول الله ﷺ قال : فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : (قل له وما تبتغي منا) ؟ فقال لي ذلك أبو بكر . قال قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك . قال : اكتب له يا أبا بكر ، فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزفة ، ثم ألقاه إلي ، فأخذته فجعلته في كنانتي ، ثم رجعت فسكت ، فلم أذكر شيئاً مما كان)) . ثم حكى خبر لقائه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإسلامه .

وقد ذكر سراقة في رواية صحيحة أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، و أبو بكر يكثر الالتفات ، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً ، وأن وصيته كانت : اخف عنا .

وتذكر رواية صحيحة أنه صار آخر النهار مسلمة للنبي ﷺ بعد أن كان جاهداً عليه أوله . وأن الرسول ﷺ هو الذي دعا عليه فصرعه الفرس . وقد احتاط الاثنان في الكلام مع الناس الذين يقابلونهم في الطريق ، فإذا سئل أبو بكر عن رسول الله ﷺ قال : هذا الرجل يهديني السبيل ، فيحسب الحاسب إنه إنما يعني الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير . وقد صح أن الدليل أخذ بهم طريق السواحل.

وبالجملة: فإن المعجزات جند من جنود الله تعالى أيد بها رسوله صلى الله عليه وسلم، وأكرمه بها ، وكان لها الأثر الفاعل في إرساء دعائم دعوته المباركة ، والله الموفّق .

الهجرة النبوية إلى المدينة

(الشبكة الإسلامية)

بينما ينظر البعض إلى الهجرة كذكريات عطرة تتجدّد كل عام ، يرى الحكماء وأصحاب العقول الراجحة في هذا الحدث نصراً يُضاف إلى رصيد الجماعة المؤمنة ، وهروباً من حياة الظلم والاستعباد ، إلى الحياة الحرّة الكريمة ، وبداية مرحلةٍ جديدة من الصراع بين الإسلام والكفر ، والحق والباطل ، حتى صار تاريخاً للمسلمين يؤرّخون به أحداثهم .

وللوقوف على أهمّية الحدث ، واستشعار أبعاده ، يجدر بنا أن نعود إلى الوراء بضعة عشر قرناً من الزمان ، وتحديداً في العام الثالث عشر من البعثة ، حين نجحت جموع المؤمنين في الخروج من مكة ، واستطاعت أن تتغلّب على المصاعب والعقبات التي زرعتها قريشٌ للحيلولة دون وصولهم إلى أرض يثرب ، ليجدوا إخوانهم الأنصار قد استقبلوهم ببشاشة وجهٍ ورحابة صدر ، وفتحوا لهم قلوبهم قبل بيوتهم ، مما كان له أعظم الأثر في نفوسهم ، ولم يبق في مكّة سوى نفرٍ قليل من المؤمنين ما بين مستضعفٍ ومفتونٍ ومأسورٍ .

وهنا أحسّت قريشٌ بالمخاطر التي تنتظرهم ، وأدركت أنها لن تستطيع تدارك الموقف وإعادة الأمور إلى نصابها إلا بالوقوف بأيّ وسيلة دون إتمام هجرة النبي – ﷺ –.

ونتيجةً لذلك ، كانت المؤامرات تدور في الخفاء للقضاء على النبي – ﷺ – ، ففي يوم الخميس من شهر صفر اجتمع المشركون في دار الندوة وتشاوروا في الطريقة المُثلى لتحقيق مقصودهم ، فمن قائلٍ بضرورةِ قتله عليه الصلاة والسلام والتخلّص منه ، وآخر بحبسه وإحكام وثاقه ، وثالثٍ بنفيه وطرده ، حتى اتفقت الآراء على قتله ، ولكن بطريقة تَعْجَز بنو هاشم معها عن أخذ الثأر ، وذلك بأن تختار قريش صفوة فتيانها من جميع القبائل فيقوموا على النبي – ﷺ – قومة رجلٍ واحد ويقتلوه ، ليتفرّق دمه بين القبائل ، وفي هذه الحالة لن تستطيع بنو هاشم أن تقاتل سائر الناس ،

ولن يبقى أمامها سوى خيارٍ واحد هو قبول الدية ، وصدق الله عزوجل إذ يقــول : { وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكــر الله والله خير الماكرين } (الأنفال : ٣٠) .

ولم تكن قريش لتعلم أن الله سبحانه وتعالى أذن لنبيه بالهجرة إلى المدينة ، فبينما هم يبرمون خطّتهم ويحيكون مؤامرتهم كان النبي – ﷺ – قد استعدّ للسفر ، وانطلق إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه في وقت الظهيرة متخفّياً على غير عادته ، ليخبره بأمر الخروج

وخشي أبو بكر رضي الله عنه أن يُحرم شرف هذه الرحلة المباركة ، فاستأذن النبي – ﷺ – في صحبته فأذن له ، فبكى رضي الله عنه من شدّة الفرح، وكان قد جهّــز راحلتين استعداداً للهجرة ، فلما أعلمه النبي – ﷺ –بقرب الرحيل قــام مــن فــوره واستأجر رجلاً مشركاً من بني الديل يُقال له عبد الله بن أُريقط ، ودفع إليه الراحلتين ليرعاهما ، واتفقا على اللقاء في غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ ، في حين قامــت عائشــة وأختها أسماء رضي الله عنهما بتجهيز المتاع والمؤن ، ووضعا السفرة في وعــاء ، وشقّت أسماء نطاقها نصفين لتربط السُفرة بنصفه وقربة المــاء بالنصــف الآخــر ، فسمّيت من يومها بذات النطاقين .

وتسارعت الأحداث ، وحانت اللحظة المرتقبة ، وانطلق النبي – ﷺ –متخفّيــاً إلــى بيت أبي بكر رضي الله عنه ، وكان الميعاد بينهما ليلاً ، فخرجا من فتحةٍ خلفيةٍ فــي البيت ، وفي الوقت ذاته أمر النبي – ﷺ – علي بن أبي طالب رضي الله عنه بــأن يتخلّف عن السفر ليؤدي عنه ودائع الناس وأماناتهم ، وأن يلبس بردته ويبيــت فــي فراشه تلك الليلة ؛ من أجل إيهام قريشٍ .

ونجح النبي – ﷺ – وصاحبه في الفرار من بين أيديهم ، ولم يكشــتفوا الأمــر إلا عندما أصبح الصباح وخرج عليهم عليٌ رضي الله عنه وهو لابسٌ بردة النبي – ﷺ –، فجُنّ جنونهم ، وأحاطوا به يسألونه عن النبي – ﷺ – وهو يتظــاهر بالدهشــة وعدم معرفته بمكانه ، وانطلقت قريشٌ مسرعةً إلى بيت أبي بكر الصدّيق رضي الله

عنه ، لأنّهم يعلمون أنه صاحبه ورفيق دربه ، ولابد أن يصلوا من خلاله إلى معلومة تقودهم إلى وجهته ، إلا أنهم فوجئوا برحيله هو الآخر ، فساءلوا أسماء عن والدها ، فأبدت جهلها ، فغضب أبو جهل لعنه الله ولطمها لطمة أسقطت الحليّ من أذنها .

وبدأت محاولات المطاردة للنبي – ﷺ –، فقاموا بمراقبة جميع منافذ مكّة مراقبة دقيقة ، وأعلنوا بين أفراد القبائل جائزة ثمينة لمن يأتي به حيّاً أو ميّتاً ، وأرسلوا كلّ من له خبرة بتتبّع الآثار ، وانطلقت جموعهم شمالاً علّهم يقفوا له على أثر .

وخالف النبي – ﷺ – بذكائه وحنكته كل توقعاتهم ، فلم يتجه صوب المدينة مباشرة ، بل ذهب إلى جهة الجنوب حتى بلغ جبلاً وعراً يُقال له " جبل ثور " ، يوجد في أعلاه غار يصعب الوصول إليه ، ويمكنهم المكوث فيه إلى أن يهدأ الطلب .

وقادت الجهود قريشاً إلى غار ثورٍ ، وصعدوا إلى باب الغار ، وبات الخطر وشيكاً ، وبلغت أصواتهم سمع أبي بكر فقال رضي الله عنه : " يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا " ، فأجابه الرسول – ﷺ – إجابة الواثق المطمئنّ بموعود الله : (يا أبا بكر ، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما ؟) ، وصدق ظنّه بربه ، فإن قريشاً استبعدت وجود النبي – ﷺ – في هذا المكان ، و انصرفت تجرّ أذيال الخيبة .

وأقام النبي – ﷺ –في الغار ثلاث ليالٍ ، وكان عبدالله بن أبي بكر رضي الله عنهما يأتي كل يوم ليبلغهما أخبار قريش ، و عامر بن فهيرة يأتي بالأغنام ليشربا من لبنها ، ويخفي آثار عبدالله بن أبي بكر ، حتى جاء عبدالله بن أريقط في الموعد المنتظر ، ومعه رواحل السفر .

وفي ليلة الإثنين من شهر ربيع الأوّل انطلق الركب إلى المدينة متّخذاً طريق الساحل ، وظلوا يسيرون طيلة يومهم ، و أبو بكر رضي الله عنه يمشي مرّة أمام النبي – ﷺ – ، ومرّة خلفه ، ومرّة عن يمينه ، ومرّة عن يساره ، خوفاً عليه من قريش ، حتى توسّطت الشمس كبد السماء ، فنزلوا عند صخرةٍ عظيمةٍ واستظلّوا بظلّها ، وبسط أبو بكر رضي الله عنه المكان للنبي – ﷺ – وسوّاه بيده لينام ، وبينما هم كذلك إذ أقبل غلام يسوق غنمه قاصداً تلك الصخرة ، فلما اقترب قال له أبوبكر

رضي الله عنه : لمن أنت يا غلام ؟ ، فقال : لرجل من أهل مكة ، فقال لـــه : أفـــي غنمك لبن ؟ ، فقال : نعم ، فحلب للنبي – ﷺ –في إناء ، فشرب منه حتى ارتوى .

وفي هذه الأثناء استطاع أحد المشركين أن يلمح النبي – ﷺ – من بعيـــد ، فـــانطلق مسرعاً إلى سراقة بن مالك وقال له : يا سراقة ، إني قد رأيت أناساً بالساحل ، وإني لأظنّهم محمداً وأصحابه ، فعرف سراقة أنهم هُم ، ولكنّه أراد أن يُقنع الرجـــل بأنّـــه واهم حتى يفوز بالجائزة وحده ، ولبث سراقة في المجلس ساعة حتى لا يثير انتبـــاه من معه ، ثم تسلّل من بينهم وأخذ فرسه ورمحه وانطلق مسرعاً ، فلمـــا دنـــا مـــنهم عثرت به فرسه حتى سقط ، فتشاءم من سقوطه ، وعاد مرة أخرى وامتطى فرســـه وانطلق ، فسقط مرة ثانيةً وتعاظم شؤمه ، لكن رغبته في الفـــوز بالجـــائزة أنســـته هواجسه ومخاوفه ، ولما اقترب من النبي – ﷺ – غاصت قدما فرسه فـــي الأرض إلى الركبتين ، وتصاعد الدخان من بينهما ، فعلم أنهم محفوظون بحفظ الله ، فطلـــب منهم الأمان وعاهدهم أن يخفي عنهم ، وكتب له النبي – ﷺ – كتاب أمان ووعـــده بسواريْ كسرى ، وأوفى سراقة بوعده فكان لا يلقى أحداً يبحث عن النبي – ﷺ –إلا أمره بالرجوع ، وكتم خبرهم حتى وصلوا إلى المدينة .

وفي طريقهم إلى المدينة نزل الرسول – ﷺ –وصاحبه بخيمة أم معبد ، فسألاها إن كان عندها شيء من طعامٍ ونحوه ، فاعتذرت بعدم وجود شيء سوى شاة هزيلـــة لا تدرّ اللبن ، فأخذ النبي – ﷺ –الشاة فمسح ضرعها بيده ودعا الله أن يبارك فيها ، ثم حلب في إناء ، وشرب منه الجميع ، وكانت هذه المعجزة سبباً فـــي إســـلامها هـــي وزوجها .

وانتهت هذه الرحلة بما فيها من مصاعب وأحداثٍ ، ليصل النبي – ﷺ –إلـــى أرض المدينة ، يستقبله فيها أصحابه الذين سبقوه بالهجرة ، وإخوانه الـــذين أعـــدّوا العـــدة لضيافته في بلدهم ، وتلك وقفة أخرى .

وصول رسول الله إلى المدينة

(الشبكة الإسلامية) أ.د/ أكرم ضياء العمري

كان المسلمون في المدينة قد سمعوا بخروج النبي ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه ، حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم ، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به فعادوا ، وقدم الرسول ﷺ وقد دخلوا بيوتهم ، فبصر به يهودي فناداهم ، فخرجوا فاستقبلوه ، وكانت فرحتهم به غامرة ، فقد حملوا أسلحتهم وتقدموا نحو ظاهر الحرة فاستقبلوه .

وقد نزل الرسول ﷺ في قباء في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء .

ولما عزم رسول الله صلى عليه وسلم أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بني النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم .

وقد سجلت رواية أن عدد الذين استقبلوه خمسمائة من الأنصار ، فأحاطوا بالرسول ﷺ و بأبي بكر وهما راكبان ، ومضى الموكب داخل المدينة ، (وقيل في المدينة : جاء نبي الله ﷺ) . وقد صعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان في الطرق ينادون : يا محمد يا رسول الله ، يا رسول الله .

قال الصحابي البراء بن عازب – وهو شاهد عيان – : " ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ "

أما تلك الروايات التي تفيد استقباله بنشيد (طلع البدر علينا من ثنيات الوداع) فلم ترد بها رواية صحيحة .

وأقبل رسول الله ﷺ يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب الأنصاري فتساءل : أي بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يا نبي الله ، هذه داري وهذا بابي . فنزل في داره .

وقد ورد في كتب السيرة أن زعماء الأنصار تطلعوا إلى استضافة الرسول ﷺ ، فكلما مر بأحدهم دعاه للنزول عنده ، فكان يقول لهم : دعوا الناقة فإنها مأمورة فبركت على باب أبي أيوب ، وكان داره طابقين ، قال أبو أيوب الأنصاري : " لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السّفل وأنا و أم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله – بأبي أنت وأمي – إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهر أنت في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفل . فقال : يا أبا أيوب : إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت . قال : فلقد انكسر حبّ لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه " .

وقد أفادت رواية ابن سعد أن مقامه ﷺ بدار أبي أيوب سبعة أشهر .

وقد اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين ، وآثروهم على أنفسهم ، فنالوا من الثناء العظيم الذي خلّد ذكرهم على مرّ الدهور وتتالي الأجيال ، إذ ذكر الله مأثرتهم في قرآن يتلوه الناس : { والذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فألئك هم المفلحون} (الحشر٩) .

وقد أثنى رسول الله ﷺ على الأنصار ثناء عظيماً فقال : (لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار) و (لو سلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم)

وكان رسول الله ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة ، ثم أمر ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بني النجار .

وقد اشتراها رسول الله ﷺ ، وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها وصفوا الحجارة في قبلة المسجد ، وما أعظم سرورهم وهم يعملون في بنائه ورسول الله ﷺ يعمل معهم وهم يرتجزون :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

وقد بناه أولاً بالجريد ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين ، وقد واجه المهاجرون من مكة صعوبة اختلاف المناخ ، فالمدينة بلدة زراعية ، تغطي أراضيها بساتين النخيل ، ونسبة الرطوبة في جوها أعلى من مكة ، وقد أصيب العديد من المهاجرين بالحمى منهم أبو بكر و بلال .

فأخبرت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقال : (اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها ، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة) . وقال : (اللهم امض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم) .

لقد تغلب المهاجرون على المشكلات العديدة ، واستقروا في الأرض الجديدة مغلبين مصالح العقيدة ومتطلبات الدعوة ، بل صارت الهجرة واجبة على كل مسلم لنصرة النبي عليه الصلاة والسلام ومواساته بالنفس ، حتى كان فتح مكة فأوقفت الهجرة لأن سبب الهجرة ومشروعيتها نصرة الدين وخوف الفتنة من الكافرين . والحكم يدور مع علته ، ومقتضاه أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه ، وإلا وجبت . ومن ثم قال الماوردي : إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر ، فقد صارت البلد به دار إسلام ، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام .

وعندما دون التاريخ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اتخذت مناسبة الهجرة بداية التاريخ الإسلامي ، لكنهم أخروا ذلك من ربيع الأول الى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم ، إذ بيعة العقبة الثانية وقعت في أثناء ذي الحجة ، وهي مقدمة الهجرة . فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم ، فناسب أن يجعل مبتدأ التاريخ الإسلامي. والله الموفق والهادي الى سواء السبيل.

دروس من الهجرة

الحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَـهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؟يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها، وَبَـثَّ مِنْهُمـا رِجَالاً كَثِيراً وَنِساءً، واتَّقُوا اللَّهَ الذي تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً؟[النساء:١]. ؟يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْـلِمُون؟ [آل عمران:١٠٢]. ؟ يا أَيُّهَا الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللَّه وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمـالَكُمْ، ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزَاً عَظِيماً؟ [الأحزاب:٧١].

أيها المؤمنون في توديع عام واستقبال عام تتزاحم الذكريات والعبر، وتتجلـى فـي النفس اللوامة الحقائق والصور، حين تنظر إلى الماضي وتستشرف المستقبل.

أيها الناس: اتقوا الله تعالى وانظروا وتدبروا في هذه الأيام والليالي، فإنهـا مراحـل تقطعونها إلى الدار الآخرة، وكل يوم يمر بكم، فإنه يبعدكم من الدنيا ويقـربكم مـن الآخرة، فطوبى لعبد اغتنم فرصة العمر الذي يقربه من ربه وخالقه في فعل الطاعات والقربات واجتناب المعاصي والآثام.

طوبى لعبد اتعظ بما في الأيام والليالي من تقلبات الأمور والأحـوال، طـوبى لعبـد استدل بتقلبها على أيام لله فيها من الحكم البالغة والأسرار واسـتدل بتلـك الأحـداث والأحوال على محدثها ومقلبها ومصرفها ؟ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ؟[النور:٤٤].

أيها المسلمون: ألم تروا إلى هذه الشمس كيف تطلع كل يوم من مشرقها وتغيب فـي مغربها. وفي ذلك أعظم العظمة والاعتبار، فإن طلوعها ثم غيابها إيذان بأن هذه الدنيا ليست دار قرار ، وإنما هي ظهور ثم اختفاء وزوال ، ألم تروا إلى الشهور كيف تهل علينا يبدوا فيها الهلال صغيراً ثم ينموا رويداً رويداً، حتى إذا تكامـل نمـوه، أخـذ

بالنقص والاضمحلال ، وهكذا عمر الإنسان سواء ، فاعتبروا يا أولي الأبصار: إذا تم شيء بدا نقصه .. ترقب زوالاً إذا قيل تم .

ألم تروا إلى هذه السنين والأعوام كيف تنتهي وتتجدد فإذا دخل عام جديد نظر الإنسان إلى آخره نظر البعيد، ثم تمر به الأيام سراعاً فينصرم العام كلمح البصر، فإذا هو في آخر العام، وهكذا عمر الإنسان يتطلع إلى آخره تطلع البعيد وينظر إلى الموت نظر الشاك المريب يؤمل الإنسان بطول العمر، ويتسلى بالأماني، فإذا بحبل الأمل قد انصرم وإذا بالموت قد هجم عليه ونزل وتحقق ما أخبر الله به ؟ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ؟[ق:١٩].

أيها المسلمون لقد ودعنا عاماً مضى وارتحل عنا بما فيه واستقبلنا عاماً جديداً فليحاسب كل منا نفسه ماذا قدم في العام الماضي؟ وبماذا سيستقبل العام الجديد؟ لنتدارك ما فات من الزلل والتقصير بالتوبة والاستغفار ولنعزم في بقية أعمارنا على الإيمان الصادق والعمل الصالح والإنابة إلى الله فإننا في زمن الإمكان، وقد أوصى النبي ﷺ رجلاً بقوله: "اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك"()

أيها المؤمنون يحتفل بعض الناس في بداية العام الهجري الجديد ويقيمون الخطب والمناسبات واكتفوا من سيرة النبي ﷺ بالخفيف من المظاهر والرسوم ولا شك أن سيرة نبينا محمد ﷺ بكل ما فيها من مواقف ووقائع جديرة بكل تدبر وتأمل يزيد في الإيمان ويزكي الخلق ويقوم السلوك.

إن الحب الصادق للرسول الحبيب محمد ﷺ يستدعي عزماً صادقاً في الاستمساك بالأصول والحقائق التي جاء بها من عند الله والعض عليها بالنواجذ. إن الحب رخيصاً حين يكون زعماً وكلاماً ولكنه غال حين يكون عملاً وجهاداً وإقداماً ؟ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ؟[آل عمران:٣١].

أيها المؤمنون إن هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم معلم بارز في سيرته المباركة المليئة بالعظات والدروس والعبر.

وإن من الدروس العظيمة التي ينبغي أن يعيها المسلمون وهم يمرون بأخطر هجمة يهودية صليبية حيث يجندون العالم كله لاستئصال الإسلام والقضاء على المسلمين ومطاردتهم في كل أرض. هذا الدرس هو أن هذا الدين الذي أكرمنا الله به ورضيه لنا ديناً هو السياج الحامي لكل حق في الأنفس والأموال والأرض والحرية والكرامة، إذا حفظ الدين حفظت النفس وحفظ المال والثروات ، بصدق العقيدة تحفظ الأرض ويحفظ الأهل.

أيها المؤمنون: تهجر الأوطان ويضحى بالنفوس والمهج والثروات من أجل الحفاظ على الإيمان بالله ورسوله. إن درس الهجرة ليؤكد لنا بكل وضوح وجلاء أن التفريط في العقيدة مآله هلاك النفوس وخراب الديار. إذا فقد الدين فلن يغني من بعده وطن، ولا مال، ولا أرض. وإن من سنن الله الثابتة أن القوى المعنوية هي الحافظة للقوى المادية. العقيدة والأخلاق والتربية القويمة هي الوسائل الصحيحة للحصول على المكاسب العليا والحفاظ عليها. إن الهجرة في غايتها فرار بالدين وتلمس لطرق النصر وأمل في حصول الفرج وسعي إليه. إن ترك الديار والأوطان وهجرها والخروج منها فيه مشقة على النفس، إن ترك الدُّور والإخراج منها قريبة من القتل كما قال تعالى: ؟ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ؟[النساء: ٦٦].

ولكن الله تعالى وعد المجاهدين في ذاته والمهاجرين في سبيله بالنصر والظفر في الدنيا والفوز والفلاح في الآخرة كما قال تعالى: ؟ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ؟[النساء: ١٠٠].

وقال عن المرتد عن دينه الذين لا يصمدون أمام المحن والفتن. ؟ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ ؟[النحل: ١٠٩] وأثنى سبحانه وتعالى على الثابتين على

دينهم والقابضين عليه على الرغم من كل أجواء الفتن والمحن فقال: ؟ ثُـمَّ إِنَّ رَبَّـكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَـبَرُواْ إِنَّ رَبَّـكَ مِـن بَعْـدِهَا لَغَفُـورٌ رَّحِيمٌ؟[النحل:١١٠] وقال: ؟ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَـا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللَّـهَ لَمَـعَ الْمُحْسِنِينَ؟[العنكبوت:٦٩].

وإن من دروس هذه الهجرة المباركة كذلك التي ينبغي أن يعيها المسلمون جيداً هو أن الظلم والطغيان مهما اشتد وتناهى فإنه إلى انتهاء واندحار ، فلا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يستسلم للباطل أو أن يدب اليأس والقنوط إلى نفسه. وإنما عليـه أن يصبر ويصابر وأن يأخذ بالأسباب المتاحة أمامه معتمداً في ذلك كله على ربه وخالقه لاجئاً إليه متوكلاً عليه مفوضاً الأمور كلها إليه جل وعلا. فإن من توكـل علـى الله كفاه، ومن لاذ به حماه، ومن استنصر به نصره ووقاه وإن خذلـه أهـل الأرض أو كادوا به وفي هذه المعاني يقول الله عز وجل منوهاً بهجرة نبيه ﷺ وبصاحبه وخليله أبو بكر: ؟ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِـي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّـمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَـا وَاللّـهُ عَزِيـزٌ حَكِـيمٌ ؟[التوبة:٤٠].

أيها الناس : بادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، فإن فتناً كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيراناً، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كـافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا ، لقد رأينا والله في زمننا من يبيع دينه وعرضه ووطنـه وبلاده لليهود والنصارى بثمن بخس حقير قليل.

فعلى المسلم أن يتقي الله وأن يصبر ويثبت على دينه حتى يلقـى الله.. واعلمـوا أن أمامكم أياماً فاضلة كان نبيكم ﷺ يخصها بصيام ويحث على صيامها ، إنها عاشوراء ويوم قبله أو يوم بعده مخالفة لليهود، وفي هذا اليوم الأغر العاشر من محرم أهلك الله فيه طاغية من أعظم الطواغيت الذين ظهروا على مسرح الحياة إنه فرعون وجنـده وأنجى الله بني إسرائيل من العذاب المهين الذي عاشوه ردحاً من الزمن ، وفي القرآن

الكريم بسط لقصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه.. ثم كانت النهاية التي تنتظر كل جبار عنيد يستعلي في الأرض ويضطهد المستضعفين.

وحين أراد الله أن يهلك الطغاة الجبابرة من فرعون وقومه أمر نبيه موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً كما قال سبحانه: ؟ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ؟[الشعراء:٥٢-٦٨] إنه يوم مشهود صامه نبي الله موسى ومن معه شكراً لله تعالى على هذه النعمة العظيمة نعمة إهلاك المجرمين ونصر المستضعفين، وصامه محمد ﷺ وأمر بصيامه شكراً لله فصوموه أيها المؤمنون. وأنيبوا إلى ربكم وسلوه أن يهلك فراعنة العصر من اليهود والصليبيين والمنافقين المندسين في صفوف المسلمين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، وكونوا أنتم مؤهلين للنصر والاستجابة بالاستقامة على أمر الله واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

واعلموا أن الأبواب كلها موصدة ولا نجاة للمسلمين اليوم إلا بالرجوع إلى الله وطرق بابه وصدق اللجوء إليه والضراعة والإخلاص هذا هو طريق الخلاص لا طريق غيره أبداً.

راجعه/ عبد الحميد أحمد مرشد.

(المسندرك ٤/ ٣٤١، حديث رقم: ٧٨٤٦، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

دروس تربوية من الهجرة النبوية

إعداد : معاوية محمد هيكل

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ففي تاريخ الأفراد والأمم والجماعات أحداث لها أثرها ودورها البالغ في تغيير دفة الحياة وتاريخ أمتنا- التي نعتز بها ونفتخر- يزخر بالأحداث العظام التي غيرت وجه التاريخ، ولعل من أبرزها وأعظمها أثرًا على الإطلاق في حياة الأمة حادث الهجرة المباركة، فالهجرة لم تكن حدثًا عاديًا ولا عابرًا كغيره من أحداث التاريخ، بل كانت بمثابة محور الارتكاز ونقطة الانطلاق والتحول، والحد الفاصل في مصير هذا الدين العظيم ومساره، وإيذانًا بميلاد فجر جديد لدولة التوحيد، أشرق على الكون نوره بعد مخاض ليل طال على الأتباع معاناته وآلامه.

ونظرًا لهذه المكانة السامية التي تبوأتها الهجرة النبوية واحتلتها كأعظم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد اعتبره المسلمون الأوائل معلمًا بارزًا من أهم معالم حضارتهم، فأرخوا به لأحداثهم ووقائعهم، ولم يؤرخوا بتأريخ غيرهم، حفاظًا على هويتهم واستقلالهم وتميزهم.

وحَدَثٌ هذا شأنه حري بنا وجدير أن نقف على معانيه، نستلهم منه الدروس والعظات والعبر.

أولاً: الهجرة سنة ماضية:

فبهذه الهجرة تمت لرسولنا ﷺ سنة إخوانه من الأنبياء، فما من نبي منهم إلا نَبَتْ به بلاد نشأته وأخرجه أهلها فهاجر عنها من لدن إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء وخليل الله، إلى عيسى كلمة الله وروحه، كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم- أهينوا من عشائرهم، فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في ذات الله.

قال تعالى: وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا {إبراهيم: ١٣}، وقال تعالى عن قوم لوط: فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون {النمل: ٥٦}، وقال تعالى عن نبينا ﷺ : وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين {الأنفال: ٣٠}.

ولذلك قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ : "ليتني فيها جذع ليتني أكون حيّا إذ يخرجك قومك". فقال رسول اللَّه ﷺ : "أَوَ مخرجي هم؟" قال: نعم؛ لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي".

{الحديث رواه البخاري (١-٣٠، ٣١)}

ثانيًا: في الهجرة تأمين للدعوة وحماية للدين:

فالنبي ﷺ لم يخرج من بين قومه إلا بعد أن تمالأ المشركون على قتله، منعًا له من الدعوة إلى الحق، كما أوصلوا إليه ما لا يحتمله غيره من الأذى، وفي هذا عبرة لمن دعا إلى دينه أن يصبر على أذى المدعوين، حتى يخشى على نفسه الهلاك فيفر بدينه إلى حيث يرجو أن تثمر دعوته.

فحيثما كان العبد في مكان لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله.

هجرة الموحدين المضطهدين.. جهاد لا فرار:

فهجرة الموحدين المضطهدين بدينهم في كل زمان ومكان ليست هروبًا ولا نكوصًا ولا هزيمة، إنما هو تربص بأمر الله، حتى يأتي أمر الله.

فقد خرج أصحاب الكهف من الدنيا على رحابتها إلى كهف ضيق فرارًا بدينهم، واعتزالاً للشر وأهله، وخروجًا من الواقع السيئ، وطلبًا للسلامة، فكانت هجرتهم محمودة ومشروعة، وكذلك فعل الصحابة رضوان الله عليهم هاجروا من مكة إلى الحبشة مرتين، ثم هاجروا إلى المدينة تاركين أوطانهم وأرضهم وديارهم وأهاليهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين.

لذلك فإن الهجرة تعلمنا درسًا هامًا، وهو كيف أن على الدعاة إلى الله أن يبحثوا دائمًا عن أماكن خصبة للدعوة.

ثالثًا: العقيدة هي الدافع والأساس:

أثبتت الهجرة النبوية أن الدعوة والعقيدة يتنازل لهما عن كل حبيب وعزيز وأليف وأنيس، وعن كل ما جبلت الطباع السليمة على حبه وإيثاره والتمسك به والتزامه، ولا يتنازل عنهما لشيء.

وقد كانت مكة- فضلاً عن كونها مولدًا ومنشأ للرسول ﷺ وأصحابه- مهوى الأفئدة والقلوب ففيها الكعبة البيت الحرام الذي جرى حبه منهم مجرى الروح والدم، ولكن شيئًا من ذلك لم يمنعه وأصحابه من مغادرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن حين ضاقت الأرض على هذه الدعوة والعقيدة وتنكر لها أهلها، وقد تجلت هذه العاطفة المزدوجة عاطفة الحنين الإنساني وعاطفة الحب الإيماني في كلمته التي قالها مخاطبًا مكة: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت". {صحيح الترمذي: ٣٠٨٢}. وذلك عملاً بقوله تعالى: يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون {العنكبوت: ٥٦}.

رابعًا: معية الله وحفظه وتأييده لأنبيائه وأوليائه:

قال الله تعالى: إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم {التوبة: ٤٠}، فالله عز وجل أرحم بنبيه وصاحبه من أن يجعلهما نهبًا لعدوهما، كما تؤكد الآية كذلك حماية الله لنبيه ﷺ ونصره وتأييده حين تخلت عنه قوة الأرض، والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق، إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وإن كانت مادية

فإن خطرها لا يتمثل في فخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش عظيم، وما يعلم جنود ربك إلا هو {المدثر: ٣١}.

فتعمية أبصار المشركين عن رؤية النبي ﷺ وصاحبه في غار "ثور" وهم عنده، مثل تخشع له القلوب من أمثلة عناية الله بأنبيائه ورسله ودعاته وأحبائه، فما كان الله ليوقع رسوله ﷺ في قبضة المشركين، فيقضوا عليه وعلى دعوته، وهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وليس في نجاة الرسول ﷺ وصاحبه بعد أن أحاط بهما المشركون في غار ثور إلا تصديق قوله تعالى: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد {غافر: ٥١}، وقوله تعالى: إن الله يدافع عن الذين آمنوا {الحج ٣٨}.

فالدعاة إلى الله بحاجة دائمًا إلى أن يكون راسخًا في أعماقهم عون الله لهم حين تعجز قوتهم البشرية عن إدراك ما يخطط لهم العدو بعد استنفاد الطاقة واستفراغ الوسع، وأن تكون لديهم القناعة التامة، أن النصر أولاً وأخيرًا من عند الله. قال تعالى: وما النصر إلا من عند الله {آل عمران:١٢٦}.

خامسًا: يتجلى في الهجرة بروز عنصر التخطيط وأهميته في حياة المسلمين:

فكان الهدف محددًا والوسائل كذلك والعقبات مأخوذة بالحسبان واختيار الطريق والمكان والتموين ومن يحمل الأخبار والدليل، كل ذلك مُؤَمَّنٌ مع إحاطة ذلك بالسرية والحيطة والحذر، وكل ذلك ينبئ عن تخطيط وتنظيم وترتيب لا مثيل له.

الأخذ بالأسباب والتوكل على الله

فالأخذ بالأسباب مطلوب ومشروع ولا ينافي ذلك الإيمان والتوكل على الله، فعدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع، والاعتماد على الأسباب قدح في التوحيد، لذلك فإن النبي ﷺ قد أحكم خطة هجرته وأعد عدته، فأعد الراحلتين وترك عليًا مكانه، وسلك الطريق الجنوبي للتغرير بالمشركين، واستأجر ماهرًا خبيرًا يدله على الطريق، وكانت أسماء رضي الله عنها تأتيهما بالطعام، ودخل غار ثور، فعل ذلك وهو النبي المؤيد من ربه.

فشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كأنها كل شيء في الحياة، ثم يتوكل بعد ذلك على الله، لأن كل شيء لا قيام له إلا بإذن الله، فإذا استفرغ المرء جهده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك، فإن الله لا يعاقبه على هزيمة بلي بها، وكثيرًا ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيبًا حسنًا، ثم يجيء عون الله أعلى فيجعل هذا النصر مضاعف الثمار.

سادسًا: التضحية والفداء:

ومن دروس الهجرة: أن الجندي الصادق المخلص لدعوة الإصلاح يفدي قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة في بياته على فراش رسول اللَّه ﷺ تضحية بحياته في سبيل الإبقاء على حياة رسول اللَّه #؛ إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه انتقامًا منه، لأنه سهل للرسول ﷺ النجاة، ولكن عليا لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول اللَّه ﷺ نبي الأمة وقائد الدعوة.

وكذلك موقف أبي بكر رضي الله عنه، فقد تجلى من معاملته لرسول الله ﷺ الحب الصادق والتضحية بالنفس، وتجلى هذا في دخول الغار وعند الخروج منه وفي الطريق حينما كان يمشي تارة خلفه، وتارة أمامه، وتارة عن يمينه.

وهذه أمثلة في التضحية والفداء يندر أن نرى لها في الدنيا نظيرًا، ولكنه الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

سابعًا: مظاهر محبة النبي ﷺ واستقبال أهل المدينة له:

تكشف لنا الصورة التي استقبلت بها المدينة رسول اللَّه ﷺ عن مدى المحبة الشديدة التي كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً.

قال ابن القيم رحمه الله واصفًا هذه المشاعر النبيلة: وبلغ الأنصار مخرج رسول اللَّه ﷺ من مكة، وقصده المدينة، وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد حر الشمس، رجعوا على عادتهم إلى منازلهم، فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة، خرجوا على عادتهم،

فلما حمي حر الشمس رجعوا، وصعد رجلٌ من اليهود على أطم من آطام المدينة لبعض شانه فرأى رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، مُبيَّضين، يزول بهم السراب، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدكم الذي تنتظرونه، فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول اللَّه ﷺ ، وسُمعت الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبّر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مُطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه: فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير {التحريم: ٤}. {زاد المعاد ٣-٥٢}

ثامنًا: الأخوة الصادقة وأمثلة نادرة:

قال تعالى: والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون {الحشر: ٩}.

ففي مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار أقوى مظهر من مظاهر عدالة الإسلام الإنسانية والأخلاقية البناءة، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم، فجاءوا إلى المدينة لا يملكون من حطام الدنيا شيئًا، والأنصار قوم أغنياء بزروعهم وأموالهم وصناعتهم، فكان أن حمل الأخ أخاه، واقتسم معه سراء الحياة وضراءها، وأنزله في بيته، وأعطاه شطر ماله، فأية أخوة في الدنيا تعدل هذه الأخوة. لذلك أثنى رسول اللَّه ﷺ على الأنصار ثناءً عظيمًا بعد ثناء الله عليهم فقال: "لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار". {البخاري: ٣٧٧٩}، وقال أيضًا: "لو سلكت الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم". {البخاري: ٣٧٧٨}.

تاسعًا: الهجرة والإصلاح المنشود:

قال العلامة محب الدين الخطيب: لو أننا فهمنا الحكمة التي انطوت عليها حادثة الهجرة، وعلمنا أن كتاب الله الذي نتلوه قد أنحى باللائمة على جماعة من أصحاب رسول اللَّه ﷺ كانوا في مكة يصلون ويصومون ولكنهم ارتضوا البقاء تحت جناح

أنظمة تخالف الإسلام، فلا قوة لهم على تغييرها، ولم يهاجروا إلى قلعة الإسلام ليكونوا من جنوده، لعلمنا أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة
والصوم، بل يريد منهم مع ذلك أن يقيموا شرائعه وآدابه في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم، ومجامعهم ودواوين حكمهم، وأن عليهم أن يتوسلوا بجميع الوسائل المشروعة لتحقيق هذا الغرض الإسلامي بادئين به من البيت وملاحظين ذلك في تربية من تحت أمانتهم من بنين وبنات، ومتعاونين عليه مع من ينشد للإسلام الرفعة والازدهار من إخوانهم، حتى إذا عم هذا الإصلاح أرجاء واسعة تلاشت تحت أشعته ظلمات الباطل، فكان لهذا الأسلوب من أساليب الهجرة مثل هذه الآثار التي كانت لهجرة النبي ﷺ وأصحابه الأولين.

روى مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه عن أبي عثمان النهدي أن مجاشع بن مسعود السلمي قال: جئت بأخي أبي معبد إلى رسول اللَّه ﷺ بعد الفتح فقلت: يا رسول الله، بايعه على الهجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: "قد مضت الهجرة بأهلها". قال مجاشع: فبأي شيء تبايعه؟ قال: على الإسلام والجهاد والخير. قال أبو عثمان النهدي: فلقيت أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع فقال: صدق.

وفي كتب السنة وبعضه في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد بن ناقد الأنصاري أن النبي ﷺ قال: "المهاجر من هجر السيئات". فإلى الهجرة أيها المسلمون، إلى هجر الخطايا والذنوب إلى هجر ما يخالف تعاليم الإسلام في بيوتنا، وما نقوم به من أعمالنا، إلى هجر الضعف والبطالة والإهمال والترف والكذب والرياء ووضع الأشياء في غير موضعها. {من إلهامات الهجرة: ص١١- ١٤}

فهل تأخذ الأمة من دروس الهجرة زادًا إيمانيًا تستعيد به مجدها المفقود، وهل نسترد دور الهجرة في حياتنا لنستأنف دورنا المنشود في قيادة البشرية من جديد، هذا ما نأمله ونرجوه.

نسأل الله أن يوفقنا لسلوك سبيل المؤمنين، وأن يعز الله بنا الدين كما أعزه بالســـابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين، وأن يجمعنا بهم مع سيد الأولين والآخرين يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الرسول ﷺ في المدينة

كانت يثرب قبل الهجرة تموج بالصراعات والحروب والدسائس، فنار العداوة مشتعلة بين قبيلتي الأوس والخزرج، والحرب بينهما سجال، فإذا انتصر أحدهما عمل الآخر بكل طاقته على إلحاق الهزيمة به، حتى في الرجال، وترملت النساء وتيتم الأبناء، وكان اليهود يقفون خلف الستار، يزيدون النار اشتعالا، فيمدون الطرفين بالسلاح، ويثيرون بينهما العداوات والفتن؛ آملين أن يقضي بعضهم على بعض، حتى تكون لليهود السيادة والكلمة الأولى في المدينة.

واجتمع أهل يثرب على (عبدالله بن أبي بن سلول) لتكون له الكلمة العليا في إدارة المدينة، ولكن الله أراد السلامة للمدينة؛ وأراد لها أن تكون مركز الدولة الإسلامية، فأقبل موكب رسول الله ﷺ على المدينة، فاستقبله أهلها استقبالا عظيمًا؛ وكان أمل كل واحد منهم أن يستضيف الرسول ﷺ في بيته، فكلما مرت الناقة التي تحمل رسول الله ﷺ ببيت، خرج أهل ذلك البيت، وتعلقوا بزمامها، وهم يرجون أن ينزل رسول الله ﷺ عندهم، فكان يقول لهم: (دعوا الناقة فإنها مأمورة) أي اتركوا الناقة فإنها ستقف وحدها حيث أمرها الله تعالى.

وفي مكان يملكه يتيمان من بني النجار أمام دار أبي أيوب الأنصاري بركت الناقة، فقال صلى الله عليه وسلم: (هذا إن شاء الله المنزل) فحمل أبو أيوب رحل النبي ﷺ إلى بيته. [ابن إسحاق] وإذا بفتيات صغيرات من بني النجار، يخرجن فرحات بمقدم الرسول ﷺ وينشدن:

نَحْنُ جَوارٍ مِن بني النَّجَّار يا حبَّذَا محمدٌ من جَارِ وفي بيت أبي أيوب الأنصاري المكون من طابقين، نزل رسول الله ﷺ في الطابق السفلي، فقال له أبو أيوب: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظِّم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر (اصعد) أنت فكن في الأعلى، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(يا أبا أيوب، إنه لأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في أسفل البيت) _[أحمد].

وهكذا كان الرسول ﷺ لا يثقل على أهل البيت، وكان الصحابي أبو أيوب الأنصاري كريمًا في ضيافته، فإن صنع طعامًا لا يأكل هو زوجته إلا بعد أن يأكل رسول الله ﷺ منه أولا، ثم يأكلان من موضع أصابعه حبًّا فيه وطلبًا لبركته.

بناء المسجد:

عاش المسلمون في المدينة حياة آمنة مطمئنة، يغشاها الهدوء والسكينة، ورسول الله ﷺ بينهم في وطنهم الجديد، لقد أصبحت لهم دولة دينها الإسلام، وقائدها الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان أول ما فكر فيه الرسول ﷺ هو بناء مسجد يجتمعون فيه، فيؤدون فيه صلاتهم، ويقضون أمورهم، ويتشاورون فيما يخصهم، فاشترى ﷺ الموضع الذي بركت فيه الناقة؛ ليبني فيه المسجد.

وتجمع المسلمون لبناء المسجد، ورسول الله ﷺ معهم، ينظف المكان، ويحمل معهم الطوب، ويشارك في البناء، فهذا يقطع النخيل، وهذا يحفر أماكن الأعمدة، وذاك يقيم الجدار، وآخر يعد الطين، وهذا يحمل الطوب، كلهم ينشدون:

لَئِنْ قَعَدنا والنبي يَعمَل لَذَاك منَّا العملُ المضَلَّلُ وينشدون أيضًا::

لا عَيْشَ إلا عيشُ الآخِرَة اللَّهُمَّ فارحَمِ الأنْصَارَ والمهاجِرَة

ومن المسجد بدأ رسول الله ﷺ ينظم دولته، وكان أهم شيء في هذه الدولة هم الأفراد الذين يعيشون فيها؛ لأنها تنهض بهم وتعتمد عليهم، فكان المسلمون في المدينة عندئذ قسمين:

-المهاجرون، وهم أهل مكة الذين هاجروا بدينهم إلى المدينة.

-الأنصار، وهم أهل المدينة الأصليون، الذين اعتنقوا الإسلام، واستضافوا المسلمين في بلدهم، ونصروا الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي بداية الهجرة كان المهاجرون في المدينة يعانون من الوحشة والإحساس بالغربة، فحياة المدينة وجَوُّها يختلفان عن مكة، مما جعل أكثرهم يتعرض للمرض، فتوجه رسول الله ﷺ إلى ربه ودعاه أن يحبب المدينة إلى قلوب المهاجرين، وأن يزيل

مرض الحمى عنهم، فاستجاب الله تعالى لنبيه وحبَّبَ إلى المهاجرين العيش في المدينة، وصاروا يتحركون في شوارعها، وسوقها بحماس ومرح كأنهم ولدوا ونشئوا فيها.

الصلح بن الأوس والخزرج:

وكان الأنصار قبيلتين كبيرتين: الأوس، والخزرج، وكانت الحروب لا تنقطع بينهما قبل أن يعتنقوا الإسلام، فصالح الرسول ﷺ بينهما، ونزع الله من قلوبهم العداوة والكراهية، وحل محلها الحب والمودة والوئام.

المؤاخاة:

والآن بعد أن استقر المهاجرون، وصلح حال الأنصار، بقي أن يندمجوا سويًّا فيصبحوا أخوة مسلمين، فلا فرق بين مهاجر وأنصاري، لذلك آخى رسول الله ﷺ بينهم فجعل لكل مهاجر أخًا من الأنصار، فأبو بكر الصديق أخ لخارجة بن زهير، وعمر بن الخطاب أخ لعتبان بن مالك، وعبد الرحمن بن عوف أخ لسعد بن الربيع، ولم تكن الأخوة مجرد كلمة تقال، بل طبقها المسلمون تطبيقًا فعليًّا فهذا سعد بن الربيع الأنصاري يأخذ أخاه

عبد الرحمن بن عوف، ويعرض عليه أن يعطيه نصف ما يملك، ولكن عبد الرحمن بن عوف يشكره ويقول له: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دُلَّني على السوق، وذهب عبدالرحمن إليه فربح وأكل من عمل يده. _[البخاري].

ولم يقتصر ذلك على سعد بن الربيع بل فعله كثير من الصحابة حتى إنه كان يرث بعضهم بعضًا بناءً على هذه الإخوة، فيرث المهاجر أخاه الأنصاري، ويرث الأنصاري أخاه المهاجر، وظلوا على ذلك حتى جعل الله التوارث بين ذوي الأرحام، وقد أثنى الله -عز وجل- على المهاجرين والأنصار، فقال تعالى: {للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على

أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} _[الحشر: ٨-٩].

وجمعهم الله سبحانه في آية واحدة، فقال تعالى: {والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم مغفرة ورزق كريم} [الأنفال: ٧٤] وفي هذا المجتمع الآمن المستقر، حيث يحب كل مسلم أخاه، أخذ رسول الله ﷺ يعلم أصحابه أمور دينهم فيدعوهم إلى كل خير، وينهاهم عن كل شر، وهم ينفذون ذلك راضين سعداء بهداية الله لهم، ووجود رسول الله ﷺ بينهم، وبدأ الناس يتوافدون إلى المدينة، معلنين إسلامهم وانضمامهم لهذه الدولة المنظمة.

اليهود في المدينة:

وكان يسكن مع المسلمين في المدينة اليهود وبعض المشركين الذين يحقدون على الإسلام، ويكرهون قيام دولته، لذلك وضع الرسول ﷺ معاهدة تنظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم حتى يأمن مكر الكفار، وهذه بعض المبادئ التي احتوتها المعاهدة:

١-المهاجرون والأنصار أمة من دون الناس يتعاونون فيما بينهم، وهم يد واحدة على من عاداهم.

٢-دماؤهم محفوظة، فلا يقتل مؤمن مؤمنًا، ولا ينصر مؤمن كافرًا على أخيه المؤمن.

٣-لليهود حريتهم الدينية فلا يُجبرون على الإسلام.

٤-اليهود الذين يسكنون المدينة يشاركون في الدفاع عنها، ولا يعينون أعداء الإسلام، ولا ينصرونهم.

٥-كل ظالم أو آثم أو متهاون خائن لا ينفذ ما في هذا العهد عليه اللعنة والغضب، ويقوم الآخرون بحربه.

٦-إذا حدث خلاف في أي أمر، فإن الحكم هو كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وهكذا وضَّح الرسول ﷺ حقوق كل طائفة في المدينة وواجباتها، ورسم المنهج الذي يتعاملون به بكل أمانة وعدل، فلم يظلم اليهود بل حفظ لهم حقوقهم، ورغم ذلك أظهر اليهود وجههم القبيح، وكراهيتهم للرسول ﷺ رغم علمهم أنه صادق، واتضح ذلك في موقفهم من عبدالله بن سلام عندما أسلم.

فقد كان عبد الله بن سلام من علماء اليهود، ومن ساداتهم، فلما أسلم كتم إسلامه، ولم يخبر اليهود، وطلب من النبي ﷺ أن يسألهم عنه أولاً، فبعث رسول الله ﷺ إليهم فقال: (أي رجل فيكم ابن سلام؟) قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال: (أفرأيتم إن أسلم؟) فقالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يابن سلام، اخرج عليهم) فخرج فقال لهم: (يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق) فقالوا: كذبت. [البخاري].

وهكذا كانت عداوة اليهود للنبي ﷺ وللمسلمين واضحة منذ أول يوم في المدينة رغم أنهم يعرفون أنه رسول الله حقًّا وصدقًا، وقد اشتدوا في تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإظهار حقدهم عليه عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وظهرت سفاهة عقولهم واضحة حين تشاوروا فيما بينهم، واتفقوا أن يؤمنوا بدين الله أول النهار، ويكفروا في آخره حتى يسعى الناس إلى تقليدهم، والسير على خطاهم، ولكن الله فضحهم بكفرهم في كتابه الحكيم، وأظهر حقدهم على المسلمين بعد تآلف قلوب أهل المدينة من الأوس والخزرج، وسعيهم إلى الوقيعة فيما بينهم، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك.

زواج الرسول ﷺ من السيدة عائشة:

وبعد ثمانية أشهر من الهجرة كان الرسول ﷺ قد أنهى بناء المسجد، واستقر المسلمون في المدينة، فأتم الرسول ﷺ زواجه بالسيدة عائشة ودخل بها، وكان قد عقد عليها قبل الهجرة، وكان الرسول

ﷺ بعد زواجه منها يقدرها، ويفضلها، فعن عمرو بن العاص قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال: (عائشة) قلت: ومن الرجال؟ قال: (أبوها) _[الترمذي].

بناء المسجد النبوي

(الشبكة الإسلامية) الدكتور / أكرم ضياء العمري

إن المساجد في الإسلام لها شأن عظيم، ومكانة رفيعة، ففيها يعبد الله تعالى ويذكر فيها اسمه، { في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح لها فيها بالغدو والآصال رجال...} (النور : ٣٦)، ولم يكن هديه ﷺ في المسجد قاصرا على الصلاة فحسب، بل كما كان مكان للعبادة فهو مكان للحكم والقضاء، وإدارة الدولة وسياستها، وتجييش الجيوش وغير ذلك من المهام . ولما كان المسجد بهذه المكانة فأول أمر بدأ به النبي ﷺ بعد وصوله المدينة بناء المسجد وهذا ما سنقف عليه في المقال التالي:

كان رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة المنورة يصلي حيث أدركته الصلاة ، ثم أمر ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين ، من بني النجار ، وقد أشترها رسول الله ﷺ ، وقام المسلمون بتسويتها ، وقطع نخيلها ، وصفوا الحجارة في قبلة المسجد التي كانت تتجه نحو بيت المقدس آنذاك ، وما أعظم سرورهم وهم يعملون في بنائه ، ورسول الله ﷺ يعمل معهم ، وهم يرتجزون .

وكانت سواريه من جذوع النخل وأعلاه مظلل بجريد النخل ، ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين . ثم أعيد بناء المسجد سنة ٧هـ حيث اشترك في بنائه أبو هريرة ، و طلق بن علي الحنفي ــ أسلما سنة ٧هـ وقد جرت توسعة المسجد عند إعادة بنائه هذه.

وقد حدد النبي ﷺ موقع المنبر : وبنى بيوت أزواجه بحيث تحد المسجد من جهة الشمال والشرق والجنوب ،وتحدد موقع مصلاه بدقة حيث اتخذ محرابا من بعده ، وكانت ثمة اسطوانة تحدد موقعه ، وصارت تمسى باسطوانة المخلفَّة والقرعة ، وهي الآن في ظهر المحراب القديم ، وقد وضع المصحف في صندوق عند هذه الاسطوانة في جيل الصحابة ، وعرف المكان ما بين بيت عائشة رضي الله عنها والمنبر باسم "

الروضة ". و تحددت في زمنه ﷺ اسطوانة التوبة داخل الروضة ، وهي الاسطوانة الرابعة شرق المنبر ، وكان مصلى العيد في زمنه ﷺ في موقع مسجد الغمامة اليوم ، وكان ما بينه وبين المسجد النبوي مبلطا بالحجارة ويعرف بالبلاط حيث بنى كثير من المهاجرين بيوتهم في جهته. ولم يوقد في حياته ﷺ في المسجد قنديل ، ولا بسط فيه حصير .

وللمسجد أهمية عظيمة في المجتمع الإسلامي ، فهم يجتمعون فيه للصلاة خمس أوقات كل يوم يتقربون إلى الله بالعبادة ، ويتعرفون على أحوال إخوانهم ويتعاونون على البر والتقوى . ثم إن المسجد كان مركزا للقضاء بين الناس ومنطلقا لقوافل الجهاد حيث يعلن فيه النفير .

وقد احتل المسجد مكاناً هاماً في تعليم المسلمين وتثقيفهم ، وتلاوة ما ينزل من قرآن ، وقد جلس فيه معلمون لتعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

وهكذا تنوع النشاط الذي احتضنه المسجد النبوي ما بين عبادة وعلم وخدمة اجتماعية وثقافية وعسكرية ، كما صار المسجد النبوي بالمدينة مناراً ومرشدا ومعلما بارزا في الحياة الإسلامية ، وتابعته المساجد الأخرى التي بنيت في المدن والأمصار الإسلامية على مر العصور.

من نتائج الهجرة قيام الدولة الإسلامية

(الشبكة الإسلامية) الدكتور / أكرم ضياء العمري

لقد تغلب المهاجرون إلى المشكلات العديدة ، واستقروا في الأرض الجديدة ، مغلبين مصالح العقيدة ومتطلبات الدعوة، بل صارت الهجرة واجبة على كل مسلم لنصرة النبي ﷺ ، ومواساته بالنفس، حتى كان فتح مكة فأوقفت الهجرة، لأن سبب الهجرة ومشروعيتها نصرة الدين وخوف الفتنة من الكافرين . وأبرز نتائج الهجرة تتمثل في قيام الدولة الإسلامية الأولى، وهي أول دولة أقامها نبي في الأرض ، وذلك لأن دين الإسلام يجمع ما بين العبادة والتشريع والحكم .

وقد هيأت الهجرة الأمة والأرض لإقامة دولة نموذجية تهدف إلى إيجاد ظروف ملائمة لتحقيق العبودية الخالصة لله وحده ، ولبناء مجتمع تسوده الأخوة الدينية وينأى عن العصبية الجاهلية ، وكانت طاعة الله ورسوله هي الوسيلة لبناء المجتمع والدولة على أسس جديدة . وفيما يلي توضيح لنتائج الهجرة وقيام الدولة الإسلامية.

من أسس الدولة :

أ- تحقيق العبودية الخالصة لله وحده .

أحدث الإسلام نقلة عميقة وشاملة في عالم العقيدة ، فلم يعد ثمة مجال لعبادة الأصنام والكواكب والأوهام ، ولا لممارسة السحر والكهانة ، ولا للتشبث بالتمائم والرقى ، بل اتجه سكان الدولة الإسلامية إلى توحيد الله في التصور والعبادة والسلوك ، فالله واحد { وإلهكم إله واحد } (البقرة: من الآية١٦٣) وهو { لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار } (الأنعام: من الآية١٠٣) ولا يشبه شيئاً من المخلوقات ، وقد وصف نفسه بصفات السمع والبصر والعلم والحياة وغيرها من الصفات التي وردت في القرآن والسنة ؛ لكن هذه الصفات لا تماثل صفات المخلوقين{ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } (الشورى: من الآية١١) .

وأحدث الإسلام انقلاباً جذرياً في حياة الفرد والجماعة ، بحيث تغيّر سلوك الأفراد اليومي وعاداتهم المتأصلة تغيراً كلياً ، كما تغيرت مقاييسهم وأحكامهم ونظرتهم إلى الكون والحياة . وكذلك تغيرت بنية المجتمع بصورة واضحة ، فاختلفت مظاهر وصور ، وبرزت معالم وظواهر جديدة . فالنقلة كبيرة بين ما كان عليه الإنسان في جاهليته ، وما صار إليه في إسلامه . إذ لم يعد العربي متفلتاً من الضوابط في معاملاته وعلاقاته الاجتماعية ، بل صار منضبطاً بضوابط الشريعة الإسلامية في جزئيات حياته من أخلاق وعادات كالنوم والاستيقاظ ، والطعام والشراب ، والزواج والطلاق ، والبيع والشراء ، ولا شك أن العادات تتحكم في الإنسان ، ويصعب عليه التخلص منها واكتساب عادات وصفات جديدة ، ولكن ما ولّده الإسلام في أنفسهم من إيمان عميق مكّنهم من الانخلاع من الشخصية الجاهلية بكل ملامحها واكتساب الشخصية الإسلامية بكل مقوماتها ، فاعتادوا على عبادة الله تعالى وحده ، بالصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد ، وقصده بكل أعمال الخير الأخرى ، والتقرب إليه بالذكر والشكر ، والصبر على البلوى ، والإنابة إليه ، والدعاء إليه ، والرغبة في فضله ورحمته ، وامتلاء القلب بالتوحيد والإخلاص والرجاء .

واعتادوا أيضاً على استحضار النية لله في نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ؛ لان العبادة في الإسلام مفهومها واسع يمتد لكل عمل يقوم به الإنسان إذا قصد به وجه الله وطاعته . وإلى جانب الاعتياد على الطاعات ، فإن المسلمين تخلصوا من العادات المتأصلة التي نهى عنها الإسلام كشرب الخمر و الأنكحة الجاهلية والربا ومنكرات الأخلاق من الكذب والخيانة والغش والغيبة والحسد والكبر والظلم ... وهكذا فإن الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله ﷺ في المدينة كونت مجتمعاً ربانياً يسعى أفراده في العمران الأدبي والمادي للأرض ويتطلعون إلى ما عند الله من النعيم المقيم .

ب- الأخوة ووحدة الصف :

إن الأساس الذي بنيت عليه العلاقات في مجتمع الدولة الإسلامية هو الاخوة الإيمانية التي حددتها الآية الكريمة { إنما المؤمنون إخوة } (الحجرات: من الآية١٠) ،
فالأخوة الصادقة لا تكون إلا بين المؤمنين ، وهم يقفون صفاً واحداً للجهاد في سبيل الله ولبناء قوة الدولة العسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، وذلك برص صفوفهم ، والتعاون فيما بينهم ، وشيوع المحبة والألفة في مجتمعهم . قال تعالى: { إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص } (الصف:٤)
ج- الطاعة بالمعروف في المنشط والمكره :
اتسم جيل الصحابة رضوان الله عليهم بالطاعة الكاملة لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ ، فقد كانوا يقرؤون القرآن وكأنه ينزل على كل واحد منهم – رجلاً كان أم امرأة – غضاً طرياً ، وكانت لغة التخاطب بينهم هي الفصحى التي نزل بها القرآن ، وقد أعانهم ذلك على فهم الخطاب الإلهي بسهولة ويسر ، كما ولّد الأثر القوي في نفوسهم ، وسرعة الاستجابة التامة لتعاليمه وأحكامه . فكان جيل الصحابة قادراً على التخلص من عادات الجاهلية وتقاليدها وأعرافها ، حتى لو كانت العادات قد استقرت منذ قرون ، وصارت عرفاً مشروعاً وتقليداً مقبولاً . فمن ذلك أنه لما نزل قول الله تعالى { يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون } (المائدة:٩٠).
خرجت الأنصار بدنان الخمر إلى الأزقة وأراقوها وقالوا : انتهينا ربنا انتهينا ربنا . وشرب الخمر الذي أقلعوا عنه كان عادة متأصلة في حياة الفرد والمجتمع ، والخمر الذي أراقوه كان مالاً ضحوا به تسليما لله رب العالمين .
ومن ذلك أن قوماً من المسلمين وفدوا على رسول الله صلى الله عيه وسلم في أول النهار ، فإذا هم عراة حفاة يلبسون أكسية الصوف وعليهم السيوف ،
فتغيّر وجه الرسول ﷺ إشفاقا عليهم ، وجمع الناس ، وحثّهم على الصدقة ، وقرأ عليهم الآيات في ذلك ومنها { اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد } (الحشر: من الآية١٨) فتتابع الناس حتى جمعوا كومين من طعام وثياب ، فتهلّل وجه الرسول ﷺ

فرحاً بمبادرة الصحابة إلى معونة إخوانهم وطاعة ربهم وكذلك بادرت الصحابيات إلى طاعة أمر الله تعالى ، قالت عائشة رضي الله عنها : "يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله { وليضربن بخمرهن على جيوبهن } (النور ٣١) شققن مروطهنّ فاختمرن به" رواه البخاري .

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يلتزمون بالبيعة لرسول الله ﷺ ثم للخلفاء الراشدين من بعده ، وكان للبيعة قيمة عالية ، فهي التزام حرّ ، وتعاقد بين الطرفين ، وقد دلّوا دائما على صدق التزامهم فلبّوا داعي الجهاد ، وخاضوا غمار المعارك في أماكن نائية عن ديارهم ، ودفن كثير منهم في أطراف الأرض ، وما عرفوا القعود عن الجهاد ، والحفاظ على الكرامة ' والذود عن العقيدة . فجزاهم الله عن هذه الامة وهذا الدين خير الجزاء، وسلك بنا سبيلهم، وحشرنا في زمرتهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

(الشبكة الإسلامية)

لو لم يُشر القرآن الكريم إلى قصّة المؤاخاة التي تمّت بين المهاجرين والأنصار ، ولو لم تأتِ النصوص النبويّة الصحيحة والشواهد التاريخيّة الموثّقة لتؤكّد هذه الحادثة ، لقلنا إنها قصّةٌ من نسج الخيال ، وذلك لأن مشاهدها وأحداثها فاقت كلّ تصوّر ، وانتقلت بعالم المثال والنظريات إلى أرض الواقع والتطبيق ، وفي ظلّها قدّم الصحابة الكثير من صور التفاني والتضحية على نحوٍ لم يحدث في تاريخ أمّةٍ من الأمم ، مما يجعلنا بحاجة إلى أن نقف أمام هذا الحدث نتأمّل دروسه ، ونستلهم عبره .

تبدأ القصّة عندما خرج المهاجرون من مكّة المكرّمة ، ليصلوا إلى أرضٍ جديدة وواقعٍ مختلف ، وكان من أثر هذه الرحلة نشوء عدد من المشكلات الجديدة ، ليس أقلّها : الشعور بالغربة ومفارقة الأهل والديار ، وترك معظم الأموال والممتلكات في مكّة ، وطبيعة الوضع المعيشي والاقتصادي الجديد ، أضف إلى ذلك الآثار الصحيّة والبدنيّة التي أحدثها الانتقال المفاجيء إلى بيئةٍ أخرى ، مما أدّى إلى ظهور الأمراض في صفوفهم كالحمّى وغيرها .

كل هذه الظروف تجمّعت لتشكّل ضغوطاً نفسية كبيرة ، كان لا بدّ معها من حلولٍ عمليّةٍ سريعةٍ تعوّضهم ما فقدوه في غربتهم ، وتعيد لهم كرامتهم ، وتُشعرهم بأنّهم لن يكونوا عبأً على إخوانهم الأنصار .

فكان أوّل عملٍ قام به النبي – ﷺ – بعد بناء المسجد تشريع نظام المؤاخاة ، والتي تمّ إعلانها في دار أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهي رابطة تجمع بين المهاجريّ والأنصاريّ ، تقوم على أساس العقيدة ، وتوثّق مشاعر الحب والمودّة ، والنصرة والحماية ، والمواساة بالمال والمتاع .

وهذه المؤاخاة أخصّ من الأخوّة العامة بين المؤمنين جميعاً ، وذلك لأنها أعطت للمتآخيين الحقّ في التوارث دون أن يكون بينهما صلةٍ من قرابة أو رحم ، كما في

قوله تعالى : { ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم } (النساء : ٣٣)

وقد استمرّ العمل بقضيّة التوارث زمناً ، حتى استطاع المهاجرون أن يألفوا المدينة ويندمجوا في المجتمع ، وفتح الله لهم أبواب الخير من غنائم الحرب وغيرها ما أغناهم عن الآخرين ، فنسخ الله تعالى العمل بهذا الحكم ، وأرجع نظام الإرث إلى ما كان عليه ، وذلك في قوله تعالى : { وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله } (الأنفال : ٧٥) ، مع بقاء العمل بالنصرة ، وتبادل العطايا ، وإسداء المشورة والنصيحة ، وغيرها من معاني الأخوة .

وتذكر لنا مصادر السيرة أسماء بعض الذين آخى بينهم النبي – ﷺ – ، فقد آخى بين أبي بكر و خارجة بن زهير ، وآخى بين عمر بن الخطاب و عتبان بن مالك ، وبين أبي عبيدة بن الجراح و سعد بن معاذ ، وبين الزبير بن العوام و سلامة بن سلامة بن وقش ، وبين طلحة بن عبيد الله و كعب بن مالك ، وبين مصعب بن عمير و أبو أيوب خالد بن زيد رضي الله عنهم أجمعين ، وأسماء أخرى بلغت تسعين صحابيّاً .

وعند مراجعة أسماء هؤلاء الصحابة ، نجد أن تلك المؤاخاة لم تُقم وزناً للاعتبارات القبلية أو الفوارق الطبقية ، حيث جمعت بين القوي والضعيف ، والغني والفقير ، والأبيض والأسود ، والحرّ والعبد ، وبذلك استطاعت هذه الأخوّة أن تنتصر على العصبيّة للقبيلة أو الجنس أو الأرض ، لتحلّ محلّها الرابطة الإيمانيّة ، والأخوّة الدينيّة وقد سجّل التاريخ العديد من المواقف المشرقة التي نشأت في ظلّ هذه الأخوة ، ومن ذلك ما حصل بين عبدالرحمن بن عوف و سعد بن الربيع رضي الله عنهما ، حيث عرض سعد على أخيه نصف ماله ليأخذه ، بل خيّره بين إحدى زوجتيه كي يطلّقها لأجله ، فشكر له عبد الرحمن صنيعه وأثنى على كرمه ، ثم طلب منه أن يدلّه على أسواق المدينة ، ولم يمرّ وقتٌ قصير حتى استطاع عبدالرحمن بن عوف أن يكون من أصحاب المال والثراء .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل إن كثيراً من الأنصار عرضوا على النبي – ﷺ – أن يقسم الأراضي الزراعيّة بينهم وبين إخوانهم من المهاجرين ، ولكنّ النبي – ﷺ – أراد أن تقوم هذه المواساة دونما إضرارٍ بأملاكهم ، فأشار عليهم بأن يحتفظوا بأراضيهم مع إشراك إخوانهم المهاجرين في الحصاد ، وقد أورث صنيعهم هذا مشاعر الإعجاب في نفوس المهاجرين ، حتى إنهم قالوا للنبي – ﷺ – : يا رسول الله ما رأينا قوما قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلا في كثير منهم ، لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلّه " ، كما كانت تضحياتهم ومواقفهم النبيلة سبباً في مدح الله لهم بقوله : { والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون } (الحشر : ٩) .

وقد حفظ النبي – ﷺ – هذا الفضل للأنصار ، فمدحهم بقوله : (لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً ، لسلكت في وادي الأنصار) رواه البخاري ، وبيّن حبه لهم بقوله (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق ؛ فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله) رواه البخاري ، ودعا لأولادهم وذرياتهم بالصلاح فقال : (اللهم اغفر للأنصار ، ولأبناء الأنصار، ولأزواج الأنصار ، ولذراري الأنصار) رواه أحمد ، وآثر الجلوس بينهم طيلة حياته فقال : (لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار) رواه البخاري .

وبهذا نستطيع أن نلمس عظمة هذا الجيل الذي تربّى على يد النبي – ﷺ – ، عندما كانت الأخوة الإيمانيّة هي الأساس لعلاقاتهم ، فما أحوجنا إلى أن نتّخذ هذا المجتمع الفريد قدوة لنا في تعاملنا وعلاقاتنا .

صحيفة المدينة

(الشبكة الإسلامية)

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وإقامة قواعد المجتمع الإسلامي، كان من الضروري تنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل المدينة، من أجل توفير الأمن والسلام للناس جميعا، لذا كانت هذه الوثيقة لتنظيم العلاقة بين المسلمين من جهة، وتنظيمها كذلك مع من جاورهم من القبائل من جهة أخرى، وبما أن قبائل اليهود كانت أكثر القبائل حضوراً في المدينة فقد جاءت أغلب بنود تلك الوثيقة متعلقة بتنظيم العلاقة معهم.

وبتتبع بنود الوثيقة نجد أنها تضمنت بنوداً خاصة للمؤمنين بين المهاجرين والأنصار، وبنوداً خاصة لليهود تتعلق فيما بينهم وبين والمؤمنين، وبنوداً عامة تشمل الجميع:

أولاً: ما جاء من البنود في حق المؤمنين :-

١- (المؤمنون أمة واحدة من دون الناس) وهذا البند يشمل المؤمنين جميعهم مهاجريهم وأنصارهم، ومن تبعهم ممن لحق بهم وجاهد معهم، وأنهم أمة واحدة من دون الناس قد جمعتهم رابطة العقيدة، فاتحدت قبلتهم ووجهتهم وولاءهم مما يعني إلغاء الروابط والعصبيات وذوبان جميع الفوارق التي تحول دون تحقيق هذه الوحدة الشاملة.

٢- (كل فريق من المؤمنين على ربعتهم –أي الحال التي جاء الإسلام وهم عليها– يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم –أسيرهم– بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا –المثقل بالديون– بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل). وهذا البند يقرر مبدأ التكافل الاجتماعي بين المؤمنين بأن يعينوا الضعفاء ويساعدوا المحتاجين.

٣- ومن البنود الهامة: (أن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان

ولد أحدهم). وهذا البند يحتم على المؤمنين نصرة المظلومين والأخذ على يد البغـــاة والمفسدين، ومعنى قوله (دسيعة ظلم) أي طلب عطية من دون حق، وجاء تخصيص المتقين في هذا البند لأنهم أحرص الناس على تنفيذ الشريعة من غيرهم.

٤- (لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن). وفي هذا البند تأكيد على الترابط بين المؤمنين وموالاة بعضهم لبعض، وفيه دليل على أن دم الكـــافر لا يكافئ دم المؤمن.

ثانيا: البنود المتعلقة باليهود فيما بينهم وبين المؤمنين :-

٥- (ينفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين). وهو يتعلق بدفع قسط من نفقـــات الحرب الدفاعية عن المدينة.

٦- (أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وأن لبقية اليهود من بني النجار وغيرهم ماليهود بني عوف، إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه) .وهذا البند يحدد العلاقة بين اليهود وبين الفئة المؤمنة، ويعتبرهم جزءاً من مواطني الدولة الإسلامية، ويكفل لهم حريتهم الدينية ما دامـــوا قـــائمين بالواجبـــات المترتبة عليهم.

٧- (لا تُجار قريش ولا من ناصرها) وهو يختص بالتعامل بين اليهود والمشركين، وعدم السماح لهم بمخالفة قريش وغيرها من القبائل المعادية للإسلام.

٨- (لا يخرج من يهود أحد إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم) وبموجب هذا البند يمنع اليهود من القيام بأي نشاط عسكري ضد المؤمنين، خارج عن نطاق وحدود المدينة، مما قد يؤثر على أمن المدينة واقتصادها.

٩- (إن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصـــر علـــى مـــن حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصر للمظلوم).

ثالثاً: البنود العامة :

١٠- (أن ما يحدث بين أهل الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله جل وعلا وإلى محمد صلى الله عليه وسلم) وهذا البند يقرر المرجعية العليا في الأمور والقضايا بالمدينة، منعاً لقيام أي اضطرابات في الداخل.

١١- (إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة) والحرم هو ما لا يحل انتهاكه، فلا يقطع شجره ولا يقتل صيدها، فهذا البند يحدد حرم المدينة، ويضمن الأمن فيها، ويضع حداً للاضطرابات والمشاكل التي تهدد السلم والأمان.

وبنود هذه الصحيفة مبنية على نصوص ثابتة، وقواعد شرعية، ومصالح معتبرة، منها قوله تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين } (الممتحنة:٨). وقوله صلى الله عليه وسلم: (المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده) رواه الإمام أحمد و أبو داود وصححه الألباني .

والمتأمل في بنود هذه الوثيقة يدرك مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ لليهود، وإسقاط كل الاعتبارات الطبقية والجاهلية، وترسيخ المبادئ الإسلامية، كما أنها اشتملت جميع ما تحتاجه الدولة، من مقوماتها الدستورية والإدارية، وعلاقة الأفراد بالدولة، وعلاقة بعضهم ببعض.

ولقد كان بالإمكان أن تؤتي هذه الوثيقة ثمارها مع اليهود لولا طبيعة الغدر والخيانة فيهم، حيث سلك اليهود وسائل عدة ومتنوعة للكيد برسول الله ﷺ والذين آمنوا معه، وهدم دعائم الدين الإسلامي، إلا أن وسائلهم التي اتخذوها باءت بالفشل، والسبب يرجع إلى حكمة النبي صلى الله عليه وسلم، وحنكته في إدارة شؤون الدولة.

مقدمة الهجرة من مكة إلى المدينة

حرم مشركو مكة الخير كله منذ جحدوا الرسالة، وقعدوا بكل صراط يوعدون، ويصدون عن سبيل الله من آمن به، ويبغونها عوجا.

ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام، فإن الحق لابدّ أن يعلو، وأن يثوب إليه المضلَّلون والمخدوعون على شرط أن يظل أهله أوفياء له، حراصاً عليه، صابرين محتسبين.

وقد قيض الله للإسلام من استنقذه من البيئة التي صادرته، فأنس بعد وحشة، واستوطن بعد غربة، وشق طريقه في الحياة، بعد أن زالت الجلامد الصلدة الملقاة في مجراه.

وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من "يثرب" إلى مكة في موسم الحج..

كان أهل يثرب يمتازون عن سائر العرب بجوارهم لليهود، وإلفهم عقيدة التوحيد. وربما حاورهم اليهود في شؤون الأديان، ونَعوا عليهم عبادة الأوثان فإذا اشتد الجدل وطالت اللجاجة قال لهم اليهود: يوشك أن يبعث الله نبياً فنتبعه؛ ونقتلكم معه قتل عاد وإرم...!!

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبي يوم ظهر فيهم واقترب منهم، ولذلك ندَّد القرآن بمسلكهم المتناقض:

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}.

أما العرب الأميون الذين هُدِّدوا بمبعثه، فقد فتحوا مسامعهم له!

فعندما وافى الموسم وقدمت قبائل "يثرب" ورأوا الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) يدعو الناس إلى الله، قال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم أن هذا الذي تَوَعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه..

وأخذ ذكر الإسلام يشيع في المدينة رويداً رويداً؛ فإن لم يستقبل بترحيب لم يستقبل بالسباب والحراب.

إن عناصر النفور والمقاومة التي عهدها في "مكة" تحولت -هنا- إلى عناصر احترام وإقبال، ولم تمض ثلاثة أعوام على تسامع الأنصار الجدد بالإسلام حتى أصبحوا كهفه الحصين، وموئله القريب..

٢.٤ فروق بين البلدين مكة والمدينة من الناحية الاقتصادية:

عاشت مكة في بحبوحة من الحياة أمداً طويلاً، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وترجع هذه السعة إلى عاملين: ١-مهارة أهلها التجارية ٢-ومكانة الحرم الدينية، كلا الأمرين أدرَّ عليها أخلاف الخير، فأثرت حتى بطرت، وشبعت حتى أتخمت. ثم عراها ما يعرو كل جماعة تواتيها الحظوظ ويصبغها الترف، من: تكبر، وقسوة، وجحود، فلما ظهر فيها الإسلام، ودعا محمد (صلَّى الله عليه وسلم) إلى الحق، ردت يده في فمه، وأحدقت به وبمن معه، وملكها العناد من أول يوم، وأعلنت أن مركزها -عاصمة للوثنية، ومجمعاً للأصنام. ومثابة للحجيج- سيزول إن هي استمعت إلى هذا الدين، وأمكنته من البقاء.

وحاول الرسول عليه الصلاة والسلام -جاهداً- أن يقنع أهل مكة بأن قبولهم للحق لن يحرمهم ذرة من الخير الذي متعوا به، فأبى الظالمون إلا كفوراً.

{وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

ومن هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام، اعتبروها دفاعاً عن كيانهم المادي ووضعهم الإقتصادي، إلى جانب ما هنالك من عوامل أخرى. وهذه الحروب معروفة النتائج:

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}.

أما الأمر في "يثرب" فكان على النقيض، إن الشحناء المتأصلة بين أهليها استنزفت دماءهم، وقطعت شملهم، وشغلت بعضهم بالبعض، حتى أوصلتهم الحروب الدائمة إلى درك أسف له العقلاء، وتمنّوا الإنقاذ منه. كان "الأوس" و"الخزرج" –وهم في الأصل قرابة واحدة– يعانون في "يثرب" آثار هذا الخصام العنيف، ويورثونه أبناءهم؛ حتى يشبوا –وهم في مهادهم– أعداء! والذي وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود.

٣.٤ صنع اليهود في المدينة وفتنهم فيها:

واليهود الذين استقروا في المدينة وأرباضها هبطوا صحراء الجزيرة فارين بدينهم من الاضطهاد الصليبي الذي عمل –من قديم– على تنصيرهم أو إفنائهم، ذلك لأن رأي اليهود في عيسى وأمه شنيع.

والنصارى يعتقدون أن اليهود هم قتلة عيسى، والموعزون بصلبه!!.

ولا شك أن اليهود شعب نشيط، وأنهم –حيث حلّوا– يبذلون جهوداً مذكورة للسيطرة على زمام التوجيه المالي، ولا يبالون بأساليب الختل والمكر لبلوغ أهدافهم، وقد أَلْفَوا أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد، وخشوا أن يفنوا إذا اشتبكوا معهم في صراع سافر. فاحتالوا حتى زرعوا الضغائن بين الأقرباء، وما زالوا بها حتى آتت ثمرها المر ، فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً في سلسلة متصلة من المعارك التي لا مبرر لها، على حين قوي اليهود وتكاثروا، ونمت ثرواتهم، واستحكمت حصونهم، وخيف سطوهم.

وقبل الهجرة ببضع سنين وقعت بين الأوس والخزرج معركة "بُعاث" كان النصر فيها للخزرج ثم عاد للأوس، وبلغ من حدة الخصام بين الفريقين أن كليهما فكر في استئصال الآخر وإبادة خضرائه، لولا أن تدخل أولو النهى بالنصح أن يبقوا على أنفسهم وإخوانهم، فجوارهم أفضل من جوار الثعالب –يعني اليهود–!.

وهذه الفتن المتلاحقة جعلت أهل المدينة عندما ترامت إليهم أنباء الإسلام يؤملون من ورائه الخير. من يدري؟ لعله يجدد حياتهم فيعيد السلام إلى صفوفهم ويهب لهم حياة روحية ترجح بكفتهم على اليهود...

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده لـــه خـــرج رسول الله في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفســـه علـــى قبائـــل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً مـــن الخـــزرج أراد الله بهم خيراً، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لمـــا لقيهم رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخـــزرج . قال: من موالي يهود؟ قالوا نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى ! فجلسوا معه فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن...

قال: فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإســـلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بيـــنهم، وعســـى أن يجمعهم الله بك. فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليـــه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك!!ثم انصرفوا راجعين إلـــى بلادهم، قد آمنوا وصدقوا.

كان أولئك النفر، طليعة الدعاية الموفقة للإسلام في يثرب، وقد أثمرت جهودهم على عجل، فلم تبق دار إلاَّ دخلها الإسلام.

حتى إذا استدار العام، وأقبل موسم الحج، خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا –فيهم الستة الذين كلمهم النبي (صلَّى الله عليه وسلم) في الموســـم الســـابق– وعزموا على الاجتماع برسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) ليوثقوا معه إسلامهم.

٤.٤ بيعة العقبة الأولى بين رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) ونفـــر مـــن مســـلمي المدينة:

وقد لقيهم النبي بالعقبة، وعقد معهم بيعة على الإيمان بالله وحده، والاستمساك بفضائل الأعمال والبعد عن مناكرها.

عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى "أن لا نشـــرك بـــالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريـــه بـــين أيـــدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف".

قال: "فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له. وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة، فأمركم إلى الله. إن شاء عذب، وإن شاء غفر".
هذا ما كان محمد (صلَّى الله عليه وسلم) يدعو إليه، وكانت الجاهلية تنكره عليه.
أيكره هذه العهود إلا مجرم يحب للناس الريبة ويود للأرض الفساد؟؟
أتم وفد الأنصار هذه البيعة ثم قفل عائداً إلى "يثرب"، فرأى النبي أن يبعث معهم أحد الثقات من رجاله، ليتعهد نماء الإسلام في المدينة ، ويقرأ على أهلها القرآن، ويفقههم في الدين، ووقع اختياره على "مصعب بن عمير" ليكون هذا المعلِّم الأمين.
ونجح "مصعب" أيّما نجاح في نشر الإسلام وجمع الناس عليه، واستطاع أن يتخطى الصعاب التي توجد –دائماً– في طريق كل نازح غريب، يحاول أن ينقل الناس من موروثات ألفوها إلى نظام جديد، يشمل الحاضر والمستقبل، ويعم الإيمان والعمل، والخلق والسلوك...
ولا تحسبنَّ "مصعباً" كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الإستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق، فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له: هذه القارورة تقدمها لك العذراء! وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح!
وربما فتح مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة، أو ملجأ ظاهره البر الخالص، ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون، ومال بهم حيث يريد...!!
هذا ضرب من التلصص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين. والذين يمثلون هذه المساخر يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تبعث بهم، فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في البر والبحر والجو.
أما مصعب فكان من ورائه نبيٌّ مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون السائد، وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونهازي الفرص، كل ما لديه ثروة من الكياسة والفطنة، قبسها من محمد (صلَّى الله عليه وسلم)، وإخلاص لله، جعله يضحي بمال أسرته وجاهها في سبيل عقيدته.. ثم هذا القرآن الذي يتأنق في تلاوته، ويتخير من روائعه ما يغزو به الألباب، فإذا الأفئدة ترق له، وتتفتح للدين الجديد.

وعاد "مصعب" إلى رسول الله بمكة قبيل الموسم الحافل، يخبره بما لقي الإسلام من قبول حسن في "يثرب"، ويبشره بأن جموعاً غفيرة دخلت فيه عن اقتناع مسَّ شغافهم، وبصر أنار أفكارهم، وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقر به العين.

٥.٤ بيعة العقبة الكبرى بين محمد (صلَّى الله عليه وسلم) ورجال من الأنصار:

إن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا–دون شك–تاريخه القريب، والصعاب الهائلة التي لقيها، وحز في نفوسهم أن يستضعف إخوانهم في مكة وأن يخرج نبيهم وهو يدعو إلى الله فلا يجيبه إلا آثم أو كفور!.

ولذلك تساءلوا –وهم خارجون من المدينة قاصدين البيت العتيق– حتى متى نترك رسول الله يطوّف ويطرد في جبال مكة ويَخاف؟

لقد بلغ الإيمان أوْجهُ في هذه القلوب الفتية، وآن لها أن تنفِّس عن حماسها، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية.

قال جابر بن عبدالله: فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين، حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال (صلَّى الله عليه وسلم) تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني –إذا قدمت عليكم– مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

فقمنا إليه، وأخذ بيده "أسعد بن زرارة" –وهو أصغر السبعين بعدي، فقال رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف.

فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله!

فقالوا يا "أسعد" أمِطْ عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، فقمنا إليه رجلاً رجلاً فبايعناه.

وعن كعب بن مالك: نمنا تلك الليلة -ليلة العقبة - مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا، نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو بن عدي.

فلما اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)، جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له، فلما جلس كان أول متكلم، قال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك!! وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده...

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك وربك ما أحببت، فتكلم رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

قال كعب: فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: نعم، فوالذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن -والله- أبناء الحروب، ورثناها كابراً عن كابر، فاعترض هذا القول -والبراء يكلم رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال -يعني اليهود- حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا قال: فتبسم رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)، ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم...

وأمرهم رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم النقباء، تسعة من (الخزرج) وثلاثة من (الأوس)،

فقال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام: أنتم على قومكم بما فيهم كفـــلاء ككفالـــة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي.

تلكم بيعة العقبة، وما أبرم فيها من مواثيق، وما دار فيها من محاورات...

إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة قيلت، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملي العهود كلا، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة.

مغانم؟ أين موضوع المغانم في هذه البيعة؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحـــض والبذل الخالص.

هؤلاء السبعون مُثُلٌ لانتشار الإسلام، عن طريق الفكر الحر والاقتناع الخالص...

فقد جاءوا من "يثرب" مؤمنين أشد الإيمان، وملبين داعي التضحية، مع أن معـــرفتهم بالنبي كانت لمحة عابرة؛ غبرت عليها الأيام؛ وكان الظن بها أن تزول.

لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة؛ إنه القرآن!!

لئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لماماً فإن الوحي المشـــع من السماء أضاء لهم الطريق، وأوضح الغاية..

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن، سال على ألسنة الحفاظ وتداولتـــه صـــحائف السفرة الكرام البررة، والقرآن النازل بمكة صوَّر جزاء الآخرة رأي العـــين، فأنـــت توشك أن تمد يدك تقطف من أثمار الجنة، ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم!

وحكى القرآن أخبار الأولين وكيف أخلص المؤمنين لله فنجوا مع رسلهم، وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فتعنتوا وتجبروا، ثم حل العدل الإلهي، فذهب الظالمون بدداً، وتركوا وراءهم دنيا مدبرة، ودوراً خربة.

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم...!!

ثم إن الرسول جعل من هذا الإيمان بالحق رباطاً يعقد من تلقاء نفسه صـــلة الحـــب والتناصر بين أشتات المؤمنين في المشرق والمغرب.

فالمسلم في المدينة –وإن لم يرَ أخاه المستضعف في مكة – يحنو عليه، ويتعصب له، ويغضب من ظالمه، ويقاتل دونه، وذلك ما استقدم الأنصار من يثرب تجيش في حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبوهم بالغيب في ذات الله.

عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله قال: يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا، واعلموا أن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله. فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي (صلَّى الله عليه وسلم)، فقال يا رسول الله: ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله!! انعتهم لنا، حلِّهم لنا –يعني صفهم لنا– فسر وجه النبي بسؤال الأعرابي وقال: هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسون عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

الإيمان بالله، والحب فيه، والأخوة في دينه، والتناصر باسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم، وسوف يمنعونه بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء.

إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه، وأرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم، فناموا نومة المجرم الذي اغترف الإثم وأمن القصاص.

حسنّت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

أجل، ففي هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء.

واستمع شيطان من المشركين كان يجول في مضارب الخيام ومنازل الحجيج إلى الضجة المنبعثة قريباً من العقبة ، واستطاع أن يقف على جلية الخبر، فصرخ ينذر أهل مكة : "إن محمداً والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم.."!!

وكان صوته جهيراً يوقظ النيام.

وشعر المبايعون كأن ائتمارهم بالمشركين قد انكشف، فلم يكترثوا للنتائج.

وقال "ابن عبادة": يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل "منى" غداً بأسيافنا، فقال رسول الله: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

قال كعب: فلما أصبحنا غدت علينا جلّة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه –والله– ما من حي من العرب أبغض أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث مَنْ هناك من مشركي قومنا يحلفون، ما كان من هذا شيء وما علمناه، وصَدَقوا لم يعلموا. قال كعب وبعضنا ينظر إلى بعض.

بيد أن القرائن تجمعت على أن ما قيل حق، فخرجت قريش تطلب الأنصار ففاتوهم، ولم يدركوا غير سعد بن عبادة.

فعادوا به مغلولة يداه إلى عنقه، وأخذوا يجذبونه من شعره ويلكزونه، فأنقذه منهم جبير بن مطعم، والحارث بن حرب، إذ كان "سعد" يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة.

٦.٤ طلائع هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة:

إن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له، وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له، وقد تنادى المسلمون من كل مكان: هلمّوا إلى يثرب.. فلم تكن الهجرة تخلصاً فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاوناً عاماً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن.

وأصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة –بعد الهجرة إليها– نكوصاً عن

تكاليف الحق، وعن نصر الله ورسوله، فالحياة بها دين لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها.

وفي عصرنا هذا أعجب اليهود بأنفسهم، وعانق بعضهم بعضاً مهنئاً لأنهم استطاعوا تأسيس وطن قومي لهم، بعد أن عاشوا –مشردين– قروناً طوالا.

ونحن لا ننكر جهد اليهود في إقامة هذا الوطن، ولا حماس المهاجرين من كل فج للعيش به، ومحاولة إحيائه وإعلائه.

ولكن ما أبعد البون بين ما صنع اليهود اليوم –أو بتعبير أدق، ما صُنع لليهود اليوم– وبين ما صنع الإسلام وبنوه لأنفسهم، يوم هاجروا إلى يثرب نجاة بدعوتهم، وإقامة لدولتهم.

إن اليهود جاؤوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف، وحاكوا مؤامراتهم في ميدان السياسة الغربية الناقمة على الإسلام وأهله. فإذا بالعالم كله يهجم على فلسطين بالمال والسلاح والنساء والدهاء، فلم يستطع مليون عربي حصرتهم الخيانات في مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئاً، فهاموا على وجوههم في الأرض، نتيجة اتفاق "أمريكا وروسيا وانكلترا وفرنسا" و..ملوك العرب على خذلان أولئك العرب التعساء، وبذلك قام الوطن القومي لليهود، وبثّت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه، وإسداء العون له من دهاقين السياسة والمال في أنحاء الدنيا !!

أين هذا الحضيض من رجال أخلصوا لله طواياهم، وترفعت عن المآرب هممهم، وذهلوا عن المتاع المبذول والأمان المتاح، واستهوتهم المثل العليا وحدها في عالم يعج بالصم البكم، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التي اعتنقوها، وتبعوا صاحبها المتجرد المكافح، وهو لا يني يقول:

{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ}!!

إن المدينة الفاضلة التي تعشَّقها الفلاسفة، وتخيلوا فيها الكمال، وجاءت في سطور الكتب، دون ما صنع المهاجرون الأولون، وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهي الملائكة سناء ونضارة.

إن المسلمين –باذن رسول الله– هرعوا من مكة وغيرها إلى "يثرب" يحدوهم اليقين، وترفع رؤوسهم الثقة.

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلدٍ ناءٍ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة.

إنها إكراه رجل آمنٍ في سربه، ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه، وتضحية أمواله والنجاة بشخصه فحسب، وإشعاره –وهو يصفِّي مركزه– بأنه مستباح منهوب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها. وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل: مغامر طياش، فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها، يحمل أهله وولده؟ وكيف وهو بذلك رضيَّ الضمير، وضّاء الوجه ؟!

إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش! وإيمان بمن؟ بالله الذي له ما في السموات وما في الأرض، وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو الحكيم الخبير.

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن، أما الهيّاب الخوار القلق، فما يستطيع شيئاً من ذلك، إنه من أولئك الذين قال الله فيهم: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ..}.

أما الرجال الذين التقوا بمحمد (صلَّى الله عليه وسلم) في مكة ، وقبسوا منه أنوار الهدى، وتواصوا بالحق والصبر، فإنهم نفروا خفافاً ساعة قيل لهم: هاجروا إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمنون مستقبله.

ونظر المشركون، فإذا ديار بـ (مكة) كانت عامرة بأهلها قد أقفرت، ومحال مؤنسة قد أمحلت.

مر عتبة، والعباس، وأبو جهل على دار بني جحش بعدما غُلِّقت، فقد هاجر رب الدار، وزوجه وأخوه أبو أحمد -وكان رجلاً ضرير البصر- ونظر عتبة إلى الدار تخفق أبوابها يباباً، ليس بها ساكن! فلما رآها تصفر الريح في جنباتها قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً، ستدركها النكباء والحوب

ثم قال: أصبحت الدار خلاء من أهلها، فقال أبو جهل للعباس هذا من عمل ابن أخيك، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا...

وأبو جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبائع الطغاة كاملة.

فهم يجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم، ويقهرون المستضعفين، فإذا أبَوا الاستكانة، فإياؤهم علّة المشكلات ومصدر القلاقل..!!

وكان من أول المهاجرين "أبو سلمة: وزوجه، وابنه" فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ وأخذوا منه زوجته. فغضب آل أبي سلمة لرجلهم، وقالوا: لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا، وتجاذبوا الغلام بينهم، فخلعوا يده وذهبوا به وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، فكانت أم سلمة -بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها- تخرج كل غداة بالأبطح، تبكي حتى تمسي، نحو سنة، فرقّ لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبته، وهاجرت إلى المدينة ..

ولما أراد "صهيب" الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلُّون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) فقال: ربح صهيب!

وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحداناً، حتى كادت مكة تخلو من المسلمين. وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأرز إليها وحصن يحتمي به،

وتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة في دعوة محمد، وهاجت في دمائها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته.

إن محمداً (صلَّى الله عليه وسلم) لا يزال في مكة، وهو –لابد– مدرك أصحابه اليوم أو غداً، فلتعجل به قبل أن يستدير إليها..

٧.٤ اجتماع طواغيت الكفر في دار الندوة للقضاء على محمد (صلَّى الله عليه وسلم) ودعوته التوحيدية:

واجتمع طواغيت مكة في دار الندوة ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر.

فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد محمد (صلَّى الله عليه وسلم) ويشد وثاقه، ويرمى به في السجن لا يصله منه إلا الطعام، ويترك على ذلك حتى يموت..

ورأى آخر أن ينفى من مكة فلا يدخلها، تنفض قريش يديها من أمره.

وقد استُبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه "أبو جهل". قال أبو جهل: أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً، ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً، ثم يضربونه –جميعاً– ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقوَوْن على حرب قريش كافة، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها.

ورضي المؤتمرون بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه، وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.

إن هذا الحكم لم يتخذ في مجلس سر، بل في اجتماع عام.

ومن الطبيعي أن يعلم به رسول الله؛ وأن يعرف حقيقة وضعه في مكة، إنهم لا ينتظرون به إلا موعد التنفيذ، ثم يقدمه الطغام قرباناً للأصنام!!.

على أن رسول الله لم يكن ليوعز إلى أصحابه بالهجرة ويتخلف عنهم.

لقد رسم الخطة التي يذهب بها إلى "يثرب" حين ندب المسلمين للهجرة إليها.

روى الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله –وهو يومئذ بمكة– للمسلمين: "قد أريت دار هجرتكم؛ أريت سبخة ذات نخل بين لابتين" فهاجر من هاجر قِبَل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله، ورجع إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين.

٨.٤ هجرة الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) إلى المدينة:

حين عزم رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) على ترك مكة إلى المدينة؛ ألقى الوحي الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}.

ولا نعرف بشراً أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل هذا الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) الذي لاقى في جنب الله ما لاقى. ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الأعلى لا يعني التفريط قيد أنملة في استجماع أسبابه، وتوفير وسائله.

ومن ثَمَّ فإن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) أحكم خطة هجرته، وأعدَّ لكل فرض عدته، ولم يدع في حسبانه مكاناً للحظوظ العمياء.

وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة، أن يقوم بها كأنها كل شيء في النجاح، ثم يتوكل –بعد ذلك– على الله، لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله.

فإذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك، فإن الله لا يلومه على هزيمة بلي بها، وقلّما يحدث ذلك إلا عن قَدَر قاهر يعذر المرء فيه!!

وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً، ثم يجيء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمار.

كالسفينة التي يشق عباب الماء بها ربّان ماهر، فإذا التيار يساعدها والريح تهب إلى وجهتها، فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهي إلى غايتها في أقصر من وقتها المقرر.

وهجرة رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة جرت على هذا الغرار، فقد استبقى رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) معه علياً وأبا بكر ، وأذن لسائر المؤمنين بتقدمه إلى المدينة .

فأما أبو بكر فإن الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) قال له حين استأذنه ليهاجر: لا تعجل، لعل الله أن يجعل لك صاحبا. وأحس أبو بكر كأن الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) يعني نفسه بهذا الرد.

فابتاع راحلتين فحبسهما في داره، يعلفهما إعداداً لذلك.

وأما علي فإن الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) هيأه لدور خاص، يؤديه في هذه المغامرة المحفوفة بالأخطار.

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير، عن عائشة، أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار: إما بكرة، وإما عشياً، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) في هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) وليس عند رسول الله أحد إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم): أخرج عني من عندك، قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي.

وما ذاك -فداك أبي وأمي-؟.

قال: إن الله أذن لي بالخروج والهجرة. فقال أبو بكر : الصحبةَ يا رسول الله؟ قال: الصحبة.

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي.

ثم قال: يا نبي الله إنَّ هاتين الراحلتين كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبدالله بن أريقط -وهو مشرك- يدلهما على الطريق. ودفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما..

قال ابن إسحاق: ولم يعلم –فيما بلغني– بخروج رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) أحد حين خرج –يقصد نوى الخروج– إلا علي وأبو بكر وآله. أما علي فإن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) أمره أن يتخلف حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس. وكان رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)؛ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته..

٩.٤ درس في سياسة الأمور حول موضوع هجرة الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة:

ويلاحظ أن النبي عليه الصلاة والسلام كتم أسرار مسيره، فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة، ولم يتوسع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم.

وقد استأجر دليلاً خبيراً بطريق الصحراء ليستعين بخبرته على مغالبة المطاردين ونظر في هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها. فإذا اكتملت في أحد –ولو مشركاً– استخدمه وانتفع بموهبته.

ومع هذه المرونة في وضع الخطة فإن النبي عليه الصلاة والسلام أصر أن يدفع ثمن راحلته، وأبى أن يتطوع أبوبكر به، لأن البذل في هذه الهجرة ضرب من العبادة ينبغي الحرص عليه وتستبعد النيابة فيه.

واتفق الرسول عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر على تفاصيل الخروج، وتخيروا الغار الذي يأوون إليه، تخيروه جنوباً في اتجاه اليمن لتضليل المطاردين، وحددوا الأشخاص الذين يتصلون بهم في أثناء اللجأ إليه، ومهمة كل شخص.

ثم عاد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيته، فوجد قريشاً بدأت تضرب الحصار حوله، وبعثت بالفتيان الذين وكل إليهم اغتيال محمد عليه الصلاة والسلام وتفريق دمه بين القبائل.

وأوعز الرسول عليه الصلاة والسلام إلى علي بن أبي طالب في هذه الليلة الرهيبة أن يرتدي برده الذي ينام فيه، وأن يتسجى به على سريره. وفي هجعة الليل وغفلة من الحرس، نَسَلَ الرسول عليه الصلاة والسلام من بيته إلى دار أبي بكر، ثم خرج

الرجلان من خوخة في ظهرها إلى غار ثور.. إلى الغار الذي استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة، ومستقبل حضارة كاملة، وتركته في حراسة الصمت والوحشة والانقطاع..

١٠.٤ اختباء الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) مع أبي بكر في الغار أثناء هجرته من مكة إلى المدينة:

وسارت الأمور على ما قدّرا، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبدالله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك من أخبار. وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار. فكان عبدالله بن أبي بكر في قريش يسمع ما يأتمرون به وما يقولون في شأن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيقص عليهما ما علم، وكان عامر في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبدالله من عندهما إلى مكة، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفِّي عليه. وتلك هي الحيطة البالغة كما تفرضها الضرورات المعتادة على أي إنسان..

وانطلق مشركو مكة في آثار المهاجرين يرصدون الطرق ويفتشون كل مهرب، وراحوا ينقِّبون في جبال مكة، وكهوفها، حتى وصلوا -في دأبهم- قريباً من غار ثور، وأنصت الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) وصاحبه إلى أقدام المطاردين تخفق إلى جوارهم، فأخذ الروع أبا بكر، وهمس يحدث رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم): "لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا" فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما".

ويظهر أن المطاردين داخلهم القنوط من العثور عليهما في هذا الفج، فتراكضوا عائدين، وروى أحمد: "أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل -جبل ثور- اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت. فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال".

ورواية أحمد حسنة، وإن لم ترد بها السنن الصحاح، ولم يرد كذلك ذكر لحمائم باضت على فم الغار أو غير ذلك.

قال الله تعالى في ذكر الهجرة:

{إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق، إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في ضخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذي لجب {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}.

ومن صنع الله لنبيه أن تعمى عنه عيون عداته وهو منهم على مد الطرف، ولم يكن ذلك محاباة من القدر لقوم فرَّطوا في استكمال أسباب النجاة، بل هو مكافأة من القدر لقوم لم يدعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها، وكم من خطة يضعها أصحابها فيبلغون بها نهاية الإتقان تمر بها فترات عصيبة لأمور فوق الإرادة أو وراء الحسبان، ثم تستقر أخيراً وفق مقتضيات الحكمة العليا وفي حدود قوله تعالى:

{وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

١١.٤ ما حدث مع رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) في الطريق إلى المدينة:

مرت ثلاث ليال على مبيت الرسول عليه الصلاة والسلام في الغار، وخمد حماس المشركين في الطلب، وتأهب المهاجران لاستئناف رحلتهما الصعبة.

وجاء "عبدالله بن أريقط" في موعده ومعه رواحله قد أعلفها لاستقبال سفر بعيد، وتزود الركب ثم سار على اسم الله.

غير أن قريشاً ساءها أن تخفق في استرجاع محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه، فجعلت دية كل واحد منهما جائزة لمن يجيء بهما أحياء أو أمواتاً.

ومائتان أو مائة من الإبل في الصحراء ثروة تغري بركوب المخاطر وتحمل المشاق.

وقد قدَّر رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) أن المشركين لن يألوا جهداً في الإساءة إليه، فالتزم في سيره جانب المحاذرة، وأعانتهم مهارة الدليل على سلوك دروب لم تعتدها القوافل، ثم أطلق الزمام للرواحل فمضت تصل النهار بالليل.

رمى بصدور العيس منخرق الصَّبا فلم يدر خلقٌ بعدها أين يمما؟

فلما مروا بحي بني مدلج مُصْعدين، بَصُر بهم رجل من الحي فقال: لقد رأيت آنفاً أسْوِدَة بالساحل، ما أظنها إلا محمداً وأصحابه؛ ففطن إلى الأمر سراقة بن مالك ورغب أن تكون الجائزة له خاصة فقال: بل هم فلان وفلان قد خرجوا لحاجة لهم..ومكث قليلاً ثم قام فدخل خباءه وقال لخادمه: اخرج بالفرس من وراء الخباء وموعدك خلف الأكمة.

قال سراقة: فأخذت رمحي وخرجت من ظهر البيت وأنا أخط بزجه الأرض، حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها ففرت بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها! فقمت..

وامتطى سراقة فرسه مرة أخرى وزجرها فانطلقت حتى قرب من الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه، وكان أبو بكر يكثر الالتفات يتبين هذا العدو الجسور؟ فلما دنا عرفه فقال لرسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) وكان ماضياً إلى غايته-: هذا سراقة بن مالك قد رهقنا! وما أتم كلامه حتى هوت الفرس مرة أخرى ملقية سراقة من على ظهرها، فقام معفراً ينادي بالأمان!!

وقع في نفس سراقة أن الرسول عليه الصلاة والسلام حق فاعتذر إليه وسأله أن يدعو الله له وعرض عليهما الزاد والمتاع، فقالا: لا حاجة لنا، ولكن عَمِّ عنا الطلب، فقال: قد كفيتم، ثم رجع فوجد الناس جادين في البحث عن محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه، فجعل لا يلقى أحداً من الطلَّب إلا ردَّه وهو يقول: كفيتم هذا الوجه !

أصبح أول النهار جاهداً عليهما، وأمسى آخره حارساً لهما...!!

١٢.٤ دعاء رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) عند خروجه من مكة مهاجراً:

إن أسفار الصحراء توهي العمالقة الآمنين. فكيف بركب مهدر الدم مستباح الحق؟.

ما يحس هذه المتاعب إلا من صلي نارها، لقد برزنا لوهج الظهيرة يوماً فكادت الأشعة البيضاء المنعكسة على الرمال تخطف أبصارنا، فعدنا مغمضين نستبقي من عيوننا ما خفنا ضياعه.

وعندما تصبح وتمسي وسط وهاد ونجاد لا تنتهي حتى تبدأ، تخال العالم كله مهامه مغبرة الأرجاء داكنة الأرض والسماء.

وجرت عادة المسافرين أن يأووا في القيلولة إلى أي ظل في بطاح ينتعل كل شيء فيها ظله، حتى إذا جنحت الشمس للمغيب تحركت المطايا اللاغبة تغالب الجفاف والكرى.

وللعرب طاقةٌ على احتمال هذا الشظف مع قلة الزاد والري.

وقد مر بك أن الرسول –وهو طفل– قطع هذه الطريق، ذهب مع أمه لزيارة قبر أبيه ثم عاد وحده!.

وإنه الآن ليقطعها وقد بلغ الثالثة والخمسين، لا لزيارة أبويه اللذين ماتا بالمدينة؛ بل لرعاية رسالته التي تشبثت بأرض يثرب جذورها، بعد ما تبرمت مكة بها وبصاحبها وبمن حوله...

إنه أرسخ أهل الأرض يقيناً بأن الله ناصره ومظهر دينه، بيد أنه أسيف للفظاظة التي قوبل بها، وللجحود الذي لاحقه من بدء رسالته حتى اضطره إلى الهجرة على هذا النحو العنيف، ها هو ذا يخرج من مكة وقد أعلن سادتها عن الجوائز المغرية لمن يغتاله...

روى أبو نعيم أن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله قال: الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئاً. اللهم أعنِّي على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام. اللهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذلِّلني، وعلى صالح خُلُقي فقوِّمني، وإليك ربِّ فحببني، وإلى الناس فلا تكلني. رب المستضعفين وأنت ربي. أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل

علي غضبك، وتُنزل بي سخطك. وأعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحوّل عافيتك، وجميع سخطك. لك العتبى عندي خير ما استطعت. ولا حــول ولا قــوة إلا بك.

ومما يلفت النظر أن انطلاق الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) من مكة شاع في جوانب الصحراء، وكأن أسلاك البرق طيرته إلى أقصى البقاع. فعلم به البدو والحضر على طول الطريق حتى يثرب، بل إن المحال التي عرج بها وصل نبؤها إلى أهل مكة بعد أن انصرف عنها.

والناس يعجبون بقصص البطولة، وتستثيرهم ألوان التحدي، وهم يتنــاقلون الأخبــار السيالة على الألسن، فيضفون عليها ثياب الأساطير، وقد سُرَّت قلوب كثيــرة بغلــب محمد عليه الصلاة والسلام على من تبعوه، وترجمت عواطفها هذه شعراً يتغنى بــه ولا يعرف قائله!!..

من ذلك ما روي عن أسماء بنت أبي بكر قالت: مكثنا ثلاث ليال ما ندري أين وجــه رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتغنى بأبيــات مــن الشعر:

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلاَّ خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروَّحا..! فأفلح من أمسى رفيق محمد

ليَهْنِ بني كعب مكان فَتاتِهِمْ ومقعدها للمؤمنين بمرصد!

قالت أسماء: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله (صلَّى الله عليه وســلم)، وأن وجهه إلى المدينة !

من القائل؟ تذكر الرواية أنه من الجن! وتلك عادة العرب في نسبة شعرها فلكل شاعر عندهم شيطان..!

والراجح أن الأبيات المذكورة من إنشاد مؤمن يكتم إيمانــه بمكــة ويتســمع أخبــار المهاجرين، فيبدي فرحته بما يلقَون من توفيق، ويجد متنفساً لمشاعره المتوارية فــي هذا الغناء المرسل.

والأبيات تشير إلى واقعة عرضت للرسول عليه الصلاة والسلام في أثناء رحلته، فقد مرَّ على منازل خزاعة ، ودخل خيمة أم معبد، فاستراح بها قليلا، وشرب من لبن شاتها.

٣.٤ وصول رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) إلى المدينة عند هجرته إليها:

وكذلك ترامت أخبار المهاجر العظيم وصاحبه إلى المدينة ، فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد، ويتشوفون إلى مقدمه بلهفة. فإذا اشتد عليهم الحر عادوا إلى بيوتهم يتواعدون الغد، وملء جوانحهم الترقب، والقلق، والرجاء.

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول لثلاث عشرة سنة من البعثة برز الأنصار على عادتهم منذ سمعوا بمخرج الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم، ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلعته ويودون رؤيته. فلما حميت الظهيرة وكادوا ييأسون من مجيئه وينقلبون إلى بيوتهم؛ صعد رجل من اليهود على أطم من آطامهم لبعض شأنه، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه يتقاذفهم السراب، وتدنو بهم الرواحل رويداً رويداً إلى المدينة إلى وطن الإسلام الجديد، فصرخ اليهودي بأعلى صوته: يا بني قَيْلة، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدكم الذي تنتظرون...

فأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم، وسمع التكبير يرُج أنحاء المدينة ، ولبست "يثرب" حلة العيد ومباهجه.

قال البراء: أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم. فجعلا يقرئان الناس القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثمَّ جاء عمر بن الخطاب في عشرين راكباً. ثم جاء رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)، فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به، حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون: هذا رسول الله قد جاء.

يا عجباً لنقائض الحياة واختلاف الناس! إن الذي شهرت مكة سلاحها لتقتله، ولم ترجع عنه إلا مقهورة؛ استقبلته المدينة وهي جَذْلانة طروب، وتتنافس رجالها يعرضون عليه المنعة والعدة والعدد...

ومن الطريف أن كثيراً من أهل المدينة لم يكن رأى رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)، فلما قدم الركب لم يعرفوه من أبي بكر لأول وهلة، حتى إن العواتق كنَّ يتراءينه فوق البيوت يقلن: أيهم هو؟.

ونزل النبي (صلَّى الله عليه وسلم) في بني عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة أسس خلالها مسجد قباء . وهو أول مسجد أسس في الإسلام. وفيه نزل قوله تعالى: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}.

١٤.٤ استقرار المدينة بوصول سيد الخلق إليها: رجل العقيدة يسير طوعاً لها، ويجد طمأنينته حيث تقر عقيدته وتلقى الرحب والسعة.

والناس ينشدون سعادتهم فيما تعلقت به هممهم وجاشت به أمانيهم، وهم ينظرون إلى الدنيا وحظوظهم منها على ضوء ما رسب في نفوسهم من عواطف وأفكار..

فطالب الزعامة يرضى أو ينقم، وينشط أو يكسل بمقدار قربه أو بعده من أمله الحبيب.

انظر المتنبي كم مدح وهجا؟ وكيف انتقل من الشام إلى مصر، ومن مصر إلى غيرها، وانظر إلى ذكره أحاديث الناس عنه وعن بغيته.

يقولون لي: ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جَلَّ أن يُسْمى

والذي جلَّ أن يسمى صرح به في مكان آخر، فطلب أن تناط به ضيعة أو ولاية!! أي بعض ما وضعته الحظوظ في أيدي الملوك والملاك؛ وإنه ليتعجل هذا الأمل من كافور فيقول: أبا المسك هل في الكأس فضل أنا له؟ فإني أغنِّي منذ حين وتشرب!

والمتنبي في نظري أهل –بكفايته– للمناصب الرفيعة. ولكن التطلع إلى الدنيا بهذا النزق والإلحاح، محكوم بالمشيئة التي ذكرتها الآية الكريمة:

{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ...}.

ومن الناس من يتعشق الجمال ويجري وراء النساء ويجد في المتعة بهن نهمته التي يسكن بعدها ويستكين ويقول:

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور العيون

ومنهم من يبحث عن المال ويقضي سحابة نهاره وشطر ليله يتتبع الأرقام في دفاتره، يحصي ما وقع في يده ويتربص بما لم يقع، وربما ذهل عن طعامه ولباسه في غريزة الاقتناء التي سدّت عليه المنافذ.

إلى جانب هذه الأصناف تجد فريقاً آخر من البشر لا يطيق الكف عن إسداء الجميل، وبذل النصيحة، ورعاية الصالح العام، وإفناء ذاته في سبيل الفضائل التي ملكت لبه وعمرت قلبه...

إنه يبيت مسهَّداً لو فرَّط في واجب... راحته الكبرى في نشدان الكمال وسعادته القصوى يوم يدرك منه سهماً...

وأصحاب الرسالات رهناء ما تحملوا من أمانات ضخمة، فمغانمهم ومغارمهم وحلهم وترحالهم وصداقتهم وخصومتهم ترجع كلها إلى المعاني التي ارتبطوا بها وحَيُوا لأجلها...

وصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبدالله ضرب من نفسه المثل الفذ للمكافحين، فمنذ أخذ على عاتقه تمزيق الأسداف التي ألقت على العالم ليلا كثيفاً من الشرك والخرافة؛ لم يفلح أحد في ثنيه عن عزمه أو تعويق مسيره أو ترضيته برغبة أو ردعه برهبة، وفنيت أمام عينيه فوارق الزمان والمكان، فالغريب عنه إذا عرف الحق قريب، ووطنه إذا تنكر للهدى فهو منه بريء، والمؤمنون به آخر الدهر هم إخوانه وإن لم يشاهدوه.

ولقد عاش في مكة ثلاثة وخمسين عاماً حتى ألفها وألفته، لكنه اليوم يخرج منها إلى وطن جديد يرى فيه امتداد قلبه وثمار غرسه.

والرجال الذين تتبع سعادتهم من قلوبهم ويرتبطون أمام ضمائرهم بمبادئهم لا يكرمون بيئة بعينها إلا أن تكون صدى لما يرون.

فلا غرو إذا دخل محمد (صلَّى الله عليه وسلم) المدينة دخول الوامق المعتز..واستبشر بما آتاه الله فيها من فتح، وتوسم من وراء هذه الهجرة بشائر الخير والنصر.

ثَوَى في قريش بضع عشرة حجة يذكِّر لو يلقى حبيباً مواتياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم ير من يؤوي ولم ير واعياً
فلما أتانا واستقرت به النوى وأصبح مسروراً بطيبة راضياً
وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم بعيد ولا يخشى من الناس باغياً
بذلنا له الأموال من جل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا رب غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا

إن تنظيم الهجرة واستقبال اللاجئين الفارين بدينهم من شتى البقاع ليس بالعمل الهين، وفي عصرنا الحاضر تعتبر هذه الحال مشكلة تحتاج إلى الحل السريع؟

ومتى خلت حياة الرجل العظيم من المشكلات؟

وصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة (بحمّى) الملاريا، فلم تمض أيام حتى مرض بها أبو بكر، وبلال.

واستوخم الصحابة جو المهجر الذي آواهم، ثم أخذت تستيقظ غرائز الحنين إلى الوطن المفقود.

وكان النبي (صلَّى الله عليه وسلم) يصبِّر الصحابة على احتمال الشدائد، ويطالبهم بالمزيد من الجهد والتضحية لنصرة الإسلام، وقال: "لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة، ولا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه".

وهذا ضرب من جمع القلوب على المهجر الجديد حتى تطيب به وتنفر من مغادرته.

وعن عائشة قالت: لما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وعك أبو بكر وبلال، فدخلت عليهما فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ وكان أبو بكر إذا أخذته الحمّى يقول:

كل امرىء مصبّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بوادٍ، وحولي إذخر وجليل

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مجنّة وهل يبدوَنْ لي شامة وطفيل؟

قالت: فأخبرت رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) بذلك فقال: "اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، اللهم وصحِّحها وبارك لنا في مدِّها وصاعها، وانقل حمّاها واجعلها بالجحفة".

وعن أنس قال رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم): "اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَي ما جعلت بمكة من البركة".

وعن أبي هريرة قال: "كان رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) إذا أتي بأول الثمر قال: "اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مدِّنا وفي صاعنا، بركة مع بركة، اللهم إنَّ إبراهيم عبدك ونبيك وخليلك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه" ثم يعطيه أصغر من يحضر من الولدان..."

بهذا التشويق والإقبال ارتفع الروح المعنوي بين المسلمين، واتجهت القوى الفتية إلى البناء، متناسية الماضي وما يضم من ذكريات. إن الهجرة الخالصة لا تعود في هِبَة ولا ترجع عن تضحية، ولا تبكي على فائت، بل هي كما قال الشاعر:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل...!!

٥ – أُسُسُ البنَاءِ للمُجتمَع الجَديد في المدينة بعد هجرة المسلمين إليها

١.٥ مقدمة أسس البناء للمجتمع الجديد:

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس همها أن تعيش بأي أسلوب، أو تخط طريقها في الحياة إلى أي وجهة، وما دامت تجد القوت واللذة فقد أراحت واستراحت.

كلا كلا، فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله، وتوضح نظرتهم إلى الحياة، وتنظم شئونهم في الداخل على أنحاء خاصة، وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة.

وفرق بين امرىء يقول لك: همي في الدنيا أن أحيا فحسب! وآخر يقول لـــك إذا لـــم أحرس الشرف، وأصن الحقوق، وأرضَ لله وأغضب من أجله، فلا سعت بي قدم، ولا طرفت لي عين...

والمهاجرون إلى المدينة لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء.

والأنصار الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العداء. وأهدفوا أعناقهم للقاصي والـــداني، لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق...

إنهم –جميعاً– يريدون أن يستضيئوا بالوحي، وأن يحصلوا علـــى رضـــوان الله وأن يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خلق الناس، وقامت الحياة...

وهل الإنسان إذا جحد ربه، واتبع هواه، إلا حيوان ذميم، أو شيطان رجيم؟؟.

ومن هنا شغل رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) أول مستقره– بالمدينة بوضع الدعائم التي لابد منها لقيام رسالته، وتبين معالمها في الشؤون الآتية:

١– صلة الأمة بالله.

٢– صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر.

٣– صلة الأمة بالأجانب عنها، ممن لا يدينون دينها.

٢.٥ بناء المسجد النبوي في المدينة:

ففي الأمر الأول بادر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بناء المسجد، لتظهـــر فيـــه شعائر الإسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تـــربط المـــرء بـــرب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض، ودسائس الحياة الدنيا .

والمروي أن الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) بنى مسجده الجامع حيث بركت ناقتـــه، في مربد لغلامين يكفلهما "أسعد بن زرارة" وكان الغلامان يريدان النـــزول عنـــه لله، فأبى الرسول عليه الصلاة والسلام إلا ابتياعه بثمنه، وكان المربد قبل أن يتخذ مصلّى كهذه المصليات التي تنتشر في ريفنا. كانت تنبت فيه نخيل وشجر غرقد، ويختفي في ترابه بعض قبور للمشركين.

فأمر الرسول بالنخل فقطع، وبالقبور فنبشت، وبالخرب فسُويَت، وصفّوا النخل قبلة للمسجد –والقبلة يومئذ بيت المقدس– وجعل طوله مما يلي القبلة إلى المؤخرة مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك تقريباً، وجعلت عضادتاه من الحجارة، وحفر الأساس ثلاثة أذرع، ثم بني باللبن، واشترك الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) وأصحابه في حمل اللبنات والأحجار على كواهلهم.

وكانوا يروِّحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء.. بهذا الغناء:

اللهمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجره!!

وقد ضاعف حماس الصحابة في العمل رؤيتهم النبي عليه الصلاة والسلام يجهد كأحدهم، ويكره أن يتميز عليهم، فارتجز بعضهم هذا البيت:

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منّا العمل المضلَّل!!

وتم المسجد في حدود البساطة، فراشه الرمال والحصباء وسقفه الجريد، وأعمدته الجذوع، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه، وقد تفلت الكلاب إليه فتغدو وتروح.

هذا البناء المتواضع الساذج، هو الذي ربَّى ملائكة البشر، ومؤدبي الجبابرة وملوك الدار الآخرة. في هذا المسجد أذن الرحمن لنبيٍّ يؤم بالقرآن خيرة من آمن به، أن يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل.

إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي، تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي فهو ساحة للعبادة، ومدرسة للعلم؛ وندوة للأدب، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام، لكن الناس –لما أعياهم بناء النفوس على الأخلاق الجليلة– استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة، تضم مصلين أقزاماً!!.

أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشييدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها، فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام....

والمسجد الذي وجه الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) همته إلى بنائه قبل أي عمل آخر بالمدينة، ليس أرضاً تحتكر العبادة فوقها؛ فالأرض كلها مسجد، والمسلم لا يتقيد في عبادته بمكان.

إنما هو رمز لما يكترث له الإسلام أعظم اكتراث، ويتشبث به أشد تشبث؛ وهو وصل العباد بربهم وصلاً يتجدد مع الزمن، ويتكرر مع آناء الليل والنهار، فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد، وتجهل اليوم الآخر، وتخلط المعروف بالمنكر!.

والحضارة التي جاء بها الإسلام تذكِّر أبداً بالله وبلقائه، وتمسك بالمعروف، وتبغض في المنكر، وتقف على حدود الله...

ولقد شاهد يهود المدينة ومشركوها هذا الرسول الجديد يحتشد مع صحبه في إقامة المسجد، يمهده للصلاة؛ فهل رأوا سيرة تريب أو مسلكاً يغمز؟؟

روى البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد: أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم، تعلمنَّ والله ليصعقنَّ أحدكم، ثم ليدعنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولنَّ له ربه -ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه-: ألم يأتك رسولي فبلَّغك؟ وآتيتك مالاً وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله..!!

٣.٥ الأخوة بين المهاجرين والأنصار في المدينة:

أما عن الأمر الثاني -وهو صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر- فقد أقامه الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) على الإخاء الكامل. الإخاء الذي تمحى فيه كلمة "أنا" ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها، فلا يرى لنفسه كياناً دونها، ولا امتداداً إلا فيها...

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام.

وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) هذه الأخوة عقداً نافذاً؛ لا لفظاً فارغاً، وعملا يرتبط بالدماء والأموال؛ لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر..!!

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال...

حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين، فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة!! وقدر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلُّوه، ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف.

روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فسمِّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟؟

فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن!! ثم تابع الغدُوَ..ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي (صلَّى الله عليه وسلم): "مَهْيَمْ"؟ قال: تزوجتُ. قال: "كم سقتَ إليها". قال: نواة من ذهب!

وإعجاب المرء بسماحة "سعد" لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن، هذا الذي زاحم اليهود في سوقهم، وبزَّهم في ميدانهم، واستطاع-بعد أيام-أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه!! إن علو الهمة من خلائق الإيمان؛ وقبح الله وجوه أقوام انتسبوا للإسلام فأكلوه، وأكلوا به حتى أضاعوا كرامة الحق في هذا العالم.

وكان رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة. لم يتميز عنهم بلقب إعظام خاص، وفي الحديث: "لو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذته – يعني أبا بكر – خليلا، ولكن إخوة الإسلام أفضل".

والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة، فحيث يشيع الجهل والغش والجبن والبخل والجشع، لا يمكن أن يصح إخاء، أو تترعرع محبة، ولولا أن أصحاب رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) جبلوا على شمائل نقية، واجتمعوا على مبادىء رضية، ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله.

فسموّ الغاية التي التقوا عليها وجلال الأسوة التي قادتهم إليها، نمَّيا فيهم خلال الفضل والشرف، ولم يدعا مكاناً لنجوم خلة رديئة.

ذلك، ثم إن محمداً عليه الصلاة والسلام كان إنساناً تجمَّع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات، فكان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه، وداروا في فلكه رجالاً يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء.

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده، ولا يتكلف استخراجه بالآلات والأثقال، والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم، وإنما هي أثر من تخلِّص الناس من نوازع الأثرة والشح والضِّعة.

وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين لأنهم ارتقوا –بالإسلام– في نواحي حياتهم كلها، فكانوا عباد الله إخوانا. ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض!!

على أن تنويهنا بقيمة التسامي النفساني في تأسيس الإخاء، لا يمنع الحاكم من فرضه على الناس نظاماً يؤخذون بحقوقه أخذاً، فإذا لم يؤدوها طوعاً أدوها كرهاً، وذلك كما يجبرون على العلم، والجندية، وأداء الضرائب وغير ذلك.

وقد ظلَّت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة "بدر" حتى نزل قوله تعالى:

{وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

فألغي التوارث بعقد الأخوة، ورجع إلى ذوي الرحم. وروى البخاري عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى:

{وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ...}.

قال: كان المهاجرون –لما قدموا المدينة– يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي عليه الصلاة والسلام بينهم. فلما نزلت: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا

مَوَالِيَ...} نسخت ذلك ثم قال: {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ} من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث، ويوصي له.

وروي في تفصيل هذا الإخاء أن النبي (صلَّى الله عليه وسلم) تآخى مع علي، وتآخى حمزة مع زيد، وأبو بكر مع خارجة، وعمر مع عتبان بن مالك...الخ.

ومن العلماء من يشك في أخوة الرسول عليه الصلاة والسلام مع علي.

ولكن ما صح أن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) جعل عليا منه بمنزلة هارون من موسى يؤيد هذه الرواية، وليس يخدش هذا من منزلة أبي بكر ولا استحقاقه الصدارة.

٤.٥ علاقة المسلمين بغير المسلمين في مجتمع المدينة الجديد بعد الهجرة إليها:

أما الأمر الثالث، وهو صلة الأمة بالأجانب عنها الذين لا يدينون بدينها، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سنَّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط هو رجل مخطىء بل متحامل جريء!.

عندما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وجد بها يهود، توطنوا ومشركين مستقرين.

فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قبل –عن طيب خاطر– وجود اليهود والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه.

ونحن نقتطف فقرات من نصوص المعاهدة التي أبرمها مع اليهود دليلاً على اتجاه الإسلام في هذا الشأن.

جاء في هذه المعاهدة: أن المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة.

وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم!!

وأنه لا يجيرُ مشركٌ مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن...
وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.
وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين.
لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.
وأن ليهود بني النجار والحارث وساعدة وبني جشم وبني الأوس الخ، مثل ما ليهود بني عوف.
وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
وأن بينهم النصح والنصيحة والبر، دون الإثم.
وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره...
وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.
وأن من خرج آمن، ومن قعد بالمدينة آمن، إلا من ظلم وأثم..
وأن الله جار لمن بر واتقى..".
وهذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر السكينة في ربوعها، والضرب على أيدي العادين ومدبري الفتن أياً كان دينهم.
وقد نصت بوضوح على أن حرية الدين مكفولة.
فليس هناك أدنى تفكير في محاربة طائفة أو إكراه مستضعف. بل تكاتفت العبارات في هذه المعاهدة على نصرة المظلوم، وحماية الجار، ورعاية الحقوق الخاصة

والعامة، واستنزل تأييد الله على أبر ما فيها وأنقاه، كما استنزل غضبه على من يخون ويغش..

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو، وأقرت حرية الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها.

ويلاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المعاهدة أشار إلى العداوة القائمة بين المسلمين ومشركي مكة وأعلن رفضه الحاسم لموالاتهم، وحرّم إسداء أي عون لهم، وهل ينتظر إلا هذا الموقف من قوم لا تزال جروحهم تقطر دماً لبغي قريش وأحلافها عليهم؟

أكان اليهود صادقين في موافقتهم على هذا العهد؟.

أغلب الظن أنهم لم يكونوا جادِّين حين ارتضوه وقبلوا إنفاذه.

وآفة العهود أن يرتبط الوفاء بها بمدى المنفعة المرجوة منها، فإذا بدا أن المعاهدة المبرمة لا تحقق المطامع المبتغاة، قلَّ التمسك بها والتمست الفرص للتحلل منها.

وقد كان اليهود يبنون عظمتهم المادية والسياسية على تفرق العرب، قبائل متناحرة، فلما دخل العرب في الإسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى وتتابعت تؤكد أن الإسلام سوف يصنع من العرب أمة واحدة..استشعر اليهود القلق وساورتهم الهموم، وشرعوا يفكرون في الكيد لهذا الدين والتربص بأتباعه.

ثم إن اليهود في المدينة يكوِّنون البيئة التي تتوافر فيها سوءات التدين المصنوع، والاحتراف السمج بمبادىء السماء، وأبرز خلال هذه البيئات الحقد والنفاق والتمسك بالقشور والولع بالجدل، ومن وراء ذلك قلوب خربة، ونفوس معوجَّة.

وربما اقتبسوا من جوارهم للعرب بعض فضائل الصحراء كالكرم والشجاعة، بيد أن انطواءهم العنصري غلب على سيرتهم، فالتصقت هذه الفضائل بنفوسهم كما تلتصق أوراق الزينة بالجدران المشوهة...

وكان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام، فإذا لم يرحبوا به فليكونوا أبطأ من الوثنيين في مخاصمته، فإن محمداً (صلَّى الله عليه وسلم) يدعو إلى توحيد الله، وإصلاح

العمل، والاستعداد لحياة أرقى في الدار الآخرة، والدين الذي جاء به وقّـر موسـى وأعلى شأنه، ونوّه بكتابه، وطلب من اليهود أن ينفِّذوا أحكامه، ويلزموا حدوده.

لكن اليهود صمتوا –أولاً– صمت المستريب، ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود.

وهذا الترحيب المتوقع تلمح دلائله في كثير من الآيات، فإن عبدة الأصنام إذا أنكروا النبوة فأهل الكتاب يجب أن يشهدوا بها.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَـنْ عِنْـدَهُ عِلْـمُ الْكِتَابِ}.

وعبدة الأصنام إذا رفضوا التذكير بالله فأهل الكتاب أحق بأن يخشعوا إذا وجدوا مـن يذكرهم به {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ}.

غير أنك تدهش، إذ تجد الجرأة على الله، والنفور من أحكامه، ووصفه بمـا لا يليـق شائعة بين اليهود، شيوعها بين المشركين!

فإذا غضب الإسلام على من ينسب إلى الله ولداً، بشراً أو حجراً، فماذا تـرى فـيمن يصف رب السموات والأرض بالفقر والبخل؟.

{وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا...}.

{لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}.

على أن الإسلام يدع أولئك الجحدة في ضلالهم، فلا يستأصل كفرهم بالسيف، ويكتفي بأن يعلن دعوته، ويكشف حقيقته، ويملأ الجو بآياته ومعالمه.

فمن استراح إليها فدخل فيها؛ فبها ونعْمَتْ، وإلا فهو وشأنه، ولا يطالبه الإسلام بشيء إلا الأدب والمسالمة، وترك الحق يسير من غير عائق أو نكير.

ولقد جاء رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) إلى المدينة فمد يده إلى اليهود مصـافحاً، وتحمل الأذى مسامحاً، حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ومحو دينـه، اسـتدار إليهم، وجرت بينه وبينهم من الوقائع ما سنقص أخباره في موضعه...

بتقوى الله والإخلاص له دعمت الناحية الروحية في هذا المجتمع الجديد.
وبالإخاء الحق، تماسك بنيانه وتوثقت أركانه..
وبالعدل والمساواة، والتعاون، رُسمت سياسة الأجانب، وعومل أتباع الأديان الأخرى.
ومن ثم استقرت الأوضاع، ووجد المسلمون متسعاً لتجديد قواهم وترتيب شؤونهم.
٥.٥ المصطفون الأخيار من صحابة رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) وخبر الأذان للاجتماع للصلاة:
إن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتيح لهم ما لم يتح لغيرهم من منابع الصفاء، ووسائل الارتقاء.
إن مشاعرك ترق عندما تسمع النغم العذب، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة، بل إنَّ الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات المثيرة يصبغهم جو القصة المفتعلة، فيضحكون ويبكون، ويهدأون ويضجون.. فما ظنك بقوم يتبعون رجلاً تكلِّمه السماء، ويتفجر من جوانبه الكمال، ويسكب على من حوله آيات الطهر؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير، دفع بها إلى الأمام، وإذا علقت بمسالكهم شهوة، نقّاها فرد عليها سناءها. إن للعظماء إشعاعاً يغمر البيئة التي يظهرون فيها، وكما يقترب المصباح الخامد من المصباح المشتعل فيضيء منه، تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز، فتنطوي في مجاله وتمشي في آثاره!!
وقد التف بمحمد (صلَّى الله عليه وسلم) فريق من الربانيين الأتقياء، كانوا له تلاميذ مخلصين، فزكت -بصحبته- نفوسهم، وشفت طباعهم، حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب.
ولا تحسبن العقل الجبار -مهما أوتي من نفاذ- يستطيع إدراك الكمال بقوته الخاصة، فإذا لم تسدده عناية عليا فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر غاية أو يهتدي طريقاً، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتكاثر أمام عينيه الضباب. إنه يحكم القيادة، ويضبط الآلات، ويرسل أنوار مصابيحه في أحشاء الغيوم المتراكمة فإذا لم يتلق

إرشاداً يحدد له مكانه وبعده وكيف يهبط.. فإنه سيظل يحلق عبثاً..ثم تهوي به الريح في مكان سحيق.

وكم من فلاسفة عالجوا شؤون الكون والحياة. فمنهم من ضل عن الحق على طول بحثه عنه، فلم يصل إليه قط. ومنهم من استغرق في الوصول إليه أعواماً طوالاً، ولو مشى وراء الرسل لانتهى إليه في أيام قصار، وهو في مأمن من الشرود والعثار

ثم إن الإنسان ليس عقلاً فحسب، إنه –قبل ذلك– قلب ينبغي أن يسلم من الأهواء والآثام، وأن ينجو من الشقاوة والظلام، وأن يكون في حنايا صاحبه قوة تسوق إلى الخير والحب، وحادياً يهفو إلى الجمال والرحمة..

والمرسلون الكرام يتعهدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية.

وأشبه الناس بهم من اقتفى آثارهم وأخذ في طريقهم، وأول أولئك قاطبة من صحبوهم في حياتهم، وقاسموهم أعباء دعوتهم ومغارم جهادهم..

قال عبدالله بن مسعود: "من كان مستناً فليستنّ بمن مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام. كانوا أفضل هذه الأمة، أبرّها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً. اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم..".

ولا شك أن أصحاب محمد يرجحون أصحاب موسى وعيسى.

فإن تاريخهم في الإيمان والجهاد وإبلاغ الدعوة إلى الأخلاف كاملة مضبوطة غير منقوصة ولا محرفة، لا يشبه أي تاريخ آخر..

ونحن نسوق هذه المقدمة بين يدي الكلام عن الأذان، وكيف شرع؟ فإن ميلاد هذه الشعيرة العظيمة، يحمل معه آيات بيِّنة عن عظمة النفوس إذا صفت فنضحت بالحق، وسكن إليها الإلهام..

قال ابن إسحاق: وقد كان رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) حين قدم المدينة إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة، فهمَّ رسول الله (صلَّى الله عليه

وسلم) أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة. فبينما هم على ذلك رأى عبدالله بن زيد بن ثعلبة أخو بني الحارث النداء، فأتى رسول الله فقال: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبدالله، أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قال: قلت ندعو به إلى الصلاة. قال: ألا أدلك على خير من ذلك؟ قلت ما هو؟ قال: تقول الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله. حيَّ على الصلاة حيَّ على الصلاة. حيَّ على الفلاح حيَّ على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله. فلما أخبر بها الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) قال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله! فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك. فلما أذن بها بلال سمعه عمر وهو في بيته فخرج إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يجر رداءه يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى!! فقال رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم): فلله الحمد. وفي رواية: فأمر رسول الله بلالاً فأذن به. قال الزهري: وزاد بلال في نداء صلاة الغداة: الصلاة خير من النوم مرتين. فأقرها رسول الله.

وفي رواية أخرى رأى عمر في المنام: لا تجعلوا الناقوس، بل أذِّنوا للصلاة، فذهب عمر إلى النبي (صلَّى الله عليه وسلم) ليخبره بما رأى وقد جاء النبي عليه الصلاة والسلام الوحي بذلك.

فما راع عمر إلا بلال يؤذن فقال رسول الله حين أخبره بذلك: قد سبقك بذلك الوحي.

وهذا يدل على أن الوحي قد جاء بتقرير ما رآه عبدالله بن زيد..

هذه الكلمات الطيبة التي ترتفع بين الحين والحين تقرع الآذان، وتوقظ القلوب، وتصيح بالناس: هلموا إلى الله..وعاها في رؤيا صالحة ذهن نيِّر، فأسرع بها إلى رسول الله يرويها كما ألقيت في روعه، لتكون نداء المسلمين إلى الصلاة ما أقيمت على ظهر الأرض صلاة..

وتجاوب النفوس مع الوحي هو غاية التألق وقمة الحق، وهو أمارة علـــى أن الهـــدى أصبح غريزة فيها، فهي تستقيم عليه في اليقظة والنوم، وتتجه إليه على البديهة وبعد التروي، وكان رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) يربط أصحابه بالوحي النازل عليـــه من السماء ربطاً موثقاً، يقرؤه عليهم ويقرأونه عليه، لتكون هذه المدارسة إشعاراً بما على الصحاب من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر!!

عن عبدالله بن مسعود قال رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم): اقرأ علي القرآن!! فقلت يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: إني أحب أن أسمعه من غيري! قـــال: فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} قال حسبك الآن، فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان..

زاد في رواية (شهيداً ما كنت فيهم..).

وإذا كان الاهتداء إلى ألفاظ الأذان قد ترشحت له سريرة مصفّاة، مشغوفة بالعبـــادة، مشغولة بالحق، فإن من أصحاب محمد (صلَّى الله عليه وسلم) كذلك من اندمجوا فـــي معاني الإيمان، وخلصوا لمعين الرسالة؛ حتى إن الله أمر رسوله أن يقرأ عليهم بعض سور القرآن، تنويهاً بمكانهم عند الله ورسوخهم في آياته.

عن أنس بن مالك قال رسول الله لأبيٍّ بن كعب: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك": {لَـــمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ..} قال أبيٍّ: وسمّاني؟ قال: نعم، وفي رواية آلله سماني لك؟ قال: نعم. قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعـــم، قال: فذرفت عيناه...

٦.٥ الارتقاء الروحي والجماعي الذي أدركه الصحابة لمعنى العبادة:

وسر الارتقاء الروحي والجماعي الذي أدركه صحابة محمد أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح، فلم يشعروا في العمل له بما يشعر به الكثيرون من عنت وتكلف، ولا بما يعانون من شرود وحيرة.

هناك طبيعتان في الإنسان غير منكورتين: الإعجاب بالعظمة، والعرفـــان بالجميـــل، فعندما ترى آلة دقيقة أو جهازاً عجيباً أو صورة رائعة أو مقالاً بليغاً فإنك لا تنتهـــي

من تبين حسنه حتى تنطوي جوانحك على الإعجاب بصاحبه، فإن الذكاء العميق والاقتدار البارز يجعلانك تهتز من تلقاء نفسك احتراماً للرجل الذكي القدير!.

وكذلك عندما يسدى إليك معروف أو تمتد يد إليك بنعمة إنك تذكر هذا الصنيع لمن تطوع به، وعلى ضخامة ما نلت من خير يلهج لسانك بالثناء ويمتلىء فؤادك بالحمد، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي، ولساني، والضمير المحجبا!!

ورسول الإسلام جاء يثير هاتين الطبيعتين نحو أحق شيء بهما، ألست تعجب بالعظمة وتحتفي بصاحبها! ألست تقدر النعمة وتشكر مسديها!

إنك ترمق بإجلال مخترع الطيارة، وكلما رأيتها تشق الفضاء زدت إشادة بعبقريته! فما رأيك فيمن يدفع الألوف المؤلفة من الكواكب تطير في جو السماء من غير توقف ولا عوج! وما رأيك فيمن خلق عقل هذا المخترع، وأودع في تلافيف مخه الذكاء الذي وصل به إلى ما راعك واستثار إعجابك؟

أليس ربك ورب كل شيء أحق بأن تعرف عظمته وتفتح عيونك على آثار قدرته...؟

فإذا عرفت عظمته من عظمة الوجود الذي يحيط بك خجلت من التهجم عليه ونسبة مالا يليق إليه!! وقلت مع العارفين: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

إنك لو استضافك شخص كريم ورأيت البشاشة في وجهه والسماحة في قراه حفظت له –ما حييت– هذه المنة، وسعيت جهدك كي تكافئه عليها، وحدثت من تعرف بسجايا هذا المضياف الكريم، فما رأيك فيمن تولى أمرك بنعمائه من المهد إلى اللحد؟ فأنت لا تطعم إلا من رزقه، ولا تكسى إلا من ستره، ولا تأوي إلا إلى كنفه، ولا تنجو من شدة إلاّ بإنقاذه...!!

إن محمداً (صلَّى الله عليه وسلم) وصل الناس بربهم على ومضات لطاف من تقدير العظمة ورعاية النعمة، فهم إذا انبعثوا لطاعته كانوا مدفوعين إلى أداء هذه الطاعات بأشواق من نفوسهم ورغبات كامنة تجيش بتوقير العظيم وحمد المنعم...

والعبادة ليست طاعة القهر والسخط، ولكنها طاعة الرضا والحب!

والعبادة ليست طاعة الجهل والغفلة، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة!

قد تصدر الحكومة أمراً بتسعير البضائع فيقبل التجار كارهين؛ أو أمراً بخفض الرواتب فيقبل الموظفون ساخطين.

وقد تشير إلى البهيمة العجماء فتنقاد إليك لا تدري إلى مرتعها تسير أم إلى مصرعها.

تلك أنواع من الطاعات بعيدة عن معنى العبادة التي شرع الله للناس، فالعبادة التي أجراها الله على الألسنة في الآية الكريمة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} والتي جعلها حكمة الوجود وغاية الأحياء في قوله:

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي}.

تعني الخضوع المقرون بالمعرفة والمحبة، أي الناشيء عن الإعجاب بالعظمة والعرفان للجميل..

وقد اطَّردت آيات القرآن تبني سلوك المؤمنين على هذه العمد الراسية.

فهي –إذ تعرِّف الناس بالله– تريهم صحائف مشرقة من خلقه البديع، وفضله الجزيل، تمزق ما نسجته الغفلة على الأعين من جهالة وجحود.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}.

إن الرجل لا يقوم بالعمل العظيم وهو منساق إليه بالسياط الكاوية، إنما تولد الإجادة ويبلغ الشيء درجة الإحسان بما يقارنه من رغبة ورضا.

فإذا أقبل المرء بفكره وقلبه على معتقد وهب له نفسه وحسه، وعاش يحلم به في منامه، وينشط له في يقظته، فذلك يرقى به صعداً في فهم مبدئه وإجادة خدمته.

ومن ثَمَّ فإن الإسلام لا يحفل بالإيمان النظري البحت ولا يقبله إلا ليكون سُلّماً إلى ما بعده، وهو الإيمان بالعقل والعاطفة معاً.

لابد من تلوين الوجدان في قضايا الإيمان، ليس بمسلم من يعــرف الله ويكرهــه، ولا قيمة لمسلم يعرف الله ووجدانه خال باهت، فلا إعجاب فيه ولا شكران، كمــا أنــه لا غمط فيه ولا جحود.

والمسلم كل المسلم هو الذي يعرف الله معرفة اليقين، ويضم إلى هذه المعرفة إحساساً يعترف بمجادة المجيد ونعماء المنعم، تباركت أسماؤه!

والإيمان بهذه المثابة هو الإيمان المنتج، وهو صانع العجائب، وباني الــدول، ومقــيم الحضارات السنية، هو الذي يجعل الفرد يستحلي التكاليف المنوطة بعنقه، فيقبل على أدائها وكأنها رغبات نفس لا واجبات دين..

أتظن أن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) عندما قام يصلي حتى تورمت أقدامه كان يغالب الألم الناتج في بدنه كما يغالبه التلميذ المذنب، عندما يوقف الساعات الطــوال معذباً مهاناً؟

كلا..كلا..إن استعذابه للمناجاة واستغراقه في الخشوع أذهلاه عما به، وغلبــا علــى بوادر الألم الناشىء من طول الوقوف.

والرجل الموفور الحماس، الفائر العاطفة، قد يظل يعمل ويدأب حتى يصل في عملــه ودأبه إلى درجة يصعب منالها على القاعدين الباردين.

ووزن الأمور عند أصحاب الإيمان والهمم غير وزنها عند أصحاب الريبة والعجــز، ألا ترى حذيفة بن اليمان عندما انطلق يتعرف أحوال المشركين في غزوة الخنــدق، في ليلة باردة قارصة الجو لافحة السبرات:

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خيشومه الذنبا!

لقد انطلق وهو يقول عن نفسه: كأنما أسير في حَمّام..

هذه حرارة الإيمان غمرت –بدفئها– الرجل، وجعلته ينفذ في كبد الليل البارد وكأنــه سهم مسدد.

هذا الإيمان المرتكز على العواطف المتقدة، هو الذي أشعل المعارك الطاحنة، وقاد إلى النصر المظفر، وهو الذي هدم ما تركز قروناً طويلة في سلطان الظلم والبغي، بعدما ظن أنه لن يطيح أبداً.

وأساسه ما علمت من تغلغل الإيمان في العقل والعاطفة معاً، يغذو شجرته الباسقة مزيد من معرفة الله والشعور بعظمته ونعمته.

ذلكم أسلوب القرآن في تعريف الناس بالله. إنه أسلوب يقيمهم على عبودية الحب والتفاني، لا على عبودية التحقير والهوان، عبودية الإعجاب بالعظمة والإقرار بالإحسان، لا العبودية المبهمة التي تصادر الإرادة وتزري بالإنسان.

{قل: الحمدُ لله وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصطفى؛ آللهُ خيرٌ أمّا يشركون؟ أمَّنْ خلق السموات والأرضَ، وأنزلَ لكم من السماءِ ماءً، فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجةٍ ما كان لكم أن تنبتوا شَجَرها؛ أإلهٌ مع اللهِ؛ بل هم قومٌ يَعدِلون!. أَمَّنْ جَعل الأرضَ قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعلَ لها رَواسيَ، وجعل بين البحرين حاجزاً؟ أإلهٌ مع اللهِ، بل أكثرهم لا يعلمون!. أمَّنْ يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشفُ السوءَ، ويجعلكم خلفاءَ الأرضِ؛ أإلهٌ مع اللهِ! قليلاً ما تذكَّرون! أمَّنْ يهديكم في ظُلماتِ البرِّ والبحر، ومنْ يُرسلُ الرِّياح بُشْراً بين يدَي رحمته؛ أإلهٌ مع الله! تعالى عما يشركون!. أَمَّنْ يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن يرزُقكم مِنَ السماءِ والأرضِ؛ أإلهٌ مع الله! قل هاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين}.

إن هذا التساؤل المتواصل السريع يفتح على النفس آفاقاً بعيدة من الإيمان الذكي، ويجعلها تهرع إلى الله متجردة، تنفر من شوائب الشرك نفور الرجال الكبار من عبث الصبية.

وآيات النظر والتفكير يدور –أغلبها– على هذا المحور الثابت.

وربما احتاجت النفس –في ساعات غرورها– إلى لون من أدب القمع والتوعد يكبح جماحها، وهذا لا يتنافى –البتة– مع الأصل الذي قررناه آنفاً، فإن قسوة الأب مع ولده –حيناً– لا تغير من طبيعة الحنان فيه.

والقرآن إذ يحرك المواهب السامية في الإنسان –بعرض آثار القدرة العليا عليه– قد يردف ذلك بوخزات الإحساس المخدر، ليلتفت ويعقل، لا لينكمش ويجبن.

قال تبارك وتعالى: {أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ}.

ويقول بعد ذلك: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

وقد سلك رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) المنهج نفسه في غرس الإيمان ورعاية ثماره.

وكانت سيرته في الإقبال على الله درساً حياً، يفعم الأفئدة بإجلال الله وإعظامه والمسارعة إلى طاعته، والنفور من عصيانه.

وكانت القلوب تتفتّح على هدى الله ورسوله، فما تسع بعده شيئاً.

عن جُبير بن مُطعم سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ الآية: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَأَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسَيْطِرُونَ}.

كاد قلبي أن يطير..!!.

ومد الإيمان من فكرة في الرأس إلى عاطفة في القلب تجعل الرجل ينبض باليقين والإخلاص هو من صميم السنة. وهو مهاد الخلال الفاضلة التي سادت المسلمين وأعلت شأنهم، وهو معنى الحديث المشهور "ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار".

ومن ذلك أيضاً أن يتغلغل الإيمان بالرسالة والمغالاة بصاحبها إلى حد ينسى الإنسان معه نفسه فهو –عن حب واندفاع، لا عن تكليف ورهبة– يفدي الرسالة وصاحبها بالنفس والنفيس.

عن عبدالله بن هشام: قال: كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام وهو آخذ بيد عمر، فقال عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي! فقال الرسول (صلَّى الله عليه وسلم): لا –والذي نفسي بيده– حتى أكون أحبّ إليك من نفسك، فقال عمر: فإنه الآن لأنت أحبُّ إلي من نفسي! فقال رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم): الآن يا عمر.."، أي الآن فقط تم إيمانك.

وهذا الحديث يحتاج إلى إيضاح. إن الفضائل لا يجوز أن تطيش بها كفة.

وقد احترم الناس خلق الوفاء في السموأل لمّا ترك ابنه يذبح، مؤثراً أن تسلم ذمته، ويرد إلى من ائتمنه وديعته.

والمرء إذا ضحى بنفسه فداء شرفه، فقد أدى واجبه.

ومحمد (صلَّى الله عليه وسلم) لم يطلب من الناس أن يقدسوا فيه صورة اللحم والدم، ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم ليموتوا كي يحيا أو ليهونوا كي يعظم، أو ليفتدوا أمجاده الخاصة بأرواحهم وأموالهم، أو ليتأله فوقهم كما تأله فرعون وأمثاله من الجبارين.

كلا كلا، فمحمد يريد من المؤمنين أن يقدسوا فيه معنى الرسالة وأن يقتدوا فيه مثلها العالية، وأن يصونوا –في شخصه– معالم الحق المنزل ومآثر الرحمة العامة.

إن الأنبياء لم يحيَوا لأنفسهم، والمصيبة فيهم لا تنزل بهم أو بأهلهم خاصة.

إنهم يحيون للعالم كله. أليسوا مناط هدايته التامة وسعادته العامة؟

فلا غرو إذ كانت تفديتهم من أصول الإيمان ومعاقد الكمال.

وقد كان محمد (صلَّى الله عليه وسلم) أهلاً لأن يحب؛ وما تعرف الدنيا رجلاً فاضت القلوب بإجلاله، وتفانى الرجال في حياطته وإكباره مثل ما يعرف ذلك لصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام.

٧.٥ قيادة الرسول في المدينة التي تهوي إليها الأفئدة:

عن عبدالله بن سلام قال: أول ما قدم رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستثبتّه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب! قال: وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال:

أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام.

إن أضواء الباطن تنضح على الوجه فتقرأ في أساريره آيات الطهر، وقد ذهب عبدالله يستطلع أخبار هذا الزعيم المهاجر، فنظر إليه يحاول استكشاف حقيقته، فكان أول ما اطمأن إليه بعد التثبّت من أحواله أن هذا ليس بكاذب، والملامح العقلية والخلقية لشخص ما لا تعرف بنظرة خاطفة، ولكن الطابع المادي الذي يضفي على الروح الكبير كثيراً ما يكون عنواناً صادقاً على ما وراءه.

على أن الذين عاشروا محمداً (صلَّى الله عليه وسلم) أحبوه إلى حد الهيام، وما يبالون أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر.

وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يعشق عادة لم يُرزق بمثلها بشر.

كان ثوبان مولى رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه، يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم): ما غيَّر لونك؟ فقال: يا رسول الله، ما بي مرض ولا وجع؛ غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم إني إذا ذكرت الآخرة أخاف ألا أراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين؛ وإني إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخلها لم أرك أبداً، فنزل قوله تعالى:

{ومن يُطع الله والرسول فأولئكَ معَ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسُن أولئك رفيقاً}.

وفي الحديث "المرء مع من أحب" والمقصود حب الأسوة لا حب الهوس، فإن الرجل إذا أحب من هو مثله أو أعلى منه، فأساس هذا الحب تفتح قلبه لخلال النبل التي خصوا بها، وعظمة المواهب التي ميزهم بها القدر.

وآثار الشجاعة والكرم لا يرحب بها الجبان الشحيح، إنما يحييها في أصحابها من أوتي حظاً منها، وهو بسبيله إلى استكمال ما فاته من تمامها.

فمن نعمة الله أن يلحق بالعظماء من يعشق فيهم جمال العظمة، ولذلك قال بعد الآية السابقة: {...ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا}.

والحق أن التابع المحب شخص فاضل.

ففي الدنيا كثيرٌ من الأخسّاء الذين إن عَلَوا حقَّروا من دونهم، وإن دنَوا كرهوا من فوقهم! فما تدري متى تخلو نفوسهم من أحاسيس البغضاء والضَّعَة؟

أما عشاق المبادىء المجردة، فما أن يجدوا رجلها المنشود حتى يحيطوا به، وتلمع عيونهم حباً له، أي حباً للمبادىء التي حييت فيه وانتصرت به.

وما كان ربك ليضيع هذا اليقين ولا أصحابه الأبرار.

عن أنس قال: لما كان اليوم الذي دخل النبي (صلَّى الله عليه وسلم) فيه المدينة أضاء منها كل شيء. فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

فانظر إلى بشاشة العاطفة الغامرة كيف صبغت الآفاق بألوانها الزاهية، وانظر إلى حسرة الفقد كيف تخلِّف سوادها الكابي على كل شيء!!

هكذا كانت دار الهجرة، لقد أحبت الله وأحبت رسوله.

فكان هذا الحب المكين سر انتصارها الرائع للإسلام، ومبعث التضحية عن طيب نفس بكل مرتخص وغال.

وقوم يربطهم بقائدهم هذا الإعزاز الهائل، تندكُّ أمام عزائمهم الأطواد الراسية.

سأل الحسن بن علي هند بن أبي هالة عن أوصاف رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) فوصف له بدنه فكان مما قال: "...يمشي هوناً، ذريع المشية -واسع الخطو-. إذا مشى كأنما ينحط من صبب -يهبط بقوة- وإذا التفت التفت جميعاً. خافض الطرف.نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جلُّ نظره الملاحظة -أي لا يحدِّق- يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام".

قلت: صف لي منطقه. قال: كان رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه -لا بأطراف فمه- ويتكلم بجوامع الكلم، فصلاً، لا فضول فيه ولا تقصير، دمثاً، ليس بالجافي ولا المهين. يعظم النعمة وإن دقت. لا يذم شيئاً، ولم يكن يذم ذواقاً -ما يطعم- ولا يمدحه. ولا يُقام لغضبه إذا تُعرِّض للحق بشيء حتى ينتصر له. ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها -سماحة- إذا أشار أشار بكفه كلها. وإذا تعجب قلبها. وإذا غضب أعرض وأشاح. وإذا فرح غض طرفه. جلُّ ضحكه التبسُّم، ويفترُّ عن مثل حَبِّ الغمام.

وقال ابن أبي هالة يصف مخرجه -على الناس-: كان رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) يخزن لسانه إلا عمّا يعنيه، يؤلِّف أصحابه ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم ويولِّيه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غيرأن يطوي عن أحد منهم بِشْره.

يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، ويحسِّن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملُّوا.

لكل حال-عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره.. الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

ثم قال -يصف مجلسه-: كان رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن -لا يميز لنفسه مكاناً- إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، مَنْ جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق متقاربين، يتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء، وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم

-لا تخشى فلتاته- يتعاطفون بالتقوى. ويوقرون الكبير ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

وقال يصف سيرته: كان دائم البشر -سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا فحاش، ولا عتّاب، ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يقنط منه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحداً، ولا يعيِّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه. إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت -تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه. ولا يطلب الثناء إلاّ من مكافىء.

هذه خطوط قصار لما يراه الناس من مظاهر الكمال في سيرة النبي "المحمد".

أما حقيقة ما بني عليه هذا الرسول الكريم من أمجاد وشمائل فأمر لا يدرك كنهه، ومعرفة العظماء لا يطيقها كل أحد، فكيف بعظيم خلائقه القرآن؟ إن الأمة التي أخرجت للناس في المدينة بلغت الأوج.

كانت تعمل وتجاهد لله وحده، وتسعى إلى غايتها المرموقة في جذل وثقة.

التفت حول نبيها التفاف التلامذة بالمعلم، والجند بالقائد، والأبناء بالوالد الحنون.

وتساندت فيما بينها بالأخوة المتبادلة المتناصرة، فهم نفس واحدة في أجسام متعددة، ولبنات مشدودة في بناء متسق صلب.

وأدارت علاقاتها بالآخرين على العدل والبر، فليس يظلم في جوارهم بريء. أو يحرم من ألطافهم عان.

وبرغم ما وقع عليها من بغي قديم، فقد جعلت الإسلام يجبُّ ما قبله.

فمن تطهر من جاهليته وتاب إلى ربه فلا نظر إلى ماضيه، بل ينضم إلى الأمة المسلمة عضواً كريماً فيها، تغفر سيئاته ليستقبل -بصالح عمله- كتابه الجديد.

أما الذين بقوا يكفرون ويصدّون، فلابد من الإعداد لهم، حتى تخلص الأرض من كفرهم وصدهم.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا. إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}.

كانت هذه الأمة تكدح لله وتصل مساءها بصباحها في عبادته، وقد حزمت أمرها على واحد من اثنين: إما أن تحيا لله، وإما أن تموت فيه!.

ولو ذهبت توازن بين المسلمين يومئذ وبين سائر العالم، لرأيت عناصر الغلب والامتياز تتجمع –لديهم– صاعدة، على حين تفور –في كيان الملل الأخرى– زلازل حاطمة؛ فلا غرو إذا صاروا بعد سنين معدودات دولة فتية، تقضي لربها ولنفسها ما تشاء.

ثم إن الشرائع المفصّلة أخذت تنزل في المدينة منظمة أحوال المسلمين الخاصة والعامة، ومبينة قواعد الحلال والحرام على تدرج، إلى أن وصلت إلى وضعها الأخير كما سجلها تاريخ التشريع.

فقامت الحدود، وفرضت الزكاة والصيام، وزيدت ركعات الصلاة لأول العهد بيثرب.

عن عائشة: فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأقرت صلاة السفر وزِيدَ في صلاة الحضر.

(من كتاب فقه السيرة للغزالي)

من تراث رجالات الدعوة في مناسبة الهجرة

القيادات التاريخية للإخوان المسلمين

- الإمام البنا: الهجرة درس في حب الله
- الهضيبي: الدعوة تضحية بالوقت والجهد والمال
- التلمساني: المسلمون حياتهم كلها هجرة

تمثل الهجرة النبوية الشريفة مناسبةً يحتفل بها المسلمون كل عام، تتبارى في الاحتفاء بها الأقلام وألسُن الخطباء، ويحفظ التاريخ مقالاتٍ وخطبًا لرجالات الدعوة، ومن هؤلاء الأئمة حسن البنا وحسن الهضيبي وعمر التلمساني رحمهم الله جميعًا، وفيما يلي ننشر جانبًا من تراث هؤلاء الأعلام:

١- فضيلة المرشد العام الأستاذ حسن البنا يتحدث عن الهجرة:

نظرات في الهجرة

نحمد الله تبارك وتعالى، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.. أما بعد!!

أيها الإخوان الفضلاء.. أحييكم بتحية الإسلام تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

إنكم أيها الإخوان في حفل تكريم الآن، وفي ذكرى رسول كريم؛ لأنكم اجتمعتم في تاريخ هجرته المباركة التي جاءت فاصلاً بين الحق والباطل، بل ظهر الحق وغاب الباطل ؟وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ؟ (الحج: من الآية ٤٠).

أيها الإخوة برغم هذا أعتذر إليكم إن لم يتسع لكم المكان، فقد وسعتكم صدورنا، فلا تضيق صدوركم من زحام شديد، فإن به الرحمةَ تتنزل والخير يفيض، أفسحوا لهذه الذكرى من صدوركم ومشاعركم، فإنها- بكل الحق- فيها العبرة والعظة ؟لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا؟ (الأحزاب: الآية ٢١).

أيها الإخوة.. ونشكر لكم تلبيتكم هذه الدعوة، ونهنئكم بهذه الذكرى، ونسأل الله- تبارك وتعالى- أن يُعيدها على الأمة الإسلامية بالأمن والإيمان والطمأنينة والسلام، وإنه أكرم مسئول وأفضل مأمول.

أيها الإخوان.. إن الحديث عن الهجرة حديث يطول، ولكن سأستلهم من هذا الشعور الفياض وذلك التطور الجديد ذلك المعنى السامي الذي أحدثته الهجرة في النفوس.

لا شك أيها الإخوة أنَّ القلب الإسلامي والعقل الإسلامي والأمة الإسلامية في تطور جديدٍ وشعور جديد، أشرقت أنواره، وبدت مطالعه في هذه المظاهر البهيجة، وفي هذه العاطفة الروحية التي تزداد بها الأرواح إشراقًا، وتزداد بها الوحدة تماسكًا، تحسُّ أثرَه يا أخي في المساجد والجمعيات والجماعات، ففي كل مكانٍ يوجد مظهر، وفي كل ناحية من نواحي الخير تجد قلوبًا تتطلَّع إلى المستقبل المليء بالخير.

سأستلهم أيها الإخوة هذا المعنى الذي أتحدث إليكم فيه عن الهجرة ومعانيها السامية في كلمة رئيس الدولة في رسالته التي يخاطب بها شعبه، ويستنهض بها الأمةَ الإسلاميةَ، والتي قال فيها: "أذكر مع الذاكرين فيه الأماني، وتمتلئ القلوب قوةً وأملاً وإيمانًا بالله، تعالت قدرته، وعلت مشيئته.

إن هجرة الرسول- صلوات الله وسلامه عليه- قد أودعت ضمير الزمان مبادئَ شرفت بها الإنسانية، وسما بها قدر الإنسان، ومن حق الذين يحتفلون بذكرى الهجرة أن يهنأوا، فإليكم حقكم من هذه التهنئة الخاصة، وإلى المسلمين جميعًا في كل مكان تحياتي مشفوعة بأماني المجد لهم.

إنَّ رئيسَ الحكومة يهيب بالمسلمين في حديث الهجرة فيقول: "لقد هانت الحياة حين عزت العقيدة، وصغرت الدنيا حين كبر المقصد وسمت الغاية، فما قيمة الحياة بغير لبابها؟ بل ما غناء الدنيا بدون شرفها؟ وإن لباب الحياة لهو العقيدة، فإذا خلت منها فهي ذلٌّ وصَغار، وإنَّ شرف الدنيا أن يعمل الإنسان على إقالة العثار، ويعين على نوائب الحق، فإذا استنام للباطل، فليس له من الدنيا نصيب إلا ليل ونهار، والمرء بينهما خيالٌ سارٍ".

وإنَّ فضيلة شيخ الأزهر في حديثه عن الهجرة يقول: "إنه إذ يذكر مزاياها، إنما ننشر للناس ما يجب أن يعلموه من معاني الصبر والتضحية والثبات على المبدأ والحياة الشريفة أو الموت في سبيل المبدأ".

أيها الإخوان.. هذا تطور جديد في الشعور الإسلامي والقلب الإسلامي، والذي كانت قلوبنا تهتف به؛ لأنها لم تكن تقيدها القيود والرسوم، ولم تكن الأحوال الشكلية تحولُ بينها وبينه، وما كنا نطمع أن يهتف به عليةُ القوم وجلة الناس وأهل النفوذ فيهم، بل كنا نعتبر هذا أمنيةً، فإذا أحلام الأمس حقائق اليوم ؟وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ* بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ؟ (الروم: ٤، ٥).

وإذا كان رئيس الدولة يقول إن هجرة الرسول- صلوات الله عليه وسلامه- قد أودعت ضمير الزمان مبادئَ شرفت بها الإنسانية، وسما بها قدر الإنسان، فإني أحب أن أتناول شيئًا من البيان لهذه المبادئ.. هذه المبادئ العليا- أيها الإخوان- قد أنتجتها هجرةُ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فأودعتها ضمير الزمان وشرفت بها الإنسانية، وأثَّرت في حياة الأمة الروحية، فليست حياة الأمة في الإصلاحات الاقتصادية ولا في نهضاتها الإدارية، ولا في أعمالها الشكلية، فإن هذا في حياة الأمم لا يساوي فيضَ الله- تبارك و تعالى- على القلوب والأرواح متى عرفت ربَّها وخالط الإيمانُ بشاشةَ قلوبها، تعالَوا- أيها الإخوان- نتلمَّس هذا الفيضَ من هجرةِ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى المدينة نجده واضحًا في تلك المبادئ التي أشرقت بها الدنيا وعلا بها قدر الإنسان، والتي امتحن بها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أصحابَه من المهاجرين والأنصار، بعد أن درس هذه المبادئ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فجاءت تلك الهجرة نتيجةً لتلك الدارسات العميقة وانطباعها بتلك المبادئ القويمة، وكان من حظ الدنيا أن استجاب لها المسلمون واستحقوا بها الشهادة شهادةَ الله جلَّت قدرتُهُ ؟كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ؟(آل عمران: من الآية ١١٠).

تعالَوا أيها الإخوة نتدارس تلك المبادئ؛ لعلنا نستطيع أن نصيبها بنحو ما أصابها أسلافنا من عدة قرون.

أيها الإخوة إن المبادئ التي جاء بها النبي- صلى الله عليه وسلم- والتي ركَّز لها كفاحه في مكة قد أُحيطت بقلوب رجالٍ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فإذا نحن حاولنا أن ننجح كما نجحوا فعلينا أن ننتهج بنهجهم، ونسلك مسلكهم، وإنهم باعوا أرواحهم لله، وضحَّوا بأنفسهم في سبيل الله ؟إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ؟ (التوبة: الآية ١١١)، واسمحوا لي أيها الإخوة أن أبيِّن لكم مبلغ ذلك العبء الذي احتمله رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في صقل النفوس وفي غرس المبادئ. ومضى ﷺ ثلاثةَ عشرَ عامًا يغرس في النفوس مبادئه القويمة وتعاليمه النافعة، ويكرِّر ذلك حتى تعيَه القلوب وتمتزج به الأرواح، وهو بعد هذا يعتقد أن الله أقرب إليه من كل ما عداه، فإذا دعا فلله، وإذا تكلم فلله، وإذا أحسن عملاً فلوجه الله ؟أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا؟ (المجادلة: من الآية ٧).

يؤمن الرسول- صلى الله عليه وسلم- حق الإيمان بذلك، ويعلم علم اليقين أن أهل السماء والأرض لو اجتمعوا على أن ينفعوا أحدًا أو يضروه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ؟قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ؟ (آل عمران: من الآية ١٥٤) ؟لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ؟ (الروم: من الآية ٤).. هذا المبدأ يا أخي، وهذه الفكرة استقرت في قلوب طلبة مدرسته الأولية صلى الله عليه وسلم، واستولت على صميم قلوبهم، يعتزون بها ويعملون لها، وما كان لصاحب العقيدة السليمة أن يُفتَن في عقيدته ؟وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ؟ (العنكبوت: من الآية ٢).

استقر هذا المبدأ وتمكَّنت هذه العقيدة في نفوس المؤمنين الأُوَل، ثم جاءت الهجرة وأصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- على ما هم عليه من العزم والقوة، يتأهبون لها ويسارعون لنيل شرفها، وما كان لهم من قوة يستنصرون بها إلا اعتزازهم بالله واعتمادهم على الله.. ها هو ذا عمر- رضى الله عنه- يتنكَّب قوسه ويطوف بالكعبة، ويمر بالملأ من قريش ثم يقول: من أراد أن تثكله أمه أو ييتَّم ولده فليتبعني، وها هو ذا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يستعد للهجرة وفي صحبته أبو بكر الصديق ثم يخرج ليلاً تاركًا وطنَه وحب قلبه، وأي ألمٍ للنفس وأي شدة لها من أن يترك الإنسانُ بلده ومسقط رأسه، ولكنه في طاعة الله وابتغاء مرضاة الله!!

والهجرة أخت القتل ؟وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ؟ (النساء: ٦٦) وما كانت مكة بالبلد البغيض، بل هي أعز البلاد إليه، فها هو ذا- صلى الله عليه وسلم- يخاطبها عند فراقه لها فيقول: "يا مكة.. إنك لأحب البلاد إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت".

أيها الإخوة.. ذلك كان حبهم لمكة ولكن الله أحب إليهم من كل شيء ؟قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ؟ (التوبة: الآية ٢٤).

أيها الإخوة.. ويخرج رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فارًّا بدينه من القرية الظالمِ أهلها، متوخيًا كيدَ أعدائه، فيختبئ في غار ثور، ثم يقول له الصديق أبو بكر رضي الله عنه: والله يا رسول الله لو نظروا تحت أقدامهم لرأَونا، فيقول صلى الله عليه وسلم: "ما بالك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما.. لا تحزن إن الله معنا" ؟إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا؟ (التوبة: الآية ٤٠).

أيها الإخوة.. لقد امتُحن الذين سبقوا من المهاجرين فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، وامتحن الأنصار بالوفاء والنصرة لهؤلاء، فنجحوا نجاحًا سجَّله الله عز وجل في كتابه: ؟وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ؟ (الأعراف: من الآية ١٥٧).

وتمضي الأيام فإذا بهم يكونون له نماذجَ الوفاء، ما تردَّدوا وما تلكأوا، حتى في أحرج المواقف، فها هو ذا سعد بن عبادة– رضى الله عنه– يقول في إحدى الغزوات: إنا صُبُرٌ في الحق، فلا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: "فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون" ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.. عاشوا على الحق وماتوا على الحق، فنالوا الدرجةَ العليا في سجل الدرجات ؟مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً؟ (الأحزاب: الآية ٢٣).

أيها الإخوة.. ولقد كان من مفاخرهم أنهم كانوا يقاسمون المهاجرين أموالَهم وإن كانت محدودةً، ولكنَّ قلوبَهم كانت عامةً وغير محدودة وسِعَت كلَّ من وفد عليها، وهكذا تحققت معنى الوحدة الوحدة الحقيقية من معرفةٍ إلى صداقةٍ، ومن صداقةٍ إلى حبٍّ، ومن حبٍّ إلى إيثارٍ، ولا عجبَ أن سجَّل القرآنُ الكريم هذه المواقفَ في قوله تعالى: ؟وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ؟ (الحشر: الآية ٩).

هكذا يا أخي امتُحِن المهاجرون بالإيمان القوي والصبر، وامتُحِن الأنصارُ بالحب الكامل فنجحوا جميعًا، واستقر المجتمع بتلك المبادئ السامية التي علا بها قدرُ الإنسان وشرفت بها قيمة الإنسان.

أيها الإخوة.. هذه المبادئ التي توحيها الهجرة ها أنتم درستموها وقرأتموها، ولكني أصارحكم أنَّ الدرسَ شيء والعمل بها شيء آخر، كما أنَّ الأخلاق شيء والعمل بها شيء آخر، وعِلم الدين شيء والعمل بالدين شيء آخر، فقد نرى مستشرقًا عالمًا

بالدين، وهو على فكرته وعقيدته، وعالمًا يؤلّف في الأخلاق وليس عنده من الأخلاق شيء، وقد لا ينطق الرجلُ بكلمةٍ ولا بجملةٍ من العلم، لكنَّ نفسه دَيِّنةٌ مشرقةٌ منيرةٌ، ولسان الهجرة يفيض كل عام، ويذكرها المسلمون، فهل المسلمون يعتبرون بهذا اللسان ويستمعون لهذا اللسان؟!

إنَّ القلوب لم تتَّجه بعد ولا تريد أن تؤدِّيَ الامتحانَ، وإذا كان هذا حالها فيا ضيعة العمر!! لهذا أهيب بالإخوان المسلمين إذا عرضوا لاحتمال شيءٍ عظيمٍ أهيب بهم إذا عزَّ ذلك على الأمة أن يكونوا نماذج للدعوة الحقة، فإذا رآهم الناس قد تحمَّسوا واعتزُّوا بالإيمان، وتحلوا بالصبر والوفاء والحب والتآخي والبذل والاستعداد والتضحية في سبيل الحق، فسيعملون بعملهم ويتحمسون بحماسهم، فإن الحقوقَ تُطلَب ويُكَافَح في سبيلها.

فسيروا أيها الإخوان على بركة الله، عاملين على إعلاء كلمة الحق، التي يجب أن تتجه إليها قلوبكم اتجاهًا قويًّا ؟وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؟ (آل عمران: الآية ١٣٩).. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢- فضيلة الأستاذ المرشد حسن الهضيبي يتحدث عن الهجرة في الاحتفال بذكرى الهجرة بالمنصورة- المحرم ١٣٧٣ سبتمبر ١٩٥٣، تحدث فضيلة الأستاذ المرشد حسن الهضيبي فقال:

بِسمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوان.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الأستاذ سيد قطب كان يقول في كلمته: إننا لا يجب أن نهتم كثيرًا بالخطب، ولا ننشر الدين بالخطب، ولهذا فسأكلمكم وأنا جالس؛ لأني لا أريد أن أكون خطيبًا، ولا أحب أن أكون خطيبًا.

يا إخوان..

كنا زمانًا في المدرسة الثانوية، وحيث لم تكن هناك وقتها احتفالاتٌ بالعام الهجري بدرت عندنا فكرةٌ من الغيظ من الاحتلال.. فكرة نتنفس بها في جانبٍ من جوانب

الحياة.. فقلنا نحتفل بالعام الهجري، وبعد تعبٍ أجبنا إلى أن نحتفل بهذا العيد، ثم مرت أيام وأنا فكرت: ما الذي استفدناه من الاحتفال بالعام الهجري؟! وجدت أولاً أنه لا فائدةَ لهذا الاحتفال بالمرة.. ندخل الاحتفال عُصاةً ونخرج منه عُصاةً، يعني مثلاً كنَّا ندخل بغير صلاة المغرب ونخرج ولم نصلِّ العشاءَ، وكنا ندخل ولا عِلْمَ لنا بآيةٍ واحدةٍ من القرآن، ونخرج بنفس الحال ولا نعرف آيةً واحدةً من القرآن.

كنا ندرس القانونَ في مدرسة الحقوق ولا نشعر بأنه ينقصنا شيء، وما كنا نشعر بأنَّ هناك دينًا اسمه الإسلام يستوجب علينا أن ندرسَ شريعةَ الإسلام على اعتبار أنَّها قانونٌ حيٌّ، على اعتبار أنها قانون لازم للحياة.. فما فائدة هذه الاحتفالات؟! وبقينا على هذه الحال، وكلما مرَّ الوقت قلَّ أملي في هذه الاحتفالات؛ لأنَّ الكلام الذي يُقال فيها "يدخل من أُذن ويخرج من أُذن"، ولا نتقدَّم به شيئًا.

أليس هذا هو الحق؟! نعم هو الحق وهو الواقع، وجاءت أحداث بالبلد أمَّلنا فيها خيرًا فلم ينتج عنها خير، إلى أن وقعتُ على دعوة الإخوان المسلمين، فعلمت أنَّ هذا قبسٌ من نور، وأنَّ هذا النور يوشك أن يهدي الناسَ كما هداهم أوَّل الأمر.

يا إخوان..

إنَّ دعوةَ الإخوان المسلمين ليست شيئًا جديدًا.. إنها الدين الخالص.. الدين الذي ليس فيه كتب لمطالعتها ليلاً ونهارًا ونرجع إليها.. إنها قولٌ بسيطٌ جدًّا: لا إله إلا الله محمد رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.. إنها الأخلاق.. إنها الفطرة السليمة.. إنها شيء عملي نعمله كل يوم.

وقد نظرنا حولنا فوجدنا أنَّ الإخوانَ المسلمين أوجدوا في البلد حياةً.. أوجدوا في البلد طائفةً من الشباب استعدَّت بالروح وبالجسم وبالمال لافتداء الدين والوطن، ووجدنا أنَّ هذه الفئةَ ثابتةٌ لا تتكلَّم، لا تهتف باسم أحد، ولا تعظِّم شخصًا ولا تحيِّي إنسانًا، إنما تحيِّي الله سبحانه وتعالى، تحيتهم هتاف لله سبحانه وتعالى، عاملين منيبين طيبين يتوجهون لله بالعمل الطيب، ويعملون في صمت وسكون، إلى أن أتت الأحداث فأثبتت أنهم جنود الله حقًّا.

الدعوة الإسلامية دعوةٌ تشمل الحياةَ كلَّها.. تدخل على الإنسان.. تغيِّر من عقيدته كما غيَّرت عقيدة عبدة الأوثان وعبدة الناس.. تدخل في قلوب الناس فتنير بصائرهم.. تدخل في قلوب الناس فتريهم الحقَّ حقًّا والباطلَ باطلاً.. تريهم الحق فيتبعونه وتريهم الباطل فيجتنبونه، هذه هي دعوة الإخوان المسلمين التي نتحدث عنها، ونقيم هذا الاحتفالَ في الحقيقة لا لنقول لهم العام الهجري فحسب، إنما لنُبيِّن شيئًا من حقيقة دعوة الإخوان المسلمين، ولا أريد أن أطيل في هذا الأمر، إنما أريد أن نرجع إلى يوم الهجرة فقط لأعرض بعض اعتباراتٍ نستفيدها من الهجرة.

يا إخوان..

الحاجة الأولى التي نستفيدها من كلام أخي عبد المعز وكلام أخي سيد.. استفدنا أنَّ الرسول- صلى الله عليه وسلم- منح الدعوةَ كلَّ وقتِهِ وكلَّ روحِهِ وكلَّ جسمِهِ وكلَّ مالِهِ إن كان عنده مال.

فيا أيها الإخوان.. لا تظنُّوا أنَّ كلامي لكم تملقٌ، إنَّ أمامكم الشيء الكثير الذي يجب أن تفعلوه، ولا تظنوا أنَّ مَن انتسب إلى دعوة الإخوان المسلمين قد بلغ منها حظه حقًّا، يجب على من يدخل الدعوةَ أن يهبَهَا ويمنحَهَا كلَّ وقتِهِ وكلَّ جهدِهِ وكلَّ مالِهِ وكلَّ نفسِهِ، فلا نكتفي بالحضور إلى الشعبة فيمكث الواحد فيها طول النهار، إنما يجب أن يمنحَ الدعوةَ كل وقته، وليس معنى كلامي الواحد يدور في الشوارع ينادي بدعوة الإخوان المسلمين، ولا أن ينصرف عن أعماله ولا يجعل له من سبيل إلا الكلام عن دعوة الإخوان المسلمين، ولكن أقول مع ذلك إنه يجب أن يمنحَ دعوةَ الإخوان كلَّ وقته وكلَّ جهده وكلَّ ماله وكلَّ نفسه، وذلك بأن يحقق في نفسه وفي عمله وفي سائر النشاط الذي يعمله في يومه معاني القرآن العظيم.

يجب أن يمنح الواحد هذه الدعوة يمنح هذا الدين كلَّ الوقت ليحققَ المثلَ الأعلى الذي بيَّنه القرآن، ونحن في هذا الطريق لنا مثل أعلى، وفينا من هو مثل أعلى، وفينا من يصلح، وفينا من لا يطيق، ولكن كلنا يريد الوصولَ لله سبحانه وتعالى، وكلنا يريد الصعودَ إلى جبلٍ.. فمنا من يصل إلى القمة، ومنا من يصل إلى منتصف الجبل، ومنا

من يظل في السفح، ومنا من يبدأ، لكننا جميعًا لنا وجهةٌ واحدةٌ هي وجهة الله ؟أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ؟ (الزمر: من الآية ٣).

فيا أيها الإخوان..

الدين الخالص يقتضينا في التجارة وفي الزراعة وفي معاملتنا للناس، التلميذ في مدرسته، الزارع في زرعه يعبد الله بإتقان عمله ويعبد الله بأن يفكر دائمًا في الله حين يعمل العمل، فيعمله لوجههِ تعالى.. إذن نكون قد منحنا الدعوةَ كلَّ وقتنا وكلَّ جهدنا وكلَّ مالنا، فلا يدخل على الحياة زَيف منها، ولا يدخل علينا الغرور من أي جانب من جوانب أنفسنا، فيجب علينا دائمًا أن نكون مستغرقين في دعوة الله سبحانه وتعالى كما كان رسول الله- عليه السلام- مانحًا كلَّ وقتِهِ بالليلِ والنهارِ، كل حاجة.. كل عمل من أعماله كان خالصًا لوجهه تعالى في تجارته.. في نشاطه.. في كل عمل من أعماله.. كان خالصًا لوجهه تعالى، وكان يؤدِّي هذا الواجبَ عن طيب خاطرٍ وهو شغوفٌ به، فيجب كذلك أن يكونَ لنا في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ، وأن نتَّجه إلى الله العلي العظيم بكلِّ أنفسنا وكل قلوبنا وبكل أرواحنا وبكل ما نملك ونعمل لهذه الدعوة، وبذلك يمكن أن نقول إننا أدَّينا شيئًا نلقى الله به بوجهٍ حسنٍ.

يا أيها الإخوان..

الدعوة كما سمعتم يا إخواني لا تزال كما كانت في أول الأمر، تحفُّها العقبات وتحفها الصعاب، وأراكم حين تشمون طعمَ العافيةِ تطمعون في هذا وتفكرون أنكم وصلتم إلى شيءٍ كبيرٍ.. فأنا أتمنى لكم الشدائد حتى تستحقوا أن تكونوا الإخوان المسلمين.

فنسأل الله أن يُديمَ علينا الشدائدَ حتى يُدِيم علينا الإيمانَ الكاملَ، فلا نستطيع أن نمضي في دعوتنا إلى الله إلا إذا أيقنَّا أننا أمام عقباتٍ كثيرةٍ وصعوباتٍ جمَّةٍ ويجب أن نجتازها.. والصعوبات والعقبات تتجدَّد كل يوم، ليس فقط اليوم، وليس فقط صعوبات وعقبات إبراهيم عبد الهادي، إنما ما زال أمامنا الكثير من هذه الصعوبات والعقبات، فيجب علينا أن نفكِّرَ في ذلك، ويجب علينا أن نكونَ مستعدِّين لذلك، ودعوة الإخوان المسلمين لا تحتاج إلا إلى يقظتهم، ولا تحتاج إلا إلى عنايتهم بعد عناية الله بطبيعة

الحال؛ لأنَّ دعوةَ الإخوانِ المسلمين أصبحت من الدعوات العالميةِ التي لا يمكن لشخصٍ من الأشخاص أن ينالَ منها. إنَّ دعوة الإخوان لم تَعُدْ دعوةَ جماعةٍ أو جمعيةٍ في مصر يقال لها الإخوان المسلمون؛ إنما أصبحت دعوةً عالميةً.. دعوةً يعرفها المشرق والمغرب، دعوةً ينتظرها الناس جميعًا شرقيهم وغربيهم.. دعوةً ينتظرها المسلمون لإنقاذهم من كل ما هم فيه من بلاء.. ينتظرونها في مراكش وفي تونس وفي المغرب الأقصى وفي ليبيا وفي خليج العرب وفي إندونيسيا وفي تركيا وفي باكستان وفي كل مكان ينتظرون دعوة الإخوان المسلمين.. ويعتقدون أنه لا سبيل لإنقاذهم إلا بالإخوان المسلمين، فإذا كان هذا هو اعتقاد الناس فيكم، وإذا كان هذا أمل الناس فيكم فيجب أن تحققوا أمل الناس، ويجب أن تحققوا رجاء الناس، ويجب أن تهتموا بالدعوة وتتفانَوا فيها، وحينئذ لا يستطيع أن يمسكم أحد.

إنَّ دعوة الإخوان المسلمين ليست شُعَبًا وليست مكاتبَ إداريةً، وليست مكتبَ إرشادٍ، وليست حاجةً اسمها جماعة الإخوان المسلمين، إنما هي دعوةٌ أصبحت في القلوب، لا يمكن أن يحلّها إلا الله، قد تكفَّل لا بحلها ولكن بصيانتها، إنكم إن فعلتم كنتم مجاهدين في سبيل الله، والله تعالى وعد المجاهدين بالخير الكثير فقال ؟وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ؟ (العنكبوت: الآية ٦٩) فإن فعلتم ذلك فلينصركم الله والله قد تكفَّل بالنصر؛ لأنَّ النصرَ ليس بالكثرةِ ولا بالقلةِ، وليس بيد مخلوق وإنَّما هو بيد الله تعالى في آيات القرآن الكريم جميعًا.

إنه اختصَّ نفسه بالنصر فلا يمنحه إلا لعباده العاملين إلا لعباده المتقين إلا لعباده الذين ينصرونه وينصرون دينه ؟وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ(٤١)؟ (الحج)، فدعوة الإخوان المسلمين لم تصبح لعبةً في يد الناس، وإنما أصبحت حقيقةً في هذا البلد وحقيقةً في بلاد العالم الإسلامي، ولا بد من أن ننتصر ولا بد من أن ننال حقنا وواجبنا بتطبيق كتاب الله تعالى إن عاجلاً أو آجلاً.

يا أيها الإخوان..

لا أريد أن أطيل عليكم، وأرجو أن أراكم بخير وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٣- فضيلة الأستاذ المرشد عمر التلمساني يكتب عن الهجرة

١- المسلمون حياتهم كلها هجرة:

تطلع علينا شمس أول محرم ويومها يهيب بالمسلمين "يا ابن آدم: أنا خلق جديدٌ، وعلى عملك شهيدٌ، فاغتنمني فإني لا أعود إلى يوم القيامة" فماذا أعددنا لعامنا الجديد بعد هذا النداء الصادق من ناصح مخلص وفيّ؟ لم تكن هجرة المصطفى- صلوات الله وسلامه عليه- نتيجةً لفساد المجتمع الذي قامت دعوةُ الإسلامِ فيه، فالدعوة الإسلامية على لسان نبي مرسلٍ لا تكون إلا لمجتمعٍ فسدت أوضاعُهُ، وتضاعفت شروره؛ رغبةً في إصلاحه، وإقامةَ معالم كل خير فيه، حتى يستقيمَ حالُهُ، ويسعد أهله بنوره، فإن لم تكن هذه هي الغاية المقصودة لَمَا كان هناك للرسل والأنبياء برسالاتهم ودعواتهم من مبرر ولا داعٍ.

تتعدَّد الآلهة عندهم فتطالبهم دعوةُ الإسلام بعبادة الواحد الديان، ويشيع الظلم فيأمرهم ربهم على لسان رسوله بعدم التظالم وإشاعة الحرية وبسط المساواة، ويتعالَى البعض على البعض معتزِّين بالمال والجاه والمكانة، فيحذِّرهم رسولهم من التنابز بالألقاب، ويبين لهم أنه لا تفاضلَ إلا بالعمل الطيبِ، ويقدِّم الإنسان الخيرَ لأخيه الإنسان بعيدًا عن الاستغلال والاستعباد، فالداعية لا يقوم إذن بدعوته إلا في وسط سادة العسف والفساد، فكيف إذًا يجوز للداعية أن يهجر موطنه لفساده وسوء حاله، بل الصبر على تأدية الرسالة حتى تؤتي ثمارها مهما قامت في طريقه العقبات، وانهالت عليه الويلات، وتنكَّر له أولئك الذين جاء لهدايتهم وإشاعة كل صور التعاون والحب والتكافل بينهم، فهل يسوغ لنا بعد ذلك أن نهجر موطننا لما شاع فيه من شر وسوء؟! لا أظن.

ولقد كان من أسباب الهجرة اشتداد الأذى بالداعية والمؤمنين معه، وضِيق مكة بالدعوة، فلا بدَّ لهم من موطن يبلغون فيه ومنه ما كلِّفوا به من رب العالمين، ولزامًا أن نراعي هذا المعنى تمامًا مُفرِّقين بين فساد المجتمع وبين الإمعان في الأذى الذي يلحق الداعيةَ ومَن معه من المؤمنين الذين آمنوا بدعوته.

الدعاة والمجتمعات

إنَّ الهجرةَ إذا تمت لا تكون لينعزل الداعيةُ ومن معه عن المجتمع الذي ارتحلوا إليه ثم حلوا فيه مستطيعين فيه أن يؤدُّوا واجبَهم وهم على شيءٍ من الأمن والاطمئنان، على المهاجر أن يعلم علم اليقين- اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم- أنَّه هاجر ليواصِلَ العمل وليبلّغ الرسالةَ وإلا فما بلَّغ الرسالة، أليس هذا أمر الله لرسوله عليه الصلاة والسلام؟! ؟يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ؟ (المائدة: من الآية ٦٧).. فأي مسلم بعد هذا الأمر الواضح الصريح يبتعد عن تبليغ دعوته، خاصةً إذا أتاح الله له من الظروف ما يستطيع معه أن يبلِّغ الرسالةَ على أي صورةٍ من الصور؟!

والهجرة كما يدل اللفظ انتقالٌ من حالٍ لحالٍ، ومن مكان إلى مكان، فهي بهذه المثابة حركة، والحركة عنصر من عناصر الدعوة الإسلامية لا تتم إلا به، فإذا كانت الهجرة حركةً فهي ليست فرارًا بمعنى كلمة الفرار، بل هي عملٌ، والإسلام قول وعمل لا ينفصل فيه أحدهما عن الآخر، فمن لم يقل كلمةَ الشهادتين فلن يُقبَل منه صرفٌ ولا عدلٌ، ومن قال بغير عمل فما ذلك بالإسلام؛ لأنه ما وقر في القلب وصدَّقه العمل.

لم تكن الهجرة على التحقيق فرارًا ولا هزيمةً ولا قعودًا عن الإرشاد إلى الله ودينه، إنما كانت الهجرة قيامَ دولةٍ سادت الدنيا بأسرها وانتشارَ دعوةٍ شملت الكونَ كلَّه، واتساعَ حركةٍ ماجَ بها الوجود.. حياةً وحضارةً وعزةً ورفعةً وعلوَ شأنٍ.

الهجرة وليدةُ تفكيرٍ طالَ به العهد وأعدت له العدة، ونُظِّمَت له الطرق، ولم تكن فرارًا من شقاءٍ إلى نعيم، ولم تكن تركَ جهدٍ إخلادًا إلى راحة، لم تكن سببًا من ذلك على

الإطلاق، بل إنَّ جهود المسلمين بعد الهجرة تضاعفت، ومسئولياتهم كبرت واتسعت، وعلموا أنهم دعاة الناس جميعًا إلى الهدى والرشاد.

إن الهجرة لجوء إلى كل حركة تخدم الدعوة، وهجرة من أسلوب إلى أسلوب ومن خطةٍ إلى خطةٍ، وتفتيح لمسالك التحرك المثمر، فالداعية الواعي إذا تعثَّرت به خطة لجأ إلى غيرها؛ سعيًا إلى الله وحرصًا على رضاه واستجلابًا للنتائج الطيبة، هذا مع الالتزام الكامل بأصول دعوته وفروعها، غير مبدل بحجة التطوير ولا مغيِّر بحجة التجديد، فما في هذا الدين من قصور يصلحه التطور، وليس فيه ما يبلى فيحتاج إلى تجديد.

الإسلام أصول وفروع، وكلها واجبة الالتزام والاتباع، أما محاولة النَّيل من العقيدة بحجة المحافظة على الأصول والتغيير في الفروع فهذا لا يكون في الإسلام أبدًا؛ لأنه من يوم أن نزل على هذه الأرض فهو صالح للناس جميعًا على مختلف أوضاعهم وصفاتهم ولهجاتهم وأجناسهم؛ لأنَّ محمدًا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- رسول الله إلى الناس جميعًا، ويوم أن هتف بدعوته في قلب الجزيرة العربية لم يُنَادِ بها العربَ أو العجمَ، وإنما خاطبَ بها كلَّ إنسانٍ على وجه الأرض ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: من الآية ١٥٨).

بين العزة والهوان

وكما أنَّ الإسلام جاء ليصلح القرون الأولى، فقد جاءَ ليصلح القرون كلها حتى تقوم الساعة، فالقول إنه ما عاد يصلح لزماننا هذا هو غباء في العقول، وضلال في متاهات لا أوَّل لها ولا آخر.. إنَّ الهجرةَ درس وعَاه أسلافنا الأمجاد كما وعوا كل الدروس، فسادوا وعزُّوا وقادوا الدنيا ولم يُقَادوا، ولم نَهُن على الناس إلا يوم أن ضللنا عن هذا الدرس وغيره من دوس النبوة، فتناوشنا الأعداء، وتطاولوا علينا حتى من لا يستطيع الدفع عن نفسه، فعلينا باستظهار الدرسِ والدروسِ بعيدين عن الطنطنة الفارغة والحماس في دنيا الأقوال، فإنَّ الأشد إسراعًا إلى القتال هو أقلهم حياءً من الفرار.

وعلى الشباب ألا يدع الهجرةَ أو أي درس من دروس النبوة يمر به ساهيًا ساهمًا مفرطًا مضيعًا، بل لينتهز شبابه قبل أن يعمر فينتكس في الخلق، وليستعن بحيويته على دفع دماء الدعوة النقية الطاهرة في شرايين المجتمع الذي يعيش فيه ليسموَ به فوق الضياع والتمزق، ويتجه به إلى النصر الصحيح والعزة والكرامة ويمسح من صفحات تاريخه كل بقعة سوداء لوَّثها بها كل عدوٍ غاصبٍ أو دخيل.

إنَّ الطريقَ رسمه الإسلام وحدَّد معالمه، والهجرة درسٌ على الطريق وما أكثر الدروس، وشبابنا مطمع الآمال فليمضوا في الطريق مجاهدين ومثابرين رافعين لواء الدعوة عاليًا خفاقًا عزيزَ الجانبِ منيعَ الرحابِ، وليقوُّوا سواعدَهم ويرسِّخوا إيمانَهم تخضع الدنيا لهم وليعملوا منتظرين النصر من الله ؟إِنْ تَنصرُوا اللَّهَ يَنصرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(٧)؟ (محمد).

إنَّ الهجرة ماديةً كانت أو معنويةً تأتي بالخير والفتح المبين ؟وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)؟ (النساء).

٢- طريق الهجرة والدعوة ليس مفروشًا بالحرير:

هذه الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة- على ساكنها أفضل صلاة وأكمل تسليم- كانت مقررةً منذ الأزل في سابق علم العليم الخبير، فكان لا بد أن تكون صورةً وزمنًا ومكانًا ليقترن العلم بالعمل.

آذى المشركون أولوا الجاه والنفوذ في مكة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الأوائل- عليهم رضوان الله- إيذاءً بالغًا في النفس والأهل والمال والولد إيذاءً عصفَ بقلب فاطمة الزهراء- رضي الله عنها- عصفًا أبكاها يوم أن رأت آثارَ الإيذاءِ دمًا وجروحًا على وجه أبيها عليه الصلاة والسلام، ورأى الأب الرحيم دموعَ الألم والأسى تنحدر على الوجنات الطاهرة، فما زاد على أن قال: "أتبكين يا فاطمة؟!

والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى عمان لا يخشى على نفسه إلا الله والذئب على غنمه" أو كما قال.

الإيمان بصدق وعد الله

لم يكن طريق الرسالات والدعوات مفروشًا بالدمقس والحرير، ولكنه كان- وسيظل- مميزًا بالأهوال والأعاصير، ولأن كان القائمون على الرسالات قد حل بهم طوفان الأذى رغم مكانتهم عند ربهم، فكذلك قد لحق بصحابتهم وتابعيهم من هذا الضرِّ ما لحق بهم، فهذا أبو بكر الصديق آمن الناسُ بصحبتِه لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- يُضرَب حتى تختلط معالمُ وجهِهِ، وهو يذود عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وهو يصيح فى وجه المعتدين: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله" واضحًا غيرَ مستخفٍ بما يؤمن به.

وأبدى الصحابة- رضوان الله عليهم- من التمسك بالدعوة والاستبسال في الذود عنها والتفاني في سبيل الإعلام بها إلى مستوى التعرض لأفدح الأخطار راضين سعداء صابرين ومصابرين.

فهذا عبد الله بن مسعود (وهو أول من جهر بالقرآن في مكة بعد رسول الله- صلى الله عليه وسلم) يجهر بالقرآن على ملأ من المشركين، فينهالون عليه ضاربين حتى تسيل دماؤه، ولما رأى أصحابه ما عليه من إيذاء قالوا له: ما كان أغناك عن ذلك؟! فكان رده المفحم الباهر: "والله لأغادينهم به الغداة" لم يفزع لما أصابه ولم يأسَ عليه، ولكنه يصمِّم ويعالن المشركين بالقرآن، لا يوهن الإرهابُ من عزيمته، ولا يقللُ من تصميمه على تبليغ دعوته.

إنه مؤمن، والمؤمن الوثيق الصلة بربه لا يرهب الشدائدَ، ولا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه، ألم تقرأوا أنَّ عثمانَ بنَ مظعون كان داخلاً في جوار الوليد بن المغيرة، فسلِم من أذى المشركين تقديرًا لذلك الجوار، فلما رأى ما عليه من الأمن والسلامة، ورأى ما عليه رسول الله- عليه الصلاة والسلام- وإخوانه من الإساءة والاعتداء قال يحدِّث نفسه الأبيةَ: "أروح وأغدو في جوار مشرك، ورسول الله- صلى

الله عليه وسلم- وصحابته يعذَّبون، والله ما هذا من الإيمان في شيء؟ "وانطلق إلى الوليد يرد عليه جواره الحامي المنيع، وعلِم المشركون أنه لم يعد ممتَّعًا بذلك الحِمى، فانهالوا عليه ركلاً وصفعًا حتى فقد إحدى عينيه، فلما عُتب عليه، قال الرجل المؤمن الصادق المخلص المحب المضحِّي في سبيل الدعوة بكل شيء: "والله إن عيني السليمة في حاجة لما أصاب أختَها ابتغاءَ وجه الله".

ثم يتعرض لفتنة الأمن والسلامة مرةً أخرى؛ إذ جاءه الوليد يعرض عليه العودةَ إلى جواره، ولكنه كان هو الرجلَ الكاملَ الرجولة، المُعرِض عن كل مغريات الحياة سعيًا في سبيل الله، حتى ولو راحت حياته، وهي أغلى على الناس من كل شيء.. كان ردُّه الرائع الذي سُجِّل له في صفحات الخلود: "لا حاجة لي بجوارك، جوار الله خيرٌ لي من جوارك".

وهكذا أنجاه إيمانه من فتنة الأمن والسلامة التي ينشدها الغافلون مهما دفعوا لها ثمنًا، هؤلاء الغافلون المدَّعون، الذين تراهم في الرخاء أسود الشرى، أعلى الناس صوتًا، وأبينهم خطابًا وأشدهم حماسًا، حتى إذا ما أبدى الشرُّ ناجذه، وكشرت المحنة عن أنيابها الداكنة، طارت قلوبهم شعاعًا، وساخت أقدامهم في خزي الانزواء، على مثل هذه الرجولة وهذه التضحية وهذا اليقين تقوم عزة الدعوات، وتنتصر وتسود، أما لو طلب كل مسلم السلامة لنفسه، ولم يبادل خصوم الدعوة النزال لخلا الميدان للطغاة الظالمين يصولون فيه ويجولون، لا رادعَ ولا مناضلَ ولا منكِرَ ولا حسيبَ، قد يكون من جراء الوقفة في وجه الظالم تعذيب وتشريد وتنكيل بل واغتيال كذلك، فما أثَّر ذلك على صاحب العقيدة الرجل وهو يكافح من أجل أشرف غاية وأسمى هدف؛ طلبًا لبالغ المثوبة التي لا تُحصى ولا تُعد ؟إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ؟ (الزمر: من الآية ١٠).

إنَّ طلب السلامة في مواقف الروع إن لم يقدرها صاحب الملك والملكوت رب العزة والجبروت لن يحصل عليها طالبها، حتى ولو تمرَّغ في قذارة المداهنة والنفاق، وقد حدث في العهد القريب غير البعيد أَنْ آثرَ بعضُ الدعاة السلامةَ على الفداء بالسير في

ركاب الظالمين فلم يُغنهم ذلك الهوان من الله شيئًا، فنالهم من السجن والاعتقال ما نال غيرهم من الأُباة النافرين من الذلة المنكِرين للابتذال ؟وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣)؟ (العنكبوت).

اشتد الأذى بالمسلمين في مكة، وطال مداه، واستحكمت حلقاته، فكان لا بد من حركة، والحركة حياة الدعوات، وقبس نورها، وقوام أمرها، وسر نجاحها، وجوهر بقائها وسيرها واستمرارها جيلاً بعد جيلٍ، فكانت أول حركة من الحركات في سبيل الدعوة، هذه الهجرة المباركة، والهجرة: ترك الأهل والمال والولد.. المال.. يبسطه الرازق لمن يشاء، ويقبضه عمن يشاء، وقد مات عبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود.. ماتوا وهم أثرياء الألوف والملايين وهم قد خرجوا من مكةَ لا يملكون شروى نقير ؟وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)؟ (النساء).

الأهل.. إن أُخوَّة الدين خير من أخوة الدم والنسب، وقد آخى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين من مكة والأنصار من المدينة، وصار لهم من الزوجات المؤمنات الصالحات ما قرَّت به عيونهم، وطابت به نفوسهم ؟وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ؟ (التوبة: من الآية ٧١).

الولد.. إنَّ في الله عوضًا عن كلِّ فائتٍ، ولقد وُلد للزبير بن العوام في المدينة عبد الله وعروة ومصعب، ولعلي بن أبي طالب الحسن والحسين وابن الحنفية وغيرهم، ولأبي بكر وعمر وغيرهم كثير ؟يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(٤٩)؟ (الشورى).. المسكن.. لقد اغتنى المهاجرون في المدينة، وبنَوا البيوت، واحتازوا المزارع ؟وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨)؟ (النجم).

الوطن.. وكل مكان ينبت العز طيب، ثم أي وطن هذا الذي يأسى عليه الإنسان إذا ظُلم فيه واضطُّهد وحورب وعُذِّب ودِيسَت فيه حرماته، وهُضمت فيه حقوقه.

لقد أصبحت المدينة وطنَ المهاجرين، فيها قامت لهم دولة، وارتفعت لهم راية، وقويت شوكة، ومن بين دروبها انسالوا انسيال السيل الغدق، ينشرون الإسلامَ أعزةً كرامًا فاتحين.

الإمام الشهيد حسن البنا

إنَّ الأهوالَ والصعابَ سمةٌ من سمات الدعوات الخيرة، وقد كان الإمام الشهيد حسن البنا- مرشد الإخوان المسلمين الأسبق- فاقهًا لهذا المعنى تمامًا حين قال: "ستعذَّبون وتشرَّدون وتحاربون وتحبسون وتُقتَلُون، ويومئذ فقط تكونون قد بدأتم تسلكون طريق أصحاب الدعوات".. وقد صدَّقه الواقع، فقد حُلَّت جماعة الإخوان مرارًا، وسُجِن رجالُهَا وعُذِّبوا، ثم اغتيل هو نفسه، فماذا كانت النتيجة؟!

عادت الجماعة في كل مرة أقوى مما كانت ساعة الحل، واشتاقها الشباب للتفتح على إشراقة دعوة الله، يستوضحون أمرها، ويؤمنون بتعاليمها، ويتَّجِهون نحوها، ويتحدَّثون عن شهدائها في حب وإكبار، وبلغ صوتها مشارق الأرض ومغاربها، في غير ما عنف ولا تخريب ولا إرهاب، ولكن عن طريق الأثر الطيب، والأسوة المجيدة والقدوة اللامعة المضيئة، عن طريقٍ واحد ؟ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؟ (النحل: من الآية ١٢٧).

أُخرج رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من مكة فذهب إلى المدينة، وأُخرج المؤمنون منذ عهد غير بعيد من ديارهم وأموالهم وأهليهم إلى السجون والمعتقلات، فاعتبروها هجرةً إلى الله، لم يضيقوا بها، ولم ييأسوا على ما أصابهم، أخذوا لأواءَها وشدائدها أخذَ المؤمنِ الصابر الفاقه، إنها فترةٌ من فترات حياتهم، قضى الله في سابق علمه أن تكون على هذه الصورة، فأحسنوا استقبالها، وادَّخروا رصيدَها، وصبروا وصابروا معها، لم تتزعزع العقيدة في وجدانهم ولم تهتز، فبهم ثقةٌ، ولم يتبدل فيهم يقين، ثم كان ما كان.

إننا ما ذكرنا هنا أنَّ من المسلمين من تعرض لما تعرض له صحابة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- حين الهجرة، لا نمنُّ فالفضل من الله وإليه، ولا ندلّ فإننا لا

نبتغي من أحد جزاءً ولا شكورًا ، ولكننا نعرض الواقع الماثل، الذي ما يزال شهوده أحياءً، حتى يعلم شباب الجيل المؤمن أنَّ دينه حقٌّ يجب الثبات عليه.

إن الدعوة الإسلامية لو تعرَّض غيرُها من الدعوات لِما تعرَّضت له، ولو دُبِّر لغيرها من المكائد ما دُبِّر لها، ولو تحالف من القوى الطاغية على غيرها من الدعوات ما تحوَّلت عليها وضدها لكانت أخبارًا تُروى في صحائف التاريخ، ولكن دعوة الله باقية خالدة، لا تفنى ولا تتبدل، ولا تزول ولا تبلَى إلى يوم الدين؟وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١)؟ (يوسف).

ستظل المحاولات الضارية تذهب وتجيء ضد الإسلام، وستظل قوى الشرِّ تحاول وتضغط على المسلمين في كل مكان على الأرض فيه مسلمون ليصرفوهم عن دينهم، ولكنَّ الزمانَ يسري في بطون التاريخ قرنًا بعد قرن حافلاً بما يُدَبَّر فيه للمسلمين، ومع ذلك سيظل المسلمون مسلمين رغم أنف الدنيا ومن فيها ؟وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا؟ (البقرة من الآية ٢١٧).

فليقرأ المسلمون صحائفَ الهجرةِ مفكِّرين متعظين متدبرين عِبَرها، متفهِّمين دروسَهَا، ثم اجعلوها هاديًا لكم في كفاحكم إذا ألَمَّ بكم حدث، أو نزل بكم ظلم، أو نابتكم نائبةٌ، أو لاحقكم طغيانٌ، لا ضعفَ ولكن قوة، لا تتردد ولكن امضِ إلى الأمام ؟وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ؟ (محمد: من الآية ٣٥) ؟إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(١٤٢)؟ (آل عمران) ثم بعد هذا كله ؟لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى؟ (آل عمران: من الآية ١١١).

إذا ألموا كما تألمون فميزتكم عليهم أنكم ترجون من الله رضاءً وافرًا وأجرًا عظيمًا، وهم ليس لهم من هذا الخير الوفير حظٌّ ولا نصيبٌ، آراؤهم وأعمالهم ومكائدهم ؟كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ؟ (آل عمران: من الآية ١١٧).

اقرأوا صحائفَ الهجرة ومثلها ومثاليتها، وتشبَّهوا برجالها، فذلك أعود عليكم بـــالنفع، اقرأوا تاريخَكم أولاً قبل أن تقرأوا تاريخ خصومكم، إنكم لو فعلتم حصَّنتم أنفسكم ضدَّ كل دخل قد يتسرب إلى أذهانكم.

والعام.. هذا العام، والعالم يموج بالأحداث الضخام، وقد أسفرت محاولات أعـــدائكم عن نواياهم السود، ووجهها الأصفر الكالح، هل تمرُّ ذكرى الهجرةِ كما مرَّت مثيلاتها من قبل.. كلمات تُرصُّ، وصفحات تُسطر، وأقوالٌ تُعاد وتُكرر، ثم صمت عميقٌ ولا شيء؟! أما آن للذين يؤمنون بنبي الهجرة- عليه الصلاة والسلام- أن يشعر العـــالم بوجودهم وبحرصهم على دينهم، وأن يُثبتوا للذين يستهينون بشأنهم ولا يأبهون بهـــم أنهم اليوم ليسوا كما كانوا بالأمس وأنهم استيقظوا ووعوا، وما عاد الوعيد والجبروت بالذي يثنيهم عن انطلاقهم.

اللهم إنك تعلم أنَّ الداعين إليك أبعد الناس عن التفكير في دنيا يصيبونها، أو التطلـــع إلى متعة يأملونها، إنهم لا يطلبون حكمًا، ولا يقصدون سلطانًا ولا مغنمًا.. اللهم إنـــك تعلم أنهم يريدون لدينك سيادةً، ولكتابك تحكيمًا، وللإسلام عزًّا، وللعالم أمنًا واستقرارًا ؟وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)؟ (الأنعام).

اللهم منك العون وبك الصون وإليك الوجهة وعليـــك المعتمـــد، والنصـــرة قـــدرتك، والهداية مشيئتك ؟وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ (آل عمران: من الآية ١٢٦)، وعـــن طريق إرادتك وحدها السداد والتوفيق ؟وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ؟ (هود: من الآية ٨٨).

عام مضى لا قدرةَ لنا على تغيير أحداثه، وعام بدأ، عهدنا فيه مع الله عمل متواصل وصبر متأصل، وإحسان متقبل ؟وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا؟ (الشورى: من الآية ٢٣) وعلى الله قصد السبيل.تراني قد وفيت للهجرة حقَّها؟ أبدًا وربِّ الهجـــرة، كلما ظننتني انتهيت، رأيتني وكأنني ابتديت، يتزاحم الفكر، وتنهمر العبر.اللهم ربنا.. وَجهَكَ أردنَا، ودينَكَ أحببنَا، ورسولَكَ اتَّبعنَا، وبقرآنك اهتدينا، وفي ســـبيلك جاهـــدنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير ؟وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ(٤١)؟ (الحج).

من دروس الهجرة النبوية

محمد بن إبراهيم الحمد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

لقد بعث الله نبينا محمداً بدعوة تملأ القلوب نوراً، وتشرف بها العقول رشداً؛ فسابق إلى قبولها رجال عقلاء، ونساء فاضلات، وصبيان لا زالوا على فطرة الله. وبقيت تلك الدعوة على شيء من الخفاء، وكفار قريش لا يلقون لها بالاً؛ فلما صدع بها رسول الله أغاظ المشركين، وحفزهم على مناوأة الدعوة والصد عن سبيلها؛ فوجدوا في أيديهم وسيلة هي أن يفتنوا المؤمنين، ويسومونهم سوء العذاب، حتى يعودوا إلى ظلمات الشرك، وحتى يرهبوا غيرهم ممن تحدثهم نفوسهم بالدخول في دين القيّمة.

أما المسلمون فمنهم من كانت له قوة من نحو عشيرة، أو حلفاء يكفون عنه كل يد تمتد إليه بأذى، ومنهم المستضعفون، وهؤلاء هم الذين وصلت إليهم أيدي المشركين، وبلغوا في تعذيبهم كل مبلغ.

ولما رأى الرسول ما يقاسيه أصحابه من البلاء، وليس في استطاعته حينئذ حمايتهم، أذن لهم في الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، ثم لحق بهم في المدينة.

والناظر في الهجرة النبوية يلحظ فيها حكماً باهرة، ويستفيد دروساً عظيمة، ويستخلص فوائد جمة يفيد منها الأفراد، وتفيد منها الأمة بعامة. فمن ذلك على سبيل الإجمال ما يلي:

١ – ضرورة الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله:

ويتجلى ذلك من خلال استبقاء النبي ﷺ لعلي وأبي بكر معه؛ حيث لم يهاجرا إلى المدينة مع المسلمين، فعليّ بات في فراش النبي ﷺ وأبو بكر صحبه في الرحلة.

ويتجلى كذلك في استعانته بعبدالله بن أريقط الليثي وكان خبيراً ماهراً بالطريق.

ويتجلى كذلك في كتم أسرار مسيره إلا من لهم صلة ماسّة، ومع ذلك فلم يتوسع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم، ومع أخذه بتلك الأسباب وغيرها لم يكن ملتفتاً إليها بل كان قلبه مطوياً على التوكل على الله عز وجل.

٢ – ضرورة الإخلاص والسلامة من الأغراض الشخصية:

فما كان عليه الصلاة والسلام خاملاً، فيطلب بهذه الدعوة نباهة شأن، وما كان مقلاً حريصاً على بسطة العيش؛ فيبغي بهذه الدعوة ثراء؛ فإن عيشه يوم كان الذهب يصبّ في مسجده ركاماً كعيشه يوم يلاقي في سبيل الدعوة أذىً كثيراً.

٣ – الاعتدال حال السراء والضراء:

فيوم خرج عليه الصلاة والسلام من مكة مكرهاً لم يخنع، ولم يذل، ولم يفقد ثقته بربه، ولما فتح الله عليه ما فتح وأقر عينه بعز الإسلام وظهور المسلمين لم يطش زهواً، ولم يتعاظم تيهاً؛ فعيشته يوم أخرج من مكة كارهاً كعيشته يوم دخلها فاتحاً ظافراً، وعيشته يوم كان في مكة يلاقي الأذى من سفهاء الأحلام كعيشته يوم أطلت رايته البلاد العربية، وأطلت على ممالك قيصر ناحية تبوك.

٤ – اليقين بأن العاقبة للتقوى وللمتقين:

فالذي ينظر في الهجرة بادئ الرأي يظن أن الدعوة إلى زوال واضمحلال.

ولكن الهجرة في حقيقتها تعطي درساً واضحاً في أن العاقبة للتقوى وللمتقين. فالنبي ﷺ يعلّم بسيرته المجاهد في سبيل الله الحق أن يثبت في وجه أشياع الباطل، ولا يهن في دفاعهم وتقويم عوجهم، ولا يهوله أن تقبل الأيام عليهم، فيشتد بأسهم، ويجلبوا بخيلهم ورجالهم؛ فقد يكون للباطل جولة، ولأشياعه صولة، أما العاقبة فإنما هي للذين صبروا والذين هم مصلحون.

٥ – ثبات أهل الإيمان في المواقف الحرجة:

ذلك في جواب النبي ﷺ لأبي بكر لمّا كان في الغار.

وذلك لما قال أبو بكر: والله يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موقع قدمه لأبصرنا.

فأجابه النبي ﷺ مطمئناً له: { ما ظنّك باثنين الله ثالثهما }.

فهذا مثل من أمثلة الصدق والثبات، والثقة بالله، والاتكال عليه عند الشدائد، واليقين بأن الله لن يتخلى عنه في تلك الساعات الحرجة.

هذه حال أهل الإيمان، بخلاف أهل الكذب والنفاق؛ فهم سرعان ما يتهاونون عند المخاوف وينهارون عند الشدائد، ثم لا نجد لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً.

٦ – أن من حفظ الله حفظه الله:

ويؤخذ هذا المعنى من حال النبي ﷺ لما ائتمر به زعماء قريش ليعتقلوه، أو يقتلوه، أو يخرجوه، فأنجاه الله منهم بعد أن حثا في وجوههم التراب، وخرج من بينهم سليماً معافى.

وهذه سنة ماضية، فمن حفظ الله حفظه الله، وأعظم ما يحفظ به أن يحفظ في دينه، وهذا الحفظ شامل لحفظ البدن، وليس بالضرورة أن يعصم الإنسان؛ فلا يخلص إليه البتة؛ فقد يصاب لترفع درجاته، وتقال عثراته، ولكن الشأن كل الشأن في حفظ الدين والدعوة.

٧ – أن النصر مع الصبر:

فقد كان هيناً على الله عز وجل أن يصرف الأذى عن النبي ﷺ جملة، ولكنها سنة الابتلاء يؤخذ بها النبي الأكرم ﷺ ؛ ليستبين صبره، ويعظم عند الله أجره، وليعلم دعاة الإصلاح كيف يقتحمون الشدائد، ويصبرون على ما يلاقون من الأذى صغيراً كان أم كبيراً.

٨ – الحاجة إلى الحلم، وملاقاة الإساءة بالإحسان:

فلقد كان النبي ﷺ يلقى في مكة قبل الهجرة من الطغاة والطغام أذىً كثيراً، فيضرب عنها صفحاً أو عفواً، ولما عاد إلى مكة فاتحاً ظافراً عفا وصفح عمن أذاه.

٩ – استبانة أثر الإيمان:

حيث رفع المسلمون رؤوسهم به، وصبروا على ما واجهوه من الشدائد، فصارت مظاهر أولئك الطغاة حقيرة في نفوسهم.

١٠ – انتشار الإسلام وقوته:

وهذه من فوائد الهجرة، فلقد كان الإسلام بمكة مغموراً بشخب الباطل، وكان أهل الحق في بلاء شديد؛ فجاءت الهجرة ورفعت صوت الحق على صخب الباطل، وخلصت أهل الحق من ذلك الجائر، وأورثتهم حياة عزيزة ومقاماً كريماً.

١١ – أن من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه:

فلما ترك المهاجرون ديارهم، وأهليهم، وأموالهم التي هي أحب شيء إليهم، لما تركوا ذلك كله لله، أعاضهم الله بأن فتح عليهم الدنيا، وملّكهم شرقها وغربها.

١٢ – قيام الحكومة الإسلامية والمجتمع المسلم.

١٣ – اجتماع كلمة العرب وارتفاع شأنهم.

١٤ – التنبيه على فضل المهاجرين والأنصار.

١٥ – ظهور مزية المدينة:

فالمدينة لم تكن معروفة قبل الإسلام بشيء من الفضل على غيرها من البلاد، وإنما أحرزت فضلها بهجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام أصحابه إليها، وبهجرة الوحي إلى ربوعها حتى أكمل الله الدين، وأتم النعمة، وبهذا ظهرت مزايا المدينة، وأفردت المصنفات لذكر فضائلها ومزاياها.

١٦ – سلامة التربية النبوية:

فقد دلّت الهجرة على ذلك؛ فقد صار الصحابة مؤهلين للاستخلاف، وتحكيم شرع الله، والقيام بأمره، والجهاد في سبيله.

١٧ – التنبيه على عظم دور المسجد في الأمة:

ويتجلى ذلك في أول عمل قام به النبي ﷺ فور وصوله المدينة، حيث بنى المسجد؛ لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المسلم برب العالمين، وليكون منطلقاً لجيوش العلم، والدعوة والجهاد.

١٨ – التنبيه على عظم دور المرأة:

ويتجلى ذلك من خلال الدور الذي قامت به عائشة وأختها أسماء رضي الله عنهما حيث كانتا نعم الناصر والمعين في أمر الهجرة؛ فلم يخذلا أباهما أبا بكر مع علمهما

بخطر المغامرة، ولم يفشيا سرّ الرحلة لأحد، ولم يتوانيا في تجهيز الراحلة تجهيــزاً كاملاً، إلى غير ذلك مما قامتا به.

١٩ – عظم دور الشباب في نصرة الحق:

ويتجلى ذلك في الدور الذي قام به علي بن أبي طالب حين نام في فراش النبــي ﷺ ليلة الهجرة.

ويتجلى من خلال ما قام به عبدالله بن أبي بكر؛ حيث كان يســتمع أخبــار قــريش، ويزود بها النبي ﷺ وأبا بكر.

٢٠ – حصول الأخوة وذوبان العصبيات.

هذه بعض الدروس والفوائد من الهجرة في سبيل الإجمال.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من نفحات الهجرة

محمد منار ...

نشأ رسول الله ﷺ في مكة، وترعرع فيها، واستنبئ على رأس الأربعين من سنه، وغبر ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة.

لقي ﷺ ومعه أصحابه الكرام رضوان الله عليهم من المشركين أذى كثيرا، كُذبوا وأُهينوا ونُبذوا، وانصفق عنهم عامة الناس، وهم المستضعفون لا عدد لهم ولا عدة.

لا عدد لهم ولا عدة، بالميزان المادي الصرف، أما بميزان الإيمان واليقين، فعددهم أكثر وعدتهم أكبر. والله أكبر.

كلمات أذكر بها في هذه المناسبة الغالية؛ مناسبة الهجرة النبوية. والهجرة ليست حدثا عابرا، ولكنها نقلة شعورية؛ فردية وجماعية.

ليست فقط هجر مكة، ولكنها هجر الشك والشرك والفتن والأدران. وليست فقط هجرة إلى المدينة، ولكنها هجرة إلى اليقين والتوحيد والإيمان؛هجرة إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

كلمات سامية، وتسمو الكلمات بقائلها، كما تسمو بسياقها ودلالاتها. كلمات من قلب الهجرة عن الهجرة.

"لا تحزن إن الله معنا"

اشتد حزن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه عندما رأى القافة (الذين يقفون الأثر) قد انتهوا إلى باب الغار الذي يقيمان فيه؛ هو و رسول الله ﷺ ، في انتظار مناسبة الظرف، لتتمة هجرتهما إلى المدينة.

اشتد حزنه رضي الله عنه لما رآه من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد اعتراه النصب، ودميت قدماه الشريفتان. روت كتب السيرة أنه رضي الله عنه قال: "نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار وقد تقطرتا دما فاستبكيت، وعلمت أنه عليه السلام لم يكن تعود الحفاء والجفوة".

ما أعظمها من رقة لا تليق إلا بصاحب قد أدرك حقيقة مصحوبه. قال رضي الله عنه: "إن قتلت فإنما أنا رجل واحد وإن قتلت أنت هلكت الأمة" عندها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تحزن إن الله معنا" وقال "ما ظنك باثنين الله ثالثهما".

ثبات وتثبيت ويقين مسلكه الصحبة، ومعية الله ثمن ذلك التصديق، وجزاء تلك المحبة، التي لم تكن ادعاء، ولكن كانت حقيقة ماثلة، قدم الصديق رضي الله عنه دليلها في أكثر من مناسبة. فها هو رضي الله عنه يدخل قبل رسول الله ﷺ إلى الغار، ويتلمس هل فيه من حية أو سبع، يقي رسول الله ﷺ منهما بنفسه.

"لا تحزن إن الله معنا" حزن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس خوف على النفس أو المال أو الولد. ما أعظمه من إيمان وتصديق أوصل صاحبه لتلك المرتبة الرفيعة؛ معية الله.

يقول الله عز وجل: "إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل لله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم" التوبة٤٠.

"إذ يقول لصاحبه" تنبيه وإرشاد لمفتاح لا محيذ عنه لكل من أراد أن يتحقق بكمال الإيمان وكمال التصديق، حتى يفوز بمعية الله وسكينته ونصر من عنده وتمكين؛ إنه مفتاح الصحبة.

نال سيدنا أبو بكر ما ناله بصحبة رسول الله ﷺ ومحبته "إذ يقول لصاحبه" "لصاحبه"..

"إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها"

هذا ما قاله رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام عندما أذن لهم بالخروج من مكة إلى المدينة.

الأخوة في الله امتزاج روح بروح، وتعلق قلب بقلب، تنسي من تنسم بعبيرها، وسار في رياضها، كل أصناف الأذى والوحشة.

أخوة جعلها الله، يقول الله عز وجل: " و ألف بين قلوبهم لو أنفقت مـــا فـــي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم" الأنفال٦٤. أخوة في الله، وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

هي هجرة إلى مجتمع الأخوة إذن؛ مجتمع الحب في الله والبذل والإيثار. يقول الله عز وجل في حق الأنصار رضوان الله عليهم: "والذين تبوءوا الدار والإيمان من قـــبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أتو ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" الحشر/٩.

الأخوة لا الفرقة، المحبة لا الصراع، البذل لا الشح، الإيثار لا الأنانية؛ هي الأســـس التي بني عليها مجتمع الأمن والإيمان. "الدار والإيمان" "دارا تأمنون بها".

أمن في الدنيا، للتدرج على مراتب العبودية، تحقيقا لأمن الآخرة وأمانها "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" قريش٣-٥.

"ربح صهيب ، ربح صهيب"

ورد في سيرة بن هشام أن صهيبا حين أراد الهجرة قال لـــه كفـــار قـــريش: أتيتنـــا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثـــم تريـــد أن تـــذهب بمالـــك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: آرأيتم إن جعلت لكـــم مـــالي أتخلـــون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال فإني جعلت لكم مالي، قال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: "ربح صهيب، ربح صهيب".

ربح لأنه قدم برهان صدقه. وأي برهان هو أوضح وأجلى من تنازل المرء عن ماله الذي أفنى عمره في جمعه.

إنها هجرة حب المال إلى مآل الحب؛ حب الله ورسوله والمؤمنين.

"هل أنت إلا أصبع دميت *** وفي سبيل الله ما لقيت"

قال ابن هشام: ".. أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: "من لي بعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي؟" فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رســـول الله بهمـــا، فخرج إلى مكة، فقدمها مستخفيا. فلقي امرأة تحمل طعاما. فقال لها: أين تريدين يـــا

أمة الله؟ قالت أريد هذين المحبوسين –تعنيهما– فتبعها حتى عرف موضعهما، وكان محبوسين في بيت لا سقف له فلما أمسى تسور عليهما .. ثم حملهما على بعيره وساق بهما، فعثر فدميت أصبعه فقال:

"هل أنت إلا أصبع دميت *** وفي سبيل الله ما لقيت"

معاناة شديدة للصحابيين الجليلين، وتعذيب وأذى من قبل قومهما، لصدها عن الهجرة إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وحرص من المصحوب الأعظم، عليه أفضل الصلاة والسلام، واستجابة سريعة لندائه.وهبة لإنقاذ الأخوين، دون اكتراث بما يمكن أن يكون من أذى. إنه هجر التردد والخوف والاستكانة.

والمهاجر إلى الله ورسوله، كل عمله لله، "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين"الأنعام١٦٣، وما تصيبه من مصيبة صغيرة أو كبيرة إلا يحتسبها عند الله عز وجل.فاللهم اجعلنا من المهاجرين إليك وإلى رسولك الكريم.

منازل المهاجرين بالمدينة

قال ابن إسحاق : ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة، ومن لحق به من أهله وقومه وأخوه زيد بن الخطاب، وعمرو وعبد الله ابنا سراقة بن المعتمر وخنيس بن حذافة السهمي – وكان صهره على ابنته حفصة بنت عمر فخلف عليها رسول الله ﷺ بعده – وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وواقد بن عبد الله التميمي، حليف لهم وخولي بن أبي خولي ومالك بن أبي خولي حليفان لهم.

قال ابن هشام : أبو خولي من بني عجل بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل.

قال ابن إسحاق : وبنو البكير أربعة هم إياس بن البكير، وعاقل بن البكير، وعامر بن البكير، وخالد بن البكير وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث على رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر، في بني عمرو بن عوف بقباء وقد كان منزل عياش بن أبي ربيعة معه عليه حين قدما المدينة .

ثم تتابع المهاجرون، فنزل طلحة بن عبيد الله بن عثمان، وصهيب بن سنان على خبيب بن إساف أخي بلحارث بن الخزرج بالسنح.

قال ابن هشام : ويقال يساف فيما أخبرني عنه ابن إسحاق. ويقال بل نزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زرارة أخي بني النجار.

قال ابن هشام : وذكر لي عن أبي عثمان النهدي أنه قال: بلغني أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم. قال فإني جعلت لكم مالي. قال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال " ربح صهيب ربح صهيب ".

نزول طلحة وصهيب على خبيب بن إساف

فصل وذكر نزول طلحة وصهيب على خبيب بن إساف ويقال فيه يساف بياء مفتوحة في غير رواية الكتاب وهو إساف بن عنبة ولم يكن حين نزول المهاجرين عليه مسلما في قول الواقدي بل تأخر إسلامه حتى خرج رسول الله – ﷺ – إلى بدر قال خبيب فخرجت معه أنا ورجل من قومي، وقلنا له نكره أن يشهد قومنا مشهدا لا نشهده معهم فقال أسلمتما ؟ فقلنا : لا، فقال ارجعا، فإنا لا نستعين بمشرك.

وخبيب هو الذي خلف على بنت خارجة بعد أبي بكر الصديق واسمها : حبيبة وهي التي يقول فيها أبو بكر عند وفاته ذو بطن بنت خارجة أراها جارية وهي بنت خارجة بن أبي زهير والجارية أم كلثوم بنت أبي بكر مات خبيب في خلافة عثمان وهو جد خبيب بن عبد الرحمن الذي يروي عنه مالك في موطئه.

منزل حمزة وزيد وأبي مرثد وابنه وأنسة وأبي كبشة

قال ابن إسحاق : ونزل حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مرثد كناز بن حصن.

قال ابن هشام : ويقال ابن حصين – وابنه مرثد الغنويان حليفا حمزة بن عبد المطلب، وأنسة وأبو كبشة، موليا رسول الله ﷺ على كلثوم بن هدم أخي بني عمرو

بن عوف بقباء ويقال بل نزلوا على سعد بن خيثمة ؛ ويقال بل نزل حمزة بن عبد المطلب على أسعد بن زرارة أخي بني النجار. كل ذلك يقال ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخوه الطفيل بن الحارث، والحصين بن الحارث ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وسويبط بن سعد بن حريملة أخو بني عبد الدار وطليب بن عمير أخو بني عبد بن قصي، وخباب مولى عتبة بن غزوان، على عبد الله بن سلمة، أخي بلعجلان بقباء.

ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخي بلحارث بن الخزرج، في دار بلحارث بن الخزرج.

ونزل الزبير بن العوام، وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى، على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح بالعصبة دار بني جحجبى.

ونزل مصعب بن عمير بن هاشم، أخو بني عبد الدار على سعد بن معاذ بن النعمام أخي بني عبد الأشهل في دار بني عبد الأشهل.

ونزل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسالم مولى أبي حذيفة.

قال ابن هشام : سالم مولى أبي حذيفة سائبة لثبيتة [أو نبيتة] بنت يعار بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، سيبته فانقطع إلى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة فتبناه فقيل سالم مولى أبي حذيفة ويقال كانت ثبيتة بنت يعار تحت أبي حذيفة بن عتبة فأعتقت سالما سائبة. فقيل سالم مولى أبي حذيفة.

قال ابن إسحاق : ونزل عتبة بن غزوان بن جابر على عباد بن بشر بن وقش أخي بني عبد الأشهل في دار عبد الأشهل.

ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار، فلذلك كان حسان يحب عثمان ويبكيه حين قتل.

وكان يقال نزل الأعزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عزبا، فالله أعلم أي ذلك كان.

أبو كبشة

وذكر أنسة وأبا كبشة في الذين نزلوا على كلثوم بن الهدم، فأما أنسة مولى رسول الله – ﷺ فهو من مولدي السراة، ويكنى : أبا مسروح، وقيل أبا مشرح شهد بدرا، والمشاهد كلها مع رسول الله – ﷺ – ومات في خلافة أبي بكر، وأبو كبشة اسمه سليم يقال إنه من فارس، ويقال من مولدي أرض دوس، شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله – ﷺ – ومات في خلافة عمر في اليوم الذي ولد فيه عروة بن الزبير، وأما الذي كانت كفار قريش تذكره وتنسب النبي عليه السلام إليه وتقول قال ابن أبي كبشة وفعل ابن أبي كبشة، فقيل فيه أقوال قيل إنها كنية أبيه لأمه وهب بن عبد مناف، وقيل كنية أبيه من الرضاعة الحارث بن عبد العزى، وقيل إن سلمى أخت عبد المطلب كان يكنى أبوها أبا كبشة، وهو عمرو بن لبيد وأشهر من هذه الأقوال كلها عند الناس أنهم شبهوه برجل كان يعبد الشعرى وحده دون العرب، فنسبوه إليه لخروجه عن دين قومه. وذكر الدارقطني اسم أبي كبشة هذا في المؤتلف والمختلف فقال اسمه وجز بن غالب وهو خزاعي، وهو من بني غبشان.

وذكر نزولهم بقباء وهو مسكن بني عمرو بن عوف وهو على فرسخ من المدينة ، وهو يمد ويقصر ويؤنث ويذكر ويصرف ولا يصرف وأنشد أبو حاتم في صرفه

ولأبغينكم قبا [و] عوارضا *** ولأقبلن الخيل لابة ضرغد

وكذلك أنشده قاسم بن ثابت في الدلائل قبا بضم القاف و[فتح] الباء وهو عند أهل العربية تصحيف منهما جميعا، وإنما هو كما أنشده سيبويه :

قنا وعوارضا، لأن قنا جبل عند عوارض يقال له ولجبل آخر معه قنوان وبينهما وبين قباء مسافات وبلاد فلا يصح أن يقرن قباء الذي عند المدينة مع عوارض وقنوين وكذا قال البكري في معجم ما استعجم وأنشد [لمعقل بن ضرار بن سنان الملقب بالشماخ].

كأنها لما بدا عوارض *** والليل بين قنوين رابض

وقباء: مأخوذ من القبو وهو الضم والجمع قاله أبو حنيفة وقال القوابي : هن اللـــواتي يجمعن العصفر واحدتهن قابية. قال وأهل العربية يسمون الضمة من الحركات قبوا، وأما قولهم لا والذي أخرج قوبا من قابية يعنون الفرخ من البيضة فمن قال فيه قابية بتقديم الباء فهو القبو الذي يقدم ومن قال فيه قابية فهو من لفـــظ القـــوب لأنهـــا تتقوب عنه أي تتقشر قال الكميت يصف النساء :

لهن وللمشيب ومن علاه *** من الأمثال قابية وقوب

وفي حديث عمر فكانت قابية قوب عامها، يعني : العمرة في أشهر الحج وقد ذكر أن قباء اسم بئر عرفت القرية بها.

سالم مولى أبي حذيفة

فصل وذكر سالما مولى أبي حذيفة الذي كان أبو حذيفة قد تبناه كما تبنى رســـول الله – ﷺ – زيدا، وكان سائبة أي لا ولاء عليه لأحد وذكر المرأة التي أعتقتـــه ســـائبة وهي ثبيتة بنت يعار وقد قيل في اسمها بثينة ذكره أبو عمر وذكر عن الزهري أنـــه كان يقول فيها : بنت تعار وقال ابن شيبة في المعارف اسمها سلمى [وقال ابن حبان : يقال لها : ليلمة] ويقال في اسمها أيضا : عمرة وقد أبطل التسبيب في العتق كثير من العلماء وجعلوا الولاء لكل من أعتق أخذا بحديث النبي ﷺ في ذلك وحمـــلا لـــه على العموم ولما روي أيضا عن ابن مسعود أنه قال (لا سائبة فـــي الإســـلام) ورأى مالك ميراث السائبة لجماعة المسلمين ولم ير ولاءه لمن سيبه فكان للتسييب والعتـــق عنده حكمان مختلفان وسالم هذا هو الذي أمر رسول الله ﷺ سهلة بنـــت ســـهيل أن ترضعه ليحرم عليها، فأرضعته وهو ذو لحية. فإن قيل كيف جاز له أن ينظـــر إلـــى ثديها، فقد روي في ذلك أنها حلبت له في مسعط وشرب اللبن ذكر ذلك محمـــد بـــن حبيب.

موقفنا من الغير

ليكن معلوما أن الناس عندنا _ نحن العاملين في حقل الدعوة _ إما غير مسلم ، وإما مسلم

فأما غير المسلم : فيقام فيه الإنصاف في حدود الشرع ، وقد بيناه بوضوح في الدرس السابق .

وأما المسلم :

أ _ فإما أنه يحمل الوجهة الإسلامية الصحيحة ، وينعم بالفهم السليم ، وينخرط في صف الحركة والدعوة إلى الله بقوله وعمله .

وهذا الصنف : هو المكسب الحقيقي للدعوة ، والدعامة القوية للحركة .

ب _ وإما أنه يحمل الوجهة الإسلامية ، ولكن على غير الفهم الصحيح الشامل للدين

وهذا الصنف : يجب التعاون معه ، بقدر ما فيه من خير وصلاح ، مع التأكيد عليه في بيان المنهج الصحيح ، والفهم الشامل ، الواجب الإتباع ، دون تجريح للغير من الأشخاص أو الأفكار .

ج _ وإما أنه لا يحمل الوجهة الإسلامية بالمرة ، ويحمل غيرها ، وقد يكون معاديا للوجهة الإسلامية ، أو غير معاد .

وهذا الصنف : يحتاج معاملة خاصة ، يشوبها الحذر ، ويدفع إليها الأمل .

وإذا كان الصنف الثاني ، يشجعنا بوضعه على أن نتعامل معه ، أملا في توضيح الصورة ، ونوال النتيجة الطيبة لهم وللدعوة : فإنه لا ينبغي أن يترك الصنف الثالث نهائيا ، حيث إن كل أعداء الدعوة والمناوؤن لها ، ليس محكوما عليهم أزلا بدوام عدائهم لها ولأصحابها ، فسبحان مقلب القلوب .

ولذلك : علينا ونحن نتعامل مع هؤلاء أن يكون في حساباتنا وتوقعاتنا ، أن الله تعالى قد يصرف قلوبهم ، ويحول اتجاههم لمناصرة الدعوة بدلا من العداء لها ، أو على الأقل التعاطف مع أصحابها بدل التحامل عليهم .

وهذا يقتضينا : أن لا نقطع الأمل في رحمة الله ، وأن لا نسد الطريق أمام من تلمس قيادة الحركة الإسلامية الأمل فيهم أو الخير لديهم من هؤلاء .

وليس ذلك ببعيد على فضل الله تعالى فهؤلاء سحرة فرعون ، الذين كانوا من أعدي أعداء موسى عليه الصلاة والسلام

كانوا كفارا في صدر اليوم ، وهم الذين قال لهم فرعون ، استعداء (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى) وقد استجابوا للعداء ، و (قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى) .

هم هم الذين صاروا في وسط اليوم مسلمين ، و (قالوا آمنا برب هارون وموسى) وصمدوا أمام التهديد والوعيد _ حينما قال لهم فرعون (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن آينا أشد عذابا وأبقى) _ ولم يكونوا في صمودهم صامتين أو خائفين ، بل كانوا شجعانا فدائيين (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) .

هم هم الذين أصبحوا في آخر اليوم _ لا تابعين لموسى ودعوته فقط _ بل تحولوا إلى دعاة معه لهذا الدين الذي كانوا يكفرون به في صدر يوم الزينة هذا ، اسمعهم وهم يدعون إلى الله تعالى ، حيث يقولون (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلي * جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) "٨٣ "

سبحان مقلب القلوب . . ! !

هو خالقها ، ومالكها ، ومقلبها . . ! !

وفي الحديث : " عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ ، يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، فقلت : يا رسول الله ! آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم . . إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء " "٨٤ "

ولذلك : لا يستطيع أحد أن يحكم بدوام فساد أحد أو صلاحه ؛ لأن ذلك في علم الله فقط .

وما دام الأمر كذلك : فلا داعي لأن نفقد الأمل _ في الإفادة للدعوة أو بالدعوة _ من أي أحد ، كل ما علينا : أن نعمل ما علينا بإتقان وإخلاص لما هو مطلوب منا ، وأن ندع النتائج ومدى الاستجابة ، وتصريف القلوب لله تعالى .

وهذا ما فعله النبي ﷺ _ في هذا الدرس العظيم من دروس الهجرة _ مع سراقة بن مالك .

وقصته مشهورة في كتب السنة وكتب السيرة .

ومعلوم فيها ملاحقته ولحوقه برسول الله ﷺ طمعا في الجائزة ، التي رصدتها قريش لمن يقتل مجمدا ﷺ ، قبل أن يصل إلى غايته .

وفيها : " . . . فدنوت منهما ، حتى إني لأسمع قراءة رسول الله ﷺ ، وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ثم ركضت الفرس ، فوقعت بمنخريها ، فأخرجت قداحي من كنانتي ، فضربت بها : أضره أم لا أضره ؟ فخرج لا تضره ، فأبت نفسي حتى أتبعه ، فأتيت ذلك الموضع ، فوقعت الفرس ، فاستخرجت يديه مرة أخرى ، فضربت بالقداح _ أي مرة ثانية _ أضره أم لا ؟ فخرج لا تضره ، فأبت نفسي ، حتى إذا كنت منه بذلك الموضع : خشيت أن يصيبني ما أصابني بأذيته ، فقلت إني أرى سيكون لك شأن فقف أكلمك ، فوقف النبي ﷺ ، فسأله أن يكتب له أمانا ، فكتب له أمانا "

وفي رواية البخاري : " فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسي ، حتى جئتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم : أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآني ولم يسألاني ، إلا أن قال : أخف عنا ، فسألته أن يكتب لي كتاب أمان ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ .

ورجع سراقة ، فجد في الطلب ، فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر ، قد كفيتم ما ها هنا "

" وكان أول النهار : جاهدا عليهما ، وآخره : حارسا لهما " "١٤ "

وفي رواية ثالثة : فالتفت أبو بكر ، فإذا هو بفارس قد لحقهم ، فقال : يا رسول الله ، هذا فارس قد لحق بنا ، فالتفت نبي الله ﷺ ، فقال : اللهم اصرعه ؛ فصرعه الفرس ، ثم قامت تحمحم ، فقال : يا نبي الله مرني بما شئت ، فقال : قف مكانك ، لا تتركن أحدا يلحق بنا .

قال : فكان أول النهار جاهدا على نبي الله ﷺ ، وكان آخر النهار مسلحة له " "١٤ " إن سراقة قد تغير ، وغير خطته .

وما ذلك : إلا لأنه اقتنع أن هذا الرجل ﷺ صادق في دعوته ، مؤيد من أجلها ، منصور بسببها .

ولذلك : رضي أن يذود عن رسول الله ﷺ آخر النهار _ بعد أن كان يطارده في أوله _ وصار يصرف الناس عن ملاحقته في هذا الطريق الذي يسير فيه .

واللافت للنظر : أن النبي ﷺ لم يقتله ، وكان يستطيع للعجز الذي أصاب سراقة وفرسه _ بل لم ينهره أو يعنفه ، أو يكذبه في صدق تحوله ، أو يرفض الإفادة منه وبه : إنما كان الأمر عكس ذلك تماما ، حيث اطمأن إليه ، وطلب منه أن يخف عنهما ، وذلك : بإتمام خطته في البحث عنهما من باب التعمية والتضليل على الكفار

والملاحظ : أنه إذا كان سحرة فرعون قد أسلموا في يومهم وأفادت منهم وبهم الدعوة : فإن سراقة لم يسلم في يومه _ بل ظل على شركه _ ومع ذلك أفادت منه وبه الدعوة .

وهذا الدرس العظيم من دروس الهجرة : يقتضينا أن نقف عنده بعض الشيء لنعي هذه الأمور : "٥٩ "

أولا : بإمكان الحركة الإسلامية _ إفادة من هذا الدرس _ أن تأخذ من صفوف أعدائها من تتوافر القناعة عنده بانتصارها ، ليتعامل معها ، ويناصرها ، بشرط :

أ _ توافر القدرة على تحديد الصديق من العدو في صفوف الكفار ، والقدرة على تحديد من يرجى منه النفع في صفوف الأعداء .

ب _ أن يكون تقدير الأمر _ في ذلك _ للقيادة ، من خلال تعاملها ، أو فهمها لهذا أو ذاك ، أو من خلال من ترشحه القيادة للقيام بهذه المهمة .

إن المنطق الظاهري يقتضي قتل سراقة بن مالك لأنه قد يدل عليهما ، خاصة وأنه لم يسلم بعد ، ولكن تقدير رسول الله ﷺ لشخصه : أنه صادق الولاء لهما ، وأنه تخلى عن عدائه لهذه الحركة ، أمام هذه المعجزات .

ثانيا : لا ينبغي أن يكون الحكم على الرجل أو الفئة من الناس من خلال الماضي القريب أو البعيد في عدائهم للإسلام .

فمناط الأمر : هو الثقة بتغير هذا الرجل ، أو هذه الفئة ، مهما كان ماضيه في الحرب ضد الإسلام .

ولأن هذا الحكم للقيادة : فلها _ من خلال تعاملها ، آو فهمها مع هؤلاء الناس _ الاجتهاد الأوفى في هذا الموضوع .

وإذا كان لرسول الله ﷺ هذا الحكم بموجب الوحي ؛ ولذا لا يخطئ ، لأنه لا ينطق عن الهوى : فليس أمام قيادة الحركة الإسلامية سوى الاجتهاد في هذا الأمر .

ولذا : قد تخطئ القيادة في هذا الأمر وقد تصيب .

فإذا أصابت : فبها ونعمت .

وإذا أخطأت _ مثلا _ فلا غضاضة في ذلك ، ولا داعي لأن تقيم القاعدة الدنيا عليها لهذا الخطأ ، وحسبها أنها اجتهدت قدر طاقتها لصالح الدعوة .

إذ ينبغي أن يكون واضحا : أن الحركة الإسلامية في مسيرتها لإقامة دولة الإسلام ، قد تضطر إلى أن تتحالف مع عدو قريب ، وتتعاون معه ، بل تطلب منه جزءا من المناصرة جليلا أو يسيرا ، إذا اطمأنت إليه ، دون تفويت شئ من الدين ، أو ترخص في وسيلة : غير مشروعة .

وميزان هذا الاطمئنان : هو مدى ثقة هذا العدو بقوة الحركة الإسلامية .

ولذلك : فما على القيادة إلا أن تبذل الجهد في التأكد من هذه الثقة ، ولا شئ عليها بعد ذلك ، أصابت التقدير أو أخطأته .

ثالثا : إن سلوك الأعداء ، ومواقفهم من الحركة الإسلامية يجعل لدى الحركة حرية التعامل معهم من خلال المواقف ، بحيث يكون الأمر في النهاية لصالح الإسلام ودولته .

فهذا رسول الله ﷺ : أعطى الأمان لسراقة بناء على : فهمه له ، وتقديره لموقفه ، وثقته في تغيره ، وقد أعلن سراقة مناصرته وولاءه ، ونفذ ما أعلنه والتزم به بناء على هذا الأمان .

ولذا : فالقيادة تستطيع أن تهادن وتؤمن وتستفيد بمن تشاء وممن تشاء ، بناء على تقديرها لهؤلاء الناس ، دون قيد لها ، أو حجر عليها .

وكم نتمنى للقاعدة الإسلامية الصلبة أن تكون عونا لقيادتها على هذا التحرك _ إفادة من هذا الدرس _ لا أن توجه لها سهام النقد والتجريح ، والاتهام في وعيها وحسن قيادتها على أقل الأحوال ، وقد يصل الاتهام إلى دينها في أغلب الأحوال .

نسوة في طريق الهجرة

هجرة المرسلين ليست كهجرة البشر ، ذلك أنها هجرة هدفها التمكين لدين الله تعالى بإرساء قواعده في الأرض لإعلاء شعائره إلى السماء ، وهي هجرة لا يقدم عليها الرسول إلا بإذن ربه ، وكم فات هذا المعنى كثيراً من الباحثين فخلطوا حتى آذوا النبي ﷺ بقولهم هاجر خوفاً أو فراراً من الأعداء ، يقولون هذا وموسوعات السيرة النبوية بين أيديهم تقص عليهم حث الصديق رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يهاجر فيبين له الرسول ﷺ أنه في انتظار أمر ربه . حتى أذن سبحانه فكانت الهجرة من أجل دين الله : فلم تكن لدنيا .. أو مال ...

واستوى – لهذا الأمر – رجال ونساء ، وما أكثر ما كان من حديث للرجال في الهجرة ربما كان سبباً في خفاء أمر نسوة كن على طريق الهجرة من قبل الهجرة ومن بعدها ، أديّن أدواراً غاية في الروعة والفداء والإيمان ، نسوة صَدقن أيضاً ما عاهدن الله عليه ، فلمعن في سماء الإسلام نجوماً باهرات لم يكن مثلهن في التاريخ ، ومن تلك النسوة :

١– (التمهيد للهجرة) نسيبة بنت كعب المازنية ، وأم منيع أسماء بنت عمرو السلمية : بُعث النبي ﷺ في مكة ، وأخذ يدعو قومه ، فأسلم منهم قليل ، وبسطت قريش أيديها وألسنتها بالسوء ، فأخذ النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل عله يجد من بينها ناصراً ، فلم يجد منها جميعاً أذناً صاغية ولا قلباً واعياً حى لقي في موسم الحج نفراً من الخزرج فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فصدقوه وآمنوا به ، وقالوا : إنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العدواة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله إليه ، فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وقد بايعوه .

فلما عاد إلى المدينة المنورة أذاعوا بها الإسلام فأجاب داعيتهم خلق كثير ، حتى إذا كان موسم الحج من قابل ذلك العام ، خرج من المدينة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان إلى رسول الله ﷺ ليبايعوه ويؤتوه عهدهم وذمامهم أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم ، فتوافدوا جميعاً إلى العقبة الثانية التي كانت النواة الأولى في لبنة الدولة الإسلامية ، وما يهمنا من أمر هذه البيعة هو ما كان من أمر المرأتين وهما :

؟ ... نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو من بني النجار : وتكنى أم عمارة الأنصارية ، وهي زوج زيد بن عاصم الصحابي الجليل ، وكانت بطلة مجاهدة من أبطال الإسلام ، ويحفظ لها التاريخ وقفتها يوم أحد ، وهي تقاتل دون النبي ﷺ حتى قال : [ما التفت يمينا وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني] وقد جرحت ثلاثة عشر جرحاً ، والدم ينزف منها ، فنادى المصطفى ﷺ ابنها عمارة قائلاً : [أمك أمك اعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان] فلما سمعت أمه قالت : ادع الله أن نرافقك في الجنة، فقال : [اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة] فقالت : ما أبالي ما أصابني من الدنيا .

ويحدث التاريخ عن موقفها في حروب الردة ومقاتلة مسيلمة الكذاب الذي قتل ابنها "حبيب" وقطعه قطعاً ، وشاركت في الحرب كأحد الأبطال الميامين حتى قطعت يدها ، فهذه المرأة وما اتصفت به من صفات تفوق الخيال كانت أولى المبايعات للنبي ﷺ وامرأة بمثل هذه القوة والشجاعة لا بد أن يكون لها في قومها رأي ومكانة ، ولا بد أن يكون لها تأثير على نساء قومها ، الذين عرفوا فيما بعد الأنصار .

؟ ... أم منيع : أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن سواد بن سلمة ، وتعرف بأم منيع الأنصارية ، وهي أم معاذ بن جبل ، أحد الأئمة المعدودين من أصحاب النبي ﷺ أسلمت حين تنفس صبح الإسلام بالمدينة المنورة ، قبل بيعة العقبة الثانية ، وجاءت مع وفد البيعة وكانت من أتم القوم عقلاً ، وأحكمهم رأياً ، ومن المشاركات في الجهاد في غزوة خيبر. كلتا المرأتين كانت مثالاً في قومها للرأي والحكمة والعقل والشجاعة ، ولا بد أن يكون لذلك تأثير على من سواهما من نساء يثرب ، فقامتا مع

الرجال بتعبئة الجو العام اليثربي وتيهئته للإسلام حتى كانت الهجرة فكان المجتمع اليثربي مستعداً لتكوين وتشييد وإقامة الدولة الإسلامية التي تكونت نواتها الأولى ببيعة العقبة .

٢- (طليعة الهجرة) ليلى بنت أبي حثمة العدوية :

هي ليلى بنت أبي حثمة بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن كعب بن لؤي القرشية العدوية ، زوج عامر بن ربيعة العنبري .

قبل مبعث النبي ﷺ كان زوجها مهيأ نفسياً لرؤية النبي ﷺ والإيمان بدينه ، وذلك لأن زيد بن عمرو بن نفيل قال لعامر زوجها ، أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ، ثم من بنى عبد المطلب ، ولا أراني أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة – يا عامر – ورأيته فأقرئه مني السلام.

وهكذا كانت "ليلى" مهيأة لقبول الدين الجديد ، لأنه زوجها كان يردد كثيراً قول زيد بن عمرو بن نفيل فلما سرى في مكة أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الله الواحد الأحد أقبل عامر وليلى وأسلما ، وكانا في طليعة المهاجرين إلى الحبشة لما اشتد أذى قريش ، وقال لهم النبي ﷺ : [أخرجوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق] تقول ليلى : كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا ، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة ، جاءني عُمر وأنا على بعيري نريد أن نتوجه ، فقال : أين يا أم عبد الله ؟ – وهي أم عبد الله بن عامر ، وبه كانت تكنى – فقلت آذيتمونيا في ديننا ، فنذهب في أرض الله حيث لا نؤذى في عبادة الله ، فقال : صحبكم الله ، ثم ذهب فجاءني زوجي عامر بن ربيعة ، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر ، فقال : ترجين أن يسلم ؟ فقلت نعم .. وهاجرت وهي وزوجها إلى الحبشة ، ولما علم المهاجرون بإسلام عمر عادوا أملاً في أن يكون فيه المنعة والحماية ، فلما اشتد أذى الكفار ، هاجرت ليلى وزوجها "عامر" مرة أخرى عائدة إلى الحبشة ، وعندما أذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى يثرب وقال : [من أرد أن يخرج فليخرج إليها] كانت ليلى بنت أبي حثمة ، هي أول امرأة هاجرت إلى المدينة ، فقد

كان أول المهاجرين – أبو سلمة– ثم تبعه ، عامر بن ربيعة ، وزوجه ليلى وتعد أول ظعينة تهاجر إلى المدينة ، ويظن الكثير أن أول مهاجرة كانت أم سلمة ولكنها كانت "ليلى" وليست أم سلمة كما سيتضح من عرضنا لأم سلمة فيها بعد .

ولم تكن هجرة ليلى بنت أبي حثمة ، إلى يثرب –المدينة– مجرد انتقال من مكان إلى مكان ولكن كان لها دور إيجابي هي وباقي المهاجرات والمهاجرين في توطيد دعائم الدين الإسلامي في قلوب اليثربيات واليثربيين ، وليس أدل على ذلك مما رأيناه من خروج الأنصار والمهاجرين ونسائهم للقاء النبي ﷺ بعد علمهم بهجرته المباركة .

٣. (بداية الهجرة) رقيقة بنت صيفي :

هي رقيقة بنت صيفى وقيل بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، عمها عبد المطلب بن هاشم وكان أسن منه ، وتتصل "رقيقة" برسول الله ﷺ في هاشم بن عبد مناف فهو جدها وجد أبيه ، ولما أدركها الإسلام كانت قد تطاول عليها القدم ، وجاوزت حد الهرم ، والتاريخ الإسلامي يحفظ لها وقفة مع الإسلام ، كثيراً ما يغفلها المؤرخون ، فلقد كانت ترقب ما يدور على الساحة من حولها وترى أن عدد المسلمين في ازدياد ، وكذلك عذاب المشركين يحمي وطيسه كلما أسلم مشرك ، وقد اجتمع كبار المشركين ليلاً ومعهم إبليس اللعين في صورة شيخ نجدي وانتهى أمرهم إلى أن يقتلوا النبي ﷺ في داره ، بيد فتية ، من كل قبيلة فتى ليتوزع دمه ﷺ في القبائل ، تلك المرأة المسنة – رقيقة – هي التي استشفت خبر قريس يوم ائتمروا بالنبي ﷺ فذهبت العجوز تجر أثقالها حتى أنهت إلى النبي ﷺ الخبر وحذرته من المبيت في داره وحدثته بحديث القوم الذي لا يعلمه إلا الله ثم هي ومن تآمروا عليه ، ذهبت العجوز التي أنافت على المائة ، لتنقل الخبر ولم تأمن على نقله ابنها مخرمة بن نوفل وهو من لحمة النبي ﷺ وذوي صحبته ، ذلك لأن الشك فيها وهي العجوز المسنة مستبعد ، وما أطيب امرأة ، وأجل منزلتها أن ذهبت إلى رسول الله ﷺ بمثل ما سبق به جبريل إليه على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام .

ولعل هناك من يقول : وأي عظمة تجدها امرأة سمعت خبراً فألقته كما سمعته ؟

ذلك قول من لم يستبطن الأمر ، ويتبين دخيلته ، فإن فئة قليلة العدد خطيرة الغرض ، من هامات القوم ، وأشداء فتيانهم ، بيتوا أمرهم واحتجزوا خبرهم عن بقيتهم ، والممالئين لهم ، وتعاهدوا وتعاقدوا ألا يذيعوه حتى يمضوه ، فئة ذلك شأنها وتلك غايتها ليس بالهين اليسير كشف أمرها والوقوف على ذوات نفوسها ، واستنقاذ رسول الله ﷺ من كيدها وشر غائلتها .

وتكون –رقيقة– مشاركة في أعظم حوادث الإسلام خطراً ، وأبقاها أثراً ، وأدومها على مر الدهور ذكراً ، وأقومها ببناء الإسلام ، وبنقلها خبر قريش يكون البدء الفعلي للهجرة .

٤. (الفداء والبطولة) أسماء بنت أبي بكر :

هي أسماء بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة القرشية التيمية ، وأمها قتيلة بنت عبد العزى بن أسد ، وهي شقيقة عبد الرحمن بن أبي بكر ، وأم عبد الله ابن الزبير ، وأخت عائشة أم المؤمنين لأبيهاا ، أسلمت بعد سبعة عشر مسلماً ، وأصبحت بطلة ضربت أروع الأمثلة في البطولة والفداء .

تنقلت العظائم من يد طاهرة إلى يد طاهرة ، فبعد أن دعمت العجوز –رقيقة بنت صيفي– أثرها أقامت الفتاة الحدثة "أسماء بنت أبي بكر" أثرها أيضاً ، لقد أعجل النبي ﷺ وصاحبه عن ابتغاء الزاد ، وشغلهما الغرض الأسمى عن الغرض الأدنى ، فسارا خفيفين إلى غار الذورة العليا في جبل ثور إخفاء لأمرهما ، وإعياء للذاهبين في أثرهما .

قامت الفتاة بحمل أمانة يُشفق على الرجال من حملها ، فكانت تقطع ثلاثة أميال إلا قليلاً – وهي الصبية الناشئة– في جوف الليل ، ووحشة الطريق ، بين أسنة الصخر ، ومساحات الرمال ، تمشى متخفية حذرة مترقبة حتى تصعد إلى هامته ، ثم تنحدر في جوفه فتوافي رسول الله ﷺ وصاحبة كل ليلة بالزاد والماء وبما عسى أن تكون قد سمعته ، أو رأته ، من حديث القوم وخبرهم.

قامت الصغيرة بدور فدائي وحملت أمانة الإمداد والتمويل للرحلة المباركة ، ونقل أخبار الكفار ، ولما أراد النبي ﷺ الرحيل من الغار متجهاً إلى يثرب جهزت الزاد والماء ، ولم تجد ما تربطهما به ، فشقت نطاقها وربطتهما به ، وحين فعلت ذلك قال النبي ﷺ : [أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة] فقيل لها ذات النطاقين .

تلك هي الصبية التي تركت الولدان والولائد من لداتهها وأترابها يغدون إلى ملاعبهم ويأوون إلى صدور أمهاتهم ، وذهبت إلى حيث يعجز أشداء الرجال وأبطالهم ، فأي قوة تلك التي أمدها الله بها ، وأي قلب ذلك الذي أودعه الله بين ضلوعها ، وأية عزمة تلك التي خفقت في نفسها ؟ فلعمري لئن سلمت الفتاة "أسماء" من عثرات الطريق ووعثاء الصحراء تحت جنح الليل البهيم ، فلم تسلم من أذى قريش وكفارها ، فجاءها نفر واقتحموا عليها وداعتها وهدوءها وأحاط بها رجال القوم وهي فريدة بينهم لا يحمي ظهرها رجل ، وسألوها في عصبية : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ فردت في صمود وشموخ وثقة وإباء : لا أدري أين أبي !! فرفع النذل أبو جهل –لعنه الله – يده ولطمها لطمة قاسية طار لها قطرها ، ولم يوهن ذلك شيئاً من عزيمتها ولا عبث بمكنون سرها. وتعد هذه الفتاة الفدائية مثلاً لتلك النفوس التي استخلصها الله لدينه ، واصطنعها لدعوته ، ونفث فيها من روحه ، فكانت مستقراً لفضائل الكمال ، ويحدثنا التاريخ بإسهاب لمواقفها البطولية بعد ذلك في مجال الجهاد والدعوة ، وليس أعظم من قولتها لابنها عبد الله بن الزبير حين خشي من التمثيل بجثته : يا بني إن الشاه لا يضيرها سلخها بعد ذبحها ، فامض واستعن بالله ، قالت هذا وهي تحذر مصير ابنها ، ولكنها تعلمت أن تضحي منذ الصغر ، ولا تبخل في سبيل الله بالجهد بالمال والولد

٥. عاتكة بنت خالد الخزاعية " أم معبد " : (الوصف الفذ لرسول الله ﷺ) :

هي عاتكة بنت خالد بن خليف بن منقذ بن ربيعة بن كعب بن عمرو من خزاعة ، وتعرف "بأم مَعْبَد الخزاعية" من ربات الفصاحة والبلاغة وكانت امرأة برزة جلدة تسقى وتطعم ، فمر الرسول ﷺ عليها في خيمتها ، هو وأبو بكر رضي الله عنه ، ومولاه عامر بن فهيرة والدليل عبد الله بن أريقط ، وسألوها لحماً وتمراً ليشتروه ،

فلم يصيبوا عندها شيئاً ، وفي كسر الخيمة شاة فقال رسول الله ﷺ : [يا أم معبد هل بها من لبن] ؟ فقالت : هي أجهد من ذلك ، فقال : [أتأذنين لي أن أحلبها ؟] قالت : نعم إن رأيت بها حلباً ، فمسح الرسول ﷺ بيده ضرعها وسمى الله ، ودعا لها في شاتها ، فدرت ، واجترت فدعا بإناء فحلب فيه حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم ثم حلب فيه ثانياً ثم غادره عندها وارتحلوا عنها .

وما لبثت " أم معبد " حتى جاء زوجها يسوق أعنزاً عجافاً فلما رأى اللبن قال في عجب : من أين لك اللبن يا أم معبد والشاه عازب حيال ، ولا حلوب في البيت ؟ قالت عاتكة : لا والله إنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت . فقال : صفيه لي ، فوالله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب ، وخُلدت عاتكة في التاريخ بما قدمته من وصف للمصطفى ﷺ فهو أدق وصف وصف به ، فلم يصفه الواصفون بمثل ما وصفته به أم معبد . قالت في وصفه : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة حسن الخلق مليح الوجه لم تعبه ثجلة ولم تزر به صُعلة ، قسيم ، وسيم في عينيه دَعَج ، وفي أشفاره وَطَف ، وفي صورته صَحَل ، أكحل أزج أقرن في عنقه سَطَع ، وفي لحيته كثاثة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خزرات نظم ينحدرن ، أبهى الناس ، وأجمله من بعيد ، وأحسنه من قريب ، ربعة لا تشنأه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قداً ، وإن أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود ، لا عابس ولا مفند . فقال : – أي بعلها – هذا والله صاحب قريش الذي تطلب ، ولو صادفته لالتمست أن أصحبه ، ولأجهدن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً .

وأي محدث يريد أن يصف النبي ﷺ لا يسعه إلا أن يعود إلى وصف أم معبد البليغ ، وقد كان لها دور أيضاً في الهجرة ، فخيمتها معروفة على الطريق من مكة إلى المدينة ، وبعد رحيل النبي ﷺ من الغار انقطعت أخباره عن أصحابه في مكة فلم

يعلموا الوجهة التي قصدها النبي صلى الله علهيه وسلم وبعد ما حل في خيمة أم معبد عرف كل من بمكة ذلك ، وعن هذا تحكى الفدائية "أسماء" فتقول : مكثنا ثلاث ليال ما ندري أين وجه رسول الله ﷺ حتى أصبح صوت بمكة عال بين السماء والأرض يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون الصوت ولا يرون صاحبه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خبر جزائه رفيقين حلاّ خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبر وارتحلا به فأفلح من أمسى رفيق محمد

فيا لُقصي ما زوى الله عنكم به من فعال لا تجازى وسؤدد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل فتحلبت له بصريح ، ضبرة الشاة مزبد

فغادرها رهناً لديها لحالب يدُر لها في مصدر ثم مورد

قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهه إلى المدينة ، وأخذ المهاجرون على خيمتي أم معبد حتى لحقوا بالنبي ﷺ .

وهكذا كانت خيمتا أم معبد حلقة الوصل لتصل ما انقطع من أخبار النبي ﷺ عن المسلمين في مكة ، وفي الخيمة كانت الراحة للمهاجرين ، ثم الترحال للحاق بالنبي صلى الله عليه وسلم

نفحات من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

التأريخ الهجري:

رفع صك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه محله في شعبان فقال عمر: أي شعبان؟ الذي هو آت أو الذي نحن فيه؟ ثم قال لأصحاب رسول الله ﷺ ضعوا للناس شيئاً يعرفونه وقد أجمعت كلمة الصحابة على استبعاد تاريخ الروم والفرس ليكون للمسلمين تاريخهم المستقل الذي ابتدأ حقيقة برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما كانت الهجرة النبوية هي الحد الفاصل بين المرحلة المكية والمدنية للدعوة الإسلامية فقد اتفقت الآراء على أن يكتبوا التاريخ من مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة

وعلى أن يكون البدء من شهر الله المحرم فهو مصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام.

آفاق جديدة:

فتحت هجرة النبي ﷺ إلى المدينة آفاقاً جديدة للدعوة الإسلامية التي تعتمد مبدأ الكلمة الواعية المستندة إلى توحيد الله عز وجل، ولقد دخلت المدينة (يثرب سابقاً) مرحلة جديدة بعد بيعة العقبة الثانية حيث بدأ فيها التاريخ، وبدأ فيها التحول والتطور نحو حياة أفضل، إذ تحولت نزاعات الأوس والخزرج إلى ألفة ومحبة، وتبدلت فرقتهم إلى عزة وتوحد، وانهارت وثنيتهم أمام نور توحيد الله وبدأ دور يهود يثرب يأفل ويغيب حيث كانوا يسيطرون على اقتصاد يثرب ويسعون جاهدين إلى تشتيت القبائل العربية وتمزيق وحدتها وإشعال نار الفتن والخصومات بين أهلها، ولما دخلت طلائع الدعوة الإسلامية تكشفت مؤامرات يهود وبدأ دورهم بالانهيار وقام سفير رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بنشاط دعوي كبير حيث دخل على يديه إلى الإسلام عدد كبير من زعماء بني عبد الأشهل والقبائل العربية الأخرى بحيث لم يبق بيت في المدينة إلا ودخل إليه نور الإسلام.

الدعوة بالتربية والقدوة:

هاجر إلى المدينة المنورة (٧٩) مسلماً من المسلمين الأوائل الذين دخلوا مدرسة دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة المكرمة حيث كان محمداً ﷺ يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وكان كتابهم القرآن الكريم يتعلمون أحكامه وعلومه وأخلاقه وآدابه حتى تخرجوا من هذه المدرسة وقد تطهرت عقيدتهم من الشرك والوثنية، وتنظفت نفوسهم من الأمراض الأخلاقية، وخلت قلوبهم مما سوى الله، وأخذوا من رسول الله ﷺ الدروس التربوية عن طريق القدوة الطيبة، والأسوة العملية الحسنة، وبموجب عقد التآخي بين المهاجرين والأنصار فقد دخل المهاجرون (٧٩) بيتاً من بيوت الأنصار فنقلوا إليهم العقيدة الحقة والأخلاق الفاضلة والسلوك المستقيم عن طريق القدوة الحسنة، وهذا بدوره حول هذا المجتمع إلى مجتمع فاضل يعرف فيه كل فرد حقوقه

وواجباته تحت ظلال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكم نحن بحاجة إلى اتباع أسلوب الدعوة العملية بالقدوة والأسوة الحسنة ليعشق الآخرون الإسلام من خلال التزامنا العملي به ولقد ضرب التجار المسلمون أروع المثل في البلاد التي سافروا إليها فرأى أهلها معاملات صادقة، وأخلاقاً فاضلة مما دعاهم إلى الدخول في دين التجار المسلمين هكذا فتحت أندونيسيا وماليزيا وجزر الأرخبيل في جنوب شرق آسيا. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

المعية الإلهية:

وصل المشركون إلى غار ثور حيث انقطعت آثار أقدام النبي ﷺ وصاحبه الصديق وخشي أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وقال: لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا فأجابه النبي ﷺ ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن إن الله معنا، ولقد سطر القرآن هذه الحادثة فقال "فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها" ولا بأس من إلقاء الضوء على التساؤل التالي: هل المعية الإلهية كانت خاصة برسول الله ﷺ وصاحبه الصديق في الغار؟ ولدى الرجوع إلى الحقائق القرآنية نجد ما يلي:

١- طلب الله من موسى وهارون القيام بواجب الدعوة والبلاغ إلى فرعون بقوله: اذهب إلى فرعون إنه طغى فاعتذر إلى الله بالخوف من استكبار فرعون وطغيانه "قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى" فطمأنهما الله بالمعية الإلهية الناصرة "قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى"

٢- وظلت هذه المعية الإلهية مع نبيه موسى عليه السلام لما فر من فرعون وجنده مع المؤمنين خشي من معه بأن يظفر بهم فرعون "فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون" فطمأنهم موسى بالمعية الإلهية "قال كلا إن معي ربي سيهدين".

٣- وقد طلب الله من بني إسرائيل القيام بعدة أمور لاستحقاق المعية الإلهية "وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله

قرضاً حسناً" وبإمكان كل مسلم أن يستحق شرف المعية الإلهية إذا قام بمتطلباتها، وهي:

أ- التقوى: "إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون" والتقوى هي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

ب- الصبر: "إن الله مع الصابرين".

جـ - الإحسان: "وإن الله لمع المحسنين" ويشمل الإحسان تقديم الخير إلى الخلق، ومجاهدة النفس في العبادة حتى يصل الإنسان إلى مقام "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

هجرة الصديق مع رسول الله ﷺ إلى المدينة

اشتدت قريش في أذى المسلمين، والنيل منهم فمنهم من هاجر الى الحبشة مرة أو مرتين فراراً بدينه...ثم كانت الهجرة الى المدينة ومن المعلوم أن أبا بكر استأذن النبي ﷺ في الهجرة فقال له: (لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً)(١) فكان أبوبكر يطمع أن يكون في صحبة النبي ﷺ وهذه السيدة عائشة رضي الله عنها تحدثنا عن هجرة رسول الله ﷺ وأبيها - رضي الله عنه - حيث قالت: (كان لايخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة(٢)، في ساعة كان لايأتي فيها قالت: فلما رآه أبوبكر، قال: ماجاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل، تأخر له أبوبكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ أخرج عني من عندك. فقال: يارسول الله، إنما هما إبنتاي، وماذاك فداك أبي وأمي! فقال: إنه قد أذن بي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبوبكر: الصحبة يارسول الله؟ قال: الصحبة. قالت: فوالله ماشعرت قط قبل ذلك اليوم أحد يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يانبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا فاستأجرا عبدالله بن أرقط رجلاً من بني الديل

بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً -يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما(٣).

وجاء في رواية البخاري عن عائشة في حديث طويل تفاصيل مهمة وفي ذلك الحديث : (.....قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوساً في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متقنعاً(٤)، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبوبكر: إنما هم أهلك. فقال: فإني قد أذن لي في الخروج فقال أبوبكر: الصحبة بأبي أنت يارسول الله قال رسول الله ﷺ : نعم، قال ابوبكر: فخذ بأبي أنت يارسول الله إحد راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ : بالثمن، قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، ووضعنا لهم سفرة في جراب، فقطمت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، ثم لحق رسول الله ﷺ وأبوبكر بغار في جبل ثور، فكمنا(٥) فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف(٦)، لقن(٧)، فيدلج(٨) من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان(٩) به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما حيث تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل -وهو لبن منحهما ورضيفهما(١٠) ينعق(١١) بها عامر بن فهيرة بغلس(١٢) يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبوبكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد ابن عدي -هادياً خريتا- والخريت الماهر- قد غمس حلفاً(١٣) في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعده غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل(١٤).

---

(١) تاريخ الدعوة الى الاسلام، ص١٠٧.

(٢) الهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر أو العصر.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٣٣-٢٣٤).
(٤) متقنعاً: مغطياً رأسه.
(٥) كمنا فيه: أي استترا واستخفيا ومنه الكمن في الحرب.
(٦) ثقف: ذو فطن وذكاء والمراد ثابت المعرفة بما يحتاج إليه. (النهاية ١/٢١٦).
(٧) لقن: فهم حسن التلقي لما يسمعه، (النهاية، ٤/٢٦٦).
(٨) يدلج: أدلج إذا سار أول الليل وأدّلج بالتشديد إذا سار آخره.
(٩) يكتادان: أي يطلب لهما فيه المكروه وهو من الكيد.
(١٠) الرضيف: اللبن المرضوف وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة.
(١١) ينعق: نعق بغنمه، أي صاح بها وزجرها. (القاموس المحيط، ٣/٢٦٥).
(١٢) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. (النهاية، ٣/٣٧٧).
(١٣) غمس حلفاً: أي أخذ بنصيب من عقدهم وحلفهم يأمن به.
(١٤) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي رقم ٣٩٥.

لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبوبكر الصديق، وآل أبي بكر، وجاء وقت الميعاد بين رسول الله ﷺ ابي بكر – رضي الله عنه –، فخرجا من خوخة(١)، لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء حتى لاتتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبدالله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال(٢)، وقد دعا النبي ﷺ عند خروجه من مكة الى المدينة(٣)، ووقف عند خروجه بالحزورة في سوق مكة وقال: (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله الى الله، ولولا أني أخرجت منك ماخرجت)(٤).

ثم أنطلق رسول الله وأبوبكر والمشركون يحاولون أن يقتفوا آثارهم حتى بلغوا الجبل -جبل ثور- اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرآوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه(٥)، وهذه من جنود الله عز وجل: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ} (سورة المدثر، الآية:٣١).

وبالرغم من كل الأسباب التي اتخذها رسول الله ﷺ فإنه لم يرتكن إليها مطلقاً، وإنما كان كامل الثقة في الله، عظيم الرجاء في نصره وتأييده، دائم الدعاء بالصيغة التي علمه الله إياها(٦)، قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} (سورة الاسراء، الآية:٨٠).

وفي هذه الآية الكريمة دعاء يُعلّمه الله عز وجل لنبيه ﷺ ليدعوه به، ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وكيف تتجه إليه؟ دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج، كناية عن صدق الرحلة كلها، بدئها وختامها، أولها وآخرها ومابين الأول والآخر، وللصدق هنا قيمته بمناسبة ماحاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه ليفترى على الله غيره، وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثبات، والاطمئنان والنظافة الاخلاص {وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} قوة وهيبة استعلى بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين، وكلمة {مِنْ لَدُنْك} تصور القرب والاتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء الى حماه.

وصاحب الدعوة لايمكن أن يستمد السلطان إلا من الله، ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان الله، لايمكن أن يستظل بحاكم أو ذى جاه فينصره ويمتعه مالم يكن أتجاهه قبل ذلك الى الله والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان والجاه، فيصبحون لها جنداً وخدماً فيفلحون، ولكنها هي لاتفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه، فهي من أمر الله، وهي أعلى من ذوي السلطان والجاه(٧).

وعندما أحاط المشركون بالغار، أصبح منهم رأي العين طمأن الرسول ﷺ الصديق بمعية الله لهما: فعن ابي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: ماظنك ياأبابكر باثنين الله ثالثهما(٨)؟

وسجل الحق عز وجل ذلك في قوله تعالى: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ

اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (سورة التوبة، الآية:٤٠).

---

(١) الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٣٤.

(٢) خاتم النبيين لأبي زهرة (٦٥٩/١)؛ السيرة النبوية لابن كثير (٢٣٤/٢).

(٣) السيرة النبوية لابن كثير (٢٣٠/٢-٢٣٤).

(٤) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٧٢٢/٥).

(٥) مسند الامام أحمد (٣٤٨/١).

(٦) الهجرة النبوية المباركة، ص٧٢.

(٧) في ظلال القرآن (٢٢٤٧/٤).

(٨) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين رقم ٣٦٥٣؛ مسلم رقم ٥٣٨١.

وبعد ثلاث ليال من دخول النبي ﷺ في الغار خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول الى رسول الله، وقد قلنا أن رسول الله ﷺ وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بني الديل يسمى عبدالله بن أريقط وكان مشركاً وقد أمِناهُ فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما وقد جاءها فعلاً في الموعد المحدد وسلك بهما طريقاً غير معهودة ليخفي أمرهما عمن يلحق بهم من كفار قريش(١)، وفي أثناء الطريق الى المدينة مرّ النبي ﷺ بأم معبد(٢)، في قديد(٣)، حيث مساكن خزاعة، وهي أخت حبيش بن خالد الخزاعي الذي روى قصتها، وهي قصة تناقلها الرواة وأصحاب السير، وقال عنها ابن كثر: (وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً)(٤).

وقد أعلنت قريش في نوادي مكة بأنه من يأتي بالنبي ﷺ حياً أو ميتاً فله مائة ناقة وانتشر هذا الخبر عند قبائل العرب الذين في ضواحي مكة وطمع سراقة بن مالك بن جعشم في نيل الكسب الذي أعدته قريش لمن يأتي برسول الله ﷺ فأجهد نفسه لينال

ذلك، ولكن الله بقدرته التي لايغلبها غالب، جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله ﷺ بعد أن كان جاهداً عليه(٥).

ولما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يفدون كل غداة الى الحرة، فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ماأطالوا انتظارهم فلما أووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم(٦) من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله ﷺ ، وأصحابه مبيضين(٧)، يزول بهم السراب(٨)، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته، يامعشر العرب هذا جدكم(٩)، الذي تنتظرون، فثار المسلمون الى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عوف، وذلك يوم الخميس الأثنين(١٠) من شهر ربيع الأول(١١)، فقام أبابكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك(١٢).

كان يوم وصول الرسول ﷺ وأبي بكر الى المدينة يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، ولقد كان حقاً يوم عيد، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الاسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة الى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها الى سائر بقائع الأرض لقد أحس أهل المدينة بالفضل الذي حباهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم الله به، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله وصحابته المهاجرين ثم لنصرة الاسلام كما أصبحت موطناً للنظام الاسلامي العام التفصيلي بكل مقوماته ولذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج ويقولون يارسول الله يامحمد يارسول الله(١٣)، وبعد هذا الاستقبال الجماهيري العظيم الذي لم يرد مثله في تاريخ الانسانية سار رسول الله ﷺ حتى نزل في دار أبي أيوب الانصاري – رضي الله عنه –(١٤)، ونزل الصديق على خارجة بن زيد الخزرجي الأنصاري.

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، زيدان (١٠١/٢).

(٢) هي عاتكة بنت كعب الخزاعية.

(٣) وادي قديد يبعد عن الطريق المعبد حوالي ثمانية كيلومترات.
(٤) البداية والنهاية (١٨٨/٣).
(٥) السيرة النبوية، عرض لوقائع وتحليل لأحداثها للصّلابي، ج١، ص٥٤٣).
(٦) أطم: كالحصن.
(٧) مبيضين: عليهم ثياب بيض.
(٨) السراب: أي يزول بهم السراب عن النظر بسبب عروضهم له.
(٩) جدكم: حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه.
(١٠) قال الحافظ بن حجر: هذا هو المعتمد وشذ من قال الجمعة. (الفتح، ٥٤٤/٤).
(١١) الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٥١.
(١٢) نفس المصدر، ص٣٥٢.
(١٣) المصدر السابق، ص٣٥٣.
(١٤) الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٥٤.

وبدأت رحلة المتاعب والمصاعب والتحديات، فتغلب عليها رسول الله ﷺ للوصول للمستقبل الباهر للأمة والدولة الاسلامية التي استطاعت أن تصنع حضارة إنسانية رائعة على أسس من الإيمان والتقوى والإحسان والعدل بعد أن تغلبت على اقوى دولتين كانتا تحكمان في العالم، وهما الفرس والروم(١)، وكان الصديق – رضي الله عنه – الساعد الأيمن لرسول الله ﷺ منذ بزوغ الدعوة حتى وفاته ﷺ ، وكان ابوبكر – رضي الله عنه – ينهل بصمت وعمق من ينابيع النبوة: حكمة وإيماناً، يقيناً وعزيمة، تقوى وإخلاصاً، فإذا هذه الصحبة تثمر: صلاحاً وصدِّيقية، ذكراً ويقظة، حُباً وصفاء، عزيمة وتصميماً، إخلاصاً وفهماً، فوقف مواقفه المشهودة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، في سقيفة بني ساعدة وغيرها من المواقف وبعث جيش أسامة وحروب الردة، فأصلح مافسد، وبنى ماهُدم، وجمع ماتفرق، وقوّم ماانحرف(٢)، إن حداثة هجرة الصديق مع رسول الله فيها دروس وعبر وفوائد منها:

أولاً: قال تعالى: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (سورة التوبة، الآية٤٠).

ففي هذه الآية الكريمة دلالة على أفضلية الصديق من سبعة أوجه ففي الآية الكريمة من فضائل أبي بكر – رضي الله عنه –:

١– أن الكفار أخرجوه:

الكفار أخرجوا الرسول (ثاني أثنين) فلزم أن يكونوا أخرجوهما، وهذا هو الواقع.

٢– أنه صاحبه الوحيد:

الذي كان معه حين نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا هو أبوبكر، وكان ثاني أثنين الله ثالثهما. قوله {ثَانِيَ اثْنَيْنِ} ففي المواضع التي لايكون مع النبي ﷺ من أكابر الصحابة إلا و احد يكون هو ذلك الواحد مثل سفره في الهجرة ومقامه يوم بدر في العريش لم يكن معه فيه إلا أبوبكر، ومثل خروجه الى قبائل العرب يدعوهم الى الاسلام كان يكون معه من أكابر الصحابة أبوبكر، وهذا اختصاص في الصحبة لم يكن لغيره باتفاق أهل المعرفة بأحوال النبي ﷺ .

٣– أنه صاحبه في الغار:

الفضيلة في الغار ظاهرة بنص القرآن وقد أخرجا في الصحيحين من حديث أنس، عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –، قال: نظرت الى أقدام المشركين على رؤسنا ونحن في الغار، فقلت: يارسول الله لو أن أحدهم نظر الى قدميه لأبصرنا. فقال: ياأبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما(٣). وهذا الحديث مع كونه مما اتفق أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول فلم يختلف في ذلك اثنان منهم فهو مما دل القرآن على معناه(٤).

٤– أنه صاحبه المطلق:

قوله: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ} لايختص بمصحابته في الغار، بل هو صاحبه المطلق الـذي عمل في الصحبة كما لم يشركه فيه غيره –فصار مختصاً بالأكملية مـن الصـحبة، وهذا مما لانزاع فيه بين أهل العلم باحوال النبي ﷺ ولهذا قال من قال من العلمـاء: إن فضائل الصديق خصائص لم يشركه فيها غيره(٥).

٥- أنه المشفق عليه:

قوله {لا تَحْزَنْ} يدل على أن صاحبه كان مشفقاً عليه محباً له ناصراً له حيث حزن، وإنما بحزن الإنسان حال الخوف على من يحبه، وكان حزنه على النبي ﷺ لئلا يقتل ويذهب الاسلام، ولهذا لما كان معه في سفر الهجرة كان يمشي امامه تـارة، ووراءه تارة، فسأله النبي ﷺ عن ذلك، فقال: أذكر الرصد فأكون أمامـك، وأذكـر الطلـب فأكون وراءك(٦)، وفي رواية أحمد في كتاب فضائل الصحابة: ...فجعـل أبـوبكر يمشي خلفه ويمشي أمامه فقال له النبي ﷺ مالك؟ قال: يارسول الله أخاف أن تـؤتى من أمامك فأتقدم، قال: فلما انتهينا الى الغار قال أبوبكر: يارسول الله كما أنت حتـى أيمه...فلما رأى أبوبكر حجراً في الغار فألقمها قدمه، وقال يارسـول الله إن كانـت لسعة أو لدغة كانت بي(٧). فلم يكن يرضى بمساواة النبي؛ بل كان لايرضـى بـأن يقتل رسول الله ﷺ وهو يعيش؛ بل كان يختار أن يفديه بنفسه وأهله ومالـه. وهـذا واجب على كل مؤمن، والصديق أقوم المؤمنين بذلك(٨).

٦- المشارك له في معية الاختصاص:

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، أم محزون، ص٣٥٥.

(٢) في التاريخ الاسلامي، شوقي ابوخليل، ص٢٢٦.

(٣) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، رقم ٣٦٥٣؛ مسلم رقم ١٨٥٤.

(٤) منهاج السنّة (٤/٢٤١،٢٤٠).

(٥) منهاج السنّة (٤/٢٤٥،٢٥٢).

(٦) ابوبكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، ص٤٣.

(٧) منهاج السنّة (٤/٢٦٣،٢٦٢).
(٨) نفس المصدر (٤/٢٦٣).
قوله: {إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} صريح في مشاركة الصديق للنبي ﷺ في هذه المعية التي اختص بها الصديق لم يشركه فيها أحد من الخلق... وهي تدل على أنه معهم بالنصر والتأييد والإعانة على عدوهم – فيكون النبي ﷺ قد أخبر أن الله ينصرني وينصرك ياأبابكر، ويعيننا عليهم، نصر إكرام ومحبة كما قال الله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} (سورة غافر، الآية ٥١). وهذا غاية المدح لأبي بكر؛ إذ دل على أنه ممن شهد له الرسول بالايمان المقتضي نصر الله له مع رسوله في مثل هذه الحال التي يخذل فيها عامة الخلق إلا من نصره الله(١).
وقال الدكتور عبدالكريم زيدان عن المعية في هذه الآية الكريمة وهذه المعية الربانية المستفادة من قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} أعلى من معيته للمتقين والمحسنين في قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} لأن المعية هنا لذات الرسول وذات صاحبه، غير مقيدة بوصف هو عمل لهما، كوصف التقوى والإحسان بل هي خاصة برسوله وصاحبه مكفولة هذه المعية بالتأييد بالآيات وخوارق العادات(٢).
٧- أنه صاحبه في حال إنزال السكينة والنصر:
قال تعالى {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا...} (سورة التوبة، الآية ٤٠) فإن من كان صاحبه في حال الخوف الشديد فلأن يكون صاحبه في حضور النصر والتأييد أولى وأحرى، فلم يحتج أن يذكر صحبته له في هذه الحال لدلالة الكلام والحال عليها. وإذا علم أنه صاحبه في هذه الحال علم أنما حصل للرسول من إنزال السكينة والتأييد بالجنود التي لم يرها الناس لصاحبه فيها أعظم مما لسائر الناس. وهذا من بلاغة القرآن وحسن بيانه(٣).
ثانياً: فقه النبي ﷺ والصديق في التخطيط والأخذ بالأسباب:

إن من تأمل حادثة الهجرة رأى دقة التخطيط فيها ودقة الأخذ بالأسباب من ابتـــدائها ومن مقدماتها إلى ماجرى بعدها يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رســـول الله ﷺ كان قائماً وأن التخطيط جزء من السنة النبوية وهو جزء من التكليف الإلهـــي في كل ماطولب به المسلم وأن الذين يميلون إلى العفوية بحجة أن التخطيط وإحكـــام الأمور ليسا من السُّنة أمثال هـــؤلاء مخطئـــون ويجنـــون علـــى أنفســـهم وعلـــى المسلمين(٤).

فعندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ في التنفيذ نلاحظ الآتي:

أ-وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت رغم ماكان يكتنفها من صعاب وعقبـــات، وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروساً دراسة وافية، فمثلاً،

١-جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر في وقت شدة الحر -الوقت الذي لايخرج فيه أحد بـــل من عادته لم يكن يأتي له لماذا؟ حتى لايراه أحد.

٢-إخفاء شخصيته ﷺ أثناء مجيئة للصديق وجاء إلى بيت الصديق متلثماً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم(٥).

٣-أمر ﷺ أبا بكر أن يخرج من عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمـــر بـــالهجرة دون تحديد الإتجاه .

٤-وكان الخروج ليلاً ومن باب خلفي في بيت أبي بكر(٦).

٥-بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذلك بخبير يعـــرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، وكان ذلك الخبير مشركاً مادام على خلق ورزانة وفيه دليل على أن الرسول ﷺ كان لايحجم عن الاستعانة بـــالخبرات مهمـــا يكـــن مصدرها(٧)، وقد بين الشيخ عبدالكريم زيدان أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامة، ولهذه القاعدة استثناء وهو جواز الاستعانة بغيـــر المســـلم بشروط معينة وهي: تحقق المصلحة أو رجحانها بهذه الاستعانة، وأن لايكـــون ذلـــك على حساب الدعوة ومعانيها، وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به، وأن لاتكون هذه الاستعانة مثار شبهة لأفراد المسلمين، وأن تكون هنـــاك حاجـــة حقيقيـــة لهـــذه

الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة(٨)، وقد كان الصديق – رضي الله عنه – قد دعا أولاده للإسلام ونجح بفضل الله في هذا الدور الكبير والخطير، وقام بتوظيف أسرته لخدمة الإسلام ونجاح هجرة رسول الله ﷺ ، فوزع بين أولاده المهام الخطيرة في مجال التنفيذ العملي لخطة الهجرة المباركة:

١–دور عبدالله بن أبي بكر–رضي الله عنهما–:

---

(١) منهاج السنّة (٤/٢٤٣،٢٤٢).

(٢) المستفاد من قصص القرآن (٢/١٠٠).

(٣) منهاج السنّة (٤/٢٧٢).

(٤) الأساس في السنّة، سعيد حوى (٣٥٧٨).

(٥) السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحيطة، ص١٤١.

(٦) معين السيرة للشامي، ص١٤٧.

(٧) الهجرة في القرآن الكريم، ص٣٦١.

(٨) المستفاد من قصص القرآن (٢/١٤٥،١٤٤).

فقد قام بدور صاحب المخابرات الصادق وكشف تحركات العدو، لقد ربى عبدالله على حب دينه، والعمل لنصرته ببصيرة نافذة وفطنة كاملة وذكاء متوقد، يدل على العناية الفائقة التي اتبعها سيدنا أبو بكر في تربيته وقد رسم له أبوه دوره في الهجرة فقام به خير قيام، وكان يمتثل في التنقل بين مجالس أهل مكة يستمع أخبارهم، ومايقولونه في نهارهم ثم يأتي الغار إذا أمسى فيحكي للنبي ﷺ ولأبيه الصديق – رضي الله عنه – مايدور بعقول أهل مكة ومايدبرونه، وقد أتقن عبدالله هذا الواجب بطريقة رائعة فلم تأخذ واحداً من أهل مكة ريبة فيه، وكان يبيت عند الغار حارساً حتى إذا اقترب النهار عاد إلى مكة فما شعر به أحد(١).

٢–دور عائشة وأسماء رضي الله عنهما:

كان لأسماء وعائشة دور عظيم أظهر فوائد التربية الصحيحة حيث قامتا عند قدوم النبي ﷺ إلى بيت أبي بكر ليلة الهجرة بتجهيز طعام للنبي ﷺ ولأبيهما: تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فجهزناهما -تقصد رسول الله ﷺ وأباها- أحسن الجهاز فصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فلذلك سميت ذات النطاقين(٢).

٣-دور أسماء في تحمل الأذى وإخفاء أسرار المسلمين:

أظهرت أسماء رضي الله عنها دور المسلمة الفاهمة لدينها، المحافظة على أسرار الدعوة المتحملة لتوابع ذلك من الأذى والتعنت فهذه أسماء تحدثنا بنفسها حيث تقول: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر - رضي الله عنه - أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يابنت أبي بكر؟ قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده -وكان فاحشاً خبيثاً- فلطم خدِّي لطمة طرح منها قرطي قالت: ثم انصرفوا...)(٣).

فهذا درس من أسماء رضي الله عنها تعلمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم؟

٤-دور أسماء رضي الله عنها في بث الأمان والطمأنينة في البيت:

خرج أبو بكر - رضي الله عنه - مع رسول الله ﷺ ومعه ماله كله وهو ماتبقى من رأسماله -وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم- وجاء أبو قحافة ليتفقد بيت ابنه، ويطمئن على أولاده وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: كلا يا أبتِ، ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لابأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. لاوالله ماترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أسكّن الشيخ بذلك(٤).

وبهذه الفطنة والحكمة سترت أسماء أباها، وسكنّت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار التي كوّمتها لتطمئن لها نفس الشيخ إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لاتزلزله الجبال، ولاتحركه العواصف الهوج، ولايتأثر

بقلة أو كثرة في المال، وورثهم يقيناً وثقة به لاحد لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي الأمور، ولاتلتفت إلى سفاسفها، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزّ أن يتكرر،وقلّ أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هُنَّ في أمس الحاجة إلى الإقتداء به، والنسج على منواله وظلت أسماء مع أخواتها في مكة، لاتشكو ضيقاً، ولاتظهر حاجة، حتى بعث النبي ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجه وأسامة بن زيد، وأمه بركة المكناة بأم أيمن، وخرج معهما عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، حتى قدموا المدينة مصطحبين(٥).

٥-دور عامر بن فهيرة-مولى أبي بكر - رضي الله عنه -- :

من العادة عند كثير من الناس إهمال الخادم، وقلة الاكتراث بأمره، لكن الدعاة الربانيين لايفعلون ذلك، إنهم يبذلون جهدهم لهداية من يلاقوه لذا أدب الصديق - رضي الله عنه - عامر بن فهيرة مولاه وعلمه، فأضحى عامر جاهزاً لفداء الإسلام وخدمة الدين.

وقد رسم له سيدنا أبو بكر - رضي الله عنه - دوراً هاماً في الهجرة، فكان يرعى الغنم مع رعيان مكة لكن لايلفت الأنظار لشيء، حتى إذا أمسى أراح بغنم سيدنا أبي بكر على النبي ﷺ فاحتلبا وذبحا ثم يكمل عامر دور عبدالله بن أبي بكر حين يغدو من عند رسول الله ﷺ وصاحبه عائداً إلى مكة فيتتبع آثار عبدالله ليعض عليها مما يعد ذكاء، وفطنة في الإعداد لنجاح الهجرة(٦).

---

(١) السيرة الحلبية (٢/٢١٣)؛ البداية والنهاية (٣/١٨٢).

(٢) البداية والنهاية (٣/١٨٤).

(٣) الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٦.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٢) إسناده صحيح.

(٥) تاريخ الطبري (١٠٠/٢)؛ الهجرة النبوية المباركة، ص١٢٨.
(٦) تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين، ص١١٥.
وإن لدرس عظيم يستفاد من الصديق لكي يهتم المسلمون بالخدم الذين يأتونهم من مشارق الدنيا ومغاربها ويعاملونهم على كونهم بشراً أولاً ثم يعلمونهم الإسلام، فلعل الله يجعل منهم من يحمل هذا الدين كما ينبغي.
إن ماقام به الصديق من تجنيد أسرته لخدمة صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام في هجرته يدل على تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف لقد أخذ الرسول ﷺ بالأسباب المعقولة أخذاً قوياً حسب استطاعته وقدرته ... ومن ثم باتت عناية الله متوقعة(١).
إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لايعني ذلك دائماً حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله، ومشيئته ومن هنا كان التوكل أمراً ضرورياً وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.
إن رسول الله ﷺ أعد كل الأسباب واتخذ كل الوسائل ولكنه في الوقت نفسه مع الله يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح وهنا يستجاب الدعاء، ويكلل العمل بالنجاح(٢).
ثالثاً: جندية الصديق الرفيعة وبكائه من الفرح:
تظهر أثر التربية النبوية في جندية أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –، فأبو بكر – رضي الله عنه – عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة وقال له رسول الله ﷺ : (لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحباً) فقد بدأ في الإعداد والتخطيط للهجرة (فابتاع راحلتين واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك) وفي رواية البخاري، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر–وهو الخبط– أربعة أشهر). لقد كان يدرك بثاقب بصره – رضي الله عنه – وهو الذي تربى ليكون قائداً، أن لحظة الهجرة صعبة قد تأتي فجأة ولذلك

هيأ وسيلة الهجرة، ورتب تموينها، وسخر أسرته لخدمة النبي ﷺ ، وعندما جاء رسول الله ﷺ وأخبره إن الله قد أذن له في الخروج والهجرة، بكا من شدة الفرح وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن: فوالله ماشعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، إنها قمة الفرح البشري، أن يتحول الفرح إلى بكاء مما قال الشاعر عن هذا:

ورد الكتاب من الحبيب بأنه ... ... سيزورني فاستعبرت اجفاني

غلب السرور عليّ حتى إنني ... ... من فرط ماقد سرني أبكاني

ياعين صار الدمع عندك عادة ... ... تبكين من فرح ومن أحزاني

فالصديق – رضي الله عنه – يعلم أن معنى هذه الصحبة أنه سيكون وحده برفقة رسول رب العالمين بضعة عشرة يوماً على الأقل وهو الذي سيقدم حياته لسيده وقائده وحبيبه المصطفى ﷺ فأي فوز في هذا الوجود يفوق هذا الفوز: أن يتفرد الصديق وحده من دون أهل الأرض ومن دون الصحب جميعاً برفقة سيد الخلق وصحبته كل هذه المدة(٣)، وتظهر معاني الحب في الله في خوف أبي بكر وهو في الغار من أن يراهما المشركون ليكون الصديق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على حياته، فما كان أبو بكر ساعتئذ بالذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ ، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم ﷺ ، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين(٤)، ويظهر الحس الأمني الرفيع للصديق في هجرته مع النبي ﷺ في مواقف كثيرة منها، حين أجاب السائل: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فقال: هذا هادٍ يهديني السبيل، فظن السائل بأن الصديق يقصد الطريق، وإنما كان يقصد سبيل الخير وهذا يدل على حسن استخدام أبي بكر للمعاريض فراراً من الحرج أو الكذب(٥)، وفي إجابته للسائل تورية وتنفيذاً للتربية الأمنية التي تلقاها من رسول الله ﷺ ، لأن الهجرة كانت سراً وقد أقره الرسول ﷺ على ذلك(٦).

رابعاً: فن قيادة الأرواح وفن التعامل مع النفوس:

---

(١) أضواء على الهجرة، لتوفيق محمد، ص٣٩٣-٣٩٧.

(٢) من معين السيرة، ص١٤٨.

(٣) التربية القيادية (١٩٢/٢،١٩١).

(٤) السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي، ص٧١.

(٥) الهجرة النبوية المباركة، ص٢٠٤.

(٦) السيرة النبوية للسباعي، ص٦٨.

يظهر الحب العميق الذي سيطر على قلب ابي بكر لرسول الله ﷺ في الهجرة، كما يظهر حب سائر الصحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ وهذا الحب الرباني كان نابعاً من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق أو نابعاً من مصلحة دنيوية، أو رغبة في منفعة أو رهبة لمكروه قد يقع ومن أسباب هذا الحب لرسول الله ﷺ صفاته القيادية الرشيدة، فهو يسهر لينام، ويتعب ليستريحوا، ويجوع ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، فمن سلك سنن الرسول ﷺ مع صحابته، في حياته الخاصة والعامة، وشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم وكان عمله لوجه الله أصابه هذا الحب إن كان من الزعماء أو القادة أو المسؤولين في أمة الإسلام(١).

وصدق الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي عندما قال:

... ... فإذا أحب الله باطن عبده

... ... ظهرت عليه مواهب الفتاح

... ... وإذا صفت لله نية مصلح

... ... مال العباد عليه بالأرواح(٢)

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود، فقد كان ﷺ رحيماً، وشفوقاً بجنوده

وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبقى إلا المستضعفين والمفتونين ومن كانت له مهمات خاصة بالهجرة(٣).

والجدير بالذكر أن حب الصديق لرسول الله ﷺ كان لله ومما يبين الحب لله والحب لغير الله: أن ابا بكر كان يحب النبي ﷺ مخلصاً لله، وأبوطالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله، فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه قوله : {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى صدق الله العظيم الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى صدق الله العظيم وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى صدق الله العظيم إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى صدق الله العظيم وَلَسَوْفَ يَرْضَى صدق الله العظيم } (سورة الليل، الآيات:١٧-٢١)، وأما أبوطالب فلم يتقبل عمله، بل أدخله النار، لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله. وأبوبكر لم يطلب أجره من الخلق، لا من النبي ﷺ ولا من غيره، بل آمن به وأحبه وكلأه وأعانه من الله، متقرباً بذلك الى الله وطالباً الأجر من الله ويبلغ عن الله أمره ونهيه ووعده ووعيده(٤).

خامساً: مرض أبي بكر الصديق بالمدينة في بداية الهجرة:

كانت هجرة النبي ﷺ وأصحابه عن البلد الأمين تضحية عظيمة عبّر عنها النبي ﷺ بقوله: (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله الى الله، ولولا أني أخرجت منك ماخرجت)(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما تقدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ ارض الله من الحمى، وكان واديها يجري نجلاً -يعني ماءً آجناً- فأصاب أصحابه منها بلاءً وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه. قالت: فكان أبوبكر، وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب وبهم مالا يعلمه إلا الله من شدة الوعك(٦)، فدنوت من أبي بكر فقلت:

يأأبت كيف تجدك؟ فقال:

... ... كل امرئ مصبح في أهله

... ... والموت أدنى من شراك نعله

قالت: فقلت والله مايدري أبي مايقول.ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك ياعامر؟ فقال:

... ... لقد وجدت الموت قبل ذوقه

... ... إن الجبان حتفه من فوقه

... ... كل امرئ مجاهد بطوقه(٧)

... ... كالثور يحمى جلده بروقه(٨)

قالت: قلت: والله مايدري عامر مايقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت ثم يرفع عقيرته(٩)، ويقول:

... ... ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

... ... بواد وحولي إذخر(١٠) وجليل

... ... وهل أُرِدَن يوماً مياه مَجنَة

... ... وهل يبدون لي شامة وطفيل(١١)

قالت: فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: (اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، اللهم وصحّحها وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل حمّاها وأجعلها بالجحفة)(١٢).

---

(١) الهجرة النبوية لأبي فارس، ص٥٤.

(٢) الحركة السنوسية للصّلابي (٧/٢).

(٣) الهجرة النبوية المباركة، ص٢٠٥.

(٤) الفتاوى لابن تيمية (٢٨٦/١١).

(٥) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٧٢٢/٥) رقم ٣٩٢٥.

(٦) الوعك: الحمى.

(٧) بطوقه: بطاقته.

(٨) بروقه: بقرنه.

(٩) عقيرته: صوته.

(١٠) إذخر: نبات طيب الرائحة.

(١١) شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة على بريد مكة.

(١٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء يرفع الوباء والوجع رقم ٦٣٧٢.

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكل الوافدين والمهاجرين إليها من المسلمين على تنوع بيئاتهم ومواطنهم(١).

شرع رسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة في تثبيت دعائم الدولة الإسلامية، فآخى بين المهاجرين والأنصار، ثم أقام المسجد، وأبرم المعاهدة مع اليهود وبدأت حركة السرايا، واهتم بالبناء الاقتصادي والتعليمي والتربوي في المجتمع الجديد، وكان أبوبكر – رضي الله عنه – وزير صدق لرسول الله ﷺ ولازمه في كل أحواله ولم يغيب عن مشهد من المشاهد ولم يبخل بمشورة أو مال أو رأي(٢).

((من كتاب أبو بكر الصديق للصلابي))

---

(١) التربية القيادية (٢/٣١٠).

(٢) تاريخ الدعوة الى الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين، ص١٢١.

المرأة في الهجرة .. صور من جهاد رائدات التضحية

أحلام علي

تطل علينا ذكرى الهجرة مع بداية العام الهجري الجديد فتغمرنا بعبق التضحيات وتجسم لنا أعظم صور الجود بالنفس والمال على مر التاريخ..

كان المقصود من الهجرة إلى المدينة إقامة الدولة الإسلامية التي تحمل الدعوة وكان التوجيه إلى المدينة من الله – تعالى – وروى البخاري في حديث طويل وفيه (... قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي: هذا رسول الله – ﷺ – متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء في هذه الساعة إلا لأمر، قالت: فقال رسول الله لأبي بكر: "أخرج من عندك " فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، فقال "فإني قد أُذن لي في الخروج" فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله، فقال له رسول الله – ﷺ – "نعم"، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، فقال رسول الله: "بثمنها".....).

ولقد سبق حادث الهجرة هذا هجرة بعض الصحابة وزوجاتهم وكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله – ﷺ – أبو سلمة بن عبد الأسد الذي أخذ أصهاره منه زوجته عنوة ومنعوها من الهجرة معه فلم يجلس في مكة وينتظر موافقتهم على اصطحابها ولكنه استدار واتجه إلى الله.. وهي بدورها – رضي الله عنها – لم تتهمه بالتفريط في حقها ولم تطلب منه الطلاق لأنه تركها في رمضاء نفسية وحسية بين ظهراني المشركين في مكة، لقد تعالت على ذلك – رضي الله عنها – رغم الويلات التي عانتها بسبب حرمانها من وليدها الذي أخذه أهل زوجها بعد أن خلعوا كتفه.. وهكذا لم تكن الهجرة نزهة أو رحلة ترفيهية ولكنها مغادرة الأرض والأهل ووشائج القربى وعلاقات الصداقة والمودة وترك الأموال والتخلي عن كل ذلك من أجل العقيدة..

وما أحوجنا اليوم في مطلع عام جديد إلى إحياء ذكرى هذه النماذج الفذة علنا نفيق ونستفيق من غفلتنا التي طالت وطالت معها رقدة إيثار السلامة بداخلنا.. وغدونا نشدو ليل نهار "ماذا نفعل؟! ".. لنبرر لأنفسنا تقاعسنا وجبننا وركون أجسادنا إلى الأرض [أرضنا المسلوبة بمختلف أنواع السلب].. أجسادنا التي تخشى مفارقة الطعام اللذيذ والفراش الوثير.. كما أنها تخشى غضبة الذئاب!!..

نحن بحاجة إلى إحياء تضحية أسماء بنت أبي بكر.. الأنثى الحامل في شهرها الأخير.. لم تتعلل أسماء بظروفها الصحية وتعتذر عن هذه المهمة الشاقة!! لقد كانت جزءاً من عملية الهجرة، كان عليها أن تقطع شوارع مكة بين العيون الحاقدة والأنفس التي تتلمظ للثأر.. وتمضي أسماء بعيداً بعيداً جنوبي مكة في أعلى الجبل تنقل الزاد لرسول الله – ﷺ –..

ما أعظم جهادك يا ابنة خليفة رسول الله وأنت حامل في شهرك الأخير وتصعدين جبلا يعجز الرجل العادي عن صعوده.. أتُراك أقوى بنية من غالبية رجال غثاء السيل؟!! أم أنك تحملين بين جنبيك نفساً عظيمة حملتها على كفك في سبيل الله وهي التي جعلتك تتعالين على الآلام والصعاب!!

ولكن هكذا أصحاب الدعوات في كل زمان؛ عندما يمتزج حب الدعوة بدماء قلوبهم يصبحون جنداً وخدماً لها فيفلحون.. و يرزقون معية الله لهم.. فلقد تجسدت في حادث الهجرة عبقرية التخطيط البشري الذي وضعه سيد الخلق – ﷺ – بتوفيق من ربه.. لقد اختير الأفراد المنوط بهم الأدوار بدقة وذكاء عجيب.. أفراد أهلٌ للمسؤولية.. ولم تكن المرأة المسلمة بمنأى عن هذه المسؤولية.. ومن الذي اختارها لتشارك في عملية الهجرة؟! إنه سيد الخلق – ﷺ –، وفي هذا فخر يتلألأ به جبين المرأة المسلمة أبد الدهر، فهي لم تستبعد بدعوى أنها امرأة ضعيفة!! وهذا أحد أقوى الأدلة على نظرة الإسلام السامية للمرأة..

وكان تصرف أسماء في المواقف التي مرت بها في هذه الأثناء شاهدا على رجاحة عقلها وسرعة البديهة عندها وأنها بحق أهل لاختيار رسول الله لها.. فعندما لم تجد ما

تجمع به زادها – على الفور – شقت نطاقها نصفين وربطت السفرة بأحدهما.. وغدا ذلك علماً لها أبد الدهر "ذات النطاقين".. !

الموقف الثاني والأكثر صعوبة يوم أن طُرق عليها الباب بعنف وعندما فتحت وجدت أمامها أبا سفيان وفرعون الأمة أبا جهل يسأل عن أبيها.. متجهم الوجه يتطاير شرر الغضب من عينيه.. كان يمكن للرجال أن ينهاروا أمام هذا الموقف.. لكن أسماء لم تنهار وأجابت بثبات وصلابة: لا أدري.. وجمع عدو الله حقده وغيظه في صفعة لطم بها وجهها فأطارت قرطها من أذنها.. وبقيت في رزانة الجبال بينما مضى عدو الله يأكله الغيظ.. (الغريب هنا أن عدو الله أبا جهل بعد أن لطم أسماء قال لأبي سفيان: احفظها عني يا أبا سفيان حتى لا تقول العرب أني لطمت امرأة! هذا مَنْ وصفه رسولنا الكريم – ﷺ – بأنه فرعون الأمة.. ولكن يبدو أنه في عالمنا اليوم فرعون صغير جدا!).

الموقف الثالث من مواقف أسماء العظيمة في الهجرة يوم ثار جدها أبو قحافة على ابنه أبي بكر لأنه أخذ ماله كله، وفي ذكاء نادر جمعت كومة من الحصى وغطتها بثوب وقادت جدها الأعمى ليتحسس الحصى على أنه مال وجواهر فتهدأ ثائرته ويكف عن الكلام في خروج ابنه أبي بكر.. لقد نجحت في حفظها للسر حتى تموِّه على جدها الجواهر بالحصى.. ولم تكن شخصيتها بها من حب الاستطلاع (الذي كثيراً ما يكون في غير محله) ما يجعلها تسأل أباها، وهي تنقل لهما الزاد، إلى أين يتجها بعد الخروج من الغار.. كل ما كانت تعلمه من عملية الهجرة هي أنها مسؤولة عن نقل الزاد، وأن محمدا – ﷺ – وأباها قد غادرا الغار.. أما إلى أين؟ فلا تدري، وبعد أن أنهت مهمتها كانت جاهلة تماماً بالخطوات اللاحقة، وها هي تؤكد ذلك قائلة:

(فمضى ثلاث ليالٍ ما ندري أين توجه رسول الله – ﷺ –، حتى أتى رجل من أسفل مكة يغني بأبيات والناس يسمعونه ولا يرونه وهو ينشد هذه الأبيات... فلما سمعنا قوله عرفنا أين توجه رسول الله)..

هكذا أثبتت أسماء – رضي الله عنها – وسجل التاريخ.. أن المــرأة كــفء وأهــل للمسؤولية والثقة.. !

المصدر: http://www.asyeh.com

هجرة النبي ﷺ وخروجه إلى الغار

الهجرة لغة :

الهجرة: هي الاسم من الهجر أو الهجران ، وهي مأخوذة من مادة (هـ ج ر) التي تدل على معنيين:

الأول : القطيعة.

الثاني : شد شيء وربطه

فمن الأول : أخذ الهجر ضد الوصل وكذلك الهجران ، وقولهم : هاجر القوم من دار إلى دار : أي تركوا الأولى إلى الثانية كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة إلى المدينة .

قال ابن منظور : الهِجرةُ والهُجرة : الخروج من أرض إلى أرض والمهاجرون : الذين ذهبوا مع النبي – ﷺ – مشتق منهم.

الهجرة في الشرع :

* هي ترك الوطن الذي بين الكفار ، والانتقال إلى دار الإسلام

قال الرَّاغبُ : الهجرة : الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان ، كمن هاجر من مكة إلى المدينة .

قال الكُفوي: الهجرة هجرتان :

الأولى: هجرة المسلمين في صدر الإسلام إلى الحبشة فراراً من أذى قريش

الثانية: هجرة رسول الله – ﷺ – والمسلمين قبله وبعده ومعه إلى المدينة وقد كانت الهجرة من فرائض الإسلام بعد هجرته – ﷺ – ثم نسخت بعد فتح مكة.

لقوله – ﷺ – ((لاهجرة بعد الفتح)) صحيح مسلم– كتاب الإمارة– باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير برقم (٢٤٦٨).

لقد عاش نبينا – صلوات الله وسلامه عليه – محبوباً بين قومه وعشيرته ، محترماً عندهم غاية الاحترام ، والتقدير مما أدى بهم إلى أن حكَّموه في وضع الحجر الأسود

، حينما تنازعوا في وضعه ، ولقبوه بالصادق الأمين ، ولكن سرعان ما انقلب هذا الحب والتقدير إلى كُرهٍ وبغضاء ، وحقدٍ ذميم ، وذلك حينما صدع – صلوات الله وسلامه عليه – بالدعوة إلى الله ، إلى إفراده سبحانه بالألوهية ، والربوبية ، والطاعة والإتباع ، عند ذلك ثارت ثائرة قريش بالتصدي له وتكذيبه فقالوا :

{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} (٥) سورة ص)) ص : ٥ . وقالوا :{أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} (٨) سورة ص. وصاروا يقابلون رسول الله – ﷺ – بأشد أنواع الإيذاء ، من سخرية ومحاولة اغتيال ، وعروض دنيوية ، وغير ذلك ، من الوسائل التي يسلكها أعداء الله للقضاء على الإسلام ودعاته في كل زمانٍ ومكان . ولما كانت الهجرة أمراً مهماً لإعلاء شأن الدين ، ولحصول الحرية الكاملة لعبادة الله وطاعته ، ولأنها لا تحدث إلا عن حرب ومضايقة من أعداء الله لأوليائه . لذلك نوه الله بذكرها فأطلع بعض الأمم على أمرها فكان عندهم العلم اليقين بهجرة سيد المرسلين من البلد الأمين إلى المدينة النبوية . عن أبي موسى عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال :

((رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة ، أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب..)) البخاري– كتاب المناقب– باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٣٥٢)

وعند البخاري : ((رأيت دار هجرتكم رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان)) البخاري–كتاب الحوالات–باب جوار أبي بكر في عهد النبي وعقده برقم (٢١٣٤).

وبعد ما علم – عليه الصلاة والسلام – مكان هجرته وبايع الأنصار على النصرة والتأييد، واطمأنت نفسه الشريفة على وجود بلد آمن يستطيع فيه هو وأصحابه – رضي الله عنهم– أن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وتوحيده ، وعند ذلك أذن – صلوات الله وسلامه عليه – لأصحابه بالهجرة – إلى طيبة الطيبة. فعن عروة وعائشة قالا : لما صدر السبعون من عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم– طابت

نفسه وقد جعل الله له منعة ، وقوماً أهل حرب ، وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج ، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ،فشكا ذلك أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– واستأذنوه في الهجرة فقال : ((قد رأيت دار هجرتكم ، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي)) ، ثم مكث أياماً فخرج إلى أصحابه مسروراً ، فقال : ((قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب فمن أراد الخروج فليخرج إليها)). البخاري–كتاب الحوالات– باب جوار أبي بكر في عهد النبي وعقده برقم (٢١٣٤)

فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسعون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ، أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي خيثمة ، فهي أول ظعينة قدمت المدينة ، ثم قدم أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أرسالاً ، فنزلوا على الأنصار فآووهم ونصروهم وواسوهم .

ثم أقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق – رضي الله عنهما – وكان بقاء الصديق بإذن من رسول الله. وكان أبوبكر كثيراً ما يستأذن رسول الله– ﷺ – في الهجرة فيقول له رسول الله – ﷺ –: ((لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً فيطمع أبوبكر أن يكونه)). انظر سيرة ابن هشام ١٠٢/٢.

ولما أزفت التراتيب التي قضاها الله ، بعد أن وقت لها أوقاتها ، ورأت قريش أن الفرصة سانحة للنيل من رسول الله – ﷺ – بعد أن خرج أصحابه من مكة ، وبقي وحيداً مع المستضعفين ، وحسبتها غنيمة سهلة المنال ، فاجتمع رجالها في دار الندوة ، يتشاورون فيما بينهم بشأن رسول الله – ﷺ – فاقترح بعضهم حبسه في حديد وتجويعه حتى يموت ، لكنهم رفضوا ذلك مخافة أن يجتمع أصحابه وينقذوه. وأشار

ربيعة بن عامر بأن يخرجوه من بين أظهرهم فيفرغون بذلك منه ، لكن هذا الرأي لم يجد موافقه عند القوم ، خشية أن يغلب النبي الناس بحديثه ، ثم يجمع منهم قوة تدحر قريشاً في يومٍ من الأيام. ورأى أبو جهل أخيراً أن يأخذوا من كل قبيلة فتىً شاباً جلداً ، شريفاً ، ثم يعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، فيعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد ، وهكذا يتفرق دمه بين القبائل كلها. وحظي رأي أبو جهل بالقبول التام، وفيما كانت قريش تجمع فتيانها، نزل جبريل على رسول الله– صلى الله عليه وسلم– يعلمه بما يبيت ضده، ويأمره أن لا يلزم فراشه تلك الليلة قال الله – تعالى – :{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (٣٠) سورة الأنفال

وكان من عادة رسول الله – ﷺ – أن يأتي بيت أبي بكر كل يومين : بكرة وعشية ، قالت عائشة : فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– متقنعاً – مغطياً رأسه – في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداءً له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر فجاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فاستأذن له ، فدخل ، فاستأ خر أبو بكر عن السرير حتى جلس عليه ، فقال لأبي بكر : (أخرِج مَنْ عِندَك) فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال النبي – ﷺ – : (فإني قد أُذن لي في الخروج) فقال أبو بكر وهو يبكي من الفرح – الصحبة يا رسول الله اختر إحدى راحلتي هاتين فقال رسول الله – ﷺ – : (بالثمن) واستأجر عبد الله بن أريقط ، وكان – مشركاً – يدلهما على الطريق ، ودفعا إليه الراحلتين اللتين أعدهما الصديق – رضي الله عنه – للهجرة فكانت عنده يرعاهما لميعاديهما الذي واعده بعد ثلاث. وقد اشتركت أسماء وعائشة ابنتا الصديق في تجهيز السفرة التي سيأخذها المهاجران ووضعتاها في جراب ، فلما أرادتا ربط فم الجراب لم تجد شيئاً فشقت السيدة أسماء نطاقها نصفين فربطت فم الجراب بنصفه ، وانطلقت بالآخر ، فلذلك سميت (بذات النطاقين أو ذات النطاق.)

النبي – ﷺ – ينجو من كيد قريش :

عاد رسول الله – ﷺ –بعدما أخبر أبا بكر بالإذن له في الهجرة ، وبعد أن أعد العدة للهجرة إلى بيته، وكان جبريل – عليه السلام – أمر النبي – صلى الله عليه وسلم– أن لا يبيت على فراشه ، فلما كانت عتمة الليل اجتمع فتيان من قريش على بابه ، وبيدهم السيوف المرهفة ، ويتطاير من عيونهم شر الغدر والمكيدة، فلما رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: ((نم على فراشي ، وتسبَّح ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فإنه لن يخلص إليك منهم شيء تكرهه))

وفي هجعة من الليل خرج – ﷺ – وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يبصروا به ، وكان أخذ كفاً من تراب فصار ينثر منه على رؤوسهم زيادة في النكاية بهم ، وهو يتلوا قول الله – تبارك وتعالى–:{وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} (٩) سورة يس ثم انصرف رسول الله لشأنه ، وبقي المشركون ينتظرون النائم حتى يخرج فيفعلوا به ما اتفقوا عليه ، لكن الله حارس لا ينام فقد أعمى أبصارهم عن رؤية رسوله فخرج رسول الله سالماً من بين أظهرهم يذر التراب على رؤوسهم.

ذهاب الرسول – صلى الله عليه وسلم– إلى بيت الصديق ونظره إلى البيت ودعاءه :

وذهب رسول الله– صلى الله عليه وسلم– من فوره إلى بيت الصديق – رضي الله عنه – وكان الصديق يترقب وصوله في أية ساعة بعد أن اتفقا على الصحبة في الهجرة وأعدا للسفر عدته.

ولما خرج من مكة توجه إلى البيت ، وقال : ((والله إنك لأحب الأرض إلي ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ماخرجت)) رواه ابن ماجة أنظر صحيح ابن ماجه ٢برقم ٢٥٢٣ الألباني البداية والنهاية (٣ / ١٧٨)

ثم توجه إلى الله بهذا الدعاء :

((الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئاً ،اللهم أعني على هول الدنيا ، وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام ،اللهم اصحبني في سفري ، واخلفني في أهلي ، وبارك لي فيما رزقتني ، ولك فذللني ، وعلى صالح خُلقي فقوني ، وإليك ربي فحببني ، وإلى

الناس فلا تكلني.رب المستضعفين وأنت ربي ، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض ، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخـــرين، أن تحل علي غضبك، وتنزل بي سخطك.

أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك، لك العتبى عندي خير ما استطعت، ولا حول ولا قوة إلا بالله))١.

النبي – ﷺ – وصاحبه في الغار:

خرج الرسول – صلى الله عليه وسلم– وصاحبه وقد تزودوا بالزاد والماء ليلاً مـــن خوخة في ظهر بيت أبي بكر حتى لا يراهما أحد، وسلكا طريقاً غير معهودة، فبـــدلاً من أن يسيرا نحو الشمال ذهبا إلى الجنوب حيث يوجد (غار ثور) وكان خروجه كما قال ابن إسحاق لهلا ربيع الأول ، وقيل: في أواخر صفر.

ولما وصل النبي – ﷺ – وصاحبه إلى الغار وأراد رسول الله – صـــلى الله عليـــه وسلم– أن ينزل فيه قال له الصديق : مكانك حتى أستبرئ لك، فإن كان به أذى نزل بي قبلك، ثم نزل فتحسس الغار فلم يجد به شيئاً، فنزل رسول الله وقد بلغ منه الإعياء والتعب مبلغه فما أن دخلا حتى توسد الرسول قدم أبي بكر ونام ، وكان الصديق يأخذ من ثوبه ويسدُّ فم الأجحار خشية أن يكون شيء من الهوام فتؤذي رسول الله– صلى الله عليه وسلم– ، – رضي الله عن الصديق – ما أصدقه في الصحبة ، فبقي منهـــا جحر فألقمه عقبه ، وكانت به حية فلدغته ، فمنعه مكان رسول الله –صلى الله عليـــه وسلم– منه أن يتململ أي صدق في الصحبة بعد هذا وأي فداء يفدي بنفسه بعد هذا – رضي الله عنك – يا أبا بكر ولعن الله من يطعن فيك!!!

ولكن الألم لما اشتد به تحدرت دموعه ، فسقطت على وجه رسول الله – صـــلى الله عليه وسلم– فقال : (ما لك يا أبا بكر؟) فأخبره بما حدث فتفل عليها رســـول الله – صلى الله عليه وسلم– فبرئت بإذن الله تعالى).

حفظ الله – عز وجل – نبيه – ﷺ – من كيد الأعداء :

روي أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لما دخل هو وصاحبه الصديق بالغـــار أمر الله – سبحانه– شجرة فنبتت على فم الغار ، وانتشرت أغصانها علـــى بابـــه ، وألهم العنكبوت فنسجت على أغصان الشجرة، وألهم حمـــامتين وحشـــيتين فعششـــتا وباضتا بين أغصان الشجرة، وقد كان لهذه الآيات الثلاث أثرها في تضليل المشركين وصدهم عن اقتحام الغار ودخوله كما سترى عن كثب ، وهكذا وقى الله نبيه وصاحبه بأضعفه جنده.ولما تبينت قريش إفلات النبي منهم جن جنونهم ، وصـــاروا يهيمـــون على وجوههم طلباً له ، وجعلوا لمن يأتي به حياً أو ميتاً مائة ناقة ، وبعثـــوا القافـــة وهي (جمع قائف ، وهو الذي يتبع أثر الأقدام في الأرض حتـــى يعلـــم أيـــن ذهـــب صاحبه) . إثرة في كل وجه ، منهم : كرز بن علقمة ، وسراقة بن جعشم ، فصاروا يتبعون الأثر حتى انتهوا إلى جبل (ثور) ثم صعدوا الجيل حتى وقفـــوا علـــى فـــم الغار. وهنا وقفوا متحيرين ..!!

إذ لو كان دخل الغار فكيف لم يتهدم نسيج العنكبوت ..!! ، وكيف لم ينكســـر بـــيض الحمام؟!

ووقفوا مترددين ، أيدخلون الغار أم لا؟ حتى إن أحدهم هم أن يدخل الغار فقـــال لـــه الآخرون : إن هذا العنكبوت لمن قبل ميلاد محمد !! وهكـــذا نـــرى أن الله صـــرف المشركين عن النبي – ﷺ – وصاحبه ، وهذا من حفظ الله – عز وجل – لنبيـــه – ﷺ – من كيد أعدائه وحساده .

لطيفة خرافية : سُئل بعضهم عن الحكمة في اختفائه – ﷺ – في غار ثور دون غيره فأجاب بأنه – – ﷺ – كان يحب الفأل الحسن ، وقد قيل إن الأرض مستقرة علـــى قرن الثور فناسب استقراره – ﷺ – في غار ثور تفاؤلاً بالطمأنينة والاستقرار فيمـــا يقصده هو ورفيقه٢ سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد ٣ / ٢٤٢.

يقول الشرف البوصيري:

ظنوا الحمامَ وظنُّوا العنكبوتَ على ... خيرِ البريّة لم تَنسِج ولم تَحُمِ
وقايةُ الله أغنتْ عن مُضاعفةٍ ... منَ الدُّروعِ وعن عالٍ منَ الأُطُمِ ٣

أهم المراجع

١. زاد المعاد / ٣.
٢. السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة / د محمد بن محمد أو شهبة ج /١ .
٣. أحاديث الهجرة جمع وتحقيق ودراسة / الدكتور / سليمان بن علي السعود.
٤. السيرة النبوية دروس وعبر / د / مصطفى السباعي.
٥. قبسات تربوية من السيرة النبوية د / حس
٦. هذا الحبيب يامحب / الجزائري .

---

١ – قال الشيخ الألباني – رحمه الله – في تحقيقه على " فقه السيرة" للغزالي (١٦٦–١٦٧) عزاه إليه ابن كثير (١٨٧) من طريق محمد بن إسحاق قال: بلغني أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله يريد المدينة. قال: فذكر الدعاء قلت: وهذا إسناد ضعيف معضل.

٢ ما ذكرناها إلا لبيان بطلانها ، فالقول بأن الأرض على قرن ثور من خرافات الناس ، والله ورسوله بريئان من الباطل والخرافة .

٣ قد سبق تعليقنا بعدم صحة قصة العنكبوت والحمام ونقلنا كلام العلماء في ذلك ، فارجع إلية .

خروج النبي من الغار إلى المدينة

بعد ثلاث ليالٍ وقد هدأ الطلب ، ويئس المشركون من إدراكهما خرجا من الغار ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأبو بكر استأجرا رجلاً من بني الديل وكانا قد دفعا راحلتهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفه أبو بكر ويعقبه ، فكانوا ثلاثة والدليل.

طريق الهجرة :

فلما خرج بها عبد الله بن أريقط دليلهما سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من (عسفان)، ثم سلك بهما أسفل (أمج)، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أنأ جاز قديداً أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما (الخرَّار) ثم سلك بهما ثنية مرة ، ثم سلك بهما القفاء ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة فجاج، ويقال : فجاج فيما قال ابن هشام– ثم سلك بهما مرجح من ذي الغضون قال ابن هشام : ويقال: العضوين، ثم بطن ذي كثر، ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء من لجة تعهن ، ثم على العبابيد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهما ، فحمل رسول الله – ﷺ – رجل من أسلم يقال له : أوس بن حجر على جمل له يقال له : ابن الرداء إلى المدينة، وبعث معه غلاماً له يقال له : سعود بن هنيدة ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبه، ويقال ثنية الغائر – فيما قال ابن هشام حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل.

في خيمة أم معبد:

وفي الطريق إلى المدينة مرَّ النبيُّ بأم معبد، وإليك قصتها لما فيها من معجزة ظاهرة للنبي، ولما فيها من صورة واضحة لكثير من نساء الجاهلية في عفتها وشهامتها ، ومروءتها ، وبلاغتها وفصاحتها، فقد وصفت النبي– صلى الله عليه وسلم– بما يعجز عنه بيان غيرها.

روى الإمامُ البيهقي وغيره عن أخي أم معبد حبيش قال : لما خرج رسول الله – ﷺ – ومعه أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – وعامربن فهيرة ، وابن أريقط يدلهم على الطريق فمروا بقديد على أم معبد :" عاتكة بنت خالد الخزاعية " ، وكانت برزة ، جلدة ، تحتبي بفناء القبة ، ثم تسقي وتطعم من يمر بها ، وكان القوم مرملين مسنين ، فسألوها : هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً ، وقالت :

والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى فنظر رسول الله – ﷺ – إلى شاة في كسر الخيمة خلفها الجهد عن الغنم ، فسألها رسول الله – ﷺ – : (هل بها من لبنٍ؟) فقالت هي : أجهد من ذلك فقال : ((أتأذنين لي أن أحلبها؟)) فقالت : نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت حلباً فاحلبها ، فدعا بالشاة فاعتقلها ، ومسح ضرعها ، فتفاجَّت ودرت ودعا بإناءٍ يربض الرهط ، فحلب فيه ثجاً وسقى القوم حتى رووا ، وسقى أم معبد حتى رويت ، ثم شرب آخرهم وقال : ((ساقي القوم آخر هم شرباً)) ، ثم حلب فيه مرة أخرى فشربوا عللاً بعد نهل ، ثم حلب فيه آخراً وغادره عندها ، وفي رواية أنه قال لها أن ((ارفعي هذا لأبي معبد إذا جاءك)) ثم ركبوا وذهبوا في انتظار الرسول.

ولما بلغ المسلمين بالمدينة مخرج النبي – صلى الله عليه وسلم– من مكة هو وصاحبه الصديق –رضي الله عنه–كانوا يخرجون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فعلوا ذلك مراراً ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأصحابه مبيضين ، يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن صاح بأعلى صوته : يا معشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرون فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله – ﷺ – بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل في بني عمرو بن عوف.

وكانت منازل بني عمر وبن عوف في قباء ، وكان ذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، وقيل لهلال ربيع الأول ، وقيل : لليلتين خلتا منه وقيل لثامن يوم منه ، وقال ابن إسحاق لاثنتي عشرة ليلة خلتا من ربيع الأول ، وعند ابن سعد لثلاث عشرة منه فقام أبو بكر للناس يتلقاه ، وجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم– صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله – ﷺ – ولم يعرفه من قبل يحيى أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عند ذلك. فأقام

رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في بني عمرو بن عوف أربعة أيام . الاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، وخرج يوم الجمعة قاصداً المدينة.

استقبال أهل المدينة لرسول الله – ﷺ –:

إنه ما إن ركب – ﷺ – راحلته وسارت به من ديار بني سالم متجهة نحو المدينة ، وأهل كل دار من دور الأنصار يمر بها إلا ويستقبله رجالها قائلين هلم إلينا يا رسول الله إلى العدد والعدة وهم ممسكون بخطام ناقته وهو يقول : "دعوها فإنها مأمورة"

وخرج أهل المدينة لاستقبال الحبيب – ﷺ – على بكرة أبيهم ، فامتلأت بهم الطرق ، وظهروا على سطوح المنازل نساءً وأطفالاً ورجالاً وهم يقولون ، الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد الله أكبر جاء رسول الله ، والنساء والصبيان يضربون بالدفوف وينشدون :١

طلع البدر علينا ... **** ... من ثنيات الوداعْ

وجب الشكر علينا ... ... ما دعا لله داعْ

أيها المبعوث فينا ... ... جئت بالأمر المطاعْ

جئت شرفت المدينة ... ... مرحباً يا خير داعْ

وواصل الحبيبُ سيره في تلك الحشود الحاشدة ، والجموع المتجمعة في هذا اليوم التاريخي العظيم الذي قال فيه أنس بن مالكٍ : "لقد رأيت اليوم الذي دخل فيه رسول الله – ﷺ –علينا واليوم الذي قبض فيه فلم أر يومين مثلهما قط " (هذا الحبيب يا محب – الجزائري – ص ١٦٣)

وبعد الجمعة دخل النبي – ﷺ – المدينة ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول – ﷺ – ويعبر عنها بالمدينة إختصاراً وكان يوماً تاريخياً أغر فقد كانت البيوت والسكك ترتج بأصوات التحميد والتقديس ، والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة ؛ إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول – ﷺ – عنده.

من فوائد الهجرة ما يلي:

١. دليل كمال الإيمان ، وحسن الإسلام.

٢. إعلان العبودية الكاملة لله – عزوجل – والانقياد له .
٣. دليل محبة الله ومحبة رسوله – ﷺ –.
٤. دليل صلاح العبد واستقامته.
٥. الوعد بالكرامة والفوز بالجنة.
٦. تفريج الكربات وحصول الخيرات.
٧. تمحيص للإيمان واختبار للإنسان.
موسوعة نظرة النعيم ٨ / ٣٥٦٦
والله أعلم ... وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أهم المراجع
١. زاد المعاد / ٣.
٢. السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة / د محمد بن محمد أو شهبة ج /١ .
٣. أحاديث الهجرة جمع وتحقيق ودراسة / الدكتور / سليمان بن علي السعود.
٤. السيرة النبوية دروس وعبر / د / مصطفى السباعي.
٥. قبسات تربوية من السيرة النبوية د / حس
٦. هذا الحبيب يامحب / الجزائري .

---

١ قال الشيخ الألباني – رحمه الله – بأنها ضعيفة أنظر السلسلة الضعيفة ٢ برقم ٥٩٨ .

هجرة عامر وزوجه وهجرة بني جحش

قال ابن إسحاق: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة، حليف بني عدي بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عدي بن كعب. ثم عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، حليف بني أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش وهو أبو أحمد – وكان أبو أحمد رجلا ضرير

البصر وكان يطوف مكة، أعلاها وأسفلها، بغير قائد وكان شاعرا، وكانت عنده الفرعة ابنة أبي سفيان بن حرب وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم – فغلقت دار بني جحش هجرة فمر بها عتبة بن ربيعة. والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، وهي دار أبان بن عثمان اليوم التي بالردم وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابا، ليس فيها ساكن فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال

وكل دار وإن طالت سلامتها *** يوما ستدركها النكباء والحوب

قال ابن هشام : وهذا البيت لأبي داود الإيادي في قصيدة له. والحوب التوجع (وهو في موضع آخر الحاجة ويقال الحوب الإثم).

قال ابن إسحاق : ثم قال عتبة (بن ربيعة) : أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها فقال أبو جهل وما تبكي عليه من قل بن قل. قال ابن هشام : القل : الواحد. قال لبيد بن ربيعة :

كل بني حرة مصيرهم *** قل وإن أكثرت من العدد

قال ابن إسحاق : ثم قال هذا عمل ابن أخي هذا، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا وقطع بيننا. فكان منزل أبي سلمة بن عبد الأسد وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخيه أبي أحمد بن جحش على مبشر بن عبد المنذر بن زنبر بقباء. في بني عمرو بن عوف ثم قدم المهاجرون أرسالا، وكان بنو غنم ابن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ هجرة رجالهم ونساؤهم عبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وعكاشة بن محصن، وشجاع وعقبة ابنا وهب وأربد بن حميرة.

قال ابن هشام : ويقال ابن حميرة.

هجرة عمر وقصة عياش معه

قال ابن إسحاق: ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، حتى قدما المدينة. فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال (اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي

ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار، فوق سرف، وقلنا : أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه. قال فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام وفتن فافتتن).

تغرير أبي جهل والحارث بعياش

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة فكلماه وقالا : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها، فقلت له يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. قال فقال أبر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه. قال فقلت : والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال فأبى علي إلا أن يخرج معهما ؛ فلما أبى إلا ذلك قال قلت له أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها. فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال بلى. قال فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق : فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة : أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقا، ثم قالا : يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

كتاب عمر إلى هشام بن العاصي

قال ابن إسحاق : وحدثني نافع عن عبد الله بن عمر، عن عمر في حديثه قال (فكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم قال وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ،

أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ").

قال عمر بن الخطاب : فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاصي قال فقال هشام بن العاصي : فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى، أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها، حتى قلت : اللهم فهمنيها. قال فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا. قال فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة.

خروج الوليد بن الوليد إلى مكة في أمر عياش وهشام

قال ابن هشام : فحدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة (من لي بعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي ؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة، فقدمها مستخفيا، فلقي امرأة تحمل طعاما، فقال لها : أين تريدين يا أمة الله ؟ قالت أريد هذين المحبوسين – تعنيهما – فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له فلما أمسى تسور عليهما، ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه "ذو المروة" لذلك ثم حملهما على بعيره وساق بهما، فعثر فدميت أصبعه فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت *** وفي سبيل الله ما لقيت

ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة).

وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة

(الشبكة الإسلامية) أ.د/ أكرم ضياء العمري

كان المسلمون في المدينة قد سمعوا بخروج النبي ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه ، حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم ، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به فعادوا ، وقدم

الرسول ﷺ وقد دخلوا بيوتهم ، فبصر به يهودي فنـــاداهم ، فخرجـــوا فاســـتقبلوه ، وكانت فرحتهم به غامرة ، فقد حملوا أسلحتهم وتقدموا نحو ظاهر الحرة فاستقبلوه .

وقد نزل الرسول ﷺ في قباء في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء .

ولما عزم رسول الله صلى عليه وسلم أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بني النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم .

وقد سجلت رواية أن عدد الذين استقبلوه خمسمائة من الأنصار ، فأحاطوا بالرســـول ﷺ و بأبي بكر وهما راكبان ، ومضى الموكب داخل المدينة ، (وقيل في المدينـــة : جاء نبي الله ﷺ) . وقد صعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمـــان فـــي الطرق ينادون : يا محمد يا رسول الله ، يا رسول الله .

قال الصحابي البراء بن عازب – وهو شاهد عيان – : " ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ "

أما تلك الروايات التي تفيد استقباله بنشيد (طلع البدر علينا من ثنيات الوداع) فلـــم ترد بها رواية صحيحة .

وأقبل رسول الله ﷺ يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب الأنصاري فتســـاءل : أي بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يا نبي الله ، هذه داري وهذا بابي . فنزل في داره .

وقد ورد في كتب السيرة أن زعماء الأنصار تطلعوا إلى استضـــافة الرســـول ﷺ ، فكلما مر بأحدهم دعاه للنزول عنده ، فكان يقول لهم : دعوا الناقـــة فإنهـــا مـــأمورة فبركت على باب أبي أيوب ، وكان داره طابقين ، قال أبو أيوب الأنصاري : " لمـــا نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السّفل وأنا و أم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله – بأبي أنت وأمي – إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهر أنت في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفل . فقال : يا أبا أيوب : إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت . قال : فلقد انكسر حبّ لنا فيه ماء ، فقمت

أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه " .

وقد أفادت رواية ابن سعد أن مقامه ﷺ بدار أبي أيوب سبعة أشهر .

وقد اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين ، وآثروهم على أنفسهم ، فنالوا من الثناء العظيم الذي خلّد ذكرهم على مرّ الدهور وتتالي الأجيال ، إذ ذكر الله مأثرتهم في قرآن يتلوه الناس : { والذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فألئك هم المفلحون} (الحشر٩) .

وقد أثنى رسول الله ﷺ على الأنصار ثناء عظيماً فقال : (لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار) و (لو سلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم)

وكان رسول الله ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة ، ثم أمر ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بني النجار .

وقد اشتراها رسول الله ﷺ ، وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها وصفوا الحجارة في قبلة المسجد ، وما أعظم سرورهم وهم يعملون في بنائه ورسول الله ﷺ يعمل معهم وهم يرتجزون :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

وقد بناه أولاً بالجريد ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين ، وقد واجه المهاجرون من مكة صعوبة اختلاف المناخ ، فالمدينة بلدة زراعية ، تغطي أراضيها بساتين النخيل ، ونسبة الرطوبة في جوها أعلى من مكة ، وقد أصيب العديد من المهاجرين بالحمى منهم أبو بكر و بلال .

فأخبرت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقال : (اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها ، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة) . وقال : (اللهم امض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم) .

لقد تغلب المهاجرون على المشكلات العديدة ، واستقروا في الأرض الجديدة مغلبين مصالح العقيدة ومتطلبات الدعوة ، بل صارت الهجرة واجبة على كل مسلم لنصرة النبي عليه الصلاة والسلام ومواساته بالنفس ، حتى كان فتح مكة فأوقفت الهجرة لأن سبب الهجرة ومشروعيتها نصرة الدين وخوف الفتنة من الكافرين . والحكم يدور مع علته ، ومقتضاه أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه ، وإلا وجبت . ومن ثم قال الماوردي : إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر ، فقد صارت البلد به دار إسلام ، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام .

وعندما دون التاريخ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اتخذت مناسبة الهجرة بداية التاريخ الإسلامي ، لكنهم أخروا ذلك من ربيع الأول الى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم ، إذ بيعة العقبة الثانية وقعت في أثناء ذي الحجة ، وهي مقدمة الهجرة . فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم ، فناسب أن يجعل مبتدأ التاريخ الإسلامي. والله الموفق والهادي الى سواء السبيل.

وقفات مع الهجرة النبوية

د. عبد الحليم محمد عصفور
مشرف قسم العلاقات العامة والأعلام التربوي بالمدارس السعودية بأنقرة

الحمد لله .. الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان ..الحمد لله الذي جعلنا من أتباع سيدنا
محمد عليه الصلاة والسلام .. اللهم ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك لك
الحمد آناء الليل وأطراف النهار لعلك ترضى ..

ما زلنا نعيش تطلعات الهجرة النبوية الشريفة ، ما زلنا نحلل أحداثها ، ونقطف ثمارها ونتفيء ظلالها؛ لندرك أيها الإخوة المؤمنون ، أن الإسلام سلسلة مستمرة ، حلقة شاملة منذ فجر تاريخ البشرية وإلى يوم اللقاء الأكبر مع الله .. فالمسلمون يعيشون ضمن تلك الدائرة الواسعة الشاملة ، وأن منهج الله لعباده منذ فجر التاريخ البشري وإلى يومنا هذا وإلى يوم اللقاء الأكبر مع الله .. يسير وفق وتيرة ثابتة واضحة معلنة ، وما نريد أن نتحدث عنه اليوم الهجرة أيها الإخوة المؤمنون ، بدايتها مع بداية الدعوة ، لأن من أراد أن يصل إلى الله لا بد إلا وأن يضحي في سبيله ، لأن الإنسان حينما يريد أن يحقق ذاته ، أن يحقق انتماءه ، هويته ، لا بد إلا وأن يهجر كل الخصال التي تتنافى مع تلك الهوية ، لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: [لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية] .

الهجرة : نية ، والنبي ﷺ حينما عبر عن حقيقة المؤمن والمسلم والمهاجر، قال [والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه] ، فالهجرة محطة تعبئة إلى الله عز وجل ، تكون بترك ما نهى الله عنه ، بالانتقال من مرحلة إلى مرحلة ، من مرحلة صراع إلى مرحلة استقرار ، من مرحلة اضطراب وعذاب إلى مرحلة استقرار وهناء ،

الهجرة هي بداية تكوين المجتمع المسلم .. والهجرة أيها الإخوة دليل على مصداقية السير إلى الله عز وجل .

ذكرنا حين ذكرنا من منهج الهجرة النبوية الشريفة الطاهرة ، أنها عملية انتقال وعملية ترسيخ وتثبيت للمبادئ ، فالنبي ﷺ حينما خرج من داره وقد أحاط المشركون به ، وتلك قوة مادية لا يستهان بها ، من كل قبيلة أخذوا شاباً جلداً قوياً حتى إذا ما خرج رسول الله انهالوا عليه بضربة رجل واحد، فينهدر دمه في القبائل ، ولكن ربك بالمرصاد .. وتلك هي حقيقة الدعوة دائماً وأبداً ، تحيط بها دعاوى المكر، تحيط بها قوى التآمر في كل مكان وزمان .. يريدون أن يضربوه ضربة رجل واحد، } يُرِيدُونَ ليطفئوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ { لا بالقوة الذاتية ، ولا بالقوة المادية ، إنما من خلال قوله تعالى } إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ { على المؤمنين في كل مرحلة من مراحل حياتهم، وفي كل عقبة من عقبات هذه الحياة أن يضعوا هذه الحقيقة نصب أعينهم ، إن تخليتم أنتم فإن الله موجود ،

} هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ {

هذه حقيقة يجب أن نضعها نصب أعيننا ، انهزمنا أم انتصرنا، التزمنا أم انحرفنا ، فإن الله مظهر دينه ، ومعز نبيه ، مهما تآمر المتآمرون ومهما مكر الماكرون، وإنكم لترونه دليلاً واقعياً من خلال ما يعيشه المسلمون اليوم، ترون أن كل قوى العالم تتآمر على الإسلام ، والأغرب من ذلك أن المسلمين يتآمرون على أنفسهم ، فكل عوامل النخر والتهديم والضياع والتمزيق قائمة في المسلمين ، والإسلام ثابت قائم، لا يستطيع أحد أن ينال منه لأنه أمر الله } إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ { ، رغم أن كل الوسائل المادية التي أمرنا أن نأخذ بها وأن نعد العدة معها ، مفقودة في حياة المسلمين المعاصرين ، مع ذلك نجد أن الإسلام في انتشار وتطور واستمرار ...

حياة المسلمين وواقعهم ، يبعد غير المسلمين عن الإسلام .. ومع ذلك ما من شمس تشرق إلا وآلاف المعتنقين للدين من جديد .. من من؟ من العلماء .. من الباحثين ،

من الخبراء .. من كل الدنيا على اختلاف أشكالهم وألوانهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

ولا أكتمكم سراً إذا قلت لكم : ما من مستشرقاً ، باحثاً ، عالماً ، عاقلاً ، إلا وبذرة لا إله إلا الله مغروسة في قلبه .. إنما تنتظر الظهور ، تنتظر الانبثاق ، الخروج بعامل من عوامل الكون ..

حينما أحاط المشركون برسول الله ﷺ ، ماذا فعل رسول الله ، فتح باب الدار ، وأخذ حفنة من التراب وراح يقرأ سورة } يس* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ { ، ووضع التراب على رؤوسهم ، وخرج من بينهم وهم لا يرونه .. } إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ

الجانب الإيماني في حياة المسلمين ، جانب يجب أن يكون نصب أعيننا ، نأخذ بالأسباب ولا نقف معها، نعد العدة ونعتقد أن النصر من عند الله ، لا تقصيرنا ولا إعدادنا به يكون النصر أو الفشل، إنما النصر يكون من عند الله ، إنما أنت يا مؤمن في هذه الدار ، في هذا الوجود مبتلى ، وهذا الاختبار والابتلاء ليميز الله الخبيث من الطيب ، فأعد نفسك وخذ بالأسباب ، وقف مع رب الأسباب .. فإذا ما تر سخت العقيدة الصحيحة في نفوس المسلمين ، كانوا أهلاً لإدراك معاني الهجرة ولقطف ثمارها ولتفيؤ ظلالها كما ذكر .

أسأل الله العظيم .. رب العرش العظيم .. أن ينور قلوبنا وعقولنا بنور محبته .. بنور محبة نبيه .. بالتزام منهجه .. بموالاة من والى ومعاداة من عادى .. أقول قولي هذا وأستغفر الله .

يا سيد السادات يا رسول الله

للشاعر : عبد الرحيم محمود

في ذكرى الهجرة النبوية الشريفة

يا سيد السادات فيك تسامى عطر الحروف تشوقا وخزامى

قلبي إليك ملوع ومشوق ماذا أقول إذا فؤادي هاما

في حب طه وهو أفضل مرسل من حبه نهوى الصلاة قياما

قد طبت أحمد خلقة وخليقة ووُضعت للقلب الجميل وساما

قد فقت في جودك ريحا مرسلا والغيث يرجى إذ نراه غماما

في يوم هجرتك العظيم تحنني كالبلبل الشادي أحب حماما

أوصتك أمك بالرجولة مرة فغدوت في وجه الظلام حساما

وغدوت نورا للخليقة مرشدا للحق هديك ترفع الإسلاما

فأزلت من عقل الأنام جهالة وصنعت من جهالها أعلاما

وأنرت للناس الطريق وعُبدت نهج الشريعة إذ رأيت ظلاما

ونقلت أمتك العظيمة للهدى وأزلت من آفاقها أوهاما

يا سيدي تُهنا ببحر ضياعنا ورأى العدو جميعنا أغناما

فالذبح فينا كل يوم عادة أطفالنا وشيوخنا تترامي

الفرس عادوا سيدي قد أشعلوا للنار معبدها فصار ضراما

والروم عادوا باغتصاب نسائنا وغدا الجميع بذلنا يتنامى

ما عاد قتل الناس غير محرم أمسى دماء العالمين حراما

إلا دماء المسلمين وعرضهم لجميع أوغاد الزناة مراما

يا سيد السادات جفت أدمعي وتركت عند جفافها الأقلاما

ماذا أقول وأنت تعرف حالنا أمست جميع حياتنا آلاما

قد عادت الأصنام تعبد سيدي يا من كسرت بنورك الأصناما

يا أمة الإسلام صونوا عهده كونوا له فوق الصلاة صياما
ولا تكونوا مثلما أنتم فما شاء النبي لعهده أقزاما
من خان عهدا للنبي مآله نار تكون مع الضرام ضراما
وتصير كل حياته ومماته ومصيره نارا تكون غراما

الهجرةُ النبوية.. خُطواتٌ من روائع الإدارة

د. محمد عمر دولة*

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على رسولِ الله الأمين، وعلى آله وصحبِه أجمعين. وبعد، فإنَّ في الهجرةِ دُروساً إداريةً عَديدةً وعِبَراً مُفيدةً، نُحاولُ بيانَها في هذه العُجالة:

١) الهِجرةُ منهجٌ واقعي:

فالهجرةُ النبوية تُعلِّمُنا أنَّ الإسلامَ الذي خاض النبيُّ ﷺ من أجلِ تحقيقِه تلك الرحلةَ الشاقةَ والهجرةَ المباركَة ليس دِينَ جُمُودٍ وقُعُودٍ ورُكودٍ؛ ولكنه دِينُ إنجازٍ وإقْدامٍ وضَرْبٍ في مَناكِبِ الأرض:

يا هِجرةً طالَتْ مَسافتُها على مَن خُصَّ بالحرمانِ والخذلانِ!

يا هِجرةً طالَتْ مَسافتُها على كسلانَ مَنخُورِ الفؤادِ جبان![١]

والهجرةُ من أحسن الأدلةِ على أنَّ دِينَنا ليس دِينَ سَذاجةٍ وفوضى، بل دِينُ نِظامٍ وإدارةٍ وتخطيطٍ مُحْكَم، وفِعلٍ مُثْمِرٍ مَلمُوسٍ وجُهْدٍ واقِعيٍّ محسُوسٍ، وإنْ اقتضى الأمرُ مُغادَرةَ الأوطانِ ومُفارقةَ الإخوان.

فلا ريبَ "أنَّ الدِّينَ الإسلامي لم يَصِلْ إلينا بسهولةٍ، بل بعدَ جُهدٍ وبذلٍ للأنفُسِ والأموال، ومُفارَقةٍ للأهلِ والديار. ففي البيعة الأولى كان الإيمان بالله ورسوله، وفي البيعة الثانية كان العهد على الهجرة، والجهاد. وبهذه العناصرِ الثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد، يتحقق وُجودُ الإسلام في واقعٍ جَماعيٍّ مُمكِن. والهجرةُ لم تكنْ لِتَتِمَّ لولا وُجودُ الفئة المستعدة للإيواء؛ ولهذا قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)،[٢] ولم تكن البيعةُ والهجرةُ والجهاد لِتَتِمَّ لولا انسلاخُ المؤمنين الجدَد من ولائهم القبلي والوَطَنِي؛ للولاء الشرعي وتركِهم لقياداتِهم العشائرية إلى القيادة الإسلامية الواحدة...".[٣]

٢) الهجرة وثمرةُ التوكل:

ليست الهجرةُ مُجرَّدَ رِحلةٍ من مكانٍ إلى مكانٍ، أو انتِقالٍ في فترةٍ محدَّدةٍ من الزمان. بل إنَّ أمرَ الهجرة أعظمُ نَظَراً وأكثرُ عِبَراً؛ ألا ترى أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حَثَّ عِبادَه على أنْ يضربوا في الأرضِ ويَمشُوا في مَناكِبِها ويبتغُوا مِن فضلِ الله؟ فقال جلَّ جلاله: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُوْرُ)،[٤] وقال تعالى: (وآخرون يَضرِبُون في الأرضِ يَبتَغُون مِن فَضلِ الله).[٥] قال ابنُ كثير رحمه الله: "ومُسافرين في الأرضِ يبتغُون مِن فَضلِ الله في المكاسِب والمتاجر".[٦] وقال البغوي رحمه الله: "يعني المسافرين للتجارة يطلبون من رزق الله".[٧] وقال البيضاوي رحمه الله: "والضَّربُ في الأرضِ ابتغاءً للفضلِ: المسافرةُ للتجارةِ وتحصيلِ العلم".[٨] وكذلك قال الألوسي رحمه الله.[٩]

والفائدة التي نستخلِصُها من دُروسِ الهجرة: توكُّلُنا على الله ويقينُنا بنصرِ الله وتَمَسُّكُنا بشرعِ الله، ووُجوبُ الحفاظِ على مبادئنا وإنْ أُخْرِجْنا من دِيارِنا، ولُزومُ الثباتِ أمام ضُغوطِ الترغيبِ والترهيب. فاللهُ عزَّ وجلَّ وَلِيُّ المهاجِرِ إلى الله بالنصرِ والتأييد، كما قال تعالى في قصة الهجرة: (إلا تَنصُرُوه فقد نَصَرَه الله إذْ أخرَجَه الذين كفروا ثانِيَ اثنَيْن إذْ هما في الغارِ إذْ يقولُ لصاحبِه لا تحزَنْ إنَّ الله معنا فأنزلَ الله سَكِينتَه عليه وأيَّدَه بجنودٍ لم ترَوها وجعلَ كلمةَ الذين كفروا السُّفلَى وكلمةُ الله هي العُليا والله عزيزٌ حكيم).[١٠]

٣) الهجرة حياةٌ جديدة:

وقد دَعا الله عزَّ وجلَّ عِبادَه إلى التوكُّلِ عليه ووَعَدَهم مُراغَماً كثيراً وسَعةً، فقال جلَّ جلاله: (ومَن يُهاجِرْ فى سَبيلِ الله يَجِدْ في الأرضِ مُراغَماً كثيراً وسَعَةً ومَن يَخرُجْ من بيتِه مُهاجِراً إلى الله ورسولِه ثم يُدْرِكْه الموتُ فقد وَقعَ أجرُه على الله وكان الله غفوراً رحيماً).[١١] قال القرطبي رحمه الله: "اختُلِفَ في تأويلِ الْمُراغَم: فقال مجاهد: المراغَم المتزَحزَحُ [عمَّا يكرَه]،[١٢] وقال ابن عباس والضحاك والربيع وغيرهم: المراغَم المتحوَّل والمذهَب، وقال ابنُ زيد: المراغَم المهاجَر، وقاله أبو عُبَيدة. قال

النحاس:[١٣] فهذه الأقوالُ مُتفِقةُ المعاني؛ فالْمُراغَم: الْمَذهَبُ والْمُتحَـوَّلُ فـي حـالِ هِجرةٍ، وهو اسمُ الموضِعِ الذي يُراغَم فيه".[١٤] وقال السعدي رحمه الله: "هذا فـي بيانِ الحثِّ على الهجرةِ والترغيبِ وبيانِ ما فيها من المصالِح؛ فوَعَدَ الصـادِقُ فـي وَعْدِه أنَّ مَن هاجرَ في سبيلِه ابتِغاءَ مَرضاتِه أنه يجدُ مُراغَماً فـي الأرضِ وسَـعةً؛ فالْمُراغَمُ مُشْتَمِلٌ على مَصالِحِ الدِّينِ، والسَّعةُ على مصالِحِ الدنيا؛ وذلك أنَّ كثيراً مِـن الناس يتوهَّمُ أنَّ في الهجرةِ شَتاتاً بعد الأُلفةِ وفَقراً بعد الغِنَى وذُلاًّ بعد العِزِّ وشِدةً بعد الرَّخاء. والأمر ليس كذلك".[١٥]

ورَحِمَ الله الصفدي حيث قال:

وما سافَرْتُ في الآفاق إلا ومِن جَدْواك راحِلَتِي وزادي!

مُقِيمَ الظنِّ عندك والأمانِي وإنْ قَلِقَتْ ركابِي في البلادِ![١٦]

٤) الهِجرةُ مُراغَمٌ وسَعَة:

قال الرازي رحمه الله مُبيِّناً بعضَ الثمارِ الاجتماعيـة للسَّـفر: "المشـهورُ أنَّ هـذه المراغَمة إنما حصلَتْ بسببِ أنهم فارقوا وخرجوا عن ديارِهم. وعندي فيه وجهٌ آخر: وهو أنْ يكون المعنَى: (ومَن يُهاجِرْ في سبيلِ الله) إلى بلدٍ آخر يَجِدْ في أرضِ ذلـك البلدِ مِن الخيرِ والنعمةِ ما يكون سَبباً لِرَغْمِ أنفِ أعدائه الذين كانوا معه فـي بلدتِـه الأصلية؛ وذلك لأنَّ مَن فارقَ وذهبَ إلى بلدةٍ أجنبيةٍ فإذا استقام أمرُه في تلك البلـدة الأجنبية ووصلَ ذلك الخبرُ إلى أهلِ بلدتِه خَجِلُوا من سُوءِ مُعامَلَتِهم معـه، ورغمَـت أُنُوفُهم بسببِ ذلك. وحملُ اللفظِ على هذا أقربُ من حَمْلِه على ما قـالوه والله أعلـم. والحاصلُ كأنه قيل: يا أيها الإنسانُ إنك كنتَ إنما تكرهُ الهجرةَ عن وَطنِك خوفاً مِـن أنْ تقعَ في المشقةِ والمحنةِ في السَّفرِ؛ فلا تخفْ؛ فإن الله تعالى يُعطِيـك مـن الـنِّعَمِ الجليلةِ والمراتبِ العظيمة في مُهاجَرَتِك ما يَصيرُ سبَباً لرغمِ أُنُوفِ أعدائك؛ ويكـون سَبباً لِسَعةِ عَيشِك! وإنما قُدِّم في الآية ذِكرُ رغمِ الأعداءِ على ذِكرِ سَعةِ العـيشِ؛ لأنَّ ابتهاجَ الإنسانِ الذي يُهاجِرُ عن أهلِه وبلدِه بسببِ شِدةِ ظُلمِهم عليه بدَولَتِه؛ من حيـث

إنها تصيرُ سَبباً لِرَغمِ أنوفِ الأعداءِ أشدُّ من ابتهاجِه بتلك الدولة من حيث إنها صارت سَبباً لِسَعةِ العيشِ عليه".[١٧]

٥) الهِجرةُ عِزةٌ:

قال القرطبي رحمه الله: "قال ابنُ العربي: قسَمَ العلماءُ رضي الله عنهم الذهابَ في الأرض قسمين: هَرباً وطَلَباً. فالأول: يَنقسِمُ إلى ستة أقسام: الأول الهجرة، وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام... وهذه الهجرة باقيةٌ مفروضةٌ إلى يوم القيامة، والتي انقطعَتْ بالفتحِ هي القَصدُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم...".[١٨]

ولا يخفى أنَّ في الهجرةِ عِزةَ نفسٍ ونجاةً من الذُّل. وقد حكى القرآنُ بأجملِ أسلُوبٍ همَّ المستضعَفِين وآمالَهم في الهجرةِ بالدين؛ فقال الله عزَّ وجل: (وما لكم لا تُقاتِلُون في سبيلِ الله والمستَضعَفِين من الرجالِ والنساءِ والوِلْدانِ الذين يقولُون ربَّنا أخْرِجْنا من هذه القريةِ الظالِمِ أهلُها واجْعَلْ لنا من لَدُنْك وَلِياً واجْعَلْ لنا مِن لَدُنْك نَصِيراً).[١٩]

قال ابنُ شبرين رحمه الله:[٢٠]

لِي هِمَّةٌ كُلَّما حاوَلتُ أُمْسِكُها عَلى الْمَذَلَّةِ في أَوحالِ أَرضيها!

قالَت أَلَم تَكُ أَرضُ اللَهِ واسِعَةً حَتَّى يُهاجِرَ عَبدٌ مُؤمنٌ فيها؟

٦) ذَمُّ مَن استُضعِفَ ولم يُهاجِر:

وقد ذمَّ القرآنُ مَن لم يُسافرْ إلى حيثُ يكونُ عزيزاً بدينِه حُراً في عقِيدتِه؛ فقال الله عزَّ وجل: (إنَّ الذين توفَّاهم الملائكةُ ظالِمي أنفُسِهم قالوا فيمَ كُنتم قالوا كنا مُستَضعَفِين في الأرضِ قالوا ألم تَكُنْ أرضُ الله واسِعةً فتُهاجِرُوا فيها فأولئك مأواهُم جَهَنمُ وساءَتْ مَصِيراً إلا المستَضعَفِين من الرجالِ والنساءِ والوِلْدانِ لا يستَطِيعُون حِيلةً ولا يَهتَدُون سبيلا فأولئك عسى اللهُ أن يعفُوَ عنهم وكان الله غفُوراً رحيماً).[٢١] وقد رثَى النبيُّ ﷺ لِسَعدِ بن خولة حينما توفِّيَ بمكة. فقال صلى الله عليه وسلم: (لكن البائسُ سعدُ بن خولة)،[٢٢] قال ابنُ الأثير رحمه الله: "وكان النبيُّ ﷺ يكرهُ أنْ يموتَ الرجلُ بالأرضِ التي هاجرَ منها؛ فمِن ثَمَّ قال: (لكن البائسُ سعدُ بن خولة؛ يرثي له رسولُ الله ﷺ أنْ مات بمكة)".[٢٣]

وقد ذكر الأدباء أنَّ السفرَ يُنجي من الذُّلِّ، كما قال الحسن بن علي بن وكيع التنيسي:[٢٤]

تَغَرَّبْ عَلى اِسمِ اللَهِ وَاِلتَمِسِ الغِنَى وَسافِرْ فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِدِ
تَفَرُّجُ نَفسٍ وَاِلتِماسُ مَعيشَةٍ وَعِلمٌ وَآدابٌ وَرُفقَةُ ماجِدِ!
فَإِن قيلَ في الأَسفارِ ذُلٌّ وَغُربَةٌ وَتَشتيتُ شَملٍ وَاِرتِكابُ شَدائِدِ
فَلَلْمَوتُ خَيرٌ لِلفَتَى مِن مُقامِهِ بِدارِ هَوانٍ بَينَ ضِدٍّ وَحاسِدِ[٢٥]

٧) تخطيط الهجرة:

لقد كان التخطِيطُ النبوي للهجرةِ في غايةِ الدقة، و"التخطيطُ يعنِي التفكيرَ والتدبِير، والتأمُّلَ العلمي في الأمور، ثم التبصُّرَ قبل اتخاذِ القَرار".[٢٦] ومَنْ تدبَّرَ خطواتِ الهجرة النبوية أدركَ ما فيها من وضوحِ الهدف، ودراسة البيئة المحيطة، واختيارِ أحسن الوسائل. وقد تقرَّرَ في علمِ (الإدارة) أنَّ "مراحلَ التخطيطِ العلمي تتكوَّنُ من: مرحلةِ تحديد الأهداف، ومرحلة التنبؤ بالمناخ والبيئة المتوقع أن تتحقق الأهداف فيها؛ حتى لا تؤثر المتغيرات على الخطة، ومرحلة تقديرِ أفضلِ الطُّرق والوسائل التي يمكنُ بها تحقيقُ الأهدافِ المحددة".[٢٧]

٨) التمهيد للهجرة:

وقد مهَّد ﷺ لنشرِ دعوةِ الإسلام وكلمة التوحيدِ، فبعث إلى المدينة مصعب بن عمير رضي الله عنه، "ولقد اختارَه الرسولُ ﷺ عن علمٍ بشخصيتِه من جهة، وعِلمٍ بالوضعِ القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان رضي الله عنه – بجانب حفظه لما نزل من القرآن – يملك من اللباقة، والهدوء، وحُسنِ الخلق والحكمة، قدرًا كبيرًا، فضلاً عن قوة إيمانه، وشدة حماسِه للدين؛ ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم".[٢٨]

ثم كان التمهيد الآخر في (بيعة العقبة الثانية) حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أُبايعُكم على أنْ تَمنعُونِي مما تَمنعُون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراءُ

بن معرور بيده، ثم قال: نعم. والذي بَعَثَك بالحقِّ نبيًا؛ فنحن والله أهل الحرب، ورثناها كابرًا عن كابر).[٢٩] ثم اعتمدَ رسولُ الله ﷺ منهم على اثنَيْ عشرَ نقيبًا؛ ليكونوا على قومِهم: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس؛ فقد عاهد الأنصار في هذه البيعة رسول الله ﷺ على الإيواءِ والحمايةِ والنُّصرةِ والمنعة.[٣٠] وقد أحسن الشيخ سلمان العودة حين قال: "قد كانت هذه البيعةُ هي التمهيدَ الأخيرَ لهجرةِ النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وبعدها بدأ المهاجرون يغادرون أرض مكة".[٣١]

٩) الهجرة تحوُّلٌ من الجماعة المصغَّرة إلى الدولة:

فقد كانت المرحلةُ المكيةُ فترةً تربويةً للإعدادِ العقدي للرجالِ المخلصين، والبناءِ العلمي للمؤمنين، وهذا من أوجبِ الواجبات لقيامِ الدولة الإسلامية على تقوى من الله ورضوان. وقد ظهرَتْ ثَمرةُ هذا البناءِ التربوي العظيم ــ لعقولِ الصحابةِ بالعِلم ولِقلُوبِهم بالإيمان ــ في بناءِ دولةٍ للإيمان والعلم والعدل والدعوة؛ فلا تقومُ دولةٌ للإسلام إلا على بناءٍ للرجالِ على الإيمانِ والعلم؛ لينهضوا بأمانة حملِ الدينِ وإقامتِه ونشرِه على بصيرة، كما جاء بيانُ ذلك صريحاً في حديثِ حذيفة رضي الله عنه: (إنَّ الأمانةَ نزلَتْ في جَذرِ قلوبِ الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السُّنة).[٣٢]

وقد شَهِدَ المنصِفُون من علماءِ الغرب بأنَّ دينَنا دِينُ عِلم![٣٣] ولله درُّ الشيخ سلمان العودة حين قال: "لقد ولَّى التاريخُ وَجْهَه شطرَ المدينةِ المنوَّرَة يرقُبُ حركةَ بناءِ الدولة الإسلامية الأولى، ثم حركةَ جهادِ هذه الدولة لتثبيتِ أركانِها، وتوسيع نطاقِها، وإخضاعِ الناسِ لحكم الله عزَّ وجل؛ فالمدينة لم تكن مَهربًا يلوذُ به المسلمون من ظلم قريش وبطشها وتعذيبها إلى حيث الدعة والسكون! كلا؛ وأنَّى لأصحابِ العقائد الحية الدعة والسكون؟! ولكنها كانت تحوُّلاً إلى جبهةٍ أخرى مُهيَّأة لانطلاقِ الدعوةِ ومواجهة الأعداء، وإظهار الدين ولو كره الكافرون".[٣٤]

١٠) فقه الحذر في خطة الهجرة:

وأما الترتيباتُ والاحتياطاتُ التي اتخذها النبيُّ ﷺ للهجرة، فقد كانت دقيقةً جدا. وقد أحسن د. يحيَى اليحيَى في استِيعابِها بتفصيلٍ جامعٍ، فقال: "لقد جاءت خُطةُ الهجرةِ

والترتيبُ لها في غايةِ الإحكام والدقةِ في أخذِ الحيطة، وقد تَمثلَت في النقاطِ التاليـــة:

١- اختِيارُ الصاحبِ المناسِب، وهو أبو بكر الصديق، اختارَه من بين جميعِ الصحابة كما في البخاري.

٢- التعريض له بالخبر، فلم يقطَعْ له النبِيُّ ﷺ بأمرِ الصُّحبةِ في الهجرة؛ وإنما قال: (لعلَّ الله يجعل لك صاحباً) كما في البخاري.

٣- إعدادُ راحِلَتَيْن قبل مُدةٍ طويلةٍ من الهجرة؛ إذْ لو اشترى الراحِلتَين قُبَيلَ الهجـــرة فربما لَفَتَ أنظارَ قريشٍ إلى ذلك، وماذا يريد أبو بكر بهاتين الراحِلَتَين إلا لأمْرٍ بيَّتَـــه مع محمد؟ وبخاصة بعد تفاقُمِ الأزمةِ واشتِدادِ الوحشةِ بعد بيعةِ العقبةِ الثانية، وهـــذه رواية البخاري.

٤- دفع الراحِلتَيْن إلى الدليلِ قبلَ الهجرة، كما في البخاري.

٥- زيارة أبي بكر كلَّ يوم، فقد كان النبِيُّ ﷺ لا يخطئه يومٌ أنْ يأتِيَ أبا بكر غـــدوةً وعشية، وعلى هذا لم يكن الأمر غريباً على قريش في مجيئه إليه وقـــتَ التخطـــيط للهجرة، كما في البخاري.

٦- تغيير الوقت المعتاد للزيارة، ولعل ذلك بسبب الرَّصَد مِن قِبَلِ قريشٍ لزياراته في الوقت المعتاد، كما في البخاري.

٧- اختِيارُ الوقتِ المناسِب للزيارة، وهو وقتُ الظهيرة؛ حيث يستظل الناس ويكونون في بُيوتِهم، كما في البخاري.

٨- الخروجُ إلى أبي بكر مُتنكِّراً بالقناعِ؛ حتى لا يُعرَف، كما في البخاري.

٩- الإسرار لأبي بكر بخبرِ الهجرة، وكتمان ذلك عن أهلِ بيتِه في بداية الأمر حيث قال له: (أخرج من عندك)، كما في البخاري.

١٠- الإسراع في إعداد الزاد وتجهيزه، كما في البخاري.

١١- مَبِيتُ عَلِيٍّ على الفراش، كما في المسند لأحمد.

١٢- الخروجُ مِن خَوخَةٍ في ظهرِ بيتِ أبي بكر، ولم يخرجوا من البابِ المعتاد، كما في رواية ابن إسحاق.

١٣- الخروجُ من الطريق المعاكِس لطريقِ المدينة، فالأصلُ أن يخرجوا من جهةِ الشمال حيث طريق المدينة، فخرجوا جهة الجنوب، كما في البخاري.

١٤- اختيارُ الغارِ؛ حيث البُعدُ عن الأنظار للاختفاء فيه، كما في البخاري.

١٥- البقاءُ في الغارِ ثلاثةَ أيام؛ حتى يَسكُنَ الطلبُ عنهما، كما في البخاري.

١٦- التخطيطُ للتعرُّفِ على كيدِ العَدُو ومُتابَعتِه وإعطاءِ هذا الأمرِ أهميةً كبيرة.

١٧- اختِيارُ الرجلِ المناسِبِ لهذه المهمة في متابعة أخبارِ قريش وترتيباتِها للقبضِ عليهما، فقد اختاروا شاباً قد لا يلفتُ نظرهم، ويمتاز بالذكاءِ والفِطنةِ؛ فيلتقطُ كل خبرٍ ولا يفوته شيء، كما في البخاري.

١٨- مُتابَعةُ الأخبارِ أولاً بأولٍ حيث يأتِي بالخبرِ كلَّ يوم، فالحدثُ لا يستَحمِلُ التأخيرَ أكثر من هذا، كما في البخاري.

١٩- ترتيبُ مجيء الْمُخبِرِ وانصرافِه، سواء في وقتِ المجيء والانصراف، أو في طريقة الذهاب والإياب، كما في البخاري.

٢٠- إسنادُ مُهمةِ الإتيانِ باللبن للرجلِ المناسِب، وهو الراعي عامر بن فُهَيْرة، كما في البخاري.

٢١- ترتيبُ حُضورِ عامرِ بن فُهَيْرة وانصرافِه، كما في البخاري.

٢٢- اتباعُ عامرِ بن فُهَيْرة أثر عبد الله بن أبي بكر بالغنم حتى تُعَمِّيَ أثَرَه، كما هو عند ابن إسحاق.

٢٣- اختيارُ الدليلِ ذي الكفاءة العالية، كما في البخاري.

٢٤- الخروجُ من الغارِ آخرَ الليل، كما في البخاري وعند موسى بن عقبة.

٢٥- سلوك طريقٍ غيرِ الطريقِ المعتادِ للمدينة، كما في البخاري.

٢٦- اصطحابُ عامرٍ للخدمة.

٢٧- مُواصَلةُ السيرِ بدون توقُّف، كما في البخاري.

٢٨- تأخيرُ وقتِ الراحة، كما في البخاري.

٢٩- حَملُ أبي بكر جميعَ مالِه، ومن فوائد ذلك أنَّ أبا بكر كان رجلاً غنِياً؛ فربما لَحِقَهم الطلب؛ فاستطاع أن يفدي أنفسهما بذلك المال، وكان مبلغاً كبيراً قدر بخمسة آلاف، كما عند ابن إسحاق، وتقدير المبلغ رواه أحمد والحاكم".[٣٥]

فينبغي أنْ نتساءل: "هل نحن عندما نريدُ أن نُقْدِمَ على أيِّ أمرٍ من أُمورِ الدعوة؛ نستعدُّ لذلك؟ نُخَططُّ له؟ نُجيدُ تحديدَ المراحِل؟ المؤسِفُ أنَّ الواحِدَ منا إذا أراد أن يَعْمُرَ بيتاً؛ جَلسَ يُخَطِّطُ عِدةَ أشهرٍ، نعم إذا أقبلَ على أمرٍ مِن أمُورِ الدنيا؛ خطَّطَ ورتَّبَ واستعدَّ، ولكنْ في أُمُورِ الدعوةِ يَخْبِطُ خَبطَ عشواء؛ ومن هنا جاءتِ النتائجُ السيئةُ لكثيرٍ من الدعواتِ والحركاتِ؛ لأنهم يتحركونَ بدونِ تخطيطٍ، يتحركونَ بدونِ دراسةٍ للواقع، وبدونِ حسابٍ للمستقبل؛ حسبَ الأسبابِ التي شرعَها الله سبحانه وتعالى... فالمسلِمُ كَيِّسٌ فَطِنٌ، فلا يُقْدِمْ على أمرٍ إلا بعد أنْ يكونَ قد قلَّبَ جميعَ الأمور، وأخذَ بجميعِ الوسائلِ والأسباب، وهذا الدرسُ واضحٌ وجَلِيٌّ وعظيمٌ في سيرةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم: تخطيطٌ مُحكَمٌ دقيقٌ، لا تَجِدُ فيه ثغرةً من الثغراتِ".[٣٦]

نسألُ الله أنْ يجعلَنا من المنتَفِعِين بِدُرُوسِ الهجرةِ النبوية العَطِرَة، ومَعالِمِ السِّيرةِ المحمَّدية الشريفة. فقد أدركَ منها بعضُ الغربيِّين ما لم يُدْرِكْه بعضُ بنِي جِلْدَتِنا؛ حتى قال الفيلسوف والكاتب الإنجليزي المعروف برنارد شو: "إنَّ أوروبا الآن ابتدأتْ تحسُّ بحكمةِ محمد، وبدأت تعيشُ دِينَه... إنَّ بَوادِرَ العَصرِ الإسلامي الأوروبي قريبةٌ لا محالة، وإني أعتقدُ أنَّ رجلا كمُحمَّدٍ لو تسلَّمَ زِمامَ الحكمِ المطلَقِ في العالَم بأجْمَعِه اليوم؛ لَتَمَّ له النجاحُ في حُكمِه، ولقادَ العالَمَ إلى الخير، وحلَّ مَشاكِلَه على وجهٍ يُحَقِّقُ للعالَمِ كلِّه السلامَ والسعادةَ المنشُودة".[٣٧]

والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[١] البيتان لابن القيم رحمه الله.

[٢] الأنفال ٧٢.

[٣] الهجرة ومقدماتها للشيخ يحيى اليحيى ص ٣٥-٣٦، والغرباء الأولون للشيخ سلمان العودة ص ٤٩١.

[٤] الملك ١٥.

[٥] المزمل ٢٠.

[٦] تفسير ابن كثير ٤٤٠/٤.

[٧] تفسير البغوي ٤١١/٤.

[٨] تفسير البيضاوي ٤٠٨/٥.

[٩] في روح المعاني ١١٤/٢٩.

[١٠] التوبة ٤٠.

[١١] النساء ١٠٠.

[١٢] قال مجاهد رحمه الله: "(يجد في الأرض مراغما كثيرا): يعني متزحزحا عما يكره". تفسير مجاهد ١٧١/١.

[١٣] قال النحاس رحمه الله: "المراغم عند أهل اللغة والمهاجر واحد، يقال: راغمت فلانا إذا هجرته وعاديته: كأنك لا تباليه وإن لصق أنفه بالرغام: وهو التراب". معاني القرآن للنحاس ١٧٤/٢.

[١٤] تفسير القرطبي ٣٤٧/٥.

[١٥] تفسير السعدي ١٩٦/١.

[١٦] البيتان لخليل بن أيبك الصفدي.

[١٧] التفسير الكبير للرازي ١٣/١١.

[١٨] تفسير القرطبي ٣٤٩/٥-٣٥١. وأحكام القرآن لابن العربي ٦١٠/١-٦١٣.

[١٩] النساء ٧٥.

[٢٠] قاض فاضل من أهل سبتة، وهي إحدى المدينتين المغربيَّتَين المحتلَّتين من إسبانيا. توفي سنة ٧٤٧ هـ.

[٢١] النساء ٩٧-٩٩.

[٢٢] رواه البخاري ومسلم.

[٢٣] النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢٤٣/٥.

[٢٤] المتوفى سنة ٣٩٣ هـ.

[٢٥] وقد نُسِبَت إلى الشافعي بهذه الرواية:

تَغَرَّب عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُلا وَسافِر فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاِكتِسابُ مَعيشَةٍ وَعِلمٌ وَآدابٌ وَصُحبَةُ ماجِدِ
وَإِن قيلَ في الأَسفارِ ذُلٌّ وَمِحنَةٌ وَقَطعُ الفَيافي وَاِكتِسابُ الشَدائِدِ
فَمَوتُ الفَتى خَيرٌ لَهُ مِن حَياتِهِ بِدارِ هَوانٍ بَينَ واشٍ وَحاسِدِ

وقال ابن المقرب علي بن المقرب المتوفى سنة ٦٢٩هـ.

قُمُ فَاِشدُدِ العِيسَ لِلتِرحالِ مُعتَزِماً وَارمِ الفِجاجَ بِها فَالخَطبُ قَد فَقِما
وَلا تَلَفَّت إِلى أَهلٍ وَلا وَطَنٍ فَالْحُرُّ يَرحَلُ عَن دارِ الأَذى كَرَما!
كَم رِحلَةٍ وَهَبَت عِزّاً تَدينُ لَهُ شُوسُ الرِجالِ وَكَم قَد أَورَثَت نِعَما!

[٢٦] مفهوم التخطيط العلمي، دكتور زكريا حسين.

[٢٧] مفهوم التخطيط العلمي، لدكتور زكريا حسين.

[٢٨] الغرباء الأولون، الجزء الأول، الفصل الثالث، ص٢٠.

[٢٩] صحيح ابن حبان ٤٧١/١٥، حديث ٧٠١١. كتاب إخباره عن مناقب الصحابة، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

[٣٠] الغرباء الأولون، الجزء الأول، الفصل الثالث، ص٢٤.

[٣١] الغرباء الأولون، الجزء الأول، الفصل الثالث، ص٢٧.

[٣٢] رواه البخاري ومسلم.

[٣٣] فقال الدكتور موريس بوكاي رئيس قسم الجراحة في جامعة باريس: "لم أجِدْ التوافقَ بين الدينِ والعلم إلا يوم شَرَعتُ في دراسةِ القرآن الكريم؛ فالعِلمُ والدينُ في الإسلام شقيقان توأمان؛ لأنَّ القرآنَ الكريم والحديثَ النبوي الشريف يَدْعُوَان كلَّ مُسلمٍ

إلى طلبِ العلم، طبعاً إنما نجمَت إنجازات الحضارةِ الإسلامية العظيمة عن امتثالِ الأوامرِ المفروضة على المسلمين منذ فجرِ الإسلام". القرآن الكريم والعلم المعاصر، د. موريس بوكاي ص١٢٣.وقد اعتنق بوكاي الإسلام عام١٩٨٢م. يُعتبر كتابه (التوراة والقرآن والعلم) من أهم الكتب التي درست الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة. وله كتاب (القرآن الكريم والعلم العصري) منحته الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٨٨م جائزة في التاريخ. وهو القائل: "إنَّ أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه نصوص القرآن لأول مرة هو ثراء الموضوعات العلمية المعالجة، وعلى حين نجد في التوراة الحالية أخطاء علمية ضخمة، لا نكتشف في القرآن أي خطأ! ولو كان قائل القرآن إنساناً فكيف يستطيع في القرن السابع أن يكتب حقائق لا تنتمي إلى عصره؟... ليس هناك تفسير وضعيّ لمصدر القرآن".

[٣٤] الغرباء الأولون، الجزء الأول، الفصل الأول، ص ٢٨.

[٣٥] الهجرة ومقدماتها للدكتور يحيَى اليحيَى ص ٥٥-٥٧.

[٣٦] الفوائد الجنية من الهجرة النبوية (٩)، لسلمان بن يحي المالكي.

[٣٧] النبي ﷺ كما تحدث عنه المنصفون والعقلاء في الغرب، إدريس الكنبوري. ص ٧.

فوائد معنوية من الهجرة النبوية

الهجرة تلك المفردة التي نكررها مرة في أول كل عام.حينما نجلس نتذاكر فضـــلها و أحيانا نعيد الأحداث التي حفظناها عن ظهر قلب.دعونا هذه المرة نتناول الهجرة من جهة أخرى هي أولى بالذكر من مجرد الترداد للأحداث.أبعاد الهجرة التي غابت عن أذهان الكثير.اليوم موعدنا مع "باقات البطولات" التي قدمها النبي و الصـــحابة لكـــي تصل "أمتنا" إلى وضعها المزدهر،ذلك الوضع الذي أذهل الكبـــراء و تعجبـــت منـــه العلياء.حيث صدق فيها قول عز من قائل "خير أمة". و بعـــد أن ضـــلت الركـــاب و حادت الخيول عن طريقها صدق فينا الشطر الأول من الآية " كنتم ".

لم تكن الهجرة حادث طارئ في حياة الصحابة فقد سبقه تمهيد مخطط له كالهجرة إلى الحبشة و بيعتي العقبة الأولى و الثانية.فلا بد للعمل الناجح أن يكون "مُهَيأً " له مـــن قبل المسئولين الذين هم بدورهم يمثلون دور القائد الفذ.و حين يتجسد أمامنا قوله عليه الصلاة و السلام "رأيتُ في المنامِ أني أهاجرُ من مكةَ إلى أرضٍ بها نخـــلٌ ، فـــذهب ظني إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي يثرب " نتيقن أن ثمة صدق بـــاطن خالطـــة مصادقة ظاهر.فمن ذا الذي يود أن تثمر غراسة بلا جهد دؤوب و النبي صـــلى الله علية وسلم قد بين لنا "وضوح" هدفه الذي لم يتفان هو بتوفيق الله من تحصيله.فكان لا بد من جزاء يطابق العمل بل و يزيد.

الألم الذي تلقاه حبيبنا فداه آبائنا و أمهاتنا بعد وفاة عضديه (الزوج الحنون رضـــوان الله عليها)و عمه أبو طالب ذلك الذي كان رحيله سبباً في إكتمال حزن عام (الحـــزن) و ما تبعه من رحلة إلى الطائف انتهت بإيذاء الحبيب حتى جاءه جبريل عليه الســـلام بملك الجبال "عله يطبق عليهم الأخشبين".

هنا تظهر عزيمة الداعي و فضل المربي " بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَـــنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" .لله درك يا أبا القاسم أي مدرسة حلم هـــذه التـــي تخرجت منها.

تسفر الأيام عن مكنونها و تبرز الحاجة لتمهيد الدعوة فليست الإنجازات مصادفة كما أن الدعوة ليست إختراعا.الدعوة مخطط مرسوم بخريطة لها مفاتيح لتوضيح كل فعل كأنما جاء على قدر مقدور .

تستمر التهيئة النفسية للقبائل في مواسم الحج يتبعها بيعتين كان لهما الفضل في بسط رداء الإسلام في المدينة.

و مع تتابع الأحداث يرى المعلم و القائد ضرورة إرسال سفير "بمواصفات خاصة" يشرع في شرح تعاليم الإسلام ، يسعى إلى إصلاحٍ مبدئي لتلكم الأرض التي ستصير يوماً ما مأوى للإسلام و المسلمين كي يقول فيها عليه الصلاة و السلام "لولا الهجرة لكنت إمرءً من الأنصار"

كأي عمل إنقلابي جبار لا يقوم على جهد رجل واحد و إن كان نبياً فلا بد من مؤازرة أتباعه الذين أحسن الله إختيارهم ليحملوا معه "شطراً " من همِّ الدعوة فيكونوا خير من يضحي لأجل هذا الدين الذي كأنما جائنا على أطباق فضة سائغة.و بتلك الجهود توضع أول حجرتين في بناء الدين ألا وهما "أول مسجد وضع في الإسلام" و المؤاخاة بين "صنفين" من الناس عاداتهم مختلفة و طبائعهم لا تتشابه لاسيما أن أحدهما "مطرود" بينما الآخر "يؤثرون عل أنفسهم و لو كان بهم خصاصة"

أين ستجد هكذا تربية في تأريخ العظماء..و ماذا تسمي نقلة نوعية كهذة في عالم البدو الذين لم يكونوا يفقهون شيئا حتى جاء ذلك الأمي ليخرجهم من الظلمات إلى النور؟!

أما وقد رأينا صورة الأوائل دعونا نستخدم مرآتنا التي عافت صورنا و نحن بدورنا عفناها (المرآة).أما ترى أنك بحاجة إلى هجرة تحس فيها بأنك تهجر الباطل و أوحالة و تترك المنكر و أهله ؟

لكن تذكر معي أن هذه الهجرة ليست وليدة قرار أو حتى فكرة تنتظر النور لتنمو.الهجرة التي نتحدث عنها ليست بمختلفة عن سابقتها.هي هجرة بالروح لا الجسد بالفكر لا الجثمان. و إن كنت قد هززت رأسك قبولا فدعني أخبرك عن بعض ما يجب "إعداده" كي تكون هجرتك ناجحة.

أنت تحتاج إلى دراسة "جادة" لهجرتك. "رأيتُ في المنامِ أني أهاجرُ من مكةَ إلى أرضٍ بها نخلٌ، فذهب ظني إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي يثرب "
هل حددت مسار هجرتك بالضبط؟.وهل تعلم ما تلك القيود التي تحطمها و ماذا عن تلك الرفقة التي ستغادر ساحتهم ؟ هل حددت وجهتك و هل تعلمت تلك التعويذة التي لا بد لك منها للخلاص من كل ما يجعلك " تخلد إلى الأرض و تتبع هواك ".؟
أما المرحلة التالية هي "و اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي". لن تدوم طويلا في طريق يقل السائرين فيه و أنت في أول ولوجك.كما أنه لا بد من شخص "ثقة" تتكأ عليه كلما أحلولكت الساعات أمامك " أو هكذا هـُيأ لك" رجال هم بمثابة القناديل إن الشموس غابت .يرفعون همتك حينما تخبو، يزيلون عنك عقبات الطريق إن أشتد بك الحنين إلى الماضي .
قبل أن تقرر الهجرة عليك أن تبحث عن (رجال) بهم تشد أزرك و ترفع بهم هامتك.لا يضيقون ذرعا في التضحية من أجل خدمة الدين و السالكين فيه.
هنا نبدأ الخوض في المرحلة الأهم..هل ستنتظر (جبريلا) يخبرك أنك على صواب متى ما ضاقت السبل و أحسست أن الجميع قد تفرق إلا في مضايقتك قد توحد.عندما تسمع عبارات السخرية التي قد تصل إلى الإيذاء.!! هنا الوضع يختلف فلسنا في عصر المعجزات .لكن ثمة يقين عليه أن يتولد بداخلك كلما ساورك الشك في مصداقية ما تصنع .ثق بأن الصادق هو وحده القادر على إجتياز عقبات الطريق. عد إلى الكتاب و السنة لتطمئن أن ما تصنعه لا يخالف شرعا و لا يصير بدعا. عندها فقط أطبق الجبلان على كل من يخبرك أنك تسير خارج السرب و قل (و إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله)
أما و قد عزمت الهجرة ،لا بد ان تفكر عن (أول عمل ستقوم به). و لهذه الخطوة أهميتها الخاصة حيث أنك (كأي مهاجر) ستراودك الحنين إلى موطنك الأول (والله انك لأحب بلاد الله إلى الله والى نفسي ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت).حتى تقتلع ذلك الحنين،عليك أن تصنع عملا به تشعر أنك مبدع في طريق الهجرة و أن

ثمرتك ستؤدي أوكلها على خير ما يرام.هل ستبني مسجد قلبك؟ أقصد به (ذلك المكان الذي ستستأنس به في هجرتك و تلوذ به كلما أشتد قيظ الصيف أو زمهريـــر الشـــتاء).مكان تجتمع به مع أحبة طرقوا الفؤاد و ملؤه بهجة و أمانا. تشعر معهم انكم و إن كنتم (كثر) فما أنتم إلا (جسد واحد إذا مرض عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى)

بوح أخير...

معرفة الداء و الدواء لا تكفي لعلاج فعال . كما ان حسن الإستخدام لقوعد باطلة يزيد ال_طين_ بلة. إذا فلا بد من تواجد الثلاثة العوامل معا لعمل هجرة جادة من الظـــلام إلى النور.و لنتذكر موعظة من كلام عمر "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاســبوا وزنـــوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم فـــي الحســـاب أن تحاســبوا اليـــوم يومئـــذ تعرضون".

هكذا فقط تترك الهجرة أثرها في القلوب .لا تتردد في جمع المتاع متى ما كنت واثقا من وضوح هدفك.و تذكر قول الحبيب (عبادة في هرج كهجرة إلي). وهل هناك أكثر هرجاً من حال كهذا حيث نسفت المبادئ و ذل فيه أهل الطاعة و عُـزَّ فيـــه أهـــل المعصية.

هاجر أخي فكلنا ذلك المهاجر حتى يقضي الله بأمره.

الهجرة وصناعة الأمل

من كان يظن أن يكون أولئك النفر الستة بداية مرحلة جديدة من العز والتمكين، والبذرة الأولى لشجرة باسقة ظلت تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؟.

ومن كان يخطر بباله أن تشهد تلك الليلة من ليالي الموسم ورسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر يطوفان بمنى حتى إذا سمعا صوت رجال يتكلمون مالا إليهم فقالا وقالوا، وتحدثا وسمعوا، وبينا فأصغوا فانشرحت القلوب، ولانت الأفئدة ونطقت الألسنة بالشهادتين، وإذا بأولئك النفر من شباب يثرب يطلقون الشرارة الأولى من نار الإسلام العظيمة التي أحرقت الباطل فتركته هشيما تذروه الرياح. من كان يظن أن تلك الليلة كانت تشهد كتابة السطور الأولى لملحمة المجد والعزة؟.

إن نصر الله يأتي للمؤمن من حيث لا يحتسب ولا يقدر، لقد طاف رسول الله ﷺ بمجتمعات القبائل وقصد الرؤساء وتوجه بالدعوة إلى الوجهاء وسار إلى الطائف، فعل ذلك كله عشر سنوات وهو يرجو أن يجد عند أصحاب الجاه والمنعة نصرة وتأييدا، كان يقول ﷺ في كل موسم: "من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي"، ومع كل هذا لم يجد من يؤويه ولا من ينصره، بل لقد كان الرجل من أهل اليمن أو من مضر يخرج إلى مكة فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك!.

لم تأت النصرة والحماية والتمكين من تلك القبائل العظيمة ذات المال والسلاح، وإنما جاءت من ستة نفر جاءوا على ضعف وقلة.

"إنها التقادير يوم يأذن الله بالفرج من عنده، ويأتي النصر من قلب المحنة، والنور من كبد الظلماء، والله تعالى هو المؤيد والناصر، والبشر عاجزون أمام موعود الله".

ستة نفر من أهل يثرب كلهم من الخزرج دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام ولم يكن يتوقع منهم نصرة وإنما أراد دعوتهم فآمنوا وأسلموا... ثم تتابعت الأحداث على نسق عجيب، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وكان أحد النفر الستة: حتى بعثنا الله

إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا فقلنا: حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه الموسم، فواعدناه العقبة فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: "على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم وأزواجكم، ولكم الجنة"، قال جابر: فقمنا إليه فبايعناه (مسند أحمد).

أرأيتم... يعرض الكبراء والزعماء ويستكبر الملأ وتتألب القبائل وتتآمر الوفود وتسد الأبواب... ثم تكون بداية الخلاص بعد ذلك كله في ستة نفر لا حول لهم ولا قوة.

فهل يدرك هذا المعنى المتعلقون بأذيال المادية الصارخة والنافضون أيديهم من قدرة الله وعظمته؟.

وهل يدرك هذا المعنى الغارقون في تشاؤمهم اليائسون من فرج قريب لهذه الأمة المنكوبة المغلوبة على أمرها؟.

إن الله ليضع نصره حيث شاء وبيد من شاء وعلينا أن نعمل حتى تصل دعوتنا إلى العالمين، وألا نحتقر أحدا ولا نستكبر على أحد، وعلينا أن نواصل سيرنا مهما يظلم الليل وتشتد الأحزان، فمن يدري لعل الله يصنع لنا في حلكات ليلنا الداجي خيوط فجر واعد؟ ومن يدري لعل آلامنا هذه مخاض العزة والتمكين؟.

أعظم دروس الهجرة!

إننا على أبواب عام هجري جديد يقبل محملا بما فيه، وعلى أعقاب عام هجري مودع يمضي بما استودعناه نقف متذكرين هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم... إنها ذكرى الاعتبار والاتعاظ لا ذكرى الاحتفال والابتداع. إنها وقفة نستقرئ فيها فصلا

من فصول الحياة خطه رسول الله ﷺ وصحبه. إنها رجعة إلى العقل في زمن طاشت فيه العقول. ووقفة مع الروح في زمن أسكرت الأرواح فيه مادية صخابة جرافة.

إن من أعظم دروس الهجرة وأجل عبراتها "صناعة الأمل" نعم. إن الهجرة تعلم المؤمنين فن صناعة الأمل. الأمل في موعود الله. الأمل في نصر الله. الأمل في مستقبل مشرق لـ "لا إله إلا الله". الأمل في الفرج بعد الشدة، والعزة بعد الذلة، والنصر بعد الهزيمة.

لقد رأيتم كيف صنع ستة نفر من يثرب أمل النصر والتمكين. وهاهو رسول الله ﷺ يصنع الأمل مرة أخرى حين عزمت قريش على قتله.

قال ابن إسحاق: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نام فيثبون عليه.

وعلى أن كل حساب مادي يقطع بهلاك رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف لا وهو في الدار والقوم محيطون بها إحاطة السوار بالمعصم. مع ذلك صنع رسول الله ﷺ الأمل، وأوكل أمره إلى ربه وخرج يتلو قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} (يس:٩). خرج الأسير المحصور يذر التراب على الرؤوس المستكبرة التي أرادت قتله! وكان هذا التراب المذرور رمز الفشل والخيبة اللذين لزما المشركين فيما استقبلوا من أمرهم. فانظر كيف انبلج فجر الأمل من قلب ظلمة سوداء.

ويمضي رسول الله ﷺ في طريقه يحث الخطى حتى انتهى وصاحبه إلى جبل ثور، وهو جبل شامخ وعر الطريق صعب المرتقى، فحفيت قدما رسول الله ﷺ وهو يرتقيه فحمله أبو بكر وبلغ به غار ثور ومكثا هناك ثلاثة أيام.

مرة أخرى يصنع الأمل!!

ومرة أخرى يصنع الأمل في قلب المحنة، وتتغشى القلوب سكينة من الله وهي في أتون القلق والتوجس والخوف.. يصل المطاردون إلى باب الغار، ويسمع الرجلان

وقع أقدامهم، ويهمس أبو بكر: يا رسول الله لو أن بعضهم طأطأ بصره لرآنا! فيقول صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر. ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟".

وكان ما كان، ورجع المشركون بعد أن لم يكن بينهم وبين مطلوبهم إلا خطوات! فانظر مرة أخرى كيف تنقشع عتمة الليل عن صباح جميل. وكيف تتغشى عناية الله عباده المؤمنين {إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} (الحج:٣٨).

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالحوادث كلهن أمانُ

ويسير الصاحبان في طريق طويل موحش غير مأهول لا خفارة لهما من بشر، ولا سلاح عندهما يقيهما:

لا دروع سابغات لا قنا ** مشرعات لا سيوف منتضاه

قوة الإيمان تغني ربها ** عن غرار السيف أو سن القناة

ومن الإيمان أمن وارف ** ومن التقوى حصون للتقاة

يسير الصاحبان حتى إذا كانا في طريق الساحل لحق بهما سراقة بن مالك طامعا في جائزة قريش مؤملا أن ينال منهما ما عجزت عنه قريش كلها، فطفق يشتد حتى دنا منهما وسمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومرة ثالثة، وهذا الفارس على وشك أن يقبض عليهما ليقودهما أسيرين إلى قريش تذيقهما النكال، مرة ثالثة يصنع الأمل، ولا يلتفت رسول الله ﷺ إلى سراقة ولا يبالي به وكأن شيئا لم يكن يقول له أبو بكر: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا، فيقول له مقالته الأولى: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا} (التوبة:٤٠).

لقد اصطنع الأمل في الله ونصره فنصره الله وساخت قدما فرس سراقة، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء كالدخان، فأدرك سراقة أنهم ممنوعون منه. ومرة ثالثة جاء النصر للرسول ﷺ من حيث لا يحتسب. وعاد سراقة يقول لكل من قابله في طريقه ذاك: ارجع فقد كفيتكم ماههنا، فكان أول النهار جاهدا عليهما وآخره حارسا لهما!.

ويبلغ أهل المدينة خبر هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، الرجل الذي قدم لهم الحياة وصنع لهم الأمل. الرجل الذي أنقذهم من أن يكونوا حطبا لجهنم. يبلغهم الخبر فيخرجون كل غداة لاستقباله حتى تردهم الظهيرة. كيف لا وقد اقتربت اللحظة التي كانوا يحصون لها الأيام ويعدون الساعات؟ قال الزبير: فانقلبوا يوما بعدما أطالوا انتظاره فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود أطما من آطامهم لينظر إليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا صاحبكم الذي تنتظرون.

فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظاهر الحرة. تلقوه بقلوب تفيض سعادة وفرحا... وتأمل مظاهر الفرحة الغامرة:

– قال أنس: "شهدت يوم دخل النبي ﷺ المدينة فلم أر يوما أحسن منه ولا أضوأ منه" (الحاكم).

– قال أبو بكر: "ومضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة وخرج الناس حتى دخلنا في الطريق وصاح النساء والخدام والغلمان: جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد، جاء رسول الله" (الحاكم).

– قال أنس: "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة لقدومه فرحا بذلك لعبوا بحرابهم" (أبو داود).

وصدق من قال:

أقبل فتلك ديار يثرب تقبل ** يكفيك من أشواقها ما تحمل

القوم مذ فارقت مكة ** أبى الكرى وجوانح تتململ

يتطلعون إلى الفجاج وقولهم ** أفما يطالعنا النبي المرسل

رفت نضارتها وطاب أريجها ** وتدفقت أنفاسها تتسلسل

فكأنما في كل دار روضة ** وكأنما في كل مغنى بلبل

وهكذا تعلمنا الهجرة في كل فصل من فصولها كيف نصنع الأمل، ونترقب ولادة النور من رحم الظلمة، وخروج الخير من قلب الشر، وانبثاق الفرج من كبد الأزمات.

ما أحوجنا في هذا الزمن!

ما أحوجنا ونحن في هذا الزمن، زمن الهزائم والانكسارات والجراحات إلى تعلم فن صناعة الأمل.

فمن يدري؟ ربما كانت هذه المصائب بابا إلى خير مجهول، ورب محنة في طيها منحة، أوليس قد قال الله: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ؟} (البقرة:٢١٦).

لقد ضاقت مكة برسول الله ومكرت به فجعل نصره وتمكينه في المدينة.

وأوجفت قبائل العرب على أبي بكر مرتدة، وظن الظانون أن الإسلام زائل لا محالة، فإذا به يمتد من بعد ليعم أرجاء الأرض.

وهاجت الفتن في الأمة بعد عثمان حتى قيل لا قرار لها ثم عادت المياه إلى مجراها.

وأطبق التتار على أمة الإسلام حتى أبادوا حاضرتها بغداد سرة الدنيا وقتلوا في بغداد وحدها مليوني مسلم وقيل: ذهبت ريح الإسلام فكسر الله أعداءه في عين جالوت وعاد للأمة مجدها.

وتمالأ الصليبيون وجيشوا جيوشهم وخاضت خيولهم في دماء المسلمين إلى ركبها حتى إذا استيئس ضعيف الإيمان نهض صلاح الدين فرجحت الكفة الطائشة وطاشت الراجحة، وابتسم بيت المقدس من جديد.

وقويت شوكة الرافضة حتى سيطر البويهيون على بغداد والفاطميون على مصر وكتبت مسبة الصحابة على المحاريب ثم انقشعت الغمة واستطلق وجه السنة ضاحكا.

وهكذا يعقب الفرج الشدة، ويتبع الهزيمة النصر، ويؤذن الفجر على أذيال ليل مهزوم... فلم اليأس والقنوط؟.

اشتدي أزمة تنفرجي ** قد آذن ليلك بالبلج

إن اليأس والقنوط ليسا من خلق المسلم، قال سبحانه: {وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف:٨٧).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله".

إذا اشتملت على اليأس القلوب ** وضاق لما به الصدر الرحيب
ولم تر لانكشاف الضر وجهـــا ** ولا أغنـــى بحيلتـــه الأريـــب
أتاك على قنـــوط منك غـــوث ** يمـــن به اللطيف المســـتجيب
وكل الحـــادثات وإن تنـــاهت ** فموصـــول بها الفرج القريب

فيا أيها الغيورون على أمة الإسلام.. يا من احترقت قلوبهم لآلامها، نعمّا هـــذا الألـــم وما أصدقه على إيمانكم وحبكم لدينكم، ولكن لا يبلغن بكم اليأس مبلغه، فـــإن الـــذي أهلك فرعون وعادا وثمود وأصحاب الأيكة والذي رد التتار ودحر الصـــليبين قـــادر على أن يمزق شمل الروس ويبدد غطرسة الصـــهيونية ويحطـــم أصـــنام الوثنيـــة المعاصرة.

وأنت.. يا من ابتلاك الله في رزقك أو صحتك أو ولدك.

أنت.. يا من جهدك الفقر وانتهكتك العلل وأخذ الموت أحبابك وعدت في أعين الناس كالدرهم الزائف لا يقبله أحد.

أنت.. يا من أصبحت في مزاولة الدنيا كعاصر الحجر يريد أن يشرب منه، ويا مـــن سدت في وجهك منافذ الرزق وأبواب الحلال.

أنت.. هل نسيت رحمة الله وفضله؟

بقلم الدكتور عادل بن أحمد نقلا عن إسلام اونلاين

الهجرة.. دروس في التخطيط الحديث

في عالمنا اليوم يُعرّفون التخطيط بأنه يعني الإجابة على أسئلة ثلاثة، هي:

أين نحن؟ وإلى أين نريد أن نذهب؟ وكيف سنصل إلى هناك؟

ويقسمونه إلى تخطيط إستراتيجي طويل المدى يعنى بالعموميات، مثل: من نحن؟ وماذا نمثل؟ وكيف يمكننا الاستمرار؟ وتخطيط تكتيكي قصير المدى يدعم التخطيط الإستراتيجي، ويُعنى بالتفاصيل وآلية التنفيذ والوقت المتاح للإنجاز.

فهل هذه المعاني كانت حاضرة في ذهنه ﷺ وهو يفكر في الهجرة؟

هذا ما نحاول التعرف عليه.

إستراتيجية الهجرة

لقد كان التخطيط الإستراتيجي واضحًا في فكر النبي ﷺ وهو يترسم خطاه وسط الأمواج العاتية في جزيرة العرب، وملامح هذا التخطيط الإستراتيجي هي:

تحديد الرسالة:

من نحن؟ وما الهدف من وجودنا؟ وما المشكلات التي تواجهنا؟

كان الهدف واضحًا، وهو الحصول على بقعة أرض يُقام فيها مجتمع وتؤسس فيها دولة، وتنطلق منها الدعوة إلى الآفاق، وكانت العقبة الكئود أمام تحقيق هذا الأمر هو عناد واستكبار مشركي قريش وصدهم عن سبيل الله.

تقييم البيئة المحيطة:

كانت البيئة في مكة لا تصلح لإتمام هذا الأمر؛ فمقاومة المشركين للإسلام تزداد شراسة يومًا بعد يوم، وقلوبهم كالحجارة بل أشد قسوة؛ فهل تُغنِي مخاطبة الحجارة؟!

لقد وصل تقدم الدعوة في مكة إلى طريق مسدود، ولم تعد هناك فائدة من تكرار المحاولة.

وكان لا بد أن تكون الأرض المنشودة أرضًا عربية؛ لأنه لا يمكن أن يقوم لهذا الدين كيان إلا في ظل مجتمع عربي يتكلم العربية، ويفهم القرآن كتاب الله المعجز، خصوصًا حَمَلة الرسالة الأولين.

فنظر الرسول ﷺ إلى مدينة الطائف راجيًا من أهلها الاستجابة وهم لهم مقام رفيع بين العرب، ولم يكن جوابهم أقل سوءًا من إخوانهم مشركي مكة.

وكان يغشى المواسم ويأتي الأسواق كعكاظ ومجنة وذي المجاز.

وكانت الاستفادة من وجوده في مكة وهي محج العرب يفدون إليها من كل مكان، ومحاولة الالتقاء بوفود القبائل، وعرض الإسلام عليهم، بل وكان يتبع منازلهم عسى أن يستجيب مستجيب؛ فينال الشرف العظيم.

وأدرك النبي ﷺ أن المشكلة في رفض القبائل له هو طلب النصرة والحماية لحرصها على رضاء قريش، ولما يعنيه ذلك من حرب الأسود والأحمر؛ فلم يطلبه من أهل يثرب في أول الأمر حتى أطلعه مصعب على نتيجة عمله.

استعراض الموارد:

وكان الرسول ﷺ في الوقت الذي يبحث فيه عن مكان آخر يدرك أن في قريش من الإمكانات ما ينبغي الاستفادة منه لخدمة الدعوة، وهو يريد أن يدخر هذه الإمكانات والطاقات للمستقبل؛ لذلك عندما جاءه جبريل ومعه ملك الجبال -بعد خروجه من الطائف- يستأمره في أن يطبق على أهل مكة الأخشبين، قال: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا" (من حديث رواه البخاري).

وهذه قمة بُعد النظر، أن تدخر أعداءك للاستفادة منهم مستقبلاً، ولولا ذلك لما وُجد خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو... وغيرهم كثير، كما أن أهل الطائف أصبحوا بعد إسلامهم أشد القبائل العربية دفاعًا عن الإسلام، وجرت على أيديهم الفتوحات.

وكانت طاقات المسلمين وإمكاناتهم مبعثرة أو معطلة، وكانت الحاجة لمكان تتجمع فيه هذه الطاقات البشرية وتتفجر فتقوى شوكتهم ويكثر سوادهم؛ لذلك كان الأمر لجميع المسلمين بالهجرة –فيما بعد– لإمداد الدولة الوليدة بالطاقات البشرية والكفاءات الكفيلة بمواجهة أعداء الإسلام.

طرح البدائل وتحديد الخيار:

لقد كان الرسول ﷺ يعرف ما الإسلام، وماذا يريد، ويدرك البيئة والصعوبات المحيطة به، ويطرح البدائل في ضوء الرؤية الإستراتيجية الواضحة.

إما المكوث بمكة وهو يعني النفخ في قِربة مثقوبة، وإما الخروج للبحث عن مكان جديد، واستمر في البحث عن البديل حتى جاءت نسمات يثرب.

التدرج في الخطوات:

لم يكن رسول الله ﷺ يتعجل خطواته، ولا يقطف الثمرة قبل أوانها؛ فقد كان القوم يلاقون الأهوال من بطش قريش، ومع هذا لم يأذن الرسول ﷺ لهم بحمل السلاح؛ فهو يعلم أنه إن رفع سلاحًا فإن المشركين سيجتثون المسلمين عن بكرة أبيهم، وقد رأيناه كيف تدرج في خطواته مع أهل يثرب؛ فقد طلب منهم أولاً أن يُسْلموا ويصدقوا وينظروا في قومهم، وبعد سنة بايعهم على ما لا خلاف عليه من أخلاق وفضائل، وأجّل طلب حمايته ونصرته، وأرسل معهم مصعبًا ليتلو عليهم القرآن، وينظر في توقيت طلب النصرة منهم، وبعد سنتين طلب منهم البيعة على قدومه وحمايته، وجعل نقباءهم من أنفسهم، بعد أن أصبحت الأرضية جاهزة لبناء دولة الإسلام.

وضوح الرؤية:

وقد وضحت الرؤية باستجابة أهل يثرب، وبتأكد الرسول ﷺ من إخلاصهم لربهم، واستعدادهم لحمايته، وحماسهم لإقامة دولة الإسلام.

فكانت يثرب هي الوجهة، وهي أنسب مكان لبناء الدولة، وأصبحت مأرز الإيمان وموطن الإسلام.

وهكذا فقد عرف محمد ﷺ طريقه وأدرك غايته، بما أوتي من فكر ثاقب، وإستراتيجية واضحة، ومعرفة بالواقع، وخطوات محسوبة، وقبل كل ذلك تأييد من الله..

ولم يبقَ إلا العمل.

خطة الهجرة

كانت رؤية الرسول ﷺ جلية، وإستراتيجيته واضحة، وهي الذهاب إلى المدينة لإقامة الدولة الإسلامية؛ لأنه بدون دولة لن يكون هناك إسلام، ولن تكون هناك دعوة.

وكان الرسول ﷺ ينتظر الإذن بالتنفيذ، فجاءه الوحي بالإذن للخروج وبداية العمل، وكانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها الرسول بفارغ الصبر.

جلس الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ليرسما معالم خطة الهجرة، وما الخطة إلا هدف، ووسائل لتحقيقه، ووقت لتنفيذه؛ فكانت معالم الخطة كالتالي:

أما الهدف فواضح بيِّن، ولكن كيف السبيل والمشركون يتربصون؟

– وكان القرار بمبيت "علي" في فراشه ﷺ لإيهامهم بأنه النبي، وإشغالهم بذلك ريثما يتمكن النبي وأبو بكر من الابتعاد عن مكة والوصول إلى غار ثور.

– ثم الخروج من دار أبي بكر باتجاه الجنوب؛ فقد كان الرسول ﷺ يعلم أن أهل مكة سيقلبون الأرض بحثًا عنه، فاختار طريق اليمن جنوبًا، بدلاً من الطريق الشمالي إلى يثرب.

– وحددا غار ثور مكانًا للمكوث فيه ٣ أيام حتى تخف حدة المطاردة، وواعدا الدليل أن يأتيهما هناك، ومعه الراحلتان اللتان جهزهما أبو بكر.

– وبعد ذلك يتم التوجه بصحبة الدليل الماهر عبر طريق وعر غير متوقع إلى المدينة.

هذه هي الخطوط العريضة للخطة التي رسمها الرسول ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه قبل خروجهما، وتم تشكيل فريق العمل، وتوزعت المهام كالتالي:

أبو بكر الصديق:

-الرفيق والصاحب والمستشار والمدير والمنفذ.

علي بن أبي طالب:

-التمويه: بأن ينام في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة ليوهم المتآمرين بأنه النبي.

-رد الأمانات: فنحن أصحاب رسالة، وهيهات أن ننسى مبادئنا في حمأة صراعنا مع أعدائنا.

عبد الله بن أبي بكر:

العين التي تعرف أخبار قريش، وتوصلها إلى الرفيقين في الغار، وكان يأتيهما بعد حلول الظلام، ويبيت عندهما، ثم يدلج بسحر.

عامر بن فهيرة:

- توفير الغذاء: بأن يأتي بالغنم، فيريحهما على مقربة من الغار، فيحلب منها الرفيقان.

- التغطية على آثار ابن أبي بكر: بأن يتبع بغنمه أثره.

أسماء بنت أبي بكر:

-إعداد سفرة الطعام التي سيقتات عليها المسافران في الطريق الطويل.

عبد الله بن أريقط:

الدليل الماهر الأمين الذي سيأتي في موعده بعد ٣ أيام ومعه الراحلتان.

ويلاحظ في هذه التشكيلة مدى الدقة في الاختيار، والاعتماد على أصحاب الكفاءات والثقات؛ فقد اختير كل فرد بعناية، ووُضع في المكان المناسب له تمامًا؛ فالأمر ليس هينًا، إنه أمر بقاء الإسلام أو فنائه.

خطة ذكية، وتفصيل مدروس، وسرية تامة، وفريق عمل ماهر، وحماسة للعمل، وتنفيذ دقيق؛ فقد عرف كل شخص دوره، وأدى مهمته، وكان التنفيذ محكمًا، والأداء رائعًا، ولم يُترَك شيء للصدفة.. ولم يبقَ إلا أن تتنزل رحمات الله.

القدرة الإلهية والجهد البشري

لقد رأينا كيف خطط رسول الله ﷺ ونفذ واستفاد من كل الطاقات والإمكانات المتاحة حوله؛ ليعلمنا أن الإسلام دين العمل والجد والأخذ بالأسباب، وكيف تدخل الفعل الإلهي لنصرته؛ ليعلمنا الله أنه مهما أخذنا بأسباب القوة والنصر، فنحن ضعفاء بدونه لا حول لنا ولا قوة.

وهكذا تسير هذه الثنائية في حياتنا، بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب، بين الإرادة الإلهية والإدارة البشرية، بين تدبير الإله وتفكير العبد؛ فإذا أهملنا الاعتماد على الله، وظننا أن قوتنا كفيلة بضمان تفوقنا خبنا وخسرنا، وإذا أهملنا الأخذ بالأسباب، وجلسنا في بيوتنا ندعو الله أن ينصرنا ويزلزل الأرض من تحت أعدائنا.. فلن يزيدنا الله إلا خسرانا.

"إن الرسول ﷺ ظل قلبه يخفق بدعاء الله وهو يرسم الخطط، ويضع الضمانات، ويهيئ الموارد والإمكانات والدفوع الكفيلة بإيصاله إلى هدفه. لم يجئ هذا الدعاء قبل التخطيط فحسب، ولا جاء بعده فحسب؛ فليس في علاقة الإرادة البشرية بالمشيئة الإلهية خلال الحدث قبلية ولا بعدية، وإنما تسير الاثنتان في انسجام رائع؛ لأن هذه من تلك؛ ولأن الإنسان في أصغر جزئيات الحركة وفي أكبرها إنما ينفذ قَدَر الله وناموسه في الأرض في مدى الحرية التي أتيحت له.

أما أن يجيء الدعاء والتوجه قبل التخطيط فحسب، أو بعد التنفيذ فحسب؛ فهو من قبيل الثنائيات التي ترفضها مبادئ السماء أشد الرفض؛ لأنها تفصل بين الله والإنسان، وتقسم حظ الطرفين في حركة التاريخ بما لا يتفق أساسًا والسنن الكبرى.

إن الرسول ﷺ هيّأ الأسباب الكاملة لنجاح الحركة وهو ينظر إلى الله، ووضع خطواته الأولى على الدرب وهو يدعو الله، وما لبثت الأسباب أن آتت أُكُلها والخطوات أن انتهت إلى هدفها، وظل الرسول ﷺ ينظر إلى الله ويدعوه، وما أحرانا في يوم هجرته أن نتمعن في هذه التعاليم في زمن طغت فيه التفاسير والأهواء، وكلٌّ قال ما عنده، شرقيًّا كان أو غربيًّا، لكن المسلمين لم يقولوا بعدُ كلَّ ما عندهم". (عماد الدين خليل: خطوات في طريق الهجرة).

فكيف بحال أمة هي خير أمة أخرجت للناس، آتاها الله أفضل كتاب وخير منهج فلم تتبعه، وآتاها أفضل الثروات وخير الإمكانات فأعطتها لأعدائها!

وأخيرًا:

هذه هي الهجرة، وهذه دروسها، وهذه نظرتنا إليها، لها انتسب التاريخ، ولها انتسب المسلمون، ولها انتسبت سور القرآن، ولها انتسب الصحابة، ولها انتسبت دولة الإسلام.

"فعفوًا رسول الله إن قصرنا أو أخطأنا ونحن نتحدث عنك في يوم هجرتك حديث المحبين الذين تحاصرهم القيود في كل مكان، وتسعى إلى سحق مطامحهم ظلمات بعضها فوق بعض؛ فيلجئون إليك مؤمِّلين أن تمنحهم المزيد من التعاليم، كسرًا ثوريًّا للقيد، واستعلاءً روحيًّا على الظلمات، وحركة إيجابية صوب المصير الفذ المتفرد.

وما أحرى الهجرة أن تكون هذا الدرس..(١)

---

(١)نقلاً عن إسلام أون لاين بقلم علي البغدادي

وحي الهجرة

مصطفى صادق الرافعي

بدأ الإسلام في رجل "النبي" وامرأة "خديجة" وغلام "علي".. ثم زاد حرًّا "أبا بكر" وعبدًا.."بلال".

أليست هذه الخمس هي كل أطوار البشرية في وجودها.. مخلوقة في الإنسانية والطبيعة، ومصنوعة في السياسة والاجتماع؟!

فها هنا مطلع القصيدة، وأول الرمز في شعر التاريخ!

ولبث النبي – ﷺ – ثلاث عشرة سنة.. لا يبغيه قومه إلا شرًّا، على أنه دائب يطلُب.. ثم لا يجِد، ويعرض.. ثم لا يُقبل منه! ويُخفِق.. ثم لا يعتريه اليأس!.. ويجهد.. ثم لا يتخونه الملل! ويستمر ماضيًا لا يتحرَّف، ومعتزمًا لا يتحوَّل.

أليست هذه هي أسمى معاني التربية الإنسانية.. أظهرها الله كلها في نبيه، فعمل بها، وثبُت عليها، وكانت ثلاثة عشرة سنة في هذا المعنى كعمر طفلٍ وُلد ونشأ وأحكم تهذيبه بالحوادث، حتى تسلمته الرجولة.

الكاملة.. بموانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها..!

أفليس هذا فصلاً فلسفيًّا دقيقًا يُعلِّم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم: غناه في قلبه، وقوته في إيمانه، وموضعه في الحياة موضوع النافع قبل المنتفع، والمُصْلِح قبل المقلد.. وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس أكثر ما في الأرض والناس من شهوات ومطامع!

ثم.. أليست تلك العوامل الأخلاقية هي هي التي ألقيت في منبع التاريخ الإسلامي ليَعُبَّ منها تياره، فتدفعه في مجراها بين الأمم، وتجعل من أخص الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا الثبات على الخطوة المتقدمة.. وإن لم تتقدم، وعلى الحق وإن لم يتحقق، والتبرؤ من الأثرة.. وإن شحَّت عليها النفس، واحتقار الضعف وإن حكم وتسلط، ومقاومة الباطل وإن ساد وتغلب، وحمل الناس على محض الخيرة وإن ردوا

بالشر، والعمل للعمل.. وإن لم يأت بشيء، والواجب للواجب.. وإن لم يكن فيه كبير فائدة، وبقاء الرجل رجلاً.. وإن حطَّمه كل ما حوله؟!

قالوا: إن عمه – صلى الله عليه وسلم– أبا طالب. بعث إليه حين كلمته قريش، فقال له: يا ابن أخي.. إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا.. فأَبْعِد عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله – ﷺ – أنه قد بدأ لعمله فيه بداء، وأنه خاذله ومُسلِمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.. فقال: يا عمَّاه.. لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري.. على أن أترك هذا الأمر؛ ما تركته.. حتى يُظهِره الله أو أهلك فيه ما تركته ثم استعبر – ﷺ – فبكى!

يا دموع النبوة! لقد أثبت أن النفس العظيمة لن تتعزى عن شيء منها بشيء من غيرها.. كائنًا ما كان.. لا من ذهب الأرض وفضتها، ولا من ذهب السماء وفضتها، إذا وُضعت الشمس في يد، والقمر في الأخرى!

وكل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليل ذلك الزمن على أنه زمن نبي، لا زمن ملك أو سياسي أو زعيم.. ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعي من جهة قوته، بل يقين الإنسان الإلهي من جهة قلبه. ودليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عدوى النفس للنفس.. فها هو ذا لا يبلغ أهله في ثلاث عشرة سنة أكثر مما تبلغ أسرة تتوالد في هذه الحقبة. ودليل الإنسانية على أنه وحي الله بإيجاد الإخاء العالمي والوحدة الإنسانية. أفلم يكن خروجه عن موضوعه هو تحققه في العالم؟!

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة.. قبض عنه أطراف الزمن، وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة.. لا تصدر به الأمور مصادرها كي تبث أنها لا تصدر به، ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من قوته وعمله.

وكان – ﷺ – على ذلك – وهو في حدود نفسه، وضيق مكانه – يتسع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه – قبل أن تُشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة – مشرقة في قلبه – صلى الله عليه وسلم–.

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه، لأنه من سير الكون كله.. والسحابة لا يُشعلون بَرْقها بالمصابيح! ومع النبي من مثل ذلك برهان الله على رسالته.. إلى أن نزل قوله – تعالى–: [وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الـدين كلُّـهُ لله].. فحَـلَّ الفصل.. وانطلقت الصاعقة.. وكانت الهجرة!

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ..

وكان طبيعيًّا أن يَطَّرِد التاريخ بعدها، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرت به: أمطري حيث شئت.. فسيأتيني خراجُك!

المحرم والاحتفال بالسنة الهجرية

الشيخ الأمين الحاج محمد أحمد*

ورد في فضل المحرم عامة، وعاشره وتاسعه خاصة، عدد من الأحاديث والآثار، تحث على الإكثار من الصيام في شهر الله المحرم خاصة، ويومي تاسوعاء وعاشوراء، أي التاسع والعاشر، أو العاشر والحادي عشر؛ من ذلك :

قوله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله الذي تدعونه المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن يوم عاشوراء، فقال: "ما رأيت رسول الله ﷺ يوماً يتحرى فضله على الأيام إلا هذا اليوم ــ يعني يوم عاشوراء ــ وهذا الشهر ــ يعني رمضان".

وعن أبي قتادة أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن صيام عاشوراء، فقال: "أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله".

وصح عنه أنه قال: "لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع والعاشر".

هذا كل ما صح في هذا الشهر، أما الاحتفال في أوله بالهجرة، واتخاذ ذلك عيداً وعطلة، فهذا لم يرد فيه حديث صحيح، ولم يُؤثر عمل ذلك عن أحد ممن يقتدى بهم، من الصحابة، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ إذ لو صحَّ في ذلك حديث، أوأثر، أوفعل، لنقل إلينا، كما نقل إلينا الحث على إكثار الصيام فيه، سيما يومي عاشوراء وتاسوعاء، فإن الهمم متوفرة لنقل ذلك وحفظه والعمل به؛ وحيث لم يصلنا في ذلك خبر صحيح، ولا فعل موصول بالقرون الفاضلة، دل ذلك على عدم مشروعية الاحتفال في أول المحرم بالهجرة واتخاذ ذلك عيداً وعطلة عامة، لأن ما لم يكن في ذلك اليوم ديناً فلن يكون اليوم ديناً .

روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تتخذوا شهراً عيداً ولا يوماً عيداً"، يعني غير أعياد المسلمين الثلاثة المعلومة: الجمعة من كل أسبوع، وعيد الفطر وأيام التشريق، وعيد الأضحى .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: (وأصل هذا أنه لا يشرع أن يتخذ المسلمون عيداً إلا ما جاءت به الشريعة باتخاذه عيداً وهو يوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، وهي أعياد العام؛ ويوم الجمعة وهو عيد الأسبوع؛ وما عدا ذلك فاتخاذه عيداً وموسماً بدعة لا أصل له في الشريعة).

أول من سن التأريخ بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة الخليفة الراشد والإمام العادل عمر بن الخطاب، وكان ذلك في السنة السادسة عشرة من الهجرة في خلافته، وقد عمل ذلك بمشورة أصحاب الرسول ﷺ وإجماعهم؛ ولو كان الاحتفال بالهجرة مشروعاً من قبلُ لما غفل عنه عمر، ولو كان سنة لفعله هو، إذ عمل الخلفاء الراشدين سنة؛ فلو كان خيراً لما غفل عنه هؤلاء الأخيار وانتبه إليه الخلوف من الأمة في القرون المتأخرة، ولو كان مشروعاً لما سبق إليه المتأخرون وتركه الأولون، فدلّ ذلك على أن الاحتفال بالهجرة واتخاذ ذلك عيداً وعطلة لا أصل له في الدين، ومن ثم فهو بدعة ومحدث، وقد أعلمنا رسولنا ﷺ أن كل بدعة ضلالة، وأن من أحدث في الدين ما ليس منه فعمله مردود عليه، لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً، بل سيؤاخذ بابتداعه هذا، وبتقليد الناس له، بحكم رسول الله ﷺ :" من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً ".

اعلم أخي المسلم أن هذا العلم دين فانظر ممن تتلقى دينك، ولا تكن إمعة تقول: إن أحسن الناس أحسنتُ وإن أساءوا أسأتُ، ولكن وطِّن نفسك على اتباع الحق، فالخير كل الخير في الاتباع، والشر كل الشر في الابتداع؛ اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد.

ما ينبغي أن يستقبل به المسلمون عامهم الهجري

الشيخ الأمين الحاج محمد أحمد*

الحمد لله " الذي جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكوراً"، وصلّى الله وسلم وبارك على محمد القائل :" كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل".

فإن في تعاقب الليل والنهار، وكرِّ السنين والشهور والأيام، وتقارب الزمان، والابتلاء بالنعم والمصائب العظام، لعبرة لأولي الألباب، وذكرى لأصحاب العقول الكبار، وفي التغافل عن ذلك حسرة وندامة، وشقاوة، وغباوة.

وبعد..

فإني أود أن أذكر نفسي أولاً وإخواني المسلمين بما ينبغي علينا أن نستقبل به العام الهجري الجديد، لأن الذكرى تنفع المؤمنين، وتنبه الغافلين، وتعين الذاكرين، فأقول :

أولاً : ينبغي على المسلمين أفراداً وجماعات، رعاة ورعية، علماء وعامة، نساءاً ورجالاً، أن يحاسبوا أنفسهم بأنفسهم حساباً شديداً صارماً قبل أن يحاسبوا، وعليهم أن يزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم، وليتزينوا ليوم العرض الأكبر، على ما صدر منهم في العام المنصرم والأعوام السابقة، فإن وجد المرء خيراً فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فليعجل بالتوبة والإنابة قبل فوات الأوان واجتماع الحسرتين: حسرة الموت، وحسرة الفوت.

ثانياً : تجديد التوبة الصادقة النصوح من جميع الذنوب والآثام، وعدم التواني في ذلك أو التسويف فيها.

ثالثاً : على المسلمين أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين، شباباً ورجالاً، الانعتاق والتحرر من الولاء لغير الله، فلا يدعوا غير الله عز وجل، ولا يستغيثوا بغير الله، ولا يصرفوا شيئاً من العبادة لغير الله، فإن فعلوا شيئاً من ذلك فقد أشركوا مع الله غيره، وعليهم أن يجددوا إيمانهم.

رابعاً : الانعتاق والتحرر من تقليد الكفار والتشبه بهم، خاصة في نظام الحكم، والتحاكم إلى قوانينهم الوضعية، ومناهج التربية والتعليم، والتحدث برطاناتهم وتعلمها من غير ضرورة، والعيش في ديارهم، والتشبه بهم في المخبر والمظهر، في اللبس والأعياد ونحوها.

خامساً : التحرر والانعتاق من التأريخ بتواريخ الكفار، والعودة إلى العمل بتاريخنا الهجري، فهذا من أضعف الإيمان، فمن لم يقو على مخالفة الكفار ــ ومخالفتهم قربى ــ في هذه الأمور فلن يقوى على مخالفتهم في غيرها من الأمور الكبار .

سادساً : عدم العمل بالحساب في إثبات الأهلة، خاصة المتعلقة بها العبادات الشرعية، كالصيام، والحج، والزكاة، والعدّة، والكفارات، إلا في الصلاة لارتباطها بالتقويم الشمسي.

سابعاً : الاهتمام باللغة العربية ومنع تدريس غيرها من اللغات، سيما في مرحلتي الأساس والمرحلة الثانوية، وإعادة النظر في الوسائل والطرق التي تدرّس بها، وجعلها اللغة الرسمية في دواوين الحكومة، وفي المحافل، ووسائل الإعلام المختلفة، وعدم التحدث بغيرها في المحافل الدولية، ومع الزوار الأعاجم، والعمل على القضاء على اللهجات العامية فهي بلاء على العربية.

ثامناً : رفع راية الجهاد وإعانة المجاهدين بالمال، والعتاد، والدعاء، والعمل لإعداد القوة لإرهاب أعداء الله، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

تاسعاً : العمل على بعث عقيدة الولاء والبراء في الأمة، فقد ضعفت هذه العقيدة، بل انعدمت لدى طائفة كبيرة من المسلمين، حيث أصبحوا يوالون أعداء الملة والدين، ويعادون إخوانهم المسلمين، وما خذلان المسلمين حكاماً ومحكومين لإخوانهم في العراق، وفلسطين، وأفغانستان، وكشمير، والشيشان، والفلبين، وغيرها عنا ببعيد.

عاشراً : بعث روح الأخوة الإيمانية بين المسلمين، فقد كان أول عمل قام به سيد الخلق بعد هجرته إلى المدينة، وبعد بناء مسجده، أن آخى بين المهاجرين الذين تركوا أموالهم وأهليهم، وبين الأنصار الذين آثروهم على أنفسهم وأهليهم، عن طريق

التكافل، خاصة الفقراء منهم، وأن لا ندعهم للمنصرين الذين يحملون المساعدات إليهم بالشمال ويحملون الإنجيل باليمين.

أحد عشر : علينا أن نتذكر بهذه المناسبة حرمة الهجرة لغير ضرورة من ديار الإسلام إلى ديار الكفر التي فتن بها كثير من المسلمين، سيما الأطباء، والمهندسين، والشباب؛ حيث لا تحل الهجرة لديار الكفار ولو كانت بغرض الدعوة، كما وضّح ذلك كثير من أهل العلم القدامى والمحدثين، منهم الشيخ عثمان دانفوديو وغيره، كما لا يحل للمسلمين من أهلها البقاء فيها إلا لعدم وجود البديل.

الثاني عشر : علينا الاشتغال والاهتمام بالعلم الشرعي، فالعلم قائد والعمل تبع له، ومشكلة الإسلام الحقيقية تكمن بين جهل أبنائه وكيد أعدائه، فنشر العلم الشرعي من أجلِّ القربات بعد أداء الفرائض، إذ لا يدانيه شيء من العبادات.

الثالث عشر : العمل على إشاعة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي هي صمام الأمان لهذه الأمة من الانحراف والزيغ؛ فالنصيحة لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم قدر الطاقة واجبة :" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وليس وراء ذلك مثقال حبة من خردل من إيمان "، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

الرابع عشر : ينبغي للمسلمين جميعاً أن يعلموا أن اليأس والقنوط من رحمة الله من الكبائر العظيمة، وعليهم أن يقاوموا ذلك في نفوسهم، وأن يعملوا على اجتثاث ذلك من نفوس غيرهم، خاصة الشباب، فالاستسلام لليأس، والقنوط، والرضا بالواقع من أقوى عوامل الهزيمة، ومن أخطر أسباب الضعف المهينة.

الخامس عشر : اعلم أخي المسلم أن العزة لله، ولرسوله، وللمؤمنين، ولكن المنافقين والمتخاذلين لا يعلمون؛ فلا خير في مؤمن لا يعتدُّ ويعتز بدينه؛ وتذكر خطاب الله عز وجل للفئة المؤمنة عقب انهزامهم في أحد :" ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون "؛ فالمؤمن هو الأعلى بإسلامه، وبتوكله على ربه، وبثقته بأن العاقبة للمتقين، وبأن النصر بيد العزيز الحكيم، لمن أخذ بأسبابه، وعمل بمقتضى شرعه وخطابه.

السادس عشر : علينا أن نوقن يقيناً صادقاً جازماً أن الله قد أعزنا بالإسلام، وأن من طلب العزة في غيره أذله الله، أو كما قال الخليفة الملهم عمر بن الخطاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والسلام علينا وعلى جميع عباد الله الصالحين.

حول مدلولات الهجرة

التحرير

الهجرة في اللغة اسمٌ من هجر يهجُر هَجْرا وهِجرانا بمعنى الفطع والترك؛ قال ابن فارس: "الهاء والجيم والراء أصلان، يدل أحدهما على قطيعة وقطع، والآخر على شد شيء وربطه. فالأول الهَجْر: ضد الوصل، وكذلك الهِجْران، وهاجر القوم من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية، كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة إلى المدينة".

أما الهجرة شرعاً فالمشهور في تعريفها أنها ترك دار الكفر والخروج منها إلى دار الإسلام، غير أن الحافظ ابن حجر عرفها تعريفاً أشمل وأعم فقال : "الهجرة في الشرع ترك ما نهى الله عنه،وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: ((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه)) وهي تشمل الهجرة الباطنة والهجرة الظاهرة، فأما الهجرة الباطنة فهي ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء وما يزيّنه الشيطان، وأما الظاهرة فهي الفرار بالدين من الفتن، والأولى أصل للثانية.

ولما كانت الثانية أعظم أمارات الأولى وأكمل نتائجها، و لما كانت هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة أشرف الهجرات وأشهرها انصرف اللفظ عند الإطلاق إليها.

أما لفظ الهجرتين فهو عند الإطلاق يراد به الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة ، وقد يراد به معنى آخر كما بين الإمام ابن القيم في مقدمة كتابه طريق الهجرتين وباب السعادتين حيث بين مقصده بالهجرتين بقوله:" فله _أي المؤمن _ في كل وقت هجرتان:

هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية، والتوكل والإنابة والتسليم، والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه وصدق اللجإ والافتقار في كل نفس إليه.

وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محاب الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد، وقد قال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجنيد

بن محمد قدس الله روحه: الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله عز وجل يقول: وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا من خلفك، وقال بعض العارفين: كل عمل بلا متابعة فهو عيش النفس."

على ضوء التعريفات السابقة يمكن تقسيم الهجرة إلى نوعين اثنين:

١- الهجرة المعنوية: وهي الهجرة التي قصدها الإمام ابن القيم: الهجرة من المعصية إلى الطاعة ومن البدعة إلى السنة ومن الكفر إلى الإسلام .

الهجرة الحسية: وهي التي تتطلب انتقالاً من مكان إلى أخر ، ومن أمثلتها :

أ- الهجرة إلى النبي ﷺ في المدينة، وهذه أشرف الهجرات وأفضلها على الإطلاق.

ب- الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام وهذه يختلف حكمها باختلاف الظروف والأوضاع.

ج- هجرة أهل الذنوب والمعاصي وهجرة أهل الأهواء والبدع بمفارقتهم ومقاطعتهم ومباعدتهم زجراً لهم أو حذراً منهم.

د- الهجرة إلى الشام في آخر الزمان عند ظهور الفتن فعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها، تلفظهم أرضوهم، تقذرهم نفس الله، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير)) .

وقد ندب الله المؤمنين للهجرة في أيات كثيرة يقول تعالى: "{إِنَّ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[البقرة:٢١٨].وقوله: : {وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَة وَلأَجْرُ ٱلآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [النحل:٤١]. وقوله : {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النحل:١١٠]. وقوله {وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى

ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} [النساء:١٠٠]، وغير ذلك من الآيات، كما وردت أحاديث عديدة تنوه بفضل الهجرة منها قوله صلى الله عليه وسلم: ((أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟! وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟! وأن الحج يهدم ما كان قبله؟!)) ، وقول الرسول ﷺ لأبي فاطمة الضمري: ((عليك بالهجرة فإنه لا مثل لها))

نسأل الله أن يجعلنا من المهاجرين إليه وإلى رسوله ..أمين.

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

أي معلم كان ..وأي إنسان ؟؟ إن الذين بهرتهم عظمته لمعذورين ..ابن عبد الله محمد ..رسول الله إلى الناس في قيظ الحياة ..أي صدق وأي طهر وأي نقاء أي تواضع أي وفاء أي احترام للحياة وللأحياء ؟ لقد آتاه الله من أنعمه بالقدر الذي يجعله أهلاً لحمل رايته والتحدث باسمه بل ويجعله أهلا لأن يكون خاتم رسله ..ومن ثم كان فضل الله عليه عظيماً ..إنسان ينذر حياته لدعوة ..هاهو ذا محمد قبل رسالته وها هو ذا بعد رسالته ها هو ذا والمهد يستقبله ثم ها هو ذا وفراش الموت يدثره هل ترى العين في طول حياته وعرضها من تفاوت..؟أبداً ..والآن لنقف قليلاً على مقربة من السنين الأولى لرسالته ؟ فتلك سنوات قلما نجد لها في تاريخ الثبات والصدق والعظمة نظيراً!! لقد رآه الناس والأذى ينوشه من كل جانب ، ومن أراد أن يتصور مبلغ الإظطهاد ومدى الحرب التي شنتها قريش على الرسول الأعزل ؟ فليقرأ كتب السير وسيجد أن الرسول ﷺ لبث شامخاً ناهضاً متفانياً أمام المؤامرة الدنيئة وأمام ساعة الصفر التي انتظرتها قريش والمحاولة التي باءت بالفشل مع الثقة بنجاحها؟

والآن ونحن ذاهبون سوياً نخوض أحداث قصة ووقائع مغامرة الرسول ﷺ نَكُنْ في لقاء مع أحد أصحابه الكرام وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث يبهرنا من إيمانه وتضحياته وإيثاره فشيخاً نراه تتساقط دموعه على وجه الرسول عليه السلام ولم يتحرك !!!ومن عظمة الغرض الذي أقامه لحياته ما لا نكاد نعرف له نظيرا فإن كل أسباب هذا الإعجاز ستكون واضحة هذه الأسباب التي لم تكن شيئاً سوى النور الذي اتبعوه ..سوى محمد رسول الله الذي جمع الله له من رؤية الحق ورفعة النفس ما شرفت به الحياة وأضاءت به مقادير الإنسان !! فهيا أحبتنا نعرض قصة هجرة الرسول ﷺ .. لما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي ربه تبارك وتعالى ،فأخبره بمؤامرة قريش ، وأن الله قد أذن له في الخروج وحدد له وقت الهجرة قائلاً: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه

.وذهب النبي ﷺ في الهاجرة إلى أبي بكر رضي الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة ، قالت عائشة رضي الله عنها :بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متقنعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر .

قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر :أخرج من عندك . فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ،بأبي أنت يا رسول الله . قال :فإني قد أذن لي في الخروج ،فقال أبو بكر : الصحبة بأبي أنت يا رسول الله ؟قال رسول الله ﷺ :نعم.(صحيح البخاري)

وبعد إبرام خطة الهجرة رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، ينتظر مجيء الليل .

تطويق منزل الرسول صلى الله عليه و سلم:

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرمها برلمان مكة (دار الندوة)صباحاً، واختير لذلك أحد عشر رئيساً من هؤلاء الأكابر ، وهم :أبو جهل بن هشام –الحكم بن أبي العاص–عقبة بن أبي معيط – النضر بن الحارث –أمية بن خلف – زمعة بن الأسود –طعيمة بن عدي –أبو لهب – أبي بن خلف –نبيه بن الحجاج–أخوه منبه بن الحجاج (زاد المعاد) قال ابن إسحاق :فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نام ، فيثبون عليه (ابن هشام)وكانوا على ثقة من نجاح هذه المؤامرة الدنية ، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء وقال مخاطباً لأصحابه المطوفين في سخرية واستهزاء : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم ناراً تحرقون فيها .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر ولكن الله غالب على أمره بيده ملكوت السماوات والأرض يفعل ما يشاء وهو يجير ولا يجار عليه ،فقد فعل ما خاطب به الرسول ﷺ فيما بعد (وإذ يمكر بك

الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)(٨:٣٠).

الرسول ﷺ يغادر بيته :

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا .ففي هذه الساعة الحرجة قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب : نم على فراشي ، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شئ تكرهه منهم وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام

. ثم خرج رسول الله ﷺ و اخترق صفوفهم و أخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره،على رؤوسهم ، و قد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه وهو يتلو (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) (٣٦:٩)فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ومضى إلى بيت أبي بكر فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً حتى لحقا بغار ثور في اتجاه اليمن .وبقي المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم ورآهم ببابه فقال :ما تنتظرون ؟ قالوا محمداً.قال :خبتم وخسرتم قد والله مر بكم ، وذر على رؤوسكم التراب ، وانطلق لحاجته قالوا والله ما أبصرناه وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم. ولكنهم تطلعوا من صير الباب فرأوا علياً فقالوا والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . وقام علي عن الفراش فسقط في أيديهم وسألوه عن الرسول ﷺ فقال : لا علم لي به .

من الدار إلى الغار:

غادر رسول الله ﷺ بيته في ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة الموافق ١٢/١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م .وأتى إلى دار رفيقه –وأمن الناس عليه في صحبته وماله –أبي بكر رضي الله عنه . ثم غادر ا منزل الأخير من باب خلفي ليخرجا من مكة على عجل وقبل أن يطلع الفجر .

ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشاً ستجد في الطلب وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالاً فقد سلك الطريق الذي يضاده تماماً وهو الطريق الواقع جنوب مكة والمتجه نحو اليمن .سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور وهذا جبل شامخ وعر الطريق صعب المرتقى ذا أحجار كثيرة فحفيت قدما رسول الله ﷺ وقيل :بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه كي يخفي أثره فحفيت قدماه وأيا ما كان فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار في قمة الجبل عرف في التاريخ بغار ثور .

إذ هما في الغار :

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : والله لا تدخله حتى أدخله قبلك ،فإن كان فيه شئ أصابني دونك فدخل فكسحه ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه ، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل . فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجره ونام فلدغ أبو بكر في رجله من الحجر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال:مالك يا أبا بكر ؟قال : لدغت فداك أبي وأمي ، فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجده.وكمنا في الغار ثلاث ليال ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد ، وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما . قالت عائشة : وهو غلام شاب ثقف لقن ،فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام .وكان يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من ا لعشا ء فيبيتان في رسل –وهو لبن منحتهما ورضيفهما –حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث (صحيح البخاري). وكان عامر بن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفي عليه.أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة .فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم

ضربوا علياً وسحبوه إلى الكعبة وحبسوه ساعة علهم يظفرون بخبرهما. ولما لم يحصلوا من علي على جدوى جاءوا إلى بيت أبي بكر وقرعوا بابه فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر فقالوا لها: أين أبوك ؟ قالت :لا أدري والله أين أبي ؟فرفع أبو جهل يده فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها .وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين ، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (في جميع الجهات)تحت المراقبة المسلحة الشديدة كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين كائناً من كان .وحينئذ جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب وانتشروا في الجبال والوديان والوهاد والهضاب لكن من دون جدوى وبغير عائدة.وقد وصل المطاردون إلى باب الغار ، ولكن الله غالب على أمره ،روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال :كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم فقلت يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا .قال:اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما وفي لفظ :ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما (صحيح البخاري). وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة .

في الطريق إلى المدينة :

وحين خمدت نار الطلب، و توقفت أعمال دوريات التفتيش ،و هدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى ، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة .

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي ، وكان هادياً خريتاً –ماهراً بالطريق – وكان على دين كفار قريش وأمناه على ذلك ، وسلما إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما فلما كانت ليلة الاثنين –غرة ربيع الأول سنة ١/١٦هـ سبتمبر سنة ٦٢٢م – جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين وحينئذ قال

أبو بكر للنبي ﷺ : بأبي أنت يا رسول الله خذ إحدى راحلتي هاتين . وقرب إليه أفضلهما .فقال رسول الله ﷺ :بالثمن

وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بسفرتهما ونسيت أن تجعل لها عصاماً فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام فشقت نطاقها باثنين فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالأخر فسميت ذات النطاقين (صحيح البخاري) .ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه وارتحل معهما عامر بن فهيرة وأخذ بهم الدليل –عبد الله بن أريقط –عن طريق السواحل .وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن ،ثم اتجه غرباً نحو الساحل حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر وسلك طريقاً لم يكن يسلكه أحد إلا نادراً.وقد ذكر ابن إسحاق المواضع التي مر بها رسول الله ﷺ في هذا الطريق قال:لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ، ثم سلك بهما ثنية المرة ثم سلك بهما لقفا ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح ثم سلك بهما مرجح محاج ، ثم تبطن بهما مرجح ذي الغضوين ،ثم بطن ذي كشر، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم ، من بطن أعداء مدلجة تعهن ، ثم على العبابيد ، ثم أجاز بهما الفاجة ، ثم هبط بهما العرج ثم سلك بهما ثنية العائر –عن يمين ركوبة– حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما على قباء . وهاك بعض ما وقع في الطريق :

١–روى البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق لا يمر فيه أحد فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس فنزلنا عنده وسويت للنبي ﷺ مكاناً بيدي ينام عليه ، وبسطت عليه فروة وقلت نم يا رسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام وخرجت أنفض ما حوله ، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذي أردنا فقلت له :

لمن أنت يا غلام ؟فقال : لرجل من أهل المدينة أو مكة قلت :أفي غنمك لبن ؟قال: نعم قلت : أفتحلب ؟قال: نعم فأخذ شاة فقلت : انفض الضرع من التراب والشعر والقذى .فحلب في كعب كثبة من لبن ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ يرتوي منها ، يشرب ويتوضأ ، فأتيت النبي ﷺ فكرهت أن أوقظه فوافقته حين أستيقظ ، فصببت من الماء على لبن حتى برد أسفله فقلت :اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت ثم قال: ألم يأن الرحيل ؟قلت :بلى قال: فارتحلنا .٢- وفي الطريق لقي النبي ﷺ أبا بريدة ، وكان رئيس قومه ، خرج في طلب النبي عليه السلام وأبي بكر ؛ رجاء أن يفوز بالمكافأة الكبيرة التي كان قد أعلن عنها قريش، ولما واجه رسول الله ﷺ وكلمه أسلم مكانه مع سبعين رجلاً من قومه ، ثم نزع عمامته ، وعقدها برمحه ، فاتخذها راية تعلن بأن ملك الأمن والسلام قد جاء ليملأ الدنيا عدلاً وقسطاً.٣-وفي الطريق لقي الرسول ﷺ الزبير ، وهو في ركب المسلمين ، كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء .

النزول بقباء:

وفي يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة -وهي السنة الأولى من الهجرة- الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م نزل رسول الله ﷺ بقباء.قال عروة بن الزبير : سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته يا معاشر العرب ، هذا جدكم الذي تنظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح . قال ابن القيم : كبر المسلمون فرحاً بقدومه وخرجوا للقائه فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، فأحدقوا به مطيفين حوله والسكينة تغشاه والوحي نزل عليه (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال وكان يوماً مشهوداً لم تشهد المدينة مثله في تاريخها .

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام . وأسس مسجد قباء وصلى فيه ، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، فلما كان اليوم الخامس –يوم الجمعة– ركب بأمر الله له ، وأبو بكر ردفه ، وأرسل إلى بني النجار –أخواله – فجاءوا متقلدين سيوفهم فسار نحو المدينة ، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي ، وكانوا مائة رجل .(صحيح البخاري –زاد المعاد – ابن هشام –رحمة للعالمين)

الدخول في المدينة :

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ ، ويعبر عنها بالمدينة مختصراً وكان يوماً تاريخياً أغر ، فقد كانت البيوت والسكك ترتج بأصوات التحميد والتقديس ، و كانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الأبيات فرحاً وسروراً :

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وقال الرسول ﷺ :اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حباً ، وصححها ، وبارك في صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة.

ماذا تعلمنا هجرة الرسول؟

خطبة الجمعة ٤ محرم ١٤٢٧هـ الموافق ٣ فبراير ٢٠٠٦

تاريخ: ٢٠٠٦-٠٣-١٣

حمداً لله ، وشكراً لله ، وصلاةً وسلاماً عليك يا رسول الله .

الحمد لله والحمد دائماً لله ، والشكر دائماً لله ، والصلاة والسلام دائماً على رسول الله

عباد الله : إنّا في هذه الأيام ونحن نتذكر دروس الهجرة ، ونتأمل ونتدبر في تاريخ البعثة المحمدية ، ونتدبر قانون الله على هذه الأرض ، وقد جعل انتشار دين الحق وانتشار كل رسالات السماء ، من خلال جهاد ، ومن خلال فكرٍ وعملٍ وصراعٍ ، يدور بين معسكر الحق ومعسكر الباطل ، بين الذين يُرشدون إلى طريق الحياة وبين الذين يوجهون إلى طريق الموت . وهذا هو حال الدنيا منذ القدم

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ.." [المائدة ٢٧]

هذا هو قانون الأرض ، دائماً كان هناك من يدعو إلى اتجاهٍ ، ومن كان يدعو إلى اتجاه مضاد ، واليوم كذلك ، وغداً سيظل الأمر كذلك ، إنها الأرض بقانونها وبحكمة الله في خلقها .

"..إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً.." [البقرة ٣٠]

فكان الإنسان بوجوده ، هو في معنى خلافة الله على هذه الأرض ، وكان الإنسان بوجوده ، إما في طريق الحق ، وإما في طريق الباطل

" وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا " [الشمس ٧-١٠]

فليس الهدف أن يكون الناس جميعاً في اتجاه واحد ، وإنما الهدف أن يظل هذا الاختلاف ، وأن يظل هذا الحوار بجميع صوره وأشكاله ، قائماً على هذه الأرض . وكل الرسل حين ظهروا على هذه الأرض ، حوربوا واضطهدوا ، وكان انتشار

دعوتهم من خلال الحوار ، ومن خلال الجهاد ، ومن خلال الاختلاف ، وما يستتبعه من صراعات بصور مختلفة .. إرادة الله في هذا الاختلاف ، إرادة الله في هذا التنوع ، إرادة الله أن يكون هناك الشيطان ، وأن يكون هناك الإنسان الذي هو خليفة الله على هذه الأرض: "..اهْبِطَا مِنْهَا.." [طه ١٢٣]

هكذا خاطب الله آدم وإبليس ، فكانت حكمته أن يتواجد آدم وإبليس على هذه الأرض الذي يسلك طريق الحق ، يتخذ الأسباب وقوانين هذه الأرض حتى يستطيع أن ينشر دعوته ، لا يعتمد على خرق للعادة ، ولا يعتمد على أن هناك غيباً سوف ينصره بدون جهدٍ ، وبدون جهادٍ ، وبدون دعوةٍ وحوارٍ وفكرٍ ، وقد يصل الأمر في بعض الأحيان إلى صراع وحرب على هذه الأرض بقوانينها وبأساليبها . كانت الهجرة إذاً هي في ظل هذا القانون الأرضي . حين اشتد أذى الكفار في مكة ، وحين أصبح رسول الله والذين معه في خطرٍ من وجودهم في هذه البقعة ، والله حافظٌ لهم ، وقد يقول قائل ألم يكن يستطيع الله أن يحفظهم في مكة ، وأن يقويهم في مكة ، وأن يجعلهم ينتصروا وهم في مكة ؟

كما قلنا ليست القضية هنا أن نقول أن الله قادرٌ أو غير قادر –حاشا لله– وإنما هو قانون الله ، قدرة الله في قانونه ، وفي آلياته ، وفي أساليبه ، وفي أسبابه ، وفي أن يكون هناك درس للناس جميعاً ، أن يتخذوا الأسباب ، وأن يتبعوا الطريق القويم ، وأن يعلموا دائماً أن هناك فكراً مضاداً ، واتجاهاً مضاداً لهم ولأفكارهم .. فكانت الهجرة هي تعبيرٌ عن اتخاذ هذه الأسباب ، واللجوء إلى مكان حصين آمن ، حتى يعد المسلمون أنفسهم ، ويُجَمِّعوا قوتهم ، ويستطيعوا أن يقفوا أمام هذا الظلام ..

حين ننظر في أحداث الهجرة ، نجد أن هناك أحداثاً خرجت عن المألوف من ظواهر هذه الأرض ، وقد يقول قائل أليس في هذا تناقض لما نقوله من أن القانون سارٍ على الجميع؟ نقول أن ما حدث هو في إطار القانون ، وأن الإنسان يوم يبذل كل جهده وكل قدراته وكل إمكاناته ، فإنه يكون بذلك أهلاً لقوةٍ أكبر من هذه الأرض تساعده في حركته ، لا يكون ذلك وهو يهمل أمراً ، وهو يفرط في سببٍ ، وإنما تكون هذه

الرعاية الغيبية يوم يكون قد بذل الجهد واتخذ السبب واجتهد في أمـــره ، فـــي هـــذه اللحظة تكون هناك رعاية غيبية للإنسان .. لقد هاجر الرسول ولم يصر على بقائـــه في هذا المكان ، واتخذ جميع التدابير بقدر استطاعته وإمكاناته ، هنا تتدخل إرادة الله الغيبية ، فتحدث بعض الظواهر التي تساعده في حركته وفي هجرته ، فيخرج أمـــام المرابطين أمام بيته دون أن يروه ، ويدخل في غارٍ وينسج العنكبوت نسيجه أمامه فلا يدخله من يتابعوه .

هكذا نجد بعض الظواهر الغيبية التي ساعدت ، ولكن في إطارٍ – كما قلنـــا – مـــن المساعدة لمن اجتهد ، ولمن اتخذ السبب ، واتجه في الطريق القويم . هكذا نجد فـــي أحداثٍ كثيرة ، نجد في بدر وكان المسلمون قلة "..كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيـــرَةً بِإِذْنِ اللّهِ.." [البقرة ٢٤٩]

نجد التدخل الغيبي والمساعدة الروحية ، وفي أُحد يوم تخلّى المسلمون عما أمروا به ، لم يتدخل الغيب ليحميهم أو ليساعدهم ، لأنهم لم يساعدوا أنفسهم ولم يلتزموا بمـــا أمروا به .. هذا هو القانون ، على الإنسان أن يبذل كل طاقاته وكـــل إمكاناتـــه ، لا بالكلام الأجوف ، وإنما بالعمل الصالح ، وبأن يكون قدوةً صالحة ، وأن يكون فكـــراً منيراً .

يغضب المسلمون اليوم لما يجدوه في الغرب من إهانات لنبيهم الكريم – في نظرهم – والإهانات هي لهم هم ، وقد كانوا أسوأ مثلاً ، لم يفهموا ولم يدركوا ما جاءهم بـــه رسولهم ورسول الله لهم ، وظنوا أنهم بحرفيتهم الشديدة يؤمنون ، ولم يدركوا أنهـــم بهذه الحرفية إنما هم فرطوا في أمر دينهم الذي أمـــرهم أن يُعملـــوا عقـــولهم ، وأن يتدبروا أمور حياتهم ، وأن يتبعوا ما هو أحسن و أفضل وأقـــوم ، وأن يتعلمـــوا أن الهدف هو الأحسن والأقوم والأفضل ، وأن الكلمات هي تعبيرٌ عما هو أحسن ، فـــي لحظة ما ، في وقت ما ، في ظرف ما ، وأن العبرة بالمقصد ، وأن على المسلم الحق أن يتأمل في آيات الله وفي أحاديث رسول الله ، بتعمقٍ وتفكـــرٍ وتـــدبر ، وأن يتبـــع المعنى الأساسي الذي يتفق مع أمورٍ أخرى .

فالآيات تفسر بعضها بعضا ، والأحاديث تفسر بعضها بعضا ، ولا يجب أن نختزل قرارنا وعقيدتنا ، بحديثٍ من كلماتٍ محدودة ، قيل في إطارٍ وفي مضمونٍ معين ، وهناك حديث آخر يفسره ويوضحه . لا نأخذ مجرد كلمات مبتورة ، ونقول أنها حديث ، يُبنى عليه فكر ، ويُبنى عليه مسلك ومنهج ، إنما علينا أن ننظر إلى كل الأحاديث وإلى كل الآيات ، كبنيان واحد متكامل يوضح بعضه بعضا ، هناك العام وهناك الخاص ، هناك المطلق وهناك المقيد ، والهدف في النهاية أن تكون أمة صالحة نافعة ، تستطيع أن تقدم شيئاً للبشرية ، وأن تكون مثلاً صالحاً للإنسانية ، في فكرها وعلمها ، في عملها وإتقانها ، في إخلاصها وصدقها ، في تقدمها وازدهارها ، في احترامها للإنسان ولكل كائن من كان على هذه الأرض ، في عقولٍ متفتحة متقبلة متنورة ، وليس في عقولٍ منغلقة متجمدة ، في أمةٍ تعرف هدفها وتعرف مقصودها ، تعرف أن عليها أن تعبد الله حقاً ، بإخلاصها في علمها وفي عملها وفي إخلاصها ، ليست مجرد كلمات يلوكها اللسان ، وليست مجرد حركات تقوم فيها الأجساد ، وإنما في ممارسات ومعاملات ترفع من قيمة الإنسان ، وتجعله أكثر علماً ، وأكثر عملاً ، وأكثر نفعاً ، وأكثر صلاحاً وإصلاحاً ، فأين هو الإسلام في مجتمعاتنا وفي أفكارنا وفي معتقداتنا؟ . الكل يظن أن هناك من يتربص بالمسلمين ، والمسلمون لا يستحقون أن يتربص بهم أحد ، إنهم يضرون أنفسهم أكثر من أي إنسان آخر ، بجهلهم ، وبقلة فكرهم ، وبتجمدهم ، إلا من رحم الله .

عباد الله : نسأل الله أن يرفع هذه الغمة ، وأن يجعل منا أداة خيرٍ وسلامٍ ورحمة ، لنا ولمجتمعنا ولأمتنا.

فحمداً لله ، وشكراً لله ، وصلاةً وسلاماً عليك يا رسول الله ..

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ..

عباد الله : ما أردنا أن نقوله اليوم : أن الإنسان عليه أن يتخذ أسباب وقوانين هذه الأرض ، ليعبر عن فكره وعن معتقده ، وأن كل إنسانٍ عليه أن يدفع فيما يرى أنه

الخير وفيما يرى أنه الحق ، وأن ليس الهدف أن يصير الناس جميعاً في فكر واحد ، أو أن يكون الجميع في إيمان بشكل واحد ، وبصورة واحدة ، والاختلاف سيظل قائماً " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً.." [هود ١١٨]

إنما " ..وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم.. " [الحجرات ١٣]

فالاختلاف سيظل قائماً على هذه الأرض ، وسيستمر الصراع بين جميع الأفكار والمعتقدات ، وكل إنسانٍ يريد أن يؤدي رسالته ، عليه أن يتخذ الأسباب التي تمكنه من أن يقول ما يعتقده ، وما يعتقده ليس حقاً مطلقاً ، إنما هو حقٌ نسبي يراه ، ودوره أن يحاول أن يوضحه ، بغض النظر عن أنه أفضل أو أقل ، أصوب أو أكثر خطأً .

فإن على الإنسان أن يحاول فيما يعتقد ، وهذا هو الذي يجعله في معنى الحياة ، وهذا هو الذي يجعله يعمل ويبحث ، ويقدم ما يراه بصور يعتقد أنها أفضل ، لذلك كان الحديث:

"من اجتهد فأخطأ فله أجر ، ومن اجتهد فأصاب فله أجران "

لأن هنا العبرة في هذا الحديث بمحاولة الإنسان أن يجتهد ، هذا هو المهم ، المهم أن يحاول أن يسلك طريق الحق ، من خلال أن يتعلم قانون هذه الأرض . الإنسان الذي يبذل جهداً ، ويحاول بكل الطرق سلوك ما هو حق ، يساعده الغيب إذا احتاج إلى ذلك لاستمرار طريقه ودعوته ، على الإنسان ألاَّ يفكر في ذلك مسبقاً ، إنما الدعم الإلهي الغيبي سوف يجيء في وقته .. على الإنسان أن يعمل بقانون هذه الأرض ، وأن يجتهد بقدر ما يستطيع . هذا ما نتعلمه من أحداث تاريخنا ، وأحداث حاضرنا أيضاً ، وما سيكون عليه الحال في مستقبلنا ، فقوانين هذه الأرض سارية عليها منذ القدم ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها سيظل قانونه سارياً عليها .

اللهم وهذا حالنا ، وهذا فهمنا ، وهذا قيامنا ، نتجه إليك ، ونتوكل عليك ، ونوكل ظهورنا إليك ، ونسلم وجوهنا إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك .

اللهم ونحن نسألك الخير كل الخير ، والنور كل النور ، والحق كل الحق .

اللهم فاكشف الغمة عنا ، وعن بلدنا ، وعن أرضنا .

اللهم ادفع عنا شرور أنفسنا ، وشرور الأشرار من حولنا .

اللهم ألف بين قلوبنا اللهم احيي قلوبنا

اللهم ألف بين أرواحنا اللهم طهر أرواحنا

اللهم زكي نفوسنا اللهم اثلج صدورنا

اللهم كن لنا في الصغير والكبير من شأننا .

اللهم كن لنا فيما نعلم ، وفيما لا نعلم ، وفيما أنت به أعلم .

اللهم لا تجعل لنا في هذه الساعة ذنباً إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرجته ، ولا حاجة لنا فيها رضاك إلا قضيتها.

اللهم ارحمنا ، واغفر لنا ، واعف عنا .

" رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ " [آل عمران ٨]

تأملات في معاني الهجرة

مسعود صبري*- ٢٠٠٤/٠٢/٢٣

الحديث عن الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة المنورة ليس بالذي يُكتفى فيه بمقالة سريعة، وما أحسب أن واحدا من المفكرين -مهما أوتي من الحكمة وفصل الخطاب- قادر على أن يحيط بأحداث السيرة حكما تستفاد، وعبرا تؤخذ؛ فسيرته -صلى الله عليه وسلم- لا تَخْلَق من كثرة الرد؛ فهي كجزء من السنة النبوية، قسيم القرآن في وحيه، وهذا ما عبر عنه النبي ﷺ "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه". أو ما عبر عنه الشافعي رحمه الله: السنة وحي.

الهجرة سنة الأنبياء

ولا شك أن الهجرة هي إحدى وسائل الوقاية من اضطهاد الكفر للإيمان في بداية دعوته، فلم تكن الهجرة النبوية خاصة بسيد الخلق محمد -صلى الله عليه وسلم؛ فقد هاجر قبله سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين وقف قومه ضده وعادوه، بل كان أقرب الناس إليه من يعاديه، وهو أبوه، أو عمه كما يذكر بعض المفسرين. وهذا ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد عاداه أقرب الناس إليه عمه أبو لهب، يدور معه في الأسواق، فيبشر الرسول بدعوته، ويقول للناس: "قولوا: لا إله إلا الله"، فيقول أبو لهب معقبا على كلامه: "لا تصدقوه إنه كذاب"، فيسأل من لا يعرف: من هذا؟ فيقول أهل مكة: هذا محمد يدعو إلى دين جديد، وهذا عمه أبو لهب يكذبه.

إبراهيم قد هاجر

هذا الموقف كان شبيها بما حدث لإبراهيم عليه السلام من أبيه -أو عمه-، وقد حكى القرآن الكريم ذلك حين قال: {وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيًّا * إِذْ قَال لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ العِلمِ مَا لمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ للرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ

للشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَال أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لئِن لمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَال سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا}.

الهجرة إلى الله وليست إلى مكان

بل صرح القرآن الكريم بهجرة إبراهيم حين حكى عنه قوله: {وَقال إني مُهَاجِرٌ إلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}.

ويعطينا إبراهيم عليه السلام في هذا معنى غاية في الأهمية؛ أن الهجرة لم تكن إلى مكان؛ فليس المكان مقصودا في ذاته، وإنما الهجرة تكون إلى الله تعالى؛ فتكون الهجرة إلى المدينة لنبينا هي تعريف بالمكان، ولكنها كانت هجرة الرسول إلى ربه في المدينة المنورة.

وقد هاجر مع إبراهيم عليه السلام ابن أخيه نبي الله لوط، وبعض المفسرين يرى أن قوله تعالى: {وَقال إني مُهَاجِرٌ إلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} هو من قول لوط، وليس من قول إبراهيم، ويستندون في ذلك إلى ما قبلها {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}، وإن كان الكل قد هاجر، والهجرة تحققت لإبراهيم عليه السلام، كما تحققت للوط عليه السلام.

وموسى قد هاجر

وقد هاجر سيدنا موسى –عليه السلام– من بين أهله إلى مدين، بعد اضطهاد آل فرعون له، وخشية قتله، وهذا ما حدث في الهجرة أيضا حين تآمر المشركون على الرسول صلى الله عليه وسلم، وتناقشوا في دار الندوة، واتفقوا على قتله، وفي هذا يحكي القرآن الكريم: {وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ}.

والهجرة خشية الاضطهاد مع موسى عليه السلام، حكاها القرآن حين قال: {وجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

وإن كان موسى عليه السلام قد خرج مهاجرا خائفا، فإن محمدا ﷺ هاجر دون خوف، وإن أخذ الاحتياط بعد علمه بمحاولة اغتياله وقتله، بل إنه لم يهاجر حتى هاجر جُل أصحابه، ثم رتب هجرته، وخطط لها حسب ما ذكرت كتب السيرة.

الهجرة ومعانيها المتجددة

وهذه الهجرة التي يفر بها المسلم بدينه خوفا عليه، والتي من أجلها يترك ماله ووطنه وتجارته معنى متجدد على مر العصور والدهور، ويمكن الاستئناس في ذلك بقوله عز وجل: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ}.

ولعل هذا المعنى هو الذي أراده النبي ﷺ بقوله: "والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"، ولو في ذلك هجرة المكان.

ومن القديم حكى النبي ﷺ لنا قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا، واستفتى أعبد أهل الأرض، فجهل، وأضله بإفتائه ألا توبة له، فقتله، وأكمل به المائة، ثم استفتى أعلم أهل الأرض، فدله على الهجرة سبيلا للتوبة، والحفاظ على الدين فهاجر، ثم مات في الطريق؛ فكان ما كان من خصام الملائكة حوله، وأخذ ملائكة الرحمة له؛ ليكون من عباد الله المرحومين، بعد أن سلك طريق الهجرة.

وحين تكون الهجرة لله فرارا بالدين، تتصاغر أمامها شهوات النفس كلها، من المال والجاه والأرض وغير ذلك، وهذا ما حدث مع صهيب الرومي -رضي الله عنه-، فقد أراد الهجرة للنبي -صلى الله عليه وسلم- فاعترضه أهل مكة، وقد كان صهيب عبدا، فكاتب سيده، وأصبح حرًّا، ثم أصبح تاجرا، فساومه أهل مكة على غناه وتجارته، فترك لهم دنياه، لينال رضا الله تعالى، ولما علم النبي ﷺ بذلك فرح به قائلا: "ربح البيع أبا يحيى".

بئست الهجرة!

ولكن يلاحظ أن عددًا غير قليل من شبابنا يهاجرون من أوطانهم، ولو كان في هـذا بيع لدينهم فتتلاشى عقولهم وقلوبهم وحياتهم، ويذوبون في المجتمعات التي هـاجروا إليها، ولم يأخذوا منها إلا الانسلاخ عن العقيدة والدين، مع ما قد يكون فيها من فوائد كثيرة، ومصالح عديدة.

وأقصد من هذا أنه يجب ألا تكون الهجرة مقصودة في ذاتها، بل تكون سبيلا لشـيء نافع، ولعل الضابط الذي وضعه الفقهاء في هذا هو الحفاظ على الدين؛ فمن رأى من نفسه القدرة على الحفاظ على دينه، والنيل من متاع الدنيا فلا بأس بهـذا، وإن كـان قادرا على عرض الإسلام بصورة جيدة، فقد جمع الله تعالى له الحسنيين، أو كما قال القائل فيمن يجمع الله تعالى له ثواب الدنيا والآخرة: نصنع كأم موسى؛ ترضع ولدها، وتأخذ أجرها.

وإن كانت الهجرة ترتبط بالانتقال من مكان إلى مكان، فهناك هجرة الحال، وهـي أن ينتقل الإنسان من حال إلى حال، ومن باب أولى أن يكون المقصود بها الانتقال مـن حالة إلى الأحسن، أو ما يعبر عنه في الدعاء: "اللهم غيّر حالنا إلى أحسن حال".

وفي الهجرة تجديد

وهذه الهجرة باقية إلى يوم القيامة، وكلنا في حاجة إليها، وإن كانت الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني ينعق بها الآن كل ناعق، ممن صحت نيته وسريرته، أو كانت سـتارا لمغنم شخصي، سواء أكانت من قِبل أفراد، أو من قبل دول، فإنه يجب تجديد الحالـة الدينية، وهي في طياتها تحمل معنى الهجرة؛ ذلك لأن الإنسان بطبعه متغيـر، يزيـد إيمانه وينقص، يسيء ويحسن، يصيب ويخطئ، وهذه طبيعة البشر "لو لم تذنبوا لأتى الله بأقوام غيركم، يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم"، وليس الحديث دعوة للذنب، فما أكثر ذنوب العباد، ولكن هي دعوة للاستغفار، ولعل هجرة الحال، وتجديـد الحالـة الدينية مطلوب على دوام اليوم، فقد أخبر المعصوم –صلى الله عليه وسلم– عن ربه أنه سبحانه يتنزل كل يوم إلى السماء الدنيا، فينادي: هل من تائب فأتوب عليه؟ هـل من مستغفر فأغفر الله؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من كذا، هل من كذا... حتى يطلع

الفجر.

وكذلك في الحديث: "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها".

هجرات مطلوبة

ولعلنا –ونحن في ذكرى الهجرة– نريد أن ننظر إلى أنفسنا، وأن نسطر مساوئنا وما علق في نفوسنا من شوائب؛ فنسعى إلى تصحيحها، وننشد الأصلح لها، وهذا الملمح أحسبه واحدا من أوجه التجديد الديني الذي يجب الانتباه له.

وإن كنا ندعو إلى هجرة الرذائل في الأخلاق والسلوك، فإننا أيضا في حاجة إلى هجرة الرذائل فيما يخص شئون حياتنا عامة، وأن نأخذ من هجرة الرسول ﷺ ما ينفعنا في مسيرتنا؛ فنهجر العشوائية في تسيير أمورنا، ونهجر الجدال الذي لا يراد به حق، ونهجر تضييع الوقت بغير شيء نافع، ونهجر عدم إتقان العمل، وغير ذلك مما يعرفه كل إنسان عن نفسه، وإن اشترك البعض في مساحات معينة، ولكن يبقى التمايز بين بني البشر سمة أساسية.

—

(*) محرر بالقسم الشرعي بالموقع.

أعظم أنواع الهجرة – هجرة القلوب

صالح بن فوزان الفوزان

الحمد لله ذي الفضل والإحسان، شرع لعباده هجرة القلوب، وهجرة الأبدان، وجعل هاتين الهجرتين باقيتين على مر الزمان، وليكن لنا في سيرة نبيكم خير أسوة، وذلك بترسم خطاه والسير على نهجه والإقتداء به في أقواله وأفعاله وأخلاقه كما أمركم الله بذلك فقال: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً [الأحزاب:٢١].

في أول شهر المحرم يكثر الناس من التحدث عن هجرة الرسول في الخطب والمحاضرات ووسائل الإعلام، ولا يعدو حديثهم في الغالب أن يكون قصصاً تاريخياً يملؤون به الفراغ في أيام معدودات ثم يُترك وينسى دون أن يكون له أثر في النفوس أو قدوة في الأعمال والأخلاق، بل لا يعدو أن يكون ذلك عادة سنوية تتردد على الألسنة دون فقه لمعنى الهجرة وعمل بمدلولها.

إن الهجرة معناها لغةً: مفارقة الإنسان غيره ببدنه أو بلسانه أو بقلبه.

ومعناها شرعاً: مفارقة بلاد الكفر أو مفارقة الأشرار أو مفارقة الأعمال السيئة والخصال المذمومة.

وهي من ملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ [الصافات:٩٩] أي مهاجر من أرض الكفر إلى الإيمان، وقد هاجر عليه الصلاة والسلام ببعض ذريته إلى الشام حيث البلاد المقدسة والمسجد الأقصى، والبعض الآخر إلى بلاد الحجاز حيث البلد الحرام والبيت العتيق، كما جاء في دعائه لربه: رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ [إبراهيم:٣٧].

والهجرة من شريعة محمد حيث أمر الصحابة بالهجرة إلى الحبشة لمّا اشتد عليهم الأذى من الكفار في مكة فخرجوا إلى أرض الحبشة مرتين فراراً بدينهم، وبقى النبي

في مكة يدعو إلى الله ويلاقي من الناس أشد الأذى، وهو يقول: رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً [الإسراء:٨٠]، فأذن الله له بالهجرة إلى المدينة وأذن لأصحابه بالهجرة إليها، فبادروا إلى ذلك فراراً بدينهم وقد تركوا ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، وقد أثنى الله عليهم ومدحهم ووعدهم جزيل الأجر والثواب، وصارت الهجرة قرينة الجهاد في كتاب الله عز وجل، وصار المهاجرون أفضل الصحابة حيث فرّوا بدينهم وتركوا أعزّ ما يملكون من الديار والأموال والأقارب والعشيرة، وباعوا ذلك لله عز وجل وفي سبيله وابتغاء مرضاته.

وصار ذلك شريعة ثابتة إلى أن تقوم الساعة فقد جاء في الحديث: { لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها }، فكل من لم يستطع إظهار دينه في بلد فإنه يجب عليه أن ينتقل منها إلى بلد يستطيع فيه إظهار دينه.

وقد توعد الله من قدر على الهجرة فلم يهاجر، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً [النساء:٩٧-٩٩].

فهذا وعيد شديد لمن ترك الهجرة بدون عذر، وهذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين، وأنه ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ أي يترك الهجرة قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ أي لا نقدر على الخروج من البلد ولا الذهاب في الأرض، وهذا اعتذار منهم غير صحيح لأنهم كانوا يقدرون على الهجرة فتركوها، ولهذا قالت لهم الملائكة توبيخاً لهم: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا .

فمن لم يستطع إظهار دينه في بلد وجب عليه الخروج إلى بلد يستطيع فيها ذلك، فإن بلاد الله واسعة ولا تخلو من بلاد صالحة، قال تعالى: وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً [النساء:١٠٠]أي مكاناً يتحصن فيه من أذى الكفار، وسعة في الرزق، ويعوضه الله بها عما ترك في بلده من المال، كما قال تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [النحل:٤١،٤٢].

ومن أنواع الهجرة هجر المعاصي من الكفر والشرك والنفاق وسائر الأعمال السيئة والخصال الذميمة والأخلاق الوخيمة، قال تعالى لنبيه : وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ [المدثر:٥]، الرجز: الأصنام. وهجرتها: تركها والبراءة منها ومن أهلها.

وقال النبي : { المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه }. أي ترك ما نهى الله عنه من الأعمال والأخلاق والأقوال والمآكل والمشارب المحرمة والنظر المحرم والسماع، كل هذه الأمور يجب هجرها والابتعاد عنها.

ومن أنواع الهجرة هجر العصاة من الكفار والمشركين والمنافقين والفساق وذلك بالإبتعاد عنهم، قال الله تعالى: وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ [المزمل:١٠] أي: اصبر على ما يقوله من كَذَّبك من سفهاء قومك: وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً [المزمل:١٠] أي اتركهم تركاً لا عتاب معه.

ومن أعظم أنواع الهجرة هجرة القلوب إلى الله تعالى بإخلاص العباده له في السر والعلانية، حتى لا يقصد المؤمن بقوله وعمله إلا وجه الله، ولا يحب إلا الله ومن يحبه الله، وكذلك الهجرة إلى رسول الله باتباعه وتقديم طاعته والعمل بما جاء به.

وبالجملة فهذه الهجرة هجرة إلى الكتاب والسنة من الشركيات والبدع والخرافات والمقالات والمذاهب المخالفة للكتاب والسنة.

فتبين من هذا أن الهجرة أنواع هي:

هجر أمكنة الكفر... وهجر الأشخاص الضالين... وهجر الأعمال والأقوال الباطلة.. وهجر المذاهب والأقوال والآراء المخالفة للكتاب والسنة.

فليس المقصود التحدث عن الهجرة بأسلوب قصصي وسرد تاريخي، أو تقام لمناسبتها طقوس واحتفالات ثم تنسى ولا يكون لها أثر في النفوس أو تأثير في السلوك، فإن كثيراً ممن يتحدثون عن الهجرة على رأس السنة لا يفقهون معناها ولا يعلمون بمقتضاها بل يخالفونها في سلوكهم وأعمالهم؛ فهم يتحدثون عن هجرة الرسول وأصحابه وتركهم أوطان الكفر إلى وطن الإيمان، وهم مقيمون في بلاد الكفر أو يسافرون إليه لقضاء الإجازة أو للنزهة أو لقضاء شهر العسل كما يسمونه بعد الزواج!!

يتحدثون عن الهجرة وهم لا يهجرون عبادة القبور والأضرحة، بل يعبدونها من دون الله كما تعبد الأصنام أو أشد. يتحدثون عن الهجرة وهم لا يهجرون المذاهب الباطلة والآراء المضلة بل يجعلونها مكان الشريعة الإسلامية. يتحدثون عن الهجرة وهم لا يهجرون المعاصي والأخلاق الرذيلة. يتحدثون عن الهجرة وهم لا يهجرون عادات الكفار وتقاليدهم بل يتشبهون بهم، فأين هي معاني الهجرة وأنواعها من تصرفات هؤلاء؟

فاتقوا الله عباد الله، واقتبسوا من الهجرة وغيرها من أحداث السيرة النبوية دروساً تنهجونها في حياتكم، ولا يكن تحدثكم عن الهجرة مجرد أقوال على الألسنة أو حبراً على الأوراق.

قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [الأنفال:٧٤].

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

المسجد النبوي

- المقدمة
- وقفة حساب
- وقفة تأمل
- الهجرة والمجتمع الجديد
- الإحتفال بالمناسبات الإسلامية
- الرسالة المحمدية
- يهود المدينة
- الخاتمة

المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خصنا بخير كتاب أنزل وأكرمنا بخير نبي أرسل ، وأتم علينا النعمة بأعظم دين شرع ، وجعلنا بهذا الدين خير أمة أخرجت للناس أمة وسطا لنكون شهداء على الناس ويكون الرسول علينا شهيدا، وأشهد أنا سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلمنا محمداً عبد الله ورسوله، أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده وأحيا الله برسالته قلوباً ميتة وأسمع به آذانا صما وبصر به أعين عمياً وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، اللهم صلي وسلم وبارك على هذا الرسول الكريم وعلى آله وصحابته وأحينا اللهم على سنته وأمتنا على ملته واحشرنا في زمرته مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

أما بعد ،،،

فيا أيها الأخوة المسلمون ، بالأمس استقبلنا عاماً هجرياً جديداً وودعنا عاماً آخر ، وهكذا مسيرة الحياة للإنسان ، نودع ونستقبل ، الإنسان دائماً مودع ومستقبل ، مودع يوماً ومستقبل يوماً ، مودع أسبوعاً ومستقبل أسبوعاً ، مودع شهراً ومستقبل شهراً ، مودع عاماً ومستقبل عاماً ، وهذه كلها محسوبة من عمر الإنسان ، كل عام ينقضي بل كل يوم ينقضي بل كل ساعة تنقضي بل كل لحظة تنقضي هي صفحة من كتاب الإنسان تطوى وورقة من شجرة تذبل ، حتى ينتهي الأجل (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

وقفة حساب

من حق الإنسان أن يقف في رأس العام وقفتين، وقفة يحاسب فيها نفسه الحساب الختامي على عام مضى، ماذا سجل فيه من خير؟ وماذا اكتسب فيه من شر؟ ماذا له وماذا عليه ؟ ماذا ربح وماذا خسر؟ وفي أي شيء ربح وفي أي شيء خسر؟ التاجر الواعي هو الذي يحاسب نفسه آخر كل عام ، يجرد حساب الأرباح والخسائر ليحاول أن يتفادى الخسائر وأن يزداد من الأرباح ، هذا في أرباح الدنيا وخسائرها ، فما بالكم بأرباح الآخرة وخسائرها، من واجب كل مسلم أن يقف هذه الوقفة، ومن واجب الأمة أن تقف هذه الوقفة على رأس كل عام ، ماذا قدمت؟ وماذا أخرت؟ ماذا كسبت فيه وماذا خسرت؟، من حق الأمم الواعية النضيجة البصيرة أن تقف هذه الوقفة لتعرف ماذا صنعت ، من واجب أمتنا أن تقف هذه الوقفة لتحاسب نفسها ماذا صنعت في قضية فلسطين؟، وماذا صنعت في قضية الشيشان؟، وماذا صنعت في قضية كشمير؟، ماذا صنعت في قضية أفغانستان ؟ وفي القضايا المعلقة القديمة، هل أدت الأمة واجبها؟ أم لم تؤد الواجب المطلوب منها ، هذه المحاسبة دليل الحياة والوعي والإيمان، ودليل العقل ، فالكيس من دان نفسه، العاقل الفطن المتصرف التصرف الحسن الكيس من دان نفسه، من حاكمها وحاسبها، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانيّ، (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم..)، الأمر ليس بالأمانيّ، (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين،

بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، ليست الجنة بالعناوين ، ولا بالأسماء ولا بالدعاوى ، (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوء يجزى به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا)، (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) ، هذه وقفة على رأس العام.

وقفة تأمل

ووقفة أخرى للتأمل في هذا الحدث ، الهجرة ، التي ألهم عمر بن الخطاب وألهم المسلمون معه أن يجعلوها بداية لتاريخ هذه الأمة ، لم يجعلوا بداية التاريخ لهذه الأمة ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام ولا بعثته ، ولا وفاته ، ولا الانتصار في غزوة بدر أو فتح مكة ، إنما جعلوا هذا التاريخ يبدأ من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام ، والهجرة لم تكن في محرم ، الهجرة كانت في شهر ربيع الأول ولكن عمر والصحابة قالوا نبدأ العام من أوله ، من أول شهر المحرم ، فاتخذوا هذا الحدث الجليل بداية لتاريخ هذه الأمة ، فهل هو جدير بهذا ؟ نعم ، هو جدير بهذا ، لقد هاجر رسل الله عامة أو عدد كبير من رسل الله هاجروا ، ولكن لم تكن هجرتهم مثل هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ، هاجر إبراهيم (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم) ، (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين) فخرج من بلد إلى بلد إلى أن استقر به المقام في فلسطين وفي المدينة التي دفن فيه وسميت باسمه عليه الصلاة والسلام مدينة الخليل إبراهيم ، وهاجر موسى عليه السلام ، ولكن كانت هجرته قبل البعثة حينما خرج من مصر بعد أن قتل ذلك القبطي خطأ واستغفر الله وقال له من قال (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين) وذهب إلى مدين وتزوج فيها وعاش فيها عشر سنوات مع ذلك الشيخ الكبير بعد أن تزوج ابنته ولم يكن له في هذه المدة السنوات العشر عمل يذكر ، كان شاباً صالحاً زوجاً طيباً صهراً كريماً عاش مع هذا الرجل عشر سنوات ولكن لم يقم فيها بدور .

الهجرة والمجتمع الجديد

محمد عليه الصلاة والسلام لم تكن هجرته كهجرة موسى حينما قال (ففررت منكم لما خفتكم فوهبني الله حكما وجعلني من المرسلين) ، لم تكن هجرة محمد عليه الصلاة والسلام لمجرد الفرار من الفتنة أو الهرب من الإيذاء والتضييق ، لا ، لقد كانت الهجرة سعياً حثيثاً لإقامة مجتمع جديد ، مجتمع إسلامي بمعنى الكلمة ، كانت سعياً لإقامة مجتمع وبناء أمة وإنشاء دولة جديدة تقوم على الربانية والإنسانية والأخلاقية والعالمية ، كان هذا هو هدف محمد عليه الصلاة والسلام من هذه الهجرة ، وفعلاً استطاع أن يقيم هذه الدولة وأن يؤسس هذا المجتمع وينشيء هذه الأمة الجديدة خير أمة أخرجت للناس ، ولكن إذا كان استطاع في المدينة أن يقيم هذا المجتمع وتلك الدولة فإن الفضل يرجع في ذلك إلى مرحلة التأسيس في مكة ، إلى العهد المكي ، ليس الأمر كما قال أحد الكتاب الكويتيين القصير النظر أن محمداً فشل في العهد المكي ، ولم يستطع أن يحقق ما هدف إليه ، كبرت كلمة تخرج من فيه ، ما قال إلا كذبا ، لم يفشل رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بل كان هذا العهد المكي وهذه السنوات الثلاثة عشر استطاع فيها أن يقيم الأساس ، لم يرفع البناء وإنما وضع البناء ، الأساس ممكن أن يكون مترين أو ثلاثة ولكن ممكن أن تقيم عليه عمارة من خمسين طابقاً ، وكما قال الشاعر

خفي الأساس عن العيون تواضعا من بعد ما رفع البناء مشيدا

كانت مرحلة مكة مرحلة التأسيس ، مرحلة دار الأرقم بن أبي الأرقم التي يلقن فيها الرسول عليه الصلاة والسلام مبادئه وقيمه وتعاليمه لخلاصة أصحابه لتكوين الجيل الأول للإسلام الذي سيحمل الرسالة من بعد ويبلغ الدعوة إلى العالم ، هذا هو الجيل المؤسس الذي نشأ في دار الأرقم ، في العهد المكي نزل من القرآن نحو ثمانين سورة يلقنها النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه ويأخذونها عنه ويعيشون فيها وبها ولها ، عاشوا قرآنيين محمديين ، هذا العهد هو الذي قال الله فيه لرسوله (يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنا

سنلقي عليك قولا ثقيلا) يهيئه الله ويعده لهذا العبء الثقيل الذي ينتظره فعليه أن يهيئ نفسه في مدرسة الليل ومدرسة القرآن (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) فتهيأ لهذا القول الثقيل وهذا العبء الكبير بالقرآن وبقيام الليل ، كان العهد المكي هو عهد بناء هذا الجيل وتبليغ الدعوة ، ما وجد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ذلك سبيلا ، بلغها إلى أهله وإلى عشيرته الأقربين ، إلى قريش ومن حول قريش ، بلغها إلى القادمين إلى موسم الحج كل عام ، يعرض نفسه عليهم ، بلغها في الطائف ووصل إلى الطائف في رحلة آسية حزينة معروفة ، بلغها إلى كل من استطاع أن يبلغها إليه ، سمح لأصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة مرتين فراراً بدينهم وظل عليه الصلاة والسلام يعرض هذه الدعوة على قبائل العرب ، لم ييأس أبدا ولم يقنط من رحمة ربه أبدا ولم يلق السلاح أبدا ، حتى هيأ الله له هذه الفئة التي ادخرها الله تعالى لنصرة دينه من أبناء يثرب من الأوس والخزرج ، فحينما عرض عليهم الإسلام انشرح صدورهم وانفتحت قلوبهم ودخلوا في هذا الدين ، كانوا قليلاً ثم كثروا وبايعهم النبي عليه الصلاة والسلام في مكة وفي موسم الحج وفي العقبة ، بايعهم مرتين ، بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية ، بيعة العقبة الثانية هي التي عاهدهم فيها وعاهدوه على أن يهاجر إليهم وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وذراريهم ، هكذا بايعهم النبي ﷺ ، كان هذا كله في العهد المكي ، تأسس العهد المدني في مكة ، ولولا هذا العهد المكي ما كانت الهجرة إلى المدينة ، ولذلك القول بأن محمداً ﷺ فشل في العهد المكي قول إنسان جسور وجريء على الله ورسوله وجهول لم يدرس السيرة النبوية كما ينبغي .

الإحتفال بالمناسبات الإسلامية

هذه الهجرة أيها الأخوة ، من حقنا نحن المسلمون أن نعتز بها ونفخر ، سألني أحد الأخوة على موقع (islamonline.net) على الإنترنت ، (لماذا لا يهتم المسلمون ولا يحتفون بمقدم العام الهجري كما يهتم النصارى ويحتفون بمقدم العام الميلادي؟) وهو سؤال محرج حقيقة ، هناك من المسلمين من يعتبرون أي احتفاء أو أي اهتمام

أو أي حديث بالذكريات الإسلامية ، بالهجرة النبوية ، بالإسراء والمعراج ، بمولد الرسول ﷺ ، بغزوة بدر الكبرى ، بفتح مكة ، بأي حدث من أحداث سيرة محمد ﷺ ، أي حديث عن هذه الموضوعات يعتبرونه بدعة في الدين ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه ، إنما الذي ننكره في هذه الأشياء الاحتفالات التي تخالطها المنكرات ،وتخالطها مخالفات شرعية وأشياء ما أنزل الله بها من سلطان كما يحدث في بعض البلاد في المولد النبوي وفي الموالد التي يقيمونها للأولياء والصالحين ، ولكن إذا انتهزنا هذه الفرصة للتذكير بسيرة رسول الله ﷺ وبشخصية هذا النبي العظيم وبرسالته العامة الخالدة التي جعلها الله رحمة للعالمين فأي بدعة في هذا وأي ضلالة ، إننا حينما نتحدث عن هذه الأحداث نذكر الناس بنعمة عظيمة ، والتذكير بالنعم مشروع ومحمود ومطلوب ، والله تعالى أمرنا بذلك في كتابه (قل يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) ، يذكر بغزوة الخندق أو غزوة الأحزاب حينما غزت قريش وغطفان وأحابيشهما النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين في عقر دارهم وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم وأرادوا إبادة خضراء المسلمين واستئصال شأفتهم وأنقذهم الله من هذه الورطة وأرسل عليهم ريحاً وجنوداً لم يرها الناس من الملائكة ، يذكرهم الله بهذا ، اذكروا لا تنسوا هذه الأشياء ، معناها أنه يجب علينا أن نذكر هذه النعم ولا ننساها ، وفي آية أخرى (قل يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيدهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يذكرهم بما كان يهود بني قينقاع قد عزموا عليه أن يغتالوا رسول الله ﷺ ومكروا مكرهم وكادوا كيدهم وكان مكر الله أقوى منهم وأسرع ، (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) ، ذكر النعمة مطلوب إذن ، نتذكر نعم الله في هذا ونذكر المسلمين بهذه الأحداث وما فيها من عبر وما يستخلص منها من دروس ، أيعاب هذا ؟ أيكون هذا بدعة وضلالة ؟.

ثم من ناحية أخرى أن هذا الحديث عن هذه الأحداث الكبيرة في حياة رسول الله ﷺ مثل حادث الهجرة أو غزوة بدر أو فتح مكة أو غير ذلك إنما تمثل تجسيداً للأسوة المحمدية ، نحن مأمورون أن نأتسي برسول الله ﷺ وأن نتخذه مثلاً بشرياً أعلى لنا ، فقد وضع الله فيه الكمالات التي تفرقت في الرسل واجتمعت في شخصه ، الله تعالى ذكر له عدد من الرسل ثم قال (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فاقتدى بهدي الأنبياء وبهدى الأنبياء جميعاً ، ولذلك قال "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" تمم الله فيه المكارم التي توزعت عند الآخرين ، فمن حقنا أن نتمثل هذه الأسوة ، (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) ، هو أسوة في كل شيء ، أسوة في معاملته للحق تبارك وتعالى ، وفي معاملة الحق له ، أسوة في معاملته للخلق سواء كانوا أنصاراً أم خصوماً ، موالين أم معادين ، وكذلك في معاملة الخلق له ، هو أسوة في ذلك كله وسيرته حافلة وجامعة يستطيع كل إنسان أن يتخذ منها موضعاً للقدوة ، فليست كسيرة بعض النبيين يمكن أن تقتدي به في موضع ولا تقتدي فيه بآخر ، تستطيع أن تقتدي بالمسيح عليه السلام في زهده وبعده عن الدنيا وإعراضه عن زخارف الحياة ، ولكنك لا تستطيع أن تقتدي به زوجاً فلم يتزوج ، ولا أباً ولا جداً ولا تستطيع أن تقتدي به في الحرب والسلم لأنه لم يسالم ولم يحارب ، ولا تستطيع أن تقتدي به في حالة الغنى لأنه لم يملك مالاً ، ولا تستطيع أن تقتدي به في حالة الحكم لأنه لم يحكم . أما محمد ﷺ فتستطيع أن تقتدي به في كل هذه الأمور ، العزب يستطيع أن يقتدي به في حالة العزوبة لأنه لم يتزوج إلا في الخامسة والعشرين ، كيف قضى هذه السنين من البلوغ حوالي عشر سنوات يقتضي به ، المتزوج بزوجة واحدة يستطيع أن يقتضي به لأنه عاش مع زوجة واحدة تكبره بخمسة عشر عاماً معظم عمره ، من الخامسة والعشرين حتى الخمسين ، وصاحب الزوجتين والأكثر يستطيع أن يقتدي به لأنه في أواخر حياته اقتضت ظروف الدعوة أن يتزوج وتزوج الكبيرة والصغيرة والعربية والإسرائيلية والبكر والثيب وصاحبة

الأولاد وغير صاحبة الأولاد .. أنواع ، ليجد كل إنسان في حياته مجالاً للقدوة ، يستطيع الوالد أن يقتدي به في معاملة أولاده البنين والبنات ، في حالة الحياة وفي حالة الممات ، لأن معظم أولاده ودعهم في حياتهم ، مات أولاده بنين وبنات في حياته ما عدا أصغر بناته فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، هذا نبي جعله الله أسوة ، فلماذا نحرم أنفسنا من الحديث عن هذه الأسوة المحمدية ؟ والحديث عن الأسوة في وقتها هو أنسب وأوقع ، المربون الحقيقيون يقولون انتهز الفرصة لتربي التلميذ ، لتربي التابع عندما تأتي الفرصة ، تربط الفرصة والمناسبة بالمقصود التربوي والهدف التربوي ، لا مانع إذن أن نتحدث في هذه المناسبات عن شخصية رسول الله ﷺ وعن سيرة رسول الله ﷺ وعن رسالة رسول الله ﷺ الذي قال عن نفسه " إنما أنا رحمة مهداه " أخذ ذلك من قول الله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لقد كان النبي ﷺ هو خير الناس في كل أحواله ، هو خير المهاجرين وخير الدعاة وخير القواد في الحرب وخير الأئمة في الصلاة وخير القضاة إذا حكم وخير المفتين إذا أفتى وخير الأزواج إذا تزوج وخير الآباء إذا أنجب وخير الأجداد إذا أحفد وخير الناس في كل شيء ، الله تعالى جعله المثل الأعلى ليرى الناس الكمال البشري مجسداً والإسلام الحي ماثلاً أمام الأعين ، الناس ليسوا فلاسفة يعرفون الأمور بالتجريب والوصف النظري ، الناس في حاجة إلى مثل عملي ، إلى مثال مجسد يرونه أمامهم واضحاً للأعين مسموعاً للآذان مؤثراً في القلوب وكان هذا هو محمداً رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

فيا أيها الأخوة المسلمون ، حاولوا أن تدرسوا سيرة رسول الله ﷺ ، تدرسوها من ينابيعها الصافية ، من القرآن الكريم ، ومن الحديث ومن كتب السيرة ومن كتب التاريخ العام ومن غيرها من الكتب حتى تعيشوا مع هذا الرسول الكريم وتتأسوا به وليكون لكم نعم المعلم ونعم الأسوة ، أسأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في ديننا وأن ينير لنا طريقنا وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً ، أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

يهود المدينة

الحمد لله ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إلـــه إلا هـــو إليـــه المصير ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يسبح له ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا وإمامنـــا وأسوتنا وحبيبنا محمد عبدالله ورسوله البشير النذير والسراج المنيـــر صـــلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلـــى يوم الدين.

أما بعد ،،،

فعندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، كان فيها ثلاث قبائل من اليهـــود ، حينمـــا شرد اليهود في الأرض وكانوا كما قال الله تبارك وتعالى (وقطعنـــاهم فـــي الأرض أمما) جزاء ما أفسدوا سلط الله عليهم أعداءهم وأدبهم من أدبهم ، ومن هؤلاء الرومان الذين شتتوهم في أنحاء الأرض ، وكان منهم قبائل ذهبت إلى بلاد العرب واستوطنت ضواحي يثرب ، هذه القبائل هي قبائل بني قينقاع وبني النضـــير وبنـــي قريظـــة ، وجدهم النبي ﷺ حول المدينة فعقد معهم اتفاقاً ، اتفاقية مشهورة ، كتبـــت وحـــددت العلاقات ونظمت الحقوق والواجبات بين أهل هذه المدينة التي تعتبر أساســـاً للدولـــة الجديدة ، المدينة كانت تأسيساً لجماعة جديدة ، لم يقل القرآن (يا أيها الذين آمنوا) إلا في العهد المدني لأن هذا خطاب للجماعة المؤمنة ، قبل ذلك (يا أيها الناس) ، (يا أهل الكتاب) ، يا كذا .. إنما في المدينة (يا أيها الذين آمنوا) لأنه تأسست جماعة جديـــدة على أساس الإيمان بالله وبرسالاته وبكتابه وباليوم الآخر ، أقام الرسول هذه المعاهدة لضبط الأمور وتحديدها ولذلك يعتبر كثير من الدارسين والباحثين في السيرة النبويـــة يعتبرون هذه المعاهدة بمثابة دستور مكتوب ينظم العلاقة بـــين المســـلمين بعضـــهم وبعض والقبائل بعضها وبعض وبينهم وبين اليهود في حالة السلم وفي حالة الحرب ، ومما يذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام وجدهم يصومون يوم عاشوراء ، العاشـــر من المحرم ، فسألهم لماذا تصومون هذا اليوم فقالوا هذا يوم نجى الله فيه موسى وبني

إسرائيل فقال عليه الصلاة والسلام " نحن أولى بموسى منكم" فصامه وأمر بصيامه ، صيام يوم العاشر من المحرم ، ولكنه في أواخر حياته كان يحب أن يتميز عن أهل الكتاب ويقول دائماً خالفوهم حتى تتميز الشخصية المسلمة عن غيرها في عباداتها ومعاملاتها وأخلاقياتها ولا تذوب في غيرها من الأمم ، فلذلك قال في آخر حياته " لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع " أي مع العاشر ، يصوم يومين حتى لا يكون اليوم العاشر الذي يصومه أهل الكتاب ولكنه قدر له عليه الصلاة والسلام أن يلحق بالرفيق الأعلى ويلقى ربه فلم يصم اليوم التاسع ولكنه عزم على هذا فأصبح سنة ، ومن أجل هذا نوصي المسلمين بصيام عاشوراء وتاسوعاء أسوة برسول الله ﷺ ، المهم أن هؤلاء اليهود سرعان ما نقضوا العهد ، سرعان ما نكثوا العهود وتعدوا الحدود وغلبت عليهم طبيعة الغدر التي تعودوا عليها حتى مع رسل الله ومع أنبيائه (فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريق كذبتم وفريق تقتلون) ، (وكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يعلمون) ، (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) سرعان ما نقضت هذه القبائل اليهودية واحدة بعد الأخرى عهدهم مع رسول الله ﷺ ، بدأ بنو قينقاع ثم بنو النضير الذين نزلت فيهم أوائل سورة الحشر ثم بنو قريضة الذين كانوا مع المغيرين على المدينة ضد محمد ﷺ والمسلمين ، كان المفروض أن يكونوا مع الرسول ضد هؤلاء الذين يهاجمون المدينة من الخارج كما تقضي الاتفاقية ، لكنهم نقضوا العهد وقالوا لقريش نحن معكم على محمد ولذلك القرآن يقول (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) من الداخل ومن الخارج ، ولذلك كان عقابهم أليماً من رسول الله ﷺ ، ثم كانت غزوة خيبر ، هذه هي طبيعة اليهود النقض للعهود ، لا يرقبون في مؤمن إناً ولا ذمة ، ولا يرعون لمسلم عهداً ولا حرمة ولا يتوقع منهم أن يفوا بعهد وانظروا ماذا يفعلون الآن ، اتفاق مدريد أو محادثات مدريد ثم اتفاق أوسلو ثم واي ريفر ثم شرم الشيخ ثم .. ثم .. وكلها حبر على ورق في نظر هؤلاء ، لا يريدون أن تقوم للفلسطينيين دولة حرة مستقلة يسودون فيها على أرضهم ، إنما تظل دويلة أو سلطة تحت رحمتهم لا يملكون

أرضها ولا سماءها ولا مياهها ولا أجواءها ولا يملكون ما حولهـــا، الممـــرات فـــي أيديهم، هذا ما تريده الدولة اليهودية الصهيونية الإسرائيلية والعجب منا أننا نصدق أن هؤلاء سيعطوننا شيئاً، لن يعطونا إلا السراب ، (يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب).

الخاتمة

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، اللهم اجعل هذا العام عام خير وبركة على أمة الإسلام واجعله نذير وبـــال وحســـرة على أعداء الإسلام ، اللهم اجعل يوم المسلمين خيراً من أمسهم واجعل غدهم خيـــراً من يومهم وأحسن عاقبتهم في الأمور كلها وأجرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم اجمع كلمة هذه الأمة على الهدى وقلوبها على التقى ونفوسها على المحبة ونياتها على الجهاد في سبيلك وعزائها على عمل الخير وخير العمل ، اللهم أكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا ، اللهم انصرنا على أعداءك أعداء الإسلام ، اللهم انصـــرنا علـــى اليهـــود الغـــادرين وانصرنا على الروس الظالمين المتجبرين وانصرنا على الصربيين الحاقدين وانصرنا على الهندوس المتعصبين وانصرنا على جميع أعداءك أعداء الدين ، اللهم رد عنـــا كيدهم وفلّ حدهم ، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم ، اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، اللهم انصر اخوتنا في الشيشان وفـــي فلسطين وفي لبنان وانصر اخوتنا في كشمير وانصر اخوتنا في كل مكان مـــن أرض الإسلام ، اللهم أيدهم بروح من عندك وأمدهم بملأ من جندك واحرسهم بعينك التي لا تنام ، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصـــرنا علـــى القـــوم الكافرين ، اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً ، سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين.

الهجرة المباركة شمس ساطعة ومنارة للتاريخ

الحمد لله المنفرد بالألوهية والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير البرية.

قال الله تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} (سورة التوبة ٤٠).

إخوة الإسلام، إنّ الماضي صفحات والتاريخ عبر وعظات وفي صفحات الماضي وعبر التاريخ المجيد السراج الذي يكشف للمستبصر الرؤية ويهديه سواء السبيل. وهجرة الرسول المباركة هي واحدة من تلك العبر والعظات. والأمة الإسلامية تمر اليوم بمرحلة من أدق مراحل تاريخها وهي لذلك أحوج ما تكون للاستفادة من دروس الهجرة المباركة وعبرها.

لقد كانت الهجرة إيذانا بأنّ صولة الباطل مهما عظمت وقوته مهما بلغت فمصيرها إلى الزوال ونهايتها إلى الفشل والبوار وإيذانا بأنّ الحق لا بد له من يوم يحطم فيه الأغلال وتعلو فيه رايته وترتفع كلمته.

ولئن كانت الهجرة المباركة حركة نوعية في تاريخ المنطقة ونقطة تحول في حياة الدعوة الإسلامية إلا أنه سبق تلك الهجرة الجسدية هجرة روحية عظيمة تمثلت بقبول المهتدين للدعوة المحمدية ودخولهم في دين الله وثبوتهم فيه على الرغم من الاضطهاد والتنكيل وكافة المحاولات لصرفهم عن دعوة الحق. بعد هذه الهجرة من الضلال إلى الإيمان ومن ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام وبعد هجرة الأرواح التي تسامت عن التعلق بالدنيا وهجرت كل ما ألفت من عادات بغيضة وتقاليد باليه جاءت هجرة الصحابة إلى الحبشة ثم إلى المدينة لتشكل قمة العطاء والاستعداد للتضحية بكل شيء من مال وأهل وأرض في سبيل الله.

وجاءت هجرة الرسول بأمر من ربه عز وجل لتعلن نهاية عهد الاضطهاد والاستبداد وبداية فجر مشرق وعهد مجيد. ومن هناك من يثرب انبثق نور الدعوة قويا وضاء فبدد الظلم وجاز ما اعترضه من عقبات. وانطلقت كلمة الحق تحملها القوافل

والركبان وتبشر بها أصوات الدعاة إلى الصلاة في كل أذان حتى أتم الله على المسلمين النعمة وجاب عنهم كل محنة ودخل الناس في دين الله أفواجا وأذن مؤذن الحق في أباء وعزة: الله أكبر الله أكبر جاء الحق وزهق الباطل.

لم تكن هجرة الرسول ﷺ هربا من المشركين ولا يأسا من واقع الحال ولم تكن هجرته ﷺ حبا في الشهرة والجاه والسلطان فقد ذهب إليه أشراف مكة وساداتها وقالوا له: إن كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت تريد ملكا ملكناك إياه" ولكنّ النبيّ العظيم أسمى وأشرف من أن يكون مقصوده الدنيا والجاه والسلطان. ولم تكن هجرته التماسا للهدوء وطلبا للراحة فهو يعلم يقينا أنها دعوة حق ورسالة هدى لا بد أن يؤديها كما أمره الله وهو لهذا يقول لعمه أبي طالب حين أتاه يطلب منه الكف عن العرض لقومه وما يعبدون "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله سبحانه وتعالى أو أهلك دونه".

لقد كانت الهجرة في سبيل الله لإقامة صروح العدل والحق وبناء دولة الإيمان ونشر التوحيد في كافة أرجاء الجزيرة العربية بل في كافة أرجاء المعمورة.

وعندما وصل الرسول العظيم مع صاحبه الصديق أبي بكر إلى يثرب المدينة المنورة خرج المؤمنون من أهلها مرحبين بقدوم النبيّ الكريم وصاحبه الوفيّ واستبشروا بقدومهما وقدوم الأصحاب كل خير. وضرب هؤلاء مع إخوانهم المهاجرين أروع الأمثلة في التضحية والأخوة والتحابب والتباذل في الله. لقد جمعهم الإسلام ووحدتهم العقيدة وألّف النبيّ بين قلوبهم حتى صاروا على قلب رجل واحد لا يفرق بينهم طمع ولا دنيا ولا يباعد بينهم حسد ولا ضغينة. مثلهم كمثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، ومثلهم في وتوادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

لقد كان من المهاجرين من ترك الدار والمال والأهل والولد والمتاع ابتغاء مرضاة الله فماذا قدّم الأنصار؟ لقد استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين ومدوا لهم يد المساعدة

والعون حتى كان الأنصاري يقسم ماله ومتاعه بينه وبين أخيه المهاجر. فماذا فعلنا نحن مع إخواننا المحتاجين والمهجرين والمعوزين.

إنّ الدروس المستفادة من الهجرة كثيرة ومن جملتها ضرورة الصبر على الشدائد والبلايا وكافة أنواع الظلم والاستبداد والصمود في وجه الباطل والثبات في ميدان الجهاد والكفاح والوقوف إلى جانب الحق في شجاعة وحزم وصرامة وعزم. وإنّ احتفالنا بهذه الذكرى في الظروف الحالية التي تمر بها الأمة يبعثنا على مضاعفة التضحية والفداء والمثابرة على نصرة الحق ومكافحة الباطل.

اللهم إنّا نعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء ونعوذ بك من فتنة النّار وعذاب النّار.

هجرة الرسول ﷺ

لما ضاقت مكة بأفضل أهلها وخيرهم عند الله، رسول الله ﷺ واصحابه، جعل الله للمسلمين فرجاً ومخرجاً، فأذن لهم بالهجرة إلى المدينة حيث النصرة، وقبول الحق .

وقد أرخ لهجرة المصطفى ﷺ . الزهري فقال : " مكث رسول الله ﷺ بعد الحج بقية ذي الحجة ، والمحرم وصفر ثم إن مشركي قريش اجتمعوا " – يعني على قتله – وقال الحاكم : " تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الاثنين ودخلوه المدينة كان يوم الاثنين " .

وقد أذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، وكان يتردد على بيت أبي بكر كل يوم صباحاً ومساء ، لا يكاد يدع ذلك ، فلما أذن له بالهجرة جاءهم ظهراً على غير عادته وهو متقنع ، فأخبر أبا بكر بذلك . واختياره وقت الظهر لأن الناس تأوي إلى بيوتها للقيلولة فراراً من الحر ، وتقنّعه يفيد شعوره بالخطر من حوله ، فقد اعتزمت قريش قتله ، ولابد أنها ستعمد إلى رصد تحركه . قال تعالى : {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين } (الأنفال ٣٠).

مؤامرة لقتل الرسول ﷺ

وقد بينت رواية ضعيفة – بسبب الإرسال – قصة اجتماع المشركين على باب الرسول ﷺ وذره التراب على رؤوسهم .

كما بيّن ابن عباس حصار المشركين لبيته ابتغاء قتله ، ومبيت علي رضي الله على فراشه ولحاقه ﷺ بالغار ، ولما علم المشركون ذلك في الصباح اقتصوا أثره إلى الغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت فتركوه . ولكن هذه الرواية لا تصلح للاحتجاج بها وهي أجود ما روي في قصة نسيج العنكبوت على فم الغار ، وقد ورد حديث ضعيف جداً يفيد أن الرسول ﷺ لما بات في غار ثور أمر الله شجرة ، فنبتت في وجه الغار ، وأمر حمامتين وحشيتين ، فوقعتا بفم الغار . وأن ذلك سبب صدود

المشركين عن الغار . ومثل هذه الأساطير تسربت إلى مصادر كثيرة في الحديث والسيرة . وعلى أية حال فإن ائتمار المشركين لقتله ثابت بنص الآية فلا يبعد أن يحاصروا بيته .

في غار ثور

قالت عائشة رضي الله عنها : (فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة ، قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له ، فدخل . فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج من عندك . فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله . قال : فإني قد أذن لي في الخروج . فقال أبو بكر : الصحابة بأبي أنت يارسول الله . قال رسول الله ﷺ : نعم . قال أبو بكر : فخذ – بأبي أنت يا رسول الله – إحدى راحلتي هاتين . قال رسول الله ﷺ : بالثمن . قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز ، وضعنا لهم سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها ، فربطت به على فم الجراب . وبذلك سميت ذات النطاق . قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فكمنا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر – وهو غلام شاب ثقف لقن – فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح من قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة – مولى أبي بكر – منحة من غنم ، فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسل – وهو لبن منحتهما ورضيفهما – حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث . واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عدي بن عدي هادياً خرّيتاً قد غمس حلفاً في العاص بن وائل السهمي – وهو على دين الكفار – فدفعا اليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث.)

وتشير رواية صحيحة أخرى إلى أن رسول الله ﷺ وأبا بكر ركبا ، قال : (فانطلقا حتى أتيا الغار وهو بثور) .

موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وثمة رواية حسنة تفيد أن الرسول ﷺ انطلق إلى الغار من بيته حيث حاصره المشركون يريدون قتله ، فلبس علي رضي الله عنه ثوبه ونام مكانه واخترق رسول الله ﷺ حصار المشركين دون أن يروه ، بعد أن أوصى علياً بأن يخبر أبا بكر أن يلحق به ، فجاء أبو بكر وعليّ نائم ، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله ﷺ ، قال : فقال : يا نبي الله ..

فقال له علي : إن نبي الله ﷺ قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه .

قال : فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار .

قال : وجعل علي يرمي بالحجارة ، كما كان يرمي نبي الله ﷺ وهو يتضور ، قد لفّ رأسه في الثوب لا يخرجه ، حتى أصبح .

ثم كشف عن رأسه ، فقالوا : إنك للئيم ! . كان صاحبك نرميه فلا يتضوّر وأنت تتضوّر وقد استنكرنا ذلك .

لقد كان غار ثور قد تحدد منطلقاً للهجرة ، وضرب الموعد مع الدليل في ذلك المكان ، وكان خروج المصطفى والصديق الى الغار ليلاً .

ولا تقوى هذه الرواية على معارضة ما في الصحيح ، ولكن يمكن التوفيق بينهما ، لأن رواية الصحيح ليست صريحة في ركوبهما من بيت الصديق رضي الله عنه . فإذا افترضنا أن اصطحابهما معاً جرى من بئر ميمون أمكن التوفيق بين الروايتين .

أبو بكر الصديق يضع ثروته في خدمة الدعوة

لقد حمل أبو بكر رضي الله عنه ثروته ليضعها تحت تصرف رسول الله ﷺ ، وقد ذكرت أسماء ابنته أنها خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم . لقد مكث الاثنان في الغار ثلاث ليال وقد تمكن المشركون من اقتفاء أثرهم إلى الغار حيث رأى الصديق أقدامهم

فقال :" يا نبي الله ، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا " . قال : (اسكت يا أبـــا بكـــر اثنان الله ثالثهما) .

وإلى هذا اليقين التام والتوكل الكامل تشير الآية { ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا } (التوبة ٤٠)

الإعلان عن مكافأة

لقد أخفقت قريش في العثور عليهما ، فأعلنت عن مكافأة لمن يقتلهمـــا أو يأســـرهما وأرّخت رواية واهية خروج النبي ﷺ من الغار في ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول ، وأدركتهما القيلولة ظهر يوم الثلاثاء بقديد . وهذا التحديـــد يثيـــر الشك بصحة الرواية فضلاً عن ضعف الإسناد .لقد مضى الاثنان في الطريـــق الـــى المدينة وهما يحسان برصد المشركين لهما . قال أبو بكر : " أخـــذ علينـــا بالرصـــد فخرجنا ليلاً

نفحات من هجرة الرسول

التاريخ الهجري:

رفع صك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه محله في شعبان فقال عمر: أي شعبان؟ الذي هو آت أو الذي نحن فيه؟

ثم قال لأصحاب رسول ﷺ ضعوا للناس شيئاً يعرفونه وقد أجمعت كلمة الصحابة على استبعاد تاريخ الروم والفرس ليكون للمسلمين تاريخهم المستقل الذي ابتدأ حقيقة برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما كانت الهجرة النبوية هي الحد الفاصل بين المرحلة المكية والمدنية للدعوة الإسلامية فقد اتفقت الآراء على أن يكتبوا التاريخ من مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة وعلى أن يكون البدء من شهر الله المحرم فهو مصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام.

آفاق جديدة:

فتحت هجرة النبي ﷺ إلى المدينة آفاقاً جديدة للدعوة الإسلامية العالمية التي تعتمد مبدأ الكلمة الواعية المستندة إلى توحيد الله عز وجل ولقد دخلت المدينة (يثرب سابقاً)، مرحلة جديدة بعد بيعة العقبة الثانية حيث بدأ فيها التاريخ، وبدأ فيها التحول والتطور نحو حياة أفضل، إذ تحولت نزاعات الأوس والخزرج إلى ألفة ومحبة، وتبدلت فرقتهم إلى عزة وتوحد، وانهارت وثنيتهم أمام نور توحيد الله وبدأ دور يهود يثرب يأفل ويغيب حيث كانوا يسيطرون على اقتصاد يثرب ويسعون جاهدين إلى تشتيت القبائل العربية وتمزيق وحدتها وإشعال نار الفتن والخصومات بين أهلها، ولما دخلت طلائع الدعوة الإسلامية تكشفت مؤامرات يهود وبدأ دورهم بالانهيار وقام سفير رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بنشاط دعوي كبير حيث دخل على يديه في الإسلام عدد كبير من زعماء بني عبد الأشهل والقبائل العربية الأخرى بحيث لم يبق بيت في المدينة إلا ودخل إليه نور الإسلام. وهذه آفاق الدعوة مفتوحة على أشدها في عصر العلم والعقل وحرية التفكير، ولا يحتاج الداعية إلى كبير عناء في تبليغ الرسالة

التي تنقذ العالم من فراغه الروحي وضياعه الأخلاقي فلتكن أخي أحد الدعاة الـذين يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

الدعوة بالتربية والقدوة:

هاجر إلى المدينة المنورة (٧٩) مسلماً من المسلمين الأوائل الذين دخلوا مدرسة دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة المكرمة حيث كان أستاذهم محمـداً ﷺ يعلمهـم الكتـاب والحكمة ويزكيهم، وكان كتابهم القرآن الكريم يتعلمون أحكامـه وعلومـه وأخلاقـه وآدابه حتى تخرجوا في هذه المدرسة وقد تطهرت عقيدتهم من الشـرك والوثنيـة، وتنظفت نفوسهم من الأمراض الأخلاقية، وخلت قلوبهم مما سوى الله، وأخذوا مـن رسول الله ﷺ الدروس التربوية عن طريق القدوة الطيبة، والأسوة العملية الحسـنة، وبموجب عقد التآخي بين المهاجرين والأنصار فقد دخل المهاجرون (٧٩) بيتاً مـن بيوت الأنصار فنقلوا إليهم العقيدة الحقة والأخلاق الفاضلة والسلوك المسـتقيم عـن طريق القدوة الحسنة، وهذا بدوره حول المجتمع المدني إلى مجتمع فاضل يعرف فيه كل فرد حقوقه وواجباته تحت ظلال رسول الله ﷺ وكم نحن بحاجة إلى اتباع أسلوب الدعوة العملية بالقدوة والأسوة الحسنة ليعشق الآخرون الإسلام من خـلال التزامنـا العملي به ولقد ضرب التجار المسلمون أروع المثل في البلاد التي سافروا إليها فرأى أهلها معاملات صادقة، وأخلاقاً فاضلة مما دعاهم إلى الـدخول فـي ديـن التجـار المسلمين هكذا فتحت أندونيسيا وماليزيا وجزر الأرخبيل في جنوب شرق آسـيا. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

المعية الإلهية:

وصل المشركون إلى غار ثور حيث انقطعت آثار أقدام النبي ﷺ وصاحبه الصـديق وخشي أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وقال: لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا فأجابه النبي ﷺ ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن إن الله معنا ولقد سطر القرآن هذه الحادثة فقال فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما فـي الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنـود لـم

تروها ولا بأس من إلقاء الضوء على التساؤل التالي: هل المعية الإلهية كانت خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلموصاحبه الصديق في الغار؟ ولدى الرجوع إلى الحقائق القرآنية نجد ما يلي:

١- طلب الله من موسى وهارون القيام بواجب الدعوة والبلاغ إلى فرعون بقوله: اذهب إلى فرعون إنه طغى فاعتذر إلى الله بالخوف من استكبار فرعون وطغيانه قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى فطمأنهما الله بالمعية الإلهية الناصرة قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى

٢- وظلت هذه المعية الإلهية مع نبيه موسى عليه السلام ولما فر من فرعون وجنده مع المؤمنين خشي من معه بأن يظفر بهم فرعون فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون فطمأنهم موسى بالمعية الإلهية قال كلا إن معي ربي سيهدين.

٣- وقد طلب الله من بني إسرائيل القيام بعدة أمور لاستحقاق المعية الإلهية وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً ٤- وبإمكان كل مسلم أن يستحق شرف المعية الإلهية إذا قام بمتطلباتها، وهي:

أ- التقوى إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون والتقوى هي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

ب- الصبر إن الله مع الصابرين.

جـ - الإحسان وإن الله لمع المحسنين ويشمل الإحسان تقديم الخير إلى الخلق، ومجاهدة النفس في العبادة حتى يصل الإنسان إلى مقام »أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

الهجرة.. تاريخ في التاريخ

قمر كيلاني

الهجرة النبوية الشريفة من مكة إلى المدينة بظروفها وسياقها ليست حدثاً تاريخياً.. بل هي تاريخ في التاريخ. فقد كان العرب قبل الهجرة يؤرخون كما يشاؤون نسبة إلى قبائلهم وحروبهم وغزواتهم..

وربما حوادث وظواهر تمر بهم أو يشهدونها فيقولون، هذا يوم كذا.. أو هذا عام كذا. حتى كانت هجرة الرسول فتمركزت حياة المسلمين حولها، ومن ثم العرب وسائر المسلمين. وأصبحت الهجرة بوصلة أو بوصلتين.. الأولى دينية تدور حولها العقيدة، فالذين انضموا إلى الرسول من الأنصار، والذين ما لبثوا أن التحقوا برسولهم من المهاجرين شكلوا جميعاً أول مسجد.. وأول آذان.. وأول صلاة.. وأول ثورة إيمانية أخذت تتسع وتترسخ حتى أصبحت هدفاً ومنطلقاً في الوقت نفسه..

أما البوصلة الأخرى فهي التي أصبحت تجمع القبائل العربية في سائر أنحاء الجزيرة ليلتفوا حول نواة لدولة لم يعرفوها قط. دولة تقوم على شريعة سماوية وتطبيقات عملية في العدل والمساواة، والأخوة، والحق، والهداية، ونبذ تاريخ ودخول في تاريخ. وتشاء القدرة الإلهية أن يؤسس للدولة المدنية التي توسعت خارج الجزيرة العربية، لا تحمل رسالة سماوية فقط بل شريعة ونهجاً، ومنظومة للحياة الحرة الكريمة. ويصبح للعرب دولتهم التي تشملهم جميعاً كعرب وإن كان بينهم مسيحيون ويهود.

وما إن انتشرت الدعوة الإسلامية منذ الهجرة إلى ممالك وإمبراطوريات في الشام وفارس وبلاد الروم حتى تهاوت تلك النظم أمام الدعوة الإلهية والدولة الفتية، ثم أصبح الانتشار أمراً متواتراً ومتزامناً مع الفتوحات كما اقتضت خاتمة الرسالات. وأصبح للهجرة تاريخ ليس فقط لموضوع الهجرة بل للنصرة والنفرة من أجل إقامة مجتمعات جديدة ذات مناهج جديدة يتشعب فيها الإيمان واحترام حقوق الإنسان. وما كان في هذه المجتمعات ماهو إجبار بل اختيار مادام الإسلام يقول: لا إكراه في

الدين، وتصبح الهجرة أيضاً رمزاً أسمى من كل الرموز وشعلة تفصل بين الظلمة والنور.

وإذا ما تتبعنا التأريخ بالسنة الهجرية وجدناه يشمل لا الحياة السياسية فقط بل الثقافية، والمدنية،.الولادة والموت مما هو مبثوث في كل تراثنا العربي حتى حصلت المواءمة في العصر الحديث بين التاريخين الميلادي نسبة إلى ميلاد السيد المسيح والهجري نسبة إلى هجرة الرسول الكريم والفارق معروف ومحسوب بينهما بحيث لا يخطئه الدارس أو المؤرخ أو حتى القارىء العادي. هذا وقد اصطلح مؤخراً في الكتب الحديثة أن يوضع التاريخان معاً بين قوسين أحدهما أو الآخر حسب المنبع حتى إن المستشرقين أو المستعربين أنفسهم لم يقدروا على تجاهل التاريخ الهجري الذي حمله التراث العربي بأكمله.

وما تعلقنا بالتأكيد بهذا التاريخ والاحتفاء به إلا ومضة صغيرة من قرون طويلة وصلت إلى حوالي ألف عام ونصف فهل يمكننا التخلي عنه أو حتى إغضاء الطرف سواء اجتاحتنا العولمة أم وقفنا على أعتابها من دون خوف.

وجاء عام جديد...آمال برغم الآلام

محمد بن شاكر الشريف

الحمد لله مصرف الأيام والدهور ومقلب الليل والنهار، والصلاة والسلام على البشير النذير محمد بن عبد الله الذي أرسله ربه رحمة للعالمين أما بعد

فإن الجديد من كل شيء محبب إلى القلوب ومبهج للنفوس، تشتاق إليه وتأنس به، وذلك بعكس القديم الذي غالبا ما تعافه النفوس، وتبتعد عنه، وقد أقبل علينا عامنا الجديد بزهوته وجماله والذي يذكرنا بمناسبة من أهم وأعظم المناسبات التي مرت بها الأمة الإسلامية، فهل يحمل إلينا عامنا الجديد أنباء مستقبلية سارة غير مجرد عطر الذكريات الجميلة، هل يبزغ الفجر الذي طال انتظاره، وتتبوأ الأمة الإسلامية المكانة التي تليق بها، وتتحرر شعوبها من كل ألوان الاستعباد المعلنة والمخفية.

إن العام الهجري لم يكتسب قيمته إلا من خلال الحدث الفذ الذي ارتبط به، ألا وهو هجر الديار والأوطان والأهل والخلان، قربة إلى الله تعالى وتقديم حبه ودينه ورسوله على حب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارات والمساكن، "قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" [التوبة :٢٤]، لقد كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة عملا إيجابيا وإعدادا للمواجهة التي لا بد منها بين الحق وأهله وبين الباطل وأحزابه، ولم تكن عملا انسحابيا يؤثر الفرار على المواجهة؛ إبقاء على المهج وضنا بالأرواح أن تزهق في سبيل الله، والأموال أن تنفق في نصرة دينه وإعلاء كلمته.

كانت الهجرة الميمونة حدا فاصلا واضحا بين مرحلتين متمايزتين من مراحل الدعوة الإسلامية :مرحلة كف الأيدي والصبر على الأذى رغبة في هداية الناس وجمع أكبر عدد من الأنصار لرسالة الإسلام، ثم مرحلة الدفاع عن النفس ورد العدوان والمعاملة

بالمثل، والدعوة إلى الله بالجهاد في سبيله تعالى، وكان في هذا تعليما وتدريبا للأمة من بعدُ على أهمية مراعاة الواقع وظروفه على أرض الحدث، بعيدا عن الأفكار النظرية التي لا تمتلك رصيدا من الواقع أو التجربة، يؤهلها لقيادة المواجهة مع الجاهلية التي تتعدد صورها وتتباين ألوانها على مدى التاريخ.

ظل رسول الله ﷺ طيلة ثلاثة عشر عاما يدعو إلى الله تعالى في مكة المكرمة يصبر من قومه على الأذى، ويحتمل منهم الصد والإعراض، لم يصبه من ذلك كلل أو ملل، ولم يدفعه ذلك إلى سياسة حرق المراحل، أو القفز إلى نهاية الطريق من غير المرور على محطاته المتتابعة، وقد كان في هذا دليل على أهمية حنكة القائد وخبرته، وعدم يأسه وقنوطه من تحقق المطلوب، رغم الظلام الدامس الذي يغلف الأجواء، وكان في هذا أيضا دعوة إلى الأمل المشرق بانبلاج الصبح بعد عتمة الليل، والثقة في وعد الله تعالى بالنصر والتمكين وإن طال الزمن، وهذا يدفع المؤمن ويشحذ همته ويحمله على العمل الدائب، كما أن فيه ما يشعر أن تأخر النصر قد يكون لحكمة تربية النفوس وتثبيت دعائم الإيمان وليس فقط نتيجة للتقصير وعدم بذل الجهد المطلوب، فإن الله تعالى ينصر عباده الذين صدقوه ولا يخذلهم ولا يسلمهم لأعدائهم، وأنهم لو تعرضوا لأمور طارئة تخرج عن قدراتهم فإن الله تعالى يجعل لهم منها مخرجا، فإذا أُتي المسلمون فلن يؤتوا إلا من قبل أنفسهم، والتاريخ كله شاهد على ذلك، فالله صادق في وعده ولا يخلف الميعاد كما قال تعالى :"وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" [آل عمران:١٥٢]، وقال تعالى مقررا قاعدة عامة تنطبق على كل أحد في كل وقت وفي كل مكان "وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً" [الطلاق :٣] فكل من كان متقيا لله عز وجل فإن الله قد وعده بالمخرج من الضيق الذي هو فيه، وهذا مما يجعل الصف المجاهد في سبيل الله يحذر المعصية أشد

الحذر، فمعصية الله أشد على الجيش المجاهد في سبيله من أسلحة عدوه وإن كانت أسلحة قوية متطورة.

إن الهجرة لم تكن حدثا اضطراريا لجأ إليه المسلمون تخلصا من ظرف طارئ، بل كانت حدثا قد خطط له ودُبِّر بعناية تامة كاملة سواء في أرض الحدث نفسه مكة المكرمة أم في الأرض المستقبلة له المدينة المنورة، فلم يهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة إلا بعد أن استقر الإيمان في نفوس طائفة ليست بالقليلة من عظماء أهل المدينة وقادتهم، وقد كانوا بايعوه من قبل على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وإذا كان التخطيط والتدبير قد ظهرت دلائله في أرض المهجر، فإن الدلائل كانت أشد ظهورا في أرض الحدث نفسه مما ينفي أن تكون الهجرة قد حدثت اضطرارا من غير روية أو تدبير.

كانت هجرة الرسول ﷺ مفعمة بالعظات والعبر فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في مكة إلى طاعة ربه حتى ضيق أهلها عليه واتفقوا على قتله ليتخلصوا منه، بعد أن أخفقت كل محاولاتهم من الإغراء أو التخويف والإيذاء، في إِثنائه عن تبليغ الدعوة التي ائتمنه الله عز وجل عليها، ورغم أن الرسول ﷺ كان يدعو إلى ربه ولا يدعو إلى نفسه، ورغم أن الله تعالى قد أخبره بما مكر به الذين كفروا وأذن له في الهجرة، لكن الرسول ﷺ لم يهاجر إلا بعد أن أعد العدة وأحكم الخطة لذلك أيما إحكام، فذهب إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه ليعلمه بأمر الهجرة في ساعة لم يكن يذهب إليه في مثلها حتى لا يفطن له أحد، وقال له :أَخْرِج من عندك حتى يحافظ على سرية الأمر، ثم استأجر رجلا خريتا أي ماهرا بالطرق ليكون دليله في الهجرة، وذهب في أول أمره في طريق اليمن ولم يذهب مباشرة في طريق المدينة، حتى يموِّه على المشركين ويغطي عنهم وجهته، واختبأ في غار ثور ثلاثة أيام حتى يهدأ الرَّصد ولم يواصل الرحلة، وكان يرسل من يأتيه بأخبار أهل مكة حتى يعرف خطتهم ليتصرف وهو على علم بما يدبرون، ولم يقل :إن الله معي–وهو معه حقا–فلا عليَّ أن آخذ بالأسباب، مما يبين أن العاملين لنصرة هذا الدين ينبغي عليهم الأخذ بالأسباب المعينة

لهم، وإلا كانوا مقصرين ومن كان مقصرا فلا يلومن إلا نفسه، وقد بين الله تعالى أن رحمته قريب من المحسنين، فقال عز من قائل :"إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ" [الأعراف:٥٦] فمن كان مقصرا فيما وجب عليه لم يكن من المحسنين.

وعندما أراد رسول الله ﷺ أن يتجهز لهذا السفر البعيد عرض عليه أبو بكر رضي الله تعالى عنه أن يعطيه دابة من عنده كان قد أعدها لمثل هذا اليوم، فأبى الرسول ﷺ أخذها إلا بالثمن، تقول عائشة رضي الله تعالى عنها :"لقَلَّ يوم كان يأتي على النبي ﷺ إلا يأتي فيه بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، فلما أُذن له في الخروج إلى المدينة لم يرعنا إلا وقد أتانا ظهرا، فخُبِّر به أبو بكر، فقال :ما جاءنا النبي ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث، فلما دخل عليه قال لأبي بكر :أخرج من عندك، قال :يا رسول الله إنما هما ابنتاي، يعني :عائشة وأسماء، قال :أشعرت أنه قد أُذن لي في الخروج؟ قال :الصحبة يا رسول الله، قال :الصحبة، قال يا رسول الله :إن عندي ناقتين أعددتهما للخروج فخذ إحداهما، قال :قد أخذتها بالثمن" ، وفي هذا ما يرشد على أن الداعي إلى الله يتحمل النفقات المادية التي تحتاج إليها دعوته ولا يحمل الآخرين حتى وإن بذلوها بطيب نفس، ما دام قادرا على ذلك حتى يتحصل له الأجر الكامل

والعاملون لدين الله تعالى يأتيهم من فضل وكراماته لهم وقت الشدة ما يخرجهم به من الورطات التي لا يملكون لها دفعا، لكن بعد أن يكونوا قد أخذوا بالأسباب المتاحة لهم حتى لا يكونوا مقصرين، وقد حدث هذا في قصة الهجرة، فمع كل هذه الاحتياطات التي أخذ بها الرسول ﷺ إلا أن المشركين قد تمكنوا في نهاية الأمر من خلال حملة الاستنفار غير المسبوقة في البحث والتحري إلى أن يصلوا إلى مكان الغار الذي يختبئ فيه الرسول ﷺ وصاحبه، ولو نظر أحدهم إلى أسفل قدميه لرآهما، وهنا يصرف الله تعالى أبصار المشركين عن الرسول ﷺ وصاحبه، ويسجل القرآن هذا المشهد الفريد ورسول الله ﷺ يسري عن أبي بكر ما أهمه، فيقول الله تعالى :"إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [التوبة:٤٠]، وبعدما عجزت قريش وأحست بعدم قدرتها على الوصول إلى رسول الله ﷺ وصاحبه جعلت لمن يدل عليهما أو يقبض عليهما جائزة كبيرة، فأخذ الناس يبحثون في كل واد وناحية، إلى أن تمكن أحد فرسان قريش من معرفة طريق الرسول &#٦١٥٥٤؛، لكن الله تعالى منعه منه قبل أن يلحق به، ويَعِدُه الرسول إن رد الرصد عنهم بجائزة فوق جائزة المشركين، يَعِده وهو في هذه الحالة بسواري كسرى ملك الفرس الذي كان يمثل ملك إحدى القوتين العظميين في ذلك الزمان، وهذا درس تربوي عظيم من دروس الهجرة فلا يكفي للمجاهد في سبيل الله سلامة المعتقد وحسن النية، والرغبة في نصر دين الإسلام، بل لا بد من الأخذ بالأسباب التي خلقها الله تعالى، فما خلقها الله وجعلها موصلة لمسبباتها إلا لكي يعمل بها الناس ويستفيدوا منها، وفي هذا درس آخر وهو بيان حقيقة التوكل فإن رسول الله ﷺ كان سيد المتوكلين، فالتوكل لا يعني إهمال الأسباب أو تركها، بل يأخذ المسلم بكل الأسباب الممكنة ويتوكل على الله، لأن الأسباب قد لا تنتج مسبباتها، فيحتاج المسلم إلى التوكل على الله في كل حين.

لقد كانت هجرة الرسول ﷺ في سبيل الله فتحا عظيما ونصرا كبيرا، نصرا على شح النفس التي تميل دائما للارتباط بالأرض وعدم مغادرتها والتشبث بها، فكانت الهجرة إعلاء لقيم الدين على قيم التعلق بالوطن، فإن التعلق بالأوطان قد يوقع المسلم فيما يعرضه لسخط الله تعالى، فقد تمسك قوم من المسلمين الأوائل بالأوطان حتى منعتهم من الهجرة في سبيل الله، وقد اضطرتهم قيادات المشركين للخروج في الجيش المشرك ليكثروا أعداد المشركين في أعين المسلمين من غير أن يباشروا القتال حقيقة، فهم بذلك أقل ممن يعمل في الخطوط الخلفية أو الشؤون الإدارية بكثير بل لا نسبة بينهم ومع ذلك أنزل الله تعالى فيهم قوله :"إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً

فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً" [النساء:٩٧]، وقد ضمن الله تبارك وتعالى لمن خرج من بيته مهاجرا إلى الله بدينه أن يوسع عليه، وأن أجره لا يضيع حتى لو حال الموت بينه وبين الهجرة، قال الله تعالى :"وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً"[النساء :١٠٠] .

كما كانت أيضا نصرا على الأعداء حيث تمكن الرسول ﷺ بهذه الهجرة الموفقة أن يكسر الطوق الذي صنعه المشركون حول الدعوة، فتمكن من مقابلة الوفود من غير مضايقات ودعوتهم إلى الله تعالى وهذا مصداق قوله تعالى :" يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً"، وتمكنت الدعوة في مدة قصيرة أن تحقق من الفتوحات والانتصارات والاستجابة والانتشار ما لم يتحقق لها في مدة طويلة، حتى عمَّ الإسلام جزيرة العرب في ما لا يزيد عن عشر سنوات.

لقد ربَّى رسول الله ﷺ جيل المهاجرين الأُوَل على العطاء غير المحدود فلما أذن لهم بالهجرة لم يتخلف عن ذلك أحد ممن آثر الله ورسوله والدار الآخرة، فلم يتعلق أحد منهم بأهل أو أموال أو ديار وقد سجل القرآن الكريم هذا المشهد العظيم فقال تعالى :"لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" [الحشر :٨]، والهجرة في سبيل الله شريعة محكمة غير منسوخة بل هي قائمة ما دام هناك من المسلمين من يُحارب في دينه، فيخرج المسلم إلى حيث يمكنه أن يعبد الله، قال رسول الله ﷺ :"لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها" وقال ﷺ :"لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو" وقال ﷺ :"ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ..." .

وقد بلغ من مكانة الهجرة وموقعها في الدين أن الله تعالى قد قطع ولاية التناصر بين المؤمنين وبين من آمن ولم يهاجر فقال تعالى :" الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن

وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"

إن حدث الهجرة يمثل معلما بارزا من معالم صناعة الأمة التي تستعلي بإيمانها على كل الروابط التي من شأنها أن تكبل انطلاقة الأمة الكبرى نحو السمو والكمال، ولا أحسب أن محاولة إعادة بناء الأمة لتحقق في عالم الواقع ما أنيط بها من المهام الجسام، يمكن أن تتم إلا عبر بناء الجيل المتخلق بأخلاق المهاجر إلى الله ورسوله، فهل حان الوقت لبروز هذا الجيل وتبوأ مكان الصدارة

خصائص العمران في المدن الإسلامية

للدكتور عبد المنعم حسنين
أستاذ بالدراسات العليا بالجامعة ورئيس شعبة الدعوة بها

تمهيد

كان شروق شمس الإسلام نقطة تحول في تاريخ المسلمين بخاصة، وفي تاريخ البشرية بعامة، لما أحدثه من تغيير جذري في حياة المسلمين، وفي مظاهر حضارتهم، ثم ما أحدثه في الحضارة الإنسانية في القرون التي تلت ذلك الحدث العظيم، وهو تغيير ستظل آثاره باقية إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

وكانت هجرة خاتم الأنبياء والمرسلين- صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى يثرب بداية لقيام دولة المسلمين، بقيادة النبي الأمين في هذه المدينة الطيبة التي أصبحت القلب النابض في الدولة الإسلامية وصارت مركز إشعاع للدعوة الإسلامية، وسميت المدينة المنورة، وانتشرت منها أشعة شمس الإسلام، دين اللّه الحق، فاستضاء بنور الإسلام أَهل الأرض في كثير من أنحائها، فخرجوا من الظلمات إلى النور، وهدوا إلى سواء السبيل.

وكان من نتيجة ذلك التحول العظيم في مظاهر الحياة في المدينة المنورة، قاعدة الدولة الإِسلامية، بعد استقرار الرسول -صلى اللّه عليه وسلم- فيها، أَن أصبح للعمران في المدن الإسلامية بعد ذلك خصائص واضحة مميزة جديرة بأن يدرسها، ويهتم بها المشتغلون بتخطيط المدن، ويتبينوا آثارها في الحضارة الإسلامية.

وسأحاول في هذا البحث أن أبين أهم خصائص العمران في المدينة المنورة في عصر رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- وهي الخصائص التي ظهرت بوضوح في المدن الإسلامية الأخرى، بعد عصر الرسول في أنحاء العالم الإسلامي الكبير، حين اتسعت دولة الإسلام، وغلبت صبغته على مظاهر الحياة، عند كثير من شعوب العالم على اختلاف أماكن هذه الشعوب، وأجناسها وألوانها وألسنتها وبالله التوفيق.

أولا- المدينة قبل الإسلام:

كانت مدينة يثرب- التي تعد النموذج الأول والكامل للمدن الإسلامية- قبل الإسلام تقع في واحة خصيبة كثيرة العيون على الطريق التجاري بين اليمن والشام على بعد أكثر من أربعمائة كيلومتر من جهة الشمال من مكة المكرمة، وكانت تسكنها قبائل عربية قبل شروق شمس الإسلام.

وتفيد الأخبار التي وصلت إلى الدارسين أن قبائل العماليق سكنت مدينة يثرب واستقرت فيها، وهي قبائل تنتمي إلى العرب البائدة، وتدل الأخبار كذلك على حدوث هجرات يهودية إلى يثرب، وأن اليهود استطاعوا الانتصار على العماليق، مما مكنهم من النزول بيثرب والاستقرار فيها.

وقد ذكرت كتب التاريخ أن الهجرات اليهودية إلى يثرب حدثت منذ عصر نبي اللّه موسى عليه السلام، ثم تتابعت في أوقات الغزو البابلي لفلسطين، ثم في أثناء احتلال الرومان لبيت المقدس، وبطشهم باليهود، وتدميرهم لهيكل نبي الله سليمان عليه السلام.

ومن المسلم به بين الدارسين أن اليهود سكنوا يثرب قبل الإسلام، فكان عدد من القبائل اليهودية يعيش في يثرب في الوقت الذي أشرقت فيه شمس الإسلام، وحين هاجر رسول الإسلام -صلى اللّه عليه وسلم- إلى هذه المدينة وأسس فيها دولة الإسلام، فأصبحت تسمى المدينة المنورة وظهرت فيها الخصائص المميزة للمدن الإسلامية في شتى أنحاء العالم.

ومن القبائل اليهودية التي كانت تسكن يثرب -وقت ظهور الإسلام- بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، إلى جانب القبائل العربية الساكنة فيها، وكان أشهر هذه القبائل العربية الأوس والخزرج.

ومن المرجح أن اليهود سكنوا مدينة يثرب قبل أن يسكنها الأوس والخزرج، وأن اليهود كانوا يشتغلون بالزراعة ويملكون جزءاً من أراضي المدينة، ويقيمون الحصون والأطم ليحتموا بها، وليحفظوا بها حاصلاتهم الزراعية.

أما الأوس والخزرج فهم من قبائل الأزد اليمنية التي هاجرت من اليمن بعد تهدم سد مأرب واتجهت شمالاً، فأقام جزء منها في بادية العراق، وأقام جزء آخر في مكة، وواصل جزء ثالث منها سيره حتى بلغ بادية الشام فأقام فيها، ووصل جزء رابع إلى منطقة يثرب فأقام فيها، وكانت مضاربه بجوار اليهود، وكان الأوس والخزرج يشكلون أفراد ذلك الجزء الرابع من قبائل الأزد اليمنية الأصل، وكانوا يعرفون مدينة يثرب جيداً، لأنها تقع على الطريق التجاري بين اليمن والشام.

وكان اليهود ينظرون باستعلاء إلى الأوس والخزرج في بداية الأمر، ثم ما لبثوا أن حالفوهم، غير أن الأحوال تغيرت بعد ذلك، فقويت شوكة الأوس والخزرج، ورجحت كفتهم، بعد أن تغلبوا على اليهود، فأخذوا يملكون جزءاً من الأراضي الزراعية، ويبنون الحصون، فصارت لهم الكلمة العليا في المدينة وأخذ نفوذ اليهود في الضعف.

وتنافس الأوس والخزرج على السلطان، فظهر الشقاق بين صفوفهم، مما أدى إلى اشتعال نيران الحروب بين الطرفين، واستمرت هذه الحروب زمناً، وتبادل الطرفان النصر والهزيمة، واضطربت –في أثنائها– الأحوال في المدينة، فاستغل اليهود تمزق الصف العربي، وحالف بعضهم الأوس، بينما حالف بعضهم الآخر الخزرج، ليزيدوا الصف العربي تمزقاً وضعفاً، وليزيدوا الأحوال في المدينة اضطراباً، وظلت الأحوال مضطربة إلى وقت شروق شمس الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي.

وتفيد الأخبار المروية أن الصراع بين الأوس والخزرج ظل قائماً إلى وقت قريب من هجرة الرسول –صلى الله عليه وسلم– من مكة إلى مدينة يثرب، وأن يوم بعاث كان آخر مظاهر الصراع بين الطرفين، وكان ذلك قبل الهجرة النبوية بخمسة أعوام.

وكانت طبيعة مدينة يثرب الجغرافية تيسر الحياة فيها، حيث المياه وفيرة، والعيون كثيرة، والأرض خصبة، تجود فيها الزروع المختلفة، ويكثر فيها النخيل مما يجعل العيش فيها أكثر يسراً من العيش في مكة الشديدة الجفاف، لوجودها في واد غير ذي زرع، تحاصره الجبال، وتقل فيها المياه.

غير أن التكوين السكاني في مدينة يثرب قبل الإسلام لم يساعد على إيجاد تجانس بين سكانها الذين كانوا من اليهود والعرب، فلم يكن الوئام سائداً بين الطائفتين، كما أن العرب أنفسهم كانوا متخاصمين تكثر بينهم الحروب -كما ذكرنا- فانعدم الاستقرار في المدينة قبل الإسلام، وافتقدت التنظيم الإداري الصحيح الذي يجعل الطمأنينة تسود ربوعها، مما أثر في النواحي العمرانية فيها قبل هجرة الرسول -صلى اللّه عليه وسلم- إليها.

وهكذا أثر انعدام التجانس السكاني في المدينة قبل الهجرة النبوية في شكل العمران فيها، فكان سكانها يعيشون في وحدات منفصلة، وفي قبائل متنافرة تخشى كل منها الأخرى، وتبني الحصون لتحتمي بها إذا هوجمت، فلم تستطع المدينة قبل الإسلام منافسة مكة في التقدم والزعامة، برغم تيسر الحياة في المدينة لوجود الزراعة فيها، ووفرة المياه، لأن مكة كانت ذات تكوين سكاني يساعد على الاستقرار والتقدم، فكان أكثر سكانها من العرب تحب زعامة قريش، مما ساعد على تنظيم أمور الإدارة والحكم، كما ساعد وجود البيت الحرام بمكة على جعلها مهوى لنفوس العرب ومحل احترامهم جميعاً، مما أدى إلى نمو التجارة بهذه المدينة المقدسة، فقامت الأسواق فيها، للتعامل مع الوافدين إليها لزيارة الكعبة، فارتفع شأن مكة، وصارت لها الزعامة في شبه الجزيرة العربية بينما قل شأن مدينة يثرب لانعدام التجانس بين سكانها، وفقدانها التنظيم في الحكم والإدارة، وعدم وجود أماكن مقدسة فكانت لا تقوى على منافسة مكة في أهميتها وزعامتها.

وقد تغير هذا كله بعد هجرة الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة وتأسيس دولة الإسلام فيها، فأصبح للعمران فيها خصائص ظاهرة مميزة، وصارت هذه الخصائص واضحة في جميع المدن الإسلامية بعد عصر الرسول مما سنبينه فيما يلي:

ثانياً- المدينة بعد الإسلام:

كانت هجرة خاتم الأنبياء والمرسلين- صلوات الله وسلامه عليه- من مكة إلى مدينة يثرب أهم أحداث التاريخ الإِسلامي، لما كان لها من نتائج كثيرة في حياة المسلمين

وتاريخهم ومظاهر حضارتهم بعامة، وفي المدينة وسائر المدن الإسلامية بخاصة، فقد ظهرت آثارها في التنظيم السكاني، وفي التنظيم العمراني، وفي جميع مظاهر الحياة بعد تأسيس الدولة الإسلامية في تلك المدينة المنورة.

فصارت مقراً لرسول اللّه –صلى اللّه عليه وسلم– ومركزاً لإشعاع الإسلام، دين اللّه ودين الحق الذي يزهق أمامه كل باطل، دين التوحيد، الذي يدعو إلى عبادة إله واحد لا شريك له، ويحارب الشرك والوثنية، دين المساواة، الذي لا يفرق بين الناس جميعاً، على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم وأمكنتهم ولا يفضل عربياً على أعجمي ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى، لأن الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط، فكلهم لآدم، وآدم من تراب، ولأنهم جميعاً مخلوقون من نفس واحدة كما قال اللّه الخالق سبحانه في أول سورة النساء: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}وقد جعل اللّه بحكمته الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا.

قال تعالى في سورة الحجرات: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

وعلى هذا الأساس تبدو أهمية هجرة الرسول –صلى الله عدية وسلم– إلى المدينة واتخاذها قاعدة لدولة الإسلام، فقد أدى هذا الأمر إلى إيجاد تغيرات جوهرية في هذه المدينة بعد أن هاجر الرسول إليها وهاجرت معه فئة قليلة، أخرج أفرادها من ديارهم وأموالهم، فراراً بدينهم الحق، فأصبح على هؤلاء المهاجرين أن يدبروا أمر معاشهم، في مقرهم الجديد بالمدينة، بعد أن تركوا ما يملكون في مكة ولم يلبثوا أن ظفروا برعاية اللّه وتوفيقه فارتفع شأنهم، وأصابوا توفيقاً لم يصيبوا مثله في مكة وصارت لهم الغلبة والعزة لاتباعهم ما جاء في كتاب الله الكريم، وهدي الرسول ذي الخلق العظيم، صلوات الله وسلامه عليه.

وكان اليهود في المدينة قبل الهجرة قد أعلنوا ما وجدوه في التوراة والإنجيل دالاً على بعثة رسول جديد، يدعو إلى التوحيد، ويختم به الأنبياء والمرسلون لأن اليهود كانوا أهل كتاب، فكانوا على يقين من بعثة رسول الإسلام، أما الأوس والخزرج فكانوا وثنيين، وكان اليهود يعيرونهم بوثنيتهم، فلما بعث الرسول –صلى الله عليه وسلم– ودعا الناس إلى الدخول في الإسلام، حتى يسعدوا في الدنيا والآخرة، كان الأوس والخزرج الوثنيون أكثر استعدادا لتقبله من اليهود الذين أعماهم الحقد عن رؤية الحق وأصم آذانهم الكره فلم يستمعوا إلى نداء رسول الهدى بل ناصبوه العداء، وكان الأوس والخزرج في وقت شروق شمس الإسلام أصحاب الكلمة العليا في المدينة برغم تناحرهم، فكانت استجابتهم لنداء الحق ودخولهم في الإسلام من العوامل الميسرة للرسول وللذين آمنوا معه أَن يهاجروا إلى المدينة دون أن يخشوا عداوة اليهود لهم، وكان وصول الرسول –صلى اللّه عليه وسلم– إلى المدينة، واتخاذها مقاماً ومقراً لدولة الإسلام إيذاناً ببدء تنظيم عمراني جديد ظهرت فيه صبغة الإسلام، وأصبحت له خصائص مميزة صارت واضحة ظاهرة في المدن الإسلامية بعد ذلك، وما زالت واضحة ظاهرة إلى يومنا هذا.

وكان المسلمون على قلة عددهم –وقت الهجرة– أقوياء بإيمانهم بالله، وثقتهم في نصره، وفي أنهم سيهزمون أعداء الله مهما كثروا، بعد أَن باعوا أنفسهم وأموالهم للّه عز وجل وأصبحوا يتوقون إلى الظفر بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة وهكذا أخذ مجتمع المدينة بعد الهجرة النبوية يتشكل على أَساس جديد من العقيدة يختلف اختلافاً جوهرياً عن مجتمعها قبل الهجرة، الأمر الذي ظهرت آثاره بوضوح في العمران في هذه المدينة المنورة الطيبة في عصر الرسول –صلى اللّه عليه وسلم– وقد أخذ الرسول الكريم بعد استقراره في المدينة يقيم دولة إسلامية تضم طوائف المدينة المختلفة دون تمييز بينها، فكان نظام الدولة من نوع جديد، لم يشهد له التاريخ مثيلا لأنه يقوم على أساس من الدين، الذي يقرر المساواة بين الناس جميعا ويكفل لهم حق الحياة الكريمة تحت ظله، ولا يكره أحداً على الدخول في الإسلام.

وهكذا طبقت الدولة الإسلامية منذ قيامها مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أَجناسهم وألوانهم وعقائدهم، وأخذ الرسول –صلى الله عليه وسلم– ينظم الحياة في المدينة، وفقاً لمبادئ الإسلام القويمة. وكان سكان المدينة من الأوس والخزرج واليهود في حاجة إلى التوفيق بينهم، حتى تستقر الأحوال، ويختفي الاضطراب ويصفو الجو في المجتمع الجديد.

وكان نفر من الأوس والخزرج قد أسلموا قبل هجرة الرسول –صلى اللّه عليه وسلم– إلى المدينة، ووصف الذين لقوا الرسول منهم قومهم بأنهم في حالة فرقة وشقاق، مما أورده ابن هشام في سيرته، وذكر أنهم قالوا للنبي: "فإن يجمعهم اللّه عليه– أي على الإسلام– فلا رجل أعز منك".

ثم جاء المهاجرون من مكة إلى المدينة، فانضافوا إلى سكانها من الأوس والخزرج واليهود، مما جعل المدينة في حاجة إلى تنظيم سكاني جديد، وتخطيط عمراني، يهيئ لدولة الإسلام السبيل إلى التقدم، لهداية الضالين إلى صراط الله المستقيم، وحمل نعمة الإسلام إلى العالمين.

وقد نظم الرسول الكريم –بتوفيق من رب العالميين– الحياة في المجتمع الجديد في المدينة المنورة، وثبت قواعد العمران فيها بعد أن أصبح –صلوات الله وسلامه عليه– الإمام والقائد يبلغ الوحي، ويغرس الثبات والصبر واليقين في قلوب المؤمنين وهو في الوقت نفسه ينظم الحياة في مجتمع الدولة الإسلامية ويحكم في كل خلاف يشجر بين أفراد هذا المجتمع، وييسر أسباب الحياة للمهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، ونصرة لدين الحق الذي ارتضاه لعباده، وبعث به خاتم أنبيائه ورسله.

ومن الثابت أن المهاجرين استقبلوا استقبالاً حسناً من إخوانهم المسلمين في المدينة، غير أن إقامتهم واستقرارهم وتدبير معيشتهم، كانت من الأمور التي تحتاج إلى تنظيم في مدينة يشكل اليهود جزءاً من سكانها، ويضمرون للمسلمين الحقد والكره والشر، مما يجعل من المتوقع أن يظهر غدر اليهود بالمسلمين في وقت من الأوقات، ويدعو

إلى أخذ الحيطة والحذر، كما أن الرسول –صلى اللّه عليه وسلم– تـرك وراءه فـي مكة عدواً لدوداً من المشركين المنكرين لدين اللّه الحق، وكان هذا العـدو يتـربص بالمسلمين الدوائر ويبيت في نفسه العدوان، فكانت حماية المسلمين في المدينـة مـن عدوانه تحتاج إلى تثبيت الجبهة الداخلية في المدينة، وبنائها بناءً قوياً يستطيع الصمود في وجه الخطر الخارجي المتوقع.

وقد عالج الرسول –صلى اللّه عليه وسلم– هذه الأمور جميعاً– بعد اسـتقراره فـي المدينة– معالجة حكيمة، فنظم الحياة بين سكان المدينة تنظيماً يكفل لهـم الاسـتقرار والتعاون فيما بينهم لصد الخطر الخارجي، وأرسى قواعد دولة إسـلامية عظيمـة لا مثيل لها في التاريخ، فأصبح للعمران في المدينة المنورة خصائص مميزة سنعرضها فيما يلي:

ثالثاً– خصائص العمران في المدينة:

نستطيع التعرف على خصائص العمران في المدينة المنورة في عصـر الرسـول – صلى اللّه عليه وسلم– إذا درسنا أَعمال الرسول الكريم بعد هجرته واسـتقراره فـي المدينة، وإقامته دولة الإسلام فيها.

وكان مجتمع المدينة يتكون من طائفتين واضحتين بعد الهجرة النبوية، طائفة المسلمين وطائفة غير المسلمين، وكانت طائفة المسلمين تتكون من المهاجرين الذين هـاجروا مع الرسول من مكة إلى المدينة، ومن الذين أسلموا من أَهـل المدينـة مـن الأوس والخزرج، ومن الذين أسلموا من اليهود وهم قلة.

أما طائفة غير المسلمين فكان أكثر أفرادها من اليهود ثم من الذين لم يسـلموا مـن الأوس والخزرج.

وقد حرص الرسول الكريم –صلوات الله وسلامه عليه– على توفير أسـباب الحيـاة الآمنة المريحة لجميع سكان المدينة المنورة من مسلمين وغير مسـلمين مـع صـبغ المجتمع بالصبغة الإسلامية، فجعل للعمران خصائص أهمها:

١– المسجد مركز تجمع المسلمين:

كان أول عمل قام به الرسول –صلى اللّه عليه وسلم– بعد استقراره في المدينة بناء المسجد، ليكون مكاناً يجتمع فيه المسلمون، وكان هذا العمل من جانب الرسول دليلا على أن بناء المسجد هو أول سمة من سمات المدن الإسلامية، وأول شيء يجب أن يبنى فيها، فهو أول خصيصة من خصائص العمران في ظل الإسلام، ولذلك بدأ الرسول الإمام القائد –صلى اللّه عليه وسلم– به في المدينة المنورة حين صارت مقراً له، وقاعدة للدولة الإسلامية، وقد صار هذا العمل أهم خصائص العمران في المدن الإسلامية في أنحاء العالم المختلفة، فكان أول عمل يقوم به قائد المسلمين المجاهدين بعد النصر والفتح بناء مسجد في المدينة المفتوحة، وقد فعل المسلمون هذا في كل مدينة يسر اللّه لهم فتحها سواء في بلاد الفرس أو في بلاد الهند أو في أي مكان آخر من العالم، تمكن المجاهدون المسلمون بفضل اللّه من الوصول إليه، وكان المسجد مركز تجمع المسلمين في العبادات، وفي الدراسة والتعلم، وفي المعاملات، كما كان المسجد مركز إشعاع، يشع منه نور الإسلام في المنطقة التي أشرقت عليها شمس الدين الحنيف.

لقد كان ما فعله الرسول –صلى اللّه عليه وسلم– بعد استقراره في المدينة المنورة بقليل سنة، اتبعها ولاة المسلمين وقادتهم بعد عصر الرسول الكريم، فقاموا ببناء المساجد في المدن الإسلامية وجعلوا بناء المسجد أول عمل يقومون به.

وكان المسجد هو المقر الذي اتخذه رسول اللّه –صلى اللّه عليه وسلم– في المدينة المنورة، وهو إمام المسلمين وقائدهم، لأنه المكان الذي تؤدى فيه جماعة المسلمين الصلوات والشعائر الدينية، وتتشاور فيه في شؤونها المختلفة، من حرب وسلم ومعاملات، وتستقبل فيه الوفود، فهو المكان الذي تتحد فيه القلوب، ويشعر فيه الجميع بأنهم في ضيافة الله سواسية لا فرق بين حاكم ومحكوم وغني وفقير وقوي وضعيف وعالم وجاهل، فالكل عبيد اللّه يرجون رحمته، ويخشون عقابه، ويدعونه ضارعين طالبين مغفرته ورضوانه، وهكذا تبدو أهمية البدء ببناء المسجد في المدينة الإسلامية وجعله الخصيصة الأولى من خصائص العمران في المدن الإسلامية.

٢-إقامة ولي الأمر بجوار المسجد:

أما الخصيصة الثانية من خصائص العمران في المدن الإسلامية، فهي إقامة ولي الأمر بجوار المسجد، وقد فعل رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- هذا الأمر بعد استقراره في المدينة المنورة، فقد اتخذ مسكنه بجوار المسجد بعد بنائه، وكان صلوات اللّه وسلامه عليه يخرج من بيته إلى المسجد رأساً- كما ذكر ابن هشام في سيرته- فأصبح هذا الأمر تخطيطاً عمرانياً طبق في المدن الإسلامية بعد عصر الرسول -صلى الله عليه وسلم- اقتداءً به، وتطبيقا لسنته، فكان ولاة المسلمين يقومون ببناء المساجد أولاً ثم يبنون بيوتهم ودواوينهم بجوار المساجد، فكان مسكن الوالي في عاصمة ولايته بجوار المسجد.

وقد حقق هذا الأمر فائدة كبرى فقوى الصلة بين الراعي والرعية، ووثق الرابطة بين أفراد الجماعة الإسلامية، وزاد الألفة بينهم، فصار المؤمنون جسداً واحداً، يشعر كل عضو فيه بما يصيب العضو الآخر، وقوى بذلك بناء المجتمع الإسلامي، وأصبح مجتمعاً فريداً، لم يشهد له التاريخ مثيلاً في سمو الخلق، وصلة الرحم، وانتشار التراحم والتعاطف والود بين أفراد المجتمع بحيث يحب الواحد منهم لأخيه ما يحبه لنفسه، بل قد يؤثر أخاه على نفسه لأنه يراقب اللّه في كل أعماله، ويرجو بها ثواب الله ويخشى عقابه.

٢- العقيدة تحدد مكان الإقامة:

والخصيصة الثالثة من خصائص العمران الإسلامية هي تحديد مكان الإقامة في المدينة الإسلامية على أساس العقيدة، وقد اتضح هذا الأمر منذ استقرار الرسول الكريم -صلى اللّه عليه وسلم- في المدينة المنورة، واتخاذها قاعدة لدولة الإسلام.

وكان المسلمون في المدينة يتكونون من المهاجرين الوافدين مع رسول اللّه - ﷺ - ومن الذين أسلموا من سكان المدينة الأصليين من الأوس والخزرج وبعض اليهود وهم الذين سموا الأنصار، لأنهم هم الذين آووا المهاجرين من مكة ونصروهم.، بعد

أن تركوا ديارهم وأموالهم وأصبحوا في حاجة إلى ضمان معيشتهم في المدينة المنورة.

وقد أحسن المسلمون من سكان المدينة الأصليين استقبال إخوانهم المهاجرين وأعطوهم شيئاً من المال، كما سمحوا لهم بالتجارة والزراعة، فعمل بعض المهاجرين في مزارع إخوانهم الأنصار مزارعة، واستطاع المهاجرون بذلك أن ينظموا أمور معيشتهم.

وهكذا أصبحت العقيدة هي الأساس الذي قام عليه التنظيم العمراني في المدينة المنورة في عصر الرسول – ﷺ – وصار مبدأ الأخوة الإسلامية هو السائد في المجتمع الإسلامي وهو المبدأ الذي قرره اللّه جل وعلا في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} وقرره الرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم– في قوله "المسلم أخو المسلم" وبهذا أصبحت رابطة العقيدة أقوى من رابطة الدم، لأن لحمة الدم فشلت – قبل الإسلام في التأليف بين قلوب سكان المدينة الأصليين – كما ذكرنا – فأحل الإسلام محلها رابطة العقيدة، وجعل الرسول –صلى الله عليه وسلم– هذه الرابطة خصيصة من خصائص التنظيم العمراني في قاعدة دولة الإسلام، ثم أصبحت خصيصة من خصائص العمران في المدن الإسلامية بعد عصر الرسول.

وكانت رابطة العقيدة هي التي أصلح بها الرسول – ﷺ – بين الأوس والخزرج، وجمعهم في اسم واحد هو الأنصار، فبعدت عنهم روح العصبية، وتآلفوا لنصرة دين الله الحق الذي أنعم اللّه به عليهم، وصار ذلك الاسم علماً عليهم، فعرفوا جميعاً به.

كما ألف الرسول الكريم – ﷺ – برابطة العقيدة بين المهاجرين والأنصار، وجعل المؤاخاة هي الأساس الذي يبنى عليه التآلف، فجعل كل رجل من المهاجرين يؤاخي رجلاً من الأنصار، فيصير الرجلان أخوين، تربط بينهما المؤاخاة برباط كرباط الدم.

وقد حققت المؤاخاة الهدف المنشود، فألفت بين قلوب المسلمين جميعاً في المدينة المنورة من مهاجرين وأنصار، فكان رباط العقيدة أقوى أسس التنظيم العمراني في المدن الإسلامية في مختلف العصور.

٤- تنظيم العمران والحياة وفقاً لدستور:

وكانت الخصيصة الرابعة من خصائص العمران في المدن الإسلامية تنظيم العمران والحياة على أسس قويمة وفقاً لدستور، يستمد مبادئه من كتاب الله جل وعلا، ومن هدى الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما حدث في المدينة المنورة، بعد الهجرة النبوية، واستقرار المسلمين فيها، واتخاذها قاعدة لدولة الإسلام فقد آخى الرسول الكريم - ﷺ - بين المسلمين على اختلاف قبائلهم ثم حدد العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين من سكان المدينة المنورة من ناحية، وبين سكان المدينة من مسلمين وغير مسلمين وسكان شبه الجزيرة العربية خارج المدينة المنورة من ناحية أخرى، وكتب الرسول - صلى الله عليه وسلم- صحيفة لتحديد هذه العلاقات وتوضيحها وتنظيم العمران والحياة، في قاعدة دولة الإسلام، ثم في المدن الإسلامية بعد ذلك.

وكانت هذه الصحيفة دستوراً مكتوباً، يقوم على أساس من العلم بأحوال الناس والفهم الدقيق لظروفهم، ويقرر العلاج الناجع لاستمرار حياتهم واستقرارها.

وقد كتبت الصحيفة بعد استقرار الرسول ﷺ في المدينة المنورة وحدد الرسول الكريم فيها العلاقات بين سكان المدينة من المهاجرين والأنصار واليهود، وبينهم وبين الذين يحيطون بهم من سكان العالم حينذاك، وكانت كتابتها بعد العام الأول من الهجرة النبوية، أي بعد إقامة الدولة الإسلامية فأصبحت من الوثائق ذات الأهمية البالغة، اللازمة لفهم الأحداث التي وقعت بعد كتابتها، ولتوضيح خصائص العمران في المدينة المنورة في عصر الرسول - صلى اللّه عليه وسلم- وفي المدن الإسلامية جميعها بعد ذلك.

أما سكان المدينة المنورة في عصر الرسول الكريم فكانوا طائفتين طائفة المسلمين الذين دخلوا في دين اللّه الحق واستجابوا لدعوة الرسول- صلى اللّه عليه وسلم- من المهاجرين والأنصار الذين ربطت كلمة التوحيد بين قلوبهم فصاروا يكونون أمة الإسلام، التي تحمل أَمانة الدعوة إلى دين اللّه الحق، وتجاهد في الله حق جهاده، حتى تصير كلمة اللّه هي العليا فتنتشر أشعة شمس الإسلام في أرجاء العالم

المختلفة، وقد حددت الصحيفة الصلات بين المسلم وأخيه المسلم والعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين من سكان المدينة الذين هم أَفراد الطائفة الثانية، وبينت الحقوق والواجبات بالنسبة للجميع.

وقد أورد ابن إسحاق في سيرته نص هذه الصحيفة، وسجل هذه الوثيقة القيمة المنظمة للعمران والحياة في المدينة فهي تكفل للسكان من غير المسلمين- وأكثرهم من اليهود- حقوقهم وتبين ما عليهم من واجبات، فقد وادع الرسول الكريم في تلك الصحيفة اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم كما جعل عليهم الاشتراك مع المسلمين في مواجهة الظروف الإقتصادية الصعبة إذا وجدت، وفي صد العدو الخارجي إذا هاجم المدينة، غير أن اليهود غدروا وتآمروا على الرسول -صلى اللّه عليه وسلم- وعلى جماعة المسلمين، فكان إخراجهم من المدينة في عصر الرسول الكريم جزاءً وفاقاً لهم، وكان لهذا الأمر أثره في المدينة المنورة منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا.

وكانت نصوص الصحيفة مستمدة مما جاء في القرآن الكريم، فنصت على أن المسلمين أمة واحدة، وأن هذه الأمة خير أَمة أخرجت للناس، لقول اللّه تعالى في سورة آل عمران: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه}.

وحثت الصحيفة المسلمين على التراحم والتعاون بينهم مصداقاً لقول اللّه عز وجل في سورة الأنفال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض}.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} كما دعت الصحيفة إلى مراعاة حقوق القربى والصحبة والجوار تطبيقاً لقول اللّه سبحانه في سورة النساء: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ..}.

ودعت الصحيفة كذلك إلى التمسك برباط الولاء ومراعاة حقوق الموالاة، امتثالاً لأمر الله عز وجل في سورة النساء: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَـرَكَ الْوَالِـدَانِ وَالأَقْرَبُـونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً}.

كما دعت إلى مراقبة الله في كل عمل، لأن الإنسان سيحاسب على الصغيرة والكبيرة، كما قال الله عز وجل في سورة الزلزلة: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ} ولا يخفى ما لهذا من أثر في الحياة والعمران.

ودعت الصحيفة كذلك إلى ترك عادات الجاهلية، ورد الأمور إلى الله ورسوله والإلتزام بحكم اللّه ورسوله في كل أمر، امتثالاً لأمر اللّه سبحانه في قوله في سورة النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْـرِ مِـنْكُمْ فَـإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِـكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}.

وهكذا قام المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة – التي أسست فيها دولة الإسـلام– على أسس ثابتة من تقوى اللّه، ومن المبادئ القويمة التي جاء بها الإسلام في كتـاب اللّه الكريم.

وفي قول الرسول وعمله، وكان لهذأ أثر واضح في طبيعة العمران وخصائصه فـي المدينة المنورة، وفي سائر المدن الإسلامية في عصور قوة المسـلمين، والتـزامهم بمبادئ دينهم الحق القويم.

وواضح أن خصائص العمران في ظل الإسلام، قد تغيـرت تغيـراً جوهريـاً عـن خصائصه قبل الإسلام، فقد جعل الإسلام المسلمين جميعا أمة واحدة يتساوى أفرادها في الحقوق والواجبات، و بذلك أصبح الإسلام يجب ما قبله، وصار الشعار والـدثار لسائر المسلمين.

وكانت أمة الإسلام في المدينة المنورة أمة فاضلة، تراقب الله في أعمالها فـلا تبـدأ بالعدوان، بل تحب السلام، وتحمي الجار وتنصر المظلوم، وتلتـزم بالعهـد، وتفـي بالوعد، وكانت تضم المسلمين وغير المسلمين الذين أدمجوا في الأمة بنص صـريح

في الصحيفة، وكان المسلمون بقيادة الرسول- صلى اللّه عليه وسلم- هم قلب هـذه الأمة النابض بالحياة والحركة وكانت الأمة تزداد قوة، كلما أزداد الدين انتشاراً.

وقد حرصت الأمة الإسلامية على استقرار الحياة والعمران في المدينة المنورة، ومنع نشوب الحروب الداخلية، وأوجبت تحكيم الرسول في كل ما يشـجر مـن خـلاف، والتسليم بما يقضى به، وتطبيق مبدأ العقاب بالمثل فالنفس بـالنفس والعـين بـالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص تنفيذاً لأمـر الله عـز وجل الذي جاء في سورة المائدة، مما ساعد على أستتاب الأمن والسلام في منطقـة المدينة المنورة.

كما أوجبت الصحيفة على أهل المدينة جميعاً أن يتحدوا لصد أي عدوان يتهدد المدينة من خارجها، فتكامل بذلك نظام الأمة، وصارت الهجرة إلى المدينة شرطاً للحصـول على رعاية الدولة الإسلامية، تطبيقاً لقول اللّه تعالى في سورة الأنفال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الـدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ}.

٥- حماية المدينة من الغزو الخارجي والتمرد الداخلي:

أما الخصيصة الخامسة من خصائص العمران في المدن الإسلامية فهي حمايتها مـن الغزو الخارجي والتمرد الداخلي. وقد ظهرت هذه الخصيصة في الدولة الإسلامية منذ قيامها في عصر الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعد أن وجدت فيها أداة للحكم وضم إليها ما حولها من القبائل ومن المناطق الزراعية التي تمدها بـالمؤن، فقـد وجـه الرسول - صلى الله عليه وسلم- سرايا عديدة من المدينة إلى مـا حولهـا، وكانـت السرايا حملات حربية صغيرة تهدف إلى تأمين الحدود واستكشاف ما حول المدينـة، ورد أي عدو مجاور، وكان عدد هذه السرايا ثماني سرايا، أرسلت قبل غزوة بـدر، وقاد الرسول - ﷺ - بعضها بنفسه، وقاد أَصحابه البعض الآخر.

وكان من نتيجتها عقد أحلاف مع القبائل المجاورة، لتأمين المدينة من غارات البـدو عليها ومنع أي غزو خارجي عنها، حتى تستقر الحياة والعمران فيها، فتقوى الجبهـة

الداخلية على صد أي هجوم يأتـــي من خارج المدينة وبخاصة من جانب قريش التي منعت السرايا مرور تجارتها في أراضي الدولة الإسلامية، وأَظهرت أن حدود الدولة محروسة كما أصلح الرسول في تلك الأثناء بين الأوس والخزرج حين دب النـــزاع بينهم بتحريض من اليهود، حتى يكون الإخاء والتماسك بين المسلمين عوناً لهم علـــى الانتصار على أعدائهم في الدين.

وهكذا قام العمران في المدينة المنورة ثم في سائر المدن الإسلامية على مبادئ قويمة من الأخوة في الدين والسلام بين المقيمين داخل حدود دولة المسلمين، والضرب على أيدي الخائنين والمعتدين، ونشر الدين بالإقناع لا بالإكراه، والجهاد في ســبيل اللّـــه للدفاع عن دينه الحق ولإعزاز أَمة الإسلام التي جعلها اللّه خير أمة أخرجت للنـــاس حتى تواصل حمل نعمة الإسلام – التي أنعم اللّه بها عليها– لإيصالها إلى الحيـــارى الضالين من أفراد البشر في سائر أنحاء العالم، أداء لزكاة النعمة التي أنعـــم الله بهـــا على هؤلاء المؤمنين.

خاتمـــة:

هذه دراسة سريعة موجزة لخصائص العمران في المدينة المنورة في عصر رســـول اللّه –صلى اللّه عليه وسلم– وهي القاعدة الأولى لدولة الإسلام ومركز الإشعاع الذي انتشرت منه أَشعة شمس الإسلام إلى أرجاء العالم المختلفة فهدت شعوباً كثيرة إلـــى صراط اللّه المستقيم ودخل الناس في دين الله الحق على اختلاف ألوانهم وأجناســـهم وألسنتهم فنعموا بنعمة الإسلام، الذي لا يقبل من أَحد دين غيره لقوله تعالى: {وَمَـــنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

ونستطيع من هذه الدراسة أن نتبين أَبرز خصائص العمران في المدن الإسلامية على مر العصور وهي خمس خصائص:

أولها: بناء المسجد وجعله مركزاً للحياة الإسلامية، تؤدى فيه الصـــلوات والشـــعائر الدينية، ويتلقى فيه المسلمون العلم، ويتدارسون أمورهم.

وثانيها: إقامة ولي الأمر بجوار المسجد وبناء بيوت الولاة ودواوينهم حولـــه لتقويـــة الرابطة بين الراعي والرعية ومراقبتهم جميعاً للّه في كل عمل.

وثالثها: إقامة التنظيم العمراني على أساس العقيدة، والتأليف بين المسلمـــين جميعـــاً على هذا الأساس، وإزالة الفوارق بينهم بالمؤاخاة بينهم لإبعاد روح العصبية والإتحاد صفاً واحداً لنصرة دين اللّه الحق..

ورابعها: تنظيم الحياة وفقاً لدستور يحدد العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين مـــن سكان دولة الإسلام وبين هؤلاء السكان وبين جيرانهم خارج حدود الدولـــة علـــى أن يكون هذا الدستور مكتوبا ومستمداً من كتاب اللّه، وعمل رســـول الله ﷺ وإخـــراج الخائنين للعهد من بلاد المسلمين.

وخامسها: حماية بلاد المسلمين من التمرد الداخلي والغزو الخارجي بالإصلاح بـــين المتنازعين، وقتال المعتدين، والجهاد في سبيل الله، لنصرة دينه الحق، ونشـــره فـــي الآفاق.

وإن أَوضح دليل على التمسك بمبادئ الإسلام هو الحفاظ على هذه الخصـــائص فـــي المدن الإسلامية، بحيث تظهر في تخطيطها وتنظيمها وتبقى واضحة إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وقفة مع نهاية العام الهجري ١٤٢٥هـ

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا اله إلا الله واشهد أن محمد عبده و رسوله ﷺ ...أما بعد:

أخي الحبيب، لقد وقفت أمام يوميتي لأنزع آخر ورقة بها ، آخر يوم من عمر العام المنصرم ١٤٢٥هـ ، و على غير عادتي تثاقلت يدي هذه المرة و هي تمتد إليها ، و انتابني إحساس نبه في وجداني شعوراً ، ما كنت أعيره إهتماماً على مدى أكثر من ٣٥٠ يوماً قد انتهت ، لقد أحسست بإشفاق عليها ، و قد تراءت لي كأنها تحتضر ، و ترنو إلى يدي في فزع وذل ، كأنها تطلب مني أن أمهلها لحظات تودّع فيها هذه الحياة ، فعدلت عن نزعها ، و رحت أتأمل هذه الورقة الأخيرة ، و اعترتني رهبة عندما عرفت أنني في الحقيقية بنزعها قد نزعت حزمة من أيام عمري ، لأطوي بها سجلي الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وبما فيها من خير وشر .

أخي الحبيب، إن هذه اليومية المحتضرة تشبه عمر أي مخلوق ، وإنها تتناقص أيامها مثلما تتناقص أعمارنا يوماً بعد يوم ، وكما يتناقص بتراكمات الحقب والسنين عمرُ الزمان ، وكل المخلوقات في تناقص مطرد حتى تنتهي إلى الزوال (كل من عليها فان *ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ، إن كل المخلوقات تنتهي أعمارها ، و تمضي حيث شاء الله لها ، و تطوى ، إلا هذا المخلوق (الإنسان) فإنه الوحيد الذي يبقى متبوعاً بعد رحيله من هذه الدنيا ، وموقوفاً للحساب والجزاء .

عدت من ذهولي ، و أخذت استحث ذاكرتي القاصرة ، علّها تسترجع بعض ما رسب وعلق بها من أحداث العام المنصرم ، قبل أن تغمرها دوائر النسيان ، و وقفت طويلاً أستعرض ذلك الشريط الطويل (العمر) ، يا سبحان الله العظيم ، إنه شريط عجيب حقاً ، فقد اكتظ اكتظاظاً ، و أفعم إفعاماً ، لقد اكتظ بالحوادث المختلفة ، و الأحداث

المتابينة ، و الأعمال الحقيرة والجليلة ، عنّي و عن غيري ممن لا حصر لهم ، من الذين مرّوا أمام عدسة هذا الشريط بالصوت والصورة .

لقد تذكرت هجرة المصطفى ﷺ وما كان فيها من أحداث ، وما أحوجنا – أخي الحبيب – و نحن نستقبل عاماً هجرياً جديداً أن نعيش بقلوبنا و عقولنا و مشاعرنا وواقعنا مع رسول الله ﷺ في هجرته من مكة المكرمة إلي المدينة المنورة و التي حوت على الكثير من الدروس والعبر منها على سبيل المثال لا الحصر ، قيمة الزمن وأهميته .

فلقد جاهد النبي ﷺ في سبيل الله حق الجهاد ، منذ أنزل الله عليه قوله تعالى : (يا أيها المدثر قم فأنذر و ربك فكبر ، و ثيابك فطهر) ، فكان ﷺ يواصل الليل مع النهار و السر مع الإعلان ، و ما كان يخشى في الله لومة لائم ، و لا كان يردعه عن تبليغ الدعوة تهديد قريش و وعيدها .

و استجاب له منذ البداية صدّيق الأمة أبو بكر من الرجال ، و من الصبيان علي بن أبى طالب ، و من النساء زوجته خديجة بنت خويلد . و استجاب لأبى بكر :- عثمان بن عفان ، و طلحة بن عبيد الله ، و سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم جميعا و أرضاهم .

و تعهد ﷺ أصحابه بالتربية و التعليم فكان يجمعهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم فيعلمهم ما ينز ل عليه من القران الكريم ، و يأمرهم بحسن الأخلاق و يحذرهم من الفسق و الشرك و العصيان ، وكان ﷺ قدوة لهم في جميع أقواله وافعاله.

و كان للوقت قيمة كبرى عندهم ، فكانوا يستغلون أوقاتهم في طاعة الله و في التزود من علم الرسول ﷺ و فضله ، وكانت العقيدة في نفوسهم أهم من المال و الأهل و الولد ، و عندما خيّروا بين الوطن و القبيلة و رغد الحياة و بين خشونة العيش و الغربة و التشرد اختاروا صحبة رسول الله والهجرة في سيل الله .

لقد صدق الصحابة رضوان الله عليهم ما عاهدوا الله عليه ، و عندما ابتلاهم الله صبروا وضربوا أروع الأمثلة في الفداء والتضحية ، و عندما نادى منادي الجهاد

كانوا يتسابقون على الموت في سبيل الله ولسان حالهم يقول (وعجلتُ إليك ربي لترضى) .

و بعد ثلاثة عشر عاماً من البذل و التضحية أكرم الله جل وعلا محمداً ﷺ و أصحابه رضي الله عنهم ،

بالنصر وجاءهم من جهة المدينة .

١٣ عاماً كانت محسوبة بأيامها و لياليها و ساعاتها .

١٣عاماً لا يهنأ المسلمون فيها بلذيذ الطعام والشراب ، و لا يصرفهم عن ذكر الله حب الدنيا و التثاقل إلى الأرض .

١٣ عاماً من العمل الجاد ، و التخطيط الدقيق ، والتربية الرائعة .

فأين نحن اليوم – أخي الحبيب – من سيرة الرسول وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

لقد انسلخ عام كامل من أعمارنا .. انسلخ بثوانيه ودقائقه وساعاته و أيامه ، فماذا قدمنا فيه من أعمال صالحة ندخرها ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

إن الجواب أخي الحبيب على هذا السؤال مخجل ومخجل جدا ، و لكن لابد من الاعتراف بالأمر الواقع ، فالواحد منا يخرج من بيته في الصباح الباكر ، ويمضي سحابة يومه في مدرسته أو جامعته أو عمله ، و يعود إلى بيته آخر النهار وقد أضناه التعب فيتناول طعام الغداء ويرتاح قليلاً ثم يمضي بقية اليوم وأول الليل في المذاكرة أو قضاء الأمور المعيشية ، ثم ينام ، ثم يعود في الصباح و هكذا و هكذا ، إنها و الله حياة ليست فيها دقائق مخصصة لقراءة القرآن و لتعلم أحكام ديننا و ليست فيها دقائق مخصصة لقيام الليل و صلاة السنن و النوافل و ليست فيها دقائق مخصصة لحضور مجالس الذكر و المحاضرات وليست فيها أيام لصيام الاثنين والخميس وليست فيها دقائق لبذل المعروف وقضاء حوائج الناس .

أخي الحبيب، لقد شغلتنا دنيانا عن طاعة ربنا ، ونحن الذين حذرنا جل و علا منها ، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ {٩} وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ {١٠} وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح و إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك) رواه البخاري .

وقال ﷺ (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، و عن شبابه فيم ابلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه و فيم أنفقه ، و عن علمه ماذا عمل به) السلسلة الصحيحة (٩٤٦) .

سوف يسألنا مالك يوم الدين يوم الحشر عن أعمارنا ، هل أفنيناها في الأعمال الصالحة والطاعات ، أم أفنيناها في اللهو والغفلة والعبث .ويسألنا سبحانه وتعالى عن أجسامنا هل أبليناها بالصيام والقيام وغض البصر وحفظ السمع واللسان ، أم أبليناها في تناول ما لذ و طاب من الطعام والشراب .و السائل جلّ وعلا يعرف خفايا أمورنا ، و لا يعجزه شي ء في الأرض و لا في السماء .

قال تعالى : (ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

أخي الحبيب، إن الكثير من أبناء المسلمين في معظم البلاد العربية و الإسلامية يحتفلون بذكرى الهجرة في كل سنة ، ولكن للأسف الشديد القليل جداً منهم الذي يعرف الحكمة التي انطوت عليها حادثة الهجرة ، فالله عز وجل في كتابه العزيز قد انحى باللائمة على جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في مكة يصلون و يصومون فقط ، و لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك من مظا هر الدين لأنهم كانوا تحت سلطة قريش و لا قوة لهم عليها ، ثم هم لم يهاجروا إلى قلعة الإسلام

ليكونوا من جنودها ويظهروا شعائر دينهم بكل راحة ، فأنزل الله فيهم قوله تعالى: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) .

فالحكمة أخي الحبيب من الهجرة هي أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة و الصوم فقط ، بل يريد منهم مع ذلك أن يطبقوا كل أوامر الله عز وجل و أوامر رسوله ﷺ الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي كل أمور حياتهم اليومية كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة و لا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) و السلم هو الإسلام ، و قال تعالى : (قل إن صلاتي و نسكي و محياي ومماتي لله رب العالمين) .

أخي الحبيب، إن الهجرة باقية لم تنتهي بعد ، فقد قال ﷺ : (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، و لا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) رواه ابوداود و النسائي ، صحيح الإرواء (١٢٠٨) .

و عن عبد الله بن عمير عن أبيه عن جده ، أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أفضل الهجرة ؟ قال : (من هجر ما حرم الله) . مشكاه المصابيح (٣٨٣٣) .

و قال ﷺ في حجه الوداع : (ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه الناس على أموالهم و أنفسهم . و المسلم ؟ من سلم الناس من لسانه ويده . و المجاهد ؟ من جاهد نفسه في طاعة الله . و المهاجر ؟ (وهنا الشاهد) من هجر الخطايا و الذنوب) السلسلة الصحيحة (٥٤٩) .

فلابد من الهجرة من ترك الصلاة مع الجماعة و النوم عن الصلوات إلى الصلاة على وقتها مع الجماعة في الصف الأول . و لابد من الهجرة من قراءة المجلات والجرائد التافهة إلى قراءة القرآن الكريم و تدبر آياته .

و لابد من الهجرة من سماع الأغاني و التلذذ بالغيبة إلى سماع القرآن والمحاضرات المفيدة .

ولابد من الهجرة من النظر المحرم في المجلات و الأسواق و القنوات إلى النظر في كتاب الله و سنه رسوله و سيرته و عظمة الله في مخلوقاته .

ولا بد من الهجرة من الكذب و الغيبة و الكلام البذيء إلى ذكر الله عز وجل و دعائه و التلذذ بمناجاته .

ولا بد من الهجرة من الجلسات الفارغة و التافهة إلى مجالس الذكر و حضور المحاضرات النافعة .

ولا بد من الهجرة من أصدقاء السوء سواءً كانوا من الأقارب أو من زملاء الدراسة والعمل ، الذين يصدون الإنسان عن سلوك طريق الالتزام والهداية ، إلى الإخوة الصالحين الذين يدلون على الخير و يعينون المسلم عليه .

وباختصار لا بد من الهجرة من كل ما يغضب الله ، إلى كل ما يرضي الله ، و من كل معصية يبغضها الله إلى كل طاعة يحبها الله .

أخي الحبيب، أن بداية العام الهجري الجديد فرصة لكل واحد منّا لكي يفتح صفحة جديدة مع الله عز و جل ، صفحة بيضاء نقية ، يعاهد الله فيها أن يسلك طريق الالتزام و الهداية ، يعاهد الله فيها أن يكون كتاب الله عز وجل جليسه ، و ذكر الله عز و جل أنيسه ، و قيام الليل و صيام النهار سبيله ، و الأخ الصالح في الله نديمه .

صفحة يعاهد الله فيها أن يترك كل معصية تبغضه ، و كل أغنية ماجنة من القرآن تحبسه ، و كل نظرة محرمة للقلب تقتله ، وكل جليس سيئ من الله يبعده .

بهذا و هذا وحده نحيي ذكرى الهجرة الشريفة ، و نحقق مقاصدها ، و هذا هو الفلاح الذي يدعونا إليه المؤذن خمس مرات في كل يوم عندما يدعونا إلى الوقوف بين يدي الله عز و جل .

اللهم أجعل عامنا القادم أفضل من عامنا الماضي بتوفيقنا لطاعتك و ترك معصيتك يا رب العالمين ، اللهم اجعل عامنا القادم فرصة لقبولنا في قافلة العائدين إليك والمنيبين إليك يا ذا الجلال و الإكرام ، و صلى الله على نبينا محمد و على آله و صحبه و سلم

مفهوم الهجرة من .. إلى ..

حمزة الحمزاوي

باحث تربوي

مع دخولنا عام هجري جديد .. جلست متأملاً متسائلاً .. كيف يمكن أن أستفيد وأفيد من مفهوم الهجرة بشكل واقعي معاصر بعد أن أرشف هذا المفهوم في سجل التاريخية ليس إلا .. وبعد أن حصر في ترجمة الانتقال المكاني بهجر الأرض ومتعلقاتها من المال و الولد وسواها .. لذا لابد بداية أن أشير إلى عدة نقاط أبرزه مايلي قبل أن أبسط ما توصلت إليه من مقترحات عملية .

١- الهجرة بين النفي والإثبات :

لعل الفهم الخاطئ لحديث رسول الله ﷺ الصحيح : ((لاهجرة بعد الفتح ...)) هو الذي أسهم في تكوين هذه الذهنية التقليدية وعدم تطوير مفهوم الهجرة ولكن المطَّلع المتبصِّر على مجمل النصوص الواردة في لفظ ((هجر))

يجد في حديث رسول الله ﷺ منفذاً جديداً وبعداً آخر يوضح مفهوم الهجرة العام الذي لا ينقضي ما دامت السموات والأرض قائمة على أصولها .. ألا وهو حديث رسول الله ﷺ والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ...))

٢- هجرة المكان إلى هجر المكانة :

ومما يتضح في النصين السابقين أن هنالك الهجرة المكانية المعنية في النص الأول بينما هناك إشارة واضحة إلى هجرة المكانة أي من مكانة المعصية والانحراف إلى مكانة الطاعة والالتزام وهكذا .

٣- الهجرة من .. إلى :

فإذا استقر في ذهننا إثبات الهجرة وبقائها في مفهومها (المكاني) فلابد من مستلزمات الهجرة من إمكانية التحول من ...إلى .. أي من المعصية إلى الطاعة من الخطأ إلى الصواب من الباطل إلى الحق ...ويبقى صحة المسار تدل عليه النيات في

مبتدأ الأعمال ((فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها .....فهجرته إلى ما هاجر إليه ....))

٤- هجرة ((المعاصي)) :

وحتى يتضح هذا المفهوم الجديد كان لابد من أن أعرج إلى المعصية لأعرفها بان يأمرك الله فلا تنقاد ولا تأتمر وأن ينهاك فتنتهك ... وأن يسكت عن أشياء رحمة بك ... فتتجاوز في استغلالك لهذا السكوت وتبالغ في صرف وقتك ومالك وصحتك في هذا المباح أصلاً لينقلب إلى ضده .

فكما هو معلوم أن مدار أفعال العبد المكلف مقسومة إلى واجب وحرام مندوب ومكروه .. ومباح .. وحتى المباح ينصرف بالنتيجة إلى إحدى الأشكال الأربعة السابقة في حال سوء استخدام هذا المباح .

ومن ثم لابد من أن نفهم أن أوامر ونواهي والله .. تشمل كل من علاقة الإنسان بالله و الحياة و الإنسان .

وبالتالي جدير بالحصيف المفكر .. أن يجلس ساعة صفاء مع الله .. ويختلي بنفسه عن باقي المخلوقات ... ويحصر ذهنه في جملة الأوامر التي لا يأتيها .. وجمل النواهي التي ينتهكها .. وجملة المسكوتات التي يتجاوز ويخطئ في استخدامها .. تجاه الله و الحياة برمتها .. زمانا ومكاناً وأحياءْ . وتجاه الإنسان الذي يمت له أو لا يمت بصلة والذي لايمت فضلاً عن ذاته بأبعادها .

وإليك عزيزي القارئ بعد هذه المقدمات هذا الجدول العملي :

مفهوم الهجرة من .. إلى ..

حمزة الحمزاوي

باحث تربوي

الهجـــــــــرة مـــــــن

- هجر القرآن وعدم تلاوته وتدبره .
- هجر سوء الظن بالله .

• المعتقدات الباطلة و الاستغاثات الشركية والحجب والاستعانة العرافة و الكهانة .
• حب المال والأثرة وحب الذات
• كثرة النوم وجفاء لقاء الله بالقيام
• كثرة الإقبال على الطعام و الشراب و اللذات .
• من التعصب الأعمى وكل ما يجر إلى الخلاف
والضعف والبغض .
• من قطع الرحم والإساءة للقرابة .
• من اهمال الزوجة وتضييع واجباتها .
• من اهمال الوالدين والتعذر بالمشاغل .
• من تخل عن مسؤولية التربية تجاه الأولاد .
..... الخ .

الهجـــــــرة إلـــــــى

• إلى الاعتناء بالقرآن وتحديد ولو صفحة واحدة في اليوم للقراءة الاعتماد والتوكــل وحسن الظن به .
• إلى تصحيح الاعتقاد و التوبة و الاستغفار و الكفر
بالطاغوت وكل مافيه شرك لله .
• إلى الزكاة والصدقة وتطهر المال من الحرام .
• إلى قيام الليل و القنوت له على الدوام .
• إلى ضبط الشهوات و الابتعاد عن الحرام و صيام عدة أيام في الشهر لله تعالى .
• من تضييع الوقت وقتله فيما لا فائدة فيه .
• من إخلاف المواعيد .
• من الإساءة إلى البيئة بأنواع الملونات والنفايات
والقاذورات .
• من الاعتداء أو عدم الاهتمام إلى العرق الأخضر والإساءة إلى التراب و الأرض .

• من الاعتداء على الحيوانات والإساءة إليها .
• إلى استثماره وتنظيمه وحسن تقسيمه .
• إلى ضبط المواعيد وحسن الالتزام .
• إلى الإحسان للبيئة وضبط النفايات الشخصية مهما دقت وصغرت وأينما وجدت .
• إلى فقه الإحسان إلى النباتات والمزروعات وكذلك إلى التراب والأرض والرحلة إليها .
• إلى الإحسان للحيوانات في حالة حياتها وعند ذبحها .
• إلى التسامح واللين والخلق الحسن وكل ما فيه ود وحب واحترام متبادل .
• إلى صلة الأرحام والإحسان للقرابة وزرع المودة والحب .
• إلى الاهتمام وإعطاء كل ذي حق حقه وخلق الحب والإبداع
• إلى تخصيص أيام لهم ، ولخدمتهم ، دون توان أو فتور .
• إلى تنظيم شؤون الأسرة والاحتفاء بالأولاد وملاعبتهم وقضاء بعض الأوقات معهم
• هجر كل ما سبق .
• من ظلم النفس والفتور والكسل والعجز .
• من العادات السلبية والسيئة في المأكل والمشرب والصحة العامة والنوم المتأخر وإهمال الرياضة بأنواعها .
• من تضييع حصة الدراسة والقراءة وتضييع بناء الثقافة الذاتية من مختلف منافذها .
• من العمل المضني الشاق الذي يأخذ العمر كله .
• من إيذاء العين والأذن والأنف واللسان وكافة الحواس والأعضاء ..... الخ .
• إلى كل ما فيه خير وأمثل .
• إلى احترام النفس والنشاط والهمة والتحدي .
• إلى تنظيم وبناء عادات صحية وسليمة على نطاق نظام الغذاء ومراجعة الأطباء المختصين و النوم الباكر وممارسة نوع من أنواع الرياضة .
• إلى تحديد أوقات خاصة للمطالعة

• إلى العمل المنظم المنضبط الذي يحقق الدخل الجيد مع فرط الوقت والجهد .

• إلى صيانة كل ذلك عن الحرام وتحصينها بما أمر به الله ...الخ

أخي المسلم .. أختي المسلمة بإمكانكم تحديد غير هذه النقاط أو تبديلها المهم عندي وضوح الفكرة وأن يهجر كل منا السلبية المقيتة إلى الإيجابية و التفاعلية .. وحفظ شعار (ضع هدفك ..نفذه ..راجعه ..انتقده .. طوره) ...عسى أن أكون قد أوصلت الرسالة وأعطيت للهجرة مفهوماً عملياً باقياً إلى يوم القيامة مستخلصاً من هدي النبوة .. فإن كان صواباً فمن الله والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات وإن كان خاطئاً فمني ومن الشيطان . أرجو التصويب على هذا العنوان : (HAMZAWI-CO@MAKTOOB.COM) راجين من المولى حسن القبول .. وكل عام أنتم بخير .

التاريخ الإسلامي الهجري

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

إنه من المؤسف حقا أن يعدل المسلمون أكثرهم اليوم عن التاريخ الإسلامي الهجري إلى تاريخ النصارى الميلادي الذي لا يمت إلى دينهم بصلة ولئن كان بعضهم شبهة من العذر حين استعمر بلادهم النصارى وأرغموهم على أن يتناسوا تاريخهم الإسلامي الهجري فليس لهم الآن أي عذر في البقاء على تاريخ النصارى الميلادي وقد أزال الله عنهم كابوس المستعمرين وظلمهم وغشمهم.

قال الله تعالى: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ...). (التوبة:٣٦)

اليوم استقبلنا عاما إسلاميا هجريا جديدا، ابتداء عقد سنواته من أجل مناسبة في الإسلام ألا وهي هجرة النبي التي ابتدأ بها تكوين الأمة الإسلامية في بلد إسلامي يحكمه المسلمون.

ولم يكن التاريخ السنوي معمولا به في أول الإسلام حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب ، ففي السنة الثالثة أو الرابعة من خلافته (سنة ست عشرة أو سبع عشرة من الهجرة) كتب إليه أبو موسى الأشعري : "إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ".

فجمع عمر الصحابة رضي الله عنهم فاستشارهم ، فيقال إن بعضهم قال: "أرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكها كلما هلك ملك أرخوا بولاية من بعده"، فكره الصاحبة ذلك، فقال بعضهم: "أرخوا بتاريخ الروم" فكرهوا ذلك أيضا، فقال بعضهم: "أرخوا من مولد النبي "؛ وقال آخرون: "من مبعثه" وقال آخرون: "من مهاجره"، فقال عمر: "الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها فأرخوا من الهجرة " واتفقوا على ذلك.

ثم تشاوروا، من أي شهر يبدئون السنة؟ فقال بعضهم: من ربيع الأول لأنه الشهر الذي قدم فيه النبي مهاجرا إلى المدينة وقال بعضهم: من رمضان لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن واتفق رأي عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم على ترجيح البداءة بالمحرم لأنه شهر حرام ويلي ذي الحجة الذي فيه أداء الناس حجتهم الذي به تمام أركان الإسلام لأن الحج آخر ما فرض من الأركان الخمسة ثم أنه يلي الشهر الذي بايع فيه النبي الأنصار على الهجرة وتلك المبايعة من مقدمات الهجرة فكان أولى الشهور بالأولية شهر المحرم..

أما بالنسبة لتسمية الشهور، فالمحرم سمى المحرم لأن العرب كان يحرمون القتال فيه، وصفر سمي صفراً لأن العرب كان يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صفر المتاع ، وشهر ربيع الأول لأن العرب كانوا يرتبعون فيه أي لرعيهم فيه العشب فسمى ربيعاً، وجمادى لجمود الماء فيه، ورجب سمي رجباً لترجيبهم الرماح من الأسنة لأنها تنزع منها فلا يقاتلوا، وشعبان لأنه شعب بين رمضان ورجب، ورمضان لرموض الحر وشدة وقع الشمس فيه، وشوال لشولان النوق فيه بأذنابها إذا حملت، وذو القعدة سمي ذا القعدة لقعودهم في رحالهم عن الغزو لا يطلبون كلاً ولا ميرة، وذو الحجة سمي ذا الحجة لأنهم يحجون فيه.

قال تعالى: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) فمن هذه الأشهر التي ذكرها الله في كتابه أربعة حُرم، ثلاثة منها متوالية وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، والرابع منها مفرد وهو رجب بين جمادى وشعبان. قال النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع: ((أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان)).

وسميت هذه الأشهر الأربعةُ حرماً لعظم حرمتها وحرمة الذنب فيها، روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : اختص الله تعالى أربعة أشهر

جعلهن حرماً وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيها أعظم، وجعل العمل الصالح والأجر أعظم، وخصّ الله تعالى الأربعة الأشهر الحُرُم بالذكر، ونهى عن الظلم فيها بقوله سبحانه (فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أنفسكم) تشريفاً لها، وإن كان الظلم منهيّاً عنه في كل الزمان. والمقصود بقوله تعالى :(فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أن لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال، ولا تظلموا فيهنّ أنفسكم بارتكاب الذنوب والآثام.

شهور السنة الهجرية هي الشهور الهلالية التي هي عند الله تعالى في كتابه كما قال تعالى: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم) الشهور التي جعلها الله تعالى مواقيت للعالم كلهم قال الله عز وجل: (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس) مواقيت للناس كلهم بدون تخصيص لا فرق بين عرب وعجم ذلك لأنها علامات محسوسة ظاهرة لكل أحد يعرف بها دخول الشهر وخروجه فمتى رؤي الهلال من أول الليل دخل الشهر الجديد وخرج الشهر السابق.

أما الشهور الإفرنجية فهي شهور وهمية غير مبنية على مشروع ولا معقول ولا محسوس بل هي شهور اصطلاحية مختلفة بعضهم واحد وثلاثون يوما وبعضهم ثمانية وعشرين يوما وبعضهم بين ذلك لا يعلم لهذا الاختلاف سبب حقيقي معقول أو محسوس ولهذا طرحت مشروعات في الآونة الأخيرة لتغيير هذه الأشهر على وجه منضبط لكنها عورضت من قبل الأحبار والرهبان فتأمل أيها المسلم كيف يعارض رجال دين اليهود والنصارى في تغيير أشهر وهمية مختلفة إلى اصطلاح أضبط لأنهم يعلمون ما لذلك من خطر ورجال دين الإسلام ساكتون بل مقرون لتغيير التوقيت بالشهور الإسلامية بل العالمية التي جعلها الله لعباده حيث عدل عنها المسلمون لتغيير التوقيت بالشهور الإفرنجية. وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله فقيل له: إن للفرس أياما وشهورا يسمونها بأسماء لا تعرف فكَرِه ذلك أشد الكراهية.

ومن أهمية اتخاذ كل مسلم السنة الهجرية تاريخا له هو تعلق العبادات من صيام (كصيام رمضان وست من شوال ويوم عرفة وعاشوراء) وحج بيت الله الحرام

وغيرها من العبادات بالشهور والسنين التي تعرفها العرب، دون الشهور التي تعتبرها العجم والروم والقِبط، فلا يليق بالمسلمين أن يقدموا الشهور العجمية والرومية والقبطية على الشهور العربية. قال تعالى (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الاهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجّ)[البقرة:١٨٩].

وعلينا أن نشكر الله على ما يسره لنا من هذا الحساب البسيط الميسر .

إن على الأمة الإسلامية أن تجعل لنفسها وجودا وكيانا مستقلّين مستمدَّين من روح الدين الإسلامي وأن تكون متميزة عن غيرها وفي كل ما ينبغي أن تميز به من الأخلاق والآداب والمعاملات لتبقى أمة بارزة مرموقة لا تابعة لغيرها هاوية في تقليد من سواها تقليدا أعمى لا يجر إليها نفعا ولا يدفع عنها ضررا، وإنما يظهرها بمظهر الضعف والتبعية وينسيها ما كان عليه أسلافها ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، فالتاريخ اليومي يبدأ من غروب الشمس، والشهري يبدأ من الهلال والسنوي يبدأ من الهجرة. هذا ما جرى عليه المسلمون وعملوا به واعتبره الفقهاء في كتبهم في حلول آجال الديون وغيرها.

عباد الله إن كل عام يجد يعد المرء نفسه بالعزيمة الصادقة والجد ولكن تمضي عليه الأيام وتنطوي الساعات وحاله لم تتغير إلى أصلح فيبوء بالخيبة والخسران ثم لا يفلح ولا ينجح فاغتنموا الأوقات عباد الله بطاعة الله وكونوا كل عام أصلح من العام الذي قبله فإن كل عام يمر بكم يقربكم من القبور عاما ويبعدكم عن القصور عاما يقربكم من الانفراد بأعمالكم ويبعدكم من التمتع بأهليكم وأولادكم وأموالكم. عباد الله، والله ما قامت الدنيا إلا بقيام الدين ولا نال العز والكرامة والرفعة إلا من خضع لرب العالمين ولا دام الأمن والطمأنينة والرخاء إلا باتباع منهج المرسلين، فاعتصموا بطاعة الله عن عقوبتكم. و حاسبوا أنفسكم عن أيامها، وأعلموا أن ما ذهب منها لن يستخلف.قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا) [رواه الترمذي ح (٢٤٥٩)].وقال الحسن البصري –رحمه الله–: "المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم

أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة".(يأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

عاشوراء والهجرة النبوية من أيام الله تعالى

طارق حميدة

قال تعالى :(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ، وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) سورة إبراهيم : ٥ ، ٦

ربنا سبحانه يكلف موسى عليه السلام ، أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور ؛ من ظلمات الذل والاستضعاف ، إلى نور العزة والكرامة والريادة بحمل راية التوحيد وإقامة الدين . وخلال ذلك ، ولأجل تحقيق ذلك ، يطلب منه أن يذكرهم بأيام الله .

والأيام كلها أيام الله لكن هذه الأيام لها خصوصية إذ تجلت فيها قدرة الله تعالى ، فنصر القلة المستضعفة ، وقصم الكثرة المتجبرة ، أو خذلها وردها بغيظها . إنها أيام ربما سبقها يأس وإحباط واستسلام لظن المستضعفين أنه لا قبل لهم بالفراعنة والطغاة وسرعان ما يقوم موسى عليه السلام ، خطيباً في قومه يذكرهم بيوم من أيام الله عظيم ، يوم أنجاهم سبحانه من فرعون وجنوده ، وقد كان آل فرعون يسومونهم سوء العذاب ويذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم . كي يستنهض هممهم ويقوي عزائمهم للمهمة العظيمة التي ستناط بهم من بعد خروجهم من مصر.

ولا يكتفي موسى عليه السلام بهذا التذكير ، بل يجعل من ذلك اليوم العظيم مناسبة سنوية يحتفي بها والمؤمنون معه ليترسخ المعنى ويتعمق في القلوب ، فيصومه عليه السلام ويصومه قومه ، ويستمر الاحتفاء بهذا اليوم وصيامه حتى زمان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فيسألهم عن صومهم يوم عاشوراء فيقولون : " هذا يوم صالح ؛ هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى " ، فيقول النبي عليه السلام : " فأنا أحق بموسى منكم " ، فصامه وأمر بصيامه. والحديث في الصحيحين

إن محمداً ، ﷺ ، قد أمره ربه تعالى ، بما أمر موسى عليه السلام ، كما جاء في السورة نفسها: (ألر، كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ..) سورة إبراهيم :١ . وإذا كان الهدف واحداً ،والبشر هم البشر على اختلاف الزمان والمكان ، فلا بد أن يكون المنهج هو المنهج ، والوسيلة هي الوسيلة ــ التذكير بأيام الله ــ وأهمها عاشوراء . يصومه المصطفى عليه السلام ، ويأمر بصيامه ، بل يتحراه وينتظره ويستعد له كما يفعل لشهر رمضان ، احتفاءً بهذه المناسبة العظيمة واستحضاراً لجليل معانيها .

والصيام خير معين للتفكر والتدبر والاستحضار فيما تعجز عن ذلك البطون المتخمة ، وانظر كيف قرن ربنا سبحانه بين صوم رمضان ونزول القرآن ، تأكيدا للتلازم بين النفوس الزكية والقلوب التقية والعقول المتفتحة لاستقبال النور الإلهي . فالقرآن الكريم مع أنه (هدى للناس) مؤمنهم وكافرهم إلا أنه لا يفيد منه إلا المتقون (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) .

وحين يقرر النبي عليه السلام أن يصوم التاسع مع العاشر ، فليس ذلك مخالفة لأهل الكتاب وتميزاً عنهم فحسب ، بل ــ وأيضاً فيما نرجح ــ لمزيد الاعتناء بهذا اليوم والاستعداد له روحياً وذهنياً .

إن النفوس المستبشرة بنصر الله تعالى وفرجه ، الموقنة بقدرته المنتظرة لرحمته ، هي التي يُرجى تحقق الإنجازات على أيديها ، أما النفوس اليائسة المنقبضة الكئيبة ، التي تبحث عن الحزن ومناسباته ، فليست بالتي يتوقع منها نصر ولا تقدم ولا إنجاز . ولقد أمر الله نبيه أن يدعو المؤمنين فيتجاوزوا عن الذين لا يرجون أيام الله : (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) الجاثية : ١٤ ؛ فهم مساكين لا يزال يقعد بهم اليأس فيخشون التحرك للتغيير ، ويخافون الفراعنة بل وربما عاونوهم ضد من يعملون لإنقاذهم ، وأساءوا إليهم .

ولعل ذلك المعنى الكبير ــ التذكير بأيام الله ــ هو الذي حدا بالفاروق رضي الله عنه ، وكرام الصحابة في خلافته ، إلى اختيار حدث الهجرة منطلقاً للتأريخ الإسلامي ،

رافضين اتباع الروم أو الفرس ، ومؤثرين الهجرة على سائر المناسبات النبوية الأخرى كالمولد والبعثة والوفاة .

فلقد كانت الهجرة مفصلاً هاماً في تاريخ الدعوة الإسلامية ، حيث تحول المسلمون من جماعة مضطهدة مستضعفة ، إلى مجتمع ودولة ذات عزة ومنعة واستقلال . كان الرسول عليه السلام ، حتى الأمس القريب يرى أصحابه يعذبون فلا يملك إلا أن يدعوهم إلى الصبر واعداً إياهم بالجنة ، ثم هو بعد الهجرة يسيّر جيشاً إلى عقر دار الروم في مؤتة رداً على قتل عملاء الروم لأحد رسله .

لقد خلّد القرآن الكريم الهجرة النبوية واصفاً إياها بالنصر لرسوله : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) ، وهذا شبيه ما جرى لموسى عليه السلام ، إذ كان البحر من أمامهم والفرعون بجنوده من ورائهم ، فأسقط في أيدي قومه وأيقنوا أنهم مدركون ، فرد عليهم موسى بكل ثقة وإيمان : (كلا إن معي ربي سيهدين) ، وقد كان .

إن كاتب هذه المقالة لا يقصد إلى الدخول في جدل حول شرعية الاحتفال بالهجرة النبوية ، وليس مع جعلها عيداً أو عطلة رسمية، ولكنه يدعو حمَلة اللواء لإخراج الأمة من الظلمات إلى النور ، ليكثروا من التذكير بأيام الله .

حديث أم معبد في حادثة الهجرة

الأخ الدارقطني .

قصة أم معبد وردت من عدة طرق ، وقد جمعها الدكتور سليمان بن علي السعود في كتاب " أحاديث الهجرة . جمع وتحقيق ودراسة " (ص ١٥٢ – ١٦٣) ، وملخص ما وصل إليه الباحث ما قاله :

أقول قصة أم معبد هذه تتقوى إلى درجة الحسن بأمرين :

الأول : أنها رويت بطرق كثيرة كما تقدم ، وهذه الطرق يشد بعضها بعضا .

الثاني : شهرة هذه القصة واستفاضتها عند علماء السيرة وغيرهم .

وقال ابن كثير رحمه الله بعد ما ساق بعض طرقها : وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا . انظر البداية والنهاية ٣/١٩٠ .ا.هـ.

وممن حسن طرقها أيضا العلامة الألباني رحمه كما في تعليقه على فقه السيرة (ص ١٦٨) فقال : ثم وجدت الحديث موصولا أخرجه الحاكم (٣/٩-١٠) من حديث هشام بن حبيش وقال : " صحيح الإسناد " ، ووافقه الذهبي وفيما قالاه نظر ، وقال الهيثمي (٦/ ٥٨) : رواه الطبراني وفي إسناده جماعة لم أعرفهم . لكن للحديث طريقين آخرين أوردهما الحافظ ابن كثير في البداية (٣/١٩٢-١٩٤) فالحديث بهذه الطرق لا ينزل عن رتبة الحسن .ا.هـ.

وممن جمع طرقها ورسم شجرةً الدكتور أكرم ضياء العمري في كتاب " السيرة النبوية الصحيحة . محاولة تطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية " (١/٢١٢ – ٢١٥) ، وإليك ما قاله الدكتور العمري :

وقد اشتهر في كتب السيرة والحديث خبر نزول الرسول ﷺ وأصحابه بخيمة أم معبد بقديد طالبين القِرى ، فاعتذرت لهم لعدم وجود طعام عندها إلا شاة هزيلة لا تدر لبنا . فأخذ الشاة فمسح ضرعها بيده ، ودعا الله ، وحلب في إناء ، حتى علت الرغوة وشرب الجميع ، ولكن طرقها ما بين ضعيفة وواهية إلا طريقا واحدة يرويها

الصحابي قيس بن النعمان السكوني ونصها : " لما انطلق رسول الله ﷺ وأبوبكر يستخفيان نزلا بأبي معبد فقال : والله ما لنا شاة ، وإن شاءنا لحوامل فما بقي لنا لبن ... .ا.هـ.

وذكر في الحاشية (٢١٣/١) طرق الحديث ، وقبل ذلك رسم شجرة لطرق الحديث ، وسأذكر ما سطره الدكتور من طرق لهذا الحديث وخلاصة بحثه :

أخرجها ابن إسحاق بإسناد معضل كما في " دلائل النبوة " للبيهقي (٤٩٣/٢) من رواية يونس بن بكير عنه .

– وابن حزيمة كما ذكر ابن حجر في الإصابة . ولم أقف على سنده .

– والطبراني : المعجم الكبير (٥٦/٤) بإسناد فيه مكرم بن محرز انفرد ابن حبان بتوثيقه (الثقات ٢٠٧/٩) ، ولم يذكر فيه ابن أبي حاتم جرحا ولا تعديلا (الجرح والتعديل ٤٤٣/٨) وفيه محرز بن مهدي مجهول ، وهشام بن خنيس مجهول الحال . وقال الهيثمي : وفي إسناده جماعة لم أعرفهم (مجمع الزوائد ٥٨/٦) .

– وأخرجه الطبراني من طريق آخر فيه عبد العزيز بن يحيى المديني نسبه البخاري وغيره إلى الكذب وفيه مجاهيل أيضا كما يقول الهيثمي (مجمع الزوائد ٢٧٩/٨ ، وانظر ميزان الاعتدال ٥٧٣/٣ ، والضعفاء للعقيلي ٧٤/٤) .

– وأخرجه ابن سعد : الطبقات ٢٣٠/١ بإسناد واهٍ فيه سليمان بن عمرو النخعي ، وقد دلس اشمه عبد الملك بن وهب المذحجي وهو كذاب (الكامل لابن عدي ١٠٩٦/٣)

– وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٨٤/١/٢ وفي إسناده عبد الملك بن وهب الدحجي كذاب (التاريخ الكبير ٢٨/٢/٢) وشك البخاري في انقطاع السند .

– وأخرجه البزار بإسنادين أحدهما فيه عبد الركمن بن عقبة مجهول الحال ويعقوب بن محمد الزهري صدوق كثير الوهم والرواية عن الضعفاء (كشف الأستار ٣٠١/٢) ومن اختلاف متنه قوله " نزلا بأبي معبد " وذكره إسلام أبي معبد آنذاك .

وهذه الرواية من حديث قيس بن النعمان أخرجها الطبراني بسند صحيح وسياق أتم فيما ذكر ابن حجر (الإصابة ٥٠٦/٥) .

وساقها الحاكم في المستدرك ٩/٣ من حديث هشام بن حبيش مجهول الحال . وساقها من طريق قيس بن النعمان ٨/٣ – ٩ ، ولم يصرح باسم الراعي .

وأخرجه البغوي وابن شاهين وابن مندة من طريق حزام بن هشام بن حبيش بن خالد عن أبيه (السيوطي : الخصائص الكبرى ٣٠٩/١)

وأخرجه أبو نعيم الأصبهاني بسنده من حديث هشام بن حبيش (دلائل ٢٨٢) .

وأخرجه ابن سيد الناس من طريق أبي بكر الشافعي بإسناد فيه الكديمي وعبد العزيز بن يحيى متهمان (عيون الأثر ١٨٨/١) .

وبإسناد فيه ابن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكر معضلاً .

وبإسناد فيه هشام بن حبيش مجهول الحال ، وأضاف ابن سيد الناس إلى أسانيد أبي بكر الشافعي سندا فيه سيف بن عمر التميمي وهو متروك .

وساق ابن كثير الخبر من طريق ابن أبي ليلى ، وليس فيه التصريح بأم معبد أو بأبي معبد ، فسنده منقطع . كما ساقها من رواية البزار بالسند الذي فيه عبد الرحمن بن عقبة (البداية والنهاية ١٨٩/٣) . ثم ساقها ابن كثير بواسطة البيهقي وفي إسناده عبد الملك بن وهب المذحجي كذاب (البداية والنهاية ١٩٠/٣) ويرى ابن كثير أن قصة أم معبد مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا (البداية والنهاية ١٨٨/٣) .

ثم إن الحافظ ابن حجر ذكر أن ابن مندة ساقها من طريق عبد الرحمن بن عقبة (الإصابة ١٦٩/٦) وقد سبق أنه مجهول الحال .

وذكر الحافظ ابن حجر أيضا (الإصابة ٣٠٦/٨ – ٣٠٧) أن ابن السكن أخرجها من طريقين :

طريق ابن الأشعث حفص بن يحيى التيمي ولم أقف على ترجمته ، ومن طريق آخر بسند لم يذكر ابن حجر سائر رجاله لكن متن روايتي ابن السكن مخالف لمتون الروايات الأخرى .

كذلك أخرج القصة ابن عبد البر في الإستيعاب (١٩٥٨) بإسناد فيه الحكم بن أيوب الخزاعي انفرد ابن حبان بتوثيقه (لسان الميزان ٤٧٨/١) وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢٤٥/٢) فلم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا وفيه محمد بن سليمان بن الحكم الخزاعي ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢٦٩/٧ ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا ، ولكنه كتب عنه فيبدو أنه – على الأقل – يُعتبر بحديثه . وفيه عبد الله بن محمد بن عيسى بن حكيم لم أقف على ترجمته .

وكذا لا يخلو من طريق من طرقها من العلل القادحة ، وهي بمجموع طرقها لا تصلح للاحتجاج بها في موضوعات المعجزات . ولكن حديثي التابعي الكبير عبد الرحمن بن أبي ليلى والصحابي جابر بن عبد الله هما أمثل طرق قصة أم معبد يعتضدان إلى الحسن لغيره . لكنهما لا يقويان على مناهضة حديث قيس بن النعمان من طريق الطيالسي فإنه حسن لذاته بل يرى ابن حجر أنه صحيح .ا.هـ.

وأظن أخي الدارقطني في هذا البيان كفاية . والله أعلم .

كتبه عبد الله زقيل
zugailam@yahoo.com

الأعياد والمناسبات المعتبرة في الإسلام

محمد عثمان

الأعياد جمع عيد. والعيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائد: إما بعود السنة ، أو بعود الأسبوع أو بعود الشهور ، أو نحو ذلك. فالعيد يجمع أموراً ، منها يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة.

ومنها: اجتماع فيه.

ومنها: أعمال تجمع ذلك من العبادات أو العادات وقد يختص ذلك بمكان بعينه .

وقد يكون مطلقاً وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً (١).

فالزمان كقوله – ﷺ – ليوم الجمعة: "إن هذا يوم جعله الله للمسلمين عيداً" (رواه ابن ماجه).

والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس: "شهدت العيد مع رسول الله – ﷺ –.." (متفق عليه). والمكان كقوله – ﷺ –:"لا تتخذوا قبري عيداً".

وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع العيد والعمل فيه وهو الغالب كقوله – صلى الله عليه وسلم–:"دعهما يا أبا بكر ! ؛ فإن لكل قوم عيداً وإن هذا عيدنا" (متفق عليه).

لقد أكثر الناس القول في اعتبار المناسبات في الإسلام وعدم اعتبارها ، ووقع فيها الإفراط والتفريط، وإذا نظرت إلى شريعة الإسلام وأحداثه عامة وخاصة؛ تجد المناسبات أو الأعياد على قسمين:

مناسبة معتبرة عني بها الشرع لما فيها من عظة وذكرى تتجدد مع تجدد الأيام والأجيال وتعود على الفرد والجماعة بالتزود منها.

ومناسبة لم تعتبر ، إما لاقتصارها في ذاتها ، أو عدم استطاعة الأفراد مسايرتها.

فمن الأول يوم الجمعة ، وقد عني بها الإسلام في الحث على القراءة المنوه عنها في صلاة الفجر ، وفي الحث على أدائها والحفاوة بها من اغتسال وطيب وتبكير إليها ،

ولكن من غـــير غلو ولا إفـــــــــراط. فقد جاء النهي عن صوم يومها وحـــده دون أن يسبق بصوم قبله أو يـــلـــحـــق بـــــصـــــوم بعده. كما نهى عـــن إفـــراد ليلتها بقيام ، والنصوص في ذلك متضافرة ثابتة معلومة.

فكان يوم الجمعة مناسبة معتبرة مع اعتدال وتوجه إلى الله بدون إفـــراط أو تفـــريط. وذلك أن يـــــوم الجـــمـــعـــة هـــو يـــــوم آدم عليه السلام، فيه خلق، وفيه خلقت فيه الروح، وفيه أسكن الجنة ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه تِيبَ عليه ، وفيه تقـــوم الساعة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله – تعالى – بهذه المناسبة:

"إن قراءة سورة السجدة وسورة الإنسان معاً في يوم الجمعة لمناسبة خلق آدم في يوم الجمعة ليتذكر الإنسان في هذا اليوم – وهو يوم الجمعة – مبدأ خلق أبيه ادم ، ومبدأ خلق عموم الإنـــــســـــــان ، ويتذكر مصيره ومنتهاه ليرى ما هو عليه من دعـــوة الرسول وهل هو شاكر أو كـــــــفـــــور ؟) [أضواء البيان].

وكما قيل يوم الجمعة يوم آدم، قيل في يوم الاثنين يوم محمد عليه أفضـــل الصـــلاة والتسليم – أي فيه وُلد ، وفيه أنزل عليه، فقد جاء عنه، صلى الله عليه وســـلم، أنـــه سئل عن صيام يوم الاثنين. فقال: "هذا يوم ولدت فيه وعليَّ فيه أنزل" (٢) وكان يوم وصـــــــــوله المدينة في الهجرة.

أما ما يفعله كثير من الناس في هذه الأزمنة من احتفالات ومظاهر فقد حدث ذلك بعد أن لم يكن لا في القرن الأول ولا الثاني ولا الثالث وهي القرون المشهود لها بـــالخير كما جاء الحديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". والذين أحدثوا هذه البدعة هم الفاطميون في القرن الرابـــع. يقـــول الشيخ محمد أمين الشنقيطي – رحمة الله عليه –: "وقد افترق الناس في هذا الأمر إلى فريقين: فريق ينكره وينكر على من يفعله ، لعدم فعل السلف إياه ولا مجيء أثر فـــي ذلك. وفريق يراه جائزاً لعدم النهي عنه ، وقد يشدد كل فريق على الآخر فـــي هـــذه المسألة ولشيخ الإسلام ابن تيمية في "اقتضاء الصراط المستقيم" كلام وسط في غايـــة الإنصاف. نورد موجزه لجزالته والله الهادي إلى سواء السبيل.

قال – رحمه الله – في فصل قد عقده للأعياد المحدثة فذكر أول جمعة من رجب ، وعيد غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة حيث خطب النبي – ﷺ – وحث على اتباع السنة وأهل بيته ثم أتى إلى عمل المولد.

وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى في عيد ميلاد المسيح ، وإما محبة للنبي –صلى الله عليه وسلم– وتعظيماً له ، والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد لا على البدع من اتخاذ مولده –صلى الله عليه وسلم– عيداً مع اختلاف الناس في مولده أي في ربيع أو في رمضان فإن هذا لم يفعله السلف مع قيام المقتضى له وعدم المانع له.

يضيف شيخ الإسلام: "ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف – رضي الله عنهم – أحق به منا فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وتعظيماً له منا وهم على الخير أحرص.

وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته واتباع أمره وإحياء سننه باطناً وظاهراً ، ونشر ما بعث به والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان. فإن هذه هي طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

وأكثر هؤلاء الذين تراهم حرصاء على أمثال هذه البدع – مع ما لهم فيها من حسن القصد والاجتهاد الذي يرجى لهم به المثوبة – تجدهم فاترين في أمر الرسول –صلى الله عليه وسلم– عما أمروا بالنشاط فيه، وإنما هم بمنزلة من يحلي المصحف ولا يقرأ فيه ولا يتبعه، وبمنزلة من يزخرف المسجد ولا يصلي فيه ، أو يصلي فيه قليلاً ، وبمنزلة من يتخذ المسابيح والسجادات المزخرفة وأمثال هذه الزخارف الظاهرة – التي لم تشرع – ويصحبها من الرياء والكبر والاشتغال عن المشروع ما يفسد حال صاحبها" اهـ (اقتضاء ، ص٢٩٥).

وليس بصحيح ما يزعمه بعض المبتدعة من تسمية المولد إحياءً لذكر الرسول –صلى الله عليه وسلم– ؛ فالله أحيا ذكر الرسول –صلى الله عليه وسلم– حيث قرن ذكره مع

ذكره – تعالى – في الشهادتين ومع كل أذان وكل إقامة لأداء صلاة وفي كل تشهد في فرض أو نفل مما يزيد على الثلاثين مرة.

ومن المناسبات المعتبرة شهر رمضان المبارك بكامله لكونه أنزل فيه القرآن:((»شَهْرُ رَمَضَانَ الَذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ«)) [البقرة:١٨٥].

ومن المناسبات ليلة القدر لبدء نزول القرآن فيها لقوله – تعالى –:((»إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ (١) ومَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ (٢)«)) [القدر] ، ثم بين مقدارها ((لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)« وبين خواصها »تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤)«)) ، وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يحتفي بها ويلتمسها في العشر الأواخر وفي الوتر من العشر الأواخر ، فكان –صلى الله عليه وسلم– يعتكف العشرة كلها التماساً لتلك الليلة. روى البخاري في صحيحه عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: "كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله ، وجد وشد المئزر".

ومن المناسبات يوم عاشوراء ، فلقد كان لهذا اليوم تاريخ قديم ، وكانت العرب تعظمه في الجاهلية وتكسو فيه الكعبة ، ولما قدم النبي –صلى الله عليه وسلم– المدينة وجد اليهود يصومونه ؛ فقال لهم: لِمَ تصومونه ؟ فقالوا: يوماً نجى الله فيه موسى من فرعون فصامه شكراً له ، فصمناه. فقال –صلى الله عليه وسلم–: نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه".

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسُئلوا عن ذلك فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه نبي الله موسى وبني إسرائيل على فرعون فنحن نصومه تعظيماً له. فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: نحن أولى بموسى منكم ، فأمر بصومه.

إن نجاة نبي الله موسى من عدو الله فرعون مناسبة عظيمة ، نصرة الحق على الباطل وانتصار جند الله وإهلاك جند الشيطان. وهذا بحق مناسبة يهتم لها كل مسلم ؛

ولذا قال عليه الصلاة والسلام: "نحن أحق بموسى منكم ؛ نحن – معشر الأنبيـــاء – أبناء علاّت ، ديننا واحد".

وقد كان صيام عاشوراء فرضاً حتى نُسخ بفرض رمضان وهكذا مع عظيم مناســبته من إعلان كلمة الله ونصرة رسوله كان ابتهاج موسى عليه السلام به فـــي صـــيامه شكراً لله.

ومن هذه المناسبات المعتبرة عيد الفطر وعيد الأضحى وهمـــا مناســـبتان عظيمتـــان لحديث أنس بن مالك الذي رواه أبو داود في سننه: "قدم النبي –صلى الله عليه وسلم– ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: قد أبدلكم الله بهما خيراً منهمـــا يـــوم الفطـــر ويـــوم الأضحى" (رواه أبو داود والحديث على شرط مسلم).

ومما يعتبر ذا صلة بهذا المبحث في الجملة ما نقله الإمام ابن كثير في تفسيره – عند قوله تعالى: ((اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُـــمُ الإِسْـــلامَ دِيناً)) [المائدة:٣] – قال عندها:

"روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلـــى عمـــر بـــن الخطاب – رضي الله عنه – فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية في كتابكم لـــو علينا – معشر اليهود – نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية ؟ قـــال: قولـــه: »اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ« ؛ فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذين نزلت على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، والساعة التي نزلت فيها عشية عرفة في يوم الجمعـــة" (رواه البخاري ومسلم).

وروي عن كعب قوله: لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه.

الأعياد غير المعتبرة في الإسلام:

عيد الميلاد:

يحتفل النصارى بيوم ولادة عيسى ويظهرون الأفراح والسرور ويعطلـــون الـــدوائر والأعمال ، ويهنئ بعضهم بعضاً ، ويتزاورون ويظهرون شعار دينهم ، وقد قلـــدهم

وشابههم كثير من جهال المسلمين وذوي الرئاسة والسياسة. ففي أعمال كثير من المسلمين في هذا العيد أنهم يعطلون الدوائر الحكومية والشركات وبعض التجار الكبار تعظيماً لهذا اليوم ، احتراماً له ويزورون أصدقاءهم النصارى ويرسلون لمن كان منهم بعيداً بطاقات تهنئة. والرؤساء والملوك يرسلون برقيات تهنئة للدول التي تزعم أنها تدين بالمسيحية.

وهذا العيد وغيره من الأعياد التي ابتلي بها كثير من البلاد الإسلامية – كعيد الوطن ، وكعيد العلم ، وعيد الأم وعيد الشجرة وعيد النظافة ، وعيد الولادة ، وعيد الأسرة ، وعيد الأولياء –كلها محرمة في دين الإسلام ؛ لمشابهتها الكفار في أعيادهم ولا شك أن في هذا إحياءً لسنن الجاهلية ، وإماتة الشرائع الاسلامية في قلوب المسلمين ، وإن كان أكثر الناس لا يشعرون بذلك لشدة استحكام ظلمة الجاهلية في قلوبهم ، ولا ينفعهم ذلك الجهل عذراً بل هو الجريمة التي تولّد عنها كل الجرائم من الكفر والفسوق والعصيان.

قال شيخ الإسلام: إن أعياد أهل الكتاب والأعاجم نهي عنها لسببين:

١– أحدهما: أن فيها مشابهة للكفار.

٢– والثانى: أنها من البدع.

فما أحدث من المواسم والأعياد هو منكر ؛ وإن لم يكن فيه مشابهة لأهل الكتاب من وجهين:

أحدهما: أن ذلك داخل في مسمى البدع والمحدثات ؛ فيدخل فيما رواه مسلم في صحيحه عن جابر قال: "كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش ، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم ، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ويقول: أما بعد.. فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد. وشر الأمور محدثاتها. وكل بدعة ضلالة" (اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٦٦).

وحديث أبي سعيد في الصحيحين أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم. قلنا: يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟! ، قال: فمَن ؟! ".

بدع الشهور:

هناك بدع كثيرة يصعب حصرها في هذه العجالة ولكني أذكر نبذة منها:

١– استقبال الرافضة شهر محرّم بالحزن والهم والخرافات والأباطيل ، فيصنعون ضريحاً من الخشب مزيناً بالأوراق الملونة يسمونه ضريح الحسين أو كربلاء. وخلال هذا الشهر تمنع الزينة فتضع النسوة زينتهن ولا يأكل الناس اللحوم وتشعل النيران ويتواثب الناس عليها والأطفال يطوفون الطرقات يصيحون: يا حسين !.. يا حسين !.

٢– بدع صفر: كان بعض الناس يمتنعون فيه عن السفر أو إقامة أي حفل ، ويظهرون التشاؤم والتطير.

٣– ربيع الأول: بدعة المولد ، أي إقامة احتفالات لمولد النبي –صلى الله عليه وسلم– وكذلك ما يسمونه بليلة الإسراء والمعراج فتقام الولائم وتضاء الشموع وتصلَّى النوافل.

٤– وفي شعبان: ما يسمونه ليلة النصف من ليلة البراءة ؛ حيث يعتقدون غفران الذنوب وإطالة الأعمار وزيادة الأرزاق.

٥– بدع شهر رمضان: اهتمام الناس بالجمعة الأخيرة منه فيصلي مَن كان لا يصلي بقية أيامه.

والصواب – الذي عليه المحققون من أهل العلم – النهي عن إفراد هذا اليوم بالصوم ، وعن

هذه الصلاة المحدثة ، وعن كل تعظيم لهذا اليوم من صنع الأطعمة وإظهار الزينة ونحو ذلك حتى يكون هذا اليوم بمنزلة غيره من بقية الأيام وحتى لا يكون له مزيَّة أصلاً.

الخلاصة:

خلاصة القول أننا نستفيد من هذه العجالة أموراً:

* منها أن الإسلام لم يشرع الاحتفال بولادة أو بموت أحد.

* ومنها: أن هذه المناسبات قد تعددت حتى غدا الإسلام احتفالات وأعياداً. فقد يقول قائل: أنا أحتفل بيوم ولادة النبي – عليه الصلاة والسلام – وقد يقول آخر: أحتفل بيوم الهجرة ؛ لأنه بالهجرة فرَّق الله بين الحق والباطل واعتز المسلمون وصارت لهم دولة ؛ فتستحق الاحتفال بها ، وإظهار التعظيم لرسول الله – ﷺ –.

وقد يقول آخر: أنا أحتفل بيوم بدر ؛ لأنه يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، يوم أن نصر الله المسلمين على المشركين. وقد يقول آخر: أنا أحتفل بيوم فتح مكة يوم دخل الناس في دين الله أفواجاً. وقد يقول آخر: أنا أحتفل بيوم وفاته يوم انتقل إلى الرفيق الأعلى...

وهكذا تتعدد الآراء ويتفرق الناس على غير هدى ، ومن غير دليل شرعي يحسم النزاع ، ويوفر الجهد.

الهوامش:

١ – اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص١٨٩، ط. دار المعرفة.

٢ – مسند الإمام أحمد ، ج٥ ، ص٢٧٩-٢٩٩ ، ومسلم في صحيحه في كتاب الصيام.

مجلة البيان

دروس من الهجرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله نحمدهُ ونستعينهُ، ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا، ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، منْ يَهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومنْ يُضلل فلا هاديَ له . وأشهدُ أنَّ لا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله . ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ))[آل عمران:١٠٢]

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء:١] . ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً))[الأحزاب:٧٠-٧١] .

أما بعدُ : فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرُ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرُّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

أمَّا بعدُ ، أيَّها المسلمون :

فمعِ حلولِ العامِ الهجري الجديد، تمضي بنا الذكرياتُ إلى الوراءِ شيئاً ما، مخترقةً حواجزَ الزمان، لتقفَ بنا على مشارفِ مكة، وهي تشهدُ هجرةَ النبيِ ﷺ وأصحابهِ إلى المدينة، تلك الهجرة التي غيرتْ مسارَ التاريخ، وفاجأت العالم بأحداثِها الضخمةَ، ونتائجِها المُدهشة، فقدْ كانتْ سبباً رئيساً لقيامِ دولةِ الإسلامِ في المدينة، تلك الدولةِ التي لم تقفْ عند حدودٍ سياسيةٍ، أو خطوطِ تماسٍ مكهربة، صنعها المُحتلُ الأجنبي، ولكنَّها أخذتْ في الانتشارِ يمنةً ويسرة ، حتى نتجَ عنها دولةُ الإسلامِ العالميةِ، والتي غمرتْ الدنيا بفيضِ نورِها المُشع، وبددتْ الظلامَ المتراكمِ عبرَ السنين، وقدمتْ للبشريةِ أنموذجاً نادراً، للكيفيةِ التي تُبنى من خلالِها الدول، فتتصاغرُ أمامَ ذلك الأُنموذجِ الفريد كلُّ النماذجِ الأُخرى، وما أحوجَ الأُمة اليومَ وهي تُعاني ما تعانيه من

تمزقٍ وضعفٍ وتناحرٍ، ما أحوجَها إلى قراءةِ تاريخِها من جديد، ومراجعةِ سيرِ أسلافِها الأولين، لتأخذَ الدروسَ والعبر، علَّها تستعيد مُجدها الغابر، وتاجَها المفقود، فهيهات هيهات أن يصلُحَ حالُ آخرِ هذه الأمةِ إلاّ بما صلحَ به حالُ أولِها، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

أيَّها المسلمون : لم تكنْ الهجرةُ الشريفةُ إلى المدينة، لم تكنْ يوماً من الأيام ترفاً ثقافياً، أو سياحةً ومتعة، أو استكشافاً لعالمٍ جديد، كلاَّ، لقد كانتْ خياراً لا مفرّ منه، وحلاً أخيراً بعد أنْ ضاقتْ بالمسلمينَ أرضُ مكةَ بما رحبت، وتغيرَ عليهم الناسُ، وأصبحتْ بضعُ ركعاتٍ في المسجدِ الحرامِ جريمةً لا تُغتفر، وغدتْ قراءةُ القُرآن رجعيةً وهمجيةً، وإرهاباً وتطرفاً، نزلَ جبرائيلُ عليه السلام بأمرٍ من السماء، لا يحتملُ التأخيرَ أو التردد، ((يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)) .

فالقضيةُ جدٌ ليستْ بهزلٍ، والدينُ حقٌ ليس بلعبٍ، فلا مكانَ للخانعين، ولا مكانَ للمتكاسلين، ولا مكانَ للمعوقين المُخذِّلين، ونزلَ جبرائيلُ كذلك بقولهِ جلَّ جلاله : ((فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)) ، فاصدعْ بما تُؤمر، ولا تخفْ في اللهِ لومةَ لائم، لا تخف أبا جهلٍ مهما تجبر، ولا تخف أبا لهبٍ مهما تهور، فما هم في الحقيقةِ إلاَّ أقزام، لا يملكون حولاً ولا طولاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فلبَّى عليه الصلاةُ والسلامُ النداء، وشمَّرَ عن ساقِ الجدِّ بكلِّ قُوة، وأسفرَ عن شجاعةٍ وبطولةٍ نادرتين، فما تركَ جبلاً إلا صعدَه، ولا وادياً إلا هبطَه، ولا شِعباً إلا سلكَه .

يا أيَّها الناسُ : قُولوا لا إله إلا اللهُ تُفلحوا، كلمةُ التوحيدِ العظيمةِ، ظلَّ يرفعُ بها صوتَه ثلاثةَ عشرَ عاماً غيرَ هيابٍ ولا وجلٍ، يصرخُ بها في كلِّ مجمعٍ من مجامعهم، وكلِّ مُنتدىً من منتدياتِهم، فقامتْ عليه الجاهليةُ ولم تقعد، وحاربهُ الجاهليُّون بكلِّ وحشيةٍ وضراوة، فكلٌ من شعرَ بخطورةِ كلمةِ التوحيدِ على مصالحه، وقفَ أمامَها وقفةَ الأسد، واستماتَ في الصدِّ عنها، والتنديدِ بخطرِها فقد شعرَ رؤساءُ العشائرِ أنَّ هذه الكلمةُ ستقوضُ سُلطتَهم من القواعد، فهبوا للدفاعِ عن سُلطانهمِ المُهدد، ومكانتهمُ المستهدفة، كما أحسَّ الانتهازيون بخطرٍ يتهددُ مكاسبَهم الخبيثة، وأرصدتَهم الحرام،

وثرواتِهم المُغتصبة، فاستشاطوا غضباً وامتلأُ حنقاً، وتدافعوا يذودونَ عن مكاسبِهم بكلِّ وحشيةٍ وقُسوة، كما أحسَّ الكهنةُ والمشعوذون بخطورةِ كلمةِ التوحيد على كهانتهِم وشعوذتهم، وأنَّها ستفرُقُ الناسَ من حولهم، فكشَّروا عن أنيابِهم، وأعلنوها حرباً لا تُبقي ولا تذر، كما أحسَّ بالخطرِ ذاتهُ عُبادُ القوميةِ المتعصبونَ لقومياتِهم وعشائرِهم، المقدسون لتقاليدِهم وعاداتِهم، فجُنَّ جنونُهم وظهرَ مرضُ قلوبِهم، وسفاهةُ عقولهِم، بأبشعِ صورةٍ وأقبحِها، فخرجوا للدفاعِ عن عصبياتِهمُ المُنتنةِ، وتقاليدهمُ البالية، كما شعرَ بالخطرِ نفسه عُبَّادُ الشهواتِ والأهواء، فقاموا من بين أحضانِ بغايا هم، ومِن على موائدِ خمورهم معلنينَ الاحتجاجَ بشدة، ومدافعينَ عن مجونِهم وسُكرهم، وبالجملةِ فقد أحسَّ عُبادُ تلكَ الأوثانِ والأصنامِ على اختلافِ صورِها وأشكالِها، وتعددِ ألقابِها ومسميا تِها، أحسوا بخطورةِ كلمةِ التوحيد على مصالحهم وأطماعهم، فاتحدوا جميعاً لحربِها، وحربِ رافعِ لوائها : ((وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ)) .

فعقدَ المجرمونَ العزمَ على مقاومةِ ذلكَ الناصحُ الأمين، ووضعُ العراقيلِ في طريقه، فأوذي عليه السلامُ واضطُهد، وعُذِّب وطُرد، واتُهِم بالوسوسةِ والجنون، والسحرِ والكِهانةِ، ورُمي بالكذبِ وقولِ الزور، ووصفوا القرآنَ بأنَّهُ أساطيرُ الأولين، وأنَّ محمداً تتنزلُ عليه الشياطين، حتى إذا بلغَ السيلُ الزُبى، واستعصتِ النفوسُ الخبيثةَ على الدعوة، وظهرت صلابةُ القلوبِ، وسفهُ الرجالِ، أذنَ اللهُ بالهجرةِ إلى المدينةِ الشريفة، فخرجَ صحابةُ رسولِ اللهِ فراراً بدينهم، وخوفاً من فرعونَ وملئِه أن يفتنهم، خرجوا تاركينَ الأرضَ التي وُلدوا فيها، والبلدَ الذي نشأوا فيه، منخلعينَ من المالِ والأهلِ والولد، فما قيمةُ المالِ والأهلِ والولد حين تُهددُ العقيدةُ، وتصادرُ الحُرية!

وما كاد يمضي طويلَ وقتٍ ، إلاَّ ورسولُ اللهِ يخرجُ في أثرِ أصحابه وهو يقولُ : واللهِ يا مكةَ إنَّكِ لخيرُ أرضِ الله، وأحبُ أرضِ اللهِ إلى الله ، ولولا أنِّي أُخرجتُ منكِ ما خرجت .

أيَّها المسلمون : إنَّ في الهجرةِ دروساً لا تُنسى، ومآثرَ لا تُطوى، ألا ما أحوجَنا إلى تذاكرِ تلك الدروس،

واستلهام هاتيكَ العبر، في وقتٍ كشَّر العدوُّ عن أنيابه ، وأطلَّتِ الرويبضةُ برأسِها القبيح، ألا إنَّ من أعظمِ دروسِ الهجرةِ الشريفةِ، ما يجبُ أن نُدركَه جميعاً، أنَّ الغايةَ الكُبرى من الوجودِ الإنساني بأسرهِ هو عمارةُ الأرضِ بالتوحيدِ والإيمان، وإقامةُ حكمُ اللهِ وشرعهِ في عظائمِ الأُمورِ فما دُونها، أليس اللهُ يقولُ : ((إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)) .

إذاً فمتى تعذَّرَ تحقيقُ هذه الغايةِ فوقَ أرضٍ ما، فلا بُدَّ من البحثِ عن غيرِها مهما كان الثمن، ومهما كانتِ التضحيات، أملاً في إيجادِ أرضيةٍ صالحةٍ للانطلاقةِ العُظمى، ونشرِ الإسلامِ في ربوعِ الأرض، وعرضِ العقيدةِ بصفائِها، ونقائِها على الناسِ، دون ضغطٍ أو إكراهٍ، وهكذا كان الأمرُ في مكة، فيومَ رفضَ أهلُها الإيمانَ والتوحيد وآثروا الكفرَ والتقليد، أصبحتْ مكةُ بلدَ كفرٍ ودارَ حربٍ، وحُرِّمَ البقاءُ فيها، وأصبحتْ مجاورتُها مع القدرةِ على مُغادرتِها واحدةً من كبائرِ الذنوب : ((إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)) .

وأمَّا الدرسُ الثاني من دُروس الهجرةِ : وهو ذو علاقةٍ وثيقةٍ بسابقهِ . ويوضحهُ ويجليهِ، أنَّهُ لا قيمةَ للأرضِ ولا للوطنِ حين تفسدُ الأرضُ ويكفرُ الوطن .

لقد هاجرَ النبيُ وأصحابهُ الوطنَ الذي تربَّوا فيه، والأرضَ التي نشأوا فوقها، وباعوها بأرخصِ الأثمانِ، واشتروا أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّة وفي هذا كلِّهِ صفعةٌ لكلِّ الذين يُمجدون الأرضَ والرمال، ويُعظمونَ الصخورَ والترابَ على حسابِ العقيدةِ، حتى إنّهم ليفضلونها على جنّةِ الخُلدِ لو دخلوها .

فيقولُ شاعر هم :

وطني لو شُغلتُ بالخُلدِ عنهُ *** نازعتني إليهِ في الخلدِ نفسي

ويقول آخر :

وطني لو صوروهُ لي وثناً *** لهممتُ ألثُمَ ذلك الوثنا

ويقول وثنيٌ ثالث :

ويا وطني لقيتُكَ بعد يأسٍ *** كأنِّي قد لقيتُ بكَ الشبابا

أديرُ إليكَ قبلَ البيتِ وجهِي *** إذا فهتُ الشهادةَ والمتابا

وحتى الأطفالُ الصغارِ يُربونَهم على مِثلِ هذا الإلحاد، اسمع إليهم وهم يُرددون .

وهبتُك رُوحي وغالي دمي *** وأَسمى أمانيِّ أن تسلمي

وأُشقـــي حياتي لكي تنعمِي *** وقلبـــي يُلبيكِ قبلَ الفـــمِ

بلادي سلمتِ وروحي الفداء .

فماذا بقيَّ لله إذاً ؟؟ ماذا بقيَّ لله ؟!

إنَّ الولاءَ أيَّها المربُون يَجبُ أن يكونَ للهِ وحده، فالأرواحُ لا تُبـذلُ إلا فـي سـبيلهِ، والدماءُ لا تُراقُ إلا من أجلهِ، والجهادُ لا يكونُ إلا لإعلاءِ دينهِ، أما حُبُ الوطنِ، فإنَّما يَكونُ بمقدارِ حبِّ أهلهِ للإسلام، وتمسكِ أهلهِ بالإسلام. وبغيرِ الإسلام تصبحُ الأوطانُ مجردَ أتربةٍ وحجارة، لا وزنَ لها ولا قيمة : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَـا مَتَـاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيل)) .

وأمَّا الدرسُ الثالثُ من دروسِ الهجرة : فبيانُهُ أنَّ هذا الدينِ لا يَقـومُ إلا بالتضـحيةِ والبذلِ والعطاء، إنَّهُ دينٌ لا يُعلِّقُ كبيرَ أملٍ على الكُسالى والخانعين، ولا يمنحُ شرفَ حملهِ ونُصرتهِ للمتراجعينَ والمتثاقلين، إنَّ الدينَ ليس قضيةُ بيـعٍ وشـراء، أو منـةً وأذى، إنَّما هو جهدٌ وعناء، وبذلٌ وعطاء، وتضحيةٌ وفداء، ودموعٌ ودماء، وجـراحٌ وأشلاء، قلِّبِ النظرَ أنَّى شئتَ في تاريخِ أسلافِك، أما خُلعتْ رؤوسٌ من أجـلِ هـذا الدين، أما بُقرتْ بطونٌ، أما قُطِّعتْ أطرافٌ، أما سُحلت عيونٌ، قلْ : بلى ، بلى ، بلى . ثم أجمعْ قُواكَ – يا رعاك الله – واحملْ القرآنَ في يدٍ، والسنةَ في الأخرى.

وهدِّم فراشكَ رمزَ الخمول * * * وقـمْ للجهـادِ ولا تقعـدِ

وقم للنضالِ وخوضَ القتال * * * وشمِّر عن الساقِ والساعدِ

لقد مضتْ قوافلُ الشهداء وقوافلُ المجاهدين إلى ربها، بعضُها إثـرَ بعـض، فمـاذا صنعتْ أنتَ أيُّها الأخُ الحبيب، ماذا قدَّمت لدينِك وأُمتِك المُعذبة، ما مقدارُ الهمِّ الـذي تحملهُ في قلبِك تِجاه قضايا الإصلاحِ والتغيير؟

كم شخصٍ أسديتَ لهُ نصيحة ؟ أو دفعتَ لهُ موعظة؟ ما جهودُكَ في بيتك تجاهَ أُمـكَ وأبيك، وأُختكَ وأخيك ؟ هل غمرتهم بإحسانِك، وخفضتْ لهم جناحَ الذلِّ من الرحمة ؟ هل صنعتَ شيئاً ما تَقي به أهلَ بيتك ناراً وقودُها الناسُ والحجارة ؟!

ما دورُكَ تُجاهَ جيرانك ؟ هل وعظتَ واحداً منهم ؟ هل دفعتَ إليه كتابـاً ينفعُـهُ، أو شريطاً يسمعُه ؟ ألا كفى يرحمكَ الله تسويفاً وتثاقلاً ؟

وتبوأ رعاكَ اللهُ لنفسك مَقعداً في قوافلِ الـدُعاةِ المخلصـين، تُحشـرُ مـع الأنبيـاءِ والصديقين، والشهداءِ الصالحين .

باركَ اللهُ لي ولكم بالقرآنِ العظيم، ونفعني وأيَّا كم بالذكر الحكيم. وأسـتغفرُ اللهَ لـي ولكم إنَّهُ هو الغفورُ الرحيم .

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ يُعطي ويمنع، ويخفضُ ويرفع، ويضرُ وينفع، ألا إلى اللهِ تصـيرُ الأمـور. وأُصلي وأُسلمُ على الرحمةِ المُهداة، والنعمةِ المُسداة، وعلى آلهِ وأصحابهِ والتابعين، أمَّا بعدُ:

أيَّها الموحدون : فدروسُ الهجرةِ كثيرة، وعبرُها متنوعة، والمقامُ مقـامُ تـذكيرٍ لا مقامُ بسطٍ وتفضيل، لكنَّنا نشيرُ أخيراً إلى أنَّ الهجرةَ ماضيةٌ إلى يومِ القيامـة، كلَّمـا حِيلَ بين الناسِ وعبادةِ ربهم.

ثُمَّ تذكروا يرحمكمُ الله، قولَه عليه السلام « المهاجرُ من هَجَر ما نهى الله عنه » .

فما أحرانا اليومَ ونحنُ نستقبلُ عاماً جديداً، ما أحرانا إلى فتحِ صفحةٍ بيضاء، نصطلحُ فيه مع اللهِ سبحانه، الذي أمهلَنا كثيراً، وصبرَ علينا طويلاً، ومنحنَـا الفرصـةَ تلـوَ الفرصة، ((وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)) (الشعراء:١٣٥) .

إننا مُطالَبون جميعاً بهجرةِ ما نهى اللهُ عنه، إن كُنَّا نُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر، ونُوقنُ بالجنةِ والنار، وهجرةِ ما نهى اللهُ عنه تُطالبُ بها الأمةُ كلُها من أعلى القمةِ إلى أسفلِ القاع .

فالأمةُ كُلها تستقلُ سفينةً واحدة، فليسَ لأحدٍ أن يخرقَ في نصيبهِ خرقاً، فمتى خُرقت السفينةُ، أو عُقرت الناقةُ، فويلٌ للعربِ من شرٍ قد اقترب، إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

اللهُمَّ إنَّا نسألُك إيماناً يُباشرُ قُلوبنا، ويقيناً صادقاً، وتوبةً قبلَ الموتِ، وراحةً بعد الموتِ، ونسألُكَ لذةَ النظرِ إلى وجهكَ الكريمِ، والشوقُ إلى لقائِكَ في غير ضراءَ مُضرة، ولا فتنةً مُضلة،

اللهُمَّ زينَّا بزينةِ الإيمانِ، واجعلنا هُداةً مُهتدين،لا ضالينَ ولا مُضلين، بالمعروفِ آمرين، وعن المُنكرِ ناهين يا ربَّ العالمين، ألا وصلوا وسلِّموا على من أُمرتم بالصلاة عليه، إمامُ المتقين، وقائدُ الغُرِّ المُحجلين، وعلى أله وصحابته أجمعين .

وأرضي اللهُمَّ عن الخلفاءِ الراشدين أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي.

اللهُمَّ آمنَّا في الأوطانِ والدور، وأصلحِ الأئمةَ وولاةِ الأُمورِ، يا عزيزُ يا غفور، سُبحانَ ربكَ ربِّ العزةِ عمَّا يصفون .

إصلاح النفس . . أولا

الدرس الثالث

على الداعية المسلم الواعي : أن يركز أولا _ ودائما _ وقبل كل شئ ، على : تزكية نفس المدعو ، وطهارتها ، وإصلاحها ، وتحبيبها في المعروف ، وتنفيرها وتبغيضها في كل منكر .

حيث إن إصلاح النفس : مدخل إلى كل خير ، وطريق إلى كل نجاح ، وهو في الوقت نفسه : غاية عزيزة المنال ، غالية الثمن ، تحتاج إلى : صدق العزم ، وشد الرحال ، وبذل الجهود .

وهذا : ما ركز عليه ، ولفت الأنظار إليه ، وفعله ، النبي ﷺ مع وفد الأنصار الذين قدموا عليه بمكة ، وبايعوه في العقبة . . حيث بايعهم ﷺ على ذلك في بيعة العقبة الأولى ، ثم بعد عام كامل ، سمت فيه أرواحهم ، وزكت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، وصلب عودهم ، وصاروا صالحين لتحمل أعباء الدعوة ومهامها ومشاقها : بايعهم ﷺ على الأمور التنظيمية التي تحتاج الدعوة إليها ، ولا يتم نشرها ولا نجاحها بدونها

يقول عبادة بن الصامت :" كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا أثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء . . على : أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف . . ثم قال : فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحده في الدنيا : فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة : فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر " "٢٦

أما في بيعة العقبة الثانية ، بعد عام كامل من الأولى .

فقد كانت البيعة :

" على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ،

وعلى أن تنصروني وتمنعوني _ إذا قدمت عليكم _ مما تمنعون منه أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبنائكم ، ولكم الجنة " "٢٧ "

وهذا درس من الهجرة في غاية الأهمية : حيث إن النفس الطاهرة يجذبها نور الدعوة وصفاؤها ، وتستعذب التضحية في دين الله تعالى بالنفس والنفيس ، مع الثبات – الذي لا تهزه شدائد أو لذائد _ على طريق الحق .

وإغفال هذا الدرس : بالإهمال لإصلاح النفس كلية ، وترك الحبل لها على الغارب ، حتى تبعت جموع هذه الأمة هواها ، وضلت سبيل رشدها ، وفقدت صلاح حالها : هو الذي ألقى بها في أوحال هذا التردي الذي تعانيه ، والتخبط الذي ترسف فيه .

وبسبب إغفال هذا الدرس ، وهذا الإصلاح : أصبحت هذه الأمة : خاوية الوفاض من كل ما يثبتها ، ويملؤها طمأنينة ، وصارت : ترتجف من كل ناعق ، وتتبع كل مضل لها ، رغبا أو رهبا ، حتى سقط أصحاب هذا الزمان في قاع المستنقع البشري ، وغلبهم التخلف العالمي ، وصاروا _ إن كان لقدمهم موضع _ في ذيل قائمة أهل الدنيا وسكانها ، وفقدوا مقومات النجاح ، وضاعت منهم مؤهلات الخيرية ، ونـدت عنهم أنوار الوسطية ، وعوملوا بلا اكتراث ، بل عوملت حقوقهم بالافتراس ، إلى غير ذلك من ألوان الخسف والنكال والانتقاص .

وإن إغفال هذا الدرس من الحركة الإسلامية خاصة : بسبب الاهتمام والتركيز على الأمور التنظيمية قبل إصلاح النفس ، أو دون استمرار ومتابعة لتزكيتها ، أمر خطير النتائج ، تعاني منه الدعوات ، وتدفع الثمن _ حال إغفاله _ غاليا .

كما وأن الأمور التنظيمية التي تحتاجها الدعوة ، ولا تستمر إلا بها ، لا يمكن أن تنجح ، وتؤدى على الوجه الأكمل ، إلا من متعبد لله تعالى بها ، باحث عن مرضاة ربه عن طريق الإخلاص لله تعالى في أدائها ، ولا يؤديها على هذا النحو

إلا من سمت روحه ، وزكت نفسه ، وأسعدته الجندية الحقه في سبيل نشر كلمة الله تعالى ، ورفع راية الدعوة ، وإعلاء شأن المسلمين

العلم بمقاصد الهجرة وأهدافها

محمد أمحزون

تعد الهجرة من أهم متطلبات الدعوة إلى الله (تعالى)، وهي سنة الله في رسله وأنبيائه وعباده المؤمنين، الذين هاجروا فراراً بدينهم وخوفاً من بطش الظالمين، وهو الأمر الذي عرفه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– منذ أول يوم جاءه الوحي، إذ لما ذهبت خديجة (رضي الله عنها) إلى ورقة بن نوفل، فأخبره رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بما قد رآه، قال له ورقة: (ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك) (١).

ولهذا أدرك النبي –صلى الله عليه وسلم– منذ أول يوم أوحي إليه فيه أنه سيُخرج من بلده، وهو أشرف الخلق وأكرمهم عند الله (عز وجل)، فنصْرُ الله في الدنيا وثوابه في الآخرة إنما ينالهما المرء بالعمل، والنصيحة، والمصابرة على الشدائد، واللجوء إلى الله (عز وجل) بالدعاء والاستعانة.

ويُستَنبط من هذا الحديث العظيم: أن الهجرة لا تختص بفئة معينة من المؤمنين في زمن معلوم يأتي عليه زمن آخر فتنسخ، بل إنها دائمة ما دام الحق والباطل وما دام الكفر والإسلام، ولهذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)(٢)، وفي رواية: (لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار) (٣).

ولم يكن وعد الله (سبحانه) بتعظيم أمر الهجرة وثواب المهاجر في سبيله إلا بسبب ما يحتمل المهاجر من عناء ومشقة وشدائد ومكابدة الأخطار، لذلك قال (تعالى): ((وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)) [الحج: ٥٨، ٥٩].

وقد أوجب الله (عز وجل) الهجرة على كل مؤمن؛ لتكثير سواد المسلمين، ولنصرة النبي –صلى الله عليه وسلم– ومواساته بالنفس والنفيس، إذ كانت الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة بحاجة إلى المهاجرين من المؤمنين؛ ليتوطد سلطان الإسلام فيها، حيث يتربص به اليهود والمنافقون، وتحيط به قوى الأعراب المشركين من حول المدينة، ويترصده كفار قريش الذين أقضت الهجرة مضاجعهم، فمضوا يخططون ويعملون للإجهاز على كيان الإسلام الفتي؛ لذلك تتابعت الآيات في الأمر بالهجرة وبيان فضلها وعظيم أجرها، حتى وعد الله (جل ذكره) المهاجرين في سبيله بتمكينهم من مراغمة أعدائهم، والتوسعة عليهم في أرزاقهم، بقوله (سبحانه): ((وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً)) [النساء: ١٠٠].

ثم جاء الوعيد شديداً فيمن تباطأ وتثاقل عن الهجرة والجهاد في سبيل الله، وآثر متاع الدنيا على التضحية في سبيل الله، في قوله (تعالى): ((قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ)) [التوبة: ٢٤].

قال الشيخ ابن عتيق (رحمه الله): (وما من أحد يترك الهجرة، إلا وهو يتعذر بشيء من هذه الثمانية، وقد سدّ الله على الناس باب الاعتذار بها، وجعل مَن ترك الهجرة لأجلها أو لأجل واحد منها فاسقاً، وإذا كانت مكة هي أشرف بقاع الأرض، وقد أوجب الله الهجرة منها ولم يجعل محبتها عذراً، فكيف بغيرها من البلدان؟!)(٤).

وحسماً لأمر الهجرة وجعله فرض عين: قطع الله (عز وجل) الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر، وذلك في قوله (تعالى): ((فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) [النساء:٨٩].

فالذين دخلوا في هذا الدين عقيدة، لكن لم ينضموا إلى المجتمع الذي يقوم على هذه العقيدة، ولم يلتحقوا به فعلاً، لا يعدّون أعضاءً في المجتمع المسلم، ولذا: لم يجعل الله (عز وجل) بينهم وبينه ولاية وتناصراً بمعناه الأعم: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) [الأنفال: ٧٢].

ولما كانت الهجرة بهذه المنزلة، وجب على كل من أسلم أن ينتقل إلى مهاجر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بالمدينة، إلا من استثني من أهل الأعذار من الأطفال والنساء والشيوخ.

قال القاضي عياض: (واتفق الجميع على أن الهجرة قبل الفتح كانت واجبة عليهم، وأن سكنى المدينة كان واجباً؛ لنصرة النبي –صلى الله عليه وسلم– ومواساته بالنفس)(٥).

بل إن الإقامة بعد ذلك في مكة كانت حراماً على من هاجر منها قبل الفتح؛ ولهذا: رثى النبي –صلى الله عليه وسلم– لسعد بن خولة أن مات بمكة (٦).

الحكمة من الهجرة:

إن العلم بمقاصد الهجرة وأهدافها أمر ضروري لكل مسلم يهمه أمر إقامة صرح هذا الدين؛ فالنصوص القرآنية التي وردت بصدد الهجرة ما كانت تعالج أمر الهجرة في تلك المرحلة من الزمن فحسب، ولكنها تعالج حالة قائمة في أمر الدعوة، ولذلك: وردت بعض نصوص السنة توضح هذا الأمر.

فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنه)، قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: (إنما ستكون هجرة بعد هجرة) (٧)، وفي حديث آخر: (لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد)(٨).

والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، كما جاء في حديث أبي داود: (والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال)(٩).

وهذا الحكم استنبطه البخاري (رحمه الله) من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر، والمغنم) بقوله: باب الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر (١٠).

ولذلك: فالهجرة ليست مرحلة تاريخية انتهت بمضي وقتها وأهلها، وأصبحت مَعْلَماً وصفحة من صفحات التاريخ فحسب، وإنما هي صفحة من صفحات السيرة المضيئة التي خلّدها القرآن والسنة، وستظل جزءاً من حركة الدعوة إلى الله (تعالى) (١١).

يقول صاحب الظلال: (ولقد ظل شرط الهجرة قائماً حتى فتح مكة، حين دانت أرض العرب للإسلام وقيادته، وانتظم للناس في مجتمعه، فلا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد وعمل، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-...) (١٢).

على أن الحكمة الأساس من الهجرة هي أن رسالة الإسلام جاءت لتنظم شؤون الناس في شتى مجالات الحياة، فهي دستور ومنهج شامل لا بد لتطبيقه من أمة وأرض تقام فيها أحكام الله (تعالى)، والمسلمون لا يمكن أن يكون لهم وجود فِعلي إلا إذا صبغ الإسلام جميع مرافق حياتهم، وساد نظامه أرضهم، وقامت فيها أحكامه وآدابه، كما تقوم فيها شعائره، وتسود فيها عقائده.لكن إذا تعذر على المسلمين تطبيق أحكام دينهم وإقامة نظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي وآدابه الخلقية في بلدهم، وجب عليهم الانتقال إلى البلد الذي يعمل فيه بأحكام الإسلام وآدابه، تكثيراً لسواد المسلمين، وإعزازاً لأمر الدين، واستعداداً لنصره وتأييده بالنفس والنفيس، وإذا لم يكن للمسلمين بلد تتوافر فيه هذه الشروط، وجب عليهم أن يجتمعوا في بقعة صالحة يقيمون فيها نظام الإسلام تامّاً كاملاً، ويتعاونون على حماية دعوته، واتخاذ الأسباب والوسائل لتحقيق رسالة الإسلام كما جاء بها صاحبها (صلوات الله وسلامه عليه) وكما فهمها منه أصحابه والتابعون لهم بإحسان (١٣).

وقد غفل عن هذه الظاهرة من أمر الإسلام بعض الذين دخلوا فيه على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فلبثوا في وطنهم (مكة) مستضعفين فيها، لا يستطيعون إعلاء كلمة الله لغلبة الباطل يومئذ على الحق، ولا يهاجرون منها إلى المدينة فيقوى بهم الإسلام، فنزل فيهم قول الله (عز وجل): ((إِنَّ الَذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)) [النساء: ٩٧].

وعن شأن هؤلاء روى البخاري (في جامعه الصحيح) عن ابن عباس (رضي الله عنه) في قصة أصحاب بدر: (أن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، يأتي السهم فيُرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يُضرب فيقتل، فأنزل الله (عز وجل): ((إِنَّ الَذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)))(١٤).

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح إلى ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: (كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستَخْفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين وأُكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ((إِنَّ الَذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)) (الآية)، قال: فكُتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم التقية، فنزلت هذه الآية: ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)) [العنكبوت: ١٠])(١٥).

وعند الطبري بسند صحيح إلى ابن عباس (رضي الله عنه): (فكتب إليهم المسلمون بذلك (أي بآية: ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)) (فحزنوا، فنزلت: ((ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [النحل: ١١٠]، فكتبوا إليهم بذلك، فخرجوا، فلحقوهم (أي: المشركون)، فنجا من نجا، وقُتل من قتل)(١٦).

وقال الضحاك: (فنزلت هذه الآية الكريمة ((إِنَّ الَذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)) عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع) (١٧).

ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان، متجاوزاً تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين وفي بيئة معينة، يمضي حكماً عامّاً يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أي أرض، وتمسكه أمواله ومصالحه، أو قراباته وصداقاته، أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها.. متى كان هناك في الأرض ــ في أي مكان ــ دار للإسلام يأمن فيها على دينه، ويجهر فيها بعقيدته، ويؤدي فيها شعائر دينه)(١٨).

ولما كان الإسلام دين يسر، ومن مبادئه وأحكامه أن تقدر الضرورات بقدرها، وأن يعذر أهلها، كان تمام الآيات السالفة قول الله (عز وجل): ((إِلاَّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُواً غَفُوراً)) [النساء: ٩٨، ٩٩].

وفي تفسير قوله (تعالى): ((فَمَا لَكُمْ فِي المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِياً وَلا نَصِيراً)) [النساء:٨٨، ٨٩]، قال العوفي عن ابن عباس (رضي الله عنهما): نزلت في قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى: سبحان الله! ــ أو كما قالوا ــ أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم، نستحل دماءهم وأموالهم؟!،

فكانوا كذلك فئتين، والرسول عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء، فنزلت: ((فَمَا لَكُمْ فِي المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ)) (الآية)) (١٩).

وهكذا.. إذا كان القرآن الكريم قد أنحى باللائمة على جماعة من المسلمين كانوا في مكة يصلون ويصومون، ولكنهم ارتضوا البقاء تحت أنظمة تخالف الإسلام، فلا قوة لهم على تغييرها، ولم يهاجروا إلى دار الإسلام في المدينة ليكونوا من جنودها المتحفزين لتغيير تلك الأنظمة، فليعلم أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة والصوم فحسب، بل يريد منهم مع ذلك أن يقيموا أنظمته وآدابه في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم ومجامعهم ودواوين حكمهم، وأن يتوسلوا بجميع الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الغرض الواجب (٢٠).

كما ينبغي أن يعلم أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وأنه تكاليف وتبعات، وأنه إقرار وامتثال وطاعة، وإذ هو كذلك: كان لزاماً أن ينعكس أثره على اللسان والقلب والجوارح، علماً، وعملاً، وسلوكاً.

الهوامش:

١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب حدثنا يحيى بن بكير، جـ ١، ص ٣.

٢) أخرجه أحمد في المسند، جـ١، ص ١٩٢، وصححه الألباني في (صحيح الجامع الصغير)، ح/٧٤٦٩، م٢، ص ١٢٤٤.

٣) الهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزار،، ح/١٧٤٨، جـ٢، ص ٣٠٤، وابن حجر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ح/٢١٦٩، جـ ٤، ص ١٦٧.

٤) ابن عتيق: سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك، ص ٢٨.

٥) نقلاً عن فتح الباري، جـ٧، ص ٢٦٧.

٦) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- : (اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم)، جـ ٤، ص ٢٦٧.

٧) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الجهاد، ح/٢٤٨٢، جـ٣، ص ٤، وأحمد في المسند، جـ٢، ص ١٩٩.

٨) أخرجه أحمد في المسند، جـ٤، ص ٦٢، وقال الألباني: إسناده صحيح، السلسلة الصحيحة، جـ٤، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

٩) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الجهاد، ح/٢٥٣٢، جـ٣، ص ١٨.

١٠) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، جـ٣، ص ٢١٥.

١١) صالح أحمد الشامي: السيرة النبوية ـ تربية أمة، وبناء دولة، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

١٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، م٣، ص ١٥٦٠.

١٣) محب الدين الخطيب: من إلهامات الهجرة.

١٤) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله (تعالى): ((إِنَّ الَذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ))، جـ٥، ص ١٨٣.

١٥) تفسير ابن كثير، جـ١، ص ٢٧٢.

١٦) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، جـ٤، ص٢٤٣، وابن حجر: الفتح، جـ ٨، ص ٢٦٣.

١٧) تفسير ابن كثير، جـ١، ص ٥٤٢.

١٨) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ٣، ص ٧٤٥.

١٩) قال ابن كثير في تفسيره: (رواه ابن أبي حاتم، وقد روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا)، جـ١، ص ٥٣٢.

٢٠) محب الدين الخطيب: من إلهامات الهجرة، ص ٥٢، ٥٣.

Cd مجلة البيان

روابط الأمة في ظلال الهجرة

الخطبة الأولى:

أما بعد أيها الأخوة المؤمنون:

"روابط الأمة في ظلال الهجرة"أمر مهم أن نتأمله، وموضوع جدير أن نستوعبه؛ لأن القدوة العظمى في سيرة المصطفى – ﷺ – كانت ومازالت وستظل النور الذي يضيء للأمة طريقها، والبوصلة التي تحدد لها مسارها والمعالم التي تعلي لها منارها {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} [الأحزاب:٢١].

إن هذا الحدث الذي يمرّ علينا في كل عام ما تزال أنواره وأسراره تكشف لنا الكثير من الخلل والخطر الذي تعيشه أمتنا، فهل من مدّكر؟ وهل من معتبر؟ وهل من متأمل ومتبصر؟ ليس على مستوى الفرد المسلم فحسب، بل على مستوى الأمة كلها، وليس على مستوى الأمة في حياة عامتها، بل في توجهات قادتها.. إنه الحدث العظيم الذي غيّر وجه تاريخ البشرية كلها.. إنه الحدث العظيم الذي أعلن مبادئ الأمة وشيد معالم الدولة.

فلننظر إلى الروابط في حياة أمة الإسلام كيف ينبغي أن تكون؟ وما الذي يقدّم؟ وما الذي يؤخر؟ وما الذي يكون ملء السمع والبصر وملء النفس والقلب؟ وما الذي يكون لا حظ له من الاعتبار، ولا نظر له في مقياس أهل الإيمان.. ننظر إلى ذلك في أحداث هذه الهجرة بجملتها فيما مرّ به أصحاب النبي المصطفى – ﷺ –، وفيما سطّروه لنا من المعاني العظيمة، والدروس الجليلة.. إنهم خريجو مدرسة النبوة، إنهم الذي صنعوا على يد خير الخلق وسيد البشر – ﷺ –، إنهم الذين لامس الإيمان شغاف قلوبهم فخالطها وجرى مع دمائهم في عروقهم.

ومن هنا؛ فإن كل ما نأمله من تغير الأحوال إنما يرتبط بهذا الاستيعاب لسيرة المصطفى – ﷺ –، وحياة أمة الإسلام في ظلال قيادته الرشيدة ونبوته العظيمة – عليه الصلاة والسلام –.

الارتباط بالديار والأوطان.. مهوى الأفئدة، ومسقط الرأس.. البلاد التي يعيش فيها المرء ويدرج في ثراها، يتعلم في ظلالها، وينشأ في مدارجها، ويلعب في صباها.. هذه البلاد التي تنشد إليها القلوب، تلك الأوطان التي ترتبط بها النفوس والأفئدة ما موقعها في مقياس الإسلام؟ وهل هي المقدمة التي نسمع اليوم من يقول عن"حب الأوطان"، ومن يقول"جهاد في سبيل التراب"، ومن يقول في هذه المعاني حتى أصبحت كأنما هي آلهة تعبد، وكأنما هي أوثان لها يسجد، وكأنما هي في حياة المسلم أو الأمة كلها أعظم من كل عظيم ينبغي أن يعظم.

انتبه إلى السيرة النبوية في الهجرة في هذه الأحداث اليسيرة حدث لهذا الأمر كان ممن سبق إلى الهجرة وتقدم إليها عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد الضرير الشاعر الشهير ثلة من النفر الأوائل الذين خرجوا مهاجرين إلى الله وإلى رسوله – ﷺ – إلى الأمر الذي أمر به الله وأمر به المصطفى – عليه الصلاة والسلام – خرجوا لا يلوون على شيء مازال حب أرضهم يتجذّر في قلوبهم، ومازالت ديارهم حبيبة إلى نفوسهم مازالت ذكرياتهم حاضرة في أذهانهم، لكن أمر الله – عز وجل – والارتباط به، والاعتزاز به كان أعظم في نفوسهم من كل شيء.

ومن هنا؛ فإن غلب على حب الأوطان ولم يلغه، وإنه تقدّم على حب الديار ولم يمحه، وهكذا كان أولئك النفر الأوائل يرسمون لنا ما رباهم عليه رسول الهدى – ﷺ –.. خرجوا وتركوا وراءهم ديارهم، ليس فيها أحد مطلقاً. وجاء صاعدٌ من أعلى مكة عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبد المطلب، بعد أن تمت الهجرة لأولئك فمروا ووقفوا عند الديار، وتأمل عتبة بن ربيعة – وهو على كفره وشركه – لكن المعاني الإنسانية تثور في النفوس، تأمل الديار تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن فتمثل قائلا:

وكل دار وإن طالت سلامتها **** يوما ستدركها النكباء والحوب

فقال أبو جهل : وما تبكي عليه من قُلّ بن قُلّ .

وأبلغ من ذلك ما قصه لنا أبو أحمد بن جحش – رضي الله عنه – هـذا الصـحابي الضرير الشاعر – يصور لنا تلك المشاعر التي تجيش بها النفـوس، يـوم خرجـوا مهاجرين، مخلفين الديار والأوطان، ويذكر الحوار الذي تصوره وجرده بينه وبـين زوجته أم أحمد، وهي تخاطبه مصورا ذلك شعراً ويقول:

لما رأتني أم أحمد غاديا **** بذمة من أخشى بغيب وأرهب

تقول: فإما كنت لابد فاعلا **** فيمن بنا البلاد ولتنأ يثرب

"ماذا تريد بهذه البلدة؟ ولم التوجه إليها؟"

فقلت لها: بل يثرب اليوم وجهنا **** وما يشأ الرحمن فالعبد يركب

"فأمره مقدم – جل وعلا – ودينه معظم على كل شيء"

إلى الله وجهي والرسول ومن يقم **** إلى الله يوما وجهه لا يخيُّب

فكم قد تركنا من حميم مناصح **** وناصحة تبكي بدمع وتندب

ترى أن وترا نأينا عن بلادنا **** ونحن نرى أن الرغائب نطلب

"أي قوم لا يفقهون فيقولون: لماذا تقطعون جذوركم؟ ولماذا تبتون حبـال وصـلكم؟ ولماذا تهجرون دياركم؟"

ترى أن وترا نأينا عن بلادنا **** ونحن نرى أن الرغائب نطلب

وكنا وأصحابا لنا فارقوا الهدى **** أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا

نمت إليهم بأرحام إليهم قريبة **** ولا قرب بالأرحام إذ لا نقرب

فإن الذي يقرب هو الإيمان والدين.

ولننظر إلى رابطة أخرى تجذب الناس وتربطهم.. رابطة الأهل والولدان

رابطة القرابة والدم كيف تؤثر في الناس فتجعل حياتهم دائرة حولها، فهـذا يسـعى لأجل أبنائه، وذاك يتعلق بزوجه، وهذا لا يكاد يفكر في شيء إلا في أهلـه لأجلهـم

يضحي بكل غالٍ ورخيص، ولأجلهم يمكن أن يبيع مبدأه وأن يتنازل عن دينه فكيف كان أصحاب محمد – ﷺ –؟

ذكر أهل السير أن من أوائل من هاجر إلى المدينة قبل سنة من هجرة المصطفى – ﷺ – أبو سلمة بن عبد الأسد – رضي الله عنه – وهاهي أم سلمة أم المؤمنين – رضي الله عنها –تروي لنا حادثة هجرتها؛ لتبين أن الارتباط بالله وبالدين أعظم من الزوج والأهل والأبناء والقرابات والدم والعصابات وكل شئ.. فها هي تخبرنا بذلك تقول: "لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل بعيراً له، وحملني وحمل معي ابني سلمة، ثم خرج يقود بعيره – امتثالا لأمر النبي – ﷺ – إذ أمر أصحابه بالهجرة بعد أن بزغت أنوار الإسلام في قلوب الأنصار – فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه. قالت وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت فتجاذبوا بني سلمة بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.."

تفرقت الأسرة، وتشتت الشمل، وتقطعت الأواصر، وذلك في الله سبيل – عز وجل –، ولم يقعد أبو سلمة – رضي الله عنه – حنينه إلى أهله، ولا ارتباطه بأبنائه، ولا تقديره وتكريمه لزوجه وإن كان كل ذلك في قلبه ونفسه لكن في إيمانه بربه واعتصامه بدينه ما هو أعظم من هذا وأوثق، فمضى مهاجرا دون أن تقعده زوجة، ودون أن يجذبه أبناء ودون أن يحول بينه وبين المضي لأمر الله – عز وجل – أهل ولا ولدان، ولا صحب ولا خلان، بل هو أمر تعظيم الإيمان.

هكذا في صورة أخرى ختمتها أم سلمة بقولها: "ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي، حتى أمسى سنة أو قريبا منها حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني فقال

لبني المغيرة ألا تخرجون هذه المسكينة فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولـــدها قالـــت فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت ورد بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني. قالت فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت وما معي أحد من خلق الله. قالت فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم علي زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال أو ما معك أحد؟ قالت فقلت: لا والله إلا الله وبني هذا. قال والله ما لك من مترك فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه كـــان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنـــه ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ثم استأخر عني، وقال اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينـــة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال زوجك في هذه القرية – وكان أبو سلمة بها نازلا – فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعا إلى مكة. قـــال فكانـــت تقول والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيـــت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة"، ذلك الذي مضى بأم سلمة لتلحق بزوجها بعد عام كامل كانت كل يوم تبكي فيه فرقة زوجها وعدم تمكنها من الهجرة.

ورابطة ثالثة عظيمة في نفوس الناس، عظيم تأثيرها في واقع حياتهم: رابطة الدرهم والدينار

رابطة المال والثروات.. رابطة كسب الدنيا الذي أدارت العقول، وســـبت القلـــوب، وخطفت الأبصار.. الرابطة التي أطلق النبي – عليه الصلاة والسلام – عليها وصف العبودية يوم قال:

(تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبـــد الخميصـــة تعـــس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش)، سماه عبداً لمّا كانت الدنيا أكبر همّه، وأوكـــد شـــغله،

لأجلها يكدح، وفيها يفكر وبها يتعلق، ومنها ينهل، فليس في قلبه ولا في نفسه، ولا في فكره وخاطره شيء سواه.. لكن أصحاب النبي – ﷺ – يوم هاجروا ركلوا دنياهم بأقدامهم، وداسوا على كل ذلك الثراء الذي كدحوا من أجله، ونصبوا في تحصيله، لكنه يوم كان في كفةٍ والارتباط بالله وبدين الله في كفة..لم يكن عندهم أدنى تردد أن يضحوا بالدنيا كلها، وبالمال – وإن عظم، وبالثروة وإن تضاعفت، لأن في نفوسهم ما هو أعظم من ذلك.

وقصة صهيب الرومي في هذا واضحة يوم عزم على الهجرة وجاء خارجا فلحقه أهل قريش قائلين له: جئتنا صعلوكا حقيراً، ثم كثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك! والله لا يكون ذلك، قال: أرأيتم إن دللتكم على مالي أتتركونني وهجرتي؟ قالوا: نعم، فدلهم على ماله وثروته..

خرج منها صفر اليدين، خاوي الوفاض بعد أن كانت حصيلة أعوام طوال وعمل عظيم لكنه ذهب وقلبه مملوء بما هو أعظم من ابتلائه بالدنيا، مملوء بإيمانه بالله وحبه لرسول الله – ﷺ –، فلما بلغ المدينة ولقي النبي – ﷺ – بعد ذلك قال له النبي عندما رآه ولقيه: (ربح البيع أبا يحي، ربح البيع أبا يحي).

بيعة رابحة وصفقة عظيمة وتجارة رائجة؛ ذلك أنه اشترى آخرته بدنياه، واشترى دنياه بذهبه ودنانيره، ذلك أنه آثر آخرته على دنياه، وقدّم مرضاة الله – سبحانه و– تعالى – على نوازع نفسه وميل قلبه، ولذلك قال له النبي – ﷺ –: (ربح البيع أبا يحي).

ومن هنا قال بعض أهل التفسير أيضا: أن فيه وفي أمثاله نزل قول الله – سبحانه و– تعالى –: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} [البقرة:٢٠٧].

وهكذا بين لنا النبي – ﷺ – الصفقة العظيمة:(ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله هي الجنة).

من أرادها فليدفع ثمنها، من أعجب بالحسناء لم يغله المهر، لابد أن نفقه ذلك: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة: من الآية ١١١].

فهل أمة الإسلام اليوم تؤثر ربها ودينها على أرضها وديارها؟ وهل هي تقدّم أمر ربها وأمر مرضاته وطاعته على طاعة الأزواج والأبناء والبنات؟ وهل هي تتعلق بقلوبها وتهفو بنفوسها إلى صلتها بربها أعظم من خفق قلوبها وميل نفوسها إلى الدنيا وبهرجها وزينتها؟

إن الهجرة تحديد للمسار الصحيح ورسم للارتباط اللازم في حياة الأمة، إن أمة الإسلام لم تكن يوما عبدة ولا مسخرة ولا متعلقة بتراب من الأرض مهما غلا ثمنه، ولا بأهل حتى عزّت مكانتهم، ولا بال مهما كان النصب بتحصيله؛ لأن ما هو أعظم من ذلك هو الذي ملأ قلوبهم ونفوسهم، وشغل خواطرهم وأفكارهم، وأضنى أجسادهم وجوارحهم.. ذلكم هو الارتباط بالله – عز وجل –.

وكذلك: الارتباط برسول الله – ﷺ – كيف نرى ملامحه في أحداث الهجرة؟ كيف نؤسس الأساس الصحيح لصلتنا بسيدنا رسولنا – ﷺ –؟ كيف تكون رابطتنا به؟ هل هي مجرد أقوال نترنم بها؟ هل هي مجرد ادعاءات نجادل عنها؟ هل هي مجرد صور فارغة لا روح ولا حقيقة فيها؟

لننظر إلى الدرس العملي العظيم الذي ساقه إلينا أفضل الصحابة – رضوان الله عليهم – أبو بكر الصديق – سيد الصحابة ومقدمهم رفيق المصطفى – ﷺ – في الهجرة وثاني اثنين إذ هما في الغار وأحب الناس من الرجال إلى رسول الله – ﷺ – ذلك الذي اختاره الله – جل وعلا – ليحظى بالشرف العظيم في المرافقة في الحدث العظيم؛ لننظر إلى ما كان من أبي بكر، ولنرى من سياق فعله في هذه الهجرة ما هو معالم كاملة لما ينبغي أن ترتبط به الأمة في مجموعها والمسلمون في آحادهم لرسول الله – ﷺ –.

أولا: السمع والطاعة

السمع والطاعة تمثلت في موقف أبي بكر عندما أمر المصطفى – ﷺ – أصحابه بالهجرة كان أبو بكر يتوق إليها ويرغب فيها وجاء يستأذن رسول الله – ﷺ – فيؤخره ويمنعه: (انتظر يا أبا بكر لعل الله يجد لك صاحبا).

وأبو بكر يسمع ويطيع، لا يعارض ولا يجادل ولا يحرف، ولا يؤخر ولا يسوف، وإنما هو كمال الامتثال؛ لأن هذا هو الذي أمر به كل مسلم اقتداء واتباع وسمع وطاعة: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: من الآية ٣١].

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: من الآية ٣٦].

والدرس قد جاء في حق أبي بكر – رضي الله عنه –:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات:١].

وليس هو فحسب؛ وإنما الصحابة رضوان الله عليهم أمرهم أن يهاجروا وأن يسبقوه لم يقولوا: كيف نمضي وأنت هنا في مكة؟ لم يقولوا شيئا يعارضون به أمر الرسول – ﷺ – وهم يعرفون أن أمره وحي يوحى وشرع يقر.

ثم الأمر الثاني: تعلق ومحبة:

تعلق قلبي ومحبة نفسية؛ لأنه لا يمكن تصور اتباع مجرد عن العواطف الإيمانية، ولا عن المشاعر الإنسانية، هل رأيت أحداً يوافق أحداً ويتابعه وقلبه قد نبض ماء المحبة فيه، ونفسه قد غاضت منها مياه المودة؟

هل يتصور أن يكون اتباع مجرد ليس فيه روح ولا شعور؟

انظر إلى ما كان الصديق – رضي الله عنه – في حياته كلها لكننا نريد حدث الهجرة الذي نحن بصدده:

كان مع النبي – ﷺ – فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله – ﷺ – فقال: يا أبا بكر مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟ فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. فقال:يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟ – أي لو كان هناك خطب سيحل بنا في

هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر أ كنت تحب أن تصاب به دون أن أصاب به أنـــا؟ – فقال على الفور قال: نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من مُلمّة إلا أن تكون بي دونك. رواه البيهقي في الدلائل.

محبة من القلب تجعل الرسول – ﷺ – أعظم في النفس والقلب من الـــنفس ذاتهـــا: (حتى يكون هواه تبعا لما جئت به).. (حتى أكون أحب إليه من أهله وولـــده ونفســـه التي بين جنبيه).. (الآن يا عمر).

هذه هي المحبة الصادقة التي تتجسد خفقاً في القلب ونبضاً، والذي تتجلى في تعلـــق وشوق وتعظيم لرسول الله – ﷺ –، وليست أيضا متجردة عـــن الاتبـــاع والســـمع والطاعة؛ فإنها حينئذ إن كانت كذلك محبة كاذبة محبة رخيصـــة تكتفـــي بـــأقوال أو أشعار تكتفي بصور أو مظاهر، لكنها لا تريد حمل العبء ولا القيام بالمهمة ولا اتباع الطريق الطويل المضني الشاق الذي سار فيه رسول الله – ﷺ – إنها محبة كاذبـــة فارغة إن لم تجتمع معها تلك المبادرة إلى الاستجابة والموافقة والمتابعة.

وثالثا: البذل والإنفاق:

الذي كان من أبي بكر في هذه المسيرة العظيمة في هجرة المصطفى – ﷺ – لقد هيأ الراحلتين وعلفهما، وهيأ زاد الرحلة كلها، وأخذ معه خمسة آلاف أو ستة آلاف كانت هي مجموع ثروته كلها، لم يبق لأهله من ورائه درهماً ولا ديناراً.. إنه ينفقها علـــى رسول الله – ﷺ – في الهجرة؛ ليمضي الأمر وليتمم المسيرة وليحقق الغاية.

وهكذا ينبغي أن نكون نحن – أيضاً – في هذا الشأن وإن لم يكن رسول الله – عليـــه الصلاة والسلام – بين أيدينا، أليس قد تجرأ من تجرأ على شخص رسول الله – ﷺ – فذمّه وعابه؟ فأين الذين تصدوا لذلك غيرة؟ وأين الذين أنفقـــوا فـــي حربـــه مـــن أموالهم؟ وأين الذين تصدوا له بكل قواهم؟ كذلك ينبغي أن نكون.

ثم ننظر أيضا إلى معلم آخر: وهو: معلم التعظيم والخدمة.

التي قام بها أبو بكر – رضي الله عنه – في صورة فريدة جميلة رائعة تجسّـــد لنـــا كيف كان ذلك الصحب مع رسول الله – ﷺ –؟

يخبر في حادثة الهجرة فيقول: ثبتت لنا صخرة طويلة لها ظل قد نأت عنه الشمس فلجأنا إليه، قال: فسويت لرسول الله – ﷺ – مكاناً ثم فرشت عليه غطاء، وقلت: يا رسول الله اجلس فنم أنفض لك ما حولك– أي سأستجلي الخبر وأنظر ما حولك وأنت عليك بالراحة والنوم – قال: فذهبت أنفض ما حوله فإذا أنا براع مقبل يريد من الظل ما أردنا منه، فقلت: لمن أنت يا غلام؟ قل: لفلان، فقلت: هل في غنمك لبن؟ قال: نعم، فاحتلبت منه، قال: ثم صببت عليه الماء البارد حتى أبرده لرسول الله – ﷺ – ثم جئت فإذا هو قد نام فكرهت أن أوقظه فوقفت على رأسه إلى أن قام فسقيت رسول الله – ﷺ –.

وفي الرواية الأخرى: لما جاء يحلب حلب أبو بكر بنفسه، قال: فنفضت عن الضرع الغبار وأزلت عنه الشعر والقذى تطييبا للبن رسول الله – ﷺ –.

ونحن ينبغي أن نخدم سنته وأن نخدم سيره وأن نفعل كل ما نستطيع في ذلك.

ونرى أيضا هذه المعالم وهي توالى ومن أعظمها: التضحية والفداء

التضحية والفداء الذي كان من أبي بكر – رضي الله عنه –في قوله للرسول:"إن قتلت أنا قتلت وحدي وإن قتلت يا رسول الله هلكت الأمة"، هكذا كانت نظرتهم وهكذا كانت مشاعرهم فدى رسول الله – ﷺ – بنفسه وبماله وبراحته وبكل شيء كان منه؛ ليرسم لنا أبو بكر هذا الارتباط الصادق الواعي برسول الله – ﷺ –.

الخطبة الثانية:

أما بعد أيها الأخوة المؤمنون:

أوصيكم ونفسي الخاطئة بتقوى الله؛ فإن تقوى الله أعظم زاد يقدم به العبد على مولاه.

ومن دروس الهجرة أيضا في معاني الارتباط:

الارتباط بالمسلمين:

ارتباط المسلم بإخوانه المسلمين، ارتباط أهل كل بلد مسلم بإخوانهم – وإن نأت بهم الديار، وإن اختلفت أو تباعدت منهم الأقطار..

في هذه الهجرة كانت الصورة الفريدة الخالدة التي بينت أمر التفضيل والتقديم، هل هو للأرحام وللأنساب وللدم وللعرق؟ أم هو للدين ولله وللرسول ولأمة الإسلام ووحدتها؟

لقد رسم الصحابة في هجرتهم هذا المعنى ليس بمجرد الأقوال بل بالأفعال؛ لأنهم آثروا أن يرتبطوا ارتباط الإيمان وأن لا يكون ارتباط الدم إذا كان عائقا أو معارضا عقبة في طرق هذا المسير الذي اختاروه وارتأوه.

وأمر الأخوة والمحبة وهو الأمر العظيم الذي جعله النبي – ﷺ – من الإيمان فقال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

والذي جعله الله – جل وعلا – قبل ذلك سمة عظيمة وجزءاً أصيلا، ووجهاً آخر للإيمان في الآية التي فيها حصر وقصر: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: من الآية ١٠].

وتجلّت الأخوة في أجلى وأعظم صورها، وبلغت أعلى مراتبها في المرتبة الثالثة وهي:

مرتبة الامتزاج والإيثار

امتزاج حتى يصبح المسلم كأخيه المسلم يصبح المسلم بمنزلة ومكانة ممتزجة نفسه بنفسي مختلطة مشاعره بمشاعري متأثرة اهتماماته باهتماماتي وبعد ذلك يكون الأمر الأعظم في أن أوثره على نفسي وأقدمه على مصلحتي: {وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر:٩].صورة للتربية الإيمانية، والتطهير القلبي، والتهذيب النفسي الذي جسدته الهجرة في علاقة الصحابة والمسلمين بعضهم ببعض: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم}.

وليست بينهم أنساب ولا أحساب، وليست بينهم مصالح ولا منافع، وليست بينهم سابق معرفة ولا صلة يحبونهم من أعماق قلوبهم: {وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا}، أين مثل المهاجرون يوم قدموا؟ يوم قدموا إلى المدينة وتركوا ديارهم، أين

ديارهم في المدينة؟ لقد كانت دور الأنصار دورا لهم ولقد كانت أراضي الأنصار أراضي لهم، ولقد كانت زروعهم وثمارهم وأموالهم هي أموال إخوانهم، فهل هذا يتجلى في حياة الأمة اليوم؟ أم أننا نرى صورة"أنا والطوفان من بعدي"؟ أم أن ما نراه"الأنانية والذاتية"إما على مستوى الفرد، أو على مستوى المجموعة والدولة والقطر، فهؤلاء لهم كذا وهؤلاء لهم كذا، وتفرقت الأمة شيعاً وأحزاباً حتى كأن كل فرد منها أمة وحده.

أين هذه الصورة العظيمة التي أخرج البخاري في وصفها الحديث العظيم في قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وهو يقول– أي سعد بن الربيع الأنصاري – لعبد الرحمن بن عوف المهاجري: إني أكثر الأنصار مالا فانظر أي مالي أحب إليك أقسمه لك؟ وإن لي زوجتين فانظر أيهما تحب أطلقها فتعتد ثم تزوجها؟! فيقول عبد الرحمن رضي الله عنه: أمسك عليك زوجك ومالك ودلني على السوق، وأخذ منه مالا ضارب به ثم إذا بعبد الرحمن بن عوف أثرى أثرياء صحبة رسول الله – ﷺ – أين القلوب المحبة والنفوس المتآخية والصفوف المتراصة المتلاحمة؟

درس الهجرة تعليم للأمة في روابطها كيف ينبغي أن تكون ارتباطها بالله والدين.. ارتباطها بالرسول العظيم.. ارتباط المسلمون بإخوانهم المسلمين..

الارتباطات التي تحدد مسار الحياة ينبغي أن نراجعها في ظل واقع كثرت فيه كثير من المشكلات، وأصبح أمر الدين عند كثير من الناس هيّناً، وأصبح أمر الله – عز وجل – في واقع حياة كثير من الناس مؤخراً، وأصبحت سنة المصطفى – ﷺ – عندهم كأنما لا قيمة لها، وأصبحت علائقهم بإخوانهم فيها ما فيها وليس ذلك تأييس.

وقد نرى ونحن نرى بحمد الله – عز وجل – كثيرا من بشائر الخير وكلما زادت المحن زادنا الله – عز وجل – من المنح؛ حتى تتجدد هذه المعاني ولعلنا ونحن في حديثنا عن الهجرة نجددها في نفوسنا ونحييها في قلوبنا ونظهرها في واقعنا ونشرها في دعوتنا ونتواصى بها فيما بيننا. http://islameiat.com

فقه الهجرة النبوية

الدكتور خالد بن محمد الغيث

إن المتأمل في هجرة الرسول – ﷺ – إلى المدينة النبوية يجد أن التوكل على الله هو عنوان وشعار تلك الرحلة المباركة.

فمنذ أن جاء جبريل – عليه السلام – ، إلى رسول الله – ﷺ – يخبره أن قريشاً قد عزمت على قتله، وأن الله قد أذن له بالهجرة إلى المدينة، حتى سارع رسول الله – ﷺ – وكله ثقة بنصر الله وتمكينه، إلى حشد كل الأسباب المادية المتاحة استعداداً للهجرة حيث توجه متخفياً في نحر الظهيرة إلى منزل أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ليخبره الخبر، ويتدارس معه أمر الهجرة إلى المدينة، وهناك في دار الصديق، – رضي الله عنه – تم إعداد مخطط الهجرة وتقسيم الأدوار بكل دقة ووضوح.

ومما يستوقف القارئ لأحداث الهجرة أن الفتاة المسلمة كانت حاضرة لأخطر قرار في تاريخ الدعوة حيث كانت عائشة وأسماء – رضي الله عنهما – تستمعان لتلك المداولات التي دارت بين رسول الله – ﷺ – وبين والدهما أبي بكر الصديق رضي الله عنه. قالت: (بينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله، – ﷺ – متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله – ﷺ – فاستأذن فأذن له فدخل، فقال النبي – ﷺ – لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: فإني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله: نعم: قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله: بالثمن، قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق).

ولعل ما سبق يكون حافزاً للفتاة المسلمة في هذا العصر لتواصل دورها الحيوي في الدعوة إلى الله بكل شجاعة وفخر.

أما شباب الإسلام فقد كان لهم حضورهم المميز، ودورهم الفاعل في تنفيذ مخطط الهجرة، حيث نفذ علي بن أبي طالب وعبد الله بن أبي بكر – رضي الله عنهما – دورهما بكل فدائية وشجاعة، فعلي – رضي الله عنه – تولى عملية التمويه على كفار قريش حيث نام في فراش رسول الله – ﷺ – ليلة الهجرة، أما عبد الله بن أبي بكر – رضي الله عنه – فقد تولى مهمة نقل أخبار قريش إلى رسول الله – ﷺ – عند مكثه في غار ثور هو والصديق – رضي الله عنه – بكل دقة وحذر، وبراعة في التمويه على كل من يفكر أن يتعقبه ويستطلع وجهته، وبالرغم من كل الجهود السابقة والدقة في تنفيذ مخطط الهجرة شاءت إرادة الله – سبحانه – وتعالى – أن تتمكن قريش من اقتفاء أثر الرسول – ﷺ – وصاحبه – رضي الله عنه – وتحديد المكان الذي انقطع عنده الأثر، ألا وهو جبل ثور، حتى نعلم أن الأسباب المادية، التي تضخمت في ذهن كثير من المسلمين في هذا الزمان بفعل الغزو الفكري المادي لا تكفي وحدها لتحقيق النجاح، بل هي أسباب مساعدة، وحتى نعلم أيضاً أن الجهد البشري في التخطيط والتنظيم والدقة في التنفيذ لا تغني عن توفيق الله وعنايته وحفظه لعباده المؤمنين.

لقد وصلت قريش إلى غار ثور، وكادوا يحصلون على مبتغاهم، لكن الله صرف أبصارهم وأعمى قلوبهم، ولقد سجل القرآن الكريم تلك اللحظات الحرجة في مسار الدعوة وما فيها من معان عظيمة من معاني التوكل على الله وتفويض الأمر إليه وحده – سبحانه – قال – تعالى –: (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم). قال العلامة ابن سعدي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية: (وفيها فضيلة السكينة وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف

التي تطيش لها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته (وأيده بجنود لم تروها) وهم الملائكة الكرام الذي جعلهم الله حرساً لنبيه – ﷺ –. وقال أيضاً: (وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي – ﷺ – كافراً لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها. وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص الصديقين مع أن الأولى إذا نزل بالعبد أن يسعى في ذهابه عنه فإنه مضعف للقلب موهن للعزيمة).

وفي الطريق إلى المدينة تمكن أحد فرسان العرب وهو سراقة بن مالك من اقتفاء أثر ذلك الركب الميمون لكن الله – سبحانه وتعالى – صرفه عنهم بمنه وكرمه فكان ذلك سبباً في إسلام سراقة بن مالك رضي الله عنه.

لقد كانت الهجرة إلى المدينة منعطفاً تاريخياً في حياة الأمة المسلمة انتقلت فيه من مرحلة الاستضعاف والابتلاء في العهد المكي إلى مرحلة الاستخلاف والتمكين في العهد المدني، لكن هذا الاستخلاف يحتاج إلى جماعة مؤمنة تقوم بأعبائه ومتطلباته؛ لذا فما إن وصل رسول الله – ﷺ – إلى المدينة حتى شرع في إرساء قواعد المجتمع المسلم حتى يهيئ الأسباب التي تعين الأمة على الاستخلاف والتمكين.

هذا وقد تمحورت تلك القواعد حول الموضوعات التالية:

أولاً: علاقة الأمة المسلمة بربها، وقد كان ذلك عن طريق بناء المسجد الذي تستطيع فيه الأمة أن تعبد ربها وتتفقه في أمور دينها ويتشاور فيه المسلمون حول آمالهم وآلامهم، ومن الملاحظ أن هذا الأمر قد دفع أعداء الأمة في كل زمان ومكان إلى تحجيم دور المسجد لأنه روح الأمة المسلمة وقلبها النابض.

ثانياً: علاقة الأمة المسلمة مع بعضها البعض، وقد كان ذلك عن طريق المؤاخاة بين الصحابة رضوان الله عليهم الذين تركوا بلادهم وأوطانهم، واستقروا في المدينة النبوية، وهو ما يعرف في هذا العصر باللجوء، أو النزوح، لكن شتان بين معالجة

هذه المشكلة في هذا العصر، وبين نظام المؤاخاة الذي حفظ كرامة الصحابة رضوان الله عليهم وصهرهم في وحدة إيمانية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً على الإطلاق.

إن المؤاخاة والألفة التي تمت بين الصحابة رضوان الله عليهم لم تتحقق بجهد بشري أو بفلسفات اجتماعية، أو إدارية، أو نفسية كما يردد البعض في هذا الزمان، بل هي منة من الله – سبحانه – وتعالى – امتن بها على عباده المؤمنين قال – تعالى –: (وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم).

ثالثاً: علاقة الأمة المسلمة مع غيرها من الأمم الكافرة، وهو ما وضحته وثيقة المدينة انطلاقاً من عقيدة الولاء والبراء التي حفظت هوية الأمة من التحلل والذوبان، وهو ما تعاني منه الأمة المسلمة في هذا الزمان بفعل ضمور عقيدة الولاء والبراء في قلوب كثير من المسلمين.

بعد ذلك انطلق رسول الله – ﷺ – حاملاً لواء الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله حتى توفاه الله بعد أن أدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، وفي الختام أشير إلى أن اختيار الصحابة رضوان الله عليهم في عهد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – للتأريخ بالهجرة النبوية المباركة دون غيرها من الأحداث يعد من فقه الصحابة وفهمهم العميق لأهمية هذا الحدث الذي انتقلت الأمة المسلمة بسببه من مرحلة الاستضعاف والابتلاء إلى مرحلة الاستخلاف والتمكين.

http://www. altareekh. com

الهجرة نصر

لقد انتصر الإيمان بالهجرة.. وارتفعت راية الحق بالهجرة وأضاء الأمن ظلام الخوف بالهجرة، وازدهرت الحرية وجاء الفرج بالهجرة، وارتفعت رايات القوة.

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) [الأنفال:٦٠].

لقد أصبح بالهجرة للمسلمين دولة لا صوت فيها إلا الله ورسوله.. ولا دستور إلا القرآن ولا عزة إلا للمؤمنين...

الخير فيها مزدهر واضح والشر منزو مكبوت، لا تشيع الفاحشة في مجتمعها ولا يكشر الباطل عن أنيابه في دروبها، وعندما نعي معنى الهجرة وندرك نتائجها التي يجب أن تحققها ستكون الهجرة بالنسبة لنا نصر كما كانت للمستضعفين في مكة أكبر نصر.

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) [الأنفال: ٢٦].

فإلى كل المستضعفين في الأرض اجعلوا شعاركم (ففروا إلى الله) واجعلوا خطواتها نية وتوبة وجهاد، عندها يعود الأمل ويعود الفتح وندرك ساعتها كيف يكون النصر.

حتى ينصرنا الله:

ويمكن تلخيص واجبات محددة لكل مسلم ومسلمة في تلك الأيام حيث تتجدد أشواق الهجرة ونعلنها هجرة بعد الفتح.

١ – التوبة.. وكل منا يدرك معصيته فهيا نضع دائرة حمراء حولها حتى نحاصرها لنزيلها ونزيل آثارها الحمقاء.

٢ – تجديد النية.. وذلك في هجرة إلى الله – سبحانه – وتعالى – لا رجعة فيها تتلخص في المرابطة أمام قرآنه والتسلح بسنة نبيه – ﷺ – والالتزام بشريعته.

٣ – المجاهدة.. وهي أول درجات الجهاد.. وحدد لنفسك بعض العادات الغير مؤثرة في مسيرة الحياة وجاهد نفسك على أن تتخلص منها وأظن على رأسها التدخين (وهو حرام شرعاً)، وكثرة وشرب الشاي والقهوة، وتضييع الوقت وكثرة الكلام وخاصة في الجدال، والإسراف وخاصة في الاستهلاك، وعدم الالتزام بتغطية العورات (وهي حرام شرعاً) وخاصة للنساء.

٤ – الإحسان.. نريد منتجاً تصنعه يدّ مسلمة عربية تنوي به ثواب الله – تعالى – نريد عامل يستشعر اللذة حين يتقن صنعته بقدر شعور بلذة السجود بين يدي الله – تعالى –.

٥ – أن تستشعر المرأة روح ودور أسماء بنت أبي بكر..

هذه الفدائية المهاجرة المجاهدة، وتعلم المرأة أنها شريكة في حمل هذا الدين.. فتبذل.. وتربي.. وتضحي.. وتعلم.

٦ – أن نستشعر جميعاً روح الهجرة في البذل والتضحية والعطاء..

فنستشعر روح المهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم وبلادهم.. ونستشعر روح الأنصار حين أوى إليهم المهاجرين وقاسموهم أموالهم وديارهم وحتى زوجاتهم.. فلا نبخل بالمال ولا بالجهد فندعم إخواننا المجاهدين في فلسطين بالمال والدعاء والنصرة وتعريف الناس قضيتهم.

٧ – العزة.. نريد أن نعتز بأخلاقنا وعادتنا وسلوكياتنا الإسلامية الأصيلة.. نريد أن نعتز بلغتنا العربية لغة القرآن العظيم.

٨ – الانتماء.. أن نستشعر موقف النبي – ﷺ – وهو ينظر إلى مكة نظرة أخيرة قبل أن يهاجر منها ويقول: ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك (رواه الترمذي).

إنها أوطاننا التي نحبها ونفديها بالغالي من الدم والروح فهل نهجرها أو نهاجرها وهل نؤذيها أو نتمنى لها شراً، إنها أوطاننا التي ننتمي إليها بكل كياننا، كل منا يتحول فيها إلى لبنة بناء ليعلو به البنيان.. نداؤنا الدائم فيها:

(يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب ألـــيم) [الأحقاف: ٣١].

ننادي شبابها:

تعالوا نشيد مصنعاً رب مصنع..... يدر على صناعنا المغنم الوفرا

تعالوا لنمحو الجهل والعلل التي..... أحاطت بنا كالسيل تغمرنا غمراً

نحطم أغلالاً ونمحو حوائلاً..... ونخلق فيها الفكر والعمل الحرا

شباب إذا نامت عيون فإننا..... بكرنا بكور الطير نستقبل الفجرا

شباب نزلنا حومة المجد كلنا..... ومن يغتدى للنصر ينتزع النصرا

من كتاب [إلا تنصروه فقد نصره الله] للدكتور/ أكرم رضا.

المصدر: http://muslema. com

معاني الهجرة وواقع أمتنا

أ. مهدي عاكف

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ومَن والاه، وبعد..

فإن مواسم الخير تتعاقب على حياتنا في الأشهر القليلة الماضية، بما تحويه من دروس وعبر، وما تقدمه من زاد على الطريق، وما تُتيحُه من فُرَص أمام قوافل الإيمان؛ لترتقي قُدُمًا إلى غايتها العظمى؛ رضوان الله – عز وجل –.

فبعد عطاءِ رمضانَ والصومِ جاء عطاءُ الحج وعيدُ الأضحى، ثم تأتي ذكرى الهجرة وفيوضاتُها، وبَدْءُ عام هجري جديد، جعله الله عامَ بركةٍ ونصر.. وكل عام وأنتم بخير.

لقد كانت الهجرة نصرًا مبينًا، كما وصفها الله – عز وجل – في قوله: ؟إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ؟ (التوبة:٤٠).

ولم يكن خروج النبي – ﷺ – وصحابته مستخْفين من مكة إلى المدينة هزيمةً أو فِرارًا؛ فقد بذلت قريش جهودها لمنعه، لِمَا تعلمُ من خطورة هذه النَّقلَة في حياة الدعوة ورجالها، وقد نجح هؤلاء الرجال في مُغالبةِ واقعهم بين ظهراني الكُفر، والصمودِ في وجهه، والتوسعِ على حسابه، ثم نجحوا في صُنعِ واقعٍ جديدٍ ينتظرهم حين وجدت الدعوة بين أهل المدينة أنصارًا يتحرَّقون شوقًا لنصرتها، وإقامة دولتها، والتمكين لها.

ولم يكن ذلك التغيير الكبير وتلك النقلة الهائلة سوى تتويجٍ للجهد المبذول طوال ثلاثة عشر عامًا بمكة في الدعوة والتربية، واستخلاصِ أفضل ما في ذلك المجتمع من عناصر الخير، أولئك الذين قدموا التضحية النبيلة؛ فعُذِّبوا في بطحاءِ مكة، وظَفَر بالشهادة في سبيل الله من اصطفاه الله لها، وسُجِنوا في شِعْبِ "أبي طالب" ثلاث سنوات، عَرَفوا فيها قسوةَ الحِصارِ والتجويعِ والمقاطعة، واضطُّر بعضُهم إلى الهجرة

من الوطن – الذي تحكمُ فيه الأراذِل والطغاة – إلى الحبشة، وتسابَق إلى التضحيةِ منهم القادةُ والجنودُ، والأشرافُ والعبيدُ، وأُوذِي رسولُ الله – ﷺ – وحوصِر، وهاجَر إلى الطائف، فما ردَّه سوى الصبيان والعبيد والسفهاء؛ يعذبونه بالحجارة حتى دَمِيَت قدماه الشريفتان.

ورغم ذلك استمرت حركتهم بالإسلام والدعوة إليه، وكانت تضحياتهم المثيرة دافعًا إلى غزو القلوب التي هزَّتها نماذجُ البطولةِ والصمودِ من أجل العقيدةِ والمبدأ، ومضَت القيادة الحصيفة البارعة تتلمَّس أرضًا أخرى أصلحَ للدعوة، يمكن فيها إقامة الدولة، وتقديم الهداية إلى العالمين.. حتى قدَّر الله – تعالى – أن يصطفي لذلك المدينة المنورة وأهلَها، الذين غدَوا أنصارًا للدين الجديد، يبايعون قيادته على الجهاد من أجله، في بصيرةٍ واعيةٍ لمتطلبات ذلك الجهاد، وفي عزيمةٍ صادقةٍ على تحمُّلِ تبِعاتِه ونتائجه.

كانت الهجرة إذًا نصرًا عزيزًا.. تَحقَّق أولاً داخل النفوس المؤمنة، التي استَعْلَت على جواذِب الأرض وإلْفِ الباطل، وأخلصت لدينها، وضحَّت في سبيله، وانحازت انحيازًا مطلقًا لخيار العقيدة ومطلوبِها، فتركت من أجله العشيرةَ والوطنَ – الذي ضاق بطغاته – ولم تنفسح لهم أرضه.. فلما علم الله في قلوبهم خيرًا، آتاهم خيرًا ممَّا أُخِذَ منهم، فوجدوا في دار مهجرهم الوطن والأهل والعزة جميعًا، وكان الأنصار بالمدينة على ذات المستوى من الوعي بخطورة المستقبل الذي يشاركون في صياغته، وأهمية الاستعداد للبذل في سبيله؛ فكانوا كما وصفهم الله – تعالى –: ؟وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ؟ (الحشر: ٩)، ولم تكن الهجرة عملاً ممكنًا، ولم يكن من المستطاع أن تحقق أهدافها من غير وجود النُّصرة الراشدة الواعية المضحِّية.

لقد كانت الهجرةُ الحدثَ الأخطرَ في مسيرةِ الإسلام والجماعة المسلمة الأولى؛ فيه انتقلت الدعوة من طَوْر الاستضعاف والمِحنة إلى طورِ النصرِ والتمكينِ وإقامةِ

الدولةِ، وبدءِ الجهادِ لتبليغِ العالمين رسالةَ الإسلام؛ ولذا فقد كان "عُمَرُ بنُ الخطاب" – رضي الله عنه – مُلهَمًا حين اختار تاريخ الهجرة إلى المدينة ليكون بَدْءَ التأريخِ عند المسلمين، وجعلَه في بداية شهر (المحرم)؛ حيث بدأت فيه هجرة المؤمنين في أعقاب بيعة العقبة الثانية في (ذي الحجة)، الذي يُعد – بحق – عهدَ تأسيس الدولة الإسلامية الأولى. وبمجرد وصول النبي – ﷺ – إلى المدينة بدأ يُرسي دعائم هذه الدولة، التي تعبر عن شمول الرسالة وكمال الدعوة، فشرع في بناء المسجد؛ ليكون مقرَّ التربية والقيادة والتوجيه، وأخذ يوطِّدُ دعائم الأخوَّة الإيمانية لتحقيق المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ويقرر مبادئ المواطنة العامة لكل سكان الدولة، بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، بعَقْد معاهدةٍ مع سكانها من اليهود، الذين ما لبِثوا أن نقَضوا عهدهم ومواثيقَهم.

التغيير لا يأتي من الخارج:

إن الدرس الذي ينبغي أن نؤكد عليه في هذا المقام؛ هو أن إقامة دولة الإسلام الأولى – بما مثَّلها من نصرٍ مبينٍ – كانت نتيجةً للتغيير الضخم الذي شهدته نفوس الجماعة المؤمنة الأولى، التي ارتضت الإسلام دينًا، وتربَّت عليه، وضحَّت من أجله، كما قال – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: من الآية ١١)؛ ولذلك فقد كان نصرًا حقيقيًّا باقيًا.. وكلُّ تغييرٍ لا يأتي من داخل الأمة نفسها لا يؤتي ثمرتَه المرجوَّةَ، فكلُّ تغيير تصنعه القوة القاهرة أو القرارات الفوقية تغييرٌ محدود الأثر.

إنَّ أمتنا تشهد في هذه الفترة من تاريخها محاولاتٍ لتغيير واقعها الأليم، الذي يدرك كافةُ أبنائها أنه قد آنَ الأوانُ لتغييرِه، وإحداثِ تطورٍ حقيقيٍّ فيه؛ لكنَّ البعض منا يروِّجُ لمشاريع تغيير مستورَدة من الخارج في ظل العولمة والقطب الدولي الوحيد، ويتلمَّس لنفسه العذرَ في ذلك بأن أبواب التغيير من الداخل موصدةٌ بأيدي حكامنا الذين لا يرَون في الإمكان أبدعَ مما هو كائن، وتتقاصر إمكاناتهم عن آمال شعوبهم، ويزداد حرصهم على مكاسبهم؛ فيزداد تشبثُهم بكراسي حكمهم، ويزداد بطشهم

بمُعارضيهم.. والحق أن واقعنا أليم قد أصابه التيبُّس والجمودُ؛ لكننا واثقون في الوقت ذاته من أن الحلول المستوردة الجاهزة لن تحل مشكلاتنا، وأن أعداءَنا لا يريدون خيرًا بنا، وأن (دغدغة) مشاعر البسطاء والمضطَّهَدين بشعارات الحرية الأمريكية لن تُفيد، وقد رأينا ثمرة تلك الشعارات في (العراق)، ونراها منذ أمد في (فلسطين)، التي يعاني أهلها ما لا يطيقه بشرٌ بفعل الاحتلال الصهيوني، الذي تباركه الإدارة الأمريكية.

إستراتيجية أمريكية ظالمة:

إننا بإزاءِ إستراتيجيةٍ أمريكيةٍ تسعى إلى قيادة العالم وتغييره ليكون تابعًا لها، وقد عبَّر عن ذلك الرئيس الأمريكي "بوش" بقوله: "مَن ليس معنا فهو علينا"، وتحت شعار (محاربة الإرهاب) – الذي بات يُطلَق على كلِّ معارَضَةٍ لأمريكا وسياساتها – شنَّت الحروب ضد المسلمين في أفغانستان والعراق، واحتلت بلادهم، ونهبت ثرواتهم، وأطلقت يد الكيان الصهيوني في فلسطين ليُعربِد كما يشاء، وله في كل يوم جرائمُه وضحاياه.. وتجد في كل يوم – أيضًا – تأكيدات القيادة الأمريكية بدعم الغاصبين، ومما يؤسَف له أن ينساق العديد من الدول إلى الطريق ذاته، وقد باتوا يعلمون أن الرضا الأمريكي والصهيوني ضرورةٌ لنَيْلِ الحَظوة والمكانة، وقد نقلت الأخبار أخيرًا تأكيد الرئيس الفرنسي "شيراك" موقفَ بلاده من حماية الكيان الصهيوني الغاصب ووجوده، وكأن وجودَه مهددٌ!! وكأنه يفتقِد الحماية ويتعرَّض للخطر!! وهو الذي يهدِّد – بأكثر من ثلاثمائة رأس نووي وبترسانةٍ من أحدث السلاح والعتاد – جيرانه من العرب والمسلمين، كما نقلت الأخبار إلينا رفضَ "بريمر" – الحاكم الأمريكي للعراق – أن ينصَّ الدستور العراقي المنتظَر على أن "الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع"!! وهل يتوقَّع مسلم عاقل غيرَ ذلك الرفض؟! وما أقربَ الخيارات التي يقدمها لنا النظام العالمي الجديد – الذي تقوده أمريكا – من خيارات مشركي قريش في مواجهتهم للنبي – ﷺ – ليلة الهجرة: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال: ٣٠).

ونحن نوقن أن الله خيرُ الماكرين، وأنه حافظُ دينِه وأوليائِه، وأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرًا، وأن تضحيات أهلنا في فلسطين والعراق وأفغاستان لن تذهب سُدًى، كما لم تذهب تضحيات الجماعة المسلمة الأولى وقائدها محمد - ﷺ - سُدًى..

غير أننا نخاطب جماهير أمتنا في ذكرى الهجرة والنصرة: أين نصرتكم لإخوانكم المجاهدين؟! أيها المؤمنون.. "كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ" كما كان أسلافُكم، ولا سبيلَ لعزَّتكم غير ذلك السبيل.. إن أهلنا في هذه الأقطار الإسلامية الممتحَنة في حاجةٍ لكل نصرةٍ وتأييدٍ وبذلٍ وعونٍ.. إن أكثر من مليار ونصف من المسلمين قادرون، بإذن الله - حين يخلصون نياتهم وينصرون إخوانهم - على أن يغيِّروا واقعهم بأيديهم، ويفرضوا على أعدائهم احترام كلمتهم ودينهم وأوطانهم.

أفلا تتحرك ضمائرُنا ونحن نرى أمة الهجرة والنصرة تفرِّط في رصيد إمكاناتها، بينما نرى في دولة الصهاينة معاني الهجرة من أجل الباطل والنصرة له؟! فالآن اليهود يهاجرون إلى أرضنا المغتصَبة، وبعضهم يضحِّي بالفعل بوضعٍ ماديٍ متميزٍ عنده؛ ليجدَ النصرة والمأوى والعَون على باطله وظلمِه بين ظهراني من سبقَه من الغاصبين في وطننا السليب، ولم تتكسر حلقات ذلك التظاهُر على الإثم والعدوان إلا بجهاد أهلنا في فلسطين، الذين أثبتوا للعالم كله أن لديهم وطنًا يستحق الفداء، وليس كلأً مباحًا لقطْعَان الغُزاة؛ فقلَّت معدلات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بل زادت معدلات النزوح العكسي إلى خارجها.. "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" (يوسف: من الآية ٢١).

أيها الإخوة الأحباب.. ومع مطلع عام هجري جديد نكرِّر تهنئتَكم بالعام الهجري الجديد، ولنتذاكر معًا أنها فرصةٌ لمحاسبةِ النفس على عام مضى، وعَقْدِ العزمِ على مواصلة السعي إلى الله في العام الجديد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المصدر: http://www. ikhwanonline. com

الهجرة وأزمة الأمة

الخطبة الأولى:

أما بعد أيها الأخوة المؤمنون:

الهجرة وأزمة الأمة.. موضوع مهم نحتاج إليه ونحن ما زلنا في أفياء هذه الهجـــرة وفي ضلالها.. ونحن قريبي عهد بالأمس بالعاشر من محرم وما فيه من فضيلة ومـــا له من مزية.

ولعلنا نقف وقفات سريعة عابرة فيما قبل الهجرة، وفي أثنائها، وفي أوائل ما بعدها؛ لننظر في هذه الهجرة نظراً اعتبارياً يعيننا على فهم حقائق واقعنا، وعلى أن نبث في قلوبنا من يقيننا وإيماننا، ومن قدرتنا وقوتنا ما يزيل ذلك الوهن، وينفي ذلك الضعف، ويمحو تلك الذلة التي تضلل على أمة الإسلام إلا من رحم الله.

صورة من الثبات على الدين عندما قبل المسلمون الأوائل دعوة سيد الخلق محمد – ﷺ – ودخلوا في الإسلام، وأيقنوا بالإيمان.. واجهوا عداء قريش وأذاها وعنادها، فأي شيء كان منهم؟ لنرى كيف كان أثر الدين في حياة المـــؤمنين؟ ومـــا مكانتـــه عنـــد المسلمين؟

كلنا يعلم تلك الرمضاء الحارقة من شمس مكة، وهي تســـطع علـــى بـــلال تحـــت الصخر، يعذب ويضطهد، ويؤذى أشد الأذى وهو يهتف:"أحدٌ أحد"، لا يقبل أن يعطي الدنية في دينه، ولا أن يغير معتقده، ولا أن يساوم على إيمانه.

وصهيب، وما أدراك ما صهيب! وخباب، وما أدراك ما خباب! بقي أثر السياط على ظهره إلى يوم وفاته بعد عقود من الزمان، كان يجلد حتى يختلط لحمه بجلـــده بدمـــه حتى يبلغ الأمر به مبلغاً جاء يشكوا إلى النبي – ﷺ – ألا تدعوا لنا ألا تستنصر لنـــا فيثبت بمثبت الإيمان – ﷺ –، ويرد الأمر إلى ضرورة القوة في الدين والثبات عليه (كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمـــه

من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون).

فنزل الإيمان راسخاً في القلوب، وسرى الإسلام جرياً مع الدماء في العروق، فثبّت ذلك الإيمان.. حتى جاءت الهجرة من بعد ليست فراراً من المواجهة، ولا خروجاً من الثبات على الدين، لكنها تأكيداً أولوية الدين في حياة المسلمين.

جاءت هجرة الحبشة الأولى والثانية ولسنا في مسرد السيرة، ولكننا نشير إلى الومضات التي تبين أنه لا دنية في الدين.

لما جاء عمرو بن العاص – وكان آنذاك رسول قريش – ليرد المهاجرين إلى مكة، وجاء إلى النجاشي بما جاءه من الهدايا والأحاديث، فطلب النجاشي – العادل – الطرف الأخر ليستمع بعد أن أساء عمراً القول، وشوّه السمعة، وأبثَّ الفتنة، وأشاع الخلاف، فجاء جعفر ابن أبي طالب مع بقية أصحابه المهاجرين.. أي صورة كانوا يمثلون؟ صورة إيمان وإسلام، مجتمعين موحدين، ليس بينهم افتراق آراء، ولا تباين أهواء، ولا تعارض مصالح، جمعوا كلمتهم، واختاروا متحدثهم، وأيقنوا بأنه لابد من أن يكون لهم موقفهم، فماذا قال جعفر – رضي الله عنه –؟

إنه كان يريد أن يحافظ على مصلحة المسلمين، وأن يبقي على وجودهم وأن يوفر أمنهم وأن ييسر رغد عيشهم لكنه بحال من الأحوال هو ومن معه لا يمكن أن يكون ذلك كله على حساب إيمانهم أو على حساب إسلامهم فجعل حديثه إعلان بمساوئ الجاهلية وإظهاراً لمحاسن الإسلام فقال رغم حرصه على أسلوب يحفظ للمسلمين مصالحهم: "أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا

علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، فخرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك،ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك"، وانظروا إلى لغة السياسة الإسلامية الإيمانية" فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، فخرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك"، فهل في هذا نفاق سياسي؟ وهل في هذا دنية دينية؟ إنها حنكة مع إظهار الإسلام، مع إعلان دعوته ومع إظهار محاسنه، ومع الوقف مع المبدأ الحق دون تميع ولا تنصل من حقائقه ومبادئه.

وكان ذلك موقف حكيم دفع عنهم الأذى، ولم يوقعهم في حرج من دينهم الإسلامي، فهل اكتفت الجاهلية ومبعوثها الداهية عمرو بن العاص – وكان على شركه إذ ذاك – قال: والله لأتينهم الغداة بما يبيد خضرائهم، وغدا على النجاشي.. يريد أن يشعل الفتنة وتأليب وتشويه بقوله: إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً! يعلم من النصرانية أنهم يقولون:"عيسى هو الله وابن الله"، – تعالى – الله عما يقولون علواً كبيراً..

وجاءت هذه المعضلة والطامة المشكلة، والمعجزة المربكة المحيرة.. وجودهم وأمنهم وعيشهم ورغدهم أو موقفهم ودينهم وعقيدتهم: ما تقولون في عيسى؟

أي شيء يقول جعفر؟ وأي بيان يظهر المسلمون؟ هل يبدلون أو يغيرون؟ هل يحافظون على دينهم أم على حياتهم؟ قالوها كلمات واضحة:"نقول فيه الذي جاء به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول".

لا دنية في الدين، لا مساومة في العقيدة، لا تغيير في الإيمان والإسلام.. أي شيء جرى لهم أي مصيبة حلت بهم أي نكبة نزلت عليهم لم يحصل من ذلك شيء؛ لأن من كان مع الله كان الله معه..

قال النجاشي:"والله ماعدا ما قلتم فيه عودي هذا"، فنخرت البطارقة، قال:"وإن نخرتم!"، ثم قال لهم:"أنتم شيوم بأرضي، لا يعتدي عليكم أحد"؛ لأنهم أهل مبدأ، أهل

يقين، أهل عزة، أهل وضوح لا أهل تميع وذلة وترخص والتماس عرض من الدنيا بضياع الدين نسأل الله – عز وجل – السلامة.

ثم جاءت الهجرة الكبرى، وجاء الإذن الرباني من الله – عز وجل – للمصطفى – ﷺ – بعد أن تهيأت الأسباب، وبعد أن أدى الجهد منه ومن أصحابه – رضوان الله عليهم – فأي شيء كانت الهجرة؟ أي درس أعظم فيها؟

إنه التضحية بكل شيء من أجل الدين.. كلنا يعلم هجرة أبي سلمة ومعه أم سلمة ومعهما ابنهما سلمة يمضي تاركاً وراءه دنياه، مخلفاً وراءه حياته الأولى ومراتع صباه، وذكريات شبابه، يمضي إلى الله ورسوله، إلى مرضاة الله، وإلى طاعة الله، إلى التزام دين الله، إلى إعلاء راية الله، فيأتي أهل زوجته ويقولون له:"هذه نفسك قد غلبتنا عليها أما ابنتنا فلا تمضي معك"، فأخذوا زوجته فجاء بنو أسد – أهله – بعد أن مضى، قالوا: "هذه ابنتكم أخذتموها أما ابننا فنأخذه" فأخذوا الابن في جهة، والأم في جهة، والأب الذي يرى زوجته تؤسر وابنه يقهر هل يصده ذلك عن المضي إلى مرضاة الله؟ وهل يضعف يقينه بالله؟ وهل يستسلم لظروفه وما تدرّ به في هذه الحياة؟ كلا! مضى إلى الله مهاجراً، ثم ماذا؟ تمّت له هجرته وألحق الله له زوجته وابنه من بعد.

وصهيب، وما أدراك ما صهيب! غنيمة الحياة الدنيا كلها وثمرة جهده وتجارته وصناعته يخرج مهاجراً، يحيطون به قائلين: جئتنا صعلوكاً وتخرج من بين أيدينا تاجراً ثرياً؟! فقال: أريتم لئن أعطيتكم مالي أأنتم تاركي؟! قالوا: نعم، قال: فإنه في مكان كذا وكذا، فذهبوا عنه..

ذهبوا بماله كله، بدنياه كلها، بأيامه ولياليه وجهده وشقاء عمره، فهل حزن لذلك؟ وهل مضى كسيف البال أو رجع مشدوفاً إلى المال؟

مضى إلى الله – عز وجل – فاستقبله سيد الخلق – ﷺ – وهو يقول: (بخٍ بخٍ.. ذاك مال رابح) وتتنزل الآيات: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} [البقرة:٢٠٧]، بيعة وصفقة رابحة.

وعبد الله ابن جحش وزوجه وأخوه أبو أحمد -كان أعمى ضريراً لا يرى وكان شاعراً - أهل بيت خرجوا جميعاً، لم يبقى منهم أحد، خلفوا وراءهم الديار قطعوا العلائق ليسموا إلى ما هو أعظم وأعلى من شأن الدين والإيمان واليقين.

مرّ عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل فرأى عتبة هذه الديار وقد خلت من أهلها، والريح تخفق فيها يباباً.. نظر إلى من تركوا الدنيا، إلى من تركوا الديار.. نظر متأملاً متعجباً، ونظر كذلك بنظرة إنسانية حزينة متأملاً ثم قال:

وكل داراً وإن طالت سلامتها *** يوماً ستدركها النكباء والحوب

فقال أبو جهل: "ذاك ما فعل ابن أخيك فرق جماعتنا وشتت شملنا"، وذلك هو حال الطغاة المجرمون مجرمون ويفعلون الجريمة، فإذا التمس الناس منها خلاصاً صاروا هم المجرمون، وصاروا هم الإرهابيون كما نرى في واقع حالنا اليوم.

أما أبو بكر وما أدراك ما أبو بكر! وقته وعمره ماله وثروته أهله وبنوه داره وأرضه ريحه ونفسه كلها كانت تضحية في الهجرة، حبس نفسه لصحبة النبي - ﷺ - أربعة أشهر، وهيأ ماله وعلف راحتيه، وترك زوجه وأبناءه، وترك داره وأخذ كل ماله ومضى مخاطراً بروحه وبنفسه بين يدي رسول الله - ﷺ -.

حتى جاء الموقف العظيم ووقف المشركون على فم الغار، وإذا بأبي بكر شفقة ورحمة يقول: يا رسول الله لو نظر أحدهم موضع قدمه لرآنا! فينطق اليقين والثبات والإيمان على لسان سيد الخلق - ﷺ -: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما).

وتتنزل الآيات تصف هذه المواقف العظيمة: {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: من الآية٤٠].

من يحزن والله معه؟! من يضعف والله يعينه؟! من يذل والله يعزّه؟! من يخاف والله يؤمنه؟!

ذلك درس التضحية العظمى في هذه الهجرة تضحية لأمر الدين تقول لنا إن الأولوية في حياة المسلمين لأجل الدين.

كان محمد – ﷺ – في مكة سيد سادتها، وشريف أشرافها، وذو الذروة العليا في أنسابها وقد جاءته قريش قالوا لو تريد مالاً لجمعنا لك مالاً حتى تكون أكثرنا مالاً عرضوا عليه دنياهم كلها فركنها برجله وداس عليها بإيمانه ويقينه واستعمى عليها بسمو إسلامه ويقينه – عليه الصلاة والسلام –.

لم تكن حياة المسلمين رغبة في الدنيا، ولا سكون إليها، ولا طلب إلى السلامة.. ولو كان ذلك كذلك لعاشوا مسالمين موادعين وحسبهم في ذلك أن ينكفئوا في دارهم أو أن يؤدوا شعائرهم لكنه الإيمان والإسلام أولى الأولويات في حياة المسلمين.

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناي، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة، لكن الهجرة أمرٌ آخر.. إنها إكراه رجل آمنٌ في سربه ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه وتضحية أمواله والنجاة بشخصه وحسبه، وإشعارٌ بأنه مُستباحٌ منهوبٌ قد يهلك في أول الطريق أو نهايتها! لكنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش.

من دروس الهجرة درسان عظيمان نذكرهما ذكراً ولا نقف عندهما طويلاً؛ لأننا نُريد من بعد أن نُذّكر بهذه الدروس كلها في محور واحد نربطه بواقعنا المؤلم المُحزن المؤسف في كثير من أحواله، من هذه الدروس وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام.

وخلاصة هذا الدرس:

أن الدين وإقامة شعائره وإظهارها ورفع رايته هو الغاية العظمى والأولوية الكبرى التي عليها تدور حياة المسلمين، ولأجلها يتركون الأرض والديار.. لأجلها يقطعون الصلات والعلاقات.. لأجلها يبذلون الأموال والنفقات لأجلها يجودون بالأرواح في الساحات.. ذلك هو الدرس العظيم والفقه المستنبط من الهجرة.

وأما الدرس الثاني وهو: وجوب نصرة المسلمين لبعضهم

مهما اختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكناً.

قال الإمام أبو بكر بن العربي – رحمه الله –: "إذا كان في المسلمين أُسراء أو مستضعفون؛ فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة بالبدن، بألا تبقى فينا عينٌ تطرف حتى تخرج إلى استنقاذهم إذا كان عددنا يحتمل ذلك أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحدٍ درهمٌ من ذلك".

ذلك ليس فقه استنباط ودليل، لكنه – قبل ذلك – فقه إيمان ويقين، فقه استعلاء ومعرفة للحقائق الإيمانية.

وعندما مضى النبي – ﷺ – إلى المدينة هل وضع رحاله ليرتاح؟هل ترك أذى مكة لينعم برغد العيش في المدينة؟ هل خرج من بين الأعداء ليهنأ بالحياة بين الأصحاب؟ أي شيء صنع – ﷺ –؟

منذ أول لحظة وطأت أقدامه الشريفة مدينته المنورة عمد إلى بناء المسجد وربط المسلمين بالله، وعمد إلى المؤاخاة لربط العلائق بين المسلمين، وعمل المعاهدة لتنظيم العلاقة مع غير المسلمين.

ومن لقي بالمدينة؟ اليهود – عليهم لعائن الله – ولننظر ونستمع إلى كلام علمائنا وأمّتنا لنعرف فقههم الإيماني والعلمي معاً.

هذا وصفٌ لابن القيّم – رحمه الله – يصف فيه اليهود عليهم لعائن الله يقول عنهم:"هم الأمة الغضبية، أهل الكذب والبُهت والغدر والمكر والحِيل، قتلة الأنبياء، وأكلة السُحت – وهو الربا والرشا – أخبث الأمم طوية، وأرداهم سجية، وأبعدهم من الرحمة، وأقربهم من النقمة، عادتهم البغضاء، وديدنهم العداء والشحناء، بيت الكذب والسحر والحِيَل، لا يرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم الأنبياء حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، ولا لمن وافقهم عندهم حقٌ ولا شفقة، ولا لمن شاركهم عندهم عدلٌ ولا نصفة، ولا لمن خالطهم طمأنينة ولا أمنة، ولا لمن استعملهم عندهم نصيحة، بل أخبثهم أعقلهم وأحذقهم أغشّهم أضيق الخلق صدوراً، وأظلمهم بيوتاً، وأنتنهم أفنية، وأوحشهم سجية".

أليست هذه الصفات اليوم هي عين التعصب والعنصرية؟ أليس هذا هو جوهر العنف والإرهاب؟ فماذا يقول اليهود؟ ليس في أقوال علمائهم، بل في المسطور في كتبهم بما حرّفوه!

ألا يقولون:"إن أمم الأرض كلها كلابٌ يجوز قتلها لليهود، وأموالهم حلالٌ يجوز سبيها لهم، ونسائهم حلالٌ يجوز استمتاعهم بها"، ولا يجرؤ أحدٌ أن يقول ذلك، ويتكلمون على مناهج تقول شيئاً من الحق التي تؤكده الوقائع المعاصرة، والحقائق التاريخية الظاهرة، والانحرافات العقدية المكتوبة المُثبتة فأي شيء جرى لأمة الإسلام عند المواقف الأولى ونحن لا نسرد السيرة.

انتصر النبي في بدر فغلى الحقد في قلوبهم، وجاشت البغضاء في نفوسهم، وظهرت أساليب الغدر والكذب والكيد والمكر على ألسنتهم، ثم تفاعل ذلك كله فظهر في تصرفاتهم امرأة عربية دخلت إلى سوق بني قينقاع تبيع شيئاً لها جلست إلى صائغٍ، فجاء بعض سفلة اليهود يريدونها أن تكشف وجهها فأبت بإيمانها، فعمدوا إلى طرف ثوبها فعقدوه بأعلاه، فلما قامت انكشفت عورتها، فجعلوا يتضاحكون ويستهزئون ويسخرون.. موقفٌ واحدٌ في أمرٍ عارضٍ لامرأة واحدة، أي شيء جرى؟ صاحت مستنجدة أهل الإيمان والنخوة والإسلام، فانتدب لها مسلمٌ من غير عقد مؤتمر ولا مشاورات سياسية، ولا بحوث وبحث في القوانين الدولية، بل امتضى لها ينتصر لها وعمد إلى الصائغ فقتله، فاجتمع عليه اليهود فقتلوه، فأحاط بهم رسول الله – ﷺ – وحاصرهم وأجلاهم من بعد، وأخذ من أموالهم ما أخذ، وخرجوا أذلة صاغرين يوم كان كذلك المؤمنون عزوا، وارتفعت رايتهم، وعظمت هيبتهم، وقويت شوكتهم، وكانت لهم في دنيا الناس كلمتهم.

أفليست هذه دروس مهمة؟ أفليست هذه صورٌ حية؟ أفليست هذه صفحات ينبغي أن ننقشها على قلوبنا، وأن نجريها مع الدماء في عروقنا؟ وإلا بقينا أذلة صاغرين! وإلا بقينا تافهين مغيبين! وإلا بقينا تحت ذل وقهر الغلبة والظلم الذي يُسلط على المسلمين..

نسأل الله – عز وجل – أن يرفع الغمة، وأن يكشف البلاء عن الأمة، وأن يُعيدها إلى العزة، وأن يُخلف عليها في دينها استمساكاً بكتاب الله واعتصاماً بسنة رسول الله – ﷺ –.

الخطبة الثانية:

أما بعد أيها الأخوة المؤمنون:

الهجرة تأكيد للزوم الثبات على الدين، وإعلانٌ لإظهار أولوية الدين في حياة المسلمين، وبيانٌ أن التضحية تكون بكل شيء لأجل إعلاء الدين.

إذا فقهنا ذلك ونحن ننظر إلى واقعنا اليوم وماذا نرى فيه؟

عجزٌ عربي، ووهنٌ إسلامي، وخزي سياسي، وصورة مشوهة حقائق الإسلام فيها غائبة ن ومرتكزات العقيدة واهية.. ولذلك نرى ما نرى من هذه العجائب، ونرى الغرائب ونحن نعرف ونسمع أن هذه القوات الباغية الغازية الظالمة العادية قد أعلنت بما ذكرته بألسنتها أنها "حرب صليبية"، وأيّدت وأكدّت أنها تريد أن يكون لها الهيمنة العسكرية السياسية وأظهرت وكشفت أنها تريد أن تستولي على الموارد الاقتصادية، وبيّنت وكشفت أنها تريد أن تهيمن على ما وراء ذلك من الأوضاع الاجتماعية، والمناهج التعليمية، والنُظم السياسية، والأوضاع كلها، وبعد ذلك نقول ما نقول، ونسمع ما نسمع من هذه العجائب التي لاشك أن فيها معارضة يقينية ظاهرة واضحة لثوابت لا تتغير من الإيمان والإسلام، ولحقائق لا تُنسخ من آيات القرآن، ولمعالم واضحة جلية من حياة النبي – ﷺ – وسيرته العطرة.

ولذلك – أيها الأخوة الأحبة – نكرر ما أسلفنا القول فيه: الكفر كفر، وأهله أهل بغي وعدوان، جمعوا ذلك مع هذا، فليس لهم في قلب مؤمن محبة ولا موالاة، وليس لهم في عمل مسلم نصرة ولا محاباة، وإلا أنكر ذلك الإيمان في قلبه، أو نقض الإسلام في حقيقته، وأن هذا نطقت به الآيات، وظهرت به حقائق الإسلام جلية واضحة.

ثم من بعد ذلك نرى ما نرى من دروس الهجرة في هذا التلاحم الإيماني والتواصل الإسلامي، والأخوة التي نصّت عليها آيات القرآن ن ونرى كذلك من وراء ذلك أن

يكون الدين هو رائدنا وغايتنا الأولى، من كان مستمسكاً به، ورافعاً له، حقاً لا كـــذباً، وصدقاً لا ادّعاءاً، وواقعاً لا زوراً، فنكون نحن أهل دين، ونكون أهل نصر مع أهـــل اليقين بإذن الله – عز وجل –.

ولذلك ينبغي لنا أن نكون على بصيرة من أمرنا، وعلى بيّنة من حقائق ديننـــا، وأن نكرر ونزيد التكرار والإعادة، وضرورة الاستمساك والاعتصام بكتـــاب الله وســـنة رسول الله – ﷺ –، والنظر في أقوال الأئمة من العلماء الصادقين الذين كانوا أهـــل إيمان ويقين قبل أن يكونوا أهل فقه في الدين.

ولذلك من بعد هذا نتواصى بالثبات على ذلك، ونتناصر ونتعاهد على البقاء عليـــه، وعلى إشاعته فيما بيننا، وقد ذكرنا – من قبل – اللجوء إلـــى الله والاعتصـــام بـــه، والتضرع إليه، والابتهال والذل بين يديه.

وذكرنا من بعد ذلك ومن قبله الاستقامة على أمره، والاعتصام بنهجه والالتزام بدينه، وترك المعاصي والمحرمات، والابتعاد عن المنكرات والمخالفات، ولعل ذلك كله في جملته هو من درس الهجرة؛ فإن الهجرة كما أخبر النبي – ﷺ – في الصحيح عنه: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه).

والنبي – ﷺ – إنما هاجر ليُقيم شعائر الدين، وليجد الأرض التي يُعلي فيها راية الله – سبحانه و تعالى – عندما لم يجد ذلك في مكة التمسه في الطائف، فلم يجده وذهب بأصحابه إلى الحبشة، فلم يثبت حتى يسّر الله له هجرته المباركة، فأقام دولة الإسلام، وأنشأ مجتمع الإسلام، وأقام العزة الإيمانية، والوحدة الإسلامية، ثم جاءت هيبة هـــذا الدين وقوته، وظهرت من بعد ذلك – أيضاً – سماحته ورحمته بالأمم؛ فإن الإســـلام كان أرحم بكل الأمم من أديانها ومن حكامها وكذبوا وخدعوا عندما يقولون غير ذلك.

نسأل الله أن يردنا إلى دينه رداً جميلاً، وأن يجعلنا بكتابه مستمسكين وبهدي نبيـــه – ﷺ – مستعصمين.

المصدر: http://islameiat.com

أطياف الهجرة

لا تعرف الإنسانية، ولا الحياة ولا الشعوب في تاريخها الطويل حدثاً كالهجرة؛ كان له أبعد الآثار والنتائج على البشر أجمعين.

وليس في تاريخ الإسلام ما يفوق الهجرة في جلالها وأهميتها وعظمتها، وفي بعيد أثرها على تاريخه وتاريخ المسلمين كافة.

هجرة محمد بن عبد الله – صلوات الله وسلامه عليه – من مكة إلى المدينة، من أروع ما ضربه الرسول للناس من أمثال، ومن أعظم الأحداث التاريخية على طول العصور والأجيال.

لقد كان موكب الإيمان، موكب التوحيد، موكب الحق: موكب الرسول – ﷺ – وصاحبه أبي بكر الصديق، منذ ألف وأربعمائة وأربعة وعشرين عاماً وهما في طريقهما من مكة إلى المدينة مقدّمة لمواكب رائعة ظافرة، حققت للإنسانية كل ما كانت تصبو إليه من آمال على طول الأعوام والأجيال.

كان مقدمة لمواكب الصحابة الطويلة، التي خرجت من الجزيرة العربية، تهدر كالسيل إلى كل مكان في العالم؛ لتنشر الدين، وتعلي كلمة الله، وتدعو الناس إلى الإيمان والحق، والطهر والتوحيد.

وكان مقدمة لجيوش الإسلام الزاحفة، كما يزحف الليل إلى كل مكان، لتحمي دعوة الإسلام في الشام والعراق ومصر، من عدوان الكسرويين والقيصريين، ولتقود الدعاة إلى الله على كل أرض، وفي كل قطر وشعب!

وكان مقدمة لمواكب العلماء التي خرجت من الجزيرة العربية إلى مراكز الثقافة والحضارة الإسلامية المبثوثة في كل مكان من الأندلس إلى الصين، لتعلّم العقل الإنساني: كيف ينتصر على الجهل والخرافات، والأوهام والشرك والوثنية والطغيان، ولتذيع في الناس مبادئ الإسلام وقيمه ومثله الرفيعة في إعزاز الحياة وتكريم الإنسانية، وتبجيل قدر العقل والفكر، ووضعهما في قمة التقدير والإكبار والاحترام.

موكب جليل مهيب صغير، واحد قاد – منذ ألف وأربعمائة وأربعة وعشرين عاماً – مسيرة الحضارة والإنسانية والتقدّم والعلم، ووضع الدعامة الأولى لانتصار الإنسان المسلم على عصر الجاهلية، وعلى مبادئها وضلالاتها، وبهتانها وشركها!.. وقاد الحياة البشرية عامة إلى ما كانت تتطلع إليه من نور وخير، وعدل وحرية وسلام، وإخاء ومساواة.

وكان هذا الموكب الجليل المهيب يسير فيه رجلان اثنان، ولكنهما: مؤمنان! مؤمنان! مؤمنان!

محمد رسول الله – ﷺ –، وصاحبه أبو بكر الصديق رضوان الله عليه!

خرجا مهاجرين من مكة إلى المدينة، من الشرك والبهتان والضلال والجهل، إلى أفق رحب فيه الإسلام أن يتنفس وأن يعيش.

خرجا مهاجرين من اضطهاد قريش وتعذيبها وتنكيلها، إلى حيث يجدان – هما والمؤمنون بالله – الحرية والسلام، والأمان والأمن في الأرض.

خرجا، بعد أن سدّت قريش – أمام دعوة الله – كل طريق، وبعد أن نالت من الرسول – ﷺ – والمسلمين الأوائل كل نيل.. تعذيب وتشريد وتنكيل.. ليبنيا للإسلام حياة جديدة، تكون له فيها السيادة والقوة، والنصر بإذن الله.

خرجا بعد أن ائتمرت قريش بالرسول – ﷺ –، وصممت على قتله واعدّت لتنفيذ مؤامرتها الدنيئة الشريرة الضالة؛ في وقت محدود معلوم.. {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}.

خرجا ينشدان الحياة والحرية، والسلام والاطمئنان، لا لأنفسهما بل للإسلام وللمسلمين أولاً وقبل كل شيء.

وضرب الرسول– ﷺ – بهجرته للناس أروع الأمثال:

علّمهم أن الحق هو القوة، وأن الباطل هو الهوان والضعف والصغار.

وعلّمهم أن العذاب والاضطهاد لا يمكن أن يكون وسيلة للنيل من المبادئ الشريفة الحق الصادقة.

وعلّمهم أن القوي ضعيف إذا لم يكن الحق معه، وأن الضعيف قوي بالحق إذا اتبعه، وكان من المؤمنين به.

وعلّمهم أن المال وعرض الحياة الدنيا لا يمكن أن يقف عقبة أمام العقيدة والإيمان، وأن وسائل النصر لا يمكن أن تُنال إلا بالإيمان العميق.

وعلّمهم أن الدين كرامة وعزة وقوة، وأن المسلم يجب ألا يحرص على المال والدار ليعيش من أجلهما عيشة الذليل، بل عليه أن يضحّي بكل شيء في سبيل الله، ومن اجل كلمة الله والجهاد في سبيل الحق والشرف والدين.

وعلّمهم أن الإسلام: إيثار وأخوة، ومحبة وتعاون في الله، وأن المسلمين جميعاً هم بنعمة الله قد أصبحوا إخواناً متعاونين في العسر واليسر، والشقاء والرخاء.

وما أكثر ما ضربت – يا رسول الله – لأمتك من روائع المثل وعظائم الأعمال!

ففي كل دقيقة من دقائق حياتك الطويلة الحافلة، المشرقة بالنور والخير والأمل، كنت المثل الأعلى للإنسانية وللحياة وكل من عليها.

ومن شان العقول الكبيرة، والنفوس العظيمة، أن تقود مواكب الحياة؛ مهما تعقدّت أمورها، وتفاهمت خطوبها، واحلوكت لياليها ودياجيها، تقودها إلى الخير والبناء والنصر والرفاهية، ولا تقودها إلى الدمار والهلاك والحرب.

وفي تاريخ الإنسانية الطويل غزاة دمروا العالم، وهدموا ما بنته الإنسانية في عصور طوال، وقوضوا صروح الحضارة والثقافة.

ولكن الرسل الكرام لم يكونوا من هؤلاء!

بل لقد كانت أعمالهم وانتصاراتهم لله، وللحق، وللدين، ولفضائل الحياة، ومن أجل تقدّم الحياة نفسها.

ورسولنا محمد – ﷺ – كان من بين رسل الله – قائد المسيرة الإنسانية، والحضارة والشعوب كافة إلى العزة والحق، والصدق والتوحيد والإيمان.

وكان رائد مواكب البشرية الطويلة الزاحفة في بيداء الحياة.. تنشد النور، وتطلب العدل، وتريد السلام، وتؤمن بالحياة نفسها، وبانتصار الإنسان فيها من أجل المثل

العليا التي شرعها الله لعباده، ومن أجل التقدّم والبناء، والرفاهية والسعادة والإخاء الشامل، والمساواة الكاملة، والحرية السابغة.

وكان – في موكبه الصغير، وهو يسير من مكة إلى المدينة، فراراً من الظلم والعدوان وشريعة الشر والحرب والبهتان – معلّماً للإنسانية وهادياً لها، ومرشداً لمسيرتها، وضوءاً هدايا لقافلتها الزاحفة على الأرض.

ترك قريش، والشر في أعينها وفي جباه رجالها الأشداء القساة، وترك وطنه وداره وماله في مكة، ليقول لهم:

إنه لا معنى للحياة بدون إيمان، ولا قيمة للإنسان بدون عقيدة! وإن الدين أغلى عند المسلم من ماله وداره، وأهله ووطنه.

وليقول لهم: إني داعية سلام.. فإذا طلبتم الحرب، فلن أكون من جناتها!

ولسوف أترككم، وأخرج من داركم غير نادم ولا متردد ولا حزين؛ لأن كلمة الله أعلى، ولأن الدين أسمى وأبقى، ولأن الحياة نفسها لا يمكن أن تسير على المنوال الذي تسيرون عليه، من الشرك والوثنية، والضلال والطغيان والشر.

وانتصر الرسول – ﷺ – في هذا المثل العظيم الذي ضربه للناس، وانتصر الإسلام، وانتصر المسلمون.

صارت للإسلام شوكة.. صارت له قوة ودولة.. صارت له منعة وغلبة.

دخل الرسول – ﷺ – المدينة، ودخلها بعد آلاف المهاجرين من المسلمين.

وشرع الرسول – ﷺ – شريعة الإخاء بين الأنصار والمهاجرين، ونظم رسول الله – ﷺ – ما كان فوضى من أمور المسلمين في المدينة.

واتسعت رقعة الإسلام..

وبعد أعوام قلائل شمل الجزيرة العربية كلها نوره، ثم عمّ ضياؤه آفاق الدنيا كلها في أقل من قرن من الزمان.

ومن منطلق الهجرة، انطلق الإسلام، وانطلق النور، وانطلقت الثقافة الحضارة.

ليلّم الناس أن {الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}.

ولتدوي في آذان الأجيال: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}.

ولتؤكد لهم معنى قوله – تعالى – في كتابه العزيز: {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون}.

المصدر: http://islameiat.com

من دروس الهجرة

ممدوح إبراهيم الطنطاوي

كانت الهجرة النبوية حدثاً عالمياً فاصلاً بين مرحلتي الكفر والإيمان، فهجرته – ﷺ –من مكة إلى المدينة كانت نصراً للدعوة الإسلامية بكل ما تحويه الكلمة من معـــان، فلولا الهجرة ما كان لدولة الإسلام أن تقوم لها قائمة بعد أن أجمعت قـــوى الشـــرك أمرها للقضاء على هذا الدين في مهده، ولكن الله – تعالى – أبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون فحفظ نبيه – ﷺ –وأصحابه رضـــوان الله علـــيهم، وتمـــت الهجـــرة وانتصر الإسلام.. وقد تجلت فيها دروس عظيمة وعبر جمة؛ مازال المسلمون ينهلون من فيضها حتى يومنا هذا.

ومن هذه الدروس:

التوكل على الله – تعالى –:

خرج النبي – ﷺ – وحيداً من داره مخترقاً هذا الجمع الذي يترصـــده حتـــى ينـــام فيقضي عليه.. سار بينهم متوكلاً على الله – تعالى – وواثقاً في نصره – عز وجل – فأغشى الله أبصارهم.. يقول الله – تبارك و تعالى –: وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون (٩) {يس: ٩} خـــرج النبـــي – ﷺ –، وراح المشركون يتخبطون في البحث عنه، وقد رصدوا الجوائز لمن يقتله أو يدلهم عليـــه.. وانطلق الرسول الكريم – ﷺ –بصحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى غـــار ثور حيث اختبآ فيه، وعندما وصل المشركون إليه ارتعدت فرائص أبي بكـــر خوفـــاً على النبي – ﷺ –، وإذا بالنبي الواثق في نصر ربه والمطمئن إلى تأييـــد الخـــالق المدبر – عز وجل – يطمئن أبا بكر قائلاً له: "يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا" وفـــي رواية: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما"(١)، ولقد كان لهذا التوكل العظيم علـــى الله – تعالى –، والثقة في نصره أعظم الأثر، فقد نصره الله وأيده وكفاه.. يقـــول – تبارك و تعالى –: إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثـــاني اثنـــين إذ

هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى" وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ٤٠ {التوبة: ٤٠} فالنصر على العدو هو أحد ثمار التوكل على الله، كما أن من ثماره التمكين في الأرض، والسعادة في الدنيا والجنة في الآخرة.. يقول الله – تعالى –: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه٣ "{الطلاق: ٣} والتوكل لا التواكل صفة من صفات عباد الله المؤمنين.. قال – تعالى –: "وعلى الله فليتوكل المؤمنون ١٢٢ "{آل عمران: ١٢٢}.

التضحية في سبيل الله – تعالى –:

والتضحية في سبيل الله – تعالى – لإعلاء كلمته، وحماية الدين من الدروس التربوية التي تجلت في الهجرة النبوية، فقد ضرب علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أروع الأمثلة في التضحية والفداء عندما نام في فراش النبي – ﷺ –وتدثر ببردته الخضراء ليتلقى الطعنات والضربات بدلاً عن رسول الله – ﷺ –، وإنه لموقف عظيم.. شاب في ريعان الفتوة والشباب ينام على فراشٍ، ويوقن أنه سيقتل لا محالة، فسيوف الشرك قد تهيأت للقضاء على نبي الإسلام وسيد الخلق محمد – ﷺ –، وقد أخذ الحقد من هؤلاء – ضد الإسلام وأهله – مأخذاً عظيماً.. ولكن إذا كانت التضحية من أجل إعلاء كلمة الله لتكون هي العليا وتكون كلمة الذين كفروا السفلى هانت النفس رخيصة في سبيل الله.

قام علي بواجبه على أكمل وجه وكفاه الله كما حمى نبيه – ﷺ –، وقد جهل هؤلاء المشركون أن الله – عز وجل – قادر على ذلك.. يقول – تعالى –: " والله يعصمك من الناس ٦٧ "{المائدة: ٦٧}.. ويكمل علي دوره العظيم فقد انتظر بمكة ثلاثة أيام حتى أدى عن رسول الله – ﷺ –الودائع التي كانت عنده للناس، ثم سافر إلى "قباء"(٢) مشياً على قدميه، وقد وصل وقدماه تدميان، وقد تألم الرسول – ﷺ –لرؤية ما أصابه فغسل لعلي رجليه، وفي هذا نزل قول الله – تعالى –: "وإذ يمكر بك الذين

كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ٣٠ "{الأنفال: ٣٠}.

والتضحية في سبيل الله لا تكون بالنفس فقط، وإنما بالمال أيضاً فقد ترك الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أملاكهم وبيوتهم وأرضهم، ولم يأخذوا معهم سوى أمتعتهم الشخصية القليلة، وأما من يملك المال منهم فقد حمله ثم أنفقه على أخوته من المهاجرين في مهجرهم، فهذا أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – يحمل ماله في الهجرة ابتغاء مرضاة الله – تعالى – وطمعاً في جنته يقول الله – تبارك و تعالى –:" الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٢٦٢ "{البقرة: ٢٦٢}.

السرية وأهمية الكتمان:

السرية أمر مهم جداً لقضاء الحوائج، والكتمان ضروري جداً لإتمام المهام الصعبة خاصة ما يتعلق بالأمور الحيوية والعسكرية للدولة، وقد طبق الرسول – ﷺ –مبدأ السرية في الهجرة من مكة إلى المدينة، فضرب أروع الأمثلة فيما يجب أن تكون عليه الأمة من تكتم في الأمور المهمة التي تمس أمن المسلمين وحياتهم.. فعن عائشة رضي الله عنها؛ أنها قالت: "كان لا يخطئ رسول الله – ﷺ –أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله – ﷺ –في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري (٣) قومه.. أتانا رسول الله – ﷺ –بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله – ﷺ –في هذه الساعة إلا لأمر حدث، قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله – ﷺ –، وليس عند أبي بكر أحد إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله – ﷺ –: "أخرج عني من عندك" قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: "إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة"(٤) فكان طلب الرسول الكريم – ﷺ –من أبي بكر أن يخرج من عنده –

وهم أقرب الأقربين – ليخبره بأمر الهجرة على إنفراد تأكيداً على أهمية السرية والكتمان لإنجاح المهمة وتأمين الركب.

كما أنه – ﷺ –قد استأجر "عبد الله بن أريقط"(٥) وهو رجل مشرك ليكون دليلهما على الطريق إمعاناً في التكتم وتضليلاً للعدو.. ثم إنه سلك بهما بعد خروجهما من الغار اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غرباً نحو الساحل، حتى وصل بهما إلى طريق لم يألفه الناس فاتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلكا معه طريقاً لم يكن يسلكه أحد إلا نادراً. (٦) فيجب التنبه إلى هذا الدرس التربوي العظيم، وبثه في نفوس أبناء الأمة، وغرسه في جندها لماله من أهمية قصوى وما فيه من فوائد جمة. وما أحوجنا في هذه الأيام إلى تحقيق هذا المبدأ خاصة بعد انتشار الفضائيات والتقنيات الرقمية ووسائل الاتصال وشبكة الإنترنت، وما يصاحب ذلك من إمكانية تسرب الأخبار بصورة مذهلة.

رسالة المسجد وأهميته في الإسلام:

وصل الركب المبارك إلى قباء فنزل الرسول – ﷺ –بها في يوم الإثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة – وهي السنة الأولى من الهجرة – الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م(٧)، وأقام بها – ﷺ –أربعة أيام، فأسس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة الشريفة وقد تولى بناء مسجده – ﷺ –بنفسه وأصحابه من المهاجرين والأنصار بالمدينة في الموضع الذي بركت فيه راحلته.. فعن ابن إسحاق، أن رسول الله – ﷺ –ركب ناقته، وأرخى لها الزمام، فجعلت لا تمر بدار من دور الأنصار إلا دعاه أهلها إلى النزول عندهم، وقالوا له: هلم يا رسول الله إلى العدد والعدة والمنعة فيقول لهم – ﷺ –: "خلوا زمامها فإنها مأمورة" حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم، فبركت على باب مسجده"(٨).. فكان المسجد أول ما بادر الرسول – ﷺ –إلى بنائه حتى تقام الصلوات وشعائر الإسلام فيه، فهو أول مدرسة في الإسلام، تجمع المسلمين وتؤلف بين قلوبهم، ويتعلمون فيها أمور دينهم ودنياهم.. وتبنى فيها الأجيال، وتصنع الأبطال، وتحل فيها مشكلاتهم.. فرسالة

المسجد شاملة فهي تعليمية وتربوية واجتماعية ودينية. ويجب علينا أن ندرك أنه لا ينبغي اعتبار دور المسجد في التربية والتعليم انتقاصاً من دور المدرسة ومعاهد العلم والجامعات.. يقول الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر الأسبق – يرحمه الله –: "فالفارق بين المدرسة وبين المسجد، وبين الجامعة وبين الجامع، هو فارق في الشكل فقط، وإلا فالمدرسة في الإسلام مسجد، والمسجد في الإسلام مدرسة؛ حيث لم تظهر المدارس في تاريخ التربية الإسلامية إلا في حدود القرن الرابع الهجري، وكانت في بداية نشأتها فرعاً من فروع المسجد، ثم تطورت إلى أن أصبحت هي الأصل، والمسجد جزء منها، وبناء على هذا الارتباط الوثيق بين المسجد، وبين التعليم والعلم في الإسلام – ابتداء من المدرسة الابتدائية، وانتهاء بالجامعة والمدارس العليا – ينبغي عليها عند تكوين الأجيال الإسلامية، وبناء شخصياتهم العلمية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية؛ ينبغي عليها ألا تفارقها روح المسجد في هذا البناء وذلك التكوين، وأن تستحضرها في جميع أعمالها التربوية ونشاطاتها الثقافية"(٩).

خلق الإيثار في الإسلام:

وصل المهاجران – محمد – ﷺ –وأبو بكر الصديق رضي الله عنه – إلى المدينة حيث استقبلهما الأنصار – رضي الله عنهم – أعظم استقبال، وبدأ تنظيم المجتمع الإسلامي الجديد الذي بني على التقوى والحب والإخاء والإيثار، فقد أعطى كل أنصاري من الأنصار نصف بيته لأخيه المهاجر.. واقتسم معه تجارته وشاركه في أمواله، بل وصل إيثار الأنصار أن بعضهم كان يعرض إحدى زوجاته على أخيه من المهاجرين ليطلقها الأنصاري ويتزوجها المهاجر، وفي هذه النصرة وهذا الإيثار العظيم يقول ربنا – عز وجل –: والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على" أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ٩ {الحشر: ٩}.

وقد تكوَّن المجتمع الإسلامي الأول في إطار من المحبة والإخاء والعزة والحرية التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.. فقد خرج الرسول – ﷺ –من مكة مهاجراً إلى المدينة

وليس معه إلا صاحب واحد وقلة قليلة جداً لمعاونته، وقد سبقه عشرات من المسلمين حتى مكن له الله – جل وعلا – في الأرض ونصره، ودخل الناس في دين الله أفواجاً من شتى القبائل والأماكن.. فعاد إلى مكة في العام الثامن الهجري فاتحاً علـــى رأس عشرة آلاف مسلم موحد من خيرة أصحابه، وقد فتحها من دون قتال أو سفك دماء.. خرج منها ليلاً هارباً – فراراً بالدين – ودخلها في وضح النهار – منتصراً بالـــدين عزيزاً – وهذا جزاء الصابرين الصادقين، فبالإيمان الصادق والعلم النافع، والتخطيط السليم يرتفع شأن أمة الإسلام، وبوحدة المسلمين يكون عزهم ومجدهم.. إن واجبنـــا نحو الهجرة هو إحياء سنة الرسول الكريم – ﷺ –، والتمسك بهديه واتبـــاع دربـــه القويم فنكون من الفالحين في الدنيا والفائزين في الآخرة.

الهوامش:

١– أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١).

٢– قباء: قرية بالقرب من المدينة المنورة. ٣– أي: من بين أيديهم.

٤– رواه ابن اسحق، راجع: ابن الأثير–الكامل في التاريخ، ج٢ – ط٣، دار الكتـــب العلمية – بيروت (١٤١٨ه – ١٩٩٨م).

٥– هو رجل مشرك من بني الدئل بن بكر، وكانت أمه من بني سهم بن عمرو.

٦– للاستزادة انظر– صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، ص ١٥٠ ومـــا بعدها – ط١ – دار المنار، القاهرة (١٤١٥ه – ١٩٩٥م).

٧– المرجع السابق، ص ١٥٣.

٨– أبو جعفر الطبري– تاريخ الأمـــم والملـــوك، ج٣ – ص٨، ط١، دار الفكـــر – بيروت (١٤١٨ه – ١٩٩٨م).

٩– الإمام جاد الحق علي جاد الحق– (المسجد إنشاءً ورسالة وتاريخاً) ص١٧ ط١ – كتيب الأزهر، القاهرة (رمضان ١٤١٦ه – ١٩٩٦م).

المصدر: http: //jmuslim.naseej.com

من دروس الهجرة

صفاء الضوي العدوي

أسباب الهجرة:

١- صدع رسول الله - ﷺ - بالدعوة وأنذر قومه فاشتد الأذى والاضطهاد على المستضعفين من المؤمنين في مكة، ففكر النبي - ﷺ - في الهجرة إلى المدينة، وقد جاء التصريح بهذا السبب في قول بلال وأبي بكر وغيرهما، بل كان ذلك هو السبب في الهجرة إلى الحبشة قبل الهجرة إلى المدينة.

٢ - وكان من أسباب الهجرة كذلك رغبة النبي - ﷺ - في الانتقال إلى أرض يجد فيها المأوى لأصحابه والنصرة لدعوته، ولتكون منطلقاً للطموحات الكبيرة لدعوة الإسلام في الأرض.

٢ - تأمين المستضعفين من المؤمنين من الفتن بإيجاد دار يهاجرون إليها فراراً بدينهم.

٣ - كان لابد من وجود قوة تحمي الدعوة في بداية الطريق لتمضي إلى أهدافها، وكان لابد من دولة تؤسس تلك القوة المأمولة، فكان لابد من أرض تقوم عليها الدولة.

٤- أوفد النبي - ﷺ - بين يدي هجرته بعض النبلاء من أصحابه الكرام لتهيئة المهجر لاستقبال النبي - ﷺ -، والقيام بالدعوة لإضافة أنصار جدد يشاركون في تحمل تبعة هذه الخطوة الخطيرة، وكان من رواد هذه الطلائع مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم كما ذكر البخاري، كما كان من أوائلها كذلك أبو سلمة بن عبد الأسد كما جزم ابن إسحاق.

صدق المهاجرين الأولين وحسن بلائهم:

انطلق المؤمنون مهاجرين جماعات ووحدانا، وقد تعرض كثير منهم للأذى والبلاء حال هجرته، وكان ممن تعرضوا للبلاء أم سلمة التي منعها أهلها من الهجرة مع زوجها، ونزع أهل زوجها ابنها منها فتجاذبوه حتى خلعوا ذراعه، فهاجر أبو سلمة

وحده، وبقيت أم سلمة في أحزانـــها على فراق زوجها وولدها حتى استرجعت بعـــد مدة ولدها ولحقت بزوجها وتمت لها هجرتـــها.

كما وقع لصهيب أن أمسكه المشركون حين خرج مهاجراً وخيروه بين مالـــه وبـــين السماح له بالهجرة فاختار الهجرة وشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله كما هو شأن كـــل مهاجر صادق فربح بيعه.

وهاجر عمر سراً أخذاً بأسباب الحيطة والحذر، واستبقى النبي - ﷺ - أبـــا بكـــر الصديق ليصحبه في هجرته حسب الخطة التي رعتها العناية الإلهية، فقد سأل النبـــي - ﷺ - جبريل: من يهاجر معي؟ قال جبريل: أبو بكر الصديق، كما روى الحـــاكم في مستدركه عن علي وصححه، ووافقه الذهبي.

أحس المشركون في مكة بخطر تلك الهجرات المتتابعة لأصحاب النبـــي - ﷺ -، وفطنوا إلى أن النبي - ﷺ - لابد أن يلحق بـــهم، وأنـــهم هناك في دار هجرتـــــهم سيقوى أمرهم، وتقوم لهم دولة، وتحصل لهم شوكة ففكروا على الفور في الـــتخلص من النبي - ﷺ -.

واجتمعوا في دار الندوة للتشاور في تفاصيل الخطة، واستعرضوا الاقتراحات التـــي كان أهمها؛ القتل أو السجن أو الطرد من مكة، وتبدى لهم الشيطان في صورة شـــيخ نجدي فشاركهم المشورة، فسمعوا له، فخذلهم عن فكرة السجن وفكرة الطرد، فاقترح أبو جهل قتله فأيده الشيخ النجدي، فاتفقوا على أن يجمعوا من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً يضربون جميعاً محمداً ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فتعجز بنـــو عبـــد مناف عن حرب قومهم جميعاً فيرضوا بالدية، وانفض المجلس على هذا العزم.

أعلم الله - تعالى - نبيه - ﷺ - بخبر هذا الاجتماع، فأمر علياً بالمبيت في فراشه، لإيهام المشركين بأن النائم هو النبي - ﷺ -، كما أمره أن يتخلف عنه ليرد الودائع والأمانات التي كانت عنده للمشركين، وتسلل هو - ﷺ - إلى بيت أبي بكر في وقت الظهيرة، وهو وقت هدأة الرِّجل، وقلة المارة وذلك لبحث آخـــر الترتيبـــات لرحلـــة الهجرة.

كان أبو بكر قد أعد للرحلة راحلتين، فقبل النبي – ﷺ – إحداهما بثمنها، واتفقا على أن يخرجا ليلاً إلى غار ثور، وأن يمكثا فيه ثلاثة أيام حتى يهدأ الطلب، واستأجرا مرشداً ذا خبرة بالطرق، وهو عبد الله بن أرقد أو أريقط – وكان على دين قومه – وزودتهما أسماء بنت أبي بكر بزاد، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما في الليل في الغار ومعه الأخبار، ويعود إلى مكة قبل الفجر فيصبح بين الناس إذ كان لابد من التعرف على أسرار العدو لمتابعة تنفيذ الخطة على ضوء الخبرة بالواقع لا على المجازفة والمغامرة، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى غنمه في النهار ثم يدنو بها في الليل من الغار ليشربا من ألبانها وليعفي بأقدامها آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر.

واجتمع القوم على باب النبي – ﷺ – ينتظرونه ليخرج لينفذوا خطتهم، لكنهم سقط في أيديهم حين اكتشفوا أن النبي – ﷺ – قد خرج دون أن يروه، وحق فيهم قول الله – تعالى –: ((وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون)).

في الغار:

وبقي النبي – ﷺ – وصاحبه في الغار ثلاثة أيام تجلت خلالها قوة ثقة النبي – ﷺ – في ربه وحسن توكله عليه حين كان يهديء من قلق أبي بكر خوفاً على النبي ويقول له: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما: ويقول ما حكاه القرآن: لا تحزن؛ إن الله معنا ".

وحين هدأ الطلب، وجاءهما الدليل، انطلقوا إلى المدينة عن طريق الساحل.

معجزات النبي – ﷺ – في رحلة الهجرة:

أعلنت قريش عن جائزة كبيرة؛ مائة من الإبل، لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً، وتسابق الناس في البحث أملاً في الحصول على تلك الجائزة، وكان من هؤلاء سراقة بن مالك الذي أدرك الركب الكريم، فلما دنا منهم ساخت قوائم فرسه في الرمال، فعلم أن النبي

– ﷺ – قد منعه الله من أعدائه، فطلب الأمان وعاهد النبي على كتمان خبره، ووفّى بذلك فلم يخبر قريشاً بالأمر، ثم إنه أسلم بعد حنين والطائف.

معجزات وبركات:

وكان من بركة النبي – ﷺ – في تلك الرحلة أن مروا بخيمة أم معبد، ولم تكن شاتها ذات در، فمسح النبي – ﷺ – على ضرعها ودعا الله فدرت كأحسن ما تكون الشاة الحلوب فشربوا حتى ارتوا، ثم انطلقوا في طريقهم.

وحين دنت قافلة الهدى من المدينة خرج أهل المدينة؛ رجالهم ونساؤهم وأطفالهم يتلقونه مرحبين فرحين بقدوم المصطفى – ﷺ –.

ولما بلغ الركب الطيب قباء أقام بها ليال أسس فيها مسجد قباء، ثم دخل المدينة وسار في دروبها حتى بركت ناقته أمام دار أبي أيوب الأنصاري، فأمر ببناء المسجد في الموضع الذي بركت فيه الناقة، واستضاف أبو أيوب الأنصاري رسول الله – ﷺ – في داره شهراً ريثما تم بناء المسجد النبوي وبعض الحجرات بجواره.

الدروس والعبر المستفادة من الهجرة:

١ – الحزم البالغ، والحس الأمني العالي لدى النبي – ﷺ – حيث تحرك في الوقت المناسب، دونما تأخير، وذلك حين علم بعزم قريش على تبييته، واختياره – ﷺ – الوقت المناسب للذهاب إلى بيت أبي بكر، وهو وقت القيلولة، وسؤاله حين دخل إلى البيت: من عندك؟

٢ – الأخذ بما أمكن من الأسباب، كإشغال المتربصين بنائم في الفراش حتى يتسنى للنبي التحرك في أمن – إعداد أبي بكر للراحلتين مسبقاً – الخروج من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته – الاتفاق مع المرشد مع التأكد من كونه مأموناً – تكليف عبد الله بن أبي بكر وأخته أسماء وعبد الله بن فهيرة الراعي بمهامهم – اختيار غار ثور للاختباء فيه ثلاثاً لكونه في غير جهة الانطلاق إلى المدينة، ولكون الطريق إلى مكة مرصوداً بالفرسان المتربصين.

٣ – السرية التي أحاطت الخطة حتى النجاح دليل على أهميتها في كل عمل يكتنفه الصراع مع الكفار أو المنافقين.

٤ – بيان فضل أبي بكر باختيار النبي – ﷺ – له دون غيره، فكان هذا الاختيار من أعظم التوفيق للنبي الكريم، كما كان فيه الإشارة إلى تأييد الله – عز وجل – لنبيه وحسن رعايته – سبحانه – لتلك الخطوات المباركة في رحلة الهجرة، وهي منقبة عظيمة لأبي بكر سجلها القرآن الكريم منوهاً بما كان عليه رضي الله عنه من الحب للنبي والخوف عليه وتفديته بنفسه، ولقد علمت أمة الإسلام أنه أفضل الأمة بعد نبيها – ﷺ –.

٥ – فدائية علي – رضي الله عنه – بمبيته في فراش النبي – ﷺ –، وهو يعلم بالأمر تدل على أن التربية الإيمانية هي وحدها الجديرة بتقديم مثل هذه النماذج الرفيعة في الجندية والشهامة والرجولة.

٦ – في تكليف النبي – ﷺ – علياً برد الأمانات التي عنده للمشركين دليل على أن القيم الأخلاقية لا تهتز في منظور الإسلام تحت أي ظرف من الظروف مهما كانت شدته وقسوته.

٧ – في ائتمان المشركين للنبي – ﷺ – على أماناتهم رغم جحودهم لدعوته ما يؤكد أن الداعية والمصلح بإمكانه أن يؤسس أرضية طيبة من الثقة والاحترام لدى المدعو تهيئه فيما بعد لتقبل الدعوة، وهو ما كان من قريش حيث دخلوا جميعاً في الإسلام.

٨ – في استئجار ابن أريقط المشرك للدلالة على الطريق جواز الاستفادة من خبرات المشركين إذا أمن غدرهم، مع النظر الدقيق في قاعدة المصالح والمفاسد.

٩ – كان بيت أبي بكر نموذجاً فذاً لبيوت الدعوة، فأبو بكر يعرف مهامه فيقوم بها على أكمل وجه، فيقدم رغبته الشديدة على الصحبة، ويبذل ماله (بشراء الراحلتين)، ويجند ابنه وابنته وراعيه لإنجاح أدوار الرحلة ثم يبذل نفسه بالقيام بتلك الصحبة.

١٠ – إذا تمكن الإيمان من النفس وخالطت بشاشته القلوب أرخص المؤمن كل شيء في سبيل عقيدته، فهذا أبو بكر لم يقل: أجنب أبنائي الأخطار، لاسيما البنات، بل تجلى صدق إيمانه في كل خطوة من خطوات الرحلة، فكانت نصرة الدين أعلى وأغلى عنده من النفس والولد والمال، وبمثل هذا الصدق تنجح الدعوات وتنتصر.

١١ – ومن دروس الهجرة أن نصرة الدين يجب أن تكون أعلى من كل اعتبار، فالوطن العزيز على النفس جبلةً، يتركه المؤمن حين يعتقد أن في تركه نصرة لعقيدته ورفعاً لرايته، فقد ترك النبي – ﷺ – مكة وهي أحب البقاع إليه لما خشي على أصحابه الفتنة، ولما أراد أن يؤسس للإسلام دولة.

١٢ – ثبوت كثير من معجزات النبي – ﷺ – في هذه الرحلة، فمنها ما غشّى أبصار المشركين حين خروجه من داره من بين أيديهم، ومنها ما كان من شاة أم معبد من در اللبن لما مسح عليها ودعا، وما كان من شأن سراقة وفرسه عند الطلب.

١٣ – توقير أبي أيوب للرسول – ﷺ – ورعاية حقه حيث شق عليه أن يسكن في الدور العلوي من البيت والنبي – ﷺ – في الدور الأرضي، ففيه منقبة لأبي أيوب ودليل على وفور عقله وصدق إيمانه.

١٤ – جواز التبرك بآثار النبي – ﷺ –، فقد تبرك أبو أيوب وزوجه بآثاره – ﷺ –، وهكذا كان سائر الصحابة يتبركون بوضوئه وشعره ومماسة جسده الشريف في حياته كما كانوا يتبركون بآثاره بعد مماته فقد ثبت أن أسماء بنت أبي بكر كان عندها طيلسانة للنبي – ﷺ – كانت تخرجها للمريض يلبسها تبركاً واستشفاءً، على أن هذا مخصوص بالنبي – ﷺ – لا يتعداه إلى غيره لما جعل الله – تعالى – من البركة في جسده ما لم يجعله في غيره.

١٥ – وجوب الهجرة للقادر عليها ممن يخشى على دينه في أرضه، وقد نعى الله – تعالى – على من فرطوا في الدين وتعللوا بالاستضعاف قال – تعالى –: ((إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً))، أما قوله

- ﷺ -: "لا هجرة بعد الفتح" فمعناه أنه لا هجرة واجبة من مكة إلى المدينة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وذلك أن الأسباب التي كانت موجبة للهجرة وهي الفتنة قد انتفت.

١٦ - المسجد هو الركيزة الأولى لبناء الدولة المسلمة، فالصلاة خير موضوع، فكان المسجد أول مشروع أسسه النبي - ﷺ - بعد وصوله إلى المدينة.

١٧ - وفي الهجرة مشروعية فرار المسلم بدينه والاختباء من الطغاة والظالمين، وأن ذلك لا ينافي الإيمان، وقد هاجر النبي - ﷺ - وصاحبه سراً واختبآ في الغار، وهاجر عمر سراً، وقد فرّ موسى - عليه السلام - وهو من أولي العزم - من فرعون وقومه، وفر أهل الكهف من ملكهم الكافر، واختبأ الإمام أحمد لما طلب في أول الأمر أيام المحنة.

١٨ - ومن دروس الهجرة أن الأحسن - في الحروب غير النظامية (حرب العصابات) - وقت يقظة العدو الكمون.

١٩ - أن الأدب مقدم على الامتثال، فقد بقي النبي - ﷺ - في الدور الأرضي من بيت أبي أيوب، فثبت بإقراره - ﷺ - أن يسكن أحد فوقه مشروعية ذلك، ولو كان ذلك لا يجوز لبين لأبي أيوب إذ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة كما هو مقرر في علم الأصول، فكان هذا يكفي أبا أيوب إلا أن عظيم توقيره للنبي - ﷺ - وصدق إيمانه ورهافة حسه أبت عليه إلا أن ينزل هو وزوجه لينتقل النبي - ﷺ - إلى الدور الأعلى، فقدم الأدب على الامتثال للحكم الثابت بإقراره - ﷺ -.

٢٠ - مشروعية المعاريض عند الحاجة إليها، ففيها مندوحة عن الكذب وسائر ألوان التمويه والتعمية بقدر الحاجة فحسب، إذ الضرورة بقدرها كما تقرر في الأصول، فقد قال أبو بكر لمن سأله عن الرجل الذي معه: هذا يهديني الطريق، يقصد الهداية إلى الحق، ويفهم السائل أنه خبير بالطرق والدروب في السفر، وكان ذلك كافياً في مثل تلك الحال.

مناقشة مقولة ضرورة الهجرة لاستعادة دولة الخلافة:

الهجرة واجبة للقادر عليها من دار الحرب إلى دار الإسلام، ومن دار تعلو فيها أحكام الكفر إلى دار تعلو فيها أحكام الشرع، ومن دار تظهر فيها البدعة إلى دار تظهر فيها السنة، ومن دار تغلب عليها الرذائل والفواحش إلى دار يقل فيها هذا الشر وكل ذلك تغليباً للمصالح على المفاسد واجتناباً للفتن.

أما إذا كانت المجتمعات التي يعيش فيها المسلمون قد اختلط فيها الإسلام بالكفر، والسنة بالبدعة والخير بالشر كما هو حال غالب المجتمعات اليوم فإلى أين نهاجر، وهل المسلم الذي يلقى عنتاً في دينة وفتنة وأذى وظلماً في مجتمع ما من مجتمعات المسلمين يمكنه أن يأوي إلى دارٍ الخيرُ فيها أكثر والشر فيها منحسر؟ وهل هناك دار تفتح أبوابها للمستضعفين من المؤمنين فتؤويهم وتكرمهم؟!.

إن بعض معاني الهجرة هي الممكنة اليوم، وهي هجرة المعصية وأهلها وأجوائها بقدر الإمكان، وهجرة الشرك وسدنته وبيئته قدر الوسع، مع الاجتهاد في الدعوة إلى الله، والمشاركة الصادقة في مشروع الإصلاح لإيجاد التجمع الصالح الذي يكون نواة لقيام المجتمع المسلم الذي يعلو فيه شرع الله فيكون مهجراً للمستضعفين في الأرض من المسلمين، وفيه يكون الإعداد للجهاد في سبيل الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

المصدر: http: //www.alsunnah.org

من دروس الهجرة

الأستاذ الدكتور/ أحمد الشرباصي

أحمد الله – تبارك و تعالى –، هو الدائم الذي لا يتبدل، والباقي الذي لا يزول: "هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (الحديد: ٣).. نشهد أن لا إله إلا أنت: "تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (آل عمران: ٢٧)، ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدك ورسولك؛ عبَدَكَ في ليله، وجاهد لكَ في نهاره، فكان عبدًا شكورًا، فعليه صلواتك وسلامك، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الذاكرين المعتبرين، وأتباعه المستمسكين بحبل الله القوي المتين: "فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ" (الأنبياء: ٩٤).

يا أتباع محمد– ﷺ –:

في هذه الآونة الحاضرة من تاريخ الدنيا ومَرِّ الزمن، يقف أبناء الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وقفة الاعتبار والذكرى؛ لأنهم يودِّعون من حياتهم عامًا مضى بما له وما عليه، ولا يدرون ما الله قاضٍ فيه، وهم يستقبلون ببزوغ هلال السنة الهجرية بعد قليلٍ عامًا جديدًا لا يدرون ما الله فاعلٌ فيه: "وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (لقمان: من الآية ٣٤).

وهم في هذه الوقفة يتذكرون أعظم حادث في تاريخهم، كان نقطة التحول في تاريخ البشرية، وكان بداية الانتقال من الضعف إلى القوة، ومن الحيرة والبلبلة إلى الاستقرار والاستعلاء، ألا وهو حادث هجرة النبي محمد– عليه صلوات الله وسلامه عليه– من مكة إلى المدينة، بعد أن فعل الكافرون به وبقومه الأفاعيل، وبعد أن تربصوا بدين الله الدوائر، ووقفوا لدعوة النور في كل مرصد، يقطعون عليها الطريق، ويعذبون أهلها العذاب الشديد، لا لشيء إلا لأنهم قالوا: ربنا الله، وفوق أن هذه الهجرة كانت رحمةً من الله لعباده ونجدةً، نراها قد انطوت على دروس كثيرة

عميقةِ الدلالةِ دقيقةِ المغزى، بعيدةِ الأثر في نفوس الكرام، ومن واجب المسلمين أن يحسنوا الانتفاع بهذه الدروس عن طريق تذكرها والتأثر بها: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" (ق: ٣٧).

من الدروس التي نفقهها في حادث الهجرة أن صاحب المبدأ القويم الكريم لا يساوَم فيه ولا يحيد عنه، بل هو يجاهد من أجله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهو يستهين بالشدائد والمصاعب، تعترض طريقه عن يمين وشمال، ولكنه في الوقت نفسه لا يصبر على الذي يناله، ولا يرضى بالهوان يلحق دعوته، فإذا أحس بشيء من ذلك نأى بدعوته عن مواطن إذلالها، واغترب بها ليحفظ كرامتها ويصونَ حياتها، ولو أدى ذلك إلى ترك البلد والوطن، والأهل والسكن، وهاهو ذا محمد- صلوات الله عليه- يترك مع صحبه ديارَهم وعقارَهم، ومساكنَهم وأموالَهم، ويخرجون مغتربين في سبيل الله، مجاهدين لوجه الله، فأعزَّ الله شأنَهم، وكتب النصر لهم، وزكَّى رسولُ الله شأنَ هذه الغربةِ حين قال: "بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء".

وإذا كان إمام الأنبياء محمد- عليه الصلاة والسلام – قد ترك دارَه ووطنه في سبيل دينه ودعوته، فليس معنى هذا أنه تنكَّر لهذا الوطن، أو نسي حقَّه، أو استهان بمكانته- معاذ الله- فإن الرجل الأصيل وإن اغترب يظلُّ حافظًا عهدَ بلاده، ذاكرًا حقوق وطنه، فهذا رسول الله يخرج من مكة مهاجرًا مرغَمًا، وما يكاد يبلغ ظاهر مكة حتى يلتفت إليها في حنين عارمٍ، وشوقٍ قاهرٍ، وحبٍ عميقٍ، ويناجيها قائلاً: "والله إنك لأحب أرض الله إليَّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك قهرًا ما خرجت"، وكان كلما ألحَّ به الشوق وبصحبه إلى مكة يدعو ربه قائلاً: "اللهم حبِّب إلينا المدينة، كما حبَّبت إلينا مكة"؛ وذلك لتخفَّ حدة الشوق.. وترجم القرآن الكريم عن شوق محمد إلى مكة وتعلقِه بها، وعن تلطفِ الله برسوله في هذا المجال، فقال – سبحانه –: "إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ" (القصص: ٨٥).

ولقد أمر الله نبيه قبل الهجرة بأن يتجه في صلاته إلى بيت المقدس، فأطاع الرسول أمرَ ربه، وإن كان يحب في نفسه التوجه إلى الكعبة في مكة، وجعل "محمد" يقلِّب وجهه إلى الكعبة، ولما نزل القرآن بالتحول إلى الكعبة استدار "محمد" وهو في صلاته، فكان في نصفها الأول متجهًا إلى بيت المقدس، واتجه في نصفها الآخر إلى الكعبة، وليس وراء ذلك تقدير للوطن وحب له من الغريب الأكرم محمد- ﷺ -.

ومن دروس الكفاح التي نأخذها عن الهجرة: أن الشباب إذا نبتوا في بيئة الصلاح والتقوى والتهذيب، نشئوا على العمل الصالح، والسعيِ الحميدِ، والتصرفِ المجيدِ، وهؤلاءِ هم شباب الإسلام، قد رضعوا رحيق التربية الدينية الكريمة، فكان لهم في مواطن البطولة والمجد أخبار وذكريات، وهذه طائفة منهم تشارك في حادث الهجرة أفضل مشاركة.. هذه "عائشة" الصبيَّة تعد الطعام للمهاجرين العظيمين، وهذه "أسماء" الفتيَّة تحمل الزاد لهما وتربطه بنطاقها، وهذا "عبد الله بن أبي بكر" الفتى يتجسس لهما، ويحمل إليهما الأخبار وهما مختفيان في الغار.. وهذا "علي بن أبي طالب" الشاب يتعرَّض للتضحية الكبرى، ويقدم "علي" الفدائية المُثلى فينام في فراش الرسول ليلة الهجرة، وهو يعلم أن سيوف المشركين تستعد للانقضاض على النائم فوق هذا الفراش، ويظل "علي" في مكة بعد ذلك يؤدي الأمانات إلى أهلها، ثم يهاجر "علي" الشاب منفردًا في ثقة وإيمان.

ومن الدروس التي نأخذها عن الهجرة: أن الله ينصر من ينصره، ويعين من يلجأ إليه ويعتصم به، ويكون للعبد المخلص الموقن حين تنقطع به الأسباب، وحين يخذله الناس، فهذه هي الهجرة يراها الأغرار الجهلاء فرارًا وانكسارًا، ولكنها في الواقع كانت عزًا من الله وانتصارًا، وهذا محمد وصاحبه تجتمع عليهما قوى البغي والطغيان، فتقبل عليهما عناية الرحمن: "إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (التوبة: ٤٠).

بم نصر الله رسوله يوم الهجرة؟

نصره الله بأضعف جنده، وما يعلم جنود ربك إلا هو.. نصره بنسج العنكبوت: "إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (العنكبوت: من الآية ٤١)، ونصره ببيض الحمام، وما أرقَّ بيض الحمام: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَّخْشَى" (النازعات: ٢٦).

يا أتباع محمد- ﷺ -: "إن المسلمين- وهم بين العام الراحل والعام المقبل- لابد لهم من نظرة يلقونها على سجلاَّتهم وصفحات حياتهم لينظروا ماذا كسبوا؟ وماذا خسروا؟ فيحمدوا الله- جل جلاله- على ما ربحوه، ويستغفروه مما اقترفوه أو صنعوه، فلنقف بين العامَين وقفة المهاجر بنفسه، وإن لم يهاجر بحسه.. فلنهاجر إلى الله بقلوبنا وعقولنا وأعمالنا، ولنلجأ إليه حتى يكون لنا ومعنا.. "إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (آل عمران: ١٦٠)، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون.

٢٠٠٤/٠٢/١٨

المصدر: http://www.ikhwanonline.com

أحداث الهجرة .. ومضات قلم

صفاء الضوي العدوي

أسباب الهجرة:

١- صدع رسول الله- ﷺ - بالدعوة وأنذر قومه؛ فاشتد الأذى والاضطهاد على المستضعفين من المؤمنين في مكة، ففكر النبي - ﷺ - في الهجرة إلى المدينة، وقد جاء التصريح بهذا السبب في قول بلال وأبي بكر و غيرهما، بل كان ذلك هو السبب في الهجرة إلى الحبشة قبل الهجرة إلى المدينة.

٢- وكان من أسباب الهجرة كذلك رغبة النبي - ﷺ - في الانتقال إلى أرض يجد فيها المأوى لأصحابه والنصرة لدعوته، ولتكون منطلقاً للطموحات الكبيرة لدعوة الإسلام في الأرض.

٣- تأمين المستضعفين من المؤمنين من الفتن بإيجاد دار يهاجرون إليها فراراً بدينهم.

٤- كان لا بد من وجود قوة تحمي الدعوة في بداية الطريق لتمضي إلى أهدافها، وكان لا بد من دولة تؤسس تلك القوة المأمولة، فكان لا بد من أرض تقوم عليها الدولة.

أوفد النبي - ﷺ - بين يدي هجرته بعض النبلاء من أصحابه الكرام لتهيئة المهجر لاستقبال النبي - ﷺ -، والقيام بالدعوة لإضافة أنصار جدد يشاركون في تحمّل تبعة هذه الخطوة الخطيرة، وكان من رواد هذه الطلائع مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم كما ذكر البخاري، كما كان من أوائلها كذلك أبو سلمة بن عبد الأسد كما جزم ابن إسحاق.

صدق المهاجرين الأولين وحسن بلائهم:

انطلق المؤمنون مهاجرين جماعات ووحدانا، وقد تعرض كثير منهم للأذى والبلاء حال هجرته، وكان ممن تعرضوا للبلاء أم سلمة التي منعها أهلها من الهجرة مع

زوجها، ونزع أهل زوجها ابنها منها فتجاذبوه حتى خلعوا ذراعه، فهاجر أبو سلمة وحده، وبقيت أم سلمة في أحزانها على فراق زوجها وولدها حتى استرجعت بعد مدة ولدها، ولحقت بزوجها وتمت لها هجرتها.

كما وقع لصهيب أن أمسكه المشركون حين خرج مهاجراً وخيروه بين ماله وبين السماح له بالهجرة، فاختار الهجرة وشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله كما هو شأن كل مهاجر صادق فربح بيعه.

وهاجر عمر سراً أخذاً بأسباب الحيطة والحذر، واستبقى النبي - ﷺ - أبا بكر الصديق ليصحبه في هجرته حسب الخطة التي رعاها الله، فقد سأل النبي - ﷺ - جبريل: من يهاجر معي؟ قال جبريل أبو بكر الصديق، كما روى الحاكم في مستدركه عن علي وصححه، ووافقه الذهبي.

أحس المشركون في مكة بخطر تلك الهجرات المتتابعة لأصحاب النبي - ﷺ -، وفطنوا إلى أن النبي - ﷺ - لابد أن يلحق بهم، وأنهم هناك في دار هجرتهم سيقوى أمرهم، وتقوم لهم دولة، وتحصل لهم شوكة، ففكروا على الفور في التخلص من النبي - ﷺ -.

واجتمعوا في دار الندوة للتشاور في تفاصيل الخطة، واستعرضوا الاقتراحات التي كان أهمها؛ القتل أو السجن أو الطرد من مكة، وتبدى لهم الشيطان في صورة شيخ نجدي فشاركهم المشورة، فسمعوا له، فخذلهم عن فكرة السجن وفكرة الطرد، فاقترح أبو جهل قتله فأيده الشيخ النجدي، فاتفقوا على أن يجمعوا من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً فيضربوا جميعاً محمداً ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فتعجز بنو عبد مناف عن حرب قومهم جميعاً فيرضوا بالدية، وانفض المجلس على هذا العزم.

أعلم الله - تعالى - نبيه - ﷺ - بخبر هذا الاجتماع، فأمر علياً بالمبيت في فراشه، لإيهام المشركين بأن النائم هو النبي - ﷺ - كما أمره أن يتخلف عنه ليرد الودائع والأمانات التي كانت عنده للمشركين، وتسلل - ﷺ - إلى بيت أبي بكر في وقت

الظهيرة، وهو وقت هدأة الرِّجل، وقلة المارة، وذلك لبحث آخر الترتيبات لرحلة الهجرة.

كان أبو بكر قد أعد للرحلة راحلتين، فقبل النبي – ﷺ – إحداهما بثمنها، واتفقا على أن يخرجا ليلاً إلى غار ثور، وأن يمكثا فيه ثلاثة أيام حتى يهدأ الطلب، واستأجرا مرشداً ذا خبرة بالطرق، وهو عبد الله بن أرقد أو أريقط وكان على دين قومه وزودتهما أسماء بنت أبي بكر بزاد، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما في الليل في الغار ومعه الأخبار، ويعود إلى مكة قبل الفجر فيصبح بين الناس إذ كان لا بد من التعرف على أسرار العدو لمتابعة تنفيذ الخطة على ضوء الخبرة بالواقع لا على المجازفة والمغامرة، وكان عامر بن فهيرة مولى

أبي بكر يرعى غنمه في النهار ثم يدنو بها في الليل من الغار ليشربا من ألبانها وليعفي بأقدامها آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر.

واجتمع القوم على باب النبي – ﷺ – ينتظرونه ليخرج لينفذوا خطتهم، لكنهم سقط في أيديهم حين اكتشفوا أن النبي – ﷺ – قد خرج دون أن يروه، وحق فيهم قول الله – تعالى –: (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون).

في الغار:

وبقي النبي – ﷺ – وصاحبه في الغار ثلاثة أيام تجلّت خلالها قوة ثقة النبي – ﷺ – في ربه وحسن توكّله عليه حين كان يهدئ من قلق أبي بكر خوفاً على النبي، ويقول له: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما: ويقول ما حكاه القرآن: لا تحزن؛ إن الله معنا". وحين هدأ الطلب، وجاءهما الدليل، انطلقوا إلى المدينة عن طريق الساحل.

معجزات النبي – ﷺ – في رحلة الهجرة:

أعلنت قريش عن جائزة كبيرة؛ مائة من الإبل، لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً، وتسابق الناس في البحث أملاً في الحصول على تلك الجائزة، وكان من هؤلاء سراقة بن مالك الذي أدرك الركب الكريم، فلما دنا منهم ساخت قوائم فرسه في الرمال، فعلم أن النبي

– ﷺ – قد منعه الله من أعدائه، فطلب الأمان وعاهد النبي على كتمان خبره، ووفّى بذلك فلم يخبر قريشاً بالأمر، ثم إنه أسلم بعد حنين والطائف.

بركات النبي – ﷺ – في رحلة الهجرة:

وكان من بركة النبي – ﷺ – في تلك الرحلة أن مروا بخيمة أم معبد، ولم تكن شاتها ذات درّ، فمسح النبي – ﷺ – على ضرعها، ودعا الله فدرت كأحسن ما تكون الشاة الحلوب فشربوا حتى ارتووا، ثم انطلقوا في طريقهم.

وحين دنت قافلة الهدى من المدينة خرج أهل المدينة؛ رجالهم ونساؤهم وأطفالهم يتلقونه مرحبين فرحين بقدوم المصطفى – ﷺ –.

ولما بلغ الركب الطيب قباء أقام بها ليال أسس فيها مسجد قباء، ثم دخل المدينة وسار في دروبها حتى بركت ناقته أمام دار أبي أيوب الأنصاري، فأمر ببناء المسجد في الموضع الذي بركت فيه الناقة، واستضاف أبو أيوب الأنصاري رسولَ الله – ﷺ – في داره شهراً ريثما تم بناء المسجد النبوي وبعض الحجرات بجواره.

ثانياً: الدروس والعبر المستفادة من الهجرة:

١– الحزم البالغ، والحس الأمني العالي لدى النبي، حيث تحرك في الوقت المناسب، دونما تأخير، وذلك حين علم بعزم قريش على تبييته، واختيار الوقت المناسب للذهاب إلى بيت أبي بكر، وهو وقت القيلولة، وسؤاله حين دخل إلى البيت: من عندك؟

٢ – الأخذ بما أمكن من الأسباب، كإشغال المتربصين بنائم في الفراش حتى يتسنى للنبي التحرك في أمن – إعداد أبي بكر للراحلتين مسبقاً الخروج من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته الاتفاق مع المرشد مع التأكد من كونه مأموناً – تكليف عبد الله بن أبي بكر وأخته أسماء وعبد الله بن فهيرة الراعي بمهامهم اختيار غار ثور للاختباء فيه ثلاثاً لكونه في غير جهة الانطلاق إلى المدينة، ولكون الطريق إلى مكة مرصوداً بالفرسان المتربصين.

٣– السرية التي أحاطت الخطة حتى النجاح دليل على أهميتها في كل عمل يكتنفه الصراع مع الكفار أو المنافقين.

٤- بيان فضل أبي بكر باختيار النبي له دون غيره، فكان هذا الاختيار من أعظم التوفيق للنبي الكريم، كما كان فيه الإشارة إلى تأييد الله - عز وجل - لنبيه وحسن رعايته - سبحانه - لتلك الخطوات المباركة في رحلة الهجرة، وهي منقبة عظيمة لأبي بكر سجلها القرآن الكريم منوهاً بما كان عليه - رضي الله عنه - من الحب للنبي والخوف عليه وتفديته بنفسه، ولقد علمت أمة الإسلام أنه أفضل الأمة بعد نبيها - ﷺ -.

٥- فدائية علي -رضي الله عنه- بمبيته في فراش النبي، وهو يعلم بالأمر تدل على أن التربية الإيمانية هي وحدها الجديرة بتقديم مثل هذه النماذج الرفيعة في الجندية والشهامة والرجولة.

٦- في تكليف النبي - ﷺ - علياً برد الأمانات التي عنده للمشركين دليل على أن القيم الأخلاقية لا تهتز في منظور الإسلام تحت أي ظرف من الظروف مهما كانت شدته وقسوته.

٧ - في ائتمان المشركين للنبي - ﷺ - على أماناتهم رغم جحودهم لدعوته ما يؤكد أن الداعية والمصلح بإمكانه أن يؤسس أرضية طيبة من الثقة والاحترام لدى المدعو تهيئه فيما بعد لتقبل الدعوة، وهو ما كان من قريش حيث دخلوا جميعاً في الإسلام.

٨- في استئجار ابن أريقط المشرك للدلالة على الطريق جواز الاستفادة من خبرات المشركين إذا أمن غدرهم، مع النظر الدقيق في قاعدة المصالح والمفاسد.

٩- كان بيت أبي بكر نموذجاً فذاً لبيوت الدعوة، فأبو بكر يعرف مهامه فيقوم بها على أكمل وجه، فيقدم رغبته الشديدة على الصحبة، ويبذل ماله (بشراء الراحلتين)، ويجنّد ابنه وابنته وراعيه لإنجاح أدوار الرحلة ثم يبذل نفسه بالقيام بتلك الصحبة.

١٠- إذا تمكن الإيمان من النفس وخالطت بشاشته القلوب أرخص المؤمن كل شيء في سبيل عقيدته، فهذا أبو بكر لم يقل: أجنب أبنائي الأخطار، لا سيما البنات، بل تجلى صدق إيمانه في كل خطوة من خطوات الرحلة، فكانت نصرة الدين أعلى وأغلى عنده من النفس والولد والمال، وبمثل هذا الصدق تنجح الدعوات وتنتصر.

١١- ومن دروس الهجرة أن نصرة الدين يجب أن تكون أعلى من كل اعتبار، فالوطن العزيز على النفس جِبِلّة، يتركه المؤمن حين يعتقد أن في تركه نصرة لعقيدته ورفعاً لرايته، فقد ترك النبي - ﷺ - مكة وهي أحب البقاع إليه لما خشي على أصحابه الفتنة، ولما أراد أن يؤسس للإسلام دولة.

١٢- ثبوت كثير من معجزات النبي في هذه الرحلة، فمنها ما غشّى أبصار المشركين حين خروجه من داره من بين أيديهم، ومنها ما كان من شاة أم معبد من درّ اللبن لمّا مسح عليها ودعا، وما كان من شأن سراقة وفرسه عند الطلب.

١٣- توقير أبي أيوب للرسول - ﷺ - ورعاية حقه حيث شق عليه أن يسكن في الدور العلوي من البيت والنبي - ﷺ - في الدور الأرضي، ففيه منقبة لأبي أيوب ودليل على وفور عقله وصدق إيمانه.

١٤- جواز التبرك بآثار النبي - ﷺ -؛ فقد تبرّك أبو أيوب وزوجه بآثاره - ﷺ -، وهكذا كان سائر الصحابة يتبركون بوضوئه وشعره ومماسة جسده الشريف في حياته كما كانوا يتبرّكون بآثاره بعد مماته فقد ثبت أن أسماء بنت أبي بكر كان عندها طيلسانة للنبي - ﷺ - كانت تخرجها للمريض يلبسها تبركاً واستشفاءً، على أن هذا مخصوص بالنبي - ﷺ -لا يتعداه إلى غيره لما جعل الله - تعالى - من البركة في جسده ما لم يجعله في غيره.

١٥ - وجوب الهجرة على من يخشى على دينه في أرضه ويقدر عليها، وقد نعى الله - تعالى -على من فرّطوا في الدين وتعلّلوا بالاستضعاف قال - تعالى -: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً)، أما قوله - ﷺ - "لا هجرة بعد الفتح" فمعناه أنه لا هجرة واجبة من مكة إلى المدينة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وذلك أن الأسباب التي كانت موجبة للهجرة وهي الفتنة قد انتفت.

١٦- المسجد هو الركيزة الأولى لبناء الدولة المسلمة، فالصلاة خير موضوع، فكان المسجد أول مشروع أسسه النبي - ﷺ - بعد وصوله إلى المدينة.

١٧- وفي الهجرة مشروعية فرار المسلم بدينه والاختباء من الطغاة والظالمين، وأن ذلك لا ينافي الإيمان، وقد هاجر النبي - ﷺ - وصاحبه سراً واختبآ في الغار، وهاجر عمر سراً، وقد فرّ موسى - عليه السلام - وهو من أولي العزم - من فرعون وقومه، وفر أهل الكهف من ملكهم الكافر، واختبأ الإمام أحمد لما طلب في أول الأمر أيام المحنة.

١٨- ومن دروس الهجرة أن الأحسن في الحروب غير النظامية - وقت يقظة العدو الكمون.

١٩- أن الأدب مقدم على الامتثال، فقد بقي النبي - ﷺ - في الدور الأرضي من بيت أبي أيوب، فثبت بإقراره - ﷺ - أن يسكن أحد فوقه مشروعية ذلك، ولو كان ذلك لا يجوز لبين لأبي أيوب؛ إذ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة كما هو مقرّر في علم الأصول، فكان هذا يكفي أبا أيوب إلا أن عظيم توقيره للنبي - ﷺ - وصدق إيمانه ورهافة حسه أبت عليه إلا أن ينزل هو وزوجه لينتقل النبي - ﷺ - إلى الدور الأعلى، فقدم الأدب على الامتثال للحكم بمشروعية تلك الحال.

٢٠- مشروعية المعاريض عند الحاجة إليها؛ ففيها مندوحة عن الكذب وسائر ألوان التمويه والتعمية بقدر الحاجة فحسب، فقد قال أبو بكر لمن سأله عن الرجل الذي معه:هذا يهديني الطريق، يقصد الهداية إلى الحق، ويفهم السائل أنه خبير بالطرق والدروب في السفر، وكان ذلك كافياً في مثل تلك الحال.

١٤٢٦/١/١٧

٢٠٠٥/٠٢/٢٦

المصدر: http://www.islamtoday.net

الفهرس العام

أسباب الهجرة النبوية الشريفة ٧
السبب الأول : شدة الإيذاء والاضطهاد من كفار قريش لرسول الله ﷺ ٧
السبب الثاني : قبول أهل المدينة الإسلام ودخولهم فيه : ١٠
أهمية المخابرات . . في صفوف العدو ١١
أهمية دور المرأة المسلمة ١٣
أهمية مبادئ الإدارة في الدعوة ١٦
إذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة ٢٠
هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ٢٣
قدوم قباء ٢٧
العبر و العظات : ٢٨
أسس المجتمع الجديد ٣٥
الأساس الأول (بناء المسجد) ٣٥
الأساس الثانى (الأخوة بين المسلمين) ٤٠
الأساس الثالث (كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم) ٤٤
إذنه ﷺ لمسلمي مكة بالهجرة ٥٠
اقرؤوا التأريخ ٥٣
الأفضل أن تستبدل الكلمة بـــ(الهجرة) ٦٢
جواز الإفادة من المشركين ٦٤
التأريخ بالهجرة النبوية اجتمع عليه الصحابة الكرام ٦٨
التبشير . . لا التخويف ٦٩
التدابير العلمية في الهجرة النبوية ٧١
التورية عند الضرورة ٧٦
الحكمة من استئجاره عليه الصلاة والسلام دليلاً لطريق الهجرة ٧٨
الداعية المطارد ٨٠
الدروس المستفادة من الهجرة النبوية ٩٣

الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار ١٢٢
راحلة النبي صلى الله عليه وسلم..... ١٢٣
حديث الغار ١٢٣
معية الله مع رسوله وصاحبه ١٢٤
السابقون الأولون من المهاجرين ١٢٦
١- الصاحب والمصحوب: ١٢٦
ما الذي ملأ قلوبهم يقينا وعزما ؟! ١٢٧
٢- كيف أثمرت الصحبة ؟..... ١٢٨
٣- السابقون الأولون :..... ١٢٨
٤- دعاء الرابطة : ١٢٩
٥- الدروس والعبر :..... ١٢٩
السرية طريق النجاح..... ١٣٢
السيرة النبوية معلمة النهج الذي أعز السلف ١٣٦
العبرة من الهجرة النبوية ١٤٠
الفوائد الجنية من الهجرة النبوية..... ١٤٦
مقدمة السلسلة ١٤٦
أولا .. لماذا الهجرة ..؟..... ١٥٠
ثانيا : المدينة النبوية ، التأسيس والتوطين ..! ١٥٢
ثالثا : دعوةٌ مستمرةٌ وصبرٌ عظيم ١٥٤
رابعا : الثبات على المبدأ ١٥٧
خامساً : جِنسيةُ المسلمِ ووطنُه عقيدته ١٥٩
سادسا: المسجدُ والدورُ الحقيقي ١٦١
سابعا : الهجرةُ وتأريخها ..!..... ١٦٢
ثامنا : الهجرةُ ومبدأ الشورى ١٦٣
تاسعا : الهجرةُ والتخطيط ١٦٤
الحادي عشر: الصدق والإخلاص مع الله ١٦٩
الثاني عشر : الداعية لا يمل ولا يكل ١٧٠

الثالث عشر : بالصبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدين ١٧١
القرار للقيادة ١٧٦
القيم والتحولات الاجتماعية في القرآن الكريم..... ١٧٩
الصفة الأولى: عمومية التحول..... ١٨١
الصفة الثانية: استمرار السنة في الزمان وعدم توقفها ١٨٢
الصفة الثالثة: إنسانية سنن التحول والتبدل والتغير ١٨٣
٣ــ التحول في مواقع أفراد المجتمع..... ١٨٤
المعجزات الحسية في الهجرة النبوية ١٨٧
النزول بقباء..... ١٩٣
الهجرة رحلة اليقين وركوب الأسباب ١٩٤
هاجر عليه السلام ولكنه لم يهجر ٢٠٠
دعوة لمهاجري العصر الحاضر ٢٠٢
التواصل مع ماضي المهاجر مطلوب ٢٠٣
الهجرة والتكافل الإيماني ٢٠٥
الهجرة .. عبرة وعبور..! ٢٠٧
عبرة وعبور ٢٠٩
شهادة ودلالة. ٢١٠
الهجرة ... فاتحة عهد جديد..... ٢١٢
الهجرة أظهرت ما فى المجتمع العربي من القيم الإنسانية والأخلاق النبيلة..... ٢١٦
شجاعة على ٢١٧
الإسلام دين المحبة والأخوة الإنسانية ٢١٨
عداء المشركين لم يمنع الرسول ﷺ من ود أماناتهم ٢١٩
أسماء ضربت المثل فى الشجاعة والتضحية وأبو جهل يخجل من نفسه بعد أن لطمها على وجهها..... ٢٢٠
إيمان الرسول بأهمية الكفاءة وعدم التعصب اتخذ دليلا غير مسلم يقوده فى طريق الهجرة ٢٢١
الهجرة الكبرى بين الأخذ بالأسباب والتأييد الإلهي..... ٢٢٣
الأخذ بالأسباب عند الصحابة ٢٢٤

أول تنظيم إسلامي ٢٢٥
الإذن لأصحابه بالهجرة ٢٢٦
ليلة الهجرة النبوية ٢٢٦
خروجه من مكة ليلاً ٢٢٧
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٢٢٧
وضع صحيفة الوفاق ٢٢٨
الهجرة المباركة دروس وعبر ٢٣٠
الهجرة المباركة ٢٣٣
الهجرة النبوية وقفات وتأملات : ٢٣٦
الشباب وتحمل المسؤولية: ٢٣٧
المسجد والدور الحقيقي :..... ٢٣٨
الهجرة النبوية .. دروس وعبر.. ومعجزات حسية ٢٣٩
الهجرة النبوية..... ٢٤٢
الهجرة النبوية إلى المدينة ٢٤٦
الهجرة النبوية الانتصار والسلام والحق ٢٥٠
الهجرة النبوية الشريفة.. الدروس والعبر ٢٥٣
الهجرة.. حدث غيّر مجرى التاريخ..... ٢٥٦
الهجرة إلى الحبشة.. والخروج من الأزمة..... ٢٥٦
مقدمات الهجرة الكبرى ٢٥٧
التجهيز للهجرة..... ٢٥٨
حادث الهجرة.. وأسباب النجاح ٢٥٩
الرسول ﷺ في المدينة..... ٢٦٠
بين الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة ٢٦١
الأمة الإسلامية في حاجة دوماً إلى التأمل في دروس الهجرة..... ٢٦٢
أهمية الهجرة ٢٦٣
من دروس الهجرة ٢٦٦
الهجرة النبوية المباركة مواقف وعبر ٢٦٧

إخوة الإيمان والإسلام ٢٦٩
الهجرة النبوية المباركة – مواقف وعبر ٢٧٠
الهجرة النبوية المباركة – حوادث وعبر – ٢ ..... ٢٧٤
الهجرة النبوية المباركة ٢٧٧
الهجرة النبوية دروس في التخطيط الدقيق والتنظيم المحكم ٢٨٠
التخطيط الدقيق للهجرة ٢٨١
الشعارات الجوفاء: ٢٨٣
الهجرة النبوية دروس وعبر ٢٨٧
معاني الهجرة ٢٨٧
الهجرة دأب الأنبياء ٢٨٨
الهجرة: دروس وعبر ٢٩٠
الهجرة النبوية دروس وعبر ٢٩٢
الهجرة النبوية عطاء بلا حدود وعزيمة لا تعرف اليأس ٢٩٤
الهجرة النبوية في فكر الشيخ الغزالي ٢٩٧
أولا: الهجرة حدث أكبر من أن تعلق عليه سورة واحدة ٢٩٧
ثانيًا: وزن الإيمان في الهجرة ٢٩٨
ثالثًا: إيمان بالمستقبل وثقة بالغيب ٢٩٨
رابعًا: فكرة لا رحلة ٣٠٠
خامسًا: ليست تخلُّصًا من فتنة بل لإقامة مجتمع آمن ٣٠١
سادسًا: الهجرة تطبيق لقانون السببية ٣٠١
الهجرة النبوية لم تكن هروباً من أذى الكفار بمكة ٣٠٥
الهجرة النبوية معناها وأهدافها ٣٠٨
الهجرة النبوية مقدماتها ونتائجها ٣١٥
الطواف على القبائل طلبًا للنصرة ٣١٥
رابعًا: فوائد ودروس وعبر: ٣٢٠
المبحث الثاني –مواكب الخير وطلائع النور ٣٢٢
المبحث الثالث –بيعة العقبة الثانية ٣٣٢

دروس وعبر وفوائد: ٣٣٥
المبحث الرابع –الهجرة إلى المدينة ٣٤١
أولاً: التمهيد والإعداد لها: ٣٤١
٢– الإعداد في يثرب: ٣٤٢
ثانياً: طلائع المهاجرين: ٣٤٣
ثالثاً: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ومن مشاهد العظمة في الهجرة: ٣٤٤
رابعًا: البيوتات الحاضنة وأثرها في النفوس: ٣٥٣
خامساً: لماذا اختيرت المدينة كعاصمة للدولة الإسلامية؟ ٣٥٧
سادسًا: من فضائل المدينة: ٣٥٩
الفصل السادس –هجرة النبي ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه..... ٣٦٢
المبحث الأول –فشل خطة المشركين والترتيب النبوي الرفيع للهجرة ٣٦٣
أولاً: فشل خطة المشركين لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم: ٣٦٣
ثانيًا: الترتيب النبوي للهجرة: ٣٦٤
ثالثًا: خروج الرسول ﷺ ووصوله إلى الغار: ٣٦٦
رابعًا: رِقة النبي ﷺ عند خروجه من مكة: ٣٦٧
خامساً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله صلى الله عليه وسلم: ٣٦٧
سادساً: خيمة أم معبد في طريق الهجرة: ٣٦٩
سابعاً: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٣٧٢
ثامنًا: سبحان مقلب القلوب: ٣٧٤
تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ٣٧٥
عاشراً: فوائد ودروس وعبر: ٣٧٧
المبحث الثاني –الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة والوعد لمن هاجر منهم والوعيد لمن تخلف ٣٩٦
الهجرة مشروع لبناء حضارة إيمانيه جديدة ٤٩٧
الهجرة والأمل في النصر ٥٠٧
الهجرة والمهاجرون ٥١٠
الهجرة والنصرة..... ٥١٦

الهجرة والنفرة معاً على الطريق ٥١٧
الهجرة ومقدماتها ٥١٩
الوضوح في التعاملات ٥٩٣
تأملات في رحلة الهجرة ٥٩٦
تعرض النبي ﷺ للأذى بسبب دعوته ٦٠٢
تلاحق المهاجرين إلى الرسول ﷺ بالمدينة ٦١٠
يا أيها الذين ءامنوا كونوا أنصار الله ٦٢٠
حماية القيادة ٦٢٥
دروس تربوية من الهجرة النبوية ٦٢٨
دروس من الهجرة النبوية ٦٣٦
دروس من الهجرة النبوية الشريفة ٦٣٩
دروس من الهجرة.. ..... ٦٤٢
دروس وعبر تضيء الطريق للأمة ٦٤٧
دروس وعبر مستخلصة من الهجرة النبوية. ٦٥٤
بمناسبة ذكرى الهجرة النبوية ورأس السنة الهجرية ١٤٢٦ ..... ٦٦٢
قيمة الهجرة النبوية: ٦٦٨
ذكرى الهجرة ٦٧٢
رجال الهجرة النبوية ٦٧٤
شرعية الأعمال الفدائية ٦٧٩
طلع البدر علينا عام هجري جديد ٧٠٠
في ذكرى الهجرتين الأولى والثانية ٧١٥
فوائد ودروس وعبر من هجرة سيد البشر ٧١٩
١ ــ الهجرة من سنن الرسل الكرام : ٧١٩
٢ ــ الصراع بين الحق والباطل صراع قديم وممتد : ٧١٩
٣ــ مكر خصوم الدعوة بالداعية أمر مستمر متكرر : ٧١٩
٤ــ الإيمان بالمعجزات الحسية : ٧٢٠
٥ ــ جواز الاستعانة بالكافر المأمون : ٧٢٠

٦ ــ دور المرأة في الهجرة :..... ٧٢١
٧ ــ أد الأمانة إلى من ائتمنك :..... ٧٢٢
٨ ــ اليد العليا في الدعوة خير من اليد السفلى :..... ٧٢٢
٩ ــ عفة الداعية عن أموال الناس :..... ٧٢٣
١٠ ــ جندية منقطعة النظير:..... ٧٢٣
١١ ــ حسن القيادة والرفق في التعامل :..... ٧٢٥
١٢ ــ استمرار الدعوة في أحلك الظروف :..... ٧٢٦
١٣ ــ أهمية العقيدة والدين في إزالة العداوة والضغائن :..... ٧٢٧
١٤ ــ الحفاوة بالدعوة وحاملها :..... ٧٢٨
١٥ ــ بين القدوة في الهجرة والتشريف في المعراج :..... ٧٢٩
١٦ ــ وضوح سنة التدرج :..... ٧٣٠
١٧ ــ التضحية في الهجرة :..... ٧٣١
١٨ ــ حسن المكافأة :..... ٧٣٢
١٩ ــ هكذا يكون الأتباع :..... ٧٣٣
٢٠ ــ الهجرة النبوية نقطة تحول في تاريخ الحياة :..... ٧٣٣
فى ظلال الهجرة النبوية..... ٧٣٦
كيف نهاجر إلى الله ورسوله؟..... ٧٤٨
الهجرة الشريفة..... ٧٥٥
اهجرة النبوية وقفات وتأملات..... ٧٥٧
السيرة النبوية دروس وعبر..... ٧٦٠
ما أروع دروس الهجرة النبوية الشريفة..... ٧٦٩
مصدر عزة المسلم..... ٧٧٨
معاني الهجرة لا تنضب..... ٧٨١
الهجرة النبوية، دروس وعبر..... ٧٨٣
معجزات على طريق الهجرة..... ٧٨٦
مقدمات الهجرة ونتائجها..... ٧٨٩
عرض الدعوة الإسلامية على القبائل..... ٧٩٢

المستجيبون للدعوة من غير أهل مكة ٧٩٤
الأنصار وبيعة العقبة الأولى ٧٩٦
الأنصار وبيعة العقبة الثانية ٨٠٠
الهجرة من مكة إلى المدينة..... ٨٠٣
تأملات في واقع المدينة قبل الهجرة ٨١٠
الهجرة النبوية ومنعطف التاريخ..... ٨١٤
الهجرة من سنن الأنبياء عليهم السلام ٨١٦
أوائل المهاجرين من الصحابة ٨١٧
معجزات على طريق الهجرة..... ٨٢١
الهجرة النبوية إلى المدينة ٨٢٤
وصول رسول الله إلى المدينة ٨٢٨
دروس من الهجرة ٨٣١
دروس تربوية من الهجرة النبوية ٨٣٦
الرسول ﷺ في المدينة ٨٤٤
بناء المسجد النبوي ٨٥٠
من نتائج الهجرة قيام الدولة الإسلامية ٨٥٢
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٨٥٦
صحيفة المدينة..... ٨٥٩
مقدمة الهجرة من مكة إلى المدينة ٨٦٢
من تراث رجالات الدعوة في مناسبة الهجرة ٩١٣
من دروس الهجرة النبوية ٩٣٤
من نفحات الهجرة..... ٩٣٩
نسوة في طريق الهجرة ٩٥٣
المرأة في الهجرة .. صور من جهاد رائدات التضحية..... ٩٨٣
هجرة النبي ﷺ وخروجه إلى الغار ٩٨٧
وقفات مع الهجرة النبوية ١٠٠٥
يا سيد السادات يا رسول الله ١٠٠٨

الهجرةُ النبوية.. خُطواتٌ من روائع الإدارة ١٠١٠
فوائد معنوية من الهجرة النبوية ١٠٢٢
الهجرة وصناعة الأمل ١٠٢٦
الهجرة.. دروس في التخطيط الحديث ١٠٣٣
وحي الهجرة ١٠٤٠
المحرم والاحتفال بالسنة الهجرية ١٠٤٣
ما ينبغي أن يستقبل به المسلمون عامهم الهجري ١٠٤٥
حول مدلولات الهجرة ١٠٤٩
هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ١٠٥٢
ماذا تعلمنا هجرة الرسول؟ ١٠٦٠
تأملات في معاني الهجرة ١٠٦٦
أعظم أنواع الهجرة – هجرة القلوب ١٠٧١
هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ١٠٧٥
الهجرة المباركة شمس ساطعة ومنارة للتاريخ ١٠٨٦
هجرة الرسول ﷺ ١٠٨٩
نفحات من هجرة الرسول ١٠٩٣
الهجرة.. تاريخ في التاريخ ١٠٩٦
وجاء عام جديد...آمال برغم الآلام ١٠٩٨
خصائص العمران في المدن الإسلامية ١١٠٥
وقفة مع نهاية العام الهجري ١٤٢٥هـ ١١٢٢
مفهوم الهجرة من .. إلى ١١٢٨
التاريخ الإسلامي الهجري ١١٣٣
عاشوراء والهجرة النبوية من أيام الله تعالى ١١٣٨
الأعياد والمناسبات المعتبرة في الإسلام ١١٤٥
دروس من الهجرة النبوية ١١٥٣
إصلاح النفس . . أولا ١١٦٠
العلم بمقاصد الهجرة وأهدافها ١١٦٢

روابط الأمة في ظلال الهجرة ١١٧٠
فقه الهجرة النبوية ١١٨٢
الهجرة نصر ١١٨٦
معاني الهجرة وواقع أمتنا ١١٨٩
الهجرة وأزمة الأمة ١١٩٤
أطياف الهجرة ١٢٠٤
من دروس الهجرة ١٢٠٩
من دروس الهجرة ١٢١٥
من دروس الهجرة ١٢٢٣
أحداث الهجرة .. ومضات قلم ١٢٢٧